مي زيادة

كتابات منسية

12.8.2017

تحقيق أنْتِيا زِيغْلِر

نوفل

مي زيادة

كتابات منسية

إعداد وتحقيق
أنتيا زيغلر

نوفل

Title	العنوان
Forgotten Writings	**كتابات مَنسيّة**
Author	المؤلفة
Mayy Ziada	**ميّ زيادة**
Editor	تحقيق
Antje Ziegler	**أنتيا زيغلر**
Cover	الغلاف

Getti Hieronymi

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

© Naufalgroup, 2009

نوفل

٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)

تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١)

E-mail: Naufalgroup@terra.net.lb

إلى

«القلم الذي يجعل حامله مواطن العالم»

ميّ زيادة

شكر وتقدير

ترجع هذه المجموعة في جوهرها إلى أبحاثي التي قمت بها في كلّ من القاهرة وبيروت في خريف عام ١٩٩٦ وربيع عام ١٩٩٧، وذلك في إطار التمهيد لرسالة الدكتوراة عن ميّ زيادة وصالونها الأدبي التي اضطلعت بها في معهد الدراسات الشرقية بجامعة بون، وقد كان للمنحة التي قدّمتها لي "هيئة الدراسات الإنجيلية فيليغست" (Evangelisches Studienwerk Villigst e.V.) بمدينة شفيرته (Schwerte) جميل الأثر في دفع هذا العمل إلى دائرة النور كما كان لوكيلها السابق بمدينة بون الأستاذ الدكتور إريك فيشر (Prof. Dr. Erik Fischer) الفضل في تشجيعي على تحقيق هذه الكتابات المنسيّة لميّ زيادة ونشرها في كتاب مستقلّ عن رسالة الدكتوراة فشكري الجزيل في المقام الأوّل موصول إلى كليهما.

كما أتوّجه بشكري الخاصّ إلى القائمين على قسم الدوريات بدار الكتب المصرية، وقسم المصغّرات الفيلمية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة والجامعة الأمريكية ببيروت، وكذلك المكتبة الشرقية ومكتبة المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ببيروت الذين لم يبخلوا بالمساعدة سواء أكان ذلك أثناء إقامتي في القاهرة وبيروت أم في السنوات التالية بعد عودتي إلى ألمانيا. ولا يفوتني أن أسدي أصدق شكري أيضاً للجهات المختصّة في كلّ من معهد العالم العربي بباريس والمكتبة البريطانية بلندن ومكتبة بافاريا بمدينة ميونخ.

ومن بين الكثير من الأصدقاء والزملاء الذين أسهموا في دفع هذا العمل خطوات إلى الأمام الدكتور محمّد يوسف نجم الأستاذ المتقاعد للأدب العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت الذي تفضّل مشكوراً فأتاح لي الفرصة لأنهل ما شئت من مكتبته القيّمة العامرة ويسّر لي نصوصاً لولاه لكانت صعبة المنال، وكذلك السيدة جميلة يعقوب المدرّسة بمعهد اللغات الشرقية بجامعة بون، والسيد فارس يواكيم والسيد حسن آل بلال من القسم العربي لإذاعة صوت ألمانيا، والسيد حاتم الأحمر المعيد بكلّية علم اللغة التطبيقي بجرمرسهايم (Germersheim) التابعة لجامعة ماينس (Mainz) الذين قرأوا بعض النصوص والهوامش فصحّحوا ما كان منها في حاجة إلى التصحيح.

وخالص شكري وامتناني إلى الدكتور رشيد العناني أستاذ الأدب العربي المعاصر بجامعة إكستر الذي رافقت رعايته أعمالي المتعلّقة بنشر هذا الكتاب في السنة الأخيرة والذي بغيره لما أمكن إصداره.

وأخيراً أخصّ بالشكر مؤسّسة نوفل التي لم تألُ جهداً على امتداد سنوات طويلة في سبيل نشر أعمال ميّ زيادة.

أنتيا زيغلر

بون في أيّار / مايو ٢٠٠٥

مقدّمة

لم يعرف عصر النهضة العربية كاتبة استرعت اهتمام حملة الأقلام مثل ميّ زيادة حتّى يومنا هذا. فمنذ وفاتها سنة ١٩٤١ في القاهرة، أفرد عدد من المؤلّفين وكتّاب السيرة بحوثاً متنوّعة لهذه الرائدة من روّاد الأدب العربي الحديث. وما فتئت طائفة من الكتّاب والصحفيين يبحثون عن دلائل جديدة تمكّنهم من تعقّب غرامها المزعوم ببعض أعلام عصرها. كما نسج صانعو المسرح والسينما والتلفزيون قصصاً مثيرة حول حياة هذه الأديبة صاحبة أشهر صالون أدبي في مصر في الثلث الأوّل من القرن العشرين. إلا أنّها حتّى الآن لم تنل نصيبها اللائق من الدراسة الأدبية الجادّة، ومنذ عهد غير بعيد تمّ العثور على العديد من أعمالها التي بقيت مجهولة لوقت طويل، بالرغم من الاهتمام البالغ بالكاتبة(١).

إنّ الكشف المتأخّر عن جانب كبير من أعمال ميّ زيادة يسلّط الضوء على نوع الاهتمام الذي لقيته على امتداد عدّة عقود. فقد بلغ من قلّة الاكتراث بمساهمتها في الأدب العربي المعاصر، أنّ معظم كتاباتها التي ظهرت في الصحف والمجلاّت، كما كان معهوداً آنذاك، ولم تُجمع لاحقاً بين دفّتي كتاب، لم يُلتفت إليها. وهكذا فإنّ الإهمال لم يشمل فقط الكثير ممّا نشرته في الدوريات خلال فترة صدور كتبها بين سنتي ١٩١١ و١٩٢٦، وهي الفترة التي كانت تُعتبر على وجه الإجمال فورة إبداعها الأدبي، بل أصاب أيضاً سائر أعمالها الصادرة بعد ظهور آخر كتبها عام ١٩٢٦ وحتّى وفاتها عام ١٩٤١، أي في فترة تعادل امتداداً تلك التي سبقتها. ويبدو أنّ اللامبالاة المتواصلة تجاه أعمالها المنشورة في هذه الحقبة الأخيرة ترجع أساساً إلى الأسطورة الشائعة عن كآبة ميّ زيادة المتزايدة ثمّ اختلال مداركها العقلية منذ رحيل والديها (١٩٢٩ و١٩٣٢) ووفاة أديب المهجر جبران خليل جبران (١٩٣١) الذي كانت تربطه بها علاقة تراسل متينة لنحو من عشرين سنة. فمن هنا بدأ الافتراض أنّها لم تكتب في العقد الأخير من عمرها إلاّ النذر اليسير، وأدّى هذا الافتراض إلى حجب إشارات معاكسة ضمّنتها رسائل عدد من معاصريها ومذكّراتهم، رغم بعض الأصوات التي نبّهت إليها(٢). وهكذا برز التناقض العجيب المتمثّل في كثرة الحديث عن هذه الأديبة في حين ظلّت أعمالها إلى حدّ بعيد طيّ المجهول.

«المؤلّفات الكاملة» والمجموعات التي تلتها

كان من أوائل الذين تناولوا في أبحاثهم عن ميّ زيادة بعض أعمالها التي لم تتضمّنها المجموعات الصادرة في حياتها، كلّ من فاروق سعد المحامي والأستاذ في معهد الفنون الجميلة للجامعة اللبنانية، وروز غريّب الكاتبة والناقدة والعضو في معهد الدراسات النسائية في العالم العربي التابع للجامعة اللبنانية الأمريكية ببيروت، وذلك في السبعينات من القرن الماضي(٣). على أنّه كان يتعيّن أن تمضي سنوات أخرى قبل أن يجري المزيد من البحث بين كنوز المكتبات عن أعمال ميّ زيادة المجهولة لدى الأجيال المعاصرة.

كانت الأديبة السورية المقيمة ببيروت سلمى الحفّار الكزبري هي التي دفعت الأمر خطوة هامّة إلى الأمام، وذلك بإصدارها أوّل مجموعة كاملة لأعمال ميّ زيادة عام ١٩٨٢(٤). وقد أدرجت فيها علاوة على المؤلّفات المعروفة مجموعة من الخطب والمحاضرات والقصص القصيرة والمقالات التي نشرتها ميّ بين عامي ١٩٢٢ و١٩٤٠، ولاسيّما في مجلّات «المقتطف» و«الهلال» و«الرسالة». وعلى الرغم من هذه المجموعة الجديدة من النصوص التي أسمتها الكزبري «كلمات وإشارات (٢)» استناداً إلى مشروع كتاب لم يتسنَّ لميّ إنجازه قبل موتها(٥)، فقد بقيت «المؤلّفات الكاملة» بعيدة كل البعد عمّا يوحي به عنوانها. إلا أنّها كان لها فضل التشكيك في الاعتقاد السائد وفتح مجال للحدس بأنّ كتابات أخرى لميّ زيادة قد تكون دخلت في طيّ النسيان، وذلك من خلال إثبات وجود مادّة منشورة لها ترجع إلى سنوات ما بعد ظهور كتابها الأخير، وخصوصاً السنوات التي تزامنت مع فقدها أقرب ذويها وحتّى قبيل موتها. ولم يمضِ زمن طويل حتّى تأكّد هذا الحدس، إذ بدأت بحوث جديدة في الظهور على نحو غير مسبوق.

في عام ١٩٨٧ نشرت سلمى الحفّار الكزبري كتابها المعروف عن حياة ميّ زيادة مضمّنة فيه ستّ مخطوطات غير منشورة ألحقت صورة طبق الأصل لكلّ منها بذيل الكتاب(٦)، فجاءت هذه الإضافة تكملة لمجموعة النصوص التي كانت قد عثرت عليها وضمّنتها في «المؤلّفات الكاملة». ثمّ نشر الكاتب والشاعر اللبناني أنطوان محسن القوّال عام ١٩٩٣ مجموعة أخرى من مساهمات مغفلة لميّ زيادة، كان معظمها قد صدر في أواخر العشرينات والنصف الأوّل من الثلاثينات بمجلّة «المقتطف»(٧). وفي سنة ١٩٩٦ أصدر جوزيف زيدان أستاذ الأدب العربي آنذاك بجامعة ولاية أوهايو في كولومبس مجموعة جديدة احتوت على أكثر من مائة عمل لميّ زيادة ما بين مقال ومحاضرة وخاطرة وقصيدة نُشرت في مختلف الدوريات بين عامي ١٩١١

و١٩٣٩، ولم تتضمّنها «المؤلّفات الكاملة»، كما لم تُجمَع في كتاب، ومن بينها العديد من افتتاحياتها في صحيفة «الأهرام» والتي بقيت مهملة حتّى ذلك الحين[٨]. وفي نفس السنة صدرت دراسة للناقد المصري أحمد حسين الطماوي فيها أيضاً بعض الأعمال المجهولة العائدة في مجملها إلى فترة الإبداع الأولى للأديبة[٩]. أمّا ترجمة حياة ميّ زيادة وسيرتها للكاتبة والصحفية المصرية نوال مصطفى الحائزة على جائزة أفضل عمل ثقافي عام ٢٠٠٠، والتي صدر منها ما لا يقلّ عن ثلاث طبعات في غضون مثلها من الأعوام، ناهيك عن الاعتماد عليها في كتابة سيناريو لمسلسل تلفزيوني قيد الإنتاج، فلم تأت الكاتبة فيها بجديد يخالف المعروف، بل اقتصرت على إعادة طبع أعمال مختارة من مجموعات من سبقوها، بما فيها تعليقاتهم وحواشيهم[١٠].

الكتابات المنسيّة في هذه المجموعة

لقد أظهرت المجموعات الحديثة في جملتها نحو مائتي نصّ لميّ زيادة لم يُعر لها اهتمام في الماضي، وعليه فإنّ العديد من الافتراضات الجوهرية التي أحاطت بصورة الكاتبة على مدى أعوام طوال تصبح باطلة. وتضيف المجموعة التي بين يدي القرّاء إلى المجموعات السابقة أكثر من ١٧٠ نصّاً آخر لميّ زيادة طال نسيانها، حيث يبلغ مجموع نصوصها المكتشفة مجدّداً حجماً يناهز كمّ نتاجها المعروف والمنشور في كتب أثناء حياتها. ولا شكّ أنّ هذه الوفرة في المصادر الجديدة تواجهنا بأسس بحث جدّ مختلفة وتدعونا إلى إعادة تقييم هذه الأديبة وأعمالها على وجه شامل.

والحقّ أنّه حتّى بعد صدور هذه المجموعة لم تكتمل كافّة أعمال ميّ زيادة، ذلك أنّي لم أوفّق في الاطّلاع على أجزاء عدّة بل أحياناً سنوات بأكملها من دوريات كانت تكتب فيها ميّ إبّان أبحاثي بدار الكتب المصرية، بسبب سوء حالتها أو كونها قيد الترميم، كما كان بعضها مفقوداً رغم ذكره في فهرس الدوريات التي تقتنيها الدار. كذلك كان شأن كتب الدار التي عانت ضياع الكثير من النسخ من جرّاء تحويلها عن مقرّها القديم إلى المبنى الجديد على كورنيش النيل. وأودّ أن أشير هنا إلى أقصوصة لميّ زيادة مسجّلة في فهرس كتب الدار تعذّر العثور عليها رغم سؤالي المتكرّر عنها. وحسب المعلومات الموجودة في الفهرس تحمل هذه الأقصوصة عنوان «حرب الدردنيل أو الجندي العثماني والفتاة الإيطالية»، وقد صدرت ببيروت في ٤٧ صفحة، إلاّ أنّ تاريخ نشرها غير معروف. وممّا يلفت النظر أنّه لم يرد ذكرها في شتّى الكتب عن ميّ زيادة ولا في فهارس مكتبات أخرى ممّا اطّلعتُ عليه. وإذا صحّت بيانات دار الكتب فهذه الأقصوصة تستحقّ التنويه لأنّها قد تكون الوحيدة من نوعها التي ألّفتها ميّ زيادة باللغة العربية. وحسب

المعلومات المتوفّرة لدينا حتّى اليوم لم تكتب ميّ في مجال الفنّ القصصي إلاّ قصصاً قصيرة إلى جانب الأقصوصة (أو الرواية؟) التي كتبتها باللغة الإنجليزية *Shadow on the Rock* (ظلّ على الصخرة) والتي لم يتسنَّ العثور عليها إلى الآن(١١). وتدلّ المجموعات الحديثة وهذه المجموعة سوية على أنّ ميّ زيادة عُنيت بالقصّة القصيرة كجنس أدبي خاصّة في السنوات الأخيرة من حياتها عناية أكثر ممّا كان يُظنّ(١٢). فربّما تكون قد تركت قصصاً أخرى لا علم لنا بها إلى اليوم. ولا ننسى أنّ معاصريها عرفوا لمساهمتها هذه في الأدب العربي الحديث قيمة كبرى بحيث كانت المرأة الوحيدة بين سبعة من كبار القصصيين، ومنهم محمود تيمور، التي سألتها مجلّة «كلّ شيء والدنيا» في شهر آيار/مايو من عام ١٩٣٥ كيف تؤلّف قصصها(١٣).

قصص ميّ زيادة للأطفال

أشار أحمد حسين الطماوي إلى إغفال ذكر ميّ زيادة ونتاجها القصصي في دراسات تطوّر القصّة العربية الحديثة خلافاً لغيرها من روّاد الفنّ القصصي، ولعلّه على صواب في عزوه هذا الإهمال إلى أنّ قصص ميّ لم تُجمع بين دفّتي كتاب، بل ظلّت متفرّقة في كثير من المجموعات والمجلاّت والجرائد(١٤). ولكن على ضوء ذلك يزيد الأمر غموضاً أنّ سلسلة كاملة من قصص للأطفال كتبتها ميّ زيادة لم يُنتبه إليها طوال عشرات السنين، مع أنّ كل واحدة منها نُشرت في كتيّب مستقلّ. اثنتان من مجموع الاثنتي عشرة قصّة، وكلتاهما مزيّنة بصور، موجودتان لدى دار الكتب المصرية ويمكن الاطّلاع عليهما في الكتاب الذي بين يدي القارئ. ويبقى السؤال مطروحاً متى كتبت ميّ زيادة هذه القصص على وجه التحديد لأنّ كلتا النسختين المتوفّرتين خالية من بيان تاريخ نشرها وللأسف، لم يسفر سؤالي المتكرّر للمؤسّسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع التي أصدرت هذه السلسلة، والتي ما زالت قائمة في القاهرة حتّى اليوم، عن جواب. وبما أنّ هذه القصص موجّهة إلى الناشئين لأهداف تربوية جليّة يغلب الظنّ أنّها تعود إلى الفترة التي كرّست الكاتبة فيها اهتمامها لمسألة التربية والتعليم، واقفة مواقف حازمة في النقاش الدائر على الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام» حول إدخال التعليم الإجباري. وحسب التسلسل الزمني لافتتاحياتها في «الأهرام» ومعظمها ضمن هذه المجموعة، فإنّ هذه الفترة تمتدّ من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٤. وعموماً يُعدّ الأديب المصري كامل كيلاني (١٨٩٧–١٩٥٩)، مؤلّف مجموعة «قصص للأطفال» الصادرة في مجلّدين عام ١٩٢٨، مؤسّس هذا الجنس في الأدب العربي المعاصر(١٥). وليس من داع لمنازعته هذه المكانة بعد الكشف عن سلسلة «قصص هادفة للناشئين» لميّ زيادة.

إلا أنّه جدير بالنظر أنّ ميّ وكيلاني كليهما من روّاد أدب الأطفال في الوطن العربي، ولا يُستبعد أن يكونا قد أثريا أحدهما الآخر في الإبداع عن طريق تراسلهما. وتعقيباً على قول ميّ في إحدى افتتاحياتها في «الأهرام» «إنّ سرّ التربية والتعليم في أن تثير الرغبة، وتحمل الناشئ على طلب ما يفيده ويثقفه ويحسنه»، أرسل إليها كامل كيلاني في شهر شباط/فبراير من عام ١٩٢٩ نسخة من قصصه للأطفال التي كانت طُبعت لتوّها، وقرن بها أمله في أن تجد لدى قراءتها «ما يحقّق بعض هذه الرغبة النبيلة التي ننشدها جميعاً»[١٦]. أمّا جواب ميّ زيادة على رسالة كيلاني هذه فغير معروف ولا ندري ما إذا كانا تبادلا رسائل أخرى. ولو تمّ العثور على أمثال هذه الرسائل لبيّنت لنا على الأرجح هل كانت ميّ قد شرعت في إعداد سلسلتها القصصية حين وردتها مجموعة كيلاني، مما يبرّر لنا أن نفهم قولها في «الأهرام» على هذا الأساس، أم كان الاتّصال بكيلاني دافعاً لها إلى إنجاز هذا المشروع. ولعلّها كانت تكشف لنا أيضاً إن كان التبادل الفكري لكيلاني مع ميّ باعثاً له بدوره على التركيز مستقبلاً على هذا اللون من ألوان الأدب.

أمّا المبادئ والقيم التي حاولت ميّ زيادة تقريبها إلى الجيل الناشئ بقصّتيها الواردتين في هذه المجموعة فتنمّ عن قناعة إنسانية عميقة، ولم تفقد أهمّيتها بمرور الأيّام. ونجد في مركز اهتمامها أفكار التسامح، ومراعاة الآخرين، والشعور بالمسؤولية، والتضامن، ومبدأ احترام الفرد في احتياجاته وميوله الخاصّة، وهي دعائم أساسية ليس فقط لتصوّر معيّن للإنسان ولمبادئ تربوية مناسبة له، بل لمثال اجتماعي شامل. هكذا تعبّر ميّ بأسلوب حيوي سهل يكون في متناول الأطفال، ودائماً بلغة عربية فصيحة لا بالعامّية، عن معان تتجاوز بأبعادها حبكة القصّة. وهو ما يجعل قراءة هاتين القصّتين أمراً شيّقاً للصغار والكبار على السواء. والذي نرجوه أن يتمّ العثور على بقية قصص ميّ زيادة في السنوات القادمة، أو على الأقلّ على تلك التي لم أوفّق في الحصول عليها رغم ما يثبت وجودها، حتّى يقدّر النتاج القصصي لهذه الأديبة حقّ قدره بعد طول انتظار.

مقدّمة ميّ زيادة لكتاب بقلم الدكتور يعقوب صرّوف

إلى جانب قصّتي ميّ زيادة المذكورتين آنفاً بوصفهما نصّين مستقلّين، تضمّ هذه المجموعة ١٧١ مساهمة لها مستمدّة في أغلبها من دوريات، وفي حالتين منها من كتب. ومن هاتين الأخيرتين نخصّ بالذكر مقدّمتها لكتاب يعقوب صرّوف «فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي النبات والحيوان» الصادر عام ١٩٣١[١٧]. ومن المعروف أنّ مؤلّف هذا البحث الذي نشره بعد وفاته ابن أخيه وخلفه فؤاد صرّوف، كان ناشر مجلّة «المقتطف» الشهرية المرموقة التي كتبت فيها

ميّ زيادة بانتظام منذ ١٩١٤ كما كان يعدّ من أقدم أصدقائها وأعزّهم. نظراً لهذه العلاقة التي تشهد عليها على سبيل المثال وليس الحصر كلمات ميّ في تأبين الدكتور صرّوف المضمّنة في هذه المجموعة، يبدو من الطبيعي أن تقوم ميّ بكتابة مقدّمة لكتاب صديقها الراحل. وكان يعقوب صرّوف نفسه قد أوصاها على النحو التالي في رسالة بتاريخ ٢٦ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩١٨: «فما دمت يا عزيزتي أصحّ منّي حكماً، فعسى أن تهتمّي بجمع ما تستحسنين جمعه من رسائلي ورواياتي وتعيدي طبعها ونشرها، وسأوصي أولادي أن يقبلوا حكمك»[١٨]. وقد لبّت ميّ وصيته هذه عام ١٩٢٢، والدكتور صرّوف ما زال على قيد الحياة، في الطبعة الرابعة لروايته «فتاة مصر» والتي وضعت مقدّمتها أيضاً[١٩]. على أنّه لم يكن مألوفاً في ذلك العصر أن تقدّم امرأة لكتاب رجل بل بالعكس، فالكاتبات هنّ اللاتي كنّ بحاجة إلى تقديم ما يشبه خطاب توصية بقلم رجل حتّى يضمن عدداً محترماً من القرّاء لمؤلّفاتهنّ. لكنّ هذه المقدّمة تستحقّ الذكر كذلك لسبب آخر إذ أنّ ميّ زيادة انتهزت الفرصة للتعليق على نقاش قديم أثير مجدداً بعد وفاة يعقوب صرّوف حول ما إذا كان المذهب المادّي لهذا العلامة والمفكّر يرتبط حتماً بالإلحاد. لقد سبق أن اتّخذت ميّ موقفاً من هذه المناقشة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٢٧ في مقالها «الجزء الأوّل من المقتطف بعد الدكتور صرّوف» والذي ردّت فيه أمثال هذه الشبهات عن صديقها مستشهدة ببعض ما أدلى به في رسائله إليها[٢٠]. تسوق ميّ في مقدّمتها قول المؤلّف نفسه وكأنّها كانت تريد أن تقول كلمتها الأخيرة في هذا النقاش: «يبقى الفصل بين الإنسان والعجماوات بالنفس الخالدة صفةً مميّزة لنوع الإنسان» لتعقّب عليه قائلة: «...«النفس الخالدة»...إنّ الدكتور صرّوف الفيلسوف الوضعي والعالم الطبيعي كان يعتقد بوجودها، وفي هذا أمثولة للذين يرون الإيمان ملازماً للجهّال دون العلماء».

نصوص ميّ زيادة من ثلاث عشرة دورية باللغة العربية ولغات أجنبية

أمّا مقالات ميّ زيادة الصحفية التي تضمّها هذه المجموعة فمأخوذة من ثلاث عشرة دورية، وأغلبها يعود إلى أواخر العشرينات والنصف الأوّل من الثلاثينات. جلّها مساهمات ظهرت في صحف ومجلّات مصرية وهي جرائد «الأهرام» و«المحروسة» و«السياسة» اليومية، وصحيفة «السياسة الأسبوعية»، ومجلّات «سركيس» و«الهلال» و«الرسالة». إلى جانب ذلك، توجد نصوص نُشرت في مجلّتي «الخدر» و«المكشوف» اللبنانيتين، ومجلّة «الحديث» الصادرة بحلب، ثمّ أيضاً مساهمات باللغات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية ظهرت في مجلّة *L'Egyptienne* الصادرة

عن الاتّحاد النسائي المصري سابقاً، والمجلّة المتخصّصة بالدراسات الشرقية المعاصرة *Oriente Moderno* التي ما زالت تصدر في روما إلى يومنا هذا، والمجلّة النسائية الصادرة بلندن *The Woman's Leader and the Common Cause*.

إنّ بعض النصوص المدرجة هنا ليست بتمامها مجهولة لدى القرّاء الملمّين بأعمال ميّ زيادة، لأنّه مرّ ذكرها في سير أو غيرها من الدراسات عن الكاتبة، وأحياناً نُقلت مقتطفات منها، أو طُبعت صيغة مختصرة لها ضمن إحدى المجموعات السالفة. وقد تمّ إدراج أمثال هذه النصوص بغية الاستكمال وتطلّعاً إلى تحقيق مجموعة كاملة حقّاً في المستقبل تشتمل على النصوص غير المختصرة، مع الإشارة إلى إعادة طبعها سواء كانت طبق الأصل أم بصيغة مختلفة. وقد حرصتُ على الإشارة في الهوامش الخاصّة بالنصّ المعني إلى ما يُعرف عنه من صيغ مختصرة أو مقتطفات نُشرت في موضع آخر.

والنصوص المذكورة هي قبل كلّ شيء كلمات ومحاضرات ألقتها ميّ زيادة فكانت تُنشر عادة في أكثر من جريدة أو مجلّة، وإن لم يكن ذلك بالضرورة في كامل نصّها دائماً. وكذلك الشأن بالنسبة لكتابات ميّ زيادة بلغات أجنبية والتي تتضمّنها هذه المجموعة فبعض منها يعود إلى صياغات عربية منشورة من قبل أو نُشر فيما بعد مترجماً إمّا إلى العربية أو إلى لغة غيرها. وعلى سبيل المثال يرتكز المقال الذي نشرته ميّ زيادة باللغة الإيطالية في مجلّة *Oriente Moderno* في شهر أيّار/مايو من عام ١٩٢٩ على النصوص العربية الضائعة لمحاضرتين كانت قد ألقتهما في نيسان/أبريل من عام ١٩٢٨ بالجامعة الأمريكية في القاهرة حول موضوع «يقظة المرأة المصرية من عهد محمّد علي إلى هذا العهد». ثمّ نشرت الصحيفة اللندنية *The Woman's Leader and the Common Cause* من جهتها في شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الأوّل/أكتوبر من عام ١٩٢٩ ملخّصاً للمقال باللغة الإنجليزية لم تكتبه ميّ بنفسها على الأرجح. وإذا أدرجنا الصياغتين الإيطالية والإنجليزية كلتيهما في هذه المجموعة، فلأنّهما توثّقان أنّ ميّ زيادة كانت معروفة بكتاباتها حتّى في البلاد الأوربية، وبين أوساط أوسع من القرّاء، وأنّ صيتها جاوز جماعة المستشرقين الغربيين ممن كانت على صلة معهم، والزوار الأجانب لصالونها، خلافاً للوصف المعتاد في الكتب عنها. ولا يخفى أنّ ميّ انصرفت بعد باكورتها الديوان الشعري باللغة الفرنسية *Fleurs de Rêve* (١٩١١) إلى الكتابة باللغة العربية وإنْ لم تتفرّغ لها كما تؤكّد مساهماتها باللغة الفرنسية في مجلّة *L'Egyptienne* المضمّنة في هذه المجموعة. على أنّ كتاباتها باللغات الأجنبية، وليس فقط

تلك التي صدرت داخل الوطن العربي بل وخارجه على وجه الخصوص، لم تلقَ حقّها من الاعتناء حتّى الآن، ومن هنا فالباحثون مدعوّون إلى بذل الجهود لتسليط المزيد من الضوء على هذا الجانب من أعمال ميّ زيادة.

افتتاحيات ميّ زيادة في جريدة «الأهرام»

إنّ القسط الأعظم من هذه المجموعة يتكوّن من ١٣٤ مقالة نشرتها ميّ زيادة في جريدة «الأهرام» خلال ما يقرب من عقد من الزمان، أي من تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٥ إلى حزيران/يونيو ١٩٣٥، أكثرها كما ذكرنا آنفاً افتتاحيات، وهي تكمّل الجزء العائد إلى سنتي ١٩٣٠ و١٩٣١ والذي قدّمه جوزيف زيدان في مجموعته لأوّل مرّة[٢١]. ويستعصي علينا فهم كيف تمّ تجاهل هذه الوفرة من النصوص باستمرار، لا سيّما وأنّ تعاون الكاتبة مع هذه الصحيفة سبقت الإشارة إليه في أكثر من موضع وأحياناً حتّى مع بيان تاريخ السنين[٢٢]. ولا نشكّ في أنّ كون هذه النصوص كُتبت من أجل صحيفة يومية وليس لمجلّة ثقافية أو أدبية قد ساهم في هذا التجاهل، مؤدّياً إلى اعتبار تلك النصوص مادّة صحفية أكثر منها أدبية. غير أنّ هذا التصنيف إنّما هو وليد عصر لاحق، ولا ينطبق على زمن ميّ إلاّ بقدر محدود. فأثناء العشرينات والثلاثينات، حين لم تكن حركة النشر في كتب قد تطوّرت بعد حتّى في القاهرة التي كانت مركزاً للأدب العربي آنذاك، كانت الصحافة، بما فيها الجرائد اليومية، ما تزال الوسيلة الأولى لنشر الأدب. فقد كتب أدباء أمثال منصور فهمي ومحمّد عبد الغني حسن مثل ما كتبت ميّ زيادة على الصفحة الأولى لجريدة «الأهرام» ونشر فيها شعراء كأحمد شوقي وخليل مطران العديد من قصائدهم. صحيح أنّ الصحف اليومية أخذت في أواخر العشرينات، بعد أن نجم حوار سياسي واسع عن الحديث الأدبي الدائر في ندوات المثقّفين، في تخصيص صفحات أو ملاحق للأدب، ناهيك عن إصدار الصحف الأسبوعية لهذا الغرض مثل ما فعلت «السياسة» بإصدار «السياسة الأسبوعية» في آذار/مارس عام ١٩٢٦ ثمّ في تشرين الثاني/نوفمبر من السنة نفسها «البلاغ» بإصدار «البلاغ الأسبوعي». إلا أنّ الحدود بين المساهمات الصحفية والأدبية ظلّت غير ثابتة. من ثمّ لا يمكن إنكار القيمة الأدبية لافتتاحيات ميّ زيادة في جريدة «الأهرام» بوجه عامّ حتّى ولو كان جانب منها لا محالة من النوع الصحفي. وبغضّ النظر عن هذا التمييز فقد تمّ إدراجها في هذه المجموعة لأنّها بمحملها تلقي ضوءاً جديداً على تطوّر الأدبية في المرحلة الأخيرة من حياتها.

تدلّ افتتاحيات ميّ زيادة في جريدة «الأهرام» على أنّها في تلك الفترة بالذات التي زعم الكثيرون أنّها اعتزلت فيها الناس تدريجياً و لم تكتب إلاّ من حين لآخر، أظهرت نشاطاً لم يسبق له مثيل في حياتها، وكانت حاضرة في النقاش العامّ أكثر من أيّ وقت مضى. لقد أشار جوزيف زيدان في مقدّمة كتابه إلى أنّ النصف الأوّل من العشرينات لم يعد من الممكن اعتباره أوج إنتاج ميّ زيادة، نظراً لما اُكتشف من أعمالها حديثاً. فظنّ أنّ عامي ١٩٣٠ و١٩٣١ كانا من أخصب أعوامها كتابة(٢٣). وعلى ضوء النصوص المضمّنة في هذه المجموعة يبدو تأريخه كأنّه ضيّق الحدود، وقد يكون أقرب إلى الصواب أن يقدّر الطور الأوفر إنتاجاً للكاتبة ما بين سنة ١٩٢٨ و١٩٣٥. ولكن لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون هذا الافتراض أيضاً إلاّ مؤقتاً ما دامت أعمال ميّ زيادة الكاملة لم يكتمل ظهورها بعد.

تحرير ميّ زيادة للقسم النسوي الاجتماعي في «السياسة الأسبوعية»

تتزامن بداية التعاون المنتظم لميّ زيادة مع جريدة «الأهرام» تقريباً مع تولّيها المسؤولية عن «القسم النسوي الاجتماعي» في جريدة «السياسة الأسبوعية» التي كان محمّد حسين هيكل رئيس تحرير «السياسة» أسّسها قبيل ذلك بقليل. إنّ جزءاً من مساهماتها في هذه الصحيفة الأسبوعية منشور في كتاب أحمد حسين الطماوي، والبعض المتبقّي منها تضمّه المجموعة التي بين يدي القارئ. ويُعتبر الشروع في هذين النشاطين نقطة تحوّل في تطوّر الأديبة، إذ بقبولها تحرير هذا الباب في «السياسة الأسبوعية» التزمت ميّ لأوّل مرّة التزاماً وثيقاً تجاه جريدة، بعد أن كانت تحاول دوماً الحفاظ على استقلاليتها. ويرجع عنوان الباب فيما يبدو إلى رغبة ميّ التي رفضت تسلّم صفحة نسائية بحتة فاقترحت توسيع مدارها لتتناول مسائل مختلفة(٢٤). ومن هذا يتّضح أنّها لم ترد الاقتصار على علاج شؤون المرأة، بل كانت تسعى إلى مخاطبة عدد أكبر من القرّاء. كذلك تشير مقالاتها في «الأهرام» إلى عزمها على الخروج من الدائرة المحدودة للمجلاّت النسائية والثقافية والأدبية التي كانت تكتب لها سابقاً بالدرجة الأولى لتصل إلى جمهور أوسع من القرّاء.

و لم يكن من باب الصدفة أنّ ميّ حاولت الوصول إلى عدد أكبر من القرّاء، وأن تزيد من مشاركتها في النقاش السياسي الاجتماعي في منتصف العشرينات. فمصر كانت قد حصلت عام ١٩٢٢ على استقلالها الشكلي، وبعد ذلك بسنة تمّ الإعلان عن دستور جديد. ثمّ اُفتتح أوّل برلمان مصري، و لم يلبث أن تحوّل إلى مسرح نشاط أحزاب عدّة. لكنّ خلافات جوهرية نشبت بين القوميين وبين الدعاة إلى أمّة إسلامية حول تأسيس النظام الليبرالي الدستوري، وهي خلافات

لم يظهر تأثيرها في ثورة ١٩١٩ التي وحّدت الصفوف ضدّ الاحتلال البريطاني. إنّ النـــزاع بين هذين الفريقين ميّز تاريخ العشرينات والثلاثينات بمصر، كما هو معروف، بقدر ما وسمه الخلاف السياسي بين الجناح المتشدّد والجناح المعتدل للحركة الوطنية، أي بين حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين. في هذه المرحلة التي سيطر عليها الصراع حول ترتيب المجتمع الوطني الجديد حيث بدأت منظّمات جماهيرية فعّالة تطغى شيئاً فشيئاً على ندوات المثقّفين النخبوية الطليعية، لم يعد من المستطاع فصل السياسة عن الأدب. فسعت ميّ زيادة ككثير غيرها من أدباء عصرها إلى تأثير أكبر في تكوين الرأي العامّ.

وبوصفها امرأة مسيحية مهاجرة حاذرت الكاتبة من الخوض في معارك الأحزاب السياسية حول مسائل الساعة، فوجدت مكانها الطبيعي في أكبر جريدة يومية مصرية محايدة، وفي الصحيفة الأسبوعية التابعة للسان حال الأحرار الدستوريين والتي كانت تعترف أيضاً بمبدأ عدم التحيّز على الرغم من انتمائها الحزبي(٢٥). ولكن بينما تواصل تعاون ميّ زيادة مع جريدة «الأهرام» لفترة تناهز العقد من الزمن لم يستمرّ تحريرها للقسم النسوي الاجتماعي في «السياسة الأسبوعية» إلاّ مدّة قصيرة، أي من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦ إلى شباط/فبراير ١٩٢٧. وأسباب مشاركتها في الصحيفة الأسبوعية لهذه الفترة الوجيزة جدّاً غير معروفة. وبما أنّ القسم النسوي الاجتماعي ظلّ قائماً بعد استقالتها، فقد يمكن التعليل بأنّ تحرير هذا الباب المستوعب في كلّ عدد ثلاث إلى أربع صفحات كان يمثّل على المدى الطويل عبئاً كبيراً عليها يستغرق الكثير من وقتها، بينما لم يفسح لها إلاّ مجالاً محدود النطاق بالمقارنة مع صحيفة يومية مثل «الأهرام». ولعلّه كان هناك داع آخر إلى تخلّيها عن تحرير هذا القسم بعد بضعة أشهر فقط، ألا وهو الاختلافات الحادّة بين المحافظين والأحرار التي كانت قد نشبت حول كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» (١٩٢٥) ودراسة طه حسين «في الشعر الجاهلي» (١٩٢٦)، فإنّ كلا الكاتبين كانا من عصبة المثقّفين المجتمعة حول «السياسة»، ولم يتردّد هيكل في وضع صحيفته في كفّة الميزان لردّ الهجمات عن زميليه. ومع أنّ «السياسة الأسبوعية» ابتعدت عن هذه المنازعات إلى حدّ كبير(٢٦) إلا أنّ ارتباطها بصحيفة صار لها سمعة المدافع عن «الملحدين والمرتدين» من خلال معارضتها البارزة للتشدّد الديني، ما كان ليبقى دون تأثير على موقف ميّ زيادة في تحرير الصحيفة الأسبوعية. ولا يُستبعد أنّ سبباً آخر لعب دوراً في تخلّي الكاتبة عن اشتراكها في تحرير هذه الصحيفة، ذلك أنّ «السياسة الأسبوعية» بقيت وفية لمبدأ عدم التحيّز ما دام ائتلاف سنة ١٩٢٦ بين الوفد والأحرار

الدستوريين قائماً، لكنّها صارت تخضع أكثر فأكثر إلى متطلّبات الحزب السياسية مع وقوع القطيعة بين الحزبين(٢٧). وإذا كانت بوادر هذا الانصياع إلى خطّ الحزب قد ظهرت وقتما كانت ميّ زيادة ما زالت عضواً في هيئة التحرير، فالذي لا شكّ فيه أنّ ذلك لم يكن يوافق رغبتها ولا كان في صالحها. ومن ثمّ جاء ارتباطها الأوثق بجريدة «الأهرام» المحايدة نتيجة منطقية لخروجها من «السياسة الأسبوعية».

تساؤلات حول كاتبة الافتتاحية في «الأهرام» ومصير جريدة «المحروسة»

كان ظهور ميّ زيادة ككاتبة افتتاحيات في «الأهرام» موضوعاً للحدس والتخمين في الماضي. ولا سيّما وقد رُبط بينه وبين اتفاق قيل إنّه تمّ بواسطة رئيس تحرير الجريدة وقتئذ داود بركات وخليفته أنطون الجميّل وكلاهما مهاجران شاميان مسيحيان مثل ميّ زيادة، كما كانا من أقدم أصدقائها ومرتادي صالونها الأدبي. وحسب ما ورد في أكثر من كتاب عن ميّ زيادة، رأت الأديبة نفسها عقب وفاة والدها في تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٩ غير قادرة على إصدار صحيفة «المحروسة» اليومية التي كانت قد ورثتها عنه. إلا أنّ عائدات الصحيفة كانت تضمن لها ولأمّها أسباب العيش المتواضع. فتدخّلت «الأهرام» في هذه الظروف العسيرة لتقدّم لها المساندة في تسيير شؤون صحيفة والدها إضافة إلى شقّة فسيحة في أحد مبانيها القديمة لتسكنها بلا أجر إلاّ بضع مقالات تنشرها في «الأهرام» حين تشاء(٢٨). إنّ مثل هذا التصوير يصبغ تعاون ميّ زيادة في «الأهرام» بصبغة يبدو معها وكأنّه لم يكن إلاّ ردّاً للجميل أو تفضّلاً من قِبَل بعض صانعي الخير في إدارة الجريدة، إلا أنّ مثل هذا الطرح يقلب الحقائق رأساً على عقب، لينال من فضل الأديبة ويقلّل من شأنها كأوّل كاتبة افتتاحيات لإحدى أكبر الصحف اليومية العربية. وتثبت النصوص التي تضمّها هذه المجموعة أنّ ميّ قد كتبت بانتظام في صحيفة «الأهرام» لسنوات قبل رحيل والدها. كما يتبيّن من رسائلها أنّها قد انتقلت عام ١٩٢٧ برفقة والديها إلى الشقّة المذكورة في بناية «الأهرام»، شارع علوي رقم ١. وإنْ كانت الجريدة توصّلت حقّاً إلى اتفاق ما مع الكاتبة بعد وفاة والدها، فإنّ ذلك كان بلا ريب أمراً في مصلحة الطرفين. فعرض «الأهرام» لمساعدة ميّ زيادة في الاحتفاظ بجريدة والدها خدم كذلك مصلحة «الأهرام» نفسها في الاحتفاظ بكاتبتها المتميّزة، والتي كانت تخشى فقدانها بعد أن وقعت على عاتقها مهمّة إصدار صحيفتها الخاصّة. وتشير بعض الدلائل فعلاً إلى وقوع مثل هذا الاتفاق بين الطرفين مع أنّ تفاصيله ما تزال غامضة. على كلّ حال توضح بيانات الناشر في أعلى صفحة العنوان من «المحروسة» أنّ مكاتبها انتقلت

بعيد وفاة إلياس زيادة من عنوانها القديم إلى مسكن ميّ زيادة في عمارة «الأهرام»، ومنذ ذلك الحين صارت الجريدة تصدر مرّة في الأسبوع بعد أن كانت تصدر يومياً. إضافة إلى ذلك تشير تواريخ صدور افتتاحيات ميّ زيادة المضمّنة في هذه المجموعة إلى أنّ الكاتبة منحت حقّ الأولوية في نشر مقالاتها لجريدة «الأهرام» مقابل التزام ما نجهل شروطه. فكيف لنا أن نشرح ظهور العديد من مقالاتها على الصفحة الرئيسية لجريدة «الأهرام» أوّلاً ثمّ إعادة نشرها كما هي على الصفحة الأولى لجريدة «المحروسة» إلاّ بهذه الطريقة. وحسب ما أورده وديع فلسطين في سيرته لميّ زيادة فقد قيل إنّ إدارة «الأهرام» كان لها دوافع تجارية بحتة في مساعدتها للكاتبة، إذ نجحت في تحويل اهتماماتها عن جريدتها إلى صفحات «الأهرام» فانتهى الأمر بجريدة «المحروسة» إلى الاحتجاب(٢٩). وهو تفسير يبدو من ناحية أخرى متحيّزاً وغير منصف للمسؤولين في «الأهرام»، الذين على ما يظهر ظلّوا أوفياء لالتزاماتهم فواصلوا إصدار «المحروسة» باسم ميّ زيادة حتّى أثناء إقامتها في مستشفى الأمراض العقلية ببيروت وبعد خروجها منها، حيث لم تكن في حال يسمح لها أن توافيهم بأيّ مقالات(٣٠). أمّا الإفراط السائد في إبراز الصداقة بين ميّ زيادة وكلّ من داود بركات وأنطون الجميّل بصدد بروزها ككاتبة افتتاحيات في «الأهرام» فليس من شأنه أيضاً إلاّ أن يحطّ من منـــزلة الطرفين، وربّما تكون هذه العلاقة الوطيدة قد شدّت أزر ميّ في أسرة تحرير «الأهرام»، إلا أنّه من الخطأ أن نعزو الفضل في مساهماتها المتميّزة في الجريدة وما حقّقته من نجاح إلى هذه العلاقة وحدها.

إنّ خلفية مساهمات ميّ زيادة في «الأهرام» وملابساتها تطرح أسئلة تحتاج إلى إجابة. فملفّات ميّ زيادة وذوي الشأن التي اطّلعتُ عليها بأرشيف «الأهرام» أثناء أبحاثي في القاهرة لم تؤدّ إلى جلاء الأمر على النحو الذي كنت أطمح إليه. رغم ذلك يبدو من الصعب التصديق بأنّ الجريدة لا تملك أيّة وثائق قد تساعد في إلقاء الضوء على المسائل المطروحة. فمنذ سنوات تبذل دار الأهرام جهوداً ملحوظة في إعادة قراءة تاريخها. ويرجع الفضل في ذلك بصفة خاصّة إلى المؤرّخ الدكتور يونان لبيب رزق رئيس مركز الأهرام للدراسات التاريخية، الذي ندين لنبذه التاريخية (Chronicles) في *Al-Ahram Weekly* ببعض المعلومات القيّمة حول افتتاحيات ميّ زيادة، التي استفدنا منها في هوامش هذه المجموعة. وإنّنا لنأمل أن تجد «الأهرام» في نشر مقالات الكاتبة المستخلصة من أعدادها القديمة بين دفّتي هذا الكتاب دعماً لمجهوداتها وحافزاً لها أن تدلي بدلوها في شأن إيضاح الأسئلة المطروحة، ليس فقط تكريماً لأوّل كاتبة افتتاحيات اشتهرت على

صفحاتها، بل لوضع حدّ للتخمينات المتجدّدة على توالي السنين، ولتسليط الضوء على جزء من تاريخ الصحافة والنشر في مصر ما زال مجهولاً حتّى اليوم.

أنواع مساهمات ميّ زيادة في «الأهرام»

تغطّي منشورات ميّ زيادة في «الأهرام» أجناساً متنوّعة بينها المقال الأدبي والثقافي والوصفي، والشعر المنثور، والصورة القلمية الشخصية، والنعي، والرسالة، والنقد الأدبي، والمحاضرة والخطاب والكلمة الإذاعية، فضلاً عن الحِكَم الموجزة والتأمّلات وهي من فنون الأدب الخاصّة بالوسط الثقافي للصالونات والنوادي في الثلث الأوّل من القرن العشرين وقد ظهرت في «الأهرام» أيضاً بقلم كتّاب آخرين غالباً تحت عنوان «خواطر»(٣١). وبينما تميّزت ميّ زيادة في معظم هذه المجالات خلال السنوات السابقة، فإنّ مساهماتها الإذاعية تمثّل استثناءً يُذكر، فعبر هذه الوسيلة الإعلامية التي كانت حديثة العهد آنذاك اتّجهت الكاتبة إلى جمهور جديد مواصلة شقّ طريقها إلى عامّة الناس.

إلى جانب الأنواع المذكورة التي يمكن تصنيفها تصنيفاً أدبياً بالمعنى الأوسع، نجد أيضاً أنواعاً صحفية كالمقالة والتقرير والتعليق ثمّ المقابلة واستفتاء القرّاء. ويظهر أنّ هذه المساهمات ليس لها إلاّ قيمة زمنية بالنسبة لسائر الكتابات حيث أنّها مرتبطة إلى حدّ كبير بالأحداث اليومية لكنّها تستحقّ انتباه القارئ بصفة خاصّة لأهمّيتها التاريخية. فإنّها تبيّن أكثر من غيرها الآراء والمعتقدات التي نادت بها ميّ زيادة في أواخر العشرينات والنصف الأوّل من الثلاثينات، كما تدلّ على ما استقبلت به من صدى، بل وتجلي أيضاً قدر الموازنة بين الفرص والأخطار الذي كان مطلوباً منها بحكم كونها امرأة مسيحية مهاجرة في ظلّ الظروف السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك، وحتمية فشلها في تلك اللعبة غير المأمونة في نهاية المطاف. لقد حاولتُ قدر الإمكان في الهوامش المذيّلة لهذه النصوص سرد الأحداث التاريخية المذكورة في سياقها والإشارة إلى ردود الفعل التي أثارتها حتّى يتسنّى فهم مدى أهمّيتها وتأثيرها وقت نشرها. وهكذا تتبلور نصّاً بعد نصّ صورة كاتبة تختلف بوضوح عن تلك التي كان يرسمها كتّاب سيرة ميّ زيادة في الماضي.

من الرومنطيقية إلى الواقعية، ومن الابتعاد عن السياسة إلى محاولة التأثير فيها

والظاهر أنّ الأديبة المعروفة بميلها إلى الرومنطيقية منذ أعمالها الأولى، الناقدة والمدافعة عن تحرير المرأة، والتي كانت ترفض رفضاً قاطعاً أيّ تدخّل في السياسة، ومن ثمّ كانت توصف دائماً بكونها غير سياسية، قد تحوّلت في آخر أيّامها إلى كاتبة وصحفية أكثر ميلاً نحو الواقعية، وحاولت

بلا ريب التأثير في الحياة السياسية[٣٢]. وعلى الرغم من اختيارها لبعض مقالاتها عناوين مثل «على هامش السياسة» أو «أحاديث... غير سياسية» أو «في معزل عن السياسة والتحزّب» إلا أنّ هذه المقالات كانت تحتوي على رسالة سياسية واضحة. ويبدو هذا التناقض من أوّل نظرة محيّراً لكنّه سرعان ما يتلاشى من خلال فنّ البلاغة الذي استخدمته ميّ زيادة في كتاباتها. فإنّ تأكيدها في أكثر من موضع أنّه لا مكان لها في السياسة بوصفها امرأة وأنّها تخلي الميدان للرجال دون حرج، يسمح في الوقت نفسه باستنباط العكس، أي أنّ بعدها عن أيّ طموح حزبي سياسي يمكّنها في واقع الأمر من رفع صوتها من أجل المصلحة العامّة من موقع أكثر استحقاقاً وأجدر بالتصديق. إنّ صبغ كتاباتها بصبغة لا سياسية يحقّق إذاً عدّة أغراض: إنّه يقرّ باحترام التقاليد بقدر ما يساعد على خرق حواجزها، كما أنّه يكسب الكاتبة مقام مرجع مستقلّ محايد، وهي منـــزلة ازدادت أهمّية في الثلاثينات خلال فترة الحزبية التي اتّسمت بروح جدّ معارضة للنظام الدستوري. قياساً على ذلك يُفهم تلاعب الكاتبة بكونها امرأة في مواضع أخرى من مقالاتها حيث تبرز مثلاً ضعف صوتها الأنثوي لتجعل كلمتها في الحقيقة أشدّ وقعاً في نفوس القرّاء.

«في معزل عن السياسة» لعبت ميّ زيادة دوراً سياسياً لا يُستهان به، سواءً شهّرت بانتهاك حقوق مصر الشرعية بنظام القضاء المختلط[٣٣] أم طالبت بمبادرات إدارية في شؤون تخطيط المدن، أم تذمّرت من التقصير في المجال الصحّي[٣٤]، أم سعت في صدّ مشاريع قانونية لتشديد الرقابة على الصحافة أو لمنع المسكرات[٣٥]، أم اتخذت من الديكتاتورية في ظلّ سياسة اليد الحديدية لمحمّد محمود مناسَبة لتأمّلاتها حول الحكومات والشعوب[٣٦]، أم أثارت مناقشات كتلك التي دارت حول إدخال التعليم الإجباري في مصر، والتي احتلّت الصفحة الأولى لجريدة «الأهرام» لمدّة أسابيع[٣٧]. بذلك كلّه وغيره صارت ميّ زيادة مرجعاً للنقد وحجّة أخلاقية اجتماعية ساهمت بأوجه مختلفة في تكوين الرأي العامّ، إمّا من خلال مقالاتها وتعدّد ردود الفعل عليها، أو بالردّ العلني أحياناً على رسائل قرّاء طلبوا نصيحتها ومساندتها، أو بشكل استطلاع الرأي مثل الاستفتاء حول إنشاء شرطة نسائية في مصر والتي انهال على إثرها أكثر من ألف رسالة من رسائل القرّاء على جريدة «الأهرام» نشرت منها ما يزيد على الثلاثمائة في الأسابيع التالية[٣٨].

أصوات ناقدة في مطلع الثلاثينات

لكنّ صاحبة الافتتاحيات لم تجن الاستحسان فحسب. ففي ميدان الثقافة والتعليم بالذات والذي اهتمّت به كلّ حياتها اهتماماً خاصّاً ووضعت له كامرأة منتمية لجيلها مقاييس جديدة،

وجدت نفسها بعد حين عرضة لنقد لاذع. وقد جرّت عليها تحذيراتها من عواقب فتح أبواب التعليم على مصراعيه، وفي مقدّمتها ازدياد الهجرة من الريف والبطالة في المدن، لوم الدكتور أمير بقطر عالم التربية ورئيس تحرير مجلّة «التربية الحديثة» الصادرة عن كلّية التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة الذي عيّرها بالرجعية لأنّها تريد أن تقصر حقّ التعليم على أقلّية مميّزة(٣٩). كما عارضت إحدى القارئات قائمة الكتب التي نصحت بها ميّ قارئاً استجابة لطلب منه لتثقيف عروسه بقائمة أخرى شاملة، وتعليق مفاده أنّ الكاتبة متأخّرة عن أوانها وأنّها ما زالت متعلّقة بتصوّرات القرن التاسع عشر(٤٠). وعلى الرغم من أنّ أمثال هذه الأصوات الناقدة ظلّت أصواتاً قليلة في مطلع الثلاثينات إلاّ أنّها تبيّن إلى أيّ مدى كان جمهور القرّاء قد تغيّر في بنيته وعقليته وتطلّعاته في تلك الأثناء. إذ أصبح من الواضح أنّ آراء ميّ زيادة لم تعد تتّفق وتطوّر العصر لدى الشباب الليبرالي من طراز أمير بقطر المتشبّع بالثقافة الغربية، كما لدى الجيل الجديد من رائدات الحركة النسائية.

الكاتبة المسيحية والعودة إلى الإسلام

من ناحية أخرى كذلك تخطّت التطوّرات الكاتبة في نهاية المطاف. ففي موجة التحمّس التي أعقبت ثورة ١٩١٩، كانت صفوة المجتمع من السياسيين والمثقّفين تُجمع إلى حدّ بعيد على أنّ المجتمع الوطني المصري الحديث لا بدّ أن يقوم على مبادئ ليبرالية علمانية اقتداءً بالنموذج الغربي. وكانت كاتبة الافتتاحيات اللبنانية المسيحية بجريدة «الأهرام» تجسّد هذه المبادئ وتعبّر عن مفاهيم التقدّم والحرّية، ممّا كان يحظى بتأييد عريض في الأوساط المثقّفة. ولكن لم يلبث أن انقلب التفاؤل السائد في العشرينات إلى خيبة متزايدة. فقد أفضى الحضور المتواصل لقوّات الاحتلال البريطاني، وتعاضد القصر مع الإنكليز في هدم النظام البرلماني، إضافة لتأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية في مصر، إلى تغيّر واضح في الأجواء مع نهاية العقد. كما ساهم استبدال الأنظمة الديمقراطية بأنظمة ديكتاتورية في إسبانيا وإيطاليا وألمانيا ونقد الثقافة الغربية في زعزعة المبادئ التحرّرية الغربية وفقدها بالتدريج القبول السابق الذي حظيت به كأساس إيديولوجي لمصر الحديثة. فشرع أفراد من الطبقات الوسطى المثقّفة الجديدة في المدن، والتي لم تحتكّ بالثقافة الأوربّية إلاّ سطحياً، ولم تتعاطف إلاّ مع القليل من أفكار نخبة المثقفين القديمة المستوحاة من الغرب، يطالبون بالرجوع إلى القيم الثقافية الأصيلة ولا سيّما الإسلامية منها، فأسّسوا حركات محافظة متشدّدة من بينها جمعية الشبّان المسلمين عام ١٩٢٧، ثمّ كلّ من جمعية الهداية الإسلامية وجمعية الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨. وقد أصبح الإسلام مجدّداً منذ أواخر العشرينات ولا سيّما

عبر هذه الجمعيات عاملاً حيوياً يذكي الشعور بالانتماء لدى طبقات واسعة من المجتمع ويشكّل جزءاً هامّاً من النقاش العامّ.

إن كان هذا التطوّر لم يؤثّر في ميّ زيادة بادئ الأمر مباشرة فإنّه أصبح يعنيها بلا ريب حينما بدأ بعض أعلام الفكر والأدب، وبينهم عدد من أصدقائها الحميمين وروّاد صالونها الأدبي الذين كانوا مثلها من أنصار الفكر الليبرالي العلماني في العشرينات، يتّجهون مطلعَ الثلاثينات نحو الإسلام تكيّفاً مع الظروف المتغيّرة. وكان محمّد حسين هيكل قد سبق وانتقد النموذج القديم للثقافة الأوربّية عام ١٩٢٨ انتقاداً جوهرياً، منتهياً إلى تثبيت التفوّق الروحي للشرق على القوة المادّية للغرب(٤١). ثمّ لم يلبث أن أصبح من أوائل الذين أقرّوا بوضوح مبدأ العودة إلى الإسلام من خلال كتابته السيرة النبوية التي نُشرت تباعاً في «السياسة الأسبوعية» اعتباراً من عام ١٩٣٢(٤٢). وقبل ذلك بسنتين كان إبراهيم عبد القادر المازني قد عبر عن تقديره للاتّجاه الإسلامي الجديد من خلال كتابه «رحلة الحجاز»، ثمّ تبعه عام ١٩٣٣ طه حسين بالجزء الأوّل من ثلاثيته «على هامش السيرة»، وخلال السنوات التالية لحقت بهؤلاء مجموعة أخرى من الأدباء نخصّ بالذكر منهم منصور فهمي وعبّاس محمود العقاد(٤٣). وهكذا وفّر الإسلام الأرضية لثقافة وطنية حديثة جمعت بين النخبة المثقّفة القديمة والجماعات المتعلّمة الجديدة. أمّا ميّ زيادة المسيحية فلم يسعها إلاّ أن ترى نفسها مقصاة عن هذه الثقافة الجديدة التي أعاد الإسلام رسم حدودها. وبينما حظي هيكل وطه حسين وكثيرون غيرهما بشعبية لا تزال حيّة إلى يومنا هذا من خلال مؤلّفاتهم الإسلامية، فإنّ كاتبة الافتتاحيات في «الأهرام» فقدت سندها في المجتمع بشكل ملحوظ.

تتجلّى أهمّية افتتاحيات ميّ زيادة بمعناها الصحيح في سياق التحوّل الإيديولوجي في أواخر العشرينات والثلاثينات. فهي تظهر مجهود الكاتبة الدائم وإن ضاع هباءً في التجاوب مع الاتّجاهات الإسلامية والمضادّة للغرب المتزايدة دون أن تتخلّى عن فكرة مجتمع تعدّدي يسمح بالتعايش المتكافئ بين الأديان والحرّية الفردية والحوار الحرّ بين الثقافات.

في سنة تأسيس الإخوان المسلمين جعلت ميّ زيادة أولى المسائل التي شغلت النقاش العامّ موضوعاً لمحاضرة نُشرت في اليوم التالي على كامل الصفحة الرئيسية من «الأهرام»: «ما هي الوطنية؟». كان مفهوم الوطن الذي حاولت أن تشرحه في هذه المحاضرة من جهة تطوّره التاريخي يستند أساساً إلى فكرة الارتباط بإقليم معيّن، إلا أنّه في عصر سهولة الحركة المتزايدة حيث بلد

الميلاد ووطن المقام باتا لا يتّفقان بالضرورة، فإنّه تحدّده لدى الأفراد عوامل متنوّعة فيستعصي بذلك عن تعريف ثابت عامّ. بهذا الموقف واجهت ميّ نداء الحركات الإسلامية الجديدة: «لا وطن إلاّ بالدين»[٤٤]. وأصبحت أكثر صراحة بعد عام في محاضرة ألقتها بالجامعة المصرية والتي نُشرت أيضاً على الصفحة الأولى لجريدة «الأهرام» حينما قالت عن العلاقة بين الطوائف الدينية المختلفة داخل أمّة واحدة: «الدين أيّها السادة والسيّدات، لا أختاره أنا ولا تختارونه أنتم. إنّنا نولد في دين من الأديان كما يولد الواحد منّا أشقر أو أسمر، طويل القامة أو قصيرها. فما قولكم في مقاتلة أشقر اللون لجاره لأنّه حنطي البشرة قاتم العينين؟ خصومة كهذه تضحكنا وتفكهنا، وليست الخصومات الدينية دون هذه في التفكهة وإثارة الضحك عند العقلاء». وحذّرت بشدّة من تشتيت وحدة الأمّة لاعتبارات دينية مذكّرة بمبدأ الزعيم الدرزي في حرب الدروز الأخيرة والذي كان كذلك الشعار العلماني للثورة الوطنية عام ١٩١٩: «الدين لله والوطن للجميع!»[٤٥].

وتأتي سلسلة المقالات الثماني «جولة في القاهرة» التي وصفت فيها ميّ زيادة في صيف ١٩٢٨ زيارتها لمساجد وآثار إسلامية أخرى بالقاهرة متماشية بشكل واضح مع الاهتمام المتزايد بالموضوعات الإسلامية. إلا أنّها تبثّ فيها من جديد نداءً ملحّاً للتفاهم بين الأديان من أجل الوحدة الوطنية وتذكر أكثر من مرّة فكرة التسامح في الإسلام.

أمّا افتتاحيتها المنشورة في نفس العام تحت عنوان «الشرق والغرب يتفاهمان» والتي تشير فيها إلى تعدّد نقاط الاتّصال واللقاءات المثمرة بين أفراد كلتا الثقافتين بعيداً عن الخلافات السياسية فتتعارض بوضوح مع صورة التناقض بين الشرق والغرب المرسومة حينذاك بمختلف الألوان، ليس من طرف ممثّلي الجمعيات الإسلامية الجديدة فحسب بل من طرف هيكل وغيره من الأدباء المعاصرين أيضاً[٤٦]. ولا ينفي هذا التعارض أنّها تحذّر بإلحاح في عدّة مواضع أخرى من مقالاتها – انسجاماً مع تلك الأصوات – من تقليد الثقافة الغربية دون تمييز. ويقارن بذلك المغزى القائم وراء وصفها لجولة في بور سعيد كان سائق السيّارة يعرّفها فيها بكلّ فخر واعتزاز إلى معالم المدينة ويؤكّد لها بملء فمه أنّ دي لسبس مشيّد قناة السويس «لا بدّ أن يكون مصرياً»[٤٧]. تبدو هذه الحكاية الطريفة من أوّل وهلة مسلّية تافهة لا غير، لكنّها عبارة عن محاولة أخرى من الكاتبة للتنبيه إلى ما يجمع وليس ما يفرّق بين الثقافتين. كلمة سائق السيّارة ببور سعيد هي مثال للقبول الذي لقيه بعض إنجازات الحضارة الحديثة في المجتمع المصري بصرف النظر عن

مصدرها الغربي، فقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الوطنية والوعي القومي بالذات، حتّى أنّ الفرنسي الذي شيّد قناة السويس صار يعدّ مصرياً بطبيعة الحال.

يتجلّى سعي ميّ زيادة إلى التقريب بين الاتّجاهات الاجتماعية المتفاوتة والتوفيق بينها في عديد من افتتاحياتها الأخرى الصادرة خلال تلك السنوات، فهي تستجيب للتيّارات المحافظة المتقشّية، وتساند مكافحة انحطاط الآداب العامّة والأخلاق(٤٨)، كما تشارك في تنقية اللغة العربية مستبدلة شيئاً فشيئاً الألفاظ الدخيلة من اللغات الأوربّية التي كانت تكثر من استعمالها سابقاً بكلمات عربية. لكنّ الحوار المنشود يبقى أملاً ضائعاً: ففي صبيحة يوم عيد الأضحى عام ١٩٢٩ تتوجّه ميّ برسالة مفتوحة إلى محمّد فريد وجدي المعروف بمعارضته للمادّية، والمدافع عن عصرية الإسلام لتطرح عليه السؤال عمّا إذا كان الرجوع إلى الروحيات يُعتبر حلاً ملائماً لمشاكل الناس المادّية الملحّة؟ يرى وجدي فيما يبدو أنّه من الضروري أن يواجه هذا التحدّي فيردّ عليها بدوره بعد ثلاثة أيّام على أعمدة الصفحة الأولى لجريدة «الأهرام» بأسلوب يتميّز بالأدب الجمّ مسهباً القول في الآراء المتباينة بين المادّيين والروحيين ليؤسّس موقفاً واضحاً في جانب الروحانية. أمّا المطالب المباشرة والحاجات الماسّة للمجتمع التي أشارت إليها ميّ في خطابها فيطرحها جانباً(٤٩). ومن ناحية أخرى يقابل ثناؤها على المساعي للحدّ من الإفراط في استهلاك الكحول بمناسبة مؤتمر محاربة المسكرات سنة ١٩٣٢ بردّ قاطع من قبل أحمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات العامّة في مصر مفاده أنّ جمعيته لا تعمل لمكافحة المغالاة في تعاطي المسكرات بل تقصد تحريمها من الأساس وفقاً لشريعة الإسلام، فحتّى القليل من الخمر يُعدّ مضرّاً ولا يجوز تبريره لا بالاعتماد على مصادر مسيحية ولا باعتباره مثيراً للطرب والزهو في مجالس الأنس كما ذهبت إليه الكاتبة في مقالها(٥٠). وتحاول ميّ في إجابتها على غلوش تلطيف لهجتها والتوفيق بين الموقفين المتعارضين. فتشيد بالنوايا الطيّبة لجمعيته معبّرة عن تقديرها وتأييدها لمجهوداتها، لكنّها تلفت النظر من جديد إلى أنّ المنع التامّ لا يصل بالناس إلى الهدف المنشود بل هو أحرى بأن يؤدّي إلى عكس المراد به كما أظهرت تجارب بلدان أخرى أصدرت قوانين لتحريم المسكرات(٥١). فلا يجيب غلوش على اعتراضها هذا. إنّ منافاة رؤيته العقائدية لمفهوم الحرّية الذي هو قوام حجج الكاتبة تستبعد أيّ خطوة أخرى للتفاهم. وتمضي ثلاث سنوات قبل أن تبذل ميّ زيادة محاولة جديدة لتبرز عدم فاعلية المنع التامّ بالمقارنة مع وسائل الإقناع القوية(٥٢). في أثناء ذلك قدّمت الجمعية تحت رعاية الأمير عمر طوسون عريضة إلى الملك لاستصدار قانون منع المسكرات. ويتبيّن من مجرّد طريقة التعبير التي

تتّبعها الكاتبة في مقالها الافتتاحي هذا أنّها حقّاً لم تعد تتوقّع أن تصادف كلماتها آذاناً صاغية. فهي تبدأ وتنهي مقالها معتذرة ليس فقط لأنّها تزعج القارئ، كما تقول، في الصباح الباكر بموضوع كريه كموضوع الإدمان على المسكرات بل لأنّها تجرؤ أن تصرّ على وجهة نظرها بغية إقناعه وإن أثقلت عليه بذلك. وتتوّج اعتذارها الساخر بهذه الملاحظة المقتضبة في الختام: «يظهر أنّ هذا هو نوع من الغفران قد تطلبه المرأة أحياناً..». وهي إنّما تهزأ هنا بالقارئ الذي قد يرجع اعتذارها حسب الفهم المتعارف عليه إلى كونها امرأة تحتاج إلى التسامح معها إن أباحت لنفسها رأياً خاصّاً بها دون أن يلاحظ أنّها تريد تنبيهه إلى نقصان حرّية الفرد في المجتمع بصفة عامّة إذا ما وجد نفسه مثلها مجبراً على الاعتذار لمجرّد اختلافه مع الرأي السائد. ويستشفّ من اللهجة اللاذعة للكاتبة في هذا المقال خيبة أملها وشعورها بالمرارة من أنّ المبادئ التحرّرية التي كانت تدافع عنها طوال حياتها لم تعد تلقى صدى كافياً، وأنّ فكرها المستقلّ أدى إلى نفور البعض منها واجتنابهم التحاور معها. لم يحدث هذا المقال أيضاً، وهو أحد آخر مقالات ميّ زيادة المنشورة في «الأهرام»، أيّ ردّة فعل. إنّ افتتاحيتها في ذكرى الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان المنشورة قبل ذلك ببضعة أشهر تظهر من وراء هذه الخلفية وكأنّها تحذير بل ونعي سابق لأوانه لعصر يسير حتماً إلى نهايته[٥٣].

الكاتبة اللبنانية والقومية المصرية

ارتبطت العودة إلى الإسلام منذ أواخر العشرينات بمزيد من المساعي لتمصير الدولة والمجتمع في مصر. وقد وجدت هذه المساعي انعكاسها الجلي في القانون رقم (١٩) الصادر في شباط/فبراير ١٩٢٩ والذي منح رعايا الدولة العثمانية السابقين المقيمين في مصر إقامة مستمرّة منذ عام ١٩١٤ الجنسية المصرية إلاّ إذا اعترضوا على ذلك خطّياً[٥٤]. وتزامن ذلك مع خطوات متنوّعة لإحلال الكفاءات المحلّية في مناصب رفيعة في الإدارة والصحافة كان يشغلها من قبل أوربّيون أو أفراد من الأقلّيات الأجنبية المقيمة بمصر ولا سيّما من المهاجرين الشوام المسيحيين.

كان القطر المصري كذلك بؤرة اهتمام عدد من الحركات القومية المتشدّدة التي نشأت حينذاك، وإن اعتبرت الدين الإسلامي جزءاً لا يتجزأ من الهوية الوطنية. وجدت هذه الحركات دعامتها في شباب المدن المتعلّم الذي لم يرَ مثله العليا الوطنية ممثّلة بحزب من الأحزاب القائمة، ومن بين المجموعات الأكثر تطرّفاً جمعية مصر الفتاة التي أسّسها عام ١٩٣٣ كلّ من أحمد حسين وفتحي رضوان، وهما من خريجي كلّية الحقوق. مثّلت مصر أيضاً قطب الرحى للوطنية الليبرالية

العلمانية التي كانت تجسّد الإيديولوجية السائدة في العشرينات، لكنّ الصرامة التي جعلت بها الحركات الجديدة الأمّة المصرية قيمة في ذاتها غنيّة عن التبرير والتحمّس إليها مقياساً سياسياً واجتماعياً كانت غريبة من الأساس عن الآراء القومية لليبراليين.

فرض هذا التطوّر على المهاجرين الشوام من أمثال ميّ زيادة ضرورة ملحّة للاندماج والتكيّف مع بيئتهم إن أرادوا ألا يُعتبروا دخلاء على المجتمع المصري. فقبلت الكاتبة كالكثير من أبناء جلدتها التجنّس في مصر و لم تقرّر اختيار الجنسية اللبنانية[٥٥]. كانت حريصة على أن تحظى بالاعتراف التامّ كعضو في المجتمع المصري شأنها في ذلك شأن أغلبية المثقّفين من أصل شامي في مصر آنذاك، فأخذت تبرز حرصها هذا في كتاباتها التي عبرت فيها عن انتمائها إلى مصر أكثر من أيّ وقت مضى.

في كتاباتها الباكرة كانت تستند ميّ زيادة كغيرها من الكتّاب الشوام المسيحيين في مصر إلى هوية عربية كان يمكن لكلّ من الشوام والمصريين، المسيحيين والمسلمين أن يساهموا فيها على حدّ سواء، وأساسها التاريخ والثقافة واللغة المشتركة. إنّ استعارتها اسم ميّ عوضاً عن اسمها الحقيقي ماري كان تعبيراً واضحاً عن هذا الشعور بالانتماء. مع انهيار الدولة العثمانية وإقامة دول الانتداب في بلاد الشام واستقلال مصر الشكلي، واجه المهاجرون الشوام في مصر ومن ضمنهم ميّ وضعاً متغيّراً، وجدوا أنفسهم فيه محرومين من روابطهم القديمة، ولم يشعروا بالانتماء حقّاً لا لبلدهم الأصلي ولا لبلدهم المضيف. فعبّرت ميّ زيادة سنة ١٩٢٢ في قصيدتها المنثورة «أين وطني؟»[٥٦] عن هذا الشعور لمن لا وطن له ولا جذور ليظلّ عنصراً مميّزاً في مؤلّفاتها الصادرة في أوائل العشرينات، والتي أفصحت فيها عن ولائها للبلد الذي احتضنها وهو مصر، بقدر ما أبدت فيها حنينها للبلدين اللّذين وُلدت ونشأت فيهما وهما فلسطين ولبنان. في النصف الثاني من العشرينات توارت أمثال هذه الذكريات المليئة بالحنين لأماكن طفولتها وشبابها، فلم تحشد الكاتبة اهتمامها بالقضايا الوطنية والاجتماعية في مصر فحسب، بل بدأت تتعاطف بشكل ملحوظ مع قيم المجتمع الوطني الجديد ورموزه ومؤسّساته. وبرز هذا التعاطف على سبيل المثال في تبنّيها استعارات وعبارات مشبعة بالروح الوطنية السائدة في مصر آنذاك. كانت ميّ تعتبر نفسها وخاصّة بعد تجنيسها سنة ١٩٢٩ جزءاً من المجتمع المصري، فأرادت أن تعامل بالمثل. وهي وإن ظلّت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفلسطين ولبنان ولم ترَ النهضة المصرية منفصلة عن النهضة العربية قطّ،

إلا أنّ مصر كانت هي البلد الذي شعرت بالانتماء المباشر إليه فبذلت قصارى جهدها في سبيل رقيه.

لعلّ ميّ زيادة لم تبدِ تماهيها هذا مع مصر في أيّ من كتاباتها بنفس الحزم والاستمرار الذي أبدته به في افتتاحياتها بجريدة «الأهرام». إذ تعاود فيها مراراً وتكراراً ذكر ثورة ١٩١٩ تلك الثورة الموحّدة لأمّة بكلّ اختلافاتها التي أصبحت أسطورة، والتي تعدّها من أهمّ المؤثّرات في مجرى حياتها في حديثها الصحفي المعروف سنة ١٩٣٠ مع سلامة موسى لمجلّة «الهلال»[٥٧]. وتخصّص أكثر من مقال بحجم صفحة كاملة لذكرى سعد زغلول زعيم الحركة الوطنية المصرية[٥٨]، كما تذكّر في عدّة مواضع أخرى بأبطال الكفاح المصري من أجل الاستقلال[٥٩]. وتؤيّد بإصرار مطلب الليبراليين على اختلاف مشاربهم في العشرينات بأنّه لا يكفي أن تكون مصر للمصريين بل يجب أن تكون مصرية[٦٠]. فتنوّه في عدد من افتتاحياتها بمجهودات طلعت حرب وبنك مصر من أجل استقلال مصر الاقتصادي[٦١]، وترحّب بحماس بحركات شبابية مثل «مشروع القرش» الذي أنشأه عام ١٩٣١ بعض طلبة كلّية الحقوق لدعوة كلّ المصريين إلى التبرّع بقرش واحد لبناء مصانع تكون فقط في حوزة اليد المصرية وتحت إدارتها[٦٢]. حتّى في الفترة التي تنحدر فيها سمعة المشروع بسبب انشقاق المجموعة من حول أحمد حسين عنه وتأسيسها جمعية «مصر الفتاة» القومية المتطرّفة، تظلّ الكاتبة متمسّكة بالفكرة وتنادي الأعضاء للحفاظ على وحدتهم والابتعاد عن الخلافات السياسية لصالح القضية[٦٣]. وفي سنة ١٩٣٠ تطالب في إحدى افتتاحياتها بتشجيع الطيران المصري وتلقي كلمة تُنشر لاحقاً أيضاً في الصفحة الرئيسية من «الأهرام» تكريماً لأوّل طيّار مصري قاد طائرة من أوربّا إلى مصر[٦٤]. وبعد مرور ثلاث سنوات حين ترثي مصر أولى ضحايا طيرانها، تتوّجه في افتتاحية أخرى إلى الأمّة الحزينة تدعوها فيها إلى رفع العلم بدلاً من تنكيسه رمزاً لفخرها وعزمها على تحدّي الهزيمة[٦٥]. وتتبع مقالها ذلك بتحيّة إعجاب «إلى النسور المصرية الظافرة» في قالب الشعر المنثور لا تُنشر في الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام» فحسب بل أيضاً باللغة الفرنسية في مجلّة *L'Egyptienne* [٦٦].

وكما هو معروف كان للجهود القائمة في العشرينات لإنشاء اقتصاد وصناعة مصريين مستقلّين نظيرها في المساعي لخلق ثقافة وأدب مصريين صادقين، وهو ما بادر به على وجه الخصوص كتّاب الطليعة الشبّان الذين عُرفوا بـــ«المدرسة الحديثة» والتي أُسّست عام ١٩٢٥ إضافة إلى غيرهم من الأدباء المعاصرين مثل محمّد حسين هيكل وسلامة موسى. أمّا ميّ زيادة فلم

تشارك في أيّ مناسبة في هذه الدعوة إلى ثقافة وأدب قوميين بصراحة. إلاّ أنّنا نجد في مقالاتها بجريدة «الأهرام» وفي سائر أعمالها الصادرة في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات العديد من الإشارات المماثلة إلى هوية مصر الثقافية الفريدة من نوعها، والتراث الفرعوني كأحد مقوّمات تاريخها، ومحيطها الريفي الخاصّ المميّز بظروفها المناخية المعتدلة وأرضها الخصبة والفلاّح البسيط كعنوان لقيم وفضائل مصرية أصيلة، إلى آخره. كذلك تحتضن ميّ زيادة فكرة أدب قومي يتميّز بالطابع المصري ويهتمّ بمواضيع مصرية خالصة، على سبيل المثال في كلمة إذاعية ألقتها بمناسبة عيد الوفاء عام ١٩٣٤ حيث تجعل النيل، منبع حياة الحضارة المصرية، يعلو صوته ليتحدّث عن نفسه بكونه مبعث عظمة الماضي والمستقبل[٦٧]. كما أنّها باستخدام اللهجة المصرية غير مرّة في الحوار تتماشى أيضاً ومبدأ أصالة الأدب المصري الذي ذاد عنه خصوصاً ممثّلو «المدرسة الحديثة»[٦٨]. بيد أنّ مفهوم الثقافة القومية الذي راج بين الليبراليين المصريين آنذاك ولو لمدّة قصيرة، كان يهدف إلى الحفاظ على الهوية الثقافية المصرية في مواجهة تأثير الثقافة الأوربّية مع الابتعاد عن التراث العربي والإسلامي في الوقت ذاته، في حين ترسم ميّ زيادة في مقالاتها صورة ثقافة وطنية تتميّز بالتبادل المستمرّ مع غيرها من الثقافات لا بالانعزال عنها، ثقافة ترسخ في التاريخ والتقاليد المصرية ومن ثمّ تكون حرّة لتنفتح على ثقافات أخرى وتأخذ منها ما تريد وفقاً للحاجة والقدرة دون أن تفقد صفة من صميم صفاتها. ويصبح العنصر الجامع بين الشعوب في تصوّر الكاتبة بصفة عامّة ميزة جوهرية للثقافة المصرية مستمدّة من تاريخ مصر الممتزج بالحضارات ومن موقعها الجغرافي كنقطة الالتقاء بين الشرق والغرب وبين إفريقيا وآسيا[٦٩]. كذلك يحيا الأدب الوطني بالحوار مع غيره من الآداب، يلهمها ويستلهم منها ليعيد تعريف نفسه دائماً من جديد. وهكذا تردّ ميّ زيادة على استفتاء وجّهته صحيفة «المقطّم» عام ١٩٣٤ إلى طائفة من الأدباء حول سؤال «هل الأدب العربي في غنى عن الأدب الغربي؟» قائلة: «... إذا ابتغى أدبنا الانتحار بالجوع فليبتعد عن الأدب الغربي. أمّا إذا كان حقّاً تائقاً إلى الحياة فليستنر بمصباح الغرب ليكتشف خفايا أغواره مخرجاً منها التحف والنفائس»[٧٠]. ويغلب على الظنّ أنّها لم تلقَ كثيراً من الاستحسان بمثل هذا الموقف في زمن كان فيه من بين القوميين الليبراليين أنفسهم من ينادي بالإعراض عن أوربّا ولو لم يستطع التملّص من تأثيرها حقّاً.

تغيّرات في الصحافة المصرية خلال الثلاثينات وتأثيراتها على ميّ زيادة

في نطاق العودة إلى الإسلام من ناحية وتمصير الدولة والمجتمع من ناحية أخرى تغيّر وجه الصحافة المصرية في أواخر العشرينات ولا سيّما في الثلاثينات بشكل ملحوظ، حيث ظهرت دوريات شتّى ذات اتّجاه إسلامي من بينها مجلّة «الرسالة» الأسبوعية لمحرّرها أحمد حسن الزيّات التي حاولت ربط الثقافة الحديثة بالتراث العربي الإسلامي، وقد نجحت منذ تأسيسها عام ١٩٣٣ في استجلاب عدّة أدباء ومثقّفين بارزين مصريين وعرب للتحرير فيها من بينهم ميّ زيادة لتصبح في ظرف قصير إحدى المجلاّت الأدبية الأكبر نفوذاً في مصر. كما مالت بعض كبريات الصحف والمجلاّت التي كانت ما تزال في يد الشوام المسيحيين والتي كانت لعبت في الماضي دوراً هامّاً في نشر الأفكار الغربية إلى مماشاة الظروف الاجتماعية المستجدّة. وقد أخذت «الهلال»، ولعلّها أشهر المجلاّت الثقافية بمصر في فترة ما بين الحربين تحت رئاسة إميل زيدان، تركّز في الثلاثينات أكثر وأكثر على مواضيع عربية إسلامية، وأصبحت منبراً يكاد يضمّ فقط أدباء ومفكّرين مصريين(٧١). هكذا تراجع في تلك الأعوام على نحو واضح عدد مساهمات ميّ زيادة التي كانت قد أكثرت قبل ذلك من الكتابة لمجلّة «الهلال». أمّا «المقتطف» ثاني أكبر المجلاّت الثقافية بمصر، وإن كان توجّهها علمياً أكثر منه تاريخياً أدبياً، فظلّت تحت إشراف فؤاد صرّوف إلى حدّ بعيد وفية لمنهجها القديم من حيث اعتمادها على كتّاب شوام وتركيزها على مواضيع تتميّز بالفكر العلماني الغربي ولا تركّز بالضرورة على الخصوصية المصرية الإسلامية(٧٢). على أنّها أصدرت عام ١٩٣٦ ملحقاً تناول التراث الفرعوني وفي السنتين التاليتين ملحقين آخرين أوّلهما عن مصر الإسلامية والثاني عن المظاهر المجيدة للحضارة الإسلامية(٧٣). وقد بقيت ميّ زيادة على عهدها تكتب لهذه المجلّة إلى منتصف الثلاثينات. إنّ «الهلال» لم تضمن لنفسها من خلال تحويل اتّجاهها البقاء فحسب بل نجاحاً متواصلاً. أمّا «المقتطف» فخسرت مكانتها السابقة شيئاً فشيئاً. ويبدو أنّ «الأهرام» أدركت مثل «الهلال» وجوب مسايرة التطوّرات رغم أنّ الجريدة حسب بعض الدراسات المتعلّقة بالموضوع لم تتّخذ الخطوات الأولى نحو تمصير إدارة تحريرها إلاّ في الأربعينات(٧٤). ومهما يكن من أمر فيظهر أنّ إدارة «الأهرام» لم تعد ترى من الملائم أن تحتفظ بمهاجرة لبنانية مسيحية ككاتبة افتتاحيات. فبرزت فجأة في حزيران/يونيو ١٩٣٥ كاتبة شابّة لم يتجاوز سنّها الثلاثة والعشرين منافسة لميّ زيادة بمقالاتها على الصفحة الرئيسية للجريدة وهي عائشة عبد الرحمن التي جاءت تجسيداً لنواحٍ جدّ مختلفة عمّا كانت تمثّله زميلتها الشهيرة، موافقة بذلك متطلّبات العصر على أتمّ وجه: فهي بنت أزهري كان يدرّس في مدرسة دينية بدمياط،

مسلمة متديّنة، كانت تكتب باسم مستعار هو «بنت الشاطئ» مشيرة بذلك ليس فقط إلى هويتها المصرية بل أيضاً إلى أصلها الريفي. فلم يكن من باب الصدفة أنّها تناولت في افتتاحياتها الأولى في «الأهرام» قضية الفلاّحين المصريين[٧٥]. كان لعائشة عبد الرحمن أن تظلّ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الصحيفة منذ ذلك الحين لمدّة تجاوزت الستّة عقود لتصبح من أبرز شخصيات الأدب العربي المعاصر، لا سيّما من خلال أبحاثها عن الإسلام والقرآن الحائزة بجوائز عدّة ومن بينها ترجماتها لسيّدات بيت النبوّة. أمّا ميّ زيادة فأطبق عليها الصمت بغتة. في نهاية شهر حزيران/يونيو من سنة ١٩٣٥ ظهرت آخر افتتاحية لها في «الأهرام». كما انقطعت في الأسابيع التي تلت ذلك منشوراتها في صحف ومجلاّت أخرى. مثلما يخلف عصر الآخر، خلفت الكاتبة المصرية المسلمة الكاتبة اللبنانية المسيحية. وهنا تتجلّى القطيعة الحقيقية في سيرة ميّ زيادة. إنّ الاندماج في المجتمع الذي كانت تطمح إليه بوصفها امرأة ومسيحية ومهاجرة ساعية لتحقيقه عن طريق صالونها الأدبي وكتاباتها وكلماتها والذي شاهدت بروزه إلى ضوء الواقع وهي كاتبة افتتاحيات في «الأهرام» تكشّف لها في آخر المطاف عن سراب.

لا بدّ من إعادة تقييم هذه الكاتبة وأعمالها على ضوء تطوّرات عصرها

إنّ الأمر ليبدو وكأنّه إمعان من التاريخ في سخريته حين يعزو مؤلفّو الكتب والمقالات عن ميّ زيادة انهيارها النفسي في أخريات صيف ١٩٣٥ المرّة تلو الأخرى إلى ظروف حياتها الشخصية، بغضّ النظر عن السياق السياسي الاجتماعي. إنّ الكتابات العائدة إلى الفترة الأخيرة من حياتها والمضمّنة في هذه المجموعة لا سيّما افتتاحياتها في «الأهرام»، تبرز مدى نقص هذه التعليلات وقصورها عن فهم شخصية ميّ زيادة ومراميها. لا يمكن شرح النهاية المأساوية لهذه الكاتبة بملمّات شخصية عجزت عن مواجهتها لكونها وحيدة عزباء، فقد كتبت بثبات جدير بالإعجاب ضدّ الحزن والوحدة، ونجحت في تحويلهما إلى إبداع. إنّما ترجع مأساتها إلى الخلافات والتناقضات في مجتمع كان يحاول انتهاج أساليب الحضارة الغربية الحديثة، في وقت كان واقعاً تحت احتلال ذلك الغرب ذاته، مجتمع أظهر في البداية استعداداً كبيراً للتخلّي عن قيمه وعاداته الموروثة، ثمّ لم يلبث أن عاد إليها لتثبيت هويّته، فأبعد القوى التي لم تعد تبدو مسايرة لأهدافه. إنّ النجاح المبدئي لهذه الكاتبة ثمّ فشلها اللاحق مرتبطان بالنجاح المبدئي لمشروع بعينه ثمّ فشله اللاحق، ألا وهو مشروع النهضة التي طالما سمّيت بالتنوير العربي استناداً إلى تسمية النموذج الأوروبّي. ومن ذلك بالتحديد تستمدّ شخصية ميّ زيادة قوتها الرمزية المتواصلة فتصبح لدى

البعض رمزاً لأروع معاني الشوق والحنين، ولدى البعض الآخر عرضة للرفض والمجافاة، تارة ممجّدة وتارة مثلوبة، وفي كلتا الحالتين مسخّرة لمختلف المصالح، لكنّها لا تقابل قطّ بغير تحيّزات من نوع أو آخر.

إنّ الوصم بتهمة الجنون وسيلة معروفة وناجعة للتهميش الاجتماعي، تغني عن أيّ نقاش آخر. وهو ما يؤكّده تأكيداً قاطعاً نوع الاهتمام الذي لاقته أعمال ميّ زيادة في الماضي. إنّ أكثر من نصف قرن مضى بدون أن يتمّ إمعان النظر في الإنتاج المتأخّر لهذه الكاتبة. أمّا الآن وقد توفّرت معظم كتاباتها المنسيّة فقد أضحى هذا واجباً يصعب التهرّب منه.

---

(١) فيما يتعلّق بأهمّ السير والدراسات الصادرة حول ميّ زيادة منذ عام ١٩٤١ ومجموعات أعمالها الحديثة العهد، راجع بالتفصيل مقالي:
"Al-ḥaraka baraka! The Late Rediscovery of Mayy Ziyāda's Works", in: *Die Welt des Islams* 39 (Leiden 1999) 1, pp.104-115.
ويجب الإشارة إلى الكتب التالية التي ظهرت بعد صدور المقال المذكور أعلاه: سميحة كريّم، ميّ زيادة كاتبة العربية في القرن العشرين، (مشاهير الكتّاب العرب للناشئة والشباب)، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٩؛ نوال مصطفى، ميّ زيادة: أسطورة الحبّ والنبوغ، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ٢٠٠٠ (الطبعة الثالثة ٢٠٠٣)؛ فاروق سعد، السرّ الموزّع للآنسة ميّ، بيروت: دار الثقافة ٢٠٠٣، و
Raif Georges Khoury, *Mayy Ziyāda (1886-1941) entre la Tradition et la Modernité ou le Renouvellement des Perspectives Culturelles et Sociales dans son Œuvre à l'image de l'Europe*, (Tradition et modernité dans le monde arabe – hier et aujourd'hui, Études IV), Edingen-Neckarhausen (deux mondes) 2003.

(٢) انظر محمّد عبد الغني حسن الذي أجرى مجموعة من المقابلات مع أصدقاء ومعاصرين لميّ زيادة بعيد وفاتها بتكليف من مجلّة «المقتطف» ونشرها في كتاب «حياة ميّ»، القاهرة: مطبعة المقتطف ١٩٤٢، ثمّ رأى في طبعة موسّعة ومصحّحة لهذا الكتاب بعنوان «ميّ أديبة الشرق والعروبة»، القاهرة: أعلام الكتب ١٩٦٤، ص ٤٥، أنّ ميّ انقطعت عن التأليف اعتباراً من سنة ١٩٣٠، وهو ما لم يذكره في الطبعة الأولى، الأمر الذي عارضته وداد سكاكيني في «ميّ زيادة في حياتها وآثارها»، القاهرة: دار المعارف ١٩٦٩، ص ١٧٧-١٧٨، وقد استندت ضمن ما استندت إليه إلى الدكتور فؤاد صرّوف رئيس تحرير «المقتطف» الذي أشار بوضوح في كتابه «على الطريق»، بيروت: مطبعة قلفاط ١٩٥٤، ص ٢١٨، إلى إصدارات ميّ في تلك المجلّة حتّى النصف الثاني من سنة ١٩٣٥. بل ذهب وديع فلسطين في «مي: حياتها وصالونها وأدبها»، الفجّالة والإسكندرية: دار ومطابع المستقبل ١٩٦٨، ص ٦٤، إلى القول بأنّ ميّ حاولت بعد

سنة ١٩٣٠ أن تزيد نفسها انشغالاً في الكتابة الأدبية فحقّقت فيها أفضل إنجازاتها. ورغم تلك الاعتراضات ظلّ يسود الافتراض أنّ ميّ أحجمت عن الكتابة منذ عام ١٩٣٠.

(٣) انظر فاروق سعد، باقات من حدائق ميّ، بيروت: منشورات زهير بعلبكي ١٩٧٣، وروز غريّب، ميّ زيادة: التوهّج والأفول، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٧٨.

(٤) المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢.

(٥) انظر المرجع السابق، ج ٢، ص ١٠١-٢٨٣.

(٦) سلمى الحفّار الكزبري، ميّ زيادة أو مأساة النبوغ، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٧، ج ٢، ص ٤٧٧-٥٤٣.

(٧) نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة، إعداد أنطوان محسن القوّال، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٣.

(٨) الأعمال المجهولة لميّ زيادة، تحقيق جوزيف توفيق زيدان، تقديم غادة السمّان، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي ١٩٩٦.

(٩) أحمد حسين الطماوي، ليلة باسمة في حياة ميّ: دراسة أدبية، (سلسلة المجهول من تراث الأعلام)، القاهرة، طرابلس، لندن: دار الفرجاني ١٩٩٦، ص ١٣٥-٢٧٨.

(١٠) نوال مصطفى، المرجع السابق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣، ص ١٦٧-٣٤٥. بخصوص المسلسل التلفزيوني المذكور للمنتج محمّد شعبان، راجع على سبيل المثال الخبر المُعنْون «ميّ زيادة تشعل الحرب بين دلال وليلى ويسرا» في باب «مواضيع خاصّة» لجريدة «الرأي العامّ» الكويتية بتاريخ ٢١ تمّوز/يوليو ٢٠٠٤.

(١١) نُشرت هذه الأقصوصة حسب Raoul Fargeon, *Silhouettes D'Egypte (Lettrés et Mondains du Caire)*, Le Caire (Éditions De "Orient") 1931, p. 40 على حلقتين في مجلّة *The Sphinx* القاهرية، لكنّ فارغون لم يذكر للأسف تاريخ صدورها. أمّا الكزبري التي تشير إليها في مقدّمتها لـ«المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٧، وكذلك في كتابها «ميّ زيادة أو مأساة النبوغ»، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٥، فتذكر شيئاً مختلفاً، مشيرة إلى رواية (وليس أقصوصة) صدرت في فصول متسلسلة وترجح أنّها نُشرت سنة ١٩١٧ وهي تعتمد في ذلك إلى جانب فارغون على حديث صحفي أجراه جرجي نقولا باز مع ميّ زيادة ونشره تحت عنوان «في حنائن الأدب: من هي ميّ؟» عام ١٩٢٣ في مجلّة «الفجر» البيروتية. بينما يفترض Khoury، المرجع السابق، ص ١٩٠، مشيراً إلى المعلومات الواردة في مقدّمة الكزبري بأنّ ميّ لم تكتب الرواية المذكورة باللغة الإنجليزية بل ترجمتها من الإنجليزية. وبما أنّ أعداد المجلّة ما زالت مفقودة حتّى اليوم فليس بإمكاننا البتّ في ما إذا كانت أقصوصة أم رواية أم ترجمة لرواية.

(١٢) انظر في هذه المجموعة قصصها القصيرة «العمّ أبو حسن يستقبل»، الهلال، س ٣٣، ج ١، تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٤، ص ٧٣-٧٧ [٤]، و«في عالم الوحدة والمجد»، الهلال، س ٤٢، ج ٦،

نيسان/أبريل ١٩٣٤، ص ٦٤٨-٦٥١ [٥]، و"Amia (Souvenirs du Liban)"، مجلّة *L'Egyptienne*، س ٤، ع ٣٦، آذار/مارس - نيسان/أبريل ١٩٢٨، ص ٢١-٢٤ [٢].

(١٣) «كيف أؤلّف قصصي؟»، مجلّة كلّ شيء والدنيا، ع ٤٩٨، ٢٢ آيار/مايو ١٩٣٥، ص ٣٠. جواب ميّ زيادة عن هذا السؤال مضمّن كذلك في «نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة»، المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

(١٤) انظر الطماوي، المرجع السابق، ص ٦٤. حسب سكاكيني، المرجع السابق، ص ٢٠٣، كانت ميّ زيادة في آخر أيّامها تهيّئ مجموعة قصصية للطبع لم يُعرف مصيرها. ولكن للأسف لم تشر الكاتبة إلى المصدر الذي يستند إليه زعمها.

(١٥) بخصوص كامل كيلاني وقصصه للأطفال انظر على سبيل المثال عبد الرحمن محمّد بدوي، كامل كيلاني وسيرته الذاتية، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٩٩، ص ٣٥-٤٥.

(١٦) انظر رسالة كامل كيلاني إلى ميّ زيادة بتاريخ ٢٦ شباط/فبراير ١٩٢٩ في كتاب «ميّ زيادة وأعلام عصرها: رسائل مخطوطة لم تُنشر ١٩١٢-١٩٤٠»، جمع وتقديم وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ص ٣٥٨.

(١٧) انظر باب «مقدّمة لكتاب» في هذه المجموعة.

(١٨) من رسالة يعقوب صرّوف إلى ميّ زيادة المنشورة في «ميّ زيادة وأعلام عصرها: رسائل مخطوطة لم تُنشر ١٩١٢-١٩٤٠»، المرجع السابق، ص ٦٧-٦٨.

(١٩) انظر الإشارة إلى مقدّمة ميّ زيادة لرواية صرّوف هذه في:
Aida Adib, *Mayy Ziyadah and Her Contribution to Arabic Literature*, M.A. thesis, The American University of Cairo, Center for Arabic Studies, December 1966, p.130.

(٢٠) نُشر هذا المقال في «المقتطف»، ج ٧١، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٧، ص ٢٦٠-٢٦٢، وهو مضمّن كذلك في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٣-١٧٦.

(٢١) انظر «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، المرجع السابق، ص ٣٢٩-٤٧٢.

(٢٢) أنظر على سبيل المثال إشارة سكاكيني، المرجع السابق، ص ٧٨: «ومنذ عام ١٩٢٢ لمع اسمها في جريدة «الأهرام» فكانت تكلّفها أن تكتب المقال الرئيسي لفاتحة الجريدة من حين إلى حين وبقيت ميّ تختصّ «الأهرام» بأطرف الموضوعات وأروع السوانح حتّى عام ١٩٣٥». على أنّ سنة ١٩٢٢ التي تذكرها سكاكيني تبدو غير صحيحة إذ أنّ نتائج بحثي تبيّن أنّ ميّ زيادة لم تكتب في «الأهرام» قبل سنة ١٩٢٥.

(٢٣) انظر «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢٤) حسب حافظ محمود، عمالقة الصحافة، القاهرة: دار الهلال ١٩٧٤، ص ١٢٠، لم تقبل ميّ زيادة عرض الجريدة أن تتولّى تحرير القسم النسائي لأنّها كانت ترفض هذا الشكل من التخصّص، وابتكرت بدلاً من ذلك باباً جديداً تحت عنوان «خليّة النحل» ليطرح فيه من شاء من القرّاء أسئلته ويمكن لقرّاء آخرين الإجابة عليها. إنّ هذا الوصف بعضه غير صحيح. فقد تولّت الكاتبة مسؤولية هذا القسم ابتداءً من العدد

٣٥ للجريدة بتاريخ ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦. وفي العدد ٣٦ تغيّر اسم القسم إلى «القسم النسائي والاجتماعي» ثمّ في العدد ٣٩ إلى «النسوي الاجتماعي». أمّا ركن «خليّة النحل» الذي ابتكرته ميّ زيادة فكان ركناً خاصّاً ضمن هذا القسم. لمزيد من التفاصيل انظر محمّد سعيد محمّد، هيكل والسياسة الأسبوعية، (تاريخ المصريين، ٩٨)، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٩٦، ص ١٣٩ و ٢٤٠-٢٤١.

(٢٥) انظر المرجع السابق، ص ٣٢٧-٣٣١.

(٢٦) انظر المرجع السابق، ص ١٣٢-١٣٣ و١٤٥-١٤٦.

(٢٧) انظر المرجع السابق، ص ١٦٨-١٧٩.

(٢٨) انظر على سبيل المثال حافظ محمود، المرجع السابق، ص ١١٧، ووديع فلسطين، المرجع السابق، ص ١٥-١٦.

(٢٩) انظر المرجع السابق، ص ١٦.

(٣٠) انظر في هذا الصدد الكزبري، المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٧.

(٣١) من الأمثلة المعروفة لهذا النوع الأدبي باب «خطرات نفس» لمنصور فهمي الذي نُشر منذ ١٩٢٢ لبضع سنوات على الصفحة الرئيسية لعدد يوم الجمعة من جريدة «الأهرام» قبل أن يُجمع في كتاب نشرته مطبعة المعارف عام ١٩٣٠ بالقاهرة.

(٣٢) سبق أن أشار زيدان في مقدّمة مجموعته «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، المرجع السابق، ص ٢٥، إلى أنّ رأي جلّ الذين كتبوا عن ميّ زيادة أنّها لم تكن تُعنى بالسياسة، لا يمكن التمسّك به لا سيّما بالنظر إلى مقالاتها في «الأهرام» وإن أسهمت الكاتبة نفسها في خلق هذا الانطباع من خلال أقوالها.

(٣٣) انظر على سبيل المثال افتتاحيتيها «الآن تبتدئ أزمة المحاكم المختلطة»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٧٤٤، ٤ آيار/مايو ١٩٣٤، ص ١ [١٠٦]، و«عنوان لمن يريد»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٩٥٩، ٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١ [١٢١]، في هذه المجموعة.

(٣٤) انظر افتتاحيتيها «حول تغيير أسماء الشوارع وهدم الآثار»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠١٣، ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٢٩، ص ١ [٥٨]، و«عند مهد الوجع»، الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨١٦، ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، ص ١ [٣٦]، وغيرهما في هذه المجموعة.

(٣٥) انظر افتتاحياتها «قانون تنظيم الصحافة المزعوم لا يمكن أن يصدر!»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٧٣، ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٣٤، ص ١ [١١٧]، و«حول قانون الصحافة الذي لن يصدر»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٩٧، ٤ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٣٤، ص ١ [١١٩]، و«حول مكافحة المسكرات»، الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٤٠، ١٧ شباط/فبراير ١٩٣٥، ص ١ [١٢٦]، وغيرها في هذه المجموعة.

(٣٦) انظر افتتاحيتها «خواطر في الحكومات والشعوب»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٤٨، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٧].

(٣٧) انظر سلسلتي مقالاتها «كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٨٠، ٢ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ [٤٤]؛ ع ١٥٨٩٤، ١٦ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ [٤٦]؛ ع ١٥٩٠١، ٢٣ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ [٤٧]؛ ع ١٥٩٠٣، ٢٥ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ [٤٨]؛ ع ١٦١٠٧، ٨ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٣]؛ ع ١٦١٥٢، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٨]؛ ع ١٦١٧٠، ١١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ [٧٠]؛ ع ١٦١٨٠، ٢١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ [٧١]، و«أ.ب.ج.د - أبجد: مشكلة المشاكل في مصر: التعليم»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٧٢، ١٨ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ [١٠٣]؛ ع ١٧٦٨٠، ٢٦ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ [١٠٤]؛ ع ١٧٦٩٤، ١٢ آذار/مارس ١٩٣٤، ص ١ [١٠٥].

(٣٨) انظر افتاحيتها «حول البوليس النسوي في مصر»، الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢٣٣، ١٢ شباط/فبراير ١٩٣٠، ص ١ [٧٧].

(٣٩) انظر المقالتين اللتين نشرهما أمير بقطر رداً على ميّ على الصفحة الرئيسية لجريدة «الأهرام» تحت عنوان «رجعية غير منتظرة في التعليم الإجباري»، ويشار إليهما بالتفصيل في هوامش الحلقتين (٧) و(٨) من سلسلة مقالاتها «كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٠، ١١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ [٧٠]، وع ١٦١٨٠، ٢١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ [٧١]. انظر أيضاً سلسلة مقالاته المذكورة في الهامش (٧) من مقالتها «أ.ب.ج.د = أبجد: مشكلة المشاكل: التعليم (١)»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٧٢، ١٨ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ [١٠٣].

(٤٠) انظر الخطاب المفتوح بعنوان «ماذا تقرأ عروسك؟؟؟» المشار إليه في الهامش (٢) من افتاحية ميّ زيادة «جواب إلى السائل عن قائمة كتب لعروسه»، الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٣٨٤، ٣ آيار/مايو ١٩٣٣، ص ١ [٩٨].

(٤١) انظر على سبيل المثال مقالات هيكل «النور الجديد»، الهلال، شباط/فبراير ١٩٢٨، ص ٣٩٩-٤٠٣، و«نهاية الحضارة الغربية»، الهلال، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ٥٧-٦٠، و«حضارة الشرق»، السياسة الأسبوعية، ٢٩ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٨، ص ٣-٤، و«العقل والروح»، السياسة الأسبوعية، ١٨ آيار/مايو ١٩٢٩، ص ٣-٤.

(٤٢) صدر «حياة محمّد» ١٩٣٢-١٩٣٤ كسلسلة مقالات في «السياسية الأسبوعية» وفي سنة ١٩٣٥ بالقاهرة ككتاب. بخصوص تغيّر آراء هيكل في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات انظر:

Baber Johansen, *Muḥammad Ḥusain Haikal: Europa und der Orient im Weltbild eines ägyptischen Liberalen*, (Beiruter Texte und Studien, Bd. 5), Wiesbaden (Franz Steiner Verlag) 1967, S. 125-212; Charles Smith, *Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt: A Biography of Muḥammad Ḥusayn Haykal*, Albany (State University of New York Press) 1983, pp. 96-113; David Semah, *Four Egyptian Literary Critics*, (Studies in Arabic Literature, 3), Leiden (Brill) 1974, pp. 97-100.

(٤٣) لمزيد من التفاصيل انظر:

Israel Gershoni / James P. Jankowski, *Redefining the Egyptian Nation 1930-1945*, (Cambridge Middle East Studies, 2), Cambridge (Cambridge University Press) 1995, pp. 54-78.

(٤٤) بخصوص هذا النداء انظر على سبيل المثال مقال إسماعيل شلبي شعفان «لا وطن إلاّ بالدين» في مجلّة «الفتح» الأسبوعية، ٥ آيار/مايو ١٩٢٧، ص ١٣-١٥، وقد أصدر محبّ الدين الخطيب أحد مؤسّسي جمعية الشبّان المسلمين هذه المجلّة بالقاهرة اعتباراً من عام ١٩٢٦.

(٤٥) انظر نصّ محاضرتها «شبّاننا والحياة الجديدة»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٣٥، ٣١ آذار/مارس ١٩٢٩، ص ١ و٥ [٥٢].

(٤٦) فيما يتعلّق بتصوّر تناقض جوهري بين الشرق والغرب في نهاية العشرينات وخصوصاً في بداية الثلاثينات لم يقتصر على أتباع الجمعيات الإسلامية فحسب، بل شمل أيضاً مجموعة من المثقّفين المصريين أمثال محمّد حسين هيكل ومنصور فهمي ومحمّد لطفي جمعة وحافظ محمود الذين كانوا من قبل يؤيّدون تأييداً قاطعاً تحديث مصر حسب النموذج الغربي، انظر Gershoni / Jankowski، المرجع السابق، ص ٣٥-٥٣.

(٤٧) انظر افتتاحيتها «جولة في بورت سعيد»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠٨٠، ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ١ [٥٩].

(٤٨) انظر افتتاحيتها «لمناسبة حركة التطهير الأخلاقي في العاصمة»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٧٣، ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٢٩، ص ١ [٤٣].

(٤٩) انظر افتتاحيتها «خطاب مفتوح: إلى الأستاذ محمّد فريد وجدي»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٧٩، ١٩ آيار/مايو ١٩٢٩، ص ١ [٥٦] والإشارة إلى جواب وجدي «إلى الآنسة الفاضلة ميّ» في الهامش (٣) من تلك الافتتاحية.

(٥٠) انظر افتتاحيتها «حول مؤتمر محاربة المسكرات»، الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٤٩، ١٣ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ١ [٩٥] والإشارة إلى ردّ أحمد غلوش «بين الآنسة النابغة ميّ وجمعية منع المسكرات العامّة» في الهامش (٣) من تلك الافتتاحية.

(٥١) انظر افتتاحيتها «جمعية منع المسكرات العامّة بالقطر المصري تتكلّم بلسان رئيسها»، الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٦٠، ٢٤ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ١ [٩٧].

(٥٢) انظر افتتاحيتها «حول مكافحة المسكرات»، الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٤٠، ١٧ شباط/فبراير ١٩٣٥، ص ١ [١٢٦].

(٥٣) انظر افتتاحيتها «الثورة الفرنسية ورسالتها إلى العالم»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨١٥، ١٤ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١ [١١٠].

(٥٤) انظر

Thomas Philipp, *The Syrians in Egypt 1725-1975*, (Berliner Islamstudien, Bd. 3), Wiesbaden / Stuttgart (Franz Steiner Verlag) 1985, p. 145.

(٥٥) أنظر الصورة عن جواز سفر ميّ زيادة المصري في الكزبري، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٣٥-٢٣٧. بخصوص اتّخاذ أغلبية المهاجرين الشوام المقيمين بمصر آنذاك الجنسية المصرية انظر Philipp، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٥٦) انظر «المؤلّفات الكاملة: مي زيادة»، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٤-٣٦٨.

(٥٧) انظر نصّ الحديث الصحفي في «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، المرجع السابق، ص ٢٣٥-٢٣٧.

(٥٨) انظر افتتاحيتها «ذكرى جبّار الوادي» في ذكرى السنة السابعة لوفاة سعد زغلول، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٥٥، ٢٣ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١ [١١٥]، وافتتاحيتها الصادرة في الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٤١٩، ٢٣ آب/أغسطس ١٩٣٠، ص ١، تحت نفس العنوان في ذكرى السنة الثالثة لرحيل زغلول وهي مضمّنة في «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، المرجع السابق، ص ٣٥٣-٣٥٧.

(٥٩) انظر على سبيل المثال افتتاحيتها «ذكرى ١٣ نوفمبر»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٤٢، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٦].

(٦٠) جعلت ميّ زيادة هذا الشعار أيضاً عنواناً لمقالها «... بل مصر مصرية!»، الرسالة، س ١، ج ٢١، ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٣، ص ١١-١٢ [١].

(٦١) أنظر نصّ محاضرتها «رحلة إلى السويس»، الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨٢٤، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، ص ١ [٣٧]، وافتتاحيتها «صبغ يصبغ صبغاً فهو صابغ وهو صبّاغ ومصباغ على وزن مفضال»، الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٣٢، ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، ص ١ [٩٣]. انظر كذلك مقالها «مصر تنسج جلابيبها»، السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤١، ١٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٦، ص ٦-٧ [٥]، ومقابلتها الصحفية «طلعت حرب بك يتكلّم عن شركة الغزل والنسيج»، السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٧، ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧، ص ٦-٧ [٨]، وغيرها من المقالات في هذه المجموعة.

(٦٢) انظر على سبيل المثال افتتاحيتها «كأسي صغيرة ولكنّني أشرب من كأسي»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٩٨٤، ٣١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١ [١٢٤].

(٦٣) انظر افتتاحيتها ««خناقة» مهلهلة للشبّان المصريين»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٣٨، ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٣٤، ص ١ [١٠٢].

(٦٤) انظر افتتاحيتيها «لمناسبة رحلة الطيّارين صدقي وحسنين»، الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢١١، ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٣٠، ص ١ [٧٥]، و«كلمة في حفلة تكريم صدقي»، الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢٢٢، ١ شباط/فبراير ١٩٣٠، ص ٥ [٧٦].

(٦٥) انظر افتتاحيتها «غلامان يعودان إلى الوادي»، الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٥٩٤، ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٣، ص ١ [٩٩].

(٦٦) انظر افتتاحيتها «نشيد الطيّار المصري»، الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٥٧٥، ٧ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣، ص ١ [١٠٠]، والنصّ الفرنسي "Hymne de l'Aviateur Egyptien"، مجلّة *L'Egyptienne*، س ٩، ع ٩٧، كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣، ص ١٤-١٧ [٤].

(٦٧) انظر نصّ كلمتها الإذاعية «في ليلة عيد الوفاء»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٥٧، ٢٥ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ٧ [١١٦].

(٦٨) انظر على سبيل المثال الحوار مع سائق السيارة في الافتتاحية السابق ذكرها «جولة في بورت سعيد»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠٨٠، ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ١ [٥٩]، وقصّتها القصيرة «العمّ أبو حسن يستقبل»، الهلال، س ٣٣، ج ١، تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٤، ص ٧٣-٧٧ [٤].

(٦٩) انظر على سبيل المثال مقالها الآنف الذكر «... بل مصر مصرية!»، الرسالة، س ١، ج ٢١، ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٣، ص ١١-١٢ [١].

(٧٠) انظر ردّ ميّ زيادة على الاستفتاء «١- هل الأدب العربي في غنى عن الأدب الغربي؟ ٢- وهل نحن في حاجة إلى كتب موضوعة أم إلى كتب مترجمة؟»، المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٨٣، ٢٦ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ٣ [١].

(٧١) لمزيد من التفاصيل انظر Gershoni / Jankowski، المرجع السابق، ص ٦٢، وPhilipp، المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٧٢) انظر المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٧٣) انظر Gershoni / Jankowski، المرجع السابق، ص ٦٢.

(٧٤) انظر على سبيل المثال مسعود ضاهر، الهجرة اللبنانية إلى مصر: «هجرة الشوام»، (منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ٣٤)، بيروت: المكتبة الكاثوليكية ١٩٨٦، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٧٥) نتج عن هذه المقالات كتابها الأوّل «الريف المصري» الذي نالت به عام ١٩٣٦ جائزة الدولة المصرية للدراسات الاجتماعية.

منهج التحقيق

تنقسم الأعمال التي تضمّها هذه المجموعة إلى كتابات باللغة العربية وأخرى بلغات أجنبية، وقد قمنا بتصنيفها في عدّة أبواب طبقاً لصدورها في دورية أو في كتاب أو كنصّ مستقلّ. أمّا النصوص المأخوذة من صحف ومجلاّت فرتّبناها حسب تاريخ نشرها في إطار المطبوعة التي ظهرت فيها. وأتبعنا عنوان كلّ مطبوعة في فهرس المحتويات بذكر الفترة التي تعود إليها الإصدارات المعنية.

تحتوي الهوامش بالدرجة الأولى على تواريخ نشر النصوص، وعلى أيّة معلومات قد تكون متوفّرة عن إعادة طبعها. أمّا الشروح والتعليقات الأخرى فهي من وضعنا ما لم نشر إلى أنّها ملاحظات ميّ زيادة نفسها أو إدارة تحرير الجريدة أو المجلّة المعنية. وأمّا البيانات الخاصّة بالأشخاص أو الهيئات أو الأماكن فهذه تُساق عند اللزوم لدى أوّل ذكر لها في أيّ نصّ من النصوص ويمكن الرجوع إليها في فهرس الأعلام الملحق بهذا الكتاب. كلّ الإشارات إلى كتابات ميّ زيادة تحيل على النصوص المضمّنة في هذه المجموعة ما لم يُذكر غير ذلك، أمّا الأرقام الواردة بين قوسين معقوفين عقب تاريخ النشر فتشير إلى الرقم التسلسلي الذي أُدرج النصّ تحته في القسم الخاصّ به في قائمة المحتويات، كما تحتوي البيليوغرافيا الملحقة بهذا الكتاب على جميع المصادر والمراجع الأخرى المذكورة في الهوامش.

لقد اعتمدنا نهجاً متحفّظاً في تحقيق هذه النصوص حرصاً منّا على تقديمها في صورة وفيّة للأصل. فتركنا على سبيل المثال القصّتين للناشئين عمداً في صيغتهما الأصلية المزوّدة بعلامات التشكيل. كما امتنعنا إلى حدّ بعيد عن التدخّل في اللغة والأسلوب وإنْ لم يتّفقا والمألوف اليوم، وذلك حفاظاً على الطابع الشخصي للكاتبة وفي نفس الوقت على القيمة التاريخية للنصوص.

نصوص من صحف ومجلات

الأهرام (١٩٢٥ - ١٩٣٥)

ألفونسو الثالث عشر[1] يتكلّم

وقلّما حملت إلينا الصحف أحاديث جلالته «الكاثوليكية جدّاً». بيد أنّ الحالة في مراكش[2] تستوقف انتباه العالم فتحمل الصحافيين على السعي لاستطلاع رأيه والإلمام بما يقوم في ظنّه قدر المستطاع.

تحدَّث جلالته إلى مكاتب «الديلي إكسبريس» في مدريد، على ما جاء أمس في تلغرافات «الأهرام» الخصوصية، فإذا به يلهج بذكر «العبء الملقى على عاتق البيض». ولئن فهمنا من هذا ما آلت به أوروبا على نفسها من «تمدين الكرة الأرضيّة» وفهمنا فوق ذلك أنّ الشعب أو الفرد يصارح بالبلاغ الذي قيّد نفسه بنقله إلى الناس، فإنّنا أقلّ حذقاً في اجتلاء ما يدعوه جلالته «الحضارة المسيحية الغربية» لأنّنا كنّا نظنّ أن هذه النغمة يتحايدها ذوو الحيثيات العالمية والملوك الراغبون في اكتساب قلوب رعاياهم المشكّلة من مختلف الطوائف والأديان، فضلاً عن أنّها من تعبيرات التاريخ القديم.

إنَّ الحرب (التي يصرُّون على نعتها «بالكبرى» وقد تكون الكبيرة فحسب) ما زالت حاضرة في أذهان أحدثنا سنّاً بصورها المرعبة وفواجعها الفادحة، حاضرة بكل ما خلّفته في العلاقات الدولية من ارتباك تزيده تعقّداً المؤتمرات التي يضرب ناقوسها الوقت بعد الوقت فيهرع لعقدها أقطاب السياسة من الشرق والغرب والشمال والجنوب، حاضرة كذلك، وا أسفاه، بنتائجها الأخلاقية والصحّية. فكيف ننسى والحالة هذه شعار الدول المتحاربة يومئذٍ؟

إنّنا إلى جانب «تحرير الشعوب الصغيرة وإعطائها الحقّ في تقرير مصيرها» كنّا نسمع كلمة «الدفاع عن الحضارة اللاتينية» التي لقّننا الأستاذان الخطيران، روتر وهافاس[3]، أنّ الحلفاء يتكاتفون للذود عنها من هجمات «الكولتور الجرماني» الزاحف عليها ليهزمها عن وجه الأرض ويحلّ محلّها أهلًا ويطأ سهلًا.

- «وما شأن الدبّ الأبيض» - الروسيا - مثلًا في الدفاع عن الحضارة اللاتينية التي لا ناقة لها فيها ولا جمل، حتى ولا دبّة؟

كنت ألقي على نفسي ما يشبه هذا السؤال فأنسبه إلى جهلي بشؤون العمران. وهيهات أن تخاطب بمثله شركاتنا التلغرافية! لأنّ العلّامة روتر والفهّامة هافاس من الأساتذة الذين لا يسمحون لتلاميذهم بالاستفهام، وإن فعل هؤلاء فالأستاذان غافلان ينهجان نهج فيلسوف جعل «قُل كلمتك وامشِ!» شعاراً له.

وقد نشبت تلك الحرب بين الدول المسيحية وظلّت كذلك وإن اشترك فيها دول غير مسيحية. نشبت بين ألمانيا وإنجلترا البروتستانتيتين - خلا ما بينهما من أواصر العمومة والخؤولة - مكتسحة فرنسا وبلجيكا. وقطعت إيطاليا عهودها مع دول الوسط وانبرت، وهي وطن البابوية الكاثوليكية رغم سوء التفاهم والتقاطع، تحارب جارتها وعدوّتها النمسا «الكاثوليكية جدّاً» هي الأخرى، وتسترجع مقاطعاتها المنسلخة عنها... ولكن ماذا تراني أقصّ عليكم من أبجدية التاريخ الدموي القريب!

فهل حالت «الحضارة المسيحية الغربية» المشتركة بين تلك الدول دون التناحر بالسلاح وبما هو أقسى من السلاح؟ أم ترى قامت الصين واليابان تدافع عن حضارة القياصرة من اللاتين ومن الجرمان؟ وكيف تندمج المدنية المسيحية في المدنية اللاتينية بين مساء وصباح فتغدوان مدنية واحدة؟

وهل تشترك هذه الدول في مدنية واحدة حقّاً؟ ولئن تقاسمت جميعاً منافع التطوُّر الآلي الذي يقلّب الآن وجه الأرض وعرفت أن تتفاهم في المسائل العلمية والفنّية والإنسانية عندما لا يشلّ ذلك طرفاً من مصالحها المالية والاقتصادية، فهل يمكننا أن نقول إنَّ حضارتها تلك قائمة على أركان مسيحية وإنّها واحدة في كل شعب وفي كل وطن؟

لو نحن نظرنا إلى الفريق الآخذ بالآراء المدنية من هذه الدول لرأيناه في الغالب يشكو التعسّف الديني، وينبذ أو يحاول أن ينبذ السيطرة الإكليريكية التي يراها مقيّدة حريّته موقفة نموّ شخصيته على الوجه الذي يريد. وإذا ألقينا بالسمع إلى زعماء الدين وأئمّة المسيحية سمعنا منهم التبرُّم والاستياء وإنكار الحالة الحاضرة في المجتمع ناسبين

ذلك في مواقف كثيرة إلى نفوذ الحكومة، مصارحين بخروج هذه الحضارة على تعاليم الدين.

لست لأنسى صيحة هبطت من منبر كاتدرائية «نوتردام» في باريس في أوائل أغسطس الماضي، صيحة دوَّت في المعبد الرحيب فردَّدتها حجراته وزواياه وأروقته:

«نقشوا على أبواب معابدنا كلمات «حريّة، مساواة، إخاء» ولكنّهم شدُّوا وُثُق العبودية باسم الحريّة، ونوَّعوا فوارق الظلم باسم المساواة، وبتطفّل الإخاء ودسائسه وزحفه ملأوا نفوسنا احتقاراً وكزازة وكراهة! أراد الأحرار أن يكسروا القيود كما يزعمون فما فعلوا سوى تجريد النفس الفرنساوية من مسيحيتها النورانية. مدَّنوها على ما يرون فسلبوها المحاسن الأخلاقية والصفات الإنسانية والثقة والخضوع والاحترام ليثقلوها بعار التكالب والجشع والنهب والاغتصاب. فرجوعاً عن هذه المدنية الزائفة أيّها العمّال الصغار! رجوعاً! حسبكم أن تكونوا مسيحيين صالحين وأفراداً فقراء عاملين لتكونوا نبلاء بين الناس وعند اللّه مرضيين!»

بهذا الكلام خاطب الأب ساسون الواعظ الشهير العمّال الكاثوليك من على منبر نوتردام. هذا الصوت المنطلق من عرش ليس دون عروش الملوك مهابة ونفوذاً – يكاد يكون هو الجواب أو الاعتراض على نعت هذه المدنية بالمسيحية.

إنّنا نعلم أنَّ سياسة الشعوب وعلاقات الدول فيما بينها والتوازن الدولي وما إلى ذلك إنَّما تقوم جميعاً على حاجات اقتصادية. المال هو ربّ الحرب وربّ السلم. وما الاستعمار إلَّا سوق تجارية أو سبيل يؤمّن نقل التجارة ومركز حربي يضمن تصريف التجارة. أو هو مجموعة أولئك مع غايات أخرى. فعلامَ نقنع أنفسنا بغير ذلك ونطلق على المزاحمة التجارية أو التعاون التجاري اسم الدين؟

اليوم في الشرق تستعر النيران وتهرق الدماء. وحيث لا دماء ولا نيران فاضطراب وتهديد وزلازل. في الريف فواجع وفي جبل الدروز فواجع. وعزيز علينا ما يسيل من دماء إخواننا الدروز وما يجري بسببها وفي أثرها من دماء المسيحيين. وعزيز علينا ما يهدر في الريف من دماء إخواننا المسلمين. فهناك كما بين الدروز رجولة وبسالة نضنّ بهما على الردى، ونريد هذه الدماء ذخراً تقوى به حيوية البلاد.

وعزيز علينا كذلك ما يهرق من دماء الفرنسيين والأسبان. فهؤلاء وأولئك كالدروز والريفيين ذوو قوّة وحياة، وبينهم الآباء والأزواج والأبناء فنشعر معهم بعاطفة الإنسانية. والبلدان في حاجة إلى ذلك المال المبذول في ميادين القتال حاجتها إلى ذلك الدم المسفوك.

الأرض تولد وتنمي وتنضج والحرب بمختلف أنواعها سنّة الحياة ولكن ما حاجة بني الإنسان إلى إدخالها في مثل هذه الأطوار الحادّة وباسم «المدنية والدين»؟

كلّا! لم يخلق العالم لمدنية واحدة، ولا وجدت الإنسانية لطابع واحد تدمغ به وقالب فرد يخنق عناصرها. الإنسانية كائن عام تتعاون في تأليفه جميع الشعوب المتحضّرة منها والبدوية على السواء. والمدنية - وما هي إلّا تطوّر بني الإنسان - لا بدّ أن يتعاون على إيجادها واستكمالها جميع الشعوب كلٌّ من ناحيته وفي بابه. والأديان سرٌّ بين الخالق ومخلوقه يسمح اللّه بها جميعاً. ولولا ضرورتها ونفعها لانقرض منها ما لا فائدة فيه انقراض الأعضاء العاطلة في أجسام الحيوانات الحيّة.

هذه هي الحقيقة الأوّلية البسيطة.

وما دام الساسة لا يعترفون بها ويصمّون آذانهم عن سماعها، فالدماء والنيران والخراب وما ينجم عنها تجعل حياة الأفراد والجماعات نزعاً مستمراً واستشهاداً أليماً. على أنّ يوم الحريّة والإنصاف آتٍ لا محالة وما هذه الحروب والآلام إلّا الطريق المؤدّية إليه.

أترون في هذا الكلام أحلام الشاعرة وضعف الفتاة وعواطف المرأة؟ أتقولون ذلك وتضحكون؟

إنَّ قوّة «العمليين» وتهكّمهم لم يمنع الأحلام الصائبة عن أن تتحقّق وتسيطر على العالم كوقائع محسوسة. ولو راجعتم تاريخ العالم، أيّها العظماء الأقوياء، لعلمتم أنّ أنبل ما تفاخر به الإنسانية اليوم كان أحلاماً يحسبها أصحابها ذاوية، وكان أماني خرساء في نفوس الفتيات الضعيفات وكان هو ما تخيّلته العيون لدامعة نوراً متألّقاً في المستقبل الظافر!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥١، ع ١٤٧٩١، ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٥، ص ١ . أعيد نشر هذه المقالة في المحروسة، س ٥١، ع ٤٦٠٢، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٥، ص ١ .

(١) كان ألفونسو الثالث عشر (١٨٨٦ - ١٩٤١)، ابتداءً من ١٩٠٢، ملك أسبانيا. لقد أدّت مصاعب داخلية وخارجية (سعي متنامٍ لإقليم كاتالونيا نحو الحكم الذاتي والهزائم المتحقّقة في المغرب نتيجةً لتمرّد القبائل الريفية عامي ١٩٢١ و ١٩٢٣) إلى أزمة أسفرت عن قيام بريمو دي ريفيرا (Primo de Rivera) عام ١٩٢٣ بتأسيس ديكتاتورية عسكرية، بإذن الملك، تحوّلت بعد عامين إلى حكومة مدنية، ثم أكرهت اضطرابات عام ١٩٣٠ الجنرال على التنحّي. غادر الملك البلاد دون تنازله عن العرش، عقب فوز الجمهوريين في انتخابات عام ١٩٣١، ولم يعد إلى أسبانيا مع أنَّ الجنرال فرانكو أعاد له حقوقه المدنية وممتلكاته.

(٢) أعلنت قبائل الريف المغربية المتمرّدة ضدّ الأسبان عام ١٩٢٢ الجمهورية الريفية التي أدّى امتدادها إلى الأراضي الفرنسية عام ١٩٢٥ لتدخّل فرنسا إلى جانب أسبانيا.

(٣) المقصود بهما وكالة أنباء رويترز التي أسّسها عام ١٨٥١ في لندن باول يوليوس فون رويتر (Paul Julius von Reuter) باسم دائرة السيد رويتر (Mr. Reuter's Office) ووكالة الأنباء الفرنسية Agence Havas المؤسّسة في باريس عام ١٨٣٥ من قبل شارل لوي هافاس (Charles Louis Havas) .

ذكرى وتحيّة
لأمير عرب «الفضل»

«عقد الأمير محمود الفاعور[١] اجتماعاً مع مستشار القنيطرة والقائمقام بحثوا فيه عن أحوال المسيحيين. وقد أخذ الأمير محمود الفاعور على عاتقه العمل لراحة المسيحيين ومكاتبة زعماء «الجولان» وجماعات القنيطرة ومجدل شمس بالإحسان إليهم. وفي جريدة «ألف باء» الدمشقية أنّ المسيحيين في القنيطرة يشكرون جدّاً للأمير الفاعور والشيخ أسعد العاصي ورجال الحركة لإيوائهم المسيحيين في منازلهم في مجدل عنجر والقنيطرة».

(أهرام ١٧ أكتوبر «الحالة في سوريا»)

قرأت هذا الخبر بين أخبار الاضطراب والاعتداء في سوريا فتمثّل لي الأمير محمود الفاعور ببذلته الخاكيّة وكوفته[٢] وعقاله. ورأيت وجهه الشديد السمرة البارز التعبير، وعينيه النجلاوين تكنّان جميع القوى والانفعالات التي يتناقلها أبناء البيداء جيلًا بعد جيل. أبصرته هناك في «الجولان» مقرّ قبيلته، عرب «الفضل»، وكدت أسمع صوته يأمر أعوانه بحماية الأبرياء، وألمح الإشارة التي يعاهد بها الزعماء أقرانه على صيانة الأرواح والأموال.

بدت تلك الصورة حيّة أمامي، مع أنّي لم أشهد من الأمير الفاعور إلّا أنس المضيف، وكرم البدوي، وابتسامة المحدِّث بفروسيّة وكياسة قد يكون فيهما خير الدروس لكثير من هؤلاء الرجال المفاخرين بسكنى المدن، والتردُّد على الصالونات، واقتباس أساليب الحضارة والاجتماع.

* * *

كنت أصطاف مع والدي في لبنان، منذ ثلاثة أعوام. وكان الأمير سعيد الجزائري[٣] وقرينته الأميرة الجميلة في مقدّمة الذين غمرونا بفضلهم ولطفهم. ثمّ دعانا

الأمير سعيد إلى دمشق لزيارة سراي جدّه الخالد الذكر الأمير عبد القادر الكبير، وزيارة ضريحه قرب ضريح السلطان سليم في الصالحية، لنقصد بعدئذٍ إلى البادية عند الأمير محمود الفاعور حيث نرى من معيشة العربان وسذاجة الحياة ما يريحنا قليلاً من جلبة الكازينو في صوفر. كذا قال الأمير سعيد وكذا كان.

دار الأمير عبد القادر في دمشق تحوي تذكارات ثمينة خالدة المعنى لكل شرقي. وهي فوق ذلك تحفة من الهندسة الشرقية مفعمة بالنفائس الفنّية والذكريات التاريخية، تترنَّم نوافر المياه في برك المرمر الشفّاف في القاعات منها والساحات، وتطلّ شرفها على نهر بردى الذي يجتاز حديقتها في سيره إلى المدينة، حتى أنّ أحد الأمراء الجزائريين هبط السلّم الخشبي من الشرفة التي وقفنا عليها، وعبر الجسر الصغير الملقى فوق النهر إلى الحديقة وعاد إليَّ بعد دقيقة بطاقة أزهار ورياحين.

تناولنا طعام الغداء في تلك الدار العامرة على مائدة الأمير سعيد ثمّ ركبنا معه إلى القنيطرة حيث وجدنا اتفاقاً الأمير الفاعور يقلّ سيارته عائداً إلى قبيلته. فوصلنا إلى «الجولان» والشمس جانحة إلى المغيب.

وكنت مخطئة في توهّمي أنّ سبع ساعات في السيّارة على طرق لبنان وسوريا الحافلة يومئذٍ بالصعاب والغبار، ستحبسني بعدئذٍ في غرفتي طلباً للراحة حتى ساعة العشاء. لأنّي ما اختفى قرص الشمس واصطبغ الأفق والجبال بالألوان اللوزورديّة(٤) والبنفسجيّة حتى شعرت بأنّ الفيافي تنتظرني وتناديني ولو إلى عتبتها، وترحّب بي بتموُّج سطحها واتساع رحابها. فانطلقت إلى خارج المنزل، وإذا بي بعد قليل أسير في البقعة الآهلة من البيداء، بين الأمير محمود الفاعور والأمير سعيد الجزائري.

من يعرف أمير عرب «الفضل» يذكُر منه ذلك المزيج من التحفُّظ والبساطة في حديثه وتلك الجزالة البدوية في لهجته وكلامه. وبينا هو يجيبني عن أسئلتي فيما يتعلَّق بإحصاء قبيلته وتفاصيل معيشتها وعاداتها، وعدد المقاتلين من رجاله عند الحاجة، كنت أتطلّع إلى نبرات الأمر الهاجعة في صوته وأتصوَّر كيف هو يرسل صيحات النزال والهيجاء عند الكريهة.

على البطحاء التي أوسعها الهجير طول النهار لفحاً وضراماً امتدَّت ظلال الشفق حنونة في نسمات هفّافة. وتعالى البدر كاملاً على الأفق وبعث بفيض أضوائه فتبدَّت الكائنات في جلباب السحر وتنبّهت في النفوس رواقد الروعة والخشوع والتعبُّد. على أنّ السكوت لم يكن ميسوراً، فألقيت سؤالاً آخر:

- إلى أين تنتهي تخومك، أيّها الأمير؟

فمدَّ ذراعه طليقاً وأشار إلى مكان بعيد عند موطئ جبل الشيخ البارع الجمال والجلال في تلك الساعة، وقال:

- إلى هناك!

كانت تلك الإشارة مثيرة جمّ الذكريات والصور، منادية الماضي ليتقدَّم بالشهادة إلى المستقبل. فقلت: - أخبرني، يا أمير محمود، كم من مرّة سرت في هذه الطريق وفي مثل هذا المساء، تفكّر في مهامك وفي مسؤوليتك وفي شؤون القبيلة، وتذكر هنا عدوّاً تريد أن تهزمه، أو صديقاً تحبّ أن تؤيّده؟

فابتسم وقال: - كثير. واللّه مرّات كثيرة. وصمت لحظة ثمّ استأنف: - ولكنّي لن أنسى بعد اليوم أنّي سرت هنا مع الآنسة «ميّ»، وأنّها ألقت عليَّ هذا السؤال.

قلت: - وأنا، يا أمير محمود، لن أنسى هذا المساء. وسأذكر على الدوام أنّي سرت هنا بين أميرين شرقيين: بين زعيم بدوي باسل وحفيد عبد القادر الجزائري.

* * *

يا ليلة الخلاء! ما كان أسناك بدراءً، وأفيحك سماءً، وأبلغك صمتًا ونطقًا، وأنعمك عذوبةً وهناءة!

المضارب جاثمة كتومة في الليل المنير. إلّا أنّ نار القرى تشتعل في خيمة الأمير الرحيبة، وقد جلس الضيوف البدو يتناولون طعام العشاء ويشربون القهوة المعطّرة بحبّ القرنفل.

أمّا نحن وغيرنا من الضيوف الحضريين فقد كانت قسمتنا مائدة إفرنجيّة فاخرة في قاعة الطعام بمنزل الأمير. ولكن عبثاً كانت تتلامس الصحون والكؤوس وتتناسق

الشوكات والملاعق. عبثاً كانت تنسحب الفوطة على ركبتيّ شأن من يقول «ها أنا ذي حاضرة حضوراً لا شكّ فيه!» فإن أصناف الطعام، ولهجة الحديث، وزيّ الخدم، ورائحة البادية، كل شيء كان يحدّثني بضيافة العربان.

أنبأني الأمير محمود، بعد العشاء والقهوة، بأنّ «الحريم» ينتظرنني. وسار بي إلى جناح من الدار يقصد إليه بالخروج من دار الرجال. فإذا في الباب ينتظرنا فتى نحيل مسدول الشعر تحت الكوفة[٥] والعقال ويرتدي بذلة الخاكي العسكرية كالأمير محمود، وفي يده مصباح. فسألني الأمير أن أتبع الفتى الذي علمت في «الحريم» أنّه أصغر نجليه، الأمير شامان، وكان أكبرهما الأمير فارعور غائباً.

استقبلتني في مدخل الغرفة الواسعة سيّدة ممتلئة الجسم، صبيحة الوجه، جذّابة الملامح والألفاظ فأدركت للحال أنّها الأميرة. وتلقّتني بعدها فتاة شديدة الشبه لها في سمرتها وملاحتها البدوية، وفي عينها[٦] المكحولتين الجارحتين، ورحّبت متعاونة ووالدتها في السير بي إلى المقعد وإفساح صدر المكان لي.

جلست بينهما على المقعد وجلست القرفصاء على «الشلت» كثيرات من البدويات في زيّهنّ الواحد القاتم. ودار في الزاوية تنقير الهون[٧] لدقّ البنّ المحمّص. ومضت الأميرة تحدّثني حديثاً هو ألذّ ما يكون في سذاجته وبداوته تثبّته جملة بعد جملة بإشاراتها الدالّة على الزعامة والامتياز:

– يا حلاوة اسم «ميّ»! والله حلو على قلبي مثل اسم بنتي «شمّة». اسم عربي من عندنا. ودمك كذلك عربي مثل دمنا. والله أحببناك! فابقي عندنا أياماً نهنأ بحضورك ونريك نساء العربان وكيف يشتغلن ويعشن، جاهلات لا يقرأن في الكتب وفي الجرائد، ولا يتعلّمن الكتابة مثلكنّ في المدن. يرعين القطعان، ويحلبن البقر، ويجلبن الماء ويروّبن الحليب، ويصنعن صنوف اللبن والجبن ويطبخن ويعجنّ ويهيّئن اللازم للزوج وللضيف. والبنات؟ إنّهنّ في العمل والمتزوّجات سواء. وعندما تحمل الواحدة منهنّ إلى خيمة العريس يضجّ الحيّ بالحِداء والزغاريد. وتتدلّل العروس أياماً، ثمّ لا تلبث أن تنقلب مدبّرة مشتغلة كأمّها وكحماتها. يا حلاوة اسم «ميّ»! والله عسل! وصاحبته عسل! وتعرفين الفرنساوية عدا العربية؟ ما شاء الله! مثل ابنتي شمّة

إذن! هي تعرف تقرأ وتكتب وتتكلّم. وهذه السيّدة هي معلّمتها الفرنساوية. أصلها من صفد قرب طبريا لكن نحن أتينا بها الشام(٨). لو بقيت عندنا أربعة أيام أخرى لحضرت عرساً ذهبوا يحضّرون له المعدّات من سوق الشام.

* * *

المعلّمة ذات الثوب الذي يأبى إلّا أن يكون على آخر طرز هي الزيّ الشاذّ بين ذوات الأردان. والأميرة وابنتها زيّهما واحد وأقدّر أنّه الزيّ «الرسمي» ارتدتاه لاستقبالي. يتألّف من ثوب مهلهل من الحرير الحنطي اللون. وفوقه رداء يهبط إلى منتصف الجسم، وقماشه السميك الحالك يكاد يختفي وراء وشي القصب في طرازة شرقية مألوفة. وشدّت كل منهما رأسها وجمعت شعرها المسدول في «عقال» كعقال الرجال ولكنّه مجدول بالحرير والقصب. وتوسّط رأس الأميرة فوق العقال تاج صغير من الحجار الكريمة. وكانت خطوط الوشم ورسومه تحبو على هذه الأيدي المثقلة بالأساور والخواتم حبوها على الوجهين الوسيمين.

قلت: – حبّذا البقاء في حماكم والوقوف على عاداتكم. ولكن علينا أن نسافر صباح غد. بيد أنّ شدو البدو ورقصهم في مثل هذه الليلة قد يغنيني عن حضور الفرح.

وما كدت أبدي رغبتي هذه حتى نادت زوجة الأمير بمن يسمعها: يا شامان! يا بنات! هيّا إلى «الدبكة»!

وفي لحظة انطلقت أصوات النساء بالزغاريد في الخارج ودوّى الرصاص متتابع الطلقات واشتبكت حلقة الرقص على وقع صفق الأكفّ وتنغيم الربابة. وخيّل إليّ أنّ قلب السكون قد أجفل لهذه المفاجأة.

خرجت من «الحريم» إلى الساحة المنبسطة أمام الدار لأسمع الأغاني عن كثب، وأبصر الرقص في حلقتين اثنتين إحداهما للنساء، والأخرى للرجال، تتجاوبان وتتعارضان شدواً وحداءً. أو هما تأتلفان في حلقة واحدة كبيرة من الرجال والنساء وقد جال في الوسط راقص فرد والسيف الملوّح في يده يبرق بريقاً مخيفاً في ضوء

القمر. والقوم حوله أشباح سوداء تتحرّك ببطء وانتظام وتأتي بإشارات الأخيلة والرؤى. والشبّابة تئنّ وتنوح وتستثير فتبعث في تلك الوحشة المأنوس بعضها، أصداء الشجن والحنين.

عدت في منتصف الليل إلى الغرفة التي أفردت لي ولوالدي فوجدت الأمير محموداً هناك يرقب تنضيد الوسائد والحشايا، ويساعد خدمه في تنظيم الحوائج وإتمام العمل. وسلّم الأمير ومضى ونحن نعجب كيف تنطوي هذه الرجولة الشمّاء على مثل هذه الوداعة.

وكان الجنرال غورو(٩) قد زار الأمير فاعور قبلنا بزمن غير طويل، إثر عقد الصلح معه بمساعي الأمير سعيد الجزائري، وقيل لي إنّه بات ليلته في هذه الغرفة. لذلك أنشأت أتفرّج على أثاثها وبسطها الشرقية النفيسة، حتى وقفت أخيراً أمام السرير العالي الرفيع العماد المجلّل بالحرير الوردي، المطرّز بوشي القصب الذي كان لي أضطجع عليه تلك الليلة. ولكن لم يفارقني التخيّل أنّ القائد ترك على هذه الوسائد أثراً من مجد تلك الذراع المقطوعة.

وعمدت إلى النافذة عند السحر أتملّى يقظة الخيام وتدرّج النور وانتصاب جبل الشيخ عند الأفق لؤلؤياً شفّافاً كأنّه فجر متجمّع في هذا الفجر الشامل.

وودّعنا مضيفنا بعد قليل، وقد نهض باكراً ليحيينا، رغم توعّك ملمّ به منذ أيام وقد ظهرت دلائله على وجهه. وقف أمام السيّارة مع رجاله. وبينا هو يشير إشارة الزعيم إذا به يساعدنا ويخدمنا ويهيّئ لنا وسائل الراحة. ومضينا تشيّعنا أنظاره، ونحمل نحن من ضيافته ومن شمائله خير الذكرى.

* * *

إنّي أذكر هذه الضيافة، يا أمير محمود، كلّما سمعت عنك حديثاً. وقد قرأت اليوم نبأ فضلك الجديد فوجدته حقيقاً بمروءتك وشهامتك. لعلّك تسير أحياناً في هذه الأيام في تلك البقعة الهادئة مفكّراً في حماية المسيحيين بجوارك مقرّراً ما ينبغي إجراؤه لمنع الضيم عنهم؟

نبيل عملك هذا وعمل أصحابك من وجهتيه الإنسانية والوطنية. وكل من سمع به زفّ إليك آي الثناء، أو هو أضمر لك عاطفة الشكر. أمّا أنا فأردت الإعراب عن شعوري في تسطير هذه الذكرى. فإن أنا لم أنسَ الضيافة الشخصية البسيطة، فكم من قلب سيباركك ذاكراً ضيافتك النبيلة لجماعة ليست بالمجرمة ولا هي بالمتطفّلة المتطاولة، ولكنّها عبثت بها يد الأقدار.

عملك هذا خليق بالرجال، عملك هذا مثال للزعماء.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥١، ع ١٤٨٠٥، ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٥، ص ١ .

(١) الأمير محمود الفاعور، زعيم إحدى القبائل البدوية في هضبة الجولان. كان عضواً في التنظيم السرّي «جمعية الأمّة العربية الفتاة» التي أُسّست في باريس عام ١٩٠٩ ثم نُقلت إلى دمشق عام ١٩١٤ حيث لعبت دوراً بالغاً في تمهيد الثورة العربية إبّان الحرب العالمية الأولى. عقب اضطرابات الدروز صيف ١٩٢٥ واندلاع الثورة السورية الكبرى ضدّ الانتداب الفرنسي خريف العام نفسه، عمل بمعيّة أتباع آخرين من حزب الاستقلال العربي المنبثق عن جمعية الأمّة العربية الفتاة عام ١٩١٩ على منع أيّ هجمات ضدّ السكّان المسيحيين.

(٢) كذا في الأصل، والمقصود «كوفيّة».

(٣) الأمير محمد سعيد الجزائري، حفيد عبد القادر، زعيم الثورة الأولى على الفرنسيين في الجزائر. ولد في دمشق عام ١٨٨١ وعاش فيها. أعلن استقلال سوريا قبل دخول الجيشين العربي والبريطاني إلى دمشق في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨، وشكّل حكومة وطنية لم تدم سوى يومين. نفاه الإنكليز إلى مصر، وعاد إلى دمشق بعد الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٠ . قوبل بعرفان واسع النطاق لدوره في حماية مسيحيي باب توما من اعتداءات أثناء القصف الذي تعرّضت له دمشق من الفرنسيين في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٥ وتوصّله في اليوم التالي إلى وقف النار بدعم من بعض وجهاء المدينة. توفّي في الجزائر عام ١٩٧٠ .

(٤) كذا في الأصل، والمقصود «اللازورديّة».

(٥) المقصود «كوفيّة» كما مذكور أعلاه.

(٦) كذا في الأصل، وصوابها «عينيها».

(٧) كذا في الأصل، والمقصود «الهاوُن».

(٨) كذا في الأصل، والمقصود «أتينا بها إلى الشام».

(٩) Général Henri Gouraud ، أول مندوب سامٍ فرنسي في سوريا (١٩٢٠ - ١٩٢٣) .

أسطورة المؤذّنين والأجراس

أهدي هذه الصفحة إلى مسلمي دمشق وضواحيها، وإلى سائر المسلمين رجالاً ونساءً الذين يحبّون من هذه الصفحة روحها ويشاطرونني العقيدة الراسخة فيها.

(ميّ)

أنتم الذين سمعتم المدفع جؤوراً هدّاراً فوق مضجع صلاح الدين وحول مدافن الأمراء والسلاطين، أنتم الذين أجفلت أعصابكم ولكنّ عزائمكم زادت مضاءً وإرهافاً - تعالوا ألقي إليكم أقصوصة لها لذاذة الأساطير. فهي خيال إن أحببتم الخيال، وهي حقيقة لمن يرقب كيف تتحقّق الأحلام. وإن رأيتم في مطلعها شيئاً من البعد عمّا أنتم فيه، فاذكروا قضاء الطبيعة بالجمع بين الأضداد احتفاظاً بتوازنها المحتوم منذ الأزل.

* * *

كنت في طفولتي أستيقظ على صوت المؤذّن يرسل في السحر نشيده الرائق الشجيّ قائلاً: اللّه أكبر، اللّه أكبر، لا إله إلّا اللّه! فلا تلبث أن تتعالى من ناحية أخرى في البلدة رنّات النواقيس في انسجام وحسن إيقاع، فتنشد بلغتها الفضيّة ما مفاده: اللّه أكبر، اللّه أكبر، لا إله إلّا اللّه! ويندغم النشيدان في اصطحاب فرد ينتشر مرفرفاً كالجناح. ثمّ يحملني ويحلّق بي في مجاهل الأثير شأن من يقصد إلى قلب العوالم والأكوان، إلى حضن باري البرايا، ذلك الرحمن الذي لا إله للجميع إلّاه.

وخلال ألعابي طول النهار، وخلال أشغالي المتوافقة يومئذٍ وسنّي، كانت تموج نفسي الصغيرة بشدو المؤذّنين والأجراس.

* * *

تقضّت تلك السنوات الأولى بين غفلة الحداثة وتفطّر النموّ. وعقبتها سنوات أوعب هناءً، وأمضّ ألماً لأنّها أملأ حياة وأوسع نموّاً. كذلك عبرت أعوامي المدرسية

الثلاثة وما يليها من عهد الدراسة في المنزل، يثقلها جميعاً مختلف التأثّرات والمدركات وموحيات الكتب ومباغتات الحوادث. فإذا بالحرب العالمية تجتاح الآفاق شعلتها المدلهمّة، مقتنصة جميع الأمم في شباكها بوجه من الوجوه، ناشرة صفحات خطيرة من نفسيات الجماعات وغايات الشعوب ومسوّية بين الفتى والكهل والشيخ في تقاسم المعرفة والخبرة والروعة. فوقفت كما وقفتم، يا أبناء هذه الأجيال، أشهد تتابع الحوادث ولا أفقه معنى إلّا وتلتبس عليّ معان. فأعترف بأنّي صغيرة ضئيلة أمام هذا العالم الواسع العظيم وأنّ سرّه وغايته الساحقين أبهظ وأمنع من أن يدانيهما ويستجليهما إدراكي. ولكنّي وسط الظلام كانت تبدو لي خطوط تلك الذكرى في وميض حلم جميل. وأنطلق محلّقة في الأثير الفيّاح، على بساط نسج من ألحان المؤذّنين وأنغام الأجراس إذ ينشدون نشيد البرايا: اللّه أكبر، اللّه أكبر، لا إله إلّا اللّه!

* * *

ووافتنا بعد الحرب تلك الساعة الميمونة، ساعة النهضة المصرية. شهدت من شرفتي تدفّق المواكب فانتفض كياني انتفاض الطائر همّ بتغريد طريف. وسمعت الهتاف بحياة الوطن والحريّة فعكفت أفكّر في ما قد يكون الوطن وتكون الحريّة. ورأيت الرايات منشورة في الحماسة، منكّسة في الأسى، فأردت لي راية أنشرها وأستظلّ بها. والأصوات – تلك الأصوات المنطلقة من المئات والألوف كانت تترك لجوانحي ما تتركه في جوّ المدينة من هزج وعجيج وحماسة وقلق وسلام وطرب وتطلّع وتحنان.

تعلمون أنتم الذين اجتزتم مثل هذا الطور كيف هو ينضج منّا النفوس في أيام وأسابيع وكيف هو يلخّص الأمور والمسائل بسرعة فتنجلي تفاصيلها ومعالمها بغتةً انجلاء البلدان ببحارها وجبالها ومروجها وأنهارها خطوطاً ملوّنة ودوائر ومقاطعات في الخريطة الجغرافية، وكيف أنّ الموضوعات العامّة البعيدة عن أشخاصنا الصغيرة المحدودة تبيت وقد أصبحت تشغل خواطرنا وتهيج بلابلنا ذات تصرّف في السرور منّا والألم أو الرضى والاستياء، شأن ما يلتصق بالعواطف من الذكريات ويهجع في حبّة الفؤاد من الأسرار.

تلك حالنا جميعاً، حتى حال مَن هم على شاكلتي كانوا ولا يزالون بعيدين عن كل سياسة حزبيّة متملّصين من كل لون سياسي، وذلك حرصاً على حرّيتهم الفكرية

ورغبة في الاستقلال الأدبي لتلقّي التأثّر الصالح من أيّة ناحية هو أقبل، والاحتفاظ بالانعتاق من كل غلّ وكل ربقة ليكونوا أقرب إلى الروح العام فيعطونه ويأخذون منه في تبادل مطّرد.

كذلك رأيت التشابه الأساسي - رغم بعض الاختلاف الموضعي - بين مشاكل مصر وسوريا وسائر أقطار الشرق الأدنى. وكذلك اهتديت كغيري إلى أمرٍ هو في مقدّمة ما يسيء سمعة الشرقيين في الخارج، كما أنّه أفعل ما يفتك بوحدتهم في الداخل، وأمضى سلاح يشهر دون كرامتهم القومية. كذلك فهمت أنّ الأديان العظيمة التي بزغت من هذا الشرق هدًى ونوراً وحياة للعالمين هي هي - يا لها من سخرية مريرة! - التي نتخذها وسيلة للقضاء على نفوسنا! ولطالما تنازعتني حيال ذلك المشكل عوامل السخط والحنق والخجل والكزازة. وعرفت كذلك غير مرّة سطوة اليأس الذي يقبض على القلب بمخالبه القاسية فينتزع منه الثقة والنشاط ومظاهر اليقين. خبرت ذلك في الخصومات والمناقشات والوقائع الثانوية، وفي الدروس الكئيبة التي يحلو للمتشائمين أن يلقوها على مخاطبيهم. ولكن قليلاً... فإذا بالغيوم تنجلي عن زرقة السماء وإذا بالشمس تتوهّج على عالم حافل بالإطمئنان والحبّ والرجاء. لأنّ أسطورتي المحبوبة تنشر لي أبداً في الفضاء أناشيد المؤذّنين والأجراس فأرى عند الجميع التشابه في الحاجة والألم، والتماثل في الخشوع والاستسلام ومحاولة الارتفاع بالصلاة والصلاح نحو ذلك الإله الواحد الذي لا إله إلّاه في قدرته وعظمته، وفي إشرافه على هذه الخلائق ورفقه بها.

ولئن كان لكلٍّ في الحياة - علم بذلك أم لم يعلم - شعار وراية وغاية وصيحة وشوق وغرام، فقد كان التفاهم بين العناصر في كل من الأقطار الشرقية، والإخاء بين الأديان، وتبادل منافع العلم والخير والحياة بين الشرق والغرب دون تعدٍّ ولا اغتصاب. لقد كان هو رائدي في ما أكتب وفي ما أقول لأنّه كذلك في صميم أماني. خضعت أسطورتي الجميلة لأنظمة الحياة فشبّت وترعرعت وتكيّفت وانقلبت لي شعاراً وراية وغاية وصيحة وشوقاً وغراماً!

* * *

يا مسلمي دمشق وضواحيها، يا بني المجد والشرف والمكارم، أنتم الذين أغفلتم المخاطر المحيقة بكم ونسيتم النكبات والخسائر الحالّة بدياركم وأموالكم، لتطمئنوا إخوانكم وتردّوا عنهم ما قد يتهدَّدهم من الغوائل - لقد محوتم وصمة التعصّب عن هذا الشرق وأقمتم مقامها وسام النور. لقد نمَّت صنيعتكم هذه عن كرم محتدكم وعن الشهامة التي جبلت بها فطرة الإسلام فكتبتم في تاريخنا عنواناً مجيداً لفصل جديد!

لقد كانت هذه الروح من أبهى وأحصف وأشرف مظاهر النهضة المصرية فقمتم تثبتون تحت وابل القنابل أنّ سوريا من هذه الناحية أيضاً شقيقة لمصر. وقمتم تقولون غير متخيّرين إنَّ أسطورة المؤذّنين والأجراس ليست هي أسطورة طفولتي ولا هي أسطورة على الإطلاق، بل هي تاريخ العهد الجديد في الشرق الدامي وإنَّ نشيد السحر في ذاكرتي إنّما هو نشيد يقظة وتجدُّد يقبل من كل صوب تختلط فيه نداءات الأحرار، واصطفاق الأجنحة، وأهازيج التصافي، يحمل إلينا وإلى الأجيال التالية بلاغ الكرامة والمساواة والإقبال.

أتهدَّمت في عاصمة العباسيّين والأمويّين، أيّتها القصور الجميلة؟ أتهدَّمت في المدينة الآرامية الكبرى، أيّتها الأحياء القديمة والأسواق المعقودة كأروقة المتاحف؟ أتزعزعت تلك الجدران وتفتَّتت تلك الأحجار الناطقة بحياة سحيقة متماسكة بعناد الدهور وبحوادث العزّ والظفر والذلّ والتفجّع؟

ثمينة أنت، ولكن ما تجلَّت عنه كارثتك أعلى قدراً وأغلى ثمناً. أنت الماضي الزاخر المنيع، ولكن ما بدا في انهيارك أمل للحاضر وأساس للمستقبل. في أرضك الخصبة كمنت طويلاً بذرة زرعها هناك إخوان الحريّة فكان غذاؤها من دماء الشهداء ولهفات المنفيّين. فكيف تنبت مثل هذه البذرة دون زلزال وتشقّق؟ إنّها كانت في انتظار ظرف رائع يليق بها وبدمشق لتنضج وتبدو. فنعبت ناعبات الردى في الليل الرهيب، وانبرى بنو المجد يدافعون عن الأرواح بالأرواح فانشقّ عمود الفجر عن فجيعتك الشاملة. وإذا بين الأخربة والأنقاض تنفذ تلك البذرة الصغيرة وتحصحص للعالم برعمها البسّام!

* * *

ترنّموا، أيّها المؤذّنون على منائر الإسلام! ترنّموا عند الأسحار والأشفاق في نغمات المسيحية واصطحاب الأجراس، وعلّموا كيف ينفسح فضاء الأرواح لتآخي الصلاة والتوسُّل انفساح الأثير لمختلف التوقيعات والأناشيد!

انظروا! الجوّ فوق رؤوسنا مكفهرّ، والغيوم في تكاثفها تحجب الحرارة والنور. آلام أخرى تهدِّدنا وعذابات جمَّة تنتظرنا، وعلينا أن نذوق غير مرّة طعوماً جديدة من السآمة واليأس والسخط والنفور والنقمة والارتياب الأثيم. فترنّموا ترنّموا لتبثّوا حولنا بشائر السلام والأمان! ترنّموا لتذكِّرونا بما تنطوي عليه النفس الشرقيّة من عظمة لا تزول! ترنّموا وكرّروا أنّ البرعم الجميل قد تبسَّم في سوريا كما في مصر، وأنَّ المشاكل والتغاضب وسوء التفاهم لن تحول دون نموّه وازدهاره!

ترنّموا أيّها المؤذّنون ونغّمي أيّتها الأجراس! واعرضوا علينا كما في حلم هنيء كيف تدوم رغبة التقدّم في الأمم الحيّة فتنضجها الآلام والجهود، وكيف تنقلب أساطير الطفولة للأجيال الجديدة راية واحدة وصيحة واحدة وغاية واحدة!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥١، ع ١٤٨١٥، ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥، ص ١ . أُعيد نشر المقالة في المحروسة، س ٥١، ع ٤٦٨٩، ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥، ص ١ .

رسائل إلى الأمير سعيد الجزائري

[هامش الجريدة: ورد خلال وصف كارثة دمشق في تلغرافات «الأهرام» الخصوصية المنشورة في عدد ٣ الجاري نقلًا عن مراسل جريدة التَيْمس في تلك المدينة أنَّ «بين الذين تولّوا القيام بالتدابير التي اتخذت لحماية المسيحيين، الأمراء سعيد ومصطفى وطاهر أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري الذي أنقذ حياة ألوفٍ من المسيحيين أثناء مذابح ١٨٦٠»[1].

ونحن بهذه المناسبة ننشر ثلاث رسائل بعثت بها الآنسة الكريمة والكاتبة الشهيرة «ميّ» إلى الأمير سعيد عميد الأسرة الجزائرية منذ أربعة أعوام. وكانت عدّة صحف سورية قد تناولت صورة هذه الرسائل من الأمير ونشرتها كما ننشرها اليوم اعترافاً بفضل هذه الأسرة النبيلة. وقد كتبت الرسالة الأولى ردّاً على خطاب كتبه الأمير سعيد إثر اطلاعه عند صديقه المرحوم سليم أيّوب ثابت بك على كتابَي «باحثة البادية» و «غاية الحياة». فكتب إلى المؤلّفة يدعوها وأهلها إلى ضيافته في سراي جدّه بدمشق. وهذا هو الجواب:]

-١-

القاهرة في ٢ يوليو سنة ١٩٢١

يا سموّ الأمير،

اسم الأمير عبد القادر الجزائري اسم نتلقّنه نحن أبناء سوريا أطفالاً مع الكلمات الأولى ونلثغ في لفظه متمهّلين كما تداعب شفتا الرضيع حروف الأسماء المحبوبة، فيمثل ذكره لمخيلتنا جناحاً كبيراً يخيّم علينا بألوان قوس قزح. ثمّ نشبّ وتتسع المدارك منّا باتساع المعرفة فتبدو لنا فروق الجنس والعقيدة والدرجة القائمة بين البشر. وإذ يتصل بنا أنَّ الأمير عبد القادر هو «حامي النصارى» تتضح عواطفنا الموجّهة إليه لأنّه أجار

جماعة وأبعد عنها الأذى، ويصبح جناح ذكره مخيّماً بألوان حارّة من الشعر والخيال تلازم عادة صور النخوة والشهامة. ثمّ نجتاز من الحياة أعواماً أخرى نعرف خلالها أنّ التاريخ الحقيقي هو غير التواريخ المقبولة وأنّ الأسباب المسلّم بها في الثورات والقلاقل هي غير السبب الجوهري. ونعلم أنّ الفروق بين بني الإنسان سطحيّة على عمقها وأنّ الأعاظم منهم يقطنون عالماً سما فوق الطوائف والأحزاب والتعصّبات والدرجات - عالم الجامعة الإنسانيّة الشاملة. يومذاك نقدّر الأمير عبد القادر حقّ قدره، ونجلّ خلقه، ونرفعه على عرش معنوي خالد هُيّء له، ليس لأنّه حمى النصارى فعزّز برعايته كرامة الإسلام - وما الإسلام والمسيحية سوى إخوة رضيّة في حضن الرحمن - بل لأنّه بطل من أبطال تلك الجامعة الإنسانية العليا. إذ ذاك يزيد جناح ذكره انبساطاً وروعة لأنّه تلوّن بألوان المجد والفخار. فنفعل ما تفعله الأمم بأبطالها أي أنّنا نحوّل اسمه إلى أبسطه مجرّداً من الألقاب ويغدو في عرفنا «الجزائري الكبير».

ولا أخالك لائمي، يا صاحب السموّ، إنْ أنا صرّحت بأنَّ أوّل ما وقع عليه نظري من رسالتك هو ذلك الاسم العظيم الذي تلا توقيعك. ولا أراك إلّا باسماً إنْ أنا اعترفت بأنّي ابتسمت له. ثمّ قرأت سطورك الجليلة فوجدتها - ما ينتظر أن تكون - مصداقاً لذلك المبدأ العلمي القائل إنَّ الموتى يحيون في ذراريهم بميّزاتهم وشمائلهم الباهرات. وظهرت لي كلمات تشجيعك آيات كرم ملوّنة هي الأخرى بألوان قوس قزح وبألوان الشعر والخيال وبألوان المجد والفخار جميعاً. وكل ما يجول في نفسي من شكر يتجمّع بداهة في هذا الهتاف الواحد: فليحيَ الجزائري الكبير كبيراً بأحفاده كما هو كبير بفعاله!

(ميّ)

-٢-

[هامش الجريدة: أمّا هذه الرسالة الثانية فجواب على كتاب يصف فيه حزنه على أخيه الوحيد المرحوم الأمير عبد القادر الصغير الذي قُتل أثناء انقلاب الحكومة السورية بدمشق بعد الحرب:]

القاهرة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢١

يا صاحب السموّ،

رسالتك عن حيفا تفيض طلاوة وكرماً وحزناً. أمّا الطلاوة فتخال صادرة عن زرقة البحر - كما يبدو من تلك المدينة - فسيحاً مترامي الأطراف. وأمّا الكرم فأنا أنا موضوعه السعيد يتدفّق عليّ كلمات لطف وتشجيع واستحسان ما وددت أكثر من أن يجعلني الرحمن لها أهلًا. وأمّا الحزن فيثير فيَّ حزناً من نوعه أنا التي فقدت في طفولتي أخاً وحيداً بقيت بعده فريدة بين كتبي وأوراقي في هذا البيت الصامت فلم تتمتّع شفتاي يوماً بمناداة الشقيق أو الشقيقة.

بيد أنّ تفحّص شؤون الناس حولي أنبأني بأنّه فضلًا عن أخٍ لا يضرّ ولا ينفع، فالإخوة في العالم اثنان: أخ خير لذويه، لو لم يكن، لأنّه في حياته يجلب الهمّ والذلّ، ومماته لا يلمّ عمّن يلوذ به ذيول الأذى، وأخ هو فخر قومه في الحياة والممات جميعاً وهم يباهون أبداً بقولهم «هذا لنا ومنّا». ولئنْ حملني المثل الأخوي الأوّل على حمد اللّه الذي لم يحرمني سروراً حزيناً يقوم في التحسّر على عزيز «لم يكن عالةً على محيطه»، فإنّ المثل الأخوي الآخر يبعث فيَّ أسفاً لأنّ أخي لم يعش ولو أعواماً فيها يبرز اتجاه ميوله وتلوح دلائل محامده فيقضي، - إذا حمَّ القضاء - تاركاً على الأقل صورة من جمال شخصيته وقوّتها.

وبهذه الصفة أتقدّم إليك، يا صاحب السموّ، بشعائر التعزية لأنّ عبد القادر الصغير ذهب مخلّفاً صورة بديعة من الفروسيّة والشجاعة والتضحية في رسم ذلك الشابّ الجذّاب النبيل. لقد كانت حياته القصيرة كالبرق الخلّب المكهرب فخطف في سطوع الضياء وعظمة المفاداة. ولئنْ تحرّق قلب الأخ منك حزناً عليه فإنَّ حفيد الجزائري الكبير يستطيع أن يرتفع إلى ما فوق تفطّر الأفئدة ولوعة النفوس ليمتثل مطمئناً عند تلك الفكرة الحكيمة القائلة إنّ الفرد كالجماعات لا يتمّ حبّه لمكانٍ أو لشخصٍ أو لشيءٍ إلّا إذا أدّى ثمن حبّه غالياً.

ولقد ابتاع بيتك الرفيع العماد وطنيته السورية بثمن باهظ تركّب من عنصرين اثنين: عنصر فضل أبي أبيك - وقد تنسى هذا لأنّ الكريم كثيراً ما ينسى معروفاً أسداه،

وعنصر شباب أخيك وهيهات أن ينسى ذلك الدم المسفوك. وبتلك الرابطة التي اشترك في ضفرها الندى الجميل والبذل الجليل ارتبطتم بالوطن السوري فصارت أسرتك لسوريا وصارت سوريا لها على الدوام.

لقد أنفذت إليك منذ أيام نسخة من كتاب «ابتسامات ودموع» تقدمة إجلال. لم تخلُ هذه الطبعة من الأغلاط المطبعية ولكن لهذا الكتاب شأناً في تطوّري الفكري، فأرجو أن يظفر بدقائق تصرفها ناظراً فيه.

(ميّ)

-٣-

[هامش الجريدة: جاء في جريدة الرأي العامّ البيروتية عدد ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢ ما يلي:

كان سموّ الأمير سعيد الجزائري حين سمع بقدوم الآنسة ميّ قد كتب إليها يدعوها مع والديها إلى بوارج مقرّه وأفرغ الدعوة الخطيّة إذ ذاك في قالب من لطفه المعهود، غير أنّ رسالته إليها لم تصلها إلّا منذ يومين وقد قطعت الرسالة أشواطاً بعيدة وهي تقتفي أثر الكاتبة التي كانت تتنقّل في مصايف لبنان إلى أنْ أدركتها وهي في صوفر.

ولم تكد تقرأ الآنسة رسالة الأمير حتى أجابت عليها برسالة هاك صورتها:]

صوفر في ٤ (سبتمبر) أيلول سنة ١٩٢٢

شكراً يا صاحب السموّ، على تلك التحيّة الزكيّة وتلك الدعوة الكريمة التي كان تأثيرها فيَّ تأثير نقيِّ النسمات من أعالي الجبال. وهي لكذلك في الواقع. أليس أنَّ بعض الأفراد قمم بين بني الإنسان، بينا سواهم هضاب ومنحدرات وآخرون أودية؟

ولقد تخلَّفت إلى اليوم في إسداء الشكر لأنَّ الرسالة ذهبت إلى بيت مري حيث لم نكن قطّ في هذا الصيف وأُعيدت إلى سوق الغرب حيث صرفنا أياماً وتبعتني أخيراً إلى صوفر حيث نقيم منذ أسبوعين. ولكن إنْ أنا تأخّرت في خطّ كتاب

الحمد فلم أتأخّر دقيقةً عن تعليل النفس بالتشرّف بالاجتماع بك ولو مرّةً واحدة قبل مغادرة سوريا. وأرجو أن أزور الفيحاء في أواخر الشهر الحالي أو أوائل أكتوبر المقبل فأتبرّك عندئذٍ بلمس جدران أظلّت حياة الجزائري الكبير فخلّدها ذكر فضله، وأجثو عند ذلك الضريح الذي نام فيه الجبّار ليستريح. أمّا الآن فحسبي اغتباطاً أنّي في حماك على مقربة منك راجية قبول ما تكنّه نفسي من شعائر[2] الامتنان والإجلال.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥١، ع ١٤٨١٩، ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥، ص ١ . سبق نشر الأولى من هذه الرسائل الثلاث في المحروسة، س ٤٧، ع ٣٧٠٢، ٥ آب/أغسطس ١٩٢١، ص ١ . ثمّ أعيد نشرها في المحروسة، س ٤٩، ع ٣٩٥٤، ٤ أيلول/سبتمبر ١٩٢٣، ص ٣، بمناسبة زيارة الأمير سعيد الجزائري لمصر. كذلك ظهرت في مجلّة سركيس، ع ١٥ تموز/يوليو و ١ آب/أغسطس ١٩٢١ . وضمّنها جوزيف زيدان منقولة من «المحروسة» في مجموعته «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، أبو ظبي: المجمع الثقافي ١٩٩٦، ص ٢٠١ - ٢٠٢ . كما نقلها أحمد حسين الطماوي عن «مجلّة سركيس» في كتابه «ليلة باسمة في حياة ميّ»، القاهرة: دار الفرجاني ١٩٩٦، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(١) مذابح سنة ١٨٦٠ من آلم الفصول في تاريخ النزاع الذي نشب بين الطائفتين المارونية والدرزية في منطقة جبل لبنان نتيجة للاحتلال المصري لسوريا (١٨٣١ - ١٨٤٠) ولتدخّل قوى أوروبية عظمى وللسياسة المركزية للدولة العثمانية. تطوّر النزاع وشمل سعيره دمشق حيث قام المسلمون عام ١٨٦٠ بنهب أحياء المسيحيين وقتل الآلاف منهم تعبيراً عن غضبهم على منح أولئك حقوق متساوية منذ عهد إبراهيم باشا، تمّت المصادقة عليها خلال التنظيمات العثمانية عام ١٨٥٧، وكذلك على ازدهارهم الاقتصادي. أسفرت المصادمات الدامية عن موجة هجرة شوام مسيحيين إلى مصر وأمريكا وغيرها من البلاد.

(٢) كذا في الأصل، والمقصود «مشاعر».

من الأمير سعيد الجزائري والجواب عليها

تلقّيت اليوم (الجمعة ١٣ نوفمبر) رسالة من الأمير سعيد الجزائري حملها إليَّ بعيد الظهر رسولٌ من «الأهرام» التي جاءتني الرسالة مسجّلة بواسطة إدارتها. وهي تنقسم إلى قسمَين: قسمٍ موجّه إليَّ شخصياً، والقسم الآخر يذكر ما قام به الأمير من المساعي خلال الحوادث الأخيرة. ولما كان ذلك مما يهمّ الجمهور أنْ يطّلع عليه فإنّي ألخّصه في ما يلي:

أوّلاً – إنّ الأمير سعيداً كان متغيّباً في فلسطين فلمّا عاد إلى لبنان قابل الجنرال سَراي[1] وذكر له ما ينشأ من الكوارث عن متابعة الحرب في جبل الدروز. وطلب إليه عقد صلح شريف بين الطرفين لا يُمسّ فيه شرف فرنسا. فرفض الجنرال بلطف زعماً منه أنّ هذا جاء متأخّراً وأنّ بإمكان فرنسا معاقبة الدروز معاقبة شديدة.

ثانياً – إنّه لمّا لم يُفلح في سعيه لعقد الصلح رغبةً في حقن الدماء تحوّل الأمير سعيد إلى الدروز فخابرهم بالواسطة الشفاهية أن لا يقوم في فكرهم الاعتداء على دمشق خشية أن يسطو بهذه الواسطة أرباب المطامع من الأشقياء واللصوص على الأحياء سيّما حيّ المسيحيين فيثير ذلك غضب أمم أوروبا وينجم عنه لطخة سوداء في تاريخ الأمّة العربية ويفشل الدروز بقضيتهم أعظم فشل. ويقول الأمير سعيد إنّ ما وقع من الاعتداء على الشام في ١٨ تشرين أول ١٩٢٥ (أكتوبر الماضي) فجبل الدروز بريء منه.

ثالثاً – إنّ عند حلول الكارثة كان أوّل ما فكّر فيه آل الجزائري حماية المسيحيين لأنّ الحكومة المحليّة سحبت قوّاتها من حيّهم وتركته بلا حماية. وإنّه في اليوم الثاني وقد التجأ إلى آل الجزائري آل العجلان والقوتلي والأيّوبي رجالاً ونساءً وأطفالاً بعد الحريق، ذهب الأمير سعيد لمقابلة الجنرال غاملان[2] وطلب منه أن يتوقّف عن ضرب البلد بالقنابل وقد توقّف.

ويقول الأمير في الختام إنّ «هذه الأمور التي قامت بها أسرة عبد القادر واجبة حسب ما تقتضيه الشرائع السماويّة في كل أديان البشر. وحبّذا لو علمت أوروبا درجة أخلاقنا التي هي المدنيّة الحقيقيّة إذن لنظرت إلينا غير النظرة التي تجعل هذه البلاد وهذه الأمّة في تقديرها مسرحاً للاستعمار والمطامع والدسائس» انتهى.

* * *

نسخت ما لخّصته من كتاب الأمير حرفيّاً على وجه التقريب. وليس ثمّت ما يمنع أن أنشر هنا ردّي على القسم الشخصي من الخطاب وأن أورد بعدئذٍ كلمة لا بدّ من أن أقولها في هذه المناسبة.

«أمّا عطفك واستحسانك، يا سموّ الأمير، فقد عوّدنيهما فضلُك. وصرت أتلقّاهما شأن من يتقبّل طاقة الأزهار الناضرة فلا يناقش في ما إذا كان أهلًا لها، بل يعكف على التمتّع بنعمة حسنها ونفخة عطرها.

«بيد أنّ لاستحسانك اليوم أهميّة خاصّة لأنّه موافقة على كلّ ما كتبتُ على ذكر حوادث سوريا، وهي موافقة ثمينة أنا منها في حصن حصين. بل هي الحصن الذي علمت دواماً أنّه لا يعوزنا أكثر من أن نقصده عند الحاجة. فبورك بمساعيك، أيّها الأمير. وبورك بهمّتك، يا حفيد الهمّام!

«وأكرّر الشكر لجميع المسلمين في دمشق ولو كنت هناك لقلّدت قنصلَي أمريكا وإنجلترا فتشرّفت بزيارة ذلك الشيخ الجليل عميد المسلمين في الفيحاء ووضعت بين يديه عواطف الحمد والامتنان».

بقيت لي كلمة نبّهها فيَّ قول الأمير إنّ الاعتداء على دمشق قد يحرّك جماعة اللصوص والأشقياء ويدفع بهم لانتهاز الفرصة في السطو على الأحياء لا سيّما حيّ المسيحيين فيثير ذلك غضب أمم أوروبا وينجم عنه لطخة سوداء في تاريخ الأمّة العربية إلخ.

أمّا أنّ الاعتداء يكون لطخة سوداء في تاريخ الأمّة ويفشل الدروز بقضيّتهم ويقوم دليلًا على عجز البلاد دون تولّي شؤونها بنفسها فصحيح. لأنّه أقل ما يقال في ذلك أنّ

البلاد التي لا أمان فيها فتُمتهن فيها البراءة وتُنتهك الحرمات وتُسلب الأموال وتُقتحم المنازل لغير ما سبب سوى ضعف الذين لا يميلون من أهلها إلى المقاتلة، فتلك بلاد ليست ناضجة لفهم معنى الاستقلال والحريّة فعليها أن تظلّ إذن مستعبدة في قيود الوصاية والرقابة. هذا هو الحكم في محكمة السياسة. أمّا المحكمة الأدبيّة محكمة الضمائر والأخلاق فأحكامها أشدّ وطأة وأقسى تعبيراً، هي أحكام ثابتة لا تتغيَّر أبد الدهر.

كذلك صحيح أنّ الاعتداء يثير غضب أوروبا، وليس أوروبا وحدها، بل غضب كل من يفهم ما في معنى الاعتداء على المسالم من ظلم وطغيان. ولكن لا فرق سواءً كان المعتدى عليه مسيحيّاً أَم غير مسيحي.

وهذه هي النقطة التي تشتبك عندها خيوط شتّى أودّ أن أسلّكها ولو بعض الشيء على تعقّدها. ويحملني على هذا أنّ كثيرين تلتبس عليهم فلا يحجمون عن قول لا ينطبق على المسألة تمام الانطباق ولو كان في الظاهر مقبولاً لتوارده في الخواطر وعلى الألسنة.

من قبيل ذلك - وهو مع كلمة الأمير سعيد أحدث مثل أذكره - أنّ الأستاذ عباس العقّاد نشر منذ أيّام في «البلاغ» مقالاً ملؤه العطف الجميل على سوريا وحثّ المصريين على تلبية نداء زغلول باشا والاكتتاب لإغاثة المنكوبين. ثمّ ذكر مظهر التضامن بين العناصر أثناء الكارثة وامتدح ما قام به المسلمون من حماية المسيحيين في حين هم (المسلمون) المقصودون بالذات.

وأرجو الأستاذ والذين يظنّون ظنّه هذا أنّ المسلمين ليسوا هم المقصودين بالذات. أتطلبون الدليل؟ إنّ ذلك لأيسر ما يكون. اذكروا أنّ الجنرال سَراي من أعضاء الحزب الراديكالي الاشتراكي القائل بالعلمانية في جميع مناطق الأمّة، المعزّز كلمة الماسونية والعامل على نشر روحها. ففضلاً عن سوء تصرّفه في ما يتعلّق بثورة الدروز منذ منشأها - فإنّه ما فتئ منذ أن حلَّ في سوريا يغضب مختلف الطوائف بامتهان عقائدهم ويعمل على خنق الروح الدينية ونشر التعاليم العلمانية الحرّة وإعلاء شأن الماسونية بينها. هذا من حيث الطوائف المسيحية. أمّا في ما بقي فكانوا يقولون إنّ سياسته «إسلاميّة».

لست مبدية رأيي بشأن الروح الدينية أو العلمانية ولا أنا أرمي إلى نقد خطّة الجنرال هذه أو إلى تحبيذها. فتلك قضيّة كأنّـها في طولها وعرضها وعمقها القضيّة الشرقيّة التي ما فتئوا يحدِّثوننا عنها... ما أنا إلّا مقرّرة الواقع ليس غير.

قلت إذن إنّ هذه سياسة الجنرال الذي رأى حزبه قابضاً على زمام الحكم في فرنسا فجاء هو يحسب أنّ سوريا فرنسا صغيرة فضرب صفحاً عن تقاليد هذه البلاد القديمة، وعن عقائدها وطوائفها وميولها السارية مع الدم في عروقها، وانبرى ينشر راية حزبه حيث كان يجب أن يدرس أحوال تلك البلاد وما تحتاج إليه من إصلاح مباشر.

والملمُّون بشؤون سوريا يعلمون أنّ بعض المسلمين كانوا وما زالوا (؟) أقرب المقرّبين إلى دار المفوَّض السامي ورجاله سواءً في بيروت أو دمشق. كما أنّ بين من طاردتهم السلطة واعتقلتهم منذ بدء الاضطراب في دمشق أفراد[٣] من عيون المسيحيين حسبي أن أذكر منهم فارس بك الخوري[٤] الذي ما زال معتقلًا مع إخوانه في جزيرة أرواد. وليسمح لي أن أذكر في سياق الكلام أنّ المجلس العراقي[٥] التركي أثناء الحرب كان قد سبق وحكم بالإعدام على جماعة من أحرار لبنان وسوريا المسلم منهم والمسيحي سواءً بسواء. وعندي أنّ أصول الوحدة القومية لا خوف عليها في هاتيك البلاد لأنّها تغذّت من دماء أولئك الأحرار بعد أن زُرعت في بقعة صغيرة يضطجع فيها الشهداء المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب.

نعم إنّ بعض دول أوروبا قد تدخُل بلاداً من بلاد الشرق باسم حماية المسيحيين. ولا ريب عندي في أنّ تلك الدول بل كل دولة بل كل جماعة وكل فرد قويّ يحمي الضعيف المسالم إذا كان ذا ضمير إنساني وعاطفة حيّة، أيّاً كانت عقيدة المعتدى عليه وأيّاً كانت جنسيته. ولكن عبثاً يبحث الباحثون عن مثل هذا السبب لكل استعمار أوروبي.

أترى إنجلترا جاءت مصر لحماية المسيحيين وسيطرت لذلك الداعي على قناة السويس؟ وهل هي استعمرت أوستراليا وكندا وضربت في أنحاء الهند لحماية المسيحيين أيضاً؟ وهل سعت إيطاليا إلى طرابلس بتلك الحجّة وهل هي اليوم تساوم على تخوم جغبوب[٦] لحماية المسيحيين في تلك الواحة؟ واذكروا إلى جانب هذه

الدول الدول الاستعمارية الأخرى هولندا وبلجيكا وإسبانيا وغيرها، بما فيها ألمانيا التي شهرت الحرب كما يقولون للاستيلاء على مستعمرات الحلفاء بعد أن ضاقت أرضها بها، ونشر تجارتها ومصنوعاتها فيها - أهي الأخرى كانت تحدو بها غيرتها على المسيحيّة فتشنّ الغارة على كلّ من يقف في وجهها من دول الأرض مدّة اثنين وخمسين شهراً؟

إنّ مثل هذه الأسئلة يوسّع الأفق أمامنا ويجعلنا أصدق نظراً في الأمور. ومع نفوري من الاستعارات المألوفة، فإنّي أرى أنْ أُردِّد الآن مخلصة هذه الكلمة الجميلة: هدانا اللّه جميعاً إلى سواء السبيل!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥١، ع ١٤٨٢٦، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥، ص ١ . أُعيد نشر هذه المقالة في المحروسة، س ٥١، ع ٤٥٩٥، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥، ص ١ .

(١) Général Maurice Sarrail ، المفوّض السامي الفرنسي في سوريا من كانون الثاني/يناير حتى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥ .

(٢) Général Maurice Gustave Gamelin ، قائد القوّات الفرنسية في سوريا من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٩ .

(٣) كذا في الأصل، وصوابها «أفراداً».

(٤) فارس الخوري (١٨٧٣ - ١٩٦٢)، سياسي وأديب سوري، كان ابتداءً من سنة ١٩١٢ نائباً عن دمشق في مجلس «المبعوثان» العثماني، ثمّ مارس المحاماة. تعرّض للسجن قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى بتهمة التآمر التي لم تثبت عليه. شغل منصب وزير المالية حتّى الاحتلال الفرنسي لدمشق عام ١٩٢٠ . نُفي مع كثيرين غيره إلى جزيرة أرواد سنة ١٩٢٥ بتهمة كونهم زعماء قوميين وأُعيد بعد عام ليتولّى وزارة المعارف مدّة ٤٧ يوماً حتى حلّت الوزارة ونفاه الفرنسيون مجدّداً. انتخب رئيساً لمجلس النوّاب أكثر من مرّة منذ سنة ١٩٣٦ فرئيساً للوزارة ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ومثّل بلاده في الأمم المتحدة.

(٥) كذا في الأصل، وصوابها «العرفي».

(٦) المقصود الجغبوب، الواحة في ليبيا قرب الحدود المصرية.

خطبة الآنسة ميّ

في حفلة ذكرى باحثة البادية(١)

[هامش الجريدة: هذه هي الخطبة الشائقة البديعة التي ألقتها الكاتبة المبدعة الطائرة الصيت الآنسة «ميّ» في الحفلة التي أقيمت أول من أمس إحياءً لذكرى باحثة البادية وكانت تُقاطع بالتصفيق المتكرِّر:]

أيّها السادة والسيِّدات،

وأنا كذلك لي كلمة أقولها في هذا الاجتماع، وكيف لا أقولها بكل قلبي وذكرى الباحثة حبيب إليّ أثير لديّ. وكذلك لأسباب أستسمحكم في إيضاح ثلاثة منها هي في تقديري أوجه الأسباب وأحكمها وثاقاً بين اسم الفقيدة وما لها في النفوس من محبّة وإكبار.

أمّا السبب الأول - وقد يراه بعضكم سبباً نسوياً مع أنّه سبب جوهري - فهو الجاذب الذي طويت عليه شخصية الباحثة، ذلك الجاذب القويّ الذي يتشفّع من بعض الشخصيات الكبيرة فيستولي علينا، ويظلّ جادّاً وراء ميولنا ونزعاتنا، كأنّ لديه رسالة يتحتّم أن يؤدّيها إلينا، سواءً في الحياة أو بعد الممات.

أمّا السبب الثاني فهو فضل الكاتبة عليّ قارئةً. لقد اطلعت على مجموعة «النسائيّات» سنة الحرب فكانت الباحثة أوّل كاتبة عربية خاطبتني في موضوعات غريبة يومئذٍ عن معرفتي وإدراكي واهتمامي - موضوعات الزواج والطلاق وتعدّد الزوجات والنقد الاجتماعي والإصلاح - فسيطرت على انتباهي وتغلغلت غير متعثّرة في مشاعري، ولفتتني إلى عللٍ ما زالت ضاربةً إلى يومنا هذا في مختلف المراتب وما زال الدواء الحكيم الذي وصفته باحثتنا في مقدّمة ما يحسن أن تعالج به من الأدوية.

أمّا السبب الثالث فهو فضل الكاتبة عليّ كاتبةً. فإنّي بفعل حزني عليها عكفتُ على درس شخصيتها وتمحيص آرائها ورسم صورتها الجذّابة السمراء. وذلك الكتاب الذي صدر سنة ١٩٢٠ «باحثة البادية» كان فاتحة تأليفي باللغة العربية ومنشأ اهتمامي بدرس شخصية المرأة عموماً والشرقيّة خصوصاً، ومسايرتها في تطوّرها الجديد مع

إعلان ما يناسبها وما تحتاج إليه، وتعريف ما لا يلائمها وما وُجب عليها نبذه. ولقد كانت المرأة الشرقيّة إلى اليوم كمّية مهملة - كما يقول العواذل - فلم يقم طبعاً كاتب يُفرد لذات شخصية نسوية كتاباً. فكان للباحثة أن تفتح هذا الباب فتوحي أوّل كتاب عربي في النقد الأدبي والاجتماعي والتاريخ والإصلاح عن إحدى بنات جنسها تدوّنه إحدى بنات جنسها.

وهذه الأسباب الثلاثة التي تصلني بالباحثة هي بعينها التي تصل الجمهور بها، ولو مع بعض الاختلاف. فكل من قرأها شعر بجاذبها من خلال الصحائف. وكل تأثّر بكتاباتها وفقاً لاستعداده، القارئ منّا والقارئة. وكما كانت موحية أوّل كتاب عربي عن كاتبة عربية كذلك كانت أوّل امرأة مصرية - وأكاد أقول شرقيّة - تعاون الرجال والنساء على الاحتفاء بتأبينها احتفاءً رسمياً. فأقام الرجال حفلتهم بعد مرور أربعين يوماً على وفاتها. وأقام النساء حفلتهنّ بعد مرور العام، في دار الجامعة المصرية القديمة. وقد كان لي الشرف والسرور والحزن أن أكون من أعضاء اللجنة التي عنيت بتهيئة تلك الحفلة ومن الخطيبات اللائي تكلّمن فيها. أوَتذكرون متى كان ذلك؟ لقد كان ذلك في تلك الساعة المتلظّية الطروب ساعة اليقظة المصرية. لأنّ الباحثة سكتت للمرّة الأخيرة عندما سارت الأمّة هاتفةً تحت الأعلام الخافقات. أُدرج جسم الباحثة في الأكفان عندما انبرت الأمّة تلقي عنها لفائف الموميات القديمة لتنتفض منها النفس القومية انتفاض الحياة المشرقة المنشورة في بعث جديد باهر!

للعمر ساعات، أيّها السادة والسيّدات، لا يسع المرء فيها، حتى ولو كان حكيماً، إلّا أن يعاتب القدر وينعته بالجور والطغيان. لأنّه بينا هو يغدق النعم على الأحمق أو الخبيث الأثيم من بني الإنسان إذا به يؤذي المحسن الكريم فيصعقه في لطمة واحدة بعد التعذيب الطويل. ذلك كان نصيب الباحثة من القدر. على أنّنا نعود إلى الامتثال الجميل الذي هو من أسمى دروس الإسلام، نعود إلى الامتثال لعلمنا أنّ الزارع لا يتحوّل عن حقله إلّا وقد نثر جميع البذور التي تحتّم عليه أن ينثرها. ومن يد بطلتنا المباركة كما من يد قاسم أمين أُلقيت البذور الصالحة في الوادي الخصيب فرأيتم اليوم، يا رجال مصر، هذا الحصاد البهيج من بنات واديكم ينهضن عاملات لكم ولنفوسهنّ ولأوطانهنّ وللإنسانية!

ولا عجب في ذلك. بل قد كان يكون العجب واليأس أيضاً لو لم تتحرّك المرأة المصرية. كيف؟ أوَيغامر الرجل ويجاهد ويستبسل ويفادي وتظلّ المرأة حياله تمثالاً أو دمية لا تسمع نداء الحياة، ولا تفقه عجيج الأماني وصيحة الأوطان؟ كيف؟ أوَيدوّي العالم بصخب الشكايات والمطالب ولا تتأثّر بذلك مصر، ومصر كالشرق بأسره مطمح الأنظار وسوق المصالح ومرمى المطامع، أوَتنهض الأمم بشطريها للسعي والاقتباس والتجديد وتظلّ هذه البلاد مُعرِضة غافلة رغم كونها النقطة المسيطرة على طريق المشرقين، وملتقى القارّات الثلاث، والبقعة التي تستقرّ فيها خلاصة كل حضارة وكل ازدهار؟

كلّا، لم يكن ذلك بالميسور في بلادٍ قويّة بماضيها، قويّة بمستقبلها، قويّة بحيويّتها الحسيّة والأدبيّة وبرسالتها إلى العالم التي تجلّها عن الانقراض والفناء! فكانت الباحثة ساعة النهضة الوطنية، ومثل النهضة الوطنية، أوّل وسيلة يتفاهم عندها الشطران ويتعاونان. فهنيئاً لنابهٍ يقضي بين قوم نابهين! وهنيئاً للأحياء تدّخر لهم القبور ودائع الفضل والذكاء!

ولقد شاء الأستاذ مجد الدين ناصف(٢) استنهاض همّة الرجل في هذا النادي فبسط له مظاهر ظلمه. وفعلت فعْلَه أستاذتي الجليلة السيّدة نبوية موسى(٣) وهي المحقّة في إخلاصها. ولكن للأمر وجهاً آخر عليَّ أنْ أذكره ليقوم التوازن حيث يجب أن يكون. وما أنا قائلة إلّا كلمة حقّ توحيها روح العدالة ومعرفة الجميل إنْ أنا شكرت الرجل لعطفه على المرأة وعنايته بحركتها في هذه الديار.

فالرجل في شخص قاسم أوجد اليقظة النسوية ودعا إليها. والرجل يتعهّد هذه اليقظة بشخصكم أيّها الآباء والفضلاء الذين تعنون بتعليم بناتكم وتثقيفهنّ. وما فتئ الرجل ينشّط المرأة ويستحثّها ويروّج مصالحها بأكرم المظاهر وأنبل الوسائط. وهل من هو أولى بالذكر في هذا الموقف من أبي الباحثة؟ بل هل هناك من هو أولى بالشكر منك، يا شقيق الباحثة، أنت الذي نراك باذلاً ذكاءك وهمّتك ومعرفتك وحماستك الفتيّة للإشادة بذكر قضيّة المرأة، وتفخيم أعمالهم وبسط آرائها، وتشجيعها على مخاطبة الرجال في شؤونها بإباء، وإرغام الرجال على الاستحسان والتصفيق والموافقة؟

وهاكم الكتب، والاجتماعات، والأحاديث، وهاكم عطف الصحافة الكريم بوجه خاصّ. كل ذلك ناطق باهتمام الرجل وإنصافه وسامي شعوره. وها هو كل

شاعر وخطيب هنا، وها هو كل حاضر منكم، أيّها السادة الرجال، إنّما هو يعرب بطريقته الميسورة عن رغبته في تفاهم الجنسين لإعلاء شأن الأوطان لأنّكم تدركون أنّه لا خير في وطن يجري الرجال منه والنساء مقعدات! بل الخير كل الخير في وطن يتعاون الرجال منه والنساء على تنشئة الفرد الصالح تنشئة للعائلة، فالمجتمع، فالأمّة الزاخرة بتيّارات الرفعة والكرامة!

أيّها السادة والسيّدات،

إنّنا في طريقنا إلى غاياتٍ خطيرة قوميّة وإنسانيّة وروحيّة تحدو بنا جهود العاملين وتنير سبيلنا أفكار الراحلين. ففاخرن، يا أخواتي المصريات، بأن تكنّ عاملات في هذا الموكب العظيم كما تفاخرن بأنّ لكنّ شعاعاً نسوياً يزيد في النور الطاهر السنيّ المنبعث من قبور الخالدين!

(*) الأهرام، س ٥١، ع ١٤٨٤٦، ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٥، ص ١ . نُشر النصّ الكامل للخطبة كذلك في المحروسة، س ٥١، ع ٤٥٩٨، ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٥، ص ١، وصيغة مختصرة لها في المقتطف، ج ٦٨، ع كانون الثاني/يناير ١٩٢٦، ص ٧٤ - ٧٦، ضمّنها أنطوان محسن القوّال في كتابه «نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة»، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٣، ص ١٦١ - ١٦٤ . ويُشار إلى أنّ القوّال قد أرّخ إلقاء الخطبة في سنة ١٩٢٦ بدلاً من ١٩٢٥ وهذا غير صحيح.

(١) باحثة البادية هو الاسم المستعار للكاتبة والشاعرة والخطيبة المصرية ملك حفني ناصف (١٨٨٦ - ١٩١٨).

(٢) مجد الدين ناصف (١٨٩١ - ١٩٧٨)، شقيق باحثة البادية، كان أستاذاً في جامعة القاهرة، وقد أصدر عام ١٩٣٧ ديوان شعر لوالده محمد حفني ناصف وعام ١٩٦٢ مجموعة «آثار باحثة البادية».

(٣) نبوية موسى (١٨٩٠ - ١٩٥١)، كاتبة ومربّية، كانت أوّل مصريّة حصلت على البكالوريا (الثانوية العامّة). عملت مدرّسة فناظرة فمفتّشة في وزارة المعارف. فُصلت من منصبها عقب انتقادات عنيفة وجّهتها لبرنامج تعليم البنات في المدارس الحكومية، وأقدمت على تأسيس مدرسة خاصّة في الإسكندرية وأخرى في القاهرة. نشطت في مجال الدفاع عن حقوق المرأة وأصدرت مجلّة «الفتاة» الأسبوعيّة في القاهرة (١٩٣٧ - ١٩٤٣). اعتزلت الحياة العامّة بعد اعتقالها بسبب نقدها الحكومة المصرية خلال الأزمة السياسية عام ١٩٤٢ .

الكيل الذي طفح واندلق

أتعلمون ما هو؟

كلّا، إنّكم عن ذلك لعاجزون. ولا قِبل لأحد بتعريفه الساعة غيري. وها أنتم - كائنين من كنتم - علماً، وساسة وصحافيين وقرّاء «حاف» وإلى آخره، ها أنتم جميعاً مرغمون على الاعتراف بعجزكم في هذا الباب. فتفضّلوا إذن - كما كانت تقول مدام ده سفينيه[1] - وألقوا إلى جماعة القطاط بألسنتكم ثمّ أعيروني سمعكم ألقي فيه الشرح فتفهمون.

كوارث المجتمع ككوارث الطبيعة كثيرة والكارثة الواحدة منها قد تكفي لخراب أرض والقضاء على جماعة. وحسب الأمّة أن تصاب بانقسام الصفوف وتشتّت الآراء، أو الحرب الداخلية، أو الحرب الخارجية، إلخ، لتكبو كبوتها وتتضعضع منها الشؤون الحسيّة والأدبيّة على السواء. فيعمل بعدئذٍ أهلها الأعوام الطوال بجدٍّ وثبات في سبيل الترميم والتجديد حتى يُقيّض لها أن تستوي على قدميها فيتيسّر لها أن تهمّ وتخطو.

وفي البقاع بقعة سكنتها أمّة كان نصيبها من طبيعة الأشياء والأحوال حبّ مدمِّر قتّال، إذا صحّ قول الشاعر «ولقد هممت بقتلها من حبّها» وإلّا فكلّ أبناء تلك الأمّة من الأولياء المحبّين، وإذا صحّ أنّه سبحانه يجرّب خائفيه إذ قد حلَّ بها في عشرة أعوام من المحن والنكبات ما يتوزّع على تاريخ يستغرق دهوراً فيكون زاخراً فيّاضاً. وإنْ رميتموني بالغلواء والشطط فعلينا بالإحصاء وأحصوا معي على أصابعكم!

إنّ تصوُّر ويلات الحروب أمرٌ ميسور وتتصوَّرون كذلك ما يجرّه من البلايا احتلال الجيش لبلادٍ احتلالاً عسكريّاً. فما قولكم في احتلالات كثر عددها حتى اقتضى الترقيم؟

أولاً - الاحتلال التركي العثماني الذي قام على الحكومة العثمانية التركية التي سبقته في البلاد. أضف إليها كل ما تخلَّلها من الخصومات والدسائس والوشايات

وتلاعب ألف يد ويد من وراء ألف قفّاز وقفّاز من القطيفة والحديد و«الدنتلا» والحبال (حبال المشانق).

ثانياً - الاحتلال الألماني الذي قام والاحتلال العثماني قدماً بقدم.

ثالثاً - الاحتلال النمسوي الذي وقف مع صاحبيه وقفة المثيل بجوار المثيل.

رابعاً - احتلال الجيش العربي في آخر الحرب.

خامساً - احتلال الجيش الإنجليزي في إثره. ومعلوم أنّ الجيش الإنجليزي جيوش مجتمعة من مختلف أنحاء الإمبراطورية البريطانية.

سادساً - الجيش الفرنسوي - وهو القائم إلى اليوم. وهو كالجيش الإنجليزي من حيث تنوّع جنسيات الجنود.

دولٌ ستّ اجتاحت البلاد في ستّة أعوام جيشاً بعد جيش، وحكماً بعد حكم، ويداً عسكرية بعد يد عسكرية. ومع تقلُّب الجيوش ما يصحبها من معارك ومصائب وضنك وأمراض وخوف وعبودية، وما يتخلَّل كل أولئك من انقسام وخصومة ويأس ووشاية ومهاجرة وتزلّف وميسر وشراب وما إليه. وهل أحدِّثكم بعد كل ذلك عن الخصومات السياسية والأحزاب وخلافات الطوائف والأديان والمفجعة الهزلية التي يسمُّونها مالية البلاد والتي هي هناك أبداً في حركة الهبوط في ترمومتر مستمرّ الهزيان[٢]؟

هذه خطوط رئيسيّة لبعض ما حلَّ بلبنان. أقول لبنان وأعيِّنه في هذا المقال ولكن لا فرق بين لبنان وسوريا في هذه المصائب.

إنّ تلك الأمّة القليلة بعددها الكثيرة ببأسها ما فتئت تائهة بين خصومات الدول في الخارج وخصومات الأحزاب في الداخل، بين حاجتها إلى المال، وقلّة مواردها الطبيعية، وميلها إلى الإسراف والظهور بمظهر النعمة، بين الاندفاع في مهبّ التيّارات الفكريّة وتلقّف جميع الآراء الحديثة، وبين جرثومة السيطرة الكامنة في الدماء وروح المحافظة على القديم لأنّه قديم ليس غير، بين الروح الدينية التي لها في تلك البقعة حصن حصين وبين الروح العلمانية المدنية التي تلاقي المقام الطيّب والمرعى الخصيب.

حقّاً إنّ نكبات لبنان لأكثر من أنْ تُبسط في مقال ويعوزنا لإيرادها إنشاء أستاذيّ وملاذيّ وشيخيّ روتر – هافاس التلغرافي الذي يلخّص الشيء الكثير في ألفاظ قلائل.

هذا هو الكيل الذي طفح واندلق من عهد عهيد، كيل التعاسة والحاجة والحرب والمرض والهجر والانقسام والطائفية واللاطائفية... أفهمتم؟

أعيدي، أيّتها القطيطات العزاز، كل لسان إلى صاحبه ليجيب بالإيجاب! إنّكم، بلا ريب تحسبون الحالة لا تحتمل المزيد، أليس الأمر كذلك؟ يروقني أن أرضيكم، ولكنّي أقول بكلِّ أسف إنّ الأمر ليس كذلك. فهناك أمر هو تاج لهذه الحالة وإكليل، إنْ صحّ أنْ يكون هناك ما يُعصَّب ويتتوَّج. هناك «عرش» يحبّ إخواننا أن ينصبوه على تلك الأنقاض!...

لم يكتفوا بهذه المحن والبلايا. لم يكتفوا بمصيبتهم تلك العريقة، مصيبة «العائلات النبيلة» التي هي أخصب وأوجه واردات ذلك البلد القاحل، فقاموا يريدون عرشاً جديداً بين جلال الجبال وإمارة جديدة بين الإمارات و «المشيخيات»(٣) التي لا تحصى والتي تنيخ ببعضها إمبراطورية عظيمة كالإمبراطورية البريطانية.

إنّي أحترم بعض أفراد تلك «العائلات» كل الاحترام من رجال ونساء لما أعرفه فيهم من صفات شخصيّة كريمة. وأحترم العروش القائمة على النظم الدستورية التي ينمّ وجودها اليوم عن ماضٍ صالح نافع للاسم ولكنّي لا أرى معنى لإيجاد العروش غير الموجودة والتي لا محلّ لقيامها، بل التي يقضي صالح الشعوب بأن لا يمرّ خيالها في أذهانهم.

أعرش جديد؟ إذن دسائس جديدة، وأعوان وأحزاب ومشاحنات، وتكالب على المحسوبية وتزاحم على الملق والإرضاء.

أعرش جديد؟ إذن فحاشية وبلاط وحرس واعتمادات مالية من خزانة بلاد بلغ بها الفقر أن ليس لديها «خزينة» حتى ولا من خشب صناديق الكاز التي كُتب عليها كما تعلمون (Opetroleum Batum) !

أليس لكم من ملهاةٍ أخرى غير هذه الإمارة تلهيكم عن غمومكم، يا إخواني؟
أليس لكم من دواءٍ آخر يخفّف آلامكم؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٢، ع ١٤٨٨٧، ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٢٦، ص ١ .

(١) Marie Marquise de Sévigné (١٦٢٦ - ١٦٩٦)، كاتبة فرنسية، لعبت دوراً هامّاً في الحياة الثقافية والفكرية في فرنسا من خلال صالونها. وقد اشتهرت برسائلها التي جاوزت الألف وخمسمائة ومعظمها إلى ابنتها.

(٢) كذا في الأصل، والمقصود «الهذيان».

(٣) كذا في الأصل، وصوابها «المشيخات».

حفلة أسرة الصحافة المصرية
لتأبين المرحوم سليم سركيس
خطبة الآنسة ميّ

أيّها السادة والسيّدات،

يتذكّر الأحياء فيضعون على كل ضريح شارة صاحبه وشعار جهاده، فالسيف على ضريح الجندي، والأجنحة على ضريح الشاعر، وقسطاس العدل على ضريح رجل القانون، والصحيفة المنشورة على ضريح الأثري والباحث، والراية على ضريح المجاهد، والشمعة المحترقة على ضريح المفادي.

أمّا سركيس فأخصّ خصائصه الظرف والفكاهة، ظرفه الشخصي الخاصّ وفكاهته التي كانت في يده آلة ووسيلة وقانصة وسلاحاً. فيخيَّل إليَّ أنَّ روحه المطلّة علينا الآن من عالم البقاء قد تجدنا أطفالاً أغراراً إنْ نحن لم نستعمل في استحضارها سوى الأفكار الراجحة الباهظة وقد يخيب ظنّها في فطنتنا لو نحن حرمناها شارة موهبتها الكتابية. لذلك أنا التي قدّر عليّ أن ألقي بطاقتي بين البطاقات[1] الموضوعة الليلة على هذا الضريح المفتوح حديثاً، أضمّ إلى أزهار الأسى والذكرى زهرة الابتسام الوردية اللطيفة ليعلم صاحب الضريح أنّ هذه الأزهار إنّما ضفرت له خصيصاً، وأنّ أصدقاءه يعلمون أنّ للذكرى مؤاساة كما لها جمرات وأنّ لها ابتسامات بقدر ما لها من دموع.

* * *

تسمعون الليلة ممن هم أقدر منّي عن فتوّة سركيس، «الحركة الدائمة» في همّته وذكائه، في احتياجه الشديد إلى الإعجاب والتحمّس والطرب، في مقته للظلم والعبودية وتعشّقه صيحة الحريّة. تسمعون وصف الأجواء التاريخيّة والاجتماعيّة التي انفعل بها من جوّ سوريا العثمانية الحميدية، إلى جوّ مصر في آخر القرن الماضي، إلى

أجواء أوربا وأمريكا، إلى جوّ مصر نهائياً في هذا الربع الأول من القرن العشرين – مصر الغضنفرية المستيقظة التي تنيل النفوس أجنحة من النار والنور في هذه الأعوام المتلظّية. تسمعون عن مساعيه للربط بين أهل الفكر والقلم وتكوين أسرة أدبيّة منهم، عن إشادته بذكر النابهين عندما يقف على بعض آثارهم، عن محاولته أن يجمع – بواسطة ذوي النفوذ الفكري والسلطان الأدبي – بين مختلف العقائد والطوائف والأحزاب في الأقطار الشرقية دون أن ينسى الشرقيّين النازحين إلى الأقطار الأوربيّة والأمريكيّة. هذه موضوعات نيطت معالجتها بخطبائنا القادرين وشعرائنا النابغين. أمّا أنا فقد أخطرت بالمثول أمامكم دون أن يُعيَّن لي موضوع القول. وفي هذا الإهمال في الظاهر حكمة بالغة، لأنّ مجرّد إفساح هذا المكان لفتاة بأمر الأسرة الصحافية النبيلة، هو في نفسه أكبر خطاب وأدلّ موضوع، وأسنى القصائد وحياً وجمالاً!

ورغم ذلك فأنا قائلة كليمة ألمع بها إلى ما يلتصق في نفسي بذكر سركيس، وإنْ ظهر في البدء غريباً عنه.

أتذكرون الأغراس في عالم النبات؟ إنّها تُخال راضية قانعة ليس لها من شوق ولا مطلب ولكنّها رغم الظواهر تتمخّض أحشاؤها بثورة عنيفة. إنّها أبداً ناقمة على نظام العبودية الذي رسَّخ جذوعها في الثرى، أبداً مهيّئة البذور منها للانتقام، والبذور النشوىَ بجدّة الحياة وحداثتها لا تلبث أن تمزّق الأنسجة واللفائف، وتهجر مرابضها في كؤوس الأزهار لتفرّ إلى دائرة نموّ جديد، إلى ممكنات عالم جديد تستقرّ في تربته، وتتشبَّث بحيويته وتندمج في فضائله، وما هي بذلك إلّا خاضعة لقانون التطوّر في الكون الذي يحدو أبداً بالكائنات والموجودات والخلائق من مظهر عبودية إلى مظهر حريّة تنقلب بدورها عبودية، إلى مظهر آخر من الحريّة، ذلك القانون الهاتف على الدوام، رغم الصعاب والعقبات والنوائب: إلى الأمام! إلى الأمام!

وهذا الشوق المكتسح بذور الأزهار إلى هجر أصولها والتفلّت من مقدورها لتتقيّد بمقدور جديد – تجده ولكن بصورة أخرى بين الجيل والجيل من بني الإنسان، بل بين أبناء الجيل الواحد عندما تأخذ الجماعة في الخروج من حالة عامّة متشابهة إلى حالة تفضلها فتبرز هنا وهناك شخصيات تستنير بأنوار غير معروفة، وتطلب للأفكار

والعواطف والشؤون صوراً غير مألوفة، وتدرك من حياة الاجتماع وحياة الكون وجوهاً لا تتراءى لأحد من قومها. تلك الشخصيات هي المنفيّة في ذويها، الغريبة بين أحبابها، وربما المجهولة سهواً أو عمداً حتى ممن أحسنت إليهم ورفعتهم إلى أفق من الحياة جديد، وما تلك الشخصيات إلّا وسيلة ينفذ عن طريقها قانون الجور والإنصاف العظيم، قانون العراك والتناحر بين ما نسمّيه في جهالتنا القديم والحديث، بين التقدّم والتقهقر، بين النظام القائم والنظام المنشود، بين ما هو كائن وما يجب أن يكون.

حالة نبيلة كما ترون ولكنّها أليمة، قدّرت على بعض النفوس في كل جيل ولكنّها كانت أعظم انتشاراً في القرن الماضي بحكم طبيعة الأشياء وأظنّ أنَّ أول من عرفها بوضوح وأوجد لها شبه قالب معينٌ في عالم الطباعة وفي عالم الأفكار، هو الأديب الفرنسي موريس باريس (Barrès) في كتاب صدر سنة ٩٧، في كتاب وصف فيه حالة بعض أولئك المنفيّين من مرتبتهم ومحيطهم وعادات جماعتهم الفكرية والأدبية وصنوف مطالبهم ومطامحهم. وهو الذي أطلق عليهم اسماً بديعاً في بلاغته، فقد دعاهم «المستأصلين» «Les déracinés» وهو الاسم الموسوم به كتابه(٢). ولا شكّ أنّه ألهم ذلك الكتاب لأنّه كان «مستأصلاً» هو كذلك. هو ابن اللورين المنسلخة عن فرنسا مع الألزاس في الحرب السبعينية مما أرغم بعض المتعصّبين لجنسيتهم الفرنسية أن يهجروا إقليمهم الأول لإقليم فرنسي آخر. فحلّ موريس باريس على الرحب والسعة في باريس، مدينة النور، وظلّ شاعراً رغم ذلك بالغربة الناتجة عن بتر الوشائج الطبيعية التي يتصل الفرد بجماعته(٣) فيتبادل وإيّاها الحقوق والواجبات التي جرى عليها الآباء والجدود دهراً بعد دهر. وهناك حكم مؤلّف «المستأصلين» بأنّ الغرسة المستأصلة في عالم النبات قد تموت في أرض أخرى أو تحيا. أمّا الغرسة الإنسانية فهي في الغالب تحيا، ولكن في تفطّر وعذاب أليم.

واشتدّ دور الانتقال، وغليان الأفكار، وتباين المشارب والمذاهب بعد الحرب فاهتمّ حتى العلم بتلك الحالة الخاصّة في الأفراد. فتناولها كريبلين (Kraepelin) الألماني(٤)، أعظم علماء النفس الأحياء في أيامنا فزادها إيضاحاً على نحو ما أوضحها علماء الاجتماع من الروس، وسمّاها «الاستئصال» هو الآخر، وعرف ما قد ينجم عنها

من غموم ونكبات. ولكنّه قرّر كذلك أنّها من أبدع مظاهر التطوّر المشجّعة الجماعات على التملّص من القديم البالي للسير في سبل التجدّد والحياة، وأنّ هذا الاستئصال لا بدّ منه لبعض الأفراد ولو نزّت القلوب لأجله أزكى الدماء وتفطّرت في سبيله المرائر.

أتحسبونني، أيّها السادة والسيّدات، قد شططت عن موضوعي ونسيت سركيساً؟ كلّا! بل قد بلغت الساعة صميم ذكره، لأنّ هذه الغربة قد ذاق مرارتها بعض النابهين في أقطارنا، روّاد الانقلاب العظيم الذي نراه كل يوم في ازدياد. لقد وجدوا منذ أعوام أولئك الذين لمحوا وجوهاً جديدة في عالم الإدراك والأدب والسياسة وغايات الأفراد والجماعات ومرامي العمران. أجل وجدوا، إذ ليس في مقدور هذا الشرق المجيد أن يكون متحف موميات وآثار تحدّث عن نور تألّق في سالف العصور ثمّ خبا إلى منتهى الدهور! كلّا، كلّا! ليس هذا نصيب الشرق من الوجود! لذلك برزت البذور الجديدة من كؤوس الأزهار هاتفة: «لست للجمود! إلّا خروجاً إلى النور والحياة لأنّي خلقت للحياة في النور المتجدّد!».

وسليم سركيس الذي كان في طليعة أنصار الحرّية والتجدّد، كان نسيجَ وحده تقريباً في العطف على هؤلاء الغرباء النبلاء والمستأصلين المحسنين. فكوّن لهم من جرأته، ومن صحيفته ومن مساعيه وسطاً حيّاً معزّياً. إنّه كان يهتدي إليهم بالبداهة كأنّ بينه وبينهم علامات سرّية وإنْ لم يكن في وسعه أن يكون لهم الأرض المخصبة التي تستقرّ فيها النبتة المعذّبة فتطمئن على مصيرها، فإنّه كان يقول لكل منهم بأسلوبه الخاصّ: «إنّي هنا! إنّي أعرف من أنت! وهاك يدي تصافحك».

وكأنّ هذه اليد، يد سركيس، قد امتدّت إلى أعضاء الأسرة الصحافية بعد وفاته فجمعت بينهم ثمّ امتدّت إليكم، أيّها الحضور الكرام، فأحكمت الوثاق بينكم وبين الأسرة الصحافية النبيلة فأتمّ في مماته ما بدأه في حياته لأنّ روابط الموت أقوى من روابط الحياة. فاجتمعنا هنا بقوّة هذه الرابطة التي ينطق بها اليوم كل شاعر وكل خطيب.

وبين الذين عزّزهم سركيس وعطف عليهم من الغرباء والمستأصلين نجد المرأة، تلك المنفيّة عن نفسها التي يحكم عليها المجتمع بقتل فكرها وعواطفها ونزعاتها ولو أخفى الامتثال منها ألف أكذوبة، وألف دسيسة! يسمح لها بالثرثرة والنميمة والزور

وينكر عليها كلمة الرفعة والنور. يسمح لها حتى بالفوضى الأخلاقية باسم ضعف الأنوثة ويأبى عليها أسمى مجالي الأنوثة في مواقف الرفعة والكرامة. يضغط عليها باسم مصلحة الوسط والعائلة والوطن والتاريخ فتمثل هازئة ولكنّها توسع العائلة تمزيقاً وإفساداً، وتخون الوطن وتجعل التاريخ مغلوطاً.

كان سركيس من أبكر رجال الشرق شذوذاً في تأييد المرأة التي تستحقّ التأييد. وظلّ على هذا الشذوذ حتى النهاية، هو الذي كتب في العام الماضي إلى أديبة بيروتية مسلمة، الآنسة عنبرة سلام[٥]، يستحثّها على نشر أفكارها والخروج من تكتّمها. فقال ما معناه: «الجدود والآباء كانوا يركبون الجمل والحمار. أمّا أنت فتركبين السيارة. ولا بدّ أن يكون الفرق بين أفكارك وأفكارهم على نسبة الفرق بين السير على جمل والسير في السيارة».

عزّز سركيس المرأة بحثّها على الكتابة، بتيسير ذلك لها في الصحف التي تولّى تحريرها، بنقل كتاباتها وامتداح مجالسها، بإنشاء صحيفة لها وانتحال اسم نسوي ليستدرجها إلى الكتابة ويغريها. وإذا جاز لي أن أتكلّم عن نفسي قلت إنّي نلت من تشجيعه ما لم تنله أديبة غيري. وإذا وقفت اليوم حرّة على هذا المنبر فأصغيتهم[٦] إليّ بسكوت وتهيّب، ليس بصفتي الشخصية، ولكن لأنّي هنا أمثّل يقظة جنسي وأنطق بكلمة المرأة. إذا وقفت هنا فأفسحتم المكان لصوتي وفكري كأنّهما صوت الرجل الممتاز وفكره سواءً بسواء، فإنّ ذلك يدلّ على الروح الجديدة التي تهزّ البلاد من أقصاها إلى أقصاها، يدلّ على سامي إدراككم وشريف شعوركم، يدلّ على نبل الصحافة المصرية وهمّتها، في عطفها العظيم على قضية المرأة وعلى الحقّ والإنصاف. ولكنّ موقفي هذا يدلّ أولاً على فضل سركيس الذي دفعني وأنا مبتدئة حديثة السنّ إلى منبر الخطابة لأول مرّة في مصر في حفلة تكريم خليل مطران قبيل الحرب. لذلك قلت في مطلع الكلام إنّه حسبي أن أقف اليوم على هذا المنبر صامتة ليكون وقوفي خطبة رائعة ناطقة بنبل الصحافة المصريّة، ناطقة برقيّ هذا المجتمع الشرقي، ناطقة بفضل سركيس، ناطقة كذلك بخير ما يقال في رثائه من الجانب النسوي!

* * *

ولأختمنّ قولي بذكر حسنة أخرى من حسنات سركيس وهي تعلّقه بأبنائه وبناته وحرصه على راحتهم وعنايته بتهيئة أسباب السرور والهناء لهم. فهو في ذلك مثال للوالدين.

ومن خير ما يقوله ذكر سركيس كلمة قالها الشاعر الإيطالي أدولفو دي بوزس[٧] المتوفّى منذ عام وبعض عام. كان في احتضاره يحيط به الأصدقاء ذاكرين له نفيس ما يتركه من الآثار الأدبية التي يستفيد بها قومه ويفاخر بها أبناؤه فقاطعهم الشاعر وقال: «لقد تركت لأبنائي خير ثروة يتركها والد. لقد تركت لهم أمّاً، أمّاً صالحة رشيدة!».

هذه الكلمة يمكن أن تعزى إلى سركيس فتنضد على مقربة من سعيه إلى إيجاد الائتلاف بين عناصر الشرق، ودعوته إلى الإخاء وحبّ الحرّية. فلتكن هي تعزيتكم، يا آل سركيس! فلتكن هي تعزيتكم، يا أبناء سركيس وبناته! ولتكن هي تعزيتك أنت، يا من اسمها: بهجة سركيس!

(*) الأهرام، س ٥٢، ع ١٩٤٠٠، ١٤ آذار/مارس ١٩٢٦، ص ٥ . أقيمت حفلة أسرة الصحافة المصرية لتأبين الكاتب والصحفي اللبناني سليم سركيس، ناشر «مجلّة سركيس» الأدبية الشهرية (١٩٠٥ - ١٩٢٤)، في ١٣ مارس ١٩٢٦ بدار ترقية التمثيل في القاهرة. لقد ضمّن جوزيف زيدان الخطبة التي ألقتها ميّ زيادة لهذه المناسبة في مجموعته «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، أبو ظبي: المجمع الثقافي ١٩٩٦، ص ٢٥٢ - ٢٥٧، ولكن في نصّ مختصر إلى حدّ ما، منقول عن مجلّة «المرأة المصرية». والنصّ الكامل للخطبة نثبته هنا.

(١) كذا في الأصل، وصوابها «بين الطاقات» أي طاقات الزهور.

(٢) كتاب *Les déracinés* للأديب والسياسي الفرنسي Maurice Barrès (١٨٦٢ - ١٩٢٣) هو الجزء الأول من ثلاثية روائية الذي صدر عام ١٨٩٨ وليس ١٨٩٧ كما أوردت ميّ زيادة في خطبتها.

(٣) كذا في الأصل، وصحّة الجملة هي «التي بها يتصل الفرد بجماعته».

(٤) Emil Kraepelin (١٨٦٥ - ١٩٢٦)، طبيب نفساني ألماني، عمل أستاذاً في جامعة هايدلبرغ منذ سنة ١٨٩٠، ومديراً لمعهد البحوث الألماني لطبّ الأمراض النفسية الذي أنشأه في ميونيخ، بدءاً من عام ١٩٢١ .

(٥) عنبرة سلام الخالدي (١٨٩٧ - ١٩٨٦)، مؤلّفة لبنانية، من مؤسّسات الجمعية النسائية «يقظة الفتاة العربية» في بيروت سنة ١٩١٤ . خلعت حجابها عام ١٩٢٥ عقب عودتها من رحلة إلى إنكلترا، مقلّدة في ذلك هدى شعراوي، المدافعة المصرية عن حقوق المرأة، مما أثار وقتئذ احتجاجات واسعة. عاشت في مدينة القدس بعد زواجها من التربوي الفلسطيني أحمد سامح الخالدي عام ١٩٢٩ حتى توجّهها مجدّداً إلى لبنان سنة ١٩٤٨ . ترجمت عن الإنكليزية ملحمتي «الإلياذة» و «الأوديسة» لهوميرُس، وقبيل وفاتها كتبت مذكّراتها تحت عنوان «جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين».

(٦) كذا في الأصل، وصوابها «أصفيتم».

(٧) Adolfo De Bosis (١٨٦٣ - ١٩٢٤)، كاتب وشاعر إيطالي، صديق حميم لدانونسيو (D'Annunzio) . أصدر مجلّة «إيل كونفيتو» *(Il Convito)* من عام ١٨٩٥ إلى عام ١٩٠٧ .

تبرّج الرجل والمرأة

محاضرة الآنسة ميّ

[هامش الجريدة: كان أمس موعد إلقاء حضرة الكاتبة المبدعة الآنسة «ميّ» لمحاضرتها في النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية وقد حضرها رهط من الأدباء والأفاضل فجالت في موضوعها جولات صادقة وبحثته بحثاً دقيقاً من جميع أطرافه وقد أعجب الحاضرون بنطقها الفصيح وكلامها المليح.

قالت في مقدّمتها(١):]

لبعض المؤلّفين فنّ خاصّ في تشويق الجمهور منذ مطلع الكلام. يبدأون مثلًا بوصف التلاقي بعد الفراق واجتماع أصدقاء وأحباب. فإذا بالصفحات وكأنّما هي مسّت بالمخصرة العجيبة فانقلبت الكلمات البسيطة العادية وهّاجة فعّالة. حتى العجز والضعف يتحوّلان إلى بلاغة وحسن بيان هما نتيجة لفيض في العاطفة وطفح في التأثّر.

وأنا في موقفي الليلة مطلع رواية مشوّقة، ليس بالحبر على الورق بل بالواقع الحيّ المحسوس لأنّي أجتمع بكم بعد غياب عام أو يزيد وليس لي بينكم إلّا الأخ والأخت والصديقة والصديق. ولا تظنّوا، أيّها السادة والسيّدات، أنّي أجّلت المحادثة إلى هذا الأسبوع لأنال من عطفكم نصيباً أوفر. ولكن هي مباغتات الفصل - هو البرد نفذ إلى صوتي (وما زال بادياً فيه كما ترون) فأخفت منه وجعله غير صالح للخطابة.

فاقبلوا جميعاً عذري. ولتقبل لجنة هذا النادي الكريمة شكري لأنّها دعتني إلى هذا المنبر مرّة أخرى، أتنسّم وإيّاكم النفحة الأولى من نفحات ليالي الربيع، بين هذه الجدران التي تضحك حجارها طرباً لاجتماعنا - على رأي منشد «الميجانا»(٢) إذ يقول «ضحكت حجار الدار التمّوا أحبابنا»!

وبصفتي من الجنس الشغوف بعذوبة الذكرى، أعود إلى اجتماعنا الماضي، وإلى المحادثة التي سبقته على ظهر الباخرة في طريقنا إلى روما[٣]، فأذكر بالحمد والانشراح ما لاقيته كل مرّة عندكم من الصدى الجميل والعطف الجزيل إذ دعوتكم إلى الاعتناء باللغة العربية والاحتفاظ بالشخصية الشرقية. وإنّي الليلة، في هذا الاجتماع الثالث، أحرى ما أكون بتكرار تلك الدعوة مع اعترافي التامّ بوجوب الاقتباس من علوم الغرب ومبتكراته لنسير بقدم ثابتة في موكب التطوّر العظيم. غير أنّ التطوّر الذي يقضي بالانتفاع من الصالح المفيد من مستحدثات الحضارة العصرية، هو نفسه يحتّم علينا الانتصار للغتنا القديمة والحرص على خصائصنا الصميمة.

فاسمحوا لي أن أذكّركم بذلك. لأنّكم أنتم الرجال أساتذة الإبداع والتقدّم في العالم. ومنكم نتعلّم نحن معشر النساء حبّ اليقظة والرغبة في التجديد. ولكنّه يظلّ في وظيفتنا ومن دورنا أن نعيد عليكم بصوتنا الضعيف أحاديث الذكرى، وأن نثير فيكم كوامن الصبابة والحنين ليكون بين الماضي والمستقبل اتصال حكيم ووثاق مكين.

إنّ من لا لغة له تظلّ شخصيته ناقصة من بعض جوانبها ولو هو ألمّ بلغات شتّى. إذ في وسع المرء أن ينفرد عن الأشخاص وينقطع عن الأوساط. ولكن كيفَ هو ينزع من نفسه ما استقرّ فيها من الشعور الباهظ بالحياة، ذلك الشعور الذي انتهى إلينا نحن وراثة منسوجة من ألفاظ عربية؟ إنّنا الآن نتقلّد الأزياء الغربية في الفكر والعلم والهندام والمعرفة وأساليب المعاملة والمعيشة. بيد أنّ ما فينا من غور بعيد وسعير وبهاء يظلّ ناطقاً بشرقيتنا الفتّانة كما تحدّث عنها أوتار آلاتنا وآهات أغانينا، وكما تحدّث عنها بشرتنا السمراء وشعرنا الحالك وعيوننا القاتمة الدعجاء.

أذكّركم بهذا الماضي الحيّ فينا وأعلم أنّكم ترحّبون بهذه الذكرى لأنّها في صميم رغباتكم. فهنيئاً لقوم يتلقّون بحِلم نبيل ما توضحه لهم أخواتهم وبناتهم مما يصْبُون إليه من مطلب جليل! إنّكم بإصغائكم إلى صوت المرأة تعلّمونها كيفية تكوين مطالبها وصياغة أفكارها. لأنّ المرأة صنيعة الرجل على كل حال. فهي إمّا عبدة بغباوته وظلمه وإمّا ملكة بإنصافه وكرمه. وهي لا تتوافق والمثل الأعلى القائم في نفسه إلّا بمعونته ووحيه.

وإنْ كنت الليلة أحرى بالدعوة إلى اللغة العربية فلأنّ بقية الحديث ستكون باللغة الفرنساوية امتثالاً لإرادة الأب العالم الجليل المدير الروحي لهذا النادي، الذي أعلم علمكم أنَّ طاعته غنم كبير. كذلك أنا مدينة له بموضوعي. وهو موضوع يسهل إبداء الرأي السريع فيه ولكنّ صعوبته تبدو لمن يحاول الإحاطة به ولو من بعض نواحيه. وقد سبق أنّي خضت معركة حامية في سبيل هذا الموضوع في حفلة مشهودة منذ عامين تقريباً، يوم هاجم كبيران من كتّابنا المرأة في تبرّجها المتطرّف وفي تهالكها على الزينة والمودة. فتحتّم عليّ أن أرفع صوتي يومئذ بالدفاع والاحتجاج غيرة على العدل والحقّ من جهة ولأنّي كنت وحدي على المنبر أمثّل الجنس النسائي. ولست أطلعكم على تفاصيل تلك المعمعة. حسبي أن أقول إنّ الجمهور ناصر الخطيبين في بادئ الأمر ثمّ عاد فأيّدني أنا وكان لي ظهيراً.

ويشجّعني الليلة أنّنا – كما قلت في أول الكلام – في مطلع رواية مشوّقة، رواية التلاقي بعد الغياب. ويشجّعني خصوصاً ما عوّدتمونيه من عطف يفخّم الصواب ويصفح عن الزلل.

والآن، بعد أن قمت بالواجب نحو هذا النادي فحيّيناه بلغتنا ولغته، يجوز لنا الانتقال إلى القسم الآخر من الحديث. وبعد أن شرّقنا فلنغرّب!

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٢٥٢، ١٨ آذار/مارس ١٩٢٧، ص ١ و ٣ .

(١) ألقت ميّ زيادة المحاضرة باللغة الفرنسية على العكس من مقدّمتها. وقد نُشرت ترجمتها إلى العربية في الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٢٥٤، ٢٠ آذار/مارس ١٩٢٧، ص ١ و ٥، وفي مجلّة المرأة الجديدة، س ٧، ع ٣ و ٤، آذار/مارس ونيسان/أبريل ١٩٢٧، ص ١٣٧ – ١٤٠ . عزفنا عن إعادة نشرها هنا لوجودها في كتاب أنطوان محسن القوّال «نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة»، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٣، ص ١٤٦ – ١٥٧ .

(٢) الميجانا من أشكال الموّال وهو لون من ألوان الغناء الشعبي واسع الانتشار في فلسطين وفي بلاد الشام، وينتشر في الأرياف، حيث يتغنّى به الرعاة والحرّاثون والحصّادون.

(٣) انظر الكلمة التي ألقتها ميّ زيادة في النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية، بتاريخ ٢٥ شباط/فبراير ١٩٢٦، في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ١٥٢ – ١٦٥، وفي مطلعها تتحدّث عن الرحلة البحرية التي قامت بها إلى روما مع أعضاء النادي.

على ذكر الشيخ الخُضَري بك[1]

التاريخ أجيال تتعاقب وحوادث تتوالى. وإذا صحّ أنّ الجيل الواحد لا يجابه التاريخ إلّا في أفراد من خيرة جماعته كان الأستاذ الفقيد من أعلام بني جيله – ذلك الجيل المتأهّب، راضياً أو كارهاً، للتملّص من ركود الماضي، الممهّد للانتقال الذي أصبح الآن أمراً راهناً. فالشيخ الخضري بك من أوجه ما أخرج الأزهر، ومن أكفأ العلماء الذين تحصيهم مصر في بابهم، ويقدّمهم الشرق عموماً حيال أمثالهم من الغربيين فلا يكون التكافؤ من ناحية الشرق مفضولاً.

أكتب هذه الجملة وأتململ خشية أن تحمل على محمل الإطراء المألوف الذي نتداوله عالمين أنّه ليس للتاريخ. لا، ومع اعترافي بأنّ لا غنى لي عن فضل السادة الصحافيين، لستُ لأستلف من إداراتهم «كليشه» لعقد قلائد الحمد ونثر لآلئ الثناء. إن هي إلّا محاولة البحث لأهتدي إلى تعريف للجيل الذي كان منه الخضري بك والوقوف على الدور الذي قام به هو شخصياً في مزاولته التدريس والتأليف.

ففي تطوّر الأمم ميراث ثابت ينقله الاختصاصيون مجملًا أو مفصّلًا في صيغة هي وحدها تنمّ عن شخصيتهم. وإلى جانبهم قوم يقتبسون من المستحدث ما يطعمون به جذع الماضي والتراث التليد. تلك سنّة الطبيعة في البشر ليتمّ التاريخ دورته وتستكمل الحياة أغراضها. فإلى أيّ الفريقين ترى ينتمي الأستاذ الراحل؟

ذلك ما أرجو الاهتداء إليه بعد نظرة عاجلة في شخصيته وفي مغزى كتبه على قدر ما يسمح به المكان في صحيفة سيّارة.

* * *

في مقدّمة المهمّ من مصنّفاته نجد كتاب «علم الأصول» في مآخذ الأحكام الإسلامية، و «تاريخ التشريع الإسلامي»، و«إتمام الوفاء في تاريخ الخلفاء»، و«نور اليقين

في سيرة سيّد المرسلين»، وكلها لا يستطيع الحكم في قيمتها العلمية والتاريخية والتشريعية إلّا علماء الشرع والفقه. بيد أنَّ للناقد العامّ أن يحكم أنّها ذات علاقة وثيقة بعمله الرسمي كمدرّس في مدرسة القضاء الشرعي وكعالم من علماء المسلمين. ومثلها مجموعة محاضراته عن تاريخ الأمم الإسلامية في الجامعة المصرية القديمة حيث كان يدرّس هذا التاريخ. والصلة كذلك ضيّقة مطردة بين علوم الشرع الإسلامي وتاريخ دول الفتوح.

وعلى ذكر محاضراته في الجامعة - ترى مَن من تلاميذه ومن المستمعين إليه لا يذكر ما كان له من عذوبة اللفظ، وجلاء النطق، ووضوح العبارة، والبراعة في سرد الرواية التاريخية مجرّدة من الاستعارات المهلهلة في لهجة تقريرية بسيطة، تتلاقى عندها جزالة عربية مبينة وإشراق لا أخشى أن أنعته بالغربي؟

وفي مذكّراتي لذلك العهد وصف موجز دوّنته إثر استماع بعض محاضرات الأستاذ، ويروقني أن أرى هذا الوصف صادقاً حيّاً بعد أعوام، فأستخرج منه ما يلي:

«في درس تاريخ الأمم الإسلامية نجد الشيخ الخضري في أثوابه الفضفاضة الزاهية. وله نظرات رفيقة الحدّة، نافذة وراء غشاء الإبهام المسدول على إنسان عينيه. ينتقل بنظراته تلك من مستمع إلى مستمع وليس يقصد اكتناه تلك النفوس وتلمُّس موقع حديثه منها. لا يحاول ذلك لأنّه بتلك النفوس عليم. يعرفها بفطرته الشرقية وبالمران الطويل فيعلم كيف يتحاذى فيها التمسّك بالماضي والتطلّع إلى انتحال الجديد والأمل القريب المنال والأمل الذي لا يتحقّق وكلاهما من مآتي الحياة...

«أمّا لهجته فلهجة مَن تعوّد معالجة الموضوعات العويصة لا ليسبر غورها بينه وبين نفسه بل ليختار أيسر السبل التي يوصلها بها إلى نفوس فتيّة ناضرة. تلك لهجة ليّنة ترضي السمع وقد ركنت إلى قرار مشوّق يدني المعاني ويغري على متابعة الحوادث.

«بصوت هادئ يتكلّم وهو في حديثه المدرّس الملقّن لا الخطيب المحاضر، صوت خال من التهيّج والدهشة والانفعال. على أنّ فيه اقتناع العالم بأنّ الوقائع التي هو سارد لا تقتصر على الماضي ولكنّها تتكرر في الحاضر ولو في غير تلك الأمكنة وعلى يد أشخاص آخرين. ولسوف يدور المستقبل فيعيدها في أمكنة أخرى وبواسطة غير أولئك

الجماعات. لأنّ تنازع البقاء سنّة لا تتبدّل ولأنّ الحرب مع ما لها من مقدّمات ونتائج أظهر صور التنازع وأيسرها ميداناً للصراع والغلبة.

«صوته خصوصاً صوت من لا يثور ولا يتمرّد، وإنّما يميل إلى الملاينة والمجاملة في كل حال من الأحوال، صوت من يرضى بأمور مزجت بدمه قديماً ويركن إلى الحياة في سيرها المحتوم، فلا يشرح مفاجأة أو حادثاً بغير ما يتفرّع من كلمة الشرق الكبيرة: مكتوب! قسمة!».

* * *

وقد ردَّ الشيخ الخضري بك على كتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي، غير أنّ لهذا الموضوع أئمّته يبتّون فيه بغيرة على العلم وبإخلاص في البحث، ولم يتسنَّ لي أن أطالع هذا الكتاب ولا ذاك فليس لي في الأمر شبه رأي. ولكنّي أعلم أنّنا جميعاً بشر وأنّ فضل الفاضل منّا ليس بالعصمة والكمال، وهما للّه وحده جلّ جلاله، بل في سعيه وراء الحقيقة التي ليس لأحد أن يحتكرها ولكنَّها توزَّعت صور منها لا تحصى في جميع رحبات الفكر وفي جميع أنحاء البريّة. وإنّما أذكر هنا هذا الكتاب لأقول إنَّه في سلسلة المؤلّفات الفقهية والشرعية والتاريخية للأستاذ الفقيد الحلقة الواصلة بين التاريخ والأدب. ومن نوعها - ولو في معنى آخر - اهتمامه بتهذيب «كتاب الأغاني» في تسعة أجزاء.

هناك من يأبى إدخال التعديل والتحوير على آثار المؤلّفين ويدعو إلى نشرها للأجيال المتعاقبة بحسناتها وعيوبها لتتجلّى فيها شخصية واضعها ولتجيء صورة صادقة للجيل الذي وُضعت فيه. وهو رأي علمي وجيه، قمين بأساطين العلم والفكر والتمحيص، ولكن هل هو يوافق الجميع؟

لو نحن أخذنا بهذا الرأي دون سواه وجب حبس الكتب العربية القديمة عن الفتيان الناشئين وعن الجنس النسائي عموماً. إذ يندر جدّاً من الرجال المثقّفين الأحرار، بكل ما في الحرّية والثقافة من نبل ونور، من يسمح بوضع تلك الكتب بين أيدي النساء العائشات في وسطه والأحداث المنوّط به تثقيف أخلاقهم ورقابة سلوكهم. وربما كان من أسباب انطلاق الكُتّاب في القرون الخوالي وراء كثيف اللفظ أحياناً ووقح المعنى (رغم ما في مخلّفاتهم من بلاغة وجمال) انقطاع الصلة الفكرية والعلمية

بين الجنسين. ولا شكّ عندي أنّ في مقدّمة العوامل الدافعة بكتّابنا وشعرائنا في هذا العصر إلى اتخاذ الحيطة وتعمّد الدراية في تهذيب الفكر والبيان منهم هو علمهم أنّ أرواح النساء ترقب أفكارهم، وتتذوّق عواطفهم، وتسهر على تطوّرهم. وهم سائرون في ذلك من الحسن إلى الأحسن ومن اللائق إلى الأليق. وفي هذا ما يؤدّي إلى تنوّع المادّة الأدبية وإنمائها وإغنائها فضلًا عن تهذيبها وصقلها وإخراجها صفيّة نقيّة ناصعة.

فالفكرة التي حدت بالشيخ الخضري إلى تهذيب «كتاب الأغاني» فكرة رحيمة شريفة هي وحدها قمينة بالشكر الخالص يزفّ إلى صاحبها من كل جيل عربي، فوجاً بعد فوج.

واتفق أن سمعت من الفقيد رأياً في تعليم المرأة، بسطه في جلسة هادئة رضيّة يوم زارنا يحمل إليّ نسخة من كتابه عن «تاريخ الأمم الإسلامية». وإذ شكرت له عطفه ذاك وهديّته النفيسة قائلة إنّ في ذلك مغزى التحيّز لتطوّر المرأة ومشايعة لرغبتها في التعليم، أخذ يشرح بلفظه العذب وحديثه الرائق حاجة مصر إلى تعليم المرأة وتنويرها، حاجة أضحت محسوسة كل يوم وكل ساعة في حياة العائلات وفي تدبير المنازل. وقال إنّه يرى علم المرأة الأوربية غير موافق للمرأة الشرقية في حالتها الحاضرة وإنّ الآراء النسائية الشائعة في الغرب ليست هي المطلوبة لإصلاح الحال في هذه البلاد. وإنّما الحاجة مسيسة للعلم المتواضع الضروري للزوجات والأمّهات وربّات البيوت كيلا يكنّ عالة على الرجل، وينقلبن بجهلهنّ وسوء تدبيرهنّ أداة غمّ وكرب ويأس لذويهنّ. وقال إنّ ما من شيء كغباوة المرأة أو خبثها يحمل الوالد على كراهية الحياة العائلية وظلم أبنائه والجور عليهم. وقال إنّ علم المرأة الأوربية أصبح من بعض وجوهه ضرباً من الزينة، وأمّا العلم المنشود للمرأة المصرية فهو القوت الضروري الذي لا حياة بدونه. وقال أشياء أخرى من هذا القبيل، كلها من هذا النوع الذي يؤمّن عليه الملمّ بحالة المرأة في مصر وفي سائر أنحاء الشرق العربي.

ما تحدّثت مرّة إلى الأستاذ الفقيد إلّا وجدت فيه ذوقاً رقيقاً كذوق صبري باشا(٢)، وإنْ كان إظهار الذوق ميسوراً لشاعر غنائي كإسماعيل صبري، ومتعذّراً لشيخ عالم في الفقه والتاريخ.

وكان آخر عهدي به منذ شهور في حفلة الجامعة الأميركانية وبعدئذ في مجلس النوّاب، وقد نهض الشيخ الجليل في كلا الاجتماعين ليقدّم لي كرسيه. وذلك كثير على شيخ لا يزعم أنّه «من أهل الطراز الجديد».

* * *

والآن بعد هذه النظرة السريعة يمكننا أن نثبت أنّ الفقيد كان ناقلًا التراث التالد إلى الجيل الحديث، وأنّه نقله بجلاء ووضوح وإشراق خلواً من الاستعارات والزوائد (على قدر الإمكان) ومهيّئاً بذلك السبيل لإيجاز البيان المقبل.

ويخيّل إليّ أنّه يوم ينبري العالم الاجتماعي والمؤرّخ الأدبي لتدوين تاريخ الجيل الذي سبق جيلنا والمقابلة بين النابهين من أبنائه بروح التحليل العلمي والنقد الصائب الحكيم - فسيكون في مقدّمة ما يتناوله بحثه المقابلة بين أمثال الخضري وأمثال المنفلوطي، وأثر كل من الفريقين في التمهيد للتطوّر الحديث. وسرعان ما يتبيّن أنّ المنفلوطي كان من جيله الوجه الأدبي الاجتماعي بينا الخضري يمثّل الوجه التاريخي والفقهي والشرعي. ومع أنّ المنفلوطي أقرب إلى الجمهور وأوسع شهرة، وأروج انتشاراً، وأسرع وقعاً، فإنّ الخضري رجل المتانة والتضلّع والثبات. وذلك راجع إلى ما عالجه كل من الأستاذين الكبيرين وإلى النحو الذي انتحته شخصيته.

فالأستاذ الخضري، كما سبق القول، كان ينقل إرثاً ليس له أن يتصرّف فيه، وكل ما يملكه أن يقدّم ذلك الإرث القديم في صورة شيّقة جميلة هي طابع شخصيته. وقد فعل على خير مثال. ومع استعداده لتقبّل المفيد من الآراء الجديدة، ومع اقتباسه المتتابع مما كان ينقل إلى العربية من علوم الإفرنج واكتشافاتهم وأبحاثهم، ظلّت كتاباته عربية صميمة ولم يتناول لها من الغرب شيئاً جوهرياً. بينا جدّ الأستاذ المنفلوطي في إخراج الأفكار الغربية وبعض الآراء الجديدة في استعارات قديمة وبيان عربي. وقد جرّب الاقتباس عن كتب أوربا والترجمة الغير المباشرة فكانت تلك من أروج كتبه. وكان له ما يتحتّم للأديب من حلاوة اللفظ وسلاسة التعبير والرغبة في السيطرة على عواطف القارئ والتصرّف بشعوره. وبالجملة كان نفس الشيخ الخضري نفس العالم

المنقطع في التدريس والتأليف لفئة مختارة من المتعلّمين، أمّا نفس المنفلوطي فنفس الكاتب لجميع الطبقات. وكلاهما في بابه من أظهر من يمثّل جيلهما.

* * *

غداً يقيم أقران الفقيد وتلاميذه وجماعة العلم والفضل التي فجعت فيه – حفلة تذكارية يشيدون فيها بمناقبه وجميل مآثره. فحبّذا لو أهمل في تلك الحفلة طنين الندب والرثاء والإطناب الذي يقولون إنّه «تأبين» ويوردونه هو إيّاه في رثاء كل ميت عظيم، حتى لكأنَّ جميع الموتى من عقلية واحدة ومواهب متشابهة وأثر لا يتغيّر ولا يتبدّل، لو روجع ما قيل في كل منهم من شعر ونثر! وحبّذا البحث والتحليل في آثار هذا الفقيد الكبير في قومه، الخطير في جيله، المفيد في مخلّفاته. حبّذا لو فعل ذلك تلاميذه ومريدوه وجميعهم من لباب أهل الفضل، فأهدوه قولاً خلواً من الغلوّ والإفراط، وأرسلوا على ذكره الكلمة المحكمة الرصينة كآثاره وعلمه! فتكون وفاته وتكريم ذكراه وسيلة للانتقال إلى هذا الطور الكريم من الرثاء والتقدير، ويكون قد ألقى علينا درساً جديداً حتى ساعة الرحيل.

وأنت رحمات اللّه عليك، أيّها الراقد في اللحد الجديد! انظر إلى الفرق بين ما نحن فيه وما أنت فيه! ولكن منذا الذي هو أدرى منك بأنّ لدار الفناء مشاغلها كما لدار البقاء؟ منذا الذي هو أدرى منك بما تفرضه الحياة على أبناء الحياة؟ فحيال كل نعش نفكّر بمولود جديد، وبعد كل موت نطلب درساً طريفاً. ولكن هنيئاً لراحل كريم يشيّعه كرام قومه فتدمع منهم العين أسفاً غير أنَّ ذكاءهم وإرادتهم يخطوان خطوةً أخرى في رحبة العمر، فيكونون بذكراه أليق وبالانتساب له أجدر.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٢٧٣، ١٤ نيسان/أبريل ١٩٢٧، ص ١ و ٢ .

(١) الشيخ محمد الخُضَري (١٨٧٢ – ١٩٢٧)، عالم مصري بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام، تخرّج في الأزهر ودار العلوم. عُيِّنَ قاضياً شرعياً في الخرطوم، ثمّ أستاذاً لتاريخ الأمم الإسلامية في الجامعة المصرية القديمة، ووكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة التي درّس فيها آنفاً. انظر أيضاً كلمة ميّ

زيادة في الحفلة التي أقامها في آخر كانون الثاني/يناير عام ١٩١٨ طلبة كلّية الآداب العربية في الجامعة المصرية لوداع الأستاذين الشيخين محمد الخضري ومحمد المهدي، في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٦٤ - ٦٧ .

(٢) إسماعيل صبري باشا (١٨٥٤ - ١٩٢٣)، شاعر مصري من المبرّزين في عصره، من أقرب أصدقاء ميّ زيادة، ومن روّاد صالونها الأدبي. لحّن بعض شعره وغنّاه كبار من مغنّي مصر. درس الحقوق في جامعة إكس أن بروفانس في فرنسا، وتمرّس بالإدارة ووظائف القضاء بعد عودته إلى مصر سنة ١٨٧٧ . عُيِّن محافظاً للإسكندرية عام ١٨٩٦، ثمّ وكيلاً لوزارة الحقّانية عام ١٨٩٩، واستقال من خدمة الحكومة عام ١٩٠٧ .

طاقة الورود البيضاء

هي طاقة بهيجة رأيناها منضّدة على مسرح الاحتفال الذي أقامته مدرسة الأمريكان للبنات في شارع عباس بمناسبة اختتام العام الدراسي وتوزيع الشهادات على المنتهيات من تلميذاتها.

المجاز المحكم يفيض على المعنى جمالاً في أحوال شتّى، ولكنّه أصدق ما يكون عند تشبيه الفتاة بالزهرة. ووردات تلك الطاقة الإنسانيّة الحيّة كنّ الفتيات المنتهيات، الماثلات على المسرح في أثوابهنّ الشفّافة البيضاء ونفوسهنّ الزاخرة بالأماني والآمال.

ولم يكتفين أن يكنّ كورود الحدائق محدّثات في سكوتهنّ وشبابهنّ فقط عن معنى الحياة النابض فيهنّ، بل كنّ معربات عن ذلك إعراباً صالحاً في ما تضمّنه البرنامج من خطابة وعزيف وإنشاد.

وإذا أحرجني أفذاذ الأدباء الذين يأبون للتشبيه والمجاز إلّا التكامل والاستيفاء وسألوني عن موقف الهلباوي بك في وسط تلك الطاقة، وهل هو أيضاً كان زهرة من زهراتها، أجبت أنّ شيخ المحامين كان هناك الشجرة الكبيرة ذات الظلّ الوارف، الشجرة التي كانت تهتزّ منها الغصون والأوراق طرباً لأنّ وردة من تلك الورود البيضاء إنّما نوّرت في رعايتها، ونجمت عن حياتها الخاصّة في نظام الوجود.

أعني - بدون مجاز ولا استعارة - أنّ الآنسة فردوس هلباوي كانت إحدى المنتهيات وأنّها هي التي استهلّت الحفلة بخطاب عن «الشرف» في اللغة الفرنساوية وقبل أن تصفّق لها الأيدي استحساناً كان وجه الهلباوي بك تهلّل بشراً. وكان ذلك الانشراح من المحامي الشهير إعلاناً صامتاً لما سمعناه بعدئذٍ في الخطاب الذي فاه به من تحبيذ التعليم للمرأة ومن وجوب تهذيبها وتثقيفها لتتعاون والرجل على النهوض

بالأسرة والمجتمع والأمّة. وهو قول يروق لنا تكراره من عظماء رجالنا حتّى يرسخ في الأذهان ويصبح نافذاً في حياة الأفراد والجماعات.

* * *

وكأنّ الآنسة عطية محمود صدقي بخطابتها الإنجليزية عن «الحياة والفنون» جاءت تشرح لنا وجهاً من وجوه هذا القول، وتبيّن كيف أنّ الثقافة الفنيّة ترقّي النفوس، وتوسّع من المدارك، وتجعل الاتصال بين الأفراد وبين الحياة العامّة الشاملة ميسوراً. كما تلتها الآنسة إيفا حبيب المصري وانبرت تشير متحمّسة(١) إلى العلم الخافق فوق الرؤوس وتجهر بنطق عربي فصيح ولهجة خطابيّة بأنّ للمرأة قسطها في رفع شأن راية البلاد، وأنّ المرأة في نهضتها الجديدة تحرص على راية رمزية أخرى: راية الأخلاق الفاضلة والمقاصد الشريفة.

أقسم أنّ حبيب بك المصري كان في تلك الساعة بعيد الفكر عن سجلّات مجلس الشيوخ وما عولج على صفحاتها من مسائل الدولة، وأنّه لم يكن هناك إلّا أباً فرحاً بابنته التي أجادت هذه السنة في الخطابة، وفازت بالجائزة الأولى، كما أجادت شقيقتها في مثل هذه الحفلة من العام الماضي في التوقيع على البيانو. وكان في الوقت نفسه الأديب الذي يشهد ما يسرّه ويسمع ما يروق له.

وقد أتقنت الفتيات العزف في قطع نعرف عنها الصعوبة، ونقدّر الدقّة الفنيّة. لقد أتقنّ العزف متعاونات على بيانو واحد وعلى بيانوين اثنين. وإنْ تعذّر تقدير فنّ كل منهنّ مفردة في توقيع مجتمع الاصطحاب، فإنّنا نعلم كم يقتضي من المهارة والحذق للخضوع للتعاون الموسيقي، وحسن التلاقي على التلوين اللحني وإنالة الأنغام ما هي خليقة به من معنى وتعبير وشدّة ولين. وقد قامت الفتيات بكل ذلك على حسن مثال، لا سيّما في تلحين «موسكوفسكي»(٢) الروسي البديع.

وقبل أن أفرغ من الكلام عن الموسيقى أُفضي إلى إدارة المدرسة العامرة والقائمين بأمرها، بشيء طرق سمعي في ذلك الاحتفال. عنيت أمنيّة الجمهور بأن يسمع طرفة من الموسيقى التي يفهمها بجملته، أي الموسيقى الشرقية أو ذات النكهة الشرقية. إذ لا يتيسّر تقدير الموسيقى «الكلاسيك» وإدراك جمالها وروعتها إلّا لمن تلقّى ثقافة موسيقية

خاصّة، وأولئك قليلون في جمهورنا الشرقي، في حين الجميع يطربون للموسيقى الشرقية أو ما يقرب منها. ولا يتعذّر على إدارة المدرسة إرضاء الجمهور من هذا القبيل مع صيانة الأصول الفنيّة. لأنّ الذين استوحوا الموسيقى الشرقية وروح الشرق الحزينة غير قليلين من كبار الملحّنين في الغرب. ولا شكّ عندي، وأنا عليمة بميول الشرقيين، أنّ قطعة من نوع «المارش التركية» لموتسارت، أو «ذكريات الإسماعيلية» لسان سانس[٣] مثلًا، تكون ذات وقع حسن في مثل جمع الأمس وتفوز بالاستحسان العامّ.

ولكنّي لم أفرغ من شأن الموسيقى كما زعمت. بل أثني على الآنسة جميلة جندي الملاخ التي حملنا توقيعها «لمارش الكهنة» - تلحين مندلسهن[٤] - أنْ نقيس خطواتنا في ولوجنا الصيوان الكبير وراء صفّ المنتهيات. وأثني على الآنسة حنيفة المغربي التي لم تكن جلستها إلى البيانو جلسة «تلميذة» فقط، بل جلسة المالكة لفنّها، المدركة أسراره.

وقد تكلّم الدكتور مورتن هاول بلسان الجميع عندما ألقى كلمته الوجيزة فهنّأ الفتيات المنتهيات بفوسهنّ[٥] وهنّأ أهلهنّ ووطنهنّ بهنّ.

وإذ أقبلت الطفلات الجميلات تنفح كلًّا من المنتهيات بطاقة من الورد الأبيض عندما يدفع إليها الدكتور هاول بشهادتها، كان الجمهور يصفّق لهؤلاء وهؤلاء تصفيق الفرح والاستبشار. وإذ تقدّمت إحدى البنيّات تؤدّي الطاقة لصاحبتها، أسرّت إليّ حرم الدكتور شهبندر[٦] بهذه الكلمة والتأثّر بادٍ في عينيها: «هذه ابنتي!»، ولعلّ هذا العمل الاجتماعي الأوّل الذي قامت به الطفلة كان في نظر والدتها الفاضلة رمزاً إلى زهرات ستهديها الصغيرة إلى أمّتها السورية والأمّ الشرقية جميعاً، عندما تصير «غادة» بسنّها كما هي «غادة» باسمها.

* * *

ما أكثر ما تفيضه على نفسي من العواطف هذه الحفلات المدرسية البسيطة البهيجة وأنا أصغي إلى أقوال المنتهين وأتبيّن ما يحتشد في تلك الحفلات من معاني الرجاء والخذل، والنجاح والفشل، والانفراد والتعاون، والمحبّة والإعراض، والخروج من عهد مضى للإقبال على عهد مجهول! ألا كم في تلك الحفلات من معاني الجهاد والأمل والقنوط وكم فيها من حظوظ وقسمات!

كم من جائزة هناك وكم من حرمان، شأن الحياة في كلّ ميدان! أترى أسبق الأقران أكبرهم مجهوداً؟ منذا ينبئنا عمّا قاساه ذاك الذي لم يتفوّق رغم أنّه كدّ وجدّ؟ أفكّر حيال كل فوز في خذلان مجهول، ويروعني - كما كان يروع نيوتن(٧) - كثير من المجهودات التي قد يستفيد بها الآخرون، إلّا أنّها لا تفيد صاحبها فتيلاً!

* * *

بقي لي كلمة أخرى أريد أن أُشير بها إلى أثر هذه الحفلات المتكرّرة في مدرسة البنات للأمريكان في التطوّر الاجتماعي بين أخواتنا المسلمات. فالذين يحضرون هذه الحفلات كل عام يعلمون كم يجتمع فيها من السيّدات المسلمات ومن أعظم البيوتات قريبات المتخرّجات والتلميذات وأنهنّ هناك يسفرن عن وجوههنّ منذ أعوام طويلة ويجلسن ساعات على مقربة من الرجال جلوس الحشمة والوقار يصغين إلى النشيد والخطابة والموسيقى. وما المجتمعون في تلك الخيمة إلّا أسرة واحدة لأنّهم من أهالي التلميذات في الغالب.

كذلك المتخرّجات كل عام نراهنّ في ملاحتهنّ وشبابهنّ سافرات يوقّعن على البيانو ويخطبن بالعربية والفرنسية والإنجليزية ممتلكات حواسّهنّ، رابطات الجأش وفي كلّ ذلك دليل على الاتّكال على النفس. فالذي يريد أن يقيس أثر تلك المدرسة من الناحية الاجتماعية - فضلاً عن العلميّة والتهذيبيّة - فليحصِ الحفلات التي عقدت فيها وليقُل لنا بعدئذٍ إذا كان هناك عامل أقوى من هذا على السفور الكريم الذي ألفته الآن أخواتنا المسلمات.

فسلاماً لتلك المدرسة، وسلاماً لسافرات اليوم، سفوراً أهمّ من سفور الوجوه. لأنّه سفور نفوسهنّ الناهضة بعد أن أميط عنها قناع الجهل والظلام!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٣١٢، ٢٩ أيّار/مايو ١٩٢٧، ص ١ .

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، ومن السياق قدّرت أنّها «متحمّسة».

(٢) Moritz Moszkowski (١٨٥٤ - ١٩٢٥) ، ملحّن وعازف بيانو بولوني وليس روسياً كما أوردت ميّ زيادة في مقالتها.

(٣) Camille Saint-Saens (١٨٣٥ - ١٩٢١)، الملحّن الفرنسي.

(٤) Felix Mendelssohn-Bartholdy (١٨٠٩ - ١٨٤٧)، الملحّن الألماني.

(٥) كذا في الأصل، وصوابها «فوزهنّ».

(٦) الدكتور عبد الرحمن شهبندر (١٨٨٢ - ١٩٤٠)، طبيب وسياسي سوري، عُينٌ وزيراً للخارجية في سوريا قبل الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٠ . شارك في إنشاء حزب الشعب في دمشق وكان من زعماء الثورة ١٩٢٥ . لجأ إلى القاهرة عام ١٩٢٧ حيث انصرف إلى الاشتغال بالطبّ إثر خلافات مع أصدقائه الساعين لاستقلال سوريا. عاد إلى دمشق عام ١٩٣٧ واغتيل في عيادته بعد ثلاث سنوات.

(٧) Sir Isaac Newton (١٦٤٣ - ١٧٢٧)، الفيزيائي والرياضي والفلكي الإنكليزي، مكتشف تكوين الضياء الشمسي وقوانين الجاذبية.

تأبين الدكتور يعقوب صرُّوف[1]

كلمة الآنسة ميّ

مات صرُّوف العالم الفيلسوف الحكيم.

مات صرُّوف الكاتب الخطيب بعد أن عاش ثلاثة أرباع القرن كاملة تامّة.

مات صرُّوف، يا سوريا.

مات صرُّوف، يا لبنان.

مات صرُّوف، يا مصر.

بل مات صرُّوف، أيّها العلماء الذين تعرفونه والذين تجهلونه.

فودّعوه بالخيال بغصن من الأرز وسعف من النخيل، وبمزيج من الأصوات الجميلة البديعة ونبذ من الرياضة والكيميا، وليتمّ بها أبحاثَه ويبلغنا النتيجة بالطريقة التي يراها ملائمة من عالم الأرواح.

لقد مات صرُّوف والقمر ناشر ضياءه وها هو يُوارَى التراب قبل جنوح الشمس إلى الغروب.

مات العالم. مات الكاتب والخطيب والصديق، ففي ذمّة اللّه وإلى اللقاء في حضن اللّه.

مات صرُّوف، أيّتها الزوجة، فهل كان مثل صرُّوف من هو أحوز لصفات الجمال والكمال بين الأزواج والرجال؟

مات صرُّوف، أيّها الأبناء والبنات، فهل كان مثل صرُّوف محبّة وحناناً ورفقاً وإحساناً بين الوالدين والآباء؟

مات صرُّوف، أيّها الأصدقاء، فهل كان مثل صرُّوف بين الأحباب في الوفاء والمودّة؟

مات صرّوف، أيّها الباحثون والمنقّبون، فهل كان بينكم من هو أكثر منه صبراً وجَلَداً على البحث والتنقيب والتجديد والإجادة؟

لا تتريّثوا في إيداع جثمانه في قبره لئلّا يلقي عليكم هذا الفيلسوف درساً من نعشه غاضباً طالباً أن تتمّ النواميس الطبيعية دورتها.

مات ذلك الفيلسوف الذي كان يحبّ الكواكب والأزهار والنباتات ويدرس سائر المخلوقات بحكمة واستنارة وقد أضاء للعالم العربي دياجير الحياة الفكريّة مدى خمسين عاماً وقد عاش عيشة مضاعفة بما بذله من الجهود المستمرّة الدائمة. ننعى صرّوفاً إلى مصر الكريمة السخيّة التي تكرم وفادة الضيف حتّى يشعر بأنّه ابنها الصميم فإنّ صرّوفاً إذا نعيناه إلى مصر إنّما ننعى لها ولداً بارّاً أخذ منها وأعطاها! ننعى صرّوفاً إلى الحقيقة التي قضى صرّوف عمره منذ تفتّحت عيناه إلى أن أغمضهما الموت في البحث عنها والجري وراءها، والعمل على تمجيدها وخدمتها. كان هذا الفيلسوف العظيم مثال مكارم الأخلاق والوداعة ودماثة الطبع فلم يعرف عنه أنّه غضب أو حنق أو حقد على أحد أو حاول حلّ مسألة من المسائل بغير التسامح والتساهل. حتّى حقوقه الثابتة المقدّسة كان يتنازل عنها في سبيل المسالمة واتّقاء مقابلة الشرّ بمثله.

كان حقّاً متمسّكاً بالحقيقة لا يعرف في سبيل الدفاع عنها ما يعوقه عن ذلك ولا يخشى في هذه السبيل لومة لائم. أمّا الحقوق فكان يحترمها ما دامت للغير وأمّا حقوق نفسه فلا يهتمّ بها، ولأجل هذا واظب على العمل المستمرّ إلى آخر لحظة من حياته. فالوداع، أيّها الحكيم الراحل. كلّا، لا نقول الوداع! بل نقول إلى اللقاء في أحضان اللّه...

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٣٤٦، ١٢ تمّوز/يوليو ١٩٢٧، ص ١ .

(١) الأديب والعالم اللبناني يعقوب صرّوف، ناشر مجلّة «المقتطف» الشهرية وصحيفة «المقطّم» اليومية بالاشتراك مع فارس نمر وشاهين مكاريوس. توفّي في ١٠ تمّوز/يوليو ١٩٢٧ . كان من أعزّ أصدقاء ميّ زيادة ومن المداومين على صالونها. انظر في الصدد نفسه كلمتها عند مدفنه، في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ١٦٩ - ١٧٢ .

لبنان يمرّ في القاهرة

باشرت إحدى دور السينما مساء الجمعة المنصرم بعرض شريط الصور الممثّلة لبعض مشاهد جبل لبنان. ويُقال إنّ عرض هذه الصور سيتوالى في دور سينمية أخرى في الأسبوع القادم.

وإذ طرق سمعي أنّ حكومة لبنان هي التي عنيت بهذه المناظر وسهرت على تصويرها كما اهتمّت بإرسالها إلى مصر، خيّل إليّ أن سأرى من جبلي البديع أتمّ صورة ممكنة لما فيه من جمال وجلال وإغراء فتّان. عاودتني ذكرى مشاهد سبق أن أبصرتها في السينما لبعض جهات فرنسا وإيطاليا وسويسرا تارةً ملوّنة بألوان الطبيعة في الخضرة والسماء، وطوراً مجمّلة بما يحذق الفنّ في إضافته من معنى خاصّ إلى المناظر النائية والزوايا المهجورة. ثمّ اتفق لي أن رأيت بعض تلك المشاهد رأي العين، ولولا الفرق القسري بين الواقع والخيال لقلت إنّ صنع الخالق لم يكن أبرع من صنع المخلوق. فكان حقّاً أن أتوقّع لمشاهد لبنان كل ذلك النجاح أو بعضه.

ولكن من ذا الذي عرف لبنان في ما رأيناه البارحة من مناظر باهتة كالحة، لولا الإعلان المطبوع ولولا أسماء القرى والأنهار والأمكنة البادية على اللوحة السحرية؟ وإذا استثنينا مناظر قليلة مثل نبع الفوّار وجانباً من وادي قاديشا وآخر من غابة الأرز – جاز القول إنّ هذه أضأل صورة وقعت تحت نظرنا من لبنان وإنّ أكثف بطاقات البريد صنعةً خير منها.

لماذا لم تعرض سلاسل الجبال والغابات التي ترصّعها هنا وهناك كالأوسمة الخضراء؟ أين الشواجن المهيبة؟ لست أعني جانباً منها كالذي رأيناه من وادي قاديشا ووادي حمّانا – بل أعينها[1] بمجموعها في تحدّرها من أعالي الجبال إلى مهبط البحر – كما يراها أهالي القرى القائمة على أكتافها والتي تتخلّلها أيضاً. لماذا لم تعرض

بعض البلدان الكبيرة الآهلة فيها مثل بكفيّا وغزير وبعض الآثار التاريخيّة الشائقة ووادي أدونيس وقبر الزهرة وجسر أفقا - غير آثار جبيل على أهمّيتها؟ لماذا لم نرَ الطريق متتابعة من ظهور الشُّوَير إلى المروج، متلوّية على ذلك المرتفع بين الواديين الكبيرين يُسرة ويُمنة في ظلّ ذروة صِنّين الشامخة نحو السماء؟ عَلَامَ لم نسر (بالسينما) على ساحل البحر نحو شمال لبنان ومن ناحية تتعالى الجبال متحدّثة بالعزّة والكرامة، والبحر ينبسط بروعته وجلاله من الناحية الأخرى؟

طالما رأينا في الروايات التي عرضت في الأعوام السالفة ما يفضل هذه المشاهد من جميع الوجوه، لا سيّما مشاهد «جميلة في ظلّ الأرز» لهنري بوردو[٢]، و«صاحبة القصر في لبنان» لبيير بنوا[٣]. فَعَلَامَ لم يستعينوا بتلك المناظر بل عَلَامَ لم يكتفوا بها؟ فهي جملة وأجزاءا[٤] خير من هذه في جمالها وحذقها وتلوينها.

* * *

وبعد فقد تعاون مرسلو المشاهد وإدارة السينما على تشويه لبنان. إذ ما نكاد نقرأ اسماً على اللوحة حتى يختفي المسمّى فلا ندري في أيّ مكان نحن. ولم تعزف الأُركسترا لحناً شرقيّاً شأنها عند عرض مناظر أوربا وأمريكا فهي تعزف لكل بلد موسيقاها أو الموسيقى التي تقرب منها أو ذات الالتصاق بتاريخ المكان الذي تنشر صورته. بل ما شهدنا مرّة مشهداً من الشرق الأقصى، من الصين والهند واليابان، إلّا اهتزّت الآلات والأوتار وانقلبت تعزف الموسيقى اليابانية أو الصينية أو الهندية. وإن تراءت أهرامات مصر أو هياكلها فسرعان ما نسمع مارش الجيوش من عائدة أو نشيد المجد لمصر ولإيزيس من الأوبرا نفسها، أو غير ذلك. وكل ذلك ضروري لتهيئة الجوّ المعنويّ لأنّ الموسيقى الآن أصبحت بارعة التعبير عن المعاني وصارت جزءاً لا ينفكّ عن مشاهد السينما. وليس عسيراً على الراغب في الإتقان أن يهتدي إلى لحن لبناني صميم لأنّ الملحّنين اللبنانيين ضبطوا بالنوتة طائفة من الألحان الشعبية التي ما برحت على قدمها في عنفوان ذيوعها. ينشدونها فتضطرب لوقعها الجوانح وتقبض على القلب وحشة لذيذة مشتركة وشجن لا يعرفه في كآبته وأثره إلّا أبناء الشرق.

* * *

وعلى ذكر الاصطياف أقول إنّ الدعاية التي تنشر للاصطياف في لبنان لها عندي معنى أهمّ من المعنى التجاري المالي فإنّي أعرف نفراً من أعيان سوريا ولبنان يؤمّون القاهرة لقضاء فصل الشتاء فيها ويعودون إلى بلادهم عند اشتداد الحرّ. ولا عمل لهم في مصر ولا تجارة فيها تدرّ لهم لبناً وعسلاً. وليس أحبّ إليهم من مصر التي عرفوها بهذا التردّد المتكرّر عليها، ولا أفهم منهم لنفسيتها ولا أنصف تقديراً ليقظتها.

قليلون هم يتوافق عددهم وحالة البلاد المالية، على أنّ لهم صفة خاصّة وهم صلة بين البلدين وثيقة. وحبّذا تقوية هذه الصلة من جانب مصر فجيرة الأوطان ليست دون جيرة السكّان أهميّة وإخاءً.

* * *

شكراً على ما أرسلتم، أيّها المهدون! ولكن سامحونا إنْ نحن قلنا إنّ هذا ليس لبناننا الذي نعرف ونحبّ.

ألا أعيدوا إليّ أحراجي الشجراء ودعوني ألمح النسيم يهبّ مداعباً غصونها السندسية فأكاد أتنشّق حولي عطور الصنوبر والصعتر والخزامى!

أعيدوا إليّ القرى ذات السطوح القرمزيّة المبعثرة على الجبال وفي الشواجن كطاقات ورود لفّت في أكمام الخضرة!

أعيدوا إليّ سمائي الصافية إنْ جازتها سحابة فهي رسول أثيري جميل أو طيّارة شفّافة تمرح حول قرص الشمس!

أعيدوا إليّ تدفّق الأمواه، وترقرق الأنهار، وتفجّر الينابيع من قلب الصخر تفجّر العواطف من قلوب أبناء لبنان!

أعيدوا حلقات السمر في ضوء القمر تحت السنديانة القديمة إذ ينشد الفتيان والفتيات تلك الأغاني الحزينة على وقع صفق الأكفّ وأنين القصب!

أعيدوا إليّ هناء الحياة في لبناني القديم. أعيدوا إليّ الرمال البيضاء على شواطئه والجبال القائمة بين الأرض والسماء كهياكل خالدة!

* * *

يا جبالي الشمّاء، يا جبالي الجرداء، يا جبالي الشجراء، يا جبالي! تعالي إليّ في شكل أطياف الظلال والألوان والأنوار عسى بمرآك يزول تعب نفسي أمام الوجود الرائع بما فيه من مشاكل الموت والحياة، والسلوان والذكرى، والفناء والبقاء، والسعادة والشقاء!

يا جبالي الشمّاء، يا جبالي! تعالي في صورة صادقة فلا تنكرك عيناي. إذن أقول لمصر أنت مروجي وسهولي الجميلة الخالدة وهذا أمامك لبناني الخالد الجميل!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٣٥٧، ٢٤ تمّوز/يوليو ١٩٢٧، ص ١ .

(١) كذا في الأصل، وصوابها «أعنيها».

(٢) Henry Bordeaux (١٨٧٠ - ١٩٦٣)، محام وكاتب فرنسي، عضو في الأكاديمية الفرنسية منذ عام ١٩١٩ . من أنجح الروائيين الكاثوليك التقليديين في النصف الأول من القرن العشرين. جاوز عدد رواياته السبعين ويغلب على معظمها الطابع النفسي. صدرت روايته *Jamilé sous les cèdres* المشار إليها في النصّ عام ١٩٢٣ .

(٣) Pierre Benoît (١٨٨٦ - ١٩٦٢)، كاتب فرنسي، انتُخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٣١ . ابتدأ شاعراً وجدانياً، ثمّ تحوّل بعد الحرب لكتابة الرواية وتفوّق على وجه الخصوص في روايات المغامرات المتّسمة بدقّة تصوير الأجواء الاجتماعية والنفسية. نُشرت روايته *La châtelaine du Liban* المشار إليها في النصّ عام ١٩٢٤ .

(٤) كذا في الأصل، وصوابها «أجزاءه».

جائزة نوبل لسنة ١٩٢٦
تنتزعها يد امرأة

هذا أسبوع موفور الحركة في مصر. فمن ذكرى ١٣ نوفمبر[١] إلى عودة حضرة صاحب الجلالة، إلى افتتاح البرلمان، كل ذلك شغل الأفكار واحتلّ أعمدة الصحف فأغضينا عن اسم جراتزيا ديليدا[٢] في حين وجب الكلام. وقد شاركتنا الصحف الإفرنجيّة في الإغضاء فلم تكتب ولا واحدة منها ولو فقرة في هذا الموضوع.

إنّ جائزة نوبل شهادة عظيمة للفائز بها في مسابقة سنوية يتهافت عليها فحول الكتّاب والشعراء من جميع أنحاء العالم، فإذا المتفوّقة لسنة ١٩٢٦ كاتبة مجهولة عندنا وغير معروفة في أوربا إلّا للخاصّة من أهل الثقافة الأدبيّة.

والواقع أنّنا في الشرق وإنْ عنينا بسياسة إيطاليا ورقبنا توسّعها الاستعماري فقلّ ما عرفناه من نهضة هذا البلد الفنّي وحركته الفكرية الحديثة. وإنْ عرفنا فتاتاً ملتقطاً من هنا وهناك لا يجوز أن يعتبر أساساً لاتصالنا بهذه الفكرة القديمة المتجدِّدة.

وليس عمل المرأة في إيطاليا بأقلّ ما في هذا التجدُّد ولا كاتباتها ليتخلّفن عن كتّابها في عالم الفنّ والإبداع. وقد قدَّم لنا الأديب طه أفندي فوزي إحداهنّ، آني فيفانتي[٣]، في كتابها عن مصر «أرض كليوبطرة» الذي نقله أخيراً إلى العربية.

وهكذا بعد برنرد شو، وأناتول فرانس، وجرهارت هوبتمن، وتاجور[٤] وغيرهم من أفذاذ الفكر والأدب، تنال الجائزة العالمية الكبرى امرأة لم تتفوّق عن طريق العيش الرغيد، ولم تنبه بحكم الأحوال والتحزّب والمحاباة. وإذ نذكر أنّ مدام كوري[٥] فازت قبلها بجائزة نوبل للعلوم، تفكّهنا تهمة ألصقها سادتنا الرجال بالمرأة فزعموها قاصرة دون إدراك الحقائق العلميّة، عاجزة عن إبداع الغرر الأدبيّة والفنيّة. ألا رحم اللّه نيتشه زعيم هؤلاء الظالمين!..

* * *

أغفلت البرقية المقتضبة اسم الكتاب الفائز، على أنّها وصفت الكاتبة بالامتياز في الكتابة عن مقاطعتها وبسط حياة فلّاحيها مع شرح عاداتهم وأخلاقهم التي ما زالت على الفطرة. فالراجح أنّ كتابها الجديد صورة جديدة من «سردينيا».

إنّي قرأت جراتزيا ديليدا كثيراً. ولئن هي برعت في وصف الحياة والطبيعة في مقاطعتها تلك فعندي أنّها أبرع ما تكون إذ تروي فاجعة نفسية مستقلّة عن الزمان والمكان، من تلك الفواجع البكماء التي تأكل القلوب وتقلق الأفكار وتذيب المرائر، والتي لا يراها - فضلًا عن الشعور بها - السطحيون من الناس. ففي هذا الميدان خصوصاً تبدو حَرِيّة بالإعجاب سواءً في شعورها الشفّاف الدقيق الذي يحيط بكل نزعة وكل انفعال، وغريزتها القويّة غير المشوَّهة بالتقليد والركاكة، ومقدرتها على تصوير المحسوس بفنّ هو كل الجمال، وخيالها المقتدر الجوّال.

فمهما خال[٦] موضوعها عادياً لأوّل وهلة، فإنّك لا تلبث أن تلمح فيه حقيقة إنسانيّة صغيرة أو كبيرة تشعّ في نور العاطفة والشاعرية. كل ما في الوجود البشري والاجتماعي من طمع وكيد ودسيسة وخدعة ومداورة ويأس ورجاء يلقى في فنّ هذه الكاتبة تأويلًا حاذقاً وتفسيراً غنيّاً بالمعاني والحِكَم. المخلوقات والحوادث تمرّ تحت قلمها وما تتولّى إلّا وقد تركت لك دمعة من بكائها، ونوحاً من تعاستها، وانعكاساً من صورتها، وقطعة من وهمها ممزّقاً كان أو متماسكاً.

الحياة قاسية والألم كالانفعالات والشهوات فُرض على الإنسان بحكم القدر القاهر. ولكنّ الألم متنوّع وفقاً للأمزجة والأطماع والأحوال الراهنة. وجراتزيا ديليدا في هذا التنوّع تقول: «كما أنّه ليس من وريقة شبيهة بالأخرى على غصن واحد، ولا من موجة مطابقة للموجة المحاذية، كذلك ليس في حياة الإنسان الواحد ما يتوافق تماماً وحياة الآخر». وفي كل هذا التنوُّع كل وحي الفنّ وكل ثروة الوجود.

* * *

بين يديَّ الساعة آخر ما قرأت من مؤلّفاتها الصادر سنة ١٩٢٣ باسم «الناي في الروضة»، وهو مجموعة حكايات قصيرة[٧]. وقد أعدت تصفُّح هذا الكتاب في هذا الأسبوع لأتشبَّع من أسلوب جراتزيا ديليدا فأقدِّم هنا صورة سريعة من فنّها وأعرِّفها لجمهورنا الشرقي.

أقرب هذه الحكايات للجميع أقصوصة «البؤساء» وفيها وصف عائلة وضيعة يعذّبها الفقر والغمّ والشدّة، وأعضاؤها الزوج وزوجته وولد لهما نصف معتوه. ومن قلب الشقاء المرير تنوّر أبهى الزهرات وأنفسها، زهرة الحبّ والتعلّق الذي يربط هؤلاء البؤساء الثلاثة فيما بينهم. على أنّ القدر الذي يروقه أن يبطش بالعظماء والأقوياء لا يغفل عن هذه الأسرة التاعسة فيقضي الرجل نحبه بمرض مفاجئ وتضطرّ المرأة لكسب معيشتها إلى الانفصال عن ولدها المحبوب. والولد المسكين تسوء صحّته بعد دخوله في أحد الملاجئ وتوافيه المنيّة فتحرم والدته حتّى العزاء في أن تكون قربه ساعة احتضاره. وهذه كلّ «حيلة» الأقصوصة. حكاية عاديّة في كربها. ولكنّها مجلى لما في نفس الكاتبة من عطف عظيم وحذق لجميع صنوف التعاسة الصحيحة.

وفي أقصوصة «الكنز» تصف نفساً طمّاعة متكبّرة لا تلبث أن تنقلب من النقيض إلى النقيض. فإنّ دون فيسانتي لا يعنى بخادمه المريض بدافع الرحمة بل لينتزع منه سرّاً. إذ قيل له إنّ هذا الخادم وحده يعرف المكان الذي خبّأ فيه والد سيّده كنزاً عظيماً. ولكنّ ملاطفة دون فيسانتي لا تجدي نفعاً والخادم المصرّ على الكتمان يرفض من سيّده كل معونة.

وإذ كان دون فيسانتي في العراء والظمأ يعذّبه مرّ به صبيّ يحمل وعاءً مملوءاً ماءً. فطلب جرعة يروي بها عطشه، كائناً ثمنها ما كان. وإذا الصبيّ يجيب أنّه «لا يبيع الماء ولكنّه يعطي» فكان من هذا الجواب شعاع أضاء نفس دون فيسانتي وهداه إلى أنّ هذا خير كنز يناله بعد والده، وأنّه الغنى الصادق الوحيد. فيعود إلى خادمه ويقدّم له خير ما يخفّف الآلام ويواسي الأسقام: الشفقة الإنسانية والعطف غير المصطنع.

وفي أقصوصة أخرى عنوانها «الكلب» وصف لفظاعة الخيانة. حتّى هذا الحيوان المشهور بالأمانة والوفاء، والمرغوب فيه لأمانته ووفائه، يخون صاحبه. وعيناه الخضراوان اللتان كذبتا وضلّلتا كأنّهما «عينا إنسان» توحيان إلى الكاتبة بهذه الفكرة الحكيمة: «علينا أن نقف في مكاننا إذ نلحظ أنّنا أخطأنا السبيل، وأنْ نتلهّى بالأوهام العابرة في انتظار سيّدنا الأوحد، وهو الضمير، حتّى يعود إلينا ويحسن قيادتنا».

وأجمل هذه الحكايات عندي، على بساطتها، الأقصوصة الأخيرة «الناي في الروضة» والتي أطلق اسمها عنواناً للمجموعة كلّها. وفحواها أنّ امرأة حسّاسة جرحتها الحياة في أصدق عواطفها أخذت تتأثّر بتغريد طائر غير منظور في الروض. فتجلس كل يوم حيث تنصت إلى ذلك التغريد الشجيّ طالبة عنده تخفيفاً للوعتها ورجعة لثقتها بالناس والأشياء. وإذا بالعبرات التي يستدرّها التغريد من مآقيها تفرج من كربتها، وإذا بها ترى الحياة أقلّ قساوة والناس أقلّ خيانة بفضل إنشاد ذلك الطائر المحسن.

ولكن ذاك أيضاً خدعة عادية ما إنْ تكشّفت لها حتى قضت على هذا الوهم المتبقّي لها. لم يكن النشيد خارجاً من حنجرة طائر يغنّي لمجد الفنّ والخليقة بلا ثمن ولا حساب. إنّما كان عزيف ناي من شابّ كسول استتر وراء شجرة كبيرة ليغري العابرين على الوقوف والإحسان إليه. فما التغريد إلّا أحبولة للكسب التجاري بأقلّ مجهود.

حقيقة تثلّج قلب المرأة وتلاشي في نفسها سحر التغريد. بل صار ذلك النشيد ألماً على ألم لأنّه مظهر آخر مما كانت تريد الهرب منه. وبهذه الأقصوصة شاءت الكاتبة أن تثبت ضرورة الوهم في الأفراح والأحزان، بل لاحتمال الحياة نفسها في ساعاتها المتعاقبة. وليس من كاتبة كهذه تعرف أن تخلق جوّاً من الوهم الجميل فتصف عذاب الروح القلقة في جهاد داخلي عنيف بين الشوق إلى المعرفة الأكيدة والرغبة في الحلم المعزّي والوهم الرفيق.

* * *

وقد نشرت جريدة «الإمبرسيالي» الإيطالية صورة برقية أرسلها موسوليني مع طاقة أزهار إلى جراتزيا ديليدا عندما بلغه الخبر. وهذا فحوى البرقية:

«أرجو أن تتفضّلي بقبول تهانئي في هذه الساعة التي بها يسجّل العالم مجدك ككاتبة إيطالية - موسوليني».

فأجابت الكاتبة: «إنّ المجد المتفوّق على كل مجد هو، في هذه الساعة، كلمة سعادتك التي تستفزّني إلى تمجيد إيطاليا وزعيمها - جراتزيا ديليدا».

وقد سررت لخطاب موسوليني سروري لنيل الكاتبة جائزة نوبل. لأنّه إذا كان تفخيم الأمور التافهة والمواهب السخيفة يثير ازدراءنا، فإنّ تقدير الرجل العظيم للموهبة السامية شيء مبهج حقّاً.

* * *

نسجّل هنا للمرأة فتحاً جديداً وحافزاً ميموناً لنساء العالم في سيرهنّ إلى الأمام وفي الاعتراف من الثروة الإنسانية الكبرى، ثروة الفنّ والفكر. ونزيد اقتناعاً، نحن حاملات القلم في مصر وفي الشرق العربي، بوجوب الإقلاع عن العبارات المنسوخة والاستعارات الجامدة والخواطر المتكرّرة. ونذكر أنّ أعظم عبقرية في المرأة هي عبقرية القلب والعاطفة. وكما أحسنت جراتزيا ديليدا، وكثيرات غيرها، استعمال لغتها الإيطالية العذبة التي لم يفقدها التطوّر المحتوم فخامة الصدى اللاتيني، كذلك ليس عزيزاً علينا معشر الكاتبات من اليمين إلى الشمال، أنْ نحسن معالجة لغتنا العربية الجميلة محتفظات فيها على صدى المجد القديم وعاملات على الإبداع الشخصي الحديث في رسم صورة صادقة جذّابة من مزاجنا النسوي وطبيعتنا الشرقيّة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٤٥٥، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٧، ص ١ .

(١) في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨ الذي كان يُعرف باسم «يوم الجهاد» توجّه وفد مصري مؤلّف من سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي لمقابلة المندوب السامي البريطاني سير رجنالد وينغايت (Sir Reginald Wingate) وعرض عليه طلب مصر الاستقلال. انظر في هذا الصدد مقالة ميّ زيادة «ذكرى ١٣ نوفمبر: صوت القبور والنشور»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٤٢، ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٦]، في هذه المجموعة.

(٢) Grazia Deledda (١٨٧١ - ١٩٣٦)، كاتبة إيطالية وصفت في رواياتها وأقاصيصها بلغة حيّة سكّان وطنها سردينيا وتقاليدهم.

(٣) Annie Vivanti (١٨٦٨ - ١٩٤٢)، كاتبة وشاعرة إيطالية برزت بروايات وقصص مبدعة مشوّقة فيها لمحات من سيرتها الذاتيّة. يرجع كتابها *Terra di Cleopatra* المشار إليه في النصّ إلى زيارتها لمصر في

أوائل العشرينات من القرن العشرين وقد صدر في ميلانو عام ١٩٢٥ ثمّ نُشرت ترجمته إلى العربية لأول مرّة في القاهرة عام ١٩٢٧ .

(٤) فاز بجائزة نوبل العالمية George Bernard Shaw (١٨٥٦ - ١٩٥٠)، الكاتب الروائي والمسرحي الإيرلندي، عام ١٩٢٥، و Anatole France (١٨٤٤ - ١٩٢٤)، الروائي والناقد الفرنسي، سنة ١٩٢١، و Gerhart Hauptmann (١٨٦٢ - ١٩٤٦)، الشاعر والمسرحي الألماني، عام ١٩١٢، و Rabindranath Tagore (١٨٦١ - ١٩٤١)، الشاعر والفيلسوف الهندي، عام ١٩١٣ .

(٥) نالت Marie Curie (١٨٦٧ - ١٩٣٤)، الكيميائية والفيزيائية الفرنسية الجنسية والبولونية الأصل، جائزة نوبل للفيزياء بالاشتراك مع زوجها الفيزيائي والكيميائي الفرنسي Pierre Curie وزميلهما Antoine Henri Becquerel عام ١٩٠٣ وجائزة نوبل للكيمياء عام ١٩١١ .

(٦) كذا في الأصل، وواضح أنّ ميّ زيادة تستخدم «خَالَ» هنا بمعنى «بَدَا».

(٧) العنوان الأصلي لهذه المجموعة هو *If flauto nel bosco* وقد صدرت في ميلانو.

نداء الطفل المصري

إنّه ينادي في الأكواخ ووراء جدران المنازل الحقيرة. ينادي في الأحياء العامرة والساحات الواسعة. ينادي جارياً على قدميه العاريتين وهاجعاً على صدر أمّه الفقيرة الجاهلة.

الطفل المصري ينادي صامتاً وناطقاً، ينادي في كلّ مكان وفي كلّ آن. وفي أبهى الأعياد التي تزهو بها هذه العاصمة، وأعظم المهرجانات التي تزدان بها حيناً بعد حين حدائقنا ومعاهدنا وميادينا، صوت الطفل يرتفع عالياً في بكاء وشكوى واستعطاف.

ينادي في الصيف إذ ينقصه ما يجب أن ينعم به الأطفال، وينادي في الشتاء إذ البرد يجمّد جسمه الصغير ويضعف قواه. وينادي في كل فصل لينقذوه من المرض والموت بما يهيّئون له من وسائل المعالجة والوقاية والدراية.

ينادي معافًى سليماً ولكن معرّضاً بالجهل والإهمال لكلّ علّة وكلّ مكروب. وينادي سقيماً هزيلًا وهيهات أن يدرأ عنه عطف والدته الأسقام ويشفيه حبّها من الآلام.

نتكلّم عن النهضة المصرية صادقين إذ نرى طلائعها في مختلف الدوائر والشئون. ولكن عندما نذكر الطفل يخيّل إلينا أنّ الأمّة بإعراضها تكاد تشلّ بيدها هذا الجانب المفعم حياةً ورجاءً في يومها وغدها.

ونتكلّم صادقين عن سير مصر في طليعة الأمم الشرقية. ولكنّنا نرقب عنايتها بالطفل فلا نجد منها المثال الذي يتحتّم أن يكون.

ويسألنا الأجانب ومراسلو الصحف الغربية عن حقيقة هذه النهضة ويطلبون إثباتاً للأقوال بالأعمال، فنسارع إلى إحصاء كلّ مشروع وتبيان كل تجديد. ولكنّنا نصل إلى أمر الطفل فيرتبك الكلام حيث ليس تغني المكابرة والدعوى.

ونتكلّم صادقين عن يقظة المرأة المصرية في المدرسة والمجتمع، عن نزعتها إلى التحرّر ورغبتها في إدراك الحقّ والواجب. ولكنّنا نجدها في مجموعها مغضية عن الطفل وعن وجوب إنقاذه، لأنّ ما صنع حتّى الساعة في سبيله قليل جدّاً بالنسبة لما تستطيعه المرأة المصريّة وأقلّ من القليل بالنسبة لحاجة الطفل وشقائه.

هذا - وليس من بريد يأتينا من مختلف أنحاء الغرب إلّا وهو يحمل وصف معهد جديد للأطفال أو خبر مشروع مستحدث لوقايتهم وتربيتهم وتسهيل طريق الحياة أمامهم. وليس من بريد أوروبي يحدّثنا عن نهضة المرأة في العالم إلّا ويرينا أنّ الأسس الخطيرة التي تقوم عليها هذه النهضة العظيمة هي - مع حماية المرأة العاملة - وقاية الطفل ورعاية الفتاة. ومع تقديرنا التامّ لجهود المرأة المصرية في جمعياتها ومشاغلها ومستوصفاتها لا يسعنا إلّا تقرير العجز الكبير بالنسبة للحاجة اللاحّة.

لأنّ مثل هذه المشروعات لا يكفي لترويجها جمعيتان أو ثلاث مهما كانت الهمّة التي تبذل والغيرة التي تسعى. بل يجب أن يتكاتف لتلك الغاية أوفر عدد ممكن من السيّدات. وما أقدر المرأة المصريّة الطيّبة السخيّة إذا هي شاءت أن تعطف على مشروع أو عمل! وأيّ مشروع أحرى بعنايتها واستنهاضها أكثر من نداء الطفل المتروك.

نرسل هذه الكلمات بياناً لاغتباطنا بدعوة لايدي لويد(1) إلى الأخذ بيد الطفل وتنظيم العمل في سبيل صحّته ووقايته. إنّها لدعوة خليقة بهذه السيّدة النبيلة التي عرفنا عنها - قبل أن تفد إلينا - اهتمامها بمثل هذه الشؤون الاجتماعية النافعة في كل بلد حلّت به.

ويزيد سرورنا إذ تلبّي الدعوة نساء الجوالي الأوربية مع المرأة المصرية جنباً إلى جنب فتتعاون الأختان الشرقية والغربية على الخير. فمصر هذه وطن الجميع وحقّ على كلّ أن يؤدّي قسطه لإنقاذها وإسعادها.

ليس الأطفال أبناء أوطانهم فحسب، بل هم أبناء الإنسانية، ولا من يعلم من أيّ المراتب والأجناس والشعوب تختار الإنسانية أبطالها وعظماءها والمحسنين إليها. وما اقتحم بنو الإنسان ميدان الألم والبرّ والتعاون إلّا وتساوى منهم النبلاء جميعاً. فلا ينظر إلى دين الواهب وجنسيته بل يوزن عمله بميزان الإنسانية والأريحية.

إنّ صاحبي الجلالة الملك فؤاد والملكة نازلي تركا مبالغ وافرة من المال في البلاد التي اجتازاها خلال رحلتهما الصيفية، لمساعدة الفقراء. فكان أثرهما ذاك من أنفع الآثار وأنفسها. كذلك يقدّر عمل لايدي لويد ومساعداتها من مختلف الشعوب، ونسجّل لهنّ اليوم أثراً نفيساً مفيداً.

* * *

إنّي واثقة من أنّ هذا المشروع الذي دعت إليه قرينة المعتمد السامي البريطاني فهبّت تؤيّدها فيه السيّدات الوطنيات والأجنبيات دفعة واحدة، والذي سيناصرها فيه غداً الأجانب والوطنيون على السواء إبّان السوق الخيرية التي ستقام في سبيله في منتصف هذا الشهر - أقول إنّي واثقة من أنّ هذا المشروع لن يكون «قشّة لا تكاد تحترق حتّى تنطفئ». بل هو سينمو ويزدهر فيكون على ممرّ الأيّام موفور العائدة على الأطفال البائسين.

ولتثق لايدي لويد أنّ عنايتها هذه تنيلها من عواطف مصر ما لا تناله بمجرّد مركزها السياسي. أقول هذه الكلمة مصارحة لأنّ قلب المرأة فيّ يحدّث قلب المرأة منها. ولا مواربة في مثل هذا الحديث ولا تحفُّظ.

إنّ الصوت الذي يطرح من أعالي القمّة ينطلق إلى القمم المجاورة ويدوّي في الأودية والمروج ويبعث بأصدائه إلى الأمكنة القصيّة. كذلك النداء المنطلق من القائمين على ذروة الاجتماع والنفوذ يسري إلى مدى سحيق فتسمعه الجماعات والأفراد وتنتبه إلى ما قد كانت تغفله.

وقد استثارت لايدي لويد هِمماً كثيرة بندائها الإنساني الجميل.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٤٧٤، ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٧، ص ١ .

(١) Lady Blanche Isabella Lloyd (١٨٨٠ - ١٩٦٩)، قرينة Lord George Ambrose Lloyd (١٨٧٩ - ١٩٤١)، المندوب السامي البريطاني في مصر في الفترة ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٩ .

ألساندرو فولتا

ننتفع بكلّ اكتشاف جديد واختراع مفيد في دوائر العلم والفكر والفضل فندمجه مع الوقت في حياتنا ويصبح عنصراً لا غنى عنه في أعمالنا. ونحن في ذلك ناسون اسم صاحبه، مضربون عن حديث موجده، حتّى إذا ما حان موعد الاحتفاء بمولد ذلك الفذّ أو بوفاته، أو طرأ على العالم طارئ خاصّ يثير ذكراه، اشرأبّت منّا النفوس إليه وتحرَّكت الألسنة للإشادة بمآثره والثناء عليه. لا فرق في ذلك بين الشعب والشعب والجنس والجنس. فكأنّما يتضافر الجميع على التكريم فيه لذلك الإخاء الشامل وتلك الوطنية الواحدة القاضية على الفروق الجغرافية والدولية واللغوية بين بني البشر.

فهذا ألساندرو فولتا[1] اللومباردي المولد الإيطالي الجنسية، ما فكّرت فيه أسرة العلوم الرياضيّة والطبيعيّة في العالم إلّا وعدَّته من أركان مفاخرها ولا جنىَ ثمار جهوده فرد عادي من أيّ أمّة من الأمم إلّا وحسبه المحسن إليه إحساناً شخصياً، لأنّه حبا الجميع من اكتشافاته بجمّ الفوائد والمتع فألفوها كأنّها - كما هي في الواقع - بعض نعم الباري، كهذه الشمس وهذا الهواء وهذا الماء. ولئن ضرب الجمهور على ذكره ستار النسيان أعواماً طوالاً فإنّه لا يفتأ لاهجاً باسمه وهو لا يدري. فذرّات الكهرباء التي يضيء بها منازله إنّما تحصى «بالفولتا» التي اكتشفها وأحصاها ذلك العالم العظيم فانقلب اسمه لفظة فنيّة لبعض ما اهتدت إليه عبقريته.

وإذ تأتي هذه المواسم النادرة، مواسم الاحتفاء بعيد المولد وموعد الوفاة، يهبّ النابهون في مختلف الأقطار وينشرون ذكراه على أجنحة الذيوع وينقلون إلى كل جيل جديد خبر البطل القديم.

* * *

وألساندرو فولتا صاحب بحوث عديدة قادته إلى الاهتداء إلى هذا العنصر الشفّاف النفيس المدعوّ بالكهربائية فكان من أكبر مكتشفي نواميسه وموطّدي أسسه.

ولم يكتفِ بالاكتشاف والتدوين والإذاعة بل أوجد اختراعات مكّنته من جعل علمه النظري عملياً محسوساً. وفي مقدّمة تلك الاختراعات ومن أكثرها بين الناس شيوعاً في نتائجها «الأوديومتر» الذي أبان خواصّ الموادّ الطنّانة القاصفة فيسّر اختراع المحرّك الآلي (موتور) الذي تقوم عليه الآن صناعة الأوتمبيلات والطيارات على ما نعهده فيها من البساطة والسهولة.

وهناك اختراع آخر معروف باسم «الحوض الكهربائي» مكّنه من توليد الكهرباء وسبر غورها وإحصاء دقائقها. وفي اعتقاد أهل العلوم الرياضيّة أنّ هذا أحقّ الاختراعات البشرية بالإعجاب.

من الحوض الكهربائي تولّد «التيّار الكهربائي» الذي يعالج الرياضيون بحثه، منذ قرن، في مصادره ونتائجه وفروعه وممكناته فأدّت بحوثهم إلى اكتشافات تزيد أهميّتها يوماً فيوماً وتنجلي منافعها للنوع الإنساني بحيث غيّرت - وستغيّر - كثيراً من عاداته المألوفة وأفكاره الراسخة منذ قديم الزمان.

فبفضل التيّار الكهربائي تيسّر النظر في معمّيات الهيُولى والكشف عن سرائر الأجسام في أدقّ تراكيبها. وتيسّر توليد الحرارة والنور والموادّ الكيمية والقوّة الميكانيكية. كما تيسّر تناقل الأفكار من أقاصي الأرض إلى أقاصيها وجرّ الأمواه من أعالي القمم والصرود حيث تضيع جزافاً إلى العواصم والمدائن حيث تنقلب زينة للنظر، ومتعة للحياة، ومنفعة للحاجة وتفتح ميداناً جديداً رحيباً لجهود العاملين.

* * *

وممّا يحسن ذكره في هذا المقام أنّ فولتا لم يظهر فقط سطوة العبقرية الإنسانية إذا هي انصرفت إلى البحوث العلمية والطبيعية، وقدرتها على تذليل جموح الكون في كتمانه، وتغيير وجه العالم بمجرّد شعاع يضيء أو محرّك آلي يدور، بل أثبت كذلك أنّ الخيال لا ينافي العقل العلمي ولا يشوّهه، إنّما يوسّعه إرهافاً وشبوباً، وأنّ العالم قد يكون أحوج إلى الخيال من الشاعر، بل أثبت أنّ الشعر والعلم لا يتنافران، وكثيراً ما يتسايران متآلفين يتمّم كلّ منهما الآخر.

والدليل أنّ فولتا عالج الأسجاع والأوزان كما عالج أسرار الكهرباء وممكنات الهواء والماء. ففي صحائف شبابه قصائد كتبت إحداها باللغة اللاتينية كان يروقه أن يرويها متمهّلاً على ألفاظها، مترنّماً بموسيقاها حتّى وهو في سنّ الشيخوخة وبعد عمر مديد قضاه في الأبحاث الرياضية والآلية والكيماوية.

وفي هذه القصيدة تعداد لمختلف المعادن مع ما يتحلّل عنها من نيران وما تصير إليه من مسحوق ورماد. وقد مهّد لها في جزءين ناقش فيهما القائلين إنّ الخيال دون العلم، الذاهبين إلى أنّ الشعر لا يليق بالعلماء. وجاهر في النهاية بأنّه لا يطمع في احتضان العلم على الإطلاق بل قصر عنايته على بعض الفروع العلمية التي تستهويه ويتوسّم فيها خيراً جزيلاً.

ونشأته تدلّ على أنّ الدروس المدرّسة لا تكشف دائماً عن مواهب الطالب وبراعته الكبرى. فهو لم يتلقَّ في حداثته إلّا دروس الآداب والفلسفة والعلوم المدنية لأنّ أسرته كانت ترغب في إعداده للقانون والتشريع. فإذا بفكره ينصرف إلى العلم الطبيعي قبل أن يناهز العشرين.

* * *

وليس هو بأوّل من أعلن في عبقرية خارقة أنّ الخيال والفكر العلمي متلازمان. فما أكثر الأسماء لمن شاء الإحصاء!

فهذا جول فرن(٢) الأديب والروائي الفرنسي الذي خلق خياله التصميم الأوّل من الغوّاصات التي تجوس في أيّامنا البحار، كما ارتأى الانتقال من الأرض إلى القمر في مقذوفة من مدفع خصيص لهذا الغرض، وهو أمر لا يزال شاغل العلماء من الرياضيين والفلكيين.

وهذا بسكال(٣) الفرنسي الكبير في علمه الأدبي وعلمه الرياضي جميعاً، والأديب العالم الإنجليزي ويلز(٤) الذي يصف الجمعية الإنسانية في رواياته قائمة على قواعد علمية وميكانيكية منظّمة، ونابوليون الذي لم يحُلْ علمه الحربي والتشريعي دون كونه خطيباً مقتضب البلاغة متأجّج البيان، وميكلانجلو - تلك العبقرية الكونية حقّاً -

الذي تفوّق في المسائل العلمية واللغوية تفوّقه في الشعر والنحت والرسم والهندسة المعمارية. وهذا كميل فلاماريون(٥)، أعظم علماء الفلك من الفرنسيس في هذا العصر، دوّن جميع كتبه الخالدة في درس علم الهيئة وحركات الكواكب وتنقيب أسرار السماء بأبدع أسلوب شعري يطمح إليه كبار الشعراء.

وفي هذه الأسماء ما يسكت بعض المتحذلقين من النقّاد في تخبّطهم إذ يتكلّمون عن العلم والخيال. فالعبقرية الإنسانية أوعب من أن تستوعب. وإنْ هي نشطت من الناحية الواحدة فلا يتحتّم جمودها من الناحية الأخرى. بل كثيراً ما يتحرّك الفكر من جوانب شتّى في آن واحد فتتآلف حركاته وتتعاون جميعاً للانطلاق إلى غاية فردة ترفع الحجاب عمّا غمض، وتنيل البشر ثروة جديدة، وتجيء صلة لاحقة لسابق الصلات بين الخالق والمخلوق فتزيد معرفته به وترهف من رغبته في الوصول إلى كنهه.

* * *

إذ ذاك يتجرّد العالم والمخترع والعبقري والمحسن من جنسيته ووطنه ليصبح ابن كل وطنية وكل جنسية.

وعلى هذا كان حقّاً وواجباً أنْ يعقد احتفال لذكر «فولتا» في مصر، وأن يشترك في ذلك الاحتفال الوزير والعالم، والكبير والصغير من أبناء مصر. مصر أمّ المدنيّات المعروفة كلّها بما أورثته للعالم من نفائس الذخائر في الهندسة والنحت وعلوم الكيمياء والرياضة والفلك والتشريع وفي العلوم الباطنية والإلهية إذ باحتفائها بابن هذه الإنسانية العظيم إنّما تحتفي بماضيها السحيق المجيد وتجاهر بوثوبها الجديد لتكون في غدها كما كانت في أمسها، شخصية ممتازة نافعة في التاريخ المتعاقب الدائم.

بهذه الكليمات نحيي ذكرى فولتا، تمهيداً للاحتفال الذي يقام له في هذا المساء في دار الأوبرا الملكية.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٣، ع ١٥٤٨٢، ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٧، ص ١ .

(١) Alessandro Volta (١٧٤٥ - ١٨٢٧)، فيزيائي إيطالي، مكتشف ذرّات الضغط الكهربائي المدعوّة باسمه.

(٢) Jules Verne (١٨٢٨ - ١٩٠٥)، كاتب فرنسي، تعدّ رواياته الخيالية شبه العلمية من أكثر الأعمال المترجمة عن الأدب الفرنسي.

(٣) Blaise Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢)، الفيلسوف والرياضي والفيزيائي الفرنسي المعروف.

(٤) Herbert George Wells (١٨٦٦ - ١٩٤٦)، مؤلّف إنجليزي، ذاد عن الأفكار التقدّميّة والاشتراكية في رواياته الخيالية العلمية. من بين أعماله الأكثر شيوعاً *The War of the Worlds* (حرب العوالم) الصادر عام ١٨٩٨ .

(٥) Camille Nicolas Flammarion (١٨٤٢ - ١٩٢٥)، فلكي فرنسي. ساهم بوفرة محاضراته وكتبه العلمية المبسّطة في ترويج المعارف الفلكية. أنشأ الجمعية الفلكية الفرنسية في باريس عام ١٨٨٧ .

ما هي الوطنية؟

بقلم النابغة «ميّ»

أيّها السادة والسيّدات،

يقولون إنَّ خير الموضوعات ما نبّه في المرء قوى العقل والقلب والنشاط والعمل. والوطن وحبّ الوطن في مقدّمة هذه الموضوعات، وأوفرها استيعاباً لمعاني النفس والجسد، وأقواها سيطرة على حياتنا الفردية والاجتماعية. ولكل هنا ذكرى خاصّة تتعلّق بيقظته الوطنية إذ أنشأ يفهم معنى الوطن فشعر بتلك العاطفة الحارّة تتأجّج في جوانحه وأدرك أنّه بمساعيه وجهوده ذو عائدة على قومه وبلاده. ويشوقكم بلا ريب أن تتذاكروا في ذلك الأثر الصميم فتعينوا فيما بينكم تلك اليقظة الحيوية الجميلة. أمّا أنا فاسمحوا لي أن أذكر في مطلع هذه المحادثة كيف وقفت على التعريف الأول للوطن وحبّ الوطن.

كان ذلك في كتاب قرأته في أواخر الحرب الكبرى وهو رواية تمثيلية في تاريخ الإغريق تتناول نكبة أُوديب الملك.

كان لأوديب قريب يدعى كرِيُون وقد اختارته الآلهة ليتولّى الملك بعده. وتذكرون أنّ الرعاة عند الأقدمين كانوا في آن واحد رعاة وعرّافين ورسلًا توفدهم الآلهة إلى بني البشر. فمضى راع إلى كريون وأبلغه الأمر في تولّي الملك، على أن يضحّي بولده الوحيد ذبيحة إلى الآلهة، وتوسّلًا إلى إطفاء غضبها واستجلاب رضاها، وإنْ لم يفعل هاجم العدوّ وطنه طيبة – ومعلوم أنّ طيبة الإغريقية أو ثيبا هي غير طيبة المصرية التي نعرفها اليوم باسم الأقصر – ودحر جيوشها، ونقضها حجراً على حجر. فصُعق الوالد لهذا النبأ ولم يتردّد في الجواب فقال: «فلتتهدّم طيبة وليبقَ ولدي حيّاً!».

وكان الفتى مِنِسِيه[1] قد سمع ما دار بين والده والراعي فعلم أنَّ الآلهة اختارته ليكفّر بدمه الطاهر عن آثام الملك أوديب. وإذ استدعاه والده، وأعطاه مالًا جزيلًا

ضارعاً إليه في حزن ولهفة أن يغادر المدينة في الحال، ويبتعد عن تخومها قبل غروب الشمس وهو الموعد الذي ضربته الآلهة - ظلّ الفتى يحدّق في والده صامتاً بلا حراك، ثمّ فاجأه بهذا السؤال: - «أبتِ، ما هو الوطن؟».

وكريون الوالد البارّ كان كذلك وطنياً صميماً، فأطرق كئيباً، ثمّ أجاب متباطئاً وكأنّ الألفاظ تتقاطر من صفوة حياته إذ هو يزداد تقديراً لهذا الوطن الذي يقضي هو عليه فداءً لولده، فقال:

«الوطن؟ هو الأرض التي ولدنا فيها. هو الأرض التي لعبنا فيها أطفالاً وجاهدنا رجالاً. هو المرج الفسيح الذي يملأ الأهراء قمحاً. هو الجبال والأودية المتوهّجة نوراً وسنىً عند شروق الشمس، وهو شفق الغروب الذي طالما جلس في ظلّه الآباء والأمّهات، وهم بعد في أثواب العرس يتبادلون همسات المحبّة ويتوقّعون مجيئنا، نحن أبناء الأجيال المقبلة. الوطن؟ هو هذا الأفق الواسع... هو المدفن الرحيم الذي يتلقّى الراحلين بعد العناء والتعب، فينام كل منهم ليستريح قرب الذين سبقوه. هو الهيكل الذي نحتشد فيه للعبادة والاسترحام. هو الأمّ الغنيّة الخصبة التي أخرجتنا جميعاً إلى الوجود. هو مستودع المجد العظمة والسجلّ الذي خلّدت فيه مآثر الجدود. هو الأساطير اللذيذة التي تُسرد على الأطفال في المهود، وهو دين الماضي الجليل ورجاء المستقبل الأبيّ. هو الكلمة السامية، والعطف الربّاني، والاسم الذي يملأ القلب بخفوق الهيام ويهيّج فيه جنون الاستبسال. هو الصوت الداوي عند الخطر دويّ العواصف والصواعق فيهبّ الألوف كرجل واحد في وجه العدوّ المهاجم. الوطن؟ هو طيبة التي أنوح الساعة عليها، أنا الرجل الذي جفّت الدموع في عينيه. هو طيبة هذه التي لن يطأها العدوّ وأنا حيّ. هو طيبة التي أحبّها فوق كل شيء ولكن... دون حبّي لولدي!».

فقال منسيه: «إذا كان الوطن كل ذلك، يا أبي، وحكمت الآلهة على أحد أبنائه بالموت في سبيله، فأبى، فأيّ النعوت ترى تجوز عليه؟».

وبعد مناقشة طويلة يتغلّب فيها حبّ الأب فيقنع ولده بالهرب، ويتألّم الولد ليأس أبيه فيذعن موصياً بحبيبته ثمّ يستأذن في الخروج إلى الشرفة ليتزوّد من وطنه المحبوب بالنظرة الأخيرة، وهناك يجيل الفتى الطرف في ما يحيط به ويهتف:

«يا أرض الكَدْمِيين[٢]، يا بقعة اختارتها الآلهة، إنّ ولدك يحيّيك للمرّة الأخيرة، فوداعاً! ووداعاً، يا أبتِ، وعفواً! إنّي أموت لأفتدي وطني!». قال هذا وألقى بنفسه من على الشرفة بقصد الانتحار.

* * *

لسنا في مجال المقابلة والتفضيل بين عواطف الأبوّة والوطنية، وإن كان هذا الموضوع خطيراً لمن شاء أن يعالجه. وكل ما نبتغيه من هذا الحديث هو التعريف الموجز للوطن وحبّ الوطن، تعريف نقرأه الآن مسطوراً في كتب الأقدمين فيذكّرنا بالأمس القريب الذي أيقظنا جميعاً فشهدنا الوطنية حيّة نابضة بين أبناء مصر وبناتها وعشنا حقبة من الدهر مفعمة بآيات البطولة والتفجّع والاستبسال! وكم، يا مصر، من «منسيه» بين فتيانك، مسلمين وأقباطاً، يتسابقون إلى الموت هاتفين بحياتك، فرأينا نعوشهم ملفّعة بالعلم الجميل وكانت دماؤهم الزكيّة أقوى رابطة بين العناصر المصرية!

ولكن عَلَامَ اتفق الناس منذ القدم، ولا يزالون متفقين، على إكبار التضحية في سبيل الوطن، بل على فرضها وتحتيمها عند الحاجة، كما تواطئوا[٣] على نعت الهارب منها بالجبان والجاحد والخائن؟ علام هذا الإجماع الغريب عند جميع الشعوب على تكريم المفادي وتحقير غير المفادي؟ وما هو هذا الحبّ الوطني ومن أيّ العناصر هو يتغذّى ليبذل في سبيله كل حبّ وتُهرق الدماء لأجله بلا حساب؟

قد يجيب عن هذه الأسئلة الشاعر والعالم الاجتماعي والسياسي والمؤرّخ والشارع، قد يجيب عنها القائمون على ذروة الاجتماع والمنسحقون تحت وطأة الاجتماع فيكون كل محقّاً في بابه. لأنَّ الوطنية عريقة في طبيعة الكون، وطبيعة المجتمع وطبيعة الفرد على السواء، وفيها يتلاقى الخيال الشعري، والفكر السامي، والحقيقة التاريخية، والكرامة السياسية. وعندي أنَّ أقرب المرادفات للوطنية كلمة معرفة الجميل ومقابلة الإحسان بمثله. لأنّ الوطن هو المنهل الذي لا يفتأ يُدرّ علينا الهبات وهو بعد الله المحسن الأكبر.

* * *

عندما نكون في بلاد بعيدة ونفكّر في وطننا فأول ما نستحضر منه هيئته العامّة ومناظره الطبيعية من جبال ومروج وأنهار وأشجار. لأنّ وطننا المحسوس يقدّم لنا من موارده الطبيعية ما يفي بحاجاتنا الجسدية، فهو القسط الأول من الدين الحيوي الكبير، وبفضله نكون على اتصال بالأقطار الأخرى وذوي مكان معروف تحت الشمس.

ثمّ تبدو تفاصيله الأخرى قليلًا قليلًا من شوارع وسبل وميادين وصروح ومعاهد وآثار، تطفو عليها جميعاً صورة تلك البقعة - قصراً كانت أو كوخاً، حديقة أو صومعة - التي عرفنا فيها الفرح والترح واليأس والرجاء، البقعة التي توجّعنا فيها وبكينا فمضينا بالألم إلى أقصى معاني الحياة. ثمّ نبصر وجهي أبوينا اللذين كانا الحلقة الواصلة بيننا وبين الأحياء، ووجوه المعارف والأصدقاء والأحباب الذين بعطفهم وعذوبتهم حبّبوا إلينا الحياة وأشعرونا بأنّنا من أبنائها المختارين. ثمّ نسمع الأصوات المألوفة تتكلّم باللغة العزيزة التي اعتادها الجدود، بل ونسمع تلك الأغاني القديمة القديمة التي امتزجت بعواطف الأجيال فأضحت عندنا أبلغ بيان لما يهتاجنا من اشتياق وتحنان.

وتبدو أشياء أخرى، وأخرى، من عمل الإنسان في الطبيعة عملًا يتمثّل فيه جهاد الماضي المتصل بجهاد الحاضر. وكل ذلك متاع جاءنا من الآخرين. وجدناه تحت تصرّفنا وليس لنا من يد في إعداده. كل ذلك أقساط منوّعة من الدين الحيوي الطويل!

منذ زمن بعيد قال أرسطو «الإنسان حيوان سياسي»، أي أنّه يحتاج إلى رابطة تربطه بجماعة منظّمة إذ يتعذّر عليه أن يعيش وحده ولا يستطيع بمفرده أن يكفي نفسه حاجتها. فهو من شتّى النواحي ثمرة الوطن الذي يعيش فيه ويقدّم له ليس غذاء الجسد فقط بل قوت العقل والنفس أيضاً، وذلك بعاداته وقوانينه وأنظمته، بمدارسه ومعاهده وآثاره، بلغته وتاريخه وكتبه، بملايين أبنائه العاملين، بفنونه وعبقريته وحضارته التي تخلق للفرد طرازاً خاصّاً وتنيله طابعاً يتّسم به. بل يمكن القول إنّ الفرد لا يكون «حرّاً» خارجاً عن جماعة تضمن حقوقه بهيئاتها المنظّمة المختلفة الساهرة على راحته وسلامته.

وعلى ذلك، أنّى توجّه فكر الفرد وجد أمامه إحسان الوطن. والحياة، أيّها السادة والسيّدات، تقوم على التبادل فكل هبة يجب أن تقابل بهبة ولو من غير نوعها، وعلى قدر الدين يكون الوفاء والتسديد. ومعرفة الجميل تجمع بين الشعور بالعدل القاضي

بوفاء الدين، وفريضة التضامن التي تمكّننا من وفاء ذلك الدين. التضامن مع من؟ أمع الأحياء المعاصرين؟ نعم، معهم أولاً ثمّ مع الموتى الذين جاهدوا قبلنا لإخراج ما ننعم به. فإذا نحن منذ الولادة، وبالولادة نفسها، مرتبطون بمعاهدة صامتة تفرض علينا الاحتفاظ بما ورثناه من الحسنات وإنماء ذلك الإرث بما أوتينا من الممكنات وفقاً لمطالب العصر، ورقيّ العالم، لنؤدّي الوديعة إلى الخلف خيراً مما تلقّيناها من السلف، عندئذ يتسنّى للأجيال التالية أن تقوم بما يوافقها من الإصلاح والتجديد. وإذ نعيد النظر على هذه الاعتبارات نرى الوطنية ليست محض خيال مجنّح وحماسة أريحية بل نراها عاطفة يشترك في تقريرها العقل والقلب والقانون الأخلاقي، فهي عاطفة منطقية تامّة التكوين تتسلّح بمبدأين جليلين، مبدأي العدل والواجب.

* * *

أيّها السادة والسيّدات،

في التعريف البديع الذي سمعناه من كريون للوطن وحبّ الوطن آراء كانت حسنة في وقتها ولكنّها الآن تستدعي المناقشة والتبديل. ولا يتّسع المجال لذلك في هذا المساء فنكتفي بقوله «الوطن هو الأرض التي ولدنا فيها». هذا قول ينطبق على الوطن القديم. ما هو الوطن عند القبائل العربية؟ هو البقعة من الأرض التي ضربت فيها القبيلة خيامها. وكان عند الإغريق قاصراً على القرية أو المدينة (La Cité) الواحدة التي كانت دولة مستقلّة ذات حكومة مركزية وأنظمة خاصّة تختلف عن أنظمة غيرها من المدن أو القرى. ومن ثمّ تعدُّد الملوك عندهم إذ كانوا يسمّون كل زعيم ملكاً. ومن ثمّ تعدُّد الأمراء عند العرب حيث نرى كبير كل قبيلة أميراً عليها. وكذلك كان نظام المدن عند الرومان في بادئ الأمر، إذ كان كل غريب في نظرهم عدوّاً فيطلقون عليه اسم (Hostis) وهو يعني الغريب كما يعني العدوّ. وكان قانون المدينة الرومانية لا يسري إلّا على أبناء روما، وللمارّين فيها من البلاد الأخرى قانون آخر خاصّ بالغرباء. ولم يتغيّر الأمر إلّا في عهد الإمبراطور كاراكالا الذي أنال جميع المدن الإمبراطورية حقوق المدنية الرومانية[٤]. ولعلّ هذا منشأ العادة الباقية إلى أيامنا فإذا شاء قوم إكرام غريب عزيز قدّموا له مفاتيح مدينتهم وعدّوه من أبنائها.

والحالة هذه، فقد كان معقولاً في الماضي أن يولد كل في قريته، أو بلدته، أو قبيلته لأنّ المواصلات كانت عسيرة ولم يكونوا يتنقّلون من مكان إلى مكان إلّا نادراً. غير أنّ معنى الوطن ظلّ في تطوّر مستمرّ، لا سيّما بعد القرون الوسطى في عهد النهضة الأوربية الكبرى. وكان اكتشاف القارّة الأمريكية منشّطاً للاختراعات، مزكّياً للعبقرية العملية، ومهيّجاً في الشعوب القويّة شهوة التوسّع والاستعمار. فتعدّدت الاختراعات، وتيسّرت المواصلات وقرّبت البواخر والقطارات والطيارات وما نحوها بين شاسع الأمصار، وتنوّعت المصالح الفردية والدولية والتجارية والأدبية وتمّ الاحتكاك والاختلاط بين مختلف الأجناس والشعوب فصار من الأمور العادية الآن أن يولد المرء في غير وطنه ويعيش في غير بلاده. والتعريف العصري للوطن هو تعريف القاموس القائل «الوطن هو منزل إقامة الإنسان ومقرّه ولد به أم لم يولد». أسلّم بنقص هذا التعريف ولكنّه خير من تعريف كريون.

ويظهر أنّ الإيرلندي الظريف من رأي القاموس، والإيرلنديون بين شعوب الغرب كالمصريين بين شعوب الشرق، معروفون بخفّة الروح، وسرعة الخاطر، وملاحة النكتة، كان الإيرلندي يستمع لصاحبه الفرنسي يثبت له أنّ أحد عظماء إيرلندا فرنسي لأنّه مولود في أرض فرنسية. فقال الإيرلندي: كيف لا، والقطّة إذا وضعت صغارها في الفرن كان اسم الصغار «بسكويتاً» – ومغزاه أنّ المرء قد يكون ابن وطن لم يولد فيه، وقد يولد في بلد فلا يكون من أبنائه. والبتّ في ذلك للمعاهدات الدولية والأنظمة السياسية. وكثيراً ما يكون البتّ فيه رهن ميل الفرد ورغبته الخاصّة إذا هو نال في أحد البلدان خيراً وبذل جهوده في سبيل وطن دون آخر.

وعلى كل، فإنّ تطوّر العالم وانتشار الحضارة واشتباك المصالح يُحدث الآن تبدُّلاً في المراتب الاجتماعية واختلاطاً بين مختلف الأمم فصرنا نتفاهم والغرباء ونتبادل وإيّاهم العلوم والمنافع والأفكار والعواطف. وإذا عطف الغريب علينا فهو القريب والصديق والمحسن، نكرمه لأنّه لم يتحصّن في أنانيته الوطنية بل فهم أنّنا إخوانه نعمل من ناحيتنا لخير الإنسانية وتقدُّم العقل البشري. تلك هي مكانة لوتي(٥) في تركيا التي أحاطت ذكره بآي الحمد والتبجيل ورفعته إلى مصافّ أبنائها الخالدين لأنّه أحبّها وأعرب عن ذلك الحبّ في مؤلّفاته إعراباً جميلاً.

كذلك أكرمت مصر الغرباء من العلماء والعاملين الذين أخذوا بيدها، وأبانوا لها جانباً من عظمتها، وعملوا في دائرة اختصاصهم للاعتراف بكرامتها وإذاعة مجدها بين الشعوب. وإذا شئتم ولو دليلًا واحداً على شكر مصر الكريمة فامضوا إلى ذلك المدفن الهادئ الجميل قرب دار الآثار المصرية. فهناك في ظلّ الغصون يقوم تمثال جليل وقد كتب على قاعدته: «إلى ماريت باشا[٦]، من مصر الشكورة».

وإذا شئتم دليلًا آخر فهاكم السدّة الملكية. لقد أحسن محمد علي لمصر فولّته عليها وأيّدت ذرّيته على عرش الفراعنة الفخام.

* * *

سبق القول إنّ فكرة الوطن تطوّرت على ممرّ الدهور. وكذلك تطوّرت عاطفة الوطنية بما دخل عليها من جديد العوامل. فالوطنية المستنيرة التي نعرفها اليوم هي بنت العصور الحديثة وبنت القرن التاسع عشر خصوصاً. كان الماضي يهتمّ بمصلحة الجماعة دون الأفراد، وكان العبيد والأرقّاء وجماهير المراتب المرذولة يجهلون أنّهم ذوو شخصية حرّة، وإرادة متخيّرة، وكرامة إنسانية، فلا يطمع الواحد منهم في غير الخضوع لسيّده ومولاه. ولا عجب إن نحن سمعنا فولتير يقول إنّ في كل وطن واسع عظيم هناك ملايين من أبنائه يستظلّون سماءه ولا وطن لهم.

تكلّم فولتير وتكلّم معه روسو ودالمبير وديدرو وغيرهم من الأنسيكلوبيديين[٧] فكانوا معاونين على التمهيد للثورة الفرنسية التي كان لها المجد الخالد في إعلان حقوق الإنسان وإفهام الأفراد أنّهم متساوون في الحقوق تساويهم في الواجبات وأنّهم جميعاً ولدوا أحراراً كراماً.

ولو قلّبنا تواريخ الدول لوجدنا لكل دولة صفحة مجيدة في تحرير النوع الإنساني. وكل أمّة تنادي بالحرّية والاستقلال، وتسعى لنشر النور والعرفان، إنّما هي فاعلة ليس لنفسها فقط بل لجميع بني الإنسان.

كلّنا يعلم أنّ الحالة الجديدة في العالم خلقت آلاماً جديدة، كلّنا يرى النقص في كثير من القوانين والأنظمة ويعترف بأنّ النظريات الجميلة لم تتحقّق بعد. هذا صحيح،

ولكنّنا نشعر بالتحسين والإصلاح في شؤون شتّى، ونعلم أنّ رقيّ العالم مقيّد بقوانين طبيعية لا تفلُت منها. نشعر بأنّنا سائرون إلى الأمام وأنّ الأمم الصغيرة كالكبيرة عاملة على تعزيز شخصياتها القومية، وتثقيف مواهبها الطبيعية والسعي حرّة لخيرها وخير الإنسانية.

هذا موقفنا من الوطنية الحاضرة. ولقد وصلتُ إلى هنا وأنا شاعرة بضآلة ما أقول حيال جلال الموضوع. ونثرت أمامكم آراء ألفها كل منكم. وهل بيننا من لا يفكّر في هذا الموضوع القديم الجديد، وشعار مصر منذ أعوام، ورائدها في أعمالها هو الوطن والوطنية؟

أيّها السادة والسيّدات،

أيّ يأس في العالم يوازي يأس الذي يحيا لغير ما غاية؟ أيّ ألم أمضى من ألم الذي يجاهد ويخلق ويأتي بالصالحات، فلا يجد حوله من يقول «أحسنت وأفدت!»؟ أيّ مرارة أمرّ من المحبّة التي لا تقابلها محبّة، والحياة التي لا يلبّي نداءَها نداءُ الحياة؟

هذه الأوجاع لا يعرفها الوطني العامل في وطن ناهض. قد ينال أقلّ من استحقاقه، وقد يكون نجاحه دون ما يتمنّى. بل قد يلقى المعاكسات والصعاب قائمة في سبيله ولكنّه يجاهد لغرض محسوس، ويجري نحو غاية معيّنة، وبينا هو يشتغل لنفسه في دائرة شؤونه الخاصّة أو العامّة، إذا به يرى ذاته قوّة تامّة في قوّة الأمّة الكبرى ويرى نتائج أعماله مفيدة مثمرة.

إنّ العالم يعمد اليوم إلى تقسيم الأدوار بين الأمم شأنه في توزيع العمل على الأفراد، فتتعرّف كل أمة حاجاتها وممكناتها، وتأتي بنتاجها الخاصّ في ثروة العمران، وتؤدّي «رسالتها» تامّة إلى بني الإنسان. فهذه أمّة تتفوّق في الفنون، وتلك في الصناعة، وغيرها في التجارة، أو التشريع، أو العلم، أو الأدب، أو الابتكار. وقد عرفنا رسالة مصر الغابرة إلى العالم، تلك الرسالة الغنيّة الجليلة التي تُعدّ أمّ الرسالات وتجعل الحضارة المصرية أمّ الحضارات. فما هي رسالة مصر الحديثة يا ترى؟ أتعرفونها؟ أتفكّرون فيها؟

لقد كتبتم عنوان تلك الرسالة بنهضة أحيائكم ونعوش موتاكم، ومن أظهر حروف العنوان نعوش الزعماء: مصطفى، فريد، سعد(٨)، يضاف إليهم أمين الرافعي(٩). فهلّا باشرتم تدوين الرسالة ذات المعنى الخاصّ في تاريخ الإنسانية العظيم؟

قد يطلب الوطن من أبنائه الموت في سبيله فيموتون فخورين، ولكنّ الوطنية تقوم خصوصاً بالحياة الطيّبة والعمل الجدي. وما ألذّ العمل للخلود! لأنّ الوطن، الذي كان قبلنا وسيبقى بعدنا، أقرب الشؤون الإنسانية إلى معاني الخلود والأبدية!

إنّ الاهتداء إلى «رسالة» مصر الحديثة منوط بكم أنتم أحياء اليوم وأبناء الجيل الجديد فهيّا إلى إنماء الشخصيات وتعرُّف الممكنات! هيّا إلى تدبيج رسالة مصر الحديثة في سجلّ التاريخ الخالد!

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٥٣٩، ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٢٨، ص ١ . لم تُشر الصحيفة إلى المناسبة التي ألقت ميّ زيادة فيها هذه الكلمة، وأغلب الظنّ أنّها إحدى محاضراتها الملقاة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة والتي كانت تُعتبر في عداد المفقودات.

(١) حسب الأسطورة الإغريقية هو Menoikeus ابن كريون، وواضح أنّ الكاتبة تعتمد الهجاء الفرنسي لاسمه Ménécée .

(٢) نسبةً لكَدْمِيا وهي اسم القلعة التي بناها كَدْمُوس الفينيقي منشئ مدينة طيبة في اليونان.

(٣) كذا في الأصل، وصوابها «تواطأوا».

(٤) Caracalla (١٨٦ – ٢١٧)، الإمبراطور الروماني منذ ٢١١ . أصدر عام ٢١٢ «القانون الأنطونيني» (Constitutio Antoniana) الذي منح الحقوق المدنية الرومانية لجميع رعايا الإمبراطورية الأحرار، وقد توسّعت بذلك منطقة نفوذ القانون الروماني لتشمل كل الإمبراطورية.

(٥) Pierre Loti (١٨٥٠ – ١٩٢٣)، كاتب فرنسي. كان ضابطاً في البحرية وجاب أغلب البحار. وصف في رواياته وقصصه وكتب رحلاته على وجه الخصوص الشرقين الأوسط والأقصى وأظهر فيها شغفه بالحضارات الغابرة، وموقفه التشكّكي إزاء التقدّم التقني، وخشيته من الموت. أصبح عام ١٨٩١ عضواً في الأكاديمية الفرنسية. انظر أيضاً مقالة ميّ زيادة «لوتي الراحل الباقي: هل تحسن ترجمة كتبه؟» في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٤٣٣ – ٤٣٨ .

(٦) Auguste Mariette (١٨٢١ – ١٨٨١)، فرنسي متخصّص بالآثار المصرية. قام ابتداءً من ١٨٥٠ بحفريات هامّة في سقّارة حيث توصّل إلى اكتشاف العديد من المقابر التابعة للدولة القديمة. وضع عام

١٨٥٧ حجر الأساس لبناء المتحف القومي المصري. مُنح لقب باشا سنة ١٨٧٩، تقديراً لفضله على مصر.

(٧) أصدر الكاتب والفيلسوف الفرنسي Denis Diderot (١٧١٣ - ١٧٨٤) في الفترة ما بين ١٧٥١ - ١٧٨٠ بالتعاون مع عالم الرياضيات والأديب والفيلسوف Jean Le Rond d'Alembert (١٧١٧ - ١٧٨٣) دائرة المعارف الفرنسية *Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers* في ٣٣ مجلّداً، ومن أبرز محرّريها الذين عُرفوا بالأنسيكلوبديين وناهز عددهم المئتين الفلاسفة الثلاثة: Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) و Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) و Charles de Secondat Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥).

(٨) المقصود هو كل من مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ - ١٩٠٨)، مؤسّس الحزب الوطني عام ١٩٠٧، ومحمد فريد (١٨٦٨ - ١٩١٩) الذي أعقب مصطفى كامل في رئاسة الحزب الوطني سنة ١٩٠٨، وسعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧)، مؤسّس حزب الوفد وزعيم ثورة ١٩١٩ .

(٩) أمين الرافعي (١٨٨٦ - ١٩٢٧)، صحفي وكاتب سياسي مصري. انضمّ إلى الحزب الوطني في عهد مصطفى كامل، وأصبح أحد أبرز الناطقين بلسان حركة الاستقلال من خلال مقالاته في الصحف الحزبية، ثمّ في صحيفة «الأخبار» اليومية التي تملّكها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى. كان من أقوى أنصار الوفديين حتى حدث به خلافاته مع سعد زغلول إلى الابتعاد عن الحزب. انظر أيضاً مقال ميّ زيادة «في سبيل المرأة: احتفال طلبة الحزب الوطني بتأبين أمين بك الرافعي»، الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٥٤٧، ٥ شباط/فبراير ١٩٢٨، ص ١ [١٨]، في الصفحات التالية من هذه المجموعة.

احتفال طلبة الحزب الوطني
بتأبين أمين بك الرافعي

لست أبغي إبداء ملاحظاتي بالتفصيل على هذه الحفلة الفخمة. حسبي أن أقول إجمالاً إنّ الطلبة الذين عنوا بإقامتها أعربوا عن ذكاء متيقّظ، وهمّة ناهضة، وعرفان للجميل وتقدير للعاملين.

وإنْ صحّ الإلماع إلى رأيين متعارضين صدرا عن اثنين من كبار الخطباء فكانا (فضلًا عن كل ما قيل في الثناء على الفقيد الكبير وفضلًا عن كل ما روجع من مبادئ الحزب الوطني) أهمّ ما ورد في الحفلة من الآراء، قلتُ إنّ صاحبي ذينك الرأيين هما الأستاذ محمد زكي علي بك، سكرتير الحزب الوطني، والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش بك[١].

أمّا سكرتير الحزب الوطني فقد حبّذ اشتغال الطلبة بالسياسة الوطنية وجزم في فرض ذلك عليهم. وأمّا الشيخ جاويش فقال ما مفاده انّ أول الواجبات الوطنية على الطالب هو التفرّغ لدروسه وتحصيل ما تيسّر تحصيله من العلم، لأنّ على نجاحه الفردي يتوقّف نجاح المجموع وتقدّم الوطن.

سبق أنّ الرأيين متعارضان، ولكنّهما كذلك لأول وهلة فقط. وفي الواقع أنّ كلّا منهما متمّم للآخر.

فإذا كان طبيعياً ومعقولاً أن يميل الشبّان منذ عهد الدراسة إلى الحماسة الوطنية والنزعة الحزبية معتنقين من هذا الحزب أو ذاك المبادئ المتوافقة وميولهم الشخصية (وهذا هو رأي الأستاذ زكي علي بك)، فمن الطبيعي والمعقول كذلك أن لا يتداخلوا في كل كبيرة وصغيرة مما تعنى به لجنة الحزب العاملة، وأن يكون شغلهم الشاغل في

عهد التلمذة تحصيل العلم وطلب الفائدة. إذ في كل ما يحصّلونه من المعلومات، وفي كل شعاع ينيرون به عقولهم، وكل نظام يدرِّبون عليه إرادتهم، إنّما هم عاملون لتقدُّم الوطن وإعلاء شأنه (وهذا هو رأي الأستاذ الشيخ جاويش).

ومن هذين الرأيين المتعارضين لأول وهلة، يتكوّن رأي واحد وجيه حصيف لا شكّ أنّه رأي جميع رجال مصر، ولا شكّ أنّه الرأي الذي يجب أن يأخذ به جميع فتيان مصر. فإنّ حبّهم لوطنهم يتوقّف خصوصاً على إتقان عملهم اليومي. وهو في عهد الدراسة قائم على تحصيل العلم وتثقيف الملكات. وذلك لا يمنعهم عن رفع صوتهم ولكن في المواقف الخطيرة فقط. وإذا هم ادّخروا حماسهم للساعة العصيبة، دون أن يبدّدوا قواهم جزافاً كل يوم وكل ساعة، جعلوا لبياناتهم (النادرة) الأهمّية والإحكام اللذين يجب أن تتّسم بهما.

* * *

أُبدي هذه الملاحظة عرضاً نسبة لخطورتها، وأهمّ ما يهمّني من نزعات الأحزاب المصرية أنّها جميعاً متيقّظة تنشد التقدُّم، جميعاً تمجِّد اسم الوطن المجيد، وتقدّس القومية الخالصة دون تمييز بين عنصر وعنصر، جميعاً تريد لمصر السير في موكب الحضارة وتأبى لها ولبنيها التقهقر والخمول والانزواء. فهم جميعاً في الشمم والأريحية سواء لأنّهم في صميم الموضوع قلب واحد، وروح واحد، وقد قدّموا إلى العالم العربي في هذا أعلى مثال يحتذى.

غير أنّ ما أبتغيه اليوم هو أن أسجّل للحزب الوطني فضلاً مبيناً. لأنّه (وهو الذي يقال عنه بأنّه أشدّ الأحزاب «محافظة وتعصّباً») فكّر في السيّدات، شأن غيره من الأحزاب، وأفرد لهنّ مكاناً وجيهاً إلى يمين المنبر، يقابل المكان المخصّص لأركان الحزب وكبار المدعوين. وهذا فضل لا يجوز إغفاله لأنّه خطوة فاصلة بين ما نحن فيه اليوم ويوم لم يكن للمرأة حساب ولا مكان.

وعلاوة على ذلك، فإنّ أكثر الخطباء وجّهوا كلمة العطف والعزاء إلى حرم الفقيد التي كانت في مقدّمة الحاضرات وفي المكان الأول – وا أسفاه! – الذي يعيّنه لها حزنها في مثل هذا الاحتفال.

فتوجّه إليها الخطباء بالكلمات المؤثّرة الصادرة عن قلوب فتيّة حارّة. وتلك الكلمات التي كانت تستدرّ العبرات، لا ريب أنّها كانت كالبلسم الملطّف لقلبها المفجوع. أجل، لقد فقد الحزب الوطني ركناً من أركانه، ودفنت مصر ابناً من أبرّ أبنائها، وخسرت الصحافة المصرية عضواً من أخلص أعضائها وأحرصهم على كرامتها، ولكنّ زوجة أمين الرافعي فقدت فيه سندها وعضدها وعماد بيتها وعنوان حياتها.

* * *

والآن بعد تسجيل الفضل جاء دور العتاب.

ذكرت أنّ أكثر الخطباء وجّهوا كلمات العزاء إلى حرم الفقيد الكبير، إلّا الأستاذ سكرتير الحزب الوطني والشيخ عبد العزيز جاويش، فإنّي لم أسمع منهما شيئاً من ذلك، مع أنّ المنتظر ألّا يضنّا بمثل تلك التعزية العلنية الرفيقة.

صحيح أنّ كلّا منهما كان مرتجلًا فتكلّم عفو الخاطر. ولكن كيف يسعهما أنْ يقلّبا صفحات من تاريخ الراحل الكريم فلا تلتقي أفكارهما حتى بخيال المرأة التي كان وجودها محسوساً في حياة الصديق الذي يبكيان؟

أم هما قاما بحسن العزاء ولكنّ صوتهما لم يصل لي نظراً لاتساع المكان؟

أم أنّ الخطيبين الكبيرين ادّخرا تلك الكلمة لحين آخر فيزفّانها في صيغة أتمّ وأوفى؟

أرجو أن يكون ذلك، (...)(٢) على يقين من أنّ رجال مصر على اختلاف النزعات والأحزاب كما أنّهم مجمعون على محبّة مصر، فهم مجمعون على تقدير الكرامة النسائية، يؤدّون إلى المرأة ما هي خليقة به من العناية والاحترام، ولا يبخسونها حقّاً من حقوقها الأدبية - وهي خير الحقوق.

* * *

عفواً، أيّها السادة الرجال، عفواً عن جرأتي هذه. أفلا تظنّون أنّ المرأة المفجوعة والوطن في شخص واحد تستحقّ كالوطن كلمات العزاء؟

إنّي واثقة بروح الإنصاف فيكم. ولا شكّ عندي أنّكم عندما تلقون النظر على كلمتي هذه فالكلمة التي تهمسون بها بينكم وبين نفوسكم هي التالية:

«صدقت، والله!».

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٥٤٧، ٥ شباط/فبراير ١٩٢٨، ص ١ .

(١) عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩)، تربوي وصحفي تونسي الأصل، ولد في الإسكندرية. تخرّج في الأزهر ودار العلوم وأنهى دراسته في إنكلترا. عيّن عام ١٩٠١ مفتّشاً في وزارة المعارف المصرية، ثمّ دعي لتدريس اللغة العربية في جامعة أكسفورد. تولّى عام ١٩٠٨ رئاسة تحرير صحيفة الحزب الوطني «اللواء». إضطرّ عام ١٩١٢ إلى مغادرة مصر والهجرة إلى الآستانة حيث أصدر مجلّة «الهداية» وجريدة «الهلال العثماني». وبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى سافر إلى ألمانيا، وكان معه من زعماء الحزب الوطني محمّد فريد وعبد الحميد سعيد، فأنشأ في برلين مكتباً للدعاية للقضية المصرية ومجلّة إسلامية صادرة باللغتين الألمانية والعربية. ترك ألمانيا عام ١٩٢٢ إلى تركيا حيث تولّى رئاسة لجنة الشؤون الإسلامية في أنقرة، لكنّه اختلف مع مصطفى أتاتورك فعاد إلى مصر بعد عام، ثمّ أُسندت إليه وظيفة مدير التعليم الأولي في وزارة المعارف عام ١٩٢٥ . شارك في إنشاء جمعية الشبّان المسلمين عام ١٩٢٧ .

(٢) كلمة شبه مطموسة في الأصل، ولعلّها «وإنّي».

الشرق والغرب يتفاهمان

ليس هذا العنوان مرسلًا في غير وقته وسط هذه المعمعة النفسية وهذا الاضطراب العامّ. بل على النقيض، إنّما كلمة السلام والوئام يجب أن تقال عند قلق الخواطر وهيجان النفوس.

ومن هذا القبيل كانت مأدبة الصحفيين محكمة بالأمس كل الإحكام لأنّها دلّت على أنّ العقول اتّسعت وتثقّفت حتى صارت تدرك الفرق الفاصل بين الشؤون السياسية والأدبية. وفي حين يعالج أقطاب السياسة في إنجلترا ومصر عقدة العقد من مصلحة البلدين، ترى أعضاء صاحبة الجلالة الصحافة يتآخون في الاشتراك بالخبز والملح والحديث في جوّ هادئ مأنوس. ويزيد في الأهمّية المعنويّة لهذه المأدبة أنّ الداعي الأول إليها والمقترح تجديدها كل شهر هو الصحفي الإنجليزي المصري المستر مورتن.

«الشرق شرق والغرب غرب، وليس بينهما من التقاء ممكن». ليس صاحب هذا الرأي هو كبلنج[1] شاعر الأمبراطورية البريطانية وحده، غير أنّه من أعلى مرتئيه صوتاً ومن أنفذهم كلمة. وهو بعد شاعر، وحظّ الشعر في الاستظهار أيْسر من حظّ النثر، وأوقع في مواضع الاستشهاد.

ولسنا ندري أيعيد كبلنج قوله ذاك خلال زيارته المنتظرة؟ فقد أفادت التلغرافات منذ أيام أنّه أبحر من إنجلترا ووجهتُه مصر، ولم تنبئنا الصحف المصرية حتى الآن بوصوله. أتراه يتجوّل في بلاد أخرى قبل أن يهبط وادي الفراعنة، أم هو الساعة بيننا ويتعمّد التحجّب والاختفاء؟

وعلى كل فإنّ الشرق شرقٌ حقّاً والغرب حقّاً غرب. وإن كان المعنيّ بالتقائهما أن تخفَّ الأقطار الغربية بموقعها الجغرافي لتنتقل من المناطق الباردة إلى المناطق الحارّة، وأن تهرع الأقطار الشرقية من برج الفجر ومبعث الشروق لتعشّش في برج أَيْفِل أو في كنيسة وِسْتمِنستِر أو في زوايا الكابتول، فذلك لن يكون في غير الأساطير والخرافات.

أمّا إذا كان المعنيّ بهذا القول أهل الشرق وأهل الغرب، فإنّ التقاءهم متيسّر كل يوم، بل هو محتوم بعامل تبادل المصالح وتداول نعم الحياة، لا سيّما في هذا العصر الأممي، عصر المجازفات الجوّية والرحلات البحرية والأسفار المتعدّدة المنوّعة. ولَكَم من مرّة اجتمعنا بغربي أو غربية من مختلف الشعوب فما كان اختلاف الجنس واللغة والعادة والمشرب بحائل دون التفاهم والتصادق، وشعرنا بأنَّ بيننا وبين أولئك المجهولين من قبل قرابة إنسانية وفكرية وعاطفية قد تجعلهم أدنى إلينا من أقرب الأقارب.

* * *

وذلك ما عرفه الصحفي الإنجليزي الذي دعا زملاءه إلى الاجتماع في الشهر الماضي، وذلك ما عرفه المسيو فندربورجت البلجيكي[٢] الذي نظّم وأصحابه الوليمة الأدبية المقامة في صالة جروبي[٣] في ٣٠ يناير الماضي، وقُلْ مثل ذلك في الداعين إلى الاجتماع في نادي «الليسيوم» في لندن الذي حملت إلينا تفاصيله ونتفاً مما قيل فيه برقيات «الأهرام» الخصوصية وغيرها من الصحف.

وقد تساءل الكثيرون عن أسماء السيّدات الثلاث المذكورات في طليعة أهل الدعوة في لندن وعن أثرهنّ في ميادين الأدب والعلم ليتعرّضن لمثل تلك الدعوة في بلاد تعرف معنى الجهد العقلي وتقدّره، ولا تفسح مكاناً بين ذويه لكل من شاء أن يتبرّع بالاندماج في صفوفهم. كما تساءلوا عن معنى كون رئيسة النادي «مسترة» لا «مستر».

والجواب أنّ أندية «الليسيوم» الدولية أندية نسوية تأسّس مكتبها المركزي في لندن سنة ١٩٠٣، وانتشرت بعد ذاك دعوتها حتى صارت الآن تعدّ أكثر من ثلاثين فرعاً في عواصم العالم، من الولايات المتّحدة إلى فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وأسوج وبلاد اليونان، حتى في الصين... في كل بلد حوت العدد الكافي من النساء الممتازات الموهوبات القمينات بالانضمام إلى مثل تلك الأندية والاشتراك بعضويتها.

وتلخيص غاية أندية «الليسيوم» النسوية الدولية يقتضي مقالًا خاصّاً ربّما كتبتُه في القريب العاجل[٤].

* * *

وعوداً إلى الموضوع الرئيسي من هذه العجالة أقول إنّ مساعي التفاهم بين الشرقيين والغربيين في هذه الديار، يرجع تاريخها إلى سنة ١٩١٣ وكانت البادئة بها الكونتس أُولغا دي لبيدف الروسية المنتمية إلى المذهب الثيوصوفي العالمي[٥]، وهي التي أسّست فرع الجمعية الثيوصوفية في القاهرة وكانت رئيستها الأولى. ولا يخفى أنَّ في مقدّمة ما يرمي إليه الثيوصوفيون هو نشر فكرة السلام والتحابّ والتفاهم بين الشعوب، ينادون به في جميع كتبهم وخطبهم، ويروّجونه في كل من اجتماعاتهم واحتفالاتهم.

كانت السيّدة دي لبيدف من ذوات الثروة الطائلة والجاه العريض والمكانة الاجتماعية الرفيعة إذ هي من أسرة روسية عريقة في الأرستقراطية، وكان زوجها من حجّاب القيصر السابق التعس نقولا الثاني الذي عصفت به وبأسرته الثورة الروسية في أواخر الحرب الكبرى. ولكنّها كانت ذات سلطان أدبي يفوق جميع تلك المزايا الاجتماعية، نظراً لعلمها الواسع ومعارفها العديدة، وإلمامها بطائفة من لغات الشرق والغرب، ومؤلّفاتها القيّمة في الأدب والاجتماع والتاريخ باللغات الروسية والفرنسية والتترية والتركية (وكانت تكتب بهذه اللغة بتوقيع «جلنار هانم»). وهي مؤسّسة «جمعية الدروس الشرقية» في بطرسبرج سنة ١٩٠٥، التي كانت رئيستها الفخرية. ولمّا جاءت مصر شرعت في دراسة اللغة العربية على أحد العلماء من المشايخ.

دعت الكونتس دي لبيدف إلى إنشاء ناد أدبي مختلط سنة ١٩١٣ فلبّى دعوتها جماعة من العظماء والعلماء والأدباء، منهم عبد الخالق ثروت باشا[٦] وغيره من الوزراء المصريين وسفراء الدول، وأحمد زكي باشا[٧]، ولطفي بك السيد[٨]، والمرحوم علي بك بهجت[٩]، والدكتور فيرونوف الذي جعل همّه في هذه الأعوام الأخيرة تجديد شباب الإنسان[١٠]، والمرحوم الدكتور كومانوس باشا[١١] وآخرون من أهل الفضل رجالاً ونساءً.

وكان المرحوم الدكتور شبلي شميّل[١٢] يصحبني في ذلك الاجتماع وقد أثار اهتمام الكونتس بأسئلته وملاحظاته التي تفرّد فيها، بينا كان الحاضرون يوافقون بلا مناقشة. فإنّه عندما جرى الحديث في إنشاء النادي سأل الدكتور عمّا يقصد من ذلك النادي وعن غايته المباشرة.

أجابت الكونتس دي لبيدف - الغاية الأولى هي التعارف بين الوطنيين والأوربيين والتفاهم بين المثقّفين الموهوبين من الفريقين.

قال الدكتور - إنّ الواحد منّا يعرف الآخر تمام المعرفة لأنّنا مرتبطون فيما بيننا بالعلاقات الشخصية والاجتماعات المنزلية ولو سألت كلّا من هؤلاء السادة عرفت أنّهم ليسوا بالغرباء بعضهم عن بعض.

قالت الكونتس - ولكنّ المعرفة الشخصية غير الرابطة الأدبية ذات الأغراض العامّة. فالحديث فردي في الاجتماعات المنزلية. أمّا في النادي فتتيسّر المناقشات العامّة، وتُنظّم المحاضرات وتُقام الحفلات الموسيقية.

قال الدكتور - وهل تنقصنا المناقشات العامّة والحفلات الموسيقية والمحاضرات في مختلف الموضوعات؟ كلّا! ولكنّك، يا سيّدتي، تريدين أن توجدي دائرة خاصّة تنبعث منها شتّى الدعايات وتكون مباءة جديدة لذلك الداء العصري الفتّاك: داء الكلام!

كان الدكتور يتكلّم بصراحته الجافّة المعروفة لدى أصحابه فلم تنقم الكونتس بل ضحكت وعنيت برأيه وأخذت تناقشه فيه. وأعترف هنا بأنّي لم يكن لي مثل رحابة صدرها عندما أجمع الحاضرون على أن يكون المرحوم الأستاذ إسماعيل زهدي المحامي، المتوقّد ذكاءً ونشاطاً، سكرتيراً موقّتاً وباشروا بانتخاب أعضاء اللجنة، فذكر بعض الحاضرين اسمي.

فالتفتت إليّ الكونتس، وبعينيها البديعتين اللتين كان يمازج ظلامهما نور فتّان، نظرت إليّ نظرة من يداعب رضيعاً ثمّ قالت:

- المدموازل؟.. ولكنّها طفلة! ونحن في لجنتنا نحتاج إلى أفراد يعرفون الحياة ومن ذوي الحنكة والاختبار...

أغضبتني تلك الكلمة لأنّ السيّدة الجميلة أباحت لأعوامها الستّين أن ترى فيّ طفلة غريرة، وجاهرت برأيها في ابتسام كمن يقول شيئاً يعجب، وبصوت غير منخفض وفي جلسة علنية... منذ تلك الساعة أضربتُ عن حضور الاجتماعات وصار كل ما بيني وبين الكونتس الروسية خراباً في خراب...

وتوالت الاجتماعات شهوراً كل أسبوع. ثمّ جاء الصيف فتفرّق الصحاب ولم يبق لذلك المشروع من أثر. وانقطعت منذ الحرب أخبار مدام دي لبيدف فلا نعرف عنها الآن شيئاً.

* * *

وتجدّد بعد الحرب النشاط في إيجاد مثل ذلك التعارف الأدبي بين الشرقيين والغربيين عندما وفدت إلى مصر الكاتبة الشاعرة مدام فالنتين دي سان بوان[١٣] وصديقاها مدام كانودو والمسيو دي ماس، وجميعهم من المتشبّعين بالمبادئ الثيوصوفية. وما يبدو مغلقاً من كتابات مدام دي سان بوان راجع إلى توغّلها في النظريات الروحانية والباطنية وهي لا تخفى على الملمّين بغايات الثيوصوفية وتعاليمها الفلسفية ومراميها العالمية.

فكان من مساعي هذه السيّدة وأصحابها أن أسّسوا في مصر فرعاً لنادي «البيئة الفكرية» الدولي وجعلوا مركزه ١٣ شارع الأنتيكخانة المصرية، فأحدث ذلك النادي أثراً كبيراً في الدوائر الفكرية والصحفية ولهجت الألسن بذكره. وأُلقيت فيه عديد المحاضرات بالعربية والفرنسية. وانضمّ إلى مؤسّسي النادي فئة من الكتّاب والخطباء الوطنيين والأجانب، منهم المسيو بول فندربورجت ذو النزعة الثيوصوفية كذلك، الذي أنشأ في النادي فرعاً لجمعية «الفانوس الأصمّ»، وصاروا يعقدون الاجتماعات ويحتفون بمجيء كبار الكتّاب والشعراء من الغربيين، إلى أن أقفلت الحكومة المصرية النادي إثر مشاغبة وخصومة بين جماعات المستمعين.

وسعى مسيو فندربورجت بعدئذ في تكوين جماعة «الصداقة البلجيكية المصرية» التي ما زال إلى اليوم «مديرها»، والتي أسفرت أخيراً عن تلك الوليمة التي أقيمت عند جروبي في ٣٠ يناير الماضي.

حتى كانت البارحة وليمة الصحفيين عند جروبي نفسه فكانت أحدث المساعي للتقريب والتوفيق بين الوطنيين والأوربيين. ومن الطبيعي والمعقول أنْ يتلاقى أفراد الصحافة في ولائم أخوية واجتماعات أدبية، ولو هم خرجوا توّاً بعد ذلك إلى إداراتهم المختلفة ليتابع كل منهم خطّته الصحافية ونزعته الحزبية التي لن يتحوّل عنها – طبعاً!

أقول هذا لعلمي أنّ التعارف الشخصي لن يغيّر شيئاً من النزعات الأساسية لكل صحيفة. ولسنا من التفاؤل الروحاني بحيث نصدّق أنّ هذه المجاملات والائتلافات تحمل الدول الأوربية على تغيير برامجها السياسية كما أنّها لا تسوق شعوب الشرق إلى العدول عن مطالبها. وليس جهل بعض الشعوب لبعض سبب الحروب والمنازعات. ولو كان ذلك ما كان من معنى لتحارُب الدول الأوربية فيما بينها، وكل منها تعرف الأخرى حقّ المعرفة في عبقرياتها وخصائصها ومميّزاتها وعظمائها من كل طائفة وكل فنّ.

وليس ببعيد عهد البيان الذي نشرته ألمانيا في تبرير إعلان الحرب، مزوَّداً بتوقيعات تسعين من كبار رجال العلم والفنّ والأدب والفلسفة، وبينهم العالم النشوئي هكل[١٤] الذي... ـه[١٥] على توقيعه ذاك المرحوم الدكتور شميّل في رسالة وجّهها إليه باللغة الفرنسية قبل وفاته. وبينهم كذلك الكاتب الروائي العظيم جرهارت هوبتمن الذي اضطهد من قبل لأجل كتاباته الاشتراكية وصودرت كتبه لما فيها من التحريض على الثورة الفكرية والاجتماعية.

كل ذلك وألمانيا أدرى الناس بعبقريات الحلفاء وجهودهم في ميادين العلم والأدب والابتكار، وكان كتّاب ألمانيا وصحافيوها في مقدّمة المقدّرين لهاتيك الجهود، المعترفين بجلال تلك العبقريات.

ولا عجب، والمصالح الدولية والمطامح السياسية غير الصداقات بين الأفراد والجماعات والأندية.

غير أنَّ التفاهم - كالصلح الذي هو منه - سيّد الأحكام. ومشاغبات الدول فيما بينها وتنازع المصالح والمنافع يجب ألَّا يحول دون التفاهم في ذلك الأفق الإنساني الصرف، أفق المواهب الأدبية والعقلية، والاشتراك في مآثر الثقافة التي هي ثروة عامّة لبني الإنسان أجمعين.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٥٧٥، ٤ آذار/مارس ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Rudyard Kipling (١٨٦٥ - ١٩٣٦)، شاعر وقصّاص إنكليزي، ولد في بمباي (الهند). كان ينادي

بالاستعمار الذي اعتبره عملاً حضارياً. من أبرز أعماله *The Jungle Book* (كتاب الأدغال) الصادر عام ١٨٩٤ . نال عام ١٩٠٧ جائزة نوبل للآداب.

(٢) المقصود هو الشاعر واختصاصي الأدب والفلسفة البلجيكي **Paul Vanderborght** (١٨٩٩ - ١٩٧١)، الذي عمل أستاذاً في كلّية الآداب بالجامعة المصرية في القاهرة ما بين ١٩٢٥ - ١٩٢٩ . كان أحد مؤسّسي جمعية **La Lanterne Sourde** الأدبية والفنّية في جامعة بروكسل الحرّة عام ١٩٢١ والمجلّة الصادرة باسمها حتّى عام ١٩٣١ . من بين أعماله ديوان شعر *Messageries d'Orient* المنشور في باريس عام ١٩٢٧ .

(٣) **Groppi** ، مقهى مشهور يقع في قلب القاهرة. كان حينئذ ملتقى المثقّفين والأدباء والشعراء، وما يزال قائماً حتى اليوم.

(٤) انظر المقال التالي لميّ زيادة في هذه المجموعة.

(٥) **Olga de Lebedeff** (١٨٥٣ - ؟)، مستشرقة ومترجمة روسية.

(٦) عبد الخالق ثروت (١٨٧٣ - ١٩٢٨)، حقوقي وسياسي مصري، كان مدّعياً عامّاً سنة ١٩١٠، ووزيراً للعدل بين ١٩١٤ - ١٩١٩، ثمّ وزيراً للداخلية عام ١٩٢١ ورئيساً للوزراء ما بين ١٩٢٢ - ١٩٢٣ . أعاد تشكيل الحكومة عام ١٩٢٧ .

(٧) أحمد زكي (١٨٦٦ - ١٩٣٤)، أديب وبحّاثة مصري. أنهى تعليمه في مدرسة الإدارة والحقوق بالقاهرة. عمل في البداية مترجماً لمجلس الوزراء، ثمّ سكرتيراً له. أقام علاقات مع العديد من المستشرقين ومثّل مصر في مؤتمراتهم. نشط في مجال إحياء الكتب العربية وكلّفته الحكومة المصرية بتحقيق مخطوطات. لُقّب «بشيخ العروبة» لسعيه في الحفاظ على التراث الثقافي واتصالاته الواسعة مع كبار الشخصيات في العالم العربي. أوقف مكتبته الخاصّة التي شملت نحو عشرة آلاف مجلّد وانتقلت بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية.

(٨) أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣)، أديب وصحفي وسياسي مصري. تخرّج من مدرسة الحقوق في القاهرة عام ١٨٩٤ وتعاطى المحاماة. شارك في تأسيس حزب الأمّة عام ١٩٠٨ وانتخب أمينه العامّ. أصدر صحيفة الحزب «الجريدة» حتى عام ١٩١٤ . عُيِّنَ عام ١٩٢٢ مديراً لدار الكتب المصرية، وابتداءً من عام ١٩٢٥ رئيساً للجامعة المصرية عدّة مرّات. تبوّأ سنة ١٩٢٨ منصب وزير المعارف، ثمّ وزير الداخلية وأخيراً الخارجية عام ١٩٤٦ . كان عضواً في مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٣٩، ورئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ ١٩٤٥ وحتى وفاته. لعب دوراً هامّاً في تطوّر الأدب المصري من خلال توجيه الكتّاب الشباب وتشجيعهم، ولهذا السبب أطلق عليه لقب «أستاذ الجيل».

(٩) علي بهجت (١٨٥٨ - ١٩٢٤)، مؤرّخ وعالم آثار مصري، تركي الأصل. أنهى تعليمه في مدرسة الألسن بالقاهرة عام ١٨٨٢ . عمل مدرّساً للغة العربية في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ثمّ رأس قسم الترجمة في وزارة المعارف. عُيِّنَ أميناً لدار الآثار العربية فمديراً لها. أول مصري تولّى وظيفة كان يحتكرها الأجانب. اختير عضواً في المجمع العلمي المصري عام ١٩٠٠ .

(١٠) Samuel Serge Voronoff (١٨٦٦ - ١٩٥١)، فسيولوجي وجرّاح فرنسي، روسي الأصل. أقام في مصر ما بين ١٨٩٦ - ١٩١٠ حيث عُيّن مستشاراً طبياً للخديوي كما أنشأ الجمعية الطبيّة الدولية في القاهرة عام ١٨٩٨ . تولّى منصب مدير مختبر الجراحة التجريبية لكلّية فرنسا (Collège de France) عام ١٩١٧ وأثار جدلاً حادّاً في العشرينات من القرن الماضي بتجاربه الهادفة إلى استرجاع الشباب للجسم البشري من خلال زرع غدد القرود فيه.

(١١) Dr. A.D. Comanos Pasha ، طبيب يوناني، أول من شغل منصب كبير الأطبّاء في مستشفى الجالية اليونانية بالقاهرة وطبيب خاصّ لبعض حكّام مصر، من إسماعيل باشا إلى السلطان حسين كامل.

(١٢) شبلي شُمَيّل (١٨٥٣ - ١٩١٧)، طبيب وصحفي وفيلسوف اجتماعي لبناني. تعلّم ودرّس في الجامعة الأمريكية ببيروت وقتما كانت تُعرف بالكلّية السورية الإنجيلية. مارس الطبّ في مصر وأصدر مجلّة «الشفاء» في القاهرة ما بين ١٨٨٦ - ١٨٩١ . حاول تشكيل حزب اشتراكي عام ١٩١٠ وأصدر مجلّة «المستقبل» الاشتراكية مع سلامة موسى حتى عام ١٩١٤ . كان أول من تبنّى نظرية التطوّر في العالم العربي وواجه معارضة شديدة من الأوساط الإسلامية المحافظة. إلى جانب أعماله في تعريف مذهب داروين نشر مقالات علمية، وتاريخية، وأدبية، ونقدية، وسياسية وكتب رواية ومسرحية.

(١٣) Valentine de Saint-Point (١٨٧٥ - ١٩٥٣)، شاعرة وروائية فرنسية، بنت حفيدة الشاعر ورجل الدولة الفرنسي ألفونس دو لامارتين (Alphonse de Lamartine) . انضمّت عام ١٩١٠ إلى الحركة المستقبلية وكتبت عام ١٩١٢ *Le Manifeste de la Femme Futuriste* (البيان الرسمي للمرأة المستقبلية) ردّاً على بيان منشئ المستقبلية، فيليبو مارينتي (Filippo Marinetti) ، وبغضه للنساء. سعت إلى تحقيق غاياتها عن طريق ابتكار أساليب فنّية جديدة في المسرح والرقص متعاونة في ذلك مع منظّر الفيلم والسينما الإيطالي Riciotto Canudo . بعد تراجعها العلني عن المستقبلية انتقلت عام ١٩٢٤ إلى مصر حيث اعتنقت الإسلام واتّخذت اسم «روحية نور الدين». ساندت القومية العربية كما أصدرت صحيفة *Le Phoenix* الفرنسية لمناصرة هذه القضية.

(١٤) Ernst Haeckel (١٨٣٤ - ١٩١٩)، اختصاصي في علم الحيوان وفيلسوف ألماني، كان أستاذاً في جامعة ينا (شرق ألمانيا) اعتباراً من عام ١٨٦٢ . أحد أبرز مروّجي نظرية النشوء والارتقاء لداروين في ألمانيا وصاحب المذهب التوحيدي الذي حاول من خلاله الجمع بين المادّية الآلية والمطالب الدينية المشروعة.

(١٥) تعذّر قراءة الكلمة في النصّ الأصلي، ولعلّها «عاتبه» أو «لامه».

أندية «الليسيوم» الدولية

أعليّ أنّ أتقدّم بالاعتذار إلى كل كاتب وكل قارئ لخروجي عن الموضوعات السياسية التي تشغل الصحف في هذه الأيام؟ أم تراني حقيقة بالمكافأة للغرض عينه؟ وعلى كلٍّ فقد تحتّم أن أكتب هذه الكلمة التي تعهّدت بكتابتها في مقال سالف. ويشدّ من عزمي أنّ الوزارة عندنا قد تألّفت على بركات اللّه.

أشرت في مقالي السابق إلى تساؤل بعضهم عن مكانة نادي «الليسيوم» بلندن الذي أنبأتنا البرقيات بالحفلة التي أُقيمت فيه منذ أيام تمهيداً للتفاهم بين جماعة من أهل الثقافة في إنجلترا وأمثالهم في مصر والعراق. كما أشرت إلى استغراب أولئك كون المتصدّرات تلك الحفلة «مسترات» لا «مسترون» وأنّ الاجتماع افتتح وختم بكلمة من «الرئيسة».

الرئيسة؟ فأين الرئيس إذن؟

ليس يغضّ من احترامنا للسادة الرجال قولنا إنّ الرئيس في أندية الليسيوم الدولية – «مافيش»! فإنّ الرئاسة فيها للنساء بحكم المنطق لأنّ تلك الأندية نسوية صرفة. أقرّر هذا الواقع، ثمّ أرفع أكفّ الضراعة إلى المولى القدير كي يديم دولة سادتنا الرجال، ويبقي عزّهم، ويؤيّد عرشهم، ويحفظهم ذخراً لنا وأرباباً للقلم والسيف والصولجان والعبقرية والشوكة والسلطان... إلى آخره!

* * *

تأسّس المكتب الرئيسي لهذه الأندية في لندن سنة ١٩٠٣، وانتشرت فروعه في كثير من عواصم العالم حتى صارت تربو الآن على الثلاثين.

أمّا الاسم نفسه فمأخوذ من اليونانية القديمة، وكان الليسيوم، أو بالحريّ الليكيوم، متنزهاً أثينياً يقصد إليه الفيلسوف أرسطو مع تلاميذه وأتباعه فيلقي عليهم

الدروس في صيغة الأحاديث والمناقشات. وأمّا غاية هذه الأندية فتنشيط النساء الموهوبات، وتهيئة جوّ صالح لإنماء مواهبهنّ. إذ لا يخفى كم ذا تقاسي المرأة أو الفتاة إنْ هي لم تكن من ذوات اليسار، وارتفعت بكفاءتها وممكناتها فوق المرأة العادية... تلك هي المنفردة المتألّمة التي يستغلّ وسطها خير ما فيها في حين هو يجهد في شلّ نشاطها وإطفاء نورها وتحويل ربيع شبابها الناضر إلى شتاء مثلج كئيب!

قلت إنّ تلك الأندية تنشّط النساء الموهوبات وتنظّم جهودهنّ وتقدّم لهنّ العمل، وتروّج آثارهنّ في كل فرع من فروع الفنون والآداب والعلوم والموسيقى والشؤون الاجتماعية.

ولا تساهُل في قبول غير ذوات المواهب الصحيحة في عضوية النادي لمجرّد رغبتهنّ في الظهور أو بفضل الوساطة والمحسوبية. إنّما يشترط على طالبة الانضمام ان تكون قد وضعت على الأقلّ كتاباً واحدًا في فرعها، وليس أيّ كتاب، بل ذا أهميّة خاصّة في بابه سواء أكان اجتماعياً أو نقدياً أو شعرياً أو علمياً، أو أن تكون ذات آثار قيّمة في فنّها الموسيقي أو الحفري أو التصويري أو غيره، أو أن يكون لديها شهادات من المرتبة الأولى في الجامعات التي تخرّجت منها، أو أن تكون على اتصال وثيق برجل شهير مجيد كأن تكون ابنته، أو أخته أو زوجته، أو أن تكون قائمة بأعمال خيرية واجتماعية مشكورة ويكفلها على الأقلّ عضوان اثنان من أعضاء النادي القدماء. فيكون انتماؤها إلى الليسيوم بمثابة شهادة تغنيها عن كل شهادة.

طبيعي أنّ نساء كل شعب تلتحق بنادي بلادها. ولكن بالحصول على تذكرة خاصّة من سكرتارية النادي يتسنّى لكل عضو أن تتردّد على نادي الليسيوم في البلاد التي تمرّ بها مدّة شهرين اثنين كل عام. فتجد نفسها في وسطٍ راقٍ تعاشر فيه أناساً من طبقتها الفكرية أو الفنّية وتكون محاطة بالصويحبات والصديقات.

ومفهوم أنّ للأعضاء وحدهنّ حقّ التردُّد على النادي يمكثن في قاعاته ما شئن من ساعات النهار والسهرة فيطالعن في مكتبته الصحف والمجلّات والكتب وتقدّم لهنّ السكرتارية ما يطلبنه من المعلومات المتعلّقة بفرعهنّ أو مهنتهنّ.

وفي كلٍّ من الأندية مطعم وغرف للنوم للائي يردن السكنى فيه إذا كنّ غريبات عن المدينة. وفيه ردهات للشاي يستقبلن فيها معارفهنّ وزائريهنّ ولو من الرجال. وفيه صالات للآثار الفنيّة وقاعات خصيصة بالحفلات الموسيقية والأدبية، والمناقشات الحرّة، والمحاضرات المتعدّدة في شتّى الموضوعات ليقفن على المستحدث من الآراء والمؤلّفات والاختراعات.

تذكر كل طالبة عند الدخول اسم الفرع الفنّي أو الأدبي الذي تودّ الالتحاق به. ويقيم كل من هاتيك الفروع، كل عشرة أعوام، مهرجاناً عظيماً من نوع فنّه وعمله كما تقوم الملتحقات به دون غيرهنّ بتقديم ما يقدّم للجمهور من ضروب الفائدة والتسلية. ولهنّ أن يجعلن مهرجانهنّ تحت رعاية عظيم من العظماء. ومع أنّ عضوية الليسيوم محظورة على الرجال، فهم يُقبلون فيه كمدعوّين وخطباء ومحاضرين ومنظّمي اجتماعات فنّية أو أدبية، وإنْ كانت الرغبة في استماع كلمة المرأة أشدّ لأنّها بحاجة بنات جنسها أدرى.

* * *

في مثل هذه الأيام من العام الماضي مرّت بين عديد السيّاح سائحة فرنسية ممتازة، هي الدوقة دوزس[1]. فقضت أياماً قلائل في القاهرة وعاد إلى الإسكندرية حيث كانت في ضيافة البارون منشه[2]. وسواءً هنا أو في الثغر لم يشعر بمرورها غير أفراد معدودين ولم تذكر اسمها الصحف إلّا كأحد النزلاء في فندق شبرد، مع أنّ بعض تلك الصحف قد تُعنى أياماً بذكر أشخاص لا يوازون الدوقة في شيء.

واتفق في ذلك الأسبوع أن كانت إحدى دور السينما بالقاهرة تعرض بين أفلامها مشهد حفلة صيد في إحدى مزارع الدوقة وظهرت السيّدة في طليعة ضيوفها على صهوة جواد أشهب، لأنّ الحفلات الاجتماعية التي تقيمها الدوقة دوزس في هذا القصر أو ذاك من قصورها في فرنسا وحفلات الصيد التي تحييها في أراضيها الغنيّة وممتلكاتها الواسعة، هي من الفخامة والرواء بحيث تضمّ نخبة من عظماء فرنسا وأوربا، وبحيث تسارع إلى اقتناص مشاهدها أفلام السينما لتعرضها في مختلف الأصقاع.

ولكن ليس هذا ما يجعل السيِّدة جديرة بالذكر بل مجهودها العظيم في سبيل النهضة الأدبية والفنّية والعلمية والاجتماعية في فرنسا فهي كاتبة شاعرة خطيبة مصوِّرة وأثرها محسوس في حركة نساء فرنسا غير السياسية، ولها اليد الطولى في إنشاء «دائرة المعارف النسوية الفرنسية» المؤلَّفة من تسعة مجلَّدات والمعروفة «بمكتبة فِمينا». وكانت رئيسة جلسات التحكيم في توزيع جوائز «فِمينا»(٣) على المستحقّات في مختلف المسابقات. وما يجعل ذكرها متصلًا بهذا المقال هو أنّها مؤسّسة نادي الليسيوم الباريسي سنة ١٩٠٧ ورئيسته الفخرية.

أمّا اللجنة العاملة فتتجدَّد هيئتها كل مدّة معيَّنة ويقوم بانتخابها أعضاء النادي، ويعرض التقرير السنوي وإيرادات النادي ونفقاته على حاكم السين(٤) ووزراء الداخلية والمعارف والفنون الجميلة. ويقبل في عضوية النادي الفرنسيات كما يقبل غيرهنّ من الغربيات المقيمات في باريس على أن يدفعن علاوة متّفق عليها غير رسم الدخول وغير الاشتراك السنوي. ومما يذكر لنادي الليسيوم الباريسي أنّ الفتاة الموسيقية ليلي بولانجه(٥) عزفت فيه للمرّة الأولى يوم لم تكن معروفة في قومها، وهي التي فازت بالجائزة الأولى من كونسرفتوار روما، ولم يطُل حتى اقتطفتها يد الموت في ريعان الشباب والجمال.

* * *

وجرياً على العادة التي ألفتها مجلّة «الأنال»(٦) الفرنسية، ينظِّم نادي الليسيوم الباريسي سلسلة محاضرات أسبوعية يقوم بإلقائها الاختصاصيون النابهون. هذا عدا المحاضرات العديدة الأخرى في شتّى الموضوعات. وهناك، وبفضل تلك المحاضرات المعالجة للعلل الاجتماعية، تكوَّنت «جماعة العاملات الاجتماعيات» المستقلّة عن أعمال الليسيوم ومنها تتخرَّج الممرِّضات المتطوِّعات ومديرات المعامل النشيطات.

وإذا اتّسع نطاق أعمال المرأة الفرنسية ممّا لم يكن له حساب في برنامج الليسيوم ولم يكن متفقاً مع غايته الأساسية، أنشأت الدوقة دوزس نادياً آخر باسم «نادي الأوتمبيلات النسوي». ومع أنّ لجنة هذا النادي الفخرية من الرجال، فالجمعية نسوية وأعضاؤها من النساء وغايتها تلخَّص في ما يلي:

«جمع شمل النساء والفتيات المشتغلات بقيادة السيّارات والراغبات في الالتحاق بمدارس الطيران والمعتنيات بتحسين وسائل النقل والمواصلات سواءً لترويج السياحة أو بمجرّد الميل إلى الألعاب الرياضية والمهن الميكانيكية، وفتح السبيل أمامهنّ وتثقيف ميولهنّ وإرشادهنّ وتنشيطهنّ بإقامة المسابقات والامتحانات والحفلات والأعياد».

وكان هذا النادي موفور النفع. والتحق به عدد عظيم من النساء يستفدْنَ مّما يقدّمه لهنّ من الممكنات، وفرع السكرتارية حافل بالمعلومات المباشرة بغرض النادي وبكل ما يتفرّع منها كالسياحة والأسفار والرحلات، وهو يصدر مجلّة شهريّة يوزّعها على الأعضاء مجاناً فيجدن فيها دروساً وبحوثاً عن كل ما جدّ في عالم الابتكار الميكانيكي في السيّارات والطيّارات والبواخر والمسابقات الرياضيّة والميكانيكيّة في العالم.

وبعد فليس من أندية عامّة للنساء في باريس غير هذه وهي لم تنشأ إلّا بفضل الامرأة[٧] الخطيرة التي لم نشعر بمرورها بيننا في العام الماضي.

يسرّني أن أتكلّم عن هذه الأندية النسوية في حين يقيم «الاتحاد النسوي المصري» مهرجانه السنوي في كازينو الجزيرة. وقد يكون غير بعيد اليوم الذي نشهد فيه بنات المشغل المصريات قائمات بكلّ ما يتعلّق بهذا المهرجان من الأعمال والملاهي والفوائد.

والآن وقد ملأت هذا المكان بذكر النساء وأندية النساء، أسأل السادة الرجال أن لا يتذمّروا بل فليطيبوا نفساً، وليقرّوا عيناً، لأنّي لا أنسى الواجب فأختم هذا الكلام كما بدأته، برفع أكفّ الضراعة إلى المولى القدير كي يديم دولة السادة الرجال، ويقي عزّهم، ويؤيّد عرشهم، ويحفظهم ذخراً لنا وأرباباً للقلم والسيف والصولجان والعبقرية والشوكة والسلطان... إلى آخره.

... مع اعترافي بأنّ فضل الرجال الصالحين لا آخر له يعرف. آمين!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٥٨٩، ٢٠ آذار/مارس ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Anne de Crussol Duchesse d'Uzès (١٨٤٧ - ١٩٣٣)، كاتبة فرنسية، رئيسة أول ناد نسائي في باريس ومنشئة مجلّة *La Française* النسائية الأسبوعية.

(٢) الأرجح أنّ المقصود هو Felix Baron de Menasce (١٨٦٨ - ١٩٤٣)، أحد مشاهير الجالية اليهودية في الإسكندرية حينئذ، من أصل نمساوي هنغاري.

(٣) Prix Femina ، جائزة للرواية الفرنسية خصّصتها عام ١٩٠٤ مجلّة «فمينا»، وما زالت تمنح سنوياً (باستثناء الأعوام ١٩١٤ - ١٩١٦ و ١٩٤٠ - ١٩٤٣) قبل بضعة أيام من منح جائزة الآداب الفرنسية المرموقة Prix Goncourt .

(٤) المقصود هو مقاطعة السين (Département de La Seine) التي كانت قائمة حتّى إعادة التنظيم الإداري عام ١٩٦٨ .

(٥) Lili Boulanger (١٨٩٣ - ١٩١٨)، ملحّنة فرنسية.

(٦) *Annales d'histoire économique et sociale* ، هي المجلّة التي أسّسها عام ١٩٢٨ المؤرّخان الفرنسيان Lucien Febvres (١٨٧٨ - ١٩٥٦) و Marc Bloch (١٨٨٦ - ١٩٤٤)، وسُمّيت باسمهما مدرسة جديدة في علم التاريخ (École des Annales) أولت اهتمامها الخاصّ لبحث التاريخ الاجتماعي والاقتصادي على خلاف الفهم التقليدي لكتابة التاريخ. بعد عام ١٩٤٦ صارت المجلّة تدعى *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations* .

(٧) كذا في الأصل، وصوابها «المرأة».

الاحتفال الكبير بتأبين فقيد العلم والصحافة الدكتور يعقوب صرُّوف في دار الأوبرا الملكية

كلمة الآنسة «ميّ»

هناك على ساحل البحر البعيد، حيال جبال لبنان الشمّاء، تقوم أبنية الجامعة الأمريكية ببيروت. وبين تلك الأبنية وأمامها تمتدّ الساحات الفسيحة تتخلَّلها طاقات خضراء من أشجار الصنوبر، ولا تفتأ الأمواج المتعاقبة تلثم حوافيها ليل نهار.

هناك كان الطالب يعقوب صرُّوف يتنزّه في ساعات الفراغ مع صديقه الطالب فارس نمر(١) فيتذاكران في الدروس، ويتبادلان الآراء مسرّحين الطرف في ذلك الموج الأزرق المتحرّك. فهل يا ترى كانت تنطلق أشباح أحلامهما إلى الأمام فيشرفان على وقائع المستقبل؟ أكان الصديقان يعلمان أنّهما بعلمهما وجهودهما سيصبحان قطبين عظيمين بين أقطاب رجال المشرق؟ أكانا يدريان - ومصر يومئذٍ كسوريا ولبنان قطعة من الدولة العثمانية - أنّهما سيجوزان البحر إلى الجانب الآخر من الوطن الكبير، فيشيدان أثراً علمياً له من الشأن ما تجلّى في هذه الأعوام الخمسين؟ أكانا يشعران بأنّهما سيشهدان ساعة التمجيد والتعظيم في يوبيل المقتطف، وأنّ تلك الساعة ستتكرّر ولكن في أسى واكتئاب، بعد رحيل الدكتور صرُّوف؟

في مثل هذا اليوم وهذه الساعة منذ عامين إلّا شهراً واحداً، اجتمعنا هنا للاحتفاء بعيد المقتطف الخمسيني، وكانت هذه الدار داوية باسم صرُّوف(٢). في وسط هذا المسرح كان ينتصب تمثال فاخر جاءت به أريحية المهاجرين إلى الديار الأمريكية من السوريين واللبنانيين. وحيال التمثال الصامت الجامد كان من مصر شخص حيّ نابض تكوّن من ممثّل صاحب العرش، ومن جميع الهيئات الرسمية،

والأحزاب السياسية، والنزعات الفكرية. تبعت تركيا المقدور من تاريخ تطوّرها فصارت لهذه الأقطار صديقة بعد أن كانت سيّدة. فإذا بك، يا مصر، تتحرّكين تحرُّك الأسود، وتتبوّئين المكانة المعدّة لك بين أقطار الشرق الأدنى، وتتولّين الزعامة في رفع شأن العلم وتقدير الفضل كما أنت زعيمة في الصيحة العالية للحريّة والاستقلال وكما أنت زعيمة في الدعوة الشريفة إلى الوحدة الوطنية والقومية!

وعندما نهض الدكتور صرُّوف يلقي كلمة الشكر - سامحوني، أيّها الخطباء والشعراء! - كان أجمل من كل خطبة وكل قصيدة وكل نشيد، موقف ذلك الشيخ الجليل الوديع الممتلئ شباباً على طول عهده بالحياة، الممتلئ يقظةً على طول عهده بالجهاد، الممتلئ نشاطاً علمياً وعملياً على ما أوهى العمل من خيوط قلبه، وأفنى العلم من ذرّات دماغه.

تكلّم متأثّراً، فأدركنا في لحظة كم هو قاسى في وحدته الفكرية، وكم كان ثباته عظيماً في انزوائه العلمي. فكان حقّاً أن تحين ساعة الإنصاف. كان حقّاً لذلك العامل العظيم في ميدان الثقافة الشرقية أن يسمع قبل الرحيل صوت مصر والشرق متألّفاً من جميع الأصوات، منسوجاً من جميع الأفكار، متوحّداً من جميع القلوب!

* * *

ولكنّي لا أخشى المصارحة بأنّ ذلك الاحتفال على جلاله، كان ناقصاً من إحدى نواحيه. لقد كان وجود المرأة فيه محسوساً، ولكنّ واحدة منّا لم تقف على هذا المنبر، مع أنّ الدكتور صرُّوف الذي كان مجدِّداً في أسلوب الإنشاء، وطريقة التفكير، وصيغة التعبير، وتقديم الغذاء العلمي من مكنونات الشرق ومبتكرات الغرب جميعاً، كان كذلك مجدِّداً في احترام المرأة والدعوة إلى تعليمها وتثقيفها، في نشر مآثرها وإرشادها إلى واجباتها، في العطف على يقظتها وفي حثّ الأقلام النسائية على الكتابة والإفصاح.

والأدلّة على ذلك عديدة في المقتطف منذ نشأته، فمن باب تدبير المنزل وشؤون المرأة إلى باب شهيرات النساء المتفوّقات في علم أو فنّ أو عمل، سواءً من نساء الماضي والحاضر في مختلف الأمم. وقد قامت بتحرير هذا الباب حيناً ما السيِّدة ياقوت

صرُّوف، قرينة الفقيد الكبير، كما كتبت في المقتطف المرحومة السيِّدة مريم نمر مكاريوس[٣] والمرحومة السيِّدة رحمة صرُّوف[٤]. وترجم الدكتور صرُّوف، فيما ترجم، رواية وضعتها بالإنجليزية السيِّدة ليلى هانم كريمة المرحوم خليل باشا شريف، أحد وزراء الدولة العثمانية سابقاً وأخي المرحوم علي باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين السابق. وعُني بطائفة من أهمّ الكتب العربية والإفرنجية المعالجة الموضوعات النسائية، وأيَّد قاسم أمين في كتابه عن تحرير المرأة، كما عاد إلى ذلك الموضوع الرئيسي من دعوة قاسم بعد وفاة زعيم اليقظة النسوية في وادي النيل.

كذلك يبدو إكرام الدكتور صرُّوف للمرأة في رواياته التأليفية الثلاث: «فتاة مصر» و«غادة الفيّوم» و«أميرة لبنان»، حيث جعل لكل من البطلات شخصية كبيرة جذّابة جمعت بين جمال الأنوثة، ورقّة العواطف، وعلوّ الإدراك، وسعة المعارف، وثقافة المواهب مع الصيانة الأخلاقية. وكل ذلك دليل على أنّ في خياله مثلًا أعلى للمرأة أراد أن يثبته في عالم المحسوس. وقد أثبته في الواقع بعنايته بكريماته الثلاث وتثقيفهنّ وتعليمهنّ على خير مثال، فجاءت كل منهنّ نوراً في محيطها. وتيسّر له ذلك بميله الفطري وبمساعدة المرأة الفاضلة التي منَّ اللّه عليه بها شريكة لحياته. فإنّي أذكر أنّنا عندما كنّا في مجالسنا نتحدَّث عن الحجارة الكريمة، كان الدكتور صرُّوف يبتسم قائلًا: «أمّا أنا فيعجبني الياقوت، وعندي منه شيء كثير!».

وكيف أنسى تشجيعه لي وإلحاحه الشديد عليّ بالكتابة، وإفساحه صدر المقتطف لكل ما نشرته فيه عن الكاتبات بالعربية وعن اليقظة النسائية؟ فهو الذي بعد أن نقل تأبيني لباحثة البادية يوم وفاتها[٥]، اقترح عليّ أن أُخصّ للمقتطف آراءها ودعوتها الإصلاحية. وإذ هممت بالكتابة وجدت أنّ فصلًا واحداً يضيق دون المراد، فكان الفصل سلسلة فصول هي الأولى في اللغة العربية كُتبت على طريقة البحث الحديثة عن كاتبة عربية بقلم كاتبة عربية[٦]. ولما رأيت الباب مفتوحاً تابعت الكتابة عن الشاعرة المصرية عائشة عصمت تيمور وعصرها ووسطها[٧]، وعن الأديبة اللبنانية وردة اليازجي وشعرها ونثرها[٨]. ثلاثة كتب، على عيوبها، أظنّها الوحيدة من نوعها في تاريخ الآداب العربية. والفضل فيها للدكتور صرُّوف الذي رفع موضوع المرأة إلى

جانب الموضوعات العلمية والفلسفية واللغوية والتاريخية في مجلّته الخطيرة وبذلك أنالني أنا شخصياً، وأنال المرأة الشرقية عموماً، عذوبة عطفه وشرف عنايته، وعوَّد العلماء والعظماء وجمهور القرّاء قبول الموضوعات النسائية كأهمّ ما هو حريّ بالبحث والالتفات.

فإذا ما أحصيت مآثر هذا العالم الحكيم لم تكن هذه المأثرة أقلّها. ويوم يذكر التاريخ المحقّق المنصف أسماء منشّطي اليقظة النسائية والعاملين لها، تحتّم أن يكون للدكتور صرُّوف بينها مكان، وكان بخدمته هذه كما بخدماته الأخرى، في طليعة الخالدين.

* * *

ذكرت الخلود، أيّها السادة والسيّدات، وهي كلمة طالما تداولناها في الأعوام الأخيرة. فما هو تعريف الخلود، ومن هو الخالد؟

أمّا خلود النفس بعد الموت فمنبثق من العقيدة الدينية وهو سرٌّ سحيق في كل ضمير حيّ وحاجة صميمة لا تقوم مقامها حاجة. وقد كان هذا الموضوع شغل الدكتور صرُّوف الشاغل طول حياته. ولكنّ الخلود بمعناه المدني أو العلماني - إنْ صحّ هذا الوصف -، أي خلود الشخصيّة في هذا العالم بين بني الإنسان، تُرى ماذا نعني به عندما نشير إليه؟

أهو بقاء الاسم الخالد متكرّراً على الألسنة تتجاوب به الأصداء على توالي الأحقاب؟ أمعناه أنّ مبادئ الشخص الخالد وتعاليمه تظلّ شائعة بين أبناء الأجيال الآتية فتزكي منهم الهمم، وتنيلهم المعلومات والفوائد، وتوحي إليهم حبّ النشاط والعمل؟ أم معناه أنّ بين ملايين الأسماء المنسيّة في هاوية الزمان، هناك أسماء تظلّ خالقة كالرايات، مضيئة كالمنائر، هادية كالأعلام في الصحراء، مشجّعة كأصوات الحبّ والحياة؟

قد يكون للخلود في هذا العالم بعض تلك المعاني أو كلّها. ولكن لديَّ من الخلود فكرة أخرى أستميحكم في الإفضاء بها إليكم. الخالد في تقديري هو الذي

خطا بجماعته خطوة حاسمة في الميدان الذي تفوّق فيه. الخالد هو الذي جعل وسطه، بفضل جهوده، خيراً مما كان قبل ولادته. الخالد هو الذي ثقّف وأنمى جانباً من الشخصية العامّة، فكان له في تكوينها أثر لا تمحوه الأعوام والدهور.

وتلك الخطوة العلمية والثقافية التي خطاها الشرق في نصف قرن على يد المقتطف، هي التي نسجّلها للدكتور صرّوف في توديعه كما سجّلناها من قبل في تحيّته. إنّه خالد بها، لأنّه عمل في تكوين الشخصية العامّة وأهّلها للتقدّم في مراحل التاريخ والعمران.

* * *

فلا تطرقي حزناً وأسى، يا زوجة صرّوف، أنت التي قاسمته ساعات الحياة في ألوانها البهيجة والقاتمة وطعومها المريرة والسائغة. بل تعالي نَسِرْ بالخيال لزيارة ذلك الضريح البعيد في ظلّ الغصون. وبينا تتعاون أيدي الرجال القويّة النبيلة على ضفر إكليل التكريم والتقدير للفقيد الكبير، فلنقدّم له نحن، بالنيابة عن المرأة الشرقيّة، زهرة الشكران مبلّلة بدموع القلب ولنودّعه بهذه الكلمة الشهيرة لفيكتور هوجو:

«أيّتها الشمس المتغيّبة وراء الأفق، إنّ أشعّتك باقية الأنوار!»

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٥٩٩، ٣١ آذار/مارس ١٩٢٨، ص ٥ و ٧ . أقيمت حفلة تأبين الدكتور يعقوب صرّوف التي ألقت ميّ زيادة هذه الكلمة فيها في ٣٠ آذار/مارس ١٩٢٨ .

(١) فارس نمر (١٨٥٦ - ١٩٥١)، كاتب وصحفي لبناني تخرّج عام ١٨٧٤ من الكليّة السورية الإنجيلية التي هي اليوم الجامعة الأمريكية في بيروت. عمل في المرصد الفلكي ثمّ تولّى إدارته. أسّس عام ١٨٧٦ مجلّة «المقتطف» الشهرية في بيروت بالتعاون مع زميل دراسته يعقوب صرّوف، وواصلا إصدارها في القاهرة بعد انتقالهما إليها سنة ١٨٨٥ . كانت المجلّة حتّى توقّفها عام ١٩٥٢ تعدّ من أبرز الدوريات العلمية والأدبية المصرية ذات النفوذ الواسع في العالم العربي. انضمّ شاهين مكاريوس عام ١٨٨٩ إلى الصديقين نمر وصرّوف فأنشأ الثلاثة صحيفة «المقطّم» اليومية في القاهرة، وكرّس صرّوف فيما بعد كل جهده لـ «المقتطف»، ونمر لـ «المقطّم». حصل عام ١٨٩٠ على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة نيويورك. وترجم أعمالاً علمية وسير حياة شاركه في بعضها يعقوب صرّوف. اختير عضواً في مجلس الشيوخ ومجمع اللغة العربية في مصر.

(٢) تمّ الاحتفال بالعيد الخمسيني لمجلّة «المقتطف» في ٣٠ نيسان/أبريل عام ١٩٢٦ بناءً على مبادرة من ميّ زيادة. انظر مقال «المقتطف ونداء لجنة الاحتفاء بيوبيله الذهبي»، في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ١٣٣ - ١٣٦ . انظر أيضاً «الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ١٨٧٦ - ١٩٢٦»، القاهرة: مطبعة المقتطف والمقطّم ١٩٢٦ .

(٣) مريم نمر مكاريوس (١٨٦٠ - ١٨٨٨)، كاتبة لبنانية، زوجة شاهين مكاريوس. أنشأت عام ١٨٨٠ جمعيّة النساء «باكورة سوريا» في بيروت حيث ألقت محاضرات عن مواضيع اجتماعية وأدبية نشرت «المقتطف» فيما بعد بعضاً منها.

(٤) رحمة خوري صرّوف (١٨٨٠ - ١٩٢١). تلقّت علومها في مدرسة البنات الأمريكية في طرابلس والمدرسة الأمريكية في حمص. هاجرت إلى القاهرة عام ١٩٠٦ ونشرت عدّة مقالات في «المقتطف» و «المقطّم». ألقت محاضرات في قسم السيّدات بالجامعة المصرية.

(٥) نُشر تأبين ميّ زيادة لباحثة البادية في المقتطف، ج ٥٣ (١٩١٨)، ص ٤٨٧ وما بعدها.

(٦) ظهرت هذه السلسلة في المقتطف، ج ٥٤ (١٩١٩)، ص ٢١٧ وما بعدها، ٣٣٨ وما بعدها، ٤٢٥ وما بعدها، ٥٢٩ وما بعدها؛ ج ٥٥ (١٩١٩)، ص ٢٦ وما بعدها، ٤٩٧ وما بعدها؛ ج ٥٦ (١٩٢٠)، ص ٥١ وما بعدها، ٣٦٠ وما بعدها؛ ج ٥٧ (١٩٢٠)، ص ١٦٣ وما بعدها، ٥٠٠ وما بعدها. ثمّ نشرتها دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٢٠ في كتاب بعنوان «باحثة البادية: دراسة نقدية»، كما تضمّنها «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المرجع الآنف الذكر، ج ١، ص ٣١ - ١٨٧ .

(٧) راجع المقتطف، ج ٦٢ (١٩٢٣)، ص ١٥٤ وما بعدها، ٢٥١ وما بعدها، ٤٦٣ وما بعدها، ٥٦١ وما بعدها؛ ج ٦٣ (١٩٢٣)، ص ٢٤٢ وما بعدها، ٣٥٥ وما بعدها؛ ٦٤ (١٩٢٤)، ص ٩ وما بعدها، ١٢١ وما بعدها، ٢٨٦ وما بعدها؛ ج ٦٦ (١٩٢٥)، ص ٥٩ وما بعدها، ١٥٨ وما بعدها، ٢٨١ وما بعدها، ٤٠٩ وما بعدها. طبعت السلسلة على شكل كتاب تحت عنوان «عائشة تيمور شاعرة الطليعة» في دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٢٦ كما ضمّنت في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المصدر الآنف الذكر، ج ١، ص ٢٣٣ - ٣٩٨ .

(٨) انظر المقتطف، ج ٦٥ (١٩٢٤)، ص ١ وما بعدها، ١٣٧ وما بعدها، ٢٥٧ وما بعدها. تستند هذه السلسلة على محاضرة كانت ميّ زيادة ألقتها في شهر أيّار/مايو عام ١٩٢٤ في جمعية الشابّات المسيحية بالقاهرة. نشرتها مطبعة البلاغ في القاهرة سنة ١٩٢٦ على شكل كتاب بعنوان «وردة اليازجي»، وخُصّص ربع مبيعات الكتاب لمساعدة منكوبي بلاد الشام. وهي مضمّنة أيضاً في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المصدر الآنف الذكر، ج ١، ص ١٨٩ - ٢٣١ .

نشيد إلى رجال المطافئ

(كُتب حيال مشهد جهادهم الباسل في إطفاء حريق بناء الحديد
قرب البورصة الجديدة، بعد ظهر الخميس ١٩ أبريل ١٩٢٨)

لكل بطولة شاعرها ومذيع آياتها، وأنا اليوم شاعرتكم، أيّها الصناديد! وإنْ عصتني الألفاظ القمينة ببسالتكم، الحقيقة بإعجابي بكم، فحسبي من قلمي الرغبة الصادقة وحسبكم من نفوسكم القيام بالواجب العصيب!

في الصيف والشتاء على السواء، في سكون الليل وفي جلبة النهار، في ساعات الحرّ القائظة كما في ساعات البرد المزمهرّة، أنتم أبداً حاضرون ملبّون مغيثون وليست نخوتكم لتقف عند حدّ أو عائق، ولا معونتكم لتفرّق بين الأجناس والطوائف، بل أنتم الأبطال والأُساة للقريب والغريب، للوطني والأجنبي، للعدوّ والصديق، للبغيض والحبيب!

المدينة تغلي بحمّى العمل، والخلائق تتراجع عن الضرام ناظرة في عجز وهلوع إلى المأساة المكتسحة. فتدقّ أجراسكم الرهيبة في اختراقها الأحياء. وإذ تقبل خوذاتكم النحاسية إلى مكان الخطر يقبل معكم الغوث والفرج، وتنتظم حركاتكم العسكرية، وتنبعث من أيديكم نوافر الماء مطاردة جيوش النار وكتائب اللهيب!

المدينة صامتة ساكنة وأهل الحيّ آمنون في مضاجعهم. على أنّ في أحشاء الليل زفيراً ولهيباً يلتهم ما يلتهم ويهدّد الجوار بالفجيعة والدمار والفناء. فتدقّ أجراسكم الرهيبة في اختراقها الشوارع. وإذ تقبل خوذاتكم النحاسية إلى مكان الخطر يقبل معها الغوث والفرج، وتنتظم حركاتكم العسكرية، وتنطلق من أيديكم نوافر الماء مطاردة جيوش النار وكتائب اللهيب!

ولئن كانت المياه سلاحكم الطبيعي فسرُّ الغوث في ما لديكم من عزيمة وبأس ومفاداة. فكم من مرّة تقتحمون الخطر رغبة في إقصاء الخطر عن الناس! وكم من مرّة تجازفون بأغلى ما تملكون لتصونوا للناس بعض ما يملكون!

تصعدون وتهبطون على سلالمكم العجيبة، وتروحون وتجيئون أشباحاً سحرية في أندية اللهيب والردى، لا ترهبون ناراً ولا دماراً، ولا تنتظرون تقديراً ولا شكوراً فكأنّكم في الإيوان الرائع صورة حيّة من معمل «فولكان»[1] إله النار في جوف بركان «الأتنا»[2] وأنتم جبابرة الحمم في جوانبه تعملون!

ولكنّ مآثركم ليست بالرمزية الميثولوجية، بل أنتم التاريخ الباسل الذي نشهده كل يوم، وأنتم الأيدي التي تتوزّع حسناتها على جميع القاطنين وما أنتم بالآلهة الغابرين، يا حماة الأرواح والأموال، بل أنتم من فتيان مصر المجاهدين!

يدفع الواحد منّا فلساً ويهدي ثوباً فيتلفّت شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ليُشهد الأربعة الأقطار على أنّه دفع مئة فلس وأهدى مئة ثوب، ويشتري ألف بوق ليذيع مجده الضئيل في العالمين، وأنتم أهل المجد الصامت النافع ليس من يزفّ إليكم قصيداً أو نشيداً. أنتم الذين تجازفون بحياتكم تُجهل منكم حتّى الأسماء. فكأنّكم بناة الأهرام والمعابد والآثار نرى جهودهم خالدة في وجه الزمان، شامخة على بطش الأقدار والحدثان، وهم أعزّ من أن يعرّفوها باسم أو توقيع.

فتيان مصر الأشدّاء، أبطال كل يوم وكل ساعة وحماة الأموال والأرواح، يا جبابرة الليل والنهار والكماة المتغلّبة قوّة سواعدهم على فتك الأقدار، المنكسرة أمام شكيمتهم شكيمة الطبيعة والنار، سلاماً.

سلاماً، أيّتها الوجوه المشويّة تحت خوذات الفولاذ.

سلاماً، أيّتها السواعد المفتولة الرامزة إلى شجاعة مصر القويّة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٠٧، ٢٠ نيسان/أبريل ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Vulcanus ، في الميثولوجيا الرومانية إله النار.

(٢) Etna ، أعلى بركان في أوربا، يقع في الشمال الشرقي من صقلية (إيطاليا) وما زال مشتعلاً.

خطبة الآنسة ميّ في حفلة يد الإحسان لتدشين مدرسة مدام سياج[1]

أيّها السادة والسيّدات،

من القاهرة حصن الأهرام وأبي الهول إلى الإسكندرية باب مصر على العالم، من حاضرة الديار المصرية وعاصمة اليقظة الشرقية والوطنية والحماسة إلى ثغر مصر البسّام وموطن اليقظة الشرقية والحماسة والوطنية، جئت أحمل تحيّة الإعجاب والإجلال إلى المرأة التي رفعت بإحسانها مكانة المرأة وسمت بها إلى أعلى مراتب الرجال.

خرجت من بيت أبي في موكب حافل بالهمّة والعبقرية، موكب مطراننا خليل الكبير، واجتزت بقاع الآلهة الأقدمين التي هي اليوم مروج الأمّة المصرية، وجئت لأحضر هنا عيداً إنسانياً بهيجاً، وأتلقّى من الذكاء والأريحية درساً نبيلًا، وأتعلّم كيف تعنى المرأة الصالحة بعائلتها القومية الكبيرة، بينا هي تقوم بواجبها نحو عائلتها البيتية الصغيرة فتحسن التصرُّف بنعم اللّه ومنح الحياة على خير وجه لخير المجموع الحاضر وخير الأجيال الآتية.

ولقد جئت ورأيت ففزت. وشأن النفس المشرئبّة لتلقّي التأثيرات الكثيرة في المواقف الخطيرة تلقّيت في لحظة أمثولة منوّعة أوعب معنى وأوفر أهميّة من أمثولات المجلّدات الضخام وعديد الأعوام. فهذا الجمع الحاشد من كل ملّة ونحلة المتقاطر إلى هنا لتكريم الفضل، وهذا المعهد الزاهر الذي ستنشأ فيه براعم الإنسانية من الأيتام والفقراء فوجاً بعد فوج، وهذه الجمعية التي لا تكتفي سيّداتها بالأناقة والجمال بل يفاخرن بمباشرة جليل الأعمال، ولا يكتفي رجالها بالقوّة والسلطان بل يستعملون قوّة الرجل وسلطانه لإغاثة الملهوف والأخذ بيد البائس، وهذا النشيد الشجيّ الذي سمعناه

من باكورة تلاميذ هذه المدرسة، كل ذلك يثير في نفسي أشرف التأثرات ويملأها بأشرف العواطف، فأنحني احتراماً أمام المرأة التي جمعنا اليوم سخاؤها، أنحني احتراماً أمام هذه الشيخوخة البديعة التي يفوق جمالها في معناه جمال كل شباب. وفي خشوع ومحبّة أقدّم إليها ما جئت لتأديته، تحيّة تجمّعت فيها تحيّة الجنس النسائي بأسره إلى المرأة التي رفعت بإحسانها مكانة المرأة وسمت بها إلى أعلى مراتب الرجال.

ولكن هل يمكنني أن أقف بينكم، أيّها السادة والسيّدات، فلا أذكر من أنتم وأهل أيّ مدينة أنتم؟ هل يمكنني أن أقف للمرّة الأولى خطيبة على شاطئ هذا البحر الفسيح فلا أسمع الأصداء اللاجّة حولي من تاريخكم القديم والجديد جميعاً؟

ها هي ذي الإسكندرية المُشادة منذ القرن الثالث قبل الميلاد على أنقاض مدينة فرعونية التي بناها ذو القرنين على شكل الرواء المكدوني ظنّاً منه في انتصاره أنّه أصبح سيّد مصر والشرق فقامت الإسكندرية جميلة غنّاء تثبت للفاتح القويّ الأول كما أثبتت لكل فاتح قويّ بعده، أنّها ليست بالمكدونية ولا هي بالغربية، بل أنّها قبل كل شيء مصرية شرقية، وأنّها شأن كل أرض مصرية وكل أرض شرقية، تتلقّى من أبطال التاريخ والعمران ما في وسعهم أن ينيلوها من آثار التحسين والفنّ والجمال، ولكنّها لا تلبث أن تصبغ كلًّا من هاتيك الآثار بصبغتها، وتجلّل حتى ذكر الأبطال بسحرها، فبدلاً من أن تنتسب إليهم ينتسبون إليها، وتطبع حتى أسماءهم بطابعها الخالد المجيد.

ها هي ذي الإسكندرية شقيقة أثينا وروما وبيزنطية، قاعدة العلم والفنّ واللاهوت والطبّ والفلك والرياضيات في المشرق، التي تلخّصت فيها أربعة قرون زبدة الحضارة الإغريقية الرومانية، مدينة النشاط والتجارة والعمل كما هي مدينة الحبّ والجمال ومركز المدرسة الأفلوطينية[٢]، مدينة المجد للرجل كما هي مدينة المجد للمرأة، مدينة كليوباترا ومركوس أنطونيوس كما هي مدينة الفلاسفة والعلماء، فلقد ماجت على هذا العباب أجرأ نبرات الحرب وأحرّ آهات الغرام. ومن هنا خرجت تعاليم الفلاسفة أمونيوس ساكاس[٣] وأفلوطين ويمبليحوس[٤] وبروكلوس[٥] ودماسيوس[٦]. وهنا رفعت صوتها هيباتيا[٧] الفتاة الفيلسوفة الحسناء فقالت بوحدة الألوهيّة ووحدة الإنسانيّة، وعلّمت الشيوخ والشبّان دروس المحبّة والتآخي بين بني الإنسان.

ها هي ذي الإسكندرية التي يراها المسافرون في عرض البحر فيحسبونها لحسنها عروس عرائس بلدان الغرب. فتقول الإسكندرية بمآذنها وقببها، بقصورها وأرجائها، بنخوتها ووطنيتها: «بل أنا الشرق، أيّها العابرون، أنا الشرق الصميم وأنا ثغر مصر البسّام!».

فسلاماً، أيّتها الإسكندرية، أنت التي تحيين اليوم تاريخاً أعزّ من التاريخ القديم لأنّه تاريخ الحياة الجديدة! فكم من يوم عصيب عرفت منذ الحركة الوطنية، وكم من ساعة مجيدة عشت في هذه الأعوام الأخيرة؟

منك يرحل الراحلون والمنفيّون وإليك يعود العائدون. ولو شاءت هذه الشوارع أن تخبرنا عمّا رأته، وهذا الرصيف عمّا شهده، وهذه الأمواج عمّا تعاقب على سطحها من نداء وهتاف، لسمعنا أحاديث الحماسة المتلظّية والتفجّع والأحزان، وألممنا بصفحة وهّاجة من تاريخك الوطني!

أحاديث ألفناها من صحفك وخطبائك وكتّابك وشعرائك فتعوّدنا آيات الأريحيّة من رجالك ونسائك، من شبّانك وشابّاتك، بحيث أنّه ما خفق قلب مصر في الفرح أو الترح إلّا وتساءلنا: «وماذا عسى تصنع الإسكندرية؟» وننتظر ساعة فيأتينا الخبر. فإذا بالإسكندرية تصنع كل مرّة ما هو حقيق بنهضتها الباهرة، خليق بمركزها الفريد وتاريخها المجيد!

هذه الذكريات تتزاحم في خاطري إذ أراني بينكم، أيّها السادة والسيّدات، فيخيّل إليّ أنّ جمال الإسكندرية وجلالها قد تجمّع الساعة فيكم. فيتحتّم عليّ أن ألمع إليها في هذا الموقف الذي أتكلّم فيه باسم المرأة، لنثبت للسادة الرجال أنّنا معشر النساء شريكاتهم في الفكر والعاطفة وتقدير العظمة.

أمّا أنت، يا سيّدتي مدام سياج، فلم تقتصري على إدراك العظمة وتقديرها، بل كان لك منها القسط الوافر. بقلبك الكبير أدركت شقاء الفقير في وسط هذه المدينة الغنيّة الساحقة. بقلبك الكبير أحببت اليتامى والمشرّدين والمنسيّين وقدّرت خطر الحيويّة الكامنة فيهم. بقلبك الكبير شئت أن تجعلي حيويتهم تلك أداة خير ونفع وصلاح فشدت هذا البناء الجميل ليتخرّج فيه الأيتام والفقراء والمنسيّون من مختلف الأجناس والعقائد والطوائف،

وأحطته بسياج من عطفك وبرّك. فكما كنت عاملة للخير والإحسان كذلك كنت عاملة لتحسين حال المجموع، وراسمة خطّة لكل من شاء أن يتمثّل بك من القادرين والقادرات، وكذلك كنت عاملة على توثيق عرى القومية الواحدة التي نبتغيها في هذا الشرق. القومية هي الأمنية المحبوبة التي ننثر بذورها نحن أبناء هذا الجيل، وسيتعهّدها بعدنا أبناء الأجيال الآتية فتنمو وتنجلي حتّى تصير حقيقة ناصعة.

بفضلك تجدّد فينا الشعور بتلك الأمنية، وهو أعذب ما يكون في هذا الاجتماع الحافل بذكرى مآثرك، في شهر مايو شهر الحبّ والشباب والهناء إذ تلبس الأرض حلّتها الفيحاء، وتحدّث بالحياة والسلام والإخاء وتنشد في مرحها ألحاناً كأنّها ألحان السماء.

فإن أنا شكرت لهذه الجمعية الكريمة تشريفي بدعوتها واستقدامي إلى الإسكندرية لأتعرّف بأسرتي المصرية السورية وأنعم بعطفها وكرمها، فإنّي أشكر كذلك للجمعية جعلها تحيّتي في المكان الأوّل من البرنامج. وستعلو هذه التحيّة وتنبل مع الشعراء الذين سيعقبونني على هذا المنبر، وتحلّق مع خليل مطران لتفيض مع فيّاض الألمعي الجواد. وهكذا يتعاون الجنسان على الإشادة بإحسانك المنظور المفيد.

إلى كل عظيم، إلى كل محسن، إلى كل بطل يقدّم المحبّون والشاكرون طاقات الأزهار. وإنّي لأضع، يا سيّدتي، بين يديك البارّتين طاقة لم تجمع أزهارها من الحدائق والرياض بل من القلوب والنفوس. فاقبلي هذه الأزهار المعنويّة راضية باسمة، كما تقبل الأزهار أيّاً كانت، لأنّها آية الإكبار والمحبّة والامتنان!

يحدّثنا التاريخ عن منارة الإسكندرية العجيبة في الماضي السحيق. لقد خبت أضواء تلك المنارة، وأقامت الإسكندرية المضيافة منارة أخرى تهدي التائهين في لجج الظلام. ومعهدك هذا، يا سيّدتي، على شاطئ الثغر السعيد، إنّما هو منارة إنسانية تهدي الحزانى البائسين التائهين في بحر القنوط وظلمات الشقاء إلى مرفأ الأمان والتهذيب والرفعة. وكما تظلّ أنوار المنارة هادية السفن دهراً بعد دهر، كذلك ستظلّ منارة فضلك هادية أبناء الحزن جيلًا بعد جيل لتخرج منهم العاملين الأذكياء لخير مصر، وخير الشرق، وخير الإنسانية!

(*) الأهرام، س ٥٤، ١٥٦٣٢، ١٤ أيّار/مايو ١٩٢٨، ص ٥ .

(١) حسب تقرير للصحيفة صُدّرت به كلمة ميّ زيادة فإنّ جمعيّة «يد الإحسان» السورية الأرثوذكسية في الإسكندرية كانت احتفلت بتدشين دار مدرستها الجديدة في حيّ «الشاطبي» في ١٣ أيّار/مايو ١٩٢٨، وأطلق على البناية اسم السيّدة هيلانة سياج التي مكّنت من تشييدها بتبرّعات سخيّة. شهد الحفل أكثر من ألف مدعوّ من السيّدات والرجال من ذوي الوجاهة والفضل والأدب، وتضمّنت قائمة الخطباء إلى جانب ميّ زيادة كلا الشاعرين اللبنانيين المقيمين في مصر خليل مطران والدكتور نقولا فيّاض.

(٢) أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠)، فيلسوف يوناني، ولد في مصر وتعلّم في الإسكندرية. وضع منهجاً للأفلاطونية الحديثة ويعدّ مؤسّس هذه المدرسة.

(٣) أَمّونيوس سَكّاس، فيلسوف يوناني، وُلِد في الإسكندرية حوالي عام ١٧٥ وتوفّي فيها نحو عام ٢٤٢ . قيل إنّه المنظّر الأساسي للأفلاطونية الحديثة. عنه أخذ أفلوطين.

(٤) يَمبليخوس (حولي ٢٧٥ - ٣٣٠)، فيلسوف يوناني من أصول سورية، مؤسّس ما يُدعى بالمدرسة السورية للأفلاطونية الحديثة ويُعدّ أهمّ ممثّل لها.

(٥) بروكلُس، أحد الفلاسفة الأكثر بروزاً من المدرسة الأفلاطونية الحديثة، وُلِد عام ٤١٠ في القسطنطينية وعلّم في أثينا حتى وفاته عام ٤٨٥ . متكلّم كبير في أواخر العصور القديمة شهدت الأفلاطونية الحديثة على يده آخر عصور ازدهارها.

(٦) دماسيوس، فيلسوف يوناني، وُلِد حوالي عام ٤٥٨ وتوفّي بعد عام ٥٣٣، آخر عميد للمدرسة الأفلاطونية الحديثة في أثينا. أُحبطت محاولته إحياء المدرسة في بلاد فارس (٥٣١ - ٥٣٣).

(٧) هيباتيا، فيلسوفة وعالمة رياضيات يونانية، وُلِدت حوالى عام ٣٧٠ في الإسكندرية، وانتمت إلى المدرسة الأفلاطونية الحديثة هناك. قُتلت رجماً بالحجارة على يد متعصّبين مسيحيين نحو عام ٤١٥ .

في جامع أحمد بن طولون

«إنّنا في مصر ولكنّنا لا نعرفها. أرأيت أغرب من مبصر أعمى؟ إنّ الأهرام على قيد فلتة العيار من القاهرة ولكنّ كثيرات منّا لم يزرنها. والآثار تخبرنا عنها السائحات الأجنبيات فنبدي جهلاً مزرياً ونعجب ممّا يقصصن علينا وتاريخنا مبعثر في الأرض من قديم وحديث ولا من تلمّ به حيّاً من غير الكتب الجامدة الخالية من الروح».

(النسائيّات) باحثة البادية

من ذا منّا يعرف القاهرة؟

ننعم بالسكنى في هذه المدينة التي شيّدت على أنقاض مدينة بابل الفرعونية منذ أكثر من ألف سنة، محاذية لمدينة الفسطاط القديمة، فأصبحت عاصمة الفاطميين وعاصمة الديار المصرية وتحاذت فيها الآثار الفرعونية والتحف القبطية وغرر الفتح الإسلامي وكل ما تعاقب عليها بعدئذٍ في مختلف الأطوار.

فالتاريخ فيها مكتوب بحروف الأحجار المتماسكة والمتهدّمة وبفصول الحارات والشوارع، يمكنك أن تدرسه حقبة حقبة بزيارة المنازل والسبل والقبور والجوامع والآثار، فتظفر من كل ذلك بعاطفة جليلة هادئة من تلك العواطف النبيلة التي تسمو بالقلوب والأفكار والتأمّلات، وتعرف أهميّة المحيط العظيم الذي أنت فيه مقيم.

نسكن من المدينة نقطة معيّنة وأشغالنا وأعمالنا وملاهينا وزياراتنا لا تتعدّى أمكنة معدودة نقضي الأعوام آئبين منها ذاهبين إليها ولا نشوق إلى تبيّن سواها. ومع هذا نزعم أنّنا أبناء القاهرة وسكّانها ونجاهر بأنّها مدينة جميلة ساحرة في حين نحن نجهل أهمّ ما فيها من سحر وجمال.

ولقد أحسنت وزارة المعارف المصرية في العهد الأخير بحثّها طلبة المدارس على زيارة الآثار برفقة أساتذتهم ومدرّسيهم. وحبّذا لو عمّت هذه النزعة عموم المدارس للبنين والبنات فزارت الناشئة جميع الآثار المصرية على سير التطوّر التاريخي، وتعلّمت كيف تكيّفت ونمت العاطفة الفنّية والفنّ الأثري في بناء تلك الجدران وتنسيق تلك النقوش وتخطيط تلك البنايات. فإنّ المشاهدة تعلّمنا في ساعة ما لا تعلّمنا الكتب في أعوام. ومعرفة الماضي ضرورية لأبناء الحاضر ليتسنّى لهم الإلمام بجميع ممكناتهم وليكونوا على بصيرة في إشادة المستقبل الذين هم من بناته.

* * *

سرنا مساء البارحة في جمع من أهل الفضل رجالاً ونساءً نجوز الأحياء الأوربية الجديدة إلى الأحياء المصرية القديمة في طريقنا إلى أقدم جوامع القاهرة وأفسحها جامع أحمد بن طولون، ودليلنا في جولتنا ذلك العالم الفاضل المعروف بسعة اطلاعه في علمه كما هو معروف بتواضعه وانزوائه، يوسف أفندي أحمد مفتّش الآثار العربية.

شيّد جامع ابن طولون سنة ٨٧٩، أي قبل بناء القاهرة الجديدة بقرن تقريباً. فمساحته توازي مرّتين مساحة جامع عمرو بأورشليم وأربع مرّات مساحة الجامع الأزهر. وليست غايتي هنا وصف هذا الجامع وصفاً أثرياً أو تاريخياً فهناك أقلام خصيصة لذلك ليس لي مثل قدرتها. وإنّما هي كليمات أرسلها لتبيان ما قد قام في نفسي من السرور وعاطفة الهدوء والجلال خلال تلك الزيارة الشائقة.

وماذا عسى يجدي الوصف بالألفاظ؟ يجب أن تسير على قدميك في تلك الساحات الفسيحة وتحت تلك الأروقة الطويلة الفخمة، فترى بعينيك تلك النقوش البديعة الدقيقة التي ينفذ النور من خلالها أثيرياً رقيقاً. فإنْ أنت أعجبت بتلك الصنعة القديمة الفائقة الجمال في تنوّعها فإنّك لتعجب كذلك بمهارة الصنّاع المصريين المعاصرين الذين يقومون اليوم بترميم ذلك الجامع النفيس، فهم يحرصون على البقيّة الباقية من القطع القديمة ويعوّضون عمّا أكل الدهر منها بفنّ هو كل الإحكام. ولولا لون الجدّة البادي قرب اغبرار القطع القديمة لما استطعت أن تفرّق بين صنعة العهدين.

وإنّك لتعجب بعلم الأستاذ يوسف أفندي أحمد الذي يخيِّل القطعة الحيّة الإنسانية من هاتيك الآثار، فهو مفتّشها بوظيفته ولكنّه يخيِّل حارسها بميوله ومحبّته. وما تحسبه في كثير من الأحيان نقشاً وزخرفاً، يدهشك أن تعلم أنّه خطّ دوِّنت به الآيات القرآنيّة وتاريخ بناء المكان. ويوسف أفندي أحمد ومعاونه الذكيّ النشيط محمود أفندي أحمد يقرآن تلك الخطوط الشبيهة بالهيروغليفية كما تقرأ أنت، يا صديقي القارئ، ما أكتبه أنا لك اليوم وكل مرّة.

وتوسّطنا الساحة الفسيحة الرحاب نسمع الشرح عن المياه التي كانت هنا متدفّقة في الماضي. فإذا بصوت الأستاذ داود بركات[1] يتكلّم، وهو الذي زخرت معارفه وألمّ بالتاريخ القديم والحديث بحيث أنّه دون اتخاذ لهجة التعليم والإفادة، بل في لهجة المحادثة والمفاكهة، يلقي إليك بشائق الأنباء والمعلومات.

قال الأستاذ بركات: ولاسم المرأة صدى يجب أن يسمع في فناء هذا الجامع لأنّ لها في جواره فضلًا يذكر فيشكر.

قلنا: أيّ امرأة وأيّ اسم؟

قال: اسم قاسم زوج السلطان أحمد بن طولون واسم مَيّاس زوج ولده خُمارَوَيه. ولميّاس هذه يرجع الفضل في بناء قاعة الذهب في قصر خُمارَوَيه الذي كان قائماً على مقربة من هذا الجامع إلى جانب الميدان للجهة الشرقية. فوضعت على الجدران صوراً بارزة مكلّلة بالذهب تمثّل المغنّيات والجواري وتمثّل خُمارَوَيه بحجمه الطبيعي جالساً في عزّه بين الخدم والحشم، وجعلت على تلك الجدران صورة تمثّلها هي أيضاً. وكان المظنون أنّ هذه القاعة هي الوحيدة بين الآثار الإسلاميّة التي نقشت عليها الصور الإنسانيّة ولكن ظهر حديثاً في مدينة سُرَّ مَن رأى[2] على مجرى الفرات أنّ الألمان وجدوا هناك مكاناً يحوي مثل هذه الصور المصنوعة في عهد الخليفة المتوكّل. كما أنّ المسيو فييت[3] مدير دار الآثار العربية وجد منذ سنتين تمثالاً في الفسطاط لمغنّية عربية.

قلت: نريد أن نرى ذلك القصر وتلك القاعة!!

قال: لقد تهدّم ذلك القصر ولم يبقَ من تلك القاعة أثر. على أنّهما كانا يوماً

وكأنهما أعجوبة أثرية جميلة. وقد انضمّ فيها العمل الاجتماعي والخيري إلى بدائع الفنّ. ذلك أنّهم رأوا أنّ مطابخ الأهالي ليست على شيء من الإتقان والنظافة فأنشاؤا[٤] داخل القصر مطبخاً للأطعمة المتقنة النظيفة التي كانت تُباع للأهالي حتى الأعيان منهم ليتلذّذوا بها ويتعلّموا طريقة الطبخ. كما أسّسوا مستشفى يذكره التاريخ ولكنّه تهدّم والفضل في ذلك راجع إلى فطنة ميّاس وقد أيّدتها قاسم زوج أحمد بن طولون. وهكذا كانت النساء محسنات مبدعات في كل حين!

وتسلّقنا درجات المأذنة الباذخة ومنبر الأذان الشجيّ من حيث يرسل منشد الإسلام اسم اللّه إلى الأقطار الأربعة فيحمله الهواء وينثره بركة وسلاماً ورجاءً على المنازل المجاورة. ويا لجمال القاهرة من ذلك المرصد الميمون! يا لجمالها ملفّعة في أوسمة الشفق، وقد غابت الشمس وراء الأهرام ولطف الهواء، وركدت المدينة في جوٍّ من الخشوع والهيبة كأنّما هي تفكّر في جلال ماضيها وجلال مستقبلها! والنيل السعيد يلمع هناك كسبحة فضّية بين تجمّع الأشجار وأسراب النخيل!

قال أحدنا: الآن أشعر بسحر القاهرة الحضّان!

وقال آخر: أتستطيعون أن تعرفوا من هنا قبّة البرلمان؟

ولم يطل أن اهتدينا إلى قبّة البرلمان بفضل صاحبنا الذي قال إنّها القبّة المشعشعة بالأنوار وقلنا ماذا ترى هناك في هذا المساء؟ وكان هناك، كما علمنا اليوم، مظهر آخر من مظاهر اليقظة الجديدة. وهو يدلّ في صخبه على أنّ مصر ليست بالراكدة الهاجعة ولكنّها المقتحمة الحياة والنشاط في جميع مناحيها.

وانحدرنا السلالم ببطء بعد أن كنّا تسلّقناها سراعاً. ومشينا الهوينا[٥] في الساحة الفسيحة التي عسكرت فيها طلائع الظلام كأنّنا نحرص أن نقلق تلك الأرض القديمة بخطوات أقدامنا، أو أن نزعج ذلك الجوّ، جوّ الصلاة والعبادة، بأصواتنا الجوفاء. وإنّي لأكتب الساعة ذكراي ونفسي مشبعة من جلال تلك الزيارة وسحرها وحلاوتها.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٣٦، ١٨ أيّار/مايو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) داود بركات (١٨٦٧ - ١٩٣٣)، كاتب وصحفي لبناني. عمل في سلك التعليم بعد انتقاله إلى مصر عام ١٨٩٠، وساهم ابتداءً من ١٨٩٤ في الكتابة لجريدة «المحروسة» القاهرية الأسبوعية، كما شارك في إصدار صحيفة «الأخبار» اليومية. انتظم عام ١٨٩٩ في هيئة تحرير «الأهرام» التي تولّى رئاستها بعد ذلك بسنتين، عقب وفاة صاحبها بشارة تقلا، وحوّلها في غضون ثلاثة عقود إلى أكبر صحيفة يوميّة في العالم العربي. ألّف كتباً ومقالات تناول معظمها الموضوعات السياسية والتاريخية. كان عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق.

(٢) الاسم التاريخي لمدينة سامرّاء العراقية، تقع على ضفّة دجلة اليمنى شمالي بغداد، بناها المعتصِم عام ٨٣٦ واتخذها عاصمة له.

(٣) Gaston Wiet (١٨٨٧ - ١٩٧١)، مستشرق فرنسي. كان مدير دار الآثار العربية في القاهرة (١٩٢٦ - ١٩٥١)، ثمّ استاذاً في كلّية فرنسا (Collège de France) بباريس.

(٤) كذا في الأصل، وصوابها «أنشأوا».

(٥) كذا في الأصل، وصوابها «الهوينا».

في جامعي السلطان حسن ومحمد علي

السيّدة اللطيفة، رفيقتي في السيّارة، تخبرني عن وقع مقالي السابق عن جامع ابن طولون عند أصدقائها وصديقاتها، وكيف أنّه نبّه فيهم الرغبة في زيارة الجوامع والآثار. فيسرّني أن أسمع هذا فأتأكّد مرّة أخرى أنّه ليس من كلمة تخرج من القلب إلّا وكان لها إلى القلوب سبيل، وأن ليس من يذكر الأمور في حينها إلّا ولبّاه نفر من النابهين المتشوّقين إلى معاني الحياة.

اليوم نجتاز ما يزيد على الخمسة قرون بين جامع ابن طولون وجامع السلطان حسن الذي شُيّد في أواخر القرن الرابع عشر للميلاد، ولم يتمّ بناؤه إلّا بعد وفاة صاحبه الذي يُعرف باسمه بنحو عامين. ومن غرائب الاتفاق أنّ منارته انهارت يوماً فتشاءم السلطان والناس وعدُّوا ذلك نذير شرٍّ مستطير. فانبرى أحد الشعراء يفسّر التهدّم الفجائي بأنّ المنارة خرّت ساجدة عندما سمعت سور القرآن تتلى تحتها، وقال في ختام قصيدته ما معناه أن لا مصائب بعد ذلك الحادث وأنّ الهناء سيصبح شاملاً، فلم يجدِ شعر الشاعر وتفسيره نفعاً في ردّ الغائلة. وبعد أيامٍ معدودة نكب السلطان في هنائه وملكه وحياته.

* * *

هذا، على ما يقول الأثريون، أجمل جوامع القاهرة وأكملها فنّاً. والصنعة فيه غيرها في جامع ابن طولون بحكم الزمان الفاصل بينهما، ووقع زيارته مختلف كذلك في نفوسنا.

فقد كان جامعاً وحصناً ومدرسة دينية في آنٍ واحد، ولكل من المذاهب الإسلاميّة في فنائه إيوان خاصّ، وإنْ كان إيوان الشافعية أرحب مساحة وأوعب فنّاً، وفي صدره يتجلّى المنبر الشاهق الأنيق. وفي وسط الفناء بركة جافّة يُقال إنّها أيام

ازدهار الجامع، كانت ملأى بعصير الليمون والسكر المذاب فيتناول الطلبة ما شاءوا منه بكؤوسهم ويشربون. ومن السقوف المرتفعة تتدلّى السلاسل العديدة منبئة بالمصابيح التي كانت معلَّقة هنا وقد نقل ما تبقّى منها - وبعض تلك المصابيح يقدَّر بألوف الجنيهات - إلى دار الآثار العربية حيث هي معروضة للغواة والقاصدين.

ومع أنّ الجدران من هذا الجامع العاري مماسّة في شيء من الجفوة، فالبدائع الفنّية تكسوها من كل صوب. وجميع الموادّ الصلبة المستعملة فيه من حجر ومرمر ونحاس وذهب وفضّة وخشب، كلّها جرت فيها يد الصانع الماهر مخرّمة منمنمة حافرة ناقشة راسمة، فأخرجت فنّاً وطرازاً هما للنظر بهجة وللقلب عيد. وإذ نحن نسير على الأرض نفسها التي سار عليها أبناء الجيل الذي شهد بناء هذا الأثر، ونتأمّل في براعة تلوين المرمر ونقشه، إذا بنا نسمو بالبصر إلى السقف الشاهق متسائلين - بعد أحد المحامين من جمعنا - كيف استطاع البنّاؤون أن يعقدوا الأروقة التي تخيّل متماسكة في الهواء دون أن تستند إلى شيء ثابت على الأرض. وإذا نحن نرقب الإفريز العريض الذي يحبو دائراً حول هذه الجدران، مدوّناً آيات قرآنية تتشابك حروفها بالنقش الدقيق والزخرف النحيف، فنحسبها لرقّتها وشفوفها من «دنتلات» أثوابنا النسائية وتطريزها. وإذا نحن نعجب هنا كذلك ببراعة العامل المصري المعاصر في الترميم وتقليد الفنّ القديم. وإذا نحن نسأل دليلنا العالم عن الخطّ الأحمر الظاهر في الإفريز الجميل فيجيب أنّ اللورد كرومر[1] زار مرّة هذا الجامع فقال للذي كان يدلّه على القطعة المرمّمة إنّه لا بدّ من الإشارة إلى مفرق العمل بين العهد الماضي والعهد الحاضر، فوضعوا هذا الخطّ الأحمر لاستصوابهم ملاحظة العميد الأسبق.

لم نلج الأبواب الضخمة المصنوعة من الخشب الملبّس بالنحاس المخرّم المطعّم بالفضّة والذهب، فنتفقّد جوانب المكان وقوائمه ونقترب من الشبابيك الواسعة التي رأينا أنّ عرض كل من حوائطها أربعة أمتار. ويزيد شعورنا بأنّ هذا المكان حصن عندما ننظر من الشبابيك إلى الخارج فتظهر في جدران جامع الرفاعي المقابلة آثار القنابل وضرب المدافع التي تبودلت من هنا طلقاتها. ونجول حول المدفن القائم في الوسط فتأخذنا الكآبة إذ نعلم أنّ صاحبه ليس فيه ولكنّ الراقدين هنا بعض أبنائه العشرة. أمّا

السلطان حسن فقد فرّ وتنوّعت الظنون والأقاويل في كيفية وفاته فلم يبتّ فيها، فمن قائل إنّه انتحر ومن قائل بأنّ يد الأعداء اغتالته، ومن قائل إنّ الماء جرف رفاته. وعلى كل فإنّ حياته ختمت بفجيعة تمتزج بذكره وسيلازمنا خيالها إلى ما بعد نهاية هذه الجولة الزاخرة بالفوائد والتأثيرات.

* * *

خفافاً تصعد بنا السيارات ناحية المقطّم التي تعلوها القلعة وسرعان ما نجوز المنطقة الأولى التي شيدت في عهد صلاح الدين، إلى المناطق التي أضيفت إليها في مختلف العهود. حولنا الأسوار الرهيبة، وأمامنا ووراءنا الأبواب الكبيرة المهدّدة بالعنف والقساوة العسكرية.

لا يبقى إلّا مبعثر الأطلال من القصر الذي كان يقطنه صلاح الدين وهنا وهناك أعمدة مطروحة وقطع محطّمة تدلّ نقوشها على أنّها من العهد الفرعوني أو من العهد القبطي المسيحي وقد استعملها البناة العرب لجمالها سواءً في هذه القلعة وفي غيرها من القصور والجوامع.

كل من المناطق ذات طراز هندسي خاصّ يميّزها عن المناطق الأخرى. أمّا منطقة محمد علي فتمتاز بمرمرها النظيف المخدوم الكاسي الرحبة المنبسطة أمام الجامع، وتحت السور القرآنية المنقوشة على الجدران كلمات تركية تشترك مع فنّ المكان وتفاصيله في إشعارنا بأنّنا هنا قيد التأثير التركي. وفوق الهضبة المطلّة على المدينة يقوم برج الساعة المهداة إلى محمد علي من الملك لويس فيليب الفرنسي. فشكره والي مصر بأن أهداه أفخر مسلّة مصرية تعرف، وهي المنتصبة في ميدان «لا كونكورد» بباريس، الذي كان مركز المقصلة المخيفة إبّان الثورة الفرنسية. والآن فوق ذلك الدم المسفوك تقوم هديّة مصر كإشارة رحمة للموتى وبركة للأحياء.

بانتقالنا إلى هذا الجامع خطونا في تطوّر الفنّ بمصر أربعة قرون أخرى، لأنّ عمر جامع محمد علي في القلعة لا يزيد على مائة وسبعة عشر عاماً. ورغم مظهره الملوكي وعمرانه ومرمره الملوّن الشفّاف وطنافسه الحمراء ومئات المصابيح الكهربائية المعلّقة في فضائه حول النجفة الكبيرة الفاخرة، فهو بفنّه دون الجامع السابق، لأنّه نسخة من

جوامع الأستانة المنقولة عن الهندسة البيزنطية. ويستلفتنا الدرابزون الدائر عالياً حول الجدران فيقال لنا إنّ هذا المكان مُعدّ للنساء وإنّهنّ كنّ يصلّين هنا في عهد محمد علي وفيما بعد. وترى هذا الفارق إلى اليوم في بعض كنائس الأرثوذكس ورثة الروم والبيزنطيين في العادات الدينية والطقوس الكنسية. أمّا في العهد الحاضر الذي نشيد بنهضته محقّين، فلا مكان للنساء المسلمات في الجوامع وحيث أفرد لهنّ المكان لا يسمح لهنّ بالحضور.

* * *

نلقي التحيّة على مدفن الوالي الكبير الذي يقترن اسمه بنهضة مصر الحديثة ونغادر جامعه ومدفنه إلى الدار التي سكنها فنزور قاعاتها وحمّامها المرمري الجميل، ونشرف من نوافذها على القاهرة التي أُرخيت على جوانبها سدول الشفق.

تحت قدمينا في أسفل الهضبة تنبسط «المصطبة» مكان الاحتفال بسفر المحمل وعودته، والتي سيقام فيها هذه السنة الاحتفال بمولد النبيّ الكريم. لقد كانت هذه «المصطبة» في الأصل ميداناً لابن طولون، وكان قصره بفروعه وجوانبه وملحقاته وحدائقه يشغل المسافة كلها بين هذا الميدان والجامع الذي يبدو الآن غائصاً في كتلة القاهرة المتجمّعة بمنازلها وبناياتها في ما يشبه الوهدة. وفوقها تتعالى المآذن والمنائر والقباب والأبراج، منها المتحازي[٢] حتى ليظهر على البعد متلامساً، ومنها الموزّع المنثور. وفي طرفها الآخر ابتسامة النيل اللجينية تحت الأشجار الحانيات عليها. وهناك، هناك عند مدخل الأفق تلك الأطياف الثلاثة القاتمة، ذوات الشكل الحادّ والرأس المسنون، الأهرامات الخالدة المنتصبة منذ ألوف الأعوام رمزاً لحضارة الفراعنة وطابعاً فريداً لوادي النيل.

* * *

لا يفوت الأستاذ يوسف أحمد شيء من أسرار الآثار ولا يفوته كذلك شيء من الذوق الحسن. فهو الدليل الذي تنفتح أمامه جميع الأبواب. وهو الذي هيّأ لنا الجلوس في الحديقة أمام دار محمد علي حول الفسقية المرمرية التي تقذف أسودها الأربعة من أفواهها الماء دون تدفّق ولا جلبة. وإنّما ينحدر الماء ضعيفاً إلى أرض البركة ولانحداره

أنين كأنّما هو حديث للشجن والذكرى في هذا المساء ذي الربدة المقيمة. ولئن رأينا إلى جانبنا سلسلة القناطر التي كان يجلب منها ماء النيل حتى هذه القلعة، فإنّ هذا الأثر النفعي الهندسي يضعف معناه وسط روح الأسى المرفرف الآن على هذا الجانب من المدينة.

فهنا حكم صلاح الدين بطل الإسلام ثمّ مضى. وهنا ومض مظهر من عظمة محمد علي الذي جاهد وحكم ثمّ قضى. وهنا تمّت فجيعة المماليك الدموية. ومن هنا، من على هذه الصخور، قمز المملوك الشارد على ظهر جواده فعرّض نفسه لموت ممكن تخلُّصاً من موت محتوم. وهنا كان قصر شجرة الدرّ[٣] التي حكمت ثلاثين يوماً فقط أظهرت فيها ذكاء المرأة ومقدرتها، ونظّمت حفلة المحمل وإعداد الكسوة، لتنتهي بعدئذ في ميتة شنيعة أليمة.

كل هذه الذكريات تخيّم علينا مع الأشجار حول البركة المرمرية، وتنال من سرورنا، نحن أشباح اليوم الزائلة، رغم الصوت النسائي الضاحك بيننا ورغم أصوات الرجال المرسلة حولنا أنساً اجتماعياً وفائدة علمية، فلا يغضّ ذلك من الوحشة المستولية علينا. لا يغضّ منها حتى ولا تجلّي الهلال لامعاً فوق المدينة العظيمة. ولكن يصرفنا عنها دقائق قول الأستاذ يوسف أحمد إنّهم وجدوا في الآثار التي عقبت بناء جامع السلطان حسن صورة هلال يتوسّطه صليب. وهي تدلّ على أنّ ما نراه اليوم من ائتلاف العنصرين المصريين، المسلم والقبطي، قد حُوْوِلَ تحقيقه منذ ذلك العهد. وكان من حظّنا نحن أبناء اليوم أنْ نراه تامّاً في الحياة المصرية وجامعاً أبناء الأمّة في قومية واحدة.

وهناك بين أطلال ساحة «الفرمان» سمعنا صوت نفير آت من بعيد. فزاد ذلك الصوت المأنوس في وحشتنا. ولكنّنا إذ عدنا إلى المدينة المتجلببة بحلّة الأنورا، كنّا نرفع بصرنا إلى الهلال الفتيّ فنرى فيه ذلك الاسم الواحد العظيم الذي تنقشه على البسيطة تقلّبات الفصول، وتكتبه كل يوم في القبّة السماوية حروف السيّارات والكواكب والشموس والسدم، الاسم الذي قرأناه اليوم مئات المرّات على جدران الجوامع: اللّه!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٤١، ٢٨ أيّار/مايو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Evelyn Baring Cromer (١٨٤١ - ١٩١٧)، سياسي بريطاني، عمل بين ١٨٧٢ - ٧٦ و ١٨٨٠ - ٨٣ في الهند في خدمة التاج البريطاني، وبين ١٨٨٢ - ١٩٠٧ كالمفوّض العامّ والقنصل العامّ البريطاني في القاهرة. أيّد بقوّة مصالح السياسة الاستعمارية البريطانية، وشارك عام ١٩٠٤ مشاركة فعّالة في إبرام الاتّفاق الودّي الذي تمّ بموجبه إقرار فرنسا بهيمنة بريطانيا على مصر. كما عزّز السلطة البريطانية في الداخل من خلال تنظيم الإدارة وإصلاح الشؤون المالية.

(٢) كذا في الأصل، وصوابها «المتحاذي».

(٣) شَجَرة الدُرّ، ملكة مصر عقب وفاة زوجها الملك أيّوب بن محمد واغتيال ابنه توران شاه عام ١٢٥٠ . تزوّجت وزيرها وتخلّت له عن الملك، ثمّ انقلبت عليه. قُتلت عام ١٢٥٧ .

في جامع المنصور قلاون وما يحيط به

سوق النحّاسين

النهار في ساعاته الأخيرة والحركة هنا في أشدّها. وفي الشارع المتوافق والفتوى القديمة من اتساع عرضه لجملين محمّلين، يسعى ذهاباً وإياباً الرجال والنساء والأطفال والباعة والمركبات والحمير وعربات الكارّو. ولا يخلو الجمع المائج من الدرّاجات والسيارات. كل في ذلك الازدحام يفلح في شقّ الطريق إلى حيث يقصد، إنساناً كان أو حيواناً أو آلة، مما يدلّ على مهارة الناس والعجماوات والآلات في التصرّف بعد التصميم على أمر ما!! وعبثاً نودّ التريّث لنتمكّن من إمعان النظر في ما يتألّق وراء زجاج الصاغة من المصوغات والحليّ البلدية، أو لنعرض ما حوته الدكاكين الأخرى من مختلف الحوائج والأمتعة. فأمرُنا الآن بيد السائق ووقتنا مرهون وغايتنا واضحة. وها هو جامع قلاون[1] يتلقّانا بجدرانه المهيبة ومنارته الذاهبة صعوداً في الجوّ، كأنّما هي تدعونا أبناء الأرض إلى التملّص مما يلتصق ببشريتنا لنسمو بأنبل ما فينا إلى أفق أطهر وأجمل.

لكل من جامع قلاون وجامع السلطان حسن أنصار يضعون الجامع المختار في المكان الأول بين جوامع القاهرة المناهز عددها الخمسمائة، مشيدين بما يميّز جامعهم من انسجام العمارة ورواء الفنّ والدقّة الزخرف. فإن سبق أنّك زرت هذين الجامعين، أو كنت مقدماً على زيارتهما، فانظر من أيّ الفريقين أنت واشرح للقارئين الأسباب في كونك «قلاونِست» أو «حسنِيست». وعلى كل فضلعك مع الأسرة لأنّ السلطان حسن حفيد السلطان قلاون، على قول علماء الأنساب، والجامعان من غرر الفنّ العربي. وكما أنّ جامع السلطان حسن مكان عبادة ومدرسة وحصن جميعاً، كذلك جاء جامع السلطان قلاون قبّة (مدفناً) ومدرسة وبيمارستاناً (مستشفى)، وقد أنشئ في

سنة ٦٨٣هـ، أي منذ ستّة قرون أو يزيد. واستغرق بناؤه ١٣ شهراً وأياماً قلائل لأنّ الناس سُخّروا للاشتغال به وفي نقل الأعمدة والرخام والقواعد والعتبات من قلعة الروضة إليه. فعلاوة على الثلاثمائة أسير مسخّرين للعمل أُرغم جميع صنّاع القاهرة ومصر على التفرّغ له. كذلك لم يكن يمرّ أحد وإنْ كبيراً بين القصرين إلّا ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه في العمارة. فتحوّل أكثر الناس عن المرور من هناك.

ويظهر أنّ الأيام التي كانت تجرّ فيها الأعمدة كانت أياماً مشهودة، فيطلق على الواحد منها اسم «يوم جرّ العمود». وتبتاع النساء الأثواب الجديدة الجميلة ليرتدينها في ذلك اليوم. ويقولون مع هذا إنّ تبرّج النساء في هذا العصر فاق كل تبرّج سابق!

* * *

أمّا القبّة فمدفون بها السلطان قلاون وابنه السلطان الناصر محمد والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد. أمامها قاعة مفروشة أرضها بالرخام تكاد تكون تامّة الترميم سواءً في سقفها الباهر، ومحرابها الذي لا نظير له، أو في جدرانها المكسوّة بالرخام المنقوش بمئات الرسوم والنقوش والمطعّم بفسيفساء الذهب والفيروز والصدف والخشب النفيس، وشبابيكها ذات الزجاج الملوّن الرقيق، والسور القرآنية الدائرة حولها برواء وفنّ وتنوّع عجيب. يا لهذا الفنّ العربي من فنّ أخّاذ سحّار! لقد اختار أدواته من شتّى الهندسات السابقة وطبعها بالطابع الإسلامي، وكأنّه لم يحذف الصورة البشرية من دائرته إلّا ليظهر مقدرة العبقرية الإنسانية في خلق فنّ جديد، ولو لم يكن لديها ما تتفنّن فيه سوى كتابة للآيات القرآنية وتكرار كمّية محدودة من الأشكال الهندسية!

ولما كانت الأشكال الهندسية ذات مغزى خاصّ فلا شكّ عندي في أنّ جميع هذه الرسوم التي نراها على جدران الجوامع رمزية في الأصل، منها الوردة المشتقّة من المسدّس الذي هو صورة خاتم سليمان المكوّن من مثلّثي الزوايا، ثمّ طرأ عليه زخرف مع الوقت فتكيّف وتنوّع فإذا به نجمة وإذا به وردة. كذلك رأيت في جامع قلاوون عدداً غير يسير من رسم مرسى السفينة في اتجاه أفقي وسطحي(٢) متعاقب. ومعلوم أنّ

المرسى يرمز إلى الرجاء والأمان. أَوَليس هذا خير رمز ينقش على حيطان المعابد، للدلالة على ما يجده المؤمن في يقينه من أمان وراحة ورجاء؟

أمّا المدرسة فقيل لنا إنّها بنيت على طراز الحمراء في قرطبة. الحمراء! هذه الكلمة وحدها تعيد إلى خاطرنا كل مجد العرب في الأندلس وكل حضارتهم، وآدابهم وعلومهم وتقدّمهم، حتى كان يقصد إلى جامعاتهم علماء الغرب ليتلقّوا على الأساتذة المسلمين الآداب والمعارف والعلوم، وليحذقوا ما قاله روجر بيكون[٣] من «أنّ العرب إذا هم كانوا أساتذة في فنّ الحرب فهم كذلك يستطيعون أن يكونوا أساتذة في فنّ السلم».

وأمّا البيمارستان فقد امّحت آثاره وقام الآن على أنقاضه مستشفى الرمد التابع لوزارة الأوقاف. والداعي إلى إنشاء هذا البيمارستان هو أنّ قلاوون مرض بمدينة دمشق في ٦٧٥هـ فعالجه الأطبّاء بأدوية أخذت له من بيمارستان نور الدين بتلك المدينة. فلما شفي عاين ذلك البيمارستان فأعجب به ونذر إن آتاه اللّه الملك أن يبني بيمارستاناً. فوفى بنذره، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً. وإذا طلبت المزيد من وصف هذا البيمارستان فعليك بالأستاذ يوسف أحمد فهو يتحفك أيضاً بتاريخ إنشاء المستشفيات في الإسلام ويثبت لك أنّ الغرب أخذ نظامها وفكرتها عن الشرق كما أخذ عنه أشياءَ أخرى كثيرة، ليزيدها إتقاناً ونظاماً ويحكم تطبيقها على مختلف الحاجات.

* * *

خرجنا من هذا الجامع مستمعين إلى من ينبئنا بأنّ الأرض التي يقوم عليها كانت من قبل ملكاً لمؤنسة القطبية[٤] وفيها بعض آثار الفاطميين. فجابهتنا قبّة الصالح التي بنتها شجرة الدرّ لزوجها الملك الصالح عندما توفّي وهو على مقابلة الفرنجة بناحية المنصورة. فكتمت زوجه موته وبقيت أمور الدولة على حالها، وشجرة الدرّ تخرج المناشير والتواقيع والكتب، وعليها علامة بخطّ خادم يقال له سهيل فلا يشكّ أحد في أنّه خطّ السلطان، وأشاعت أنّ السلطان مريض ولا يمكن الوصول إليه، ثمّ أحضرت الجثّة إلى هذه القبّة بعد أن تمّ بنيانها.

إلى أين نتوجّه الآن؟ لقد اجتمع لهذه البقعة من القاهرة من الآثار ما يكفي بلدة بأسرها. أنعاين باب الجامع القائم إلى يسرتنا الذي يقول لنا الأستاذ محمود أحمد إنّه باب كنيسة نقل إلى هنا من عكّا بفلسطين؟ أجل نلقي عليه نظرة فقط ثمّ نسارع إلى قاعة كتخدا(٥) التي أصلحتها لجنة حفظ الآثار العربية بالعناية والدقّة التي تسم جميع أعمالها. ونقلت إليها فسقية من الرخام البديع الألوان من منزل قديم ووضعتها بين مشربيتين من الخشب المخروط تشرفان على القاعة كانتا معدّتين للغناء، لأنّ الإسلام الديمقراطي قبل أن يدخل اسم الديمقراطية على اللغة العربية، كان قد اعتاد ألّا يخلط المغنّيات بالمدعوّات. واستمرّت هذه العادة إلى عهد الخديوي إسماعيل باشا، ثمّ أخذت تتطوّر الحياة المصرية في جميع دوائرها.

وفي أطراف القاعة سلّم إلى مكان معقود عليه قبّة من الحصى مفرغة بأشكال هندسية، والحيطان كانت مكسوّة بالقشاني الذي لم يبق إلّا أثره وبعض قطع صغيرة منه دالّة على ندرته. وهناك اشتبكت بين الأستاذ يوسف أحمد والأستاذ داود بركات مناقشة فقال مفتّش الآثار العربية إنّ هذا المكان مكتبة، وقال رئيس تحرير الأهرام إنّ هذا المكان حمّام. مكتبة؟ حمّام؟ لقد جاء كل من المتناظرين بأدلّته، وجمعُنا الحاوي لنفر ممتاز في القضاء والقانون والهندسة والأدب اعتنق إمّا هذا الرأي أو ذاك.

وببقايا هذه المناقشة جزنا جانباً من الميدان الموجود به الآن قسم بوليس الجمالية والمباني الملحقة به الخاصّة بقلم المكاييل والموازين والذي كان في الماضي داراً عظيمة حتى وصلنا إلى التحفة الفنّية المعروفة لعلماء الآثار باسم مقعد ماماي السيفي(٦). وقد هدّمت الحكومة الجناح البحري الغربي من تلك الدار أثناء فتح شارع بيت القاضي حوالي سنة ١٢٩٠ هجرية وعُمل بالمقعد غرف في زمن ما واستعمل محكمة شرعية. وقد ساءت حالته حتى أدركته لجنة الآثار العربية فهدمت الغرف وأصلحت السقف المموّه بالذهب البديع في نقوشه وتلوينه، ومن الغرائب أن تكون الحواصل الواقعة تحت المقعد مؤجّرة من وزارة المالية لأناس لا يعتنون بأمر النظافة ولا يحترمون الآثار، في حين كان الواجب أن يكون هذا المكان الفريد متحفاً صغيراً تُجمع فيه مثلًا آثار ذلك الحيّ. فلو فرض على كل زائر دفع خمسة مليمات لا غير لزاد هذا الدخل على أجرة

الحواصل ونفقات المتحف الضئيلة، وكان ذلك لمصر المتيقّظة أكرم وبذكائها أجدر. وهو رأي وافق عليه أعضاء «رحلتنا الأثرية» بالإجماع. فعسى أن يلقى من أولي الشأن أذناً صاغية.

* * *

المناقشات متتابعة ونحن نتابع سيرنا بين الحارات المتعرّجة التي أخذت تشعل هنا وهناك مصابيحها الأولى. وبعضها، يا سيّدي القارئ، - بلا ضحك! - كهربائي. ما أبعد البون بين معنى هذه الآثار وحياة أهل الحيّ!

وإلى أين تظنّنا الآن قاصدون(٧) في أواخر الشفق وفي أطراف هذه الحارة؟ أإلى المسافر خانة التي كانت في الأصل منزلاً لمحمود محرّم التاجر صاحب الجامع الموجود على رأس الحارة المؤدّية إليها والتي أنشأها في سنة ١١٩٣؟ إلى تلك الدار وما فيها من فسقية ومشربيات ونقوش ورحبات مع أن الدور التي تشبهها في مصر كثيرة؟ أم لنسمع عنها أنّها آلت إلى محمد علي باشا الكبير فجعلها مسافر خانة ثمّ عزم ذووه على جعلها مدرسة للبنات، وأنّ هذه المسافر خانة للآن تابعة للأوقاف الملكية؟

كلّا! بل قصدنا إلى تلك الدار لأنّ فيها ولد إسماعيل الصغير الذي صار بعدئذ خديو مصر العظيم، والذي ما سرنا يسرة أو يمنة في داخل القاهرة الجديدة أو في ضواحيها إلّا ومررنا بأثر من آثار عظمته وتجديده وهمّته، وهناك في الغرفة العليا التي ولد فيها الطفل إسماعيل وقفنا خاشعين.

الهلال في نموّه ينير القاهرة الغائمة والسيارات تسعى إلى أعالي المدينة السحرية، إلى ما فوق المقابر، بالقرب من مدافن المماليك التي سمّيت خطأً مدافن الخلفاء. فمشهد القمر وهيئة السماء وبعد المدينة والمدافن القائمة حولنا أشباحاً سوداء، والعجاج الذي تلتحف به من الضباب والتراب، كل ذلك يكوّن حولنا جوّاً شبيهاً بجوّ الأحلام. وها هي ذي أنوار الأحياء العامرة تجبهنا، وها هي ذي مناظر الشوارع الأوربية توقظنا.

كل ما في هذا المقال، يا صديقي القارئ، من وصف أثري وتاريخي أنا مدينة به للأستاذ يوسف بك أحمد ولمعاونه، إلّا التأثّر فهو ملكي، وأنا أهديكه في صباح هذا العيد السعيد فليكن عليك عيداً مباركاً! ولتر أمثاله أعواماً عديدة وأنت أتمّ يقظة للحياة

الجديدة، أتمّ معرفة لتاريخ بلادك وآثارها، أتمّ إلماماً بما يدّخر لك الماضي والحاضر لإعداد المستقبل، أتمّ نبلًا وعلماً ورفعة ورغبة في الرفعة!

أسعيد أنت؟ فليوسّع اللّه في سعادتك! أمتألّم أنت؟... ما أقسى أيام الأعياد على القلوب الوجيعة!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٤٧، ٣٠ أيّار/مايو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) نجد في النصّ هجائين مختلفين للاسم: «قلاون» و «قلاوون».

(٢) كذا في الأصل، والمعنى غير واضح.

(٣) Roger Bacon (حوالي ١٢١٩ - ١٢٩٢)، عالم ورجل دين وفيلسوف إنكليزي. عُرف بصفته مؤسّساً للمنهج التجريبي في الاستدلال وأحد الباحثين الأوائل في دراسة علم البصريات.

(٤) عصمت الدين مؤنسة خاتون (١٢٠٦ - ١٢٩٣)، ابنة الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيّوب، من أشهر محدّثات عصرها. أنشأت مدرسة في أول حارة زويلة عُرفت بالمدرسة القطبية، نسبةً إلى أخيها الملك الأوحد قطب الدين أحمد.

(٥) الكَتْخُدا أو الكَتْخُداي، اسم فارسي كان يُطلق على معتمد الوزير ومدبّر أشغاله.

(٦) الأمير ماماي السيفي، أحد كبار أمراء المماليك البرجيين الذي علا شأنه في عهد السلطان قيتباي المحمودي (١٤٦٧ - ١٤٩٦). وأمّا المقعد فهو أحد أهمّ الأجزاء في قصور السلاطين والأمراء والأعيان في العصور الوسطى وهو عبارة عن قاعة كبيرة لاستقبال ضيوف الأمير وزوّاره.

(٧) كذا في الأصل، والصواب «قاصدين».

عند أبواب القاهرة القديمة

جئناك من القرب البعيد الذي لا تستطيعين بلوغه نتفقّد أحوالك ونتسقّط أخبارك، أنت التي لا تعرفين عنّا خبراً ولا تفقهين لنا حالاً. مثقلين بالحياة المتعاقبة علينا في شتّى أيامها السخيّة والضنينة وشتّى معانيها الوفيّة والخؤونة، جئنا نستطلعك قسط الحياة المدّخر لديك في معانيه الشتيتة. فحدّثينا، يا أبواب القاهرة القديمة، ولا تخافي الإسراف! حدّثينا، فصوت الحياة لشعور الحياة أليف، وضمائر الحياة ووقائعها لتطلّع الحياة وتساؤلها نجيّة!

نحن المحدثين العابرين نعرف منك ومن تاريخ بنيانك ما أنت العريقة الأصلية لا تعرفين. نحن ندري أنّ الأحد عشر باباً التي كانت السبيل من المدينة وإليها لم يبق منها إلّا بعضها، وهو أنت التي تمثّلينها اليوم جامعة بين أبراجك وحصونك أنباء الطوارئ السحيقة. فماذا أنت عالمة من هاتيك الأبواب البائدة وما أشرفت عليه من سير وعبر؟

نحن نعلم أنّ سور القاهرة القديمة الذي أنت بقيّته الباقية بني وهدم ثلاث مرّات في أطوار مختلفة: فمن سور وضعه القائد جَوْهَر في عصر المعزّ(١)، إلى سور وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي في أيام المستنصر(٢)، إلى سور وضعه بهاء الدين قَراقوش في أيام صلاح الدين الأيّوبي(٣). فهل تعلمين أنت عن أصحاب هذه الأسوار ومميّزاتهم شيئاً؟ ألك إلمام بما التصق ببنيان هذه الأسوار من تشاؤم وتفاؤل، وباللغز الذي من أجله سمّيت القاهرة بالقاهرة؟

لا أخالك تعلمين، أيّتها الأبواب! بل أنت عن كل ذلك غافلة، وحسب كل منك العكف على ما هو خصيص به. فأفضي إلينا بذياك اليسير الغزير فرُبَّ كلمة أجمع من سِفْر، ورُبَّ دمعة أبلغ من تاريخ!

أنت، باب زويلة، حدّثنا عن البابين اللذين سبقاك باسمك، وعن القبيلة التي عرفت بها، وعن جنود تلك القبيلة الذين عبروك وعسكروا في جوارك! حدّثنا عن

دخول المعزّ من أحدهما وعَلامَ تيامن الناس بعد ذاك بولوجه وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الألسنة أنّ من مرّ به لا تقضى له حاجة!

وحدّثنا بعد عنك مذ صرت باباً واحداً لا يرى المؤرّخون له مثيلًا في بلدان المشرق من حيث الاتّساع والفخامة، ولا مثل بدنتيه القائمتين إلى جوانحه، حتى هدم أعلاهما الملك المُؤَيَّد إذ أنشأ الجامع، وعمر على البدنتين تينك المنارتين الباذختين.

وتخطَّ حقبات الزمن إلى ما يسلف عصرنا بخمسة قرون وصِف ما شهدته من تلك المأساة التاريخية التي زهقت فيها روح الأشرف طومانباي(٤)! أحفظت له بين حجارتك ذكراً؟ إذ أنابه عنه السلطان سليم في الحكم على أن يعترف له بالسيادة، ويضرب النقود باسمه ويدعو له في الجوامع، وأنّه لقاءَ ذلك يرجع عن قتاله. فلم يستطع طومانباي التسليم بمطالبه رغم علمه بأنّ الفوز له، لأنّ المماليك أبوا إلّا متابعة الحرب. فهزمت جيوشهم، وفتحت القاهرة رغم ما أبداه طومانباي من البسالة والبطش والاستخفاف بالموت. وفرّ المحارب المغلوب يوم أن دخل الفاتح واستولى على قلعة الجبل. ولكنّ أحد العربان ظفر به وسلّمه للقويّ الذي شنقه عليك، يا باب زويلة!

أآسيفاً رأيت آخر السلاطين من المماليك الجراكسة يلفظ هنا آخر أنفاسه؟ أم أنت لم تأبه له أكثر من ذاك الذي سلّمه واغتنى وأسرته التي ما زالت إلى الساعة تنعم بثمن ذلك الدم المهدور؟

حدّثنا، أيّها الباب، عن مضض الباسل القتيل ونشوة الفاتح الظافر كما تحدّثنا هذه الخرق المعلّقة بمساميرك عن آمالها وأسرارها ومطالبها! فكم من حبّ جاء هنا متلهّفاً، وكم من يأس جاء هنا راجياً، وكم من قلب جاء يسترحم الحياة من مظالم الحياة!

* * *

وأنتما، باب النصر وباب الفتوح، المنتصبين إلى جانبي جامع الحاكم شقيق جامع ابن طولون ومثيله ومعاصره، أنتما اللذين(٥) نُقل كذلك وضعكما وتبدّل مكانكما وظلّ الذاهبون إلى القتال والفتح يخرجون تيمّناً من أحدكما، باب الفتح(٦)،

ليعودوا وقد تحقّقت أحلامهم من باب الفتوح! أنتما قدّما لنا مثلًا بشرياً من الذكاء والنشاط الذين[٧] يرفعان إلى أعلى مراتب الدولة! حدِّثانا عن بدر الجمالي المملوك الأرمني الذي بناكما وباب زويلة، وما زال يأخذ بالجدّ ويوطّن نفسه على قوّة العزم وينتقل في الخدم حتى ولّي إمارة دمشق، ثمّ تقلّد نيابة عكّا، ثمّ عاد إلى مصر بدعوة المستنصر ليتولّى تدبير الدولة وتنظيم شؤونها المضعضعة. فقبض على جميع الأمراء واستولى على دورهم، وصارت رؤوسهم بين يديه حتى أصبح صاحب الكلمة والسلطان، صاحب الطيلسان المقوَّر المتقلّد وزارة السيف والقلم. وزيد في ألقابه فصار أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين تحكّم في مصر تحكّم الطغاة الصالحين، واستبدّ بالأمور فضبطها أحسن ضبط، وكثر كرمه وانتشر عدله فحضر التجار إلى المدينة بعد انتزاحهم منها في أيام الشدّة. وعمر البلاد وأصلحها بعد الفساد والخراب، وأباح الأرض للمزارعين مدّة ثلاث سنين حتى ترفّهت أحوال الفلّاحين واستغنوا في أيامه. ثم مات بعد أن بقيت سيطرته إحدى وعشرين سنة وكان أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر.

ولكن كيف تذكران شخصاً واحداً، وإن كان بانيكما، أنتما اللذان رأيتما جحافل الغزاة والكماة والفاتحين فوجاً بعد فوج؟ أتعرفان أسماء الشعوب التي سبقت وجودكما إلى مصر من الرعاة الهِكسوس[٨]، إلى الأحباش، إلى الفرس، إلى كتائب الإسكندر وكتائب قيصر؟ وأسماء الشعوب التي عقبتكما من العرب إلى الترك، إلى المماليك، إلى صولة النسر الفرنسي وتجلّي محمد علي الذي ارتفع بانتصاراته وذكائه على عرش سيزوستريس[٩]؟

لقد اجتاحوا جميعاً سهول النيل المقدّس مجذوبين بخصب الأرض وعذوبة الجوّ وتفرُّد موقع الوادي في مكان مفتوح من كل ناحية، يسيطر على طريق المشرقين وفيه تجتمع القارّات الثلاث ومنه تتفرّق برّاً وبحراً.

ساقتهم جميعاً العزائم والمطامع فلبّوا نداء الحياة حيث صوت الحياة أعذب وأعمق وأقوى ما يكون! ونحتوا حين مرّوا سجلّ حياتهم الفانية في هذه الآثار الباقية!

ولكن تحت هذا الطوفان العسكري المتواصل إلى جانب عوامل التغيّر والتطوّر، ظلّت كتلة الشعب المائج بين أروقتكما وفي الأحياء المجاورة صامتة ساكنة، محتفظة بالحيويّة المصرية العتيدة، باقية على خلقها القديم في طرازها القديم فالأقوياء عندها هم المغلوبون، وهي في سكونها وإعراضها القويّة القاهرة!

لقد جعلت هذا الحصن حصنك مقابلًا لقلعة صلاح الدين، يا نابوليون! وإلى جانب أسماء السلاطين نقشت على جدران الأبراج أسماء قوّادك. فتعال وانظر، لم يبق من كتائبك الزاحفة سوى بعض قبور الراقدين الذين احتضنتهم الأرض المصرية. ولم يبق منكم جميعاً إلّا الأثر المرمّم والطلل البالي والأسماء المنبئة بأنّكم جئتم ثمّ انصرفتم! أرأيت كيف أنّ الحجر الأصمّ أطول عمراً وأمكن بقاءً من الإنسان المبدع المجيد؟

غير أنّ الآثار والأطلال تدلّ على شؤون تمّت في زمن معيّن. وأمّا بنو الإنسان فهم الذين يشيدونها ويستأنفون الحياة خلفاً بعد سلف. ولولا ذكاؤهم وعنايتهم لما كان هناك تاريخ ولا كان هناك من يعنى بوقائع التاريخ ودروسه!

* * *

نغادرك، أيّتها الأبواب، ولا ندري أأنت التي حدّثتنا أم نحن كنّا لنفوسنا محدّثين؟ بل أنت متحدّثة بصمتك ووجودك، ونحن متحدّثون بالكلام والكتابة والإصغاء والذكرى.

هنا في ناديك خيّل أنّنا نسمع سنابك الخيل القديمة تجتاز زلاقاتك، ونلمح عزّ الجيوش المظفّرة، ونرى توارد المواكب من جميع الأجناس والشعوب، ثمّ رأينا طيور الظلام تجفل من وقع أقدامنا، وسمعنا تغريد الأطيار في فسحات جامع الحاكم بين الخرائب التي يريد الأثريون والمهندسون أن يرجعوا إليها رونق الماضي وبهجة العمران، وأبصرنا أسراب الحمام سابحة فوق رؤوسنا بين الغيوم المذهبة بخيوط الغروب في سماء باهرة الزرقة والصفاء.

إنّ ما يملأ نفوسنا الليلة هو صوت الحياة الفيّاح. فالحياة الحياة هي المتشكّلة بجميع الأشكال، الدافقة بجميع السوائل، النابضة بجميع العناصر، المطلّة من كل

جماد، المخصّبة في كل زرع ونبات، المشرقة في كل نجم وسحاب وشعاع، المدمدمة في كل صدى، المتحرّكة في كل حركة، العاملة في كل تطوّر!

يدها أقامت المدينة وآثارها، ويدها هدمت لتبني من جديد. يدها شادتك، أيّتها الأبواب، لحماية العاصمة وتحصينها، ويدها كذلك نقضت أسوارك ودكّت قلاعك لتتفجّر بالشوارع الجديدة إلى أقاصي السهول شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

نغادرك، أيّتها الأبواب القديمة، والحياة الأزلية السرمدية هي التي تطلّ من أحداقنا إذ نتزوّد منك بنظرة الوداع، وهي التي تتحرّك بين جوانحنا إذ نتأثّر بأنبائك، وهي هي التي ستستولي على أفكارنا إذ نطوف جنبات القاهرة الجديدة في هذا المساء الحنون، وتعقد ألسنتنا عن الكلام إذ يخيّم علينا في الحدائق الغنّاء شفيق الغصون!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٥٤، ٦ حزيران/يونيو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) جوهر الصِقِلّي، قائد الجيش في عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعزّ لدين اللّه. فتح مصر، وأسّس مدينة القاهرة، وأنشأ الأزهر عام ٩٧٠ . توفّي عام ٩٩٢ .

(٢) بَدر الجمالي (١٠١٤ - ١٠٩٤)، وزير الخليفة الفاطمي الثامن المستنصر باللّه. شيّد باب زويلة في القاهرة.

(٣) بَهاء الدين قَراقوش، حاكم مصر بالنيابة عن صلاح الدين الأيوبي. أنشأ سور القاهرة وقلعتها. توفّي عام ١٢٠١ .

(٤) الملك الأشرف طومان باي الثاني، آخر الحكّام المماليك في القاهرة قبل استيلاء العثمانيين على مصر عام ١٥١٧ . شُنق على سور القاهرة.

(٥) كذا في الأصل، وصوابها «اللّذان».

(٦) كذا في الأصل، ولعلّ المقصود «باب النصر».

(٧) كذا في الأصل، وصوابها «اللّذين».

(٨) الهِكسوس، قبائل سامية غزت مصر عام ١٦٥٠ وحكمتها حتى عام ١٥٦٠ قبل الميلاد. أنشأوا الأسر الحاكمة الخامسة عشرة حتى السابعة عشرة.

(٩) سيزوستريس، اسم حمله ثلاثة من فراعنة الأسرة الثانية عشرة (١٩٧١ - ١٨٤٠ ق.م.).

في انتظار البالون «إيطاليا»
وعودة الجنرال نوبيله

يستوقفنا، بين الشؤون الدولية التي نتلقّف أخبارها في هذه الأيام، أمران في دولة ليست بالبعيدة عنّا، وهما: النشاط في دوائر الطيران الإيطالي، وخطبة السنيور موسوليني في افتتاح مجلس الشيوخ الإيطالي. وكأنه بينما العالم يصفّق استحساناً لنجاح رحلة الأسطول الهوائي بقيادة المركيز دي بينيدو[١] حول شواطئ البحر المتوسّط، ويترقّب في جزع ورجاء أنباء الجنرال نوبيله في رحلته إلى القطب الشمالي[٢] - أراد زعيم الحكومة الفاشستية أن ينتهز فرصة تهيّؤ الأفكار فيقدّم بياناً عن نشاط السياسة الإيطالية منذ أن قبض هو بيده الحديدية على زمام الحكم.

لسنا ندري، ولا لأحد أن يتكهّن في مصير الفاشستية. أتكون ذات مدى بعيد وتبقى فعّالة في المستقبل؟ أم هي من الحركات الموقوتة التي لا يخلو من أمثالها تاريخ دولة تبحث عن طريقها وتنشد مكانتها؟ ولكن ما لا بدّ من تقريره أنّه رغم كل ما تُرمى به حكومة موسوليني من التعسّف والضغط والإرهاب، ورغم كل ما يُعزى إلى شخص موسوليني من الطمع والافتئات والاستبداد، رغم كل ما يقال من صحيح وغير صحيح، هناك أمور لن ينقص منها التذمّر والشكوى وستظلّ أبداً ناطقة البلاغة.

منها أنّ هذا الرجل الذي تلقّى اختباراته في المدرسة القاسية المريرة، مدرسة الفقر والألم، عرف أن يثبت في المراتب الاجتماعية من الحضيض إلى القمّة بخطوة سريعة واحدة، وأنّ هذا الرجل الذي تشبّع بالمبادئ الاشتراكية وكان بالأمس أحد دعاة الاشتراكية، إنّما هو اليوم الجبّار الواحد الذي ينهض في وجه الشيوعية - مع أنّه غير طويل القامة! - وأنّ هذا الرجل الذي ما زال في ريعان شبابه (موسوليني يناهز الخامسة والأربعين) عرف منذ أن وضع يده على دفّة الحكم أن يكون سيّداً وزعيماً وقائداً من الطبقة الأولى.

فمضى بذكائه وحذقه إلى جميع فروع الحياة الإيطالية، وتناولت فطنته الإصلاح والتعديل والتنظيم في جميع الشؤون. ولفت إلى بلاده أنظار الدول منبّهاً فيها الدهشة والتهيّب وشيئاً من الرهبة. وأنال وطنه أهمّية سياسية ودولية لم تكن له من قبل. وجمع شتيت جمهور كبير من الإيطاليين في الداخل والخارج ووحّد كلمتهم وعيّن شعارهم. فإذا بإيطاليا الآن وهي ذات شخصية دولية جديدة في قميصها الأسود وتحيّتها الرومانية، ونداء النجدة والكبرياء والثقة الذي نجده حتى بين شفاه أطفالها من بنين وبنات: «إلينا!»[٣].

أيّاً كان المستقبل، لا ينكر هذا على موسوليني ولا ينكر عليه أنّه من أعظم من أنجبت إيطاليا الغنيّة بالرجال والعبقريات. ولا يدهشنا أن تعدّه اللجنة الأمريكية المؤلّفة من الساسة والمفكّرين لاختيار العشرة الرجال بين أعظم عظماء العالم اليوم – ثاني هؤلاء العظماء بعد إديسن الأمريكي المولد والجنسية[٤]. وهو بعد مثل عالمي خالد في الشجاعة والإقدام والمقدرة.

* * *

على أنّ ضياءه الساطع لا يبهت من ضياء العبقرين حوله ولا يغضّ من شهرة الأبطال. فلئن كان هو بحزمه يسهر على مصير إيطاليا، ويمغنطها بمغناطيسه، ويكهربها بعبقريته الخطابية، فهو في الواقع أحد مظاهر الحياة المتجدّدة في ذلك البلد القديم الفتيّ، وليس هو سبب تجدُّده ونهضته.

ففي العلم والاختراع والفنّ والأدب ما زالت إيطاليا وثّابة. وبين الشجعان من مختلف الأمم المتسابقين إلى غزو الهواء وفتح الأقطار المجهولة النائية، نرى طيّاري إيطاليا في الطليعة.

فرحلات الطيّار دي بينيدو في كل ذاكرة. ومن أجمل ما صنعته السيّدات الإيطاليات في العام الماضي للإشادة بذكره والاعتراف بفضله، أنّ «المجلس الوطني للنساء الإيطاليات» دعا إلى اكتتاب عامّ لتشييد محطّة للطيران.

وقد شيّدت تلك المحطّة بالفعل في العام الماضي وسمّي يوم تدشينها «اليوم الأزرق» إشارة إلى زرقة السماء التي تسبح فيها الطيارات. وقد عرضت يومئذ في

جميع أنحاء إيطاليا مشاهد سينماتغرافية للطيران لتحريض الشبّان على الالتحاق بتلك المهنة الشاقّة المجيدة وتعريف الشعب ببعض مظاهر عظمته وبعض فعال أبطاله. وفي هذا مثال للسيّدات المصريات يوم يقدمن على تخليد ذكرى عظيم من المصريين.

ومنذ أسبوعين أي منذ أن استأنف الطيّار نوبيله رحلته إلى القطب الشمالي، عشت معه يوماً يوماً وساعة ساعة، كما عشت من قبل مع الطيّارين الفرنسيين نونجسر وكولي اللذين أثار احتجاب أخبارهما حماسة طيّاري العالم وهمّتهم(٥). فمضوا يجوبون رحاب الهواء ويسابقون الأطيار من كل صوب. فمنهم الظافر، ومنهم المندحر، ومنهم العائد، ومنهم القتيل. ولكنّهم جميعاً، وإن ظنّوا أنّهم عاملون لشهرتهم ولأوطانهم، فهم عاملون بالرغم عنهم لمستقبل الطيران، ولفوز العلم، ولتقريب المسافات الشاسعة وتيسير التجاور والتفاهم بين بني الإنسان. وهم بعد مُلقون على أبناء هذا الجيل درساً خطيراً في الشجاعة والإقدام وركوب الأخطار والثقة في النجاح مهما كان النجاح عسيراً.

* * *

في انتظار الأخبار، نتساءل أين هو الآن نوبيله الباسل؟ أمنه تأتي تلك الإشارات اللاسلكية أم هي صادرة عن أناس يبتغون التلاعب بالأفكار والآمال؟ أتقدّر الحياة بطولته قدرها لتعيده سالماً إلى ذويه وبلاده؟ أم يكون نصيبه نصيب كثيرين من المجازفين الشجعان من الطبيعة التي تعاقبهم بالموت على اقتحام أهوالها وفضّ أسرارها ورغبتهم في جعل المجهول فيها معلوماً؟

سواءً عاد نوبيله أم لم يعد فإنّ مجده باق والدرس الذي ألقاه لن يذهب سدى.

وقد روت صحفنا منذ زمن غير بعيد أنّ الحكومة المصرية تفكّر في إنشاء مدرسة للطيران في القطر المصري لتمكّن الراغبين من الشبّان من الالتحاق بها دون الذهاب إلى أوربا، فحبّذا المهنة العسيرة النبيلة! وحقيق بشبّان مصر وشبّان الشرق أن ينظّموا منهم جيشاً يفكّر في اقتحام الهواء. فقد هبّت الشعوب جميعاً إلى شقّ طريقها في الجوّ، غير مكتفية بالأرض والماء. ولا يليق بشبّاننا التخلّف في هذا المجال.

حبّذا اليوم الذي نقول فيه ونحن نذكر طيّاري مصر والشرق ما نقوله الساعة على ذكرى الجنرال نوبيله وأقرانه:

«عصرنا الركيك بما يشوّهه من سطحيات وتوافه، ما أعظمه بما فيه من اكتشافات واختراعات!

«عصرنا الضئيل بما يشينه من حبّ الكسب والظهور والجري وراء المنفعة الشخصية، والاستسلام للهو والكسل والرخاء، ما أشرفه برجاله البواسل المفادين لمصلحة العلم والتقدّم والخير العامّ!».

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٥٩، ١١ حزيران/يونيو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Francesco De Pinedo (١٨٩٠ - ١٩٣٣)، ضابط طيّار إيطالي، أول طيّار أوربي وُفّق في الوصول إلى أمريكا عام ١٩٢٧ بطائرة مائية.

(٢) Umberto Nobile (١٨٨٥ - ١٩٧٨)، جنرال ومصمّم مناطيد إيطالي. قطع القطب الشمالي مع اثنين من زملائه في أيّار/مايو عام ١٩٢٦ في منطاد من تصميمه، وأشرف عام ١٩٢٨ على البعثة الاستكشافية الفاشلة إلى القطب الشمالي بمنطاد «إيطاليا». ترك الجيش الإيطالي عام ١٩٢٩، بعد تحميله مسؤولية الفشل، وأصبح مستشاراً لدى وزارة الطيران السوفيتية (١٩٣٢ - ١٩٣٦). كان من نوّاب الحزب الشيوعي الإيطالي بين ١٩٤٦ - ١٩٥٣ .

(٣) المقابل العربي للصيحة الإيطالية «A Noi!» التي كان يتنادى بها الفاشيون.

(٤) Thomas Alva Edison (١٨٤٧ - ١٩٣١)، فيزيائي ومخترع أمريكي شهير. من اختراعاته العديدة المصباح الكهربائي والفونوغراف. انظر أيضاً مقالة ميّ زيادة «بمناسبة الاحتفاء بالعيد الخمسيني للمصباح الكهربائي: نشيد إلى توماس ألفا إديسن»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٢٠، ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٥]، في هذه المجموعة.

(٥) اختفى الطيّار الفرنسي Charles Nungesser ومساعده François Coli فوق المحيط الأطلنطي خلال محاولتهما رحلة جوّية مباشرة من باريس إلى نيويورك في شهر أيّار/مايو من عام ١٩٢٧ .

في تكيّة المولوية

شوارع ضيّقة وأزقّة متعرّجة وجلابيب بلدية وحبرات لفّ تمرّ بنا ونمرّ بها سراعاً حتّى تقف بنا السيّارة أمام باب نحسبه ينفذ على العالم الآخر، وحالته المتهدّمة تحملنا على الظنّ أن ليس وراءه إلّا التهدّم.

والتهدّم وراءه كثير، مع أنّ هنا أثراً خليقاً بعناية وزارة الأوقاف، ومكاناً يؤمّهُ العديدون من السيّاح والزائرين. إلّا أنّنا نتحوّل عن الخراب إلى مشهد العرائش الناضرة وطاقات الخضرة الضاحكة بين الأطلال، بينا الثغور تبسم لنا والأيدي تمتدّ لمصافحتنا، والأصوات ترسل الكلمة الشرقية الطيّبة: أهلًا وسهلًا!

في ردهة الاستقبال يضيّفنا شيخ التكيّة وأعوانه، بلطف وبشاشة. فنصغي إلى كلمات الترحيب التي يفوه بها وعبارات المجاملة التي يزفّها إلينا في حين نظراتنا تتبينٌ في هيئته ووجهه معنى الصوفية ومسحة من أسرارها، وتنتقل من أثاث إلى جدار ومن لوحة إلى إطار حتّى تستقرّ على كلمة كتبت بخطّ جميل تحت صورة عمامة في برواز وعلّقت على أعلى الجدار وهي: «يا حضرت مولانا».

استفهام.. أيّ مولى من الموالي؟ وما هو الغرض من هذا النداء؟ ومن هو المنادي؟ وعَلَامَ كتبت «حضرت» بالتاء المفتوحة؟ وفي أيّ مكان نحن وما هو تاريخ بنائه؟ وعلى أنقاض أيّ أثر قديم قام هذا الأثر الغير الجديد؟

«لكل خطاب، يا بُثَين، جواب»، يقول جميل[١] في بعض شعره. ولئن كان الواقع في الحياة غير ذلك أحياناً، وكثرت فينا وحولنا الأسئلة التي لا نسمع عنها جواباً ولا نجد لها تفسيراً، فإنّ نصيبنا اليوم جواب على كل استفهام.

فنحن الآن في تكيّة المولوية التي هي جزء من المدرسة السعدية التي أُنشئت سنة ٧١٥ هجرية فاستمرّ البناء ستّ سنوات ولم يتمّ الرباط الخاصّ فيها بالنساء إلّا سنة

٧٢١هـ، وتحوّلت في القرن العاشر تكيّة للرجال كما هي اليوم وانقطع فيها التدريس منذ ذلك الحين.

أمّا المولوية فإحدى الطرق الاثنتين والأربعين المعترف بها رسمياً في مصر، وهي طريقة صوفية وسُمِّيت بالمولوية نسبة إلى الملّا (أو المولى) جلال الدين الرومي الذي أسّسها في بلاد العجم منذ سبعة قرون. ولما دخل الأتراك مصر على يد السلطان سليم دخل معهم دراويش المولوية وغيرهم.

وأمّا «يا حضرت مولانا» فأول كلمة من هذه الجملة «يا حضرت مولانا محمد جلال الدين، قدّس سرّه». والغرض منها مناداة الشيخ المؤسّس، والعمامة فوقها تمثّله، وتكتب «حضرت» بالتاء المفتوحة لأنّ المؤسّس عجمي وقد اعتاد العجم والترك كتابة هذه الكلمة وغيرها من صيغتها بالتاء المفتوحة.

لم نفرغ بعد من الاستفهام، على أنّ الوقت قد حان.

* * *

حان وقت حلقة الذكر التي جئنا لحضورها فنجلس نحن الضيوف في شبه شرفة عالية تدور حول القاعة وقد أفرد قسم منها لتخت الموسيقى وحجب قسم آخر بالمشربيات. وسرعان ما لمحنا وراء المشربيات حيالنا أشباحاً تنمّ عن وجود نساء. أليست بينهنّ يا ترى حرم الشيخ مصطفى فخر الدين شيخ الطريقة، التي نرى معنا والدها الفاضل حسن بك والي شقيق جعفر باشا والي؟

وأقبل الدراويش إلى أرض القاعة بخطوات هادئة بطيئة وتناسقوا في داخل الحلقة وقوفاً بجلابيبهم القاتمة فوق الأثواب البيضاء وعلى رؤوسهم القواويق الطويلة. وتصدّر الحلقة شيخ الطريقة الفتيّ بأثوابه الممتازة وعمامته الكيّسة، ووقف على سجّادة حمراء صغيرة ذات أهداب، كان التباين عظيماً بينها وبين أرض المكان العادية. ففهمنا شيئاً من معنى «السجّادة» في اصطلاح أهل الطرق ولن ننساه بعد اليوم. ووراء الشيخ في أعلى الجدار كلمة «يا حضرت مولانا» في إطار مزخرف.

وبدئت الحفلة بتلاوة آي الذكر الحكيم. وأنشأ أحد الدراويش بعدئذ يقرأ في كتاب أدعية حسبناها باللغة الفارسية أو التركية وبلهجة هي أقرب إلى لهجة القساوسة في الكنائس الشرقية التي تمتّ إلى العهد البيزنطي منها إلى لهجة تلاوة القرآن. يقرأ طويلًا طويلا بصوت متشابه خال من الانفعال ومن الرغبة في التأثير والدراويش في الحلقة جالسون القرفصاء مطرقو الرؤوس في خشوع وتهيّب.

أهذه يد تهوّم على عينيَّ ووجهي؟ كلّا! انتهت القراءة وهذه أنغام الناي الشجيّة تبعث في المكان حنيناً بترنيمة طويلة ولكنّها على شجوها وعذوبتها هادية[٢] خالية هي كذلك من الانفعال أو من الرغبة في التأثير. أليس هذا ضرباً من التنويم المغناطيسي؟ قليلًا، والآلات الأخرى من كمنجة ودفّ تنضمّ إلى الناي لتتعاون وإيّاه على عزيف هادئ متناسق مطمئن يسكّن من أعصابنا حتى نحن الذين جئنا «لنتفرّج» لا لنذكر.

لم نخطئ عندما ظننّا أنّنا مقبلون على عالم آخر. فهذا المكان المستدير وهؤلاء الدراويش المطرقون، وهذا الصوت البطيء الخلو من النبرات، وهذه الموسيقى التي لا تصف ولا تستحثّ ولا تنشد ولا تشكو ولا تندب، كلها تتحد وظلال الشفق المقتحم هذه القاعة، لإشعارنا بأنّنا بعيدون عن الحياة المألوفة، بعيدون عن العوامل الحسّية والنفسية التي تعذّبنا وتبهجنا وتجذبنا وتدفعنا بين ساعة وأخرى. فنعرض عن الماضي ولا نستدعي إلينا خيالاً. والموسيقى تتابع نسجها اللحني لتخلق جوّا موافقاً ولا تصمت إلّا وقد أشبعت كلّا من ذرّات الهواء المحدود هنا بما يتناسب والأعصاب النازعة إلى السكون وعدم التوتّر والتفرّغ لحالة خاصّة.

* * *

وكان أولئك الدراويش من أخيلة الرؤى إذ هم هبّوا في سكون وتوازن يلقون عنهم الجلابيب القاتمة، ويدورون بأثوابهم البيضاء الفضفاضة حول الحلقة دوراتهم المعدودة، بعد أن يتقابل كل اثنين منهم والشيخ بينهم فيتبادلان التحيّة ويقدّمان التعظيم لصاحب السجّادة، ويتناوبان الوقوف تارة إلى يسراه وتارة إلى يمناه تباعاً ليلحقوا بالذين سبقوهم بالدوران حول الحلقة، حتى كانت الدورة الأخيرة فكان الشيخ يحنو على كل منهم ليسرّ إليه بكلمة خاصّة أو لينفخ فيه نسمة من روحه. فيمضي الدرويش

بهذه الغنيمة في وسط القاعة وجوانبها مادّاً ذراعيه بطولهما لافّاً حول نفسه وفي مدار الحلقة وثوبه الواسع ينتشر في استدارة بيضاء مرفرفة، حتى صاروا جميعاً يلفّون حول نفوسهم وحول الحلقة في آن واحد. ومنهم الرافع برأسه إلى فوق. ومنهم المائل برأسه إلى كتفه. وبينهم يجول نائب الشيخ كمن يتفقّد أحوالهم. وأحوالهم في الظاهر على ما يرام إذ لا يبدو عليهم عارض تعب أو بحران ولا منهم من يضلّ طريقه قيد شعرة أو يصطدم بصاحبه اللافّ حوله. يلفّون ويلفّون حتى خيّل إلينا أنّ العالم يلفّ. وهو يلفّ على رأي العلماء، ولكنّنا معشر العاديين من الناس لا «نشعر» بذلك اللفّ وإن نحن عاينّا نتائجه الوقت بعد الوقت.

ماذا ترى يعني هذا اللفّ؟ الأستاذ يوسف أحمد يقول إنّه دليل السرور والانشراح للشعور بالاقتراب من الألوهية. ويقول الأستاذ نقلًا عن الدراويش إنّهم أخذوا هذا اللفّ عن أبي بكر الصدّيق.

ومندوبة جريدة الفيغارو الفرنسية، ضيفة مصر في هذه الأيام والتي تصحبنا في جولة اليوم، تقول إنّه يخيّل إليها أنّها ترى في هؤلاء الدراويش صوراً للأزهار الكبيرة البيضاء، ومنها المتفتّحة المفعمة حياة، ومنها التي شاخت وبطؤت حركتها.

أمّا أنا فتخيّلاتي متعدّدة. أرى في الدراويش فراشات بيضاء كبيرة تحوم حول نور غير محسوس وآونة أرى في حركتهم تقليداً لحركة الشمس والسيارات والكواكب التي تدور جميعاً على نفوسها وتدور حول الشموس والسيارات والكواكب الأخرى في آن واحد: لتتمّ بانتظام دورانها دورة الفلك.

وأخيراً تحرّك الشيخ عن سجّادته وانحنى أمامها احتراماً كمن ينحني أمام شخص عظيم كأنه منذ خرج عنها أصبح ذا شخصية منفصلة عن الشخصية التي كانت عليها. لمقام الرئاسة كرامته سواء أُوَقف عليه رئيس أم ظلّ خالياً. فإذا كان هو الشيخ يقوم فيه احتفظ بالجلال والروعة والرزانة الخليقة بشخصيتيه المندمجتين إحداهما في الأخرى. وإذا خرج منه خضعت شخصيته الفردية أمام شخصية الرئاسة الغائبة.

نزل الشيخ إلى الميدان بين الدراويش اللافّين بيد أنّه ظلّ مختلفاً عنهم بخطوته البطيئة الرصينة فكان يطوف بهم ولا يلفّ معهم كأنّ نزوله ذاك إليهم فعل من أفعال

التواضع شأن من يقول لهم بلغة أهل الباطنية: إنّي منكم ومعكم وغايتي غايتكم. ولست بشخصي أكبر منكم وإن كان دوري غير دوركم. إنّي أنتم وإن لم أكن أنتم. ولست أنتم وإن كنت أنا أنتم.

حذار أن تسلني، يا صديقي القارئ، عن معنى هذا الكلام. إنّنا من هذه المنطقة في جوّ صوفي له مغازيه وشاراته ومراميه حيث لأبسط المعاني ألف معنى، وحيث الكلام الذي يراه البعض غامضاً كل الغموض، قد يكون أشعّة وضّاءة تشير إلى البهاء الأنور والسرّ الأطهر.

* * *

ترى ما هي المرتبة العلمية والروحانية التي يبلغها السادة الدراويش في انزوائهم وانقطاعهم للعبادة والتماس التجلّي؟

نلقي بهذا السؤال وغيره على نفوسنا ونحن نزور القبّة التي دُفن فيها مشايخ هذه الطريقة المتوفين[٣]. وبينهم والد فضيلة الشيخ القائم الذي نتمنّى له العمر الطويل. وقد دفن هنا كذلك الشيخ حسن صدقة الذي أنشئت التكيّة في زمانه وكان من كبار الصوفيين وإن لم يكن من الطريقة المولوية.

وأسئلة أخرى تتوارد علينا إذ نغادر المكان مزوّدين بتحيّات أهل الدار ومشيّعين بمشاهد الخضرة المشرئبّة إلينا في الظلام. هذه الفرق من أهل الباطنية أتراها تعرف من السعادة أكثر مما يعرف أهل الكفاح والعمل المصارعين[٤] في معمعة الحياة؟ وعلام وجدت هذه المذاهب الباطنية وما هو الباعث إلى تكوينها؟

إنّ هذه المذاهب نشأت في الهند أمّ الأسرار ومخبأ الألغاز. فما الذي حمل حكماء الهند وعلماءها على هذا الانزواء والتفرّغ لغير ما يعنى به عامّة الناس وجماعة العلماء العمليين؟ أهي نزعة فطرية تسير ببعض النابهين إلى ولوج الأبواب المغلقة، ومحاولة التغلّب على نزوات النفس وقوى الطبيعة للتدرّج إلى ما فوق البشرية والاتّحاد بالعزّة الإلهية؟ أم هي الآمال الخائبة، والمسرّات المضمحلّة، وصدمات الألم، وانكسار القلب، وفشل الجهاد، وخيانة الأصدقاء وتفطّر العاطفة؟ كل ذلك يجعل الحياة في

حين ما صحراء جرداء فيبحث الشخص المتألّم عن الواحة في داخل نفسه وفي التوق إلى اللّه.

لا تصدّقي جميلًا، يا بثين! فما أكثر الأسئلة التي لا جواب عنها!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ١٥٦٦٢، ١٣ حزيران/يونيو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) جَميل بن مَعمر العُذري، شاعر أموي، تغنّى بمعشوقته بُثَينة فعُرف بها، توفّي في مصر نحو عام ٧٠١ .

(٢) كذا في الأصل، وصوابها «هادئة».

(٣) كذا في الأصل، وصوابها «المتوفّون».

(٤) كذا في الأصل، وصوابها «المصارعون».

في جامعي الرفاعي وابراهيم آغا

ممّا يسرّ المتجوّل بين آثار القاهرة أنّ اسم المرأة يمتزج بطائفة غير قليلة منها. فأمام السبل والصروح وفي المدارس والجوامع والقصور كثيراً ما تسمع حكاية امرأة تتعلّق بالمكان، وأنّ هذا الأثر النفيس أو ذاك شُيّد بفضل امرأة وأنفق عليه من مالها. وهذه هي الحال في جامع الرفاعي الذي تشعر بعمرانه وملوكيته وجلاله منذ أن تقبل عليه، وتلمح جماله ورياشه ونفائسه منذ أن تعبر عتبته، ولا يدهشك، إذ تقلّب الطرف بين دقائق هندسته والثروة الفنيّة المجتمعة بين جدرانه، أنْ تعلم أنّ نفقات بنائه وزخرفه بلغت الستّمائة ألف جنيه.

أنشأت هذا المسجد سنة ١٢٨٦ هجرية دولتلو خوشيار هانم أفندي والدة الخديوي إسماعيل، وظلّ يعمل فيه إلى ١٣٠٥ ثمّ أوقف العمل حتى سنة ١٣٢٤ حيث أمر سموّ الخديوي السابق عباس الثاني بإتمامه، وكان للأثري هرتس باشا[١] فضل عظيم في الإشراف على بنائه الذي تمّ سنة ١٣٣٠ . فيكون بناؤه قد استغرق ما يقارب الأربعين سنة.

ومع أنّه لا يعدّ من الطراز الأول بين الجوامع لأنّه تقليد للهندسة البيزنطية، وليس من غرر الهندسة العربيّة، فهو من أفخم جوامع العالم الإسلامي بنقوشه وزخارفه ودقّة صنعته والأبّهة المنتشرة في جميع أنحائه. وهو عزيز إلى قلوب المصريين لأنّ الذي تولّى هندسته قبل هرتس باشا هو المهندس المعماري المصري حسين باشا الذي نبغ في عصر الانحطاط، وقضى قبل أن يتمّ البناء وليس من يماثله في الإلمام بأسرار فنّه. وترى على الجدران وبين الأعمدة قطعاً مرمرية مزخرفة كلٌّ منها نسيج وحده وكلٌّ منها يشهد ببراعة هذا المهندس الأخير في الفنّ العربي. كذلك صيغ[٢] أعمال النجارة الدقيقة البديعة من صنع المعلّمين القبطيين أبادير وهبه وبطرس وهبه الأسيوطيين. غير أنّ اسم

السيّدة التي أنشأته لم يطلق عليه بل عرف باسم زاوية الرفاعي الذي قام على أنقاضها وأنقاض المنازل المجاورة لها، فإذا به واسمه جامع الرفاعي.

وميزته الأخرى في أنّه يحوي قبور نفر من أعاظم أعضاء الأسرة المالكة في مصر. وجميع تلك القبور سواء أكانت من الطراز البيزنطي التركي، أو العربي، أو الإيطالي، فهي غرر من الفنّ والدقّة والغنى والرواء. تلك مضاجع صرعى الموت نمرّ بها نحن أبناء الحياة وفي قلوبنا تصخب الانفعالات وتتلاطم العواطف وتتصارع المطالب وما إن نزايلها حتى تكون حقيقة الموت قد ألقت علينا شيئاً من سكونها وهدوئها وحكمتها!

* * *

هيّا بنا نطوف الحجرات الصامتة ذات السقوف الملوّنة المخرّمة والقبور المرمريّة الباذخة! ففي هذه الحجرة دُفن علي جمال الدين ابن إسماعيل باشا المتوفّى بباريس سنة ١٣١١ هجرية. وفي الناحية المقابلة قبر زينب هانم ابنة الخديوي إسماعيل زوج البرنس إبراهيم المتوفّاة في السنة التي زفّت فيها ١٢٢٩ . وبين الأخ والأخت أختهما الثالثة توحيدة هانم زوج منصور باشا يكن الراقدة في ضريح هو غاية في الفخامة صنع بخشب الأبنوس والجوز والعاج والفضّة. وفي أعلى زواياه الأربع أربع مباخر كبيرة صنعت من الأبنوس والفضّة، يعلو كلًّا منها هلال فضّي تتوسّطه نجمة من الفضّة.

أنظارنا تتنقّل من تحفة إلى تحفة، ومن ثروة إلى ثروة، ولكنّ أفكارنا تتطلّع إلى الأسرار التي ملأت حياة كل من هؤلاء الثلاثة، تلك الأسرار المفرحة والمؤلمة التي لا يخلو منها عمر إنسان، فتختفي مع الدفين وراء التراب الرميم ووراء البدائع الفنيّة على السواء!

وفي الحجرة المقابلة قبور ثلاث من زوجات الخديوي إسماعيل، فنقف عند أحدها ونلقي على صاحبته السيّدة جشمة آفت هانم تحيّة خاصّة لأنّ لها الفضل في تأسيس أول مدرسة مصرية للبنات، وهي المعروفة الآن بالمدرسة السنيّة. وجميع هذه القبور من المرمر الأبيض المحلّى بماء الذهب. والراقدات فيها هنّ غير السيّدات الأخريات من حرم إسماعيل التي أنجبت كل منهنّ ملكاً جلس على عرش مصر من أبناء إسماعيل وهم: توفيق وحسين وفؤاد الذي ندعو له بالعمر الطويل.

هذه حجرة أخرى يروعنا جلالها وفيها ضريحان عظيمان: ضريح خوشيار هانم صاحبة اليد الأولى في بناء هذا الجامع المتوفّاة سنة ١٣٠٣هـ، وضريح ولدها المتوفّى منذ نصف قرن تقريباً وما زال اسمه يدوّي في وادي النيل، ذاك الذي زرنا بالأمس الغرفة التي شهدته وليداً واليوم نزور الحجرة التي ينام فيها نومته الأبديّة: إسماعيل!

قبر إسماعيل بين القبور كإسماعيل بين أقرانه قبر ضخم ذو طراز عربي تعاونت على إخراجه ألوان شتّى من المرمر الفاخر ومهارات شتّى من الصناعة الباهرة. ففي قدمته الأولى يتناوب المرمر الأسود والأصفر، وفي قدمته الثانية يتجاور الرخام الأسود والأبيض، وينبري فوقهما الضريح بشتّى ألوانه ونقوشه وبالأعمدة الصغيرة العديدة من الرخام الأخضر المعرّق الدائرة حوله. ودرنا نحن كذلك حول الضريح نستجلي محاسنه ونقرأ الكلمات المحفورة فيه بخطّ الأستاذ يوسف أحمد الكوفي الجميل، فقرأنا: «لا إله إلّا اللّه الملك الحقّ المبين، محمد رسول اللّه الصادق الوعد الأمين». واستوقفت أنظارنا في زاوية عقدة كبيرة من الشريط الأزرق القاتم تتدلّى منها أهداب الذهب، وقد طرّز عليها بالحرير والذهب حرف «U» الإفرنكي يعلوه تاج آل سافويا، فقيل لنا إنّها هديّة من وليّ عهد إيطاليا البرنس أومبرتو وضعها هنا مع إكليل من الأزهار يوم زار هذا المكان إبّان مروره بالقاهرة في الشتاء المنصرم.

وهناك حجرة أخرى تحوي ضريحاً فرداً، ضريح السلطان حسين وقد شاده ولده سموّ البرنس كمال الدين من المرمر الشفّاف الناصع المحلّى ببدائع التخريم والنقش والتذهيب، وحفرت على دائرة الآيات القرآنية وتاريخ الوفاة على عمق نحو ثلاثة سنتمترات. وتدلّت فوقه ثريّا من النحاس ذات طراز عربي من رسم الأستاذ يوسف أحمد البارع في الفنون العربية براعته في علمه الأثري. فوقفنا طويلًا حيال ضريح «أبي الفلّاح» نسمع الكلمات الطيّبة عن حياته الطيّبة.

ثمّ نخطو الهوينا إلى الشبابيك الكبيرة وقد انسجم طراز حديدها ونحاسها وخشبها وطراز الحجر والمرمر، وانبسطت أمامها حديقة اتخذها اليمام مرتعاً له. ونتابع السير إلى الخارج مارّين بقبر أبي شبّاك، حفيد السيّد أحمد الرفاعي مؤسّس طريقة الرفاعية، وشيخها الآن السيّد أحمد يس. وبين مستقبلينا في هذا الجامع أحد أبناء أخي

الشيخ الجليل، وهو يعاون الأستاذ يوسف أحمد في إمدادنا بالشروح والمعلومات المتصلة بالمكان.

* * *

في مدخل ميدان محمد علي نقف متلفّتين لنجمع في نظرة واحدة الطريق الطويلة المحفوفة من الجانبين بجدران جامعي الرفاعي والسلطان حسن وطاقات الخضرة الباسمة في الميدان تحت الأشجار. والمساجد الثلاثة المتجاورة في هذا الجانب من الميدان تحرسها جميعاً قلعة صلاح الدين وتتعالى من فوقها في الهواء الأزرق قامات المنائر الدقيقة الهيفاء من جامع محمد علي.

وظلّت هذه الصورة أمام أنظارنا حتى وصلنا إلى جامع إبراهيم آغا الذي يطلق عليه بعضهم اسم «الجامع الإنجليزي» لشغف الإنجليز به. نسمع الحديث عنه أنّه كان في الأصل مسجد آق سنقر الذي شاده سنة ٧٤٠ هجرية ثمّ تهدّم. فجاء إبراهيم آغا مستحفظان وأصلحه وعمل فيه لنفسه مدفناً كساه بالقشاني وارد آسيا الصغرى، وهو القبر الكبير في هذا المكان، أمّا قبر المؤسّس الأول فجعله صغيراً. ولمّا توفّي دُفن في هذه الحجرة التي أعدّها لنفسه وكسا أسفل جدرانها بالرخام وأعلاها إلى سقفها بالقشاني الأزرق الجميل وليس بين صنّاع القشاني اليوم من يجيء بمثل هذا الإتقان.

نسمع هذا الشرح ونحن نتساءل عَلاَمَ يفضّل الإنجليز هذا الجامع على سواه؟ ألأجل هذه القطع النادرة من القشاني التي نرى منها الشيء الكثير كذلك على جدران المسجد، تنجلي في زرقة باهرة وفي رسوم دقيقة محكمة، أم لأجل المنبر الشائق الباقي من عهد آق سنقر وهو كالقبلة مزخرف بالرخام والصدف؟

أم هم يحبّونه لبساطة هندسته الشرقية وللسكون المالئ هذه الأروقة والأفنية؟ أم لأجل النخلة الذاهبة صعوداً بين الأشجار الأخرى في وسط الساحة؟ أم لأجل خلوّه من الزينة والأبّهة؟ أم لأجل هذه النكهة العربية الساذجة الشائعة فيه؟

إنّه الآن مدرسة لألف ومائتين من طلبة الجامع الأزهر من المذاهب الأربعة. كما أنّه مكان صلاة وعبادة. فَعَلاَمَ يحبّه الإنجليز؟

نخطو ساحة المسجد إلى حيث دُفن «صديق الحمام» السلطان علاء الدين الذي سبق إلى الحكم شقيقه السلطان حسن ثمّ قتله المماليك. فإذا بالهواء يرتعش ويلطّف ويتموّج بصوتٍ شجيّ طويل النغمات. فرفعنا بأبصارنا إلى الجوّ فإذا بالهلال وكأنّه هو الذي أرسل إلينا بتلك النغمات تحيّينا مع أشعّته الصافية أو كأنّه قد أطلق من أطياره طيراً عجيباً يحمل إلينا حديث السماء والرجاء والذكرى.

فإذا كان الإنجليز وغير الإنجليز يسمعون هنا مثل هذا الصوت فإنّي أفهم أيّ جاذب يجذبهم إلى هذا المسجد الذي يشترك كل ما فيه لتنبيه العاطفة البسيطة، المحبّة الدائمة.

* * *

يا صوت المؤذِّن، يا صوت طفولتي، طالما أيقظتني في البكور وأشجيتني عند العشيّة! لقد كنت هاتفاً في نفسي ببساطة لليقين وعذوبة في بائه، وأوّل ما انطبع في قلبي من آيات الطرب والجمال! في الصباح والمساء كانت تنضمّ إليك النواقيس الشادية تسبّح هي من ناحيتها بحمد الذي تعظّم أنت اسمه من ناحيتك، فتمضيان على أجنحة النسيم معربين عن عاطفة واحدة وعبادة مثلى: عبادة الذي لا يعبد سواه. فكنت توحي إليّ مع حبّ الجمال والإيمان شوقاً لم أكن أدرك يومذاك مرماه، ولكنّي اليوم أصبو إليه بنفسي الحارّة الوجيعة: وهو تضامن أبناء الشرق وتفاهمهم.

فاهبط علينا اليوم، يا صوت المآذن، اهبط بألحانك الرائقة وكلماتك المعزّية! سكّن بشجوك اضطرابنا الناجم عن تيقّظنا للحياة الجديدة! ضمّد الجراح وطمئن القلوب، واشترك مع ترانيم الأجراس وسائر أصوات العبادة وأصداء الكائنات في تعليمنا كيف يتسع الهواء لجميع الألحان لتتناسق منها جوقة مؤثّرة مطربة. كذلك تتسع الحياة الاجتماعية لكل صنوف العقائد والمذاهب والنزعات لتتكوّن منها وحدة قوميّة فردة!

أترى يستجاب هذا السؤال؟

المصلّون هناك يقومون بفروض العبادة. وهنا وهناك أُسرجت مصابيح الجامع العتيقة، وأنوارها السريّة الناعسة تغامزنا شأن من يريد أن يبثّ فينا الرجاء...

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٧٣، ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Max Herz (١٨٥٦ - ١٩١٩)، مهندس معماري هنغاري. عمل في مصلحة الأشغال العامّة بوزارة الأوقاف المصرية منذ عام ١٨٨٢ وتولّى منصب وكيل لجنة حفظ الآثار العربية (Comité de conservation des monuments de l'art arabe) ما بين ١٨٩٠ - ١٩١٤ . وصف توسيع بناء جامع الرفاعي الذي أشرف عليه بين عامي ١٩٠٦ - ١٩١١ في كتابه *La mosquée el-Rifai au Caire* المنشور في ميلانو عام ١٩١٢ .

(٢) الكلمة في الأصل غير واضحة. وضعتُ كلمة «صيغ» اعتقاداً بأنّها تنسجم مع السياق.

تحت ذيل العارض...

جُز بالقَرافةِ تحت ذيلِ العارض وقُل السلام عليك يا ابن الفارض

لمفتّش الآثار العربية أن يحدِّثنا اليوم عن آثاره العزيزة، ولمهندس لجنة الآثار أن يتناول شرح الوجه الهندسي من تلك الآثار. فإنْ كان سائر أعضاء رحلتنا الأثرية جامحين الآن جموحي، فإنّي أرثي لحال المتكلّم والشارح، إذ ليس ثمّت من يصغي ويستوعب.

خرجنا من القاهرة وضوضائها ونحن الآن في القفر القاحل تقطعه الوقت بعد الوقت قبّة نفيسة الأثر، وطلل زاخر العبر، وجمهرة منازل نائية، وأطفال تبدّى في سيمائهم وعيونهم خليط الدماء والأجناس التي كوَّنت في مصر الأجيال الجديدة. نحن الآن في القرافة السحيقة يسدّ الفضاء حيالنا جبل المقطّم كالسور الواقي. فإلى الأمام ولا تستنفدوا من صبرنا في التريّث والتفصيل! إلى الأمام نحو الضريح الذي تحوم حوله النفوس والأشواق!

* * *

صغيرةً لعوباً استظهرتُ شعر الفارض فكنت أُحسبه كل شعر العرب وكنت أعرف الشاعر مدفوناً في مصر فأودّ أن أستعير أجنحة الملائكة المرفرفة في اللوحات الزرقاء لأطير إلى حيث أشهد مدينة مصر، وأعلم ما هو «ذيل العارض» وكيف هي القرافة، وفي أيّ مكان منها نام هذا الذي ما أنشد في شعره إلّا الحبّ، وما شدّ أوتاره إلّا لترنيمة الحبّ، وما أحبّ في الخلائق الفانية إلّا العزّة الإلهيّة الباقية.

وإذ جئت مصر وتعلّمت العربية وأنشأت أقابل بين المتقدّمين والمتأخّرين من شعرائها، وبين هؤلاء وأقرانهم في لغات الغرب، مذ تسنّى لي أن أدرك سرّ المعاني وأفقه

شأن كل من الشخصيات الأدبية الكبيرة التي تسري كهرباؤها في العالمين - منذ ذلك الحين علا شأن الفارض في تقديري. علا شأنه حتّى أصبح فريداً ليس بين شعراء العرب فحسب بل بين شعراء الغرب كذلك. لأفذاذ النقد رأيهم في نفسه وديباجته ونظمه. أمّا أنا فحسبي أنّي لا أجد مثله شاعراً أغمض عينيه عن جميع شؤون الحياة ليحدّق في لباب الحياة، وأعرض عن أغراض الدنيا، وهوس المطامع، وإضافيّات البشرية ليخلق من شعره صيحة واحدة كلّها من الحبّ، وكلّها للحبّ، وهي كل الحبّ:

إذا لاح معنى الحسن في أيّ صورة ... وناح مُعَنّى الحزنِ في أيّ سورة
يشاهدها فكري بطرف تخيّلي ... ويسمعها ذكري بِمِسمع فطنتي
ويحضرها للنفس وهمي تصوّراً ... فيحسبها في الحسّ فهمي نديمتي
فأعجب من سكري بغير مدامة ... وأطرب في سرّي، ومنيَ طربتي
فيرقص قلبي، وارتعاش مفاصلي ... يصفّق كالشادي، وروحي قينتي
وما برحت نفسي تَقَوَّتُ بالمنى ... وتمحو القوى بالضعف حتى تقوّتِ
هناك وجدتُ الكائناتِ تحالفت ... على أنّها، والعون منّي، معينتي
ليجمع شملي كلّ جارحة بها ... ويشمل جمعي كل منبت شعرة
ويخلع فيما بيننا لُبسَ بيننا ... على أنّني لم أُلفِه غير إلفة
أشرت بما تُعْطِي العبارةُ والذي ... تَغَطّى فقد أوضحتُه بلطيفة[1]

* * *

جرس الشعر السرّي الروحاني يرنّ بين جوانحنا في شجوٍ وتحنان إذ يظلّلنا من المقطّم الجانب المعروف «بذيل العارض». فنجوز الحديقة البادية كأسطورة سندسيّة في ذلك القفراء[2] الصخري الأجرد، وكأنها رمز إلى الواحة التي عرف الفارض أن يهتدي إليها في صحراء الحياة، ونلج فناء المسجد إلى القبّة الصغيرة الساذجة العارية من آيات النقش والعمارة.

نظرة سريعة تليها نظرات طويلة من الشبابيك المحيطة بجدران القبّة، إلى الضريح المغطّى بالكشمير. أهنا تنام، يا شاعر العاطفة التي تتلخّص فيها جميع العواطف؟ أهنا تنام، يا منشد الأجزاء الشتيتة المتحدة في الكلّ الواحد؟ ماذا تراك تفكّر بعد أن تقلّصت

ذاتيتك من هيكلها الجسدي؟ أو هل وجدت بعد ما جلوته من السرّ المصون راحة وائتناساً وإطمئناناً؟

الأستاذ يوسف أحمد لا ينسى دوره، وصوته الأمين يشرح أنّ الفارض الحموي الأصل وُلِد بالقاهرة ومات فيها سنة اثنين وثلاثين وستّمائة هجرية، فدُفن هنا في سفح المقطّم حسب وصيّته، وأنّ هذا المسجد معروف الآن باسمه. أمّا القبّة فقد شادتها جميلة هانم ابنة الخديوي إسماعيل، وشادت بجانبها لنفسها مدفناً لم تدفن فيه لأنّها توفّيت في الخارج، ولا ينام فيه الآن إلّا ولد صغير لها توفّي في الثالثة من عمره.

ويمضي الأستاذ في شروحه المفيدة ولكنّ انتباهي متحوّل إلى الشاعر الشريف الذي وقف على العلاقة السريّة بين الكائنات ووزّع حبّه نقيّاً كأشعّة الشمس. إنّه لم يرَ من نفسه ومن الناس إلّا الجانب الذي يذكّره باللّه وبالاتحاد الطاهر الشامل الرابط بين الخالق والمخلوق، فوصف حبّه وهيامه وانخطافه في لفظ مهذّب وتعبير ناصع ورسم من جواه وصبابته صورة ما إن رأى فيها العادي من الناس ظلال الأرض إلّا أقبل عليه منها ما يحسبه غير مفهوم من أسرار السماء.

جميع أصداء المدينة ترتدّ عن هذا الإيوان كليلة، وننصرف نحن في هدوء وسكون محيّين ذاك الذي قال:

فلي بعد أوطاني سكون إلى الفلا وبالوحش أنسي إذ من الأنس وحشتي

وإلى أين ترانا الآن سائرين؟ كيف نَلُمّ نفوسنا الشائبة مع الفارض في وحدة الوجود لنوجّهها الى أثر تاريخيّ ونقش فنيّ، كائنة أهمّيته ما كانت؟ كيف نعجب بالحجر بعد أن اختلسنا نظرة من صميم الروح؟

ولكنّ منظّم رحلتنا أستاذ ذوق وانسجام. إلى فوق، أيّتها السيّارات، إلى الهواء الطلق، إلى أعالي المقطّم، فوق حصن صلاح الدين! إلى الذروة التي أقام عليها الجيوشي مسجداً وشاد فوقها محمد علي قلعة! إلى الذروة المشرفة على عاصمة الخلفاء في هذه الساعة التي تغرب فيها شمس النهار من ناحية ليطلع بدر الليل من الناحية الأخرى!

ما أنقى الهواء في هذه الأعالي وما أشمل السكوت وما أوفى الأصداء تحمل رنين الناقوس البعيد! في الجوّ تذوب أوشحة وتندلع لهباً، هذه أشكال تطوى وتلك أشكال تنشر، هنا تنتظم الأنوار كالقصائد وهناك تتلاشى السحب كالخيالات! والفضاء يقتمّ قليلًا قليلا عارضاً جميع ألوان الغروب والشفق: من الأحمر الناري، إلى اللازوردي، إلى الرمادي، إلى الليلكي، إلى البنفسجي، إلى الحلك المتلألئ فيه نور البدر الصافي! والأطلال المبعثرة في القفر كالرقباء تأخذ في الظلام هيئة رهيبة، والصخر الوحيد يغبطنا على نشوة الشباب وطرب العمر وينادينا إلى زيارته! والنيل الإله يحتضن المدينة من أقصاها إلى أقصاها بذراعه الطليّة المتألّقة، وطابع الحضارة القديمة - الأهرام المنبثقة هناك في مدخل الأفق - تنبئنا بجوار أبي الهول حارس مملكة الصحراء وأمين خزانة الأسرار، الناظر أبداً إلى جهة المشرق لأنّه وقف على لغز الكون ورصد حركة العوالم، ووثق من وحدة هذا الوجود في تعدُّد أجزائه وحركاته وأشكاله وأصواته...

يا مصر، يا مصر! يا تحفة الجمال وآية الربّ المتعال! كما نمرّ نحن أشباح هذا المساء على هذه القمّة الباذخة، وتحت هذا الصخر المضياف، وفي هذا القفر الرائع، وبين هذه الظلال الوارفة - كذلك تمرّ الأجيال عندك تباعاً جانية في ناديك معنى الحياة وأسرارها، باذلة بين جنباتك من دم القلب وعصير العمر لتؤلّف تاريخك الإنساني والوطني وتكتبه بجهودها ونخوتها وحماستها.

كلنا نمرّ ونمضي ونُمسي قبورًا مجهولة وأسماء منسيّة، أمّا أنت يا مصر فأبديّة الحيويّة، أبديّة السحر، أبديّة الجمال!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٨٤، ٧ تمّوز/يوليو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) من القصيدة التائية الكبرى المسمّاة بنظم الملوك. انظر ديوان ابن الفارض، بيروت: المطبعة الأدبية ١٨٩١، ص ٤٣ و ٤٧ .

(٢) كذا في الأصل، وصوابها «القفر».

في جامع الملك المؤيَّد أبي النصر المحمودي

هل فكَّرت مرّة في ما حمل البشر على إعلاء بناياتهم في الهواء؟

إنّ غريزة التحرّز وحفظ النوع واتّقاء الحرّ والبرد وغضب العناصر ساقتهم إلى بناء مساكنهم فكانت في البدء كهوفاً، ثمّ صارت أكواخاً، وانتهت إلى أن تكون دوراً يتطوَّر وضعها وشكلها مع تقدُّم الحضارة ومقتضيات العمران. فإن رأينا الصروح تتراكم منها الطبقات فوق الطبقات حتى يحجب علوّها رقعة السماء فوق رؤوسنا، فذلك راجع إلى ازدحام المدن بالسكّان وإلى حبّ التجارة والكسب الأقصى من البقعة الواحدة. ولكنّ تلك الآثار التي لا تستغلّ لربح مالي، فما هو يا ترى الباعث إليها وعَلَامَ صعدت طباقها وقاماتها وأبراجها في الجوّ؟

لا شكَّ أنَّ الباعث الأوّلي، على ما يمازجه من حبّ المنافسة والظهور بمظهر العظمة، هو فنّي وديني معاً. وقد قال فيلسوف فرنسي - نسيت اسمه - إنَّ جميع الفنون خرجت من الهيكل.

يجول هذا في خاطري وقد لاحت عن بُعد منارتا جامع المؤيّد القائمتان على باب زويلة الملاصق له. يجول هذا في خاطري ونحن عند باب الجامع وقد أسلمنا أقدامنا إلى من يتولّى تغشيتها بالنعال الصفراء ذات الشرائط التي لا تدعي التطريز والتخريم، والتي لا تطأ سواها أرض الصلاة والعبادة. ثمّ أسمع أصواتاً يعلوها صوت الأستاذ يوسف أحمد يقول: - هذا أجمل جوامع القاهرة.

فأحتجّ هذه الدفعة بلا مواربة:

- كلّما زرنا مسجداً قلتم هذا أجمل مساجد القاهرة. فأنقل هذا القول إلى قرّائي الذين قد يستغربون هذا التكرار فيتّهمونني بأنّي لا أقيم لهذا التعبير حساباً ولا أفرّق بين مراتب الجمال. فما أشبهكم بالشاعر الفرنسي لامارتين(1) الذي ما قرأ شعراً

إلّا قال: «هذا أشجى ما قرأت، وصاحبه أحبّ الشعراء إليّ». ويلبث على هذا الرأي حتى يقع على شعر وشاعر جديدين...

فقابل السامعون إحتجاجي هذا بابتسام يليه استدراك بأنّنا الآن أمام أفخم باب في القاهرة بلا منازع وهو الباب الذي كان من إعجاب الملك المؤيَّد به أنّه عندما شرع في إنشاء جامعه هذا أمر بأن ينقل إليه هذا الباب من جامع السلطان حسن، المعطَّل في ذلك العهد، وبتركيبه في الباب البحري لمسجده، باب عظيم ذي مصراعين كبيرين مصنوعين من الخشب المغشّى بالنحاس في نقر ونقش وتخريم وتطعيم، تتيه فيه الأبصار ولا ترتدّ عنه إلّا حيرى.

* * *

ليست بالمجهولة لدينا هذه الممرّات الضيّقة التي تتقدَّم فناء الجوامع أحياناً فتوهم أنّ ما وراءها خراب وبوار. ولكنّ البهجة تبدو كل مرّة جديدة إذ تقع العين على الحديقة الخضراء التي تشدو الأطيار على أفنانها أنشودة المساء. وتتوسَّط هذه الحديقة حنفيّة مرمرية احتبس الساعة ماؤها، ولكنّه طوع الإشارة ليتدفّق في شجو وحلاوة.

ها نحن مرّة أخرى في جوّ السكون والاستسلام والإطمئنان الذي تحدّه جدران الجوامع. وعلى الحصر هنا وهناك جلس بعض الملتحين، وهيئتهم تدلّ على أنّهم من مدحوري القدر. بيد أنّهم هنا في بيتهم الذي هو بيت الجميع لأنّه بيت الابتهال والثقة والأمل، ولأنّه وُجد ليكون كذلك.

فقد أنشأه سنة ٨١٨ هجرية الملك المؤيَّد المحمودي الظاهري ليكون مسجداً جامعاً ومدرسة لتعليم العلوم الشرعية والقراءات، وجعله على نسق الجوامع المُشادة منذ الفتح الإسلامي مكوّناً من أربعة إيوانات مسقوفة تحيط بصحن مكشوف، أكبرها هذا الإيوان الشرقي الباقي سليماً إلى يومنا. وجعل بالمسجد مدفنين أحدهما لنفسه والآخر لأسرته. وجعل فيه دار كتب في الجهة الشرقية تطلّ على باب زويلة. وجلب له العمد الرخام من بقايا الآثار القديمة والمساجد المتخرّبة ودور الأمراء المهجورة. كما نقل إليه من جامع السلطان حسن الباب الفاخر الذي عاينّا، والتنوير الذي علّق تجاه المحراب

(وقد نقل أخيراً إلى دار الآثار العربية) فجاء المسجد في عمارته وزخرفه وما فيه من الصناعة الدقيقة غرّة من غرر الفنّ العربي.

نطوف في الإيوان الكبير بين الأعمدة المتنافرة لأنّها جلبت من أماكن مختلفة، فمنها المضلّع ومنها المستدير. فنعجب بصناعة المنبر والمحراب والدكّة المرمريّة. ونسمو بأبصارنا إلى السقف وهناك آية الآيات.

دائماً، دائماً هذه السور القرآنية تدور حول الجدران في جلال ورشاقة بألوان يضيء فيها تمويه الذهب، مع مزيج من عشرات الأصباغ الرقيقة وخليط من مئات الرسوم الدقيقة التي لا تميّز إلّا عن كثب. وجميعها سابح في زرقة ذات بهاء خاشع. وكان ذوبها العذب يسيل على أركان الجدران، فتنحدر متصاغرة متلاطفة في اتساق وانسجام لتنتهي في رأس هندسي أنيق. وتنتقل أنظارنا من نفائس السقف إلى الجدران المكسوّة بالرخام وهي لا تدري على أيّ نقش دون آخر تستقرّ. ولولا ما علق بخيالنا من مشاهد جامع قلاون ومقعد ماماي السيفي وغيرهما لقلنا: «هذا أجمل جوامع القاهرة حقّاً!».

كيف نعجب بهذا الجمال فلا يجرح إعجابنا مشهد الأخشاب العتيقة التي تسند الأعمدة فيما بينها، ومصابيح الكهرباء العادية المعلّقة في المكان لا سيّما العدّاد الكهربائي الذي لا يستحي أن يعرض أدواته على حائط الجامع؟

لقد أصلحت لجنة الآثار العربية هذا المسجد كما أصلحت غيره من الآثار، وستباشر تشييد الأواوين الثلاثة لتعيدها إلى ما كانت عليه. أمّا ونحن نعلم هذا، فهل من عجب إن نحن رجونا الأستاذ يوسف أحمد أن تراعي اللجنة أصول التلاؤم والإتّساق، حتى في الأمور الإضافيّة؟ فإن اضطرّت مثلًا إلى إنارة المسجد بالكهرباء (لا سيّما وأنّ فرقة من طلبة الأزهر تدرس في هذا المسجد) فلتجعل المصابيح متوافقة وهذا الطراز العربي الجميل!

* * *

ترقد زوج المؤيّد وابنته في أحد المدفنين، وهو حجرة عارية مفتوحة نوافذها على الشارع الذي يزجي إلينا بغناء الجراموفون الأخنّ. فنجد صداه في هذا المدفن أسخف ما يكون.

وفي المدفن الثاني، تحت قبّة دقيقة الفنّ وإن خلص فيها نقش الحجر من رونق الألوان، ينام السلطان المؤيّد نفسه، ذلك الرجل القادر الذي كان في بادئ الأمر «الشيخ المحمودي» مستشار الخليفة المستعين بالله العادل ومدبِّر شؤونه. فلم يكتفِ بذلك، بل طمع بالملك واستمال الأمراء إليه. وضيّق على الخليفة وأرغمه على الاعتراف به شريكاً في الملك. ثمّ حجر على الخليفة في القلعة ووكّل به من يحفظه وأهله، ليتفرّد هو بالسلطنة ويدعو نفسه بالمؤيَّد وتضرب النقود باسمه ويتغلَّب مرّتين على أمراء التركمان عند حدود سوريا الشمالية. ورغم المساعي التي بذلها الخليفة ليستعيد السلطنة، كان الفوز للمؤيَّد أبي النصر الذي كان يحترم العدل ويراعي حقوق الشعب ويسهر على المصالح العامّة. ومع أنّه لم ينجح في ردع المماليك عن النهب والجور ولم يتمكَّن من اكتساب رضى الرعيّة، فقد كان صاحب نيّات حسنة ومشروعات مفيدة نشهد الساعة بعضها. رحمة اللّه عليه!

ومن ذا الراقد في الضريح القائم إلى جانب ضريحه؟ هذا ولده الذي فتك هو به وهو في العشرين من عمره...

أوالد يقتل ولده؟

ولِمَ لا يقتله إذا هو خشي أن يحلّ محلّه في كرسي الملك؟ إنّ حبّ الذات الفرديّة وحبّ البقاء عن طريق النوع عاطفتان متحاذيتان في قلب الإنسان. وحبّ البقاء عن طريق النوع غالب عند الصالحين الموزونين من الآباء. ولكن حيث يتغلَّب حبّ الذات الفردية حتى يكتسح كل عاطفة أخرى فهناك الفظاعة، وهناك جحيم الأبالسة. والذين يسيطرون على القانون أو يستطيعون أن يكونوا في نجوة منه، فأولئك يقضون على الابن الذي يمقتون. أمّا الذين يرعبهم العقاب فلا يقتلون فأولئك أشنع فظاعة. أولئك يجعلون من حياة الابن ميتة طويلة منوّعة العذاب لا يعرف مضضها إلَّا من كان هو الضحيّة.

هيّا، اخرجوا بنا من هذا المكان فقد حجبت محاسنه غمامة سوداء يتخلَّلها لهيب الجريمة المسجّلة! لقد رأينا هنا نزعة الفنّ والجمال والعظمة تنجلي في تألّق بهيّ،

وقربها الأنانيّة المضخّمة السفّاكة تزحف في الظلام الرهيب! مظهران متجاوران في قلب إنسان واحد، فهيّا بنا من هذا المكان!

... وأمام الباب الفاخر الذي هو أجمل أبواب القاهرة بلا منازع، تحت الدرجات الرخاميّة الواسعة، أبصرنا رجلًا مستلقياً على قارعة الطريق بين الأوساخ والأتربة، والأطمار المتفرّقة على جسده الهزيل لا تفلح في ستر أعضائه العارية. فحوّلنا أنظارنا عن هذا المظهر الآخر من مظاهر الحياة: مظهر الإهمال الذي لا يعنى به أحد، والشقاء الذي لا يؤاسيه أحد، واليأس السحيق الذي يتلاشى حياله معنى الرجاء الحلو الرفيق!

* * *

أمّا الدار التي نزورها بعدئذٍ فإن هي لم تبدّد فينا الشعور بالتقزّز والهول والاستفظاع فهي على الأقلّ تقلّل من كثافة ذلك الشعور وتنفث فينا أنّ الرجاء إن كان ميتاً من بعض الجوانب فهو حيّ كل الحياة من جوانب أخرى.

لا لأنّ هذه الدار التي شادها سنة ١٠٤٧ هجرية جمال الدين الذهبي شاه بندر التجّار بمصر، قد آلت إلى المرحومة فاطمة شويكار فوقفتها على جهات البرّ. ولا لأنّها من الدور القديمة ذات الطراز العربي الشائق بنقوشها وقاعاتها ومقاعدها ومشربياتها، أخذت تصلحها لجنة الآثار منذ ثلاثين عاماً فأعادت إليها رونقها وصار يؤمّها السائحون لمشاهدة ما فيها من مختلف الفنون المعماريّة. ولا لأجل هذا الحوش الذي تشيع فيه زرقة السماء، تتوسّطه الفسقيّة المصنوعة بالرخام الملوّن التي نجلس الآن حولها... بل لأجل الفتاة الصغيرة التي تدير علينا صينيّة القهوة بمشية فيها منذ اليوم سرّ الأنوثة ومعناها.

بابتسامة مهذّبة تحيّينا الفتاة وهي تنظر إلينا بعينين دعجاوين في وجهها المصري السمرة والتكوين. تنظر إلى هؤلاء الغرباء عنها الذين يبادلونها التحيّة ويبتسمون لطفولتها، وهي لا تدري ما وراء هذه الوجوه الباشّة من ملاحظات وتأمّلات، ولا تسمع السؤال الصامت الخطير الذي يلقونه عليها: «ترى أيّ أمّ تكونين في الغد، أيّتها المصرية الصغيرة؟».

يفرّج عنّا بعض الشيء منظر هذه الفتاة لأنّه يروقنا أن نتخيّلها سعيدة السعادة الممكنة بين هذا الرجل حارس الدار، الذي هو والدها، وبين أمّها الجالسة القرفصاء ملفوفة في حبرتها تضرم النار في الزاوية المظلمة.

الأب، الأمّ، والولد المدّخر من طفولته قوّة لمصارعة الحياة في الغد، هذه هي الحظيرة التي تخرج منها قدرات الإنسانية. والعائلة - التي تقدّم لنا منها الآن هذه العائلة المصرية الوضيعة صورة - كانت وستكون أبدًا المثل الجميل الذي تحرص عليه نفوس ذوي النفوس، وتحنّ إليه قلوب ذوي القلوب.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٦٩٢، ١٧ تمّوز/يوليو ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Alphonse de Lamartine (١٧٩٠ - ١٨٦٩)، من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومانتيكية. يمتاز شعره بنبرة حزينة ونزعة تصوّفية. ألّف أيضاً ملاحم وأعمالاً تاريخية كما كتب عن شغفه بالشرق ورحلاته إليه. أصبح عام ١٨٣٠ عضواً في الأكاديمية الفرنسية، وانتخب عام ١٨٣٣ عضواً في مجلس النوّاب، ثمّ تبوّأ عام ١٨٤٨ لمدّة قصيرة منصب وزير الخارجية في الحكومة الانتقالية. أدّى الانقلاب الذي قام به نابوليون الثالث سنة ١٨٥١ إلى طيّ صفحة مسيرته السياسيّة.

ثلاثة في ثلاثة شهور

في ثلاثة شهور تكاد تكون متوالية قضى من أسرة الشميّل المعروفة ثلاثة رجال هم: رشيد شميّل صاحب جريدة البصير المتوفّى بالأمس، وقيصر شميّل شقيقه وشريكه في عمله المتوفّى في الشهر الماضي، وابن عمّهما الدكتور إدوار شميّل المتوفّى قبلهما بأسابيع قلائل.

أمّا الدكتور إدوار شميّل فقد كان في حياته الخاصّة والعامّة أنبل مثال للأب والزوج والطبيب والصديق. فترك لأبنائه خير الذكرى وكان في عمله العلمي والطبّي حاذقاً هادئاً موفّقاً. فلا عجب لمن عرف شمائله أن يرى الحزن عليه شاملًا إذ يندر أن يتوفّر في شخص واحد ما توفّر في شخصه من براعة في الفنّ، ونبل واستقامة وشرف في الخلق.

وأمّا رشيد وقيصر شميّل فقد عاشا في مدينة غير هذه التي نسكنها، وحصرت في الإسكندرية دائرة أعمالهما وعلاقاتهما المباشرة. فالذين عرفوهما في حياتهما الخاصّة والعامّة أحقّ بالتحدُّث عنهما، وأصدقاؤهما ومساعدوهما أقدر على وصف أخلاقهما وعاداتهما وما لهما من حسنات وفضائل. أمّا نحن فنعرف أنّهما من أسرة الشميّل ذات الاسم الحميد والذكر المجيد اللذين يلقيان حول كل من أعضائها هالة خاصّة من الكرامة والنبل.

* * *

بين عديد العائلات التي لا يميّزها شيء فيما يتقلّب عليها من ألوان الحياة ومعانيها، هناك عائلات أخرى يسيطر عليها قدر خاصّ فيطبعها بطابع السعد أو النحس، العزّة أو المذلّة، المجد أو الخمول، التفوّق في شأن أو التقهقر في شؤون.

نعرف من هذه العائلات في تاريخ مختلف الأمم. ونعرف منها في عصرنا هذا وحتى بين معارفنا وأخصّائنا. فهذه يظلم حياةَ كل من أفرادها شقاءٌ خاصّ، وتلك يدفق على كل من أبنائها تيّار من الهناء ويشعّ عليه شعاع من النور. هذه العائلة تعرف بنبل كل من أفرادها ورفعتهم الخلقية، وتلك «تعرف» كذلك بانحطاط الخلق والحيلة الثعلبية والخمول في أعضائها. هذه يسطع فيها الذكاء باهراً مشرّفاً لقومها وللإنسانية، وتلك تنعكس على أعمالها وتصرُّفاتها رواسب الأحوال المقيمة في بنيها جيلًا بعد جيل.

ومن مناقضات الحياة أن يشبّ أحياناً في بعض تلك العائلات فرد يشذّ بأخلاقه وممكناته عن باقي أهله وعشيرته. فإنْ كانت أسرته خبيثة خاملة تجلّى هو كريماً عظيماً. وإنْ كانت هي مشبوبة الذهن نبيلة جاء هو طرازاً عجيباً من البلاهة والركود. إنْ كانت هي معافاة صحيحة عاش هو ضحيّة الملل والسقام، أم كانت فاسدة مرذولة بدا هو جمّ النزعات الشريفة والمطالب العالية. فكأنّما الحياة تفطن بغتة إلى أنّها أسرفت من نواحٍ شتّى فتحاول أن تتفادى بحشد الأضداد في ناحية واحدة، لتثبت في غناها وتنوّعها أن لا قاعدة مطّردة تسير عليها، وأنّها أوسع وأشمل وأطلق من أن تخضع لقانون أو تنتظم، ولو في عائلة فردة، على وتيرة واحدة وسجيّة مقرَّرة.

* * *

هذا قليل من كثير الخواطر التي تراودني على ذكر أسرة الشميّل التي امتازت بالذكاء والكرامة والتفوّق. فإنّ لكلّ من أفرادها الذين نعرفهم ميزة خاصّة في بابها سواءً في العلم أو الفنّ أو الأدب أو الصلاح. ولكنّنا إذ ننحني حزناً وأسى أمام القبور الثلاثة التي فتحها الموت في الشهور الأخيرة لا يسعنا إلّا أن ننظر إلى قبور سبقتها في مدينة الموتى وقد ضمّت ثلاثة آخرين من أشهر الشميّلين.

أحدهم ملحم شميّل الذي تفوّق في الرياضيات، والآخر أمين الشميّل الذي تفوّق في الأدبيات، والثالث أخوهم[١] وأشهرهم جميعاً، الدكتور شبلي شميّل، الذي نقل إلى اللغة العربية فلسفة النشوء والارتقاء، وتكلّم في كرامة الشخصية وفي العلم والحريّة منذ نصف قرن، وكان شعلة متلظّية ملهبة في جوّ أعوام سادها الظلام والاسترخاء[٢].

أجل، لقد اختار الدكتور شبلي شميّل القطر المصري ميداناً لأفكاره وآرائه في حين كانت الأقطار السورية واللبنانية تنوء تحت الكلكل التركي القديم وترسف في القيد الحميدي الظلوم. جاء مصر موطن الحريّة ليتكلّم عن انعتاق الشخصية الفردية من أغلال الدهور الخالية، ويدعو إلى التحرّر من الجهل والخزعبلات والأوهام، وينادي إلى العلم والمعرفة والحريّة. فعل ذلك إذ كانت الأمم الشرقية في مجموعها وسنانة في هجعتها الدهرية منذ ثلاثة قرون بعد تلك العظمة الخالدة وذلك التشعّع الباهر في مختلف أنحاء العالم.

ننحني احتراماً وأسى أمام القبور الجديدة، ونحسب فقد ساكنيها خسارة قومية، ولكنّنا نخصّ الدكتور شميّل بالذكر لأنّه من زعماء اليقظة الجديدة في الشرق ولأنّه ذاك الذي سمّاه حشمت باشا في خطبته التأبينية «رسول النور والحريّة»(٣).

وكيف لا نذكر النور والحريّة ورسلهما في هذه الأيام التي يزيد فيها توق مصر إلى المعرفة والعلم، ويرهف تطلّعها إلى معاني الاستقلال والحريّة..

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٧٥٧، ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٢٨، ص ١ .

(١) كذا في الأصل، وصوابها «أخوهما».

(٢) كان الدكتور شبلي شميّل من المقرّبين إلى ميّ زيادة ومن مرتادي صالونها الأدبي ابتداءً من عام ١٩١٣ حتّى وفاته في كانون الثاني/يناير عام ١٩١٧، وتبادل معها رسائل طالما جاءت على شكل أبيات شعريّة. انظر مقالتها «الدكتور شبلي شميّل الشاعر» في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٣٨٩ - ٣٩٦ .

(٣) رعى وزير المعارف المصري الأسبق أحمد حشمت باشا الحفل التأبيني الذي أقيم بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الدكتور شبلي شميّل في ١٠ شباط/فبراير عام ١٩١٧ بنادي الاتّحاد السوري في القاهرة. راجع في هذا الصدد مقالة ميّ زيادة «فضل مصر على الشرق» في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المصدر الآنف الذكر، ج ٢، ص ٣٩٧ - ٤٠٠ .

عبد الخالق ثروت باشا يبكي

أقبل النعش المنتظر منذ أسبوع.

أقبل النعش يحمل ابن مصر المتوفّى في بلد غير مصر.

أقبل النعش يعيد الغائب إلى وطنه.

أقبل النعش يقلّ جثمان رجل الدولة الكبير الذي كانت يده من أقدر الأيدي التي نسجت في الأعوام الأخيرة تاريخ مصر الحديث.

أقبل النعش يضمّ رفات من غادر بالأمس الديار المصرية ولم تغادر خاطره ذكرى مصر، ولا ضؤلت في نفسه الرغبة في خير مصر.

باخرة رأته ذاهباً وباخرة رأته آئباً. أمّا الباخرة الأولى فقد رأته حيّاً مفعماً نشاطاً وتأهّباً، يخفي وراء حلو الابتسام وحسن المجاملة ما كان يشغله من تفكير في الغد، وشعور بأنّ أمامه أمراً قد تقع تبعته عليه وأنّ حياله مشكلًا ربّما توفّر حلّه بين يديه. وكيف رأته الباخرة الأخرى؟... ألا هاكم النعش فاستنطقوه!

سافر المسافر ينشد بعض الراحة حيناً، وها هو الآن يعود وقد احتضنته الراحة الكبرى التي لا ينفكّ منها العناق!

يبكيه اليوم صحبه وعارفو قدرته وقدره. والجماهير في القرب والبعد واجمة لفقد هذا المصري الخطير. وموكبه الجليل الأخير يسعى بين الماء واليابسة من الثغر إلى العاصمة ليستقرّ به في قلب الأرض المصرية الحنون. إنّي أنا التي لم أعرف منه شخصياً غير التحيّة المألوفة، أنساه في يوم مصرعه لأذكره في أيام حياته.

كم كانت تعجبني منه بساطته. فسواءً في عهد تولّيه الحكم وفي عهد ابتعاده عن الحكم، سواءً يوم كان يرغد بالرضى العامّ ويوم كانت تتطاير حوله شظايا النقمة العامّة – كم من مرّة أبصرته يسير على قدميه في شارع قصر النيل والشوارع المجاورة

بخطوات فيها حيوية الكهل النشيط وفيها هدوء السياسي المتدبّر. ولو أنّ من لا يعرفه شهده في سيره مرّة أو مرّات لحسبه من المارّة العاديين، ولتطلّب من الوقت والملاحظة وإصابة النظر شيئاً كثيراً ليعلم أنّ ذلك الوجه الجامع بين استدارة الطفولة ومعاني الدهاء، وتينك العينين اليابانيتي الشكل، وتلك اليد التي كأنّما هي لم تصغر وتكثف وتقصر منها الأصابع إلّا لتكون على القدرة أقدر، وتلك الخطوات الموزونة المتناسقة، وتلك الابتسامة الحاضرة على الدوام حتّى إذا انتشرت على الوجه حرّة عادت فامتلكت نفسها – ، أجل كان الناظر يتطلّب شيئاً كثيراً من دقّة الملاحظة وإصابة النظر ليعلم أنّ تلك المظاهر تنمّ عن رجل السياسة والكياسة والحنكة والبراعة، رجل الدولة المصرية الذي طبع شخصيته في شؤون الدولة المصرية: عبد الخالق ثروت باشا.

كنت قد قرأت في الصحف أنّه بكى على قبر سعد باشا فتساءلت هل يستطيع هذا الداهية أن يذرف الدمع صادقاً؟ فتجلّى منه ذلك الصدق في تأبين زغلول باشا. لم يمض على ذلك اليوم أكثر من عام واحد! والذين حضروا ذلك الاحتفال يعلمون كيف أفصحت فيه شخصية ثروت باشا عن نفسها من جهتين متقابلتين فبدت في كل منهما أروع ما تكون.

فقد كان خطابه كلّا متماسكاً مؤلّفاً من مناعة التفكير ورقّة الشعور في هالة من الوطنية الحارّة. تكلّم في القسم الأول من الخطاب وهو الأكبر كما يتكلّم الرجل عن الرجل، والسياسي عن السياسي، والقويّ عن القويّ، والعامل التاريخي الفعّال عن العامل التاريخي الفعّال. ظلّ رابط الجأش رصيناً حتى وصل إلى المقطع الأخير. وهناك صمت قليلًا والتفت إلى صورة سعد يناجيها. وكانت تجلس تحت الصورة حرم الفقيد العظيم وهي في فجيعتها وانتحابها تشبه مثال الحزن البائس. فتبدّل لون ثروت باشا لهذا المشهد المزدوج وتغيّرت وقفته وهمّ أن يتكلّم فعصاه الكلام وتلجلج لسانه وطمى حزنه وفاضت دموعه وأجهش بالبكاء. والجمع الذي كان منذ حين ينصت إليه هادئاً رابط الجأش مثله، تأثّر الساعة بتأثّره، وأجهش إجهاشه فتعالى النحيب من كل صوب.

ليس بين دموع بني الإنسان ما هو آلم من دموع الرجل لا سيّما إذا كان قويّاً بين الأقوياء. يؤلمنا بكاء الطفل لأنّنا نشفق أن يتوجّع من لا يدرك بعد معنى الألم، ونفرض على

الحياة أن تكون كلها بسمات لناظريه. وبكاء المرأة مؤلم لأنّها ضعيفة يتعاون عليها المجتمع والطبيعة، فالبكاء مرجعها الأول والأخير ولا تفريج لكربتها بغير العبرات. أمّا الرجل السيّد فإذا جرح هرب من وجعه إلى النشاط والعمل، ونسي محنته في ميادين الطمع والجهاد، ووزّع نفسه الأنانيّة في الحياة الخارجية العامّة. ففي الأفق أمامه منافذ أبداً مفتوحة وأبواب المجتمع غير مسدودة في وجهه، لذلك كانت دمعته نادرة عصيّة. ولذلك كانت دمعته بالغة الأثر محدّثة بالعاطفة الطامية والانفعال السحيق.

هناك، كما يقولون، «دموع تماسيح» تثير الابتسام، و «دموع تمثيل» قد تثير التأثّر، ودموع مفتعلة تستدعي الزراية والاستخفاف، ولكن ما أسهل أن يتعرّفها الرائي الحاذق ويسمّي كلًّا منها باسمه!

أمّا دموع ثروت باشا فكانت صادقة، صادقة حتّى ظهر فعلها في كل عضو من أعضائه. وكلّما عاد إلى محاولة استئناف الخطاب عاوده التلجلج والشهيق حتى ألقى أخيراً بقراطيسه ونزل عن المنبر مستسلماً لانفعاله وسط الانتحاب الشامل. واضطرّ سكرتير حضرة صاحب الدولة مصطفى النحّاس باشا إلى أن يخلفه على المنبر ليتلو تلك المناجاة المؤثّرة الموجّهة إلى روح سعد وإلى حرم سعد:

إلى حرم سعد مؤاساة جميلة وتعزية حكيمة. وإلى روح سعد وعداً بالمحافظة على الائتلاف والاتحاد الوثيق، وعداً بالعمل والجهاد في محبّة وسلام لخير مصر ورفعتها وحريّتها.

وهذا الذي بكى بالأمس واستبكى يبكيه اليوم الصحاب والمشيّعون والأبعدون. فلئن كان لكل نعش رسالة عامّة فإنّ نعش ثروت باشا يردّد الرسالة المألوفة من الراحل إلى الباقين: «حياة الفرد، أيّاً كانت عظمته، حادث عارض في حياة الأمّة والإنسانية. ولكنّ عمله حادث باقٍ يتمّمه اللاحقون...».

غير أنّ لثروت باشا في نعشه رسالة خاصّة وهو الذي كان ينتظر منه السعي لإعادة الائتلاف وجمع كلمة المتنابذين. فهو لذلك يقول في صمته ما يقوله الذي يمضي قبل أن يقوم بواجب عليه عزيز. بكى منذ عام وهو يعد به الراحل العظيم الذي سبقه إلى باريه.

يا مصرا لقد كنت كبيرة في نهضتك القومية ولكنّك كنت في اتحاد عناصرك وأحزابك أكبر وبالإعجاب أحرى! إنّك قدوة الأقطار الشرقية والملقية عليها نبيل الدروس. أتسمعين اليوم صوت هذا النعش العابر؟

قد تعرضين عن الإصغاء وسط الشحناء والتطاحن وصخب الحياة. بيد أنّ الأصداء تخفت حول جلال الموت وكل كلمة تُقال إذ ذاك بعيدة الأثر.

أتسمعين الدعوة إلى العمل في ائتلاف ومحبّة وسلام المرسلة إليك من فقيدك الذي اتخذ النعش منبراً، والسكوت بياناً، والجمود والاستسلام دموعاً؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٧٦٢، ٦ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٨، ص ١ .

إلى وزير المعارف العمومية
ورئيس لجنة تأبين ثروت باشا

حضرة صاحب المعالي،

في سنة ١٩١٤ توفّي فتحي زغلول باشا فأقام له أصحابه من رجالات مصر حفلة تأبينية في دار الأوبرا بعد مرور أربعين يوماً على وفاته. وبما أنّ اللجنة لم تفرد مكاناً للنساء في ذلك الاحتفال فقد تشرّفت بأن وجّهت يومئذ خطاب احتجاج إلى الأستاذ أحمد لطفي السيّد بك مدير الجريدة، أحد أعضاء اللجنة التي نظّمت الاحتفال وأحد الخطباء الذين أبّنوا فتحي باشا[1].

أتسمحون لي، يا صاحب المعالي، أن أذكر نتفاً مما جاء في ذلك الخطاب؟

لقد قلت فيما قلت:

«حفلة جليلة أقامتها مصر لتأبين فتاها. ومصر كسائر بلاد اللّه - على ما أظنّ - تتألّف من رجال ونساء. لم تكن الحفلة قاصرة على هيئة الحكومة أو على طائفة من المحامين والعلماء، بل كانت عمومية جامعة بين المحمدي والعيسوي، والشرقي والأجنبي على السواء. غير أنّكم نبذتم منها جنساً واحداً وهو الجنس الذي منه رفيقة مهد فتحي باشا ورفيقة نعشه: والدته وزوجته. نبذتم ذلك الجنس الذي يعيش بعيداً في ظلّ النصر الشامل يوم يكون الرجل غالباً قاهراً حتى إذا نهش نفسه اليأس، وأدماها الألم، وخالطتها وحشة الموت، عاد إلى جنب الجنس الذي لم يخلق إلّا ليكون شقيّاً، الجنس النسائي...

«غريب أن تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها إلى أسمى درجات التأثّر المفيد، ويلفت عقلها إلى هيبة العلم وعظمة الفضل، ويعلّمها إجلال الوطن ورجال الوطن، مع أنّكم تسمحون لها بالذهاب إلى هذه الأوبرا نفسها لحضور الروايات التمثيلية، روايات قد يكون لبعضها أثر طيّب في الذهن ولكنّه بعيد عليه أن يلمس من نفسها الموضع الذي كان ذلك الاجتماع قد يلمسه..

«موقف جليل فيه الذكرى أفصح خطيب والصمت العميق أحدّ تصفيق، وآهات الحياة حكم باهرات، والدموع... دموع سعد باشا!.. إنّها دموع عظيمة آتية من بعيد: من أعماق المحبّة المقدّسة. إنّها سيّال حبّ تدفعه أبدية القلب الراحل في لوعة القلب الباقي. إنّها دموع بسيطة طاهرة بليغة أبكت من شهدها وما برحت تستفزّ دموع من سمع بها، دموع رجل نسي كل شيء في لحظة واحدة، غير اذكر[٢] إلّا أنّه كان له أخ خطير غاب غياباً أبدياً لا لقاء بعده في هذه الدار. أراد إسداء الشكر إلى الأحياء فما عثر إلّا على كلمات الوداع للراحل فلم يجُد قلبه ولسانه وعيناه إلّا بتلك الكلمات: وهي العبرات.

«هذه آية البيان.

«لو حضرت النساء هذا الاجتماع لأخذن عنه أمثولة طيّبة وحفظن منه في نفوسهنّ أثراً جليلًا».

* * *

أتسمحون لي بعد هذا، يا صاحب المعالي، أن أنقل جواب الأستاذ مدير الجريدة الذي علّق به على هذا الخطاب؟

قال، أطال اللّه عمره:

«الحقّ مع حضرة الكاتبة الفاضلة. ولست أعرف للجنة التي أنا أحد أعضائها عذراً في نفي النساء عن ألواجهنّ العادية في الأوبرا ذلك اليوم إلّا لعادة درجنا عليها. لو سُئلت رأيي في اللجنة عن دعوة السيّدات إلى هذا الاحتفال لتردّدت كثيراً وربما كان جوابي الرفض. ولست قادراً على أن أقدّم لهذا الرفض أسباباً يقبلها العقل ولكنّ الأمر هو هذا: إنّ احتفال التأبين ضرب من مأتم عمومي. ومع ذلك فإنّ المآتم لا تقوم إلّا بالرجال والنساء. فلا أعرف شيئاً جدّياً أقوله في هذا المعنى إلّا أنّنا لم نكسر هذه الدفعة قيود عادة لم تستحكم بعد.

«فالتأبين في ذاته حديث في بلادنا في هذه الأجيال الأخيرة. ومع ذلك يظهر لي أنّ الذي جعلنا لا نخصّص ألواج السيّدات لهنّ في هذا الاحتفال هو الغضاضة التي نجدها من أن ندعو النساء لحفلة مثل هذه، غضاضة مرجعها إلى العادة كما قلنا.

«على أنّه يوجد في البلاد شعور قويّ لا يوافقه أن تدعى النساء للحفلات العمومية. وهو شعور لا نستطيع إلّا احترامه وإن كان العمل سائراً على نقيضه، لأنّ الذين لا يريدون دعوة النساء لمثل هذه الحفلات يسكتون على شهودهنّ مراسح[٣] التمثيل. اضطراب في الفكر ولكنّه اضطراب طبيعي قضت به حالة الانتقال التي نحن فيها.

«تلك الحال نرجو أن يذهب بها المستقبل القريب. وحسبنا أن نغتبط بهذه الروح الجديدة التي تدفع الجنس اللطيف عندنا للحرص على حقوقه. تثبت للآنسة «ميّ» في ذلك سعياً مشكوراً».

* * *

ولما كان لي الفخر، يا صاحب المعالي، أن أكون في عداد تلاميذكم الذين غذاهم القلم منكم والبيان بحبّ الحقّ والواجب وزرع في نفوسهم بذور الرغبة في النهوض والتطلّع إلى حياة جديدة فيّاضة، فإنّي أطمع في أن أكون عند ظنّكم بي فأبيح لنفسي كلمات قلائل بعد هذا الخطاب القديم وجوابكم عليه.

انقضى ١٤ عاماً على وفاة فتحي زغلول باشا فقضى ثروت باشا وأقام له أصحابه من رجالات مصر حفلة تأبينية في دار الأوبرا. وما زالت مصر كسائر بلاد اللّه تتألّف من رجال ونساء. غير أنّ الدعوة هذه المرّة أيضاً كانت عامّة للرجال ولم يحسب للنساء فيها حساب.

مع أنّ رغبة أستاذي بقوله: «اضطراب في الفكر ولكنّه اضطراب طبيعي قضت به حالة الانتقال التي نحن فيها. تلك الحال نرجو أن يذهب بها المستقبل القريب» قد تحقّقت. ذهبت هذه الأعوام الغابرة بإنكار الرجال للنساء وأصبح مكانهنّ لهنّ دون غيرهنّ في كل حفلة من هذا النوع. وكان لحضرة صاحب المعالي فضل عظيم في الدعوة إلى تعليمهنّ وتثقيفهنّ. كما كانت له صيحة عالية في إنهاضهنّ وتشجيعهنّ، بل هو وافق غير مرّة على إفراد مكان لهنّ في الحفلات العمومية بصفته من أعضاء اللجان المنظّمة لتلك الحفلات.

ففي حفلة العيد الخمسيني للمقتطف أفردت اللجنة (التي كان سعادة مدير الجامعة المصرية مستشارها[٤]) مكاناً للنساء ولم تندم على ذلك. وفي حفلة تكريم شوقي أفردت اللجنة مكاناً للنساء وأنالتهنّ صوتاً بين الخطباء، ولم تندم على ذلك. وفي حفلة تأبين الدكتور صرّوف أفردت اللجنة التي كان سعادة مدير الجامعة من أعضائها مكاناً للنساء وأنالتهنّ صوتاً بين الخطباء، ولم تندم على ذلك. فماذا جرى في حفلة تأبين ثروت باشا لتضربوا علينا حجاب النسيان وتحذفونا من سفر الوجود؟

أكان عشرون كرسياً، مثلاً، من ستّمائة كرسي كثيراً على النساء؟

أليس ثروت باشا فقيد زوجته وكريمتيه كما هو فقيد ولديه وشقيقه؟ فعلام تنكرون على نساء الأسرة ما تقرّونه لرجالها؟

أليس في القاهرة جمعيات نسائية حقيقة بأن تمثّل في الاحتفال؟ أليس في مصر نساء يفهمن اللغة العربية بقدر ما يفهمها الوزراء المفوّضون مثلاً؟

أرجو ألّا يسيئكم احتجاجي هذا، يا صاحب المعالي، وليس معقولاً أن يوجّه مثل هذا الإهمال إلى المرأة فتسكت عنه بعد أن صارت قوّة عاملة في البلاد.

وإن أنا كنت مخطئة (ولست بالمخطئة) في مجاهرتي بعدم الرضى عن هذا الإهمال، فالملوم في ذلك إنّما هو الأستاذ الذي علّمني اعتبار النفس والاعتداد بالذات والمطالبة بالحقّ أيّاً كان.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨١١، ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، ص ١ .

(١) راجع نصّ رسالتها إلى أحمد لطفي السيّد وجوابه عليها في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٤٧٨ - ٤٨٢ .

(٢) كذا في الأصل، وصوابها «ذاكر».

(٣) «مراسح» جمع «مرسح»، وهي كلمة مرادفة لـ «مسرح».

(٤) الإشارة هنا إلى أحمد لطفي السيّد الذي كان مدير الجامعة المصرية في الفترة ما بين ١٩٢٣ - ١٩٣٢ و ١٩٣٥ - ١٩٤١ .

عندما يكون الطفل مريضاً...

إذا مرض الطفل فأول ما يتّجه فكر ذويه إلى الطبيب وعليه تعقد آمالهم في الشفاء.

وإذا كان الطفل ابن بيت غنيّ أحاطت به في مهده العناية ووسائل الوقاية والصحّة وسرعان ما يؤتى له بأشهر الأطبّاء وتكفل لمعالجته خير الأدوية.

وهذا حقّ وواجب.

ولكن إذا كان الطفل ابن فقيرين؟...

وإذا كان الأبوان يجهلان أساليب المعالجة والتمريض، ولا يدركان أهمّية المظاهر المتعاقبة على طفلهما في تدرّج العلّة؟ إنّهما كالأبوين الغنيّين يفكّران في الطبيب منذ اللحظة الأولى. فهيّا إلى الطبيب! ولكن أيّ طبيب؟

لست بناسية جمعيات الرعاية من حكومية وأهلية ودولية ونسائية. ولا أنا بجاهلة المستشفيات المجانية والمستوصفات الخيرية على اختلافها. أعرف أنّ تلك المؤسّسات الرحيمة تعالج كل يوم مئات الأطفال وتردّ إليهم العافية فهي تستحقّ الثناء كله على أعمالها هذه وهي حقيقة بالتشجيع والمعونة من القادرين.

ورغم ذلك، أرجع فأتساءل عن حالة الطفل الفقير في مرضه.

عندما يصاب بمرض من الأمراض البطيئة السير فالمشكلة قابلة الحلّ. يذهب الوالدان بالمريض الصغير إلى مركز الجمعية، أو إلى مستوصفها، أو إلى طبيب من الأفاضل الذين خصّصوا بعض الأيام للمعالجة المجانية، ويكرّران الزيارة حتى شفاء الطفل.

ولكن عندما يكون المرض من تلك الأمراض المفاجئة السريعة التطوّر، الخطيرة السير، التي تقتضي المعالجة في الحال، أو عندما يبطئ جهل الوالدين في الذهاب إلى

الطبيب فيصل المرض يوماً بغتة إلى حالة حرجة يكون فيها الخروج بالعليل من البيت متعباً، مضنياً، مضيفاً خطراً على الخطر...؟

أتتصوّرون عندئذ هذه الجولة الكئيبة من طبيب إلى طبيب، ومن جمعية إلى جمعية، ومن مستوصف إلى مستشفى، في تراب الشارع وضوضاء الجماهير وفي بطء سير الترام أو غلبة المشي على الأقدام؟ إذ ليس لأهل هذه الطبقة سيارات تنهب الأرض فتصل إلى المكان المقصود في دقائق.

وإذا كان والد الطفل المريض ذا عمل يكسب منه عيشه، فكيف يفرّط به مخدوموه في ساعة يحتاجون إلى المعين؟ وإذا اقتضى الأمر تكرار الزيارة إلى الطبيب مرّات واختلّت من جرّائها أعمالهم ووقعوا في التشويش والارتباك؟

وإذا كانت والدة الطفل منهمكة في عمل ضروري، أو مقيّدة إلى جانب ابن آخر مريض، أو كانت مريضة هي نفسها، فمن ذا يقوم بحمل الطفل إلى الطبيب؟

ولو لم يكن شيء من ذلك - وكله كائن لأنّه من الوقائع اليومية المألوفة - واتّفق أن تفاقمت حالة المريض يوم الجمعة، في اليوم الذي تعطل فيه مصتوصفات الجمعيات وأعمالها، فماذا تكون النتيجة والمرض لا ينتظر ولا يهادن؟

والحالة هذه فإنّ هناك أمراً يتحتّم التفكير فيه وهو أن يستمرّ عدد من الأطبّاء في العمل أيام الجمعة وأيام العطلة(١) عموماً، وأنّ في الحالات الحرجة يجب أن يزور الطبيب الصغير العليل لا أن ينتظر منه الزيارة في مستوصفه أو في مركز الجمعية.

لست أدري هل في مستشفيات الحكومة ومستوصفات الجمعيات نظام يقضي بمثل هذا؟ وإنّي أجهل هذا التفصيل والجاهلوه(٢) مثلي كثيرون فتكون لكلمتي هذه فائدة حسنة لأنّها تدعو إدارات تلك المستشفيات والمستوصفات إلى نشر بيان يوقف الجمهور على أمر مهمّ يجهله.

وإن لم يكن لمثل هذا النظام وجود فلا أقلّ من أن يُلفت إليه رجل العلم والحذق والمروءة صاحب المشروعات النافعة القائم على إدارة الشؤون الصحّية في هذه البلاد: سعادة الدكتور شاهين باشا الذي هو بصفته الطبيب الخاصّ لحضرة صاحب الجلالة

وسائر أعضاء الأسرة المالكة، وبحكم وظيفته وبقدرته الشخصية جميعاً - هو كذلك طبيب الأسرة المصرية الكبرى بأسرها وطبيب جميع أطفال مصر.

كذلك ليس كثيراً على همّة حضرة صاحب المعالي الدكتور حافظ عفيفي بك، أن يولي هذا الأمر التفاتاً بصفته رئيس جمعية رعاية الأطفال المصرية.

لا أتكلّم عن هذه المسألة من حيث هي موضوع عامّ يمكن التفكير فيه بهدوء أياماً وأسابيع، بل إنّي أشهد في هذين اليومين مرض طفل مصري بين أبوين حائرين يتنقّلان من عيادة إلى عيادة. وهو هذا المشهد الذي يفتح عينيّ على هذا النقص ويرشدني إلى وجوب معالجته. كما أنّه يزيدني انتباهاً إلى فضل القائمين بأعمال البرّ، وتقديراً لما يبذلون من الهمّة والجهود في إغاثة الملهوف والأخذ بيد الفقير.

وبعد، فإنّي أتساءل كذلك كيف يعلم الجمهور أنّ الجمعيات والمستوصفات تنتظر منه أن يقصد إليها لينال حاجته من العلاج والدواء؟

أجل، إنّ الذين يعرفون أبوابها كثيرون وإنّ قصّادها لعديدون. ولكن لا ريب في أنّ هناك من لا علم له بها ولا بوسائل الوصول إليها فيما لو عرف أنّها موجودة. فعلام لا يكون في الصحف بيان ثابت يرشد الجاهلين؟ وعلام لا تُنشر إعلانات كبيرة على جدران الأحياء الوطنية يقرأها للمحتاجين من استطاع القراءة؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨١٦، ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، ص ١ .

(١) كذا في الأصل، والصواب «أيام الجمع وأيام العطل».

(٢) كذا في الأصل، والصواب «وجاهلوه».

رحلة إلى السويس[1]

أيّها السادة والسيّدات،

إنّما يتلقّى الخطيب نشاطه أو ملله من طبيعة موضوعه ومن نفسية الجمهور المصغي إليه. ولئن وجدتُ دائماً لدى الجمهور المصري عطفاً جميلًا، وإدراكاً دقيقاً، واستعداداً كبيراً للاهتمام بكل بحث يطرح أمامه فإنّي لم أتقدّم مرّة إلى جمهور أنبل وأرقى من جمهوري اليوم. ولم أتقدّم مرّة وأنا أمضى عزيمة وأوثق ثقة منّي في هذا المساء. لأنّ بعض الموضوعات تقتضي شيئاً من التنميق البياني والفنّ الخطابي لتتغلغل في أفكار السامعين وتمتزج بنفوسهم. أمّا موضوعي الليلة فبليغ في ذاته، ناطق بعنوانه، متكلّم بمحتوياته حتى ليكفي أن ألمس منه نقطاً سريعة وجيزة ليثير أمامكم مآتي ذياك الماضي المجيد، ويخلق حولكم جوّاً من السحر والذكرى، ليسيطر أخيراً على فكر المفكّر منكم وقلب الوطني برجاء الحاضر الزاخر.

ولما كانت هذه أول مرّة أقف فيها على منبر الجمعية الجغرافية فلألبّينّ داعي الواجب وأذكر ذلك الرحّالة الألماني، الدكتور شفاينفورت[2]، الذي أسّس هذه الجمعية في عهد إسماعيل العظيم، وأذكر معه رئيسها القائم، الدكتور هيوم[3]، وسائر العلماء المصريين وغير المصريين الذين خدموا هذه الجمعية وما فتئوا يخدمونها ببحوثهم وأقلامهم وبيانهم. ولأرفعنّ فكري إلى ذاك الذي رأس هذه الجمعية أميراً، وجدّد نشاطها سلطاناً، وبنيت دارها في عهده ملكاً فافتتح هذه القاعة الشرقية الجميلة لمناسبة الاحتفاء بالعيد الخمسيني لتأسيس هذه الجمعية لدن انعقاد المؤتمر الجغرافي الدولي في القاهرة منذ ثلاثة أعوام، ذلك الرجل الذي ما زال يشمل هذه الجمعية بعطفه، ويرعاها بعنايته: حضرة صاحب الجلالة الجالس على عرش الفراعنة الفخام، الملك فؤاد الأول (تصفيق وهتاف).

رحلتي، أيّها السادة والسيّدات، لم تستغرق إلّا يومين اثنين وستقولون إنّ هذه الساعات الوجيزة لا تكفي لدرس تاريخ خطير كتاريخ مدينة السويس والطريق المؤدّية

إليها. ولكن لا تنسوا أنّه حيث يعوزنا الوقت لدرس الأمكنة والآثار والأشخاص طبقاً لقواعد الكتب فإنّ لدينا بني الإنسان قوّة أخرى عجيبة، هي قوّة التأثّر والشعور والتخيّل، التي تفهمنا في دقائق ما لا تظفرنا به الكتب في أعوام. فكلامي إذن حديث بسيط لا محاضرة تاريخية فنّية. وإنّي لواثقة سلفاً بأنّكم تشاركونني في شعوري، لأنّ الكتب، على أهمّيتها، صورة لمظاهر الحياة. أمّا الشعور فلباب الحياة وصميمها، وأنتم من أبناء الحياة.

إنّ الحيوية المصرية المنوّعة في جميع دوائر النشاط البشري وفي جميع أدوار التاريخ لتنشر لنا صوراً منها منذ خطواتنا الأولى نحو الصحراء فتنطوي القرون في لحظة ويبدو الماضي حيّاً في الحاضر.

نحن في مصر الجديدة ذات الحدائق والقصور. بيد أنّ نظرنا يمتدّ إلى يسرانا ونحن نذكر أنّ مصر كانت تُقسّم قديماً إلى ثلاثة أقسام: مصر العليا أي الصعيد وقاعدتها مدينة طيبة، ومصر الوسطى وقاعدتها منفيس قرب أهرام الجيزة، ومصر السفلى المسمّاة بالدلتا وقاعدتها مدينة الشمس، أو هليوبوليس القديمة التي نتبينّ الساعة معالمها فنكاد نلمح عن بعد تلك المسلّة العنيدة التي يتلخّص عندها تاريخ هذه الطريق.

في العالم قليل من الشهود الذين كهذه المسلّة شهدوا الحوادث تترى حيالهم وهم باقون. فهي أقدم مسلّة عرفها التاريخ وقد أقيمت في عهد سيزوستريس الأول ملك الأسرة الثانية عشرة في القرن الثامن عشر قبل المسيح فرأت مصر في عظمتها ومجدها ورأت مدينة هليوبوليس تنافس طيبة ومنفيس بهياكلها وفلاسفتها وخصبها وموقعها الكائن عند ملتقى فروع النيل وعلى رأس السبل المؤدّية إلى فلسطين وسوريا، أي إلى البلاد التي كانت في الماضي منافذ التجارة المصرية وهدف المطامع والفتوح. ورأت هيليوبوليس أخيراً في تقهقرها لأنّها كانت من أولى المدن المصرية التي تلقّت صدمات الآسيويين فقُضي عليها خصوصاً منذ أن نقلت الحكومة في العهد الإغريقي مركزها إلى الإسكندرية المتوافق موقعها وحالة العالم السياسية في ذلك الحين، إذ أنشأ الغرب يتفوّق على الشرق.

ورأت المسلّة مواكب القاهرين والمقهورين جميعاً من غارة الهكسوس الكبرى، إلى انتصارات تحوتـمِس الثالث ورمسيس الثاني وولده مِنِفْتاح وغيرهم من الفراعنة

العائدين بالأسرى والخيرات والسلائب التي غنموها من هيكل سليمان. كما رأت بعدئذ طَهراقة الحبشي وبسامِّتيك وقَمْبيز، يتلوهم في انتظام القرون الإسكندر وكليوبترة وقيصر وجِرمانِكوس وأدريانوس. وعسكر عندها عَمرو بن العاص في زحفه الظافر على البيزنطيين، وأَمُوري ملك أورشليم في مهاجمته مصر القديمة أو بابيلون. من هنا جاء نابوليون وكليبر(٤) ولكن لينصرفا. ومرّ من هنا محمد علي ليبقى ويبعث الحياة في مصر الحديثة.

ورأت المسلّة هنا تلك المدرسة اللاهوتية الفريدة التي كانت تحتفظ بعقائدها وعلومها القديمة وتستمرّ في البحث عن حقائق جديدة تسيطر بها على قوى الطبيعة. فقصد إليها فيثاغورس وصولون، وجاء هيرودوتس يبحث فيها، على قوله، عن أعلم علماء عصره. وتتلمذ لها أفلاطون وصديقه يودوكسس(٥) مدّة ١٢ عاماً. فاستطاع المصريون أن يوجّهوا هذه الكلمة إلى اليونان المتسلّقين آنئذ قمّة المجد: «أيّها الإغريق، ما أنتم إلّا أطفال!» فعرف أولئك الأطفال أن يستفيدوا مما تعلّموا فلخّصوا نظريات الفلسفة المصرية في لغتهم وظلّوا يستوحونها فيما بعد فكان من أفضال مصر على العالم أنّها أزكت العبقرية الإغريقية وأوسعتها ثروةً وجمالاً.

عجاجة خمسة آلاف سنة تلتفّ حول هذا الأثر وكل ما رآه من ارتفاع وهبوط، من انتصار واندحار لم ينل من عزّته وجبروته. إنّه ما زال يناطح القرون وكأنما هو في وقفته يشرف على صفحة المستقبل التي لا تراها العيون، فينتظر في مكانه نصراً جديداً ومجداً نهائياً حاسماً.

الآفاق الرحيبة تترامى من كل صوب، وسكون الصحراء حولنا شامل، وأعاجيب النور والظلّ باسمة عابسة، وعلى جانبي الطريق تقوم أنقاض المعاقل والحصون التي بناها محمد علي لحماية القاهرة وحراسة الطريق، وعلى أكمة هناك يجثم القصر الأبيض كأنّه يذكر فجيعة عبّاس الأول التي شهد القصر بعضها واكتملت في غير هذا المكان(٦). وكأنما جبل المقطّم أراد قبل اختفائه أن يزوّدنا بذكرى منه فنشر عند سفحه صورة رائقة من الماء الرحراح، يتخلّلها سرب من الأشجار، في هالة من الأنس والعمران. فإذا بالأصوات تقول: السراب! السراب!

هذا أول سراب محسوس رأيته، السراب! صورة الألم الأقصى لأنّه يعدنا لا يفي، ويقرّب ما يمنع، وينادي، ينأى ويتوارى!

أترى يفكّهكم رأيي لو أنا أفضيت به إليكم؟ هذا السراب المقول عنه إنّه صورة الوهم الكاذب تبدّى لي كأتمّ صورة للأمل الصادق. كيف لا وهو انعكاس لأشياء بعيدة ولكنّها حقيقية الوجود؟ أفلا يكون السراب في مثل هذا الاعتبار أقوى المشجّعات في الحياة لمن يدرك معنى الشجاعة والمثابرة؟ ولا ضير من تباعده كلّما ظنّ المسافر أنّه مقترب منه، إذ أيّ أمل يتحقّق بلا سعي ولا جهاد، وأيّة غاية تدرك بلا كدّ ولا عناء؟

لقد أنشأت سلسلة جبال العرب تسايرنا عارضة علينا ما لا عداد له من المضايق والمرائج والفجاج والخوانق القاتمة الجرداء تحت أشعّة الشمس المحرقة. تسايرنا في دورتها حول شبه جزيرة سيناء وعلى سواحل البحر الأحمر لتنطلق إلى بلاد العرب متوغّلة في قلب الصحراء التي لسنا الآن إلّا في أحد هوامشها. وهذه الجبال الجرانيتية القحطاء التي لا ينبت عليها العشب، ولا يسير عليها سائر، ولا يدوّي فوقها صوت تبدو وكأنّما هي رمال قاتمة ذات أمواج غير متحرّكة في أعماق خضمّ متجفّف.

نحن بالطبع من أهل العصر الجديد نقطع الفلاة في سيارة أنيقة لا تلتقي في سيرها إلّا بمثيلاتها من بنات جيلها. على أنّنا شرقيون ذوو وراثة شرقية وقد تغذّت مخيّلتنا بالشعر العربي القديم. فهل في وسعنا أن نسير في الصحراء حيال هذه القمم فلا نذكر ذلك الحيوان القويّ الوديع الذي قضى الدهور وهو يقطع الرمضاء ويطوي الصحارى الرهيبة ليصل بالمسافر إلى مضارب الأحباب والأحياء الآهلة بالسكّان حيث تشتعل نار القرى وتسحق أيدي البدويات حبوب البنّ على وفق شدو الأصوات وانتحاب القصب؟

كيف لا تمرّ في خاطرنا الجمال والنياق والأظعان التي قضت حياتها وهي سيارة الصحراء الوحيدة؟ كيف لا نذكرها وقصائد الشعراء الأقدمين – ومثلهم بعض المحدثين – ملأى باسمها وحديثها وإبلائها؟ وقد كان لها الفضل في تنبيه شاعرية البدو وتوقيع أوزانها الأولى، إذ أنّ المظنون أنّ سائقي الأظعان كانوا أول الشعراء، وغرضهم في بادئ الأمر استحثاث أظعانهم فيوقّعون أوزانهم على سير الإبل في البيداء. ومن ثمّ،

على ما يقولون، طول القصائد العربية وتنوّع موضوعاتها ووحدة أسجاعها. ولا عجب والحالة هذه، أن يميل شعراؤنا في هذا العصر إلى الإيجاز والاقتضاب، ويأخذون بالتطوّر وانتهاء الشدو والرويّ. لأنّ الطيارة واللاسلكي والتلفون والسيارة ليست في السماء وعلى الأرض فقط، بل هي كذلك في أفكارنا وعواطفنا ودقائق حياتنا.

إنّ هذه البطاح التي تسيل بجحافل المحاربين وقوافل التجّار لَحافلة كذلك بذكرى الأديان الثلاثة الكبرى: فمن هنا خرج موسى الكليم ببني إسرائيل ليقودهم إلى أرض الميعاد. ومن بعض هذه النواحي وفدت العائلة المقدّسة تحمل الطفل الذي سيهتف غداً في العالمين برسالة السلام والمحبّة والغفران. ومن هنا سارت منذ أربعة عشر قرناً قوافل الحجيج ووجهتها ضريح النبيّ العربي الذي جمع البدو الحضر تحت لواء الإسلام وجعل شعار الشعوب: «اللّه أكبر!».

كان المقريزي رحمه اللّه مؤرّخ زمانه(٧). فنصدّقه حيث يقول إنّ الطريق بين مصر والقُلْزُم تستغرق ثلاثة أيام، ثمّ نرجوه أن يصدّق أنّنا أجزناها في أقلّ من ثلاث ساعات. وبينا الشمس تنحدر وراءنا في أوشحتها القرمزية تراءت لنا في الأفق القريب مدينة بيضاء محاطة بهالة زرقاء فحيّانا مشهدها ليس فقط لأنّها جميلة ولأنّنا قادمون للوقوف على بعض جمالها وتاريخها ونشاطها، بل لأنّ لنا فيها من ينتظروننا. فهم أصدقاؤنا لأنّ أعمالهم المحكمة المفيدة وهمّتهم الموحية الرجاء والثقة تجعلهم أصدق الأصدقاء للجميع.

* * *

لبعض البلدان كما لبعض الأشخاص مغناطيس قويّ. وقد خُصّت السويس بقسط وافر من المغناطيس المصري العامّ نظراً لموقعها وسيطرتها على طريق المشرقين والدور المهمّ الذي تمثّله في حركة التجارة والصناعة والحضارة في العالم.

فبرزخها، كما تعلمون، هو الحاجز الوحيد بين البحر الأبيض والبحر الأحمر كما هو الممرّ الوحيد بين قارّتي أفريقيا وآسيا. فكان طريقها الطريق الوحيد إلى الهند حتى اكتشف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر. وكان طبيعياً إذن أن تقوم في هذه النقطة الجامعة مدينة بحرية تجارية، ومعامل لعمارة

السفن وترميمها. وقد وجدت هذه المدينة منذ أقدم أدوار التاريخ إلّا أنّها تغيّرت أسماؤها بتغيّر أمكنتها وبإعادة بنيانها مرّة بعد مرّة. لأنّ خليج السويس لم يرتكز على هيئته الحاضرة إلّا بعد التبدّل والتحوّل الناتج عن مدّ البحر وجزره، وتراكم أوحال النيل وعصف رمال الصحراء وكلها يتعاون على طمر المدن واحدة تلو الأخرى.

وتاريخ هذه المدن ليس في الواقع إلّا تاريخ مدينة واحدة لأنّه تاريخ غاية واحدة. فأول مدينة يسجّلها التاريخ هنا تدعى «تينخو» التي شادها رمسيس الثاني لعبادة الإله «توم»، ثمّ صارت هيروبوليس. ويقول المؤرّخ الثقة لينان دي بلفون(٨) إنّ يوسف الصدّيق اجتمع في هيروبوليس بوالده يعقوب الآتي من أرض كنعان سنة ١٧٠٦ قبل الميلاد. ثمّ طمست هيروبوليس فخلفتها مدينة أرسينويه التي بناها بطليموس فيلادِلفوس وأطلق عليها اسم شقيقته أرسينويه. ويثبت استرابون، الكاتب الإغريقي، أنّ هذه المدينة أو بعض أحيائها أطلق عليه أيضاً اسم «كليوباتريس».

ولم يكن لأرسينويه أن تبقى طويلًا لتراجع البحر الأحمر تراجعاً سريعاً في أول العهد الميلادي. ومع ذلك ففي القرني الثاني والثالث للميلاد ظلّت تُذكر أرسينويه كمرادفة لمدينة كليسما التي هي إيّاها، أو هي قائمة على مقربة منها. وكليسما لفظة يونانية معناها المكان المبلّل بالماء، أو المكان الذي تلطمه الأمواج. وليس مستحيلًا أن تكون هذه اللفظة قد تحرّفت مع الوقت فصارت «قلزم». فأصبحت المدينة مدينة القلزم كما صار بحر العرب والبحر الأحمر «بحر القلزم».

وقبل الانتقال إلى اسم السويس الحديث نذكر أمراً غاية في الأهمّية وهو أنّ هذه المدن في جميع أدوارها كانت تقوم على رأس قناة واصلة بين مياه البحر الأحمر ومياه الدلتا. ولم يفكّر الفراعنة قطّ في مدّ القناة إلى البحر الأبيض. وهم لا يلامون على ذلك لأنّ سياستهم كانت غير سياسة اليوم وحالتهم الاقتصادية غير حالتنا. إذ أنّ مصر من الوجهة الاقتصادية كانت تكفي نفسها بصفتها دولة مستقلّة حرّة متلاصقة الأقاليم والأنحاء. ولئن امتلكت جزائر الأرخبيل في بعض أدوارها الأول فهي لم تكن يوماً دولة من دول البحر المتوسّط (كما نقول بلغة هذا العصر)، ولم تكن من طراز الدول البحرية الرامية إلى استعمار البلاد البعيدة عنها كالفينيقيين والأغارقة مثلًا. حتّى في

العهد الروماني إذ أطلق على مصر اسم «أهراء روما» لم يخطر لساستها فتح الطريق المباشر بين البحرين. ولم ير الفراعنة في الخليج ممرّاً جامعاً بين القارّتين بل كان في نظرهم تخوم البلاد وحدودها. والجبال القائمة عنده كانت سوراً حاجزاً دون غارات الآسيويين وبدو الصحراء. فهي إذن حصن الدولة وقلعتها الطبيعية. لذلك كانت تدعى «سور الأمير».

وقد وجدت القناة بين النيل والبحر الأحمر عن طريق وادي الطُميلات منذ عهد الأسرة الثانية عشرة، لا سيّما منذ عهد رمسيس الثاني. فأعاد فتحها نيخوس أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين، أو هو أصلحها وزاد في مدّها إبّان الاحتلال الفارسي. على أنّ العمل لم يتمّ إلّا بعد مائة عام في عهد داريوس. وكان للقناة من الاتساع ما يكفي لمرور سفينتين متحاذيتين من سفن ذلك الزمن وطول القناة يستغرق سير أربعة أيام.

لقد رأينا أنّ الرمال والأوحال كانت تستأثر بالمدن فكيف بالقناة؟ سُدّت هذه القناة وغارت معالمها مرّة بعد أخرى فأعادها ترايانوس الروماني وخلفه في ذلك بطليموس فيلادلفوس باني مدينة أرسينويه الذي أبدى نشاطاً كبيراً على سواحل البحر الأحمر. والمرفأ العامر من القرن الرابع إلى القرن السادس ظلّ على ازدهاره في أوائل الفتح العربي إذ لا يخفى ما كان للعرب من مصلحة في مثل هذه الطريقة بين مصر وبلادهم فجدّد عمرو بن العاص حفر القناة من النيل إلى البحر الأحمر ويسّر ذلك فيما يسر نقل الحبوب من مصر إلى بلاد العرب. واستمرّ العمل في القناة إلى أن سدّها أبو جعفر المنصور في القرن الثامن. وظلّت لاغية حتّى القرن التاسع عشر الذي سيظهرها في صورة أخرى.

كل هذا ما كان يكفي للقضاء على مدينة القلزم لولا أحوال أخرى قاهرة. منها نقص الماء الحلو لأنّ القناة لم تكن تنقل مياه النيل الصالحة للشرب. ومنها ازدهار بغداد التي شُيّدت سنة ٧٦٠ فجعلها الخلفاء عاصمتهم وبذلوا جهدهم في أن يحوّلوا إلى طريق العجم والعراق أكبر قسم من التجارة بين الهند وسواحل البحر المتوسّط.

فأمست القلزم على ما وصفها المقريزي في القرن الرابع عشر – وكانت يومئذٍ تعرف بالسويس كذلك – «لم يكن بها ماء ولا شجر ولا زرع وإنّما يُحمل إليها الماء

من آبار بعيدة». والآبار التي يشير إليها المقريزي هي نبع السويس الذي يظهر اسمه في هذا الشأن منذ القرن العاشر. وقال ياقوت في القرن الثالث عشر إنّ السويس قامت مقام القلزم كمدينة بحرية ولكنّها ليست دون القلزم قحطاً وكآبة. وشمس الدين في أوائل القرن الرابع عشر يقول إنّ القلزم مدينة مهدّمة. وابن خلدون بعدئذٍ يسمّي البحر بحر القلزم وبحر السويس على السواء.

بيد أنّ هذا المرفأ لم يكن منسيّاً خلال القرون الوسطى فظلّت ترتاده السفن وكان يذكره المسافرون كمرفأ صغير لصيد الأسماك ومركز عمارة لزوارق البحر الأحمر. ومع أنّ الحجّاج أهملوه بعض الإهمال لانصرافهم إلى اجتياز البحر الأحمر بين مرفأي الطور والقُصَير، فإنّ موقع السويس الممتاز كان لا ينفكّ يستدعي الملّاحين والتجّار والحجّاج والمسافرين حتى القرن الخامس عشر إذ اهتدى البرتغاليون إلى طريق رأس الرجاء الصالح فهُدّدت الحركة التجارية في البحر. وهُدّدت مصر في تحالفها مع البندقية. وشُلّت حياة السويس مدّة ثلاثة قرون قُدّر لها أن ترى بعدها فجراً جديداً.

ويقول كلود بوردون في كتابه عن السويس الذي أصدرته الجمعية الجغرافية سنة ٢٥ إنّ العرب كانوا أوّل من فكّر في نقض برزخ السويس للمزج بين مياه البحرين[٩]. ولإثبات ذلك يستشهد بالمقريزي وشمس الدين وأبي الفداء والمسعودي والكندي وغيرهم. ولئن جالت هذه الفكرة كذلك في خواطر حكّام البندقية حليفة مصر ومستشاري لويس الرابع عشر والسلطان مصطفى الثالث والمماليك ونابوليون بونابرت الذي حاول تحقيقها فإنّها كانت في انتظار دي لسبس[١٠] ليخرجها إلى الوجود بفضل ولاة مصر وعمّال مصر وأموال مصر ويتمّم أعظم مشروع رآه القرن التاسع[١١]. ورغم المشاكل السياسية والدولية التي خلقها هذا المشروع فإنّ له أثره الخطير في تطوّر القارّات واختلاط الشعوب وانتشار الحضارة وتاريخ العالم.

والآن وقد حللنا في السويس فنحن نقطع الرصيف الطويل القائم بين الماء والماء إذ يرخي المساء سدوله اللازوردية. فأنظارنا بين السماء والمدينة والبحر حائرة حتى يستوقفها مشهد الباخرة «إكسبريس» المتألّقة بين الماء واليابسة، المتجلّية بمئات الأضواء، وشاراتها تتطاير في نسيم المساء. وفوقها يخفق العلم المصري ناضراً بخضرة الرجاء.

وهناك عند الباخرة التي أعدّتها شركة مصر لمصايد الأسماك لاستقبال ضيوفها تحيّينا ابتسامة هي ابتسامة الرجل العبوس. وتصافحنا يد هي اليد التي تعالج الأرقام وتنظّم الشؤون. ويرحّب بنا صوت هو الصوت الضنين بالكلام، صوت الرجل الذي لا يقول كلمة إلّا كانت هذه الكلمة كلمة إخوانه وكلمة ملايين المصريين لأنّها تعبّر عن حاجتهم، تعبّر عن رغبتهم، تعبّر عن إرادتهم، تعبّر عن نهضتهم فيلقون إليه بأموالهم ليضاعفها وينميها، ويكون كلامه حقّاً لا مجازاً من ذهب. وهذا الرجل الذي لا يريد أن يُذكر اسمه هو المصري... المجهول، هو المصري الفذّ، مصري اليوم والغد، طلعت بك حرب(١٢)!

أيّها السادة والسيّدات، أريد أن أفشي إليكم سرّاً ظريفاً وستصغون إليّ بالرغبة اللجوج التي تدفع بني الإنسان إلى اقتناص الأسرار. قال لي طلعت بك حرب بوجهه العابس ولهجته الجادّة: «لنا عندك رجاء (وما كان أشبه هذا الرجاء بالأمر!) وهو ألّا تذكري أسماءنا في حديثك. فأعمال شركاتنا قائمة بتعاون جميع المصريين. أمّا أسماؤنا وأشخاصنا فخاصّة بنا». فقلت: «أتريدون إذن أن يكون شأني في حديثي شأن مكبّري عظمة الخليقة وقوّتها وجمالها، على أن ينكروا أنّ لها خالقاً؟ هذا الكفر بعينه! أتريدون أن تحملوني على الكفر؟». فأجاب طلعت بك: «الكفر هو ما نطلبه منك في هذا المعنى».

فلأسكتنَّ إذن! ولكنّي ألمح هناك في عرض البحر وحدات أسطول مؤلّف من سبع بواخر كهذه الباخرة التي تضيفنا، ومن رفّاصين صغيرين لتأدية الخدمة في المسافات القصيرة، ومن سبعة مراكب شراعية تدار بالغاز، ومن عديد المراكب الأخرى والزوارق والقوارب المجهّزة بكل ما يستعين به الصيّادون على العمل. وهذا الأسطول الصغير تشعّ أنواره في الظلام ويخيّل إليّ أنّها هي تكتب أسماء القائمين بشركات مصر وكأنّما هي تقول للنجوم: «أنت يا كواكب القبّة الزرقاء، تنطقين باسم باريك العظيم. ونحن ننطق في جوّ السويس وعلى صفحة البحر باسم موجدينا من رجالات مصر وأبنائها الأبرار!».

بل كأنّما تلك الأنوار تنطق بأسماء جميع العاملين في هذه الشركات وجميع المساهمين الذين اهتدوا إلى من يضعون فيهم الثقة لتتمكّن مصر من تنظيم هذه النهضة

المالية الاقتصادية الرصينة الموطّدة الأركان، الهادئة على ما ينبض فيها من حياة سعيدة عاملة.

ماذا عسى تكون ساعات الضيافة عند هؤلاء العظماء، في جمع من الصحافيين والأدباء زاده وجود لجنة العمّال برئاسة سعادة عبد الرحمن باشا رضا أنساً وبهاءً، على ظهر باخرة مجهّزة بجميع الأجهزة والمعدّات العصرية؟ فحيث الصحافيون والأدباء والشعراء فهناك الجلبة... المفيدة. وحيث الدكتور محجوب ثابت(١٣) فهناك المعاكسة والمناقشة والأخذ والردّ. وحيث صاحب الكشكول(١٤) فهناك برامج الخطابة الظريفة. وإليكم أحد البرامج في نهاية الطعام والموضوع الذي خصّ به كل خطيب:

أحمد شفيق باشا(١٥): الرابطة الشرقية والسمك.
الدكتور منصور فهمي(١٦): الفلسفة والسمك.
داود بك بركات: العنبر والسمك.
الأستاذ الجدّاوي(١٧): مدينة السويس والسمك.
الأستاذ إدجار جلّاد(١٨): البورص والسمك.
سيّد بك كامل(١٩): الصحافة والسمك.

وانبرى الدكتور محجوب بك يردّ على معاكسيه فأتحفنا بخطبتين حماسيتين مهلهلتين في الدفاع عن العمّال وفي فائدة سمك البحر الأحمر للعمّال لوفرة الفوسفور فيه. وعرف كل من الأساتذة الخطباء أن يتكلّم في موضوعه ببراعة تلاقى فيها العلم والنكتة وقام خليل بك مطران فأسمعنا آية من آياته الشعرية حيث ترتدي الحقائق ثوب الخيال الرائع والبيان المبين. وأنشد الأستاذ زكي عكاشة(٢٠) فأشجانا وأشجى حتى الأمواج التي رفرفت عليها أصداء صوته الحنون. ونهض سيّد بك كامل فنظرت إلى رأسه الذي يجعله شبيهاً بكبير من زعماء البلشفية فقلت في نفسي: ماذا عساه يقول؟ وهل تتناول براعته فنّ الخطابة؟ فتكلّم حصيفاً، وتكلّم فصيحاً، وتكلّم خطيباً أديباً قابضاً على أعنّة الخطابة والبيان، ولو استطعت أن أوحي إلى مساهمي هذه الشركات وحياً لحملهم على المطالبة بأن يخطب سيّد بك فيهم ولو مرّة واحدة كل شهر.

ودارت الأحاديث حول السويس ونهضتها والقناة ومشاكلها، والبحر الأحمر وجباله وأسماكه ولآلئه. علام سمّي هذا البحر بهذا الاسم الذي عرف به منذ القدم؟ وعلام يُنعت بالأحمر؟ ألوفرة الفياضانات البركانية في جباله التي ما زالت جزيرة الطير تقدّم منها إلى اليوم مثالاً ملتهباً؟ أم لأنّه واقع في المنطقة الحارّة التي تدعى كذلك المنطقة المحروقة؟ أم لأنّ أكثر جزره مرجانية والمرجان في جوفه أغزر وأنقى وأبهى منه في أيّ مكان آخر؟ أم لأنّ قاطني سواحله الأقدمين كانوا حمر البشرة؟ ليس من يبتّ في هذا الأمر ولكنّ طريفاً يقول إنّ هذا البحر نُعت بالأحمر لأنّه شديد الزرقة.

ويسرّنا أن نسمع فيما نسمع عن حركة مرفأ السويس وعن استغلال ثروة الجبال. فللحكومة المصرية معمل تكرار البترول وتصفيته ولشركة شِل الإنجليزية معمل آخر. وللخواجا ويصا امتياز استخراج البترول من «أبو ضُربة» ولكسّاب مغاص اللؤلؤ. كل هذا حسن، ولكنّ الحكومة تستطيع أن تعمل. ولقد كان الأفراد دائماً أذكياء نشيطين في مصر وفي الشرق، ولكن قلّ أن تضافروا على التعاون. فماذا صنعت هنا هذه الشركة شركة مصايد الأسماك، التي هي مع أخواتها شركات مصر، الأولى من نوعها في هذه البلاد؟ وما هو مقدار نجاحها في عام واحد وفي شهر واحد أنشأت فيه بيع الأسماك؟ وهل عندها ما هو جدير بالزيارة والاطّلاع لتنشر لنا أعمالها؟ هذا ما سنقف عليه غداً. فمتى يجيء الغد؟

جاء الغد، أيّها السادة والسيّدات، فمضينا إلى غايتنا مارّين بالأسطول الصغير - أسطول السلام والخير والنشاط، فزرنا مكتب الشركة ومعمل الثلج والتبريد، ثمّ زرنا معمل الصدف والأزرار. وقد حدّثكم داود بك بركات في مقالاته الضليعة البديعة عن السويس، وحدّثتكم الصحف الأخرى العربية والإفرنجية عن تلك المعامل العامرة ووصفتها للقرّاء وصفاً فنّياً دقيقاً. فلا حاجة بكم إلى وصفي الضئيل. ولكن اسمحوا لي بهذه الملاحظة التي لا تخلو من الشفقة على السمك فإنّ هذا السمك المسكين لا يُبقى عليه: فمنه ما يؤكل في الحال بعد بيعه في الأسواق، ومنه ما يحفظ في العلب. وبعضه تستخرج منه الزيوت وجلده يسلخ وهو أصلح ما يكون لصنع الشنط والحقائب النسائية والقفّازات وسواها. كبده مأكول لذيذ يحفظ في العلب. قد تقولون: بقيت

عظامه وبقاياه وحسكه. فاسمعوا حكايتها! إنّ حسكه يتحوّل إلى غراء وعظامه وبقاياه تنقلب أسمدة كيماوية!

وليست أصداف البحر بأحسن حظّاً منه. فقد هيّأوا لتحطيمها ومعالجتها صنوف الآلات والمكينات والأدوات والأيدي العاملة من الأطفال والشبّان والرجال. لا يتركون فيها مرتفعاً ولا منخفضاً إلّا ويقطعونه ويديرونه ويصقلونه ويثقبونه وينزلون به شتّى التجاريب التي تحوّل خامات الصدف والهبد إلى أزرار كبيرة ومتوسّطة وصغيرة تلمع فيها جميع أشعّة الشمس وتزدان بها أثواب الحسان وأثواب المتأنّقين من الرجال. وقد اهتدى خبير الشركة إلى المادّة التي يعمل منها اللؤلؤ الصناعي. هذا ما فعلته شركة مصايد الأسماك في عام واحد فماذا هي فاعلة يا ترى في الأعوام المقبلة؟

إنّها لتقدّم إلينا صورة من غدها في السير بنا إلى الأرض التي اشترتها من الحكومة تحت جبل عَتاقة في الطرف الغربي من الخليج، بعيداً عن منطقة المدّ والجزر حيال بور إبراهيم، لتكون في المستقبل مرسى لبواخرها ومركزاً لمعاملها، ومساحة هذه الأرض ٩٢ فدّاناً.

وهناك في تلك المساحة الرحيبة الجرداء حيث تحول الرمال دون سير السيارات، نزلنا جميعاً نمشي على الأقدام ووجهتنا البحر القريب البعيد. حيالنا على الساحل الآخر عيون موسى التي سنزورها غداً في أحد رقّاصات الشركة. وأمامنا تمتزج مياه البحر ومياه القناة التي سنمخر عبابها في نزهة بحرية لطيفة في هذا المساء الشجيّ. فيذكّرنا هذا المشهد نفسه ببيت شهير لشوقي:

أبيض عند أحمر للبرايا حِصَّةُ القطرِ منهما سوداء[٢١]

نذكر هذا البيت فنحتجّ عليه. ولو كان شاعره معنا لاحتجَّ احتجاجنا. لأنّ الحالة النفسية التي خرجنا بها من معامل الشركة تزيدنا معرفة بأنّ الأمم الكبيرة الجديرة بالحياة إنّما تتثقّف بالألم، وأنّ الصعاب والعراقيل التي تعترضها في تاريخها تنبّه ذكاءها، وتستثير همّتها، وتوقظ نشاطها، وتهديها إلى صميم قدرتها. وبينا الساسة والدبلوماتيون يعالجون حلّ المشاكل المحليّة والدولية يجب أن يزيد شعور الأمّة بوجوب العمل فيعمل.

نحتجّ، وبالبداهة تستقرّ أفكارنا على هؤلاء الرجال الأماجد الذين لم يصرفهم الجاه والثروة والهناء عن العمل. فهم بهذا أيضاً مثال الجدّ والنشاط والمثابرة. هو ذا مدحت يكن باشا(٢٢)، قدماه تتعثّران في الرمال ولكنّ عينيه تدوران في صفحة تلك الأرض المترامية، وقد نسي أرستقراطيته وعزّه لأنّه يقول في نفسه الهنيئة الحلوة القويّة إنّ أشرف شرف هو أن يكون المرء مستخدماً مواهبه ومزاياه لنفع أمّته. وإلى جانبه طلعت بك حرب الذي لا ينسى كبيرة ولا صغيرة في كلّ مشروع قائم، ولكنّه لا ينفكّ عن التفكير في إنشاء مشروعات جديدة وفي إيجاد عوالم جديدة. وعلى مقربة منهما محمود شكري باشا المدير الحازم الذي نسي أنّه كان وزيراً لأنّ الوزارة عمل إذا انقضى وقتها فإنّ وقت العمل لا ينقضي(٢٣). ونسي دوسيهات الوزارة في سبيل دوسيهات هذه الشركة الأهلية النبيلة التي يرئسها. ويتهادى بين هؤلاء الثلاثة خيال فؤاد سلطان بك الذي بقي في بنك القاهرة الجميل يدير الشؤون إبّان غياب إخوانه، عاملًا في وداعة وذكاء وفطانة.

ويتعثّر في الرمال علي اسلام باشا(٢٤) وقد نسي مشاغله الفنيّة ببني سويف ليفكّر في الأراضي الأخرى التي يمكن تحويلها إلى جنّات. وعبد الفتّاح بك اللوزي(٢٥) نسي كذلك أقمشته الوطنية البديعة ليسمع منذ الساعة حركة الآلات الداوية في المستقبل فوق هذه البقعة الواسعة. ومحمد شتا بك نسي مكتبه وأعماله لأنّه وجد في الأستاذ بركات من يفهمه فأخذ يحدّثه عن واردات البحر الأحمر والشرق إلى مصر قبل فتح طريق السويس في الصحراء، وأنّ تلك الواردات كانت أربعة بالمئة وأمّا الآن فبفضل الطريق الممهّدة صارت الواردات ٣٠ بالمئة وزاد عدد السيّاح والمسافرين إلى القاهرة، وأنّهم كلّما زادوا الطريق تمهيداً وإتقاناً ازداد المرور فيها وازدادت السويس عمراناً وازدادت القاهرة انتفاعاً. وعبد اللطيف بك محرّم مسرور كل السرور لأنّه يرى في أعمال الشركة ميداناً لظهور مواهب كثيرين من المهندسين المصريين الحاضرين والذين ما زالوا يطلبون العلم في مدرسة الهندسة. وسيّد بك كامل يعلم أنّ مصوّر شركة مصر للسينما والتمثيل يتقصّد الجماعة فلا يفوته أولاً أن يوجّه إليه الابتسامة المناسبة ثمّ ينصرف إلى التفكير في استغلال البحر وحيوانه وكل ما فيه بخير الوسائل العلمية الجديدة.

كل من هؤلاء النابهين ابن بارّ لمصر تحيط به نفس الأحوال المحيطة بسائر أبناء وطنه، ومع ذلك فقد عرفوا مواطن العمل والإنتاج وعرفوا أن يكوّنوا شخصية واحدة متماسكة تتسع في شخصيات أبناء البلاد جميعاً فيحسنون تنظيم أعمالهم وينمّون ثروة القطر لخيرهم وخير الجميع وخير الحاضر والمستقبل.

المال، أيّها السادة والسيّدات، كاللغة تتداوله أيدي الجميع. ولكن كما أنّ الشاعر والناثر يستخرجان من الألفاظ المألوفة قصيدة خالدة أو تحفة «فنّية» شائقة كذلك يعرف المالي البارع أن يستخرج من مالية البلاد المتناثرة أعمالاً نافعة مجدية. وشعراؤنا في هذه الرحلة - إنّي أسأل خليل بك مطران عفواً - هم رجال هذه الشركة العبقرية، شعراء نظموا في ستّة أعوام اثنتي عشرة قصيدة مالية اقتصادية صناعية اجتماعية وطنية قومية. هي قصائد شركة بنك مصر والشركات المتفرّعة منه.

أمّا معاني هذه القصائد فقد استوحوها من حاجة البلاد وممكناتها. وشدو هذه القصائد ورويّها هي أسطول الصيد الذي شهدنا وأسطول النقل والملاحة الذي تقطع وحداته الخمسون مجرى النيل ذهاباً وإياباً، وعشرات المكينات والآلات التي تدور وتشتغل كأنّما هي ذات روح وفكر وقلب. وألفاظ هذه القصائد هي ألوف المساهمين من أبناء مصر، وأوزان هذه القصائد وأسجاعها هي الثلاثة آلاف من العاملين فيها من موظّفين وعمّال وصيّادين وفنّيين. والجمهور المتمتّع بهذه القصائد هو من العائلات المصرية التي تعيش مصونة كريمة آخذة بأسباب الحياة والتقدّم بفضل توظّف رجالها في هذه الشركات الأهلية.

إنّ ثروة الأمّة وعظمتها لا تقومان بفرع واحد. فلا العلم بمختلف فروعه يكفي، ولا التشريع يكفي، ولا الزراعة تكفي، بل إنّ دعامة الحياة القومية الأولى هي المال والصناعة لا سيّما في هذا العصر الذي فاق جميع العصور بأنظمته الصناعية وعجائبه الميكانيكية وثروته القائمة على أسس علمية. وتنظيم الثروة، وتقسيم العمل طبقاً لمواهب العاملين، وإيجاد الصناعات وترويجها، كل ذلك من حاجات مصر التي تطلب التحقيق المباشر. وقد قامت هذه الشركات بذلك فحلّت في الوقت نفسه مشاكل شتّى اقتصادية واجتماعية وفتحت ميدان العمل للعاملين. وفي نموّها وتكاثرها واتساعها مزيد

من الحلّ لهذه المشاكل وتوسيع لميدان العمل وظهور المواهب. ومن أجدّ كهذه الشركات وصادف من النجاح ما صادفته، وأيّدته الأمّة الناهضة هذا التأييد الفطن الحكيم فإنّه سائر في طريقه المجيد شوطاً بعيداً. ومن ذا الذي لا يروقه أن يغني نفسه وهو يغني بلاده؟ ومن ذا الذي لا يطمع في أن يكون شاعراً مبدعاً كهؤلاء الشعراء المبدعين؟

والآن إذ نعود إلى القاهرة في طريق الصحراء فنحن في حالة نفسية أخرى. رأينا في القفار جمالاً جديداً هو جمال الثقة والنشاط والعمل الذي سيكون فعّالاً في إحياء مدينة السويس وتعزيز مركزها الخطير. ولم نبحث عن السراب، لأنّنا رأينا كيف يكون السراب حقيقة ولم تثره حولنا عجاجات التاريخ لأنّنا رأينا حقيقة جديدة من تاريخ جديد ليس هو تاريخ الحروب والفتك والشقاء ولكنّه تاريخ العمل والنهوض والرجاء. وساءلنا المسلّة العنيدة هل هي مسجّلة بين أعذب ذكرياتها مرور مواكب هذه الشركة كل يوم وكل ليلة؟ وتوحي هذه الحالة النفسية المملوءة إعجاباً وإكباراً وثقة ورجاء حوراً ببيت شوقي فقلنا:

أبيض عند أحمر للبرايا   حصّة القطر منهما (غرّاء)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨٢٤، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، ص ١ و ٧ .

(١) ألقت ميّ زيادة هذه المحاضرة في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨ في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة.

(٢) Georg Schweinfurth (١٨٣٦ - ١٩٢٥)، رحّالة وعالم ألماني متخصّص في علم النبات، جاب ١٨٦٣ - ١٨٦٦ كلًّا من مصر وشرق السودان، ثمّ أوكلت إليه الأكاديمية البروسية للعلوم مهمّة البحث في مجال النبات بمنطقة بحر الغزال في أعالي النيل، وانصرف ابتداءً من ١٨٧٢ إلى استكشاف شمال شرق أفريقيا. كان أول رئيس للجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة ١٨٧٥ - ١٨٧٩ ومن ثمّ مدير المتحف المصري ١٨٨٠ - ١٨٨٩ .

(٣) William Fraser Hume (١٨٦٧ - ١٩٤٩)، جيولوجي إنجليزي، تولّى رئاسة الجمعية الجغرافية المصرية من كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٦ حتى أيّار/مايو ١٩٤٩ .

(٤) Jean-Baptiste Kléber (١٧٥٣ - ١٨٠٠)، جنرال فرنسي شارك عام ١٧٩٨ في الحملة الفرنسية على مصر وتولّى الحكم فيها عقب عودة بونابرت أواخر آب/أغسطس ١٧٩٩ إلى فرنسا حتى رجوع بقايا القوات الفرنسية عام ١٨٠١ والتي كانت قد دُحرت من قبل البريطانيين.

(٥) المقصود هو أودُكسُس Eudoxos (٤٠٨ - حوالي ٣٥٠ ق.م.)، الرياضي والفلكي اليوناني.

(٦) عباس الأول (١٨١٣ - ١٨٥٤)، حفيد محمد علي، تولّى الحكم في مصر عام ١٨٤٨ . ألحق دماراً واسعاً بإنجازات جدّه لفقدانه إرادة الإصلاح وتأرجحه بين شريكيه السياسيين بريطانيا العظمى وتركيا التي نالت دعماً عسكرياً منه في حرب القرم. قُتل في مدينة بنها (شمال مصر).

(٧) تقي الدين المقريزي (١٣٦٤ - ١٤٤١)، أحد أبرز العلماء المصريين في عصر المماليك. انهمك طيلة حياته، إلى جانب وظائفه المختلفة في القضاء، في مهمّة توثيق تاريخ مصر وطوبوغرافيتها في عدّة أعمال ودراسات.

(٨) Louis Maurice Linant de Bellefonds (١٧٩٩ - ١٨٨٣)، مهندس وجغرافي ورحّالة فرنسي. تولّى منصب كبير مهندسي الأشغال العامّة في مصر عام ١٨٣١ فمديرها العامّ عام ١٨٦٢، ثمّ عُين وزيراً لها عام ١٨٦٩، ومُنح لقب «باشا» عام ١٨٧٣ .

(٩) المقصود كتاب Claude Bourdon بعنوان *Anciens Canaux: Anciens Sites et Ports de Suez* .

(١٠) Ferdinand Marie Vicomte de Lesseps (١٨٠٥ - ١٨٩٤)، مهندس ودبلوماسي فرنسي، صاحب مشروع بناء قناة السويس والمشرف عليه ما بين ١٨٥٩ - ١٨٦٩ . شرع عام ١٨٧٩ بإنشاء قناة بَنَما ولكنّ مشروعه فشل بسبب إفلاس شركة الإنشاء.

(١١) كذا في الأصل، والمقصود «القرن التاسع عشر».

(١٢) محمد طلعت حرب (١٨٧٦ - ١٩٤١)، رائد استقلال مصر الاقتصادي. أسّس بنك مصر عام ١٩٢٠ وساهم من خلال البنك في إنشاء العديد من الشركات المصرية الأخرى في العشرينات والثلاثينات.

(١٣) محجوب ثابت (١٨٨٤ - ١٩٤٥)، كاتب وطبيب مصري. اشتهر بمناصرته لقضية السودان السياسية ودعوته إلى تنظيم حركة العمّال في مصر سنة ١٩٢٠ وإدخاله التدريب العسكري في الجامعات والمدارس المصرية. عمل مع سعد زغلول في النهضة المصرية وكان من خطباء ثورة ١٩١٩ . أصبح بعد عودته من المنفى عضواً في مجلس النوّاب، ثمّ عُيِّنَ أستاذاً للطبّ الشرعي في الجامعة المصرية.

(١٤) المقصود هو سليمان فوزي، صاحب مجلّة «الكشكول» الأسبوعية القاهرية (١٩١٤ - ١٩٢١)، ثمّ «الكشكول المصوّر» (١٩٢١ - ١٩٣٤) .

(١٥) أحمد شفيق (١٨٦٠ - ١٩٤٠)، موظّف حكومي ومؤرّخ مصري. تخرّج من مدرسة الحقوق الخديوية في القاهرة ومدرسة العلوم السياسية بباريس. تولّى بعد عودته إلى مصر مناصب عالية كرئاسة الديوان الخديوي في عهد عبّاس حلمي وإدارة ديوان الأوقاف الأهلية ووكالة الجامعة المصرية. اشترك عقب الحرب العالمية الأولى في معالجة القضايا الشرقية والعربية السياسية. كان من

مؤسّسي جمعية «الرابطة الشرقية» في القاهرة عام ١٩٢١ وسكرتيرها العامّ كما رأس تحرير مجلّتها ١٩٢٨ - ١٩٣٠ . بين مؤلّفاته كتاب «حوليات مصر السياسية» الذي يعدّ، نظراً لما يحتوي عليه من الوثائق والمستندات، من أهمّ المصادر وأوثق المراجع لتاريخ مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

(١٦) منصور فهمي (١٨٨٦ - ١٩٥٩)، أديب ومفكّر مصري، من تلاميذ محمد عبده. دخل مدرسة الحقوق في القاهرة عام ١٩٠٨، ثمّ أُرسل في بعثة دراسية إلى فرنسا فنال سنة ١٩١٣ الدكتوراه بالفلسفة من جامعة السوربون في باريس. درّس بعد عودته إلى القاهرة في الجامعة المصرية لكنّه فُصل عن كرسيه بعد مدّة قصيرة نتيجة للآراء التي عبّر عنها في أطروحته عن «المرأة في الإسلام» والتي أثارت احتجاجات حادّة في بعض الأوساط آنذاك ممّا حال دون استمراره بوظيفته. عاد بعد فترة إلى الجامعة وتدرّج إلى أن أصبح عميداً لكلية الآداب. عُيّن عام ١٩٣٦ مديراً لدار الكتب المصرية وعام ١٩٤٤ مديراً لجامعة الإسكندرية. كان عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق والأمين العامّ للمجمع اللغوي في القاهرة. كان من مرتادي صالون ميّ زيادة وألّف بعد وفاتها كتاباً عنها بعنوان «ميّ زيادة ورائدات الأدب العربي الحديث» صدر في القاهرة ١٩٥٤، كما ألقى سلسلة من المحاضرات عنها في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة نُشرت عام ١٩٥٥ .

(١٧) المقصود هو حسن صالح الجدّاوي الذي كان يصدر حينذاك صحيفة «السويس الناهضة» الأسبوعية في مدينة السويس.

(١٨) إدجار فيليب جلّاد (١٩٠٠ - ١٩٧٣)، حقوقي وصحفي مصري لبناني الأصل. تولّى رئاسة تحرير جريدة *La Bourse Egyptienne* عام ١٩٢٨ وصحيفة *La Liberté* عام ١٩٣٦ . أسّس جريدة *Le Journal d'Egypte* عام ١٩٤٤ واشترك في إنشاء صحيفة «الزمان» اليومية عام ١٩٤٧ .

(١٩) الأرجح أنّ المعنيّ هو سيّد كامل عوني، ناشر مطبوعة «المعلومات» نصف الشهرية في مدينة طنطا وقتذاك.

(٢٠) زكي عكاشة، مطرب وممثّل مصري، مدير مسرح الأزبكية في القاهرة حينذاك. يعتبر مع أخويه عبد الله وعبد الحميد من الروّاد الذين ساهموا في تطوير فنّ التمثيل في مصر في مطلع القرن العشرين. كانوا أعضاء في فرقة الشيخ سلامة حجازي، ثمّ استقالوا منها وكوّنوا فرقة خاصّة بهم عُرفت باسم «جوق عبد الله عكاشة». قدّموا لوناً مختلفاً عن مسرح حجازي الغنائي، يميل إلى الميلودراما والمسرحيات المتعدّدة المناظر وهزليات الفودفيل التي أخرجها عزيز عيد.

(٢١) كذا في الأصل، والصواب:

أحمرٌ عند أبيض للبرايا　　حِصّةُ القطرِ منها سوداء

انظر قصيدة «كبار الحوادث في وادي النيل»، الشوقيات، ج ١، القاهرة: مطبعة مصر ١٩٢٩، ص ١٩ .

(٢٢) أحمد مدحت يكن (١٨٧٨ - ١٩٤٢)، رجل قانون، من كبار الملّاكين الزراعيين في مصر. عُيِّن محافظاً للإسكندرية عام ١٩١٨ فوزيراً للزراعة في حكومة رشيد باشا عام ١٩١٩ . شارك في تأسيس بنك مصر عام ١٩٢٠ وكان أول رئيس لمجلس إدارته حتى عام ١٩٤٠ .

(٢٣) كان محمود شكري باشا (١٨٨٣ - ١٩٤٩) مديراً لخاصّة الملك فؤاد عام ١٩٢٠ ووزيراً للمواصلات في حكومة يحيى إبراهيم باشا من أيلول/سبتمبر ١٩٢٣ إلى كانون الثاني/يناير ١٩٢٤ . عُيِّن عام ١٩٣١ مديراً عامّاً لبنك الاعتماد الزراعي وعام ١٩٣٦ عضواً بمجلس الشيوخ. كان عضواً في مجالس إدارة عدد من الشركات المصرية والأجنبية.

(٢٤) علي إسلام (١٨٨٤ - ؟)، من ذوي الملكية الزراعية الكبرى في مصر آنذاك وأحد منشئي شركة مصر للغزل والنسيج.

(٢٥) عبد الفتّاح اللوزي، تاجر مصري وصاحب مصنع للحرير في دمياط وقتذاك، من أعضاء مجلس إدارة بنك مصر.

الاحتفاء بمرور قرن على وفاة شوبرت وتقديم الشاعرين العقّاد والمازني

صحف العالم والدوائر الفنيّة والأدبيّة تدوّي باسم فرانتس بيتر شوبرت لمناسبة ذكراه المئوية. وقد احتفت الجالية الألمانية بالقاهرة بتلك الذكرى منذ أيام في تياترو حديقة الأزبكية ذي الهندسة العربية البهيجة. فسمعت من الذين لا بدّ لهم أن يكونوا من أهل الرأي في كل حال - أنّ هذا الإطار الشرقي الصرف غير متناسب وروح الموسيقار الغربي المحتفى به، غير متناسب والألحان السائلة من روحه والتي يوقّعها هنا جوق الأوتار هذا التوقيع المتقن.

فسمعتُ وسكتُّ، وأنا أتفكّه بمظهر الحمَّى التي تتآكلنا أحياناً نحن بني الإنسان لنوجد لنا رأياً قد تنقصنا أهمّ الموادّ لتكوينه.

ففضلًا عن أنّ هذا الاحتفاء قائم في الشرق الذي ليس مسرح الحديقة إلّا صورة مصغّرة له، فإنّ فرانتس شوبرت وليد النمسا التي يتناول طرفاها الغرب والشرق. وحيث أنّ شوبرت زعيم «الميلوديا» كما كان بتهوفن زعيم «الهارمونيا» فمن الطبيعي أن تكون ألحانه متوافقة والإطار الشرقي. وهو بعد قد استوحى الموسيقى الشرقية ولو عن طريق غير مباشر.

وإذا تحتّم تعريف اللفظتين الأعجميتين السالفتين قلت إنّ الموسيقى تتركّب من عنصرين اثنين وهما: الميلوديا، أو «اللحن» الذي هو كل الموسيقى الشرقية في تاريخها الماضي وفي تطوّرها الحاضر جميعاً، والهارمونيا، أو «اصطحاب الأنغام» وهي خاصّة الموسيقى الغربية. وفي هذا «الاصطحاب» تتقارب الأنغام المختلفة وتتباعد، وتتآلف وتتنافر (في الظاهر) أحياناً حتى لقد يغور بينها اللحن الأساسي. على أنّها تكون في الواقع منوّعة ذلك اللحن وباعثة إليه بعناصر تقوّي النصّ الموسيقي وتغنيه. ومن هنا -

من تواري اللحن الأساسي البسيط في عصف الأنغام العديدة - من هنا «دوشة الدماغ» التي تنتاب الذين لم يألفوا الموسيقى الغربية عند سماع قطعة منها.

* * *

كانت «فيننّا» عاصمة العبقريين من الموسيقيين إبّان حياة شوبرت إلّا أنّ الجمهور كان في لهوه غافلًا حتّى عن عبقرية بتهوفن، لا يستثيره غير وقع الموسيقى الاجتماعية العادية الشائعة يومئذٍ. وكانت جوقاتها تتكوّن من كمنجتين اثنتين صغيرتين وقيثارة وكمنجة كبيرة أو «كونترباس» وكان عازفو هذه القطع من فلّاحي التيرول[١] ومن أهالي المجر، ولا يخفى أنّ أثر الشرق بادٍ في حياة هؤلاء الأقوام وهو في موسيقاهم أظهر ما يكون. ومن تمازج هذه الموسيقى الغربية وموسيقى المحافل النمساوية تولّدت موسيقى «الفالتسر» المقصود منها رقص «الفالس» في بادئ الأمر. فاستحثّت هذه الموسيقى حتّى قريحة شوبرت وأغرته على تلحين قطعه المعروفة: «الرقصات الألمانية» و«الفالتسر الوجدانية النبيلة»، و«إكراماً لنساء فيننّا» وغيرها فكان في قطعه تلك متفوّقاً إلّا أنّها كانت أضأل نواحي فنّه.

لأنّ عبقريته تشعّبت في أبواب موسيقية شتّى، من الأوبرات إلى الموسيقى الكنسية، إلى السيمفونيا والكانتاتا، إلى «الأوقات الموسيقية»، إلى «الأغاني» المؤثّرة التي يبلغ عددها الستّمائة. ومن ذا منّا نحن أهل الموسيقى لم تستمدّ روحه من بعض تلك الأغاني الشجيّة؟ أليست «أغنية السهرة» لشوبرت أشهر هذا النوع من الأغاني بيننا لما فيها من تناسق اللحن وبساطته وحلاوته؟ ومن منّا لم يرَ في الكورسال[٢] جوق «لوي فولر»[٣] وجوق آنا بافلوفا[٤] راقصاً في هذه الأسابيع الأخيرة بعض رقصاته السحرية على وقع «الأوقات الموسيقية» لشوبرت؟

ورغم كل ما أنتجه في ٢٣ عاماً لأنّه أنشأ يلحّن منذ سنّ الثامنة وظلّ يلحّن إلى اليوم الذي سبق وفاته - رغم كل ذلك أعرض عنه الجمهور ولم يقدّره إلّا النفر القليل من أقرانه. أمّا النقّاد فقد سجّلوا الغباوة على نفوسهم لأنّهم أطلقوا عليه اسم «موسيقار الفالتسر» وفرغوا من أمره.

إذن من أين كان يتلقّى وحيه هذا الشابّ الفقير الدميم الخلقة المجهول رغماً عن مقدرته البالغة؟ أمِنَ الحبّ؟ وهل من رجل عظيم حقّاً سطا على إعجاب العالمين دون أن يكون الحبّ قد كواه ووسمه بطابعه العتيّ القدير؟

كلّا، لم يتمتّع شوبرت بعاطفة الحبّ إذ لم تكن النساء في تقديره أتمّ إنصافاً من الناقدين. والحبّ إن لم يكن نعمة فهو نقمة وهو في الحالين مفجّر الوحي ملهم آيات البيان. وقد حرم شوبرت الحبّ في جميع صنوفه والنساء القليلات اللائي تُذكر أسماؤهنّ في سياق الكلام عنه إنْ هنَّ ألهمنه شيئاً فهو لم يكن في نظرهنّ شيئاً، إلّا الكونتسة إسترهازي(٥) الصغيرة التي كانت تلميذته في العزف والتلحين والإنشاد، ويخيّل أنّه شغف بها كما شغفت به. إلّا أنّ تلك العاطفة بقيت مكتومة خرساء، لعلوّ منزلتها هي ابنة إحدى البيوتات المجريّة في ذلك الزمن وحقارة منزلته هو الذي كان يتناول طعامه مع الخدم على طاولة أبيها. فكيف يرفع عينيه إليها؟ وهي كيف تفتح قلبها للشعاع المنطلق من نظراته الوالهة؟

فلم يبقَ لديه إذن سوى الشوق إلى الحبّ وهو هذا الشوق الذي يجذبنا في ألحانه وأنغامه وربّما كان أعذب ما يتوزّع في قطعه الموسيقية هو النداء الطويل المستمرّ – النداء الذي لا يملّ ولا يعرف القنوط. فاستخرج على نحو قول هينريخ هايني(٦) «أناشيد ناعمة من الآلام الكبيرة».

وعندما كنت أصغي إلى قطعه في إطار مسرح الأزبكية بينا الكمنجات والبيانو تتعاون على نسج حديث الشوق والجوى والأمل كان يلوح لي أنّي أسمع هذه الكلمة التي قالها شوبرت في ساعة سخط إلى بعض محدّثيه: «أنا شوبرت، فرانتس شوبرت! فاعلموا ذلك ولا تنسوه. وعندما يُلفظ اسم «الفنّ» إنّما يتحدّثون عنّي لا عنكم. فقد أتيت بأعمال عظيمة جميلة تجهلونها في هذا الجيل لأنّكم زحّافو النفوس. غير أنّ الأجيال التالية ستكون خيراً منكم فلأجلها أكتب ولأجلها أُلحّن!».

وكنت أقول لنفسي إنّ هؤلاء الموسيقيين وهذا الجمهور يمثّلون الأصدقاء الذين لم تخلُ منهم حياة شوبرت. وهؤلاء السيّدات اللائي ينشدن أناشيده ويرقصن على وقع أنغامه يمثّلن النساء اللائي خلت منهنّ أعوامه الثلاثون. وإنّ روحه لا بدّ أن تكون

سعيدة راضية في هذه الحفلة التي ترعاها البارونة فون شتورر الشابّة الحسناء(٧). ولو كان لي أن أبدي ملاحظة لقلت إنّي إلى جانب خطبة زعيم الجالية الألمانية في سيرة شوبرت، كنت أتوقّع كلمة في موسيقاه من البارونة نفسها. ومن ذا أحقّ من النساء الجميلات بالكلام عن أهل الفنّ والجمال؟

* * *

كذلك شاعت أنغام شوبرت في دار «الفانوس الأصمّ» خلال الاجتماع الذي عقده مسيو فاندربورجت لتقديم العقّاد والمازني إلى الأدباء والصحافيين من إخواننا الغربيين. ولم تكن الشقّة بعيدة بين أنغام شوبرت ونفثات هذين الشاعرين المبرزين اللذين طالما ملتُ إلى درس شخصية كل منهما والعوامل التي كوّنتها، مع صرف النظر عن نزعتهما السياسية وحملاتهما الحزبية. فإنّ تلك الحملات التي فصلت كلًّا منهما عن الآخر لم تؤثّر في صداقتهما كأديبين من طراز واحد وذوق واحد ونزعة واحدة. وهي كذلك لم تغضّ من شاعريتهما وإنْ كانت صرفتهما عنها بعض الشيء.

وإن شئت يا قارئي أن تجعل كلمتي هذه ذات صدى عندك فاعزف لنفسك، أو دع أحداً يعزف لك «أغنية السهرة» لشوبرت (Sérénade de Schubert) وهي أشهر أغانيه بيننا. ثمّ اقرأ قصيدة «الدار المهجورة» في ديوان المازني. وأتبعها بهذه الأبيات للعقّاد:

ظمآن ظمآن، لا صوب الغمام ولا ... عذب المدام ولا الأنداء ترويني
حيران حيران، لا نجم السماء ولا ... معالم الأرض في الغماء تهديني
يقظان يقظان، لا طيب الرقاد يدا ... نيني، ولا سمر السمّار يلهيني
غصّان غصّان، لا الأوجاع تبليني ... ولا الكوارث والأشجان تبكيني
شعري دموعي وما بالشعر من عوض ... عن الدموع نفاها جفن محزون
يا سوء ما أبقت الدنيا لمغتبط ... على المدامع أجفان المساكين
هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم ... وما استرحتُ بحزن فيّ مدفون
أسوان أسوان، لا طبّ الأساة ولا ... سحر الرقاة من اللأواء يشفيني

سأمان سأمان، لا صفو الحياة ولا عجائب القدر المكنون تعنيني
أصاحب الدهر لا قلب فيسعدني على الزمان ولا خلٌّ فيأسوني
يديك فامح ضنى يا موت في كبدي فلست تمحوه إلّا حين تمحوني[8]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨٣٥، ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٨، ص ١ .

(١) Tyrol، مقاطعة في غرب النمسا بجبال الألب على مجرى نهر «إنّ» الأعلى، تتاخم شمالاً مقاطعة بافاريا الألمانية وجنوباً إيطاليا وسويسرا. عاصمتها إنسبروك (Innsbruck) .

(٢) اسم دار مسرح وسينما قديمة في القاهرة.

(٣) Loie Fuller (١٨٦٢ - ١٩٢٨)، مغنّية وراقصة أمريكية، لاقت نجاحاً باهراً في مطلع القرن خاصّة في باريس بسبب أسلوبها المستحدث في الرقص.

(٤) Anna Pawlowa (١٨٨١ - ١٩٣١)، راقصة باليه روسية، حقّقت خلال حياتها شهرة فائقة نظراً للرشاقة والجاذبية وقوّة الحضور التي اتّسم بها رقصها. قدّمت عروضاً مع فرقة خاصّة بها في مختلف أنحاء العالم.

(٥) Caroline Esterházy ، ابنة الكونت المجري Johann Karl Esterházy . أعطى شوبرت في منزل الكونت دروساً خاصّة في الموسيقى عامي ١٨١٨ و ١٨٢٤ .

(٦) Heinrich Heine (١٧٩٧ - ١٨٥٦)، شاعر ألماني وأحد آخر الرومانتيكيين، انتمى في نفس الوقت إلى «ألمانيا الفتاة»، وهي حركة أدبية ذات نزعة سياسية ليبرالية وطنية رفضت المفاهيم الأخلاقية الجامدة ولم تلتزم إلّا بوصف الحياة الواقعية.

(٧) البارونة فون شتورر، قرينة Eberhard von Stohrer (١٨٨٣ - ١٩٥٣)، الوزير المفوّض الألماني في مصر آنذاك.

(٨) من قصيدة «نفثة». انظر ديوان العقّاد، ٤ أجزاء في مجلّد، أسوان: مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج ١٩٦٧، ج ٢، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

هو يوم انتصار أدبي للديار المصرية
يوم ذكرى للذاكرين ويوم استنهاض للعزائم

تشرق شمس اليوم وعاصمتنا الجميلة في أفخم هيئاتها من حيث تنسيق الشوارع وحركة السيارات ونظام المرور واستعداد الأمكنة المعيّنة لاجتماع المؤتمرين. وليس هذا الحادث هو الأول في بابه عندنا ولكنّه حلقة من سلسلة نرجو أن تتابع فيها حلقات المؤتمرات العلمية والعالمية. لأنّ القاهرة قد تكون أحرى العواصم بمثل هذه المحافل الدولية.

وهذا الحادث الجامع بين الاحتفاء بمرور قرن على تأسيس مدرسة الطبّ وبين انعقاد المؤتمر الطبّي الدولي يشمل ثلاثة أمور نستخلصها من الفوائد الكثيرة التي نأمل أن تنجم عن هذا المؤتمر وهي:

أولاً - الشعور بأنّ هذا اليوم يوم انتصار أدبي للديار المصرية.
ثانياً - الشعور بأنّ هذا اليوم يثير ذكرى الماضي.
ثالثاً - الشعور بأنّ هذا اليوم ينشط اليقظة الجديدة عندنا ويجمع الأفكار المشتّتة حول المعاني الخاصّة بالمؤتمر والمتفرّعة منه.

أمّا الانتصار الأدبي فعوامله شتّى لأنّ المدينة التي تنفتح لمثل هذا الاجتماع يجب أن تكون واثقة من وسائلها الحسيّة والمعنوية لإرضاء وفودها واكتساب إعجابهم، واثقة من مظهرها الذي ستقابل الوفود حتماً بينه وبين مظاهر البلاد التي غادروها، واثقة من وسائل النقل والراحة فيها، لأنّ الوفود لا تجيء للتقشّف والزهد بل لتأدية خلاصة مجهود علمي والاستعاضة عنه بشيء من ترويح النفس والاستفادة دون عناء، واثقة من

أماكن المعارض والاجتماع عندها ومن أنّ تلك الأماكن لائقة لما يُراد بها من الأغراض، واثقة من علمائها وكبار رجالها الذين سيحاذون طائفة من علماء الشعوب وكبراء الدول فيجب ألَّا يكونوا دونهم علماً واقتداراً، واثقة من آثارها ومتاحفها وتاريخها الذي هو أشهر ما عرفت به، واثقة كذلك من الروح الجديدة المنتشرة في أفرادها وجماعاتها كيلا يحسبها الزائرون متحفاً للماضي فحسب.

وكل هذا متوفّر سيشهده المؤتمرون إبّان مرورهم السريع في جوّ من أبهى الأجواء وأصحّها وأرحمها لا سيّما في هذا الفصل الذي تخيِّم فيه على نواحي العالم غيوم الخريف وينتابها زمهرير الشتاء. وكما يتفق الوقت بعد الوقت أن يدرك الفرد في ساعة واحدة مبلغ ارتقائه ومكنون قواه - كذلك تدرك مصر في مثل هذا اليوم كل ما اجتازته من مراحل التقدُّم وتتبينَّ الطريق التي بقي عليها أن تقطعها وهي شاعرة حادّ الشعور بقدرتها وعزيمتها ونشاطها.

* * *

وأمّا الذكرى فمقبلة من الماضي السحيق.

إنّ المناقشة عنيفة بين أفراد من المفكِّرين في أيّ الحالات أدعى للأخذ بأسباب الحياة: هل تكون الأمّة ذات ماضٍ تتمثّل به في كل حين وتقاليد تتكئ عليها كالأمّة الإنجليزية مثلًا وإيطاليا الفاشيستية الجديدة؟ أم أن تكون منعتقة من غلّ التقاليد لا تستمدّ وحيها إلَّا من الساعة الحاضرة شأن الأمّة الأمريكية مثلًا والبلشفية الروسية التي دكَّت جدران الماضي وقضت على الأنظمة التقليدية؟

ريثما يتفق المتناقشون نحن نقرِّر في تواضع أنّ لكلٍّ من هذه الحالات حسناتها وسيّئاتها وليس في مقدور أمّة أن تخلق نفسها في لحظة إذ أنّـها - بالغة محبّتها للحريّة ما بلغت - تظلّ مقيَّدة بقيود الزمان والمكان، أسيرة الظروف والأحوال.

فلسنا نكرِّر ما يقوله البعض من أنّ مصر عبدة ماضيها. ولكنّنا نرى من العبث بالأمر العظيم لأن تعرف مصر أهمّية ذلك الماضي وألّا تباهي به، لا لمجرَّد المباهاة ولكن لتتشبّع نفسها من الشعور بواجبها فتكون في حاضرها ومستقبلها حقيقة بذلك الماضي، جديرة باستئنافه وتكميله. فلا يكون شأنها شأن الوارث الذي لا فضل له بما يرث

ويستبيح لنفسه الخمول والانحطاط اتّكالاً على عظمة جدوده بل شأن الذي يأبى أن يكون عالة على جدوده، طفيلياً بينهم فيكون العظامي العصامي ذا الحقّ الطبيعي في أن يقوم إلى جانب الذين سبقوه بجهوده ورقيّه وأعماله.

من هذه الناحية يومنا هذا يوم الذكرى لأنّ مصر القديمة تفوّقت كذلك في علوم الطبّ والتشريح والكيمياء. وليس هذا مجال التفصيل ولكن حسبنا أن نذكر فنّ التحنيط الذي لم يفقه سرّه بعد جهابذة العلم في هذا العصر. وكتب هرمس(١) في الطبّ ملأى بالمعلومات القيّمة يستفيد منها أنضج الأطبّاء. وأيّ العلماء الكيماويين في أيامنا يستطيع أن يلوّن الجدران بألوان تظلّ على كرّ القرون شائقة ناضرة كما فعل قدماء المصريين؟ ولقد أحسنت لجنة المؤتمر بأن نقشت على شارة المؤتمر رسم «إمحوتب»(٢) المصري أول طبيب عرف في التاريخ، وبأن جعلت هذا الرسم نفسه على أحد طوابع البريد الخاصّة بالمؤتمر.

ولا ريب أنّ أشدّ الطوائف اهتماماً بهذا المؤتمر هي طائفة الأطبّاء والصيادلة وطلبة الطبّ والصيدلة إذ أنّ هذا العيد العامّ في القطر المصري هو عيدهم بوجه خاصّ. فيزيدهم انتباهاً إلى حاجة البلاد إلى علمهم وصدق نظرهم وإحكام خبرتهم.

ما أشرف مهنة الطبّ للذين يدركون أهمّيتها! ولا عجب أنّ الطبيب في الماضي كان طبيباً وساحراً وكاهناً في آنٍ واحد لأنّ السحر قائم في معالجة أسرار الطبيعة والتغلّب على قدرتها لتحويلها إلى الجانب الذي يختاره الساحر. والكاهن صلة بين الإله والإنسان فهو إذن أقرب إلى معرفة الطبيعة لاقترابه من اللّه وأقدر من عاديّ الناس على معالجة أسرارها. وكان الطبيب بطبيعته «حكيماً» وهو النعت الذي ما زال يطلق عليه إلى يومنا هذا.

ألا ما أقدر الطبيب الذي بين يديه أحكام الحياة والموت وكم يجب أن يكون حكيماً في عمله النبيل الخطير!

* * *

فعلى الرحب والسعة، يا وفود المؤتمر في مصر!

أتيتم والسماء صافية باسمة، ودلائل اليقظة شائعة في جوانب النفوس، بادية في جلائل الأعمال رغم الاختلافات والمشاكل والمناقشات. أوَليس الاختلاف من علامات الحياة؟ وأيّة حياة مستجدّة مشرئبّة لا تتوزّع مظاهرها هنا وهناك على أن تكون في جوهرها وفي أصلها واحدة؟

ستعجبون ببقايا الماضي ثمّ تعجبون بالحاضر في استئنافه ذياكم الماضي بذكاء وثبات. سترون عطف المليك على هذه الروح الجديدة واهتمامه بالاشتراك فيها، وتحاذون في وزير المعارف أحمد لطفي السيد بك زعيماً كبيراً للأفكار الجديدة، وتعرفون طبيباً عظيماً في شخص الدكتور شاهين باشا القائم في طليعة أطبّائنا وهو الذي عُني بتنظيم هذا المؤتمر. وفي التقارير التي هيّأها زملاؤكم المصريون سيبدو لكم وجه من وجوه النهضة العلمية في مصر، هذه النهضة التي اشترك فيها علماء نبلاء من شعوب شتّى فزادوا في أهمّيتها وغناها.

ستجوزون المدن والقرى والمروج فترون في كل بقعة مصرية جمالاً وحياة. ستنفث فيكم مصر سحرها الفعّال فتحملون صورتها إلى بلادكم وتصبحون شعراء حسنها ومجدها كما هي تحفظ الذكرى من مروركم فيها وتقدّر جهودكم وعلومكم في تهيئة الأبحاث التي عُقد لها هذا المحفل الجليل.

ولئن سقنا إليكم جميعاً هذه التحيّة الشاملة فلا عجب إن نحن خصّصنا بها وفود الشرق العربي، لأنّ مصر كما كانت مهد المدنيات القديمة فهي اليوم عاصمة الفكر والعمل في الشرق الأدنى والقاعدة العزيزة التي تتطلّع إليها أنظار الشرقيين وقلوبهم.

ويسرّنا أنّ الحكومة الفرنسية جعلت بين أعضاء وفدها الطبيب اللبناني نزيل باريس وأحد مشاهير الأطبّاء فيها، الدكتور ألفريد بك خوري، فنحمد لفرنسا ذوقها في حسن الاختيار.

على الرحب والسعة، يا وفود المؤتمر في مصر! مصر في كل أدوارها، من الدور الفرعوني إلى الدور الإسلامي، إلى الدور الحديث، ترحّب بكم وتبادلكم العطف والتقدير!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨٤٠، ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٨، ص ١ .

(١) (هامش الجريدة) يُلقَّب هرمس أو توتحت بالإله القويّ عند المصريين وقد وصفوه بالأكبر الأكبر. واعتبره قدماء اليونان مخترع العلوم ومبدعها، وقد أودع أسرارها في كتب رمزية. ويقول بعضهم إنّ عدد هذه الكتب ٢٠ ألفاً، ويقول آخرون إنّ عددها ٣٦ ألفاً و ٥٠٠ مجلّد. وفي هذه الكتب أسرار السحر والكيميا والفلك حتّى أنّ الكيميا كانت توصف في القرون المتوسّطة بالعلوم الهرمسية.

(٢) (هامش الجريدة) إمحوتب، أوّل طبيب في التاريخ وبعد وفاته اعتبره المصريون إله الطبّ وهو على (الأسرة الثالثة). لإله الطبّ عند قدماء المصريين تماثيل كثيرة وكلّها تمثّله جالساً على كرسيه وفي يديه المتّكئتين على ركبتيه ورقة. وعلى هذا الشكل كانوا يصوّرون آلهة العلوم. وقد وصفه الإغريق ولقّبوه «بالإله الشافي».

سيامة الأنبا يؤنس التاسع عشر بطريركاً

اتفق لي قبل اليوم أن أحنق أحياناً على جنسي النسائي إذ يحول دون تمتّعي بأمرٍ بريء جميل والاستفادة مما هو نافع وحسن، أو عندما كان يظهر في أعمالي شيء من العيوب التي يروق الرجال أن يلصقوها بنا. إلّا أنّي لم أسخط مرّة سخطي هذه المرّة. فالشائع عنّا معشر النساء أنّنا نصل دائماً بعد الموعد المضروب وهذا الشائع صحّ عن طريقي هذه الدفعة وتحقّق بوصولي إلى الكنيسة المرقسيّة الكبرى بعد ابتداء الحفلة بما ينيف على ربع ساعة.

مع أنّي كنت راغبة في تتبّع هذا الاحتفال في جميع تفاصيله لأنّه فريد في بابه منذ نصف قرن وما زالت الطقوس القبطية على ما كانت فيه قديماً بألحانها ومظاهرها وخصائصها. فهي على نفاستها من هذه الناحية لا تفتأ تكتسب عطف الجميع بثبات الطائفة القبطية التي هي من أقدم وأغرب الطوائف وهي تحتفظ بشيء غير يسير من خصائص المصريين الأولين. حتّى أنّ اسم الأقباط مقتبس من اسم مدينة «قوبطوس» التي كانت قائمة شمالي مدينة طيبة (الأقصر اليوم) على الشطّ الأيمن من النيل. وما الكنيسة القبطية إلّا نثارة من الشرق المسيحي السابق انسلخت عنه لأسباب، فعرفت أن تحتفظ بكيانها رغم التقلّبات والطوارئ ورغم الوحدة والانزواء. فهي شديدة الأهميّة من هذا الوجه ولطقوسها أهميّتها في التاريخ الأثري والفنّي لجمعها بين الطقوس البيزنطية وشيء من الطقوس الفرعونية مع ما أدخلته عليها الكنيسة القبطية في انفرادها منذ صارت اللغة العربية لغتها الوطنية.

وصلت متأخّرة غير أنّي وصلت على كل حال. وتعرّفت على مظاهر العيد منذ ميدان المحطّة وعلى طول شارع كلوت بك، حيث احتشد الجمهور من الجانبين وتزاحمت بينه السيارات، واصطفّ هنا وهناك رجال البوليس يؤدّون واجبهم وهم في

أبهى ملابسهم وأغرّ أزرارهم وأنظف قفّازاتهم. وإخواننا الأقباط شرقيون كل الشرقية في ميلهم إلى إتقان الزينة وجعل المهرجان على ما ينبغي من الأبّهة والرواء. ذلك ما تحدّثنا عنه السجوف المنقوشة والحبال المثقلة بأنوار الكهرباء والسجاجيد الحمراء التي تجعل حتّى الأرض في عيد، حتّى ندخل الكنيسة الحافلة بالمدعوين، حيث أصوات الأحبار والقساوسة آناً تتناوب وآونة تتآلف في مراسم الصلاة والترتيل، بينا هم آخذون في إلباس البطريرك حلّة الموسم.

وصلت وبفضل المستقبلين من إخواننا وفضل السيّدة اللطيفة التي أخلت لي مكانها، حللت من جوار السيّد باشا علي في حصن حصين. وكيف لا أكون في مثل ذلك برعاية وكيل وزارة الحربية؟ وبفضل الأستاذ عزيز مسديه الذي يحرم نفسه ليعطيني، حملت برنامجاً وأنشأت أتتبّع الابتهالات والأناشيد. ولما كانت الرؤوس تخفي عنّي صميم المشهد حثّني إخواننا الأقباط على الانتقال فانتقلت إلى حيث تلطّف وكيل وزارة المواصلات محمود محمد شاكر بك فبوّأني مكانه (في الكنيسة وليس في الوزارة) فإذا بي قرب أحمد بك عبد الوهّاب وكيل وزارة المالية الذي كان يحمل على وجهه هيبته الحكومية المعروفة ولكنّ التأثّر كان بادياً في نظره حيال هذا المشهد الفرد.

* * *

الكراسي المذهّبة التي يجلس عليها كبار المدعوين وهيئات الحاضرين وملابسهم وابتهاجهم، وزينات الممرّات والكنيسة، كل ذلك جديد، والمزج في بناء الكنيسة بين الطراز البيزنطي والتطوّر القبطي قديم جديد. أمّا هذا الفصل بين الرجال والنساء (إلّا بعضهنّ) فقديم، وقديمة ملابس الأحبار والقساوسة في بياضها الحريري وتطريزها الذهبي، وقديمة أزياء رؤوسهم غير المألوفة، كما هي قديمة إشاراتهم وأناشيدهم وحركاتهم وكلّها تخيّل آتية من أقاصي الزمان. وألحانهم طويلة شجيّة بسيطة لا تتناول في قرارها اليوناني الشرقي أكثر من أربع «نوتات» أو خمس. أمّا الألفاظ فجلّها عربي وبعضها خليط من القبطية واليونانية على ما يلوح لي. وقديمة غريبة وجوه الرسل والقدّيسين المنشورة على الجدران وهي أقرب ما تكون إلى الفنّ البيزنطي في أواخر أدواره. ولكنّ الجديد – وكم هو جديد وحيّ! – هذا التصفيق المتعالي من جوانب الكنيسة عندما وضعوا التاج على رأس

البطريرك وسلّموه الصولجان والصليب. كذلك جديدة حيّة هذه الأصوات المشيرة بالسكوت والكفّ عن التصفيق احتراماً لهيبة المكان.

لو جازت لي ملاحظة صغيرة في هذا المعنى لأوردتها باحترام وتحفّظ. فقد فهمت الدافع إلى التصفيق والدافع إلى الكفّ عنه جميعاً. غير أنّي لا أرى ما يمنعه في مثل هذا الموقف (فقط) حتّى في الكنيسة.

أذكر أنّي إذ كنت في روما منذ ثلاثة أعوام، شهدت دخول البابا إلى كنيسة القدّيس بطرس لتطويب بعض الصالحين من الموتى لمناسبة العام المقدّس. فكانت الجموع المحتشدة في فناء الكنيسة الرحيبة تصفّق تصفيقاً حادّاً عند إقبال الموكب. وهذا غير جائز في الأحوال العادية. بيد أنّ دخول قداسة البابا في مثل هذا الموكب ولمثل هذا الغرض وفي العام المقدّس شيء نادر، فهو يثير التصفيق والهتاف.

تمّ إلباس غبطته فمشى إلى عرشه الجديد في ما حسبته مزيجاً من الارتباك والعزم معاً وجلس مثلما مشى وعلى وجهه أمارات الارتباك والعزم معاً. الآن أستطيع أن أرى وجهه مليّاً فأتبينّ ملامحه وكل ما يستقرّ فيها ويمرّ بها من المعاني، بينا الطقوس تتوالى حواليه والأحبار والقساوسة يقرؤون ويرتّلون.

لست أدري هل يجوز الاستفهام عن التفصيل الصغير في مثل هذا المهرجان التاريخي الكبير؟ ولكنّ هذا التفصيل الصغير شغلي الشاغل منذ البارحة، وموضوعه منديل غبطة البطريرك الجليل. فقد طلب غبطته شيئاً من الحاجب (؟) الواقف أمامه فقدّم إليه الحاجب منديلًا استعمله غبطته بمثل ما تستعمل به مناديل الرجال عادة. وهذا المنديل ذو لون أحمر وأظنّه مطرّزاً أو منقوشاً بلون أصفر ذهبي على ما لاح لي. فهل هذا المنديل خصيص بهذه الحفلة؟ وإذا كان كذلك فأودّ أن أعرف تاريخه وحفلات السيامة التي استعمل فيها، وكم عمره؟ أم هو أحد المناديل التي يستعملها البطاركة، فإن كان ذاك فعلام هو أحمر، وهل جميع مناديل البطاركة حمراء؟ أم هو أيّ منديل من مناديل الأنبا يؤنس؟ هل من مجيب على هذه الأسئلة بين الآباء القساوسة أو بين المطلعين من العلمانيين؟

قديم قديم وجه هذا البطريرك الجديد، قديم بملامحه الدقيقة وعينيه النافذتين وعكفه على نفسه. إنه كذلك آت من قديم الزمان. وعندما نهض يقرأ الإنجيل خيّل أنّ

صوته مجلّل بغشاوة من عشرات القرون. أهذه الغشاوة هي التي تجعل فيه بعض الاضطراب أم الاضطراب ناتج عن التأثر؟

الاضطراب يسكن شيئاً فشيئاً، والصوت ينجلي مؤدّياً بعد الوقت نبرات مخيّرة منطلقة من عزم كامن. بل أصبح من التمكّن وتملّك نفسه بحيث يعيد بعض الألفاظ والجمل مرّتين اثنتين، لا إعادة المتلجلج التائه ولكن إعادة المتقصّد الواثق الذي يريد أن يلفت السامعين وينبّه الأفكار. فمرّتين يكرّر «أنا الراعي الصالح» ومرّتين يكرّر «الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف». كأنّما هو يقرأ للمرّة الأولى لأنّ هذه الجمل موجودة في النصّ، ويكرّرها مرّة أخرى ليقول إنّها لسان حاله وإنّه يؤدّي بتكرارها وعداً. وإذ هو يفعل يبدو وكأنّما وجهه قد نزل من إحدى اللوحات المرسومة على الجدران.

هوذا إذن رأس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية الواحد المستقلّ. ومع أنّه مقيم في القاهرة فما زال يلقّب بمتروبوليت الإسكندرية لأنّه خليفة القدّيس مرقس الرسول، أول أحبار الإسكندرية.

وهذه الخاطرة تنتقل بي إلى القرون السالفة، إلى السبب الأصلي في تكوين الكنيسة القبطية في أوائل العهد الميلادي. فقد سام إمبراطور بيزنطية (الأستانة اليوم) بطريركاً لعاصمته وكان بطريرك الإسكندرية يحسب ذاك البطريرك طفيليّاً لم يظفر بمركزه ونفوذه إلّا بفعل بعض الطوارئ السياسية. فاتّسعت كراهته لمنافسه حتّى أنّها تناولت حكومة الدولة البيزنطية كلّها. وكانت الإسكندرية في ذلك العهد، أي في القرن الثاني والثالث للميلاد، مركزاً ألمعيّاً للثقافة اليونانية والفلسفة المسيحية. فإذا بسيل من الرهبان المتحمّسين المستميتين يهبطون في أواخر القرن الثالث من أعالي طيبة «وقوبطوس» وأنشأوا يكافحون مسيحية الإسكندرية ذات الصبغة اليونانية والطابع اليوناني. فلم يمرّ قرن حتى اتفق بطاركة الإسكندرية – الذين كانت مناوشتهم لبيزنطية تحملهم على التحصّن بمصر – وقساوسة الأقباط. وهكذا بدأ التباعد بين الفكرة الإغريقية وكرسي بطريركية الإسكندرية، في نفس هذه المدينة الذي تمّ فيها من قبل التآلف بين الفكرة الإغريقية والفكرة المسيحية. واختلفوا بعدئذ على بند من البنود الأساسية فتحوّل التباعد إلى انفصال، وانشقّت الكنيسة القبطية عن زميلتها في مجمع

خلكيدونيا (سنة ٤٥١) وما زالت تقول إلى اليوم بطبيعة واحدة للمسيح وهو ما قرّره المجمع المذكور.

* * *

استفقت من هذه الخواطر البعيدة وتوفيق دوس باشا يسير إلى الهيكل ليلقي كلمة فيها شكر وفيها تهنئة وفيها أمنية. صوته المتهدّج في بادئ الأمر يتركّز بعد الجملة الأولى فإذا به الصوت المشبع القدير الذي طالما سمع في محافل الدفاع والقضاء. إنّه يذكر مع جلالة الملك سموّ الأمير فاروق فأين الأمير الصغير الجميل؟ إن مجيئه كان منتظراً. فعلام لم نر ابتسامته الحلوة ووجهه الحسن؟

المدعوّون الرسميون ينهضون للخروج. هنا الأمراء والوزراء ورؤساء الأحزاب والسفراء. كل طائفة هنا ممثّلة وكل حزب حاضر. وجوه وأسماء، أسماء ووجوه تتوالى في هذا التيّار الإنساني، وكل يرتدي الهيئة الموافقة للاحتفال على أنّه يحمل مرغماً على جبهته وفي ملامحه سرّ خلقه وسرّ حياته. والسيّد عبد الرحيم الدمرداش يبتسم ربّما لذكرى مستشفاه. وهذا وجه آخر، وجه السيّدة هيلانة عبد الملك التي أراها لأول مرّة وأتواعد وإيّاها إلى اجتماع قريب.

وإذ أنصرف مع المنصرفين يستأنف القساوسة الصلاة والإنشاد ويبدأ غبطته أول أعماله البطريركية. فأزفّ إليه وإلى الطائفة القبطية تهنئة قلبية صامتة. وأذكر أنّ بين الفتيات المسيحيات اعتقاداً في أنّ كل طلب تطلبه الفتاة من اللّه عند دخولها في إحدى الكنائس لأول مرّة يكون مستجاباً. فأتمنّى أن تتصافى الأحزاب المصرية وتتفاهم، وكما كانت في هذه الكنيسة متقاربة متآلفة أن تكون كذلك في دوائر الأعمال السياسية والوطنية والقومية. آمين!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨٤١، ١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٨، ص ١ .

«لوتريا أُوجي!»[1]

هذا آخر مساء من سنة ١٩٢٨، وفي الجوّ بين لهب الغروب وألوان الشفق تجول أطياف الكآبة والوداع.

عام آخر يُطوَى في كتاب العمر. وإذ نحن نحيا الساعات الخاتمة منه يتلخّص العام بأسره في خواطرنا. نعرض كبريات حوادثه سراعاً لنتريّث عند أهمّ ما خبرناه خلالها من فرح وترح، من هناء وعناء، من يأس ورجاء، من إخفاق وانتصار. فتتخذ الحوادث في تباعدها وتجمّعها معنى مجملاً غير المعنى المنفصل الذي تضمّنته من قبل، وغير المعنى المتماسك الذي كان يصلها بغيرها من المعاني.

أجل، للأحوال العامّة وقعها. لقد أصبحت حياة الأقوام من التفاعل والالتئام بحيث صار صداها محسوساً وإن اختلف في الضعف والشدّة لدى كل فرد من الأفراد. وارتفعت العقلية الاجتماعية فصرنا ندرك كيف أنّ أضأل الناس في تقديرنا قد يكون ذا أثر في نفعنا وضرّنا، وكيف أنّ أبعد الغرباء عنّا قد يكون عاملاً في تطوّرنا وفي إنماء مواهبنا. ولكن أين هذا التأمّل وذاك الصدى وذياك الأثر على أهمّيتها من أثر الإختبارات الشخصية الخاصّة في حياتنا، وصداها في أمزجتنا وعقولنا، وسيطرتها حتى على اتجاه أفعالنا وآمالنا وأشواقنا!

قد تمرح في مسرّة من المسرّات أو تشقى بحسرة من الحسرات فإذا بصفحة العالم قد تغيّرت أمام عينيك. وقد تنزح عنك صداقات كنت منها واثقاً وتنبري حيالك وجوه كنت لها جاهلاً أو كنت عنها غافلاً فإذا بغايات الوجود قد انجلت لناظريك. وإذا بطريقك المحدّدة المألوفة وقد فتحت لك من المسالك والمنافذ ما لم تكن تتوهّمه من قبل. وأنت دائماً بين عام وعام أمام مسلك مجهول ومنفذ جديد وأنا وإيّاك في ذلك

صنوان. ومثلي ومثلك هذا الناس الراغد منه والبائس[٢]، العالم والجاهل، النافع والمؤذي، المريض والمعافى، العظيم والحقير سواءً بسواء!

* * *

مثلي ومثلك، يا أخي، هذا الشيخ المحدودب الظهر، الرثّ الأثواب، المرتعش اليدين الذي يعرض للعابرين أوراق اليانصيب هاتفاً:

«لوتريا أُوجي!»

تمرّ الحسان مزيّنات معطّرات فيحلو صوته إذ يقول في مزيج من الطليانية واليونانية: «لوتريا ميكري مو. لوتريا ماتيا مو. لوتريا أغابي مو» (لوتريا، يا صغيرتي. لوتريا، يا عيني. لوتريا، يا محبوبتي). وإذ يمرّ بنو جنسه ينقلب صوته ولفظه من التحبّب إلى التصلّب فيقول موجزاً: «لوتريا أُوجي!».

لوتريا أُوجي! هذه أبلغ كلمة تقال الليلة. كلنا يعايد بعضنا بعضاً[٣]. كلنا يزفّ التهاني وينشر الأماني. أمّا الواقع فإنّنا جميعاً مضاربون. كأنّ كلاً منّا في مطلع العام الجديد يتناول ورقة يانصيب قد يكون حظّها الخسران ولكنّنا نأبى إلّا أن نحسبها رابحة السهم الأوفر في جميع متع الحياة. بل نحن مضاربون كل يوم من أيامنا وكل ساعة من ساعات أجلنا...

«لوتريا أُوجي!»

إنّما مظهر هذا الشيخ أصدق صورة للعام الراحل، والأوراق التي يقدّمها للعابرين أوفى صورة للعام المقبل. عبثاً نستسلم للمسرّة والابتهاج. عبثاً نعتزّ بالثروة والجاه والسلطان. عبثاً نقدّر في سرّنا نفوسنا خيراً من الآخرين. عبثاً يرضينا ما ظفرنا به بفضل الجهود والعناء والحصافة وبفضل الحظوظ أيضاً. عبثاً نمرح في نشوة الشباب ونرفل في حلل الجمال. عبثاً نختبئ في قلوب الأحباب ونتحصّن في ما تغدقه علينا من عطف وكرم وإعزاز. وعبثاً يدلّلنا الشعور بأنّنا دون سوانا ليس لنا من كل أولئك شيء...

فوق مآتينا ومميّزاتنا وأوهامنا وأحلامنا قدر ساهر نجهل ألغازه، وعناية بالغة نجهل مراميها. وهل تدري سيارة الأرض وهي متسارعة في عقيق الفلك بمنظومتها الشمسية أنّ وجهتها في الفضاء صورة القيثارة في جمهرة المجرّة؟ ولو هي درت، فما هي واقفة على سرّ انطلاقها الى ذلك المكان ولا هي بعالمة ماذا تلقى بعده بين دوران الشموس وحفيف الأفلاك. فكيف نكون نحن بني الأرض أوفر من الأرض علماً؟ وإن هي أمنت شرّ الاصطدام بالسيارات الفلكية والمنظومات الشمسية فهل نحن آمنون مباغتة النازلة والعلّة والكارثة فيما نرجوه من رغد وصحّة وسلام؟

«لوتريا أُوجي!»

ولما كان كل خطاب في هذا الموسم يختم بالتهنئة والتمنّي فإنّي أهنّئك، يا قارئي، بالعام الجديد. وإن شئت التمنّي فهاكه مطبوعاً ملوّناً بارزاً كما هو على تذاكر البريد وأوراق المعايدة.

ولكن هل كان نصيب الزهرة إلّا الازدهار ونصيب الثمرة إلّا النضوج؟ وبعد فإنّ لكل ازدهار سرًّا وكل نضج نظامًا. وما أنا وأنت إلّا بعض أزهار الحياة وبعض ثمارها. فما هو سرّ نموّي ونموّك خلال العام المقبل، وما هو نظام نضجي ونضجك؟

«لوتريا أُوجي!»

* * *

ألوان السماء تمضي في حلكها وأطياف الكآبة والوداع تزيد في الظلام ظهوراً، والناس يجرون من هنا ومن هناك وبينهم العاكف على مسرّات الموسم وبينهم المهيّئ تلك المسرّات لبعد حين.

وبعد سويعات قليلة إذ يطبق الليل ستوره يتلاقى العام الراحل بالعام الآتي وجهاً لوجه...

وأنا حيال هذه الصورة المرتقبة أتجرّد من شخصيتي الفردية لأغوص في كل شخصية وأحتضن أحزانها. أشعر بالعلل التي لا دواء لها، بالذلّ الذي لا خروج منه، بالاندحار الذي لا ظفر بعده. أشعر بوحدة المساجين وعار المجرمين، بحرمان الفقراء

وبحرمان الأغنياء. أشعر بدموع الصغار الذين لا يحبّهم في الدنيا أحد، وبحرقة الشيوخ الذين لا يحبّون في الدنيا أحداً.

أشعر بالخوف أمام وجه الحياة المجهول. أشعر برعشة الذي يهيم في الظلام وكلّما توهّم حركة أو ركزاً أجفل وقال «ماذا؟».

ألوان السماء تمضي في حلكها والساعات الأخيرة من العام متعجّلة في الرحيل. وأنا أشعر الليلة بأنّي صغيرة صغيرة، ضعيفة ضعيفة، كئيبة كئيبة...

ولكن غداً تشرق الشمس ويبزغ العام الجديد. غداً أنسى روعة المجهول لأفكّر بروعة المعلوم. غداً أعود الطفلة السعيدة اللعوب فأنشدكم مجد الحياة ومجد النشاط ومجد الإنسان.

غداً عندما تقرأون هذه السطور أكون في رغد وهناء. وأمّا الليلة فليلة وداع... وخوفي من المجهول في الحياة شديد. أشعر أنّ هذه الحياة تستطيع أن تسحقني سحقاً ولا مقدور لي على مقاومتها لأنّي صغيرة ضعيفة كئيبة...

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٥٣، ١ كانون الثاني/يناير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) «Lotteria oggi!»، وتعني في الإيطالية «سحب اليانصيب اليوم!».

(٢) كذا في الأصل، والصواب «ومثلي ومثلك هؤلاء الناس الراغد منهم والبائس».

(٣) هكذا في الأصل، والأشيع أن يقال «يعايد بعضُنا على بعضٍ».

حول الرعاية الملكية الجديدة

لضبط الجملة العربية وتجميلها

نشرت صحف هذا الأسبوع بلاغاً أذاعته إدارة المطبوعات وفحْواه أنّ حضرة صاحب الجلالة ارتأى إدخال الترقيم في الكتابة العربية فشاءت رغبته العليّة أن تؤلّف لهذا الغرض لجنة خاصّة تتولّى وضع قواعد الترقيم وضبط أصوله، وأنّه حفظه اللّه رأى أيضاً إدخال حروف الابتداء الكبرى (majuscules) في أول الكلام فجعل الاهتداء إلى شكل هذه الحروف ميدان مسابقة عامّة ورتّب للفائزين الأولين ثلاث جوائز مالية تتمّ عن يد سخيّة وكرم وفير

ولما كنّا محرومين من مجمع علمي أو أدبي أو لغوي يعنى بمثل هذه الإصلاحات فليس بين القرّاء إلّا من يسرّ السرور الجمّ عند الاطلاع على هذا البلاغ، فيحمد للمليك عنايته باللغة العربية وحرصه على ضبطها وتجميلها. ولا ريب أنّ أكثر الناس سروراً بهذه العناية الكريمة هم حملة الأقلام، إذ أنّ اللغة التي هي ملك مشاع لجميع المتكلّمين بها هي في نفس الوقت ملك خاصّ للصحافيين والكتّاب لأنّها أداتهم للإفصاح، ووسيلتهم للتعبير، والصلة الوحيدة بينهم وبين الجمهور الكبير

وأرى من الحكمة إناطة وضع قواعد الترقيم بلجنة خاصّة كما أنّه من الحكمة جعل الاهتداء إلى الحروف الكبيرة ميداناً للمسابقة العامّة. وعلى ذلك أستأذن في إبداء ملحوظاتي على هذين الأمرين. ولا أخال المليك المعظّم إلّا موليني ذلك الإذن العالي، بل أخاله مشجّعي على إبداء ملحوظاتي، راضياً عنها، لما هو مأثور عن جلالته من استنارة الفكر، واتساع المدارك، ورحابة الصدر، وتقدير الصراحة العلمية. ومجرّد جعل اختيار الحروف الكبيرة ميداناً للمسابقة ينطوي على الاستعداد لقبول ما يعنّ من الملاحظة أو التعليق

* * *

أمّا الترقيم فهو للجملة العربية الحديثة ألزم ما يكون، لأنّه يوضح المعنى، ويجلو المراد، ويفرق بين مراتب الكلام فيزيده قوّة ودقّة. وحسبنا منه أنّه أداة الإحكام. لذلك عمد إليه فريق من الكاتبين الذين هم في الغالب أقرب إلى إدراك الجمهور. ولنعرف أهمّية الترقيم ليس لنا[1] أن نحذف النقطة بين الجملة والجملة لنكتنه معنى الاستعارة العربية القائلة «اختلط الحابل بالنابل»، ولنشهد معمعة كلامية مفكّهة. كذلك مفكّهة مبادرة بعضهم إلى الإكثار من علامات الترقيم في كتابتهم وجعلها بين ألفاظهم غيثاً مدراراً. فننسى نحن القارئين مرادهم في مخاطبتنا، وننصرف عن معانيهم لنمرّن أنفسنا على عملية الجمع الحسابي إذ نحن نتفرّغ لإحصاء ما نثروه علينا من الفواصل وعلامات الترقيم

ومن الناحية الأخرى - كم ذا يسخطنا الإنشاء المتراكم جملة على جملة، وسطراً بعد سطر وربّما صفحة تلو صفحة، دون أن يسعفنا صاحبه بترقيمة أو يغيث فكرنا بنقطة المهادنة...

ولقد كانت اللغة العربية على الدوام قابلة لصنوف خاصّة من الترقيم المتوافق والعصر الذي كتبت فيه. ففي ما بين أيدينا من الكتب السالفة نجد الفاصل بين الجملة الكبيرة والجملة الكبيرة في صورة نجمة صغيرة. أمّا الفواصل بين أقسام الجملة الكبيرة الواحدة فنلقاها في السجع الذي كان قبلاً من مقتضيات البلاغة

غير أنّ الأيام دارت دورتها فإذا بنا وقد نبذنا السجع والجهود الضائعة في سبيله، لضيق الوقت في هذا العصر ووفرة المادّة الفكرية. واقتبسنا الطريقة البسيطة المباشرة التي تقدّم أكثر ما يمكن من الأحاديث والآراء في أسهل الألفاظ وأقربها. لذلك أصبح الترقيم واجباً يتحتّم تقريره على وجه حاسم فلا يلبث أن يشيع بين الجميع

أقول «الجميع» وأعني الشعراء أيضاً لأنّ الشعراء، أولئك الأطفال الكبار الذين شأنهم شأن الحسان في حبّ الدلال، قد أحجموا حتى الآن عن الترقيم رغم حاجتهم وحاجة قرّائهم إليه في إيضاح المعاني وتقسيم الكلام. وقرار محكم حصيف من جانب اللجنة يكون بلا ريب مرشداً فعّالاً

ولا شكّ عندي في أنّ اللجنة المشار إليها ستسلك مسلك السداد في مراعاة روح اللغة وإهمال بعض الفواصل. منها أنّ النقطة غير ضرورية في نهاية السطر حيث تختتم الجملة لأنّ انتهاء السطر هو اختتام كاف[٢]

ومنها أنّ هذه العلامة «؛» المعروفة بالفرنسية باسم (point-virgule) وبالإنكليزية باسم (semi-colon) غير ضرورية أيضاً وأنّ فريقاً من أكبر كتّاب الغرب قد حذفوها نهائياً من كتابتهم، ليس فقط لأنّها علامة للاستفهام في اللغة اليونانية، بل لأنّهم رأوا المعاني أدقّ وأضبط إذا هم استعاضوا عنها بالنقطة، لا سيّما وأنّ هذه العلامة تفسح المجال للتبسّط في الجملة بينما النقطة توقفها وتنهيها فيرتاح الفكر ويتهيّأ للجملة التالية. والفكر الحديث في حاجة إلى الجملة القصيرة البسيطة كما أنّ معاني الحياة الحديثة لا تحتمل مهلهل الجمل ومعقّد الألفاظ

* * *

أمّا الحروف الكبيرة فأحسبها دون الترقيم أهمّية ولست أدري إذا كان الانسجام المألوف في الكتابة العربية يقبلها. وقد اقتبس هذا الشكل أهل القرون الوسطى في الغرب من أشكال الحروف الرومانية في قديم المدوّنات والسجلّات والمحفورات، وأدخلوه على الحروف الصغيرة لغايات أهمّها: أولاً - الزينة والرواء. ثانياً - بدء مقاطع الكلام سواءً في أول الفصل أو في أول الجملة النثرية، كما في أول كل بيت من أبيات القصيدة الشعرية. ثالثاً - تمييز الاسم العلم وتمييز الألقاب أحياناً

غير أنّ أهل الغرب أخذوا الآن يقلّلون من الحروف الكبيرة في الشعر. بين يديّ وأنا أكتب هذا المقال، الجزء الثالث من مجموعة أشعار جبرائيل دانونزيو[٣] عبقري إيطاليا الأدبي وأكبر شعراء العالم في عصرنا. واسم هذه المجموعة «أناشيد السماء والبحر والأرض والأبطال» Làudi del cielo, del mare, della terra e degli eroi . جميع أبيات هذه القصائد (التي نظمت وطبعت قبل الحرب) تبدأ بحروف عادية إلّا البيت الذي يفتتح جملة جديدة سبقتها في آخر البيت السالف نقطة فاصلة. هذا فضلاً عن الحرف الكبير في مطلع القصيدة

وشاعت هذه النزعة لدى مختلف الشعوب فلا يندر أن نرى الآن المجموعات الشعرية بالفرنسية والإنجليزية والإيطالية وغيرها خالية من الحروف الكبيرة إلّا في مطلع القصيدة وفي الاسم العلم وفي أول الجملة الجديدة. ويتفق أن نجد عند أولئك الشعوب الاسم العلم مكتوباً بالحرف العادي، لا سيّما في الكتب الأدبية وكانت تنزع هذا المنزع أحياناً في مصر مجلّة «مصر الحديثة» التي كان يصدرها باللغة الفرنسية الأستاذ جوزه كانيري المحامي(٤). وملك إنجلترا مشهور بتوقيعه الذي يبدأه بالحرف العادي الصغير. وعلماء السيكولوجيا الذين يتبيّنون خلق الإنسان في خطّ يده يرون في ذلك منتهى الدعة والبساطة

وأوجه الملحوظات في هذا الباب أنّ الحروف الكبيرة لا وجود لها في اللغات السامية من فينيقية وآرامية وعبرانية وسريانية فضلاً عن العربية. كذلك لا وجود لها في السنسكريتية التي هي أمّ اللغات الهندية الأوربية. ولا وجود لها في القرآن الذي خلق نسخه تنوّعاً كبيراً في الخطوط الجميلة. هناك تفتتح السورة بزخرف ورواء. ويفصل بين الآية والآية الزخرف والرواء. ويدور حول الصفحة إطار من الزخرف والرواء بيد أنّ الحروف جميعاً من طراز واحد متشابه الحجم، باستثناء المدّ الجائز أحياناً للملائمة(٥) بين الحروف. ومما يستدعي الانتباه أنّ الحروف الكبيرة تأتي في آخر الجملة أحياناً وليس في أولها، شأن حرف النون في كثير من الآيات القرآنية وشأن بعض الحروف الأخرى التي نعظّمها بالخطّ وبالطباعة في سياق الجملة أو في آخرها، ولكن لا نفعل ذلك في أولها. وربّما كان هذا الاختلاف بيننا وبين الغربيّين في مواقع التعظيم راجعاً إلى طبيعة انسجام الحروف في لغاتنا السامية وطبيعة الخطوط نفسها

إنّما الزخرف والرواء متوافران في كتبنا ذات الطباعة الفنّية دون حروف كبيرة. والنقطة بين الجملة والجملة تغني عن الحرف الكبير لأنّها تنبّه القارئ إلى انتهاء المعنى السابق وابتداء المعنى اللاحق. بقي تمييز الاسم العلم. ومع أنّنا اعتدنا الاهتداء إليه دون حرف مميّز وقلّما التبس علينا أمره بعد ممارسة القراءة وبعد تحصيل قسط من الثقافة – ، رغم كل ذلك فإنّ تمييز الاسم العلم بالحرف الكبير يأتي بشيء غير قليل من السهولة والفائدة

والآن عليّ أن أصارح بأن لا قيمة لهذه الملحوظات إلّا بكونها رأياً خاصّاً. ويقولون إنّ خير الفوائد ليس في المحصول المباشر فحسب، بل فيما يثيره لدينا من التأمّل والتفكير والملاحظة، والفضل في كل أولئك للعناية الملكية. فقد يأتينا المتسابقون بما لا ننتظره من التجديد الأنيق الموافق لروح الكتابة العربية. وإنّنا لواثقون من أنّ لجنة التحكيم في هذه المسابقة لن تقرّر طرازاً من الحروف للتقرير فحسب، ولن تقبل شكلاً إلّا إذا كان متلائماً وروح الانسجام في الخطّ العربي وكان مُنيلاً الكتابة عندنا رونقاً فنّياً ودقّة وفائدة

* * *

أرأيت، يا صاحب الجلالة، كيف أنّ تشجيعك ورعايتك يمهّدان السبيل لفتياتك فينحنين إجلالاً أمام الملك ثمّ يبسطن آراءهنّ بصراحة كما في حضرة الأب العطوف؟

بارك الله في رعايتك وعطفك!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٦٢، ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) سقطت كلمة «إلّا» في النصّ الأصلي، والصحيح هو «ليس لنا إلّا أن نحذف..».

(٢) المعنى لا يستقيم عقلاً، والأرجح أنّ الكاتبة تقصد «في نهاية الفقرة» حيث تقول «في نهاية السطر». ويلاحظ أنّ كل الفقرات في المقالة تنتهي بغير نقطة. والجدير بالذكر أنّ هذا هو الحال في سائر مقالات ميّ زيادة المنشورة في «الأهرام» ممّا يبدو أنّه كان شائعاً في غيرها من المطبوعات آنذاك، غير أنّنا لم نراع ذلك في الطبعة الحالية إلّا في هذه المقالة للتوضيح.

(٣) Gabriele D'Annunzio (١٨٦٣ - ١٩٣٨)، الرمز الشعري لإيطاليا مطلع القرن العشرين. كتب الكثير من القصائد والمسرحيات والروايات والقصص، وتمثّل المجلّدات الثلاثة الأولى من الأناشيد (Laudi) التي أصدرها ما بين ١٩٠٣ - ١٩٠٤ عمله الشعري الأبرز. شارك بفاعلية في الأحداث السياسية في بلاده، فكان عضواً برلمانياً بين ١٨٩٨ - ١٩٠٠، وساند عام ١٩١٥ دخول إيطاليا الحرب. وجد في موسوليني المجسّد لأفكاره السياسية.

(٤) Maître José Caneri ، محام فرنسي في المحكمة المختلطة في القاهرة أصدر مجلّة *L'Egypte Nouvelle, Journal hebdomadaire pour ceux qui pensent librement* ما بين ١٩٢٢ - ١٩٢٦ .

(٥) كذا في الأصل، والصواب «للملاءمة».

نظرة في الأخلاق
من الوجهة الاجتماعية والفنّية

نسير في الشارع فنتحاشى الاصطدام بأحد المارّين وإن وقع ذلك عرضاً بادرنا إلى الاعتذار. وننيل مشيتنا وشكلنا هيئة متناسبة ووجودنا في أيّ مكان عامّ. ونجلس مع الناس إلى المائدة فنتبع نظاماً مستحسناً في الجلوس وفي تناول الطعام. ولا نظهر في محفل أو في طريق إلّا بالأثواب المعدّة لتلك الأحوال وليس بأثواب وحدتنا حتى وإن كانت هذه الأثواب الخاصّة بالمنازل أظرف معنى، وآنق هنداماً، وأغلى ثمناً.

ونتجاذب الحديث والزائرين والضيوف فنتجنّب من الموضوعات ما هو خاصّ بنا من أعمال ومشاغل وأحزان وأفراح ونزعات سياسية وعقائد دينية. وإن أبحنا لنفوسنا حديثاً من هذا النوع مع صديق نركن إليه ونعلم أنّه يعنى بأمرنا - فلا نعمد، أمام غير الأخصّاء، إلّا إلى المحادثة الرشيقة الأنيسة الظريفة التي قد لا تخلو من الفائدة على أن لا يظهر فيها شيء من الحدّة والأثرة والتعنّت.

وهذه الاعتبارات التي ليست إلّا قليلاً من كثير لا يتسع هنا المجال لإيراده - كلها راجعة إلى ما نسمّيه «اللياقة الاجتماعية» أو «الآداب الاجتماعية» التي يحرص عليها الفرد الاجتماعي المهذّب أيّاً كان وأنّى كان وفي أيّ وسط وجد. يحرص عليها ويسير بموجبها ولو كان مضحّياً من أنانيته وراحته وهنائه - يحرص عليها ويحرص على أن يقوم بها لأنّه واجب عليه أن يفعل. وإنّما يفعل ذلك بدافع البداهة دون أن يذكر أنّ هذه الآداب وتلك اللياقة تشتقّ من أصل أخلاقي صميم.

فحياة كل منّا حياتان: إحداهما شخصية خاصّة نصنع فيها ما نشاء في انفرادنا وليس لنا من رائد سوى الذوق والميل، ولا من رقيب غير القلب والضمير. أمّا الحياة الأخرى، الحياة الاجتماعية العامّة فهي بطبيعة الحال وعلى وفق قواعد الحريّة، منظّمة بموجب العرف الاجتماعي، محدودة بحقوق الآخرين وراحتهم ومصلحتهم،

واحترامها ومراعاتها فرض علينا ليراعي غيرنا حقّنا ويحترم من ناحيته راحتنا ومصلحتنا وفي ذلك وجه من أصدق وجوه التبادل في الحياة، الذي هو قانون الحياة الأساسي.

كل الآداب الاجتماعية المتكيّفة بكيفيات اللطف والعذوبة والكياسة، صادرة عن قاعدة أخلاقية. ولكل دين قواعده الأخلاقية فلئن تلاقت الأديان فيما بينها فهي متلاقية على الإيمان بقوّة عليّة مهيمنة على الأكوان والخلائق نسمّيها نحن «اللّه» ويسمّيها المعطّلون الطبيعة، أو المادّة، أو القوّة، أو غير ذلك. والأديان متلاقية كذلك فيما بينها من الجانب الأخلاقي الذي تكاد تكون قواعده الجوهرية واحدة في كل دين، وإن اختلفت بعض مظاهرها الثانوية أحياناً.

وما ذلك إلّا لأنّ الغاية من كل دين هي تنظيم العلاقة الروحانية بين الخالق والمخلوق من جهة، ومن الجهة الأخرى تنظيم العلاقة الدنيوية بين الفرد الواحد وبين إخوانه ورفاقه في رحلة العمر. فالعلاقة الأولى هي العبادة والتقوى، والعلاقة الأخرى هي الأخلاق الحسنة، وعلى ذلك تكون الأخلاق إنسانية قبل كونها دينية. ولكن لما كان الدين أكبر مسيطر على النفوس فقد جاء النهي والأمر عن طريقه ليكونا أشدّ وقعاً.

وكم من باحث أضلّته أبحاثه عن اللّه وذهبت به شكوكه إلى الجحود والكفران! غير أنّه ليس من يضلّ عن الإنسانية التي هي منه وهو منها تقاسي مثلما يقاسي، وتستغيث طالبة الراحة كما يستغيث هو في طلبه لراحته. وليس من يكفر بحقوق الإنسان ويجحد جلال الخلق الصالح وأهمّية التربية والتهذيب. وللقاعدة الخلقية مكان محتوم في كل فنّ عال وأدب شريف.

* * *

وليست «الآداب الاجتماعية» خبثًا ونفاقًا كما يراها الكثيرون. فهي قد تنقلب كذلك عند الذين لا يعنيهم منها إلّا المظاهر. بيد أنّ الغرض منها راحة المجتمع وتهذيب الفرد بالمثل وبالعادة. ومن الغرابة أنّ الأخلاق سمّيت عند اليونان منذ عهد أرسطو éthique وهي نعت مشتقّ من لفظة تعني «العادة»، والتخلّق بالعربية يعني جعل العادة خِلقية أي طبيعية غريزية.

فسرّ التربية إذاً وسرّ الأخلاق هو العادة التي ينشأ عليها الفرد في العائلة وفي المدرسة ويظلّ يمارسها في المجتمع طول الحياة. وإن رأى أنّ ما تعوّده غير صالح أو غير نافع يظلّ مع ذاته في كفاح ونضال حتى يمرّن نفسه على ما يريد، ويبقى على تثقيف ميوله وملكاته في أعماله وفي ملاهيه على السواء، وهو في مجهوده ذاك لا يفتأ يستمدّ التأثيرات المقوّية أو المضعفة من مظاهر اجتماعية شتّى ليست المظاهر الفنّية أقلّها.

لأنّ للفنّ علاقة وثيقة بالأخلاق. وشهيرة تلك الكلمة التي جعلها مفكّر فرنسي كبير أساساً لبحثه في الفنون والأخلاق فقال إنّ «جميع الفنون خرجت من المعبد».

أجل، إنّها خرجت من المعبد في بادئ الأمر. بيد أنّها أخذت في التطوّر فاصطبغ جلّها بصبغة علمانية حضرية اجتماعية. ولا ضير في ذلك. وإنّما الشرّ في انحطاط قسم كبير منها سواءً في الصورة، والرقص، والموسيقى، والغناء، والتمثيل، والسينما، وغيرها من المظاهر الفنّية التي أضحت شائعة في حياة المجتمع.

ولكنّ المجتمع لا يستطيع أن يعيش دون قواعد وضوابط. فكما أنّه يؤسّس المدارس لمحاربة الأمّية، ويطارد المجرمين ليوطّد الأمن العامّ، وينشئ المستشفيات ليحصر دائرة العدوى ويشفي الأمراض، ويعنى بهيئة المدينة ونظافتها وترتيبها لغاية فنّية واجتماعية وصحّية جميعاً - فكذلك عليه أن يحارب الوباء الأخلاقي والدمامة الأخلاقية التي ينشرها ذوو الأذواق المشوّهة بحجّة أنّها من المظاهر الفنّية، وهي ليست من الفنّ في شيء.

ومن أعجب ما ولدته الحرب العالمية في جميع البلدان هاتان النزعتان المتناقضتان: الاستهتار بالأخلاق والحرص على الأخلاق في آن واحد. فيقول الذين «لمسهم الاختبار بجناحه الأسود» إنّهم لم يروا في وقت من الأوقات مثلما يرون اليوم من انحطاط الأخلاق وهل رأينا نحن أبناء هذا الجيل مثلما نرى في هذه الأعوام من محاربة المخدّرات والمسكرات، ومن الجهود للوقاية الأخلاقية في شتّى أبوابها؟ وأهمّ وسائل هذه الوقاية هي اقتلاع عادة طالحة وإحلال عادة صالحة محلّها.

* * *

نرسل هذه الخواطر تمهيداً للثناء على ذلك النفر الصالح الغيور من آباء العائلات

الذين راعهم ما شاع في هذه المدينة من المظاهر الفنّية السقيمة المفسدة للأذواق والأخلاق، فقاموا بحملة مشكورة لاحت تباشير نتائجها في هذه الأيام.

ونرسل هذه الخواطر تمهيداً للثناء على الوزارات الثلاث السابقة التي أبدت من الاهتمام بهذه الحملة ما سمحت لها الظروف بإبدائه وللثناء على أولي الأمر الذين يقومون بحركة التطهير فنظّموا الرقابة على الروايات التمثيلية والأشرطة السينمية والأناشيد والأغاني والأسطوانات الفونغرافية كما قام أخيراً حكمدار العاصمة وأعوانه بمصادرة الصور والكارتات غير اللائقة المعروضة في فترينات بعض المكاتب. فليس ما يفسد الذوق والميل ويجعل الرذيلة سهلة سائغة كهذه المناظر السقيمة التي يتعوّدها النشء فتثبت في خياله ولا يلبث أن يحقّقها في حياته.

نرجو أن تستأنف هذه الحملة فتصادر مع الصور هاتيك المجلّات التي تباع علينا في بعض المكاتب ومع الباعة المتجوّلين، مع أنّ تلك المجلّات حرم بيعها في نفس البلاد التي تصدر فيها، لما فيها من سقيم المعاني والمغازي والتوريات. نرجو أن تستأنف حملة هذا التطهير الحكيم. وحبّذا لو وجد هنا بوليساً أخلاقياً[1] يتولّى هذه الشؤون، أسوة بالشعوب الحريصة على نشأة أفرادها وصحّتهم النفسية وجمالهم الأخلاقي.

* * *

أذكر أنّي ما أصغيت مرّة إلى خطبة في «الأخلاق» في بعض حفلات توزيع الجوائز إلّا وشعرت بدافع شديد إلى التثاؤب. فهل يلهمك مقالي اليوم، يا صديقي القارئ، مثلما كانت تلهمني تلك الخطب؟

لن أسخط إن أنت أجبت بالإيجاب، ولك أن تتثاءب على هواك إذا كنت منفرداً. أمّا إذا كنت في وسط جماعة فإنّك ستوقف ميلك هذا وتملك أعصابك، وتضبط عضلات وجهك فلا يتحرّك منها شيء. وفي هذا الفعل الصغير الذي تأتيه إرادتك لتأييد «اللياقة الاجتماعية» تعزيز لكل ما أوردته في هذا المقال...

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٧٣، ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) هكذا في الأصل، والصواب أن تكون الكلمتان مرفوعتين.

الأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك يحاضر

فيفتح باباً رحيبًا للكلام في موضوع

هو أحرى ما يكون بالبحث والتجديد

- ١ -

لست أصدّق أنّ ما اهتدى إليه العمروسي بك[١] في كتاب «أدب الدنيا والدين»[٢] وفي النبذة التي أوردها لابن خلدون من تطابق بعض آراء كتّاب العرب وطائفة من أحدث آراء الغرب في التربية والتعليم – هو ما أوحى إليه المحاضرة التي ألقاها علينا مساء الخميس في قاعة الجمعية الجغرافية.

بل أعتقد أنّه اتخذ كلام هذا الكاتب وذاك وسيلة للبحث في أمور طالما فكّر فيها وتاقت نفسه إلى تعديلها خلال اختباره الطويل في مهنة تنشئة العقول والملكات. وقد ظهر من محاضرته أنّ اختباره ذاك كان دواماً مقروناً بملاحظة المفكّر المتيقّظ، وإحساس الرجل الحيّ واطلاع الباحث الذي لا يفتأ يطلب المزيد فانتهى إلى ما هو غاية في الإصابة والإحكام من حيث حاجة المجتمع وحاجة العصر ومن حيث معرفة طبيعة النشء والوقوف على نزعاته الفطرية.

والمعنى المنبعث من مجموع خطابته هو «الحياة»، الحياة في طلب الحرّية العقلية والعضلية للمتعلّم، الحياة في الغاية من تحصيل العلم، الحياة في تصرّف المعلّم بالمعلومات ليحبّبها إلى الطالب، ويقرّبها من إدراكه، ويمزجها بنفسه، الحياة في تمرين التلميذ على الاهتداء إلى رأي شخصي وفي تشجيعه على تكوين ذلك الرأي صائباً حصيفاً، وفي حمله على إبدائه، الحياة في قوله إنّ اللغة والعلوم ومختلف فروع المعرفة ليست غاية في ذاتها وإنّما هي وسائل لإيضاح جوانب العقل وتقويتها، وسائل لتكوين

شخصية متلائمة النموّ والإدراك والمقدرة من عديد نواحيها، الحياة في تقرير العاطفة المتبادلة بين الفريقين فتكون من طرف المعلّم حبّاً ممزوجاً بالعناية والرعاية، وتكون من طرف المتعلّم حبّاً ممزوجاً بالتهيّب والشكران.

ولم يكن معنى «الحياة» في لفظه فحسب ولكنّه كان خصوصاً في تقسيم محاضرته وكان موقفه يؤدّي مثالاً محسوساً من النظريات التي كان يعرضها. أي أنّه عندما كان يلقي بقراطيسه جانباً ليورد ما يخطر له في الحال من ذكريات ومشاهدات وقعت له في حياة التلمذة وبعدئذ في مختلف أدوار وظيفته - كان صوته يرتفع ونبراته تنجلي بينا إشارة الأستاذ تأتي بسيطة رشيقة ويجيء كلامه أوقع ما يكون.

* * *

كل إصلاح جدٌّ في أساليب التربية والتعليم إنّما نجم عن أمور خبرها الأفراد في عهد دراستهم فعرفوا ما كان لها عندهم من نتائج حسنة أو سيّئة. وعندما أصبحوا رجالاً قادرين على التبديل بحكم وظيفتهم ومكانتهم ونفوذهم عمدوا إلى تغيير ما رأوا وجوب تغييره وتنشيط ما كان تنشيطه خيراً.

من مثال ذلك أن رابندرناث تاجور عندما أسّس مدرسته الشهيرة في الهند صارح الطلبة في أولى محاضراته بأنّه أراد أن ينظّم مدرسة خالية من جميع المساوئ التي شهدها في المدارس الأخرى لأنّ اختباره في عهد الدراسة علّمه أنّ المدارس كثيراً ما تخطئ في معالجة المواهب. فيتفق أن تشلّ نزعة حقيقة بالنموّ والحياة، بينا هي تلحّ في إيجاد موهبة لا وجود لها ولا نفع منها في تلك الشخصية يُرجى.

وقد سمعت من الدكتور شبلي شميّل أحاديث كثيرة عن أيام تلمذته. ولكن بأيّ تحنان ذكر لي ما وقع له مرّة مع رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت! قال إنّه كان يومئذ صخوبًا لعوباً يحبّ أن يثير الضحك والجلبة في أحد الفصول بوجه خاصّ لأنّ المدرّس كان لا ينفكّ عن تعنيفه، فيزداد بعد كل تعنيف حيلة في إثارة الجلبة ويزداد لذاذة في تشويش النظام. فاتفق أن بلغ ذلك التشويش وتلك الجلبة حدّهما الأقصى في ذات يوم إذ وصل الرئيس بغتة لمخاطبة المعلّم في أمر هامّ. فأطلعه المدرّس على الحالة وترك له الأمر - قال الدكتور شميّل:

«وكان احترامي للرئيس عظيماً لأنّه كان ممتاز الأخلاق يجذبني منه ذلك المزيج من الرقّة والمناعة الذي يبدو في جميع أعماله. فوددت لو أنّ الأرض انشقّت فابتلعتني كيلا أظهر أمامه بمظهر الولد الطائش. وكنت أعلم أنّ عقابي الطرد فكانت فكرته تؤلمني، بيد أنّ أشدّ ألمي في ما قد ينالني منه من اللوم والاستنكار. فتحوّلت عواطفي إلى أسف وخجل وصرت أتوقّع أن يستدعيني الرئيس إليه. ولكن انقضى النهار وهو لم يفعل، ولم يصلني منه أمر ولا إشارة، حتى جاء المساء فسرت أمشي الهوينا بين أشجار الصنوبر وفي هاتيك الساحات الفسيحة على شطّ البحر وأنا أفكّر في أمري وقد زادني سكوت الرئيس خوفاً وخجلاً. فإذا بي فجأة أبصر الرئيس مقبلاً نحوي فهلع قلبي وصرت أتقدّم إليه خطوة لأتراجع إلى الوراء خطوتين، حتى وقفنا أخيراً وجهاً إزاء وجه. فحدّق فيّ وخفضت نظري في انتظار الكلمة الرهيبة. على أن لم يكن هناك إلّا سكوت طال دقائق حسبتها دهوراً، فتجرّأت على رفع نظري فإذا في عينيه نظرة هادئة طويلة مفعمة استياءً وحزناً معاً. كنت متكبّراً فملكت نفسي كيلا أستغفر ولكنّ دموعي فاضت رغماً عنّي. عندئذ فاه الرئيس بكلمة واحدة وقال «هذا حسن». ثمّ تركني ومضى.

«ما كان أوقع تلك المعاملة في نفسي! كنت في حاجة إلى هذا العقاب الصامت، إلى هذه النظرة الطويلة المؤثّرة التي هذّبتني فصرت من تلك الساعة خير التلاميذ. إنّ ذلك الرئيس الفاضل كان أعرف الناس بالطبائع البشرية وبنوع المعاملة الرقيقة أو العنيفة التي يجب أن تعامل بها كل طبيعة من تلك الطبائع...».

والشيخ محمد المهدي في الخطبة التي ألقاها ليشكر لتلاميذه، طلبة كلّية الآداب في الجامعة المصرية، الحفلة التي أقاموها له وللشيخ محمد الخُضَري في فندق الكونتننتال سنة ١٩١٨ – قال إنّه في صباح ذات يوم خاطب بحدّة أحد طلبة مدرسة القضاء الشرعي التي كان الأستاذ وكيلها. فقال له ذلك الطالب في تأدّب: «نحن يا أستاذ لا نجيء إلى المدرسة لنشتم، بل لنحصّل العلم ونتخلّق بالأخلاق الحسنة». قال الشيخ المهدي: «فكسرت هذه الكلمة من حدّتي وحملتني على التفكير وعلى أن أعامل تلاميذي بالحسنى».

وأخبرني الدكتور صرّوف أنّه كان شديد المفاخرة أمام أقرانه في الدراسة، بأحمد فارس الشدياق[٣] لأنّه ابن بلدته «الحدَث» بلبنان وأنّه كان يرغب في التفوّق في الشعر والنثر ليكون شبيهاً بذلك الكاتب الكبير، حتى أنّه أنشأ كتاباً اسمه «اليعروف» على نحو ما فعل الشدياق في كتابه «الفارياق» الذي اختزل اسمه من اسميه. وعرض يوماً قصيدة على أستاذه الشيخ ناصيف اليازجي[٤]، وهو يتوقّع منه ثناءً عظيماً. فاستدعاه الشيخ ناصيف وقال له في جدّ ولين: «قصيدتك حسنة. فإذا أردت في المستقبل أن تعرب عن عاطفة خاصّة أو عن خاطرة شعرية فليكن ذلك نظماً. ولكنّ نزعتك علمية والشعر لا يمكن أن يكون مهنة. فانصرف عنه إلى العلوم الرياضية».

قال الدكتور صرّوف: «فمزقت مخطوطاتي ومنظوماتي، وضاع كتاب «اليعروف»، وعملت برأي الشيخ ناصيف فحوّلت اجتهادي واهتمامي إلى العلوم الطبيعية والرياضية. والآن عندما تهزّني عاطفة شعرية أنظمها مترحّماً على أستاذي وأذكر له فضله عليّ».

* * *

كل منّا يستطيع أن يورد بعض ذكرياته في هذا الباب لينتهي منها إلى ضرورة الإصلاح ويثبت بأنّ واجب المعلّم قائم في حسن المعاملة الأخلاقية وحسن التصرّف العلمي جميعاً.

ويرى القارئ أنّي أمزج هنا بين التعليم والتربية مع أنّ كثيرين يرونهما مختلفين منفصلين وينعون على المدارس المصرية أنّها تعلّم دون أن تهذّب.

أمّا أنا فلا أستطيع فصل التربية عن التعليم. أليس أنّ ما يتعلّمه المرء يهذّب ناحية من شخصيته لأنّه ينميها وينيرها؟ فالمعلّم مهذّب بطبيعته، وبمعاملته، وبمثله، ولا أرى خيراً من آداب اللغة (أعني الآداب الرفيعة الناصعة الشريفة) كوسيلة للتهذيب العلمي.

أرسل هذه الكليمات تمهيداً لمقالات تالية في هذا الموضوع الذي يهمّ بالطبع المدرّسين والدارسين، كما يهمّ الآباء والأمّهات – وهم أول المهذّبين – والمعتنين بالشؤون العامّة جميعاً. فكل يقظة اليوم ترمي إلى إصلاح ما لدينا من خطأ وتحقيق ما

نحسبه صواباً. وتهيئة مستقبل خير من الحاضر إنّما تقوم بالجيل الجالس اليوم على مقاعد الدراسة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٨٠، ٢ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) كان أحمد فهمي العمروسي عام ١٩٢٩ مفتّشاً في وزارة المعارف المصرية.

(٢) أحد أهمّ أعمال الفقيه الشافعي أبو الحسن البصري الماوردي (٩٧٤ - ١٠٥٨).

(٣) أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٧)، العالم اللغوي والمعجمي اللبناني، الشاعر والناقد والصحفي الذي أصدر «الجوائب» في اسطانبول ما بين ١٨٦١ - ١٨٨٤، وهي أول صحيفة عربية واسعة الانتشار. من بين مؤلّفاته كتاب «الساق على الساق فيما هو الفارياق» وقد نُشر في باريس عام ١٨٥٥ وبعضه يتضمّن سيرته الذاتية كما في بعضه نقد للإكليروس الماروني.

(٤) ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١)، الشاعر والعالم اللغوي اللبناني الذي أعان المبشّرين الأمريكيين عام ١٨٤٩ في إصدار ترجمة جديدة للكتاب المقدّس بالاشتراك مع بطرس البستاني ويوسف الأسير. كرّس حياته للتعليم والتأليف ويعتبر من أعظم علماء العرب في عصره. بين أعماله الأكثر أهمّية «مجمع البحرين» (١٨٥٦)، وفيه مجموعة مقامات بلغ عددها الستّين.

وجه إنساني نبيل يغيب من شوارعنا

ألم تسمع في بعض جلسات الأنس وأحاديث السمر كيف شيّع المستر فرنل[١] خادمه الميت إلى لحده؟

شاء أن يقوم بواجبه الأخير نحو ذلك الرجل المسكين فارتدى «رادنجوته»[٢] المنزّه عن كل لطخة وكل ثنية، وتبرنط بقبعته السوداء الرسمية ذات القالب العالي اللمّاع، وحمل قفّازيه الجديدين الناصعين ومضى إلى إمبابه[٣] والتحق بموكب الجنازة. فكان يتقدّم النعش رجل ينشد «لا إله إلّا اللّه» ويمشي خلف النعش المستر فرنل بهندامه الرسمي أمام طغمة من النسوة الصائحات المولولات. وهكذا حتى أنزلوا الجثّة في مقرّها الأبدي، ولم ينتبه المستر فرنل إلى المفارقة البادية في ذلك الموكب لفرط استغراقه في أفكاره واستسلامه لأسفه على غلامه.

كنت ترى المستر فرنل سائراً على قدميه هنا وهناك في شوارع العاصمة، أو في شارع الجيزة تحت رواق الغصون المتعلّقة، أو على شواطئ النيل في أصباح الخريف والشتاء والربيع، فتعجب لوحدة هذا الخيال الإنساني في كل مكان. وتمعن في النظر إلى وجهه وهندامه فتتساءل عمّا إذا كان ذلك الرجل شاعراً أو مصوّراً أو فيلسوفاً ليتمسّك هذا التمسّك بزيّ القرن الماضي، وعمّا إذا كان ذلك الرجل شابّاً غضّ الإهاب تنيله خواطره البعيدة الغور هيئة الكهول، أم هو كهل احتفظ مظاهر الشباب بأعجوبة التجدّد المتكرّرة في نفسه الفتيّة رغم الأعوام.

من ذا الذي رأى المستر فرنل مرّة واحدة فلم يلحظ تلاؤم اللون بين ربطة عنقه وقفّازيه وحذائه فضلاً عن تلاؤم اللون بين هؤلاء وبين هندامه العامّ.

وكم كان بعضهم يتغامزون على «ياقته» الشامخة حتى أعالي ذقنه، والرباطة التي تدور حولها لتنتهي إلى الأمام في شكل «فيونكة»[٤] متكاثفة على طريقة عهد الملكة فيكتوريا، وجاكتته المحكمة على خاصرتيه، وبنطلونه اللاصق بركبتيه وساقيه، بينا

هم يتسمون تلك الابتسامة الاجتماعية الفاترة وينعتونه «بالفارس الخالد» و «بدون كيخوت العصر»، وربّما كنت تشاركهم في هذا الهزء الطفيف الغبيّ. أمّا إذا كنت من عارفي المستر فرنل في رقيّه الأخلاقي وإنسانيته الرحيمة، وثقافته الواسعة، وتلك الكياسة الأدبية الممتزجة بحياته الفكرية والشخصية، فقلّ أن تلتفت لتلك البسمات الغبراء التي لم يتوصّل أهلها إلى إدراك ما كانت عليه تلك النفس من حميد الصفات ونبيل الرغبات.

* * *

إنّ الذين عرفوه عن كثب يعلمون أنّه كان «الجنتلمن» قلباً وقالباً في مظاهر مأنوسة من البساطة والامتياز، من المحافظة على القديم ومن سرعة السير إلى الأمام. وما سمع امرؤ ذكيّ حديثه مرّة إلّا اشتاق إلى سماعه مرّات.

ولقد سمعته محاضراً وكانت أولى تلك المرّات قبيل الحرب في المجمع العلمي المصري (institut) يوم خطبت السيّدة بانايوتاتو الطبيبة ببلدية الإسكندرية وبمصلحة الكورنتينات(٥) في ذلك النادي عن الموسيقى الهادئة وتأثيرها في الأعصاب وشرحت موضوعها من الوجهة الطبّية والعلمية، فهنّأها سكرتير المجمع على محاضرتها الضافية لا سيّما أنّها أول سيّدة تكلّمت في تلك الاجتماعات. وتعاقب بعض الأعضاء في الإعراب عن رأيهم في هذا الباب. فكان أبرعهم في معالجة فنون شتّى من الموضوع المستر فرنل. وكم دهشت عندما قال لي جيراني في الاجتماع إنّه العضو الإنجليزي في صندوق الدين إذ أنّ لغته الفرنسية كانت من الإتقان بحيث ظننته أديباً فرنسياً من أكبر الأدباء.

ثمّ سمعته في أندية أخرى فكان أبلغ كلام سمعته منه في جلسة مناظرة بينه وبين المستر برسي هوايت، الروائي الإنجليزي المعروف الذي كان في ذلك العهد يدرّس الآداب الإنجليزية في الجامعة المصرية القديمة(٦). وقد عقدت تلك الجلسة بعد الحرب في نادي جمعية الشبّان المسيحية الإنجليزية.

كانت «الرواية» محور المناظرة. فدافع عنها المستر هوايت صاحب الروايات التي يقارب عددها الأربعين. وقال إنّ الرواية خير أداة للثقافة العصرية لا سيّما إذا كانت ذات مغزى أخلاقي وتضمّنت ما شاء المؤلّف من المعلومات التاريخية والعلمية

والفلسفية، وإنّ أبرع الكتّاب من زفّ رسالته إلى جمهور القارئين في شكل رواية تحوي التحليل السيكولوجي للشخصيات والوصف الأمين للأمكنة والبلدان مع ذكر عادات أهلها وأساليبهم وتقاليدهم، وإنّ الرواية في هذا العصر أقدر وسيلة لحمل الناس على قبول الإصلاح الاجتماعي ولتحويل آراء الفرد والجماعة من ناحية إلى ناحية ومن نظام إلى نظام.

فإذا بالمستر فرنل يحمل على الرواية ويثبت أنّها أداة التضليل والإيهام والجهل المركب المستنكر لأنّها تظهر بمظاهر العلم والدراية، وأنّ أكثر الآراء الملفّقة المعوجة في العالم ناجمة عن الرواية وما سبقها ويرافقها من حكاية وأسطورة كما أن كل هذه كانت مساعداً قوياً على انتشار الفساد الأخلاقي والتزوير التاريخي، وأنّ الرواية كالأسطورة والحكاية ملازمة للإنسانية في طفولتها ملازمتها للإنسان في طفولته، ولكن كما أنّها لا تليق بالإنسان الناضج فكذلك يُرى أنّها لا تليق بالإنسانية في هذا الطور الذي جاوز سنّ الطفولة. فعلى الإنسانية في طورها الحاضر ألّا تنزل إلى الحالة الغرامية لتتلقّى مختلف المعلومات التي تثقّفها وتنميها، بل عليها أن تحصّل المعلومات من حيث هي لأنّ الإنسانية نضجت بالألم والاختبار والجهاد والمعرفة وليس لديها من وقت تصرفه على الرواية والغايات التي تنتظرها عديدة سامية عسيرة. أمّا الحكاية الغرامية فحسنة إذا كانت منسوخة عن الطبيعة الحيّة، ولم تكن عملية اختلاق وتلفيق، لأنّها إذن تكون واقعة حال كأيّ حادث تاريخي أو اجتماعي.

كان كل من المتناظرين متشبّعاً من موضوعه متمكّناً من فكرته فانقسم المستمعون إلى فريقين كما هو الأمر بشأن الرواية بين المفكّرين في جميع أنحاء العالم. بيد أنّي لم أشهد حياتي مناقشة حوت من العلم والأدب وحسن القول في صراحة كتلك المناقشة بين ذينك المتناظرين الضليعين.

واتفق أنّهما بعد ذلك بأيام قلائل اجتمعا عندنا بالدكتور صرّوف فاستأنفا مناقشتهما تلك في مثل ذلك الأدب وذاك التضلّع. وسألا الدكتور رأيه، فأجاب أنّ رأي كل منهما صائب في بابه على أنّه ليس إلّا شطراً من كل واحد فيتحتّم ضمّ كل من الرأيين إلى الآخر ليتمّ الكمال للموضوع.

* * *

وإذ كان المستر فرنل يندفع في الحديث بطلاقة دون تهوّر كنت تعجب لاطلاعه الشامل، ورأيه الحكيم، وإنسانيته الفيّاضة بكل ما في الإنسانية من إدراك وعطف ورحمة ورغبة عاملة في سبيل الخير أنّى كان. وتعجب كيف تسنّى لهذا «الجنتلمن» المتحفّظ أن يكون عليماً بأوجاع بني الإنسان وأوصابهم.

ما مررت يوماً في طريق الأهرام إلّا وألقيت نظرة على منزله الصغير الأنيق القائم في ظلّ الآثار الدهرية، في مدخل هاتيك الحقول الفيحاء وعلى مقربة من الفلّاحين والفقراء الذين كان من حبّه لهم أنّه يوزّع على المعوزين منهم ما يربحه من المال كل شهر، فلا يستبقي لنفسه إلّا النزر اليسير للقيام بحاجته المباشرة.

وما نظرت مرّة إلى ذلك البيت الذي تظلّلها الأفنان وتتناسق في حديقته الأغراس والأزهار إلّا وسألت نفسي عن السرّ المكنون الذي أتخيّله في حياة مستر فرنل الذي لم يكن مجلسه ولم يكن حديثه ليكشفان عن ناحية من نواحي ذلك السرّ، وما كان المظهران المتناقضان المتسايران في حياته – مظهرا العطف والانزواء معاً والاقتراب من الناس والابتعاد عن الناس جميعاً – إلّا ليزيدني(٧) شعوراً بوجود ذلك السرّ السحيق.

رحم اللّه المستر فرنل، إنّه قضى ضحيّة الأوتمبيل الذي كان يمقته ولا يركبه أبداً!

وذلك المنزل الصغير الجميل المغلق إنّي أتخيّله الآن مرتعاً للوحشة والكآبة، ككل مكان يرحل عنه ساكنوه!

وبعد المستر فرنل، ما ترى حالة كلبه الذي كان يركب الترام إلى جانب صاحبه فيقول الظرفاء إنّه «كلب ذو «أبونيه»(٨) على جميع الخطوط!»؟

ذلك الحيوان الحزين الذي عرف لذّة الحبّ الإنساني أعواماً قد انقلب اليوم فريداً طريداً بين بني الإنسان، غريباً بين بني الحيوان. وها هو يذوق مرارة الهجر والإهمال بعد حلاوة الإعزاز والدلال. أيستطيع قلب الكلب أن يحتمل فاجعة كهذه التي تزلزل قلب الإنسان؟

غاب وجه المستر فرنل من شوارعنا ولن يعود. كان ذلك الوجه من نوادر الوجوه القديمة التي تروق وترضي. ولقد كان شاذاً غير مألوف ولكن موفور الجمال والنبل والإنسانية!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٩١، ١٣ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) Harry de la Rosa Burrard Farnell (١٨٥٢ - ١٩٢٩)، كان المندوب البريطاني في «صندوق الدين العام» بمصر ابتداءً من سنة ١٩٠٤ وقد توفيّ قبل ثلاثة أيام من نشر مقال ميّ زيادة على إثر صدمة سيارة أثناء سيره في الطريق.

(٢) redingote، تعبير فرنسي لسترة طويلة ذات لون قاتم وكانت ترتدى في المناسبات.

(٣) إمبابه، حيّ شعبي من أحياء القاهرة.

(٤) كلمة دخيلة في العاميّة المصرية مأخوذة من الإيطالية (fiyonga) ومعناها شريط معقود للشعر أو للثوب.

(٥) Angélique Panayotatou، أول امرأة حصلت على شهادة الدكتوراه في الطبّ في اليونان. عملت في مستشفى الجالية اليونانية في الإسكندرية كما رأست جمعية «Ligue nationale des femmes hellènes d'Egypte» المؤسّسة عام ١٩١٨ . أمّا مصلحة الكورنتينات فهي ما يعرف اليوم بالحجر الصحّي.

(٦) Percy White (١٨٥٢ - ١٩٣٨)، روائي وصحافي إنجليزي كان يدرّس الأدب الإنجليزي في الجامعة المصرية القديمة في الفترة ١٩١١ - ١٩٢٤ .

(٧) ربّما سقطت الألف هنا، والمقصود «ليزيداني».

(٨) لفظ مقتبس من الفرنسية (abonné) ومعناه تذكرة أسبوعية أو شهرية أو سنوية للسفر بوسائل النقل العامّة.

علام يتحتّم البحث والتجديد

في أساليب التربية والتعليم؟

– ٢ –

للتربية والتعليم مهمّة هي الأخذ بيد الناشئ والخروج به من حالة عقلية ونفسية وجسدية منحطّة، على ما يقولون، إلى حالة عقلية ونفسية وجسدية راقية، على ما يقولون أيضاً. فمجرّد تقرير وجوب التربية والتعليم يثبت وجود غاية يذهب إليها الناشئ ويثبت وجود مثل عال يتلمّسه الطالب في ما يتيسّر له من وسائل التحصيل العلمي والثقافة الفكرية والأخلاقية.

وخير تعريف عملي لهذا الغرض المنشود وذلك المثل العالي هو أن يصبح الناشئ عضواً سليماً نافعاً في جسم المجتمع بدلاً من أن يكون عالة عليه ومرضاً فيه، فيقوم نحو نفسه ونحو الآخرين، وفقاً لاستعداده الخاصّ ومؤهّلاته الطبيعية، بقسط من الأعمال والجهود والفوائد.

هذا هو الغرض من التربية والتعليم في كل عصر وفي كل قطر. فعلام يتحتّم البحث والتجديد في أساليب التلقين والتهذيب ما دام الغرض واحداً لا يتغيّر؟

الجواب على هذا السؤال هو أنّ هذا الغرض وإن ظلّ واحداً بجوهره فإنّ مظاهره دواماً في تغيّر وتطوّر بحكم نظام التطوّر والتغيّر الساري على المخلوقات والكائنات والهيئات الاجتماعية والأفراد جميعاً. وعلى ذلك يجب أن تتطوّر أساليب التربية والتعليم لتعدّ الناشئ لا لأيّ مجتمع من المجتمعات السالفة أو الحاضرة في أيّ بلد من البلدان، بل لتعدّه لمجتمعها الخاصّ في نفس الدائرة التي تعمل تلك الأساليب فيها. وإن لم يكن هناك مجتمع كامل يقوم بوظيفته وبحاجة أعضائه فعلى المنشئين أن يرموا إلى إيجاد مجتمع جديد بواسطة هؤلاء الذين يعنون بتنشئتهم فيكون ذلك

المجتمع بفضلهم متناسباً وروح العصر من ناحية لئلّا يظلّ أهله متخلّفين مقهورين، ويكون من ناحية أخرى متناسباً وروح البلاد وجوّها واستعدادها وحاجتها.

نظرة إلى المدرسة في الماضي وفي بعض الحاضر الذي يعيش أهله في القرن العشرين ولكنّهم بعقلياتهم وجهلهم من أبناء العصور السالفة، تجد المدرّس فيها سيّداً رهيباً وجلّاداً صلباً يحسب أنّ فنّ التربية والتعليم قائم في الابتعاد عن الناشئين وفي معاملتهم بالشدّة والإرهاب ليملأ ذهنهم بالمعلومات النظرية ويراهم أمامه أبداً وجلين خانعين.

وما الوالد في هاتيك العصور إلّا نسخة أخرى من المدرّس، فجلّ اهتمامه في أن يقيم بينه وبين أهل بيته هوّة بعيدة وينفث في روعهم الرعب من شخصه والخوف حتى من ذكر اسمه، وهو يظنّ أنّ «السيادة» لا تتمّ له إلّا بالرهبة والإفزاع.

* * *

وقد رسمت باحثة البادية صورة ظريفة لهذه الطائفة من الرجال في مقالاتها الانتقادية في العائلة والمجتمع فقالت:

«زرت مرّة سيّدة ممن ابتلين بمثل هذا الزوج القاسي وكنّا نتكلّم وأولادها الصغار يلعبون قريباً منّا وبناتها الشابّات يضحكن وإذا بهنّ سكتن فجأة وارتبكت أمّهنّ وغارت أعينهنّ وعلاهنّ الاصفرار وقامت إحداهنّ تهرول إلى الصغار لتسكتهم والثانية تتسمّع على السلّم والأخرى ترى ما يمكن ترتيبه في حجرة والدها. تعجّبت من هذه الحركة الفجائية وسألت عن الباعث لها فأخبرتني السيّدة والحزن باد عليها وتكاد لا تنطق إلّا همساً: «إنّ البك ربّما يكون قد حضر» فقلت في نفسي إذا كان كل هذا الاضطراب وفي حضوره شكّ فماذا يفعل هؤلاء النسوة إذا قيل لهنّ: «إنّه قد واللّه حضر»؟»[١].

غير أنّ الرجل في بيته والمدرّس في مدرسته لم يكن في وسعهما أن يسلكا غير ذلك المسلك، أو أن يظهرا بغير ذلك المظهر في زمن لم يكن فيه يعرف المرء معنى الحرّية ومعنى الشخصية ولم يكن إلّا جزءاً مسيّراً لا مخيّراً في مجموع الدولة.

أقول «الدولة» ولا أقول «الأمّة» لأنّ معنى «الأمّة» لم يعرف إلّا في هذه العصور الأخيرة.

في الماضي كان الفرد يخضع للحاكم في خوف ورهبة ويتحمّل منه صنوف الجور والإرهاق دون مناقشة، حتى إذا عمل في دائرة نفوذه وقف في بيته وفي مدرسته وفي مكان عمله موقف الحاكم حياله، لأنّه يرى في ذلك الحاكم صورة عليا من النفوذ والسلطان فيقلّده وهو لا يدري، كما أنّ حاكمه لا يدري، أنّ النفوس إن أسكتها الرعب وكبح لجامها في الظاهر الإرهاب، فهي لا تألو في الخفاء تدسّ الدسائس، وتتعلّم الكذب، وتعمد إلى النفاق، وتألف الجبن متخلّقة بجميع أخلاق العبيد حتى يجيء يوم الانفجار أي يوم الثورة الاجتماعية. وما قام بالثورات يوماً إلّا العبيد والمستعبدون والمظلومون. ولم تكن الثورة مرّة من جانب طائفة تعامل بالعطف والإنسانية وروح العدل والإنصاف.

من هم الثائرون في العالم، الثائرون بأعمالهم وأقوالهم، والثائرون باستعدادهم وأفكارهم؟ هم المهضومو الحقوق. هم الذين ينيخ عليهم الأقوياء بكلكلهم. هم الشعوب الصغيرة التي تسيطر عليها الشعوب الكبيرة وتتحكّم فيها بداعي تمدينها وتثقيفها. هم الذين يعملون كثيراً ولا ينالون ما يرضيهم من المطالب المعقولة مقابل ما ينفقون من صحّة ومجهود واعتناء. هم المرأة التي سنّ لها الرجل القوانين دون أن يذكر أنّ لها طبيعة كطبيعته ونفساً كنفسه ونزعات مشروعة لا تختارها بل هي كالرجل مرغمة عليها بحكم وراثتها وبحكم بشريتها. فالمرأة اجتماعياً «في قبضة الرجل» ولكن هيهات للنفوس أن تكون في غير قبضة باريها! وبينا يحسب الرجل أنّه بالضغط نائل من المرأة ما يشاء فهي تنساب كالماء من بين أصابعه وهو لا يدري ثمّ تطغى عليه من كل صوب فتفسد عليه هناءه وتجعل حياته مريرة.

ثمّ تراه يطلب منها أن تحسن تربية أبنائه، فكيف تربّي تلك العبدة الثائرة المتوارية إلّا عبيداً؟ أيستطيع المرء أن يربّي غيره إلّا على غراره؟ كل ما خلقته العبودية الطويلة في نفسها من سقيم الإحساسات وسخيف المدركات وسيّء العادات وكل ما خلقته العبودية الطويلة في نفسها من الأنانية المتلوّية المتسلّحة بالكذب والدسيسة والمواربة والجبن – كله تطبعه بمثلها وتعاليمها في النفس الصغيرة التي تتولّى تنشئتها.

وإذا رأينا العالم اليوم مكتظّاً بأشخاص لا يرضون بخلق ولا يفلحون في عمل فذلك راجع إلى التربية السيّئة في البيت والمدرسة. وإذا شهدنا حولنا العقليات القبيحة،

والمدارك المشوّهة، والآراء المعوجة التي لا تتناول من الأمور إلّا ناحية واحدة مع أنّها تحسب نفسها مثالاً في الكمال - فكل ذلك ناشئ عن طفولة تيقّظت وسط التذبذب الأخلاقي وبين من هم على غير مقدرة تعليمية وتهذيبية.

وليس للصغار أن يثوروا في طفوليتهم ولكنّهم يحتفظون بذكرياتهم وبينهم ذو الملاحظة وذو الذكاء وذو البصيرة الذي يذكر في رجولته ويقابل ويفكّر فيقدم على الإصلاح. وفي الإصلاح كل الحكمة لأنّه يبعد الثورة ويساير العالم في تطوّره بحكمة واعتدال كما أنّه يفسح للنفوس مجال النموّ والرقيّ والحرّية.

* * *

أقول «الحرّية» ولا أعني ما يفهم منها الكثيرون عادة أي «الفوضى» فالفوضى وجه آخر، وربّما كانت أشنع وجه من العبودية. أمّا الحرّية فهي دستور الإنصاف والإدراك والسيادة. الفوضى تكسر القيد وتلغي النظام وتجعل الحياة مشوّشة مرتبكة هوجاء. أمّا الحرّية فهي النظام والقيد والوازع الذي يقبلها(٢) المرء مخيّراً لا مسيّراً. الفوضى هي الأنانية المضخّمة الشعواء التي لا ترى إلّا ذاتها وتنكر كل وجود. أمّا الحرّية فشعور بالشخصية الفردية والكرامة الفردية كما هي الشعور بشخصيات وكرامات أخرى. الفوضى تتبجّح بحقوقها وهي لا تذكر أنّ كل حقّ لا يشترى إلّا بتأدية واجب. أمّا الحرّية فتقوم بواجبها لتنال حقّها، ولا تنظيم لحركة الاجتماع إلّا بذلك التبادل النبيل. وإدراك الحرّية وممارستها لا يتمّان لحظة واحدة، أو في عام أو في جيل، ولكنّهما ككل أمر آخر يقتضيان المران الطويل لدى الفرد كما أنّهما يحتاجان إلى أجيال كثيرة في الأمّة الواحدة.

وهذه الحرّية يجب أن يتشرّب روحها الناشئ بين ذويه ثمّ يخضع لقوانينها ويمارسها في المدرسة التي هي معهد النموّ واليقظة والنظام الحسّي والأدبي. فمهمّة المهذّب والمدرّس منوّعة عسيرة ولكنّها غزيرة الفوائد مضمونة النتائج وهي العامل الأول في تقدّم العالم. وربّ قائل إنّ القائمين بهذه المهمّة الخطيرة يجب أن يكونوا قد تلقّوا تربية حكيمة وثقافة حرّة ليطبعوا الصغار بطابعهم، وهو قول حقّ، ولكنّه لا ينفي كون الوظيفة تخلق العضو وكون المهذّب الحصيف يعالج نفسه ما استطاع ليحسن معالجة غيره.

في الروح الحديث مساوئ كثيرة ولكنّنا ندين له بمعان نبيلة منها الحرّية الشخصية والكرامة الفردية، ومنها معاني «الأمّة»، و «التعاون»، و «الإنسانية»، و «التطوّر»، هذا التطوّر البادي في الاختراعات والاكتشافات والأنظمة الاجتماعية وتوفّر التربية والتعليم وصيحة الحرّية عند الأفراد والجماعات. هو تيّار حيوي يهبّ علينا جميعاً فإمّا أن يكتسحنا جامدين في عجاجته وإما أن نسير فيه عاملين لخيرنا وخير الآخرين. ووظيفة المدرسة أن تهيّئ الناشئين لهذه الحياة الجديدة التي نحياها اليوم وستزيد في الغد ظهوراً وجلاءً.

لست أعني أنّ كل جديد حسن وأنّ كل قديم سيّء. فقد يتفق أن يكون كل الخير في الأخذ بالمبدأ القديم وتغذيته بما يوافق روح العصر وحاجته. ولست أنكر أنّ من الناس من لا تنال منه مرامك إلّا بالشدّة. فيتسع المجال إذن لبراعة المدرّس والمهذّب فيكون شأنه شأن الطبيب الذي يسقي الدواء طلباً للشفاء، وشأن الجرّاح الذي يجرح ويبتر دفعاً للعلّة وفي سبيل الصحّة والحياة.

سرّ التربية والتعليم في أن تثير الاهتمام وتحرّك الرغبة وتحمل الناشئ على طلب ما يفيده ويثقّفه ويحسّنه. وسرّ النجاح للمدرّس والمهذّب يقوم في معرفة الطبائع والمواهب الملقاة بين يديه ومعرفة معالجتها ذاكراً تلك الكلمة الحكيمة الجامعة التي أورثناها العرب وهي «أثبت العروش ما ارتكز على القلوب».

وليست العروش للملوك فحسب، ولكنّها كذلك للأب في العائلة، للمدرّس في المدرسة، لكل رئيس بين مرؤوسيه، لكل عامل في وسط أعماله، لكل ذي سلطان في أيّة دائرة من الدوائر.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٩٤، ١٦ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) انظر مقال «لماذا يضيع الرجل تأثيره الحسن في أسرته» في كتاب باحثة البادية «النسائيات: مجموعة مقالات نشرت في الجريدة في موضوع المرأة المصرية»، الطبعة الثانية، الجزءان الأول والثاني، القاهرة: مطبعة التقدّم، د.ت.، ص ٨١ .

(٢) هكذا في الأصل، والصواب «يقبله».

يتحتّم التجديد أيضاً في كتب الدراسة والمطالعة

على أن يكون ذلك التجديد مطابقاً

لأصول العلوم التي تدرس ولعقلية الناشئ

- ٣ -

الكتب هي أولى وسائل التدريس وعليها يتكل الطالب في التحصيل ومنها يستوحي المدرّس وبموجبها يسير لتلقين المعلومات المطلوبة.

وتنقسم كتب الدراسة إلى علمية وفنّية وتاريخية وأدبية طبقاً للمادّة التي تدرّس. وسواء أكانت الكتب من هذا النوع أو ذاك، في هذه المادّة أو تلك - وسواء أكانت للمدارس الأولية أو الابتدائية أو الثانوية أو الجامعة، فإنّ الغاية منها إنماء ذهن الطالب وتوسيع مداركه وإطلاعه على كمّية المعلومات الضرورية الصحيحة في المادّة التي انصرف إلى درسها وتحصيلها، ليتمّ له تكوين الشخصية الأدبية والعلمية فيتعاطى المهنة التي اختارها والتي سيصبح بها عضواً عاملاً في بيئته عن جدارة.

* * *

أمّا التجديد في كتب الدراسة فمحتّم بحكم تطوّر العالم وتطوّر البيئة، وبحكم نموّ العلم الإنساني الذي يفاجئنا كل عام بل كل شهر بنتيجة مجهود جديد يضيفها إلى مباحثه ومعارفه واختباراته واكتشافاته واختراعاته، في سعيه المتواصل للتعرّف بطبيعة الكائنات على مختلف أنواعها وللسطو على مكنونات الخليقة والتوغّل في أسرار النفوس.

يقول الأستاذ أحمد حافظ عوض بك في كتاب رسائله «من والد إلى ولده»[1]: «...لأنّ التربية والتعليم للناشئين يجب أن يناسبا زمانهما وظروفهما. فالعلوم والمعارف والتهذيب والأخلاق التي كانت لازمة لنجاح شخص وفوزه في زمن المأمون العبّاسي

وعصره العربي الزاهر، ليست أبداً هي المعارف والصفات التي تمكّنه من الظهور في هذا العصر الذي اشتدّت فيه المنافسة...» وما ذلك إلّا لأنّ التطوّر يشمل كل فرع من فروع المعرفة وكل دائرة من دوائر التصرّف، سواءً أردنا ذلك أم لم نرده.

أجل إنّ القواعد الأخلاقية ما زالت كما كانت وستظلّ خالدة إلى الأبد. بيد أنّ هذا التطوّر المتواصل يقضي بتجديد مظاهرها وبتجديد أدواتها، أي العقول والنفوس، تجديداً متتابعاً. والرجل الذي يقصر على الاستشهاد بأصول المعرفة السالفة دون الأخذ بما توالى فيها، قد يكون خليقاً بسكنى المتاحف ودور الآثار ولكنّه ليس من أبناء الحياة. والتاجر الذي ينهج بأعماله نهج آبائه، ولو كان صالحاً في وقته، ولا يُدخل عليه التجديد المحتوم فهو سائر حتماً إلى الإفلاس.

وأظهر ما يكون التطوّر في الكتب العلمية التي يلحّ الدكتور ونشب محرّر «جريدة التربية والتعليم» الأميريكية(٢)، إلحاحاً لا مزيد عليه في وجوب تجديدها في جميع المدارس وفي جميع فروع الدراسة حيث يقول:

«كل ما بين أيدينا من الكتب المعالجة العلوم الطبيعية والميكانيكية والكهربائية والفلكية التي كتبت قبل عشرة أعوام أصبحت اليوم ناقصة إن لم تكن مغلوطة، كما أنّ الكتب التاريخية والجغرافية المكتوبة في ذلك العهد باتت وكأنّها تشكو افتقارها إلى ما هو بمثابة العمود الفقري منها. كل مذهب فلسفي معتبر وكل منهج تهذيبي كان يعمل به قبل عشرة أعوام بات الآن وقد شلّت منه الأعصاب. كل كتاب في وظائف الأعضاء وفي العلوم النفسية منذ عشرة أعوام يخيّل إلينا الآن ألعوبة عتيقة. كل كتاب في الكيمياء والبيولوجيا أو في العلوم الاجتماعية كتب قبل عشرة أعوام نشعر الآن حياله بأنّنا أمام رواية تمثيلية. وكل كتاب في الاقتصاد والصناعة والتجارة كتب قبل عشرة أعوام إذا نحن أخذنا به دون سواه من المستحدث كنّا هارعين إلى كارثة مفجعة في حياتنا... فكيف لا نلحّ في وجوب تغيير جميع الكتب الدراسية التي تتخرّج عليها ناشئتنا؟»

قد يبدو هذا الكلام أليف «الإغراق الأمريكي» لمن ثبت في موقفه القديم بينا الزمان حوله يسير بقدم الجبّار الغازي. أمّا المتيقّظون من رجال العلم والتعليم، أمّا الذين

يسايرون حركة التقدّم ولو من بعض نواحيها فأولئك يعلمون كم في هذا القول من صدق وإصابة ويطلبون مثل ذلك التجديد في كتب المدارس المصرية.

* * *

هذا في الكتب العلمية والفنّية وليست الكتب الأدبية دون تلك افتقاراً إلى التجديد. نعم إنّ تاريخ الآداب لا يتغيّر والبلاغة القديمة الصحيحة لا تتغيّر. ولكن تتغيّر طريقة تقديم ذلك التاريخ وتبويبه وتنظيمه كما يتغيّر أسلوب التحليل لصنوف البلاغة. وبالأسف أقول إنّ ما وقع عليه نظري من الكتب الأدبية المستعملة في المدارس الأميرية لا يقوى على تكوين عقليات تامّة في فطنة وانتظام.

فهنا تطويل لا حاجة إليه، وهناك اقتضاب كان يجب الإسهاب فيه. هنا لجاجة فيما كان يكفي الإلماع إليه، وهناك إغفال تامّ لما كان يجب ذكره وبيانه. وبالجملة فهذه الكتب التي تحتوي على كثير من المادّة الأدبية مشوّشة غير محكمة. إنّها جافّة الجفاف الذي يشكو منه الأستاذ أحمد حسن الزيّات[٣] في مقاله «تجاربي في تدريس اللغة العربية» الصادر في عدد فبراير سنة ١٩٢٩ من «مجلّة التربية الحديثة» للجامعة الأمريكية بالقاهرة. وهي تفتقر إلى «فنّ» التقديم والتشويق والإغراء. وليس للتحليل الأدبي من أثر لا في شخصيات الشعراء والناثرين ولا في ما أورده المؤلّفون من قطع البيان المنظوم والمرسل وما كان أغنى الناشئين عن الاطلاع على بعض تلك القطع!

هاك نتفة من رسالة وجّهها الشيخ حمزة فتح اللّه[٤] إلى السيّد توفيق البكري[٥] «يمدحه»:

«أليست كتبك هذه حجّة للموجب دامغة للسالب، أليس ذلك البيان غاية شأو قس وسحبان، أليس قصارى بن العميد وحمادى عبد الحميد[٦]؟ فقد أعيد العرض الذي هو الكلام في الدنيا، ففي الأخرى أحرى. فتراني يا مليك اليراعات وقَسور تلكم الغابات أسيفاً على ضنّ الزمان بك إلى الآن فلو أنّ اللّه براك وخلقك فسوّاك حين استعر الخصام في هذا المقام لما اختلف في شأنه اثنان ولا انتطح عنزان». (كذا)!

ما رأيك، أيّها القارئ، في هذه العنوز المتناطحة فيما بينها تحزّباً لمناقشات العلماء؟ وماذا فهمت من هذا الكلام سوى أنّ قول السيّد البكري كان القول الفصل

في نظر الشيخ حمزة، رحمه الله؟ إنّما المراد من الكتب الأدبية إطلاع الناشئ على تاريخ البلاغة في لغته وتهذيب ملكاته الأدبية وحمله على التمرّن على حسن القول وجميل البيان. فهل من يرغب حقّاً في أن يكون إنشاء الجيل الجديد من هذا الطراز؟ وكيف تمنع الطالب عن تقليد هذا الإنشاء وأنت تقدّمه له مثالاً في البلاغة؟

أرجو ألّا يسخط عليّ أصدقاء الأستاذ الجليل وتلاميذه لأنّ كون الشيخ حمزة ثقة في قواعد اللغة وإماماً في أصول الألفاظ لا يقتضي جعله مثالاً في دقّة الإنشاء ورشاقة التعبير. ثمّ كيف تقدّم للمتعلّم رسالة في «المدح» دون أن تنبّهه إلى أنّ نبل القلم لا يسخّر اليوم لمثل ذلك؟

يجب أن تكون الكتب ذات نظام وذوق ودقّة في الانطباق على ما يراد منها أيّاً كان النوع الثقافي الذي تعالجه. ويجب أن تكون بسيطة رشيقة سائغة للطالب فلا ينفق في دراستها أكثر من المطلوب من المجهود الذي يوزّعه على شتّى الموادّ المفروض عليه تحصيلها خلال حياته الدراسية.

وقد سمعنا العمروسي بك في محاضرته(٧) يتمنّى حذف الثلثين من برامج الدراسة فلا يبقى إلّا الثلث الجوهري والضروري على أن يتمكّن منه الطالب ويتثقّف به. وهي أمنيّة خطيرة الشأن من رجل كالعمروسي بك خبر أحوال الدراسة أعواماً طويلة واستعان على خبرته في المدارس المصرية والمجتمع المصري بملاحظاته وأسفاره ومطالعاته، فأفضى به كل ذلك إلى التقرير بأنّ كثيراً مما احتوته تلك البرامج لا ضرورة له لغاية التدريس الرئيسية أو لتثقيف الأذهان، وإنّما هي ترهق الطالب والمدرّس معاً، وتلتهم الوقت الذي قد كان ينفق في ما هو أهم وأجدى، وتتناهب قوى الناشئ وانتباهه مع أنّ مصلحته تقضي بلمّ شعث قواه وتوجيه انتباهه إلى الجوهري من المادّة التي يدرس.

ولقد سمعت عدداً كبيراً من أهل التعليم رجالاً ونساءً يشكون ازدحام البرامج على ضيق الوقت مما يضطرّهم إلى الاكتفاء بما هو مسطور في الكتب دون التمكّن من إبداء آرائهم وإثارة اهتمام التلميذ وحمله على التفكير وتكوين رأي خاصّ.

وهي شكوى إن صحّت من حيث ازدحام البرامج ووفرة الكتب الدراسية فهي تخطئ من حيث فنّ التلقين والتثقيف. وحسبنا شاهداً على ذلك النكتة الظريفة التي

ساقها العمروسي بك في محاضرته فأثار الضحك عالياً. وهي أنّه إبّان القيام بوظيفته حضر مرّة درساً كان المدرّس فيه بارعاً في الشرح النظري وفي رسم الهيكل الإنساني الذي تولّى شرحه. غير أنّ ذلك الشرح كان «يمرّ كتيّار فوق رؤوس المستمعين» على قول العمروسي بك، دون أن يتناول إدراكهم. فأراد أن يستجلي الأمر فسأل التلاميذ في النهاية عن موضع الكلية من الجسد الإنساني فأخذتهم الحيرة وأحجموا، إلّا أحدهم الذي قال إنّه «يظنّ» أنّ الكلوة واقعة بين الكتف والترقوة...

تلك كانت نتيجة ذلك الشرح الباهر!

وأذكر لمعالي لطفي السيّد بك كلمة مليحة في هذا المعنى إذ كنّا نتحدّث يوماً عن أحد الأدباء فأثنيت على ذكائه واستنارة فكره. فوافق لطفي بك ثمّ قال: «ولكنّه لا يصلح للتعليم، لأنّ أعضاءه متخشّبة وعضلاته جافّة ولا أحسب ذهنه إلّا على مثل ذاك التخشّب وهذا الجفاف. إنّه يفتقر إلى الرشاقة التي تنفذ إلى نفوس الناشئين وتمكّنه من معرفتهم وإفادتهم...».

ومغزاه أنّه إذا تحتّم تجديد الكتب والاكتفاء بالجوهري والضروري منها فيتحتّم كذلك أن يحسن المعلّم التلقين ليس بتملّكه من موضوعه فقط بل بمعرفته لطبيعة تلاميذه واهتدائه إلى الحذق في التعليم الذي هو «فنّ وعلم» في آن واحد.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٠١، ٢٣ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) انظر في هذا الصدد خطاب ميّ زيادة إلى أحمد حافظ عوض المنشور في المحروسة، س ٤٩، ع ٣٨٤٩، ٣ أيّار/مايو ١٩٢٣، ص ٣، تحت عنوان «من والد إلى ولده»، وهو مضمّن في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٤٩٦ - ٥٠٠ .

(٢) أغلب الظنّ أنّ المعني هو Dr. Albert Edward Winship (١٨٤٥ - ١٩٣٣)، محرّر مجلّة *Journal of Education* في بوسطن ابتداءً من عام ١٨٨٦ ومؤلّف عدّة كتب في موضوعات التربية والتعليم من بينها *Educational History* (تاريخ التربية والتعليم) الصادر ١٩٢٩ .

(٣) أحمد حسن الزيّات (١٨٨٥ - ١٩٦٨)، أديب وصحفي مصري، تلقّى علومه في الأزهر والجامعة المصرية القديمة. مارس ابتداءً من ١٩٢٢ تعليم الأدب العربي في المدرسة الأمريكية بالقاهرة، ومن ١٩٢٩ في دار المعلّمين العليا ببغداد. أنشأ عام ١٩٣٣ مجلّة «الرسالة» التي كانت ميّ زيادة من كتّابها، وعام ١٩٣٧ مجلّة «الرواية» نصف الشهرية. وقد أوقفت المجلّتان إصدارهما سنة ١٩٥٣ . لكنّ الرسالة التي كانت منذ تأسيسها بعيدة الأثر واعتبرت مدرسة في الأدب العربي الحديث، استأنفت الصدور عام ١٩٦٣ دون أن تتمكّن من استعادة مكانتها السابقة. وبعد توقّفها تولّى الزيّات تحرير مجلّة «الأزهر». من بين أعماله «وحي الرسالة» في أربعة أجزاء والعديد من الترجمات عن الفرنسية. كان عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة وفي المجمع العلمي العربي في دمشق.

(٤) حمزة فتح الله (١٨٤٩ - ١٩١٨)، عالم وأديب وصحفي مصري. أنهى تعليمه في الأزهر ثمّ ذهب إلى تونس حيث أصدر جريدة «الرائد التونسي» الرسمية. تولّى بعد عودته إلى مصر تحرير صحيفة «البرهان» في الإسكندرية ثمّ صحيفة «الاعتدال». أمضى نحو ٣٠ عاماً في وزارة المعارف المصرية بعد تعيينه بوظيفة مفتّش أول للّغة العربية.

(٥) محمد توفيق البَكري (١٨٧٠ - ١٩٣٢)، شاعر وناثر مصري، كان نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر كما انهمك في السياسة خلال عضويته البرلمانية. وألّف هو والمنفلوطي عام ١٨٩٧ قصيدة اعتبرت مسيئة للخديوي عبّاس الثاني وكانت سبب تدهور العلاقات معه. فبدأ يعاني من هوس الاضطهاد ما أدّى فيما بعد إلى علاجه في مصحّ للأمراض العقلية في بيروت ولم يعد إلى القاهرة إلّا عام ١٩٢٨ . وهو من أخلص ممثّلي النزعة الكلاسيكية المحدثة في النثر الفنّي بمصر.

(٦) المعنيان هما الشاعر والأديب أبو الفضل محمد بن العميد، وزير ركن الدولة البويهي، توفّي عام ٩٧٠، وعبد الحميد الكاتب، الذي عمل في خدمة آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمّد، توفّي عام ٧٥٠ . وكلاهما من أبرز أعلام الإنشاء العربي الكلاسيكي.

(٧) انظر مقال ميّ زيادة «كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (١): الأستاذ أحمد العمروسي بك يحاضر فيفتح باباً رحيباً للكلام في موضوع هو أحرى ما يكون بالبحث والتجديد»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٨٠، ٢ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ [٤٤]، في هذه المجموعة.

طريقة وزارة المعارف في الحصول على كتبها

أليس من طريقة أخرى غير المسابقة؟

- ٤ -

نشر «المقطّم» الصادر مساء السبت بتاريخ الأحد بين محلّياته الخبر التالي:

«انتهت اللجنة المؤلّفة من بعض مفتّشي مراقبات التعليم بوزارة المعارف لمراجعة مناهج التعليم في الرياضة والعلوم للتوفيق بين مناهج البنين والبنات وبين ما يجب مراعاته في الإعلان عن المسابقات في وضع الكتب الدراسية الخاصّة بهذه الموادّ ورفع تقريرها لأولي الشأن بالوزارة».

أمّا الأمر الأول الذي تعنى به اللجنة فسيجيء دوره في مقال تال عند الكلام عن تعليم البنات. غير أنّ لديّ فكرة فيما يتعلّق بالأمر الثاني أي المسابقات في وضع الكتب الدراسية، الذي أودّ أن أتكلّم عنه اليوم، ليس فقط لأنّ هذا الخبر لفتني إليه بل لأنّ موقعه الطبيعي من هذا البحث يجيء بعد مقالي بالأمس عن وجوب تجديد الكتب الدراسية التي هي ركن أوّلي في تكوين عقليات الناشئين.

وقد سبق أنّ وزارة المعارف نشرت في الصحف منذ أيام بياناً عن الكتب العلمية والأدبية التي هي في حاجة إليها. ودعت المؤلّفين إلى تقديم كتبهم في هاتيك الموضوعات في موعد جعلته في شهر أبريل، على ما أذكر. وأردفت البيان بما معناه أنّها تحتفظ - طبعاً - بحرّيتها في اختيار ما يصلح لحاجتها من تلك الكتب ورفض ما ترى رفضه، دون الاعتراف بأيّ حقّ عليها للمؤلّفين الذين لا يفلحون - وهذا هو المعقول.

فكيف لا يبادر الجميع، أو بعض الجميع، إلى كدّ قرائحهم وإلىطبع ما ينشئون ويؤلّفون فيقدّمون الكتب في الموعد المضروب أملاً أن يكونوا من الذين كُتب لهم الفوز و(...)[1] لهم الأوّلية في المسابقة الموفورة العائدة؟

* * *

صحيح أنّ الوقت محدود لا يتسع معه لمؤلّف أن يستكمل لبحثه شتيت الموادّ التي عليه أن يجمعها ويمحّصها وينظّمها ليقدّمها في صورة موجزة وإن جمعت، قريبة المنال وإن عسرت، جليّة واضحة وإن كانت بطبيعتها صعبة معقّدة.

غير أنّ الوزارة تداركت الأمر فهوّنته على المؤلّفين حيث قالت ما يعني أنّه لا يتحتّم أن تكون تلك الكتب جديدة وأنّها تقبل الكتب القديمة على أن تكون وافية بالمراد.

ولا أخال الوزارة إلّا سائرة على خطّة مألوفة في الحصول على مطلوبها من الكتب فعمدت إلى بيانها هذا الذي اطلع عليه القرّاء وستعمد طبعاً إلى مثله في المستقبل - إلّا إذا اهتدت إلى غير طريقة المسابقة.

فلننظر فيما إذا كانت هذه خير الطرق:

أمّا الكتب الأدبية القديمة فقد تصلح مرّة للدراسة وقد لا تصلح مرّات للأسباب التي ذكرتها في مقالي السابق. ووقوع الاختيار عليها لا يدلّ على صلاحيتها بل يدلّ على أنّ ما اختارته الوزارة هو خير ما قُدِّم لها في المسابقة مما يتفق مع أغراضها.

وأمّا الكتب الجديدة فمشكلتها مشكلة أخرى كما يقول الإيرلندي! لأنّ الذي عالج التأليف يعلم ما يتطلّبه من الوقت والكدّ والعناء وما يقتضيه من الاطلاع والمراجعة والتمحيص.

فربّ موجز صغير تنفق في تأليفه الشهور وبخاصّة إذا كان علمياً فقد يقتضي استحضار الكتب من أوربا وتعرّف ما جدّ في موضوعه مما نشر في الصحف والمجلّات. وكل ذلك لا يتمّ في ثلاثة شهور، وإذا تمّ مرّة فهو يفشل غيرها. وينطبق على الكتب العلمية الجديدة ما سبق عن الكتب الأدبية جديدة كانت أو قديمة، من أنّ كون الوزارة

اختارتها لا يدلّ إلّا على كونها خير ما قدّم لها في المسابقة، دون أن يكون الاختيار ناطقاً بصلاحية تلك الكتب صلاحية مستوفية حاسمة.

ومعلوم أنّ الذين يقدّمون كتبهم لمثل هذه المسابقات ليسوا متفرّغين لتأليف ما قد تطلبه الوزارة، وأنّ لهم أعمالاً أخرى تشغلهم وهي أعمال مهنتهم النظامية. فهذا مدرّس، وذاك موظّف، والآخر مهندس، وغيره صحافي، وغيره طبيب، وهكذا. فالكتاب الذي يقدّمه إنّما يكون هامشاً على صفحة أعماله، وقد يجيء مستوفياً لشروط التأليف مستكملاً لعناصر الموضوع، وقد يجيء بالعكس ناقصاً أبتر.

وليس معقولاً أن يترك امرؤ أعماله الجوهرية لينصرف إلى تأليف كتاب يتكبّد في سبيله ما يتكبّد من الجهود والكدّ والبحث ثمّ يقوم بنفقات طبعه وهو لا يدري أيفوز في المسابقة أم يكون من الراسبين.

وهو بعد أن رسب كان خاسراً ليس فقط أتعابه الأدبية ونفقاته المالية، بل كان كذلك يائساً من تصريف كتاب أعدّه لطلبة المدارس وروح تعليمية محضة ليست هي روح التأليف للجمهور.

* * *

فيبدو من كل ما تقدّم أنّ طريقة المسابقة مع ما فيها من الحسنات في غير الكتب الدراسية، فهي في هذه لا تخلو من العيوب وهي غير مضمونة الكمال النسبي المفروض لكتب الناشئين.

قد تكون خطّة المسابقة هي الخطّة التي تنتهجها وزارات المعارف في بعض دول أوربا. هذا ما لا أعرفه. ولكنّي أعرف أنّ أحوال تلك البلدان غير أحوالنا، وممكنات الكتّاب فيها غير ممكنات العلماء والمؤلّفين هنا لأنّ الوسط الذي يعيشون فيه هو مولد الحركة العلمية والتقدّم العلمي، في حين نحن نستوحي تلك الأوساط ونقتبس عنها ما يناسبنا لنتمكّن من مجاراتها والسير في موكبها.

سيّان عند المؤلّف هناك أتقرّر كتابه للتدريس أم كان ذائعاً بين جمهور القارئين لأنّه على كل حال يجني ثمرة جهوده. فهو يشتغل لنتيجة مجدية وثقته من النتيجة تثير

عنده الرغبة وتنشّط المثابرة في عزم وإبداع. وإذا رفض كتابه فهناك عشرات من دور الطباعة والنشر التي تقوم بطبع الكتاب وتوزيعه وترويجه لانتشار العلم بمختلف فروعه بين جمهور القارئين.

فأين نحن من كل ذلك وجمهورنا على يقظته الميمونة ما زال وليداً، ودور الطباعة والنشر عندنا - ... للقارئ اللبيب أن يكمل هذه الجملة!

وجميع هذه الاعتبارات تؤثّر في اهتمام الكاتب وفي عنايته وتؤثّر في نوع إتقانه، كائناً ما كان رقيّه الفكري وكفايته العلمية.

أفلا يحسن إذن أن تختار الوزارة اختصاصيين بارعين في ما تريده من فروع العلم والأدب فتعهد إليهم بتأليف كتب الدراسة، وتهيّئ لهم ما يحتاجون إليه من عناصر المعرفة والبحث وتمدّهم بالوقت الكافي ليتفرّغوا للتأليف في ثقة وعناية؟ ثمّ تعهد بفحص الكتب إلى لجان اختصاصية تقرّر تعديل ما ترى تعديله، وإضافة ما لا غنى عنه للقيام بالغرض المطلوب فيتمّ لها ما تبغي من الفائدة والعلم والتقدّم.

يخيَّل إليّ أنّ كتب الدراسة أهمّ من أن يقوم بوضعها طائفة من غواة الكتّاب مهما كانوا بارعين، وأدقّ من أن يعنى بتأليفها أفراد وإن تفوّقوا فما هي إلّا بعض ما يعلمون. ومهما بذل أولو الأمر من العناية على كتب الدراسة فليسوا مغالين، لأنّ كل ذلك في مصلحة العلم والمعرفة، وفي مصلحة عشرات الألوف من الناشئين، وفي مصلحة البيئة المصرية التي ستكون غداً من هؤلاء الذين اليوم يتعلّمون.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٠٣، ٢٥ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ .

(١) سقط معظم حروف الكلمة في الأصل، وفي تقديرنا أنّها «قُدِّرَ».

فضل الحضارة المصرية على حضارة العالم
وفضل الأرض المصرية على حضارة مصر

المستر لودن، أحد رجالات الولايات المتحدة، عضو مجلس النوّاب وحاكم ولاية إلينويس سابقاً،[١] يزور مصر في هذه الأيام مع عائلته. وقد ترشّح مرّتين لرئاسة الجمهورية الأمريكية فكان يعضده كل مرّة عدد وفير من المزارعين في بلاده. وهذا وحده كاف للدلالة على الموضوع الحيوي الذي وجّه إليه اهتمامه مستعيناً على التضلع منه بدرس طبيعة الأرض وحاجات الأمم. فكيف لا تستفيد مصر من مروره السريع فيها وكيف لا تفتح له الجامعة الأمريكية قاعة المحاضرات الكبرى ذات البناء الفخم، والأنوار الموزّعة الرقيقة، والجوّ العلمي والإنساني الحصيف الرضيّ؟ كيف لا تدعوه إلى رفع صوته وبسط آرائه من على منبرها الألمعي المضياف؟

بكلمة وجيزة جامعة من تلك الكلمات التي يقولها الدكتور وَطْسُن[٢] في أحوال متشابهة فيعرف أن يجعلها منوّعة في ما تعبّر عنه من الإنسانية وحبّ الخير – قدّم رئيس الجامعة الخطيب للجمهور المتقاطر. وتلاه سفير أمريكا فمهّد للمحاضرة بوجه يفيض بشراً وكلمات كيّسة مليحة. وبينا الخطيبان يتناوبان الكلام كان للحضور أن يتبيّنوا ملامح المستر لودن وأوضاع جسده، الناطقة برجولة قادرة جمعت بين الهدوء التامّ والاستعداد للانفعال الذي سرى منه إبّان هذه المحاضرة شيئاً غير يسير[٣].

استهلّ المحاضرة بصمت وجيز كأنّما أراد خلاله أن يتبادل والحضور تيّاراً من التفاهم والتعاطف. وعندما أنشأ يتكلّم بصوت بعيد الدويّ بعيد الأثر ليقول إنّه لن ينسى حياته هذه القاعة الجميلة التي هي ميدان لربط العلاقات الفكرية والإنسانية بين جماعة وجماعة وأمّة وأمّة – وإنّه لن ينسى الترحيب الذي قابله فيها ولطف المصريين

الذين أقبلوا عليها بعد إفطار رمضان - كان إذ ذاك وكأنّه يستأنف بالألفاظ حديثاً بدأه في السكوت.

واستولى علينا بقدرة بيانية نادرة عرفنا منها سحر الكلمة وسحر الإشارة، وسحر النظرة، وسحر الشخصية القويّة التي تملأ الكلمات البسيطة الصافية بوهج الحرارة وجزالة المعرفة وصدق اليقين. عرفنا قيمة الحركة والهدوء في عضلات الخطيب وفي أسارير وجهه وفي ثنية شفتيه وفي التباطؤ الذي يتقصّده لإرسال بعض الكلمات والتسارع الذي يتعمّده للتفوّه بكلمات أخرى. عرفنا البارحة سلطان فنّ الخطابة النفّاذ الذي يشمل جميع الفنون وجميع القدرات.

* * *

بمهارة ألمع إلى تاريخ الحضارة في العالم وإلى أنّ الزراعة كانت أولى بوادر الذكاء البشري وعليها أنفق الإنسان أول جهوده. وقد مرّت بالزراعة أزمات شتّى وتقلّبت عليها أحوال عدّة لا سيّما في القرن الأخير لأنّ المساحات الصالحة للزراعة محدودة بطبيعتها في حين أنّ سكّان العالم في تزايد مطّرد. فأصبحت كبرى المعضلات اليوم في كل مكان هي البحث عن الوسائل التي تضمن القوت لبني الإنسان في ما لو استمرّ تزايدهم على الوجه الذي أبدته الأرقام في هذا القرن الأخير.

ومن مليح المصادفات أن أسمع محاضرة عن الزراعة من مثل هذا الخطيب في نفس الأسبوع الذي أعكف فيه على درس كتاب «مبادئ الاقتصاد السياسي» لمؤلّفيه سيّد كامل، وحسن خليفة، ومحمد فهيم - الذي أتمنّى أن يقتنيه جميع شبّاننا لأنّه يعالج من الشؤون ما لا يجوز أن يجهله متعلّم. وقد ورد في موضوع الزراعة ما يلي:

«ولا تزال مسألة الأرض الضرورية لحاجة بني الإنسان موضع بحث المفكّرين ولو أنّ كشف الدنيا الجديدة وأستراليا وجنوب إفريقيا قد فرّج هذه الأزمة بعض التفريج. على أنّ الزيادة المطّردة في بني الإنسان قد تستنفد كل ما اكتشف من تلك الأراضي وزاد عن الحاجة في الوقت الحاضر، وإذ ذاك لا بدّ أن يقنع بنو الإنسان بما لديهم من الأراضي، لأنّه ليس من المنظور أن يكشف الإنسان أراضي جديدة إذ أنّه جاب البحار وكشف كل ما فيها. وعلى ذلك يجب أن يستغلّ الأرض إلى أقصى حدّ مستطاع».

«استغلال الأرض إلى أقصى حدّ مستطاع» هذا ما ألحّ فيه خطيب البارحة كما ألحّ في وجوب تحسين حالة الفلّاح الذي يُقاس رخاء الأمّة بمقياس رخائه. وقد تدهورت أثمان الإنتاج الزراعي عقب الحرب وكان الناس يتوقّعون هبوط أثمان الحاجات بالتبع. بيد أنّ ذلك لم يحصل. والصناعة التي تناولتها الوسائل العلمية كما تناولت النظامات التعاونية جماعات العمّال، سبقت الزراعة وتفوّقت عليها. فارتفعت أثمان المنتوجات الصناعية حتى بلغت السبعين بالمائة بينا المنتوجات الزراعية لم تبلغ إلّا الثلاثين بالمائة. فكان الفلّاح أو المزارع يخسر الأربعين بالمائة في الفرق بين ما يناله من ثمن الإنتاج الزراعي وما ينفقه للحصول على الإنتاج الصناعي.

فإذا كان العالم اليوم لا يستغني عن الصناعة، وإذا تحتّمت العناية بالصناعة لتقوم بحاجات الإنسان، فهذا لا ينفي كون الزراعة كانت وستظلّ أبداً أهمّ أسس الحضارة لا سيّما في البلاد الزراعية – ومصر في طليعتها، وأنّ أقوى ضمان لمستقبل الحضارة هو ضمان مستقبل الزراعة، وذلك بتطبيق النظم العلمية في استغلال الأراضي وتحسين حالة الفلّاحين وإنشاء النقابات التعاونية لهم وغير ذلك من الأمور التي أخذت بها جميع الأمم، وبخاصّة الدنمارك التي تكاد تكون البلاد الوحيدة التي استكملت عُدّتها من التقدّم الزراعي والنظام التعاوني، لذلك نراها أوفر البلاد الزراعية يسراً.

* * *

إلى هنا ظلّ يتكلّم المحافظ بحصافة السياسي العالم الاقتصادي فإذا به ينقلب شاعراً مجنّح الكلمات، واسع الإشارة، موفور الحماسة حيث يقول:

«لقد طفت في هذه الديار بالآثار العظيمة والهياكل البديعة فكلّما وقفت حيال إحداها سألت دليلي أن يعدني عن التحف المرمرية والتماثيل الفنّية ليعود بي إلى المروج! يمكنني أن أدرس تاريخ مصر عندما أعود إلى بلادي فأعجب بآثارها من خلال الصور. أمّا هنا فأريد أن أقترب من الرياض والسهول لأشعر بقدرة الحياة الكامنة فيها وأتعرّف سرّ الحضارة المصرية التي أشرقت شمسها على العالم. كل ما تدين به حضارة العالم للحضارة المصرية إنّما مرجعه إلى هذه المروج. من هنا خرجت العلوم والفلسفة والدين والعمارة والطبّ والفنون والآداب. من هنا أقبلت العظمة على بني الإنسان.

ولقد كان لمصر لغة مكتوبة قبل ألوف الأعوام. وكان يحسب كل من الشهور بثلاثين يوماً وتخصّص الأيام الخمسة أو الستّة الباقية من السنة للأعياد والاحتفالات وما نحوها. وكانت الحضارة المصرية مزدهرة في شتّى دوائر الحياة الحسّية والأدبية والعلمية والروحانية يوم لم يكن سائر العالم إلّا وشيكاً. كل ذلك بفضل خصب الأرض المصرية وفضل نيلها الجواد. إذ لا متّسع لارتقاء المدنية وتقدّم العلم واستغلال المواهب وتشعّع العبقرية واستفهام الخليقة عن مكنوناتها وقدراتها - حيث لا يكون المرء أميناً على قُوته في اليوم والغد.

«ذلك كان فضل أرض مصر بالأمس وما زالت اليوم على ما كانت. فلئن كانت أخصب الأراضي الزراعية فهي كذلك أضمنها ريّاً بما يغدقه عليها النيل من لبان الخير والحياة. ففي أمريكا وغيرها إذا كثر المطر أو قلّ نجم عن ذلك ضآلة المحصول وارتفاع أسعار القطن... المصري. فالمحصولات الزراعية في البلاد الأخرى رهينة تقلّب الجوّ. أمّا في مصر فمضمونة بمنح النيل السخيّ.

«ولقد احتفظت هذه الأرض العظيمة بقدرتها المخصاب منذ ستّة آلاف سنة. فعلى بنيها اليوم أن يستأنفوا استغلالها بحذق ونشاط لأنّ في هذه المروج أول أسرار الحضارة. والمجد العميم إنّما هو ذخيرة الأرض المصرية ذات الوحي والخصب والبذل والسخاء».

التصفيق الحادّ يؤمّن على كلام الخطيب إذ يقف نخلة المطيعي باشا - بصفته الآن وزير الزراعة أي الحارس الأعلى لهذا الخصب - ليشكر المحاضر على محاضرته ويتكلّم عن الزراعة المصرية في إيجاز ورصانة ألفها خلال مهنته القضائية الطويلة. وخلتُ المستر لودن موزّع الحواسّ يصغي من ناحية إلى وقع هذه الألفاظ العربية التي تطرق سمعه، وكأنّه من الناحية الأخرى ما زال يصغي إلى صدى الكلمات الحيوية الحارّة التي فرغ الساعة من إرسالها.

وظلّ على مثل إصغائه ذاك حتى بعد أن تفرّق الحضور ووقف بين أصحابه يتحادث وعلي بك عمر(٤) فيتبادل وإيّاه تلك المجاملة التي يمتزج فيها الأنس بالعلم. فيقول المحافظ:

- مصر غنيّة لذلك كان درسها عسيراً.

فيجيب علي بك عمر وهو يميل إلى أذن سفير أمريكا كأنّه يريد استطلاع رأيه في الأمر:

- درس الأرض المصرية عسير ولكنّ درس أبنائها ليس كذلك. فيجيب السفير بلهجة من لا يرضى أن تحمله المجاملة الدبلوماتية على تبديل فكره:

- العسير في مصر هو درس أبناء البلاد أولاً.

فأقول للسفير:

- وأقدّر أنّ معرفة البلاد الأمريكية جدّ عسيرة.

فيجيب بلهجة المقرّر بينا نظره يسألني عمّا أودّ أن أعني بالضبط:

- أجل عسيرة لأنّها جمّة العناصر موفورة التنوّع.

وابنة المحافظ الحلوة تتكلّم هي أيضاً عن جمال مصر وتسألني عمّا إذا كان المترجم أتقن نقل المحاضرة إلى العربية. وإذ أجيب بالإيجاب تلمع عيناها وهي تقول: هذا حسن!

* * *

ولقد كانت هذه المحاضرة درساً من ابن شعب عظيم جديد إلى أبناء أمّة عظيمة نهضت اليوم تتجدّد، درساً في نفاسة أرضهم ونفاسة خصبها، في وجوب الاحتفاظ بهذا الخصب ووجوب استغلاله ومضاعفته بأحذق الوسائل العلمية، درساً في وجوب ترقية الفلّاح وإمداده بالمعرفة الأوّلية الضرورية لعمله، وفي وجوب إيجاد توازن معقول بين الزراعة والصناعة لأنّ على ذلك التوازن تتركّز أركان الحضارة فيتسنّى لمصر أن تستأنف ماضيها المجيد لخيرها وخير بني الإنسان أجمعين.

فهل لي أن أهتف بعد ذلك الصوت القويّ فأخاطب ملايين المصريين قائلة:

«البثوا في قراكم، أنتم المتوافدون على العواصم، البثوا في مزارعكم، أنتم الذين تضخّمون المدن على حساب الريف! أيّها الشبّان المتهافتون على الشهادة أملاً أن تفتح

لكم باب الوظيفة، تعرّفوا ما في أرضكم من عناصر الثروة والخير والهناء! بدلاً من أن تردّكم المعارف السطحية عاطلين على كراسي المقاهي وفي دور الملاهي، حصّلوا لباب المعلومات الأوّلية وطبّقوها بالعمل في أرضكم السخيّة الحنون!

«ارجعوا إلى أرضكم، أنتم الذين جئتم! والبثوا هناك، أنتم الذين تتأهّبون للمجيء! أحبّوا الأرض وعالجوها ودلّلوها فالأرض لا يخاطبها امرؤ عبثاً وما أدار يده في أحشائها إلّا كان جوابها الإنتاج والخير! أدركوا ما في الفلاحة والزراعة من شرف العمل وضمان الثروة القومية!

«امكثوا في مزارعكم، في قراكم، في سهولكم، أيّها الرجال والنساء من أبناء مصر المتراكضين نحو المدينة! امكثوا هناك واعملوا في الأرض الخالدة فبارك أيديكم[٥] النشيطة العاملة لهذه النهضة العامّة التي تتطلّب العناية من جميع النواحي!»

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٠٧، ١ آذار/مارس ١٩٢٩، ص ١ .

(١) Frank Orren Lowden (١٨٦١ - ١٩٤٣)، عضو مجلس النوّاب الأمريكي ١٩٠٦ - ١٩١١ وحاكم ولاية إلينوي (Illinois) ١٩١٧ - ١٩٢١ .

(٢) Dr. Charles R. Watson ، مؤسّس الجامعة الأمريكية في القاهرة ورئيسها الأول ١٩١٩ - ١٩٤٥ .

(٣) هكذا في الأصل، والصواب «شيء غير يسير».

(٤) علي عمر (١٨٧٠ - ١٩٣١)، تربوي مصري كبير. تعلّم بالقاهرة وإنجلترا، ثمّ مارس التعليم. شارك في الحركة الوطنية فتعرّض إلى النفي. عيّن بعد السماح له بالعودة مفتّشاً في وزارة المعارف.

(٥) هكذا في الأصل، والصواب «فيبارك اللّه أيديكم».

في سبيل المسجد الأقصى

نشرت الصحف في اليومين الأخيرين من شهر رمضان المبارك نداءً عامّاً بتوقيع اللجنة التي تألّفت أخيراً من نفر من رجالات مصر برئاسة سموّ الأمير عمر طوسون[1]، وغرضها جمع التبرّعات والاكتتابات لترميم المسجد الأقصى.

وبينما كانت صحفنا تنشر ذلك النداء كنّا نرى في محلّياتها خبر عودة سماحة السيّد أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى فيها، إلى فلسطين بعد أن أقام أسابيع ينشر الدعوة التي جاء مصر لأجلها. فكان في وقاره اللطيف، ورزانته المستنيرة، وعلمه المأنوس خير من يثير الرغبة في الاهتمام بذلك الأثر النفيس. فما غادر مصر إلّا وقد تلقّى من مليك البلاد دليلاً سخيّاً من عطفه وعنايته وحذت الحكومة حذو صاحب الجلالة في العناية والسخاء. وقام أهل المروءة يشكّلون لجنة تسعى لجمع الاكتتابات. فتسنّى بكل أولئك لسماحة المفتي ولأصحابه أعضاء المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين، وللمهتمّين بأمر آثار الجمال حقيقة والجلال في العالم أن يعلموا أنّ النخوة في مصر في النفوس قبل أن تكون نعتاً في الألفاظ[2].

ولست أدري ما هي الوسائل التي قرّرت اللجنة اتخاذها لحمل الناس على الاكتتاب. أمّا إذا كانت متّكلة على ندائها ذاك فلست مبالغة إنْ انا قلت إنّه على أهمّيته لا يكفي، وإنّها ليست بنائلة عن طريقه أقصى ما يمكن من المساعدة. فأفكار الجمهور موزّعة بين الأعمال والمشاغل والأحزان والأفراح. ولئن تأثّر بعضهم بالنداء فسارعوا إلى التلبية فوراً وأرسلوا ما تجود به النفس فإنّ الأكثرية لا تفعل ولا تكتفي بالالتفات إلى الأمر بل لا بدّ من استيقاف فكرها عنده وتحريك عواطفها واستثارة الرغبة لديها لتعطي. وأيّة إشارة بين ملايين الإشارات في الحياة آنق وأجمل وأنبل من إشارة البذل والسخاء؟ ولا ريب أنّ اللجنة الحكيمة فكّرت أو تفكّر في وسائل أخرى لترويج دعوتها.

* * *

ولئن كان أكثر المكتتبين من المصريين يجهلون المسجد الأقصى فذلك يزيد في نخوتهم قدراً ويعلي من أريحيتهم شأناً. ولكن مهما جهلوا فما هم بجاهلين أنّ المسجد الأقصى قائم في مدينة القدس الشريف التي يرجع تشييدها إلى عهد إبراهيم الخليل والتي هي في نظر كتاب ايسلِندا[٣] أقدم المدن الباقية إلى اليوم منذ سحيق العصور.

وليسوا بجاهلين أنّ المسجد الأقصى ثاني القبلتين عند المسلمين وأنّ مكانته تتساوي ومكانة الحرمين الشريفين.

وليسوا بجاهلين أنّه موضوع الآية الشجيّة: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا. إنّه هو السميع البصير» التي ينشدها المنشد في المجالس الحافلة فيملأ صوته المكان شجواً وحنيناً ويشيع في النفوس تأثّراً وخشوعاً.

وليسوا بجاهلين أنّ المسجد الأقصى في هندسته ورشاقته وبهائه طرفة من أسنى طرف العمارة العربية الممتازة في العالم فهو بيت للصلاة ومحطّة للحجيج، وموضوع إعجاب الأثريين والفنّيين. وأُشّر على جدرانه بين دقيق الزخارف وبديع النقوش أسماء أشخاص مكرّمين خالدين، وكل ما فيه ناطق بذلك الاسم الصمداني الأعظم الذي تحنو لذكره جميع الأمم: اللّه.

وليسوا بجاهلين أنّ القدس مهد الأديان الثلاثة الكبرى وحصنها جميعاً. فإن لم يكن للأمكنة والأشخاص تاريخ مع حالة السعادة والهناء فإنّ تاريخ القدس من أغنى التواريخ إن لم يكن أغناها. فلجميع الأمم فيها مصالح وقد توالت عليها أدوار النصر والاندحار، الرفعة والمذلّة، العمران والخراب، المجد والعفاء. وكل ذلك لم يغضّ من الاهتمام بها بل كان باعثاً على إذكاء العناية والحماسة.

وقد صدق المستشرق مونك[٤] حيث قال: «أورشليم التي مرحت في جميع النعم الربّانية، كابدت أقصى العقوبات وقد ظفرت بفضل محنها ونكباتها بما يوجّهه إليها العالم من مزيد التكريم والاهتمام. لقد قُضي على شيء كثير منها بالدمار خلال صراع الشعوب المتوالي بين أسوارها فأسفر ذلك عن أنّها أصبحت موضوعاً لمحبّة أكبر وإجلال أعظم، حتى

أنّه ما تصدّع الآن في القدس جدار أو انهار حجر إلّا اشرأبّت القلوب والأنظار فبذل الناس النفس والنفيس في سبيل تعديل هذا الحجر وترميم ذلك الجدار...».

فهل تكون الأمم الإسلامية دون هذا الوصف وهي التي كان طابعها الأكبر دواماً مزيجاً من الهمّة والأريحية؟

* * *

ليس هذا مجال وصف المسجد الأقصى وصفاً تاريخياً وفنّياً. ولكنّي أذكره الساعة كما رأيته منذ أربعة أو خمسة أعوام في صباح من أصباح الصيف المتلظّية. أذكره ذا صدوع وشقوق في جدرانه ولكنّه رغم ذلك شامخ لامع رائع يذهب بقبّته المتعالية في الهواء، وكأنّه مجموع عبادات وتوسّلات تنطلق حارّة من على وجه البسيطة أملاً أن تبلغ موطئ عرش اللّه.

كان يفيض علينا آنئذ ذلك الشعور القويّ بأنّ الحاضر جزء من الماضي وأنّ ذلك الأمس الذي عبر ما زال اليوم حيّاً وسيظلّ حيّاً في الغد القريب والبعيد.

وكان خيالنا يجوز التاريخ حقبة حقبة فنرى المدينة التي توالت عليها الحروب والشدائد ما فتئت هي هي المهد الجليل الذي تقدّسه اليهودية والمسيحية والإسلام. فيؤثّر فينا مشهد الآثار المتمازجة في أصولها التاريخية كما أنّ الأديان فيما بينها متمازجة بمصادرها وغاياتها: فهي جميعاً تأتي من اللّه وهي جميعاً تنزع إليه دون سواه.

وإذ ولجنا المسجد تظلّلنا قبّته الفخمة فسرنا بين تلك العقود المرتكزة على الأعمدة المرمرية الهيفاء، أبصرنا عن كثب ما فيه من شقوق وصدوع وآلمنا مشهد الأخشاب التي تسند القوائم والجدران هنا وهناك.

كان مرأى تلك الأخشاب وجيعاً، ووجيعاً كان منظر ذلك التداعي. على أنّ عزّة تلك القبّة وجلالها كانا يحدّثان بعزّة الأمم الإسلامية وعظمتها فينفثان في روعنا أهمّية النخوة والأريحية، وأنّ القدر إنْ هو عبث ودمّر فإنّ القلوب الكريمة تثبت في عنادها النبيل أنّها أقوى منه وأقدر.

ما كلمتي هذه إلّا صدى – أحد الأصداء التي أرجو أن تكون عديدة – لنداء اللجنة الذي جاء كصوت خاتم لأصوات رمضان. فلست أتوجّه بهذه الكلمة إلى «الكبار» الذين لهم من خطورة الموضوع ومن رجال اللجنة النابهين ومن غيرة نفوسهم أكبر البواعث. إنّي لواثقة من أنّ هذا النداء لا يذهب سدى.

ولكنّي أوجّه كلمتي إلى «الصغار»، إلى الجيل العاكف على كتب الدراسة فيشغله تحصيل العلم عن كل شاغل.

* * *

أيّها الطلبة والطالبات الذين تقرأون هذا، أعالمون أنتم أنّ تلك الصدوع تطلب منكم المعونة؟

ليس من وظيفة نظّار المدارس ومعلّميها أن يذيعوا تلك الدعوة بين صفوفكم لأنّ واجبهم معيّن ذو قيود وحدود. أمّا أنتم أيّها الشبّان والشابّات فأحرار، ونِعْمَ الحرّية التي تمكّنكم من القيام بعمل مبرور!

لئن طولب القادرون بالعشرات والمئات والألوف فالمطلوب منكم الغروش والمليمات. إنّ كبر النفس ونبل الكرم لا يقوّمان بمبلغ المال الذي يؤدّى بل يقوّمان بالرغبة في العطاء المتوافق وإمكان المعطي. فربّ «حتّة بخمسة» و «عشرين خردة» يفوقان الملايين نبلاً إذا ما اقتطعها امرؤ من حاجته وضحّى بها مسرّة من مسرّاته.

أيّ واحد أو واحدة منكم، أيّها الإخوان والأخوات، لا يرغب في تشكيل لجان لجمع الاكتتابات في وسطه؟ أيّ واحد أو واحدة منكم لا يرغب في المساعدة على ترميم أثر عظيم ولو بقرش واحد؟ أيّ واحد أو واحدة منكم يحوّل وجهه عن المعنى الجميل وأنتم زهرات الحياة المفعمة جمالاً ورجاءً؟

كم سرّني قول السيّد الحسيني أنّ المسيحيين كذلك اكتتبوا لذلك الترميم! فحبّذا أن يشترك في اكتتاباتكم الطلبة الاسرائيليون والمسيحيون والمسلمون جميعاً! إنّنا سائرون إلى تآخي الأديان وتعاونها على تحقيق عمل الخير والقيام بالمصلحة المشتركة.

وأنتم تهيّئون الغد وعليكم يشاد الأمل في نشر هذا الروح الميمون فانتهزوا هذه الفرصة لتظهروا أنّكم النواة الحافلة بحبّ التعاون والاتّحاد!

لستم جميعاً تقرأون هذه الدعوة ولكنّها واصلة حتماً إلى أفراد منكم يذيعونها بينكم. فلا تتركوها هباءً! إنّها تلحّ عليكم أن تفتحوا لها قلوبكم الخصيبة! إنّ نداء اللجنة سيجني أطيب الثمرات بين «الكبار». فأثبتوا أنتم «الصغار» أنّكم بالهمّة كبار وأنّكم حقّاً النواة الغنيّة الجامعة بين ذكاء العقل وتوقّد الجنان وإدراك الغاية النبيلة وتقدير الواجب الراهن!

أريد من كل منكم غرشاً - غرشاً واحداً - فاتفقوا فيما بينكم على جمعه! وأرسلوا ما تجمعون إلى رئيس اللجنة أو إلى أمين صندوقها فخورين مشكورين!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٢٠، ١٦ آذار/مارس ١٩٢٩، ص ١ .

(١) الأمير عمر طوسون (١٨٧٢ - ١٩٤٤)، من أحفاد محمد علي، بحّاثة مؤرخ. ألّف كتباً عديدة بالعربية والفرنسية بعضها بمساعدة من كبار الكتّاب. ساند الحركة الوطنية المصرية بقوّة. كان عضواً في المجمعين العلميين بدمشق والقاهرة، وعضواً في الجمعية الجغرافية الخديوية بمصر.

(٢) لا يستقيم معنى الجملة والأرجح أنّ منضّد الحروف وضع كلمة «حقيقة» في غير موضعها. وصواب الجملة أن تكون «وللمهتمّين بأمر آثار الجمال والجلال في العالم أن يعلموا أنّ النخوة في مصر حقيقة في النفوس قبل أن تكون نعتاً في الألفاظ».

(٣) هكذا في الأصل، ولم يمكنّي التحقّق مما تقصد الكاتبة بهذه الإشارة ولا يستبعد أن يكون هناك خطأ مطبعي.

(٤) Salomon Munk (١٨٠٥ - ١٨٦٧)، مستشرق ألماني، متخصّص بالأدب العربي اليهودي وفلاسفة الدين اليهود خلال القرون الوسطى. خلف إرنست رينان (Ernest Renan) عام ١٨٦٥ في كرسي الأستاذية للغة العبرية بكلّية فرنسا (Collège de France) .

المارشال فوش... والموت

ليست هاتان الكلمتان بالمتنافرتين، بل منذ أن انتشر اسم المارشال فوش(١) يوم توحّدت في يده قيادة جيوش الحلفاء في الردح الأخير من الحرب كان هذا الاسم قرين الموت، ومرادف الموت، وكان شخص المارشال محوطاً بمعاني الموت من كل صوب.

كان القائد يعيش كل يوم وكل لحظة بفكرة الموت، ويدافع عن بلاده بالموت، ويقيس انتصاراته بالموت، وبالموت تمّ له الظفر، لأنّ الأحياء من جنود الحلفاء لم يتمكّنوا من الثبات إلى النهاية ليرغدوا في نشوة الانتصار إلّا بفضل الأشلاء الوجيعة التي كانوا يسيرون عليها... أشلاء الصغار والمتواضعين والمجهولين. ولئن كان لأولئك الصغار أهل وأحباب بكوهم وما زالوا يبكونهم فإنّ الأسماء المتناقلة على أجنحة الذيوع، الأسماء التي دخلت التاريخ لتشعّ على صفحاته دون أن يخبو نورها أو ينطفئ، إنّما هي أسماء القوّاد والعظماء. وأمّا أولئك الجنود الصغار فلهم رمز واحد خالد: هو ضريح الجندي المجهول الذي نال منتهى التكريم في كل بلد من بلاد الدول المتحاربة.

لذلك كانت الجملة التي استهلّ بها الخطيب كلمته الوجيزة غاية في البلاغة وإحكام العاطفة كما جاءت أوفق ما تكون بعيد الحفلة الدينية التي أُقيمت في الساعة العاشرة من صباح أمس في كنيسة الآباء الأفريكان بشُبرا(٢).

كان ذلك الاحتفال جامعاً لأفخم المظاهر الدنيوية. فهذا مندوب جلالة الملك يتقدّم الجميع وها هم وزراء مصر ووزراء الدول وكبار القوّاد ورؤساء الهيئات الرسمية وطائفة من أهل الوجاهة والحيثية. كلهم بملابسهم الرسمية المزركشة بالذهب، المزيّنة بالأوشحة، وعديد الأوسمة تتألّق في أعناقهم وعلى صدورهم. ولرمز النعش القائم في

وسط الكنيسة إطار من أكاليل الزهور الحيّة الناضرة المهداة من مختلف الدول، وأعلام تلك الدول جميعاً هنا منكّسة وعليها شارة الحداد.

وما هذا الاحتفال المقام في مصر إلّا مثال من احتفالات شتّى من نوعه تقام في جميع أنحاء فرنسا وفي كل بلد في العالم حوى جالية فرنسية وكان فيه ممثّل كبير أو صغير لدولة فرنسا. وهذه الاحتفالات ليست على فخامتها إلّا صوراً مصغّرة للاحتفال الأكبر الذي تشهده عاصمة فرنسا احتفاءً بدفن قائدها العظيم.

هذه هي مظاهر المجد «الرسمية» التي يختصّ بها القائد العامّ ولكن بها ينتهي الفرق بين هذا الذي قاد ستّة ملايين من الرجال وبين أيّ جندي صغير لم يقد سوى نفسه، على أنّ وجوه التشابه والمساواة بين الرجلين عديدة.

* * *

استهلّ الأب بلوار[٣] كلمته بهذه الجملة:

«لو كان لي أن أختار مكاناً لتأبين المارشال فوش لكنت اخترت قوس النصر في باريس الذي يضطجع تحته «الجندي المجهول»، هناك حيث القائد الأكبر الذي يملأ اسمه العالم والجندي الأصغر الذي لا نعرف له اسماً - يتساويان أمام الوطن وأمام البطولة وأمام المجد!»

والأب بلوار من رهبنة الدومنيكان التي اشتهرت بين سائر الرهبنيات الكاثوليكية بتفوّقها الخطابي لأنّ الخطابة فنّها الأكبر وهي تطلق على نفسها اسم «رهبانية الواعظين». وقد أنجبت نفراً من أعظم خطباء فرنسا.

كذلك أنجبت الأب بلوار الذي جاء مصر منذ أسابيع فألقى في المحافل خطباً ومحاضرات كان لها وقع كبير في الدوائر الاجتماعية. واتفق أن يكون من نصيب الأب بلوار وهو على أهبة السفر أن يؤبّن المارشال فوش فيواصل بيننا تاريخ أسلافه المشهورين ويسمعنا هذه اللغة الفرنسية الجميلة المصقولة، ذات الصيغ المنخوبة الرنّانة، التي تفتّحت نفوسنا في الطفولة على وقع نبراتها وتحرّكت عواطفنا الأولى على وفق معانيها.

كنّا نودّ أن ينسى الأب بلوار المكان الذي هو فيه لينوّع نبرات صوته ويطلق الحرّية لإشارته فتتوافق هذه وتلك مع تأبينه الوجيز البليغ حيث ذكر كلمة قالها المارشال فوش في موقعة المارن الأولى: «يهاجمونني من اليمين ويهاجمونني من الشمال، أمّا أنا فسأعمل في القلب وأسير إلى الأمام».

وحيث ذكر أنّ معركة المارن الثانية جاءت بتلك النتيجة الحاسمة التي لم يشهد التاريخ مثلها من قبل: لأنّ رجلاً واحداً كان يمثّل فكرة أولية عامّة، وكان ستّة ملايين من الرجال يمتثلون لتلك الفكرة، وبحركة واحدة هي حركة التضحية والمفاداة والموت، يرضون أن يكونوا الأدوات الطائعة التي تحقّق تلك الفكرة المنبثقة من رجل فرد.

وحيث ردّد الأب بلوار كلمة قالها مسيو بوانكاره[٤] عن المرشال فوش من أنّ «هذا الجندي الكبير كان كذلك وطنياً كبيراً وخادماً كبيراً» ليتبعها بما معناه أنّ الذراري لن تنسى هذه الخدمة وأنّ الفقيد كان عظيماً في عمله وفي تقواه جميعاً حتى أنّه لم يكفّ عن القيام بواجباته الدينية في آخر أيام الحرب وأخطرها. فلئن كان حقيقاً بالإعجاب في تصدّره لمعالجة الشؤون العسكرية بقوّة عبقريته الحربيّة فلقد كان كذلك حقيقًا بالإعجاب بسجوده للضراعة والعبادة، رغم أنه قدّر له النصر في أعظم حرب سجّلها التاريخ.

أمّا أبلغ كلمة سمعناها من الأب بلوار بعد كلمة الاستهلال فهي كلمة الختام إذ شكر الحضور على مجيئهم وشكر المصلّين على صلواتهم «التي لا شكّ أنّ المارشال فوش يقدّرها لو هو علم بها الآن وقد قضى فعرف البون الشاسع بين المجد الذي يمرّ والفضيلة التي تبقى، الآن وقد أقبلت روحه على رحمة باريها بينا رفاته تستريح وسط ملايين الجنود الراقدة للأبد في مدافن فرنسا الهادئة الصامتة».

أجل، إنّ أبلغ كلمة أمام الموت هي كلمة المساواة وقد حبك معنى المساواة مطلع تأبين الخطيب ونهايته فجاء أنفس ما يكون. فالقائد يتساوى بالجندي حيال الردى وفيما وراء القبر كما هما متساويان في هذه الأخشاب الرامزة الى النعش وفي هذه الألحان اللاتينية المتهادية مع توقيع الأرغن، وفي صلوات الرحمة والاستعطاف التي تُتلى للعظيم والحقير على السواء. ولو وقفت غداً حيال ضريح الماريشال فوش كما

وقفت بالأمس عند ضريح الجندي المجهول وجرّدت كليهما من مظاهر الأبّهة والجلال لشعرت بمفاداة البطولة وبألم بني الإنسان، وبحقيقة المساواة التي هي مبدأ ومنتهى وإن خلت الحياة منها على وجه الإطلاق.

* * *

عزيز أن يكون للمرء وطن يذكر عند منازله قبور الموتى ويذكر عند أحزانه آمال الأحياء!

وقد دارت في خاطري أفكار شتّى إبّان هذا الاحتفال. فهذه الأعلام المنكّسة هي أعلام الدول التي كانت في الحرب متصادقة متحالفة غير أنّها لم تكن دائماً كذلك، لأنّ التصادق والتجافي في لغة السياسة نعوت موقوتة. وألمانيا التي كانت للحلفاء العدوّ المشترك مدّة الحرب هي اليوم أقرب إلى التفاهم مع الجميع ما دامت «المصلحة» تقضي بذلك. ومن غرائب الاتفاق أنّ أول علم رأيته منكّساً بالأمس كان العلم الألماني المرفوع قبالة نافذتي. فتساءلت ما الأمر، وبمطالعة الصحف وقفت عليه.

وهذا التقارب بعد ذياك التناحر الدموي حملني على التفكير فيما هو أقرب إلينا من حروب الدول. وأخذت أتبيّن وجوه الحاضرين من المصريين، وأولهم وجه محمد محمود باشا(٥).

أهذا هو «الديكتاتور»؟ إنّي أتفرّس في ملامحه فلا أرى إلّا وجهاً فتيّاً يفيض بشاشة وخيال الابتسام ليس عن إنسان عينيه ببعيد. فأبحث وراءه عن وجه مصطفى النحّاس باشا(٦) وأنا واثقة من أنّ ذلك الوجه يبدو صالحاً في بساطة وصفاء فلا أجده. أهو هنا ولكنّي لا أهتدي إليه؟ وأودّ أن أرى كذلك وجه يحيى إبراهيم باشا(٧) ووجه حافظ رمضان بك(٨). أودّ أن أرى هذه الوجوه جميعاً متقاربة ولو في محفل رسمي غريب على أمل أن تتقارب في محفل وطني قريب. فيقع نظري على وجه «الجنتلمن» عدلي يكن باشا(٩) الذي ما زلنا ننتظر منه... أشياء.

لقد قضى المارشال فوش مشبعاً رضى ومجداً وعزّاً كما شبع أياماً وعملاً وجهوداً، وهل كثير أن يفكّر الراغبون في التفاهم والاتحاد والائتلاف حول ذكراه وإن كانوا من بلد غير فرنسا؟

أحلام فتيات... تقولون وتبسمون!

احترامي إليكم، أيّها السادة! ثمّ اسمحوا لي أن أقول في هذا الباب إنّ أحلام الفتيات خير من خصومة الرجال!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٢٨، ٢٤ آذار/مارس ١٩٢٩، ص ١ .

(١) قاد المارشال الفرنسي Ferdinand Foch (١٨٥١ - ١٩٢٩) الجيش التاسع أثناء معركة المارن (Marne) في بداية الحرب العالمية الأولى واستطاع إيقاف الهجوم الألماني. ذاع صيته فيما بعد، لا سيّما لوضعه المخطّط الاستراتيجي لمعركة سوم (Somme) وقيادتها، فخلف عام ١٩١٧ المارشال فيليب بيتان (Philippe Pétain) ، رئيس أركان الجيش الفرنسي وعضو مجلس الحرب الأعلى، ثمّ أصبح في نيسان/أبريل ١٩١٨ القائد العامّ لقوّات التحالف، بما فيها الفيلق الأمريكي. كان مسؤولاً عن الهجوم الحاسم أواخر صيف ١٩١٨ الذي أدّى إلى انهيار قوّات دول المحور في الجبهة الغربية، وفرض على الألمان طلب وقف إطلاق النار.

(٢) شُبرا، ضاحية كبرى من ضواحي القاهرة.

(٣) المعني هو R.P. Mario-Augustin Bellouard (١٨٨٦ - ١٩٥٣)، وأنتهز هذه الفرصة للتعبير عن شكري وامتناني للأب جوزيف دريهر (Pater Dr. Josef Dreher OP) من رهبانية الدومينكان في القاهرة الذي أدين له بهذه المعلومة.

(٤) Raymond Poincaré (١٨٦٠ - ١٩٣٤)، سياسي وقانوني فرنسي. كان ما بين ١٩١٣ - ١٩٢٠ رئيس الجمهورية وأصبح رمزاً للوحدة الوطنية وإرادة الصمود العسكري أثناء الحرب العالمية الأولى متنافساً في ذلك مع رئيس الوزراء ووزير الحرب جورج كليمانصو (Georges Clemenceau) .

(٥) محمد محمود باشا (١٨٧٧ - ١٩٤١)، رئيس الوزارة المصرية منذ ١٩٢٨ . حلّ البرلمان وعلّق الدستور وجسّد سياسة القبضة الحديدية. قدّم استقالته عقب عام من تولّيه السلطة بعد اشتراط حزب الوفد إعادة الحياة البرلمانية مقابل احترام بنود «اتفاقية محمود - هِنْدِرْسُن» التي توصّل إليها في لندن. شارك بشكل فعّال في إبرام المعاهدة الأنجلو المصرية لعام ١٩٣٦، بصفته عضواً في «الجبهة الوطنية». تولّى رئاسة الوزارة مجدّداً عام ١٩٣٧، إلّا أنّه طلب إعفاءه من منصبه بعد عشرين شهراً لأسباب صحّية.

(٦) مصطفى النحّاس باشا (١٨٧٦ - ١٩٦٥)، سياسي ومحام مصري. أُنتخب رئيساً لحزب الوفد بعد وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧، وترأس الحكومة خمس مرّات ما بين ١٩٢٨ - ١٩٥٠ . أُكره على اعتزال السياسة عقب ثورة ١٩٥٢ .

(٧) يحيى إبراهيم باشا (١٨٦١ - ١٩٣٦)، سياسي وقانوني مصري. عمل رئيساً لمحكمة الاستئناف الأهلية، ثمّ وزيراً للمعارف. رأس الوزارة ما بين ١٩٢٣ - ١٩٢٤ وتسلّم في ١٩٢٦ حقيبة المالية. كان بعد ١٩٢١ من بين أعضاء اللجنة الوطنية. في عهده أعلن الدستور، وصدر قانون الانتخابات، وتمّت الموافقة على عودة سعد زغلول وصحبه من المنفى. أسّس حزب الاتحاد، واستمرّ في عضوية مجلس الشيوخ حتى وفاته.

(٨) محمد حافظ رمضان باشا (؟ - ١٩٥٥)، سياسي ومحام مصري. أصدر عام ١٩٢١ صحيفة «اللواء المصري» اليومية، ورأس تحريرها. خلف محمد فريد عام ١٩٢٣ في رئاسة الحزب الوطني، وانتخب عام ١٩٢٦ نقيباً للمحامين. في العام نفسه تزعّم المعارضة في مجلس النوّاب، ثمّ أصبح عضواً في مجلس الشيوخ. عُيّن وزيراً للعدل فوزيراً للشؤون الاجتماعية. انسحب من المسرح السياسي عقب ثورة ١٩٥٢ .

(٩) عدلي يكن باشا (١٨٦٤ - ١٩٣٣)، سياسي مصري، كان وزيراً للخارجية ثمّ للمعارف، ورئيساً للوزراء ثلاث مرّات (١٩٢١، ١٩٢٦ و ١٩٢٩). شارك في تأسيس حزب الأحرار الدستوريين. اتُّهم بالتشدّد السياسي بسبب نزاعه مع سعد زغلول.

شبّاننا والحياة الجديدة[1]

حضرة الرئيس، حضرات الطلبة والطالبات، أيّها السادة والسيّدات،

عندما جاء مندوبو هذه الجمعية يطلبون محاضرة أنشأت أبحث في سرّي عن كلمة الاعتذار، لأنّ الاحتفالات والاجتماعات عديدة عندنا، والحمد للّه، لكنّ المشاغل اليومية لا ترحم، والواجبات المحتومة ترغمني على الاعتذار آسفة في كثير من الأحوال لعجزي عن أن أضاعف نفسي عشرات المرّات فيتسنّى لي أن أقدّم كل مساعدة مطلوبة.

على أنّ مندوبي الجمعية لم يقفوا عند الطلب بل أخذوا يتكلّمون عن نزعات الشبّان وحاجاتهم، عن مرامي هذه الجمعية وأغراضها، عن وسائلها التي هي الاجتماعات العلمية والأدبية، والرحلات الأثرية والفنّية، والمحاضرات والمناظرات وما نحوها. أخذوا يتكلّمون عن رغبتهم في إشراك المرأة المصرية في هذه الحياة الفكرية وعن أنّهم جعلوا عضوية هذه الجمعية ميسورة لها لا سيّما بعد أن فتحت الجامعة المصرية أبوابها للفتيات فأصبح الجنسان متساويين في تحصيل العلوم العالية في هذه الديار.

وبينا أولئك الشبّان يتكلّمون في تأدّب وتواضع وحرارة ذكرت أنّ للجامعة المصرية فضلاً عليّ إذ كنت من تلاميذها وهي صغيرة قبل أن تظهر في صيغتها الحاضرة. فقد تلقّيت فيها دروساً في الآداب العربية والفرنسية والإنجليزية، وفي التاريخ عامّة، وتاريخ الدول الإسلامية، والفلسفة العربية، والفلسفة العامّة، وعلم الأخلاق، وعلاقة الأمراض العصبية بالجرائم، وغير ذلك. فسمعت هناك نفراً من العلماء والأدباء الشرقيين والغربيين بعضهم ذهبوا إلى رحمة ربّهم، وغيرهم أصبحوا ذوي أثر فعّال في معالجة شؤون الدولة، وآخرون ما زالوا إلى اليوم أساتذتكم الساهرين على تهذيبكم وتعليمكم والذين نطلب لهم العمر الطويل!

وبينا أولئك الشبّان يتكلّمون رأيتني واقفة بينكم ورأيتكم حولي تستمعون كما أنتم الآن تستمعون. قد فكّرت أنّ أولئك الشبّان يمثّلونكم جميعاً أنتم الحاضرين هنا

وسائر الغائبين المنتشرين في أنحاء القطر. فكيف أردّ طلب الشبيبة المصرية؟ كيف أردّ طلب الشبيبة المصرية وهي عزيزة عليّ لأنّها جيل اليوم الذي سيصبح بعد أعوام قلائل الجيل العامل في إسعاد البلاد؟ كيف أردّ طلب الشبيبة ساعة هي لا تطلب اللهو واللعب والطرب، بل تطلب في جدّ ونبل أن تتولّى الفتاة قيادتها ساعة فتسير أمام صفوفها رافعة راية الحياة، مرسلة كلمة الحياة؟

وعندما صمت مندوبوكم تكلّمت. فبدلاً من كلمة الاعتذار التي كنت أبحث عنها قلت كلمة القبول التي لم أكن أفكّر فيها. وشكرت هذه الجمعية الجديدة التي شاءت أن يفتتح قسم محاضراتها الأدبية صوت نسوي والتي أولتني الشرف والسرور معاً في أن أكون ذلك الصوت الذي تسمعون.

إنّ اختياركم هذا يدلّ على أنّ المرأة قد شقّت لنفسها السبيل في مصر. لقد شقّت المرأة السبيل فلن تتقهقر بعد إلى الوراء. لقد ارتفع صوتها ولن يسكت بعد اليوم. الصوت الضعيف المستعبد ارتفع حرّاً قويّاً فاستسغتم نبراته وعلمتم أنّ الأمّة لا تستطيع النهوض والسير على قدم واحدة، وأنّ الشوط إلى الأمام لا يتمّ لهذه الأمّة إلّا إذا سارت المرأة والرجل جنباً إلى جنب. فسلاماً أيّتها الشبيبة الناهضة الآخذة بيد المرأة! وتحيّة للحياة الجديدة النابضة في روحك الفتيّة!

وهل من حديث لهذا المساء خير من حديث الحياة الجديدة التي تحيط بنا من كل صوب؟ وكأنّ الجمعية عيّنت لي الموضوع بالاسم الذي اختارته لنفسها وبقائمة أغراضها التي عرضتها عليّ. وأرى هذا الاسم وهذه الأغراض معربة عن حاجات تشعرون جميعاً بوجوب تحقيقها فأستأذنكم في إبداء رأيي فيها. وما رأيي إلّا رأي المرأة الذي تريدون أن تسمعوه، وما رأيي إلّا رأيكم لأنّي مثلكم ابنة هذا الجيل الذي تتنازعنا فيه عوامل الحيرة والاضطراب. مثلكم أشعر بأنّنا حيال حياة جديدة يجب أن نلخّص فيها خير ما ترك الماضي وأن نأخذ بخير ما يقدّم الحاضر. مثلكم أشعر شعوراً شديداً بهذه الجملة التي قالها مندوبوكم: «نريد أن نتقدّم ونرقى ولكنّ الإرادة وحدها لا تكفي فنودّ الاهتداء إلى من يستطيع أن يكون الدليل الخبير الحكيم لنركن إليه ونهتدي بنوره!».

أمّا أغراض هذه الجمعية فتتلخّص في ما يلي:

أولاً - تشجيع الدروس العلمية ونشرها وترقيتها بوجه عامّ، وبخاصّة علم طبائع الحيوان وعلم الطفيليات (النباتية).

ثانياً - تمكين الطلبة المصريين من إتقان اللغة الإنجليزية نظراً لحاجتهم إليها في دروسهم وثقافتهم.

ثالثاً - ترقية معرفة اللغة العربية بين الطلبة وبذل الجهود لإدخال الاصطلاحات الفنّية والأسماء العلمية في اللغة العربية وإنالتها صيغاً عربية لتحلّ محلّ الاصطلاحات والأسماء الغربية.

رابعاً - خلق جوّ من التفاهم والتعاطف والتعاون على الاحتفاظ به بين جميع الطلبة المصريين من الناحية الواحدة، وبين الطلبة وأساتذتهم من الناحية الأخرى.

خامساً - تحسين سلوك الطلبة الاجتماعي وترقية الآداب العامّة في معاملاتهم.

سادساً - ليس من شأن هذه الجمعية أن تعنى بالموضوعات السياسية والمناقشات الدينية في أيّ حال من الأحوال. انتهى

فلنبحث معاً هذه الأغراض التي نجد فيها حلّاً لطائفة من مشاكل الحياة الجديدة. ولكن لما كنت فتاة فلا بدّ لي - على قولكم أنتم الرجال - من شيء من الشذوذ. وعليه بدلاً من أن أبدأ بالأول من هذه الأغراض سأبدأ بالأخير القائل: «ليس من شأن هذه الجمعية أن تعنى بالموضوعات السياسية والمناقشات الدينية في أيّ حال من الأحوال».

قلت منذ هنيهة إنّ عوامل الحيرة والاضطراب تتنازع جيلنا هذا. بيد أنّ هذا الغرض من أغراض الجمعية حاسم ففيه إذن الراحة والطمأنينة كما أنّ فيه كل الحكمة وكل الواجب، لأنّ الدين، أيّها السادة والسيّدات، لا أختاره أنا ولا تختارونه أنتم. إنّنا نولد في دين من الأديان كما يولد الواحد منّا أشقر أو أسمر، طويل القامة أو قصيرها. فما قولكم في مقاتلة أشقر اللون لجاره لأنّه حنطي البشرة قاتم العينين؟ خصومة كهذه تضحكنا وتفكّهنا، وليست الخصومات الدينية دون هذه في التفكهة وإثارة الضحك عند العقلاء.

وبعد فقد جرّ الانقسام الديني على الديار الشرقية ما لا عداد له من الأوجاع والآلام. جرّ التنافر والتشيّع والعداء والضعف والانحلال والتقهقر، وكلها نتيجة محتومة للانقسام بين أبناء البلاد الواحدة. أمّا اليوم وقد فتحنا أعيننا للنور فإنّنا نريد أن نكون وحدة قومية لا شيعاً طائفية. نريد أن نذكر كلمة الكتاب الحكيم: «ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّة واحدة» فلا نكون من الغرور بحيث نتعدّى على مشيئة اللّه، بل نسلّم بأنّ في تعدّد الأديان حكمة ربّانية ليس لعقولنا أن تدركها. والدين علاقة شخصية بين المخلوق وخالقه فإنْ كان لأحد أن يناقش ويقاضي ويحكم فليس ذلك من حقوق بني الإنسان بل هو حقّ الباري. أمّا نحن فحسبنا هذه الكلمة الجميلة التي كان يستهلّ بها القائد الدرزي منشوراته إبّان حرب الدروز الأخيرة! اسمعوا هذه الكلمة ولا تنسوها طول الحياة: «الدين للّه والوطن للجميع!».

أمّا المناقشات السياسية فهي ما يصحّ أن ننعته بالخصب العقيم. تعلمون أنّ لكل عمر مشاغله وأنّ لكل طور في الحياة واجباته. وأنتم الآن في دور التكوّن فإنْ لم تتفرّغوا لهذا الأمر الذي هو جدّ عسير فلستم من المفلحين. وإنْ لم تفلحوا في دور التكوّن والتحصيل فلستم بمفلحين في دور النضج والعمل. وانصرافكم إلى دروسكم لا يغضّ من وطنيتكم، بل على نقيض ذلك يثبت تلك الوطنية ويركّزها على أثبت الدعائم. أليست الوطنية قائمة في توطيد النفس على أن لا يكون المرء عبئاً على قومه وحجر عثرة في طريق جماعته؟ أليست الوطنية قائمة في اجتهاد الأفراد أن يكونوا أجزاءً صحيحة نافعة قادرة في كتلة الوطن العظيمة؟ أليست الوطنية قائمة في الاستفادة من كل ما لدينا لتكوين الشخصية فتصبح هذه الشخصية متمّمة ما يناط بها من الأعمال في دقّة وحصافة وإتقان؟ هذا هو الطور الذي تجتازونه اليوم فأهنّئكم على رغبتكم في التفرّغ له وعلى اختيار هذا الغرض الحكيم.

الغرض الثاني - تحسين السلوك الاجتماعي وترقية الآداب العامّة في معاملات الطلبة.

هذا الغرض في طليعة الأغراض من حيث أهمّيته وصعوبته وتنوّعه. فللمرء علاقات شتّى عائلية واجتماعية ونفعية وقلبية وفكرية وكل منها يختلف عن الأخرى

وإن وجب أن تكون جميعاً مطبوعة بطابع الإخلاص والبساطة واللياقة. وليس لنا أن نتمثّل بسلوك الذين سبقونا لأنّ معاملاتنا تطوّرت بتطوّر حياتنا. فبعد أن كان موقف الابن حيال الوالد موقف خوف ورهبة أصبح الآن وكأنّه الصديق الصغير قرب الصديق الكبير وصارت المعاملة بينهما أقرب إلى المساواة في تبادل المحبّة والاحترام.

كذلك ارتفع مستوى الإدراك بين الشبّان فتمهّدت لهم موضوعات جديدة لم تكن بالأمس منشورة بين الأصدقاء والمعارف والغرباء. وتغيّرت مناهج العمل والتصرّف في دوائر النشاط، وحتمت على الشابّ المهذّب واجبات جديدة نحو الصغار والفلّاحين والأمّيين. فبدلاً من أن يهبط إلى حضيض الجهل والغفلة في قريته عليه اليوم أن ينهض بعقلية جماعته في سلوكه ومثله وأقواله وأعماله.

وهناك فنّ خاصّ في اختيار الموضوعات للمجالس الاجتماعية وفي طريقة معالجتها. هناك فنّ خاصّ في تهذيب الصوت والنظر والإشارة والمشي والحركة والسكوت والجلوس إلى المائدة وتناول الطعام. هناك فنّ خاصّ في اختيار الهندام وانتقاء الألوان المتناسبة وهيئة الشخص واستعداده. فإذا رأينا شابّاً مثلاً في هندام من القماش الأخضر المربّع، وحذاؤه رمادي اللون، والمنديل المشرئبّ من جيبه وردي اللون، تحت رباطة عنقه البنفسجية، وفوق هؤلاء جميعاً يزدهي طربوشه الشديد الحمرة، فسرعان ما نحكم على ذوقه ودرجة ثقافته ولا نحسب عقليته إلّا من طراز هندامه. وعلى النقيض إذا رأيناه بسيط الهندام حسن الذوق في التوفيق بين الألوان فإنّنا نتخيّل الإناقة والانتظام في نفسه كذلك وفي أعماله بوجه عامّ.

وهناك فنّ في إظهار الاستحسان والاستهجان. فبينا الإنسان المهذّب يحاول دائماً في المجتمعات الصغيرة أن يتغلّب على عواطفه فيخفي حزنه وفرحه ما استطاع نجده في الأندية والمجتمعات العامّة معرباً عن تأثّره بدلائل علنية مقرّرة. ولقد كان التطييب وكلمة «اللّه» علامة الاستحسان عند الشرقيين، فأضفنا إليهما التصفيق وذلك حسن. ولكن من أغرب ما رأيت أنّ بعض شبّاننا يضيفون الصفير إلى التصفيق لإبداء إعجابهم الشديد. والصفير عند الغربيين علامة الاستهجان. فاحكموا!

وهناك فنّ في معاملة المرأة. وربّما اضطرّ شبّاننا عمّا قريب إلى مشاركة والداتهم

وأخواتهم وزوجاتهم في استقبال الزائرات. وقد شهدت هذه الظاهرة الإجتماعية الجديدة في بعض البيوت المصرية فلا أحسبها إلّا متزايدة مع الأيام، وفي وسع الشابّ أن يتمرّن عليها منذ اليوم بمعاملته للسيّدات في الشوارع. لقد سألني رئيس هذه الجمعية أن أكون رفيقة بالشبّان في محاضرة هذا المساء. فهل أنا أجور عليكم، أيّها الطلبة، إنْ قلت إنّه لا يليق بالشابّ المصري أن يوجّه إلى كل سيّدة وكل فتاة تلك النظرات والكلمات التي لا يودّ هو أن توجّه إلى أخته مثلاً؟ هل أنا جائرة عليكم في قولي إنّه لا يليق بالشابّ المصري أن يسير وراء كل امرأة تسير وأن يتعرّض لها في كل شأن؟ إنّي واثقة أنّكم لا تفعلون ذلك. ومع ذلك، عاهدوني هنا بأنّكم لن تفعلوا طول الحياة! فهذه المرأة الغريبة هي أمّكم وأختكم وزوجتكم وبنتكم. إنّها أقرب الناس إليكم، شرقية كانت أم غربية. فعاهدوني هنا عنكم وعن إخوانكم الغائبين عهداً قاطعاً! عاهدوني على أن تكونوا دائماً سياجاً للمرأة! واذكروا أنّ الرجل الذي شبّ بين المصونات لا يرى في كل امرأة إلّا المصونة الجديرة بكل احترام وكل مساعدة وكل إكرام!

* * *

الغرض الرابع – خلق جوّ للتعاطف والتفاهم والتعاون على الاحتفاظ به بين جميع الطلبة من الناحية الواحدة، وبين الطلبة وأساتذتهم من الناحية الأخرى.

هذا الغرض تكملة للغرض السالف وما معاملة الناس بالحسنى إلّا ظاهرة خارجية للتهذيب الخلقي النفسي. وما أحرى هذه الظاهرة بالمران والانتشار في هذا العهد الشهيّ اللذيذ، عهد التلمذة والدراسة! فالمدرسة مجتمع صغير يهيّئنا لمجتمع العالم الكبير. ومن كان حسن السلوك في مدرسته، حسن التصرّف بين أقرانه فذلك سيكون حتماً حسن السلوك والتصرّف مدى العمر. وكم من صداقة بدأت في الصغر بين طالبين فاستمرّت بينهما رجلين خطيري الشأن في قومهما. ولو اتّسع المجال لكنت ذكرت لكم بعضًا من أعظم الأسماء المصرية ارتبط ذووها بروابط الصداقة منذ عهد الدراسة وما زالوا إلى اليوم أصدقاء تتعارك حولهم عوامل الحياة وهم متصافون مطمئنّون.

أمّا علاقة الطلبة بأساتذتهم فهي أشرف العلاقات وأغناها وأكرمها، لأنّ الأستاذ أب وصديق ومهذّب في آن واحد، يعطينا من علمه مختاراً ويغدق علينا من عطفه وروحه

وعنايته شيئاً كثيراً، ويفتح أمامنا أبواب السموّ والإدراك ويرينا من نفوسنا وجوهاً ونزعات وأشواقاً ومواهب لم تكن من قبل معروفة لدينا فحسبنا ذلك لنقوم بواجبنا في تسهيل مهمّته العسيرة ولنعلم كم نحن مدينون له بالاحترام والمحبّة والإكرام.

وإنّي أنتهز هذه الفرصة لأحيّي أساتذة هذه الجامعة الأعلام، الشرقيين منهم والغربيين على السواء. فهم الذين يودعون أرض مصر بذور المعرفة والتقدّم ولن يكون فضلهم قاصراً على جيل اليوم بل ستتناقله الأجيال التالية إلى الأبد. وكونهم من شعوب مختلفة خير لكم، أيّها الطلبة، لأنّكم عن طريقهم تتعرّفون مختلف الأمم وأساليبها ومشاربها وعاداتها، وتقدّرون جهود الشعوب وتعجبون بتفوّق بنيها، وتتعوّدون التعاطف والتفاهم مع الإنسانية من أرقى نواحيها، وتودّون أن تكونوا كأساتذتكم علماً وفضلاً. وأحيّي على رأس هؤلاء الفضلاء الأستاذ الكبير علي بك عمر الذي خدم المعارف والتهذيب في مصر أعواماً عديدة، وفئة كبيرة من خيرة رجال اليوم إنّما هي من تلاميذه تدين له بشيء كثير مما لديها من العلم والثقافة. وما زال يتابع خدمته الجليلة بينكم. فنتمنّى له حياة طويلة، وكل ما هو جدير به من السعادة والانشراح!

الغرض الثالث - «تمكين الطلبة المصريين من إتقان اللغة الإنجليزية نظراً لحاجتهم إليها في دروسهم وثقافتهم» الذي أستمحيكم[٢] في التكلّم عنه وعن الغرض الثاني في آن واحد وهو «ترقية معرفة اللغة العربية بين الطلبة وبذل الجهود لإدخال الاصطلاحات العلمية والفنّية في اللغة العربية وإنالتها صيغاً عربية لتحلّ محلّ الإصلاحات[٣] الغربية».

يخيّل إليّ أنّكم في هذين الغرضين راجعتم فكركم في موضوع المناظرة التي جرت هنا في العام الماضي بين أديبين كبيرين وموضوعها «هل تكفي اللغة العربية لتكوين الأديب؟» فقرّرتم يومئذ أنّها تكفي ووهبتم الفوز للقائل بكفايتها. ولو جاز لي أن أصارح بفكري لقلت إنّ تخصيص اللغة العربية جعل للموضوع قيوداً. وقد سرّني من المناظرة أنّ الذي تعصّب للغة العربية كان مسيحياً وأنّ الذي قال بالأخذ باللغات الغربية كان مسلماً فأثبتنا بذلك أنّنا أحرار الفكر وأنّنا جميعاً نحافظ على لغتنا المحبوبة. ولكن كان خيراً لحرّية البحث العلمي لو كان الموضوع كما يلي: «هل تكفي اللغة الواحدة لتكوين الأديب؟» على شريطة أن تعرفوا المراد من كلمة «أديب».

فلو فتحنا القاموس وجدنا هذا التعريف «الأدب: الظرف وحسن التناول. وأَدُبَ المرء أدباً: ظرف وحسن تناوله فهو أديب». فإذا كان هذا مرادكم فلا شكّ أنّ اللغة الواحدة تكفي. وتقول صحفنا بارك اللّه فيها: تزوّج الأديب فلان من الأديبة فلانة. ودعا الأديب فلان أصحابه إلى مأدبة فاخرة. وسافر الأديب فلان إلى أوربا. فبطبيعة الحال يستطيع المرء أن يسافر ويعود بالسلامة بلغته. ويستطيع أن يتزوّج بالرفاه والبنين بلغته، ويستطيع أن يعبّر عن فكره بلغته فيكون فكره راقياً وعواطفه شريفة، بل قد يكون كذلك ذا ثقافة وموهبة في لغته.

ولكن إذا أردنا بالأديب حامل القلم ذا النفوذ الأدبي العظيم والعطف الفكري الرحيب الذي يحرّك أغوار النفس العامّة ويسير بقومه إلى الأمام فإنّنا نرى في الغالب أنّ ثقافته اتسعت ومواهبه تهذّبت وإدراكه رحب عن طريق لغة أو لغات أجنبية مع تمكّنه من لغته فبلغته يعرف قومه ونزعاتهم ومطامحهم، وبلغة الآخرين يعرف موقف الشعوب من شعبه، والروابط التي تربطه بها والفروق التي تحول بينه وبينها، لأنّ لكل لغة روحاً ولكل أمّة ابتكارات ولا بدّ من الاطلاع عليها والاستنارة بها. فكيف يتمّ لنا كل ذلك إن لم نعرفه بلغة الشعوب السائرة إلى الأمام، المجدّدة في جميع دوائر النشاط؟ كيف نقف على ما يحدث كل عام بل كل يوم في عالم الاختراع والطبّ والجراحة والعلم إن لم نكن على إلمام بلغة هاتيك الشعوب؟

ربّ قائل إنّ هذه الفروع داخلة في تخصيص العالم لا الأديب بمعنى الكاتب. فأردّ على هذا بأنّ الأديب لا غنى له عن المعلومات العامّة ليكون قوله فعّالاً ويكون سلطانه الأدبي نافذاً. فكيف يتكلّم مثلاً في النظم الاجتماعية وهو يجهل الأسباب العلمية التي تسير التطوّر الاجتماعي؟ كيف يتكلّم عن التاريخ وهو لا يدري شيئاً من تقدّم الآلات والاكتشافات وأسباب المواصلات التي هي دون غيرها تكيّف التاريخ وتعيّن اتجاهه؟ كيف يتكلّم عن الأدب نفسه وعن حركات النفس الإنسانية دون أن يطّلع على ما استجدّ في العلوم السيكولوجية التي تغيّر العقلية الفردية والاجتماعية وتخلق بين الجماعات أحداثاً غير مألوفة؟ كيف يُدخل التجديد على قومه - أعني التجديد الخصيف الحيوي الذي لا غنى عنه - وهو لا يدري كيف تمّ هذا التجديد؟

قد يطّلع الكاتب على قليل أو كثير من ذلك فيما نقله الناقلون عن اللغات الأخرى. وهذا يثبت ضرورة العناية باللغة الأجنبية كأداة نقل واطّلاع ومعرفة واستيحاء. والغاية من كل هذه المرافعة أن أقول: أحسنتم! أحسنتم في تقرير وجوب الاعتناء باللغة العربية وأحسنتم بتقرير وجوب الاعتناء بلغة أجنبية، كما أحسنتم في تقرير الغرض الأول، وهو الأخير في قائمتي، القائل بوجوب «تشجيع درس العلوم وترقيتها عموماً، وبخاصّة علم طبائع الحيوان وعلم الطفيليات النباتية».

وإنّي لأرى في أغراضكم هذه دليلاً على أهمّية جمعيتكم وضماناً بنجاحها لأنها تجمع بين الأغراض العلمية والأخلاقية، بين ثقافة الفكر وتهذيب النفس. فالعلم والتهذيب يجب أن يكونا دائماً متمازجين ليحسنا تكوين الشخصية، وهذه الأغراض تتوافق واسم جمعيتكم «الإخاء والتحصيل»: تحصيل العلوم والمعارف في إخاء وتهذيب وحسن تصرّف ليكون الشبّان مستعدّين للحياة الجديدة.

* * *

أيّها السادة والسيّدات،

حادثتكم هذه الساعة الطويلة عن أمور جادّة قاسية فكأنّي نسيت أنّنا في مطلع الربيع وأنّ الأرض أخرجت أزهارها وأنبتتها وعطورها لتتجلّى في أبهى حلل الجمال والنشوة والحبور! وكأنّي نسيت أنّ الربيع هو رمز الشباب، وفصل الشباب، وبهجة الشباب وعيد الشباب!

كلّا، لم أنسَ! فالربيع يجدّد حياة الأرض والشباب يجدّد حياة الأمّة! الربيع والشباب! اسمان اثنان لشيء واحد ليس هو إلّا الحياة الجديدة ولكن لا يظهر الربيع في هذا البهاء إلّا لأنّه يعمل طويلاً، ويعاني ويجاهد ويجالد في ما لا نراه من أطباق الثرى. كذلك على الشباب أن يجاهد ويجالد ويشوق ويعمل ليتجلّى في جماله وجلاله ويكون بحقّ بهجة الوطن ورجاءه!

كم من ربيع توالى على شواطئ هذا النيل المقدّس منذ أن تكوّنت بقعة الوادي العظيم بين بقاع البسيطة، فقام الربيع بمهمّته في إخراج البذور التي تلقّاها بهجةً وأزهاراً ثمّ بذوراً تهيّئ الربيع المقبل! وكم من جيل توالى على شواطئ النيل قبل أن يسجّل

التاريخ حضارة مصر العظيمة أمّ الحضارات ومهد الثقافات، فقام كل جيل بواجبه وتناقل شرارة الحياة متوهّجة في المجد، خابية في الاستكانة حتى وصلت اليوم هذه الشرارة إليكم. وأنتم ترغدون فيما لم يرغد به آباؤكم من الوسائل والأسباب، وحولكم تعصف الحياة الجديدة في صعابها وممكناتها، في أفراحها وأتراحها، في قيودها وحرّياتها، في نعمها ونقمها، فقدّروا كل هذه العناصر الغنيّة وارتفعوا! ارتفعوا إلى مستوى الواجبات المفروضة عليكم، إلى مستوى الآمال الذي ننتظر منكم تحقيقها!

إنّ الواجب عسير، وتكوين الشخصية خطير، والحيرة والاضطراب يساوران الشباب، أيّها الشبّان! وكل أولئك أشدّ وطأة على الجيل الجديد في مصر خصوصاً والشرق عموماً. ولكنّ كل ذلك يكبّر من شخصياتنا ويوحي إلينا الشكر للذين سبقونا كما يعلّمنا الاتكال على النفس، ويزيدنا اعتداداً بمواهبنا وتعرّفًا لقوانا، واستنهاضاً لهممنا دون مغالاة ولا انتقاص، ويجعلنا نحن الشبّان شيوخاً جامعين بين الحصافة والحرارة، موفّقين بين الحكمة والحماسة.

شبّان الوادي الحافل أبداً في ربيع دائم، أنتم اليوم ربيع أمّتكم فهيّئوا الصيف الفخم الجليل! شبّان الوادي العظيم، وراءكم الماضي المجيد ولكنّه ليس من صنع أيديكم. وأمامكم المستقبل الفسيح فعليكم أن تجعلوه مجيداً!

شبّان مصر الناهضة الخالدة! طلبتم أن أسوق إليكم كلمة الحياة فها هي ذي: إنّما الحياة الجديدة محبّة وثقة وعمل. فأحبّوا وثقوا واعملوا!

ولتحي الشبيبة المصرية فتياناً وفتيات!

ولتحي الجامعة المصرية!

ولتحي مصر!

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٣٥، ٣١ آذار/مارس ١٩٢٩، ص ١ و ٥ .

(١) ألقت ميّ زيادة هذه المحاضرة في افتتاح قسم المحاضرات الأدبية بالجامعة المصرية تلبيةً لدعوة من جمعية «الإخاء والتحصيل».

(٢) كذا في الأصل، والصواب «أستميحكم».

(٣) كذا في الأصل، والصواب «الاصطلاحات».

حضارة الأندلس في دار التمثيل العربي

مباراة الروايات التمثيلية
مهرجان الرافعي في طرابلس

في مسرح الحديقة

الجمع يصغي في تطلّع وخشوع، بعد كلمة الدكتور منصور فهمي الحيّة الرشيدة. وفي ذلك الإطار الشرقي الأنيق، إطار دار التمثيل العربي حيث من وقت غير طويل شهدت صفحة من تاريخ الأندلس في رواية عبد الرحمن الناصر(١) - هناك رجل يتكلّم. إنّه أجنبي الجنسية، يهودي المذهب ولكنّ أصله السامي يبدو في ملامح وجهه وفي إتقانه لفظ اللغة العربية، ومعارفه رفعته إلى ما فوق المنازعات الدينية والجنسية، فهو يمجد ببساطة العالم المؤرّخ حضارة ليست يهودية ولا هي إسبانية، ولكنّها مسلمة عربية شاعت مظاهرها في جميع دوائر النشاط وفي جميع فروع العلم والطبّ والفنّ والأدب والفلسفة، وأوجدت في الهندسة المعمارية آثاراً وغرراً هي بين عمارات العالم مثال وبهجة وفخر ورجاء.

لقد طالما جحد الغرب تلك الحضارة العظيمة، جحدها فلم يغضّ من شأنها لأنّ الشيء القيّم النفيس نفيس وقيّم في ذاته وإنْ تعمّد تشويهه الأطفال الأغرار. وإن أثبت الغرب في جحوده السالف شيئاً فإنّما هو أثبت أنّه لم يتمّ بعد ارتقاؤه ولم تكتمل منه جوانب المعرفة والنبل ليقرّر فضل العرب ويسجّل منه شرفه الرفيع وإحسانه إلى بني الإنسان.

جحد الغرب ذلك زمناً ورغم جحوده ظلّت الحضارة العربية الصلة الوحيدة الوثيقة بين الحضارات السابقة واللاحقة ولولاها لكان سير المدنية مفكّكاً، ممزّقاً، أبتر لا يملك ما يملكه اليوم من اقتدار وسلطان. واللغة العربية التي كان يحسبها الجهلاء - عُفِيَ عنهم - لغة همجية كانت أداة تلك الحضارة الباهرة وهي اللغة التي ما ظهرت

في القرن السادس إلّا مكتملة يانعة فلم يعرف لها العالم دور ابتداء ودور طفولة. وانتشرت انتشاراً لم تنله لغة غيرها واشتركت وحضارة الغرب في أخذ العالم بيده وقامت بقيادته نحو ألف سنة - مع أنّ حضارتي اليونان والرومان متماسكتين لم تعيشا وقتاً طويلاً كهذا. فاستوعبت الحضارة العربية خلاصة الحضارات التي سلفتها، وزادت عليها بعبقرية وتفوّق وإحكام، وقادت العالم خير قيادة وأحسنت إلى الناس وإلى التاريخ وإلى التقدّم إحساناً لا يأتي إلّا من أمّة كبيرة. ولئن بقيت الجماهير في الغرب الآن على مثل ذلك الجهل القديم فحسبنا الجهابذة من الأفراد الذين يقومون بالواجب في إذاعة ذلك الفضل العميم المقيم.

وليصفح عنّي الأستاذ الدكتور يهوذا[٢] إنْ أنا صارحته بأنّي كنت أنسى صوته وما يدلي به من البيانات الممتعة عن عظمة تلك الحضارة لأصغي إلى مناقشات العلماء والفلاسفة والآباء في جوامع الأندلس وجامعاتها، وأنّي كنت أذهب إلى ما وراء الصور الملوّنة الباهرة فأهيم بين تلك الآثار والتحف التي يفوق جمالها كل جمال تتصوّره المخيّلات المبدعة.

أهذا هو «الفردوس المفقود»، كما يسمّيه زكي باشا[٣]؟ أهذه هي «الكبرياء الذاهبة» كما نعتها كاتب فاضل في جريدة «السياسة»؟

كلّا، أيّها السادة! إنّ هذا الفردوس خالد يحدّث بالعظمة الثابتة والمجد الباقي، ويوحي فخراً منيعاً لا يتضاءل ولا يصغر، ويحتم على أبناء اليوم أن يكوّنوا شخصياتهم تكويناً قويّاً ليستأنفوا تلك الحضارة التي هي أقدر من التقلّبات وأعظم من الأيام.

وشكراً «للرابطة الشرقية» التي عملت على إزكاء هذه العواطف النبيلة البعيدة الغور!

* * *

مباراة الروايات المسرحية

نشرت بعض الصحف أنّ معالي وزير المعارف أعاد النظر في ما كانت قرّرته لجنة التحكيم في جلستها الأولى من استبعاد الروايات التي سبق تمثيلها من المباراة، لأنّ الجمهور قد بتّ في أمر هذه الروايات من قبل وأرادت العناية الملكية التنشيط للفنّ المسرحي فليس

معقولاً أن يكون «التنشيط» لشيء مضى. وقد كنت واثقة من موافقة لطفي السيّد بك على هذا القرار من اللجنة، نظراً لما يعرف عن معاليه من حصافة الرأي وبعد النظر.

وما زلت أترقّب من معاليه الموافقة على اقتراح اللجنة في شأن تقسيم الجوائز وتوزيعها بعد الاطلاع على جميع الروايات واعتبار ما بين الفائزات منها من التفاوت في القيمة الفنّية. فهذا القرار ليس دون القرار الأول وربّما فاقه شأناً. ومعالي الوزير يذكر أنّ لجنة التحكيم للجائزة التي قدّمها عبّاس بك سيّد أحمد لجريدة «السياسة» منذ ثلاثة أعوام في موضوع «تطوّر المرأة المصرية بعد عشرة أعوام» تصرّفت في تقسيم الجائزة بعد الاطلاع على المسابقات. كان معاليه رئيس تلك اللجنة التي شُرِّفتُ بأن أكون من أعضائها فجعلنا الجوائز ثلاثاً بدلاً من اثنتين وكنّا شديدي التردّد بين المسابقات الفائزة الثلاث لتقاربها في الأهميّة والإتقان.

هذا وللجنة كرامتها أفراداً وهيئة في ما تقرّر وترتئي، ولا أرى الحكومة إلّا محترمة تلك الكرامة. وفي وسعي الآن وقد استقلتُ أن أؤيّد قرار اللجنة تأييداً علنياً. وآسف كل الأسف لاضطراري إلى الانسحاب، فقد كان لي أن أستفيد من العمل مع أولئك الرجال الممتازين ومن مناقشاتهم الرصينة، لا سيّما أنّي كنت شديدة الإعجاب بما بدا من معالي رئيس اللجنة ومن كل من أعضائها من تقدير الواجب الملقى عليهم ومن روح الإخلاص والصدق والإنصاف السائدة بينهم.

وهناك مجال للكلام فيما يتعلّق بهذه المباراة أرجئه إلى ما بعد أن تبتَّ اللجنة في أمر الروايات المقدَّمة لها، فإنّ عملها جدّ عسير. على أن لا بدّ من بعض التعديل في طريقة تقديم المسابقات للعامين المقبلين وفيما يتعلّق بهذه المباراة بوجه عامّ.

وإن جازت لي كلمة أخرى أقولها اليوم فهي كلمة الشكر أزفّها إلى معالي وزير المعارف الذي أفسح للمرأة مكاناً بين أعضاء تلك اللجنة الكريمة. ولما كان مرجع الأمر إلى صاحب الجلالة في هذه المباراة ولجنتها فإنّي أقدّر أنّ تعييني كان بموافقة جلالته. فأرفع إلى سدّته آي الامتنان راجية أن يكون مكان المرأة محفوظاً منذ اليوم في ما يجب أن تشترك فيه من الأعمال على أن تكون كفاءتها فيه واضحة.

* * *

مهرجان الرافعي[٤] في طرابلس

بينما الأستاذ جميل بك بيهم[٥] ينزل القاهرة مكرّماً ليفاوض أهل الشأن في توحيد المجامع العلمية بين الأقطار العربية نرى الدكتور محمود عزمي[٦] يغادر القاهرة إلى طرابلس الشام ليشترك كريماً في الاحتفاء بشاعر صادق الشاعرية ألمعي البيان.

وقد راقنا من الدكتور عزمي احتجاجه على خلوّ الاحتفال من العنصر النسائي، على ما نقلته إلينا برقيات «الأهرام» الخصوصية، وأنا أحتجّ على اللجنة المنظّمة الاحتفال لأنّها لم تذكرني بمنشور من منشوراتها، ولا أدري هل هي ذكرت غيري في مصر من أخواتي.

إنّ المرأة في الأقطار العربية أخذت تجاهد في سبيل اللغة والفكر والأدب وهي تنفق في ذلك قطرات من أزكى دماء قلبها فضلاً عن جهودها العلمية الصادقة ورغباتها الحيوية الحازمة. ومهمّتها تلك أشقّ من مهمّة الرجل وأشقّ من مهمّة كاتبات أوربا اللائي ليس لهنّ إلّا أن يتبعن السبيل التي فتحت قبلهنّ وقبل اللائي سبقنهنّ، في حين علينا نحن أن نخلق إنشاءً نسوياً وأسلوباً نسوياً ونفساً نسوية، لا لنتكلّم في شؤون نسوية صرفة فقط أو لنعالج ما سبق أن اقتصرت عليه النساء من أبواب الرثاء والمدح والحماسة والمفاخرة والنصح بل لنبدي في صدق وإخلاص رأينا ونشرح نظرتنا في شتّى تيّارات هذه الحياة الجديدة المتلاطمة حولنا. وهذا التعاون من ناحية بيروت ومن ناحية القاهرة في آن واحد يزيدنا تمسّكاً بالآمال التي نطمع في تحقيقها للتوحيد بين جهود أبناء العربية في جميع الأقطار والاحتفاظ بلغتنا العزيزة أداة للتفاهم والتقدّم.

وأوجّه تحيّتي إلى الشاعر الطرابلسي سليل آل الرافعي الأمجاد الذين أضافوا إلى شرفهم التالد شرفاً طريفاً بتفوّق أفرادهم في العلم والسياسة والتاريخ والشعر والأدب.

تحيّة مضمّخة بنفحات النيل الذي يعرف واديه شعر الرافعي، عابقة بأرواح لبنان الذي طالما سمعنا فيها المنشدين يترنّمون بأشعار الرافعي الرنّانة الشجيّة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٤٤، ١٠ نيسان/أبريل ١٩٢٩، ص ١ .

(١) الراجح أنّ الرواية المذكورة هي «عبد الرحمن الناصر: دراما ذات خمسة فصول» للكاتب المسرحي المصري عبّاس علّام (١٨٩٢ - ١٩٥٠)، وقد عُرضت لأول مرّة عام ١٩٢١ على مسرح حديقة الأزبكية، وقام بتمثيلها فرقة عكاشة.

(٢) أغلب الظنّ أنّ المقصود هو Abraham Shalom Ezekiel Yahuda (١٨٧٧ - ١٩٥١)، أستاذ اللغة العبرية وآدابها خلال العصر اليهودي الذهبي في أسبانيا بجامعة مدريد بين ١٩١٥ - ١٩٢٢ . كان بعد استقالته من كرسي التدريس في مدريد يحاضر في العديد من الجامعات والمعاهد، خاصّة في إنجلترا كما في القدس والقاهرة ولشبونة.

(٣) المعنيّ هو الأديب والبحّاثة المصري أحمد زكي باشا (١٨٦٧ - ١٩٣٤)، أحد مؤسّسي جمعية «الرابطة الشرقية» وأول أمين عامّ لها. وكما يتّضح من النصّ، كانت «الرابطة» هي الجهة المنظّمة للمحاضرة.

(٤) المقصود هو الأديب والشاعر مصطفى صادق الرافعي (١٨٨١ - ١٩٣٧)، المولود في بهتيم في محافظة القليوبية بمصر من عائلة تنحدر من طرابلس الشام. كان مطلع العشرينات من روّاد صالون ميّ زيادة، وقد كان ولعه بها الذي لم تبادله إيّاه مصدر الوحي لأعماله النثرية الثلاثة: «رسائل الأحزان» (١٩٢٤)، «السحاب الأحمر في فلسفة الحبّ والجمال» (١٩٢٤)، و «أوراق الورد» (١٩٣١).

(٥) محمد جميل بيهم (١٨٨٧ - ١٩٧٨)، كاتب مدقّق ومؤرّخ بحّاثة، من إحدى الأسر القديمة في بيروت. استكمل دراساته في فرنسا ونال الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس عام ١٩٢٨ . اطّلع من خلال أسفاره العديدة على الحضارات في أوربا فكان من أبرز الذين دعوا إلى تحرير المرأة العربية منذ مطلع القرن الماضي. اشتهر بالجرأة في مواقفه المعارضة للانتداب الفرنسي، وكفاحه من أجل فلسطين قبل عام ١٩٤٨ وبعده. مثّل بيروت في المؤتمر السوري ١٩١٩ - ١٩٢٠، الذي أيّد تتويج الملك فيصل على سوريا. انتخب رئيساً للمؤتمر الماسوني العامّ في دمشق عام ١٩٢٢، ثمّ رئيساً للشبيبة الإسلامية، وبعد ذلك للكتلة الإسلامية. ترأس الأحزاب اللبنانية المناهضة للصهيونية. تمّ في عام ١٩٢٩ اختياره لرئاسة المجمع العلمي اللبناني، وعام ١٩٥٢ للمجمع العلمي العراقي.

(٦) محمود عزمي (١٨٨٩ - ١٩٥٤)، أديب وقانوني وسياسي مصري. درس الحقوق في الجامعة المصرية القديمة وحصل على الدكتوراه في الاقتصاد السياسي من جامعة باريس. شارك في ثورة ١٩١٩، ثمّ مارس الصحافة وأصبح من كبار روّادها. أنشأ جريدة «الاستقلال» اليومية عام ١٩٢١، ثمّ مجلّة «الجديد» عام ١٩٢٥ ورأس تحرير عدّة صحف مصرية من بينها «السياسة الأسبوعية»، و«روز اليوسف»، كما كتب في «الأهرام» وغيرها من الجرائد والمجلّات. دعا إلى التجديد والتجاوب مع الثقافة الغربية وكان من مؤسّسي الحزب الديموقراطي. عُيّن عميداً لكلّية الحقوق في بغداد عام ١٩٣٦ . عاد فيما بعد إلى مصر ليشغل بعض المناصب إلى أن تولّى رئاسة وفد مصر في الأمم المتحدة بنيويورك.

شرر وحبب

ليس كالمواسم العامّة ما يُبقي على غريزة الطفولة في بني الإنسان. فالخلق في هذه الحياة محمومون بحمّى الطمع المستهتر والحسد الذي كثيراً ما يرتدي أثواب الصداقة، والمنافسة المتابعة القاتلة، والمقاومة الإيجابية والسلبية، وألف ألف انفعال معلوم ومجهول. وكل من هؤلاء يكفي لإنضاج الشخصية من ناحية واحدة إنضاجاً كبيراً. أمّا في المواسم فتهبط الحمّى ليعود المرء حيناً إلى سليقة الطفل اللعوب. على أنّه كالطفل تماماً لا يفكّه اللعب الموقوت من وراثة الأمس ولا من قيود الغد.

* * *

أول ما نفكّر في تهيئته للمواسم هو الزاد الذي لا تصلح بدونه الأفراح والنزهات. ذلك لأنّ ما يتغلّب آنئذ هو الغريزة الحيوانية، نتلهّى بها عن كل ما ادّخره الإنسان في جهاد العصور من المواهب الروحية والعقلية والفنّية والثقافية. وحسن أن ننسى هذه حيناً لنعود حيوانات اجتماعية ناطقة. فللجسد حقوقه كما للعقل والروح، وللجسد كذلك كبرياؤه المشروعة.

* * *

لو سئلت عن تعريف الاجتهاد كما أفهمه لقلت إنّ ثلثه تفكير وتنظيم، وثلثه الآخر كدّ وعناء، والثلث الثالث وهو الأهمّ، مرح وغفلة.

* * *

للمواسم العامّة مغناطيس قويّ يتجدّد ويتثبّت بالتكرار الدوري حتى يخلق عند الجمهور «حاجة» راهنة تتغذّى بالإيحاء. وقسم كبير من الرغد العامّ راجع إلى هذا الإيحاء المتناسخ جيلاً بعد جيل. فعلام لا يفعل هذا الإيحاء وذلك المغناطيس في نفوس الذين لا يرون فرقاً بين يوم الموسم واليوم العادي؟

سل ممارس المغناطيس يجبك أنّ الناس وإن كانوا جميعاً قابلين للتمغنط فهناك أفراد أمنع من سواهم في بعض النواحي وإن هم امتثلوا من نواح أخرى.

* * *

الخضرة. الماء. الجمال. الشباب. الحرّية. المرح البريء في حضن الطبيعة المضياف. الحبّ وسحره الفتّان. الثقة من الغد على قدر ما يستطيع الإنسان أن يكون وثيقاً. قد يجتمع كل هذا لامرئ يوم شمّ النسيم فلا يكون سعيداً.

* * *

هو ذا اليوم الواحد الفريد بين الأيام العديدة المتشابهة، يوم إطراح الأعمال والغموم للاستسلام إلى الحبور والابتهاج. ولكن لو شاء بعضهم أن يتكلّموا لعلمت منهم أنّهم يسمون في سرّهم لمواسم فردية خاصّة انقضت بيد أنّ حوادثها وإشاراتها ما زالت متكرّرة في خواطرهم، ونفاستها تغضّ من شأن الموسم العامّ في تقديرهم.

* * *

قد يتفق أن تبعد المواسم الشقّة بين الجمهور وبين بعض الأفراد إذ يقولون: «جميع الناس فرحون وأنا وحدي أكتئب. ألست منهم إذن؟».

* * *

تُخرج المرأة في الموسم آنق أزيائها ويأتي الرجل بآنق أساليب المعاملة. وإذ ينقضي النهار يقول الرجل في سرّه: «أما كان في وسعها أن تكون أكيس هنداماً؟». وتقول المرأة: «أما كان في وسعه أن يكون أبرع لطفاً؟».

* * *

إنّه جازل بين الجميلات اللائي يبذلن ما لديهنّ من حيل التقريب والإقصاء ليرضينه ويجتذبنه. فمن هذه ابتسامة، ومن تلك نظرة، ومع أخريات تبادل اللعب والرقص والحديث، وغيرهنّ يتعاونَّ وصويحباتهنّ على الضحك والوشاية بالمرأة التي يغرن منها فيحسبن أنّهنّ هدمنها في نظره ويوددن أن يهدمنها كذلك في وجودها. وهو كذلك يضحك ويزدري ويجاري الحبّ، متألّق في النظرات، ذائب في الابتسامات، شائع حوله:

«بين ألوف الوجوه علام يكون وجهها هو الغائب؟ بين ألوف الأصوات علام لا أسمع صوتها؟ وبينا أنا هنا أنعم وأرغد ماذا تصنع تلك التي لن أكلّمها حياتي قطّ؟»

وإذ ترى الحسان نظره ذاهباً في الأفق البعيد تحسب كل منهنّ أنّه متيَّم بهواها.

* * *

نظرة إلى الأشجار المتناسقة على جانبي السبيل وفي الحدائق والمتنزّهات وقد أغدق عليها الربيع جلباب الشباب والنضارة، تَرَ فيها صورة الحرّية والعبودية في آن واحد: الحرّية في انطلاق الغصون في الهواء مفاخرة باخضرارها وملاحتها وإزهارها. على أنّ الجذع القديم ثابت في أحشاء الثرى يتلمّس الغذاء والريّ من صميم التراب. عبودية محتومة عنيدة لا ينفكّ عقالها إلّا بهبوب العاصفة الهوجاء التي تكتسح كل عبودية وكل حرّية ولكن لتفسح المكان لعبودية وحرّية جديدتين!

* * *

عاطفة واحدة تسوق هذا إلى اللهو والمرح، وذاك إلى اليأس والانتحار: هي الحياة الفائضة التي لا تحتمل نفسها فتبحث عن وسيلة لتخرج من ذاتها.

* * *

ينقضي شمّ النسيم في يوم واحد. أمّا الأحاديث عنه فتطول أسابيع، إذ يرى كل من واجبه أن يسرد لأصحابه كيف قضى ذلك اليوم السعيد. وفي هذه الرغبة نيّة مزدوجة: المفاخرة بأنّه شارك الجمهور في الاحتفاء بالموسم غير أنّ طريقته في الاحتفاء هي خير الطرق وأوفرها ابتكاراً وحذقاً.

وماذا يهمّ الجمهور المستسلم للفرح أن يكون الثعبان الهائل «تيفون»[1] دائراً طول العام حلقة ضاغطة حول الأرض فلا تبتعد أسنانه عن ذيله إلّا يوم شمّ النسيم ليسارع إلى جوّ البسيطة الهواء الطاهر وتجدّد الحياة؟

إنّ مثل هذه الأبحاث وتعليل ألغازها الرمزية خصيصة بالذين قضت عليهم المهنة أو النزعة بالتنقيب. أمّا الجماهير فتحيا الحياة بالفعل وتخلق كل يوم ميثولوجيا جديدة.

* * *

عندما أتمنّى لك عيداً سعيداً إنّما أتمنّى أن تعيش عاماً آخر لترى هذا العيد من جديد في صحّة وهناء. أبلغ منّا إذن عدم الثقة بالحياة أنّنا لا نأمن عاماً واحداً على عافيتنا وسعادتنا؟

* * *

إيّاك والتفكير في شؤون الناس أيام المواسم! لأنّك إن فعلت كنت بمعزل عنهم. لا تفكّر في الناس لتكون من الناس يوم يجب أن تكونوا جميعاً كتلة واحدة. أمّا في غير ذلك...

* * *

صحيح أنّي أهديتك هذه الخواطر طاقة منثورة خصيصة بيوم شمّ النسيم، ولكنّي أرجوك ألّا تقرأها. وأسألك أن تأخذ هذه الصفحة لتلفّ بها شيئاً من زادك أو أزهارك أو حوائجك. فهذه حكمة عملية تتفق والروح العامّة في أيام المواسم.

وكل عام وأنتم...

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٧٠، ٦ أيّار/مايو ١٩٢٩، ص ١ .

(١) تيفون (Typhon)، في الميثولوجيا الإغريقية مسخ له مائة رأس ثعبان، وفي مصر القديمة أخو الإله أوزيريس وقاتله. بُعث أوزيريس بفضل أخته وزوجته إيزيس فصار رمزاً للرجاء في تجدّد الحياة.

الرتب المدنية ونظام منحها

أيّة الهيئات ارتدى وجهك، أيّها القارئ، عندما وقفت بالأمس على الأمر الكريم بتعديل المادّتين ٢ و ٦ الخاصّتين بالرتب المدنية؟

وأيّ المعاني جال في خاطرك عندما اطلعت على الشرح الذي رأت جريدة «الأهرام» أن تزفّه إليك لتزيدك إيضاحاً زادها اللّه صلاحاً، كما يقول أهل البلاغة؟

أمّا أنا فقد أخذني الضحك بعد قراءة هذا البيان وذاك. وعلام الضحك؟

قد يكون مرجعه إلى العقلية النسوية التي يروقها أحياناً أن ترى جانب النكتة أولاً في بعض الأمور.

وقد يكون سببه انتقام غامض من السادة الرجال الذين كثيراً ما يضحكون على حسابنا، معشر النساء، وما فتئوا إلى الساعة يتخذون اختصاصهم بالرتب والألقاب حجّة من عديد الحجج على تفوّقهم وأفضليتهم.

وربّما كان الضحك مظهراً من تلك «الشقاوة» البريئة الكامنة في كل قلب بشري والتي نمرّنها جميعاً بعضنا على حساب البعض، دفعة بعد دفعة.

أليس من المؤلم أن يكلّف شخص بتأليف الوزارة فلا يلقّب إلّا باللقب الذي كان يحمله قبل تأليف الوزارة في حالة عدم منحه لرتبة الرياسة؟

أوليس مؤلماً أن يكون المرء وزيراً فلا يكون حتماً «حضرة صاحب المعالي» بل يكون «حضرة صاحب السعادة» إذا كان باشا من قبل، أو «حضرة صاحب العزّة» إذا كان بيكاً، وأن يستمرّ «حضرة» حاف إنْ كان أفندياً ليس غير؟ هذا في حال عدم منحه الوشاح الأكبر من نشان محمد علي أو رتبة الامتياز.

صحيح أنّ شهوة الملق لا تقف عند هذه الحدود وأنّ الوزير الأفندي مثلاً سيكون باشا وحضرة صاحب المعالي في نظر خَدَمه وأتباعه وأصحابه وذوي المجاملات

بوجه عامّ. غير أنّ البيان الرسمي بقسوته التي لا ترحم «يردّ الأمور إلى نصابها» - كما يقول أهل البلاغة.

ولو كنت رجلاً وكنت من أعضاء الوزارات التي سبقت صدور هذا التعديل «لرفعت إلى الله أكفّ الشكر والحمد» كما يقول أهل البلاغة، لأنّي كنت من المصطفين. وأظنّ أنّ هذا القرار إن هو لن يحمل أحداً على التردّد في قبول وزارة يلبث فيها «أفندياً» و «حضرة» لا أكثر ولا أقلّ، وإن هو لن يغضّ من عشق الناس للوزارة وتدلّههم بما تخوّله من الامتيازات والقدرات، فهو بطبيعة الحال يخفّف شيئاً من زخرفها اللفظي في المواقف الرسمية وفي غير المواقف الرسمية التي يختفي فيها الجدّ وراء حبّ التلطّف والإرضاء.

* * *

وبعد فإنّ عنوان هذه الكلمة «الرتب المدنية ونظام منحها» يحمل على التفكير في نظام الرتب والأوسمة في الدولة المصرية. فهل لمنحها نظام مقرّر جليّ الأغراض واضح الخطوط؟ أم هو نظام مبهم لا قواعد له إلّا في أحوال معيّنة؟

إنّي لا أعرف من هذا الأمر إلّا ما تدلّ عليه الوقائع. والوقائع تدلّ على أنّ الرتب والأوسمة والألقاب خصيصة أولاً بطائفة الموظّفين - قدّس الله سرّهم! ومن المقرّر أنّ في كل عيد من أعياد الدولة وأعياد جلالة الملك نرى سحائب الفضل هاطلة عليهم وعلى المجرمين في آن واحد. إنّي أسجّل باحترام البون الشاسع بين الطائفتين. على أنّ الواقع أنّ لكل عيد قائمة لإطلاق المساجين الذين قضوا في السجن ثلاثة أرباع المدّة المفروضة عليهم في سلوك حسن، كما لكل عيد قائمة في أسماء المرشّحين لألقاب ورتب جديدة. وكذلك الشمس تسكب نورها على الصالحين والطالحين معاً.

ومع أنّ النظام الذي يخوّل حضرات الموظّفين الألقاب والرتب ليس بالنظام الحاسم ولا هو بذي علاقة ظاهرة جليّة بما قاموا أو يقومون به من الخدم - فإنّ الأكثرية الساحقة من الملقّبين أو الموسّمين هي من الموظّفين. وليس هذا الامتياز بغريب عن الاشتياق الحارّ والحنين الذائب اللذين يدفعان بالشبّان إلى التهافت على وظائف الحكومة. ويندر أن نرى غيرهم من أهل المهن الحرّة والمشروعات العامّة متمتّعين

بالألقاب. وإن رأينا عليهم مسحة من ذياكم الرواء فهي في الغالب أدركتهم إبّان توظّفهم سابقاً في المصالح الأميرية.

كذلك قد يمنح اللقب أو الوسام للموظّف الذي يحال على المعاش فكأنّ لسان حال الحكومة نحو موظّفها القديم يقول في تلك الساعة: «هذا آخر عهدنا بك. فلا منّا إليك بعد اليوم، ولا منك إلينا. السلام عليكم!».

وقد تمنح الإنعامات لأفراد غير موظّفين قاموا بخدمة عامّة كبيرة أو صغيرة غير أنّ كثيرين من الذين قاموا بخدمات عظيمة الشأن لم ينالوا من أجلها وساماً أو رتبة.

ومقرّر الإنعام على كل من أعضاء بطانة ملك أو أمير كبير يزور البلاد. ولا فضل لهؤلاء إلّا أنّهم قاموا بالمفروض عليهم بحكم وظيفتهم من السفر مع زعيمهم وقضاء واجبهم نحوه. على أنّ هذه مجاملات دبلوماسية يتبادلها القائمون على رأس كل بلد ذي أوسمة وألقاب من بلاد العالم.

وقد تكون تلك الإنعامات على أهل العلم والبحث والثاقفة في ظروف معيّنة، كما في المؤتمر الطبّي الذي انعقد في مصر في أوائل الشتاء المنصرم، وقد عاد كثيرون من أعضائه الأجانب بأوسمة وأوشحة.

ولكن من غرائب الاتفاق أن يكون أهل العلم والقلم في مصر أبعد الناس عن نيل الرتب والنياشين. قد يقال إنّ لهم من مواهبهم ألقاباً شريفة خالدة. وهذا حسن، غير أنّ الإنعام من جانب الحكومة يعني التقدير والاعتراف بالفضل وتشجيع الرغبة في الخدمة العامّة عند جميع الموهوبين من الأفراد، كل في بابه. كون المرء من أبناء البلاد يكفي ليقال له دون ألفاظ: «لا أهمّية لشأنك، وليس من يلتفت إلى ما تبذله من مجهود وعناء»؟ هذا في حين ترى الحكومة من واجبها الإعتراف بأفضال غير مصرية كبيرة أو صغيرة أو بين بين.

* * *

إنّي أذكر هنا ملاحظة سمعتها لمناسبة الاحتفاء بعيد الجلوس الملكي في ١٠ أكتوبر الماضي في كازينو سان استفانو. فقد قال لي أديب يكتب بالفرنسية: «كنّا في

الوليمة الفخمة التي أقامها حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء. ومما استوقف نظري أنّ جميع مراسلي الصحف الأجنبية كانت صدورهم لامعة بالأوسمة المنعم بها عليهم من حكوماتهم، وبعضها من الحكومات المصرية في حين صدور الصحافيين الوطنيين كانت جافّة كأمريكا بعد تحريم الخمر. ومثلهم أكبر العلماء وأشهر الأدباء مع أنّ منهم من يستحقّ كل الإعجاب وكل الإكبار وكانت جهوده الفردية مقياساً من ناحيتها لتقدّم البلاد. فعلام ذلك الإهمال؟».

بيد أنّ هذا الإجحاف ليس خصيصاً بالبلاد المصرية وغيرها من بلدان الشرق الأدنى، بل هو موجود كذلك - وإن كان هناك أندر - في أرقى بلدان الغرب. وأذكر أنّي قرأت أخيراً أنّ مسيو ريمون بوانكاره عندما تولّى رياسة الجمهورية الفرنسية لأول مرّة، لحظ الناس أنّه رغم كونه المحامي العظيم ورجل الدولة الذي سمت به مواهبه إلى أن يكون على رأس أمّة خطيرة - لم يكن حائزاً لوشاح «جوقة الشرف»، والقانون يقضي بأن يتشح رئيس الجمهورية بذلك الوشاح في حفلة تنصيبه. فبادر ذوو الشأن إلى «سدّ هذه الثلمة» كما يقول أهل البلاغة، ولست أدري لماذا يجري قلمي اليوم ببلاغة أهل البلاغة!

وخير لي أن أقف هنا لشعوري أنّي بهذه الكلمات قد قلبت الدنيا على دماغي، مع أنّها كلمات وملاحظات في محلّها. ويخيّل إليّ أنّ هذا التعديل في منح الرتب المدنية من شأنه أن يثير خاطر الأستاذ فكري أباظة[1] ويحرّك قلمه، وأنّ من طبيعة هذا الموضوع أن يستدرّ مقالاً من مقالاته التي لا توصف. فأسأله أن يعجل في الكتابة لخير القارئين وخيري الخاصّ. عسى الاستياء العامّ الذي إن عصف عليّ قد يذرني هباءً منثوراً - يتحوّل إلى ناحيته ويلهو بملاحظاته. فهو لا يضيره شيء لأنّه رجل ولأنّه محام.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٧٤، ١١ أيّار/مايو ١٩٢٩، ص ١ .

(١) فكري أباظة (؟ - ١٩٧٩)، قيل إنّه ولد ١٨٨٩ وقيل ١٨٩٤ . درس الحقوق لكنّه لمع في الصحافة. كان نقيباً للصحافيين في مصر، ورئيساً لتحرير مجلّة «المصوّر» لسنوات عديدة. اشتهر بأسلوبه النقدي الساخر. وانتخب عام ١٩٢٣ عضواً في مجلس النوّاب.

إلى الأستاذ محمد فريد وجدي[1]

قد يدهشك، يا أستاذ، أن تراني موجّهة إليك خطاباً أنا التي ليس لي الشرف أن أعرفك شخصياً. وكل معرفتي بك قاصرة على خطابين أو ثلاثة تبادلناها قبل أربعة أو خمسة أعوام عندما تهادينا بعض الكتب.

وقد تظنّ أنّي أريد أن أستفتيك في قضية علمية أو مشكلة اجتماعية، أنت العالم الباحث الذي لا تخاطب إلّا في مثل هذه الشؤون.

ولكن لا استفتاء هناك أقصده ولا مشاكل أرغب في استجلاء الغامض منها. اليوم يوم عيد وراحة وحبور. يلقي كل عنه عناء الأعمال. فلا الكاتب يجهد فكره ليكتب، ولا القارئ يطلب ما يكدّ الذهن في سبيله. المقبول في مثل هذا اليوم هو التلغرافات، المحلّيات، بعض النظرات السريعة، بعض الأخبار السارّة، وبعض المقالات - إذا كان لا بدّ منها - على أن تكون رضيّة أنيسة باسمة. ولقد تحوي المقالات كل هذه الشروط فلا يقرأ منها غير العنوان، وفي هذا حكمة لا يستهان بها.

إذن علام أوجّه إليك خطاباً؟

إنّي مسرورة وأودّ أن أفضي بسروري إلى شخص ما. ولست أدري لماذا ذكرتك فكنت أنت هذا الشخص. وسروري بسيط رائق هنيء. هو سرور الأعياد، وليس فيه من العوامل الخطيرة التي تحملك على أن تنيلها التفاتاً خاصّاً.

منذ حين سمعت جاري المؤذّن وقد أعدّ لليوم أشجى نغماته - يهتف: حيَّ على الفلاح! الصلاة خير من النوم!

والصلاة التي هي وسيلة الاتصال بالباري جلّ وعلا، قد تجيء على أنواع: فمنها التوسّل والاستعطاف. ومنها التذلّل والخشوع. ومنها القيام بالفروض الدينية وتلاوة الآيات والأذكار. ومنها الشعور الحيّ بأنّنا جزء نابض حارّ في هذا الكون العظيم وقسم

عامل في هذه الحياة وإن هي تصرّفت فينا على هواها. ومنها الإحساس بجمال الطبيعة والشكر للمبدع الذي برأها من العدم فجعلها لنا ملجأً وغربة جميعاً، وفتنة ونعمة ونقمة في آن واحد.

ولقد رأيت الشمس بازغة من وراء المقطّم[٢] تطلّ على مدينة الخلفاء الملفّعة بأوشحة السحر. وكان للقاهرة وجهها المؤثّر الخاشع الذي تتخذه قبل الشروق وبعد الغروب، فكانت الشمس حقّاً شجاعة في الإشراف على هذا الكتمان وتولّي جلاء هذا الغموض. أليست الشجاعة الحقّة في القيام بالواجب المفروض دون جهد ولا توتّر؟

ومضت الأشعّة تلوّن في معالم الوجود وتنعكس على جدران المنازل والصروح فتصبح الجدران وضّاءة بسائل النضار والنور. وإتضحت خضرة الشجرة المتعالية حيالي وأنشأت جوقة الأطيار تغرد فيها ترنيمتها اليومية، ترنيمة الصباح، ترنيمة الربيع، ترنيمة الحياة المتتابعة.

وحتى اليوم، يوم العيد، جاء الفلّاحون والفلّاحات من بعيد، مما وراء النيل المغذّي، من ضواحي الأهرام، يحملون على رؤوسهم المقاطف والقفف الحافلة بالأثمار والخضر والحمير والجمال تسير أمامهم مثقلة هي كذلك بأحمال الخير التي تنتجها هذه الأرض المخصاب.

من خلال باب الجامع المفتوح شهدت صلاة المصلّين وهم ينهضون ويسجدون بحركة واحدة وغاية واحدة كأنّما هم رجل واحد. وبينما أخذ الكبراء والعظماء يتهيّأون لقضاء فروضهم الرسمية الفخمة إذا بالصغار من أبناء الشعب يسيرون بأنظف أثوابهم وآنق أزيائهم فما اجتمعوا بعضهم ببعض هنا وهناك إلّا ودارت بينهم التحيّات فتبادلوا صالح الدعوات وخالص التمنّيات.

وأبهج ما يزين الشارع مشهد الأطفال بملابسهم الزاهية الألوان، وكل منهم يحسب لفرط سروره أنّ العيد إنّما وُجد له وحده نظراً لما يرغب به من الطعام والحلوى واللعبات التي هي رهن تصرّفه. وفي الهواء حفيف أجنحة مقيّدة هي أعلام الدول التي تبدو من جميع الألوان وجميع الأشكال يعلوها في كل مكان علم البلاد الجميل: العلم المصري رمز التجدّد والأمل.

مشاهدات مألوفة لمن عرف أيام الأعياد في هذا البلد السعيد، مشاهدات ترى مما يشبهها في كل ناحية في هذا الجوّ الوضّاء الذي تشيع فيه بهجة المواسم فتنجلي في أتمّ سناء وتؤدّي صورة من المعنى الإنساني المختبئ فيها: اليوم ينعم القادرون ويحسن المحسنون دون تكبّر ولا جبروت فيرغد الفقراء والمحتاجون دون مذلّة ولا هوان لأنّ الإسلام السخيّ جعل الجميع إخواناً يتعاونون ويتجازلون العطاء فللمعطي انشراح الكريم إذا وهب، وللآخذ انشراح من له إخوان يعرفون واجبهم ومن له إله يفكّر في غده وغد عياله.

ولكن رغم هذا السرور الذي يخيّل شاملاً ورغم استعدادي للسرور في نشوة هذا الصباح وإطمئناني اليوم لسعادة الكثيرين، فإنّي كذلك أصغي إلى همس الاكتئاب. أفكّر في الذين لا يحلّ العيد مشاكلهم وإن هم فيه رغدوا، ولا يدفع الموسم عنهم ويلات الغد وإن كانوا الآن ناسين.

ليس لي لأذكر ذلك إلّا النظر إلى عديد هذه القراطيس المتراكمة إلى جانبي. إنّها آتية من ذوي مطالب يريدون أن أعنى بمطالبهم وحاجاتهم وأن أرفع الصوت لأتكلّم في مصلحتهم. وكل من هذه المصالح مباشرة، وكل من هذه الحاجات لاجّة. فبأيّها أبدأ؟ إنّ الحيرة لتنتابني فأسكت عنها جميعاً وكيف يتكلّم المرء ليقنع القادرين على العمل بوجوب الإغاثة والمعونة ويثير اهتمامهم رغم كثرة ما عليهم من الواجبات؟

الجوّ لألاء بنور الصباح الميمون وأنا أسأل «كيف؟».

ولكن أليست الحياة هي اليقظة؟ أوليست بوادر اليقظة مؤدّية إلى التساؤل: ماذا؟ كيف؟ لماذا؟

وبعد فهل أنت، يا أستاذ، تعيّد على طريقة سائر الناس؟ أم أنت اليوم ككل يوم عاكف على دروسك وأبحاثك لتخرج تلك الكتب التي هي مجتمع يغنيك عن كل مجتمع وتصدر «دائرة معارف القرن العشرين» التي يزيد في قيمتها أنّها عمل رجل فرد؟

أما زلت منصرفاً لحديث الأرواح وحديث ما وراء الموت؟ أما زلت ترى «المذهب المادّي» متهدّماً فتقف على أطلاله لتخاطبنا عمّا وراء المادّة؟ أم أنت وصلت

إلى حيث تصبح المادّة والمعنى متمازجين، ويصبح الروح والجسد متعاضدين فلا يعمل الواحد منهما دون الآخر، ولا ينفصل أحدهما عن صاحبه في فكر أو حسّ أو اندفاع؟

أنت تصمت طويلاً لتأتي بشيء كبير جليل وربّما صرفتك أعمالك عن مطالعة الصحف فتجهل أنّي وجّهت إليك هذا الخطاب. وعلى كل فلست في هذا الجهل بخاسر.

ولكن حبّذا لو قرأت فسمعت منّي هذا السؤال: علام جعل الناس غاية الحياة الأرضية السعادة، ومن أين تجيء حاجتنا اللاجّة إلى السعادة؟

وهل العلم والثقافة والرقيّ إن هي سهّلت وسائل الحياة الخارجية، تجعل سعادة المرء الداخلية ميسورة؟ أم هذه السعادة أقرب إلى النفوس في حالة الجهل والمعيشة على الفطرة لأنّ المطالب فيها محدودة، والأفكار معدودة، والاهتمام قاصر على حاجات أوّلية في متناول اليد؟

جوّ الأعياد، وأثواب الأطفال، وحفيف الألوية، كل ذلك يحدّث اليوم حديث السعادة، فكيف لا أذكرها في هذا الصباح؟ وهل أنت بعلمك وأبحاثك وابتعادك عن الناس أعرف منّا بسرّ السعادة وأقدر على معالجتها[٣]؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٧٩، ١٩ أيّار/مايو ١٩٢٩، ص ١ .

(١) محمد فريد وجدي (١٨٧٨ - ١٩٥٤)، كاتب وصحفي مصري، من روّاد الفكر الإسلامي في أوائل القرن العشرين. أصدر مجلّة «الحياة» الشهرية في السويس ١٨٩٩ - ١٩٠٠ ثمّ في القاهرة ابتداءً من ١٩٠٦ وجريدة «الدستور» اليومية في القاهرة عام ١٩٠٧ . اشتهر بتأليف «دائرة معارف القرن الرابع عشر، العشرين» في عشرة أجزاء كما نشر العديد غيرها من الأعمال، من بينها مجموعة من المقامات بعنوان «الوجديات» و«ما وراء المادّة» في مجلّدين، و «المرأة المسلمة» يردّ فيه على كتاب قاسم أمين «المرأة الجديدة»، و «الإسلام في عصر العلم». له أيضاً «على أطلال المذهب المادّي»، و «نقد كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين». رأس تحرير مجلّة «الأزهر» من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٥٢ .

(٢) جبل المُقَطَّم شرقي القاهرة.

(٣) لم يترك وجدي الخطاب المفتوح لميّ زيادة دون ردّ. انظر جوابه بعنوان «إلى الآنسة الفاضلة ميّ» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٨٣، ٢٣ أيّار/مايو ١٩٢٩، ص ١ .

ما يقوله السنيور موسوليني

في سياق الكلام عن الاتفاق الجديد

بين الحكومة الإيطالية والفاتيكان

من هو صاحب الحقّ في تدريب الناشئة الجديدة وبأيّ الهيئات يناط «تهذيبها» إن كان للهيئة الحكومية، أو الأهلية، أو العلمية أن تتولّى «تعليمها»؟ أيكون ذلك الحقّ في جانب السلطة الدينية عندما تطالب ببسط سلطانها على الطلبة في المدارس، أم يكون في جانب الهيئة الحاكمة إذ هي تعلن عن عزمها على طبع النشء بطابعها وإمداده بروحها؟

مشكل قديم خلصت من شباكه الحكومات اللادينية ولكنّه كان وسيظلّ موضوع أخذ وردّ في كل حكومة ذات عقيدة تعترف بها ديناً رسمياً للدولة وذات مطامع سياسية لا تتفق دائماً مع المبادئ الدينية. وقد تناظر في هذا الموضوع إبّان الآونة الأخيرة زعيم الفاشستية الذي دافع عن حقّ الحكومة في خطبتين خطيرتين ألقاهما في مجلسي النوّاب والشيوخ، وقداسة البابا الذي أيّد حقّ الهيئة الدينية في خطاب ألقاه على بعض الوفود. وربّما كانت هذه من أعسر النقط حلاًّ في الاتفاق الجديد بين الحكومة الإيطالية والفاتيكان.

ففي هذا الاتفاق اعترفت الحكومة بأنّ دينها الرسمي هو الدين الكاثوليكي على أن تتمتّع سائر الأديان الأخرى بحرّيتها التامّة، وأنالت الزواج الكاثوليكي جميع الامتيازات المدنية، وأدخلت التعليم الديني في المدارس الأولية، وأقرّت للكنيسة حقّ الإدارة والتشريع فيما يختصّ بشؤونها الداخلية، وأباحت للمؤسّسات الكاثوليكية أن تنظّم أعمالها وتنمو وتنتشر في ظلّ الدولة. غير أنّها حذفت التعليم الديني من الجامعات وأجازت فيها تدريس بعض المذاهب الفلسفية التي لا ترضى عنها الكنيسة، كمذهب «كانت»[1] الألماني مثلاً. ولم تسمح بالتعليم الديني في المدارس الثانوية إلّا

بصيغته الأخلاقية التاريخية. وقد أجملت بأنّ الفرد والأسرة والدين ليست إلّا من أدوات الدولة ووسائل لظهور نشاطها. وهذه الفكرة جليّة في الخطاب الذي ألقاه «الدوتشي»[٢] في مجلس النوّاب الإيطالي في ١٣ مايو الماضي حيث قال:

«... نحن (الفاشست) لا نتنازل عن حقّنا في تربية الأجيال الجديدة، ونحن في هذا شديدو الشكيمة لا ننقاد ولا نلين. أجل، للناشئين أن يتلقّوا تعاليم ديننا الكاثوليكي ولكن علينا نحن أن نتمّم ثقافتهم فننفخ فيهم روح الرجولة والقدرة والفتوحات، وأن نشرّبهم خصوصاً في يقيننا (الفاشستي) وآمالنا (الفاشستية)».

فردّ قداسة البابا على هذا في خطبته الموجّهة إلى طلبة مدرسة موندر وجوني[٣]، فقال ما معناه «... ما لا يمكننا الاتفاق عليه هو كل ما من شأنه الضغط والتجاهل والنكران للحقّ الذي خوّلته الطبيعة وخوّله اللّه للعائلة والكنيسة فيما يتعلّق بالتربية».

موضوع لا خروج منه كحلقة الدائرة يبتدئ حيث ينتهي ولن يحلّه حذق موسوليني وبراعة البابا. وليس هذا ما أودّ الكلام فيه وإن عجّت به الأفكار بعد البيانات التي أعلنها كل من قطبي الاتفاق الجديد. ولكن أودّ أن ألمع إلى نقطة كادت تضيع في خطاب رئيس الحكومة الإيطالية وما أثاره من عديد الموضوعات والآراء. غير أنّها لا تضيع في نظري أنا ابنة الشرق وهي تستوقف فكر كل شرقي من أيّ دين كان. ليس لي أن أنظر إليها من وجهتها الدينية، بل من وجهتها التاريخية والاجتماعية.

* * *

قال السنيور موسوليني في خطبة ١٣ مايو: «لإيطاليا امتياز فريد لنا أن نفاخر به وهو كونها الأمّة الأوربية الوحيدة التي هي مركز دين عالمي (universale) . نشأ هذا الدين في فلسطين ولكنّه أصبح كاثوليكياً في روما ولو بقي في فلسطين فلربّما كان ينقلب طائفة من شتّى الطوائف التي ازدهرت في ذياكم المحيط المتلظّي كطوائف الهشنيين[٤] (gli Esseni) والتريبث[٥] (i Terapeuti) ومن المحتمل جدّاً أن يكون قد ذوى دون أن يترك منه أثراً.

إني شديدة الإعجاب بشخصية موسوليني وأرى من بياناته وخطبه دروساً في فنّي الكتابة والخطابة مع ما يجب أن يكونا عليه من بساطة في الأسلوب إلى إحكام

في التعبير، إلى النفس الحارّ، إلى براعة التنسيق وانتظام الأفكار والموضوعات. وهو مع ذلك يعرف أهمّية الابتسام ويخرج من المواقف الحرجة بنكتة تثير الضحك. لقد أثبت هذا الرجل أنّ قادة الأمم اليوم غيرهم بالأمس: ففي الماضي كانوا جنوداً وفاتحين وأمّا في الحاضر فهم كتّاب وخطباء. وما صار إليه وطنه من الهيبة والتقدّم في أعوام قلائل يثبت حاجة العالم إلى مثل هذه الشخصية ذات النظر الثاقب والدراية الشاملة، والحيوية القويّة المنظّمة البادية في نظر موسوليني وفي خطبه وفي أعماله. بيد أنّ هذا الإعجاب لا يبرّر عندي مقابلته بين دين وبين بعض الطوائف المتفرّعة من دين.

فالهشنيون والتريبث نسّاك من اليهود ظهروا حوالي القرن الأول للميلاد وانتشرت أديرة الأولين منهم في فلسطين على شواطئ بحيرة لوط بينا أقام الآخرون في مصر على شواطئ بحيرة مريوط. ولئن لم يجل البحث إلى الآن ما كانوا يأخذون به من المبادئ فالمعلوم عن الهشنيين أنّهم جماعة من الفرّيسيين يغالون في التمسّك بأوامر الدين اليهودي ويدقّقون في تنفيذ أنظمته مع أنّهم كانوا ينبذون مناهج العبادة المستعملة يومئذ في أورشليم ويأنفون الذبائح الدموية وتقديم القرابين. أمّا التريبث فهم الثائرون على المبادئ اليهودية الثيوقراطية، الشارحون الكتب المقدّسة على الطريقة الرمزية التي شاعت بعدئذ في القرون الوسطى. ولهؤلاء وهؤلاء تعاليم ثيوصوفية باطنية يرى فيها المؤرّخون تأثير المذهب الفيثاغوري الجديد الذي كان منتشراً يومئذ بين فلاسفة الإسكندرية.

فأين هذه الشيع المشتقّة من اليهودية من مبدأ جديد زلزل الطبقات الاجتماعية بكلمات الحبّ والمساواة والغفران؟

وماذا أراد السنيور موسوليني بقوله إنّ هذا الدين «أصبح كاثوليكياً في روما»؟ إنْ هو أراد النعت المصطلح عليه للتمييز بين الكنيسة البابوية وغيرها من الكنائس الأرثوذكسية والبروتستانتية فهذا صحيح. ولكن كاثوليكي بمعناها الجوهري اليوناني (Katholikos) تفيد أنّ هذا الدين لم يوجد ليكون محلّياً موضعياً شأن الأديان السابقة في آشور وبابل ومصر وفينيقيا وإغريقيا وروما حيث كان لكل مدينة آلهتها وكانت أحياناً آلهة العبيد غير آلهة الموالي، بل أنّ غايته أن يكون عالمياً شاملاً مساوياً بين جميع

الطبقات وجميع الشعوب، على نقيض ما كان يرمي إليه شعار الرومان المسيطرين على العالم يومئذ - ذلك الشعار الذي ذكره السنيور موسوليني في خطابه حيث قال:

«... وإذ كنت أفكّر في هذا الرجل المتفوّق (يوليوس قيصر) والقائد العجيب فاتح بلاد الجليل، وإذ سنحت لي الفرصة في هذه الأيام أن أقرأ مرّة أخرى تاريخ حياة يوليوس قيصر لمؤلّفه «جوارينو»[٦] أيقنت بأنّ هذا الرجل كان على صلاح عظيم، لأنّ الرومان، إنجليز الماضي الرهيبين، كان شعارهم: «أنا، ثمّ أنا، ثمّ كلبي، وأخيراً قريبي». ولكن ليس هذا شعار أصدقائنا الإنجليز الحاليين. إنّ الغيرية (أي العطف على الغير) لم تكن تتخطّى الحدود الرومانية وكل ما عدا ذلك كان بربرياً حقيراً».

* * *

وأعلّق على هذا بكل احترام أنّه ضمن الحدود الرومانية لم يكن التعاطف جائزاً إلّا بين أبناء الطبقة الواحدة أي طبقة الأشراف وبين هؤلاء وعبيدهم هوّة واسعة لم تحذفها إلّا كلمة «المساواة» المسيحية. وقد اعترف السنيور موسوليني بذلك في ما معناه:

«... لقد وجدت المسيحية في روما محيطها المناسب. وجدته أولاً في ملل الطبقات الأرستقراطية السائدة وفي الأسر القنصلية التي كانت في عهد أغسطس تعبة ضعيفة جدباء. ووجدته خصوصاً في الجماعات الشرقية العديدة التي كانت تضخّم الطبقات الاجتماعية السفلى في روما والتي كان من شأن خطبة كخطبة «مونتانا»[٧] أن تفتح في وجهها آفاق التمرّد والمطالب».

وكانت تلك الجماعات الشرقية العديدة في روما لأنّ روما عاصمة الدولة المحتلّة أنحاء الشرق الأدنى في ذلك العهد ولأنّ الضغط والاضطرابات المحلّية كانت تقذف بالناس إلى محيط ينعمون فيه بحرّية المذهب والعقيدة إذ كانت روما في بادئ الأمر تقبل جميع الأديان وترحّب بجميع الآلهة، على شريطة أن يسجد الجميع لقيصر ويحرقوا أمامه البخور. وقد خرجت المسيحية من فلسطين ليس هرباً من الفناء ولكن لأنّها كانت أوسع من أن تقتصر على بلد أو مقاطعة، والأمم التي كان يعذّبها روح الأرستقراطية الجائرة العتيّة في ذلك الزمن كانت في حاجة لجوج إلى تلك الكلمات العذبة، كلمات الإخاء والمساواة والمحبّة.

كذلك خرجت اليهودية قبلاً من فلسطين ولم يُقضَ عليها إلى الآن. وخرج الإسلام بعدئذٍ من شبه جزيرة العرب وما زال حيّاً قويّاً واسع الانتشار في عديد الأقطار. وما ذلك إلّا لأنّ هذه الأديان كانت غير طوائف الهشنيين والتربيث، وقد كان من مبادئها وأغراضها أن تنتشر بين مختلف الشعوب والطبقات.

يسرّنا أن نعترف بكل ما فعلته روما لإذاعة هذه المبادئ الرحيمة وتنظيمها ولا ننكر حتى للقياصرة فضلهم في تقوية المسيحية إذ لا شيء يثير القوّة الكامنة كالمقاومة والمطاردة والتعذيب. ومن ذا الذي لا يعجب بعباقرة إيطاليا وما ولّدته قرائحهم وفنونهم في تعزيز المبادئ المسيحية وتقريبها إلى النفوس؟ بيد أنّي عندما كنت أجيل الطرف في الغرر التي تزين متاحف روما، وأستسلم لروعة الكنائس والآثار والشخوص والأعمدة كنت أحياناً أقول في نفسي:

«تبارك اللّه خالق العبقريات! على أنّي لا أنسى أنّ الذي أوحى كل هذه البدائع هو شرقي العزيز القديم الذي أدّى إلى العالم رسالة خلقية سامية وأعطاه إلهاً وأوجد له آمالا تسمو على آمالاً الأرض».

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٩٣، ٣ حزيران/يونيو ١٩٢٩، ص ١ .

(١) الفيلسوف الألماني المعروف Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤)، أستاذ علم المنطق والرياضيات في كونيغسبرغ (Königsberg) في بروسيا ابتداءً من ١٧٧٠، ومؤلّف كتاب *Kritik der reinen Vernunft* (نقد العقل المحض) ١٧٨١، أحد الأعمال الكبرى في الفلسفة الغربية.

(٢) Duce ، لقب اتّخذه موسوليني ومعناه «زعيم».

(٣) هكذا في الأصل، ويُعتقد أنّ المدرسة المعنية هي Collegio Mondragone في فيلا مندرجوني (Villa Mondragone) في روما التي كانت وقتئذ من ممتلكات الجمعية اليسوعية وانتقلت فيما بعد إلى ملكية جامعة روما.

(٤) قد تكون عن الآرامية (hasên) بمعنى «تقيّ، متديّن»، والأكثر شيوعاً «الأسّينيون».

(٥) عن الإغريقية: therapeutès .

(٦) صدر كتاب *L'apologia di Cesare* (A cura del Gen. Alessandro Guarino بعنوان Domenico Guerrini; prefazione di Amedeo Tosti) عام ١٩٢٩ في روما.

(٧) عن اللاتينية: Sermo Montana ، وهي موعظة الجبل، إنجيل، متّى ٥ - ٧ .

الإسكندرية تغيّر أسماء بعض محطّات الرمل

فعلام لا تحذو القاهرة حذوها فتغيّر أسماء بعض الشوارع؟

الحمد للّه الذي أوحى إلى لجنة ترام الرمل[١] الحكومية أن تستبدل أسماء بعض محطّات الرمل السابقة بأسماء جديدة خير منها! فإنّي إذ كنت أرى أحد تلك الأسماء على اللوحة المنصوبة في الهواء كان يخيّل إليّ أنّ ذلك الاسم يشوّه الجوّ الرائق ويعكّر البحر الشائق، فأتساءل كيف يسكت أهل الإسكندرية عن ذلك الاسم الكئيب ويقبلون تلك الشائبة المزعجة.

وإن لم تسأل اللجنة الإدارية بعد البلدية في الأمر فهي لا شكّ فاعلة. ولتكن واثقة بناءً على ما شهدته من الاستحسان العامّ، أنّ البلدية ستنيلها الموافقة السريعة التامّة، فإنّ هذه الأسماء محكمة. رشدي باشا[٢] وثروت باشا اسمان جديران بالبقاء في أمكنة جميلة يرودها كثيرون. هذا رغم أنّي أجهل هل بين الاسمين والمكانين المسمّيين بهما علاقة خاصّة. و «أنغش» هذه الأسماء عندي هو اسم «فؤادية».

ليس غرض هذا الاستحسان إغراء اللجنة على تغيير سائر الأسماء القديمة أو الإفرنجية في الرمل والإسكندرية. فإنّ لبعض هذه الأسماء علاقة وثيقة بالمحطّات والأحياء، وبعضها تاريخي يرجع بالفكر إلى الماضي السحيق ويثير في النفس حقبة تاريخية كاملة، كمحطّة «كامبو شيزري»[٣] مثلاً التي ترينا صورة الفارس المغوار في عزّ القياصرة، مضت صولاته وانقضى ذكره فما زالت الإسكندرية تحتفظ باسمه إجلالاً لصفحة من تاريخها، وكمحطّة «كليوبترة» أبقى أثر في الإسكندرية لذكرى تلك الملكة الفتّانة التي كانت حياتها قصيدة بطولة وقساوة وغرام نسيتها الأحياء والمنازل، إلّا أنّ أصداءها ما فتئت متردّدة على صفحة البحر، ناطقة في اسم المحطّة الرحيمة.

* * *

هذه القاعدة تنطبق على أسماء شوارع الثغر جميعاً. ولئن تحتّم الاحتفاظ بالتاريخي من تلك الأسماء وبما يوجبه الشكر أو الشهرة أو الفضل أو العلاقة الأثرية أو المكانية، فيتحتّم كذلك حذف الأسماء التافهة والدميمة واستبدالها بأسماء أهل الفضل والجهود من المحدثين. إنّي ما زلت أذكر سروري إذ أبصرت لأول مرّة على الجدار اسم «شارع المسلّة» فسرت أبحث عن تلك المسلّة وأنا واثقة بأنّي لن أجدها وإنّما استبقي هذا الاسم هنا تذكاراً لشيء قديم.

وعسى ينشّط عمل لجنة إدارة الترام ذوي الشأن فيلتفتوا إلى تلك الأسماء، وتصفية كهذه تقتضي قليلاً من الجهد والتفقّه وإن هي اقتضت كثيراً من الملاحظة والفطنة لاختيار الأسماء الجديدة وإحكامها هنا وهناك لعلاقة ما أو حادثة أو ذكرى تربط الشوارع بالذين تطلق عليها أسماؤهم.

وبهذه المناسبة نجرؤ أن نرفع النظر إلى مصلحة تنظيم عاصمتنا فنقول لها بما يليق من التهيّب إنّ القاعدة الموافقة للإسكندرية قمينة بالقاهرة، وإنّ ما حلّله اللّه لعاصمة القطر رقم (٢) لا يكون حراماً في عاصمة القطر رقم (١).

نقول ذلك مع علمنا بأنّه لا يغيب منه شيء عن فكرها اليقظ وقلبها الحسّاس فيما يتعلّق ببعض شوارعنا. والدليل أنّ العناية بلغت بها أنّها لا تترك تلك الشوارع شهرين اثنين في العام الواحد دون أن توسعها إصلاحاً وتنسيقاً.

نعم، إنّ بعض الشوارع الأخرى لا ينالها إلّا ما لا يذكر من «التنظيف» العادي، وبعضها قد لا يناله شيء البتّة، على قول الوشاة. ولكنّ اللّه كريم! والشوارع كالناس، لكل منها يومه ودوره!

وبمثل هذا التهيّب وتلك الثقة بعنايتها نسأل مصلحة التنظيم عن رأيها في اسم شارع هو من أهمّ الشوارع المركزية وما زال يدعى شارع المدابغ مع أن ليس فيه ولا مدبغة واحدة، وعن اسم شارع المناخ الذي هو من أتمّ الشوارع كياسة وأبّهة، لا تنيخ فيه الآن الجمال العزيزة بل تجتازه ذهاباً وإياباً أكثر السيارات جدّة ورونقاً. وإن «أناخ» فيه شيء يستوقف النظر فهو حوانيت الجواهرجية ذات اللمعان الباهر.

وما قولها في شارع الحوياتي الرشيق الذي هو مركز وزارة الخارجية والنقطة التي أخذت تتحاذى فيها بعض المدارس العامرة؟

وما رأيها في الفجّالة الكثيرة الحركة الموفورة الأهمّية؟ وإذا بيع في بعض نواحيها الفجل فهناك كذلك المكاتب والمطابع وإدارات الصحف والمنازل التي لا بأس بها.

ومن هو عماد الدين؟

إنّ هذا الاسم على نقيض الأسماء السابقة من حيث جمال معناه. غير أنّ الشارع الذي يعرف به أجمل شوارع العاصمة وأفخمها دوراً وصروحاً ومن أبعدها مدى، فمن هو عماد الدين الذي يستحقّ كل هذا الإكرام؟

أرجو ألّا يغضب أصحاب عماد الدين إن كان له أصدقاء. نيّتي حسنة، لذلك أسأل حضرات الاختصاصيين أن يوافونا بالبيان عن أهمّية هذا الشخص العظيم، وأن يطلعونا على أثره في تاريخ مصر. فيمتنّون بذلك علينا لأنّي أجهل عماد الدين وأقدّر أنّ جاهليه مثلي كثيرون.

وإن لم يكن لهذا الشخص شأن تاريخي أو أدبي فإنّ هذا الشارع يجب أن يسمّى باسم أول بنك مصري أقيم فيه، أو باسم المؤسّس الأول لهذا البنك. يجب أن يسمّى «شارع بنك مصر» أو «شارع طلعت حرب»، ولا يجوز التباطؤ في هذا.

كذلك يجب أن يذكر قاسم أمين(٤). وحبّذا لو أُطلق هذا الاسم على الشارع الذي سكنه قاسم أمين في حياته، فيما لو كان ذلك الاسم قابلاً للتغيير.

وهناك كثيرون يجب أن تعرف الشوارع بأسمائهم بدلاً من الأسماء الضئيلة التي إن نحن فهمنا معناها في الماضي فإنّنا لا نفهمه اليوم إذ يكتسحنا تيّار الحياة المملوء بالأسماء المحسّنة الوضّاءة.

* * *

وفي هذه الأيام مناورات متقطّعة بين بعض مراسلي صحف إنجلترا وما يكتبونه في صحفهم وبين صحفنا فيما يتعلّق ببواقي الآثار التي تضحّى في سبيل شقّ الأحياء الجديدة.

وأرى أنّ أولئك الكتّاب الإنجليز عشّاق المشرقيات محقّون في إحتجاجهم على المجازفة بنفيس البقايا. كما أنّ أنصار الأحياء الجديدة محقّون، إذ ليس معقولاً أن نعبث بصحّة الأحياء وراحتهم حرصاً على الحجارة كائناً جمالها ما كان.

والحرج كله بين الفريقين يقع على مصلحة التنظيم. ولا مخرج لها من هذا المشكل إلّا باختيار بعض الأحياء ذات الطابع القديم الخاصّ وتقرير الاحتفاظ بها كما هي الآن وكما كانت من قبل ليبقى للقاهرة جزء من تاريخها الاجتماعي السحيق حيّاً، وإرضاءً للسيّاح الذين لا يستهان برضاهم. أمّا الشوارع ذات الآثار الأقلّ شأناً فهي التي يحقّ عليها الهدم.

وهذا ما تفعله مصلحة التنظيم. فالبكاء والنحيب من عشّاق المشرقيات أمر لا مناص منه. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يرضي جميع الناس على السواء؟ وذلك العويل الأثري مفيد على كل حال لأنّه يلفت المصلحة إلى ما قد تكون نسيته فتعدّل بعض مناهجها. ولا بدّ من أن تفكّر طوائف الناس في أمور شتّى على طرق مختلفة، وفي هذا التنوّع في التفكير حفظ للتوازن العامّ.

فلا تطمعنّ مصلحة التنظيم في المستحيل. حسبها أن يكون غرضها الخير ورائدها الفطنة لتقوم بواجبها في جعل الأحياء الجديدة متوافقة والحياة الجديدة وإدخال النور والهواء على خلائق عديدة لا تدرك ما للنور والهواء من أهمّية.

ولكن رحمةً بما تعثر عليه من الحجار الجميلة وبما تضطرّ إلى حذفه من الآثار القديمة! وعليها أن تتفاهم ولجنة مصلحة الآثار لنقل ما يمكن نقله من تلك البقايا إلى المتاحف وعرضها بحالتها التي كانت عليها مع بيان الباعث إلى نقلها وحذفها من مكانها. فإنّ القاهرة لوفرة غناها في هذه النفائس كثيراً ما يهمل فيها ما هو جدير بالبقاء والتكريم.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠١٣، ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٢٩، ص ١ .

(١) الرمل، يُطلق على ساحل البحر في الإسكندرية، من فيكتوريا حتى محطّة الرمل، والحيّ الواقع خلفه.

(٢) حسين رشدي باشا (١٨٦٣ - ١٩٢٨)، سياسي وقانوني مصري. تلقّى علومه في القاهرة وباريس، وعمل قاضياً في المحكمة المختلطة. تبوّأ عام ١٩١٠ منصب وزير العدل، ورأس الوزارة أربع مرّات ما بين ١٩١٤ - ١٩٢٢ . كان ضمن الوفد الحكومي الذي تفاوض في لندن عام ١٩٢١ حول استقلال مصر وعضواً في مجلس الشيوخ منذ ١٩٢٥، ثمّ رئيساً له حتى وفاته.

(٣) عن الإيطالية: Campo Cesare .

(٤) قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨)، الحقوقي والأديب المصري الذي اشتهر بدعوته إلى تحرير المرأة.

فردينان دي لسبس

يحيّي القادمين والعابرين

لا بدّ أن يكون دي لسبس مصرياً

يقول سائق السيارة

ختم الرجل المتعلّم الحديث الذي لخّص لي فيه أخبار العالم بقوله: «دنيا خربانة! فأنّى وجّهنا النظر أبصرنا القلاقل والدمار، وإلى أيّة ناحية أرسلنا الفكر وجدنا الدسيسة والانفجار، وما نشرنا صحيفة نتلمّس الحوادث إلّا وطويناها مضطربي القلب حائرين في أحوال هذا الناس[1]، متسائلين أين ترى يكمن الصدق والراحة والإطمئنان. دنيا خربانة زيّ الزفت والسلام!».

بهذه الصورة المظلمة خرجت إلى جولتي السريعة في بورت سعيد وليس لي من دليل يرشدني غير سائق السيارة المصري الذي أفضى إليّ بإبتسامة موفورة المعاني أنّه ابن بورت سعيد وأنّه «يعرفها زيّ المنديل اللي في جيبه». وقد وددت أن يخرج لي منديله من جيبه ولكن...

في حديث هؤلاء القوم، الوقت بعد الوقت، تفكهة وراحة. آراؤهم قليلة محدودة، ونظرتهم إلى الناس والأشياء مباشرة ثابتة: فيحسن استدراجهم إلى الكلام أحياناً لنقابل بين أفكارهم وأفكار الخبراء والعلماء ونلمّ بالذكاء الإنساني من مختلف جهاته. ثمّ إنّ آراءهم حيّة كل الحياة لأنّ اختباراتهم المتشابهة وأيامهم المتماثلة ومطامعهم التي قلّ أن يطرأ عليها التغيير - ملخّصة فيها.

قال السائق - إذا شئت أن تعرفي أجمل بقعة في بلدنا فلا بدّ أن أسير بك إلى الجميل.

- وما هو «الجميل»؟

- كيف؟ ألم تسمعي «بالجميل»؟

أعترف بجهلي وأتخيّل الجميل حديقة شجراء تتخلّلها المياه الدافقة وتحيط بها المساكن الأنيقة، وربّما تبعثرت هنا وهناك فيها بعض الآثار التي تنيل المكان تاريخاً قديماً وروحاً غزيرة الوحي.

– لا، مش كده أبداً! الجميل أبدع فسحة في الدنيا وكل الناس تجي بورت سعيد لتراه. ولكن مافيش جنينة ولا أشجار ولا آثار ولا بيوت. هو مكان كدا كويّس وهواه لطيف وناشف والناس يأكلون هناك ما حملوه معهم من الطعام ويلعبون ويمرحون ويرجعون في المساء إلى بورت سعيد وكل همهم أن يروا «الجميل» من جديد. «الجميل»؟ مين ما يعرفش «الجميل»؟

– إذاً ندع الجميل إلى فرصة أخرى واليوم نتفرّج على المدينة ونجول في بعض شوارعها.

كنّا بين البحر والمدينة في شارع رحب طويل يخيَّل بدون نهاية. فما اسم هذا الشارع وإلى أين هو يفضي؟

– اسمه شارع كتشنر(٢) ويؤدّي إلى الجبّانة.

– لا حاجة لي الآن إلى الجبّانة. أريد أن أرى مساكن الأحياء. ما هذه البيوت الخشبية الصغيرة على شطّ البحر؟

– دي حمّامات أولاد العرب. وهناك قرب الكازينو حمّامات الإفرنج. ودي البناية الكبيرة من الناحية دي مدرسة تبنيها الحكومة.

– أهي للبنين أم للبنات؟

– هي للأولاد وللبنات مدرسة غيرها. والبناية الثانية مستشفى تبنيه للي عينيهم عيّانين.

– يعني مستشفى للرمد؟

– يمكن. ما أعرفش. لكن هو للي عينيهم عيّانين. ودي مدرسة الأمريكان من الناحية دي للأولاد ومن الناحية دي للبنات. ودا المستشفى الإنجليزي وهو مفتوح للزوّار. عايزة حضرتك تزوريه؟

استوقفت نظري عند الشاطئ طائفة من القوارب الكبيرة والصغيرة وفيها أشخاص يبدو من حركاتهم أنّهم يشتغلون. هذه مراكب الصيد ومن هنا يذهبون إلى صيد السمك في البحر.

- وهل هذه المراكب تابعة لشركة إفرنجية أم مصرية؟
- المراكب دي كلها مصرية وكل اللي يشتغلوا فيها مصريين.
- وهل سمك بور سعيد جيّد؟
- سمك بور سعيد مالوش مثيل في الدنيا!

* * *

الآن تمضي السيارة في شوارع بعضها فسيح مستوفي الهواء والنور وبعضها يتعرّج متلوّياً في ضيق وظلام. فيكتفي السائق بإعلامي بأنّ هذا الجزء من المدينة يسكنه «أولاد العرب» وأنّ هناك بور سعيد مصرية وأخرى إفرنجية، أو بور سعيد قديمة وأخرى جديدة. في كثير من الدكاكين أو على أبوابها تبدو صورة زغلول باشا. ويشير السائق إلى سرادق أقيم في جوار أحد البيوت وقد نصبت حوله وأمامه الأعلام الحمراء والخضراء وعلقت فيما بينها المصابيح، فيقول: «دي فرح بلدي. أولاد العرب يعملوا تملّي(٣) زينة كدا لما يجوّزوا». وهذا السوق؟ «فيه اللحم والخضرة والفاكهة والسكر. كل شيء. وفي الشارع دي كنيسة الشوام القديمة، وفي الشارع الثاني كنيسة الشوام الجديدة. عايزة تشوفيها؟»

هذا شارع رحب جميل ومن أجمل ما فيه الاسم المكتوب على جداره: شارع المحروسة، الاسم الآخر، اسم التحبّب والدلال الذي تعرف به عاصمة البلاد القائمة هناك في ظلّ الأهرام الخالدة. عبثاً أسأل دليلي عن الباعث إلى تسمية كل شارع باسمه. فجوابه عن كل سؤال: «أهو كدا. الناس يسمّوه كدا».

طاقة خضراء ناضرة تظهر فجأة بين المنازل. هذه حديقة الباشا.

- حديقة أيّ باشا، يا أوسطى؟
- ما أعرفش. يقولو لها جنينة الباشا لكن هي لكل الناس. دي جنينة حلوة خالص.

وفي أواخر الشارع بناية تجثم تحت المئذنة، ذاك البناء الشاهق الذي ابتكره الناس كأنّما أرادوا أن يكونوا به أبعد عن الأرض وأقرب إلى السماء. أفي بور سعيد جوامع عديدة؟ إنّ فيها جامعين كبيرين أقام أحدهما الخديوي توفيق وبنى الآخر الخديوي عبّاس السابق. وأمّا الجوامع الأخرى ويكاد يناهز عددها العشرة فصغيرة خاصّة أقامها الباشوات والأعيان، على قول السائق الذي يستأنف:

– دي الوقت خلصنا من الشوارع البلدي ودي شوارع الإفرنج. كل الإفرنج ساكنين في بورت سعيد الجديدة. دي أكبر وأحلى شارع في بورت سعيد، شارع نمرة واحد.

– وما اسم هذا الشارع؟

– اسمه كدا. شارع نمرو واحد. ويقولو له كمان «كوميرس» و «سنترال».

– كوميرس وسنترال يعني إيه؟ هو دا كلام عربي؟

– أيوه! عربي بالإفرنجي. كوميرس وسنترال يعني أهمّ الشغل والحاجات الكويّسة فيه. ودا شارع نمرو اثنين. برده إفرنجي وبرده كويّس. ودي كمان جنينة اسمها المنشيّة. مش عايزة تتفرّجي على المنشيّة؟ دي جنينة لكل الناس.

في وسط المنشيّة تمثال نصفي أبيض يقوم على قاعدة عالية فمن يكون صاحب هذا التمثال؟

– دا أخو «سبس»

– ومن هو «سبس» الذي ينصبون تمثال أخيه وسط المنشيّة؟

– «سبس» يبقى الراجل اللي تمثاله واقف على شطّ البحر.

– وماذا فعل «سبس» ليكون له تمثال؟

– دا هو فحت القنال اللي شايفاه في الناحية دي.

– هو القنال والبحر مش زيّ بعض؟

– لا. البحر كان زمان بحر. والقنال كان زمان برّ. قام «سبس» فحت البرّ خشّت فيه الميّة وصار بحر بورت سعيد وبحر السويس ملضومين ببعض وتمشي فيهم المراكب زيّ ما يكون عمره ما كان بينهم أرض. المراكب اللي تروح الناحية دي

(مشيراً إلى البحر) تروح بلاد برّا والمراكب اللي تروح الناحية دي (مشيراً إلى القنال) تروح بلاد جوّا. بورت سعيد مالها في الدنيا مثيل واللّه!

- ومتى فحت «سبس» القنال؟

- في أيام أفندينا الخديوي إسماعيل. كل شيء كويّس في مصر جه من أيام الخديوي إسماعيل.

- و «سبس» هذا إفرنجي أم مصري؟

- ضروري يكون مصري.

- ولكنّ الاسم ليس مصرياً.

- صحيح. أظنّه فرنسوي. الفرنسوية برده ناس كويّسين ولما واحد يعمل شيء كويّس في بلد يبقى زيّ اللي هو منه تمام.

- طيّب، مفهوم أنّ تمثال «سبس» على شطّ البحر لأنّه فتح القنال فماذا صنع أخو «سبس» ليكون تمثاله في المنشيّة؟

- أظنّه هو اللي عمل الجنينة زيّ ما عمل أخوه القنال.

أصغيت إلى هذا الكلام وأنا لا أدري وجه الصحّة فيه. وإذ أقبلنا على الرصيف الممتدّ بين البحر والقنال حيث يقوم التمثال العظيم قال السائق: - أهو تمثال «سبس»! شوفي إيده إزّاي تسلّم على الناس وتقول لهم اتفضّلوا!

- ألا تصل إليه السيارة؟

- لا. الأُتمبيل ما يروحش هناك. ضروري الواحد يمشي علشان يتفسّح ويتفرّج عليه كويّس. وبإشارة تشمل البحر والقنال والمدينة والجوّ المخيّم عليها قال السائق بصوت رنّان: شوفي، شوفي الجمال دي! واللّه بلدنا مالها مثيل. دنيا حلوة زيّ العروسة!

أصبت، يا سائق السيارة. أصبت بتعلّقك ببلدك وبإعجابك بها. وصدقت حيث قلت بلغتك الساذجة إنّ فردينان دي لسبس وإن كان فرنسي اللغة والجنس فهو ابن جميع البلدان لأنّ العلم ملك الأوطان قاطبة. وهذه الإشارة الواسعة الفخمة التي يبسطها فوق الأمواه المتمازجة إنّما هي بركة الإنسان المجاهد للإنسان المجاهد، وترحيب النشاط والعمران

بالنشاط والعمران. هي هي إشارة مصر التي تلتقي عندها القارّات الثلاث، وقد أنالت العالم منذ القدم كثيراً وهي اليوم على عادتها لا تضنّ بإجزال العطاء إلى العالم.

هنيئاً لك، يا أخي السائق، بتفاؤلك وبارتياحك إلى ما تقول. لقد سمعت هنا في بورت سعيد الكلمتين اللتين تتلخّص فيهما معارف الإنسان واختباراته: «دنيا خربانة زيّ الزفت» و «دنيا حلوة زيّ العروسة»، ولئن كان ظلم الحياة وقساوة الحياة ومشاكل الحياة تجعل الدنيا أحياناً «خربانة زيّ الزفت» فهذه المشاكل وتلك القساوة وذياك الظلم تحمل الإنسان على العمل ليجعل الدنيا «حلوة زيّ العروسة».

هنيئاً لك، يا أخي السائق، وشكراً. لقد زوّدتني بأنفس كلمة تغنينا بها الكتب والحكمة والحياة نفسها..

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠٨٠، ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) هكذا في الأصل، والصواب إمّا «هؤلاء الناس» أو «هذه الناس».

(٢) على اسم Lord Horatio Herbert Kitchener (١٨٥٠ - ١٩١٦)، القائد الأعظم (Field Marshal) ورجل الدولة الإنجليزي الذي فتح السودان ١٨٩٦ - ١٨٩٨، وقمع ثورة البور في ترانسفال ١٩٠٠ - ١٩٠٢، ثمّ تولّى القيادة العامّة للقوّات البريطانية في الهند. عمل قنصلاً عامّاً في مصر في الفترة ما بين ١٩١١ - ١٩١٤ ووزيراً للحربية البريطانية ١٩١٤ - ١٩١٦ .

(٣) «تملّي» تعني «دوماً» باللهجة المصرية.

إلى أين وصل الطيّار الإنجليزي

الذي لم يكن له منذ عشرين سنة يد في إخراج فنّ الطيران

بين يديَّ كتاب للمؤلّف الإنجليزي هـ. ج. ويلز هو طائفة دروس وأبحاث يظهر من تواريخها أنّ كاتبها نشرها في الصحف والمجلّات لمناسبة حوادث علمية وحركات اجتماعية واضطرابات سياسية، ثمّ أصدرها مجموعة بعنوان «رجل إنجليزي يلقي نظرة على العالم»[١].

وأول ما لمحه في هذه النظرة هو وصول الطيّار الفرنسي بليريو[٢] إلى إنجلترا في شهر يوليه ١٩٠٩ مجتازاً المانش بطيّارته الجديدة التي كانت في ذلك الحين موضوع دهشة ليس للجاهل فقط، بل كانت أشدَّ إثارة لدهشة العلماء الذين كانوا من قبل يجزمون باستحالة التحليق في الجوّ على مثل تلك الآلة التي هي بحكم الموادّ التي تصنع منها - ثقيلة كثيفة. وكانوا يقولون إنّ الجسور الذي يطمح إلى مشاركة ذوات الأجنحة في حظّها وامتيازها لهو جان على نفسه، وجان بالتبع على الأحلام الكبيرة التي تراود الإنسان المجازف المتهوّر.

* * *

ولما كانت إحدى الصحف قد اقترحت على ويلز الكتابة في موضوع «ماذا يعني هذا الحادث لنا؟» بدأ بإيراد خلاصة لتاريخ تطوّر الآلة المحرّكة من الدرّاجة إلى السيارة إلى الطيارة، ثمّ مضى يستفزّ أبناء وطنه عن طريق التعيير والتقريع في صفحات أقتطع منها الجمل الجوهرية التالية:

«ماذا يعني هذا الحادث لنا؟

«المعنى الأول يبدو مذلّاً لكبريائنا الوطني، لأنّ فنّ الطيران تمّ من أوله إلى آخره في الخارج، ومن جميع المحاولات التي جعلته ميسوراً لا نستطيع أن ندعي أكثر من

تحسين الدرّاجة. في الخارج كانوا يعملون للطيران بينا شبّاننا الشجعان ذوو العضلات القويّة كانوا يقتحمون مخاطر ساحات «الكريكت»... معنى ذلك أنّ العالم لا يتلكّأ في انتظار الإنجليز. للفرنسيين والأمريكان أن يضحكوا من طياراتنا، والألمان سبقونا بعشرة أعوام فيما يتعلّق بتحسين محرّكات السفن. فإمّا نحن شعب متقهقر لا دواء لدائه وإمّا هناك خطأ مبين في منهج تربيتنا وعنصر مخدّر في أوساطنا وأحوالنا. هذا أول المعاني التي يوحيها إلينا عمل مسيو بليريو.

«والمعنى الثاني هو أنّه، رغماً عن أسطولنا، لم تبق بعد اليوم جزيرتنا منيعة بعيدة المنال من الوجهة الحربية... ليس التنافس في السيادة البحرية مجرّد تنافس في فنّ العمارة ومحض تباه على تحمّل النفقات، ولكنّه خصوصاً تنافس في استغلال المعرفة والمقدرة على الابتكار. وليست الدولة صاحبة العدد الأكبر من السفن أو صاحبة السفن الأوفر ضخامة هي التي تتغلّب في معركة بحرية، بل الغلبة في جانب الدولة السريعة الاهتداء إلى وسائل الظفر ومصادر الاستنباط. وثمانون «دريدنوط»(٣) تحت تصرّف رجال بلداء إنّما هي ثمانون هدفاً لخصم متيقّظ سريع الخاطر.

«إنّ وصول مسيو بليريو يلفتنا إلى حقيقة تأخّرنا في ما يتعلّق بالحيلة الميكانيكية والاختراع... فهل نحن أمّة يقظة؟

«إنّي لأنظر إلى «المانش» العاصف وأفكّر في الملايين القائمة وراءه وهي كل ساعة يتضاعف انهماكها وحذقها، وأستطيع أن أتخيّل يوم الحساب مقبلاً كسرب من الأطيار.

«صحيح أنّ عندنا يوم «الدربي»(٤)...

«ولكن بصرف النظر عن هذه العنايات الوطنية، لقد خطّ مسيو بليريو طريقاً جديداً لتفكيري وأوحى بعمله أنّ عهد الديمقراطية الطبيعية مدبر حتماً بفعل هذه الآلات، وأنّ العهد المقبل سيتكوّن من رجال حائزين للمعرفة والجلد والثبات والشجاعة يقومون بهذه الأعمال المخطرة الباهرة ويؤثرون أن يكونوا في المستوى الأدنى...»

* * *

كيف يدهش لهذه اللهجة الشديدة من كان مطّلعاً على كتابات المستر ويلز، رسول الميكانيكا في هذا العصر وعلى تطوّرها يترتّب في رواياته العلمية تطوّر العقلية الإنسانية وتطوّر نظمها وأخلاقها وأساليبها في مختلف الدوائر العملية؟

لم يكن مخطئاً في الكلام عن شحذ الذهن ومضاء العزيمة ووجوب التهافت على العلوم الميكانيكية وركوب الأخطار. أمّا كونه أصاب في نقده العقلية والتربية الإنجليزيتين أم كان في التقريع والتهكّم مبالغاً - فإنّ الغلوّ في مثل هذه المواقف أدعى إلى التنبيه وأفعل في الاستفزاز.

إنّ كاتباً من طراز ويلز وأضرابه وجد ليفتح سبلاً جديدة باستثارة همّة قومه وغير قومه ولو بالتنديد المرير. وإذ أتصفّح كتابه هذا الذي بين يديّ وأقرأ في البرقيات خبر فوز إنجلترا للمرّة الثانية بكأس شنيدر(٥) لسرعة الطيران، وذلك بعد كتابة ما كتب بعشرين سنة فقط، حتى أنّها إذا هي ربحت في المسابقة المقبلة أصبحت الجائزة لها بصفة نهائية فلا تنازعها بعدئذ فيها دولة.

أقول إنّي إذ أقابل بين تقريع هذا وبين تفوّق البلاد التي ينتقدها، أتساءل هل هو الآن راض عن فوز الطيّار وجهورن(٦)، وهل هو لو شاء أن يخاطبه في هذا الأمر يوجّه إليه الكلمات التي تحمل الناجحين على النوم فوق ما أحرزوه من أكاليل النصر؟ أم هو يفكّر في إبلاء «جراف تسبلن»(٧) في هذه الشهور الأخيرة ويفكّر في جهود الدول الأخرى فيكتب إلى الظافر كلمات مريرة نارية تثير السخط وتستفزّ قوى جديدة كامنة؟

كان إمبراطور ألمانيا السابق(٨) يقول - وهذه من كلماته المأثورة التي جلبت له عداء الكثيرين - «مستقبل ألمانيا على البحر». ولكنّ العلم تقدّم منذ ذلك الحين فامتطت أطماع الإنسان ورغباته متن الهواء. ولئن أبدت جميع الدول بعد الحرب نشاطاً لم يعهد من قبل في ترقية أساطيلها وقطاراتها وفي زيادة أسباب المواصلات وتحسينها في البرّ والبحر، فإنّ همّها الأكبر منصرف الآن إلى الطيران لأنّ مستقبل جميع الدول في أجواز الفضاء لا فرق بين المخترع منها والمقتبس للهجوم والدفاع على السواء.

ومنذ أعوام تعيش الديار المصرية في سلسلة عواصف متنوّعة متقطّعة فما تنجلي كل عاصفة إلّا والبلاد أوفر قوّة، وأتمّ يقظة، وأمضى عزيمة، وأدقّ انتباهاً إلى مصادر القدرة في العالم.

فهل من خبير ينبّئنا عن عدد الشبّان المصريين المنصرفين إلى درس فنّ الملاحة الجوّية؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠٨٦، ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) الأصل الإنجليزي: Herbert George Wells, *An Englishman Looks at the World: Being a Series of Unrestrained Remarks upon Contemporary Matters* وقد نُشر في لندن عام ١٩١٤ .

(٢) رائد الطيران الفرنسي Louis Blériot (١٨٧٢ - ١٩٣٦)، أول من عبر القنال الإنجليزي، أو بحر المانش، بين كاليه (Calais) ودوفر (Dover) في ٢٥ تموز/يوليو ١٩٠٩ خلال ٢٧ دقيقة و ٢٠ ثانية بطائرة صغيرة يدفعها محرّك بقوّة ٢٥ حصان. لعب دوراً بالغاً في تطوير صناعة الطيران الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى والفترة التي تبعتها.

(٣) Dreadnought ، اسم بارجة بريطانية بُنيت لأول مرّة بين ١٩٠٥ - ١٩٠٦ .

(٤) Derby ، سباق خيل يُقام كل سنة قُرب لندن.

(٥) Schneider Cup ، أول سباق دولي للطيران أنشأه الصناعي الفرنسي Jacques Schneider عام ١٩١٢ .

(٦) Henry Waghorn ، الضابط في الطيران البريطاني الذي حاز على كأس شنيدر في ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩ .

(٧) Ferdinand Graf von Zeppelin (١٨٣٧ - ١٩١٧)، مصمّم مناطيد ألماني، أول من بنى عام ١٩٠٠ منطاداً صلباً قابلاً للتوجيه اقترن باسمه وأمكنه بسرعة فرض نفسه على جميع التصاميم الأخرى. واصل نشاطه بعد وفاته أقرب العاملين معه، وهكذا قام الـ «جراف تسبلين» في أغسطس/آب ١٩٢٩، بعد محاولة فاشلة في مايو/أيّار من العام نفسه، برحلته الشهيرة من ألمانيا إلى اليابان عبر أمريكا ومن ثمّ رجوعاً إلى ألمانيا، وهي أول رحلة منطاد حول العالم في تاريخ النقل الجوّي.

(٨) غليوم ٢ (١٨٥٩ - ١٩٤١)، ملك بروسيا وإمبراطور ألمانيا ١٨٨٨ - ١٩١٨ .

ذكرى وفاة ثروت باشا

للعنوان كما للقافية أحكام. والمفهوم من عنوان كهذا أنّي أهمّ باستعادة الكيفية التي شاع بها نبأ وفاة ثروت باشا وأن أتطرّق إلى الإلماع، ولو إلى بعض ما توحيه وفاته من الأفكار والمعاني، لا سيّما في هذا الظرف الذي تجتازه البلاد بعد مرور عام واحد على رحيل رجل الدولة المصرية الكبير.

ففي مساء ٢٢ سبتمبر ١٩٢٨ كنّا في قاعة الطعام، أو في الخيمة التي تقوم بكازينو سان استفانو[١] مقام قاعة الطعام. والسهرة بهيجة شأنها ليلة السبت من كل أسبوع يؤمّها الناس جماعات فرحة أنيقة تطلب اللهو والرقص والغفلة بعيداً عن المشاغل العادية والمشاكل اليومية.

وما أزفت الساعة التاسعة والنصف حتى نهض الأستاذ داود بركات بك الذي كان يتناول طعام العشاء معي على مائدة واحدة، ومضى إلى الموعد المعيّن له في التلفون ليتصل بإدارة «الأهرام» في القاهرة، فيملي على زملائه هنا ما عنده من مقال أو حديث ويتلقّى منهم الأخبار المستجدّة، وبخاصّة ما وصل إليهم عن طريق تلغرافات «الأهرام» الخصوصية.

وقبيل الساعة العاشرة عاد الأستاذ وقد تغيّرت هيئته وظهرت الدهشة والحزن معاً على ملامحه. جلس إلى المائدة إلّا أنّ يده لم تمتدّ إلى زاد وشفتيه لم تتحرّكا بكلمة.

فقلت – هل من جديد؟ خيراً إن شاء اللّه!

قال – ليس في الخبر الجديد شيء من الخير... مات ثروت باشا في باريس.

– وهل الخبر محقّق؟

– لقد جاءت به التلغرافات الخصوصية وأكّدته التلغرافات العمومية.

– أتفقد مصر ثروت باشا بعد أن فقدت سعد باشا، بعد أن هجع جبّار الوادي بعام واحد؟

– وفي هذه الظروف يموت ذاك الذي كانت البلاد تنتظر منه...

– كان ينتظر منه أيّ شيء؟

– ......

الناس في الخيمة يتسامرون ويضحكون، والكازينو في أبهى مجاليه وباشرت الأركسترة هنا وهناك عزف الألحان المغرية، وقد أقبلت أفواج السمّار رجالاً ونساءً بملابس السهرات متهيّئين لساعات الأنس والطرب.

إلّا أنّ النبأ المحزن الذي لم يكن يعرفه منذ حين إلّا رئيس تحرير الأهرام لم يلبث حتى شاع فتناقله الناس بصوت خافت وقلب واجف. ووصل إلى إدارة الكازينو فأوقفت الحفلة الاجتماعية في الحال، وأسكتت الأوتار، وأطفأت الأنوار وانقلب الناس عائدين أدراجهم إلى المدينة، وساد الكازينو سكوت رهيب لأنّ شبح الموت قد تهادى بين زمر الأحياء... وارتفع هدير البحر القريب وصخب كأنّما هو يقذف إلى الشاطئ بصوت الأقدار..

* * *

هذا مطلع الحديث الذي يوحي به العنوان. غير أنّ للذكرى كذلك أحكاماً خاصّة بها لا تخضع لمنطق ولا تتقيّد بقانون.

هنا ينقطع عليّ تسلسل الذكرى المباشرة. وكما يتفق أنّ رواية صغيرة تهلّ خلال رواية كبيرة، تنكشف أمامي أستار ضمن هذه الصورة لتظهر صورة أخرى في مكان آخر.

تنكشف الأستار عن احتفال حافل بدار الأوبرا الملكية. فإذا بي في مساء ٣٠ مارس سنة ١٩٢٨ . نحن في حفلة تأبين الدكتور صرّوف وقد احتشدت في هذه الدار طائفة من خير من أنجبت مصر، وجلس على المسرح أعضاء لجنة التأبين يتقدّمهم رئيس اللجنة التنفيذية، معالي علي الشمسي باشا وزير المعارف في ذلك العهد. وجلس حولهم خطباء الحفلة وشعراؤها، ووراءهم هيئة الصحافة ونفر من العلماء والأدباء.

وفي وسط الجمع ارتفع صوت هو الصوت النسوي الوحيد الذي تكلّم في ذلك الاحتفال: صوتي الضعيف.

ككل خطيب وشاعر أتكلّم وسط السكوت الشامل حتى لقد يسمع هناك الجمع همس الصوت الخافت. وعبثاً يأتي الخطيب بالمعاني المؤثّرة والذكريات المثيرة الأشجان، فالجمهور لا يتلقّاها بغير الصمت. يتكلّم الخطيب وينتهي ويجلس في مكانه ويعقبه على المنبر خطيب آخر ولا استقبال من الحضور، ولا توديع ولا استحسان ولا موافقة إلّا بالسكوت المتواصل.

أسمعني متكلّمة فإذا بي أقول:

«في مثل هذا اليوم وهذه الساعة منذ عامين إلّا شهراً واحداً، اجتمعنا هنا للاحتفاء بعيد «المقتطف» الخمسيني وكانت هذه الدار داوية باسم صرّوف. في وسط هذا المسرح كان ينتصب تمثال فاخر جادت به أريحية المهاجرين إلى الديار الأمريكية من السوريين واللبنانيين. وحيال التمثال الصامت الجامد كان من مصر تمثال حيّ نابض تكوّن من ممثّل صاحب العرش ومن جميع الهيئات الرسمية والأحزاب السياسية والنزعات الفكرية. تبعت تركيا المقدور من تاريخ تطوّرها فصارت لهذه الأقطار صديقة بعد أن كانت سيّدة. فإذا بك، يا مصر، تتحرّكين تحرّك الأسود، وتتبوّئين المكانة المعدّة لك بين أقطار الشرق الأدنى، وتتولّين الزعامة في رفع شأن العلم وتقدير الفضل كما أنت زعيمة في الصيحة العالية للحرّية والاستقلال وكما أنت زعيمة في الدعوة الشريفة إلى الوطنية والقومية...»(٢).

أيّة نفحة سحرية مرّت على هذا الجمع الخاشع فهزّته هزّاً وسرت فيه كآية حياة أقوى من قوّة الموت؟

هو اسم مصر وذكر نهضتها والإشارة إلى مكانتها وطموحها التي وحّدت بين هذه النفوس وأطلقت الأكفّ بالتصفيق الحادّ المتواصل...

ما هو الدافع الذي يحدو بالخطيب عند هذا الكلام أو لدى ذلك الاستحسان أن يوجّه نظره إلى هؤلاء الأشخاص أو أولئك؟

لست أعلم: ولكن بينا عاصفة التصفيق تلجّ سار نظري من ثروت باشا رئيس اللجنة الفخري إلى مصطفى النحّاس باشا رئيس الوزارة في ذلك الحين، إلى محمد

محمود باشا وزير المالية في تلك الوزارة، إلى يحيى إبراهيم باشا رئيس وزارة سابقة... جميع هؤلاء الرجال كانوا يشتركون في التصفيق وعلى وجوههم ابتسامة سعيدة واحدة، هي الابتسامة التي أثارها اسم مصر وذكر حبّهم المتشابه لها. وأخذت أبحث عن وجه حافظ رمضان بك وأنا واثقة بأنّي سأراه مصفّقاً ذلك التصفيق مبتسماً تلك الابتسامة.

في الكازينو تغلّب معنى الموت على جلبة الحياة فأطلقت الأقدار صوتها الرهيب. أمّا هنا في هذه الحفلة فقد خطر اسم مصر وانتشر على هذه القلوب، وحيث تذكر مصر وتذكر آمالها فلا مكان للموت، وشدو الأمل يعلو على وجيب الأقدار.

* * *

ثمّ ماذا؟

لا شيء! اليوم ٢٢ سبتمبر ١٩٢٩ ذكرى وفاة ثروت باشا رجل الدولة الكبير. فأترحّم عليه. ويخيّل إليّ أنّه في مثواه يرضيه أنّ ذكرى وفاته نبّهت، حتى في خيال نسوي، صورة ائتلاف أبناء وطنه في ذلك الحين، ائتلاف وثيق في قلوبهم يشعرون به جميعاً كلّما ذكر اسم وطنه...

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠٩٣، ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) فندق تاريخي مع كازينو يقع على الكورنيش في الإسكندرية.

(٢) انظر النصّ الكامل لكلمة ميّ زيادة في الحفل التأبيني ليعقوب صرّوف بتاريخ ٣٠ آذار/مارس ١٩٢٨، الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٥٩٩، ٣١ آذار/مارس ١٩٢٨، ص ٥ و ٧ [٢١]، في هذه المجموعة.

ليست مسلّات روما من عمل التقليد
بل هي مسلّات مصرية صميمة

ختم الأستاذ سامي الجريديني(١) مقاله الطروب عن روما المنشور في «مقطّم» أمس الأول، بهذه الجملة: «ويستوقف نظره (المصري) المسلّات الكثيرة المنصوبة في أنحاء روما وهي تقليد المسلّات المصرية».

وإنّي لأستأذن الأستاذ الفاضل بأن أتناول قوله هذا بتقرير الحقيقة التاريخية. ولا أخال حضرته إلّا موافقاً على ذلك نظراً لما نعهده نحن القرّاء في كتاباته الناضجة من صحّة الحكم وقدر الوقائع قدرها.

إنّ جميع المسلّات القائمة في روما مصرية صميمة، نقلت من وادي النيل في أوقات مختلفة إثر الفتح الروماني لمصر وخلال ذلك الفتح.

معلوم أنّ الغنائم هي بعض مطامع الحروب وأنّ السلائب إن هي إلّا بعض نتائج الفتوحات. وأية غنيمة وسليبة أنفس من هذه التي هي من المثل الفنّية والأنصاب التاريخية التي ابتكرتها حضارة مصر السحيقة وتفرّدت بها في العالمين؟

كانت الأسر الفرعونية تقيم فيما تقيم من التماثيل والأنصاب، مسلّات ينقش عليها تاريخ الظرف الذي أقيمت فيه وعهد الملوك الحاكمين وأسماؤهم وألقابهم والإله الذي كُرّست المسلّات لعبادته. فاختار قياصرة الرومان خمسين من أجمل المسلّات وأفخمها ليزيّنوا بها قاعدة ملكهم ويسجّلوا بها مجد انتصارهم. ولقد دحر الزمان كثيراً من تلك المسلّات إلّا أنّه أبقى على اثنتي عشرة منها تنتصب جميعاً هنا وهناك في ساحات روما وميادينها.

ولئن كانت المسلّة المنصوبة في الفناء الأفيح الخارجي لكنيسة القدّيس بطرس ملساء خالية من الكتابة الهيروغليفية فإنّ النقوش والرموز المصرية ما زالت ظاهرة، ولو بعض الظهور، على سائر المسلّات الأخرى، رغم عاديات الأيام.

ومن أكبر هذه المسلّات وأوضحها كتابة المسلّة القائمة في «ساحة الشعب» (بياتْزا دِلْ بوبولو) وسط ينابيع أربعة تقذف أفواه الأسود المرمرية مياهها. وهي مدعوّة «بمسلّة فلامينيوس» وطولها ٢٤ متراً ونقوشها ظاهرة سرعان ما يعرفها المصري وغير المصري الذي اعتاد مرأى الهيروغليفية على الآثار دون أن يكون ملمّاً بطريقة قراءتها. وتلك النقوش تحدّث بمجد الفرعونين المصريين سيتي ورعمسيس الثاني (من القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل المسيح). وقد حمل أغسطوس قيصر هذه المسلّة من هيليوبوليس القديمة بيد أنّها لم تثبت في مكانها الحالي إلّا سنة ١٥٨٩ على يد المهندس النحّات الإيطالي دومينكو فونتانا الذي اختار لها الميدان المذكور مقاماً.

أمّا قبل ذلك فقد كانت شأنها في مصر، مكرّسة لعبادة الشمس وظلّت قائمة وسط «الملعب النيروني الأكبر» قروناً طوالاً، بمعنى أنّ هذا النصب الذي كان قد ألف الروح المصرية المسالمة التي امتازت دياناتها القديمة - فيما امتازت به - بأنّها تأبى الضحايا البشرية حتى أنّ البحث التاريخي المدقّق أثبت أخيراً أنّ أسطورة «عروس النيل» السنوية لم تكن إلّا أسطورة فحسب، قلت إنّ هذا النصب قُدِّر عليه أن يشهد في روما ما قاساه المسيحيون الأولون من العذاب والنكال في ساحة ذلك الملعب النيروني منذ عام ٦٤ ميلادية وأن يشعر بلهب الحريق لافحاً قمّته في تلك الليالي المفزعة التي تبعت فاجعة روما القديمة.

يأتنس المصري في بادئ الأمر إذ يرى مسلّة أو مسلّتين قبل التفكير في الغرض الذي جاء بهما من ديارهما الأصلية ويحيّيهما قائلاً: «ها! أنتما من بلدنا!». ولكن عندما تتوالى هذه المسلّات أمام ناظريه، ويفكّر في أمرها قليلاً يأخذه شيء من الانقباض والاكتئاب ويرى الوحشة مخيّمة حواليها رغم ما يحيط بها من طرف فنّية، لأنّها وسط ذلك الجمال الباهر غريبة، وعظمتها الطارفة، وحيال تلك العظمة الوطنية، تمعن في إرهاف غربتها.

ولقد تناقلت الصحف منذ أيام خبراً ينبئ بعزم إنجلترا على إرجاع مسلّة لندن إلى مصر. ونحن نقدّر هذه الفكرة الودّية من جانب إنجلترا، فهي لا شكّ تدلّ على الرغبة في الإنصاف والرغبة في الصداقة.

ماذا نعرف نحن من حسّاسية الحجر؟

إذا كان بين ملايين البشر أناس يحنّون إلى أشخاص دون سواهم، وكان كل من الموادّ الكيمائية لا يأتلف إلّا مع موادّ دون سواها، وكان النبات ذا حسّاسية يدرسها الآن علماء النبات بشغف واهتمام، فعلام يكون ما سمّته القسوة البشرية «جماداً» جامداً؟ كيف يكون الحجر فاقد الشعور والحياة في هذه الخليقة النابضة بالحياة والشعور؟

منذا يدرينا أنّ هذه المسلّات لا تذكر موطنها القديم في المقالع التاريخية الهاجعة في قلب جبال ليبيا وجبال النوبة، تلك المقالع المصرية التي لم تخرج مقالع غيرها آثاراً عظيمة ذات أحجار فخمة واحدة؟

منذا يدرينا أنّها لا تتوق إلى الهياكل الخالدة ذات الروعة والجلال حيث الأشكال لا تموت ولا تفنى بل تبقى دواماً في انتظار الروح المحيية؟

منذا يدرينا أنّها لا تتمنّى أن تتجندل صرعى في بلادها بين بقايا التماثيل ومحطّم الجدران، أو أن تنقلب مهجورة متروكة بين رمال الصحراء؟

منذا يدرينا أنّها لا تشوق إلى ربوع النيل، إلى مياهه الزرقاء، إلى مروجه الفيحاء، إلى أصباحه الهنيئة وأمسائه الشجيّة، إلى أطفال مصر يمرحون حواليها في ألعابهم، إلى فلّاحي مصر يجلسون عليها أو في ظلّها يطلبون الراحة بعد ساعات الكدّ والعناء؟

يا مسلّات مصر القائمة هناك على شواطئ التيبر الأشهب، يا آثار الفراعنة التائهة بين آثار القياصرة المهيبة! لقد كنّا نمرّ بك إلى اليوم باسمين غافلين فلم نخاطبك في سرّ ولم ينظم شعراؤنا في مناجاتك نشيداً أو قصيداً. ولكنّنا بعد اليوم فاعلون! وما ذكرناك منذ الساعة إلّا ذكرنا فيك العظمة الأسيرة الشاعرة بالغربة والحنين!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠٩٨، ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) سامي يعقوب الجُرَيْديني (١٨٨١ - ١٩٥٠)، محام وأديب لبناني مقيم في مصر. عُني على وجه الخصوص بترجمة بعض مسرحيات شكسبير.

مشكلة التعليم هي أمّ مشاكل اليوم

وليس يكفي لحلّها توسيع الفصول وزيادة عدد المدارس

- ٥ -

بدأتُ سلسلة هذه المقالات عن التعليم في العام الماضي إثر محاضرة ألقاها الأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك في قاعة الجمعية الجغرافية[١]. وأستأنفها اليوم وقد ظهرت من هذه المشكلة ناحية أخرى كانت قد لاحت بوادرها في الأعوام السالفة، غير أنّها في هذا العام أظهر وأحرج. ولا شكّ أنّها ستزيد شدّة وتحرّجاً في الأعوام المقبلة.

لقد أصاب الصحافيون والكتّاب وآباء الطلبة القائلون بأنّ أزمة التعليم في هذه الآونة أهمّ من الأزمة السياسية التي تعالجها البلاد، لأنّ الجماعات كالأفراد أسرع انفعالاً بالشؤون الداخلية الحيوية منهم بالشؤون الخارجية كائنة ما كانت درجتها من الأهمّية الحيوية. ولو كانت الأمّة على وفاق مع جميع من في الخارج وكانت مصالحها الخارجية مصونة من جميع الوجوه دون أن تتناول بالإصلاح والتعديل صميم شؤونها الداخلية، لظلّت أبداً في اضطراب وخطر. وعلى النقيض إذ كان الماسّ من شؤونها الداخلية في انتظام وكانت مطمئنّة إلى ما فيه من خير وموافقة وإحكام، فإنّ الأيام أمامها والوقت كفيل بتسوية مشاكلها مع الخارج لأنّ الحياة أبداً متوثّبة متجدّدة تخلق من الظروف والفرص ما قد يكون في الحسبان وما قد يكون مباغتاً غير منتظر.

ولو استثنينا الحاجات الصحّية المباشرة كماء الشرب وردم البرك والمستنقعات الذي عنيت به الوزارة الراحلة، والوقاية الصحّية على اختلاف أنواعها، ومكافحة الأمراض المنتشرة والأوبئة الفاتكة مما نرى فيه دراية نافذة وهمّة مشكورة من جانب سعادة الدكتور شاهين باشا وأعوانه[٢] - إذا استثنينا ذلك فإنّ مشكلة التعليم

والتهذيب هي أمّ المشاكل في جميع البلدان وبخاصّة في مصر وأخواتها من أقطار الشرق الأدنى.

علام تختصّ مصر وجاراتها بهذا المشكل؟ أو، على الأقلّ، علام يبدو لنا ذلك أخصّ فيهنّ وأظهر؟

لأنّهنّ جميعاً داخلات على حياة غير حياتهنّ الماضية. فيتحتّم النظر في برامج التعليم المعدّة للحياة الماضية، ويتحتّم إيجاد برامج جديدة ومدارس جديدة تتوافق ومطالب الحياة الجديدة ومقتضياتها، وتكفل إنماء المواهب وتثقيف الاستعدادات، وتكون ضمينة بتوزيع القوى على شتّى فروع الحياة القومية. هذا في حين أكثر الشعوب الأخرى تسير في منهجها المرسوم قديماً فتكتفي بالبناء على الأسس الوطيدة وبالتعديل والتوسّع وفقاً لما يتغيّر وينمو من الحاجات والمقتضيات في بلادها.

وتعالج مشكلة التعليم في هذه الأيام وفي مختلف صحفنا أقلام قديرة عليمة. ولكنّي أراها جميعاً مشيرة ولو بغير تعريف إلى لباب هذا الأمر: وهو أنّ أكثر المدارس تعنى بصنف واحد من الاستعدادات وأنّ أكثر مناهج التعليم لا تخرّج إلّا طرازاً واحداً من الكفاءات.

وإذا كان التعليم عقدة العقد فلأنّ مجموع الأمّة يتكوّن من هؤلاء الذين يتعلّمون. ولئن كان لكل فرد، أمّياً كان أم متعلّماً، أثر ما في الحياة العامّة فالمفروض أنّ المتعلّم أصدق أثراً لأنّه أدقّ نظراً، وأشمل إدراكاً، وأدرى بوسائل الإنماء والاستغلال والنفع والانتفاع.

وإذا كان على التعليم المعوّل الكبير في النهوض بالأمّة فلأنّه بمعناه الواسع يتناول جميع مرافق الحياة، ويعالج جميع فروعها، ويؤثّر في جميع مناحيها. فنتيجته إذن متجمّعة تحيي جميع الآمال أو هي تقضي عليها أجمعين.

وإن كان اليوم ألوف الطلبة يقفون عند أبواب المدارس وقفة المتسوّل الكئيب وكان ألوف الآباء في حيرة مؤلمة لا يعلمون كيف يصونون مستقبل أبنائهم – فليس مرجع ذلك إلى ضيق المدارس فقط ولكنّه ناتج أيضاً عن قلّة تنوّعها وعن انتهاج أكثرها نهجاً واحداً يتهافت عليه العدد الأوفر من طلّاب العلم.

وللإبطاء في تنويع المدارس أسباب جمة، أهمّها الظروف نفسها. ومع ذلك فقد عرفت طائفة من وزراء المعارف المتعاقبين في الأعوام المتأخّرة أن يتغلّبوا على الظروف بقوّة إرادتهم وبثاقب نظرهم وبمعاونة مساعديهم فأوجدوا في حركة الدراسة والتعليم تجديداً يشكرون عليه شكراً وفيراً.

أمّا اليوم فالأحوال نفسها في تغيّر، وحالة البلاد النفسية في تبدّل، واستعداد الجمهور وعقليته في نموّ واطّراد كما أنّ مواهب الطلبة وحاجات البلاد آخذة في الظهور والتنوّع. فتنوّع المدارس من زراعية وصناعية وفنّية أصبح محتوماً. وكل ذلك نتيجة اليقظة ونتيجة صيحة الحرّية الشائعة في جميع النفوس.

هنيئاً لأمّة يلهبها شوق كبير ويهزّها أمل كبير! هذا طور تروج فيه الحيرة والألم والتفطّر والخطأ كذلك. ولكن لا يأس مع الخطأ إذا فكّر القوم في إصلاحه. والإنسان لا تنمو ملكاته وتنسجم، ولا تنفتح أمامه مغالق الأمور ولا هو يهتدي إلى الصواب إلّا عن طريق الخطأ.

وماذا يهمّ الألم؟ إنّه ملازم للنفس المتيقّظة التي أخذت تقابل بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون.

ولكنّ هذا الطور هو خصوصاً طور الرجاء والإقبال على النشاط، طور الخروج من الجمود وتمزيق الأكفان، طور فتح أبواب الممكنات، طور السير في نور الشمس ومسالك الحياة الرائعة، طور البعث.

ملايين الأصوات تتماذج[٣] الآن في الشكوى والأنين والرغد والانتصار، ولكن يعلوها جميعاً معنى واحد: معنى البعث.

البعث في العقول، البعث في النفوس، البعث في المطامح، البعث في كل مكان! وإنّي لجذلَى بالوقوف عند هذه الكلمة الميمونة ليلة الجلوس الملكي السعيد اذ تنشر المدينة أعلامها، وتضيء الصروح أنوارها وتتلألأ في الآفاق بهجة العيد الشامل.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٠٧، ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) انظر مقالة ميّ زيادة «كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (١): الأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك يحاضر فيفتح باباً رحيباً للكلام في الموضوع هو أحرى ما يكون بالبحث والتجديد»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٨٨٠، ٢ شباط/فبراير ١٩٢٩، ص ١ [٤٤]، في هذه المجموعة.

(٢) الدكتور محمد شاهين باشا (١٨٨٧ - ١٩٥٣)، الطبيب الخاصّ للملك فؤاد ومدير عامّ الصحّة العمومية.

(٣) كذا في الأصل، والصواب «تتمازج».

المجمع النسائي العربي ببيروت

يدعو إلى عقد مؤتمر نسوي عامّ
في الربيع المقبل بمدينة دمشق

لم يمض زمن طويل على يوم تأسيس المجمع النسوي العربي ببيروت ومع ذلك فإنّ بوادر همّته تبشّر بكل خير[1]. وقد كان له منذ تأسيسه مظاهر عدّة تدعو إلى التفاؤل والثناء. على أنّ ما نشكره له بوجه خاصّ نحن المقيمات في مصر، هو حفلة الوداع التي أقامها للسيّدة إحسان أحمد عقب انتهائها من دراستها في بيروت.

وبيروت، تلك المدينة الصغيرة الكبيرة، وسط تتلاطم فيه الأفكار والانفعالات وليس أدلّ على يقظتها من يقظة نسائها. ففي بيروت وحدها ٢٧ جمعية نسوية تعنى بتهذيب الفتاة، وإغاثة البائس ومعالجة المريض، وإيواء العاجز، وإنهاض الصناعة الوطنية، وإحياء اللغة العربية، إلى غير ذلك من الأعمال الخيرية والوطنية والاجتماعية.

وليست نساء دمشق المتوهّجة دونهنّ وطنية وذكاءً، هنّ اللائي تجلّت وطنيتهنّ وحذقهنّ غير مرّة فأثارت إعجاب الجميع. وقُلْ مثل ذلك في نساء طرابلس وحلب وحمص وحماة وغيرها. ولذلك ما شاعت أغراض المجمع النسائي ببيروت حتى صادفت قبولاً ونجاحاً فتأسّست له فروع في دمشق وحيفا وسواها. وها هو اليوم يدعو إلى عقد مؤتمر نسوي عامّ بمدينة دمشق كان يسعى له منذ شهور ولكن يظهر أنّ فكرته انجلت وتقوّت وفازت بموافقة عامّة.

* * *

وسينظر المؤتمر في المسائل الرئيسية التالية:

أولاً - النظر في حالة المرأة.

ثانياً - إحياء آداب اللغة العربية.

ثالثاً - ترويج المصنوعات الوطنية.

رابعاً - تعزيز الوحدة القومية بين نساء الطوائف المختلفة.

خامساً - تعليم الفتيات وتهذيبهنّ لرفع مستواهنّ.

وليس من يطلع على هذه المسائل إلّا ويحمد للمجمع حسن اختيارها ويوافق على ضرورة بحثها. وإذا كانت المرأة اليوم في العالم تتفاهم مع أخواتها في شتّى البلدان رغم تنافر السياسات، وتباين الأطماع، واختلاف الأديان لتحسين شؤون النساء عامّة والعمل للسلم بين الشعوب - فأحرى بنساء الأقطار ذوات اللغة الواحدة أن يتفاهمن فيما بينهنّ لا سيّما وأنّ لهنّ من شؤونهنّ وأحوال بلادهنّ وعاداتهنّ وتقاليدهنّ وحاجاتهنّ ما يختلف نوعاً عن أحوال المرأة في البلدان الأخرى.

وأمّا ما يبدو في بادئ الأمر من هذا البرنامج غريباً عن الشؤون النسوية الصرفة فهو في الواقع رهن نفوذ المرأة المباشر. عنيتُ إحياء آداب اللغة العربية وترويج المصنوعات الوطنية.

وليس يعني إحياء اللغة العربية مقاطعة غيرها من اللغات. إنّنا في حاجة إلى اللغات الأجنبية، ونحبّ تلك اللغات لأنّنا أشرفنا من خلالها على معان عالية ومعلومات مرهفة للأذهان مثيرة للنشاط وهي لنا قوّة لا غنى عنها في مضمار النهوض والتقدّم، كما أنّها تمكّننا من التفاهم الودّي مع جميع أبنائها. ولو سنحت لي فرصة لتعلّم لهجة بلاد نيام نيام لما تردّدت. فكيف بلغات الشعوب التي تسيّر مدنية العالم بيد جبّارة؟

على أنّ اهتمامنا بلغات الآخرين وإحلالها المحلّ اللائق بها من الإكرام لا يجوز أن يكون فيه القضاء على لغتنا أو إضعافها والغضّ من شأنها - بل يجب أن يكون في يدنا أداة تقوية لها وتجديد. والمرأة هي التي تلقّن الطفل الكلمات الأولى، ومعها تدور أحاديث الحبّ والعطف والعناية والاهتمام. وحسبها ذاك لتكون أعظم حارسة للغة وأقدر مروّجة لها.

وكانت المرأة إلى عهد قريب إن هي كتبت تفاخر بتقليد الرجال، فلم تخلق لها أدباً نسوياً صرفاً يعبّر عن الروح النسوية في بساطة وصدق دون تعمّل ولا تزييف ويكون في تاريخ آداب اللغة ذا طابع خاصّ يمثّل عواطف المرأة وآلامها وآمالها.

أمّا امرأة هذا العصر فبتيقّظها وتشرّبها بروح الحياة الجديدة وما يساورها من مشاكل وفواجع ونزعات، تنتهج لها في اللغة نهجاً خصيصاً، وتخلق أدبها خلقاً جديداً وهي في مختلف الأقطار العربية، كاتبة وخطيبة، ذات كلمة موزونة، وبيان مهذّب ورأي حصيف، وصوت مسموع، وذات أثر بعيد المدى. وما أعذبها نشوة أن تخطّ كلمة واحدة فيدوّي صداها بين نحو ثلاثمائة مليون من أهل اللغة العربية ومعزّزيها في شتّى الأقطار، ويكون وقعها عندهم وقع كلمة الحبّ في قلب الشخص الواحد المحبّ المحبوب!

وما يقال في اللغة ينطبق على المصنوعات الوطنية. فعند المرأة حاجات العائلة وبيدها تنظيم شؤونها. وليس أقدر منها على ترويج الصناعة الوطنية وتنشيط تجارة البلاد وبذا تكون مشجّعة الصنّاع الوطنيين وحاثّتهم على إحياء الأشكال القديمة واستمداد الوحي منها ومن المستحدث جميعاً للتجديد والإبداع.

ولقد أحسن المجمع النسوي بجعل برنامج المؤتمر خالياً من الموادّ السياسية فللمرأة ميدان أهمّ من السياسة وأفعل وأنفع. وسادتنا الرجال يخافون كثيراً من المرأة المشتغلة بالسياسة. أولئك الصناديد الذين يخوضون معامع الحرب أسوداً، ويقودون حظ العالم أبطالاً، يرتعشون أمام امرأة أو فتاة ذات صبغة حزبية أو لون سياسي حتى ولو كانت المرأة ذات عين مكحولة وثغر بسّام. أمّا إذا كانت غير مشتغلة بالسياسة وأبوا إلّا أن يكونوا «واهمين» أنّها فاعلة، فهناك النكتة المليحة الظريفة!

فلنترك الرجال - وا أسفاه! - يتناحرون ولنكن أبداً خالصات من دسائس السياسة ومختلقاتها وافتراءاتها وتعاريجها، ولتكن أعمالنا ناصعة صريحة في ضوء الشمس، وأقوالنا طاهرة حارّة كحبّ الأوطان. ولست أحبّذ هنا من خطّة المؤتمر إلّا ما جريت عليه دواماً، فلم أشتغل يوماً بسياسة، ولم أنتمِ مرّة إلى حزب.

ولنترك للرجال السيادة الخارجية كلها فهم بغريزتهم ووراثتهم متمسّكون بها ونحن

لا نحتمل الخمول للرجل ولا نريده إلّا سيّداً. ولنترك لهم مظاهر الأبّهة بحذافيرها فالرجال في حاجة إلى من يعجب بهم ونحن في حاجة إلى من يثير إعجابنا.

كذلك أحسنت سيّدات المجمع باختيار مدينة دمشق لعقد المؤتمر، ولا أشكّ في أن سيكون لدعوتهنّ الصدى الجميل بين بنات مصر الناهضات كما بين بنات سائر الأقطار الأخرى. ولنا من كرم الحكومة السورية وكياسة السلطة الفرنسية وعطف الرجال وهمّتهم كفيل بأن يؤيّدوا فكرة هذا المؤتمر وينشّطوها هيئات رسمية وكتّاباً وصحافة وجمهور قرّاء. إذ ليس هذا المؤتمر في الواقع إلّا نتيجة من نتائج فضل الرجال في إيقاظ المرأة في الشرق وإنهاضها وتنبيهها إلى واجباتها.

* * *

بعد هذه الموافقة العامّة أودّ الإدلاء بملاحظات طفيفة ولسيّدات المجمع أن يناقشنها فيأخذن بالصائب منها ويعرضن عمّا هو غير مستحسن.

إنّ برنامجهنّ خال من رعاية الطفل، وأيّ واجب أحبّ إلى المرأة من هذه الرعاية، وأيّ عامل أقوى من الطفل في تهيئة صرح المستقبل؟

كذلك لا يشرن إلى النظر في حالة المرأة العاملة ووجوب الاهتمام بتسهيل وسائل العمل لها. قد تكون الموادّ الرئيسية حاوية لهاتين المادّتين ولكن خيراً أن تكونا من الموادّ الجوهرية نظراً لأهمّيتهما.

ومما لا يحتمل الشكّ أنّ اللغة العربية هي لغة المؤتمر الرسمية. ولكن ليس ما يمنع أن تكون كذلك بعض الخطب والبيانات باللغتين الأكثر شيوعاً بين المتعلّمين والمتعلّمات في الشرق الأدنى: عنيت الفرنسية والإنجليزية. والغاية من هذا تمكين الراغبات من أخواتنا الأجنبيات من تتبع غايات المؤتمر مباشرة دون توسّط الترجمة التي كثيراً ما تحرّف المعاني وتشوّه المقاصد.

ولي وطيد الأمل في أنّ هذا المؤتمر الذي ترئسه وتفتتحه السيّدة نور هانم حمادة، سليلة بيت من أكبر وأعرق البيوتات الدرزية بلبنان، والذي يضمّ بين أعضائه المسلمة والمسيحية، ستشترك فيه سائر العناصر الأخرى من يهودية ونُصيرية، بل يكون كذلك

فيه كلمة لامرأة القبائل البدوية، ليكون مؤتمر المرأة الشرقية العربية فتشرح كل حالتها وتعرب عن حاجتها ويكون من الكرامة والأهمّية بحيث يعدّ حقّاً أول مؤتمر من نوعه في تاريخ الشرق الأدنى.

بقيت مسألة تحديد الموعد وقد رأى المجمع أن يكون في الربيع القادم. فلو فرضنا أنّه سيقع في شهر مايو (ودمشق في شهر مايو على أبهج ما تكون) فلست أدري هل ستّة أو سبعة أشهر تكفي لإعداد المعدّات المحلّية ومخابرة الوفود من الخارج وتهيئة الخطيبات لما لديهنّ من البيانات بعد البحث والتروّي، لا سيّما وأنّ القادرات على الاشتراك في المؤتمر يجهّزن برنامج عامهن منذ الخريف. وعلى كل فهذا يتعلّق بحكمة الداعيات إلى المؤتمر وبما يفد إليهنّ من رسائل أخواتهنّ في الخارج.

أمّا جوابي الخاصّ فهو تلبية الدعوة سواء عقد هذا المؤتمر في الربيع القادم أو فيما بعده. ولسيّدات المجمع أن يتكلن عليّ لأنّي مستعدّة لتقديم كل ما في وسعي من المعونة لإنجاح المشروع. ولئن سعدت بزيارة هاتيك البلاد العزيزة والاجتماع بأبنائها وبناتها في مثل هذه الفرصة الجميلة فسأسرّ جَمّ السرور بمرأى الطفلة «ميّ» حمادة وبكل طفلة دعاها أهلها بهذا الاسم على ذكري.

وبعد، فإنّي، أيّتها الأخوات، أحيّي فيكنّ هذه العواطف التي عرفت أن تتكوّن خلال ذلّ الدهور وآلامها وفواجعها - نخوة ووطنية. وأزجي إليكنّ من على ضفاف النيل سلاماً يمضي إلى ثغر بيروت وقمم لبنان، وشواطئ بردى والعاصي، ويتناول ربوع دجلة والفرات إلى جزيرة العرب وشرق الأردن وأقطار فلسطين والجليل، وينطلق إلى ما وراء ذلك من جبال نائية وصحارى مترامية، فينتشر عليها جميعاً - مع معنى الخريف الذابل الشجي - ابتسامة ربيع وشباب ورجاء!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١١١، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) تأسّس المجمع النسائي الشرقي العربي في بيروت عام ١٩٢٨ من قبل السيّدة نور حمادة، وكان من أهدافها إثبات وجود المرأة اللبنانية في المنطقة العربية والشرقية، والإسهام في تنظيم المؤتمرات النسائية والمشاركة بأعمالها، لرفع شأن المرأة.

بمناسبة الاحتفاء بالعيد الخمسيني للمصباح الكهربائي

نشيد إلى توماس ألفا إديسن

اليوم ٢١ أكتوبر يحتفي أبناء بلادك والعالم المتمدّن بأسره «بعيد النور الذهبي» وهم إنّما يحتفون بفيض أنعامك على البسيطة، ويمجّدون فيك منحة العبقرية من الخالق القدير متجلّية في المخلوق لتجعل منه خالقاً بدوره قديراً.

كيف ترى كان العالم قبل خمسين حولاً؟ كيف ترى كانت لياليه وأنواره وأفراحه؟ هذا ما لا نعود إليه نحن السابحين في هذا اللألاء السحري العجيب الذي بعثته بسيطاً مألوفاً شائعاً بين الجميع.

أيّ المصابيح كانت تمكّن الآباء والجدود من تتميم أعمالهم، وتنظيم جهودهم واستغلال ذكائهم، وإلباس أعيادهم حلل البهجة والرواء؟ هذا ما لسنا نتخيّله نحن الراغدين بنعمة النور الطريف، الملتمسين لخدمتنا مصابيح تتوافق ونوع الأعمال وجلال الاحتفالات والأعياد.

* * *

يا ابن الأمّة الخطيرة المتشكّلة من جميع الأمم، المستغلّة كل ما سبق من مظاهر الحضارة المتتابعة الشاملة لتضيف إليها وتطبعها بطابعها الخاصّ المكين، الموزّعة من كنوز قلبها وعقلها وتدبيرها وثروتها على أنحاء المعمور - إنّك أنت العظيم بين أبناء أمّتك، عرفت كذلك أن تستفيد من جهود أقرانك رجال العلم عند جميع الشعوب، لتزيد عليها فتغلب الكون على أسراره وتسخّر قواه لخدمة الإنسان!

فالشعوب الليلة تمجّد علماءها وعباقرتها بتمجيدك، وجميع الأجواء صادحة متشعّعة زاهرة بخلود الكائن الفاني!

* * *

في هذا المساء يذيع صنيعك العالم قاطبة، وتسير إليك مئات الوفود من أنحاء أميركا وسائر أقطار المعمور، فيعقدون في ناديك حلقة ينوّه كل من فيها بأعظم مكتشف أوجده النوع الإنساني إلى اليوم وبأغزر المخترعين خصباً وأوفرهم إنتاجاً في حياته الشاقّة الجادّة. فتقابلهم أنت بابتسامة العالم الوديع، ناسياً ما نلته من مظاهر التكريم من مختلف الأمم، جاهلاً الشهادات المناهزة الألف جزاءً لخدماتك العديدة في ميادين العلوم الكهربائية والميكانيكية، وتصغي إليهم ولكن بمسمع صُمٍّ دون عالم النغمات والأصوات!

أخرجت لنا، أيّها المبدع القادر، التلفون والميكروفون والراديو ولكنّك لم تنل أنت منها نفعاً. ولست تتمتّع من مخترعاتك إلّا بما يتناوله البصر دون السمع كالسينما والتلغراف اللاسلكي الذي هيّأت له التيّار الكهربائي، وهذا المصباح الكهربائي المفعم الدنيا بهجة وحبوراً!

ولن تستطيع أن تسمع كلمات التقدير والشكران وقصائد الثناء والامتنان في أيّة لغة من اللغات. ولكنّك ترى خطباً بألفاظ من النور في هذه المصابيح التي أنت أنت منحتها إلى العالم، وتبصر قصائد من الأضواء ربطت بين الأحياء وانتظمت فوق الصروح وتناثرت في الفضاء ومضت تطوف الآفاق، مردّدة باللغة التي أبدعتها نعوت مجدك ومعاني فضلك، وبرسوم وصور وألوان تفوق كل ما في وسع المخيّلة أن تتخيّله وتجعل الليل البهيم أوضح من النهار وأبهى، وفيه تسير النسائم والرياح والأهواء من سماء إلى سماء متداولة رسالة العلم والمحبّة والبهاء!

* * *

كل صباح وكل مساء مجدك شائع وفضلك ذائع. ولكن الليلة يذكرك الناس أجمعون في شتّى الديار. يذكرك الصغار فيبهتون. ويذكرك الشبّان فتثور منهم النخوة ويرهف الإقدام. ويذكرك العلماء فيتضافرون وإيّاك على متابعة البحث واستئناف الغلبة شاعرين بأنّ مجدهم ومجدك واحد. ويذكرك العظماء فيطأطئون الجباه. وربّما نظر بعضهم إلى راحتيه حيال ذكراك إذ ندر العظيم الذي لم تلطخ يديه قطرات الدماء ولم تشوّه حسناته مساوئ الجور والعدوان. وأين ترى المنتصر الذي لا تباهي فتوحاته

بأشلاء الصرعى والمغلوبين؟ وأين ترى الباني الذي يشيد الأسس على غير الخراب والدمار؟

أمّا أنت، فالقدرة الإنسانية المستفسرة الغازية حيال لغز الوجود وتكتّمه الرهيب. والطبيعة بين يديك هي نفسها ظاهرة على الطبيعة، والكون لدى جهودك قاهر للكون، وما راحتاك الطاهرتان إلّا مبعث للنور والخير والإحسان!

أيّها الشيخ المذكي نشاط الشبّان! أيّها العامل المفهم العاملين شرف العمل! أيّها الرجل المنبّه في النساء عواطف الإعجاب والحنان! بين ألوف التحيّات الموجّهة الليلة إليك، ها هي ذي تحيّتي المتواضعة أخطّها ليس بأحرف النور الذي أبدعت بل بأحرف سوداء على صفحة بيضاء وبلغة لست تفهمها لو وقعت تحت ناظريك! فاقبلها وإن كنت غير عالم بها، لأنّها تحيّة تسير نحوك من الشرق البعيد العظيم ومن مصر ذات الحضارة الخالدة والمجد المقيم. اقبلها لأنّ من حقّ الصوت الضعيف الخافت أن يمجّدك شأن الأصوات القويّة القادرة!

* * *

فيم أنت تفكّر الليلة؟

إنّ لليالي المجد والظفر أحزاناً كليالي الانكسار والهجران!

أتُراك مشتركاً في السرور العامّ؟ أم أنت تفكّر في الجماهير الغفيرة التي لا تنعم بعطاياك إلّا في الشوارع دون أن تمكّنها الوسائل من التمتّع بها في المنازل؟

ولعلّك تفكّر في ما هو أوجع من ذلك وأشجى: في أولئك الذين يملكون منحتك ولكنّهم مع ذلك يطفئون مصباحك مختارين ليكونوا في الظلام الرفيق بوحدتهم واكتئابهم ألصق، وإلى شدائدهم وغمومهم أقرب؟

ذبل النهار وغابت الشمس وراء الأفق كمن يتساءل «منذا يقوم مقامي فيجلو الليل عن بني الإنسان؟». فإذا بأنوارك تفيض على الملأ بهجة وسناءً.

* * *

اليوم ٢١ أكتوبر يحتفي أبناء بلادك والعالم المتحضّر بأسره «بعيد النور الذهبي». وهم إنّما يحتفون بفيض أنعامك على البسيطة، ويمجّدون فيك العبقرية المعطاة من الخالق القدير لتتجلّى في المخلوق جاعلة منه خالقاً بدوره قديراً.

وهذه تحيّتي تسير إليك من الشرق السحيق العظيم، من مصر ذات الحضارة الخالدة والمجد المقيم. أحيّيك في أنوارك هذه التي تنتشر في أجوائنا فتنسينا ما في عقيق السماء من شهب وزواهر وأضواء!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٢٠، ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، ص ١ .

صوت القبور والنشور

نوفمبر، شهر الإحساسات الحزينة والذكريات الكئيبة، شهر المضض للأحياء والتفجّع للمحروبين، هو كذلك شهر الموتى.

شهر جميع الموتى هوا وفي جوّه تتمازج أصوات الراحلين فينجلي معناها مرّة بما لقّنوه لبني وطنهم وما كانوا يأخذون به في حياتهم من المبادئ والآراء، ومرّة بما ينطبق على حاجة الذين خلفوهم من المعاصرين والذراري والأحقاب.

غير أنّ الفضل فضلهم على كل حال، لأنّهم الحلقة الواصلة بين السابق واللاحق، والرابطة الحابكة بين الماضي والحاضر، والشرارة الناقلة النار من مركز إلى مركز، والنفحة الحاملة وسيلة الإنعاش من الحياة إلى الحياة.

قويّة هي عوامل الوجود وفعّالة نافذة جهود الأحياء. لكنّها أضعف من أن تداني عوامل الموت في النفوذ والسلطان. وجليل الصوت الضاجّ في الشوارع والساحات، مرهوب الصوت المنحدر من الصروح والقصور. ولكنّ هذا وذاك لا يوازيان في الجلال والروعة والسيطرة ذياك الركز المتسرّب من وراء صفائح القبور.

* * *

اليوم تحتفي مصر بعيد هو في طليعة أعيادها، وتعظّم تذكاراً هو من أقدس تذكاراتها، هو اليوم الذي انطلق فيه صوتها على لسان ثلاثة من رجالاتها: سعد زغلول باشا، وعلي شعراوي باشا، وعبد العزيز فهمي باشا. ولئن رحل الأولان إلى باريهما وانضمّت قواهما إلى قوى الماضي الخطيرة، فإنّنا نسأل اللّه أن يبقي ثالث الثلاثة طويلاً وأن يرعى بحمايته عبد العزيز فهمي باشا ذخيرة غالية بين الأحياء العاملين.

وماذا تُرى قال الثلاثة الرجال إلى سيّد قصر الدوبارة النبيل[١]؟

ليس يهمّ ما قالوه بالضبط مجتمعين أو ما قاله كل منهم على انفراد. إنّما تلك الخطوة وتلك الزيارة وتلك الكلمة كانت كلها رمزاً واحداً لأمر واحد: كلها أعلنت أنّ

المومياء المصرية القديمة التي قضت الدهور في انتظار الروح الحيّة، قد نزعت عنها الأكفان، وانبرت تنبئ العالمين بأنّ وقت البعث والنشور قد حان.

كلها جاهرت بأنّ قيود العبودية قد تقطّعت أوصالها وعفا زمانها، وأنّ القومية المصرية أخذت تتحفّز للوقوف إلى جانب القوميات الحرّة وقفة المثيل بجوار المثيل.

كلها أرسلت نبرة هي نبرة الذي أطلق نفسه بقوّة حقّه وواجبه ووطد النفس على إحراز ما يرفعه إلى المستوى الذي تصبو إليه نزعاته وآماله.

كلها أيّدت حقوق الذرّية الحاضرة وحقوق ما لا نهاية له من الذراري المقبلة وكلها كانت تتكلّم كذلك بلسان الذين قضوا من أبناء مصر مجاهدين كانوا أم واجمين، كانوا زعماء أو مفكّرين، وموالي أو فلّاحين.

أعظم روعة تلك الأصوات الثلاثة كانت مستمدّة من أصوات الماضي الصامت، من أصوات الأجيال السالفة، من أصوات القبور المتكتّمة، إذ لا شيء يعزّز الحاضر ويقوّيه في سبيل المستقبل كهتاف الماضي قريباً كان أو بعيداً.

جميع أصوات الناهضين الخالين كانت في تلك الأصوات الثلاثة: من جمال الدين الأفغاني إلى محمد عبده وعبد اللّه نديم[٢]، إلى مصطفى كامل ومحمد فريد وعلي فهمي كامل[٣] وأمين الرافعي... أحصوهم عنّي، أيّها المنصفون، فإنّي أخشى أن يفوتني اسم من أسمائهم الخالدة!

أحصوهم ولا تنسوا الأحرار من السوريين واللبنانيين الذين شرّدهم طغيان الحكومة الحميدية العتيقة، وأنصفوا الأموات منهم والأحياء!

أحصوهم ولا تنسوا النساء!

اذكروا نهضة المرأة المصرية في الحركة الوطنية! اذكروا جماهير المخدَّرات من سيّدات وفتيات السائرات في الشوارع يهتفن بحياة مصر، ويلوّحن بعلم مصر، ويجابهن الملأ سعيدات بأنّهنّ بنات مصر.

وها قد خطبت ليلة الأمس حرم علي شعراوي عن حركة المرأة في العالم وحركتها في مصر فكانت مذكّرة بنهضة النساء. ومنذا الذي لا يذكر منكم أبدع

كلمات الثورة المصرية التي قالتها حرم سعد زغلول إلى مندوب دار الحماية الذي جاء يبلغها أنّ زوجها في المنفى قد أطلق سراحه، فأجابت:

في مصر ١٤ مليون سعد زغلول، فلكم أن تطلقوا سراح زوجي ولكم أن تستبقوه سجيناً!

* * *

يا مصر، يا مصر!

أردت أن أنهض اليوم مما أنا فيه لألقي بين أصواتك صوتاً يليق بك وبنهضتك وآمالك. ولكن ما حيلتي بهذه العبرات التي تضعضع فكري وتعمّي بصري؟ ما حيلتي بهذا الشهيق يقطّع صدري ويكبو عنده قلمي؟

منذ ثلاثة أسابيع ملكتني، يا مصر، في أرضك أرض أودعتها دفيني(٤). ولئن ظلّلتني سماؤك، أنا الحيّة، ونفخت أنت فيَّ روحك وغمرتني بعطفك، فأغلى كل ذلك تلك البقعة التي ملّكتنيها هناك بين مضاجع الراحلين.

لك الفضل، يا مصر، في الحياة ولك الفضل في الممات. ولئن انكسر قلمي، وبكم صوتي، وخانتني أنوثتي فإنّ قلبي يعرف أن يهمس من خلال الشهيق والعبرات:

عيشي، يا مصر، مصرية!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٤٢، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) كان قصر الدوبارة مقرّ المندوب السامي البريطاني في مصر، وهناك تقدّم الموفدون الثلاثة من الجمعية التشريعية، سعد زغلول، علي شعراوي وعبد العزيز فهمي، في ١٩١٨/١١/١٣ بمطالبهم، التي أصبحت فيما بعد الجزء الأساسي في البرنامج الوطني: الحكم الذاتي الكامل أو الاستقلال على أن لا يبقى للإدارة البريطانية إلّا السيطرة على قناة السويس ومراقبة الديون العامّة. لقد أكّدوا صداقتهم لبريطانيا العظمى، والتمسوا السماح لهم بالسفر إلى لندن لمناقشة المسؤولين هناك حول مستقبل مصر. كان رفض التماسهم ونفي زغلول خارج البلاد الشرارة التي أشعلت ثورة ١٩١٩ .

(٢) عبد الله نديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦)، شاعر وصحفي مصري، أصدر عام ١٨٨١ جريدة «التنكيت والتبكيت» الأسبوعية، التي استبدلها بعد فترة وجيزة بصحيفة «الطائف»، وأسّس عام ١٨٩٢ صحيفة «الأستاذ». كان من خطباء الثورة العرابية وقد نفي مرّتين إلى يافا، ثمّ إلى اسطانبول حيث عُيّن بوظيفة مفتّش المطبوعات لدى الباب العالي.

(٣) علي فهمي كامل (١٨٧٠ - ١٩٢٦)، كاتب مصري، شقيق مصطفى كامل، وقد شاركه في تأسيس الحزب الوطني وانتخب وكيلاً له بعد وفاته. أصدر في ١٩٢٥ صحيفة «العلم المصري» وفي ١٩٢٦ «العلم». ومن بين منشوراته مجموعة أعمال أخيه بتسعة مجلّدات.

(٤) تتحدّث ميّ زيادة هنا عن موت أبيها إلياس زيادة في ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩ .

شرر وحبب[١]

الشعب الوليد ينتظر من حكومته كل إصلاح، شأن الطفل يتكل على والده ووليّ أمره. أمّا الأمّة ذات الشخصية المكوّنة فهي تحقّق أمورها بنفسها.

* * *

أنتم الذين تشكون حكوماتكم، بأيّ حقّ تشكون؟ الهيئة الحاكمة جزء منكم وهي مثلكم صنيعة الأجيال السالفة والجيل الحاضر، وليس في وسعها أن تكون خالقة إلّا إذا كان ذو النفوذ فيها مفكّراً مصلحاً بطبيعته ومواهبه لا بمنصبه ومكانته.

* * *

رغم هذه الحقيقة - لهفي على شعب كان يجب أن يكون حكّامه محكومين!

* * *

الوظيفة والمكانة لا تخلق المواهب، وإن هي خلعت على صاحبها شيئاً من الهيبة. ولكنّ المواهب تكبّر المكانة وتنيل الوظيفة مقدرة لم تكن لها من قبل ولن تكون من بعد.

* * *

أعمال الحكومات لا تسبّب الرقيّ الاجتماعي بل هي نتيجته. وأول المحرّضين على الإصلاح سيكونون دائماً المفكّرين والمصلحين الذين يعرفون الداء ويصفون الدواء. والحكومات تقاوم ما استطاعت الرأي العامّ أو الرأي الخاصّ حتى تغلب بالتالي على أمرها وتنتهي بتحقيق الإصلاح المحتّم بفضل تقدّم الحضارة.

* * *

تتلخّص وظيفة الحكومات في السهر على الأمن العامّ والحمل على احترام القوانين، ومنع الأقوياء من الجور على الضعفاء، ونشر التعليم واتخاذ بعض الاجراءات للوقاية الصحّية. فالواقع أنّ الحكومة تمكّن المحكومين من وسائل التقدّم ولكنّها لا تخلقها.

* * *

يوم يصبح كل فرد حكومة قائمة في ذاته وتتفكّك أوصال الغاية الكبرى لدى الشعب عندئذ يقتضي ظهور الديكتاتورية لتلمّ شعث الشعب المتفرّق وتوحّده وتأمر وتنفذ وتفكّر عنه وتوجّهه في الوجهة التي ترى.

* * *

تفوز الديكتاتورية عندما يظنّ كل فرد من الشعب أنّه سيّد غيره، وتفشل عندما يعرف كل أنّ حقّه وواجبه يقصران على أن يكون سيّد نفسه.

* * *

الديمقراطية خير أنظمة الحكم، ولكن عندما يتكوّن الشعب أمّة، أي عندما يعرف كل من أفراده أنّ عليه أن يكون سيّد نفسه في الفرح والترح، في الظفر والاندحار على السواء.

* * *

من الغرائب أنّ الغاية من نهضة الشعوب ليست الحرّية ولكن التربية الفردية والقومية. ومع ذلك فالجميع يهتفون للحرّية، وما ذلك إلّا لأنّ في الحرّية أنبل أنواع النظام. والتربية النبيلة لا تتمّ بغير النظام النبيل.

عندما يحسب الأفراد أنّ الحرّية هي الفوضى وليست النظام عندئذ يتحتّم ظهور الديكتاتورية المريرة.

* * *

لو اضطررت بحكم الظروف، يا هذا، إلى التسليم لديكتاتورية ما وكان هناك ديكتاتوريتان متوازيتان كفاءة، فأيّهما تختار: الوطنية منهما أم الأجنبية؟

* * *

العظماء والعباقرة هم من الأمّة الملامح التي تكوّن جمال وجهها. ويل لأمّة لا تفهم ذلك! ويل لأمّة تشوّه بيدها ملامحها الجميلة لتنصب مكانها ملامح دميمة وتافهة! إنّها تسقط نفسها بنفسها وهل هي عندئذ حقيقة باسم الأمّة؟

* * *

من أعسر مشاكل الحكومات وطنية أو أجنبية اشتباكها مع فرد هو لمحة جميلة في وجه أمّته، لأنّها عندئذ تكون مضطرّة إلى تشويه وجه الأمّة بأسره، وهو عار ذليل يسجّله عليها التاريخ طول الزمان وعند جميع الأمم.

* * *

حتى في العار والظلم درجات: فهناك الظلم الجليل والعار الشريف. وهناك الظلم الركيك والعار الغبيّ!

* * *

الديكتاتورية ذات الكفاءة وفي وقتها كثيرة الحسنات ولكن كما أنّ «دود الجبن منه وفيه» كذلك تصاب الديكتاتورية بأفراد أذلّاء من الدسّاسين والطمّاعين يفسدون كيانها ويفسدون أعمالها ويقضون على وجودها.

* * *

قال الدكتور ويلسن(٢) في إحدى خطبه بأوربا بعد الحرب: «إنّ قلب العالم يخفق اليوم ليس في الخنادق وميادين القتال فحسب بل هو خافق في معمل العامل، وكوخ الفلّاح، وحقل الزارع». كذلك يجب أن يكون قلب الديكتاتور.

* * *

لن يفلح الحاكم بأمره في بلاد بالنظام والذكاء والقوّة وحدها. إنّ من أول عوامل نجاحه الحبّ. إنّ حبّه يجب أن ينطلق إلى جميع أبناء وطنه فيشعرون به لهيباً يجدّد فيهم الحياة، ويرهف عندهم الرغبة، وينضج الفكر، ويذكي الوطنية.

* * *

ولكنّ الديكتاتور إنسان أي أنّ سيطرته ذات حدود. فلا تلبث إن هي طالت كثيراً أن تتضخّم سرطاناً في شكل الصحّة الموفورة!

* * *

في أشكال الحكومات، ونظم السياسة، واستبداد المال، وطغيان الأفراد والجماهير، هناك عامل قاهر: هو عامل الحياة وتيّارها الجارف كل شيء المجدّد كل شيء على الدوام.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٤٨، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) تتناول هذه الخواطر بوجه خاصّ أنظمة الحكم الدكتاتورية. والجدير بالذكر أنّها كُتبت في وقت شهدت فيه مصر ذروة الأزمة السياسية والدستورية التي أسفرت عن حكومة إسماعيل صدقي (١٩٣٠ - ١٩٣٣)، وهي حكومة نعتها الكثيرون بالدكتاتورية.

(٢) Dr. Thomas Woodrow Wilson (١٨٥٦ - ١٩٢٤)، الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة (١٩١٣ - ١٩٢١)، وقد دخلت أمريكا خلال فترة رئاسته الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء. سعى إلى ترسيخ السلام العالمي في برنامجه ذي النقاط الأربع عشرة، لكنّه اضطرّ إلى تقديم تنازلات كبيرة أثناء مؤتمر الصلح في فرساي في سبيل تحقيق هدفه الرئيسي المتمثّل في تأسيس عصبة الأمم، كما رفض الكونغرس الأمريكي الاتفاقات التي وقّعها. نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩١٩ .

وزارة المعارف المصرية والتعليم الإجباري

كلنا نطلب القضاء على الأمّية

بشرط أن لا يكون نشر التعليم سبباً لتعميم البطالة

- ٦ -

كتبت جريدة «الأهرام» في محلّياتها بعدد يوم الثلاثاء ١٩ نوفمبر الماضي فقرة تنبئ بأنّ أولي الأمر في وزارة المعارف يعملون في تهيئة قانون التعليم الإجباري الذي نصّ عليه الدستور وعرضه على البرلمان الجديد لإصدار مرسوم ملكي به وتنفيذه من أول العام الدراسي القادم، مع أنّ وزارة المعارف كانت تعدّ عدّتها لتنفيذ هذا المشروع تدريجياً في عشرين عاماً. وقالت إنّ مصلحة الإحصاء انتهت من تقديم الإحصائيات الخاصّة بعدد المتعلّمين في كل قرية ورفعتها إلى مراقبة التعليم الأوّلي.

وقد عنيت سائر الصحف بنشر هذا الخبر.. ولئن أنا ذكرت «الأهرام» دون سواها فلأنّها استحقّت جائزة البلاغة بالجملة التي ختمت محلّيتها تلك حيث قالت: «والذي لا شكّ فيه أنّ مصر تنتظر اليوم الذي يصدر فيه هذا القانون لتجعله عيداً من أعيادها القومية تحتفل فيه بدفن الأمّية».

جملة بديعة لختام خطبة، أليس كذلك؟ ولكن ألا ترى «الأهرام» الفيحاء أنّ القضاء على الأمّية بلا قيد ولا شرط يثير المشاكل التي كثيراً ما عالجتها «الأهرام» وغيرها من الصحف، كالبطالة وإقفار الريف وازدحام المدن، وغيرها؟

ولقد ذكرت الصحف بعدئذ أنّ أحد الأفاضل اقترح أن يكون التعليم الإجباري على قسمين: القسم الذي يعدّ للمدارس العلمية والأدبية، والقسم الذي يعدّ للمدارس

الصناعية والتجارية، وهو اقتراح حكيم وكل الحكمة في تنفيذه. وأزيد عليه قسماً ثالثاً: وهو القسم القائم بنفسه الذي يمكّن المتعلّم من تحصيل المعلومات الكافية ليعثر على طريقه في الحياة وليستغلّ كل ما لديه من الممكنات في وسطه وقريته.

ولا أرى القائمين بدرس هذا المشروع إلّا منتبهين لأهمّية هذه الأقسام الثلاثة والتوسّع في بحثها ما استطاعوا ولو أفضى ذلك إلى تأجيل تنفيذ التعليم الإجباري إلى ربع قرن. فالفائدة ليست في تنفيذ قانون مهما عظم شأنه، ولكن في تطبيق ذلك القانون على حالة البلاد التي ينفّذ فيها وفي إحاطته بسياج من الدراية والمعرفة وفي الحرص على جعله نافعاً للمصلحة الخاصّة والعامّة.

* * *

تشوب التعليم في مصر شوائب أعظمها خطراً «التمركز» أي كون عاصمة القطر وحواضر المديريات مركزاً لأهمّ المدارس مع أنّ أكثرية طالبي العلم يقبلون من الريف. والخطر الآخر هو قلّة تنوّع المدارس وإخراج القسم الأوفر من المتعلّمين على طراز علمي واحد، يرمون إلى غاية واحدة ويطلبون وظيفة واحدة.

وليست تبعة هذه الشوائب لتلقى على أحد، ولا أظنّ أنّ شخصاً مسؤول عنها دون شخص، لأنّها نتيجة الأحوال التي اجتازتها البلاد. ولكن ما يتحتّم الآن هو تطهير التعليم من شوائب وانتباه القائمين بأمره إلى ما لم يكن الانتباه إليه بالأمس ميسوراً. فما لم يكن يعدّ خطأً في الماضي أصبح الآن جريمة. وحلّ مشكلة التعليم يتلخّص في أمور ثلاثة:

أولاً – وجوب مراعاة حالة المتعلّم الاجتماعية وغايته المباشرة من التعليم.

ثانياً – وجوب إيجاد مدارس موافقة لليقظة الاقتصادية والتجارية – تلك اليقظة المتحقّقة في الواقع من بعض جهاتها ومن واجب الحكومة أن تنشّطها وترهفها عن طريق المدارس والتعليم.

ثالثاً – وجوب عدم النسيان في إعداد قانون التعليم الإجباري وأيّ منهج دراسي أنّ مصر بطبيعتها بلاد زراعية وأنّ أكثر المتعلّمين يجب أن يبقوا في قراهم

ومزارعهم فيكون تعليمهم اليسير أو الوفير وسيلة لتحسين حياتهم وتحسين وسطهم من مختلف نواحيه. ومن لا يذكر منّا حاجة الريف إلى الإصلاح والترقيه؟

أمّا التفكير في إيجاد سياسة دراسية أو «سياسة للتعليم» فهو طبعاً يبدأ في التعليم الأوّلي الذي يتناوله قانون الإجبارية الموجود اليوم قيدَ البحث. ولن ينسى المنصرفون إلى بحث هذا القانون أنّ «مشكلة العمّال العاطلين» الضاربة الآن في أنحاء العالم هي في مصر «مشكلة المتعلّمين العاطلين» فيعملون بقانونهم على حلّ هذه المشكلة وتفادي تعقيدها في المستقبل، لأنّ الواقع أنّ كل أمّي في مصر يشتغل وأمّا طائفة العاطلين فهي من المتعلّمين...

لو كانت الغاية من التعليم جعل كل متعلّم أفندياً معسكره العامّ في القهاوي والبارات في إنتظار وظيفة تهبط عليه من السماء على أجنحة ملائكة الرحمن، إذن لكان الجهل خيراً.

ولو كانت الغاية من التعليم قذف المتعلّمين إلى العواصم والمدن وتضخيمها وإرهاقها في حين يقفر الريف وتشلّ عنه الأيدي العاملة والجهود المطلوبة، إذن لكان الجهل خيراً.

ولو كانت الغاية من التعليم إيجاد الشبّان «النازك»[١] ذوي المناديل المشرئبّة من الجيوب وذوي ربطة الرقبة المرصّعة بالدبّوس، الذين يتناقشون في آراء سان سيمون[٢] وروسّو وبرنارد شو، حاسبين أنّ كل مجلس من مجالسهم برلمان قائم في ذاته، إذن فالجهل خير من العلم.

ولو كانت الغاية من التعليم اقتلاع النباتات الإنسانية من أرضها والرمي بها إلى حيث لا تجد لها مكاناً تتأصّل فيه وتشارك الأحياء في الحياة النابضة العاملة المفيدة - فالخير كل الخير في الأمّية.

وإنّما الغرض من التعليم أوّلياً كان أو عالياً أن يمكّن المتعلّم من معالجة وسائله والوسائل المحيطة به. وواجب المتعلّم يقوم في إحسان معالجة تلك الوسائل وترقيتها في وسطه عن طريق عمله ومجهوده. ووظيفة وزارة المعارف ووظيفة المدارس بالتبع هي

«تطعيم» تلك الأنبتة الإنسانية في أرضها وتأصيلها في محيطها وإنالتها بقوّة المعرفة قوّة منيعة للنموّ والتجدّد والحياة.

* * *

إنّي واثقة من أنّ الشبّان المصريين لا يحنقون عند قراءة ما أكتب في هذا الموضوع لعلمهم بأني أشعر معهم بحاجتهم وحاجة البلاد.

وأعلم أنّ رجال وزارة المعارف يعنون بكل ما يكتب في هذا الباب لأنّهم يريدون الإتقان والخير فيتلقّفون الوحي من أنّى جاء ويمحّصونه ويستخرجون الصالح منه ليزيدوا عليه ما عرفوه بالاختبار.

ولا شكّ في أنّ البرلمان المقبل سيكون شديد الاهتمام بمسألة التعليم فينيلها من البحث والمناقشة والمال كل ما تقتضيه ليؤدّي كل واجبه نحو البلاد التي أخذت تتسع فيها اليقظة الاجتماعية والعملية إلى جانب اليقظة السياسية.

وإذا كنت على قيد الحياة يوم ينظر البرلمان الجديد في مسألة التعليم وكنت في حالة تمكّنني من الكتابة، فسأستأذن حضرات النوّاب في الاشتراك معهم في هذه المناقشة من بعيد. وأعلم أنّهم بهمّتهم وغيرتهم سيعنون بكل صوت من الخارج ولو كان صوتاً نسوياً.(٣)

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٥٢، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) كلمة تركية الأصل تعني «مهذّب، مؤدّب، مهندم، متأنّق، ناعم».

(٢) Claude Henri de Rouvroy, Comte de Saint-Simon (١٧٦٠ - ١٨٢٥)، فيلسوف اجتماعي فرنسي، وضع مشروع ما يدعى «النظام الصناعي» قوامه حكومة من الصناعيين (industriels) أي القائمين بأعمال فكرية أو يدوية مثمرة على النقيض من النبلاء ورجال الدين العاطلين، وإصلاح زراعي، ونظام برلماني ثلاثي، مع إبقاء الملَكية والمِلكية الخاصّة. كان يعتزم التوصّل إلى هدفه هذا من خلال تجديد أخلاقي وديني، ويعدّ المنشئ للاشتراكية الوهمية. أمّا السان سيمونية، وهي الحركة الاشتراكية التي أسّسها أتباعه، فكانت تعتبر المِلكية من العيوب الأساسية للمجتمع آنذاك، ولم تلبث أن

أصبحت «تقليعة» في أوساط المثقّفين في فرنسا ما بين ١٨٢٧ - ١٨٣١ . جذبت إليها على وجه الخصوص الشباب الذي خاب أمله من الانقلاب الرجعي والمادّية البحتة للطبقة البرجوازية العليا.

(٣) أثارت مقالة ميّ زيادة عدّة ردود فعل. انظر في هذا الخصوص تعليق التربوي ورئيس تحرير مجلّة «التربية الحديثة» في القاهرة الدكتور أمير بقطر «معنى التعليم الإجباري: حول مقال الآنسة ميّ» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٥٧، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١، ومقال الحقوقي رياض شمس «الإصلاح الاجتماعي أولاً ثمّ التعليم الإجباري» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٦١، ٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١، والمقابلة مع محمد السيّد بك، مراقب التعليم الأوّلي بوزارة المعارف العمومية، «مراقب التعليم الأوّلي يتكلّم عن التعليم الإجباري: بيانات وافية تبدّد مخاوف الآنسة «ميّ» وتطمئن الأستاذ أمير بقطر. ضرورة التعجيل بإصدار قانون التعليم الإجباري» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٦٢، ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ .

زهرة على ضريح الأمير الشاعر

البرنس حيدر فاضل

وهكذا سمعنا المدافع تدوّي دويّ الأسى ناعية إلى العاصمة وسكّانها حفيد إبراهيم باشا وسليل محمد علي الكبير، ناعية إلى أهل العلم والأدب والخطابة صديقاً لكل منهم وكبيراً تبوّأ مكانته عن جدارة، ناعية إلى الشعراء من كان يحمل لقب الأمير ولا يفاخر إلّا بلقب الشاعر.

ومن غرائب الاتفاق أن يحتفى بدفن الأمير حيدر فاضل بمصر في نفس اليوم ونفس الساعة تقريباً التي شيّعت فيها جثّة كليمانسو إلى مقرّها الأخير بفرنسا - ذلك المقرّ الذي أبى «النمر»(١) أن يكون فيه إلّا واقفاً على قدميه بمقتضى وصيّته.

مصادفة أعادت إلى ذاكرتي كلمة سمعتها من البرنس حيدر عن كليمانسو فدلّت على نوع إعجابه به. كان ذلك منذ أربعة أعوام إذ كنت عائدة من مرسيليا إلى الإسكندرية على الباخرة الفرنسية «مترنجر» التي كان يركبها الأمير. وكنّا حيال بركان «الاسترمبلي»(٢) الذي يعترض الأفق ويقوم في عرض البحر كالجبّار العاتي.

- ما رأيك، يا آنسة، في موقف هذا البركان وسط الأمواه؟

- يخيّل إليّ، يا صاحب السموّ، أنّي أرى هرماً يختلف شكلاً عن أهرامنا.

- أهرامنا هنا!

قال الأمير هذا وسحب من جيبه قراطيس تحوي قصيدته الفرنسية عن الأهرام، التي كانت قد فازت بجائزة في إحدى المسابقات الفرنسية الأدبية - على ما أذكر. وأخذ يقرأها مترنّماً متمهّلاً طروباً لوقع الشعر وطروباً لذكر الأهرام.

ثمّ ذكرنا باريس وكان البرنس من أحرّ عشّاق فرنسا:

- ما هي أحبّ الأشياء إليك في باريس؟ أتحبّين المتاحف؟ هل زرت الجامع ذا الهندسة العربية؟ هل تجوّلت كثيراً في غاب بولون(٣)؟ وهل عرفت أن تسيري وحدك

في شوارع جدّ هادئة عند المساء؟ إنّ باريس مدينة النور والاجتماع والعبقرية والأناقة والجمال والسياسة جميعاً لا يتيسّر الاتصال بروحها إلّا في ساعات الانفراد...

هذه الملاحظة الأخيرة من البرنس حيدر كانت أدلّ ما تكون على شاعريته وعلى نزعته الثيوصوفية الجليّة. وذكرنا أخيراً «متحف الحرب» حيث رسمت على كل من الجدران المستديرة دولة من دول الحلفاء بجيشها وملوكها وزعمائها ورجال النصر فيها. ومن أصدق وجوه فرنسا بياناً في تلك الصورة وجه المارشال فوش ومسيو كليمانسو.

– كليمانسو؟ قال الأمير، إنّ من العظماء من كان هادماً ومنهم من كان بانياً. أمّا كليمانسو الهادم بفطرته قد أثبت كذلك أنّه يستطيع أن يكون بانياً.

* * *

سنجد في اجتماعاتنا الأدبية بعد اليوم فراغاً محسوساً مكان الأمير الجليل الأنيس بوجهه الباسم، وظرفه المثقّف، ووداعته وبساطته وذكائه الوقّاد. إنّه كان يميل إلى المحاضرة والخطابة ميله إلى الدرس والكتابة، ويحبّ العودة والإقامة حبّه للرحيل والتجوال، ويشغف بمصر وبالمشرقين الأدنى والأقصى شغفاً لا ينقص من عطفه الشامل وإنسانيته الرفيقة، ويلقى من السرور في وصف رحلاته بقدر ما يلقى من السرور في الملاحظة والمقابلة إبّان تلك الرحلات. حتى إذا ما نهض للكلام أعجبك منه تضلّعه باللغة الفرنسية وسعة معارفه ومعلوماته في إنشاء مزدهر وبيان شائق. وأدهشتك منه حماسته الفتيّة وطربه لكل جمال طريف، وأخذه بالتفاؤل والاستبشار دون ان يضرب صفحاً عمّا في الحياة من أحزان مفطّرة وفواجع مجهولة.

ومع ارتفاعه إلى أجواز الأفكار العليا التي تصل بين الدنيا والآخرة وتجعل هذا العمر على أهمّيته حلماً عابراً في دوران الأحقاب وهول الديمومة، فإنّه لم يكن يسهى عن معاني الجمال والقدرة والوطنية، ويعتزّ بأسرته العظيمة وبخضوعه لصاحب العرش وبمحبّته للأمير فاروق. وكم سمعنا منه هذه الكلمة:

– هل في العالم صبيّ أجمل منه وألطف؟

* * *

وآخر مناقشة أذكرها تناولت موضوع اللغة العربية فارتأى سموّ الأمير تغيير الحروف العربية بحروف إفرنجية فأجبت أنّني وإيّاه في هذا الأمر على اختلاف مبين فقال:

- إنّ ما يوحي إليّ هذا الرأي هو حبّي للغة العربية وتعصّبي لمستقبلها ورغبتي في النهوض بها نهضة جديدة. يغيظني أن تكون قاصرة على أهلها، مجهولة من أهل الغرب في حين لسائر اللغات الحيّة أنصار عديدون بين الغرباء. وما هي بالمجهولة إلّا بسبب حروفها الشرقية غير المألوفة. فالحضارة التي تجتاح العالم اليوم هي حضارة الغرب بكلّياتها وجزئياتها وصارت سرعة المعاملات ونشاط العلاقات تطلب السهولة والجلاء في بيان يفهمه الجميع قدر المستطاع. وأكثر أمم الغرب واحدة الأبجدية مع اختلاف زهيد. وقد أدرك الألمان ذلك فأوجدوا إلى جانب حروفهم القوطية حروفاً لاتينية شاعت في مطابعهم وصحافتهم وسيتمّ تعميمها مع الوقت. وحذا اليونان حذوهم فأخذوا يسعون في إحلال الحروف اللاتينية محلّ حروفهم الإغريقية. وسائر الأمم لا بدّ تابعة في هذا السبيل، فعلام لا نتمثّل بالآخرين فنجعل قرب الحروف العربية الأصلية حروفاً لاتينية؟ علام تسكتين؟ علام لا تجيبين؟

- كل هذه آراء وجيهة، يا صاحب السموّ، إلّا أنّها تزيدني تمسّكاً بحروفنا العربية دون سواها.

شهور قلائل مرّت على هذه المناقشة وها المدافع تنعى الأمير الشاعر المتصوّف وتنبئ بأنّه اليوم يتلقّى الوحي الأكبر، وحي الموت، ويقبل على عالم هو غير هذا العالم. أمّا رأيه في ذلك العالم فلن يعرضه علينا رغم وداعته وعطفه، والقصائد التي يمليها عليه الوحي الجديد لن تطبع في مطابعنا البشرية، والحروف التي سيستعملها في تدوين نثره وشعره ليست حروف لغة متداولة في هذه الكرة الأرضية الحافلة بالأمم واللغات والعلوم والفنون والآداب!

ولقد عنيت محافل الأدب الفرنسية بشاعرية البرنس حيدر فاضل ووهبته غير مرّة جوائزها الشعرية، فحبّذا لو عني أدباء الفرنسيس في مصر بالاشتراك مع الأدباء الشرقيين الذين يكتبون كذلك الفرنسية - بإقامة حفلة تأبينية لتكريمه بعد وفاته ولتعريف شخصيته الأدبية.

لا أشكّ في أنّ هذا الاقتراح يصادف قبولاً وأرى أولى الأدباء بالدعوة إلى مثل هذا الاحتفال الأستاذ موريك بران مؤسّس جماعة أصدقاء الثقافة الفرنسية بمصر وسكرتيرها(٤).

وهل علينا للراحلين أقلّ من ذكرى تنقلب مرّة في العيون دموعاً، ومرّة على الضريح أزهاراً، ومرّة في التأبين نثراً وأشعاراً؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٥٦، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) طلب السياسي الفرنسي Georges Benjamin Clemenceau (١٨٤١ - ١٩٢٩) بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى في نقد لاذع وجّهه للحكومة تعبئة تامّة لجميع طاقات الأمّة. نفّذ هذا البرنامج بعد تولّيه رئاسة الوزراء عام ١٩١٧ مستنداً على صلاحيات ديكتاتورية، وعمل على تشديد شروط السلام لقناعته بمسؤولية ألمانيا عن الحرب، الأمر الذي أدّى إلى إطلاق لقب «النمر» عليه.

(٢) Stromboli ، جزيرة إيطالية شمالي صقلّية تتكوّن من بركان واحد، وهو من براكين أوربا الأكثر نشاطاً.

(٣) Bois de Boulogne ، متنزّه كبير يمتدّ على ضفاف نهر السين في الحافة الغربية من مدينة باريس.

(٤) Morik Brin ، كاتب ومترجم فرنسي كان يدرّس اللغة اللاتينية في الجامعة المصرية أثناء العشرينات من القرن الماضي. أسّس جمعية Les Amis de la Culture Française en Egypte عام ١٩٢٥ والتي استمرّت حتى ١٩٤٥ .

كلمات أخرى

عن التعليم الإجباري

قبل أن يصل الموضوع إلى البرلمان

- ٧ -

الآن يمكننا أن نعالج موضوع التعليم الإجباري على بصيرة، مسترشدين بالبيان الحصيف الذي تفضّل حضرة صاحب العزّة محمد السيّد بك فأدلى به إلى مندوب «الأهرام» الذكي[(١)].

ومهما رغب عزّته في التملّص من دعوى التكلّم بلسان الوزارة أو بلسان اللجنة القائمة بدرس هذا المشروع، فإنّنا لا ننسى أنّ محمد السيّد بك هو مراقب التعليم الأوّلي وأنّ رأيه الشخصي في هذا الباب لا يبعد عن رأي الموظّف نفسه، فهو بلا ريب ذو أثر فعّال في توجيه أعمال اللجنة وفي تكييف المشروع.

أمر نغتبط به نظراً لما في رأي محمد بك، المنشور في أهرام ٣ دسمبر الجاري، من التبصّر والإحكام والرغبة في النفع العامّ وفقاً لحاجات البلاد دون تهوّر ولا مغالاة.

وحسبنا أن نقول لمحمد السيّد بك إنّه في هذا البيان كان عند ظنّنا به. وهذه، في اعتقادي، خير كلمة نعرب بها عن شكرنا له وثنائنا عليه.

وليثق عزّته أنّي من أشدّ أنصار التعليم عموماً، إجبارياً كان أو اختيارياً، ولا أرى لأمّة أملاً في النهوض والحياة والتقدّم إلّا بالتعليم وعن طريق التعليم، على شرط أن يكون التعليم متوافقاً وما تطلبه الأمّة من النهوض والحياة والتقدّم لا أن يكون أداة انتحار لها ووسيلة لتقهقرها ويأسها.

* * *

أمّا الأستاذ أمير بقطر الذي حملته همّته العظيمة وعنايته بنشر التعليم بلا قيد ولا شرط، على اتّهامي بأنّي «أخطأت ثلاثاً» وجاء بمقاله يستفزّني إلى الانتصار للتعليم الإجباري ولو باسم تحرير المرأة - فأؤكّد له أنّه يطرق باباً مفتوحاً في هذا المعنى. وأسأله أن يراجع مقالي الأخير عن التعليم ليكون أقرب إلى التثبّت مما أبغي، وأن ينضمّ إليّ في المطالبة بجعل التعليم عملياً منذ الطور الإجباري.

وأمّا الأستاذ رياض شمس فأهنّئه على ما حواه بحثه من الدقّة وبعد النظر. على أنّي أسأله أن يكون أقلّ تشاؤماً وأن ينضمّ إليّ هو كذلك في الدعوة إلى جعل التعليم الإجباري عملياً تطبيقياً منذ ساعاته الأولى. ففي ذلك إرضاء لرغبة الشعب في التعليم وإنصاف لحقّه في الاستنارة كما أنّ في ذلك وسيلة لإنهاض الشعب وجعله على استعداد للإصلاح والتقدّم، بل تلك هي الوسيلة الوحيدة.

وقد كتب في مجلّة «كل شيء» أديب يلفتني إلى وجوب الدعوة إلى تعليم الفتيات قبل الفتيان. فله ما يرضيه من هذه الناحية في بيان مراقب التعليم الأوّلي حيث يقول: «إنّ هذا التعليم (الإجباري) سيتناول البنات والبنين على السواء». وهذا ما كنت أتوقّعه عند الكلام عن التعليم الإجباري.

بقيت «الأهرام» أيّدها اللّه! بقيت «الأهرام» التي تأبى إلّا الاحتفاظ «بجائزة البلاغة» على ما يظهر من العنوان الذي ألحقته بالعناوين الممهّدة لبيان مراقب التعليم الأوّلي، فأعلنت فيه «ضرورة التعجيل بإصدار قانون التعليم الإجباري».

لا، يا أستاذنا! لا يتحتّم التعجيل بإصدار هذا القانون. وإنّما المتحتّم الآن هو استكمال هذا القانون بعد النظر فيه من جميع الوجوه بهدوء وتبصّر وإحكام وتطبيقه على حاجة المتعلّمين وخير الأمّة في الحاضر والمستقبل.

إنّ تعجيل شهور في مباشرة تنفيذ هذا القانون، أو إبطاء شهور ليس بذي بال في تطوّر البلاد. بيد أنّ الخطر العظيم في تنفيذه الفعلي قبل النضج والاكتمال. وعلى الوزارة واجب لا مناص منه، وهو أن تفكّر الآن، وهي في دور إعداد هذا المشروع، في تعريف سياسة التعليم فتبدأ منذ الساعة بالتقليل من النظريات التي تثقل برامج الدراسة

وترهق ذاكرة التلميذ وتنال من قواه دون أن تفيده شيئاً، في حين هو لا يحتاج إلّا إلى المعرفة العملية المباشرة.

* * *

وقد وردت في بيان صاحب العزّة محمد السيّد بك هذه الفكرة: «لا أظنّ أنّ وزارة المعارف قد أتمّت بحث الموضوع من جميع جهاته بحثاً نهائياً تستطيع أن تدلي به على صفحات الجرائد. والمعقول أنّـها متى قامت بوضع المشروع في شكله النهائي سترفعه إلى البرلمان وعندئذ يتسع مجال البحث فيه للجميع ثمّ يتقرّر على الوجه الذي يرضي نوّاب الأمّة».

هذا منطقي وحسن. ولكن ليسمح لي عزّته باستدراك جوهري في هذا الشأن، وهو أنّ الوقت الذي يستغرقه البرلمان في بحث هذا المشروع ليس هو الوقت الذي يجب أن يتكلّم فيه الكتّاب والصحافيون، وإن هم استطاعوا يومئذ أن يتقدّموا بملاحظتهم على أبحاث البرلمان.

كم جلسة يا ترى يخصّص النوّاب لمناقشة موضوع التعليم الإجباري؟

هبها خمس جلسات أو عشراً، أفتكفي عشرة أيام ليبدي المفكّرون آراءهم ويكتب الكاتبون مقالاتهم فيحملها البريد إلى الصحف ويصل صداها إلى النوّاب بعد نشرها؟

أظنّ أنّ خمسة أيام أو عشرة وقت يحسب في المناقشات البرلمانية ولكنّه أضيق من أن يستوعب آراء الكتّاب والصحافيين والملمّين بالموضوع أو ذوي النظريات الخاصّة فيه.

أعتقد أنّ هذا وقت البحث في الصحف الآن، بينا لجنة وزارة المعارف تُعنى بدرس المشروع! فتستنير اللجنة بأفكار الكاتبين وآرائهم من الناحية الواحدة. والحكيم من غُني برأي الآخرين ولو ليخرج من أثره أكثر تشبّثاً برأيه الخاصّ. ومن الناحية الأخرى يستنير بهذه الآراء حضرات المرشّحين للنيابة حتى إذا ما حان وقت المناقشة البرلمانية كانوا على يقين مما يريدون فكانوا أوفى استعداداً للبحث والتقرير.

وثمّت عتاب «للأهرام» التي شكاها إليّ بعض الكتّاب في رسائل خاصّة فقالوا إنّها تهمل نشر ما كتبوه في موضوع التعليم الإجباري تعليقاً على مقالي ذاك وبياناً لملاحظاتهم الفردية. فما رأيها في هذه الشكوى؟

وجِماع القول يتلخّص اليوم في ما يلي:

أولاً – إنّ على الصحافيين والكتّاب أن يعنوا الآن ببحث مشروع التعليم الإجباري.

ثانياً – شكر مراقب التعليم الأوّلي لاهتمامه بكل ما ينشر في هذا المعنى.

ثالثاً – لفت أولي الأمر إلى وجوب إضافة قسم عملي تطبيقي إلى البرنامج النظري في التعليم الإجباري المنويّ تقريره. ذلك لأنّ:

رابعاً – التعليم الإجباري بمثابة الأبجدية من التعليم عموماً ومن فنّ مزاولة الأعمال. ومن ملك الأبجدية ملك مسالك الإدراك والعمل. فيجب أن يكون ما يدركه التلميذ متطابقاً وما عليه أن يعمله.

خامساً – يجب أن لا يكون هذا التعليم وسيلة لتنوير الأذهان فقط بل يجب أن يكون فيه أيضاً مباشرة للعمل. وكيف ذلك؟

سادساً – ستأتي البقية...[٢]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٠، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) بخصوص المعلومات المفصّلة عن نشر المقابلة مع محمد سيّد بك، والمقالتين المذكورتين لاحقاً في النصّ لأمير بقطر ورياض شمس، راجع الهامش رقم (٢) من مقالة ميّ زيادة «كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٦): وزارة المعارف المصرية والتعليم الإجباري»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٥٢، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٨]، في هذه المجموعة.

(٢) ردّ أمير بقطر بشكل تهكّمي للغاية على مقالة ميّ زيادة هذه، بمقال عنوانه «رجعية غير منتظرة في التعليم الإجباري» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٤، ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ . انظر كذلك تعقيب النائب محمد نصّار على هذه المناقشة بعنوان «حول التعليم الإجباري» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٩، ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ .

اجعلوا التعليم الإجباري دواءً
ولا تجعلوه للأمّة داءً!
ولا يكون دواءً إلّا إذا قرنتموه بالعمل

- ٨ -

... تابع لما سبق

عنّي وعنك تعريف المعاجم وآراء الأفذاذ وأفاويه النظريات، كائنة ما كانت أهمّية هذه النظريات، ومكانة أولئك الأفذاذ ودقّة هاتيك المعاجم!

عنّي وعنك قوانين سنّتها الدول الكبرى والصغرى والمتوسّطة وما دار ويدور وسيدور من المناقشات في مؤتمرات مدريد وبرلين واستوكهلم!

نحن لسنا هناك وهنالك ولا نحن ندري بأيّ الدوافع سنّت تلك الدول قوانينها وفي أيّ الأحوال نفّذتها وهل هي كانت متطابقة والحالة الاجتماعية في بلادها ومتوافقة وعقلية الشعب الذي سرت عليه تلك القوانين. المؤتمرات حسنة ومفيدة من حيث «إيحاء» الإصلاح والحثّ على التجديد ولكن لا تتغيّر طبيعة البلد ولا تتغيّر حالته الراهنة بمجرّد حضور أفراد منه جلسات المؤتمرات. والمطلوب من المؤتمرين أن يبثّوا في بلادهم «الروح» التي استوحوها في المؤتمر، لا أن يدعوا إلى تنفيذ تلك النظريات «لأنّها» سارية في بلدان أخرى دون التحرّي هل هي تصلح للبقعة التي يعيشون فيها وإن صلحت فعلى أيّ الوجوه يتحتّم تنفيذها.

يؤكّدون لنا أنّ التعليم الإجباري «على طول» يجعل الجحيم جنّة وأنّ الشعب إذا هو فاز «بفكّ الخطّ» وعرف أنّ ٤ يساوي ٢ زائد ٢ أصبح نازعاً عن الجرائم وصار

مرشّحاً بحذافيره ليكون في عداد أولياء اللّه وملائكته. ونحن الخلائق «النونو» المساكين الذين لا نميّز بين التعليم الأوّلي والتعليم الثانوي نصدّق ذلك القول المبين. غير أنّ إدراكنا العاجز يدفعنا إلى التساؤل: «علامَ إذن كل ما نسمع به من الجرائم في بلاد هي جنّات زاهرة وسماء لأصفياء الرحمن والمجتبين؟ علام ننظر إلى تلك البلدان فنرى أجواءها متلبّدة بالدخان والشرر فيها يقدح ويتطاير وألسنة اللهيب تندلع من كل صوب؟ علام تتناوب في أرجائها الزعازع والعواصف والأنواء وعلام تميد بأهاليها والأرض تهدّد بالتداعي تحت أقدامهم أنّى هم توجّهوا؟».

بالطبع نحن نلقي هذه الأسئلة على أنفسنا نظراً لبساطة عقولنا لكن ما العمل أمام الأمر الواقع؟ ما العمل إذا كان كل قارئ في هذه الدركة من البساطة والجهل؟ ألست أنت أيضاً، يا صديقي القارئ، من الخلائق «النونو» البسطاء الجازمين مثلي بأنّ الجرائم لا علاقة لها بأبجد هوز حطي كلمن وأنّ الدوافع إلى الإجرام راجعة إلى الخلق والفطرة والعادة ولا سيطرة عليها بالحساب ولا بالجبر ولا بالعلوم اللغوية والجغرافية، واللغوية والرياضية مجتمعة؟

* * *

فلنلج الموضوع بعقليتنا «النونو» معترفين في غير خجل بأنّنا لسنا «اختصاصيين»... أعوذ باللّه من هذه الكلمة! أليس في وسع السادة الاختصاصيين أن يوجدوا لهم نعتاً... أقلّ اختصاصاً من هذا؟..

قلنا إنّنا لسنا من الاخـ... (راجع ما سبق، من فضلك) وربّما حملنا هذا السبب على النظر في الأمر من مختلف جهاته فلا نقصر على وجه واحد، وجه الفائدة. وإن نحن أُجبرنا على الاختيار بين التعليم والبطالة الممكنة من ناحية، وبين الأمّية والعمل المؤكّد من الناحية الأخرى فلا نتردّد في أن نجعل ضلعنا مع الأمّية العاملة. ألا كرّم اللّه وجه الإمام علي الذي كان يرى الحكمة كل الحكمة في اختيار أقلّ الشرّين خطراً!

سبق القول إنّنا لسنا اخـ... أعوذ باللّه مرّة أخرى! فلا حرج علينا في الاقتناع بأنّنا في مصر لا في بلد آخر وأنّ القانون الذي تبحثه الآن وزارة المعارف المصرية

سيدرسه برلمان مصري وهو قانون مصري وسينفّذ في بلاد مصرية فلننظر إلى حالة المجتمع الذي سيسري عليه هذا القانون!

أمّا الحالة المشار إليها فقد رأيت وصفها في المقال الممتع الحاذق الذي نشره في «أهرام» البارحة النائب المحترم محمد نصّار بخبرة بصيرة ودليل قاطع. إنّ ذلك الوصف الأمين يجعلنا أدقّ إحساساً بالحالة التي لا يجهلها أحد ويعيد إلى ذاكرتنا صور البطالة والحيرة والاضطراب الذي يعذّب الآن نفوس الشبّان ويحملهم على التشاؤم والاستسلام لليأس. إنّه يسمعنا الأصوات التي ما زالت تعجّ بها أعمدة الصحف حيث اختلط تأوّه الطلبة بشكاية الآباء واعتذار نظّار المدارس وبيانات وزارة المعارف المرتبكة من جرّاء ضيق معاهدها.

كل هذا قبل أن يكون التعليم إجبارياً بمقتضى قانون مسنون. كل هذا والقهاوي والمنتديات عامرة بالعاطلين. كل هذا والذين سيسري عليهم القانون الجديد ليسوا من أصحاب الثروات فتجوز لهم البطالة دون أن تقطع عليهم سبيل العيش ولكنّهم من أبناء الشعب المكوّنين ثروة الأمّة والذين لا تنهض البلاد ولا تحيا إلّا بنشاطهم وجهودهم وأعمالهم. ولولا التعليم الأوّلي ما كانت هذه الأزمة ولا كانت هذه البطالة ولا كان هذا الشلل الذي يبثّ اليأس في نفوس الشبّان ويهدّد المجتمع المصري بالانحلال وهو بعد في دور التكوّن والإقبال على التماسك والنموّ. والعقلية الشائعة الآن تفهم من التعليم أنّ «الولد اللي يتعلّم يبقى زيّ غيره. ليه هم التانيين أحسن منه؟» وأنّه عندما يحفظ الأبجدية ويستطيع فكّ الخطّ يصبح فارس كل ميدان ورجل كل مقام وكل زمان.

سل أهل هذه الطبقة الغرض من تعليم أبنائهم، فالغسّالة تجيب:

«والله في نفسي ابني يصير أبوكاتو». وبائع البيض يريد أن يعلّم ابنه «علشان يبقى ناس أعيان مش غلبان زيّي داير ورا الفراخ». أمّا الصبيّ الذي يأتي بالحليب كل يوم فيريد أن يتعلّم ليصير رئيس وزراء «زيّ ثروت باشا».

- «ليه ثروت باشا، يا واد؟ هو مافيش رئيس وزراء غير ثروت باشا؟»
- «فيه كتير غيره. لكن ثروت باشا ابن بلدنا. لما أتعلّم أبقى زيّي زيّه تمام».

ونحن نغتبط بالتهافت على التعليم وبعناية الحكومة بنشره ونغتبط باليقظة التي تلقي في النفوس روح الطموح والرغبة في التقدّم والرفعة. ونرى في الشعب بحراً زاخراً يخرج نفيس اللآلئ وفي أبناء الشعب حيوية هذه الأرض العجيبة النازعة إلى الأعالي رغم ما خلفته لها العصور السالفة من القلق والشقاء. ولا نرى للديمقراطية معنى سوى فتح السبيل لكل كفاية صادقة وتمهيد الطريق لكل عمل نافع.

غير أنّ هذه المطامع عامّة عند الجميع ولا يؤيّد الاستعداد سوى جزء منها عند الأفراد في حين الاستعداد لمختلف أنواع العمل موجود وجوداً محسوساً عند كل فرد. ولكن ينمو عند كل طفل مع التعليم طمع لا يتوافق ونوع الاستعداد الذي خصّته به الطبيعة والذي لا يكون له نجاح عن غير طريقه. ومن هنا هذا التدافع العامّ نحو وجهة أو جهات معيّنة تهمل في سبيلها سائر الأعمال التي هي قوام الثروة وقوام الحياة. فإذا أُقِرّ قانون التعليم الإجباري قبل أن يضمّ أولو الشأن قسم التعليم العملي إلى قسم التعليم النظري كانوا حاثّين هذه الحالة الشاذّة المضطربة على التفاقم مختارين. وعلى النقيض إذا هم جمعوا بين العمليات والنظريات فإنّهم يتلافون الخطر في هذا الباب وينيرون أذهان الأمّة بينا هم يحرّكون سواعدها بالعمل، ويوزّعون جهودها على دوائر النفع المباشر ويشعرون المتعلّمين بأنّ لهم مصالح حيوية ترتبط بأرضهم وبمهنهم وبهذا يكون التعليم دواءً وصحّة وخيراً لا داءً عضالاً رهيباً.

ومن أيّ نوع يكون العمل؟

الجواب على هذا السؤال يدخل في وظيفة «الاختصاصيين» فهم أحرى الناس بالاهتداء إلى وسائل العمل الملازمة للتعليم الإجباري في البلاد المصرية في طورها الحاضر وفي ما يعوزها من الأعمال وما تقدّمه مرافقها من ممكنات العمل. هذا المعنى أدليت به غير متردّدة.

إنّ عمل التلاميذ نصف النهار في الحقول مع أهليهم غير مجد وسيكون كل من التعليم في المدرسة والعمل في الغيط[1] مُضْعِفاً للآخر، لأنّهم سيتعلّمون على منهج نظامي في حين هم يعملون على وجه لم تنظّمه إلّا العادات والتقاليد. وفي هذا ما فيه من التناقض المؤلم المؤذي للنفوس الصغيرة التي هي أحوج ما تكون إلى الانسجام والثقة

والإطمئنان. كما أنّ عملها، إذ تتعلّم شيئاً جديداً، يجب أن يرقى بهذا الذي تلقّنته ولو كان طفيفاً، لا أن يبقى في مستوى عمل الذين لم يتعلّموا.

ففي الريف فضلاً عن الزراعة الصرفة صناعات زراعية وحرف يدوية تتمّ الآن على طريقة منحطّة عتيقة وتقدّم لأهل الريف حاجتهم من هذه الحرف ومن ثمار هاتيك الصناعات الزراعية. في كل قرية وعزبة يصنعون الخبز والجبن والزبدة وسائر صناعات الألبان والأثمار والفواكه والخضروات، ويصنعون الأثاثات المتواضعة والأدوات الضرورية ويزاولون النجارة والحدادة والخياطة والتفصيل وما إلى ذلك. فلو وجد إلى جانب التعليم النظري «ورشة» عملية في كل من هذه الحرف والصناعات يتعلّم فيها التلاميذ العمل على طريقة علمية نظامية لرقّوا مستواهم في أعوام قلائل ورقّوا صناعات البلاد وحرفها وكان عملهم هذا باب مورد للمال يصرف منه المطلوب لتعليمهم وللقيام بنفقات المدارس كما أنّ الواحد منهم قد ينال في المدرسة أجرة زهيدة مقابل عمله فيشبّ واثقاً من نفسه ملمّاً بممكنات محيطه وحاجاته. يشبّ وهو ذو عمل معيّن يستطيع أن يستغلّه ويرقى به وفقاً لكفاءته ومقدرته واستنباطه وفي هذا ترقية للصناعات الوطنية وتنشيط للحركة التجارية والمالية.

كلنا نبتاع الجبن والزبدة والعسل والفواكه المسكّرة والطماطم المجفّفة وغيرها من مئات الأصناف المستعملة كل يوم في الطعام – نبتاعها مما يفد من الخارج. فلو هي عني بها في الداخل من نتاج البلاد لدرّ الخير من جهات متعدّدة. وليس في الإمكان تعليم هذه الأوليات بعد الانتهاء من التعليم الإجباري ولكنّه يبدأ منذ أول ساعة من التعليم فيعرفون لهم دائرة يشتغلون فيها وتكون حياتهم مكفولة ولا يهجرون الريف الذي هو منهل رزقهم ومحطّ كرامتهم. ويرتقي الريف بهذا المجهود الذي ستتزايد بالممارسة أهمّيته. والإصلاحات المقتضاة في القرى سيقوم بها هؤلاء الشبّان العاملون من إيراد عملهم فيبنون بيوتهم ويجلبون لشربهم الماء النقيّ وتتحسّن أحوالهم شيئاً فشيئاً دون إرهاق خزانة الدولة.

من حقّ الفلّاح أن يرقى وأن تصلح شؤونه وأساليب معيشته ولكن يجب أن يرقى بجهوده الشخصية وليس على حساب الآخرين. وإذا وجد بين أولئك المتعلّمين

العاملين ذو كفاية خاصّة فسيعظم ويرقى بعمله وينهض بمستوى البلاد بشغله الجادّ المحسوس النتائج. وكل هذا الخير متيسّر في يد وزارة المعارف الباحثة القانون وفي يد البرلمان الذي سيناقشه ويقرّه على وجه ما.

التعليم الإجباري واجب، ولكن على أن يكون نصفه عملاً محسوساً. أمّا التعليم النظري وحده فيبهظ خزانة الدولة ويلقي الاضطراب بين الجماهير ويهدّد البلاد بشلل خطير وثورات مفزعة عقيمة.

نرثي لحالة وزارة وبرلمان يتمّ هذا القانون الأبتر على يدهما. إنّهما سيقفان أمام التاريخ موقف الاتهام وسيكون حسابهما عسيراً.[٢]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٨٠، ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ .

(١) كذا في الأصل، والصواب «الغيط».

(٢) انظر ردّ الفعل المتكرّر لأمير بقطر على مقالة ميّ زيادة هذه والذي جاء مرّة ثانية تحت عنوان «رجعية غير منتظرة في التعليم الإجباري»، في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٨٧، ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ .

«وتفضّلوا بإبداء رأيكم. مع الاحترام»

يحمل إليّ البريد في كل موسم كهذا الموسم منذ خمسة أعوام أو أكثر أو أقلّ رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة أو على المطبعة الحجرية. وتكون تلك الرسالة مرّة بالفرنسية ومرّة بالإنجليزية وهي بهذه اللغة في الغالب وتأتي من أيّة ناحية من أنحاء القطر وقد جاءت مرّة أو مرّتين من بيروت.

وها هي ذي تفد إليّ هذا العام باللغة الإنجليزية وبطابع مصري إلا أنّ ختم البريد غير جليّ لأعلم هل هي صادرة عن القاهرة أو غيرها. وعلى كل فنصّ الرسالة هذه المرّة نصّها كل مرّة. وهذه فحواها بالعربية:

«لك الصحّة والحظّ السعيد.

«احتفظ بهذه السلسلة وذلك بأن تنسخ هذه الرسالة تسع مرّات وترسل كلاً من النسخ التسع إلى تسعة أشخاص يقيمون بعيداً عنك وتتمنّى لهم حظّاً سعيداً. لقد شرع في حبك هذه السلسلة كولونيل أمريكي ويحبّ أن تدور حول العالم ١٣ مرّة.

«افعل ذلك (أي انسخ الرسالة ٩ مرّات وأرسلها إلى ٩ أشخاص) في خلال ٢٤ ساعة إذا أمكن. إيّاك أن تفرّط في السلسلة! لأنّك إنْ فرّطت أصابك من جرّاء ذلك همّ ونكد. وأمّا إذا أنت قمت بالشروط كان حظّك سعيداً.

«وستشهد النتيجة الطيّبة بعد إرسال النسخ التسع بتسعة أيام» اهـ. الرسالة.

«شواهد»

«(١) المستر هيلس مدين بحظّه السعيد لتنفيذه هذا الأمر طبقاً لما هو مسنون. (٢) ربح المستر كيناراز ثلاث نمر في اليانصيب الوطني يبلغ مجموعها ٩٠٠,٠٠٠ فرنك، بعد أن دخل في هذه الحلقة بتسعة أيام. (٣) المستر فرنسيسكو جروس الذي لم يهتمّ لهذه السلسلة فقد ثروته بعد أن تلقّى هذه الرسالة بتسعة أيام لأنّه لم يقم

بالمفروض عليه في نشرها على تسعة أشخاص. (٤) أحمد أفندي حسني الذي أهملها عوقب كذلك بأن قضى نحبه بلسعة عقرب بعد تلقّي الرسالة بتسع ساعات».

ويلي هذا البيان قائمة أسماء الذين تلقّوا الرسالة هذه المرّة وقاموا بتوزيعها على تسعة أشخاص. كنت أنا آخرهم. وقد ختم حضرة المرسل هذه الرسالة والبيان وقائمة الأسماء بهذه الجملة العربية:

«وتفضّلوا بإبداء رأيكم. مع الاحترام».

أمّا «الاحترام، أيّها المرسل الفاضل» فقد سجّلته، وأمّا رأيي فلا أضنّ به:

لكل امرئ شرقياً كان أو غربياً، كولونيل كان أو غير كولونيل، أن يقرّر ما شاء من الأمور لنفسه ولأصحابه المتواطئين معه. ولكنّي لا أفهم كيف هو يفرض واجباً من الواجبات على أفراد أو على جماعات لا يوافقون عليها ولا يطلبون ما ينجم عنها من المنافع الصحيحة أو المزعومة.

لا شكّ عندي في أنّ الذين بعثوا إليّ بهذه الرسالة عاماً بعد عام لا يبغون لي إلّا الخير، لأنّهم يقدّرون أنّي أقوم كل مرّة بنسخها وتوزيعها. ولكن لو ترى ضاق وقتي عن «الدخول في هذه السلسلة» أفلا يكونون قد قضوا عليّ بالنكد والشقاء على زعمهم؟

حسن أن يحتم كولونيل أو غير كولونيل بأن تدور هذه السلسلة حول العالم ١٣ مرّة، ولكن كيف يتوصّل حضرته إلى إحصاء هذه المرّات المقرّرة ليعلم أنّها تمّت أو لم تتمّ؟ ولأيّ غرض يجب أن تدور حول العالم وعلام اختار جنابه رقم ١٣؟

وحسن أن يوجّه أيّ أحد من الناس رسالة من هذا الطراز إلى أصدقائه الذين يثق من موافقتهم على هذا النوع من التراسل وأنّ لديهم الوقت المطلوب للقيام به، وأمّا أن تفرض هذا الواجب على أشخاص لا تعرفهم ولا يُعرف رأيهم في هذا المعنى ويُجهل هل لديهم الفراغ الكافي ففي هذا ما فيه من الجرأة ومن عدم مراعاة الحرّية الشخصية.

وها أنا لبّيت هذه المرّة طلب حضرة المرسل وكفّرت عن الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً بنشر هذه الرسالة ليس على تسعة أشخاص فقط بل على عشرات الآلاف من قرّاء «الأهرام» فأرجو أن لا توجّه إليّ هذه الرسالة بعد اليوم لأنّي أعلن بأن ليس لديّ الوقت الكافي للاعتناء بها ولست أريد أن أتهجّم على تسعة أشخاص

لأرغمهم على الاعتناء بها تحت التهديد بالنكد والشقاء إن لم يفعلوا. وإن وجّه أحد هذه الرسالة إليّ بعد اليوم أفلا يكون معرّضاً هو لنتائج الشرّ الذي تهدّد الرسالة به؟

وأمّا أنت، أيّها القارئ، فأنشر لك الرسالة ولا أفرض عليك نسخها بل أفرض على الحياة أن تحوطك في العام المقبل بهالة من السرور والهناء وأن تبعد عنك حراب الحياة وأشواكها...

* * *

هو ذا اليوم الأخير من العام الراحل.

ها هي ذي ليلة الوداع، الليلة التي تسجّل في حياتنا عاماً آخر وتنبئنا بأنّنا درنا دورة تامّة في عقيق الفضاء مع الشموس والسيّارات والعوالم!

غابت الشمس غياباً كئيباً دون أن يصحبها الموكب الذي ألفناه كل مساء من الغيوم الملوّنة والأشعّة المترامية والسحب الملتهبة. غابت الشمس كأنّـها شعلة تنطفئ دفعة واحدة فخلقت هذه الرُبْدَة التي ليست هي النهار ولا هي الليل ولكنّها لون الوداع.

مناظر ومواكب ووقائع تمرّ أمام ناظريّ في هذه الساعة كما على لوحة السينما وليتني حيالها المشاهدة الجامدة ولكنّي تلك التي تحياها بكل قواها.

وتمرّ أمامي وجوه ووجوه ووجوه، الوجوه العزيزة المحبوبة، والوجوه الغريبة المتطلّعة، والوجوه التي يتمثّل فيها العداء والدسيسة والخيانة. أرى وجوه السعداء ووجوه المحرومين، وجوه الآملين ووجوه اليائسين، الوجوه التي يتسنّى الاجتماع بها والوجوه التي غابت إلى الأبد بحكم الموت أو بحكم الحياة... فتطفو عليّ عاطفة عظيمة واحدة: عاطفة الشفقة على هذه الإنسانية التي تستحقّ الشفقة غنيّة كانت أو فقيرة، متكبّرة أو وضيعة، مخلصة أو غدّارة. إنّنا جميعاً قُذفنا إلى الحياة دون أن نطلب الحياة وهي الرحمة التي تحدو بي، يا أخي، إلى أن أتمنّى لك السعادة والهناء من قلب يقطر دماً. أليس أنّ اللّه سبحانه يستجيب الصوت المنبثق من أعماق الجراح؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٩٠، ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ .

أزهار منثورة لجريدة «الأهرام»

لا شرر اليوم ولا حبب(١)، وإنّما أزهار يجول فيها ماء الحياة وتنيلها هيبة الفكر جلالاً، ويكسبها نبل النشاط خلوداً.

* * *

أزهار كلها كلمات: وأيّة قوّة في العالم تغلب هذه القوّة؟ فالكلمات أزهار تزين مجد الأبطال والعاملين. والكلمات حجارة تشيد الأبنية والصروح. والكلمات أفكار متبادلة بين المتكلّم والمخاطب. والكلمات كلمات يتراسل بها الكاتب والقارئ فتخلق بينهما التيّار القاهر المفعم بنشوة اليقظة ومجالي الحياة.

* * *

٥٥ عاماً، أيّها «الأهرام»، وأنت الرسالة إلى كل قارئ. فأنت السجلّ المهيب الذي عرف مصر والشرق في بواقي كبوتهما، وفي عزّ نهضتهما. وأنت العامل المرهف الذي عمل في تحويل الكبوة إلى نهضة ميمونة يوماً بعد يوم.

* * *

عاصرت الجالسين على عرش مصر من سعيد إلى إسماعيل، إلى كل من أبناء إسماعيل، وها أنت اليوم تعاصرين «فؤادهم». وعرفت مختلف الزعماء في شتّى فروع اليقظة من جمال الدين الأفغاني إلى محمد عبده، إلى قاسم أمين، إلى مصطفى كامل، إلى سعد زغلول، إلى طلعت حرب، وكل الذين تخلّلوهم من المصلحين والنابهين. فتغذّيت من روحهم وحميّتهم ويقينهم ومددتهم بتأييدك ويقينك وآرائك وها أنت تشهدين هذا الازدهار العظيم بفضل زعماء الأمس ومن جاء بعدهم من زعماء اليوم في ميادين الوطنية والسياسة والاقتصاد والاجتماع. وأنت وإيّاهم يد واحدة وقلب واحد وإرادة واحدة في السير إلى الأمام.

* * *

وشهدت حماسة الشعب، أيّتها «الأهرام». شهدت الشعب يتململ ويموج ويتحفّز وينهض ويأتي بهذه الحركة البسيطة العجيبة التي تثير البكاء من فرط السرور، حركة تكسير القيود وتمزيق الأكفان. فكان لك الفخر في أن تكوني أحد الأصوات المسموعة في إعلاء شأن الشعب والسعي إلى تأييد مطالبه والبحث في حاجاته. وكان لك الفخر في تعظيم الزعماء، وفي الدعوة إلى الالتفاف حول العرش عند اشتداد الكروب، وفي تعريف وسائل التنظيم الاجتماعي، وفي تقديس العلم الأخضر المفدّى.

* * *

ورأيت الاتحاد والانقسام، والائتلاف والاختلاف. فعلمت أن لا جمود مع اليقظة وأن ما هذه إلّا مظاهر من الحياة المتدافعة المقتحمة الباحثة لها عن مظهر جديد جليل جميل في الأمّة المصرية.

* * *

ورأيت نشأة الصحافة ونموّها، يا شيخة الصحافة! فلا غرو إذا تسابقت اليوم أخواتك من مختلف الأعمار إلى نثر الأزهار. فأنت منهنّ الجذع الراسخ المملوء حياة وقوّة وجمالاً، وهنّ منك الأغصان الفتيّة الملأى بالحياة والقوّة والجمال.

* * *

ولئن حقَّ نحوك التقدير والإكبار فقد حقّ التقدير والإكبار كذلك للأرض التي نشأت فيها. ما هو ترى مصير الحبّة الصالحة في الأرض غير الصالحة؟ فأنت الحبّة، الحبّة الصالحة المزروعة في أرض الخصب والكرم.

* * *

خمسون عاماً هي عيدك الذهبي أضفت إليها حتى اليوم أعواماً خمسة هي الحجارة الماسية المرصّعة الحلية الذهبية. وسيتزايد عدد حجارتك هذه عاماً بعد عام، إن شاء اللّه، حتى يختفي الذهب الخالص تحت الماس المتشعّع. وعندئذ تكون مصر قد أوغلت في تطوّرها، هي التي تبشّر الآن بكل رجاء. وتسيرين أنت مثلها في طريق المجد دواماً.

* * *

اليوم يتحرّك في مقرّه جذلاً مؤسّسك الميت الباقي حيّاً في مَن خلفه ساهراً على شؤونك ومحسّناً تنظيمها وتنسيقها فللوالد وولده معاً التهنئة والحمد(٢).

* * *

ولئن زففنا التحيّة إلى جميع المتعاونين على إنضاجك وتقديمك بهذه الصورة الشائقة، فشملت تحيّتنا الأحياء منهم والموتى جميعاً، فمنّا تحيّة خاصّة إلى كبيرهم، داود بركات، «الينبوع الصامت» المتدفّق كل يوم يوزّع من نميره دون حساب لينعش العقول والنفوس.

* * *

ماذا ترى يهدي الناس إلى أهرام الفراعنة سوى نظرات الإعجاب وعواطف التقدير والإجلال؟ للصرح القرطاسي الخالد كما للصرح الحجري الخالد إعجاب وتقدير وأزهار.

* * *

وبعض هذا يتمثّل اليوم في هذه الكلمات.

* * *

والكلمات، أيّتها «الأهرام»، سلاحك وقوّتك. والكلمات أمضى سلاح في العالم. والكلمات أقوى قوّة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٦، ع ١٦١٩٣، ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٣٠، ص ١ .

(١) تلمح ميّ زيادة هنا إلى مجموعة الخواطر التي كانت تنشرها تحت عنوان «شرر وحبب» ليس فحسب في جريدة «الأهرام»، بل في مجلّتي «المقتطف» و«المرأة المصرية» كذلك. انظر على سبيل المثال في هذه المجموعة «طاقة ليوم شمّ النسيم: شرر وحبب»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٧٠، ٦ أيّار/مايو ١٩٢٩، ص [٥٤]، و «خواطر في الحكومات والشعوب: شرر وحبب»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٤٨، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٧] .

(٢) المقصودان هما بشارة تقلا، اللبناني الأصل، الذي أنشأ جريدة «الأهرام» عام ١٨٧٥ في الإسكندرية بالتعاون مع شقيقه سليم تقلا، ثمّ نقلها عام ١٨٩٨ إلى القاهرة، ونجله جبرائيل الذي تولّى إدارتها عام ١٩١٢ حتى وفاته عام ١٩٤٣ .

الماضي أم المستقبل؟(١)

أشكر لكم هذا الترحاب الجميل. لقد أنسيتموني لحظة ثوبي الأسود وجئتم تقولون لي بشبابكم وحماستكم وعطفكم إنّ من أقام الآن على ضفاف النيل حرام عليه أن يكون حزيناً(٢)! إنّ من أظلّته سماء مصر والأمّة المصرية في إبّان يقظتها تحتّم عليه أن يغرق يأسه الفردي في الرجاء العظيم الشامل عاملاً في بابه على إذكاء هذه اليقظة، مشاركاً الأمّة الناهضة المجاهدة ولو من بعض النواحي في نهضتها وجهادها!

لقد أفضى إليّ بهذا المعنى - ولكن بألفاظ أخرى - إخوانكم أعضاء هذه الجمعية النجباء عندما جاءوا يشرّفونني بالدعوة إلى افتتاح محاضرات جمعية الخطابة والمناظرات بالجامعة المصرية لسنة ١٩٣٠ . وهذا ما يقوله أساتذتكم العلماء بتفضّلهم بحضور هذا الاجتماع، وعميد كلّية الآداب المفضال بتكرّمه بتبوّء كرسي الرئاسة. هذا ما تقولونه بتقاطركم إلى هذا النادي في اهتمام ونظام، بإفساحكم مكاناً بينكم للمرأة المصرية الجالسة هنا في صون وتأدّب وكرامة، متعاونة معكم على تقديم صورة فخمة من المجتمع المصري الجديد.

وهذا ما أراده رئيس الجمعية الجليل وأعضاؤها المحترمون في ما تلطّفوا فنثروه عليّ من زهرات البيان. وهذا ما تقولونه جميعاً بحملي على اعتلاء هذا المنبر في هذه الدار العظيمة وفي جوّ تخيّم عليه هيبة العلم ورصانته.

فاقبلوا شكري على ما نفحتموني به من نسمات القوّة والحياة. لقد أفهمتموني بأنّي عضو من مجتمعكم فعليّ إذن أن أنشط بنشاطكم، وأن أسعى بسعيكم لأسير معكم في جادّة النور والتقدّم والرفعة.

* * *

حضرة الدكتور الرئيس،

أيّها السادة والسيّدات والأوانس،

عنوان هذه المحاضرة كاف لينبّه النفوس ويرهف الأذهان. وقد رأيتم على بطاقة الدعوة أنّ هذا الحديث تعليق على مناقشة جرت بين مسيو كولوس والسنيور مارينتي العضوين الفرنسي والإيطالي في المؤتمر الدولي الأدبي والفنّي المنعقد أخيرًا بالقاهرة(٣). على أنّي أصارحكم بأنّي وضعت هذا البيان من قبيل تعريف الفكرة ليس غير. وإن أنا ألمعت إلى بعض آراء العضوين الكريمين فلإجلاء الفكرة كذلك، لأنّ الواقع أنّ المناقشة في هذا الموضوع الرئيسي والموضوعات المتفرّعة منه هي شغلنا الشاغل، مناقشة دائرة بين كتّابنا ومفكّرينا على صفحات الجرائد، وفي فصول المؤلّفات، وعلى منابر الخطابة وفي إرسال المنثور وتقييد المنظوم.

الواقع أنّنا نجتاز طوراً حائراً مضطرباً يجعل حياتنا الاجتماعية والفكرية والأدبية وأساليب المعاملة عندنا، وطراز اللباس وبرامج الدراسة ولغة الكتابة في تجاذب وتدافع عنيف مستمرّ بين القديم والجديد، بين الماضي والمستقبل. فتارة تكون الغلبة لهذا وتارة تكون لذاك. ومرّة يختلط الحابل بالنابل، على رأي أهل الفصاحة، فينقلب الأبيض أسود والأحمر أزرق. ومرّة يحدث التصادم نورًا فتنتظم الأفكار والشؤون، ونتمنّى أن يتجاوز الانتظام الأفراد لينتشر بين الجميع.

عندنا كما عند سائر الأمم، محافظون ومجدّدون، أنصار للماضي وآخرون للمستقبل، فريق يبتّ بأن لا خلاص من الارتباك والفوضى ولا إصلاح ولا قوّة إلّا بالرجوع إلى الماضي، وفريق يعلن بأنّ الأمس سرطان متأصّل فينا وأن لا أمل في السلامة إلّا بإجراء عملية جراحية صارمة تجتثّ الماضي من أصوله لتفسح المجال لفكرة الغد ونشاطه وأعماله.

مشكل خطير فيه يهدّدنا كل من الفريقين بالانحلال والتقهقر إن لم يؤخذ برأيه. فما هي السبيل إلى حلّ هذا المشكل الذي ليس قضيّة كلامية فحسب بل هو نافذ في أمورنا، نحياه ويحيانا كل يوم وكل ساعة؟

أمّا مسيو كولوس فمن أنصار الماضي في الأدب والفنّ. هو محافظ يضحك في رقّة أرستقراطية من المذاهب الأدبية الجديدة الناتورالستية أو الناتورستية والرمزية والتأثيرية والمستقبلية والتكعيبية إلى آخره. ولو اتسع الوقت لأشرت إلى ما ينتمي إلى بعض هذه المذاهب عند الكاتبين بالعربية في هذا الجيل، ليس في مصر وحدها بل في غيرها من الأقطار كذلك، وبخاصّة في أمريكا الشمالية. غير أنّ بيان ذلك يستغرق محاضرة طويلة.

ليس مسيو كولوس متفرّداً بنزعته تلك. المحافظون أمثاله بين أدباء فرنسا أقلّ عدداً من الآخرين بمذاهب التجديد، ولكنّ جلّهم من أئمّة الفكر وأرباب القلم. وحسبي أن أذكر منهم بوك بورجيه(٤) كبير كتّاب الفرنسيس في هذا العصر. وأذكر معه ليون دوديه(٥) الذي صرّحت له الحكومة الفرنسية في هذا الأسبوع بالعودة إلى بلاده من المنفى. ولا يقصر هؤلاء على المحافظة في الأدب - وما الأدب إلّا صورة الحياة - بل هم محافظون في العادات والمراتب الاجتماعية وأساليب التربية ونظم الدولة والسياسة القومية. وبينا الحكومة القائمة في فرنسا هي حكومة الجمهورية ترى ليون دوديه وأنصاره يطلقون على نفوسهم اسم «التقليديين» (ترادسيونالست) مجاهرين بأن لا خلاص لبلادهم إلّا بعودة الملكية إليها وتوطيد عرشها فيها. وليون دوديه هذا، وهو نجل الأديب الفرنسي الشهير ألفونس دوديه، كاتب قدير لذّاع ولحملاته القلمية دويّ بعيد حتى بين أشهر خصومه وأقواهم نفوذاً. ومن هنا ما لقيه إلى اليوم من المقاومة الحادّة والمطاردة والتشريد.

ويقابل جماعة المحافظين جماعات المجدّدين في السياسة والاجتماع والأدب والفنّ والموسيقى، على اختلاف مللهم ونحلهم. لأنّكم تعلمون أنّ في التجديد كما في المحافظة درجات، وهو الأمر الذي ترونه هنا في مصر. فمن المحافظين من هم محافظون بالجملة، ومنهم محافظون «بالقطّاعي» إن صحّ هذا الوصف التجاري، ومن المجدّدين من يدعو إلى التجديد في اعتدال وتبصّر ومراعاة للأحوال والحاجات ومنهم من يقول بنسف بقايا الماضي وتدمير آثاره لأنّ كل قديم فاسد في نظر هؤلاء وكل جديد مفيد.

وعلى رأس هؤلاء تجد السنيور مارينتي زعيم «المستقبليين» الإيطاليين وإخوانهم من «جماعات المستقبل» في غير إيطاليا. وقد بلغ من مقت السنيور مارينتي للماضي أنّه يدعو إلى إضرام نار رهيبة تلتهم المكاتب والصروح والآثار والمتاحف ويطلب مجزرة عامّة تهرق فيها المؤسّسات العلمية والبرلمانات والأكاديميات جميعاً.

بيد أنّ غضبته هذه لم تحل دون قبوله عضوية الأكادمية في العام الماضي. صحيح أنّ هذه الأكادمية جديدة تأسّست تحت سيطرة النظام الفاشستي الذي يتفق مع آراء مارينتي في الإصلاح ويحمل حملة شعواء على مختلف النظم السياسية والاجتماعية السارية الآن في أوربا وأمريكا. ولكنّ الأكادميا أكادميا على كل حال لأنّها تقيّد أعضاءها بأنظمة وقواعد يسيرون بموجبها حتماً. وهذا متوافق وبرنامج مارينتي الذي يجيز التناقض أحياناً: أي يجيز لك أن تدعو إلى أمر فتأتي بنقيضه، وأن تنادي بمبدأ فتنفذ غيره.

ولقد كنت أعرض عليكم برنامج مارينتي بمجموعه لولا أنّه يحتوي على بندين سياسيين خطيرين لا يحسن أن نذكرهما دون أن نناقشهما من ناحيتنا الشرقية. وأنا لا أريد أن أتدخّل في السياسة، وأنتم الذين تقرؤون تعلمون أنّي دائماً حصرت جهودي في الموضوعات الاجتماعية والأدبية والفنّية والتهذيبية، وأنّي ما فتئت أدعو المرأة إلى الابتعاد عن السياسة قدر المستطاع فللسياسة رجالها وأساطينها وأنا لست رجلاً ولا أنا حتى من الأساطين النسوية. ويقيني أنّ وظيفة المرأة في المرحلة الحاضرة هي أفعل وأنفع ما تكون في البيت وبين أعضاء الأسرة أولًا، وبعدئذ في الاجتماع والأدب والفنّ والخير، وقد تكون في العلم كذلك ولكنّها ليست أبداً في السياسة، هذا إذا استثنينا بعض الظروف الخاصّة التي لا يمكن اعتبارها قاعدة عامّة.

ولكن يتحتّم التقرير أنّ محور دعوة مارينتي يدور حول تطوّر الآلات وسرعة الحركة الميكانيكية. فالماضي إذن لاغ لأنّه جامد والمستقبل للسرعة لأنّها تكتسح الأرض وتعدّل من شؤون الناس وعقلياتهم وميولهم. والغلبة مكفولة في الغد لأنشط الأمم همّة وأسرعها حركة. وعلى ذلك فلا عواطف بعد اليوم، ولا هموم ولا شجون ولا تلكّؤ ولا ذكريات. أمّا الشعر فيتحتّم إطلاقه من قيود الرويّ والقافية والخيالات

المألوفة. وأمّا النثر فيجب ألّا تراعى فيه حتى ولا قواعد الهجاء، والغرض من هذا وذاك الإفصاح المتعجّل الذي يلقي لهيب الثورة في كل جمود ويحرّك النفوس والعقول إلى السرعة السرعة السرعة - السرعة!

ليست هذه هي طريقتي في الإنشاء ولكنّني أحاول تقليد أسلوب مارينتي المتلظّي.

فأين نحن، أيّها الإخوان والأخوات، من الاستعارات القديمة، والبلاغة المنسّقة، والجمل المتوازنة، والمرادفات المتعدّدة، والمناقشات التي لا تنتهي أحياناً حول لفظة واحدة وأصلها العربي أو الأعجمي؟ أين نحن من القصائد ذات القافية الواحدة في عشرات الأبيات وأحياناً في مئينها؟ أين نحن من قول القائل:

سائقَ الأَظْعانِ يطوي البِيدَ طَيْ
مُنْعِمًا عَرِّجْ على كُثْبَانِ طَيْ
و بذاتِ الشِيحِ عنّي إن مرر
تَ بحيٍّ من عُرَيْبِ الجِزْعِ حَيْ
فَتَلَطَّفْ وأَجْرِ ذكري عندهم
علَّهم أنْ ينظروا عطفاً إلَيْ
قُلْ تركتُ الصبَّ فيكم شبحاً
ما له ممّا براه الشوقُ فَيْ

إلخ إلخ[٦].

والذين سمعوا مارينتي يصفونه بالخطيب الجريء الجذّاب الخلّاب الملتهب حماسة للأرستقراطية الجديدة، أرستقراطية الآلة والسرعة. وهو كذلك في كتبه وفي بياناته رغم ما في هذه وتلك من الشذوذ في الأسلوب وفي محاولة تقليد أزيز الآلات وحفيف الطيّارات بالألفاظ والجمل. وقد تكلّمت عن مذهب مارينتي أكثر الصحف الفرنسية وبعض العربية. إلّا أنّ صحيفتين إحداهما فرنسية والأخرى عربية أفردتا له افتتاحية في أحد أعدادها أثناء إقامته في مصر.

أمّا الصحيفة الفرنسية فهي «البورص إجبسيين»[٧] التي جعلت عنوان مقالها «بين تاجور ومارينتي» فقال كاتب المقال، مسيو أندريه دي لوموا، إنّ مارينتي يمثّل الغرب الجديد بنشاطه وإنّ تاجور يمثّل الشرق القديم بتباطؤه، وإنّه كان يودّ أن يسمع تاجور ومارينتي متناقشين ليعلم هل الشرق مقتنع بوجوب الإقلاع عن جمود الماضي أو هل لا يسمع الدعوة الجديدة لأنّه مستغرق في أحلامه؟

وكان تاريخ هذا المقال ٢٧ دسمبر فصدر بعد يومين اثنين مقال في «الأهرام» بتوقيع الأستاذ داود بك بركات وعنوانه «دين الضمير والسرعة» لخّص مذهب مارينتي قائلاً إنّه يجب أن يصغى إلى هذا الرجل في مصر لا للأخذ برأيه على علّاته ولكن لأنّه كشف الغطاء عن بعض وجوه الحقيقة وبيّن أنّ عصر البخار وعصر الجمل في البادية غير عصر الأوتوموبيل والطيّارة وأنّ الجمود على عبادة القديم يحول دون السير إلى الجديد الجارف سواء أردنا أم لم نرد.

ونحن، أيّها السادة والسيّدات، نحن الملمّين باللغات الأوربية المطلعين على مصنّفات الغرب واكتشافاته، لا يفوتنا معنى من معاني اتجاهه الفكري والعلمي. فقد سمعنا لأول مرّة كلمة «المادّية التاريخية» في كتابات ماركس وإنجلز[٨] ولاسال[٩] وإخوانهم من مختلف الأمم. ومفاد هذه «المادّية التاريخية» أنّ الآلة الجديدة تقلب نظام العالم وأنّ الاجتماع لا بدّ خاضع لها. وسمعنا الدعوة إلى عبادة القوّة والسرعة والرشاقة في كتابات نيتشه الألماني الذي نشر مذهبه بيننا المرحوم فرح أنطون[١٠] وكانت كتاباته شديدة التأثير في فكر كبيرين من أدبائنا هما الأستاذان لطفي جمعة[١١] وسلامة موسى. وقرأنا تعظيم شأن الآلة وأهمّيتها في تطوّر العالم في كتب ويلز وبرنرد شو كما كنّا رأينا وصفها من قبل في كتب جول فرن الفرنسي الذي عرف الغوّاصة قبل أن يفكّر أحد في إنشائها وتنبّأ بالوصول عن طريق التقدّم الميكانيكي إلى القمر ومخابرة السيّارات والاتصال بالعواصم البعيدة بواسطة الميكانيكا العلمية. وها نحن نرى أثر الميكانيكا في حياة أمريكا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وغيرها، وكلها تفاجئنا الوقت بعد الوقت باختراع جديد واكتشاف طريف شديدَي الأثر ليس فقط في حركة التجارة والصناعة والفنّ وفي زمن السلم ولكنّهما أخطر ما تكونان في زمن

الحرب. أيّة دولة لا تعمل في دائرة العلم والنشاط وأيّ شعب لا يسارع إلى اقتباس ما ينيله قوّة ويجعله بين الشعوب سائداً لا فريسة للملتهمين؟ لقد صدق مارينتي بقوله إنّ الوطنية ليست إلّا السرعة في إقدام كل أمّة على العمل الذي تريد، ومنه تستفيد!

ولكن هل الشرق جامد حقّاً؟ وهل هو متحف عظيم ليس غير لتكون دعوة مارينتي قد خلقت له؟

لو كان الغرض من محاضرتنا هذه الإنصاف لكنّا أبنّا فضل الشرق على مدنية العالم في علوم الكيمياء والهندسة والعمارة والطبّ والرياضة والزراعة والصناعة وفنّ سلك البحار وقيادة الجيوش وفتح المدائن، مع الاعتراف بأنّ الغرب تناول هذه العلوم فأنماها ورقّاها ووصل بها إلى حدّ السحر والرهبة. ولكنّا أبنّا أنّ «الفيدا» كتب الهند المقدّسة تثبت أنّ قانون الجاذبية بين الأجرام السماوية قد عرفه الشرق قبل أن يولد نيوتن العظيم بعشرات القرون. حتى التلفون، أو ما هو مشابه له قد عرفته مصر القديمة في عهدها الزاهر فكان يتخاطب به أو بما يحاكيه، كهّان الهياكل، فيتبادلون الآراء في دقائق وجيزة من أقاصي البلاد إلى أقاصيها، من منفيس قرب القاهرة إلى طيبة في أعالي الصعيد. حتى المبادئ الأولى لفنّ الطباعة جاءت من هذا الشرق، من الصين التي اخترعت البارود كذلك. والهند كانت وما زالت مستودع أسرار الكهرباء والمغناطيس والإيحاء والتلبشيا[١٢] وتشعّع الأجسام، هذه العجائب الطبيعية التي أنشأ علم الغرب يهتدي إليها في هذه الأعوام.

كلّا، ليست غايتنا المباهاة بالماضي والتغنّي بمحامد الجدود. لقد وصلنا إلى طور أدركنا فيه أنّ هذا عمل عقيم وأنّ واجبنا الآن هو استثارة الهمم للنهوض واستئناف ما بدأ به الجدود. والشرق، كالغرب، كلمة واسعة غامضة وإنّ الفارق بين مصر والصين مثلاً ليس دونه بين إنجلترا وإيطاليا مثلاً.

ولقد قيل لي غير مرّة: «أجل، لقد بزغت الشمس من المشرق ولكنّ النور غادركم منذ زمن بعيد وأنتم الآن في ظلام دامس وأنتم الآن فيه تعمهون!».

وجوابي على هذا القول أنّ حياة الشعوب كمياه البحار مدّ وجزر، وأنّ الإنسانية واحدة في كل زمان ومكان فلا بدّ من انحدار بعد كل صعود، ولا بدّ من

يقظة بعد كل هجعة. ولقد ارتفع الشرق ثمّ هبط بحكم قانون المدّ والجزر وحكم تطوّر أحوال العالم. ولكنّ ساعة اليقظة قد حانت بحكم تطوّر أحوال العالم أيضاً وبحكم قانون المدّ والجزر نفسه.

ليست يقظتنا بالكلمة المزعومة ولكنّها حقيقة ملموسة يثبتها شوقنا إلى العلم والمعرفة، تثبتها رغبتنا في الاستنارة والإدراك، ويثبتها خصوصاً ما نحن فيه من الحيرة والاضطراب والارتباك وطمعنا في أن لا نكون عالة على العالم بل أن نكون قوة في قواه وجناحاً يعجّل سيره ويخفّف خطاه.

ولنحقّق هذا المطمع النبيل، ماذا علينا أن نعمل يا ترى؟ أنركن إلى الماضي دون المستقبل أم نضحّي القديم لننصرف بكلّيتنا إلى الجديد؟

ترون أنّنا وصلنا في آخر الحديث إلى حيث كنّا في مطلعه. ولقد أشرت خلال الكلام إشارة سريعة – كسرعة مارينتي – إلى آراء طائفة من المرتئين. ولكنّي لم أبسط بعد رأيي ولا أنا سألتكم عن رأيكم. فهيّوا بنا إلى استفتاء عامّ في هذا النادي لنكون على بصيرة مما نريد!

الماضي هو هذه الأرض التي خلقت الحضارة المصرية، هو هذا النيل المقدّس الذي يرضع سهول إيزيس، هو هذه الأهرام الخالدة ليس بكونها أثراً فنّياً وتاريخياً ولكن بكونها الأثر الهندسي العَلَم الذي لم يجلُ العلماء أسراره إلى اليوم. فمنذا منكم يودّ أن يهدم الأهرام ويخسف الأرض ويجفّف النيل؟

الماضي هو الهيروغليفية المصرية القديمة التي لم تفكّ بعد طلاسمها، وهو اللغة العربية التي يترنّم المؤذّن بألفاظها فيفعم الهواء ترتيلاً وتشدو بسورها القرآنية أصوات القارئين فتملأ النفوس شجواً وحنيناً. فمنذا منكم يرضى بالقضاء على إحدى هاتين اللغتين؟

الماضي هو أنا وأنتم. وقد عاش الألوف من الآباء والجدود لتنتهي بهم الحياة إلى إخراجي وإخراجكم إلى نور الحياة. فأصواتهم تتكلّم الآن في أصواتنا، وحركاتهم تتكرّر في حركات أيدينا، وعيونهم تتألّق في نور عيوننا، وكل ما جهلوه أو كتموه من

النزعات والمآرب يفصح عن نفسه الآن في ما نجاهر به من الرغبات والمطالب. فمنذا منكم يودّ القضاء على نفسه؟ وإن نحن قضينا على أنفسنا فمنذا الذي يبقى للمستقبل؟

والمستقبل هو هذه اليقظة التي تفاجئنا من كل صوب. المستقبل هو هذه الآلات المتزايدة كل يوم في نموّ وإتقان واكتمال فإنْ لم نسخّرها لخدمتنا سخّرتنا لعبوديتها. المستقبل هو تطوّر العبقرية الإنسانية والاشتراك في الحياة العامّة بين الشعوب والقارّات والعوالم.

المستقبل هو خلق النفوس خلقاً جديداً، هو نشاط الحياة القومية من مختلف جوانبها بتقسيم العمل وفقاً للاستعداد الفردي في الصناعة والزراعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب فمنذا منّا يريد أن يحرم نفسه من بهجة الحياة العامّة وشرف الحياة القومية؟

المستقبل هو الأمل المتحقّق والعمل والحرّية. فمنذا يرضى بأن يكون محروماً من الأمل والعمل والحرّية؟

إذاً ماذا؟ الماضي أم المستقبل؟

جوابي، أيّها السادة والسيّدات، هو جوابكم بعينه: الماضي والمستقبل معاً!

الماضي هو الراحة والمستقبل هو النشاط، والحياة كلها قائمة بالراحة والنشاط.

نريد الماضي لنحتفظ منه بالحسن المفيد ونطلب المستقبل لنأخذ منه كل حسن مفيد.

وإذا جاز لي أن أعرّف العمل الصامت المنزوي عن كل ضجّة تمثّله الآن في رجل مصري كبير: هو صاحب دائرة معارف القرن العشرين، الأستاذ محمد فريد وجدي.

أمّا المستقبل العلمي الميكانيكي فأتمثّله الساعة في فتى الشجاعة والإقدام، في النسر المصري الذي يطوي الأجواء إلينا، في الطيّار صدقي!

* * *

أيّها السادة والسيّدات،

ليس خير حديث ما خرجنا منه وكلنا على رأي واحد، بل هو حديث يحملنا على المناقشة والتفكير ويثير منّا الرغبة في البحث والتقرير. وستبحثون كثيراً وطويلاً في موضوع القديم والجديد ولن تفرغوا منه في جيل ولا في جيلين. فأهنّئ جمعية الخطابة والمناظرات بعامها الجديد وأتمنّى لها أن تهتدي في أبحاثها وأعمالها على ما يحسن اختياره من الماضي والمستقبل جميعاً.

وقبل أن أغادر المنبر، لديّ فكرة أطرحها عليكم وقد أوحاها إليّ المكان الذي نحن فيه والموضوع الذي نعالجه والجامعة التي أنتم طلبتها - والمرأة تقترح دائماً، كما تعلمون.

تعلمون أنّ الجمعية الجغرافية تأسّسب في عهد الخديوي إسماعيل وأنّ البرنس فؤاد رأسها وعني بها وما زال الملك فؤاد يهيمن عليها برعايته العالية. كذلك جامعتكم المصرية تكوّنت نواتها الأولى برئاسة البرنس فؤاد وها هي تنمو وتزدهر في عهد الملك فؤاد السعيد. وتعلمون أنّ في هذا العام الثلاثين تحتفي مصر بمرور مائة عام على ولادة إسماعيل العظيم. فأقترح على جمعية الخطابة والمناظرات أن تتفاهم وسائر الجمعيات الأخرى في الجامعة المصرية ليقوم الطلبة من جانبهم بتهيئة احتفال خاصّ يليق بيقظتهم، ويليق بعطف المليك المعظّم على حركة العلم والأدب والفنّ في البلاد، ويكونون في الوقت نفسه مؤدّين واجبهم نحو إسماعيل العظيم الذي كان عهده في مصر حلقة ذهبية حُبكت بين جلال الماضي ونشاط المستقبل!

(*) الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢٠٤، ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٣٠، ص ١ و ٣ .

(١) ألقت ميّ زيادة هذه المحاضرة في ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٣٠ بدار الجمعية الجغرافية الملكية في القاهرة، وافتتحت بها لجنة الخطابة والمناظرات بالجامعة المصرية سلسلة خطبها في ذلك العام. ورأس الاجتماع الدكتور طه حسين الذي كان يشغل في حينه منصب عميد كليّة الآداب.

(٢) تلمح ميّ زيادة في هذه الكلمات إلى الحداد على والدها إلياس زيادة ناشر جريدة «المحروسة» المتوفى في ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩ .

(٣) انعقد المؤتمر المذكور في النصّ من ٢٣ إلى ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، وكانت الرابطة الأدبية والفنّية الدولية (Association Littéraire et Artistique Internationale) في باريس الجهة المنظّمة له. وللأسف لم يمكنّي التحقّق من الهجاء لاسم العضو الفرنسي في المؤتمر وبالتالي لم يتيسّر لي الكشف عن هويّته. أمّا العضو الإيطالي فهو المؤلّف المعروف Filippo Tommaso Marinetti (١٨٧٦ - ١٩٤٤)، مؤسّس حركة «المستقبلية» الذي ولد في مصر ونشأ في فرنسا، قبل أن يستقرّ في ميلانو حيث أسّس عام ١٩٠٥ مجلّة *Poesia* الأدبية. وفي ٢٠ شباط/فبراير ١٩٠٩ نشر في جريدة *Le Figaro* الفرنسية برنامجه الأول لحركة المستقبلية *Manifeste du Futurisme* ، وفيه طالب بالتخلّي عن الأشكال النمطية والفكرية المستمدّة من الماضي، وتحديداً عن النظريات الجمالية الأدبية، وقد سعى بقوّة لمواجهة القواعد اللغوية التقليدية وإيجاد نظرية جديدة في تركيب الجملة، ومفردات ملائمة للتطوّر التكنولوجي والحضاري. حظي خلال الحقبة الفاشية بدعم موسوليني، وتبوّأ مناصب عامّة رفيعة.

(٤) لم يرد الاسم صحيحاً في النصّ الأصلي والمقصود هو المؤلّف والصحفي الفرنسي Paul Bourget (١٨٢٥ - ١٩٣٥)، عضو الأكاديمية الفرنسية منذ ١٨٩٤ . عُرف في المقام الأول بصفته ناقداً، وقد عارض نظرية تأثير المحيط الاجتماعي في المذهب الطبيعي (Naturalisme) وأدخل علم النفس في مجالي الإبداع والنقد الأدبي. بدأ بعد عام ١٩٠٠ يتّجه بالتدريج إلى مواقف كاثوليكية محافظة.

(٥) Léon Daudet (١٨٦٧ - ١٩٤٢)، كاتب وسياسي فرنسي، انضمّ إلى حزب Action Française اليميني المتطرّف بصفته مسانداً قويّاً للملكية، ومناهضاً لليهود، حيث كان رئيساً لتحرير صحيفة الحزب اليومية للفترة من ١٩٠٨ - ١٩١٧، ثمّ أحد ناشريها. ويجدر بالذكر في هذا الصدد أنّ ميّ زيادة عالجت حياة دوديه وأعماله بالتفصيل في مقالة نُشرت في مجلّة «المقتطف»، ج ٨٦ (١٩٣٥) ص ٢٧١ - ٢٧٨، ويمكن الاطلاع عليها في مجموعة أنطوان محسن القوّال «نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة»، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٣، ص ١٠٨ - ١٢١ . انظر في السياق نفسه مقالها «بين الفاتيكان وجريدة لاكسيون فرانسيز» المنشور في المقتطف، ج ٨٦ (١٩٣٥) ص ٣٩١ - ٣٩٦، وهو مضمّن في مجموعة د. جوزيف زيدان «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي ١٩٩٦، ص ٢٢٣ - ٢٣١ .

(٦) مطلع القصيدة اليائية للشاعر المصري الصوفي المعروف ابن الفارض (١١٨١ - ١٢٣٥).

(٧) صدرت صحيفة *La Bourse Egyptienne* في القاهرة بين ١٩٠٩ - ١٩٦٣، وكان الكاتب المذكور لاحقاً في النصّ، المحامي Dr. André de Laumois ، مطلع الثلاثينات رئيس تحريرها.

(٨) Karl Heinrich Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣)، الفيلسوف الاجتماعي الألماني المعروف، منظّر مذهب الاشتراكية، ومنشئ الماركسية. ألّف «البيان الشيوعي» ١٨٤٧ - ٤٨ بالتعاون مع صديقه، الفيلسوف والسياسي الألماني Friedrich Engels (١٨٢٠ - ١٨٩٥)، و «رأس المال» الذي صدر في ٣ مجلّدات (١٨٦٧، ١٨٨٥ و ١٨٩٤). ساهم في تأسيس «الدولية الأولى» عام ١٨٦٤ .

(٩) Ferdinand Lassalle (١٨٧٤ - ١٩٢٢)، اشتراكي ألماني، كان على النقيض من ماركس مسانداً لنظام ملكي ذي توجّهات اشتراكية ديموقراطية. أسّس في عام ١٨٦٣ «اتحاد العمّال الألماني العامّ» الذي انبثق عنه الحزب الاشتراكي الديموقراطي في ألمانيا.

(١٠) فرح أنطون (١٨٧٤ - ١٩٢٢)، مؤلّف وصحفي لبناني، ولد ونشأ في طرابلس الشام، وهاجر عام ١٨٩٧ إلى مصر. أصدر في الإسكندرية مجلّة «الجامعة» وأسّس لأخته روز أنطون حدّاد مجلّة «السيّدات» التي كتب فيها تحت أسماء مستعارة شتّى. انتقل عام ١٩٠٧ إلى نيويورك حيث أصدر صحيفة ومجلّة باسم «الجامعة». عاد الى مصر بعد أن فشل في تحقيق النجاح المأمول من أعماله، ومن هناك أعاد لفترة وجيزة إصدار مجلّته «الجامعة» كما شارك في تحرير العديد من الصحف. من بين آثاره مسرحيات وتراجم عن الفرنسية، وحوالي ٢٥ رواية.

(١١) محمد لطفي جمعة (١٨٨٦ - ١٩٥٣)، أديب وصحفي مصري، تخرّج من جامعة الأزهر، وحصل عام ١٩١٠ على الليسانس في الحقوق من فرنسا ليعمل فيما بعد محامياً في القاهرة. كتب للعديد من الصحف، وكرّس نفسه على وجه الخصوص للأبحاث التاريخية والفلسفية. له تراجم لأعمال هامّة من الأدب الإنجليزي والفرنسي، كما ألّف بعض القصص والمسرحيات.

(١٢) هكذا في الأصل، ولعلّ صوابه هو «التلبثيا»، أو «التلباثية» أي التلقّي على البعد.

طيّارو الشعوب يملأون الفضاء

فإلى متى تبقى الأجواء دون نسور مصرية؟

منذ زمن غير بعيد - لمناسبة مسابقة سرعة الطيران لكأس شنيدر التي فازت بها إنجلترا للمرّة الثانية - كتبت كلمة في هذا المكان من «الأهرام» عن الملاحة الجوّية، متسائلة أين هم الطيّارون المصريون وعلام لا يقبل الشبّان المصريون على المغامرة في مجاهل الفضاء التي جعل لها العلم قواعد وأنظمة وأعلاماً كما خطّ العلم في السماء سبلاً وفتح طرقاً وجادّات[١].

نخجل عادة عندما يتبيّن لنا في وضوح أنّـنا أخطأنا. غير أنّ خطأي اليوم مستحبّ وأتمنّى لو أنّي غلطت كل أسبوع مثل هذه الغلطة المباركة فأسجّلها على نفسي بيدي ويشاركني في السرور بها كل قارئ.

مرّت على تلك الكلمة شهور قلائل فإذا في ميدان الإقدام مع الطيّار أو الطيّارين اللذين عرفنا اسميهما من قبل طيّاران آخران هما محمد صدقي[٢] وأحمد حسنين[٣]. وبينما يذكر اسماهما هنا تراهما يرقبان الجوّ ويسبحان بين الغيم والسديم مخترقين المحطّات في مختلف البلدان ووجهتهما مصر حيث يعلمان أنّ جميع القلوب قلب واحد في الترحيب بهما، وأنّ جميع الأصوات صوت واحد في استحثاثهما والإشادة بذكرهما.

ولقد اختار الطيّاران لرحلتهما الأولى أردأ فصل تتلاطم في جوّه الأنواء والزعازع، في حين كل طيّار يختار عادة لرحلته الأولى السماء الرائقة والفصل الهادئ والجوّ الصافي. فهما لهذه المغامرة أحقّ بالإعجاب وأحرى بالتقدير.

أمّا صدقي فلم أسمع به إلّا واسمه مقرون برحلته. وأمّا حسنين بك فلم يدهشني منه إقدامه وهو صاحب الرحلات السالفة في الفلوات النائية والأصقاع

المجهولة، وهو الشجاع في بساطة ورصانة دون مباهاة ولا حذلقة. فهو شغوف بالمخاطرة والاستكشاف ليس فقط شغف الباحث والمقدام بل عنده لذلك أيضاً شغف الشاعر الفنّان.

* * *

أذكر زيارته لنا إثر عودته من رحلته الجميلة إلى واحة الكفرة[٤]، ومعه المرحوم أيّوب بك كميد رئيس القلم الإفرنجي في مجلس الشيوخ يومئذ. كنّا في ذلك الاجتماع لا نزيد على العشرة مما كان يجعل الحديث مشتركاً بين الجميع. فأخذ كل من الحاضرين والحاضرات يلقي على حسنين بك سؤالاً فما يكاد يجيب عنه حتى يبادره آخر بسؤال جديد.

وكان بين الحضور المستشرق الإيطالي المأسوف عليه الدكتور إيوجينيو جريفيني[٥] أمين مكتبة جلالة الملك الخاصّة بقصر عابدين. فكان له عدّة أسئلة جوهرية في عادات السكّان بواحة الكفرة ولهجتهم العربية ومعيشتهم الاجتماعية و «نظرتهم» إلى الحياة. وحسنين بك كما يعرفه معاشروه بطيء البيان، منخوب الألفاظ، محكم التعبير، فكان ينظّم موضوعه جاعلاً الرابطة ظاهرة متسلسلة بين الجواب والجواب.

وإذا ساد السكوت لحظة خلال الحديث التفت الدكتور جريفيني إلى أيّوب كميد وسأله في ابتسام:

– علام لا تتكلّم؟ عهدتك موفور النصيب في الحديث بكل مجلس. فماذا يدعوك إلى السكوت هذا المساء؟

فقال الأستاذ كميد – عندما يتكلّم الرحّالة ينقلب كلام «المقيمين» تافهاً. ولا يظهر ذكاؤهم إلّا في الإصغاء..

وإذ اجتمعت بحسنين بك في الصيف الماضي قلت له:

– أهكذا تحملك أعمالك الحاضرة على نسيان الصحراء وهجرانها؟

فأجاب: – إنّي سعيد فخور بالخدمة في بلاط مليكي. ولكنّي مع هذا لم أهجر الصحراء. وكم ذا سمعت صوتها يناديني!

قلت وأنا أقصد معاكسته: - الصحراء تناديك وأنت تسمع صوتها ولكن أنّى لك أن تلبّي وأنت غارق في مهامّ منصبك وأعمال وظيفتك!

- إنّي أسمع صوت الرمال الصامتة. أسمع ذلك الصوت وأصغي إليه حتى وسط الحفلات وبهجة الأعياد. وسألبّي ذلك النداء، سأعود إلى الصحراء في رحلة أخرى!

فقلت - هذه نيّة حسنة ولكن ماذا أنت صانع بقيود وظيفتك؟ وهل يسمح جلالة الملك بتلك الرحلة؟

قال حسنين بك - إنّي لم أستأذن جلالة الملك بعد في ذلك. ولكنّني واثق من أنّي سأجد من لدن جلالته أعظم تأييد وأقوى تشجيع.

وها هو حسنين بك قد اقتحم فلوات السماء في رحلة جوّية قبل أن يقدم على رحلة جديدة في الصحراء... والرحلة الجوّية أوفر أهمّية.

* * *

والآن وصلنا إلى طور جديد بفضل إقدام هذين الطيّارين المصريين اللذين أثبتا أنّ الملاحة الجوّية فنّ أخذ يفكّر فيه الشبّان المصريون، مقرّرين بذلك أنّهم مدركون حاجة بلادهم إلى البحث عن مكان لها في الجوّ علاوة على كونها نقطة فريدة ذات أهمّية خاصّة في الطيران العالمي لجمعها بين القارّات الثلاث وسيطرتها على المشرقين. وعلينا أن نجاهر بأنهم لم يسرعوا كثيراً في الاهتداء إلى هذه الحاجة ولكنّهم الآن بدأوا يهتدون.

ليس في مصر مدرسة للطيران، بيد أنّ دراسة هذا العلم الفنّي متيسّرة في مدارس البلدان الأخرى وسيكون من أثر رحلة الطيّارين المصريين أنّ الرغبة في دراسة الملاحة الجوّية ستشيع ولو بين طائفة من الشبّان المصريين.

ومن الصعوبات التي تعترض الشبّان في هذا السبيل صعوبة لا يستهان بها. فليس كل شابّ نازع إلى الطيران كأحمد حسنين ومحمد صدقي. هناك شبّان تهيّأت عندهم الرغبة واكتملت الجرأة ولكن تنقصهم الوسائل المادّية. وبكلمة واحدة ينقصهم المال.

إنّي ما زلت أذكر بتأثّر شديد، شابّاً كان يسعى في العام الماضي ليتمكّن من إتمام دراسته البحرية في مدارس بعض الدول الأجنبية. كان الشابّ يتبسّم إذ هو يروي حكايته غير أنّ الدموع كانت تجول في عينيه في النهاية وهو يقول:

«والدي رجل طيّب، كريم في جماعته ولكنّه كثير النفقات للقيام بحاجات إخوتي وأخواتي: وقد باعت والدتي بعض حلاها في العام الماضي لتمكّنني من استكمال دروسي ولكانت تفعل مثل ذلك في هذا العام الأخير الذي قد كنت أفوز فيه بشهادتي. ولكنّ والدتي قضت في الربيع الماضي. فماذا أصنع؟»

أجل! ماذا يصنع هذا الشابّ وأمثاله من أصحاب الذكاء الذين يريدون أن يخرجوا من طائفة المهن المألوفة الآن في المجتمع المصري، ولكنّ الوسائل المالية غير متيسّرة لهم؟

ماذا يصنع الشبّان الذين يرغبون في دراسة الطيران وهم لا يملكون لذلك المال المطلوب؟

بعد كتابة ما تقدّم اطلعت في محلّيات جريدة «البلاغ» الصادرة مساء أمس على فقرة عنوانها «الطيران في مصر» روت فيها خبر اجتماع وزير المواصلات المصري مع المستر لونج مستشار قسم الطيران المدني في الوزارة اجتماعاً طويلاً للبحث في شؤون الطيران في مصر. وقالت «البلاغ»: «إنّ تمهيد الأرض في مطار الدخيلة[٦] سيتمّ قريباً جدّاً فيشرع بعد ذلك في تشييد المباني اللازمة فيه من مستشفى ومساكن للعمّال ومراكز للبوليس وسيكون هذا المطار برّياً وبحرياً. وقد تأجّل تنفيذ مشروع مطار ألماظة[٧] في القاهرة إلى أن يتمّ مطار الدخيلة».

فهل يجوز الاستفهام فيما يؤدّيه هذا المطار من الخدم؟ أيكون مطاراً للطيّارين الأجانب فقط؟ أم له علاقة ما بمدرسة الطيران التي كان منويّاً إنشاؤها في مصر لتيسير دراسة الملاحة الجوّية للراغبين فيها هنا؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢١١، ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٣٠، ص ١ .

(١) ظهرت المقالة المذكورة لميّ زيادة تحت عنوان «مباراة سرعة الطيران لكأس شنيدر: إلى أين وصل الطيّار الإنجليزي الذي لم يكن له منذ عشرين سنة يد في إخراج فنّ الطيران» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦٠٨٦، ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ١، وهي مضمّنة في هذه المجموعة [٦٠].

(٢) محمّد صدقي (١٩٠٥ – ١٩٤٩)، أول طيّار مصري قام برحلة جوّية على طائرة رياضية صغيرة من برلين، حيث كان تعلّم الطيران، إلى القاهرة في ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩ وقطع المسافة في ٤٥ يوماً بسبب الظروف الجوّية السيّئة. ومما يشار إليه هنا أنّه سبق نجاح صدقي جدال بين وزير المواصلات المصري وقائد اللواء البريطاني لونغ (Group Captain William Dickson Long) ، مستشار قسم الطيران المدني في الوزارة آنذاك، حول التصريح للطيّار بدخول المجال الجوّي المصري، إذ اعترض المستشار البريطاني على المشروع لما فيه من خطر على حياة الطيّار بينما أيّده الوزير المصري. وقد جاءت مقالة ميّ زيادة دفاعاً عن الموقف المصري في هذه المناقشة.

(٣) محمّد أحمد حسنين (١٨٨٩ – ١٩٤٦)، رحّالة ومغامر، من رجال البلاط المصري. كلّفه الملك فؤاد عام ١٩٢٣ القيام برحلة لدرس صحراء مصر الغربية من ساحل البحر الأبيض المتوسّط إلى دارفور في غرب السودان، اكتشف خلالها بعض الواحات المجهولة ووصفها في كتابه «في صحراء ليبيا» الذي نُشرت ترجمته إلى الإنجليزية عام ١٩٢٥ بعنوان *The Lost Oases* . انتدبته الحكومة المصرية عام ١٩٢٤ لمفاوضة إيطاليا حول الحدود مع ليبيا، ثمّ عُيّن أميناً للملك فؤاد فاستمرّ في هذا المنصب إلى أن تولّى عام ١٩٢٩ رئاسة الديوان الملكي. حاول أن يحذو حذو الطيّار صدقي فشرع في كانون الثاني / يناير ١٩٣٠ في رحلة جوّية بهدف الطيران من إنجلترا إلى مصر ولكنّ مغامرته لم يُكتب لها النجاح إذ تحطّمت طائرته أثناء محاولة الهبوط في بيزا بإيطاليا.

(٤) اسم لمجموعة واحات متباعدة تقع في منخفض سهلي بمنطقة جبال كُفرة في الصحراء الليبية، جنوبي شرق ليبيا.

(٥) Eugenio Griffini (١٨٧٨ – ١٩٢٥)، مستشرق إيطالي متخصّص في اللغة العربية وآدابها. درّس في ميلانو ابتداءً من ١٩١٥ وعيّن عام ١٩٢٢ أستاذاً في معهد الدراسات العليا بفلورنسه. إلا أنّه لم يتبوّأ هذا المنصب حيث كان قد دُعي إلى القاهرة عام ١٩٢٠ ليتولّى وظيفة أمين المكتبة الملكية الخاصّة التي شغلها حتى وفاته. كان أحد الداعين إلى تأسيس المجمع اللغوي في القاهرة وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

(٦) مطار في الإسكندرية.

(٧) مطار يقع على بعد كيلومترين شرقي مصر الجديدة في القاهرة.

كلمة في حفلة تكريم صدقي

صدقي!

عندما تحرّكت طيّارتك فارتفعت فوق المطار البعيد، ثمّ حلّقت سابحة بك في الأجواء السحيقة، ترى ماذا قالت لك ألمانيا ذات الملايين المائجة والجهود الجبّارة؟ وبماذا ناجتك بعدئذ البلاد التي اجتزتها وحططت فيها ورحلت عنها؟ أيّ حديث يا ترى أتاك من تلك القرى الجميلة الجاثمة في أحضان الطبيعة؟ وأيّ درس حملته معك من هاتيك المدن المتلظّية بحمّى النشاط والعمل، الحافلة ببهجة العمران وسعي الأمل؟

نحن لا ندري ولا أنت قائل لنا أيّ الخواطر تناوبتك في تنقّلك من مرحلة إلى مرحلة وفي طيرانك من سماء إلى سماء. على أنّنا ندري أنّ كل ما تجاذبنا هنا من فرح ورجاء، من خوف وابتهال، من تفكّر وترقّب كان يتلخّص في استفهام واحد: أيصل صدقي أم لا يصل؟

وإذ هرعت الجماهير إلى لقياك واهتزّت البلاد من أقصاها إلى أقصاها للترحيب بك تلخّص معنى كل ذلك في كلمة بسيطة صغيرة: لقد وصل صدقي!

وصل صدقي فأدّى صورة من الفتى المصري الجديد في ذكائه وعزمه، في إرادته وإقدامه!

وصل صدقي فأثبت أنّ العقبات والمصاعب كائنة قوّتها ما كانت، إنّما هي أضعف من الذكاء والعزم، وأوهى من الإرادة الرشيدة والإقدام المجازف!

وصل صدقي فعرف هذا الشيء الذي يشعر به القلب ولا تصفه الألفاظ: عرف أنّ له وطناً حنوناً أبيّاً ناهضاً فطناً شديد الشكيمة موفور الكرامات. فزادت صورة الوطن في النفوس روعة وجلالاً!

وصل صدقي فعرف أنّ وطنه وطن الكفاءات لأنّه وطن تقدير الكفاءات. فمن أيّ المراتب الاجتماعية خرجت الموهبة أخذت حتماً مكانتها في أعلى المراتب وتسجّل اسم صاحبها في أنصع صفحة وطنية مع أسماء العظماء الخالدين!

وصل صدقي فعرف أنّ وطنه يرحّب به عرشاً وحكومة وشعباً: فشمله المليك المعظّم بعطفه وأغدق عليه سحائب الفضل. وأحاطته الحكومة بالرعاية من كل جانب. وكانت عواطف الأمّة نحوه تعجّ كالبحر الزاخر وحبّته ألمانيا الخطيرة الشأن مفاخرة بالفتى الذي تتلمذ عليها. وبريطانيا العظمى سيّدة البحار التي لا تغيب الشمس عن أملاكها تعهّدته بعناية رجال ملاحتها الجوّية، وصافحته بأناقة. وإنّها لأناقة جدّ أنيقة تلك التي يكون وسيطها المستر «سمارت» (ومعنى اسمه بالإنجليزية «الأنيق»)!

وصل صدقي، فعرف أنّ وطنه أبداً واحد في كل موقف خطير: فلا انقسام عند قدومك، يا صدقي، ولا فوارق ولا أحزاب. جميع الأحزاب حزبك المبارك وجميع الصحف صحافتك المتحدة، والأمّة بأسرها أمّتك الأريحية المتحمّسة!

لقد تغيّرت المعاني في استقبالك، وبدّل الأفراد عادات درجوا عليها، وفرّط أصحاب الحقوق بحقوقهم العزيزة. فالوزراء، حتى رئيس الوزراء، أصحاب الامتيازات العديدة لم يجدوا الطريق إليك. والسفراء وأعوان السفراء أصحاب الامتيازات الأجنبية ارتدّوا إلى الوراء مع المرتدّين. إنّ كل فرد من أفراد الشعب سفير الوطن إليك وصاحب الامتياز والحقّ فيك!

نادي التجارة العليا نسي لأجلك الغاية من التجارة وأصبح نادي التكريم الأعلى الذي يجمع القلوب حولك وينظّم مظاهر الحماسة والإبتهاج. ونادي الطيران الذي لم يسمع به أحد من قبل، أصبح ذا وجود محسوس ملموس يولم الولائم ويفكّر في إنشاء مدرسة للطيران برئاسة أمير عامل من أمراء البيت المالك. وطلعت بك حرب، الرجل العبوس، أصبح رجلاً بسّاماً يرضى بالجلوس في كرسي رسمي بين مقاعد الصفّ الأول. طلعت بك حرب الذي ما فتئ يدعو الناس إلى الاقتصاد والتوفير، سارع إلى مساعدة اللجنة على جمع المال من الناس ليقدّم لأول طيّار مصري حوالة مالية على أول بنك مصري!

ولو كان للموتى أن يشاركوا الأحياء في أفراحهم وكان لنا أن نذهب بالبصر إلى عالمهم، لرأيناهم مثلنا متحدين في الجذل والاستبشار، ولأبصرنا حسين رشدي وعبد الخالق ثروت مبتهجين يصفّقان لمصطفى كامل وسعد زغلول وقد اعتلى كل منهما المنبر خطيباً!

لقد كنت بقدومك مسجّلاً فضل البادئ الظافر وكنت في الوقت نفسه مذكّراً برحلة عبد الحميد الشواربي بك[1]، مذكّراً بأنيس باشا[2] والطيّار رشدي[3] اللذين هبطا مصر من قبل بالرغبة والاشتياق، مذكّراً بمحمود أبي الفتح[4] ذي البسالة الصنحفية المعهودة، مرهفاً ذكرى أحمد حسنين الذي أصيب بالأمس بجراح البطولة، بل كنت مبشّراً بأفواج الناهضين من إخوانك يستغلّون اليقظة الجديدة خير استغلال في الهواء وعلى الأرض وفي جميع مناحي الحياة القومية.

كل هذا هو الوطن، يا ابن الوطن الأبيّ الكريم! فهلّا سمعت صوت مصر كما سمعت من قبل أصوات البلدان الأخرى؟

إنّ لمصر صوتاً خفيّاً يهمس خلال هتاف الحماسة وتهليل الترحاب، خلال الحزن والفرح والأنس والضحك. إنّ ذلك الصوت لا يلهو ولا يضحك. إنّه يهمّم في رفق وعذوبة ولكنّه مع هذا جادّ صارم كالواجب، رائع رهيب كالمسؤولية.

ويقول ذلك الصوت إنّ مصر تقدّر المجهود وتنيله خير مكافأة ولأنّها تعطي كثيراً فهي كذلك تطلب كثيراً. ويقول إنّ مصر عظيمة وإنّ على أبنائها المختارين أن يكونوا في طليعة عظماء العالم.

وكما احتفت بك جميع طبقات الأمّة كذلك اشتركت المرأة المصرية في استقبالك وفي نثر الأزهار على طريقك. فكان حقّاً أن يشترك صوت نسوي في هذه الحفلة الرسمية التي تقيمها لجنة الاستقبال في هذا اليوم الفريد بين أيام العام. وكان حقّاً عليّ أن ألبّي الدعوة التي شرّفني بها رئيس اللجنة فأقف هنا الليلة لأحيّيك باسم المرأة في مصر وفي سائر أقطار الشرق الأدنى.

الشرق الجديد مدين لمصر بيقظة واسعة جمّة الحماسة موفورة الجمال.

الشرق الجديد مدين لمصر بالنهضة الوطنية وبالمقابلة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون.

الشرق الجديد مدين لمصر بمواساة الجرح القديم، بمحو الفروق بين المذاهب والطوائف لتكوين الوحدة القومية.

الشرق الجديد مدين لمصر بتقديس العلم وإشراكه في جميع المظاهر الوطنية.

الشرق الجديد مدين لمصر بتنظيم المشروعات المالية والاقتصادية في سبيل تدعيم الحياة القومية.

الشرق الجديد مدين لمصر برفع المرأة من دركتها السفلى ووضعها في مكانة عالية على مقربة من أعاظم الرجال.

لقد تبوّأت مصر مكانتها بكرامة واعترف لها الشرق بالزعامة وبات يرقب فيها حركة الإصلاح والتجديد في نظام وحرّية. وكان حقّاً على مصر أن يكون أول طيّار شرقي يأتي من الغرب لينزل في الشرق طيّاراً مصرياً.

صدقي! أنت هذا الطيّار! لقد كتبت برحلتك عنواناً حميداً، فاملأ أنت وإخوانك الأجواء بأسراب النسور المصرية واكتبوا في سجلّ الطيران العالمي فصلاً مجيداً!

صدقي!

ألك أمّ؟ إنّ لك والداً وزوجة وأبناء وأخوات وأقارب، وكلهم يطلب لك السلامة فلتكن السلامة نصيبك دائماً! ولكنّ لك كذلك وطناً كبيراً هو مصر، ووطناً أكبر هو الشرق، ووطناً شاملاً هو العالم. ومصر والشرق والعالم يطلبون مزيداً من النشاط، مزيداً من المغامرة، مزيداً من الإقدام.

فكن صادقاً لاسمك، وإلى الأمام! إلى الأمام!

(*) الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢٢٢، ١ شباط/فبراير ١٩٣٠، ص ٥ .

(١) لعلّ المقصود هو عبد الحميد الشواربي الذي كان من ملّاك الأراضي في مصر ورجل أعمال، كما كان نائباً برلمانياً عن محافظة القليوبية وعضواً في مجلس الإدارة لبعض الشركات التابعة لبنك مصر. ولم يتيسّر لي التحقّق من الرحلة المذكورة في النصّ.

(٢) حسن أنيس باشا (١٨٨٦ – ١٩٤٧)، وقف على رأس جماعة من رجال الأعمال المصريين الذين أسّسوا في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٥ شركة لتطوير الطيران التجاري في مصر تحت إشراف بنك مصر تمخّضت عام ١٩٣٢ عن شركة مصر لأشغال الطيران (Misr Airwork S.A.E.) المعروفة اليوم باسم شركة مصر للطيران. كان لأنيس باشا أيضاً المبادأة بتأسيس نادي الطيران في القاهرة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩ .

(٣) محمد رشدي (١٨٩٨ – ١٩٥٨)، مهندس طيّار، من روّاد الملاحة الجوّية في مصر. تولّى إدارة الطيران المدني في أواخر الثلاثينات من القرن الماضي ثمّ عيّن مديراً عامّاً لشركة مصر لأشغال الطيران وعضواً منتدباً لمجلس إدارتها.

(٤) محمود أبو الفتح (١٨٨٥ – ١٩٥٨)، كاتب وصحفي مصري، عمل مدّة في صحيفة «وادي النيل» ثمّ صحيفة «الأفكار» حتى انتقل عام ١٩٢٢ إلى جريدة «الأهرام» حيث استمرّ لفترة ثماني سنوات. كتب لبعض الصحف الوفدية قبل إصداره عام ١٩٣٦ صحيفة «المصري» في القاهرة. واقترن اسمه خلال عمله في «الأهرام» بمهمّات جريئة فقد كلّفته الجريدة في آذار/مارس ١٩٢٨ بتغطية رحلة منطاد زبلين الشهيرة من برلين إلى الشرق الأقصى من على متن المنطاد. كما انتدبته في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩ في رحلة جوّية طويلة امتدّت من القاهرة إلى باريس عبر ليبيا والجزائر وتونس والمغرب وأسبانيا، وكان يبرق يومياً بتقاريره الصحفية من على متن الطائرة التي أقلّته مع راكب ثان، هو لاري رو (Larry Roe) ، مراسل جريدة ال «شيكاغو تريبيون» (The Chicago Tribune) الأمريكية.

رأيك مطلوب، أيّها القارئ

فاشترك في هذا الاستفتاء العامّ!

وصلت أمس الأول إلى العاصمة القومندانة ماري ألن[1] وكان سبقها إلى الإسكندرية ستّ سيّدات من البوليس النسوي الإنجليزي، وقد ذكرت الصحف في محلّياتها أنّهنّ بدأن أعمالهنّ في الثغر فكانت النتائج الأولى داعية إلى الارتياح.

وقد تلقّيت منذ أسابيع خطاباً من «مجلّة البوليس النسوي» التي تصدر في لندن، يقول:

«قرأنا باهتمام شديد المقالات التي نشرت لك في مجلّة «ومنز ليدر»[2] الإنجليزية عن المرأة المصرية. فنرجو أن تكتبي خصيصاً لمجلّتنا «مجلّة البوليس النسوي» مقالاً وجيزاً عن الحالة الاجتماعية في مصر وأن تشيري فيها قدر المستطاع إلى مستقبل البوليس النسوي هناك وعمّا يمكنه أن يقوم به في تلك البلاد من الأعمال إلخ».

أمّا الحالة الاجتماعية فالكلام فيها ميسور لكل من شاء أن ينظر إليها من ناحيته الخاصّة فيعظّمها ويفخّمها على هواه لتُهمل النواحي الأخرى ويُضعف من شأنها. ولكن إذا أراد الكاتب الإلمام بها من شتّى نواحيها دون تحيّز ولا تعنّت فالكتابة في ذلك جدّ عسيرة. بيد أنّها غير مستحيلة رغم ما قد يحويه البيان من النقص والهفوات.

وأمّا الكلام عن مستقبل البوليس النسوي في مصر وعمّا يمكن أن تنتجه أعماله من الفوائد فهذا ما أصارح بأنه ليس في مقدوري. ولا أنا أدري هل المرأة تتقن هذا النوع من العمل البوليسي أكثر من الرجل. أعترف بعجزي التامّ وبجهلي المطبق فيما يتعلّق بهذا الموضوع. فرأيي إذن لا يوازي شيئاً. والأصحّ أن أجاهر بأن لا رأي لي. هذا ما عليّ أن أكتبه إلى المجلّة الإنجليزية.

غير أنّ الأمر حريّ بالبحث لا سيّما وأنّ البوليس النسوي أصبح منتشراً في عدّة بلاد أوربية والقرائن تنبئ بأنّ أبلت بك حكمدار الإسكندرية يرى خيراً في الاستعانة به والغاية المعروفة من الاستعانة به هي تطهير الأخلاق ورقابة القاصرات والأطفال والبيوت التي تستدعي الرقابة ومكافحة المخدّرات والبحث في السرقات وسائر الجرائم التي يقترفها النساء والأطفال أو التي تقترف نحوهم وما إلى ذلك.

وتصحب الخطاب المشار إليه نسخة من «مجلّة البوليس النسوي» الإنجليزية وفيها بيان عن الخدم التي تقوم بها السيّدات البوليسات. وسأسأل «الأهرام» أن تنشر ترجمتها العربية فيطلع عليها الجمهور مع الملاحظة أنّ من هذه الخدم ما ينطبق على حالة بلدان الغرب ومنها ما يوافق جميع البلدان.

والغرض من نشر هذا البيان هو استفتاء جمهور القرّاء وطلب رأيهم في هذا الموضوع.

لست معلنة رأياً مجهولاً بقولي إنّ كثيرين من الأوربيين يعتقدون بأن لا وجود لما يسمّونه «الرأي العامّ» في مصر، ذلك «الرأي العامّ» المجرّد عن الهوى الذي يمكن الأخذ بأحكامه في الشؤون الاجتماعية. هذه فكرة حاسمة نقرأها في كتب الغربيين وفي صحفهم وتحملها إلينا برقياتهم كما نسمعها في أحاديثهم.

فهذه فرصة سانحة لتمحيص هذه الفكرة والبتّ في شأنها لأنّ هذا الموضوع الذي نعرضه على الجمهور هو موضوع اجتماعي يتيسّر البحث الهادئ فيه بعيداً عن المؤثّرات والانفعالات والغرض منه الخير العامّ.

فليأت كل من أراد الاشتراك في الردّ على هذا الاستفتاء برأيه الخاصّ المبنيّ على الاختبار الشخصي والتروّي والحكمة، وليتفضّل بالجواب على هذا السؤال:

«ما رأيك في إدخال البوليس النسوي في مصر وهل تظنّ أنّه يكون ذا أثر في التطهير الأخلاقي وإصلاح الآداب العامّة؟»

عندما يطلب من القرّاء الجواب عن سؤال ما تسدرجهم الصحيفة أو صاحب الاقتراح إلى التباري لنيل جائزة أو الفوز بامتياز ما.

أمّا جائزتك اليوم، أيّها القارئ، ففي اشتراكك في تقديم صورة من الرأي العامّ في مصر. وباشتراكك هذا تساعد كذلك على تكوين «الرأي العامّ» وتعمل على تقويته والاعتزاز به.

فهل من جائزة أنفس وهل من مطمع أفعل يستدرجك إلى تقديم الجواب الذي يتحتّم عليك إرساله؟[٣]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢٣٣، ١٢ شباط/فبراير ١٩٣٠، ص ١ .

(١) Mary Sophia Allen (١٨٧٨ - ١٩٦٤)، أول إنجليزية عُيّنت شرطية عام ١٩١٤ . شغلت فيما بعد منصب قومندان «الخدمة النسائية المعاونة» (Women's Auxiliary Service) في لندن التي كانت تصدر مجلّة *The Policewoman's Review* المذكورة لاحقاً في النصّ، وهي المطبوعة الوحيدة من نوعها آنذاك.

(٢) *The Woman's Leader* ، مجلّة صدرت ما بين ١٩٢٠ - ١٩٣٣ في لندن تحت رعاية «الاتحاد الوطني للجمعيات الداعية إلى المساواة في حقوق المواطنة» (The National Union of Societies for Equal Citizenship) . أمّا مقالات مي زيادة المنشورة فيها، فيمكن الاطلاع عليها في باب «نصوص في لغات أجنبية» من هذه المجموعة .

(٣) نشرت جريدة «الأهرام» بيان المجلّة الإنجليزية وشروط الاستفتاء في الصفحة الخامسة من العدد نفسه فورد إليها خلال الأسابيع التالية أكثر من ألف رسالة من القرّاء نُشر منها نحو ثلاثمائة وكان معظمها يستهجن فكرة إدخال الشرطة النسوية في مصر أو على الأقلّ يتحفّظ عليها. للمزيد من التفاصيل عن ردود القرّاء على الاستفتاء انظر مقال الدكتور يونان لبيب رزق، أستاذ التاريخ ورئيس مركز الأهرام للدراسات التاريخية في القاهرة، بعنوان «Women Police» في *Al-Ahram Weekly Online* ، ع ٦٠٢، ٥-١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، باب «Chronicles» .

كيف نستأنف ثقافتنا

بعد الخروج من المدرسة؟[1]

أعود الليلة إلى الاجتماع بكم في هذه القاعة التي كان لي شرف تدشينها منذ عامين. فكان أول صوت ارتفع بين جدرانها صوتاً نسوياً صغيراً ضئيلاً غير أنّه كان قويّاً بموضوعه ولغته: لأنّه كان يتكلّم عن يقظة شطر من الأمّة المصرية وكان يتكلّم باللغة العربية.

عامان اثنان عبرا كالخاطر الشارد، مع أنّنا عشنا كل يوم منهما وكل دقيقة، وميدانهما ليس الزمان والمكان بل ميدانهما أفكارنا، عواطفنا، أجسادنا، آمالنا، مطالبنا، كل ما يكوّن الشخصية منّا ويجعلنا وجوداً خاصّاً في الوجود الشامل.

ويوم أن تكلّمت هنا منذ عامين أعربت عن الأمنية أن يتبعني على هذا المنبر غيري من الخطيبات. وأنتم تعلمون أنّ هذه الأمنية قد تحقّقت وأنّ ثلاثاً أو أربعاً من السيّدات المصريات حاضرنكم هنا باللغة العربية فكان نجاحهنّ ناطقاً بكرامتهنّ وكرامتكم، بثقافتهنّ وثقافتكم في آن واحد.

ولا شكّ عندي في أنّكم تشاركونني الساعة في الإفصاح عن التقدير لمدير الجامعة الأمريكية ورئيس قسم الخدمة العامّة فيها، الدكتور مكلانهن، هذا العالم الجليل الذي يخدم الشبيبة المصرية والثقافة المصرية بحرارة ونشاط منذ ثلاثين عاماً. ولا شكّ عندي في أنّكم تنضمّون إليّ جميعاً في الدعاء بأن يمتّعه اللّه بكل ما نتمنّاه له من الصحّة والسلامة.

ولنكرّر الشكر للجامعة الأمريكية على إفساحها المكان للنساء بين خطباء قسم الخدمة العامّة، في هذه القاعة الجميلة المضياف التي أصبحت وسطاً فكرياً وعلمياً يحسب حسابه في الوثبة الحيوية الجديدة، وصارت وسيلة تذكر من وسائل الثقافة خلال دور الدراسة وخلال ما يتبعه من الأدوار.

* * *

سيّدي الدكتور الرئيس،

أيّها السادة والسيّدات والأوانس،

قسم الخدمة العامّة هو الذي سألني أن أتكلّم في كيفية استئناف الثقافة بعد الخروج من المدرسة. فهيّوا بنا نتساءل معاً علام يجب أن نستأنف ثقافتنا؟ بل علام يجب أن نتثقّف؟

سمعت مرّة رجلاً أمّياً يسأل صاحبه الأمّي: – «يا أخي، العلم دا اللي كل الناس يقولوا عليه هو يعني أيه؟ أنا عايز أفهم، لكن مش فاهم!».

فأجاب الآخر: «أنا عارف؟ أهو الدنيا وما فيها يكتبوا عنها في الكتب تقوم تبقى علم، واللي يتعلّم الكلام دا قال يبقى عالم!».

إنّنا نضحك من هذا التعريف. ولكن هل من تعريف أبلغ منه وأحكم؟ إنّ الحياة تضعنا إزاء العالم وما فيه من العجائب والممكنات والأسرار ولكنّنا في حاجة إلى من يصل بيننا وبين هذا العالم فلا يتيسّر ذلك الاتصال إلّا بواسطة العلم والعطف والتعاون والمصلحة الصالحة النبيلة. فإن تيسّر لنا ذلك فنحن القوم الذين تيسّرت ثقافتهم، وإلّا فنحن تلك الأرض العاطلة المهملة التي تنبت الأعشاب البرّية والحشائش السامّة والشوك والعوسج.

ذكرت الأرض وليس هذا تشبيهاً شعرياً خيالياً ولكنّه الوصف الحقّ الذي يجلو من الموضوع وجوهاً عدّة.

إنّ كلمة الثقافة قديمة في اللغة العربية وهي تعني الحذق وسرعة التناول والرشاقة في التعبير. وقد استعملها كتّابنا المعاصرون بمعنى الكلمة الإفرنجية culture فكانوا جدّ موفّقين. لأنّ (كولتور) ذات معنى حقيقي أصلي وآخر مجازي. وفي وجهها الحقيقي الأصلي تعني فلاحة الأرض وزراعتها، وأمّا في وجهها المجازي فهي تشير إلى فلاحة تلك الأرض التي هي ألطف عريكة، وأعجب مرونة، وأوعب استعداداً، وأبهر ثمرة ونتيجة: أعني أرض الفكر الإنساني.

من هذه المقابلة بين الأرض والفكر تأتينا الأجوبة على كثير من الأسئلة:

ففلاحة الأرض وزراعتها تنتج الغلال والخضروات والفواكه والأشجار والأزهار التي لولاها ما توفّر للإنسان كل ما لديه من موادّ الغذاء والمتعة والتجارة والربح. بيد أنّ فلاحة الأرض وزراعتها داخلة في ميدان الأعمال الطبيعية وقد زاولها النوع البشري بالغريزة والسليقة مدفوعاً بحاجته إلى طلب القوت والسعي إلى المعاش والتماس أسباب الحياة والبقاء.

أمّا الغاية من فلاحة الفكر الإنساني فهي كذلك حمله على الإنتاج الموافق لطبيعته واستغلال كل ما يمكن استغلاله منه. إلّا أنّها فلاحة أرقى نوعاً من تلك لأنّها داخلة في ميدان الأعمال الإنسانية وقد أخذ النوع الإنساني يهتدي إليها منذ أن تنظّمت الأفراد والقبائل جماعات إنسانية، أي أمماً ودولاً، وصار يتزايد الاعتناء بتهذيب الملكات وإنماء المواهب التي لم يكن يأبه لها الإنسان الأول أو يشعر بوجودها.

فالمدارس والمعاهد العلمية إذن هي دور الفلاحة والزراعة الأولى وما المدرّس إلّا الفلّاح الأول وما المهذّب إلّا الزارع الأكبر. وكما تُفلَح الأرض وتُزرَع كل مرّة لتؤتي غلّتها فكذلك الفكر يظلّ على صاحبه أن يتعهّده طول الحياة بالتغذية والتدريب والاطلاع والمران ليؤتي كل ما ينتظر منه من خير وثمر ونتيجة.

وحيال هذه الحقيقة المسيطرة علينا جميعاً نشعر بفداحة الخطأ في الفكرة القائلة إنّ الدراسة تنتهي عند الخروج من المدرسة. فالمدرسة هي المرحلة الأولى التي نتعرّف عندها شؤون العالم وشؤون نفوسنا ونتبينّ العلاقات الدقيقة التي تربط بيننا وبين بني جنسنا. غير أنّنا لا نملك زمام تلك المعرفة فنتمكّن من استخدامها، ولا تتوثّق الروابط التي تربطنا بغيرنا يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام إلّا في مدرسة العالم الواسعة الكبرى.

لا أنكر أنّ تحديد الثقافة بالمدرسة كان يصدق على الماضي حيث كانت المعارف والأفكار محدودة معدودة وكان العلم والثقافة وقفاً على طائفة صغيرة معيّنة. وما زال هذا التحديد منطبقاً على النواحي المنزوية في العالم حيث يعيش الناس على أفكار لا يتجاوزونها وآراء يتناقلها الأبناء عن الآباء ولا يضيفون إليها إلّا قليلاً.

أمّا في الأوساط المتحضّرة التي تتلظّى بحُمّى الحياة فقد تغيّر حتماً مقياس الثقافة وتزايدت الرغبة فيها وكثر التهافت عليها وقد تعدّدت وسائلها وتنوّعت إلى حدّ يستحيل معه حصرها.

الصعوبة اليوم كل الصعوبة في إحسان اختيار ما يوافق من وسائل الثقافة، وبدون هذا الشرط الأساسي لا أمل في استئنافها بانتظام. وبعد فهل تكون الثقافة علمية أو فنّية أو اجتماعية أو أخلاقية، وهل تكون إضافية كمالية أم تكون عملية تجريبية نافعة مجدية نافذة في حياة المرء محسوسة في كل أحواله؟

إلى الأمس القريب كانت آراء الشعوب تختلف في هذا الأمر وما زالت تختلف فيه آراء الأفراد في الأمّة الواحدة ولكنّي أرى أنّ الثقافة لا تكون كاملة كمالاً نسبياً (وهو الكمال الوحيد الذي تلمسه يد البشر) إلّا إذا كانت عملية تجريبية تؤثّر في جميع الأحوال، وكانت متنوّعة في تناولها مختلف النواحي من الشخصية الواحدة لتهذّبها وتنمّيها في آن واحد. ترى ما نفع الثقافة النظرية التي تفصل صاحبها عن الناس وتسجنه في برج من العاج - كما يقولون، وما نفعها إن هي أضلّته السبيل وقذفت بتفكيره وتدبيره في أتاويه مقفرة خالية لا نهاية لها؟

كذلك ما نفعها نامية مكتملة من ناحية ناقصة مشوّهة من الناحية الأخرى؟ فلو كان المرء عالماً واسع الاطلاع، حادّ الذكاء وكانت أخلاقه سيّئة وسلوكه غير مرضٍ أفيكون مثقّفاً؟

إنّه بلا شكّ مثقّف من ناحية الذكاء والعلم، وغير مثقّف في ما عداها. وإذا كان حسن الأخلاق، أنيق الهندام، حسن السلوك، غير أنّ الجهل باد في حديثه، باد في عمله، أفيكون مثقّفاً؟

إنّه مثقّف من وجوه ولكنّه يستدعي الشفقة من وجوه غيرها. ولو تمّت له الثقافة من جميع هذه النواحي ولكنّه جهل مبادئ المعاشرة الاجتماعية وقواعد الاختلاط بالناس وجهل فنّ توقيت الأمور والألفاظ والأعمال، فثقافته كذلك مشوّهة رغم كل ما لديه من المواهب والمزايا.

ألا تذكرون حكاية ذلك العالم الذي استيقظت زوجته في الصباح وأخذت تصيح وتستغيث لأنّها وجدت في حذائها فرخ حيّة؟ فقال الزوج العالم: «أهو فرخ واحد، يا عزيزتي؟ لقد وضعت ثلاثة معاً فأرجو أن تبحثي عن الفرخين الآخرين!».

كان العالم يدرس طبائع الحيّات وقد أراد أن يعرف تأثير الدفء المعتدل عليها فلفّها بجوارب زوجته ولم يختر لها مخبأً غير حذائها! فأقلّ ما يؤخذ به هنا هو أنّه لم يحكم وضع الأشياء في مكانها!

لا أظنّكم، أيّها السادة والسيّدات، تتوقّعون منّي بياناً مفصّلاً مبوّباً منمّراً عن وسائل استئناف الثقافة. إنّكم تعرفونها جميعاً بتداولها، والمستزيد منكم يجدها في كتب علماء التربية ومؤلّفات «الاختصاصيين» الذين يحبّهم جدّاً الأستاذ أمير بقطر[٢]، وأنا أعترف في تواضع بأنّي لست من «الاختصاصيين» ولكنّي مقتنعة بأنّ خير دليل في استكمال الثقافة والاهتداء إلى وسائلها هو المهنة التي يتعاطاها المرء والعمل الذي يزاوله. العمل نفسه يدلّ صاحبه على الوسائل الملائمة ويستحثّه على الأخذ بها لاستكمال ثقافته العلمية والفنّية والأخلاقية والاجتماعية والوجدانية. العمل نفسه يحدو بصاحبه إلى الاستفادة من المطالعة والتفكير، والقياس والاستنتاج، من الملاحظة والرويّة، من الرحلات والأسفار، من معاشرة الناس وأحاديثهم، من كل ما يقرأ ويرى ويسمع ويحسّ ويختبر من الحبّ والكراهة، من الفرح والترح، من السخط والرضا، من الخيانة والوفاء، من كل ما هو في نظره خير ومن كل ما يحسبه هو أو يحسبه الآخرون شرّاً. وفي الحقيقة لا يكون الشرّ شرّاً إلّا إذا جهل المرء كيف يستخرج منه لنفسه خيراً!

فهنيئاً لمن وجد طريقه في الحياة بالاهتداء إلى عمل كريم يزاوله، فذاك مكفولة ثقافته إذا هو أراد، وكل عمل كريم نبيل بما ينفق عليه من ذكاء ونشاط وثبات، وكل عمل نافع لأنّه يؤدّي للمجموع خدمة من ناحية من النواحي.

سبق القول إنّ الجمود كان يلازم في الماضي معنى الثقافة فلا تتغيّر المدركات إلّا قليلاً. أمّا طابع الثقافة اليوم فهو التوسّع المتتابع والتنوّع الذي لا يحدّ ولا يدرك. إذ كل يوم يفتح العلم باباً من الأسرار ويكشف حجب الغيوب وينبش أحشاء الأرض ويغوص في أعماق البحار ويقيس أشعّة الكون ويدرس طبائع الإنسان والحيوان والنبات

والجماد. وكل يوم ينجح العلم نجاحاً جديداً في تسخير الماء والنور والهواء والكهرباء والأثير لخدمة الإنسان. وكل يوم يحذف العلم المسافات أمام المتكلّم والرائي والمسافر ولم يبق علينا إلّا الاتصال بالعوالم والسيّارات والشموس وهو ما يبحث فيه علماء اليوم. فأبشروا بالرحيل قريباً إلى المرّيخ أو الزهرة أو القمر في قنبلة مدفع!

طابع الثقافة اليوم هو رشاقة الفكر والتطلّع للوقوف على كل ما يستجدّ. لا لنأخذ به ونعمل بمقتضاه بل لنمحّصه ونأخذ ما يوافقنا منه لنضيفه إلى ثروتنا القديمة إذ ليس يعني التجديد نبذ القديم والإقلاع عنه: إنّ الذي لا قديم له لا أساس له. وإنّ المتلقّف كل جديد لأنّه جديد فذاك هو الريشة الطائرة في مهبّ الرياح التي يحدّثنا عنها الشاعر.

أمّا الذي يلمّ بأحسن ما سبق التفكير فيه ويحقّقه في عمله وسلوكه، ثمّ يقوم هو بنفسه فيفكّر، ويظلّ على استعداد دائم للتحسّن والاستنارة والتقدّم، مستفيداً من كل نجاح يصادفه ومن كل فشل، من كل نهضة ومن كل كبوة، من كل تجربة ومن كل خبرة، فذاك هو ابن الحياة وابن الحضارة وابن الإنسانية.

فهل من ينقل هذا الحديث إلى حضرات الطلبة الذين يرشّحون نفوسهم للانتحار إذا هم رسبوا في الامتحان؟

إنّنا من هذا الموضوع، موضوع الثقافة واستئناف الثقافة، في عالم كله إمكان ورحابة وبهجة ورفعة ونبل وعزّة ونحن منه كذلك في عالم كله ألم وحيرة وقلق وبحث واضطراب. ولكنّ الزراعة هي الفارق بين الأرض العاطلة البور والأرض العامرة المنتجة: أليس أن الحبّة في الأرض تنشقّ وتتوجّع لتخرج في المروج جمالاً وخيراً؟ والثقافة هي الفارق بين حالة الحضارة وحالة الهمجية: أفليس إذاً حقّاً أن يقاسي المثقّفون مثلما تقاسي حبوب الزرع من الأوجاع والآلام؟

أجل، الثقافة هي الفارق بين الحضارة والهمجية. غير أنّ الأمّة قد تكون في طور حضارة نسبية بأنظمتها المدنية والقانونية والاقتصادية والسياسية دون أن يكون كل من أفرادها على ما يرام من الثقافة. وقد تكون الأمّة في درجة متواضعة من الحضارة بينا أفراد منها يقومون في أعلى مراتب الثقافة. وهي في الحالين قابلة لمزيد من التقدّم

والتحضّر. بل كل أمّة قابلة للمزيد في جميع أطوار حضارتها، لأنّ التطوّر ينفي الجمود ولأنّ الكمال المطلق شيء غير إنساني.

وفي تطوّر الثقافة وتطوّر العمل طول الحياة، هناك عامل تعرفونه ولكنّي أودّ أن تزيدوا التفاتاً إليه وأن يستقرّ بعد اليوم فكركم عليه. ذلك العامل الحافز، والقائد الآمر، والأستاذ الصديق هو: العزم والرغبة وما الرغبة المتكرّرة المقيمة إلّا ممهّدة للعزم وعاملة على تكوينه وتمكينه.

كل وسائل الثقافة التي تشرحها الكتب ويشرحها المدرّسون وسائل سطحية جافّة باردة إن لم تمدّ بروح خاصّة متلظّية منطلقة من داخل النفس: هي روح الرغبة والعزم، الروح المغناطيسية التي ما تحرّكت فينا إلّا وأشعرتنا بأنّ لدينا مستودع القوّة التي لا تنضب ولا تفنى، وينبوع كل علم وكل حكمة وكل جمال. وهي القوّة السحرية التي ما تحرّكت فينا إلّا وأشعرتنا بأنّ في نفوسنا أوتاراً عديدة تعزف مع عديد جوقات الحياة والطبيعة والكون المنظور وغير المنظور.

إنّ مجرّد مداومة التفكير في أمر خير وسيلة لإنضاجه، وإذ أنت شعرت بالرغبة الصميمة في أمر كانت الرغبة في ذاتها وعداً بأنّها متحقّقة يوماً. ومن وطد النفس على استئناف ثقافته وترقية عمله بها هدته الرغبة وهداه العزم إلى كل ما يستفيد منه ويفيد.

إنّكم تعملون لنفوسكم، أيّها السادة والسيّدات، وأنتم في نفس الوقت تشتغلون لقومكم ووطنكم. إنّ موقف مصر اليوم فريد في العالم ففيها تتلاطم كل عوامل الماضي وكل عوامل المستقبل، وفي رحابها تتلاقى جميع الأطماع وجميع الثقافات وجميع الحضارات فإذا شاءت مصر وشاء أبناؤها، إذا جاهدت مصر في هدوء وتبصّر وانتظام وجاهد أبناؤها فهي خالقة ثقافة وحضارة فريدتين.

تملكون هذه النعمة التي لا توصف، إنّ لكم وطناً! والوطن صورة مصغّرة من الخلود فاجعلوا هذا الخلود مجيداً. واسمعوا ما ينطبق على ذلك من قول مهيار الديلمي(٣):

إمّا تقومون كذا أو فاقعدوا

ما كل مَن رام السماء يصعد

نامَ على الهون الذليلُ ودرى
جفنُ العزيز لِمَ بات يسهد
أبرعكم سعياً إلى سؤدده
أحقّكم بأن يقال سيّد!

(*) الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٢٤١، ٢٠ شباط/فبراير ١٩٣٠، ص ١ و ٥ .

(١) ألقت ميّ زيادة هذه المحاضرة في قاعة يوارت (Ewart Hall) بالجامعة الأمريكية في القاهرة يوم ١٩ شباط/فبراير ١٩٣٠ . وقد نُشر نصّ المحاضرة أيضاً بشيء من الاختصار في مجلّة «الحديث» الصادرة في حلب، س ٤، ع ٣ و ٤، آذار/مارس ونيسان/أبريل ١٩٣٠، ص ٢٠٥ - ٢١٢ و ٣١٧، وذلك بتقديم من الكاتب الأديب حبيب إلياس الزحلاوي الذي كان من بين الحضور.

(٢) تلمّح ميّ زيادة في هذه الملاحظة إلى انتقاد أمير بُقطر لموقفها من مشروع التعليم الإجباري في مصر. انظر في هذا الخصوص الهامش رقم (٢) من مقالتها «كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٧): كلمات أخرى عن التعليم الإجباري قبل أن يصل الموضوع إلى البرلمان»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٠، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ [٧٠]، في هذه المجموعة.

(٣) مِهيار بن مَرزَوَيْه الدَيلمي (٩٧٥ - ١٠٣٧)، أحد أبرز شعراء الدولة البويهية. له ديوان حقّقه أحمد نسيم ونشره في أربعة أجزاء في القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٥ - ١٩٣١ . أمّا الأبيات التي توردها ميّ زيادة في محاضرتها فيختلف البيت الأخير عمّا نجده في الطبعة المذكورة للديوان:

أخفُّكم سعياً إلى سودَدِه   أحقُّكم بأن يقالَ: سيِّدُ

انظر الجزء الأول، ص ٢٤٢ .

في رسالة غاندي[١]

الرسالة في العرف الأدبي كلمة أو فكرة أو نظام أو مجرى أفكار أو طريقة سلوك يأتي بها كاتب أو عالم أو زعيم سياسي أو شاعر روحاني أو مصلح اجتماعي، ويطرحها في معمعة النظم والأفكار والأساليب السارية فتلقى في نفوس الكثيرين أو القليلين مكانا فاغراً معدّاً لها، ربّما كان ينتظرها منذ زمن بعيد.

أجل، إنّ لكل فكرة مهما كانت تافهة أنصاراً ومؤيّدين يأخذون بها وهي محقّقة في حياتهم إن لم يكن بالفعل فعلى الأقلّ بشكل نظري وبالتداول اللفظي. على أنّ هذه ليست رسالة. إذ يجب أن تكون الرسالة مشبعة لحاجات عميقة في نفس معذّبة ملتاعة، شارحة لشعور خبر ظلم الحياة ومراوغتها وقيودها الباهظة، ناشرة في العقول والمخيّلات وفي فضاء الزمن سراب الأمل، مستثيرة الرغبة في العمل لتحويل السراب إلى واقع محسوس بواسطة المهاجمة أو الدفاع أو المقاومة أو الامتثال في أشكال لا تحدّ ولا تحصر.

أمّا الرسالات الدينية - وليس لهذه من دخل في هذا المقال، بيد أنّي أذكرها باعتبار أنّها كيّفت ميول البشر قروناً طوالاً وما زالت مسيطرة على كثير منها في أيامنا - أمّا الرسالات الدينية الرئيسية فقد خرجت كلها من المشرقين الأدنى والأقصى. وأمّا الرسالات الأدبية والعلمية والسياسية والاجتماعية فقد صدر أكثرها عن الغرب.

أكتب هذه الجملة بشيء من التحفّظ. لأنّها (وإن كانت صادقة) تستدعي شيئاً غير قليل من الشرح لا تتسع له هذه العجالة، وإنّما يمكن تلخيصه في كون الرسالات تتفاعل دواماً فيما بينها: فالرسالة الدينية تثير صنوفاً عديدة من اليقظات السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية والفنّية. كما أنّ الرسالة الزمنية تكيّف حتماً طائفة من المظاهر الدينية وتعدّلها طوراً بعد طور بكميّات وكيفيات تتوافق ورغبات الشعوب وحاجاتها ومقتضيات زمنها.

واليوم يصل العالم عند منعطف طريقه التاريخي وكل ما يعصف بالشعوب من أزمات مادّية وأدبية وكل ما يرهقها من ألم وتهديد وشقاق ونفور وجشع - كل هذه المصارعة الجبّارة التي نشهدها بين الشعوب والمراتب والأفراد والأحزاب - كل هذا الغليان والهياج والقلق والتفطّر - كله يدلّ على أنّ العالم في طور خاصّ من الاختمار والنضج وأنّه يبحث عن اتجاه جديد ويتلمّس صيغة جديدة.

أيكون ذلك الاتجاه عوداً إلى القديم أم هو نوع طريف غير مألوف؟ أم هو تعديل في قوانين الحاضر فحسب؟ هذا ما لن يعرفه إلّا الآتون بعدنا بجيل أو أجيال وليس لنا نحن إلّا أن نلحظ بوادره.

وفي العالم اليوم رجال أربعة أو خمسة يحاولون الاستيلاء على دفّة التاريخ ليحوّلوه إلى ناحيتهم فيسودوا ذلك الاتجاه ويكونوا قادة الشعوب إليه. وكل من أولئك الرجال عظيم بعلمه وبدهائه وبحذقه وبحماسته، وبغيرته على قومه وعلى مصلحة دعوته التي لا يكتفي بنشرها في وطنه بل يطمع في أن تنضوي تحتها سائر الأوطان. كل منهم ذو بداهة خارقة يلمّ بحاجات الأمم وآلامها كما يكتنه مشاكل الحكومات وحيراتها فيتخذ من هذه الحيرات والمشاكل ومن تلك الحاجات والآلام أدوات لتنفيذ برنامجه وبسط سلطانه. كل منهم يريد استيعاب الآخرين لأنّه في قرارة نفسه على يقين بأنّ عنده الدواء الشافي وأنّه هو وحده قادر على القيادة في طريق الرفاهية والمجد. كل منهم يشحذ سلاح القوّة سرّاً وعلانية. كل منهم شعلة حبّ لمصلحة برنامجه ودعوته ولمصلحة أنصاره، وبركان سخط وكراهة لكل من عداهم وعداها. المنافسة العامّة والفردية في جميع الميادين لم تكن مرّة مرهفة حادّة عنيفة كما هي اليوم والروح العاصفة بالإنسان هي الآن روح الخداع والنقمة والبغضة.

أمّا غاندي أحد الأربعة أو الخمسة الذين ذكرنا، فهو الاستثناء. هو لا يحاول أن يكون منهم ولكنّه بفعل الواقع تسرّب بينهم بلطف الأثير ونفوذه. وقد خلص غاندي من روح البغض والتدمير وبقيت روحه كتلة رحمة ونور وإنسانية أعلى من الإنسانية. رسالة غاندي رسالة حبّ وهو صاحب هذه الرسالة وناشرها ومنفّذها. ولئن سبق أن هتف صوت تولستوي(٢) منذ نصف قرن أو يزيد برسالة المحبّة مثلها فتلك لم تتجاوز

عالم الكتابة والأدب والفكر وقد كان أثرها بين المثقّفين عظيماً. إلّا أنّ غاندي تناول رسالته من مبادئ عقيدته القديمة التي رسخت طوال الأزمان في فلسفة الهند الدينية، وطرحها فجأة في الميدان الوطني فجعلها حقيقة سارية. لم يشهد التاريخ المدني قبل غاندي «العصيان المدني» أو «المقاطعة السلمية» أداة لثورة سياسية، ولم تسمع الحكومات قبل اليوم من الزعماء إلّا كلمات الشمم والإباء والمباهاة والثقة في الظفر. أمّا عن غاندي فلا تصدر إلّا كلمات الوداعة والتواضع والتوسّل.

شاء المعارضون أن يصفعوه ويهينوه عندما نشروا على أعلامهم الحمراء كلمة «غاندي يذهب إلى لندن على ركبتين محنيّتين»؛ بيد أنّ هذه الكلمة على لسان غاندي وصف لحقيقة واقعة. فهو حين يخطب الجماهير المتحمّسة احتفاءً بتوديعه يقول إنّه شيخ ضعيف عاجز، ولكنّ وطناً مقيّداً ذليلاً لا بدّ أن يكون ممثّله مقعداً مشلولاً محطّماً.

وقد سبق أن كتب منذ عامين إلى «صديقه العزيز» نائب الملك في الهند، يتوسّل إليه «وهو جاث على ركبتيه» أن يبذل الحاكم جهده لتلبية طلبات الأمّة حائلاً بذلك دون إعلان الدعوة إلى العصيان المدني. ولكنّ تلك الضراعة المتواضعة لم تُجدِ نفعاً، وتحتّم إعلان العصيان الجديد. غير أنّ غاندي الذي يستطيع أن يعلن العصيان فيطغى كالطوفان يعجز عن سبك ذلك العصيان في قالب واحد في جميع النفوس. غاندي الذي يستنكر بشدّة أعمال العنف وسفك الدماء دفعة بعد دفعة، لا يملك ردع الشعور الملتهب الدافق من الجماهير ضمن حدود «المقاطعة السلمية». ولأنّه كان يعلم ذلك سلفاً، ويعلم أنّ العصيان المدني حتى ولو سلم من العنف والإرهاب، لَوَخيم العاقبة على السائد والمسود وعلى جميع شؤون البلاد، من أجل كل ذلك جثا على ركبتيه يتوسّل. والآن ساعة يشعر غاندي بروح الكراهة والحسد والمقاومة تهبّ فوق رأسه، ويشعر بأفاعي الدسيسة والنميمة والبهتان تسعى في الظلام حواليه، وساعة يشعر بما في تركيب هذا العالم الرهيب من الارتباك والطغيان وبما في طبيعة الإنسان من شراهة الشرّ والعدوان – لا شكّ عندي أنّه ساعتئذ تحزن روحه النورانية وتتوجّع فلا تجد لها من وضع أنسب من ثني الركبتين في خشوع وانجذاب للتملّص من روح الشرّ والاتصال بروح الخير التي لها معه مساجلات وخلوات.

رسالته رسالة حبّ ودعة ومسالمة ولكنّها في نفس الوقت رسالة حقّ وواجب ونشاط. وسواء أأفلح غاندي وإخوانه في تسوية قضية الهند أم فشلوا، سواء أظلّ غاندي معبود عابديه أم أمسى بينهم مهملاً منبوذاً كطائفة المنبوذين الهندوكيين الذين يريد إصلاح حالهم، سواء ألبث غاندي محاطاً بهالة من الإعجاب والرضا والإكرام أم انقلب هدفاً للرماية والتحقير والعدوان فهو سيبقى أبداً الروح الكبيرة النورانية وقد دخلت رسالته في تاريخ النضال الدولي وسيكون لها في المستقبل شأن بعيد كما هي في الحاضر عامل قويّ الفاعلية والنفوذ. سلاحها في مقاومة الخارج سلبي هو المقاطعة، وسلاحها في إنهاض الداخل إيجابي هو العمل والنشاط ورمزه المغزل.

ولقد قيل كثيراً إنّ غاندي مدين لدراسته في إنجلترا بدعوته الوطنية القومية، وإنّه لو هو بقي في الهند يتغذّى من الثقافة القديمة لما كانت له هذه القوّة ولا كان اهتدى إلى هذا النوع من الزعامة ولا كان شعر بالحاجة إلى الاستقلال والحرّية.

لست هنا في معرض بحث آراء غاندي ونظرياته وعوامل تطوّره الشخصي، ولكن علام لا يكون ذلك صحيحاً؟ ليس من أمّة واحدة في العالم وفي جميع أدوار التاريخ استطاعت أن تخلق نفسها من تلقاء وحيها الخاصّ دون استيحاء نشاط الآخرين. ليس من حضارة وُجدت دفعة واحدة من عنصر قومي واحد دون أن يشترك في تكوينها عناصر شتّى من مختلف المدنيات والأقوام. بل ليس من رسالة إلّا واستفادت من رسالات أخرى فصبغتها بصبغتها الخاصّة وأرسلتها إلى السامعين صيحة ونبرة ونفساً يُتوّجها اسم خاصّ. وفي هذا الدليل على أنّ الإنسان الفرد كالشعب الفرد إذا كان عليه من الناحية الواحدة أن يثقّف مميّزاته ويحمل الآخرين على الوقوف عند حقوقهم دون الاعتداء على حقّه، فإنّ التعاون والتضامن محتوم من الناحية الأخرى لا نجاح إلّا به، لأنّ التفاعل بين العناصر المتجانسة قانون جوهري في الحياة.

غاندي!

يا رسول الحقّ الزمني والواجب الزمني، ويا نبيّ الثورة في محبّة والحرب في سلام! أيّها الضعيف القويّ المارّ بالمياه المصرية، إنّ أنظار الأذلّاء والمظلومين والفقراء تتّجه اليوم إلى شخصك المتجرّد من مظاهر الخيلاء والترف والغنى! وعندما أنت

تداعب الأطفال على سطح السفينة إنّما تشعر بلطف لمسك جميع النفوس التي كانت يتيمة منذ نشأتها وما فتئت تعيش وسط العالم في صحراء خاوية خالية من الظلّ والينبوع! وعندما أنت تقول الكلمة الصريحة التي تعبّر عن فكرة ولا تحاول تحفّظاً تتكلّم معك جميع الألسنة التي أخرسها همس النفاق وصيحات التطاول والوقاحة! إنْ أنت نجحت، أيّها الزعيم، ينجح معك جميع الذين لا يتجاوزون حقّهم في المطالبة بالفوز. وإنْ أنت اندحرت وجثوت على ركبتيك تصلّي فثق بأنّ سرباً من الأرواح المعذّبة المنفطرة اللاثبة ألماً وحيرة، تحيط بك وتشترك بلغتها وعلى طريقتها في صلاتك وضراعتك نزوعاً إلى روح الخير والنور التي هي ملك لمن شاء من الناس أجمعين!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٧٩١، ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) كتبت ميّ زيادة هذه المقالة بمناسبة مرور زعيم حركة الحرّية الهندية مهاتما غاندي ببور سعيد في مصر في طريقه إلى «مؤتمر الطاولة المستديرة» في لندن حيث كان يعتزم طرح استقلال الهند على بساط البحث.

(٢) Leo Tolstoi (١٨٢٨ - ١٩١٠)، القاصّ والشاعر الروسي الذي عُرف على وجه الخصوص من خلال عمله الرئيسي «الحرب والسلم» (١٨٦٤ - ٦٩)، وهو رواية في أربعة أجزاء تناولت الظروف الروسية خلال غزو نابليون لروسيا، ورواية «آنا كارنينا» (١٨٧٣ - ٧٧). ويتّضح من أعماله رفضه لمدنية لا تخدم إلّا مصالح طبقة معيّنة، ولكل أنواع السلطة (الدولة والكنيسة)، كما دعا إلى العودة لمبادئ «موعظة الجبل»، وإلى نبذ العنف، ومحبّة الغير باعتبارها أسمى وصية دينية، خصوصاً في «اعترافاتي» (١٨٧٩)، وهو كتاب يستعرض مسيرته الأدبية.

خواطر متناثرة

* استياء البحّارة في الأسطول البريطاني
* المشكلة الأساسية
* الحضارة القائمة والعمّال العاطلون
* فيكتور هوجو يخطب عن إفريقيا

تقول التلغرافات بأسلوبها الموجز السريع إنّ البحّارة في الأسطول البريطاني بلغ من استيائهم من جرّاء إنقاص أجورهم أنّهم رفضوا العمل ولم يلبّوا الإشارة التي صدرت إليهم بأن يرفعوا المراسي، لأنّهم اتفقوا فيما بينهم على تأجيل السفر عن الموعد الذي تقرّر أن يقوم فيه الأسطول لإجراء المناورات في الأوقيانس الأطلنطيقي، وإنّهم - ليظهروا أنّ عصيانهم لا يصطبغ بصبغة سياسية - هتفوا للملك ثلاثاً في جميع سفن الأسطول، ثمّ جلسوا على الزناجير وأخذوا يلعبون ويقضون الوقت باللهو والتسلية. كما أنّ الوقّادين كفّوا عن إيقاد النار انتظاراً لقرار ديوان البحرية في تعديل تخفيض مرتّباتهم.

خبر كغيره من الأخبار، ولكنّ أهمّيته في كون هؤلاء الذين عصوا بحّارة، ونظام الطاعة عند رجال البحرية لا يقبل مناقشة ولا مهادنة، ويتحتّم تنفيذه في الحال بحركة شبه آلية. وهم بعد بحّارة بريطانيون، أي بحّارة الدولة التي لم ير التاريخ من تماثلها في العظمة والترامي والانتشار، وما بلغت هذه المكانة الفريدة إلّا بأساطيلها وببحّارتها. وقد كان على أولئك البحّارة أن يقوموا بمناورات في عرض البحر فرفضوا أن يطيعوا، ورفضوا أن يطيعوا في ظرف استثنائي خاصّ.

كل هذا يدلّ على مبلغ الحيف الذي يلحق بهم من جرّاء تخفيض أجورهم بالمقدار الذي ذكر قبلاً. والبحّار من أحقّ الناس بالعطف لأنّ عمله عسير، وحياته شاقّة، ومعيشته حليفة الوتيرة الواحدة في تنوّعها. فهو الرجل المتجوّل الذي لا منزل له، والإنسان الذي لا يفتأ يصارع العنصر الرهيب صورة القدر العتيّ، وبحكم ملازمته لذلك العنصر يصبح متشائماً متفائلاً في آن واحد. وهو في رحلاته البعيدة المتواصلة يحمل معه ذكرياته

الشخصية وغمومه العائلية. فإنْ لم يطمئنّ إلى حالة زوجته وأبنائه تعذّر عليه القيام بواجبه كما ينبغي. وكل ذلك يحدو بأولي الشأن إلى النظر في مصلحة البحّارة بعطف خاصّ وإلى معالجة تسوية مرتّباتهم على الوجه الذي يرضيهم ويطمئنهم.

* * *

غير أنّ هذا الحادث ليس إلّا فرعاً واحداً من الفروع العديدة المنطلقة من المشكلة الأساسية: مشكلة الميزانية التي ليست خاصّة بإنجلترا وحدها بل إنّ جميع الدول تعانيها اليوم بدرجات متفاوتة. والدول التي خلصت منها إلى حدّ ما لن تلبث حتى ترتطم بها شأنها في ذلك شأن سائر الشعوب السائدة والمسودة، القويّة والضعيفة سواءً بسواء، لأنّ مالية العالم أصبحت من التقارب والارتباط فيما بينها بحيث أنّ ميزانية الدولة الواحدة ذات فاعلية محسوسة في ميزانيات الدول الأخرى ولو بكمّيات مختلفة.

والحكومات لتسوية ميزانياتها تعمد عادة إلى رفع الضرائب وزيادة الرسوم الجمركية وتخفيض المرتّبات وإهمال ما يمكن الاستغناء عنه ولو حالاً من المنشآت والأعمال العامّة. والنتيجة المحتومة لكل أولئك هي حمل الجمهور على الاقتصاد من نفقاته المألوفة والتقليل من الاستهلاك. وعندما يقلّ الاستهلاك يتراكم الإنتاج. وعندما يقلّ الاستهلاك ويتراكم الإنتاج تعطل بطبيعة الحال الأيدي العاملة. وعندما تعطل الأيدي العاملة تقوم الحكومة بالإنفاق عليها وهي لا تؤدّي خدمة ولا تقوم بعمل. فكيف تنتظم مالية على هذه الصورة؟

إنّما ذلك لسرطان عضال يفتك في العاطل وفي العامل على السواء. لأنّ الإنفاق على العاطلين معناه إرهاق الذين يعملون ويكدّون وإرغامهم على حذف الكثير مما هو ضروري لحياتهم وراحتهم وصحّتهم وإطمئنانهم لينعم بها أولئك الذين يلهون ويتريّضون ويلعبون آمنين. فكأنّما يسخّر النشاط والكدّ والعناء لمصلحة الكسل والفراغ وعدم المبالاة. فيتضخّم إحساس العاطل وتشلّ عنده المقدرة على العمل ويتشوّه خلقه مع الوقت فيحسب أنّ من بعض واجبات الدولة أن تقوم بأوده وأود ذويه وأنّ من حقّه هو أن يعيش عالة على الآخرين. ويتهيّج شعور الذي يعمل ويبذل إذ يشعر بالظلم الذي ليس فوقه ظلم، ويرى أنّه ينفق من صحّته وراحته وقوّته ليرغد مَن هو أوفر منه

قوّة وصحّة من غير ما مجهود. والقهري المجحف شتّانَ بين هذا النوع من البذل وبين أفعال الرحمة والسخاء لمصلحة المريض والعاجز[1] التي يعطي المرء في سبيلها فيشعر بأنّه يقوم بواجب إنساني نبيل ويرضى عن نفسه ويملأ قلبه الفرح الجزيل. أمّا العطاء للقويّ الذي يجب أن يعمل ليعيش فمهزلة لا يمكن أن يستقرّ عليها نظام، وسمّ يفتك بهذا الذي يسمّونه رقيّاً ومدنية، وبخاصّة لأنّه شيء غير موقوت على ما يظهر.

إنّ الحضارة تقوم اليوم على الصناعة وتقدُّم الآلات المستمرّ. وهذا التقدّم يغني عن اليد العاملة ويضمن الإنتاج بواسطة الماكينات في سرعة وإتقان. وهكذا كلّما تقدّمت الآلة - وهي كل يوم في تقدّم - تزايد الإشكال وتنوّع وتعدّدت مظاهره فكان ما يحسب صحّة المدنية وقوّتها هو نفسه علّتها ووهنها.

* * *

نشعر في هذا العصر وكأنّ هذه المشكلة مباغتة ولكنّها جدّ قديمة، وقد كانت دائماً من أقوى البواعث على تجريد الجيوش وإشهار الحروب وتصادم الشعوب في المجازر المفجعة التي لا تكاد تقوم منها حتى تراها عاكفة على تهيئة ما يماثلها باختبار أوفر، وحيلة أوسع واختراعات تكاد تعدّ سحراً وأعاجيب لولا أنّها من فعل العلم المحسوس. وتلك المشكلة كذلك من أقوى البواعث على فكرة الاستعمار وعلى تنظيم تنفيذها على هذا الوجه الواسع الدقيق.

ولكنّ تيقُّظ الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) يزيد تلك المشكلة إرهافاً وهولاً. وهذه اليقظة محتومة بفعل احتكاك تلك الشعوب بخصائص المدنية وبتلقّي ثقافتها وبالأخذ بنتائجها. ولا سبيل إلى إحجام القويّ لأنّ كلّاً يعلم أنّه إذا أحجم هو تهافت على موقفه كثيرون. ولا سبيل إلى الاستغناء عن المخترعات الجديدة وإلى شلّ الحركة الصناعية والميكانيكية. فجهود العلم والعمل إذن تغذّي العلّة العالمية كما يتغذّى السرطان من أنقى دماء القلب. والعلّة تتضخّم عاماً فعاماً وجميع العلاجات التي يصفها رجال الاقتصاد والصناعة والسياسة والاجتماع ليست إلّا بمثابة التخدير الموضعي الموقوت الذي يخلق مظهراً جديداً من العلّة في موضوع آخر.

* * *

ولقد اتفق أن فتحتُ اليوم كتاباً وقعت منه على الخطبة التي ألقاها فيكتور هوغو[٢] في ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ في حفلة الاحتفاء بذكرى إلغاء الرقّ التي رأسها باريس. وكان إلغاء الرقّ موضوع تلك الخطبة بالطبع، بيد أنّ ذلك الشاعر الفرنسي العظيم الذي امتلأ قلبه وآثاره بالعواطف الإنسانية النبيلة، رأى أن يتناول الكلام عن القارّة السوداء. فقال يستنهض همّة الدول:

«... أمّا ونحن نجتمع هنا حول فكرة واحدة، فكرة تحسين النوع الإنساني وترقيته، فلننظر إلى المستقبل متسائلين ماذا عسى سيصنع القرن العشرون.

«لقد حان الوقت لنخطر العالم القديم بأنّ عليه أن يكون جديداً. لقد حان الوقت لنلفت أوربا إلى كون إفريقيا في جوارها. لقد حان الوقت لنقول للأمم الكبيرة التي خرج منها التاريخ الحديث: إغريقا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا، إنّهنّ ما زلن في الوجود وإنّ مهمّتهنّ دون أن تتحوّل قد اتخذت شكلاً جديداً وإنّ مسؤوليتهنّ ما فتئت عظيمة محسوسة على شواطئ البحر المتوسّط. وإذا أضيفت إليهنّ الأمّة الخامسة التي استشفّها بصر الشاعر اللاتيني فرجيليو فكانت حقيقة بنظرته إليها، إنجلترا – تيسّر الإلمام بمجموعة جهود الجنس البشري القديم في سبيل العمل الذي هو التقدّم، وفي سبيل الاتحاد الذي هو الحياة.

«لقد حان الوقت لنقول لبني الإنسان: اتحدوا وسيروا إلى الجنوب. ألا ترون ذياك السدّ أمامكم؟ في وجهكم تقوم تلك الكتلة، كتلة الرمل والرماد، الكومة الجامدة الباهظة التي تعيق السير العامّ منذ ستّة آلاف سنة: أرض حام الصخمة التي توقف بجسامتها وخمودها سير سام، إفريقيا[٣].

«العالم يُعنى بإفريقيا لأنّها تشلّ الحركة العامّة وتعوق سير الحياة العالمية، والإنسانية في مسعاها لا تستطيع أن ترضى بعد اليوم أن يكون خمس الكرة الأرضية مفلوجاً كسيحاً.

«... وإلى المسائل التي تهمّ الشعوب تضاف المسائل الإنسانية. فالأبيض في القرن التاسع عشر جعل الأسود إنساناً (يشير إلى إلغاء الرقّ)، وأوربا في القرن العشرين ستجعل من إفريقيا عالماً.

«سيري، أيّتها الأمم، واستولي على تلك البقاع. خذيها للّه. فاللّه يعطي الأرض للبشر واللّه يهدي إفريقيا إلى أوربا. خذيها، وحيث قد كان الملوك يشهرون الحرب انشري أنت السلام. خذيها لا للمدفع ولكن للمحراث. لا للسيف بل للتجارة. لا للمناوشة والوغى بل للصناعة. لا للغارات والفتوح بل للإخاء.

«... خذوها وادفقوا فيها ما زاد بينكم وأفرط في الازدياد من النفوس فأنتم في ذات الوقت تحلّون مشاكلكم الاجتماعية. اجعلوا من صعاليككم ملاّكاً. اذهبوا ومهّدوا السبل، وشيّدوا الموانئ، وابنوا المدائن. أنموا وازرعوا واستغلّوا واستعمروا وتكاثروا...».

كلام.. جميل! ولكنّه نظر إلى خطوة واحدة ونسي ما وراءها. وما وراءها هو هذه اليقظة العامّة التي تنهض شيئاً فشيئاً الشعوب الملوّنة من سباتها فتزيد الحضارة أشكالاً على أشكال، وتحمل كل أمّة وكل جماعة على تسجيل حقّها على التاريخ وعلى الكرامة وعلى الاستقلال فتثبت أنّ مهمّة الحضارة أوسع وأشمل من أن تقتصر على شعب دون شعب وجنس دون آخر.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٠٥، ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) المعنى لا يستقيم على ترتيب الكلمات كما هو وارد في النصّ، والواضح أنّ خطأً وقع في تنضيد الكلمات وصوابه: «وشتّانَ بين هذا النوع من البذل القهري المجحف وبين أفعال الرحمة والسخاء لمصلحة المريض والعاجز...».

(٢) Victor Hugo (١٨٠٢ - ١٨٨٥)، أحد أهمّ شعراء فرنسا وأكثرهم شعبية. تزعّم الحركة الرومنطيقية الفرنسية كما أنشأ مطبوعتها المركزية *La Muse Française* وأشرف عليها. كان عضواً في الأكاديمية الفرنسية ابتداءً من عام ١٨٤١ وعضواً ديمقراطياً في مجلس النوّاب بباريس. ساند الأفكار الليبرالية، ورُشّح عام ١٨٤٨ لرئاسة الدولة. أدّت خصومته مع لويس نابليون قبل تنصيبه إمبراطوراً على فرنسا إلى نفيه من ١٨٥١ - ١٨٧٠ . دُفن في البانتيون، ضريح عظماء الرجال الفرنسيين.

(٣) حام وسام، ابنا نوح. يُعدّ حام وفق علم الأنساب المستند على الكتاب المقدّس الأب الأول للحاميين في شمال إفريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربية، ولهم يُنسب الكنعانيون نتيجة ارتباطهم بمصر خلال الألف الثاني قبل الميلاد، بينما تحدّرت من سام الأقوام السامية.

على وقع قصف المدفع

المدفع يدوّي دفعة بعد دفعة إيذاناً بتحرّك الموكب السائر بالأميرة أمينة إسماعيل من محطّة العاصمة إلى مضجعها الأبدي[1].

كيف ترى اهتدى الناس إلى اختراع المدفع؟ كيف وصلوا إلى خلق ما يكمن فيه من معنى عميق، وجلال رائع، وأثر فخم رهيب؟

أقلّب صفحات هذه الكتب التي تفيد كثيراً حيناً ولا تفيد أصلاً أحياناً، فإذا بها تحدّث في غير طلاوة عن تطوّر المدفع خلال القرون وتبدّل الأشكال التي طرأت على قذيفته قبل أن تستقرّ في صورتها الحاضرة، وعن كيفية استعمال كل شعب له المرّة تلو المرّة، وعن المعارك التي كان فيها صاحب الفضل بترجيح كفّة على كفّة، ونصر فريق على فريق، وإظهار جيش على جيش. ويمضي الحديث الجافّ متبسّطاً في وصف أحوال اتخذت الدول عندها المدفع بشيراً بأفراحها وبأتراحها نذيراً.

وماذا عسى يهمّني الساعة من هذه البحوث والشروح والتفاصيل؟ إنّما نصوص الأسفار رمال جدباء عندما هي تضنّ بالمعنى الذي نطلبه فلا نجده، ونستجليه فلا ينجلي.

أسمع الآن الهزيم يروّع قلب الأفق فأخاله يردّد كلمة واحدة: انتهى!

أسمع الهزيم يروّع قلب الأفق فأدرك أنّ أجلاً بشرياً قد انطوى وأذكر عنده آجالاً عزيزة نُشِرت وانطوت فما تركت على الغبراء من بعدها خيالاً!

أسمع الهزيم يروّع قلب الأفق فأذكر أنّ صيفاً متلظّياً قد انقضى ليفسح المجال لخريف حزين، وأذكر كل فصل ابتدأ وانقضى فعبر وكأنّه ما كان.

أسمع الهزيم يروّع قلب الأفق فأذكر أنّ ضروباً من الهزيم تدوّي في ملايين الصدور، وأشعر بأنّي قطعة حيّة من سويداء قلب شامل يعجّ ويتلاطم.

أسمع الهزيم يروّع قلب الأفق فيبدو لي الهزيم شهيقاً وزفيراً. ويخيّل إليّ أنّ موجد الصورة الأولى من المدفع ما اهتدى إليها إلّا بعد أن رقب كيف يزفر كل حيّ وكيف يشهق.

لا شكّ في أنّ ذلك المخترع القديم كان في علمه مفكّراً، وأنّ ذياك الجندي المجهول كان في بسالته شاعراً. فكم ذا يجتمع ما يسمّونه أضداداً في شخصية واحدة زاخرة بالمفاجئات غزيرة العجائب.

هذه بعض المعاني التي أطلبها الآن فلا تقدّم لي الكتب سوى التفاصيل الفنّية في أداة حربية. فهل من يدلّني على صفحة واحدة تحدّث عن المدفع في أيّة لغة فلا تكون سطورها رمالاً؟

وهلّا أتيتم، أيّها الشعراء، بقصيدة فردة لا يغرق المعنى بين بحورها المتواترة ولا يتهدّم صبرنا ضمن أبياتها العامرة، ولا تغيب كلمة الروح في كلماتها المنمّقة العاثرة؟

قصيدة قليلة الأبيات، صادقة الشعور، محكمة الألفاظ، بسيطة الأسلوب، تستحضر أسجاعها كل ما يخلقه دويّ المدفع من الأصداء، وكل ما يثيره من الذكريات والأشجان.

قصيدة تستشفّ الصلة الدقيقة الخفيّة بين قصف المدفع وهديره وبين شهيق الإنسان وزفيره.

قصيدة تعيد علينا كيف يلازم الشهيق والزفير ساعة الولادة وساعة الموت، وكيف يظلّ الزفير والشهيق، بين تينك المرحلتين المحتومتين، ملازمين لكل ما يمرّ بالإنسان من دور، وكل ما يهزّه من انفعال، وكل ما يحييه من أمل، وكل ما يقتله من ملل.

أتستطيعون أن تبيّنوا لنا لماذا يحرّك دويّ المدفع أحياناً ما تكاثف من طبقات الأيام ليشقّ طريقاً مبهماً(٢) كأنما هو ينتهي إلى عتبات الغيوب؟

أتستطيعون أن تكتبوا هذه القصيدة، أيّها الشعراء؟

إنّ جميع الناس يشعرون. ولكنّ الشاعر الشاعر وحده يملك أن يخلق من الشعور المغلق المضطرب المتفكّك الزائل وحدة فنّية جليّة مترابطة مرضية خالدة[٣].

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٠٦، ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) الأميرة أمينة إسماعيل شقيقة الملك المصري فؤاد الأول، وقد دُفنت في القاهرة في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٣١ في تشييع مهيب، عقب نقل جثمانها من الأستانة.

(٢) الكلمة غير واضحة في النصّ، وفي تقديرنا أنّ «مبهماً» هي أقرب ما يناسب ترتيب الحروف في الأصل والسياق الواردة فيه.

(٣) لم تلبث ميّ زيادة أن تلقّت تعقيبين على مقالتها. إذ كتب حسين الجمل تحت عنوان «من شاعر إلى الشاعرة الآنسة ميّ» في الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٠٧، ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٣١، ص ١، أنّ مقالة ميّ كانت في الحقيقة قصيدة من الشعر المنثور، واقتراحها على الشعراء أن يجيئوا بما تسامت به في هذا المجال يعدّ تحدّياً في محلّه لأنّه لا يعرف شاعراً معاصراً يستطيع نظم ما يماثله. بينما استجاب محمد عبد الغني حسن لمطالبتها بعدّة أبيات نُشرت تحت عنوان «على وقع قصف المدفع لشاعر الأهرام إلى الآنسة النابغة ميّ» في الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨١٠، ٢٤ أيلول/سبتمبر ١٩٣١، ص ٢ .

المستر رني سميث

يحاضر في الجمعية الجغرافية

عن التشريع الاجتماعي الصناعي في إنجلترا

المستر رني سميث العضو بمجلس العموم البريطاني، في تقاسيم وجهه وفي جسده النحيل وفي تركيب أعضائه كما في ذلاقة لسانه - صورة واضحة للمزاج الذي يصفونه بالعصبي أو الفكري ويزعمونه متأثّراً بالسيّار عطارد. فهو «عطاردي» في كل أولئك. ولقد ندر أن رأينا محاضراً إنجليزياً أو أنجلوسكسونياً يعمد إلى الإشارة السريعة المتتابعة مع تعاقب المعاني على وجهه دون أن يحاول مقاومتها - كما شهدنا ذلك في المستر رني سميث. على أنّ صوته ليس بالصوت العطاردي الحادّ المزعج بل هو صوت رضيّ ترتاح إلى سماعه. وهو يتكلّم في حرارة ويقظة وبنبرات متنوّعة، وتشعر به «حاضراً» في كل كلمة يقولها فينيلها حياة. وعلى ذلك فقد استرعى الانتباه ومرّت الساعة وكأنّها دقائق في المحاضرة التي ألقاها مساء السبت في قاعة الجمعية الجغرافية، مع أنّه يجوز نعت موضوعه بالجافّ.

فهو - كما قال - لم يُرد أن يصف حالات الشقاء والعوز والمرض، بل بحث مشكلة اجتماعية لا مردّ لها وذكر الوسيلة التي اهتدت إليها إنجلترا في معالجة تلك المشكلة بطريقة عملية من غير أن تتصنّع الحنوّ وتتكلّف العطف.

فالمشكلة تنجم عن نظم طبيعية في بلد صناعي. منها أنّ الأجير والعامل يصبح يوماً ما مسنّاً لا يصلح للعمل في حين عليه أو له أن يعيش كما كان في أيام نشاطه. ومنها أنّ العامل قبل بلوغ سنّ العجز التي هي السبعون أو الخامسة والستّون قد يمرض مرضاً طبيعياً أو يصاب بالعمى أو بغير ذلك من العاهات كما قد يصاب بأمراض خاصّة بالصناعة التي يمارسها وبالمعادن التي يشتغل فيها. ومنها أنّه يموت فيترك أرملة

وأبناءً كان يعولهم فأمسوا بعده من غير عائل. ومنها هذا العارض الخطير الذي يرجّ اليوم ميزانية الدول ويدخل على السياسة العالمية عنصراً عضالاً عصيّاً: عارض البطالة.

وهذه المشكلة المتعدّدة الوجوه التي أخذت إنجلترا تتعرّفها شيئاً فشيئاً منذ ثلاثمائة سنة فكانت تعالجها العلاج المحلّي الموقوت بفضل التبرّعات الفردية والتدبيرات الخيرية - قد أصبحت اليوم، بعد أن اجتازت عدّة مراحل، «مشكلة مقيمة» تعترف الدولة بوجودها، وتعترف على نوع ما بحقّها في الوجود. فتخصّها بعناية جمّة وتسهر على تنفيذ التشريع الخاصّ بها. وكلما زاد عدد العاطلين زاد الانتظام والدقّة في تنفيذ التشريع، أي في توزيع الإعانات التي لا يؤتى بها من أموال التبرّع والإحسان، بل من مجموع الأقساط التي يدفعها شهرياً كل عامل إبّان مدّة عمله فيكون ما يدفعه أشبه شيء بالتأمين ضدّ العجز والمرض والموت والعطلة. ويعاون الأقساط في تدبير الرصيد المبالغُ التي تدفعها الحكومة وصاحب العمل نفسه.

ويبدأ العامل دفع القسط الخاصّ به في سنّ السادسة عشرة، حتى إذا ما بلغ الخامسة والستّين أو السبعين كان تقاضي الإعانة ضرباً من استرداد الدين أو الاستفادة من الادّخار. وتجوز له الإعانة فيما لو زادت على ما دفعه من المال لأنّه عالج طول حياته عملاً كان في مصلحته بلا شكّ، ولكنّه كان كذلك لمصلحة الدولة بمعنى أنّ هذا العامل كان يداً تنجز العمل وتركّز الصناعة فتخرجها مكتملة إلى حيّز العرض والبيع والشراء. وقد تكون خدمته تلك قد بدأت في سنّ باكرة قبل السادسة عشرة، وهنا ضرب المحاضر المثل بنفسه في بساطة فقال إنّه بدأ يشتغل في المعمل في سنّ الحادية عشرة وإنّ والدته اشتغلت في التاسعة من عمرها.

ومثله العامل الذي دفع قسطه على أعوام فداهمه المرض أو أصيب في بصره أو في عضو من أعضائه من جرّاء عمله، فله الحقّ في تقاضي الإعانة. وإنْ عاجلته المنيّة فلذويه الحقّ في الإعانة ريثما يشبّ أبناؤه ويشتغلون فيباشرون في سنّ السادسة عشرة دفع القسط المفروض على كل منهم.

إلى هنا لا اعتراض على هذا التشريع بل هو حسن للغاية وقمين بإيجاد الحلّ الموافق الذي تتعاون على تنظيمه الدولة التي تعرف أنّ الصناعة من أركانها العظيمة،

وصاحب العمل الذي هو دولة صغيرة في دائرته، والعامل نفسه الذي يعمل ليومه ويدّخر لغده في آن واحد. وليس في كل ذلك شيء من «الإحسان» الذي يذلّ قوماً ويفسد آخرين، بل هو التعاون الحقّ الذي أخذت وتأخذ به شتّى الطوائف بين أصحاب المهن في مختلف البلدان.

وقال المستر رني سميث إنّ مبدأ قانون البطالة مبدأ لا اختلاف عليه بين الأحزاب الإنجليزية وإنّما الخلاف في تنفيذه وتدبير أمره، وإنّ أكبر عيوب هذا القانون على ما يظهر، هو إساءة استخدامه من جانب بعض الصنّاع الذين يدّعون البطالة ويعلنون حقّهم على الإعانة في حين يجدون عملاً فلا يعملون اتّكالاً على الإعانة، أو هم يعملون سرّاً يوماً أو يومين في الأسبوع ويبطلون باقي الأيام ليتقاضوا المبلغ الخاصّ بهم. وجملة القول إنّ عيب هذا القانون في الخديعة التي لا يأنفها قوم ليغذّوا بها البطالة والكسل وتشويه الخلق.

وقد أظهر المحاضر شيئاً غير قليل من سعة الصدر بقوله إنّ كل تشريع شامل كهذا ينطوي تحته ستّة عشر مليوناً من الأنفس لا بدّ أن يكون من بعض نواحيه عرضة للإساءة. وقال إنّ الحكومة البريطانية القائمة تعالج الآن إزالة هذه الإساءة قدر المستطاع مع المحافظة على مبدأ التشريع وأساسه.

أجل، في هذا القول شيء غير قليل من سعة الصدر، ولكنّه يترك في فكر السامع علامة استفهام كبيرة لاجّة. وكل حديث المستر رني سميث يجسّم هذا الاستفهام ويجعله متعدّد الفروع.

إنّ مشكلة العاطلين على خطورتها في الحاضر دونها في المستقبل. ومهما برعت الحكومة البريطانية في تعقّب الخداع والغشّ فهي لن تفلح في إزالة هذا الجانب من الطبيعة البشرية: جانب شره الاستغلال الذي يباهي به بعضهم ويحسبه ذكاءً وحذقاً. وهي من الناحية الأخرى لا تستطيع أن تقلّل من عدد العاطلين الصادقين ولا أن تحول دون تضاعفه المحتوم بفعل تطوّر الميكانيكا وتقدّمها. فقد ذكر المستر رني سميث أنّ في عامي ١٣ و ١٤ اللذين يُحسبان من عهد الرخاء، كان عدد العاطلين حوالي ستّمائة ألف، فإذا به بعد ستّة عشر عاماً يقارب الثلاثة ملايين وإذا بالإعانات تربو على الرصيد

المتوفّر لها فتُضطرّ الحكومة الإنجليزية إلى استدانة مليون جنيه كل أسبوع لتغطية الفرق. مشكلة وأيّة مشكلة أن تستدين الدولة ما يقارب الخمسين مليوناً في العام الواحد لتستطيع تغطية العجز في دفع الإعانات كما هي الحال الآن. فماذا يكون يا ترى لو هي تزايدت بازدياد عدد العاطلين الذي ينذر به تقدّم الصناعة؟

ولكنّ تلك المشكلة ليست مشكلة إنجلترا وحدها بل هي مشكلة جميع الدول، هي مشكلة الحضارة القائمة، هي مشكلة تقدّم العلم وتقدّم الآلة وتقدّم الصناعة. هي مشكلة القرن العشرين. وقد يتيسّر التخدير الموضعي هنا وهناك شهوراً أو أعواماً، ولكن أين الدواء الناجع؟

أيكون الدواء في الحرب التي يبدي الجميع الرغبة في إبعاد شبحها مع أنّ الجميع يتوقّعونها فتكون بمثابة الفصادة التي تستدرّ أنقى دماء الشعوب؟ ولكنّ الحرب نفسها لا تفيد في الشفاء والدليل أنّ الحرب الماضية التي ابتلعت الملايين زادت في عدد العاطلين زيادة فاحشة. وليس كالحرب عاملاً على إرهاف قدرة الاختراع والاكتشاف العلمي والآلي، وقد صنعت الحرب السابقة في هذا الباب بأربعة أعوام ما قد كان لا يتأتى في مئة عام.

إنّ هذه المحاضرة الممتعة التي أطلعتنا على تفاصيل تشريع حسن جدّاً في ذاته قد لفتتنا أيضاً إلى عديد من المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي نتخاصم في سبيلها ونرتئي الآراء لحلّها ونبتكر النظريات لمعالجتها، وهي في الواقع معلّقة بالجواب الذي سيأتي به المستقبل ردّاً على علامات الاستفهام الكثيرة المتعاقبة في فكرنا.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٢١، ٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣١، ص ١ .

خواطر متناثرة

* مليمات جديدة
* أول دير لبنات إسرائيل
* غاندي في كتاب «جوج»

«تنصّ المادّة الخامسة من اللائحة التنفيذية للمعاهدة الدولية العامّة للبريد على أنّه إذا انخفض سعر العملة فللدولة التي حدث فيها ذلك الحقّ في رفع الأجور بما يساوي الفرق بين عملتها وبين سعر الذهب». هذا ما يعلنه الصحافيون الذين يعرفون طبعاً كل شيء، تمهيداً لإخطارنا بزيادة أجور التخليص على الرسائل الخارجية.

وهو كذلك، غير أنّ الخلائق الذين سيدفعون أجور التخليص والزيادة عليها، مثلي ومثلك أيّها القارئ، بطيئون في بعض نواحي إدراكهم، فلا يفهمون على عجل لماذا يلزمون بدفع الفرق بين العملتين دون أن يكون لهم يد في إثارة الزعازع المالية الحاضرة، بل هم منفعلون بها يكابدون في جميع شؤونهم ما يكابدون من غير ما إجرام ولا اتهام. ولا يفهمون لماذا يلزمون بتغطية الفرق بين سعر الورق وسعر الذهب ما دامت طوابع البريد ورقاً أيضاً وما دامت الحكاية كلها ورقاً منقوشاً على ورق منقوش. لا شكّ في أنّ سرعة الخاطر شيء جميل. ولكن علام حرمكها القدر، أيّها القارئ، مثلما حرمني؟

وقد شغلني اليوم التكهُّن بعدد المليمات التي ستفرض علينا لكل رسالة فوق ما ندفعه من المليمات الغير القليلة. أتكون الزيادة مليماً واحداً؟ أم مليمين؟ أم أكثر؟ أقترح أن تكون الزيادة للرسالة الواحدة خمسة مليمات (حجر) ليجيء الرقم «مستديراً» مليحاً.

وبمناسبة موضوع تخليص الرسائل أذكر أمراً آخر لم أفهمه إلى اليوم رغم الشروح المسهبة التي أتحفني بها العارفون. أعني الرسائل غير الخالصة أجرة البريد، التي تزفّها المصلحة في «تاكس» مضاعفة القيمة وتلزم المرسل إليه بدفع الأجرة الأصلية و«بتكسها» جميعاً مع الاستماع إلى خطبة وجيزة تناسب المقام يلقيها عليه موزّع

البريد. ولست أبحث في مضمون تلك الرسائل لأنّ الذين يكتبون يعلموننا بتجاهل المصائب عندما تتراكم عليه[١]!

أمّا تخليص الأجرة فلا اعتراض عليه وللمصلحة الحقّ في تحصيل تلك الأجرة من أحد الفريقين. ولكن ما سرّ مضاعفتها يا ترى في حين مصلحة البريد لا تنفق على هاتيك الرسائل شيئاً؟

* * *

بينما مركوني[٢] يضيء من مكتبه بروما منارة ريو دي جانيرو بالبرازيل بالنور الكهربائي، وبينما العلماء يتعاونون على المزيد في تقريب الأبعاد وحذف المسافات الشاسعة بواسطة الصاروخ الذي سيسبق الطيّارة إلى المرّيخ، وبينما المعامل تمضي في إخراج الذخائر والمعدّات الحربية رغماً عن عديد مؤتمرات السلم السابقة واللاحقة، وبينما الصين واليابان تتبادلان مقدّمات المجاملات النارية مثبتتين مرّة أخرى صحّة ذلك المثل العامّي القائل «العداوة في الأهل والحسد في الجيران»، وفي وسط عاصفة الإسترليني[٣] وما ينجم عنها وعن غيرها من حمّى عامّة تتلظّى بها الشعوب - تفيد أنباء بودابست بتأسيس أول دير للراهبات الإسرائيليات في كولاسين بهنغاريا. ومؤسّسته هي السيّدة إيرين بالاستي أشهر ممثّلة ليريكية[٤] (بريمادونا) هونغارية، التي هجرت العالم وملذّاته لتنصرف إلى معيشة الزهد والعبادة والأعمال الدينية.

قُضي إذن بأن يكون للإسرائيليات أيضاً دير ورهبنة رغم كون الشعب اليهودي مشهوراً بولعه بالحياة الاجتماعية والنساء الإسرائيليات معروفات بحذقهنّ أساليب الدلال والافتتان واللهو وبإتقانهنّ الفنون المشوّقة كالغناء والرقص والتمثيل وما إليها، كما أنّهنّ معروفات بملاحتهنّ وكياستهنّ. وقُضي بأن يتمّ هذا الحادث على يد نجمة متألّقة في عالم التمثيل الليريكي، في عصر هو أبعد ما يكون عن معيشة الزهد والتقشّف وقهر النفس - كما يقولون.

ولئن كان لهذا الحادث أهمّية استثنائية لجدّته في حياة المرأة اليهودية فإنّ أمثاله تكرّرت في هذه الأعوام. إذ كثيراً ما نسمع ونقرأ عن أشخاص اشتهروا في عالم الفنّ والعلم والأدب والمال وغيرها، أنّهم زهدوا في الحياة واختاروا الدير ملجأً ومقاماً،

مرغمين نفوسهم في سنّ ليست هي فجر العمر على اعتناق الحياة الرهبانية والتنازل عن حرّيتهم ليتقيّدوا بنظام الطاعة ليس فقط في معيشة الدير عموماً بل في أبسط الأمور الشخصية كالنوم والطعام والاستيقاظ واللباس وتقسيم الوقت بحيث يستسلمون للخضوع التامّ لتلك القوانين المتناهية في الشدّة والدقّة.

وعبثاً يتساءل المرء عن الباعث إذ أنّ الباعث يختلف باختلاف كل شخص مع ما يحيط به من الأحوال الخاصّة والعواطف الفردية والدوافع النفسانية. فقديماً نزل بعض قياصرة الرومان مختارين عن عروشهم في إبّان مجدهم الملوكي وعظمتهم القيصرية لينقطعوا للحياة الزراعية البسيطة على مقربة من الطبيعة. وعديدون هم العظماء من جميع الشعوب الذين كرهوا المظاهر الفارغة والتضخيم الكاذب في مجتمع يتهافت الناس عليه ويتقاتلون لأجله ويستحلّون للنجاح فيه شيئاً غير قليل من الوسائل الغير الحسنة على أن يبرزوها في قالب من الأناقة والامتياز والتشويق. ولهؤلاء وأولئك ما لا يتيسّر إدراكه من بواعث الألم والخيبة والخسارة والشقاق العائلي والانخذال في الحبّ وارتباك المشاكل التي لا حلّ لها واستعصاء العلل، أو الملل البسيط من مجهود متواصل بغية الوصول إلى نتيجة لا يرونها حقيقة بكل ذياك العناء. يرون الإفلاس بادياً في مجموعة عمرهم وأعمالهم ويطلبون العزلة في الخلاء ليلقوا عنهم قيد الحياة الاجتماعية. أو هم يقدمون على الانتحار ساعة يطبق اليأس عليهم من كل صوب. وذوو النزعة الروحانية يلتجئون إلى سكينة الأديار وهدوئها.

أيّاً كانت قساوة البواعث التي تسوق جميع هؤلاء إلى خارج الحياة الاجتماعية فإنّهم يجدون في هجرتهم شكلاً من أشكال الراحة والمواساة. ولكن ماذا عسى يقال في طائفة أخرى من الناس تشعر بكل ما في الحياة من ظلم وغدر ودسيسة ولكنّها لا تجد في العزلة راحة ولا هي تشعر بانجذابها إلى الدير وتنفر كل النفور من فكرة الانتحار. أليس أولئك هم الشهداء المجهولون؟

* * *

«جوج» اسم كتاب إيطالي صدر في هذه الشهور بقلم الكاتب الشهير جوفاني بابيني(٥). وكما هو اسم الكتاب فهو كذلك اسم بطل الكتاب الذي يدوّن مذكّراته

وآراءه في أحوال العالم كما هو في يومنا بلهجة ملؤها النقد اللاذع والهجو والتهكّم والازدراء. ويزعم الكاتب أنّه اجتمع بالمسخ «جوج» في مستشفى فألقى إليه بهذه المذكّرات وأباح له التصرّف فيها ثمّ اختفى فجأة ونُسي خبره. ويبدو من هذه المذكّرات ومن مقدّمة المؤلّف أنّ «جوج» شخص نصف أمريكي ذو ثروة واسعة كان له منها ومن وحدته في الدنيا ومن شذوذه مع ما طرأ على حياته من الغرائب ما دفع به إلى السفر والتجوال فتمكّن من معرفة جميع البلدان وزار كثيرين من رجالات العلم والسياسة والمال ووصف كلاً منهم على هواه ناظراً إلى ناحيتهم الغير المألوفة. ومن الذين زعم أنّه زارهم غاندي فنلخّص وصف «جوج» له فيما يلي:

«أحمد آباد ٣ مارس

«لم أشأ أن أغادر الهند قبل مشاهدة أشهر هندوسي حيّ فذهبت منذ يومين إلى «ساتياجراها أثرام»[٦] وهو منزل غاندي.

«استقبلني المهاتما في غرفة تكاد تكون عارية من الأثاث حيث وجدته يفترش الثرى ويتأمّل قرب مغزل لا يتحرّك. فخلته أتمّ دمامة ونحولاً مما تظهره عادة الصور الفوتغرافية.

«قال – تودّ أن تسمع منّي لماذا نريد أن نخرج الإنجليز من الهند. السبب في منتهى البساطة: هم الإنجليز الذين نفثوا فيّ هذه الفكرة الأوربية كل الأوربية. لقد تكوّن فكري إبّان إقامتي الطويلة في لندن فأدركت أنّ ما من شعب أوربي يرضى بأنْ يسوده رجال من شعب آخر. والشعور بالكرامة والاستقلال القومي تراه مكتملاً إلى حدّ قصيّ في الشعب الإنجليزي بوجه خاصّ وعليه لا أريد إنجليزياً واحداً في بيتي بعد اليوم لأنّي شديد الشبه بالإنجليز. لقد ندر أن عني قدماء الهندوس بالشؤون الأرضية وبخاصّة السياسية. أولئك كانوا غارقين في التبحّر بـ «الأَتْمَن» و «البْرَهْمَن»[٧] وبالروح المجرّد ولم يكونوا يتوقون إلى شيء سوى الاتّحاد بالروح الكونية الشاملة. الحياة الظاهرة العادية كانت في تقديرهم نسيجاً من الأوهام فكان جلّ اهتمامهم التخلّص منها على عجل، أولاً بالخلوة والانجذاب والإشراق وأخيراً بالموت. إلا أنّ الثقافة الإنجليزية خصوصاً والأوربية عموماً التي انتهت إلينا بواسطة الاستعمار قد غيّرت من نظرتنا إلى الحياة. أقول «نظرتنا» وأعني المثقّفين منّا، لأنّ الجمهور ظلّ الدهر عصيّاً لا

يتقبّل رسالة الغرب فيما يتعلّق بالحرّية السياسية. وكبير المتشبّعين من آراء الغرب هو أنا، لذلك انقلبت قائداً للهندوس لأنّي أقلّ هندوسية من كل واحد من إخواني.

«إذا أنت تصفّحت كتبي وتتبّعت بثّ دعايتي رأيت في جلاء أنّ أربعة أخماس ثقافتي وتربيتي الروحية والسياسية مستمدّة من مناهل أوربية. تولستوي ورسكن[٨] هما أستاذاي الصميمان. وكانت المسيحية أوفر من الجانيّة[٩] وحياً إليّ لمذهب عدم المقاومة. لقد ترجمت أفلاطون، وأعجبت بماتزيني[١٠]، وبحثت كتابات بايكن[١١] وكارلايل[١٢] وبوهمه[١٣]، وتذوّقت كتابات إمرسن[١٤] وكاربنتر[١٥]. رأيي في ضرورة العصيان المدني تلقّيته من «ثورو» مستوحد الكونكرد الحكيم[١٦]، وما حملتي على الآلة إلّا تكرار للحملة التي قام بها اللوديون، أي أتباع نيد لود، من ١٨١١ إلى ١٨١٨[١٧]. حتى الصورة الشعرية الملازمة للمغزل أوحيت إليّ إبّان مطالعة حكاية مرغريت في «فاوست» لجوتي[١٨]. فأنت ترى إذن أنّ نظرياتي لا تدين للهند بشيء بل تدين بكل شيء لأوربا وبخاصّة لكتّاب إنجلترا. أتصدّق أنّي لم أقرأ كتاب «البهجاوات جيتا»[١٩] إلّا بلندن سنة ١٨٩٠ بإشارة مسز آني بيزانت سيّدة إنجليزية[٢٠]! وإنْ أنا جعلت اليوم شغلي الشاغل اتحاد الهندوس والمحمديين والفارسي[٢١] والمسيحيين فما أنا إلّا آخذ بفكرة الوحدة الدينية التي تذيعها الثيوصوفية، وهي بدعة أوروبية. ومن العبث أن أزيد أنّ استهجاني للفوارق بين المراتب متأتٍّ من مبادئ المساواة التي أعلنتها الثورة الفرنسوية.

«تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر كان ذا أثر بعيد في تكويني. وجهود اليونان والطليان والبولاك والهنغاريين وسُلاف الجنوب لدفع السيادة الغربية عنهم هي التي فتحت عينيّ. وقد كان ماتزيني لي نبيّاً. على فكرة «الهوم رول» الإرلندية[٢٢] نسجت فكرة «السوارج» الهندية. فأدخلت في الهند مبدأً غريباً على العقلية الهندية، لأنّ الهنود، أولئك الباحثين فيما وراء الطبيعة، النازعين إلى الاستسلام، كانوا يرون في السياسة عملاً منحطّاً. الهندي يحيا في الروح الخالصة وينزع إلى الأبدية فماذا يهمّ والحالة هذه أتولّى الحكم الرجاوات الهندوس أم الإمبراطرة الغرباء؟ لذلك احتملنا قروناً السيادة الإسلامية والمغولية. ثمّ جاء الفرنسيون والهولنديون والبرتغاليون والإنجليز فأسسوا المعامل على الشواطئ وتغلغلوا في داخلية البلاد - فتركناهم يفعلون ما عنَّ لهم. فالأوربيون والأوربيون وحدهم

مسؤولون عن رغبتنا الحاضرة في طرد الأوربيين. أفكارهم بدّلت من أفكارنا وعندما صرنا تلاميذ سادتنا تولّدت عندنا الرغبة في أن لا يكون لنا سادة. وأنا أكثر الهندوس تشرّباً بالفكر الإنجليزي، لذلك قدر لي أن أكون زعيم الفيلق المجاهد ضدّ الإنجليز. فليس الأمر هنا مصارعة الشرق للغرب كما تزعم الصحف الأوربية بل هي النزعة الأوربية طغت على الهند فاضطرّتنا إلى التمرّد على أوربا.

«ولو بقيت الهند هندية فقط، أي شرقية صميمة كلها تبحّر وامتثال للقضاء والقدر، لما فكر أحد منّا بطرح النير البريطاني؛ وبقدر ما كنت أنا جاحداً لروح وطني القديم ظهرت بمظهر الرجل الذي ينتظر منه خلاص الهند. والآراء الأوربية من خلال هداي الحديث الذي أعدّته الثقافة الإنجليزية المنتشرة في مدارسنا - تلك الآراء تملّكت جماهيرنا وليس لها بعد اليوم من دواء. الهندي القحّ يحتمل أن يكون عبداً. أمّا الهندي المتنجلز فيريد أن يكون سيّداً في الهند شأن الإنجليز في إنجلترا. وأكثرنا تنجلزاً كما كنت أنا حتى عام ١٩٢٠ هم بالطبع أشدّ الهندوس مقاومة لإنجلترا.

«هذا هو السرّ في ما يسمّونه بالحركة الغاندية التي كان يجب أن تسمّى حركة الهندوس المهتدين إلى المذاهب الأوربية ضدّ الأوربيين الجاحدين، أي ضدّ هؤلاء الإنجليز الذين قد كانوا يموتون خجلاً لو جاء الفرنسيون أو الألمان يحكمون بلادهم وهم مع ذلك بداعي المحبّة الإنسانية يزعمون حكم بلاد ليست لهم. لقد بدّلتم منّا النفوس، يا هؤلاء. ولا نريد أن نشعر بوجودكم عندنا بعد الآن. أتذكر «الساحر التلميذ» في كتابات جوتي؟ لقد أيقظ الإنجليز فينا شيطان السياسة الذي كان هاجعاً في أعماق أرواحنا المتجرّدة الزاهدة، ولا يملكون الآن ردّه إلى هجعته. فهم وشأنهم!»

- «وكان أحد التلاميذ قد دخل الغرفة منذ حين وأشار إلى المهاتما إشارة بكماء. فما كاد يفرغ غاندي من الكلام حتى نهضت لفوري تاركاً له حرّيته. وبعد أن شكرته على بيانه الغير المنتظر عدت بالسيارة إلى أحمد آباد». اهـ

ليس هنا مقام التفنيد لأنّ بابيني يعلن في المقدّمة أنّ آراء «جوج» ليست آراءه وأنّه يستنكرها كل الاستنكار. بيد أنّي أرى في ما كتبه «جوج» شهادة بارعة لغاندي في قالب الغضّ من فضله. وقد أبحث هذه الشهادة في فرصة أخرى. على أنّ كتاب

بابيني بما فيه من الشذوذ والهجو والتهكّم خليق بالاهتمام إن لم يكن بمجموعه ففي بعض فصوله. لأنّه يلقي على جوانب الموضوعات نوراً خاصّاً مظلماً (إنْ صحّ الوصف)، وقد أنقل إلى العربية بعض تلك الفصول في أعداد آتية.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٣٣، ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣١، ص ١ و ٢ .

(١) هكذا الجملة في الأصل، والمعنى غير واضح.

(٢) Guglielmo Marchese Marconi (١٨٧٤ - ١٩٣٧)، فيزيائي ومهندس إيطالي، حصل على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٠٩ مناصفة مع الفيزيائي الألماني Karl Ferdinand Braun لإنجازاته الرائدة في مجال النقل اللاسلكي للأخبار.

(٣) نشأت عام ١٩٣١ منطقة نقدية تُدعى منطقة الإسترليني نتيجة لمكانة بريطانيا كقوّة عظمى استعمارية واقتصادية، وذلك بعد التخلّي عن قاعدة الذهب. ضمّت المنطقة دول الكومنولث (باستثناء كندا) وعدّة دول أصغر، لا سيّما من الدول العربية.

(٤) الكلمة مأخوذة عن الإنجليزية "lyrical" ومعناها «غنائي».

(٥) Giovanni Papini (١٨٨١ - ١٩٥٦)، شاعر ومؤلّف إيطالي جسّد في أعماله العديدة مختلف تيّارات الحياة الفكرية الإيطالية في العقود الأولى من القرن العشرين، من مقاومة الفلسفة الوضعية والتطرّف القومي إلى التجريبية والمستقبلية والعدمية، ثمّ العودة إلى الكاثوليكية في عام ١٩١٩ . أنشأ بعض المجلّات قبل أن يتولّى عام ١٩٣٥ منصب أستاذ في جامعة بولونيا (Bologna) وعام ١٩٣٧ رئاسة المركز الإيطالي لأبحاث عصر النهضة الأوروبية. وفي عام ١٩٣٩ أصبح عضواً في الأكاديمية الإيطالية. برز على وجه الخصوص بمقالاته وكتاباته المتعلّقة بسيرته الذاتية وغيرها من السير من بينها روايته *Gog* التي ترجمت إلى كثرة من اللغات.

(٦) تعني «ساتياجراها» في اللغة السنسكريتية التشبّث بالحقيقة وهي فكرة مركزية في فلسفة غاندي التي تجد ذروتها في تطبيق الحقيقة كما تدركها الذات من دون اللجوء إلى العنف. وترمز أثرام (Ashram) إلى صومعة زاهد هندوسي.

(٧) أَتْمَن، وتعني النفس أو الروح، تعبير محوري في أُبانيشَد أحد كتب فيدا الهندية المقدّسة. يرمز للروح التي لا تفنى عند الإنسان، وهي مختلفة عن عالم الظواهر، كما لا يمكن تعريفها إلّا سلباً. يتطابق الأتمن الفردي مع الأتمن الكوني الذي يُدعى أيضاً «برهمن»، وتقود معرفة هذا الواقع إلى الخلاص من دورة الموت والميلاد. تشكّل التأمّلات النظرية حول طبيعة الأتمن موضوعاً هامًّا في الفلسفة الهندية.

(٨) John Ruskin (١٨١٩ - ١٩٠٠)، مؤلّف وناقد فنّي وفيلسوف اجتماعي إنجليزي كافح

من أجل قيم اجتماعية واقتصادية جديدة. اهتدى بفنون القرون الوسطى وقد وجد فيها تعبيراً عن عصر أخلاقي يُحتذى به.

(٩) الجانيّة (Jainism)، إحدى الديانات الثلاث الكبرى في الهند إلى جانب الهندوسية والبوذية. ترجع إلى نحو القرن السادس ق.م.

(١٠) Guiseppe Mazzini (١٨٠٥ - ١٨٧٢)، سياسي إيطالي كافح بكتاباته ومن خلال العديد من الانتفاضات الفاشلة من أجل قيام جمهورية إيطالية موحّدة.

(١١) Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦)، رجل دولة وفيلسوف إنجليزي، منشئ المذهب التجريبي حسب القواعد العلمية. شكّلت مراقبة الطبيعة له مقدّمة لمعرفتها والسيطرة عليها. كما توقّع من التوسّع الذي لم يسبق له مثيل آنئذ في معرفة الإنسان وقدرته التمكّنَ من تلبية حاجات البشر دونما تصادم وبالتالي ضمان الوئام السياسي في مجتمع يستند إلى سلطة مكوّنة من أفراد حكماء ذوي توجّهات تقنية وعلمية.

(١٢) Thomas Carlyle (١٧٩٥ - ١٨٨١)، مؤرّخ وكاتب مقالات إسكتلندي، طوّر رؤية حول الزهد والقيمة الأخلاقية للعمل. كان الباعث الأكبر في إنتاجه حسّه النبوي الذي دفعه للعمل على مواجهة «الانحطاط» الديموقراطي المادّي النفعي فسعى إلى أن يهدي الشعب البريطاني عبر ميثاق ديني أخلاقي جديد إلى إثبات عظمته الأخلاقية الوطنية. أنعش الحسّ التقليدي لدى البريطانيين برسالتهم الإنسانية وعمل على تعميمه. وقد أضاف إليه عناصر جديدة مستمدّة من مبادئ التطهّرية (Puritanism) ومؤثّرات من العصر الكلاسيكي الألماني تؤذن بالإمبريالية، إذ يفترض وصفه الشعب البريطاني كشعب من الأبطال تمايزاً بين الشعوب مبنيّاً على الإرادة الإلهية ممّا يفرض عليه واجب التبشير بمعتقداته ونشر حضارته بين الشعوب غير المتحضّرة.

(١٣) Jakob Böhme (١٥٧٥ - ١٦٢٤)، متصوّف وثيوصوفي ألماني، كانت مسألة التوفيق بين وجود الشرّ في الدنيا والفكرة الإلهية في صدارة تأمّلاته. وقد وجد حلّاً لها من خلال افتراض مبدأ سلبي في الذات الإلهية، فكما لا يتّضح الشيء إلّا بضدّه، فلا يمكن مثلاً تصوّر النور بدون العتمة، كذلك لا يمكن تصوّر الله بدون تصوّر نقيض للخير. وقد أنعشت المثالية الألمانية والفلسفة الطبيعية الرومنطقية بعض عناصر التصوّف عند بوهمه.

(١٤) Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣ - ١٨٨٢)، شاعر وفيلسوف أمريكي، زعيم الاستعلائيين (Transcendentalists) الأمريكيين. يُعدّ الإيمان بالقوّة الفاعلة للروح زبدة أعماله التي تأثّرت تأثّراً واضحاً بالفلسفة الاستعلائية الألمانية وبالأفلاطونية والمثالية الألمانية إضافة إلى الفلسفة الهندية. وينطلق هذا الأيمان من افتراض التماهي التقريبي بين كلّ من الروح الإلهية والروح الكونية والروح الإنسانية.

(١٥) Edward Carpenter (١٨٤٤ - ١٩٢٩)، مؤلّف إنجليزي، عُرف خاصّة بدعوته للإصلاح الاجتماعي. كتب أعمالاً فلسفية متأثّراً على الأخصّ بالشاعر الأمريكي Walt Whitman وبالفلسفة

الهندية، رافضاً فيها المدنية وداعياً إلى حياة بسيطة، فضلاً عن ذكرياته ومجموعة قصائد. يُعدّ عمله الشعري *Towards Democracy* (١٨٨٣) أهمّ آثاره.

(١٦) Henry David Thoreau (١٨١٧ - ١٨٦٢)، كاتب أمريكي، من بين الاستعلائيين، وكان صديقاً مقرّباً لرالف والدو إمرسن. اعتبر نفسه منشقّاً متشدّداً على الأعراف الاجتماعية ونصيراً للمذهب الفردي، ويتّضح موقفه الرافض للدولة والسياسات المنافية للضمير بشكل خاصّ في مقاله «حول واجب الخروج على الدولة» (١٨٤٩). أظهر ميلاً للحياة الطبيعية البسيطة متأثّراً في ذلك بجان جاك روسّو (Jean Jacques Rousseau) وعاش من ١٨٤٥ - ١٨٤٧ معيشة كفاف في كوخ بناه بنفسه من جذوع الأشجار على والدن بوند (Walden Pond) قرب كونكورد (Concord) في ولاية ماساتشوستس (Massachusetts). وضع عن هذه الفترة كتابه *Walden, or Life in the Woods* (١٨٥٤)، الذي يعدّ أشهر أعماله.

(١٧) اللوديون (Luddites)، عمّال وحرفيون يدويون حطّموا في بريطانيا في الفترة الأولى للثورة الصناعية ماكينات للغزل والنسيج وغيرها من الآلات، ويقال إنّهم اكتسبوا التسمية من عامل يُدعى نيد لود (Ned Ludd) من مدينة ليستر (Leicester) قام بإتلاف آلات مصنع للجوارب. وكان تدمير الصناعة المنزلية نتيجة لإدخال الماكينات في الإنتاج الصناعي وما نشأ عنه من شيوع البؤس في المجتمع (البطالة وحركة الانتقال من الريف إلى المدن) هو السبب الكامن وراء تفجّر هذا الغضب.

(١٨) ينتهي الجزء الأول من مسرحية «فاوست» (Faust) للشاعر الألماني Johann Wolfgang von Goethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢) بمأساة مرغريت (Margarethe).

(١٩) البهجاوات جيتا، ومعناها باللغة السنسكريتية «نشيد المتعالي»، هي قصيدة تعليمية فلسفية من التراث الديني الهندوسي تتكوّن من ١٨ نشيداً. يرجع بعض جذورها إلى القرن الثالث ق.م.، وتولّى فلاسفة هنود من مختلف المدارس شرحها.

(٢٠) Annie Besant (١٨٤٧ - ١٩٣٣)، ثيوصوفية إنجليزية، تخلّت عن المادّية الماركسية بعد نشاطها كمصلحة اجتماعية لتتّجه إلى المذهب الثيوصوفي. عاشت في الهند منذ ١٨٩٣ وأسهمت إلى حدّ كبير في إحياء وعي الهند بذاتها. تولّت عام ١٩٠٧ وحتى وفاتها رئاسة الجمعية الثيوصوفية الدولية في مدراس (Madras). أوصلها نشاطها السياسي إلى المؤتمر القومي الهندي وتمّ عام ١٩١٧ انتخابها رئيسة له. كانت على علاقة طيّبة مع غاندي إلى أن أدّى انتقادها لأسلوبه في المقاومة السلبية إلى تباعدهما.

(٢١) المقصود «الفارسيون» وهي طائفة المجوس من أتباع زرادشت الذين هاجروا من إيران إلى الساحل الغربي من الهند وخاصّة إلى منطقة بومباي هرباً من اضطهاد المسلمين فيما بين القرنين الثامن والعاشر.

(٢٢) Homerule أي الحكم الذاتي كان منذ عام ١٨٦٨ الشعار السياسي للحزب الوطني الإيرلندي في سعيه للتوصّل إلى استقلال إيرلندا داخل إطار الإمبراطورية البريطانية، من خلال الوسائل البرلمانية وبأساليب تبعد عن العنف. مع تأسيس جمهورية إيرلندا عام ١٩٢١ تحقّق مطلب الحكم الذاتي لهذا البلد باستثناء القسم الشمالي التابع حتى اليوم لبريطانيا العظمى.

موسم التمثيل
وواجب الممثّل نحو اللغة العربية

قرب الموعد لافتتاح موسم التمثيل للفرق المصرية. فالصحف تعلن عنه، والممثّلون يتأهّبون للتقمّص في شخصيات غير شخصياتهم، والمسارح تجدّد ما عندها من معدّات التمثيل وأدواته رغم كون الأزمة الاقتصادية «ضاربة أطنابها» كما يقول بعضهم، أو هي «آخذة بعضها بخناق بعض» كما يقول آخرون، أو هي «ناشرة رواق الحشرجة في النفوس وفوق الرؤوس»، وهو تعبير بليغ الأثر في تقدير غيرهم. وسواء أكانت الأزمة أوتاداً ضربت في قلب الأرض أم كانت سلسلة طويلة لا يعرف أين تبتدئ حلقاتها وأين تنتهي أم كانت سيّالاً شائعاً في الفضاء مع النور والهواء - فإنّنا نتمنّى لفرقنا الشجاعة النجاح كل النجاح في شطريه المالي والفنّي.

أمّا النجاح المالي فمترتّب على رغبة الجمهور في الإقبال على شهود التمثيل. وأمّا النجاح الفنّي فجمّ الأسباب والعوامل والمؤثّرات، ولكن لا أتردّد في القول إنّ المنافسة المرهفة من أهمّ هذه المؤثّرات وتلك العوامل وهاتيك الأسباب.

قد يقال إنّ المنافسة بلغت درجة لا يطلب معها المزيد. ولكنّ المنافسة مفيدة دائماً ولا غنى عنها في حال من الأحوال لمن يحترف التمثيل. لا شكّ في أنّها لا تتناول أحياناً إلّا تلك الناحية الحسّاسة من الضعف البشري. وللضعف البشري حقّه على الوجود في كل فرد وكل جماعة وكل شعب أيضاً. إلا أنّه العرض الزائل وعمله محدود في عملية التكوين الشخصي والإنضاج الفنّي.

أمّا المنافسة التي أعني فهي تلك التي تهيّج ما ركد من الممكنات وتجلو ما غمض أو التبس من المواهب، وتحمل كلاً من المتنافسين على الاهتداء إلى أقصى ما لديه من الاستعدادات ليعنى باستغلالها وتهذيبها وصقلها فيخرجها على خير الوجوه. وما يؤدّي

إليه هذا النوع من المنافسة من إصلاح وتقدّم هو النتيجة الباقية التي تساعد الحاضر على الظهور في صيغة حسنة، وأحسن ما فيها قابليتها للتحسين المتتابع.

وعلى الممثّل تبعات عدّة، يفكّر في كل منها كثيراً أو قليلاً. فهل هو يفكّر أيضاً في الرسالة التي عليه أن يؤدّيها في سبيل اللغة العربية وفي وجوب جعل اللغة مشوّقة محبّبة قريبة المنال على إحكام في إيضاح العواطف وتبيان الأفكار؟

إنّ بعض هذه الرسالة منوط بالمؤلّف والمترجم وبالموضوع نفسه. ولا أظنّ أحداً يعارض في أنّه إذا وجب تنشيط التأليف ليخلص بالمزاولة والمران من شوائبه ونقائصه، فلا بدّ من متابعة الترجمة كذلك. ويظهر أنّ إدراك الموضوعات المطلوبة في التأليف والترجمة مطّرد التهذيب والتوسّع و «التوقيت» عند الكاتب والممثّل جميعاً. كما يخيّل أنّ هذا وذاك أصبحا أدقّ ملاحظة فيما يتعلّق بلغة المسرح وأدرى بما يجب أن تكون عليه - مع سلامة تراكيبها وصحّة ألفاظها - من البساطة والسهولة والبعد عن التقعّر والاستعارة المتحذلقة والغلوّ والغموض فما المسرح الجادّ إلّا حياة غايتها إصلاح الحياة. وإصلاح اللغة فيه وجعلها موافقة لروح العصر وروح الموضوع في آن واحد لِمَن أهمّ الخدم التي على المسرح أن يقوم بها.

إنّ الجمل الصحيحة والألفاظ المنتقاة، والتراكيب البسيطة الجذّابة، والديباجة المهذّبة المشرقة التي تذاع في الجمهور في أوقات التأثير الفنّي والوجداني لعامل نافذ السلطان في إصلاح البيان وتثقيف طريقة التفكير العامّ. ومنها يستوحي السامع ما لم يألفه في حياته اليومية من الأفكار والآراء والمناهج، بل ومن البواعث على الشعور بالحياة في اتساع وبعد غور.

وعلى الممثّل أن يؤدّي رسالة اللغة إلى الأجانب أيضاً، أو إلى النفر القليل من الأجانب الراغبين في شهود التمثيل باللغة العربية. لأنّ الأجنبي كائناً مبلغ ثقافته ما كان يعجز عن قراءة اللغة العربية وهو يجهلها. بيد أنّه يسمع هذه اللغة من الممثّل فيميل إليها أو ينفر منها، يحكم لها بالجمال والسلاسة أو بالقباحة والعنجهية وفقاً لأثرها في نفسه.

النبرة في الكلمة العربية غيرها في الفرنسية. وتوقيع الصوت في الجملة العربية لا يشبهه في الجمل الإنجليزية والألمانية وسواها. وهذا سرّ لا تعلنه الألفاظ ولا تضبطه القواعد، بل على الممثّل أن يهتدي إليه من تلقاء نفسه، شأنه في ذلك شأن الخطيب والمحاضر والمدرّس والمحامي. ولولا نفوري من كل ما له علاقة بالمحاكم لأضفت إلى هؤلاء القاضي. لأنّ خير ممثّل كخير خطيب وخير كاتب هو الذي يبتكر لنفسه ضمن حدود موضوعه وروح لغته أسلوباً خاصّاً يتطابق واستعداده ويتفق مع سليقته.

ولست أدري كيف نجيز لأنفسنا ذياك التساهل الغريب في لفظ اللغة العربية. لقد قلّ بيننا الذين يتقيّدون بلثغ الحروف المعروفة الثلاثة. فنجعل الثاء سيناً والذال زاياً من دون تكليف، مع أنّ هذه اللثغة من أظهر مميّزات اللفظ العربي وهي تنيله شيئاً غير قليل من النعومة و «النغاشة». فلو نحن لفظنا كلمة «the» الإنجليزية مثلاً كأنّها «زي» لعدّ ذلك خطأً. وفي حين نحن نتقن اللفظ بالإنجليزية وغيرها ترانا نقرأ العربية ونخطب بالعربية جاعلين النطق طليقاً تحت راية «معلهش»!

فلو فكّر ممثّلونا في هذه الرسالة التي عليهم أن يؤدّوها فيما يؤدّونه من الرسالات الفنّية والفكرية والعاطفية لأضافوا إلى أغراضهم غرضاً عزيزاً نبيلاً. ولكان مجهودهم في تأدية تلك الرسالة عاملاً على إنضاج فنّهم وإظهاره في صيغة خاصّة بهم غير مختلسة إذ يطبعونه بطابع لغتهم: اللغة العربية.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٤٦، ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣١، ص ٧ .

خواطر متناثرة

* الطلبة المرفوتون ووزارة المعارف
* استقالة وزير مصر المفوّض في إيران
* آني بيزانت مريضة

طال الأخذ والردّ في مسألة الطلبة المرفوتين أو بالحريّ طال فيها الإصرار والإصرار. فوزارة المعارف تصرّ على إبقاء أبواب مدارسها مغلقة في وجه الطلبة وهؤلاء وأولياؤهم مصرّون على الطلب والاعتذار، والصحف تصرّ في الإلحاح على الوزارة بأن تنظر في أمرهم بعين العطف فتعيدهم إلى دروسهم وأعمالهم وامتحاناتهم.

وعندي أنّ الوزارة لم يبق أمامها بعد كل هذا الإصرار إلّا شيء واحد هو عفو القدير عندما يعرف واجبه. وننتظر منها فتح الأبواب لهؤلاء الطلبة دون أن تعرّض نفسها بعد اليوم للطلب والالتماس والإلحاح في هذا الموضوع.

إنّ المساوئ المترتّبة على عطلة هؤلاء الشبّان كثيرة الأنواع، وهي غير قاصرة على الشبّان أنفسهم بل تتناول أشخاصاً عديدين غيرهم وتتناول محيطهم العائلي الصغير كما تتسرّب إلى محيطهم الوطني الكبير. إنّ الوقت الذي يضيع على الطالب الواحد يضيع أيضاً على جميع ذوي الصلة بحاضره ومستقبله وإيقاف ثقافة فرد أو أفراد لهو شلّ ناحية من نواحي الحياة العامّة وإيقافها عن التقدّم في طريق صالحة مفيدة.

حسب الوزارة أن تفكّر في هذا الجانب من الموضوع لتذكر واجبها: وواجبها من أيّة جهة نظرت إليه هو العفو عن هؤلاء الطلبة وتمكينهم من استئناف ثقافتهم وإعداد مستقبلهم.

* * *

وزير مصر المفوّض في إيران رجل شجاع أقام الدليل على شجاعته ثلاث مرّات في شهور قلائل: المرّة الأولى يوم أن رضي بأن يعيَّن خلفاً للوزيرين السابقين اللذين قضيا نحبهما في تلك العاصمة. والمرّة الثانية يوم أن اصطدمت سيارته في الصحراء بين

سوريا والعراق فقتل السائق. ورغم ذلك تابع سفره إلى مقرّ وظيفته في عاصمة بلاد الورود (كما يسمّي شعراء أوربا بلاد الفرس) يحمل في جسمه نوعاً آخر من الورد في شكل جراح ورضوض.

ولكن عندما انهار عليه سقف مكتبه بإيران طفح الكيل كما يقول علماء الاستعارة. وعندما طفح الكيل عمد سعادته إلى إقامة الدليل الجديد على شجاعة من نوع جديد.

فالدليلان الأوّل والثاني يثبتان قوّة جنانه وثقته بنفسه. أمّا الدليل الثالث فيثبت رقّة شعوره وجرأته في إعلان رأيه عندما قال إنّي متشائم وعلى ذلك أريد أن أعود إلى بلدنا.

والتشاؤم إحساس لا يقاوم بالذكاء ولا بالعلم ولا بالمنطق. ويجمل بالذي يشعر به في قوّة أن يجاري بداهته مهملاً التعليل والتحليل. إذ من المكابرة بل ومن ضعف الإدراك أن نزعم أنّ العقل والعلم قد رفعا جميع الأستار. إنّنا ما زلنا محاطين بكثير من الأسرار التي لا نجد لها تفسيراً.

لقد أجمع كثيرون من الجنود الذين اشتركوا في الحرب العالمية أنّهم عندما كانوا يخوضون المعارك متفائلين واثقين بأن لا خوف عليهم كانت تتخطّاهم شظايا القنابل كما يتخطّاهم رصاص البنادق ورؤوس الحراب، وأنّ الذين قتلوا بينهم كانوا في الغالب يفضون إلى رفاقهم قبل الموقعة بأنّهم ملاقون حتفهم عمّا قليل.

وإذا خطر لأحد أن يتبسم من جراء تشاؤم إسماعيل كامل بك فليذكر أنّ فلسفة برجسن أكبر فيلسوف فرنسي معاصر تقوم على البداهة[1]. أقول البداهة وهي غير الحدس والتخمين. وأسرار البداهة وممكناتها لم يجهلها العلم إلى اليوم وما زالت الفلسفة تعالج تلك المشاكل دون أن تبتّ في فرع من فروعها. البداهة علم ما فتئ وليداً.

وقد ذكر مونتسكيو[2] في كتابه «الرسائل الفارسية» على لسان أحد أشخاص الكتاب كلمة زعمها متردّدة في ذلك الحين بين أهل باريس وهي «كيف يستطيع المرء أن يكون فارسياً؟».

أمّا نحن أبناء اليوم الذين نعجب بنهضة إخواننا الفرس فيمكننا أن نحوّر هذه الجملة بعد حوادث مفوّضية مصر في إيران فنقول «كيف يستطيع المرء أن يكون وزيراً مفوّضاً لمصر في بلاد الفرس؟».

* * *

ذكر أمس مراسل «الأهرام» في بومباي خبر اعتلال صحّة مسز آني بيزانت وقولها لوكلائها – نقلاً عن مندوب رويتر – «إنّ مهمّتها في هذه الحياة قد انتهت إلّا أنّها ستعود إلى الدنيا حالاً في جسد هندوكي لاستئناف عملها في إنشاء الهند العظمى» إلخ..

ومسز آني بيزانت هي رئيسة الجمعية الثيوصوفية العالمية، ويرى بعض أتباعها وفقاً لعقيدتهم أنّ هذه السيّدة التي تظهر في هذا العصر بهذا الاسم قد كانت في أعمار سالفة جوردانو برونو[٣] وأفلوطين وأفلاطون وفيثاغورس[٤] وغيرهم. شخصية واحدة آتية من أعماق الدهور تنتقل في أجساد وأسماء متعدّدة جيلاً بعد جيل في هذه البلاد وتلك لتنضج فكرة عظيمة واحدة أو سلسلة أفكار فتنشرها بين الناس وتحقّقها في حياتهم.

وقد جازت مسز بيزانت الثمانين منذ سنوات فإذا مضت عمّا قريب إلى باريها فهي تمضي مشبعة أعواماً وأعمالاً وأفكاراً وآلاماً. وبصرف النظر عن ثيوصوفيتها ونظرياتها الروحانية وأعمالها السياسية وتعاليمها الفلسفية الخاصّة – بصرف النظر عن نزعتها إلى الأخذ بالتناسخ لا يسع المرء إلّا أن يعلن إجلاله لهذه المرأة التي هي بلا شكّ من أسمى النفوس ومن أنضج العقول في هذا القرن العشرين.

مؤثّرة حكاية تطوّرها الذي استسلمت له في خضوع وإخلاص. فقد كانت في صباها زوجة قسّيس بروتستانتي وكانت على جانب عظيم من التديّن والتقوى. ثمّ عصفت بها عواصف العلم الوضعي فكانت من أشدّ أنصاره غيرة عليه ومن أقدر الأقلام في نشره والدفاع عنه وتقديمه في صيغة مغرية مقنعة في آن واحد. وأخيراً وجدت نفسها فجأة أمام تطوّر روحاني خاصّ وصفته هي بقلمها الرائع فلا يسع القارئ إلّا الإعجاب بهذه الروح الحلوة المترامية الأبعاد التي تحوي لاتساعها العالم في

ماضيه وحاضره ومستقبله. يعجب بها وببلاغتها وبإخلاصها وبسموّها كائناً رأيه ما كان في نظرياتها وروحانيتها.

عظمتها في ثلاثين كتاباً أو تزيد أخرجتها وبحثت فيها أديان العالم وشرائعه وأنظمته وحكمته وطبائع الجماد والحيوان والنبات وأسرار البداهة والتلباثيا والسيكولوجيا وما إليها من العلوم الدقيقة الخفيّة، ودعت إلى الاستقامة والحبّ والإخاء والإنصاف والعدل والرفق والتضحية حيث تكون التضحية واجبة.

آني بيزانت صوت بديع يموج في جوّ هذا القرن العشرين: صوت هو الشعر وهو الجمال وهو العلم وهو الفلسفة وهو الإخلاص وهو الألم المتآسي بالأمل. والحكم لهذا الصوت أو عليه نعجز نحن عنده. إنّ هذا الصوت لَمِنَ الأصوات التي كُتب لها أن تُسمع بين الأجيال الآتية ولتلك الأجيال أن تحكم لآني بيزانت بالبقاء أو بالفناء.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٥٥، ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) فيما يتعلّق بالمفكّر الفرنسي Henri Bergson (١٨٥٩ - ١٩٤١) وفلسفته انظر المقال الذي نشرته ميّ زيادة في مجلّة المقتطف، ج ٥٣، أغسطس/آب وسبتمبر/أيلول ١٩١٨، ص ١٤٧ - ١٥٣ و٢١٧ - ٢٢٤، وهو مضمّن في مجموعة أنطوان محسن القوّال «نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة»، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٣، ص ٢٩ - ٤٤ .

(٢) Charles de Secondat, Baron de la Brède et de Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥)، كاتب فرنسي ومنظّر لفلسفة الحكم كان معادياً للحكم المطلق. انتقد في كتابه *Lettres Persanes* (١٧٢١) السياستين العامّة والمالية لفرنسا عبر رسائل خيالية بين شخصين من بلاد فارس. يُعتبر مؤسّساً لعلم الدولة الحديث والنظرية الديمقراطية للفصل بين السلطات والتي كان لها تأثير كبير في تطوّر الدستور إبّان الثورة. أهمّ أعماله هو *L'Esprit des Lois* (١٧٤٣) .

(٣) Giordano Bruno (١٥٤٨ - ١٦٠٠)، فيلسوف إيطالي من عصر النهضة، أدّى مذهبه في لاتناهي الكون وتعدّدية النظم الدنيوية والتكافؤ بينها، وهو ما يخالف الفلسفة الطبيعية لأرسطو والكوزمولوجية المسيحية، إلى تصادمه مع آراء الكنيسة. وبعد حياة من التجوال المستمرّ انتهى به الأمر في روما إلى اتّهامه بالإلحاد وإعدامه حرقاً على أيدي قضاة محاكم التفتيش.

(٤) Pythagoras (حوالي ٥٨٠ - ٥٠٠ ق.م.)، فيلسوف وعالم رياضيات يوناني، تعرّف عبر رحلاته على مأثورات الشرق مثل مذهب تناسخ الأرواح الذي تبنّاه فيما بعد. أنشأ في كروتون ما يُدعى الرابطة الفيثاغوراسية حيث عاش مع أتباعه حياة أرستقراطية شديدة الانضباط تفرّغوا فيها للأبحاث الرياضية والفلكية. والراجح أنّ ما نُسب إليه من نظرية فيثاغوراس التي صارت النظرية الأساسية للجيومترية غير صحيح. وقد نقل عنه بشكل خاصّ تلميذه وخلفه أرسطو إلّا أنّه لم يُعثر على أيّ من أعماله. ويرجح أنّ فكرة الأرقام كمبدأ لترتيب كل الحقائق ترجع إلى فيثاغوراس.

عودة إلى آني بيزانت

إنّ بين الشخصية والمذهب لفارقاً

وليست الروحانية محصورة في الثيوصوفيا وغيرها من المذاهب

بل هي حاجة صميمة في بني الإنسان

شاء أستاذنا الكبير داود بركات بك أن يتحوّل مرّة عن شتّى الموضوعات التي يعالجها قلمه الخصيب باطلاع وخبرة وتضلّع في شؤون البلاد وسياستها وتاريخها وحاجاتها، فأفرد للمذاهب الباطنية مقالاً خاصّاً لم تتغيّر فيه لهجته ولم تنضب عنده قريحته، بل رأيناه يكتب في هذا الموضوع عفو السجيّة بتلك البساطة وذياك التدفّق اللذين ألفهما القرّاء منه في سائر الموضوعات منذ عديد الأعوام.

ولكن، لا بدّ لكل شيء من لكن. لكنّ لهجة المقال في صميمها موجّهة إلى إلباسي ثوب الثيوصوفية القشيب، والنظر إليّ كأنّي من أتباع آني بيزانت الصميمين أو من تلامذة البراهمة الأقدمين واعتبار كلامي دفاعاً عن «مذهب يكاد يكون مجهولاً، بأسلوب فلسفي لا يفهم مغزاه سوى فلاسفة هذا الإيمان وتلك العقيدة»[1]. لقد نجح الأستاذ الجليل في أن ينتزع منّي في رفق وهوادة وهماً عزيزاً - هو وهم الكتابة في جلاء ووضوح ليتمكّن كل قارئ من فهم ما أعني.

وشاء أستاذنا الكبير أن «يعرّب» اسم رئيسة الجمعية الثيوصوفية ب «حنّة بيزانتي» ليجعل لفظه ميسوراً لجمهورنا. أمّا أنا التي لست على شيء من الدبلوماسيا، فقد تقيّدت بصيغة الاسم الأصلية (Annie Besant) فكتبته بالعربية بحيث ينطبق على طريقة النطق الإنجليزية.

بيد أنّي لم أكتب عن مذهب آني بيزانت في التناسخ ولا عن ثيوصوفيتها بل كتبت (وأنا لا أعرفها شخصياً) عن شخصيتها الأدبية المتجلّية في ما نشرته من مختلف الأبحاث وفي ما ألقته من شتيت المحاضرات في كثير من الجمعيات الروحانية

والعلمية والجامعات في العواصم الأمريكية والأوربية (بما فيها السوربون. ومحاضرتها في السربون عن جيوردانو برونو العالم والفيلسوف الإيطالي، من أجمل ما قرأت من الأبحاث العلمية الفلسفية في أسلوب خطابي هو الفنّ كله). إلا أنّ شخصيتها الكبيرة المهيبة تبدو خاصّة في ثلاثين أو اثنين وثلاثين كتاباً تلخّصت فيها نظرياتها في الحياة والطبيعة وتأويلها للشؤون الإنسانية والتطوّر التاريخي للأفراد والشعوب. وأكرّر هنا أنّ الذي يقرأها كما قرأتها لا يسعه إلّا الإعجاب بسعة معارفها ونضوج فكرها وسموّ روحها، كائناً ما كان رأيه في نظرياتها ومذهبها الثيوصوفي - كما قلت في غير موضع من مقالي السابق عنها.

وشتّان ما بين الكتابة عن شخصية الكاتب والكتابة عن مذهبه.

قد نكون شديدي الإعجاب بحضارة قوم دون أن نعتنق كل نظرية قامت عليها تلك الحضارة وكل تعليم دعت إليه. والدليل الحيّ على ذلك هو أنّ العالم المثقّف بأسره يعجب بالحضارة المصرية القديمة ويكبر ما بلغته من المكانة العلمية والفلسفية والهندسية والأثرية والفنّية مما لم يصل إلى كشف جميع أسراره العلم في أيامنا. ولكنّ هؤلاء المعجبين المكبرين لا يأخذون بالمبدأ الأساسي الذي تفتّقت منه كل هاتيك الروائع، أعني مبدأ تناسخ الأرواح والانتقال من جسد إلى جسد عمراً بعد عمر. مع أنّه لولا هذا المبدأ ما جاءت حضارة مصر القديمة على هذا الوجه الفخم الذي نشهد.

لا يسلّم بهذا المبدأ المادّيون من العلماء الذين تستهويهم هذه الحضارة بعجائبها كما لا يسلّم به أتباع الأديان اليهودية والمسيحية والإسلامية، رغم ما أورده الأستاذ بركات بك من قول السيّد المسيح «عند أبي أمكنة عديدة»، ورغم الآية الكريمة القائلة «وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون»، ورغم موفور الآيات والأقوال والنصوص التي يستخرجها الثيوصوفيون من التوراة والإنجيل والقرآن لتدعيم حجّتهم.

فليس بين الذين يفهمون معنى توقّد الخاطر ومقدرة الإبداع وسرّ إيراد الجدّ في قالب التهكّم من لا يعجب ببرنارد شو مثلاً. على أنّ الإعجاب بفنّه وأسلوبه وبمميّزات شخصيته الكتابية لا يعني احتضان آرائه كذلك.

وكدت أعتب على أستاذنا الكبير عندما قرأت في مقاله نعته جماعة الروحانيين ب «هؤلاء المتفلسفة» لولا أنّه استدرك في الختام بجملة جامعة فقال:

«هذه جميعها عقائد قديمة درسها الدارسون فراقت لهم فلسفتها فاتّبعوها وأثبتوا مرة أخرى أن لا جديد تحت الشمس».

والواقع كما قال الأستاذ، أنّ جميع الحضارات القديمة المعروفة قامت على الروحانية، بما فيها ميثولوجية الإغريق وإنْ كانت هذه أضأل روحانية من ميثولوجيات الكلدان والأشوريين والهنود والفرس والفينيقيين والمصريين. وبصرف النظر عن مبدأ التناسخ، لم يخلُ عصر من العصور من العنصر الروحاني في جميع الأديان وفي مختلف البلدان. وقد عرّفت مسز بيزانت النزعة الروحانية في محاضرة شهيرة عنوانها «الروحانية، وشبه الروحانية، والروحانية الكاذبة» ومغزاه أنّ هناك صنفاً من الروحانية ليس إلّا شعوذة وتدجيلاً. وفي تلك المحاضرة بحث جادّ في هذا الموضوع يستعصي بعضه على الكثيرين لأنّه فنّي «تكنيكي» ولكنّه على كل حال خلاصة رأيها ويوافقها جمهور كبير حتى من غير المتمذهبين بالثيوصوفية على التقسيم في العنوان وفي البحث.

ليست الروحانية لتـُحصَر في مذهب الثيوصوفية أو غيرها من المذاهب ذات العقائد والمبادئ بل هي نزعة فردية وحاجة إنسانية توجد في الأمّي والجاهل وجودها في العالم والفيلسوف. ولو نحن أنكرنا هذه النزعة وهذه الحاجة لأنكرنا طائفة من أعظم الفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء وعلماء التربية والسيكولوجية من ذوي الأثر المحسوس في تكييف الحضارة وصقل الفكر العامّ حتى وفي تغيير مناهج التهذيب والتعليم. ولأنكرنا فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وعظماء الرواقيين مثل ماركس أوريليوس وإبكتتس وبولس الرسول والقدّيس أغسطينوس وأفلوطين وسائر فلاسفة مدرسة الإسكندرية التي ازدهرت في الثغر المصري حتى القرن الرابع للميلاد. ولأنكرنا شكسبير وجوته وشيئاً غير قليل من هوغو ونيتشه وشوبنهور وأكثر فلاسفة الألمان. ولأنكرنا فنّ ميكلانجلو ورودان وموسيقى بيتهوفن وفاجنر ومندلسهن وشوبن، وعلم جاغادس بوز الهندي (الّذي أثبت حسّاسية النبات استناداً على فلسفة الهند، ونال لأجل ذلك جائزة نوبل)[٢] وشعر تاغور وزعامة غاندي. بل لأنكرنا إخوان الصفا وابن سينا وابن مسكويه وشيئاً كثيراً من المعرّي وكل

الغزالي الذي هو في نظري أعظم وأروع شخصية أدبية وفلسفية أخرجها الإسلام. وهؤلاء الأقطاب (باستثناء إخوان الصفا ونفر غيرهم) لم يكونوا من أتباع جمعيات باطنية ولكنّهم كانوا روحانيين بنزعتهم الخاصّة لأنّهم بعبقريتهم كانوا أشدّ إحساساً بحاجة الإنسان وبروعة الخليقة. حتى أوغست كونت الفيلسوف الرياضي الفرنسي مؤسّس الفلسفة الوضعية وموجد العلوم الاجتماعية في القرن التاسع عشر - تمتزج بمذهبه المادّي عناصر شتّى من الروحانية.

ومما يستوقف الفكر أنّ نفراً من أفذاذ العلماء المادّيين والفلكيين والطبيعيين والاستقرائيين قد أدّت بهم أبحاثهم الفردية الخاصّة إلى نتائج تلاقوا فيها وعلماء الروحانية على غير موعد. حسبنا قانون الجاذبية الذي سطر ذكره في كتب الهند المقدّسة (الفيدا) من قبل مئات الأعوام. فلمّا جاء نيوتن الفيلسوف والعالم الرياضي الإنجليزي كشف عن ذلك النظام وشاده على قواعد علمية محسوسة يعرفها اليوم صغار التلاميذ. وهل بين الناس من يجهل حكاية تفّاحة نيوتن؟

وبعد، فهل الروحانية إلّا الاعتقاد بأنّ في الطبيعة وفي الكون أموراً كثيرة مجهولة لم تصل إليها معارف الإنسان لأنّ المخلوق محدود والخالق أعظم وأعلى من أن يُحدّ؟ وهل يمكن أن يكون المرء متديّناً بأيّ دين من الأديان دون أن يكون على شيء من الروحانية بمجرّد إيمانه بالعزّة الإلهية؟ أو هل يكون حتى العالم الملحد مجرّداً من الروحانية إذ هو يبحث عن قوى الطبيعة ويجهد في كشف غوامضها؟ وإديسُن - ذياك الفذّ العظيم - ألم تكن عظمته العلمية منبثقة من عظمته الروحانية التي تصطبغ بصبغة جمعية ولم تتمذهب بمذهب باطني؟

أيّ مفكّر لا تروّعه تلك الروح المسيطرة على شئون الكون؟ أيّ عالم يستطيع أن يزعم أنّ الخليقة قاصرة على هذه الخطوط وهذه المظاهر البادية منها للعيان؟ لو وجد هذا الزعم عند الإنسان لما كان هناك اكتشاف ولا كان اختراع، وما بدائع العلم وعجائبه في هذا العصر إلّا نتيجة للإيمان بنوع ما من الروحانية والباطنية.

ولقد أفادت تلغرافات الأسبوع الماضي أنّ مارْكُونِي الإيطالي أعلن بأنّه سيفاجئ الهيئات العلمية عمّا قليل ببيان يكشف عن خفايا المادّة ممّا لم يعهده العلماء من قبل

وسيترتّب عليه تغيير كثير من الآراء العلمية وتبديل في طرق البحث لامتلاك قوى الطبيعة والسيطرة على العناصر.

فلننتظر!

وسيتلو ماركوني كثيرون على كرّ الأعوام في الكشف عن الأسرار. ولكن مهما ذلّل العلم المادّي من قوى الطبيعة ومهما جاء بالمباغت المدهش من الاختراعات والاكتشافات فذلك لن يغضّ من صدق كلمة شكسبير التي ستظلّ داوية في مسمع العلماء على كرّ الأحقاب:

«إنّ على الأرض وفي السماء لمن الأسرار أكثر ممّا في فلسفتك، يا هوراشيو!»[٣].

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٦٤، ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) انظر مقال داود بركات «في الثيوصوفية (علم الحكمة): هل تعود حنّة بيزانتي إلى الوجود بعد الممات لتشهد استقلال الهند؟؟» في الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٥٧، ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣١، ص ١، وقد ردّ فيه على عجالة ميّ زيادة عن آني بيزانت ضمن مقالها «خواطر متناثرة» في الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٥٥، ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣١، ص ١، المنشور في هذه المجموعة [٨٥].

(٢) Jagadis Chandra Bose (١٨٥٨ - ١٩٣٧) فيزيائي وفسيولوجي هندي كان أستاذاً للفيزياء في Presidency College بكَلْكُتا من ١٨٨٤ - ١٩١٥ وأسّس عام ١٩١٧ معهد بوز للأبحاث (Bose Research Institute). ولا يستبعد أنّه كان في حينه مرشّحاً لجائزة نوبل تقديراً لتطويره أول حلقة اتصال لاسلكي في العالم بواسطة الموجة المليمترية إلّا أنّه لم ينلها على العكس ممّا ورد في النصّ.

(٣) من مأساة *Hamlet, Prince of Denmark* (هملت أمير الدانمرك)، الفصل الأول، المشهد الخامس، الأبيات ١٦٦ - ١٦٧ .

خواطر متناثرة

* كلمة المستر لويد جورج
* أتكون المعارك في منشوريا تمهيداً؟
* سور الصين الأكبر
* القضاء المصري وبراءة عصام ناصف
* مصر على اللوحة الفضّية
* طلبة الجامعة المصرية يعملون

المستر لويد جورج[1] يهتمّ لأحاديثه الرأي العامّ ليس فقط لأنّه من رجالات الإنجليز المعدودين، بل لأنّه صاحب شخصية كبيرة في نفسه. وهو فوق ذلك «سمبتيك» (ما ترجمة هذه الكلمة بالعربية؟) في صورته الفوتغرافية وفي صيغة فكره وفي كل ما طالعناه من بياناته.

وهو في هذه الأيام «سمبتيك» جدّاً لأنّ حزبه السياسي قد تحوّل إلى أضأل عدد ممكن. ومعلوم أنّ عهد النجاح في الظاهر ليس خير عهد لجعل الشخصية الكبيرة محبوبة، وأنّ اندحارها قد يكون من أفعل أسباب التشويق ومن أقرب السبل لاكتساب العطف العامّ.

وقد ألقى المستر لويد جورج بالأمس إلى مندوب «البلاغ» بكلمة هي كلمة السياسي المحنّك؛ إذ يتيسّر لكل أن يستخرج منها التأويل الذي يرضيه. وقد أعادت إلى ذاكرتي كلمة حكيم الإغريق القائل «كثيراً ما تكون العبودية خير مدرسة للحرّية». والواقع أنّ المهمّ في استقلال قوم ليس هو الاستقلال بعينه ولكن مبلغ إدراكهم لمعنى الاستقلال ومقدار براعتهم في التصرّف فيه لخير جماعاتهم وأفرادهم. والجهاد في سبيل الاستقلال هو المدرسة المثلى التي يتلقّى فيها الشعب دروس الاستقلال ويستوعب بفضلها أكبر قسط من ثقافة الحرّية.

ليس هذا ما أراد أن يقوله المستر لويد جورج ولكنّه المعنى الذي ساقني إليه جوابه.

* * *

منشوريا، الصين، اليابان، عصبة الأمم، روسيا، أميركا، وغيرها وغيرها - كلمات تتكرّر في التلغرافات كل يوم فيمرّ بها بعضنا في فتور وعدم اكتراث، ويقف عندها آخرون وكأنّهم خاضعون لسلطان مغنطيسي أوقفهم أمام «المرآة السحرية» حيث تتابع ظلال الحوادث المقبلة.

إنّ الشرارة المضطرمة في هاتيك الربوع البعيدة قد تؤدّي إلى نشوب الحرب العامّة التي تنبّأ بوقوعها خلال ١٩٣٢ الجنرال لودِنْدُرْف الألماني في الكتاب الذي أصدره منذ شهور قلائل(٢). ويكفي لذلك أن تنحاز دولة إلى أحد الفريقين المتحاربين فتهبّ دولة غيرها لنصرة الفريق الآخر، وتنبري بالتبع سائر الدول وكل منها تجرّ حزمة الحطب (لا بأس من تسمية المعدّات الحربية بحزمة الحطب) التي ما فتئت تجمّعها وتضخّمها منذ الهدنة بعيد الحرب الماضية فتلقيها في المعمعة ولا يلبث أن ينقلب ما نحسبه اليوم شرارة - حريقاً شاملاً يتناولنا كما يتناول غيرنا. وسرعان ما تخلق تلك الحرب تيّارات جديدة تعصف في جميع الشؤون فتضطرّ كل شعب إلى تكييف حياته مجموعاً وأفراداً بكيفيات طريفة ستجيء بلا ريب أعجب وأغرب من كل ما سبق أن خلقته الحرب الماضية.

«وكيف تنشب الحرب في عهد جمعية الأمم؟» يقول النمّامون الذين يسبكون الاتّهام في صيغة الاستفهام.

ولكن لا عبرة في الاتّهام والنميمة. إنّ الراديو شهيد على أنّ عصبة الأمم تشتغل كثيراً، وهو شهيد على خطبها ومناقشاتها واعتراضاتها وتقاريرها ونشاطها. الوفود الرسمية وغير الرسمية ترد إليها من كل صوب وحدب، وعدد المؤتمرات التي عقدتها أو وافقت على عقدها مسطور في سجلّ القضاء والقدر. وهي لا تضنّ بإرسال اللجان للدرس والاستقصاء والبحث في بلاد بعيدة وقريبة فتكتب اللجان تقاريرها بعد شهور أو أعوام ممّا يدلّ على أنّها بحثت كثيراً، وتخاطب العصبة في أمور شتّى من تحسُن

مخاطبتهم في نظرها، وقد دوت مجالسها مرّات بأحاديث عن مختلف المشروعات، ولا تفتأ تذيع على الملأ كلمات الصلح والسلام والاتفاق الودّي. ولقد كان لها منذ إنشائها أثر يذكر في أرباح مصلحة البريد والتلغراف في جميع أنحاء العالم لوفرة ما يوجّـهه إليها الناس من الرسائل والبرقيات. ولها بالتبع أثر في تنشيط صناعة الورق وترويج تجارة الحبر وأقلام الحبر وأقلام «الستيلو»[٣] وأقلام الرصاص والآلات الكاتبة والمطابع أيضاً وما إليها من لوازم الكتابة والطبع والتحبير والتخاطب عن بعد وعن قرب. وهي فوق ذلك لا تكفّ عن التلويح بغصن الزيتون دون أن ترتكب جريمة قطع فرع واحد من أيّة شجرة. صحيح أنّ الحرب متتالية في بعض البقاع من يوم أن تأسّست هذه العصبة المحترمة، ولكن هل هي تردّدت عند الضرورة في المجاهرة بعدم اختصاصها؟ فعلام تكون الحرب بين الصين واليابان اليوم من اختصاصها؟ وعلام تكون الحرب العامّة التي قد تجرّ إليها معارك منشوريا من اختصاصها؟ هل تملك عصبة الأمم أن تغيّر طبع الإنسان وأن تصرفه عمّا يظنّه من بعض حقوقه؟ إنّ عصبة الأمم، يا سادتي، إنسان مثلي ومثلكم، فهي مقيّدة بمستحيلات الإنسان وبممكناته. ولو نشبت بالفعل حرب عامّة في المستقبل القريب أو البعيد لتشتّت أعضاء العصبة الموقّرون وهم يفكّرون في اكتئاب أنّ فكرة عصبة الأمم فكرة جميلة، ولكنّها ككل فكرة جميلة لا تتحقّق على الوجه الصالح المفيد إلّا بعد قرون تتعدّل خلالها عقلية الإنسان القديمة وتتبدّل إبّان تعاقبها طباعه.

* * *

ورد في تلغرافات الأمس اسم سور الصين، وهو اسم نجفل له نحن أبناء اليوم إذ نذكر أنّ هذا السور الضخم المنيع الذي يبلغ طوله ثلاثة آلاف كيلومتر قد شيد قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون بأمر إمبراطور من الأسرة الرابعة هو مؤسّس الإمبراطورية الصينية. يتفق المؤرّخون على أنّه كان موفور المواهب قديراً عظيماً، ويختلفون على اسمه. فبعضهم يسمّيه «تشِن» وآخرون «شِي - هوانج - تِي» وغيرهم «هوانج - تشِن» وهناك أسماء أخرى. وقد شاد هذا السور ليردّ عن الصين الأصلية غارات المغول والمنشوريين.

وها قد دارت الأيام دورتها فإذا بالصين بعد أن هُدمت تلك الإمبراطورية القديمة - في نفس الموقف الاجتماعي الذي كانت فيه قبل ألفين وثلاثمائة عام مع بعض التغيير المتناسب والوقت. في ذلك الحين كانت الصين منقسمة على نفسها، كثيرة الزعماء، متفكّكة الروابط، تتلقّى صدمات المهاجمين مرّة بعد مرّة، مستعبدة لكثير من التقاليد والخرافات والأوهام. فنهض ذلك الإمبراطور يقضي على قوّاد الانقسام ويهدم النظام الإقطاعي ويقيم الحاجز المنيع لردّ الهجمات ويوحّد كلمة الصين ويصلح فيها الأنظمة السياسية والاجتماعية، ويقتحم أيضاً على العادات الدينية فيأمر بحرق جميع الكتب القديمة وبخاصّة كتب العبادة والطقوس.

واليوم... ولكن منذا الذي يعلم ماذا يجري اليوم في الصين المائجة بشعوبها كالنمل؟ أليست تشبه في نظرنا هاتيك السدم التائهة في عقيق السماء؟

* * *

قال القضاء كلمته في قضية الأستاذ عصام الدين ناصف(٤). وأنا لم أتتبّع كتابات هذا الأديب في مجموعة الموضوعات التي رأت فيها النيابة ما يجعله هدفاً للتحقيق والاتّهام والإحالة على محكمة الجنايات. ولكنّي تتبّعت ما نُشر في الصحف عن تفاصيل القضية وجلسات المحكمة ومرافعة النيابة ودفاع المحاماة. وكنت شديدة الإعجاب بالدفاع وبخاصّة دفاع الأستاذ محمد علي باشا(٥) الذي ظهر في دفاعه ليس كرجل قانون فقط بل كمفكّر كذلك، حيث عرف أن يكشف عن الحدّ الفاصل بين التحريض على هدم النظام وبين الرغبة في الإصلاح والتوق إلى تحسين ما يرى الكاتب تحسينه واجباً. وكان الحكم الحصيف الذي أصدره القضاء نتيجة منطقية لذلك الدفاع الحصيف من جانب المحامين الثلاثة. والواقع أنّ هذا الحكم شهادة ناصعة على مبلغ اتّساع مدارك القضاء المصري كما هو شهادة للمحامين المصريين بالكفاية وكما هو ضمين بالحرّية الفكرية في مصر.

يسرّنا أن نشهد براءة مَن هو ابن حفني ناصف وشقيق باحثة البادية، لأنّ كل من عرف فضل هذه الأسرة الكريمة يحزن لحزنها ويفرح لفرحها. ولكنّ المعنى العامّ في هذه القضية يفوق المعنى الخاصّ. ومن دواعي الابتهاج أن تعلن براءة الأستاذ عصام

ناصف في نفس الوقت الذي تجد فيه حرّية الفكر في مصر من المحاماة المصرية ومن القضاء المصري نصيراً رشيداً.

* * *

يذكر الروائي الفرنسي بلزاك[٦] في أحد كتبه قول فتاة صغيرة لوالدتها: «أمّاه! أودّ أن أبقى في نافذة البيت لأرى نفسي سائرة في الشارع!».

وهذا التناقض الذي يثير الضحك للوهلة الأولى ينمّ عن شوق كامن في قلب الإنسان ليجعل شخصيته متعدّدة، بعضها يكون متحرّكاً عاملاً ويقف بعضها مراقباً متأمّلاً.

نعرف آثار مصر في مقرّها الطبيعي ولكن كيف ترى هي تبدو في السينما مصغّرة، متحرّكة، ملوّنة، تظلّل رواية فيها الفجيعة والموت ثمّ فيها الحياة المتجدّدة بالحبّ والغيرة والأسى والجناية؟ كل هذا يعرضه سينما «جومون» في هذا الأسبوع بعرض رواية «وخز الضمير».

أمّا الحكم على «حبكة» الرواية وعلى فنّ الممثّلين فخاصّ بالأساتذة النقّاد ومن حقّ الجمهور بوجه عامّ. ولكنّ الرغبة في مشاهدة الآثار البديعة الخالدة فهي حتماً موجودة عند الجميع وبخاصّة لأنّ هذه الآثار تعرض للمرّة الأولى على هذه الصورة في التمثيل السينمي الحديث العهد في مصر.

* * *

يقوم الآن طلبة الجامعة المصرية بمشروعين اثنين في وقت واحد: مشروع الغرش[٧] ومشروع رابطة الطلبة الشرقيين. أمّا المشروع الثاني فحسبي أن أقول في تحبيذه إنّه كان يجب أن يفكّر فيه قبل اليوم فعلى القائمين به أن ينشطوا في العمل للاستعاضة عمّا مضى من الوقت في الإهمال، على شريطة أن يحذفوا من برنامجهم الموضوعات الدينية والسياسية وأن يقتصر نشاطهم على الموضوعات الثقافية والأدبية والرياضية والعلمية وما شاكل.

وأمّا مشروع الغرش فمشروع فذّ في بابه قد يكون كثير الفوائد لو شاء الطلبة أن يعنوا به في همّة الشبّاب وأريحيّته وذكائه. وبالنشاط لمثل هذه الأعمال إنّما يقوم الشبّان ببعض واجباتهم الوطنية.

ولقد قيل من قبيل المجاملة إنّ لا شكر على واجب، مع أنّ الذي يقوم بالواجب نادر، فهو أحقّ الناس بالشكر. بيد أنّي أتمنّى أن تكون الشبيبة المصرية أعزّ نفساً من أن ترضى بالشكر والثناء. أريد أن لا يرضى الشبّان المصريون إلّا بهذه الكلمة الصارمة: «إنّكم لم تفعلوا بعد شيئاً إلى اليوم، ومنكم ينتظر الشيء الكثير! فاشتغلوا وأرونا أشياء مما تستطيعون أن تفعلوا!».

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٧٤، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) David Lloyd George, Earl of Dwyfor (١٨٦٣ - ١٩٤٥)، سياسي بريطاني من الحزب الليبرالي، كان بصفته وزير التجارة (١٩٠٥ - ١٩٠٨)، والمالية (١٩٠٨ - ١٩١٥)، والحرب (١٩١٥ - ١٩١٦)، ثمّ رئيس الوزراء (١٩١٦ - ١٩٢٢)، الشخصية الأكثر أهمّية في السياسة البريطانية منذ النصر الانتخابي الذي حقّقه الليبراليون عام ١٩٠٦ وحتى انهيار ائتلاف الحرب عام ١٩٢٢ . لعب دوراً حاسماً في مفاوضات الصلح في فرساي عام ١٩١٩ . أخذ نفوذه السياسي يضمحلّ ابتداءً من ١٩٢٩ عقب سلسلة من الهزائم الانتخابية التي مُني بها الليبراليون.

(٢) Erich Ludendorff (١٨٦٥ - ١٩٣٧)، جنرال ألماني، أخضع جميع النشاطات السياسية لمقتضيات أول حرب شاملة ووجد ابتداءً من ١٩١٦ بسبب سلطته وشعبيته الفرصة المواتية لوضع المجتمع والاقتصاد والسياسة بحزم في خدمة سلام أساسه النصر. سارع إلى تقديم استقالته عقب اندحار عسكري ثمّ دعا نهاية أيلول/سبتمبر عام ١٩١٨ إلى إعلان وقف فوري لإطلاق النار فأُحيل إلى التقاعد بعد شهر بناءً على طلب مستشار ألمانيا. أخذ نفوذه يتضاءل اعتباراً من ١٩١٩، وبدأ يعمل ضمن الأجنحة القومية المتطرّفة في اليمين الألماني مشاركاً في الانقلاب الذي قام به هتلر عام ١٩٢٣ . نشر ذكرياته عن الحرب وبعض الكتابات في النظرية العسكرية من بينها كتابه المذكور في النصّ الذي صدر في ميونخ عام ١٩٣١ بعنوان *Weltkrieg droht auf deutschem Boden* وظهرت في العام نفسه ترجمته إلى الفرنسية في باريس تحت عنوان *1932 la guerre*.

(٣) Stylo تعبير فرنسي لنوع من أقلام الحبر، غير أنّ المقصود هنا هو stylo à bille أي القلم الجافّ.

(٤) عصام الدين ناصف (١٨٩٩ - ١٩٦٩)، أديب وصحافي مصري من أسرة ذات تاريخ وطني عريق لعب العديد من أفرادها أدواراً هامّة في الحركة الوطنية والثقافية في مصر. كان في عمر مبكّر يتعاطف مع الحزب الوطني ثمّ شارك في ثورة ١٩١٩ التي قادها حزب الوفد. غادر مصر إبّان العنفوان الوطني الذي أعقب الثورة إلى ألمانيا لدراسة الاقتصاد الزراعي حيث تأثّر بالاتجاهات الاشتراكية والماركسية. وتعود شهرته لحدّ كبير إلى شجاعته وجرأته في طرح آرائه في زمن كان فيه ذلك ظاهرة نادرة في مصر، فعلاوة على معاداته الجهيرة للاستعمار، انتقد بحدّة أنانية ملّاك الأراضي الإقطاعيين والآثار المدمّرة للاحتكارات الأجنبية والفقر المدقع للعمّال والفلّاحين والطبيعة الاستبعادية لنظام التعليم الذي كان حكراً على أبناء الأثرياء. أدّت نشاطاته إلى صدامات متواصلة مع السلطات الحكومية حيث أُعتقل وقُدّم للمحاكمة عدّة مرّات. ومن المناسبات التي حظيت باهتمام واسع القضية المذكورة في النصّ عندما قُدِّم المؤلّف للمحاكمة بسبب آراء ضمّنها كتابه «التجديد الاجتماعي: أبحاث في شؤون العمّال والفلّاحين»، وكانت هذه المحاكمة في حقيقتها تستهدف منع ناصف من تأسيس حزب اشتراكي في مصر.

(٥) محمّد علي عَلُّوبة باشا (١٨٧٥ - ١٩٥٦)، حقوقي وسياسي مصري، كان من أعضاء لجنة الحزب الوطني الإدارية ثمّ من أعضاء الوفد المصري عام ١٩١٨ وشارك في تأسيس حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٤ . تولّى وزارة الأوقاف عام ١٩٢٥ والمعارف عام ١٩٢٦، وأُنتخب نقيباً للمحامين قبل تعيينه عام ١٩٣٩ وزير دولة للشؤون البرلمانية. شغل فيما بعد مناصب مختلفة في السلك السياسي.

(٦) Honoré de Balzac (١٧٩٩ - ١٨٥٤)، قصصي فرنسي من التيّار الواقعي. أهمّ أعماله مجموعة *Comédie humaine* (الكوميديا البشرية) (١٨٢٩ - ١٨٥٤) المتضمّنة أكثر من ٩٠ رواية، وصف فيها أفراداً من جميع الأوساط الاجتماعية في فرنسا ما بعد النابليونية من خلال تحليل دقيق للشخصية وتصوير بارع للبيئة.

(٧) كان مشروع القرش الذي قام به طلبة الجامعة المصرية في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٣١، يهدف إلى تحقيق استقلال مصر الاقتصادي، وعن طريق التبرّع الفردي بقرش واحد تمّ جمع مبالغ لإنشاء عدد من المصانع. وبفضل المساندة الكبرى التي لقيها المشروع أمكن بناء أول مصنع لإنتاج الطرابيش في العباسية بالقاهرة، وقد بدأ عمله في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٣٣ . كان معظم أصحاب المشروع، وفي طليعتهم أحمد حسين، أحد طلّاب كلّية الحقوق، من مؤسّسي جمعية «مصر الفتاة» السياسية عام ١٩٣٣ .

أربعون يوماً

بعد وفاة إديسُن

أربعون يوماً انقضت على الليلة التي أطفأت فيها أمريكا الأنوار حداداً على ذلك الذي جعل العالم مشعشعاً بالأنوار(١). وقد أكثرت صحافة العالم الكلام في هذه الأسابيع الخمسة عن إديسن وشخصيته الباذخة وعن الغرامة العظيمة التي أدّاها إلى الحضارة العامّة والتطوّر العلمي والتاريخي والصناعي، في اختراعاته المائة والألف وفي أبحاثه وتجاربه ومحاولاته الفطنة في تلمّس جوانب الإخضاع من قوى الطبيعة للسيطرة عليها وتذليلها وجعلها نافعة في خدمة النوع الإنساني.

المغزى الأعظم في تلك الحياة المشبعة خيراً وأريحية وجلالاً – ذلك المغزى أراه في أهمّية الاستعداد الشخصي والموهبة الطبيعية وفي مقدرة أديسن على إنماء موهبته وصقل استعداده في حالة الفقر المدقع والحاجة القصوى إلى المال والتعليم والتربية والمساعدة على مختلف أنواعها.

إنّ أعظم عالم ومخترع عرفه العالم ولد فقيراً في بيئة هي أبعد البيئات عن إدراك معنى موهبة المخترع، وزاول أحقر الحرف التي يزاولها غلمان الشوارع المتشرّدون، بعيداً عن عائلته، بعيداً عن العطف والعناية، في وسط تثور فيه غالباً الغرائز غير الطيّبة، بعيداً عن أوساط النور والتثقيف والتشجيع يشتغل يومه وبعض ليله ليفوز بدريهمات قلائل يبتاع بها طعامه.

كل هذا يجعل المرء يبتسم حيال بعض أنواع المباهاة بالأصل والنسب، والمفاخرة بالثروة والوجاهة. ويبتسم أيضاً أحياناً لمرأى الألقاب العلمية والشهادات المدرسية التي يرى فيها بعضهم كل المؤهّلات وكل الكفايات.

أمّا هذا السحّار الذي جابهت فيه الطبيعة أعصى منازليها وأحذقهم فلا يستند إلى شهادة ولا إلى لقب. كل اسمه إديسن: إديسن لا غير. وهذا الذي تباهي أعظم

الجامعات بأنّه كان من حاملي ألقابها الفخرية وبأنّها أغدقت عليه الميداليات والشهادات ورسائل الشكر والإعجاب - هذا الرجل لم يتخرّج إلّا في مدرسة الشارع والفقر والعمل والكدّ والاجتهاد. أستاذ إديسن الأعظم هو إديسن بعينه.

إنّ حياة إديسن الملأى بالعجائب العلمية والمثل العليا المتحقّقة على أبدع وجه، لا تملك ما هو أبدع من هذا المغزى وأنفع وأفعل.

وبين الأحاديث العديدة عن شخصيته وحياته وأعماله وآثاره حديث كنّا نودّ أن لا يكون، حديث يكشف عن جانب مؤلم في حياته ويظهر ناحية من تلك المشاكل التي لا تخلو منها أحوال إنسان. إلا أنّ الإنسان العادي يفاخر أحياناً بتلك المشاكل إذ يتبسّط في شرحها ليؤوّلها في مصلحته وينيلها من المعاني ما يجعل لشخصيته أهمّية خاصّة، في حين من هو في مكانة إديسن يسكت على تلك المشاكل كائناً ما كان الأذى الحسّي والأدبي الذي يؤدّي إليه سكوته.

والحديث الذي أعني يتناول وصيته والتنازع الناشب بين ورثته على صحّة تلك الوصية وعدم صحّتها. فإذا أثار هذا الموضوع - موضوع المال - مشكلاً بعد وفاته فممّا لا ريب فيه أنّه كان واسطة للخصومات والمشاكسات والمنافسات في حياته.

إنّ محيط العظيم لا يفكّر غالباً إلّا في استغلال تلك العظمة التي أوصلته بها الأقدار. يستغلّها لمصلحة هي في كثير من الأحوال ذليلة كئيبة ينكرها الشهير في وجع واستياء، مع أنّ طالب الاستغلال يزعمها نفس مصلحة ضحيته. أسماء كثيرة تتوارد في ذهني عندما أرى حديثاً في الصحف عن وراثة إديسن، وفي طليعة أصحاب هاتيك الأسماء بتهوفن الموسيقي البلجيكي(٢) الذي سمّم إخوته حياته بمتاجرتهم باسمه وبعبقريته، وليوباردي(٣) الذي يوقفنا ذكر والدته حيال أحجيّة تلك الطائفة من الأمّهات المؤذيات وراء مظاهر الإخلاص والصلاح، ونابوليون الذي أظهر مؤرّخوه ما كان لأهله ومحسوبيهم، فضلاً عن زوجتيه وذويهما، من العوامل المقلقة المفطرة في حياته.

بيد أنّ نوعاً آخر من الألم العميق العنيف - وهو أوفر نبلاً من تلك الآلام السخيفة - لا يستطيع أن يعرفه الجمهور وقلّ أن أفلح في وصفه المؤرّخون مع أنّه

عنصر متنوّع مقيم في نفس العظيم. هذا العنصر في نفس إديسن حاول تلمّسه الكاتب الإيطالي الشهير جيوفاني بابيني في كتابه «جوج» الذي ظهر قبل وفاة المخترع العظيم بشهور. وقد سبق أن ذكرت هذا الكتاب منذ أسابيع عندما نقلت عنه زيارة «جوج» لغاندي في «الأهرام»(٤) فألخّص اليوم عنه زيارة أخرى لإديسن. وأكرّر هنا أنّ المتكلّم في الكتاب ليس بابيني نفسه، بل هو بطل الكتاب ومدوّنه «جوج»، وأنّ هذه الزيارات وهمية حاول فيها «جوج» إلقاء النور على جوانب مجهولة أو مبتدعة في الأشخاص والأحوال:

زيارة إلى إديسن

نيو جرزي، ٢٣ يونيه

«ذهبت إلى «منلو بارك»(٥) لأقضي بعض الوقت في محادثة إديسن الشيخ. وكان أحد سكرتيريه قد أعلمني بالتلفون أنّه لا يتفرّغ لي أكثر من عشر دقائق.

«ويخيَّل إليّ أنّ منظري منذ اللحظة الأولى راق للمخترع الجليل، لأنّه، من غير ما تمهيد، أسرّ إليّ بما لم أكن أنتظره، وقد كنت أنبذه ككلام لا يصدّق لو أنّ غير إديسن ألقى به إليّ.

«قال - يبدو لي أن لا إلمام لك بهذه الموضوعات. ولكن اِعلمْ أنّي اخترعت عدداً من هذه الألاعيب ذات القاعدة الكهربائية التي يسمّيها الناس - أولئك الأطفال على الدوام - «اختراعات عظيمة». لست خجلاً بهذه الاختراعات إذ لا بدّ من قتل الوقت بعمل ما وإنفاق حيوية الدماغ الذي إن لم يستعمل أفضى بصاحبه إلى الملل. ومن الناحية الأخرى لتلك الألاعيب بعض الفائدة في الأعمال السفلى من الحياة المشتركة، أي الحياة المادّية اليومية. ولكنّك تدرك أنّ تسجيل الأنغام على إطار وتفخيم الأصوات، وإنالة المصابيح الكهربائية أو الراديو صيغة أتمّ - كل هذا لا يكفل بتحسين الحياة الإنسانية أو إنماء الشعور بالسعادة، أو الاقتراب من أسرار الكون. ها أناذا الآن وقد صرت شيخاً، أدرك أنّي أنفقت عمري في أمور ليست بذات بال. وما هو وجه الأهمّية يا تُرى في كون النور أوفر سطوعاً عندما يرقص الناس أو يتغازلون، أو أن يصغوا عندما يحلو لهم، إلى آخر أنشودة شائعة في برودواي، أو آخر خطاب يذيعه

أحد مرشّحي الحزب الجمهوري؟ إنّ كل ذلك لا يبدّل من ضعفنا الأساسي ولا يعدّل من الأحكام التي نخضع لها منذ الأزل.

«عندما أرى حماسة معاصريَّ لسرعة الأجهزة الميكانيكية لا أتمالك نفسي من الضحك. كيف لا والطيّارات التي تجتاز ثلاثمائة كيلومتر في الساعة ليست سوى زحف السلحفاة إذا ما قوبلت بالنور الذي يطوي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة.

«كنت أعتقد في غفلة حداثتي أنّ كل الحضارة تتلخّص في المكينات. وقد ابتكرت فعلاً بعض المكينات الناجحة ومع ذلك ما زلنا حيث كنّا. أكثر من نصف قرن انقضى في المقارنة والإحصاء والسهر والبحث والعناء في التجريب لمحاولة عرض بعض الترّهات ذات الجلبة الصاخبة وذات الفائدة في سوق التجارة. أفلا ترى الناس بعد هذا مفعمين حلماً وتفاؤلاً؟

«ليتني اخترعت على الأقلّ الجهازين اللذين يحرّران من الوجعين الأكبرين! إنّ استشهاد النوع الإنساني مزدوج: فالعناء الأعظم للرجال هو عناء التفكير. وأمّا المرأة فأعظم تعذيب تخشاه هو تعذيب الولادة. ولكنّنا لم نخترع إلى اليوم – وقد لا نخترع أصلاً – آلة التفكير وآلة الولادة. لقد أوجدنا أجهزة للحساب والإحصاء، وموتورات للخدمة والسرعة، ولكن ما أبعدنا عن الغاية المنشودة إذ هاتيك الآلات تفرض دائماً معونة الإنسان. كان ريموندو لولو[٦] ولايبنتز[٧] قد تخيّلا إيجاد أدوات حقيقية للتفكير، إلّا أنّ أحداً لم يظفر بابتكارها واصطناعها. أمّا خلق الكائنات الحيّة فنحن منها عند التمثال الميكانيكي الذي أخرجه مايلتزل[٨]، وإنْ نحن أضفنا إليه شيئاً من التحسين. فصناعة خلق الكائنات الحيّة إذن ما فتئت مدرجة في الأقماط.

«لقد تفكّه أحد الكتّاب الفرنسيس المتقهقرين – فيليه دي ليل آدم[٩] – بأن روى في أحد كتبه أنّي أنا نفخت نسمة الحياة في امرأة صناعية لها من تمام الهيكل واكتمال الصورة ما يوهم بأنّها شأنها شأن غيرها من النساء. غير أنّ شيئاً من هذا لم يحصل. وما ذياك الفرنسي إلّا الرجل المتملّق أو هو الساحر المخاتل.

«فخليق بنا، ريثما نهتدي إلى صنع الأدوات التي تحلّ محلّ التفكير والولادة - أن نشهر إفلاس العلم الميكانيكي والإلكتريكي. ولا يجوز لهذا العلم أن يتغنّى بالنجاح إلّا بعد تحرير الرجل من عذاب التفكير والمرأة من عبء الأمومة. ولكنّ ذلك اليوم ما زال بعيداً، ولست أغذّي الرجاء بمجيئه. إنّي طويت الثمانين منذ عهد قريب وفي تلافيف دماغي لا يجري الدم حرّاً غنيّاً شأنه في الزمن السابق. وأمّا ما فعلته فشيء زهيد: لقد وهبت أزراراً من العظم لمن كان في حاجة إلى دولارات من الذهب. فأنت ترى الآن أمامك رجلاً ميكانيكياً عجوزاً يعترف بأنّ أوهامه قد ذوت إنْ لم يقل إنّه شاعر بالاندحار. إيّاك أن تنبئ أحداً بأنّ إديسن أعلن لك إفلاس العلم. إنّ الجهلاء في حاجة إلى الوهم، والعمّال في حاجة إلى العمل، ورجال الصناعة في حاجة إلى الربح. ومن واجبنا أن نحافظ قدر المستطاع على الأوهام المجدية.

«وهنا نظر إديسن الساذج الكئيب إلى ساعته فأشار إليّ إشارة فخمة بأنّ الوقت المحدّد لي قد تمّ». اهـ

هذه الناحية من إديسن التي أراد «جوج» أن يصفها في مزيج من الحزن والتهكّم قد تكون أعمق وأصدق من كل ما يستطيع أن يتخيّله كاتب. إنّها هي المستودع الزاخر الذي يستمدّ منه العالم كل يأسه وكل أمله، ولن يتوصّل أحد إلى الوقوف عند عتبته. إنّها حظيرة السرّ الذي حمله «سحّار منلو بارك» معه إلى القبر، وهناك سيبقى دفيناً.

وقد مات حزناً على إديسن اثنان من أصدقائه. فنحن الذين ننحني اليوم إجلالاً لذكراه، نغبطه على الفوز بمثل هذين الصديقين ونضعهما في إكرامنا على مقربة منه. إذ لا بدّ لمن هو على مثل هذا الوفاء لإديسن أن يكون مثيل إديسن وخدينه.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٨١، ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) بخصوص Thomas Alva Edison (١٨٤٧ - ١٩٣١)، مخترع المصباح الكهربائي، انظر أيضاً مقال ميّ زيادة «بمناسبة الاحتفاء بالعيد الخمسيني للمصباح الكهربائي: نشيد إلى توماس ألفا إديسن»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٢٠، ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٥]، في هذه المجموعة.

(٢) لم يكن لودفيغ فان بيتهوفن (Ludwig van Beethoven) بلجيكياً كما ورد في النصّ، بل هو من كبار الموسيقيين الألمان.

(٣) Giacomo Leopardi (١٧٩٨ - ١٨٣٧)، شاعر إيطالي، يُعدّ أعظم شعراء إيطاليا بعد (بترارك) (Petrarca). يتميّز شعره، رغم غلبة القالب الكلاسيكي عليه، بالوجدانية الرومنطيقية المنطوية على مزاج تشاؤمي وحسّ بالكآبة.

(٤) راجع مقال ميّ زيادة «خواطر متناثرة»، الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٣٣، ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣١، ص ١ و٢ [٨٣]، في هذه المجموعة.

(٥) كان إديسن قد أنشأ مختبراً له في Menlo Park في ولاية New Jersey الأمريكية.

(٦) Raimundus Lullus (حوالي ١٢٣٥ - ١٣١٥)، رجل دين، شاعر وفيلسوف من كاتالونيا في أسبانيا، اخترع أجهزة آلية على أساس نظرية القياس المنطقي الأرسطوطاليسية، والتي أعتبرت أول خطوة نحو تطوير «الآلات المنطقية».

(٧) Gottfried Wilhelm Leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦)، فيلسوف وعالم ألماني موسوعي، من بين الأعمال التي توصّل إليها تطويره نوع من المنطق الشكلي القائم على الاستدلال مقلّداً في ذلك ريمونديس لولس (Raimundus Lullus) وجوردانو برونو (Giordano Bruno) وديكارت (Descartes)، ممّا مهّد لمبادئ المنطق الرياضي المعروف حالياً، إضافة إلى نظام الأرقام الثنائية ذي الأهمّية في التقنيات الكومبيوترية الحديثة.

(٨) Johann Nepomuk Mälzel (١٧٧٢ - ١٨٣٨)، مهندس وصانع آلات ألماني، عُرف باختراعه السمّاعة التي كان يستعملها بيتهوفن، والمسرع أو المترونوم، وشطرنجاً آلياً الغريمُ فيه دمية تمثّل رجلاً تركياً خلّده الكاتب الأمريكي إدغار ألن بو (Edgar Allan Poe) في قصّته *Maelzel's Chess Player* (١٨٣٦).

(٩) Philippe Auguste Villiers de l'Isle-Adam (١٨٣٨ - ١٨٨٩)، شاعر فرنسي، كتب إلى جانب مجموعة قصائد ومسرحيات قصصاً خيالية من بينها الرواية المستقبلية المشار إليها في النصّ *L'Eve future* (حواء المستقبل) التي صدرت عام ١٨٨٦ .

أهمّ آراء جوستاف لوبون الاجتماعية

«روح الجماعات»

جوستاف لوبون، العلامة الفرنسي المتوفّى في الأسبوع الفارط، شهد اتجاه التاريخ الاجتماعي في أهمّ حقباته الممتدّة من أواسط القرن الماضي إلى هذا العام الواحد والثلاثين من القرن العشرين[١].

وهو إنْ لم يزاول مهنة الطبّ إلّا قليلاً فإنّ جميع أبحاثه في علم أصل الشعوب وفي الأثريات وفي العلوم الصحّية والفزيولوجية والاجتماعية ترتكز على أسس العلوم الطبيّة الوضعية؛ وكان يبحثها كمفكّر ومحلّل وناقد في ضوء الاستقراء العلمي وعلى هدي الإخلاص لعلمه واختباره واستنتاجه.

وفي رأي الكثيرين أنّ أهمّ ما تفرّد به الدكتور لوبون في حدود دراسته الخاصّة هو نفسية الجماعات من شتّى نواحيها. ولم تقتصر هذه الدراسة على مؤلّفه «روح الجماعات» بل كان يتناول الكلام في هذا الموضوع خلال مؤلّفاته الأخرى.

معلوم أنّه في أقلّ من قرن ونصف قرن شبّت ثورتان صريحتان: أولاهما الثورة الفرنسية التي أعلنت سنة ١٧٨٩ «حقوق الإنسان» وكان قوامها عنصر «البورجوازي» أو الطبقة الوسطى إجمالاً الذي هبّ لمقاومة الأرستقراطية أو الأشراف. فكانت ثورة الديمقراطية ولكن قبل أن يستقرّ أمرها انبثقت من النظام الديمقراطي، الذي وطّدته الثورة الفرنسية، النظم الاشتراكية التي مثّلت نفس تلك الثورة مع اختلاف المرتبة الاجتماعية. إذ أنّ الثورة الاشتراكية - التي لم تكن حاسمة كالثورة الفرنسية - تقوم على أيدي العمّال ضدّ الجميع، وبخاصّة ضدّ صاحب رأس المال الذي كان بالأمس من الطبقة الثائرة على الأرستقراطية.

فأصبح من أهمّ مشاغل عصرنا الاهتمام بالدهماء التي لم يكن ليعنى بها أحد في العصور السالفة. الآن نبحث تفكير الجماهير وآلامها ورغباتها وحاجاتها وتعنى

الحكومات بتحقيق مطالبها المعقولة وتحسين حالها ليس فقط بدافع العطف الإنساني بل لمصلحة الأمّة. لأنّ تلك الجماهير، مع تقدّم الآلة وقيام حركة الآلة على اليد العاملة، هي أساس الثروة القومية ولنشاطها أهمّية عظيمة في حركة النشاط العامّ. وكما أنّ خيالات الأدباء وأحلام الشعراء قد سبقت أبحاث العلماء التي تحقّقت اليوم في الاكتشافات والاختراعات فكذلك سبق الكتّاب الروائيون إلى دراسة نفسية الجماعات. وكان إميل زولا(٢) في طليعتهم، وهو الذي امتاز بعطفه على الروح الشعبية وبتدقيق النظر في أغوارها ليصف منها الشهوات والانفعالات والآلام والحاجات. أمّا جوستاف لوبون فدرس مسبّبات تلك الروح الشعبية أو الجماعية ونتائجها دراسة علمية.

* * *

ما هي «الجماعة السيكولوجية»؟

لا يطلق هذا الاسم على أيّ جمع من الناس تلاقى على غير موعد في الشارع أو في فندق أو على ظهر سفينة. إلّا إذا حدث حادث ينذر بشرّ أو يبشّر بخير، فتتآلف تلك العناصر المتغايرة جنساً وخلقاً وعادات وغاية في «وحدة عقلية» موقوتة. وتكون هذه الوحدة ذات صيغة ثابتة دائمة في الجماعات المنظّمة كالجيش والرهبانيات إلخ. وللوحدة العقلية منذ تكوّنها نتيجة لا تتغيّر: فأيّة كانت الخلافات الخلقية والاجتماعية والثقافية والتهذيبية بين الأفراد فإنّ هؤلاء بمجرّد انتظامهم جماعة يخضعون لتأثيرات واحدة، ويستسلمون لمحرّضات واحدة متجرّدين على نوع ما من شخصيتهم الفردية لتكتسحهم شخصية جماعية تسوقهم إلى الشعور والتفكير والعمل على نمط واحد وإنْ كان مغايراً لما قد كان يشعر به ويفكّر فيه ويعمل له كل واحد منهم على حدة.

وأقرب مثال لذلك مجموعة النظّارة في مسرح أو في غيره من الاجتماعات العامّة. أفراد تلك المجموعة موفورو التباين والتغاير فيما بينهم ولكنّهم مع ذلك يخضعون لتأثير واحد فيهتزّون جميعاً متحمّسين، وبأجمعهم يأخذهم الغضب أو هم يتلقّفهم الضحك. وهناك مواقف لا تحتملها الجماعة السيكولوجية فتحتجّ عليها وتنكرها في نفس واحد، رغم كون أفرادها في حياتهم الشخصية الخاصّة قد يأخذون

بما هو أسوأ منها. وروح المرتبة الاجتماعية تتعدّل في الجماعة السيكولوجية: فذياك العظيم تتناوله العدوى العامّة فيصبح وكأنّه نسي ما درج عليه من الأساليب والعادات. وهذا الفلّاح، فتى الأرض والحياة النباتية، إذا ما أجبر على تأدية الخدمة العسكرية وارتدى ثوب الجندي فهو يشعر بأنّ روح الشجاعة الحربية تنمو فيه وتعصف.

فلا ثبات إذن لشخصية على خلق واحد ما دام الفرد وليد المؤثّرات، وتشابه الشخصية في الظاهر إنّما هو ناجم عن تشابه الوسط المؤثّر في الشخصية. والاستعداد الخلقي في كل منّا أكثر مرونة مما نتخيّل عادة والظروف هي التي تطبع الفرد بطابعها وهو لا يدري. فلولا عاصفة الثورة الفرنسية ما كان أولئك القوّاد العظام إلّا رجالاً ثانويين. وكثيرون من الوادعين إبّان النظام الملكي انقلبوا بفعل الثورة من أشدّ الطغاة تطرّفاً وإرهاباً، ثمّ عادوا بعد هدوء العاصفة إلى الخنوع أمام قدرة نابليون فكانوا أذلّاء متملّقين.

أقدر عامل فينا هو العقل الباطن، وقواه الكامنة المجهولة المتغذّية من الوراثة البعيدة والقريبة ومن امتزاج الأنساب ومن طبيعة الأرض والجوّ - تكيّف روح الجنس بأسره وروح الجماعات بالتبع. بيد أنّ الاشتراك في الغرائز السفلى والشهوات غير النبيلة أقدر على التقريب بين الأفراد من غيرها، بمعنى أنّ اللصوص مثلاً يتفاهمون فيما بينهم ويأتمرون ويتفقون على العمل قبل أن يفكّر الحكيم في إلقاء التحيّة على الحكيم. وهذه العَدوى الجماعية في نظر الدكتور لوبون، ضرب من الاستهواء المغناطيسي يسلب الأفراد حرّية التمييز وتصريف الإرادة التي يباهون بها مستقلّين والتي تعمل التربية والثقافة في سبيلها. وإنّما يسيطر الاستهواء السيكولوجي على الجماعة على حساب الذكاء والتبصّر والرشد لأنّ كل حركة غريزية انفعالية بسيطة سهلة في حين كل حركة عقلية وفكرية مركّبة عسيرة. لذلك تكبو الجماعات دون هذه وتستسلم لتلك. وليس للجماعة السيكولوجية من رأي بل عندها تتشعّث الآراء فلا تأخذ إلّا بأسهلها منالاً لتنتقل بسرعة من التخيّل إلى العمل المتهوّر. فيهبط الفرد الراقي فيها، أمّا الخامل والكسول والجبان فيتحرّر فيها من الشعور بعجزه ومن تبعة أعماله فيطلق العنان لغرائز قد كان يحمله الخوف على ازدجارها وقمعها لو هو عمل بمفرده. وقد تنتقل بالجماعة

موجة الانفعال من الإعجاب إلى التحقير ومن الفظاعة إلى الرحمة في أسرع من لمح البصر. كل ذلك من غير ما تبصّر ولا رشد بل جرياً على عادة الطفل والمتوحّش ورجل الفطرة. والجماعة كهؤلاء جميعاً تعبد القوّة فهي أشدّ حبّاً للمتحكّم فيها منها للمحسن إليها، لأنّ الطاغية يسنّ لها طريق العمل ويريحها من مجهود التفكير الذي لا قبل لها به.

هذه اعتبارات عامّة، ولمّا كانت روح الجماعة صورة مصغّرة من روح الأجناس فالجماعة السيكولوجية في باريس غيرها في لندن وبرلين، إذ إلى جانب الخصائص المشتركة العامّة تجد في الجماعة الواحدة الخلق الفرنسي المتقلّب المضطرب، وفي الأخرى المزاج الإنجليزي الوضعي الهادئ، وفي الثالثة يتجلّى ما طبع عليه الخلق الألماني من السير في نظام.

يكفي في نظر الدكتور لوبون أن يجتمع رجال ممتازون بذكائهم ومواهبهم في صعيد واحد عاملين لغاية واحدة كي تنحطّ مقدرتهم متجمّعة إلى دركة سفلى فلا تأتي العشرات منهم من حيث النتاج العقلي والحكم الرشيد ما قد يأتيه الفرد الواحد مستقلّاً. ويضرب المثل على هذا بأنّ الجماعات العلمية المكوّنة في الغالب من خلاصة أهل الرأي والنظر، لم تقدّم في مجموعها وعلى طول تاريخها مثلما قدّم أفراد موهوبون يعمل كل في وحدته ومن تلقاء نفسه. إنّ جهود أربعين رجلاً ممتازاً من رجال الأكادمية الفرنسية لم تفلح في تأليف معجم كمعجم «ليتريه» (Littré)[٣] المعروف. وباستثناء الروايات الهزلية والروايات الشعبية الغنائية، فليس من مؤلّف أدبي عظيم ولا من قصيدة خالدة ولا من لوحة رائعة في عالم الفنّ إلّا واستقلّ في وضعها شخص فرد. والمخترع يستفيد من أعمال سلفائه ومعاصريه ولكنّه يشتغل لمفرده لا بالاشتراك مع جمعيات علمية. وخطّة القتال في معركة عظيمة لا تضعها هيئة أركان الحرب، بل يتفرّد بوضعها رأس مفكّر واحد، وللجنود بعدئذ شرف حفظ النظام والتضحية والمقاتلة بشجاعة لتنفيذ تلك الخطّة وإنجاحها.

* * *

أمّا وهذا رأي الدكتور لوبون في «الجماعة السيكولوجية» فيبدو حكمه على البرلمانات وعلى الأنظمة الديمقراطية منطقياً بالنسبة لنظرياته وإنْ كان جدَّ صارم. الحرّية والمساواة والإخاء، الكلمة الثلاثية التي كانت شعار الثورة الفرنسية هي في نظره أوهام متنافرة فيما بينها إذ أنّ الطبيعة أرستقراطية، ولا بدّ من انتقال القوّة من يد إلى يد ومن حظيرة إلى حظيرة. باسم الإخاء نصب «اليعقوبيون»(٤) الفرنسيون نظاماً للإرهاب فكان من أشنع وأفظع ما يستشهد به التاريخ من المظالم. والحرّية لا تتفق مع المساواة لأنّ الناس - وهم بطبيعتهم مختلفون - إذا أنت أطلقت لهم الحرّية كانوا بنتائج أعمالهم غير متساوين. وتلخّص عمل المساواة في غلّ مواهب الموهوب إذ أنت تسوّيه بالغبيّ وكنت لاجمه عن سبق الخامل والكسول. فما نسمّيه حرّية هو الظلم بعينه، ولو تمّت المساواة لكان فيها قتل لكل ما يباهي به النوع الإنساني من الإبداع والتفوّق وكان فيها أنفذ دعاية للغباوة والخمول والقعود عن العمل وانحطاط النوع بالتبع.

أمّا البرلمانات فيكاد يعلن يأسه منها لولا أنّها في نظره «غول مزدوج». أي أنّها هي تكافح نفسها بنفسها إذ تتلاطم فيها المصالح والأحزاب والأنانيات في صراع مستديم. وفي انشغال تلك الجماعات البرلمانية بالخصومات ربح للأمّة على قوله لأنّ أولئك الشارعين ذوي المنطق الواهن «أضيق وقتاً لحسن الحظّ من أن يتفرّغوا لسنّ الأنظمة الرديئة».

أمّا الاشتراكية عنده فذات وجهين اثنين متباينين يمثّلان النزعات المتناقضة عند الجنس اللاتيني والجنس الأنجلوسكسوني. ومعلوم أنّ إعجابه بالعنصر الأنجلوسكسوني عظيم. فالعمّال الإنجليز والأمريكان يكتفون بأن يتساوى الأفراد عند الانطلاق لشوط واحد دون أن يكون لفرد ميزة على آخر. ويتركون السبق لأبرع راكض متفوّق فيعترفون له بالنجاح ويكبرون شخصيته إذ الحياة عندهم ضرب من حفلات السباق، بمعنى أنّ الامتيازات العائلية وشرف النسب وضخامة الثروة والجاه والوجاهة يجب أن لا يحسب لها حساب مقابل ما يجني الفرد بكدّه وباستغلال ممكناته في أعمال مفيدة لنفسه وللمجموع. فهذه مباراة صريحة جميلة والفوز فيها للأصلح في حين الاشتراكية الفرنسية تريد أن تلجم الجميع كيلا يسبق أحد. فكأنها «تشجّع الفرس الخامل المقرقم

ضدّ جياد الخيل، إذ تربط النابغ إلى جانب الغبيّ دوابٌ قرناء تجرّ مركبة الاشتراكية تحت سوط الموظّفين وتهب هذه الدابّة وتلك قسمة متساوية من العلف الديمقراطي».

رأيه كئيب في جميع هذه الأنظمة كما يبدو للقارئ، وليس ليتكل على التعليم الإجباري وتربية الجماهير لإصلاح الحال، بل يرى نظام التربية في بلاده بدلاً من أن يسلّح الفرد للعمل المستقلّ وإرهاف القوّة الشخصية والاتّكال على النفس فهو لا يقوم إلّا بإعداد مأمورين وموظّفين أو عصاة متمرّدين لا يصلحون للعمل والسلوك الحسن. ونشر التعليم بين أبناء الشعب يروّج تلك الأوهام لأنّ الشعب لا يقرأ الموضوعات العسيرة ليبحثها ويمحّصها ويستخرج منها ما ينفعه وينفع قومه إنّما يأخذ منها بكل ما يملق شهواته وكسله وميله إلى الراحة أو التهوّر على غير بصيرة.

* * *

استنتاجات الدكتور لوبون شديدة القسوة كما هو واضح. ولكنّ شعوب اليوم عنيفة الحيوية فهي تحتمل هذه القسوة العلمية بشجاعة وتستفيد منها بذكاء، وتعلم أنّ تشاؤم الدكتور لوبون ليس نهائياً ما دام هو نفسه يعترف للأفراد بالمواهب. فباستغلال الشيء الصالح كبيراً كان أم صغيراً عند كل فرد نكون عاملين على تحسين حال الجماعات. ولمّا كانت سيكولوجية الجماعة ناجمة عن مستودعات الوراثة القريبة والبعيدة فبالعمل الطيّب المجدي في هذه الأجيال والأجيال التالية نهيّئ كمّية غير قليلة من الوراثة الطيّبة. وما دام هو نفسه يعترف بأنّ مقدرة الجماعة السيكولوجية للخير توازي مقدرتها للشرّ وأنّ هناك جماعات كريمة شهمة كما أنّ هناك جماعات جانية أثيمة وأنّ الجماعة كما قد تحوّل الذكيّ غبيّاً والمستقيم منافقاً فقد تخرج كذلك من الجبان شجاعاً ومن الأناني شخصاً مفادياً مقداماً - قلت ما دام أنّ رأيه يتّكئ على هذا الازدواج فكمّية الرجاء فيه توازي كمّية اليأس، والرجاء حياة وللحياة الغلبة دائماً.

وعلى كل فإنّ بحثه هذا رحيب مشوّق. وكما أنّ التاريخ الحديث ما زال في مطلع اتجاهه الجديد فكذلك موضوع «روح الجماعات» لم يكتب منه إلّا الفصل الأول، واسم جوستاف لوبون يتألّق عنواناً لهذا الفصل بحروف من نور.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٩٩، ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣١، ص ١ .

(١) Gustave Le Bon (١٨٤١ - ١٩٣١)، طبيب وعالم اجتماعي فرنسي، يعدّ منشئ علم نفس الجماهير نتيجة لكتابه *Psychologie des foules* الصادر في باريس عام ١٨٩٥، إضافة إلى نشره أعمالاً عن نفسية الشعوب.

(٢) Emile Zola (١٨٤٠ - ١٩٠٢)، أديب فرنسي، من أبرز ممثّلي الاتجاه الطبيعي في الآداب الفرنسية. نصب نفسه محامياً عن الضابط اليهودي الذي أُدين ظلماً أثناء فضيحة درايفوس (Dreyfus) من خلال خطابه المفتوح الشهير إلى رئيس الجمهورية بعنوان «إنّي أتّهم» (J'accuse) عام ١٨٩٨، الأمر الذي حتّم مغادرته فرنسا مؤقّتاً إلى المنفى في إنجلترا. احتلّ التساؤل عن دور الوراثة والمحيط الاجتماعي في حياة الإنسان مركز الصدارة في أهمّ أعماله، وهو مجموعة روايات من عشرين جزءًا. ركّزت مؤلّفاته الأخيرة بوجه خاصّ على قضايا الإصلاح الاجتماعي.

(٣) Maximilien Paul Emile Littré (١٨٠١ - ١٨٨١)، فيلسوف وعالم لغوي فرنسي، وضع المعجم الهامّ *Dictionnaire de langue française* من أربع مجلّدات ١٨٦٣ - ١٨٧٢، إضافة إلى مجلّد تكميلي ١٨٧٨ . كان عضواً في الأكادمية الفرنسية منذ عام ١٨٧١ .

(٤) كانوا «اليعقوبيون» أعضاء المنتدى السياسي الأكثر تشدّداً الذي أوجدته الثورة الفرنسية منذ عام ١٧٩١ . وترجع تسميتهم إلى المكان الذي شهد تجمّعهم، وهو دير القدّيس يعقوب بباريس. انتهى حكمهم الدكتاتوري القائم على الإرهاب بإطاحة روبسبيار (Robespierre) عام ١٧٩٤ .

خواطر متناثرة

* عام جديد و «نتيجة» جديدة
* فنّ الاقتصاد يذيعه فنّ الموسيقى
* غاندي الشيخ يتكلّم على ما عهدنا

أيّ شيء يثبت أنّ العام القديم قد انقضى وأنّ عاماً جديداً أخذ ينثر أياماً جديدة؟

«النتيجة» السنوية هي أول إثبات ولو لم يكن لدينا «نتيجة» تعرّف الأيام والشهور وتعيّن الفصول والأعياد لكانت هذه المعاني مبهمة ولما كانت مستقرّة في إدراكنا كما هي اليوم بفضل النتائج، ولغلب أن تكون الأعياد والمواسم شعوراً داخلياً فينا خصوصاً. وقديماً قال بَسْكال الفرنسي الذي كان ذا حياة نفسية عميقة، وقوله وصف لشعور الكثيرين: «إنّ لنفسي مواسم وأعياداً على غير ما يفهم الناس من هذا التعبير. فلقد أحسّ الربيع يزدهر فيّ ويشدو بينما الثلوج تغمر الأرض، كما قد ينوح الخريف بين جوانحي في حين يبعث الصيف إلى جميع الموجودات لفحة القيظ والنشوة».

والواقع أنّه لا بدّ من تربية تلك الحياة الداخلية فينا على أن لا تكون عرضة للتأثيرات الخارجية. ولمّا كانت قيمة الفرد تتجسّم في ذلك الشعور النفسي (والحياة الاجتماعية كما هي اليوم من ألدّ أعداء ذلك الشعور وأعظم مشوّه لصفائه ومنقص من كماله) - وكانت قيمة المجموع الأدبية تتكوّن من كمّية هذا الشعور النفسي عند الأفراد فأتمنّى للجميع مزيداً من هذا الشعور المستقلّ عن الحوادث الخارجية، إذ أنّ فيه أصدق معنى من الاستقلال الفردي. أتمنّى هذا للجميع في مطلع العام وفي كل يوم من أيام العام. ولو نما فينا ذلك النوع من الشعور المستقلّ لتمكّنا من مقاومة جميع التأثيرات المضنية واستطعنا ملاقاة الصعاب بقوّة وحزم. حتى... الأزمة المالية الاقتصادية التي

تنذر بالويلات؛ أجل لو نحن كنّا على حياة نفسية حرّة، حتى الأزمة ذاتها قد تنقلب في نظرنا وسيلة نفيسة للتهذيب الشخصي والنضج النفسي والقدرة الفردية، وما كنّا نكون «صدى» لكل «صوت» يقبل من الخارج مرسلاً إلينا نوع التأثير الذي يريد.

* * *

وقد ذكر البارحة مراسل «الأهرام» الإسكندري في وصف حفلات رأس السنة بالثغر أنّ أحد أساتذة كلّية سان مارك نظم أغنية فرنسية صادقة التعبير عن الحالة ضمنها انتقاد للجمهور الذي يشكو الضائقة وهو مع ذلك يتمادى في الإنفاق على الملاهي والأزياء وما إليها، وأنّ تلك الأغنية أنشدت في عدّة حفلات خلال الأسبوع المنصرم. وعلّق المراسل على ذلك بهذه الجملة المحكمة: «إنّه كان يجدر بموسيقيّي الأغاني الوطنية أن يضعوا أغنية عربية من هذا الطراز تمثّل الحالة من وجوهها الاجتماعية في البلد وتحثّ الأهالي على الاعتصام بالمبادئ الأدبية التي تؤثّر فيها الأزمة العامّة تأثيراً سيّئاً».

أجل لكان الأمر كذلك لو كانت الموسيقى هنا تماشي حاجة الجماعة ملخّصة شعورها، مشيرة إلى ما يجب الأخذ به - بطريقتها المطربة. والموسيقى في جميع البلدان تسبق الأمّة إلى مطالبها ليس القومية والاجتماعية فقط بل العقلية والفنّية والروحية أيضاً.

أمّا هنا فما زلنا نتلكّأ في موسيقى وجدانية متقهقرة كلها آهات وشكوى ونواح ومناداة لليل وللعين كأنّ الليل والعين هما صفوة أهل الأريحية!

لست أعني أنّ الموسيقى يجب أن تتجرّد من العنصر الوجداني، فالعنصر الوجداني أصل وبخاصّة في الموسيقى الشرقية؛ كما هو أصل في حياة الإنسان. ولكن مع استثناء الشيء القليل جدّاً الذي يعدّ صالحاً في موسيقانا اليوم، فكيف تحتمل هذه المعمعة من العتاب والشكوى والأنين والزفير والشهيق والدموع التي تنقلب بحراً عرمرماً والجوى الذي - وا لوعة قلباه! - يكوي القلب بنار الشوق أو الشوق الذي يكوي الجوى بنار القلب! لا فرق بين هذا وذاك! إنّ البلاد تجتاحها المحن التي تعصف بالعالم، فأين صدى هذه المحن في الأنشاد، وأين ذياك الجدّ الفنّي الموسيقي الذي يعرف

أن ينفعل في انتظام، ويندفع في تحفّظ، ويعالج أكثر الموضوعات مادّية وأرضية في أسلوب موسيقي كمالي شجيّ!

أطالب مع مراسل الأهرام بأغنية اقتصادية على أن يكون واضعها شاعراً فنّاناً يجرّد معانيها من وطأتها المالية ليحوّلها إلى نشيد مجنّح يفعل فعله في النفوس وهو يحلّق فوقها، شاعراً يهتدي إلى القرار الصميم من الحاجة العامّة ليخرجها في نفحة رحبة من الحماسة الجامحة - ذلك النوع العالي جدًّا من الحماسة التي لا تنبثق إلّا من أعماق التشاؤم واليأس فما يتناولها الفنّ إلّا وهي رجاء وأنس وتأثير صالح. أين الشاعر الذي ينظم هذه الأغنية؟ وأين المنشد الذي يحسن إنشادها ليتعلّم الجمهور عن طريق اللحن والطرب ما لا يستطيع أن يتعلّمه بواسطة الإرشاد والتعليم؟

* * *

أخبار الهند مروّعة. وغاندي وسط تلك الزعازع هو غاندي الذي عهدنا. لا يفتأ يرسل كلمات الصلاح والعطف في أحرج المواقف وما زالت بياناته الوطنية مليئة بالرحمة والرفق وهو لا ينفكّ عن الإلحاح في الدعوة إلى عدم استعمال الشدّة والعنف وإلى احترام حياة الأشخاص والحرص على سلامتهم.

وبعض ما ورد في تلغرافات «الأهرام» بالأمس يستوقفنا طويلاً حيث يقول: «وناشد غاندي مواطنيه أن يتعدوا كل الابتعاد عن أعمال العنف سواءً بالفكر أو بالقول أو بالعمل، وأعرب عن رجائه أن يوفي كل هندي بالعهد الذي قطعه غاندي على نفسه للمستر مكدونلد حول المائدة المستديرة(١)، وهو أن يكون كفاحهم خالياً من الروح الخبيثة وأن لا يفعل الهنود شيئاً غير جدير بهم».

أن يكون الكفاح خالياً من الروح الخبيثة... وأن يتعدوا عن العنف ليس بالقول وبالفعل بل و«بالفكر» أيضاً...

هو غاندي وحده الذي يستطيع أن يهتدي إلى هذه الكلمات المفعمة حبًّا حتى في عاصفة الجهاد الوطني. هي تلك الروح الصافية النبيلة التي تعرف أن تبعث بمعاني النبل والصفاء في دعاية المقاطعة والاستياء وهو صاحب هذا الخلق العالي وحده الذي

يملك أن يلقي بهذه الأمثولة الأخلاقية العالية في عصر لا همّ لأهله إلّا أن يصلوا إلى هدفهم وأن «يبلغوا» غايتهم ولو من أبعد السبل عن كل مبدأ خلقي. لأنّ الشائع أنّ السياسة لا عاطفة لها ولا أخلاق قويمة فكان يجب أن يجيء غاندي ويتكلّم ليثبت عكس ذلك.

هذا أول صوت من نوعه يشهره نضال سياسي في العالم، ومن أجل ذلك، من أجل ذلك فقط، ترى ذلك الشيخ العاجز المجرّد حتى من الثياب - تراه وقد فتح في التاريخ فتحاً جديداً.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩١٠، ٤ كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) كان James Ramsey MacDonald (١٨٦٦ - ١٩٣٧) رئيساً لوزراء بريطانيا ١٩٢٩ - ١٩٣٥ . أمّا مؤتمرات المائدة المستديرة حول استقلال الهند فانعقدت في لندن في الفترة بين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ لكنّها انتهت دون نتائج تُذكر.

إسكندر المكدوني مشيّد الإسكندرية

يتحدّث إلى أعضاء مؤتمر الصحافة اللاتينية

عند نزولهم اليوم إلى الثغر[1]

يصافحكم اليوم عندما ترسو الباخرة نفر من رجالات مصر مؤدّين إليكم تحيّة تنبئكم بأنّ أجمل التحيّات تحيّة مصرية. أشهد بذلك أنا، إسكندر المكدوني، الذي استقبلته مصر كصديق منذ ثلاثين وثلاثمائة وألفي سنة أو تزيد. ثم تطوفون في هذه المدينة عروس البحر الأبيض، فتعجبون بكل ما فيها وتذكرونني إذ تجوزون أحد شوارعها المعروف باسمي، وترون في متحفها تمثالي وبعض آثاري، وتسمعون من علمائها أنّ البحث عن ضريحي متواصل تحت الأنقاض وفي ظلّ الصروح. بيد أنّ هذا لا يكفيني. وأشعر بشوق غير مألوف للنهوض والتجوال وإرسال الصوت على الطريقة البشرية لألقي إليكم بكلمات بشرية.

يا أعضاء مؤتمر الصحافة اللاتينية الوافدين إلى مصر، يا أبناء البلاد التي أدّت غرامة عظيمة إلى الثقافة والحضارة، يا ربيبي الحرّية في ظلّ النظام وممارسي الحقّ في حدود الواجب - إنّ طيف المكدوني يطرح عنه الأكفان ليرحّب بكم في مدينته، محيّياً في أشخاصكم شعوبكم بأسرها!

وليس في احتفائي بكم من بدعة، لأنّكم تعلمون أنّ ولع الإسكندر بذوي المواهب العقلية والبيانية لم يكن دون ولعه بالفتوحات الحربية والمجد العسكري وتعلمون أنّ معسكره - تلك العاصمة المتجوّلة في إمبراطوريته المترامية الأطراف - حيث كانت تسنّ القوانين وتنظّم الشؤون وتدار مصالح الدول وتعدّ ذخيرة الجيش ومؤونته، كان كذلك يحوي رجال الصناعة والتجارة ورجال العلم والأدب والقلم. وبينما الجيوش تنتقل في سيرها من انتصار إلى انتصار كان رجال الصناعة والتجارة ناشطين لتحسين الصناعة ونشر التجارة. وكان المؤرّخون يدوّنون الوقائع والعلماء يدرسون طبيعة الأرض

والنبات والحيوان والإنسان، والفلاسفة والمفكّرون يبحثون مختلف الثقافات ليهتدوا إلى وجه الاتصال بين الواحدة منها والأخرى. فأنا أنا الذي بأعمالي أيّدت تعاليم أستاذي أرسطو في تحرير العلم التطبيقي من ربقة الفلسفة النظرية، وأنتم تعلمون إلى أيّ مدى ذهبت حضاراتكم الحديثة في هذا السبيل. وأنا الذي زوّجت كبار قوّادي وأعواني من أميرات البلاد التي فتحتها ومن حسانها فجعلت التفاهم والتعاطف بين الأجناس والشعوب ميسوراً، وهو الأمر الذي تسعى إليه اليوم الحكومات والأمم وأفذاذ الأفراد. وأنا الذي مهّدت السبيل لتمازج الثقافات الغربية والشرقية لتتكوّن من بقايا الحضارات السالفة التي كانت على وشك الزوال حضارة جديدة وثقافة طريفة كانت حاضرتهما قروناً غير منسيّة، إسكندريتي هذه التي سيطرت على الفكر العالمي في جلال وألمعية. وكثيراً ما استفادت حضاراتكم الجديدة من آثاري تلك التي لا أذكرها اليوم إلّا لأثبت حقّي في الاحتفاء بكم. ولو وجدت في أيامي طائفة الصحافيين الألبّاء لكنت فتحت لها صدر المجلس وأجزلت لها العطاء واستعنت بها على المزيد فيما أتيت من توسيع الآفاق أمام الشعوب، وردّ حدود الممكنات إلى ما وراء مدى لم تكن من قبل لتدرك.

* * *

أجل، لقد تغلغلت جحافلي في قلب بلدان لم تتلمّس أثرها من بعدي جيوش غربية، وعرفت نشوة الظفر، ولذاذة الفتك بالأعداء مع تدمير كل بلد عنيد، والإيقاع بكل جاحد وكنود، ولكن لم أحبب بلداً كما أحببت مصر التي سرعان ما أدركت أهمّيتها في كونها نقطة الاتصال بين القارّات الثلاث والسيطرة على طريق المشرقين، مصر ذات الثروة الموفورة، المفاخرة بحضارتها العريقة أقدم حضارة دوّنها التاريخ.

لم ترمني مصر بجرح ولا أنا سفكت في مصر دماً. مصر استقبلتني بالترحاب لا استسلاماً للفاتح الغاصب، بل لأنّ الفرس من قبل كانوا قد جاروا عليها وتمادوا في الإساءة إليها، وكنت أنا قاهر الفرس فأرادتني لها حليفاً على التخلّص من شرّهم. وكان قد ثبت في ذاكرتي - أنا تلميذ أرسطو - مبدأ القول بوحدة الألوهية التي كانت العقائد المصرية أقرب ما تكون إلى الاعتراف بها. فمضيت إلى العاصمة

منفيس(٢) وقدّمت الهدايا والقرابين إلى الآلهة وإلى العجل آبيس(٣) وأعربت عن احترامي للفلاسفة والكهّان، واختليت بالعرّاف المصري في معبد «آمون - رع» فما خرجت من تلك الخلوة السحرية إلّا وقد أحاطت بي تلك الهالة المنسوجة من روعة وجلال ورواء، التي ما فتئت محيطة باسمي في سجلّات تواريخكم وفي غلواءات أساطيركم. لقد كان الفراعنة من قبل يدعون باسم «أبناء آمون» فسمّاني عرّاف مصر «ابن الإله»، ومنذ ذلك الحين أصبحت إنساناً فوق سائر الناس. وهكذا رفعتني مصر لأنّ مصر تكافئ خلّانها وأحبابها.

* * *

من شواطئ إيونيا إلى جرود طوران، إلى بلاد فارس، إلى مفاوز الهند، إلى دجلة والفرات، إلى مياه صور وصيدا وما وراءهما، إلى كل أرض حللت بها - شِدْتُ ما لا يقلّ عن سبعين مدينة في الغرب وفي الشرق نثرتها كالأزهار على طريق مجدي. وأعزّ إسكندرياتي جميعاً إسكندريتي المصرية التي تزورونها اليوم.

هذه أعزّ إسكندرياتي جميعاً إليّ، وآثرهنّ لديّ. أوَتذكر تواريخكم كيف خططت بيدي تصميم هذه المدينة التي أحببتها كثيراً قبل أن تشاد، وأحببتها منذ أن شِيدَتْ حبَّ الدهر الذي لا ينقضي؟ لقد جعلت التصميم على شكل ردائي المكدوني ولمّا لم يكن لديّ ما أشير به إلى حدود المدينة وتقسيمها إلى شوارع وميادين استعملت لذلك الغرض دقيق الطحين، فجاء ذلك فألاً جميلاً ورمزاً للثروة والرخاء والهناء التي لبثت مدينتي ترفل فيها على تتابع الأزمان.

هذه هي المدينة التي لم يكن حتى أصبحت عاصمة الشرق والغرب، وقلب العالم الخافق، وفكره المبدع، ويده المدرّة ومحراب علمه وفنّه. هنا صهرت جميع الحضارات المتناثرة لتتعاون على تكوين حضارة طريفة. هنا تجمّعت جميع الثقافات المتنافرة لتعمل على إيجاد ثقافة غير موجودة. هنا تجدّد شباب التاريخ. هنا وضعت دعائم كل اتجاه ظهر في تالي العصور.

وأين هو ملكي الفيّاح الآن وقبل الآن؟ كان ولدي الوحيد إسكندر وادعاً بين ضلوع زوجتي الحسناء روكسانا الفارسية، عندما قضيت في ميعة الصبا فتقاسم قوّادي

ملكي من بعدي. وبَطْلَيْموس ابن لاجُوس، أحد كبار قوّادي استأثر بالمملكة المصرية وأسّس في الإسكندرية عرش البطالمة وسائر الملوك ذوي الدم الإغريقي، ومنهم الفتّانة كليوبترا التي ذهبت بلبّ زميلي سيّد روما وجعلته أسير نظراتها وابتساماتها. ورحل الرومان بعد الإغريق، وتتالت بعدهم مواكب الفاتحين مجيئاً وذهاباً والإسكندرية ما زالت الإسكندرية ومصر ما فتئت مصرية. لأنّ السيّد العتيّ الذي يشرب ماء النيل يصبح أسير سحر النيل، وتربة مصر لا تصطبغ بصبغة غريبة بل تحوّل كل غريب عنها إلى جزء منها.

* * *

تفدون من دياركم حاملين رسالة الثقافة والسلام، لتكونوا عندما تغادرون مصر حاملين رسالتها إلى هاتيك الديار.

من ضفاف البحر، إلى سهول إيزيس، إلى معقل الأهرام ومربض أبي الهول، إلى مدارج الصعيد، إلى أعالي طِيْبة وجبال النوبة على شطّي النيل المقدّس سترون فصولاً متعدّدة من تاريخ هذه البلاد. ولئن كان الماضي حيّاً في الهياكل والآثار فإنّ الحاضر يحيا في الأفراد بصيغة النزعات والمطالب والجهود والآمال ومصر اليوم تحاول التشبّث بالصالح من قديمها كما تحاول الاستفادة من الصالح في جديدكم لتبعث تاريخها للمرّة الثالثة فتيّاً.

طيف الإسكندر يحيّيكم، يا رسل الثقافة اللاتينية والإغريقية، ويؤيّد رغبتكم في أن تكونوا رسل السلام والوئام. وقد تذهلكم كلمات السلام والوئام من قاهر البلاد ومذلّ العباد.

ولكنّ المكدوني قد «تطوّر» كما تقولون بلغة هذا العصر. وما كان يعدّ في الزمن الغابر بطولة ومجداً انقلب اليوم في نظره تعسّفاً وظلماً. ولو أنا عشت في هذا العصر لطمعت في الصداقة ونبذت هوس السيادة. لأنّي أدركت أنّ الشعب ككل فرد يجب أن يكون سيّد نفسه.

إسكندر المكدوني الذي كان يهبّ على الشعوب ويجتاحها كالعاصفة تعلّم على كرّ العصور أنّ العداء لا يولد إلّا العداء، وأنّ الحبّ وحده يوجد الحبّ، وأن لا

وسيلة للحياة إلّا بالتفاهم والتعاون. إسكندر المكدوني الذي كان يفاخر في حياته السحيقة بأنّه الإله ابن الإله، ما كان ليطمع اليوم إلّا في أن يستحقّ اسم الإنسان، وهو هذا الاسم الذي تعمل لتحقيقه حضاراتكم جميعاً في أتمّ معانيه.

من أجل كل هذا نهض الإسكندر من هجعته ليحادثكم. إنّ الأرواح تعيش بعيدة عن الأرض، عاكفة على أمور غير أرضية. ولكنّ أطياف الشخصيات البشرية قد تعنى بعد مماتها بما كان في حياتها شغلها الشاغل، وما أكثر ما نتعلّمه من الدروس إبّان غفلة الدهر الوسنان.

وها هو ذا طيف الإسكندر يتهادى ليضمحلّ، وصوته يتضاءل ليصمت، بينما أنتم تصافحون الأيدي الممتدّة إليكم وتبادلونها التحيّة فتعلمون - كما علمت أنا - أنّ أجمل التحيّات تحيّة مصرية.

(صورة طبق الأصل)

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩١٥، ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) انعقد مؤتمر الصحافة اللاتينية في مصر لمدّة أسبوعين برعاية منظّمة الصحافة اللاتينية المؤسّسة عام ١٩٢٣ في ليون (Lyon) في فرنسا. ونستقي ممّا أورده التحرير نهاية النصّ «صورة طبق الأصل» أنّ مقالة ميّ زيادة هذه كانت في الأصل كلمة أو محاضرة، إلا أنّ الصحيفة للأسف لم تورد معلومات أخرى. ويستبعد أنّها من مساهماتها الإذاعية الأولى لأنّنا نتبيّن في رسائلها الموجّهة إلى ابن عمّها فؤاد (سيادة المطران إغناطيوس زيادة) أنّ الكاتبة وحتى تمّوز/يوليو ١٩٣٤ امتنعت عن الاستجابة لدعوات الإذاعة للتعاون بسبب التزاماتها العديدة في مجالات أخرى.

(٢) المقصود مَنف أو ممفيس.

(٣) كان آبيس على هيئة ثور يرمز لإله الخصب عند الفراعنة المصريين، وكان معبوداً في منف.

خواطر متناثرة

* الكتاب الذي طلبته زوجة غاندي
* ... إبلاء القضاء والقدر في الجيزة
* فكاهات مسابقة الجمال
* رحلت ستّ أمّ خليل

أفادت تلغرافات «الأهرام» الخصوصية خلال هذا الأسبوع أنّ زوجة غاندي طلبت كتاب «البهجاوات جيتا» لتقرأه في سجنها.

وهذا الكتاب يحوي قصيدة رمزية من أنفس وأجمل قصائد «المَهاباراتا» السنسكريتية. ومعلوم أنّ «المهاباراتا» مجموعة علواءات، أو قصائد حماسية، تحوي أكثر من مائتي ألف بيت في وصف الحروب القديمة، ويقدّرون أنّها وُضِعت في القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح، فأصبحت وكأنّها دائرة معارف لعلوم الحكمة البرهمانية وتعاليمها ومنبع آداب وجمال لا ينضب. والمجموعة الشعرية الأُخرى التي تضارعها شهرة وأهمّية هي «الرامايانا». فهذان الكتابان في الهند بمثابة «الإلياذة» و«الأوذيسا» في بلاد اليونان. ولئن نسب كتابا الإغريق إلى شاعر فرد هو هوميرس (رغم قول القائلين اليوم بأنّ هذا الشاعر لم يوجد أصلاً[1]) فإنّ شاعر «الرامايانا» يدعى فَلْميكي. أمّا علواءات «المهاباراتا» فتُعرف باسم فِياسا، جامعها فقط.

ويدين أهل الأدب بتلخيص «البهجاوات جيتا» في اللغة الإنجليزية إلى السيّدة آني بيزانت التي نقلت شيئاً غير قليل من آداب الهند إلى لغتها القومية فيسّرت الاطّلاع على هذه الآداب الزاخرة للغربيين ولغيرهم من الملمّين باللغة الإنجليزية.

وتصف مسز بيزانت هذه القصيدة في مقدّمة وجيزة خلاصتها في ما يلي: «بين التعاليم الثمينة المودعة في (المهاباراتا)، الكتاب الهندي العظيم، ليس من تعليم أندر وأثمن من «البهجاوات جيتا»، ومعناه «نشيد السيّد». فمنذ أن أرسلت هذا النشيد الفخم شفتا (كريشنا) الإلهيتان في ميدان الوغى ليهدّئ انفعالات تلميذه وصديقه

(أَزْجونا)، كم من قلب هو طمأن وشدّد، وكم من روح معذّبة قد اقتاد إليه! إنّما الغرض منه رفع طالب الرفعة من أدنى دركات التضحية السطحية إلى أعلى المراتب حيث تتضاءل الرغبات وحيث يمكث الحكيم الصميم في تأمّل هادئ، بينما جسده وعقله يقومان في نشاط بالواجبات المنوطة به في الحياة. فالحكمة الحكيمة حقّاً لا تعني انعزال الجانب الروحي من الإنسان بل توجب تحقيق اختباراته في الأعمال الزمنية اليومية كائنة حقارتها ما كانت، على أن يفكّر المرء في رقيّه الخلقي والروحي وعلى أن يعلم أنّ الحواجز القائمة دون ذلك الرقيّ ليست متأتّية من الخارج بل هي منبثقة من داخل النفس. ولبلوغ الرفعة الروحية لا بدّ من الحصول على كمّية خاصّة من التوازن والانسجام النفسي بحيث يصبح المرء غير متأثّر بالمسرّات والآلام، بالشوق والنفور وغيره من الانفعالات المتناقضة المتعاقبة. فليتعلّم القارئ إذن فنّ ترويض نفسه على أن لا تجذبه الجواذب ولا تزجره الزواجر، بل يستخلص من هذه وتلك دروساً تقوده وتهديه إلى أعلى المبادئ في وسط المحن والغموم. فيقوم بواجبه كله على أتمّ وجه ممكن، لا لأنّه ينتظر نتائج عمله بل لأنّ القيام بالواجب مفروض عليه. يعمل لأنّ في العمل شرفاً وترويضاً وفائدة، يعمل ليعمل، ويزرع البذور دون أن ينتظر لنفسه جني الثمار...».

من هذا التعريف الوجيز البليغ ندرك ما تريده زوجة غاندي من هذا الكتاب. هي في سجنها كما في حرّيتها ترمي إلى الارتفاع الروحي، وترغب في تعلّم الصبر على المكاره لا في سبيل مصلحة مادّية أو اجتماعية، بل تطلّباً لمصلحة روحية قلّ أن أدرك شأنها فرد واحد بين ألف ألف. ترغب في اصطناع حياة السجن للتقدّم الأخلاقي وفي الاستزادة من معاني النبل في العمل الوطني الذي يقوده زوجها في محبّة لبلادها وفي محبّة لمن تكافحه بلادها كذلك، ترغب في نثر البذور التي تؤمن بصلاحها دون أن تتوقّع اجتناء الثمرة واستغلال الحصاد..

كل هذا من الفلسفة الروحية العالية جدّاً التي تتغذّى بها تلك المرأة السجينة، زوجة ذياك السجين. وكم في اسم الكتاب وحده من درس لا للحكماء المتزهّدين فقط بل للعاملين المجاهدين في صميم معركة الحياة. وكم فيه من درس حتى للذين

أصابتهم هذه الأزمة المالية الحاضرة فضعضعت من شؤونهم وأنزلت الارتباك في أحوالهم.

«البهجاوات جيتا»... اسم كتاب طلبته زوجة غاندي لتقرأه في السجن فليت هذا الاسم يلفت المغمومين إلى أنّ من شاء وجد نوعاً خاصّاً من الفرج في داخل نفسه، وأنّه لو ذاق حلاوة ذياك الإحساس العميق لتضاءلت في نظره اعتبارات خارجية كثيرة ولتبدّل معنى الخسارة والربح في تقديره.

* * *

بناءان عظيمان يظهر الخلل بهما في أقلّ من عام واحد. فلا ينكشف ذلك الخلل إلّا وقد ذهبت في سبيله أعمار بشرية.

ولو كان أصحاب البناء من أبناء آدم (حاف) لهان الأمر على خطورته ولتلمّسنا للمسؤولين عنه بعض العذر. أمّا والحادث المروّع قد وقع في بناء المحكمة المختلطة الجديدة قبل شهور ثم تكرّر بالأمس بشكل أفظع في بناء وزارة الزراعة الجديد بالجيزة - أي في بنائين رسميين تابعين لهيئتين رسميتين تتوفّر لكل منهما وسائل الرقابة والتدقيق من جميع النواحي - أمّا والواقع هو هذا فمن ذا الذي يستطيع أن يأتينا ببيان يقنع ويرضي؟

ربّما كان ألبق بيان هو القائل بأنّ الحادث كان قضاءً وقدراً؟.. وعلام لا يكون كذلك؟ إنّ صدر القضاء والقدر لواسع شامل، وعنقه قويّ يحمل جميع الأوزار، وهو بعدُ سَكوت لا يتكلّم ولا يحتجّ عندما تُلقى التبعات عليه...

قلبي يحدّثني بأنّ القضاء والقدر قرأ «البهجاوات جيتا» واستفاد منه بمقدار لا قبل لنا به، نحن أبناء البشر المتمرّدين!

* * *

مشكلة أخرى تفاجئ هيئة تنظيم المسابقة للجمال العالمي في هذا العام!

فإنّ والد الفتاة التي وقع عليها الاختيار لتكون «مس فرنسا» نشر في جميع الصحف (أو على الأقلّ في جميع الصحف التي أرادت أن تنشر) خطاباً طنّاناً احتجّ فيه على ابنته

لأنّـها رشّحت نفسها بين المتباريات مستبيحة استغلال اسمه (وهو محام معروف في جماعته) في عمل يراه دون مقامه ودون كرامة اسمه ودون ما كان يطمح إليه.

ويقول إنّه نشّأ ابنته وعلّمها وأنفق لذلك من المال والعناء ما أنفق لتكون فتاة مهذّبة مثقّفة، وامرأة عاقلة، وأمّاً صالحة وسيّدة بيت كريمة. ولكنّه لا يريد أن تقذف بنفسها في هذه الوهدة الحقيرة لتثير حول اسمها هذا النوع من الشهرة الممقوتة فتستهدف لما تستهدف له عادة «ملكات» الجمال.

وقبل هذا الاحتجاج المرنان أثارت هذه المسابقة خصومات ومشاكل عدّة منها أنّ «الملكات» السابقات ينتقدن جمال «الملكات» اللاحقات ولا يرينهنّ حريّات بالجلوس على عروشهنّ... الاسمية. وتفعل «الملكات» اللاحقات مثل ذلك باللاتي سبقنهنّ، مفاخرات بأنّهنّ هنّ رفعن من شأن التاج والصولجان «الموقوتين» وأنّ اللائي سيخلفنهنّ في المستقبل لا بدّ أن يكنّ على جمال يوازي جمالهنّ... هنّ «ملكات» الحاضر.

وفي العام الماضي اشتبكت في إسبانيا «الملكتان» المحلّيتان فكان سلاح كل منهما عند زميلتها «الشوشة» بكل بساطة. وانبرت بعدئذ إيطاليا تنكر هذا النوع من المسابقة وترى فيها جناية على الخلق العامّ وإفساداً للمنخوبات وللمرشّحات جميعاً. ولا مجال لذكر عديد الخصومات التي تقوم كل عام بين القارّتين الأوربية والأمريكية كلما انتخبت «ملكة الجمال العالمي» من إحدى هاتين فتتّهم كل منهما الأخرى بالتحيّز لبناتها وغمط حقوق الأخريات.

هذا ونحن ما زلنا في السنوات الأولى لهذا النظام الجديد. ولا يعلم إلّا اللّه ماذا يدّخر المستقبل في هذا الباب. وعلى ذلك يجوز تهنئة البلاد التي لم تصل بها... حضارتها إلى خوض هذا الميدان حيث تنشب المعارك بين «الملكات»، وتكون النتيجة ضحكاً في ضحك.

* * *

رحلت ستّ أمّ خليل في قافلة الذين لا يعودون. ولئن اشترك الجميع في حزن خليل مطران(٢) على والدته فلسنا نعلم ماهية هذا الحزن وكمّيته في قلب الشاعر الغنيّ بالطرب والشجن. إنّ الأمّ واحدة وهي تمضي من هذه الحياة مرّة واحدة. وسواء

أمضت في ميعة الشباب أم بعد تكاثف الأعوام فإنّ الحرقة عليها واحدة لا تتغيّر في قلب الابن إذا كان يحبّها، أو بالحريّ إذا هي عرفت بحياتها وبمعاملتها وبسلوكها أن توجد في قلب ولدها عواطف الحبّ والاحترام لها.

وخليل مطران شديد التعلّق بوالدته، على ما نعلم، وكم من إشارة أتتها في حياتها خلّدها هو في قصيدة فريدة كقصيدة «الوردة» التي أظنّها من أجمل قصائده الوجدانية. فهل ينظم اليوم قصيداً جديداً يكون لنا وحياً ومتعة وأمثولة؟

لقد سبق أن أنشد في رثاء عزيز له:

غلبتني صروف دهري على صبر ي وأفنتني نارها في الملاحم
الأمان، الأمان! ألقيت سيفي وطويت اللواء تسليمَ راغم(٣)

وكنت من قبل أستعذب هذين البيتين وأرى فيهما راحة من كل ألم. وما زلت أستعذبهما متذوّقة جمالهما الفنّي، إلّا أنّي الآن أطلب عند خليل استحثاثاً آخر، كثيراً ما أجده في شعره وفي أعماله: الاستحثاث للتغلّب على الأسى، وصيحة البسالة تشبثاً بالبسالة نفسها وطمعاً في نبلها وجمالها، وحفزاً لاستئناف النشاط والجهاد ولو تحتّم على المرء أن يطوي طريقاً رواها بقطرات دمه ونثر فيها قطعاً من قلبه. لقد علّمنا خليل كثيراً وسيستمرّ اليوم وغداً على تعليمنا شرف عدم التسليم، واستبقاء اللواء عالياً حتى بعد الموت!

يا للباقة ستّ أمّ خليل إذ هي تروي الأحاديث متأنّية عند ما يحسن أن يقال، مغضية عمّا يجب أن يهمل! لقد كنت تجد في ملامحها وفي حديثها وفي لباقتها حتى وفي إشارتها أشياء ممّا كنت تظنّ أنّ ولدها العبقري قد تفرّد به.. ولكنّ خليلاً لم يشأ أن «يتفرّد». خليل مزيج مدهش قد يخرج منه عشرة رجال كل منهم متفرّد في بابه لو شاء الرجل الذي يحويهم أن ينصرف لهذه الناحية أو تلك من شخصيته. بيد أنّه لم يشأ أو أنّ الأحوال لم تمكّنه من ذلك وظلّت هذه الشخصية الواسعة الأرجاء الجزيلة المواهب راضية عن الخليط المتزاحم فيها وتركت لكل امرئ أن يجد عندها مطلبه وما يتّفق منها مع نظرته في الحياة وحاجته. ولكنّ خليل مطران الصميم من هو وما هو؟ أيعرف هو نفسه؟ أو يعرفه أحد منّا؟

وداعاً حتى يوم اللقاء، ستّ أمّ خليل، وداعاً وشكراً. أجل، لك كل شكر الشرق لأنّك أنجبت من أنجبت!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٢٤، ١٨ كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) هوميرس وهو وفق المأثورات أقدم شاعر غربي ملحمي ألّف الإلياذة والأوذيسة كان يعدّ لفترة طويلة شخصية مختلقة. واليوم يسود الاعتقاد مجدّداً بوجوده التاريخي الذي يُحَدَّد عادة بالنصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد. وفي الغالب يرى علم اللغة المعاصر بأنّ الملحمتين لم تكونا نتاج كاتب واحد، فقد تبلغ المسافة الزمنية بين كلتيهما جيلاً كاملاً، ولا خلاف الآن أنّ الأوذيسة من إبداع أحد المتأخرين ممن اقتفوا خطى الشاعر الكبير.

(٢) خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩)، شاعر وأديب لبناني نزح إلى مصر عام ١٨٩٢ حيث حقّق شهرة في مجال الصحافة، وقد عمل محرّراً ثمّ رئيساً لتحرير «الأهرام» قبل شروعه عام ١٩٠٠ في إصدار مجلّته نصف الشهرية «المجلّة المصرية» وعام ١٩٠٢ الصحيفة اليومية «الجوائب المصرية». ترجم أعمالاً هامّة عن الأدب الإنجليزي والفرنسي، بينها عدّة مسرحيات لشكسبير. ولكنّ أروع أعماله كانت تلك التي تصبّ في إطار شاعرية جديدة مرهفة متحرّرة من بعض قيود التقليد ومتأثّرة بعض التأثّر بالرومنطيقية الأوربية. لُقب «بشاعر القطرين» أي مصر ولبنان، ونُشر ديوانه الكامل في القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ . كان من أبرز المقرّبين لميّ زيادة ومن المتردّدين على صالونها الأدبي.

(٣) من قصيدة «وفاة عزيزين» المنشورة في الجزء الأول من «ديوان الخليل»، القاهرة: مطبعة المعارف ١٩٠٨ . وقد رثى فيها الشاعر الفقيدين يوسف مطران - نجل المرحوم حبيب باشا مطران - وعروسه كريمة القائد الفرنسي المشهور «كارو». وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأبيات التي تستشهد بها ميّ زيادة في مقالتها تختلف قليلاً عمّا نجده في الديوان:

غلبتني صروف دهري على صبري   وأفنته نارها في الملاحم
الأمان الأمان ألقيت سيفي   وطويت اللواء تسليم راغم

انظر «ديوان الخليل»، ج ١، الطبعة الثانية، القاهرة: مطبعة الهلال ١٩٤٩، ص ٦٦ .

صبغ يصبغ صبغاً فهو صابغ

وهو صبّاغ ومصباغ على وزن مفضال

عاش «مصباغ» مصر وإخوانه الأماجد!

كنت تخيّرت أن أزور مصبغة مصر بحلوان يوم الأحد، أي في اليوم المخصّص للسيّدات دون الرجال لأنّ الصحافيين من الرجال كثيرون - بارك اللّه فيهم. أمّا النساء فقلّ من عني بما يشعر به جمهورهنّ وقلّ من دوّن ملاحظاتهنّ في هذه الظروف وغيرها. فكنت أطمع في استفتاء ولو طائفة منهنّ ليعربن عن رأيهنّ فأنقله للقرّاء الذين لا يعرفون من آراء سبعة ملايين امرأة أو تزيد إلّا ما نقوله نحن القليلات اللائي نرسل صوتنا.

إلّا أنّ الأحوال التي كثيراً ما تتحكّم في الإنسان شاءت أن تحرمني من هذه الزيارة وهذا الاستفتاء فعمدت إلى مجموعة خطب الرجل الذي فاز مع إخوانه بتكوين نواة يكفي في وصفها أنّها شبّت غرسة، ونمت شجرة أخذت تعرش في جميع أنحاء القطر، وامتدّت أغصانها إلى أنحاء أخرى في الشرق والغرب.

أجل، بينما سيّدات مصر يزرن مصبغة مصر بحلوان أزور أنا صفحات مجموعة ستكوّن مع المجموعات الأخرى التي ستليها حتماً أصدق سجلّ لهذه الحركة المالية الصناعية الاقتصادية. وكلمة «حركة» لا تؤدّي هنا المعنى المطلوب لأنّ هذه الحركة كلها أعمال في أعمال وفوائد في فوائد. والقليل الذي يقوله عنها القائمون بأمرها، بلسان طلعت باشا حرب أو بلسان غيره، إنّما هو تقرير جوهري واضح بأسلوب تلغرافي دقيق.

مضيت الهوينا في تقليب هذه الصفحات مقابلة بين بيان وبيان، بين طموح وعمل، بين وعد وتحقيق. وإنّي لناقلة هنا بعض الفقرات التي استوقفتني بوجه خاصّ، ومنها تتّضح للقارئ الفكرة المتسلسلة التي اتّضحت لي فيضيفها إلى الإحساس العامّ

المشترك بين الجميع بهذا العيد الصناعي البهيج. إنّ الذكرى لمن خصائص المواسم والأعياد وأطيب الذكريات ذكرى إيجابية كانت بالأمس خيالاً يرجى، فأصبحت اليوم حقيقة محسوسة موفورة الخيرات.

هذه خطبة ألقاها طلعت حرب في الوليمة التي أقامها اتحاد المزارعين بمصر تكريماً لمسيو سيجفرد[1] وزير التجارة سابقاً في الحكومة الفرنسية وقد ختمها الخطيب بما يلي:

«... وحقّاً ينبغي أن نحبّ مسيو سيجفرد وأن نتّخذه مثلاً يقتدى به فالثروة في اعتباركم واسطة ولا ينبغي أن تكون غاية. وينبغي أن نقدّرها كما تقدّرون. إنّنا نريد أن نتّبع آثاركم وأن نعمل شيئاً من الخير لبلادنا. إنّ مطالبنا متواضعة فنحن نريد فقط أن نتبوّأ مكاناً تحت الشمس وأن نعيش مع الآخرين وكما يعيش الآخرون. نريد أن نكون منتجين وأن نحسن الإنتاج، ونريد أن نورّد ما نتج وأن نحسن التوريد، ونريد أن نستهلك وأن نحسن الاستهلاك. نريد أن نكون عملاء محمودين وأصدقاء محبوبين، ونؤمّل أنّنا باحتذاء مثلكم نستطيع أن نصل إلى هذه الأغراض. ونحن نشكركم على الطريق الذي دللتمونا عليه. ولهذا فإنّني ما استطعت أن أمنع نفسي من الحضور لأقول لكم ما أعتقد».

هذا في ٢٩ مارس ١٩١٣ قبل الحرب بعام واحد.

* * *

فإذا بنا وقد طوينا سبعة أعوام نجدنا في ٧ مايو ١٩٢٠ حيث افتتح بنك مصر ونسمع الخطيب قائلاً: «..إنّ فكرة تأسيس بنك مصري، برؤوس أموال مصرية يعمل لمصلحة مصر قبل كل مصلحة سواها، ليست بالحديثة بل هي فكرة قديمة قد أراد اللّه تحقيقها الآن في أنسب الأوقات وأوفق الظروف». ... «بجانب البنوك الأجنبية أراد المصريون أن يكون لهم بنك يعمل عمل هذه البنوك ويخدم مصر كما يخدم كل منها بلداً آخر. ويضع يده في يد كل ناهض بمصر إلى الأمام وكل مريد الخير لها وفي يد كل بنك في مصر يعمل لمصلحة البلاد وأهلها. وها هو البنك قد وجد والحمد للّه...

لا يضمر عداءً لأحد ولا يريد إلّا أن يعيش كما يعيش غيره، وأن يكون له نصيب من خيرات بلاده. ويجاهد في معترك هذه الحياة لمصلحة مصر وبنيها، غير ناظر إلّا لهذه المصلحة يولّي وجهه شطرها أينما كانت. وهو وإن بدأ صغيراً سيكبر إن شاء اللّه تعالى بإخلاص المخلصين من أبناء مصر الذين سيبوّئونه، كما هو المأمول، المكان اللائق به».
... «لا ننكر أنّ الأمّة طفلة في المشروعات الاقتصادية. ولكن أين الأمّة التي ولدت عالمة مستعدّة بفطرتها لمثل هذه الأعمال؟ وهل الذنب كما قلنا على الأمّة المصرية إذا لم يعلّمها أو يعوّدها أحد؟ سلوا التاريخ أيضاً ينبّئكم عمّا قاست كل أمّة في بداية نهضتها.

«نعم، إنّ الأمّة المصرية كغيرها من الأمم التي ألفت نوعاً من طرق استثمار المال يصعب جدّاً تحويلها عمّا ألفت إلى ما لم تألف إلّا بمرور الزمن والصبر والجلد والمثل الحسن. فمتى رأت مثلاً حيّاً صالحاً اتّبعته وسارت عليه ودخل في عاداتها. وأملنا أن يكون بنك مصر هو ذلك المثل الحيّ الذي نقدّمه للبلاد. نعرف جيّداً أنّ هذا البنك محتاج لرأس مال كبير أكثر ممّا يحتاج إليه بنك آخر مثله». ... «نريد أن يفهم الكل أنّ بنك مصر ليس جمعية خيرية، ولا ملجأً للعاطلين، ولكنّه محلّ تجارة يعمل عملاً تجارياً على مبادئ وأصول قويمة لن يحيد عنها». ... «وسيعمل على بثّ روح العمل والتعاون والتضامن والنظام في الشبيبة وإنماء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم، والحثّ على وضع أساس التربية الاقتصادية في البلاد وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابي أساساً في مناهج التعليم. هذا هو برنامج بنك مصر سيعمل على الحقيقة تدريجياً بكل تأنّ ورويّة. فالطفرة محال والتدرّج سنّة طبيعية ليكون لنا وجود اقتصادي إيجابي ولتكون لنا رؤوس أموال مصرية في سوق المال تستعمل في الشؤون العامّة المصرية. ويكون لها وحدها الحقّ في تحديد سعر الفائدة والقطع في البنوك..».

وفي الخطبة التي ألقيت في حفلة التجّار بفندق سميراميس بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٢١ لتكريم الزعيم الخالد سعد زغلول باشا: «...الموجودون هنا، أيّها السادة، تجّار رجال عمل قلّما تغلب عليهم العواطف في أعمالهم وهم لا ينظرون إلى جميع ما يعرض عليهم إلّا من ناحية المصلحة. فهم إذا كانوا يطلبون الاستقلال التامّ فليس ذلك

لزخرف يبتغونه أو لعار يمحونه وإنّما لخير يرجونه. فلئن توقّف رقيّنا الاجتماعي على تحسين أخلاق الأفراد وتوثيق روابط العائلات فذلك لن يكون إلّا بعد أن نأخذ أمرنا بيدنا ومن أجل هذا نطلب الاستقلال. ولئن توقّف رقيّنا الاقتصادي على التربية الزراعية والصناعية والتجارية وإنماء الكفاءات العملية فلن يكون ذلك تماماً إلّا بعد أن نأخذ أمرنا بيدنا، ومن أجل ذلك نطلب الاستقلال». ... «لهذا فكّر بعضنا أثناء جهادكم للقضية العامّة في وضع الحجر الأساسي لاستقلال البلاد الاقتصادي فأسّسوا بنك مصر نواة ذلك الاستقلال وأوّل مدرسة عملية يتأهّل فيها شبابنا الحيّ للدخول في ميدان الحياة العملية التي كان مبعداً عنها.. كما أسّس التجّار الغرفة التجارية لمدينة القاهرة ومثلها لمدينة طنطا وثالثة لمدينة المنصورة. وتأسّست أخيراً النقابة العامّة للدفاع عن مصالح المزارعين. وسيتلو ذلك إن شاء اللّه كثير من المشاريع النافعة للبلاد تبنى على أسس ثابتة...».

مرّت أعوام أخرى فانتقل البنك في ٤ يونيو سنة ١٩٢٧ من داره الصغيرة الأولى إلى عمارته العربية الفخمة في شارع عماد الدين. فقال الخطيب في خطبة الافتتاح: «لقد أقرّوا بالحقيقة وهي حيوية البنك وقطعه مسافات الرقيّ إلى الأمام بخطى لا يعرف لها مثيل في حياة المصارف المالية قاطبة». .. «قلنا إنّ المال قوّة للخير في أيدي الأخيار ولعلّ بنك مصر لم يكتب حتى الآن في عداد الأشرار فهو لم يقف عند حدود الأموال يتاجر بها كما تتاجر المصارف المالية العادية وهو لو وقف عند حدودها لكان عمله خيراً لمجرّد حفظه حقّ امتلاك الأسهم للمصريين، لا تعصّباً منهم ولكن حرصاً على أن يدير المصري دفّة شأن من شؤونه الحيوية بذاته وإثباتاً على اقتداره على هذه الإدارة إنْ هو تولّاها بنفسه في دائرة اختباره. ولكان عمله خيراً لمجرّد اتّخاذ اللغة العربية لأوّل مرّة في الحياة المصرفية لغة البنك الرسمية وكانوا يقولون إنّها لا تنفع لغة للمحاسبة ولا للشركات والمصارف. ولكان عمله خيراً لمجرّد تشجيع موظّفيه المصريين على معالجة المسائل المالية وتدريبهم على أن يكونوا عدّة للبنك وللبلاد في مستقبل الأيام. بل كان يكفيه خيراً فوق هذا وبدون هذا أنّه كوكيل على مال قد أدّى الأمانة حقّها وأدّى أصحاب الأسهم حصّة من أرباحه بدأت بخمسة حتى بلغت ثمانية

ونصفاً في المائة، وأنّه كمصرف مصري قد خطب ودّه الكثير من المصارف المالية الكبرى في الخارج وطلبت ولا تزال تطلب أن تتعامل معه لما ثبت لديها من حسن سير أشغاله والدقّة في ضبط أعماله والحكمة في ربط أنظمته بما يدعو إلى تمام الثقة والطمأنينة في سير دولابه.

«كان يكفي هذا العمل مجهوداً من البنك في سبيل الخير العامّ. لكنّ (بنك مصر) ليس ككل البنوك. هو أوّل بنك قومي في بلاده. وهو بطبيعة مولده ونموّه والثقة فيه مضطرّ أن يشعر بحاجات البلاد الاقتصادية وأن يجتهد في تحديدها تحديداً علمياً وأن يجدّ في المعاونة على تحقيق ما يستطيع تحقيقه من الأعمال اللازمة لتكوين هيكل الاستقلال الاقتصادي في البلاد...».

أقف هنا تاركة لمن يقرأ ويفكّر بحث معنى العمل الذي هو أوسع بكثير من الكلام. فبنك مصر يذكر عند كل مشروع جديد لأنّه مركز تلك المشروعات جميعاً. فهي - وإن كانت مستقلّة - منبثقة منه ومتشعّعة عنه. لأنّه «ليس ككل البنوك». لأنّه نواة السياسة الاقتصادية والصناعية في البلاد. لأنّه عرف أن يستغلّ عاصفة الوطنية لمصلحة الوطنيين. لأنّه لا يكتفي بجمع رأس المال واستثماره بل يدرك جميع الحاجات الصناعية فيلبّيها، ويرى النقص والفراغ فيجعلهما كيلاً طافحاً، ويعلم بكل ما يجب أن يستغلّ من ممكنات البلاد فيستغلّها، ويعلم أنّ القوّة بالتعاون وبتوحيد العمل فيؤلّف هذه الشركات التي نجد آثارها منتشرة في جميع الأنحاء تشغل الماء واليابسة على السواء. وما المصبغة التي شهد الجمهور أدواتها ومكيناتها وحركاتها في هذين اليومين إلّا عملٌ تكميلي حتمته بطبيعة الحال شركة الحلج وشركة الغزل والنسج. وما هذه الشركات وغيرها إلّا حلقات ذهبية من سلسلة أعمال ومنشآت كلّها خير وبركة، وما هذه المؤسّسة الجديدة إلّا تنفيذ لجزء من البرنامج الحافل الذي أعدّته هذه الهيئة البصيرة العليمة الحكيمة المدبّرة الميمونة - هيئة بنك مصر وشركاته. أعدّته وها هي تنفّذه يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام لفائدة المساهمين والعاملين والموظّفين ولخير البلاد جميعاً في الحاضر وفي المستقبل.

يقول القاموس في تعريف كلمة «صَبَغَ» صبغ الثوب: لوّنه وحسّنَ لونه. ومنها «أصْبَغَ» أصبغ عليه النعمة: أسبغها أي أتمّها. وفي هذا التعريف اليوم خير وصف لعمل طلعت باشا حرب الذي جدّد ثوب مصر وقدّمه في أبهى الألوان.

وهو الذي أسبغ على مصر النعمة التي تحتاج إليها. فهو «مصباغ» بلاده في المعنيين الحقيقي والمجازي: فليحي مصباغ مصر! وليحي كل من إخوانه فكل واحد منهم طلعت حرب وكل واحد منهم «مصباغ».

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٣٢، ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) Jules Siegfried (١٨٣٧ - ١٩٢٢)، اقتصادي وسياسي فرنسي. كان عضواً في مجلس النوّاب ١٨٨٥ - ١٨٩٧ ثمّ في مجلس الشيوخ. عُيّن وزيراً للتجارة والصناعة في وزارة ريبو (Ribot) من ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٨٩٢ إلى ١٠ كانون الثاني/يناير ١٨٩٣ فوزيراً للتجارة والصناعة والمستعمرات في وزارة ريبو الثانية من ١١ كانون الثاني/يناير ١٨٩٣ إلى ٣ نيسان/أبريل ١٨٩٣ .

خواطر متناثرة

* «الخطر الأصفر» يتحقّق على وجه آخر
* على ذكر القيصر السابق
* الانقلاب في حياة المرأة الألمانية
* موسوليني ينظر إلى المرأة النحيفة شذراً
* الشبيبة المصرية وقرشها المبارك

«الخطر الأصفر» الذي كان غليوم الثاني منذ ربع قرن ينذر بوقوعه يوماً يتحقّق اليوم ولكن على غير الوجه الذي كانوا يتوجّسون.

فما كانوا يخشونه هو تدفّق الجنس الأصفر على أوربّا بشعوبه المائجة كالنمل وسيوله العارمة كالطوفان، كما سبق له أن فعل يوم طفت عجاجته على بعض تلك الأصقاع فغمرتها وضعضعت من شؤونها وحوّلت تاريخها عن مجراه المترقّب.

ذلك كان الوجه المخوّف من صولة الجنس الأصفر وعديد ناسه. ولكن ها هو الخطر الأصفر يهدّد الآن العالمين القديم والجديد دون أن يهرول إليهما ودون أن يمتشق في وجه أحدهما الحسام. يهدّد باستجرار سائر الشعوب إلى حرب ستكون حتماً إنْ هي وقعت أشدّ هولاً من كل حرب سبقت - بمجرّد وقوع النفور والتقاتل بين شعب منه وآخر، والذي يتحارب في سبيله الصُفْرُ هو نفس الموضوع الذي ما فتئ مثيرًا مشاكل بين البيض: فاليابان التي تسجّل أربعة مواليد جديدة في كل دقيقة - ضاقت أرضها بها. وهي على وفق المنطق الإنساني، تضحّي بالرجال لتفسح الميدان للمقبلين من الأطفال.

ولا ترى أنسب من منشوريا (ومساحتها وحدها توازي مساحة أوربّا كلها، على ما يقولون) مجالاً لمثل ذلك التوسّع. أمّا الصين فمنشوريا داخلة في حوزتها، فكيف تسلّم ببلادها؟

إنّ الخلق العصري لا يبيح للمرء أن يأسف لوقوع شيء هو بمثابة الألعوبة وإن كان اسمه «الحرب». يجب أن يكون المرء متجافياً عن التأثّر، متهانفاً في الأمر الحادّ والتافه ليكون عصرياً كل العصري[1] على ما يظهر... فلنكن إذاً من أبناء العصر! ولكن هل من قلب لا يتأثّر بالجهود التي تبذلها عصبة الأمم التي تضحّي بالكثير من وقتها وبيانها وذكائها ومقدرتها لتلقي السلام بين المتحاربين ولتصون بقية العالم من شبح الحرب المهدّدة؟ أفتذهب جميع تلك الجهود عبثاً يا ترى؟

* * *

وعلى ذكر قيصر ألمانيا السابق تقول التلغرافات في هذا الأسبوع إنّ الهِرْ هوجنبرج[2] أبرق إليه بمناسبة الاحتفاء بعامه الثالث والسبعين يهنّئه باسم «النازيس» أي حزب هتلر وإنّ أحزاباً أخرى وجّهت إليه التهاني بهذه المناسبة.

وفي نفس الوقت تتناقل صحف الغرب خبراً مفاده أنّ في نيّة الإمبراطور أن ينشر قريباً باسم مستعار كتاب مذكّرات يدحض فيه كل فرية رماه بها فون بولوف[3] في الكتاب الذي نشره منذ عهد قريب، ويبطل مزاعمه في الحملات العنيفة التي فاجأه بها.

ويقال إنّ هذا الكتاب الذي يعنى الآن غليوم الثاني بتدوينه سيكشف عن كثير من الأسرار ذات العلاقة بالحوادث السياسية في خلال الثلاثين عاماً الماضية، وإنّ بعض الشخصيات السياسية والعسكرية التي لم تتورّع في اتهام العاهل بعد انهيار عرشه فألقت عليه تبعة كل شقاء عانته الأمّة الألمانية منذ أن ارتقى هو ذلك العرش - يقال إنّ الإمبراطور لن يوفّر تلك الشخصيات في مذكّراته وإنّه سيبدّد الإبهام عن أعمالها فيحدّد مسؤوليتها ويحصي مساوئها وما أتته من الأمور المؤذية خلال تلك الأعوام.

هذا كتاب لن تقرضه الجرذان على رفوف المكاتب! وفي الانتشار الواسع الذي ينتظره دليل على أنّ الأزمة ليست لتتناول كل شيء، وفيه بعض البشرى للناشرين وللمؤلّفين.

* * *

أمّا الانقلاب العظيم الذي طرأ منذ الحرب على حياة المرأة الألمانية فهو يسترعي الانتباه حقّاً ويفهم أنّ الإنسان كثيراً ما يكون متأثّراً، على رغم منه، بالظروف المسيطرة عليه وبالأحوال المحيطة به.

فقد كانت المرأة الألمانية من أكثر نساء أوربا محافظة على التقاليد وعلى الروح العائلية. وكان يؤثر عنها قبل الحرب أنّـها لا يشغلها طول حياتها سوى أربعة شؤون يبدأ اسم كل منها بحرف الكاف (بالألمانية) وهي: القيصر، والأطفال، والمطبخ، والكنيسة Kaiser, Kinder, Küche, Kirche.

والإحصاء يدلّ على أنّ حوادث الطلاق في العام الماضي كادت تبلغ الأربعين ألفاً بألمانيا. وهذا لألمانيا ذات الروح العائلية عدد باهظ. ويظهر أنّ جمعية المهندسات المعماريات الألمانية ستعقد عمّا قريب شبه مؤتمر محلّي تدرس فيه الأعضاء المشاكل التي تعترضهنّ في مهنتهنّ ليحاولن حلّها. وهكذا هناك مهندسات معماريات ولهنّ جمعية تجمع شتيتهنّ، وهنّ تعترضهنّ مشاكل فيرغبن في حلّها. وبعد هذا أفيجرأ الرجال على القول إنّ المرأة لا تحسن معالجة كل ما يعالجون من الأعمال ولو كانت ذات علاقة بالحجر والحديد لا تُنكر؟ وعليّ أن أذكر أنّ من أركان تلك الجمعية سيّدة ذكيّة واسعة الاطّلاع هي في نفس الوقت أمّ ١٨ ولداً؛ وهي تجاهر أنّ هذا العدد الموفور من «أكبادنا تمشي على الأرض» لم يعقها عن إتقان فنّها والقيام بجميع مهامّ مهنتها، بل أنّ إيرادات عملها ساعدتها على المزيد من الاهتمام بشؤون أولادها وعلى تمهيد سبل الحياة أمامهم.

* * *

وبين اللتيّا والتي يفتتح موسوليني المؤتمر الطبّي بروما فيفاجئنا ذلك الرجل العجيب بذكائه وبتنوّع مداركه. يفاجئنا بالكلام عن المرأة في جملة سريعة ذات مغزى كبير.

فالمرأة في هذا العصر تعبد النحافة وتضحّي بصحّتها وبحياتها أحياناً في سبيل النحافة، وهي تريد أن تقنع نفسها والآخرين جميعاً بأنّ النحافة هي المثل الأعلى للهيكل النسائي.

وبجملة واحدة يقضي موسوليني على مزاعم النحافة إذ يعلن أنّها غير جميلة وغير نسوية وأنّها سيّئة العائدة على المرأة نفسها وعلى جمالها وعلى صحّتها وعلى النوع الإنساني بأسره.

وليس هذا الرأي بمدهش من موسوليني إذ يترتّب عليه تحقيق رأي آخر سبق أن جاهر به في العام الماضي حيث قال إنّه لا بدّ من تحسين الجمال الإيطالي أو طراز الجمال الإيطالي، في المرأة والرجل معاً، وإنّ الأجيال الإيطالية التالية يجب أن تكون أتمّ تكويناً وأقوى جسداً وأنضر صحّة وأوفر جمالاً بالتبع من الجيل الحاضر.

كانت نساء فرنسا وغيرها من بلدان أوربا يستعملن اللبن الصناعي في تغذية الأطفال ويرين في الرضاعة عملاً شائناً يحطّ من قدرهنّ ويغضّ من جمالهنّ. فما إن ظهر كتاب «إميل» لجان جاك روسو(٤) الذي استنكر الطريقة التي جرت عليها النساء وأظهر لهنّ محاسن إرضاع الطفل حتّى تهافتن على الأخذ بذلك الرأي ومضت تفاخر كل أمّ بتغذية رضيعها بلبنها رغم أزياء ذلك العصر المرتبكة التي كانت تجعل هذا الأمر عسيراً.

ولا أخال نساء إيطاليا اليوم ونساء غيرها بعدئذ إلّا متسابقات إلى تحقيق رغبة موسوليني والعمل برأيه وقد يتفق أن نغيّر رأينا في النحافة وفي نقيضها بعدئذ.

* * *

هو ذا الأسبوع المبارك، أسبوع القرش للشباب المصري، أسبوع ورقة الورد التي تزيّن كأس الجهود، أسبوع الصفر إلى شمال الأرقام الذي لا يلبث أن يحسب الواحد لأجله ألفاً(٥).

حقّاً، إنّنا كنّا في حاجة إلى مثل هذه الحركة من الناشئة. فهي تثبت أنّ الشباب ليس عهد الغفلة والتمتّع فقط بل عهد الشعور بالمسؤولية والسعي والعمل أيضاً.

اجمعوا قروشكم، يا شبّان مصر ويا شابّاتها! اجمعوها، فهي بمعناها الجميل أعزّ من الملايين وأجمل! وبها ستَنّتم سُنّة لنفوسكم وللآتين بعدكم فالبذرة شيء صغير ضئيل، ولكن ما إن هي أودعت الارض حتّى أخرجت السنبلة المليئة التي لا يطول حتّى تملأ المروج خيراً وجلالاً.

بورك في أيديكم التي تزرع هذه الحبّة الصغيرة، بورك فيها اليوم إذ هي تزرع! وبورك بها غداً يوم تشترك مع غيرها في الحصاد!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٤٠، ٣ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) هكذا في الأصل، والمقصود «ليكون عصرياً كلّ العصرية».

(٢) Alfred Hugenberg (١٨٦٥ - ١٩٥١)، سياسي ألماني من الوطنيين المتشدّدين وشخصية رائدة في المجال الاقتصادي. شغل مع بداية حقبة هتلر منصب وزير الاقتصاد (من ٣٠ كانون الثاني/يناير حتى ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٣٣).

(٣) Bernhard von Bülow (١٨٤٩ - ١٩٢٩)، رجل دولة ألماني، كان في عام ١٨٩٧ وكيلاً لوزارة الخارجية ومن ١٩٠٠ - ١٩٠٩ مستشاراً للرايخ ورئيساً لوزراء بروسيا. لم تساعد سياسته المتأرجحة على عزل ألمانيا في مجال السياسة الدولية وحسب، بل ولم تحقّق في الوقت ذاته النجاح إزاء للهامّ الملحّة في إصلاح النظام المالي والدستوري للرايخ وبروسيا معاً. نفى مسؤوليته عن الإحباطات التي مني بها في مذكّراته المنشورة عقب وفاته (١٩٣٠ - ١٩٣١).

(٤) ظهرت رواية جان جاك روسو *Emile ou De l'éducation* عام ١٧٦٢، والتي عبّر فيها عن نظرية تربوية مخالفة للعقائد المسيحية، ممّا أثار موجة من الاستياء أدّت إلى مصادرة العمل وإحراقه على الملأ وصدور الأمر بالقبض على المؤلّف.

(٥) هكذا في الأصل، ومن الواضح أنّ الكاتبة إنّما قصدت أن تقول «الصفر إلى يمين الأرقام...».

جهود الأمس البعيد

تتلاقى وجهود اليوم

سينعقد بالقاهرة في الأسبوع المقبل مؤتمر محاربة المسكرات. وأقول بلا تردّد إنّ جهود الجماعة الصالحة القائمة بهذا المسعى لم تلق حتى الآن في مصر الاهتمام الذي هي جديرة به. فالإدمان أشنع ضربة تحلّ بالفرد وبالأسرة وبالأمّة لأنّه يفسد الصحّة، ويفسد العقل، ويفسد المال ويفسد الخلق جميعاً.

هل أنت تستطيع أن تثق بسكّير؟ هل تستأنس بأقواله وأفعاله وسلوكه في حضرتك؟ أو تستطيع أن تكفل أقواله وأفعاله وسلوكه في غيبتك؟

لست أدري بماذا يجيب القارئ عن كل من هذه الأسئلة ولكنّي أقدّر أنّ جوابه يرضي الكرامة. وإذا سألني القارئ عن رأيي أجبت أنّي لا أثق بسكّير، ولا أرتاح إلى كلامه، ومرآه يثير فيّ من الكرب والغمّ ما لا تثيره أيّة عاهة جسدية. فقد تستثير العاهة الجسدية العطف والرحمة، وكثيراً ما توقظ الرغبة في المساعدة. وإذا قُرِنَت بالشجاعة الأدبية فهي تنبّه نوعاً خاصّاً من الإعجاب.

أمّا منظر السكّير الذي يظهر ببيان ممقوت الى أيّة دركة من الذلّ والهوان والجبن يستطيع الإنسان أن يهوي باختياره - فهو يحرّك رواسب النفس العنيفة ورواكدها المريرة، ويستفزّ الاشمئزاز والاحتقار، ويوصد منافذ الرحمة والعطف وفيه تتمثّل خلاصة ما في العالم من دمامة وكراهة.

معذرة إلى القرّاء عن هذه الكلمات الجافّة القاسية، ولكنّي لا أشكّ في أنّهم يوافقونني على أنّ من الدمامة الخلقية ما لا يوصف بغير هذه الألفاظ. وإذا وجد بين القرّاء مدمن فليذكر أنّ في كل إنسان من الكرامة ما يحفزه إلى نبذ تلك الدمامة عنه. فالجمال - لا سيّما الجمال الخلقي أو محاولة البحث عنه - هو الحياة الرشيقة الطريفة

الكريمة. وأمّا الدمامة في شكل الإدمان على المسكر دون محاولة التخلّص منه فهي الدمامة الحيّة التي يمقتها كل راء، وهي الفضول الكثيف على بهجة الحياة ومحاسن العمر، وهي التلكّؤ الغبيّ على هامش نشاط العمران وجهود أبناء الجمال والرجاء.

لكل امرأة ولكل فتاة أن تبتعد عن السكّير ولو هو كان أقرب الناس إليها كائنة النتيجة ما كانت. وأيّة كانت النتيجة فهي أقلّ شرّاً من معاملة السكّير وتمهيد السبيل له ليتكلّم عنها بلهجة من يأخذ معها ويعطي ومن له في حياتها صوت يسمع. من ذا الذي لا يستسلم لعملية جراحية شديدة الخطر إذا كانت السبيل الوحيد لسلامته؟ وما أبلغ قول الإمام علي إنّ الحكيم من عرف أن يختار أهون الشرّين!

أمّا إذا كانت المرأة أو الفتاة مقيّدة بالسكّير كأن يكون زوجها، أو يكون السكّير أباها أو أخاها فلا تستغني عن أن يعولها – فتلك المرأة أو الفتاة لهفي عليها!

* * *

اسم الألكحول حديث العهد إلا أنّ الأذى الناجم عنه موجود منذ أن نشأ النوع البشري. لأنّ الشرّ عريق كالخير، أو هو أعرق. غير أنّ للإنسان عقلاً يصطنعه للتمييز وإرادة يستعملها للاختيار والمقاومة، ولولا ذلك ما استحقّ اسم الإنسان.

ويجوز أن نأخذ بطرف من تاريخ المسكر في مصر القديمة ما دام المؤتمر سينعقد في مصر وما دامت لجنته عاقدة النيّة على محاربة المسكر في هذه الديار.

فقد كانت الحانات في الماضي أشبه ما تكون «بباراتنا» اليوم، مع هذا الفارق أنّها بدلاً من أن تقوم في أكبر الأحياء وآنقها على قارعة الطريق، عارضة كل ما لديها من المغريات لجذب الناس في ظلّ القانون المؤاتي – كانت الحانات المصرية تتوارى في الجوانب البعيدة المنزوية كمن يعلم أنّه يأتي شيئاً غير محمود. وقد أفاض المؤرّخون وعلماء الآثار في وصف تلك الحانات وفي شرح الأنظمة التي كانت تسري فيها بحكم العادة.

كان قدماء المصريين يعرفون من المسكرات النبيذ، والجعة، والألكحول المستخرج من عصير العنب وشجر النخيل، ومع هذه صنوف ثانوية أخرى ربّما كانت منذ ذلك العهد السحيق تبذر «بالأنبسانت» «والكِرْش» و «الفيزموت» وأنواع «البِيتِر» العديدة وما إليها[١].

وكان النبيذ بمثابة الخمرة القومية رغم أنّه كان يرد عادة من فينيقيا ومن الجزر الإغريقية مثل كيو(٢) وساموس وقبرص وغيرها. كذلك كانوا يزرعون الكرمة في بلاد مصر السفلى وكان محصول بعض الأراضي ذائع الصيت بجودته.

على أنّ رعايا فرعون كانوا يستطيبون عصير الشعير أو الجعة فكانوا يستهلكون منه كميّة باهظة وكان السيّال الأشقر ينصبّ في الكؤوس مدراراً. ورغم أنّ الحانات العامّة كانت تتوارى عادة في الجوانب المظلمة فقد كان معترفاً بالخمرة بشكل رسمي على نوع ما، بمعنى أنّ الحكومة في وقت من الأوقات اضطرّت إلى تعيين خولي عامّ أعلى لمعامل المسكرات الملكية، أو الفرعونية لا أدري. وكان ذلك الخولي من أكبر موظّفي الدولة وفي مقدّمة المتصدّرين في الحفلات الرسمية. ونحن إذ نقرأ هذا نذكر أنّ الملك فؤاداً كانت خمرته الماء القراح في الولائم التي كانت تقيمها دول أوربّا احتفاءً بقدومه. نذكر هذا فنباركه ونبارك الإسلام، كما نبارك كل دين وكل شريعة عرفت مساوئ الخمر فدعت إلى نبذها.

ولمّا كانت الجعة تستخرج من الشعير ومن نبات الحشائش فهي لم تكن لتختلف عن صنوف الجعة في يومنا. بيد أنّ الشعب في أدنى الطبقات كان يشرب نوعاً من الجعة السوداء يقرب كثيراً من النوع الشائع ببلاد الحبشة في أيامنا هذه.

* * *

أنصفنا التاريخ فكان لزاماً علينا أن ننصف جهود الإنسان، ذاكرين أنّ في مصر القديمة كانت توجد جماعات رسمية وأهلية لمحاربة المسكرات أو محاربة الغلوّ في تعاطيها. وعلى ذلك فالجماعة المجاهدة الآن في هذا السبيل كأنّما هي تمدّ يدها فوق الأجيال والأزمان لمصافحة أخواتها في الماضي السحيق، مثبتة لها أنّ جهود الخير تتجدّد في هذا العصر.

قلت إنّ الغاية من مساعي الجماعات في مصر السحيقة هي محاربة المغالاة في تعاطي المسكر. وأقدّر أنّ هذا هو ما تعمل له جماعة الحاضر. لأنّ الشرّ ليس في الشيء نفسه بل في نوع التصرّف فيه وفي كميّة التعاطي منه. فقليل من الخمر يصلح معدة الإنسان - كما قال بولس الرسول الذي توازن ذكاؤه من ناحيتيه النظرية والعملية.

وقليل من الخمر يجعل اجتماعات الأنس وحفلات الفرح على كثير من الزهو والطرب. قليل من الخمر هو «الكيف» الظريف اللطيف. وشتّان ما بين ذياك «الكيف» وبين السكر والإدمان مع الاستهتار دون ردع النفس عن المسكر بعد الجرعات الأُولى.

قد يقال إنّ الإنسان لا يملك ضبط نفسه دائماً. وهو كذلك. ولكنّ إنسانية الإنسان قائمة في ضبط نفسه عند الضرورة، وهذا سرّ التربية الصالحة كلّها. قد يفشل المرء مرّة ومرّتين ومائة مائة مرّة. غير أنّ النجاح حليفه ولو بقدر ما فيما لو واظب على مكافحة الأمر الغير اللائق.

وعلى كلّ - فإنْ لم يكن من أمل في المدمنين، ففي محاربة المسكرات خير للناشئة التي يجب أن تنتبه لهذا الخطر الذي يهدّدها ويهدّد أمّتها ويهدّد الآمال فيها، لو هي استسلمت لغول الإدمان الشنيع.

الرجاء في الجيل الجديد عظيم فلتتعلّم ناشئتنا أن تقاوم ميولها الشخصية إنْ كانت تلك الميول سيّئة. ولتخرج من هذه الظلمات قويّة منيعة شفّافة متألّقة كشعاع النور![٣]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٤٩، ١٣ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) الأبسانت (Absynth) شراب مسكر يُستخرج من الأفسنتين. والكرش (Kirsch) هو مشروب كحولي من الكرز. أمّا الفرموت (Vermouth) فهو نبيذ أبيض معطّر بنبات الفرموت وغيره من الأعشاب بينما البيتر (Bitter) شراب كحولي معطّر مرّ، والأكثر شيوعاً منه هو النوع الذي يساعد في تهدئة المعدة.

(٢) كذا في الأصل، والمقصود هو جزيرة كيوس.

(٣) ردّاً على مقال ميّ زيادة نشر رئيس جمعية منع المسكرات العامّة أحمد غلوش مقالاً في الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٥٨، ٢٢ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ٣، تحت عنوان «بين الآنسة ميّ وجمعية منع المسكرات العامّة»، حيّا فيه التزام الكاتبة بمواجهة الإدمان على المسكرات ودعاها إلى الانضمام لجمعيته والاشتراك في عملها الإيجابي. على أنّه لم يفته أن يصحّح بعض ما ورد في مقال

ميّ وأوّل ذلك «زعمها أنّ جماعة منع المسكرات تعمل في الحاضر لمحاربة المغالاة في تعاطي المسكر دون محاولة منعه وتحريمه وهذا ليس حال الجماعة بل هي تقصد إلى تقرير المبادئ الإسلامية على حالة الخمر وتطبيق تحريمها على البلاد نزولاً على أحكام هذا الدين الحنيف الذي لا يعرف هوادة ولا ما تسمّيه الآنسة القليل من الخمر أو الكيف الظريف..». وأكّد على أنّ أيّ تعاط للكحوليات يُعدّ آفة بعينها ولا يمكن تبريره حتّى بالمراجع المسيحية التي استشهدت بها الكاتبة في مقالها. نُشر تعقيب ميّ زيادة على أحمد غلوش بعد يومين من ظهور مقالته في الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٦٠، ٢٤ شباط/ فبراير ١٩٣٢، ص ١، تحت عنوان «جمعية منع المسكرات العامّة بالقطر المصري تتكلّم بلسان رئيسها»، وقد طُبع لاحقاً في هذه المجموعة [٩٧].

كارلو دل كروا

عضو مجلس الشيوخ الإيطالي

ورئيس جماعة قدماء المحاربين المشوّهين الإيطالية يمرّ بمصر

لا! ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب!

ليس من يجمع كلمات من هنا، وأفكاراً من هناك، وعواطف من هنالك ليقدّمها في لباقة طاقة ناضرة زاهرة كمن يقذف من بركان نفسه حمماً وأجيجاً.

ليس من يخطّ سطوراً سوداء هي خلاصة الكتب ونتيجة الاختبارات كمن يبسط من صفحة وجدانه قرطاساً وجيعاً يرسل عليه نور عينيه اللتين لا تبصران، وحركات يديه اللتين لا تكتبان، وتفطّر قلبه الحافل بالعزاء، وديجور ليله المليء بالقوّة والمناعة والرجاء.

كارلو دل كروا[1]، الكاتب الذي ليس له من يد تكتب، إذا ما عُدّ اليوم في العالم حملة الأقلام الذين يسنّون لقومهم ولغير قومهم طريق النبل والرفعة فكارلو دل كروا عندي في طليعتهم. وإذا أُحصِيَ أصحاب البصر والبصيرة فذياك الكفيف في نظري صاحب النظر البعيد.

نثره شعر، شأنه في ذلك شأن كل أديب بلغت نفسه مرتبة رفيعة من الجمال الفنّي - شعر حفل بخصائص الروح الليريكية من إلهاب للقلوب، وحفز للنفوس، وتطريب للأحزان، وإذكاء للحماسة، واستفزاز للعواطف في إثارة للفكر واستنهاض للهمم وطموح إلى حياة أجلّ من الحياة المألوفة وأفضل. دل كروا الرجل الكفيف والجندي المشوّه، لهو شاعر الحزن الإنساني كله، ولكنّه كذلك شاعر النخوة وشاعر الرجاء في أسمى معانيهما.

هو يكتنه شقاءه ولا يجهل مبلغ خسارته بفقدان بصره ويديه في حين هو ما زال في قوّة الرجال. وهو يقول في ذلك: «أنا بتعاستي شغوف. لست لأقول هذا بدافع

الهوى الشعري أو لأدّعي حالة روحانية جليلة، أو لأغري القارئين والمتطلّعين إغراءً أدبياً وفنّياً. إنّ شقائي لمن الجدّ المرير بحيث لا يترك لي مجالاً للغرور والمباهاة والرغبة في استغلال عطف الناس واهتمامهم وإعجابهم». ... «لست لأرى نفسي معصوماً من الضعف، منزّهاً عن الشعور بالغمّ. ولا أنا في غنى عن التأسّي شأن من نسي كل شيء وأمسى وهو لا يطمح إلى شيء. بل أنا في حداد مقيم على كل ما فقدته ممّا لا يعوّض. غير أنّي في بكائي المتواصل، أقول ما يقوله الفلّاحون عن غيث السماء: «هذا المطر كله حنطة». إنّ الحزن هو كل ما بقي لي، وهو كل ما أملك. الحزن خبز حياتي، ونور بصري ونسيج خيالاتي، ولحن إنشادي».

وهو يحبّ شقاءه ويمجّده، ويقدّر مميّزاته ويتعرّف خصبه وبهذا الإدراك النافذ الفذّ يعطف على كل ألم صادق متوغّلاً في الأغوار الرهيبة والخفايا المدلهمّة ليدعو النفوس إلى النهوض من ذلّها وانحطاطها، والتملّص من مراوغتها وغشّها، والتجرّد من حقارتها وقنوطها؛ فتخرج معه إلى آفاق النور والنبل والجمال. وليس من هو أقدر من كارلو دل كروا على استخلاص الفرح من الترح، والقوّة من الضعف، والرجاء من اليأس.

* * *

قرأت كتبه كتاباً كتاباً، وهي عدّة في التاريخ والوطنية والوصف والحماسة والذكرى شعراً ونثراً. ففزت منها بكتاب وضعته على رأسها جميعاً. وهو عندي الكتاب الواحد في بابه بين كل ما وُضع عن الحرب من بليغ المؤلّفات وإنْ كان دونها شهرة.

واسم هذا الكتاب «سبعة قدّيسين بدون شموع». عاد فيه إلى الحرب ليخرج منها سبع صور بشرية، سبعة وجوه مفجعة أنال كلاً منها اسماً: لوتشيانو، جوفاني، بيترو، فرنشسكو، أندريا، جوليانو، وماسيمو.

لوتشيانو فقد بصره إذ كان يقوم بواجبه في دورة عسكرية عند تخوم العدوّ، ففاجأته الشظيّة التي ذهبت بعينيه. «فبكى نور عينيه بعبرات قليلة من دم». ومن ثمّ يبدأ استشهاده وبوصف ذلك الاستشهاد يصف دل كروا مصيبته ببلاغة ليس من بعدها بلاغة: «... إنّ وجه الكفيف لأوفر حزناً من البيت المهجور ومن الحيّ الذي خبت

جميع أنواره. ليس من ليل أتمّ ظلاماً ولا من حزن أوفر غمّاً من ليل العمى وحزن العمى».

أمّا جوفاني فهو الذي تشوّه جماله بعد أن كان ذياك الفتى الفتّان. أبصر نفسه لأوّل مرّة في المرآة بعد نكبته فأدرك أنّ الرعب والاشمئزاز تمثّل في وجه رجل ما فتئ محتفظاً بقوّة الشباب وبكل ما يشعر به الشابّ من الحاجة إلى الصداقة والمودّة والحبّ والثقة المتبادلة. ولكنّ جوفاني يرى مليّاً علامات النفور والكزازة في كل وجه يصادفه في طريقه، فلا يلقى الراحة إلّا في ملجأ العميان. هناك يتحدّث إلى الذين لا يستطيعون أنْ يروه فيعود إليه الشعور بأنّه إنسان كسائر الناس ويصبح الظلام الدامس المطبق على العميان هو وحده وسيلة الخلاص له.

والبطل الثالث فقد بصره وذراعيه في آن واحد فتعذّر عليه العمل والحركة معاً. عاد إلى المنزل الوضيع حيث كانت تنتظره زوجته وأولاده فانقلبت الزوجة أمّا لزوجها المخروب وأخذت تطعمه بيدها شأنها مع الطفل الضعيف. فعندما حاولت المرأة أن تضع اللقمة في فيه ففتح بيترو شفتيه ليتلقّى الخبز لأوّل مرّة من تلك اليد الرحيمة، شعر الأطفال بعاطفة لا تحدّ من اليأس والشقاء وحنى كل منهم جبهته والدموع تنحدر على وجنتيه فتتناثر على أثوابه إلّا أنّهم أحسّوا جميعاً برابطة الرأفة والألم تجمعهم في وحدة عميقة».

وأمّا فرنشسكو فهو المحروم من لذاذة الحبّ الأرضي، لأنّه عاد وقد دبّ الموت في أحد جانبي جسده بينما ظلّ الجانب الآخر نابضاً بحمّى الحياة التي لا تطاق. وكانت خطيبته تنتظر عودته بفارغ الصبر لأنّها تحسبه ذياك الفتى الذي أحبّت. فاضطرّ إلى التنازل عنها، كيلا يقيّد بشقائه شباباً غضّاً زاخراً بآمال الشباب ونزعاته وأشواقه. ردّ إلى خطيبته حقّها المشروع في الحياة والحريّة وبقي هو الرجل الذي لا معنى لوجوده، لا هو حيّ فيسعى، ولا هو ميت فيستريح.

وهناك البطل أندريا صريع المجد. مضى إلى الحرب ونفسه ميدان للمطامع الكبيرة والآمال المشرقة، وبعض ما لديه من المواهب ضمين بتحقيق كل أمل وكل طمع. ولكنّه رجع ذليلاً خائر العزم لأنّ تلك العلّة التي لا دواء لها ضربت في كبده وأخذت تفتّ في عضده يوماً بعد يوم فأدرك أنّه مائت بالعلّة التي أودت بأبيه وتملّكته

كراهة عنيفة لذلك الأب الذي لم يترك له إلّا هذا الإرث البغيض. ولكنّه بعد حديث هادئ مع والدته الموفورة العذوبة والصلاح «...اهتدى شيئاً فشيئاً إلى قوّة جديدة فضمّ والدته إلى صدره. أندريا المنكوب في حياته وفي أجمل ما في الحياة من آمال – حوّل فكره عن الصليب الذي يحمله في داخل صدره ليحتضن والدته... وعندئذ اتخذ الشقاء وجه رجل حزين يبكي».

وأمّا البطلان الأخيران، جوليانو وماسيمو، فهما بطلا الموت قبل الموت .والحياة التي فقدت الثقة والإيمان: الأوّل يقضي عمره كمن تاه في القفر، كمن مات وهو حيّ، لأنّه لم يجنِ من اختبارات الحرب سوى التشاؤم وسوء الظنّ والتهكّم والسخرية بالناس وبالأشياء. بينا الآخر الذي عاد صحيح الجسد، تامّ القوّة، ناضر الصحّة كانت نفسه قد تسمّمت بعد العودة إذ شهد بعينيه خيانة المرأة التي أحبّها فأقسمت له الوفاء. فانقلب ذياك الفتى الجميل قطعة بشرية تائهة لم تستقرّ إلّا في الأوحال. فقد كل أمل وكل يقين، وأنكر الصدق والصلاح والحبّ، فإذا به ذاك الذي لا يثق بالناس ولا الناس تثق به، ولا هو يصدّق أحداً كما أنّ ليس بين بني جنسه من يعنى بتصديقه.

وهكذا يصفُ دل كروا صنوف الشقاء ليشرف منها على عالم غنيّ بالعزاء والرجاء. كل مقهور يصل شيئاً فشيئاً إلى فكرة اللّه بواسطة اليأس المؤدّي إلى الرحمة، خلال هذا الكتاب الذي دعي كتاب الحبّ والقداسة والموت. وهو فيه يقول: «إنّ الذي لا يهتدي إلى اللّه من خلال أوجاع الحياة يقضي عمره ناقماً حتى على النعم فيجد المرارة في كل حلاوة ولا يخبر إلّا القلق في كل ظفر». ويقول أيضاً: «أنا المحروم من كل ابتهاج، أنا الذي لم ترطب الدموع من توهّج دمي، أنا الذي ذوت جميع أحلامي ومحلت جميع آمالي – لقد زاد يقيني بالحياة المقبلة وبهذه الحياة المؤدّية إليها. فاللّه وحده هو نور الرحمة البهيج المتألّق في كهف الأحزان الحالك السواد...».

* * *

لا، يا دل كروا. ليس كتابك هذا كتاب الحرب وويلات الحرب، بل هو كتاب الحياة كلها. فالحياة هي الحرب الكبرى التي لا تهادن ولا تني. وهؤلاء القدّيسون السبعة الذين أوقدت أنت لهم شموعاً – لنفر قليل من جيش عرمرم من «القدّيسين»

الذين مزقتهم الحياة بمخالبها وهم أبرياء، ومن الآثمين الذين مزقوا نفوسهم ومزقوا غيرهم، فأطفأت الأنواء شموعهم إنْ لم يكونوا قد أطفأوها بأيديهم.

كتابك كتاب الحياة لكل من حبته الحياة بالنعم ولكل من صبّت عليه الحياة النقم. إنّه الدليل إلى الملجأ الأسمى وإلى كعبة الرجاء. لست لأسأل عنك «أرباب الفكر» الذين يزعمون تغيير اتجاه العالم كلّما حرّكوا قلماً وكلّما أرسلوا كلمة. ولا أنا أسأل ذوي الابتسامة الصفراء الذين يلقون برأيهم الكالح على كل روح لامعة. ولكنّي أسأل عنك جمهور الذين كواهم الألم فلمسوا من الحياة جوهرها، فهم هم المخبرون الصادقون. بل حسبي أن أسأل عنك أثرك في نفسي لأعلم أنّك منهل الوحي والرحمة والنبل لكل من يفهمك كائنة جنسيته ولغته ما كانت.

إنّ معرفتي بك في وحيك لخير من المعرفة الشخصية. لم أسمعك قطّ خطيباً على المنابر، ولكنّي سمعتك خطيباً وأيّ خطيب في كل صفحة من صفحاتك. يا معالج لغة دانتي(٢)، اللغة التي تمازجت فيها حمم البراكين، ونفائس الفنّ، وطلاوة البحار، وتغريد الأطيار، ونفحات الأرواح، ها هو ذا وصفك بكلمة شهيرة من لغة العرب: «إنّ من البيان لسحراً». بيانك هو السحر: السحر الأبيض، السحر الحلال، السحر الذي قدّسه الألم، السحر الذي هذّبته الأريحية، السحر الذي رفعه جلال البسالة الأدبية وجمال الفنّ الفنّان إلى أفق يشرف منها على جميع الآفاق.

أنت لم تكن تدري أنّ بيانك يصل إلى هذه الأقطار فيكون له هذا الفعل في نفس غريبة. فإنْ راقك أن تعلم - والشاعر يروقه أن يظفر بمثل ذلك ولو في شخص واحد - فلتبتسم لهذه الفكرة فتتحوّل هذه الابتسامة دمعة رحمة وعزاء في عين زوجتك الباسلة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٥٥، ١٩ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) Carlo Delcroix (١٨٩٦ - ١٩٧٧)، أديب وسياسي إيطالي فقد خلال الحرب العالمية الأولى كلتا عينيه ويديه. عمل بين ١٩٢٤ - ١٩٤٣ رئيساً لجماعة قدماء المحاربين المشوّهين الإيطالية. كان

الموضوع الرئيسي الذي ركّز عليه في العديد من أعماله ضحايا الحرب وتعظيم القيم الوطنية كما نجد في كتابه المنشور عام ١٩٢٥ *Sette santi senza candele* الذي عرضت له ميّ زيادة في مقالها. أُنتخب عام ١٩٥٣ عضواً في مجلس النوّاب وكان في طليعة ممثّلي القوى الوطنية والملكية.

(٢) Dante Alighieri (١٢٦٥ - ١٣٢١)، من أعظم شعراء إيطاليا. ربط بين ذروة المعرفة والتفكير في القرون الوسطى وبين الرؤى الجديدة لـ "Dolce stil nuovo"، وهي مدرسة شعرية شهدها القرنان ١٣/١٤، وجمعت بين الشعر الغنائي الغزلي للتروبادور (Troubadour) في بروفانس (Provence) في جنوب فرنسا وبين رؤية صوفية فكرية للحبّ قائمة على المذهب الأفلاطوني. تُعدّ الملحمة الشعرية *La Divina Commedia* التي كتبها باللغة التوسكانية وأتمّها عام ١٣٢١ عمله الرئيسي.

جمعية منع المسكرات العامّة
بالقطر المصري
تتكلّم بلسان رئيسها

المقال الذي نشرته «الأهرام» أمس الأول بتوقيع الأستاذ أحمد غلوش لهو صيحة من الصيحات العالية التي ما فتئ يرسلها الرئيس الغيور منذ أعوام على الناس ليثير فيهم الكراهة للخمر وشاربيها ويبثّ في النفوس الإقناع بما تجرّه الخمر على الأفراد والجماعات من المصائب والرزايا[1]. ولئن رأى فضل الأستاذ أنّي جديرة بكل ما أغدقه عليّ من الثناء من أجل مقال واحد في هذا الموضوع، فماذا تراه يستحقّ حضرته وإخوانه المجاهدون منذ ربع قرن أو يزيد في هذا السبيل الوعر؟

ماذا يستحقّ القائمون بهذه الدعاية منذ ١٩٠٥ في حزم وثبات، منوّعين حجّتهم، مركّزيها على المبادئ الطبّية والاقتصادية والاجتماعية والقومية والأخلاقية، مستفزّين الرأي العامّ إلى دفع هذا الداء الوبيل الذي يهدّد حيوية البلاد في صميمها، داعين الهيئات الحكومية من أيّ الأحزاب كانت إلى محاربته والقضاء عليه، مغذّين بعلمهم وهمّتهم وإقدامهم وعزيمتهم اللهيب الصالح الذي يقضي على هذا الداء، مهما كلّفهم السعي من كدّ وعناء؟

إنّ من الشكر ما يسكت. لذلك أحجم عن تبيان الشكر تاركة لمساعي الأستاذ ومساعي إخوانه أن تكون هي نفسها خير مظهر للاعتراف بالجميل. لأنّ من أسمى أنواع الثناء ثناء ينبثق من العمل نفسه عندما يقوم المرء بواجب رفيع، كما أنّ ذلك الثناء ينجلي ناصعاً بهيجاً في النتائج الصالحة المترتّبة على تأدية ذياك الواجب.

وقد راقتني جدّاً الصراحة - رغم كونها شديدة - التي هاجم بها الرئيس المحترم ما ذهبت إليه من أنّ قليلاً من الخمر قد يكون داعياً من دواعي الأنس في الاجتماعات. يقولون إنّ الحقيقة جارحة. وهي كذلك عندما يضمّنها المتكلّم قصد

الإيلام. وقد يتألّم سامعها أحياناً لا في نفسه ولكن بالنيابة عن ذاك الذي أرسلها بنيّة سيّئة. على أنّ مقال الأستاذ منزّه عن هذا النوع من النيّات والمقاصد. إنّه لمقال صريح مليء بالرغبة في الخير، جادّ في جمع شتات الوسائل الممكنة لمحاربة ذياك الشرّ المعربد. وأستزيد الأستاذ من هذه الصراحة وتلك الشدّة كلّما دعى الداعي إلى ذلك.

وهذا الهجوم بعدُ هجوم بصير قويّ يقوم على معرفة عريقة للطبيعة البشرية. وأسارع إلى الوقوف إلى جانب الأستاذ لأصارح معه بأنّ «القليل من الخمر أو الكيف الظريف هو أصل نكبة الناس بعواقب المسكرات»، وأنّهم لو كانوا أغلقوا باب الكثير والقليل في الخمر معاً «لما وجد الشيطان سبيلاً لسلب عقول القوم وافتتنهم ببنت الحان هذه الفتنة التي أدّت إلى ما تئنّ منه الإنسانية والفضيلة». ومعه أكرّر أنّ «ضبط النفس (فيما يتعلّق بشرب الخمر) لهو في مثل مواطن الهلاك يكون في البعد عنها تماماً لا الوقوف عند حوافيها ومحاولة عدم الوقوف فيها. فإنّ سلطان الخمر لا يساعد على ضبط النفس بتاتاً. بل إنّه يحطّم هذه الفضيلة تحطيماً عنيفاً بلا شفقة ولا هوادة. فضبط النفس في الخمر إنّما يكون في الفرار منها والبعد عنها واعتبارها مثل لدغ العقرب كما قال سليمان الحكيم الذي لم يقف عند تحريم الخمر، بل حرّم النظر إلى الكأس التي تحتويها فقال: لا تنظر إلى الخمر فإنّها تلسع كالحيّة وتلدغ كالأفعوان».

وقد أعجبت بما بدا في المقال من الأدلّة على إلمام الأستاذ أحمد غلوش بالمبادئ الدينية على اختلافها، وفيها حكم باتّ على مساوئ المسكر ودعوة صريحة إلى تجنّبها. ولست لأعود إلى كلمة بولس الرسول قصد تحقيقها والاستدلال منها على المعنى المقصود. لأنّ الكاتب الضليع يعلم ما يقوله، وهو إذ يجول في موضوعه إنّما يطوف في ميدان عرف منه جميع الأسرار.

* * *

كل القسم الأخير من المقال مرتكز، كما سبق، على معرفة عريقة للطبيعة البشرية في طائفة كبيرة من الذين ما إنْ ذاقوا الخمرة إلّا وتهافتوا عليها فأنساهم الإدمان الكرامة التي هي كل قيمة الإنسان.

طائفة كبيرة جدّاً من الناس. نعم، ولكن ليس جميع الناس على الإطلاق، إذ من الناس من يملكون أنفسهم فيقفون عند الحدود الأولى، ولا يتخذون الخمر إلّا وسيلة لتفريج الكرب وتطلّب شيء من الأنس والراحة. ومن الناس من لا يستغنون عن شرب النبيذ في أوقات الطعام وندر جدّاً أن تجاوزوا ذلك القدر القليل في تلك الأوقات. وإن هم فعلوا اكتفوا بالنزر اليسير الذي لا يذهب بعقولهم ولا يستجرّهم إلى الإفراط. وقد يعرف القارئ أسماء أشخاص هذا شأنهم منذ أعوام، مع أنّهم من أكثر الناس دقّة في أعمالهم ومن أحرصهم على صفاء الذهن. أقول هذا وأنا من الذين لا يتناولون حتى ولا النبيذ مع الطعام. وإنّما يحسن أن ينسى المرء نفسه عندما ينظر إلى الموضوع من جميع الجوانب.

ولأتمّم فكري متمثّلة بصراحة الأستاذ أقول إنّ للطبيعة البشرية وجوهاً عدّة. فمن الناس من إذا حظرتَ عليه شيئاً رغب فيه ولولا الحظر لما اهتمّ به. ومنهم من يرتدع من تلقاء نفسه. ومنهم من يحتاج إلى أن يفرض عليه الامتناع فرضاً لو هو خالفه جبهته العقوبة الصارمة. ومنهم من إذا لوّحتَ له بشبح العقوبات تمادى في الشرّ وخلق صنوفاً لا تحصر من الغشّ والتلفيق لينال بغيته. وهو بالتالي ينالها في خلسة عن العيون السواهر ضاحكاً هازئاً. والأستاذ الفاضل الملمّ بجميع فروع موضوعه لا يخفى على نظره الثاقب ما حدث في بعض الدول التي حرّمت الخمر وفرضت على رعاياها «قانون الجفاف». فبدلاً من أن يؤدّي ذلك إلى الغاية المنشودة أدّى إلى نقيضها. فزاد في تلك الدول تعاطي الخمر زيادة فاحشة، وخلقت الحيلة صنوفاً شتّى من الدسيسة والنصب والتزوير ونجم عن كل ذلك فضائح ردّدت صداها الشركات التلغرافية وأنباء الصحف في أنحاء العالم، حتى أصبحت تلك الدول نفسها تفكّر في إلغاء قانون الجفاف والاستعاضة عنه بدعاية رشيدة. لأنّه ثبت أنّ أفعل الوسائل هو الإقناع لا التهديد، واتجاه العلوم النفسية في طريق إدراك محاسن الإقناع قد أوجد الطريقة الجديدة في تربية الأحداث. فبعد أن قامت التربية قروناً طوالاً على الشدّة والقسوة والعقوبة أصبحت تصطنع أسباب التمييز والإقناع. وبعد أن كان الطفل يقهر على الطاعة قهراً أصبح الآن يتخيّر الطاعة تخيّراً لأنّ أساليب التربية الحديثة تفهمه ما هو الشرّ وما هو

الخير كما تفهمه لماذا يجب أن يأخذ بالخير ويبتعد عن الشرّ. والواقع أنّ الخير لا ينقلب شرّاً إلّا عندما يأتي الإنسان ما يؤذيه أو ما يتعدّى شخصه فيؤذي الآخرين. فالأذى إذن في الإفراط والإدمان الذي يؤذي الفرد ويؤذي أسرته ومحيطه ووطنه. ومعالجة المدمن بالإقناع قد تفيد طائفة كبيرة من هؤلاء الناس. وإذا أفاد الإقناع طائفة الآخرين الذين يمصّون الخمر مصّاً لا للسكر ولكن للائتناس، لكان في ذلك الخير كله.

* * *

ها قد خسرتُ «التمثال» الذي وعدني به الأستاذ الكريم لما بعد وفاتي! ولكنّي لم أخسر ثقة الأستاذ وحسن ظنّه ومعرفته بأنّي أكره الخمر والمفرطين في تعاطيها كراهة عميقة يختلط فيها الاشمئزاز والنفور العاصف كريح السَموم. أمّا الدعوة لأنضمّ إلى جماعته الكريمة في الدعاية إلى تجنّب الخمر فإنّي أُلبّيها بكل سرور. وإنّه لَمِن دواعي الشرف لي – الشرف الأدبي الصحيح لا الشرف الاصطلاحي المصطنع – أن أتمكّن من معالجة هذا الموضوع كلّما سنحت الفرصة. وحسبي أن تعبّر كتابتي عن بعض ما أشعر به ويشعر به سائر الناس من استنكار الإفراط والإدمان.

وقد أوحت إليّ دعوة الأستاذ خاطراً أريد أن أطرحه هنا وأرجو أن يقابل بالارتياح. ففي مصر جماعة نسوية تعمل على محاربة المسكرات وقد عقدت مؤتمرها في هذا الأسبوع برئاسة مدام عازر جبران. وإنّي لأوافق الأستاذ أحمد غلوش على وجوب تعميم الدعاية وإرهافها بإشراك المرأة فيها بصورة واسعة. فهل لي أن أسأل لماذا لا تؤسّس جمعية نسوية مركزية عامّة تحت رعاية حضرة صاحبة السموّ البرنسيس بهيجة طوسون تضمّ في رحابها جميع الجمعيات النسوية الساعية لهذه الغاية وتخلق فروعاً جديدة في مختلف أنحاء البلاد لترويج دعوتها ونشر مبادئها؟

إنّ حضرة صاحب السموّ الأمير الجليل عمر طوسون يشمل جمعية الرجال برعايته العالية منذ ١٩٠٥، فليس عزيزاً على حرمه النبيلة أن تلج هذا الميدان إلى جانبه فينال المشروع من سموّ مكانتها وشرف اسمها وسطوة أسرتها ما يمهّد له سبل النجاح ويحمل الجماعات النسوية على العمل بعيداً عن التحزّبات السياسية والدينية في وحدة الخير الاجتماعي والأخلاقي والأدبي. فإذا سعى الرجل مرّة لمكافحة هذا الداء فعلى

المرأة أن تسعى له مرّتين. لأنّ المرأة هي أول من يتلقّى أذى المسكر: تتلقّاه في حياتها وفي بيتها وفي أطفالها وفي مالها بعد أن تراه ممثّلاً في زوجها أو أخيها.

فإذا صادف هذا الاقتراح قبولاً تقدّم الموضوع خطوة واسعة واستطاعت النساء أن تحارب المسكر إلى جانب الرجال حرباً منظّمة في جميع أنحاء البلاد: تحاربها بالكتابة والخطابة والراديو، تحاربها بالاجتماعات الخاصّة والعامّة، تحاربها كل منهنّ بين معارفها وصويحباتها وضمن جدران بيتها. تحاربها خصوصاً في تنشئة أطفالها. فإنْ كان والدهم لا يشرب الخمر قدّمته لهم مثلاً. وإن كان من المدمنين أرهف الشقاء من براعتها في بثّ كراهة الخمر في نفوسهم. ولقد قالت «كارمن سيلفا»[٢] ملكة رومانيا السابقة: «ما أبرع المرأة إذا هي شاءت أن تحارب في أبنائها الداء الذي تألّمت منه في زوجها طول حياتها!».

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٦٠، ٢٤ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ١ .

(١) بخصوص مقال أحمد غلوش راجع الهامش رقم (٣) من مقالة ميّ زيادة «حول مؤتمر محاربة المسكرات: جهود الأمس البعيد تتلاقى وجهود اليوم»، الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٤٩، ١٣ شباط/ فبراير ١٩٣٢، ص ١ [٩٥]، في هذه المجموعة.

(٢) Carmen Sylva كان الاسم المستعار لملكة رومانيا إليزابيت (Elisabeth) (١٨٤٣ - ١٩١٦). كتبت بالألمانية قصائد ذات نمط انطباعي رومنطيقي جديد، إضافة إلى قصص ومسرحيات وحكايات خرافية كما دوّنت مذكّراتها. وحقّقت نجاحاً متميّزاً بعرضها لموضوعات رومانية استقتها من تقاليد البلاد. ترجمت عدّة أعمال عن اللغة الرومانية.

جواب
إلى السائل عن قائمة كتب لعروسه

ليس الموضوع الذي كتبت إليّ فيه خاصّاً بك وحدك، أيّها الأديب ع.أ.ر.، بل الموضوع في ذاته وطائفة الآراء التي اشتمل عليها خطابك لمَن ألصق الشؤون بالمجموع ومن أهمّ العوامل في تكوينه مجتمعاً - ما دامت الأسرة الواحدة هي اللبنة التي يشاد بها وبمثيلاتها ما نسمّيه مجازاً «صرح المجتمع».

لذلك - قبل أن أذكر أسماء الكتب التي تريدها - أودّ أن أعرب عن ارتياحي إلى خطابك وأن أعلّق بكليمات على بعض ما ورد فيه من النظرات. فقد عرض هذا الخطاب صورة حيّة للأسرة الجديدة كما نودّ أن تكون، ورسم عقلية الرجل الجديد كما نودّ أن تكون، ووصف نفسية المرأة الجديدة كما نودّ أن تكون (... وبخاصّة بعد اطّلاعها على الكتب الاثني عشر واستيعاب محتوياتها مع محتويات كتب أخرى إن شاء اللّه!).

كثيراً ما يكتب الكاتبون في نقد أطوار هذا الجيل مستنكرين تهوّره واستهتاره، آسفين لركاكة مطامعه الأدبية والاجتماعية ولنظرته غير النبيلة إلى المرأة. وسواء أكانوا مصيبين في نقدهم أم كانوا مغالين، فإنّ خطاباً كهذا الخطاب يدلّ على أنّ بين الشبّان فريقاً نبيل الخلق نبيل المطالب، ينظر إلى المرأة النظرة التي تشرّفه وتشرّف المرأة معاً، وقد عقد النيّة على بناء حياته العائلية بأمتن العناصر وأحكمها وأتمّها إخلاصاً.

فلتثبت أنت على خصائصك هذه، ولتشعّ هذه الرغبات في أكبر عدد ممكن من الشبّان! ولتكن كل فتاة بشخصها وبصفاتها متطابقة قدر الإمكان والصورة الكمالية للمرأة عند الرجل، محقّقة في حياتها كل ما ينتظر منها، مستحقّة أن تكون دواماً موضوع هذه النظرة الصالحة!

ليس هذا تمنّياً فحسب، بل هو توقّع لا بدّ أن يتحقّق ليتكوّن المجتمع الجديد صحيحاً كريماً. فلئن خلقت المرأة الحبّ والأسرة والمجتمع فالرجل وحده يخلق المرأة.

والمرأة في كل جيل إنّما هي صورة طبق الأصل الذي رسمه خيال الرجل وأحياه فكره فجسّدته معاملته. وليست المرأة لترتفع وترقى الرقيّ الحقّ مدركة أهمّية أنوثتها وكرامة وظيفتها إلّا وهي تعمل تحت رقابة الرجل الذي ينتظر منها ما تنتظره أنت من عروسك الحلوة. ورأيك في هذه الفتاة هو خير مثقّف لها، وخير منهج، وخير قانون.

وقد استوقفتني في خطابك جملة هي من الأهمّية بحيث لا أستطيع إغفال الاعتراض عليها. ذاك أنّك عندما ذكرت أنّ الفتاة ريفية خشيت أن «يتمثّل لذهني أنّها من أجلاف القرى أو أقدام الريف» فاستدركت قائلاً إنّها «من بنات كبار الأعيان اللائي ينعمن بما يشابه حياة المدن في كل شيء اللّهمّ إلّا التبرّج – الذي أمقته – وعدم اعتبار الضوابط الخلقية الصالحة والتشبّه بكواكب هولي وود إلخ..».

دعني أعتقد أنّك لن تكون ذلك الزوج المخيف الذي يمزّق ثوباً لأنّ «عليه حتّة دنتلا»، أو يقلع عيناً لأنّها اكتحلت برشاشة من الكحل! إنّي أدرك من اتّزان آرائك في خطابك أنّ ما تمقته هو الغلوّ في التبرّج لا الزينة المعتدلة التي هي من أخصّ خصائص المرأة. فمن واجبات المرأة أن تتزيّن، كما أنّ من واجباتها أن تكون جميلة. وإن لم تحسن زينة نفسها فهي لن تحسن زينة بيتها. ولمّا كانت عروسك على ما ذكرت فأنت على حقّ في ثقتك من أنّ ذوقها الحسن سيبيّن لها دائماً الفرق بين نوع الزينة المفروض على كواكب هولي وود وبين نوع الزينة الذي يليق بامرأة كريمة هي زوجة وسيّدة بيت.

وأمّا اعتراضي فعلى وصفك لأهل القرى وأهل الريف، مع أنّهم يستحقّون من الجميع إنصافاً وتقديراً، نظراً لتلك الصفات الأدبية التي يتناقلونها جيلاً بعد جيل وهي من خير ذخائر الشعوب. ولئن كان في بعض الريفيين شيء من الخشونة أفلا تظنّ أنّ هذه الخشونة تفضل كثيراً تلك النعومة الخبيثة وذلك اللطف المصطنع اللذين نشهد في أكثرهما المتحضّرين؟

والمرأة الريفية، المرأة الفلّاحة خصوصاً، كيف نذكرها فلا نشعر بالعطف والحنان؟ فهي مليكة هذه المروج الفسيحة، التي تشتغل نهارها في الغيطان وتعالج الأرض مع الرجل، وتسهر على راحة عائلتها الصغيرة وتقوم بجميع شؤون بيتها في صبر واحتمال ونشاط وقناعة. هي أجمل رمز نسوي في مصر عندما تسير في ظلّ

النخيل لتملأ جرّتها. هي ابنة إيزيس الصميمة التي لا تتغيّر صورتها قرناً بعد قرن. وهي رغماً عن جهلها واحتمالها قد أنجبت لمصر نخبة عظيمة من خيرة رجالها العاملين في مختلف ميادين العمل. أفلا تستحقّ المرأة الريفية بعد كل هذا عطفاً وتقديراً؟

وإنّي لا أشكّ في عطفك عليها وتقديرك لها. وإنّما استدركت ذلك الاستدراك لتتطرّق إلى وصف الفتاة التي هي «بيت القصيد» فتوقفني على مستوى تعليمها ومبلغ استعدادها ونوع حياتها. وقد بحثت كثيراً في ما بين يديّ من الكتب الموافقة لها، والواقع أنّ الكتب الموضوعة لإعداد الفتاة للحياة الزوجية قليلة جدّاً في اللغة العربية. أو قد يكون هناك كتب في هذا الموضوع لا علم لي بها، فرجائي إلى العارفين أن يتفضّلوا باسمها.

وعلى كل أظنّ أنّ القائمة التالية بالترتيب تساعد الفتاة على تجديد ذكرياتها الدراسية وتسير بها شيئاً فشيئاً الى فهم أوسع وأشمل للحياة، بخاصّة لأنّها ذكيّة واسعة الإدراك.

الكتب[1]

«الأخلاق للبنات» بقلم محمد رخا ومحمد حمدي،

«الفتاة والبيت» بقلم أنطون الجميّل،

«سعادة الزوجين» بقلم علي فكري،

«آداب السلوك» بقلم محمد مسعود،

«تحرير المرأة» بقلم قاسم أمين،

«المرأة الجديدة» بقلم قاسم أمين،

«النسائيات» بقلم باحثة البادية،

«باحثة البادية» بقلم ميّ،

«من والد إلى ولده» بقلم أحمد حافظ عوض،

«معنى الحياة» بقلم وديع البستاني،

«مسرّات الحياة» بقلم وديع البستاني،

وأخيراً كتاب «أدب الدنيا والدين» الذي هو تحفة فريدة.

كل من هذه الكتب مفيد للفتاة وللشابّ في آن واحد. وبعضها يشتمل على انتقادات كثيرة ولكن أليس النقد أعون على تفهّم الشيء المطلوب كما يجب أن يكون؟

وعلام لا تقرأ أنت من ناحيتك كلاً من هذه الكتب بينما عروسك تقرأه فتتبادلان الآراء في ما يجب أن يتّبع وفي ما يجب أن ينبذ؟ إنّ القارئ اللبيب لا يأخذ من الكتاب الواحد إلّا ما يتّفق وحاجته وينطبق على أحواله. ومساعدتك لعروسك عن بعد لاستكمال ثقافتها تنيلك سلطاناً أدبياً يرغب فيه الرجل كثيراً ولا ترضى المرأة به لغيره... وفي مجموعة هذه الكتب ثقافة منزلية وخلقية وعائلية واجتماعية وعقلية وروحية وقلبية - كل الثقافة المنوّعة التي تطلبها أنت في الواقع.

بقي عليّ أن أتمنّى لكما الهناء والتوفيق والعمر الطويل. ولا تنسيا أن تدعواني إلى حفلة زفافكما بعد إتمام الدكتوراه (وأظنّ نظراً لحسن ذوقكما معاً أنّ تلك الحفلة ستكون هادئة بسيطة كريمة لا طبل فيها ولا إسراف في غير محلّه). فأهنّئكما يومئذ إذ تنفتح لكما صفحات الكتاب الأكبر: كتاب الحياة.[٢]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٣٨٤، ٣ أيّار/مايو ١٩٣٣، ص ١ .

(١) (هامش الكاتبة) أظنّ أنّك تجد أكثر هذه الكتب في مكتبة المعارف بالفجّالة.

(٢) ردًّا على مقال ميّ زيادة ظهر في الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٣٩٠، ٩ أيّار/مايو ١٩٣٣، ص ١، خطاب مفتوح بعنوان «ماذا تقرأ عروسك؟؟؟»، صرّحت كاتبته التي آثرت عدم الإفصاح عن هويّتها والتوقيع باسم «الناصحة»: «حضرة السائل وجّه سؤاله لحضرة الآنسة (ميّ). وقد كانت عند ظنّه بها. فأوحت إليه بما كان يتوق إليه شابّ من نوابغ القرن التاسع عشر. أمّا أنا فقد رأيت أن أسير به إلى نفس الغرض الشريف الذي يتوخّاه، خطوات تتّفق وتطوّر العصر شيئاً ما، لتكون حياة الخطيبين أقرب وجهة، وأصدق توفيقاً». وقد نصحت السائل، في اختلاف بيّن مع ميّ زيادة، أن يضع لخطيبته منهاج قراءة أشمل بكثير يتضمّن أسفار التاريخ وأمّهات الكتب من الأدب والشعر الكلاسيكي والمعاصر، إضافة إلى معلومات أساسية في الطبّ والقانون، ومطالعات منتظمة في إحدى الصحف اليومية، عدا عن تعلّم إحدى اللغات الأجنبية.

أفسحوا المكان وارفعوا الرؤوس وانشروا العلم![1]

مسافران يعودان إلى الآل والأحباب ولكل مسافر أوبة إلى دياره وأحبابه.

جنديان تطوّعا للقيام بمهمّة ذات بال، ولكل جندي يوم فيه يفضَى بخلاصة مهمّته متطوّعاً كان أو مأموراً.

نسران ركبا متن الهواء ليحلّقا في سماء وطنهما، ولكل نسر ساعة فيها يطوي الجناح ليحطّ حيث شاءت الأقدار أن يحطّ.

غلامان يعودان إلى الوادي. ولئن رجعا غير سائرين بدافع من الإرادة فلأنّ لكل حيّ موكباً لا يسير فيه إلّا محمولاً. عندئذ لا يتدافع والناس ليشقّ بينهم طريقه بل يتنحّون هم عن سبيله متهيّبين، ويطرقون حيال مشهد القضاء النازل بهم جميعاً عاجلاً أو آجلاً.

أمّا اليوم وقد حشدت مصر جموعها وسالت أحياء العاصمة وشوارعها بالوفود والهيئات والكتائب - اليوم أفسحوا المكان، أيّها المشيّعون، أفسحوا رحيباً لموكب الغلامين الباسلين!

* * *

أفسحوا المكان!

أفسحوا المكان ترحيباً بالعائدين، وأفسحوه تهيّباً أمام جلال الموت، وأفسحوه ليحسّ الغلامان بأنّهما في وطن حقيق بالمغامرة والتضحية، الاحتراق والاختناق في سبيله بحبوحة وانشراح، والموت في خدمة اسمه حياة ونجاح.

أفسحوا المكان رحيباً للموكب القادم وللألم الجديد الداهم. فما عظمت شخصية فردية أو قومية إلّا وهي تنقد من دم القلوب ومن غالي الأعمار ثمناً باهظاً. وما كان نموّ المدارك وصقل المواهب إلّا نتيجة للتضحية والحرمان.

سبقتكم الأمم إلى تجرّع هذه المرارة واختبار هذا النموّ. وهذان النسران، بموتهما لا بحياتهما، أدخلا مصر في حظيرة الإنسانية المستبسلة في الهواء حتى الموت وأدخلا على مصر نوعاً جديداً من الألم ورغبة في مجابهة هذا الألم. فأفسحوا المكان لهذا الألم الجديد الذي تنمون به وتشتدّون.

وقد أوغر هذان الجنديان صدور قومهما على المسافة وأوعبا قلوبهم بالحفيظة على الجوّ والريح. فأكرِمْ بها حفيظة تستثير شجاعة الفتيان فينهضون لأخذ الثأر وطلب الغلبة! أكرِمْ بها حفيظة تسوق الفتيان إلى منازلة العناصر ومكافحة الأجواء، فيستبسلون ويستبسلون إلى يوم يقهرون!

أفسحوا المكان للموكب العابر وللألم الجديد وللحفيظة المستثيرة!

* * *

وارفعوا الرؤوس!

إنّ من المصائب كآبة مؤنّثة تشلّ الأعصاب، وتستدرّ العبرات، وتولّد النواح والشكوى ثمّ تجعل المفجوع كتلة جامدة هامدة همّها تجاهل الحياة والانزواء بعيداً عن هبوب أعصارها وعجيج مشاغلها. تلك كآبة المرأة التي تخفض الرأس في استسلام وانكسار.

ومن المصائب حزن مذكّر يجمع القوّة فيجعل المرء بصيراً بكيفية التصرّف فيها، ويعرض الخطوب فيجعل اللبيب عليماً بطريقة معالجتها، ويعلن الحاجة فيحفز الهمم إلى العمل على القيام بها وإرضائها. ذلك حزن الرجل الذي يرفع رأسه قائلاً: أنت عظيم شديد، أيّهذا المصاب، ولكنّي أنا أشدّ منك وأعظم!

ارفعوا الرؤوس لتعلموا أنّكم مستيقظون غير هاجعين، فللهجعة راحة التقاعس، وراحة اليأس، وراحة العزم الكليل، وراحة النكوص والانخذال. أمّا اليقظة فلها تعب الهمّة

الصيداء ونَصَب الشكيمة الحذّاء. لها المسؤوليات والتبعات والواجبات. لها المصاعب تخترقها كالشهاب مضاءً ولها العقبات تتغلّب عليها كالسهم انطلاقاً. لها التجاريب من كل نوع تتقبّلها راضية لتنمو بها وتكبر، حتى إذا جرحت زأرت ولكنّها لا تخور.

ارفعوا الرؤوس لتروا سماءكم التي أراد النسران أن يحوما في فلواتها، تعلموا أنّ السماء جميلة وإن صرعت فيها النسور وتتلقّوا رسالة السماء بواسطة هذين النعشين. فللسماء حديث لا تتخيّر له غير اليوم العصيب وللسماء إلهام لا تنزله إلّا عند الكريهة.

ارفعوا الرؤوس شاعرين بأنّكم سادة كرام. لأنّ الحزن النبيل يفيض النبل على صاحبه فيشعره بسيادته وكرامته من غير ما علوّ ولا مكابرة. وهذان الغلامان اللذان ألهبا قلوبكم جوىً هما كذلك يجدّدان فيكم روح السيادة والكرامة.

أفسحوا المكان صامتين، وارفعوا الرؤوس صامتين، صامتين خاشعين إلّا حين تهتفون بخلود النسور!

* * *

وانشروا العلم، لا تطووه طيّ الحداد!

إنّ العلم لا يرتدي رائع هيبته إلّا بعد الإشتراك على طريقته في أفراح الديار وأتراحها، ولا تستتمّ روحه غناها إلّا بعد أن يقوم رقيباً على مجالي الانتصار ومعارك الاندحار.

ولطالما ساهم العلم في أفراح الوادي وأتراحه، ولطالما خبر ساعات الحماسة والنشوة، ولطالما شاهد أوقات الشجن والنكبة. فصفّق فوق الصروح، ورقص في الجوّ الرائق، وغازل خيوط الأنوار. وكان له مع ضوء النهار وظلام الليل مساجلة غزيرة الأسرار. ولَكَمْ حنا العلم وحنّ فطوّق بخضرته نعوش الشهداء والعظماء والأوفياء!

أمّا اليوم فقد أدرك العلم أنّ الألم الذي يصر مظاهره ويساهم في موكبه ألم طريف لم يعهده من قبل، وأنّ الغلامين اللذين يحفّ بقافلتهما قد أكسباه كرامة جديدة.

لذلك يشعر العلم بكرامة فيه جديدة ولذلك يريد أن يكون منشوراً غير مطويّ.

العلم حيّ ذكيّ يدرك، كذكيّ الأحياء، أنّ من الاندحار صنفاً يفوق بروعته وفائدته مئة انتصار!

* * *

فمن أجل كل ذلك أفسحوا المكان، وارفعوا الرؤوس، وانشروا العلم!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٥٩٤، ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٣، ص ١ .

(١) كتبت ميّ زيادة هذا المقال بمناسبة وصول نعشي الطيّارين فؤاد حجّاج وشهدي دوس، اللذين لقيا مصرعيهما في حادث جوّي، إلى ميناء الإسكندرية، وكانا أول ضحايا الطيران المصري.

نشيد الطيّار المصري

تحيّة المحبّة والإعجاب إلى النسور المصرية الظافرة

كما حمحمت الجياد وتصاهلت ساعة البيداء تدعو إلى الرحيل، كذلك ترنّحت الطائرات ورفرفت إذ الأفق يدعو إلى اجتياس السبيل.

أنا فارس الهواء، أنا الفتى المصري الجديد!

هواتف الفضاء تنطق باسمي، وتنيط بي طيّ المسافات سبحاً ورفيفاً وزفيفاً على صهوة الجواد: وما جوادي غير بساط سليمان.

آبائي إنْ جدّ بهم المسير وطوّحت بهم النوى كانوا يتلمّسون آثار المضارب وينيخون الركب حول نار القرى. وأنا سيّان لديّ الجبل والوادي، والمجهول والبادي. طريقي فلوات لا أسماء لها تعرف. ميداني طرس فيّاح لا ثبات عليه لأثر عابر، ولا تسجيل فيه لحديث مسامر. ما خيمة الحيّ عندي غير قبّة الفلك الدوّار، وما نار القرى في نظري سوى مقل الكواكب من ثابت وسيّار.

نسيت الماء والطين الذي صوّرني بشراً، وأوثقني بقيود الثرى. واستسلمت لروح النور المتعدّد في جوانحي باعثاً فيّ نشوة الانتصار على نواميس الحجم الكثيب.

* * *

عنّي، يا ركام الضباب المتكاثقة في الجوّ الأدنى! ما أنت إلّا لهاث تصاعد ممّا اكتظّت به الأرض من غموم وصغائر ودسائس وأوزار!

هواتف الفضاء تنطق باسمي وتدعوني الى منزلي المتحرّك في الأفق العالي، حيث استكملت السماء زينتها واحتفظت بنقاوتها في إنتظار الروّاد من بني الإنسان، حيث أبدع ما تناهى من خيالات الشعراء ينقلب حقائق محسوسة، حيث الكائن الفاني يقيم الدليل على أنّ ما عنده ليس كله كثيفاً أرضياً وأنّ في قرارة روحه تتقد حقّاً شرارة من شعلة الألوهية!

فتنة السماء تغريني وتستدرجني إلى رحبات كأنّها صنعت من ذوب اللؤلؤ والزمرّد والياقوت، حيث تسيل الهيولى مغناطيساً وأثيراً ولطافة، فأدرك هناك سرّ المناعة في اللين.

وزرقة السماء تلتفّ على شخصي وعلى كل ما يحيط بي وشاحاً سحرياً رقيقاً رفيقًا ناعماً مرناً، فإذا بي الرجل الساحر المسحور. فأرخي العنان لطائرتي تسير على هواها، وأصبح وكأنّي أعجوبة الوجود في أجواء أمزّق حجبها وأنهب مكنوناتها. وتهفّ على وجهي أنفاس الملائكة فأستسلم وكأنّي مؤتلف بالملائكة الأطهار، مهتزّ باهتزاز الأثير، مساهم في نوايا الخليقة، نابض بنبض الشموس في نازح المدى.

وعذوبة السماء كلها تنصبّ في دمي وتشيع في مشاعري فرحاً هنيئاً بريئاً رحيباً ينشد لي نشيد الافتخار والانتصار فيخيّل إليّ أنّني جئت في مطلع عهد جديد ومهمّتي أن أشيد صرحاً بين الغبراء والفضاء!

* * *

كلّما أمعنت صعوداً وتحليقاً زاد طموحي إلى التحليق والصعود، واهتاجني الحنين إلى بقاع ما فتئت صافية كما خرجت من يد الباري.

إذا جنّ الليل فأنا قطعة من الظلام المتحرّك في عالم الظلام المقيم. وإذا طلع النهار فأنا موكب من النور السائر في مملكة النور المستقرّ.

أستغرق مرّة في التأمّل متسقّطاً همس سرائري فأسمع فخم الألحان يشدو في أجواز الفضاء وفي رحاب نفسي جميعاً. ومرّة أنعم بصمت الفلك وسكونه، لا يدوّي فيه غير هدير طائرتي فأتخيّل هدير طائرتي صوتاً يملي إرادته على خاشع الأكوان!

* * *

انقشع اليوم حجاب الغيوم، وسطعت الشمس بهيجة، والأرض الجاثمة تحت قدميّ ظهرت جليّة ناصعة. فرأيت فيها المدائن والمروج والصحارى والبحار كأنّها المربّعات في قطعة الشطرنج. ما أصغرك، يا منازل البشر، في نظر النسر الطائر!

وسرت فوق سلسلة من شامخ الأطواد، فما أضأل ما شمخ من البسيطة للمشرف عليها من عل! ونهضت على قدميّ أتبينّ موقعك، يا مصر، فكبرت الأرض في نظري وعظمت لأنّك، يا مصر، قطعة منها! وطويت ذراعيّ على صدري كأنّما أبغي ضمّ الكرة الأرضية بأسرها إليّ لأنّكِ، يا وطني، قائمة عليها!

وهتفت بي بغتة هواتف الأفلاك، فصحت لبّيك! وأدركت لفوري أنّي لا ألبّي بهذه الأريحية إلّا لأنّ صوتك، يا مصر، يتغلّب في مسمعي على هواتف الأفلاك يستحثّني ويغريني!

أيا صوت البلاد، ما أحبّك في قصيّ الأجواء! يا آية الحبّ، ما أشملك إذ تتجمّعين على معنى واحد! أَوَتحلّق النسور حيث لا حبيب يقصيها ليدنيها؟ أَوَتمرج الأفلاك وتتماسك حيث لا شوق يدفعها ويهديها؟

* * *

غضبت، أيّتها العناصر، لأنّ فتى مصر انبرى يتحدّاك. وثارت ثورتك، يا نظام تجاذب الأجرام، لأنّ فتى الوادي خضد شوكتك، ففتكت بإخوان لي وجندلت كلاً منهم صريعاً! ولكن فلتعلم أنّ مناهضيك من فتيان مصر أسراباً وكتائب!

انتشري، أيّتها الزعازع، وزمجري، أيّتها الأنواء، ولتعوّل الرياح وتنقضّ الصواعق! في وسط كل أولئك اسمك، يا مصر، ذخيرتي ومجدك تعويذتي. إن لم يسبح نسرك إلّا حيث الجوّ هادئ والريح مواتية، فأيّة خدمة هو يؤدّيها إليك؟ وإن لم يخُضْ العجاجة فيقهرها أو يردى بها، فأنّى له الحقّ أن يقبل عليك؟

* * *

شارفت عليك، يا بلادي، ولم تحمل يديّ هدية المسافر. إنّما مسافرك هذا يعود إليك بما تلقّاه من فيض سخاك.

نفحته بمطيّة الريح، فجاء يحمل أريج الأرجاء النازحة، ولمعت أثوابه بما علق بها من فتيت الشموس.

نفخت فيه روحاً فتيّة، فآب يهديك شباباً ناضجاً يليق بخدمتك، وفي كل جارحة من جوارحه هيكل لاسمك وعبادة.

أعطيته راية فطاف بها في فسيح الآفاق وارتعشت بمروره أفجاج الهواء، فكأنّما هو زرع من خضرة الراية نباتاً في حقول السماء!

* * *

أوَما زلت، أبا الهول، في إيوانك ترقب من الجوّ رسولاً ينبئك بسرّ الحياة الدفين؟ هؤلاء رسلك يرتادون الأجواء. ومعضلة الوجود التي عالجتها مصر قديماً في خفايا الهياكل لا تشقّ اليوم معالجتها بوجه آخر على مصر الطائرة في السماوات العلى.

أما زلت، يا موميات الدهر، في جمودك تنتظرين عودة الأرواح التي حرّكتك قديماً؟ لقد عادت الأرواح ولكن في أجساد جديدة، وانتظمت سرباً رشيقاً يسبح بعيداً بعيداً فوق الهياكل المروّعة. والنيل يصفّق طرباً لأنّ أبناءه ساروا يخطّون في السماء صورة لمجراه ولتماسك أمواجه.

ويا فراعنة العهد السحيق! لقد كنتم تصوغون النسر على تيجانكم شعاراً. ولكنّ نسور مصر الحديثة تتهاوى متسارعة حول أركان العرش، وتنتظر من مليك مصر وفؤادها ابتسامة العطف والرضى.

افتحي صدرك، يا مصر، ودعي النسر يتكئ عليه لحظة! لقد أعطاك جهاده فأعطيه من لدنك القوّة، وبذل في سبيلك شجاعته فأنيليه من لدنك الغبطة. اغسليه بدموع الفرح وضعي على رأسه إكليل الغار لينهض ليفتح الجناح من جديد ويسير إلى حيث تحلّق جبابرة الهواء.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٥٧٥، ٧ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣، ص ١ . نُشر هذا المقال بالفرنسية في المجلّة الشهرية للاتّحاد النسائي المصري بالقاهرة *L'Egyptienne*، س ٩، ع ٩٧، كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣، ص ١٤ - ١٧، تحت عنوان "Hymne de l'Aviateur Egyptien. Salut d'admiration aux ailes égyptiennes victorieuses"، ويجده القارئ أيضاً في هذه المجموعة [4] .

نظرة سريعة
في حفلات العيد الخمسيني للمحاكم الأهلية

بعض صنوف الشرّ يتحتّم حدوثها مكتملة لينحسر اللثام عن بعض وجوه الخير. وبعض الظروف التي تستدعي الأسف في ذاتها وتثير الاستياء عند هؤلاء أو عند أولئك تكون هي دون غيرها ممهّدة لظهور أمر جوهري يبتهج له الجميع بلا استثناء.

في هذه المرتبة نضع سوء التفاهم الذي حدث بين الوزارة وهيئة المحاماة لمناسبة العيد الخمسيني للمحاكم الأهلية، فأدّى إلى إحياء حفلتين في الظاهر منفصلتين الواحدة عن الأخرى وإنْ كانتا ضمناً متفقتين على أمر فرد[١].

والحفلتان (بمجموع ما أدّى إليهما من الظروف وبجميع الملابسات التي أحاطت بهما) كانتا مقياساً لما يستطيعه رجال القانون من الحكوميين وغير الحكوميين من ضبط النفس ومسباراً لما عند الفريقين من نبل الخلق وبراعة السياسة ولباقة البيان.

ولربّ قائل يقول إنّ هذه الصفات التي يقدّرها ويحترمها الجميع قد كان لها أن تبدو على أكملها في غير هذا الظرف، وهذا صحيح. إلّا أنّي أجيب أنّ هذه الصفات نقدّرها بنوع خاصّ في هذا الموقف الدقيق أكثر منها في أيّ موقف سواه، بل أكاد أقول إنّ هذا الظرف لو لم يوجده تتابع الحوادث لوجب إيجاده طمعاً بالنتيجة النبيلة التي ذكرت.

* * *

اقرأ الخطب الرسمية في حفلة الحكومة تجد من عبد العزيز باشا فهمي[٢] التقرير اللبق لكفاية المحاماة المصرية والإشادة بذكر أفذاذها بطريقة موجزة ولكنّها وافية. وفي خطب كل من خطباء حفلة المحامين إعراب عن استياء وأسف، ولكنّه إعراب غاية في الكياسة واللباقة مع التقرير الصريح لكفاية القضاء المصري. لا تجد في بيان أحد منهم

قولاً مريراً أو تهكّماً قارساً أو غمزة من تلك الغمزات الركيكة التي يروق بعضهم أن يسمّيها نكتة وظرفاً وما هي في الواقع إلّا كشف عن جانب من الخلق غير محمود. حتى تورية الأستاذ فكري أباظة كانت مشرقة إشراقاً.

ونبحث في خطب الفريقين عن علامات التهاجر فنجد الرغبة في الاتحاد مع حرص جميل على الروح التي يحتفون بعيدها: روح العدل وذكرى تأسيس صرحها المحسوس في مصر. وفي هذا بلا شكّ ما يقوم بمؤاساة الأستاذ مرقس فهمي(٣) الذي كان الأسف شديد الظهور في خطابه.

وكان الأستاذ مكرم(٤) بارعاً في طريقة إيراد أسماء الزعماء السياسيين الذين خرجوا من صفوف المحاماة، بل كانت فقرته تلك موقّعة توقيعاً موسيقياً. وإنّي لأتخيّل نبرات صوته الأغنّ في الخطابة (الذي سمعته في تأبين سعد زغلول فقط) فأدرك كم كانت جملته بعيدة الأثر عند السامعين.

ولكنّه قال فيما قال إنّ «... أجدادنا المصريين... عندما اخترعوا فنّ الكتابة... إلخ». والمصريون عالجوا تصوير الكلام بالصور الهيروغليفية. أمّا «فنّ الكتابة» فقد أوجده الفنيقيون ونشره، على ما يقال، مواطنهم قَدْموس(٥) في بلاد اليونان وغيرها. والحروف المستعملة اليوم في الأبجدية اللاتينية التي هي أكثر الأبجديات شيوعاً في الغرب ما زالت تختزل أسماءً فينيقية. أمّا في أبجدياتنا السامية فتلك الأسماء الفينيقية واضحة الوضوح كله.

وقال الأستاذ النقيب معارضاً قاضي القضاة إنّ القضاء المصري لم تحتضنه إنجلترا عند نشأته. فوقفت طويلاً عند هذه الكلمة. وهل الأستاذ مكرم أعرب عن يقينه الصميم عندما قالها، أم هي الحميّة القومية التي أوحتها؟ ويجوز التعليق على جملة عبد العزيز باشا في هذا المعنى أنّ هذا الاحتضان بادئ ذي بدء فيما لو ثبت لا ينال من الكرامة القومية بوجه من الوجوه، وعلينا أن ننصف إنجلترا فنقرّر ما هو معروف عن شعبها من الاحترام للقانون وللعدل بصورة عامّة.

* * *

والخطب جميعاً بألفاظها وأسلوبها وبطريقة التفكير فيها تعلن انتصار التجديد في كتابة اللغة العربية. ويروقنا أن نرى ذلك خصوصاً في خطب وزير الحقّانية وعبد العزيز باشا ومحمد لبيب عطية بك(٦) الذي عوّدنا في بياناته من قبل الإنشاء المحكم الناصع، فلا تطويل مملّ، ولا كسل في الفكر، ولا استعارات قديمة ولا «كليشهات» بيانية غير شيء طفيف جدّاً. وبالجملة فإنّ هذه الخطب ذات الصبغة الرسمية ومهمّتها أن تروي حديثاً هو بطبيعته غير مشوّق وغير طليّ - جاءت على نمط بياني صادق حسن. فليتعزّ الأدباء المجدّدون وليتشجّعوا!

وقد لاحظت «الأهرام» أنّ برامج الاحتفالات (الحكومية) المطبوعة باللغة الفرنسية قد عدلت عن تسمية المحاكم الأهلية Tribunaux Indigènes وأسمتها Tribunaux Nationaux .

فمن ذا الذي فكر في إحداث هذا التغيير؟

إنّ كلمة (indigène) في أصلها اللغوي الصميم لا غبار عليها إذ أنّها تعني الشيء أو الشخص الأصيل في البلد ومن البلد. ويعبّر الإنجليز عنها بكلمة (native). ولا اعتراض على نعت الحاجة أيّة كانت بالبلدية، وعلى تسمية الشخص بابن البلد.

إلّا أنّ الاستعمار الذي تناول حتّى بعض الألفاظ فشوّه معانيها، قد أطلق هذه اللفظة على الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) دون غيرها فلا يسمّى الشعب المستعمر (بكسر الميم) بهذا الاسم في وطنه، بل يخصّ بها أهل البلاد التي أخذ الاستعمار على عاتقه أن يهذّبها ويرقّيها ويدفق عليها سيل حضارته. فصارت كلمة (indigène) تثير صورة مزعجة من الجهل والانحطاط والذلّ التي يأبى الاستعمار إلّا أن يراها في البلاد التي يلقي عليها (شبكته). واليد التي أزالت هذه الكلمة من البرامج قد أدّت خدمة صغيرة في ذاتها كبيرة بمعناها. إنّه لمن العدل أن يتمّ هذا العمل العادل في عيد العدل.

وأمّا ونحن نتكلّم عن الألفاظ فهل يمكننا أن نسأل وزارة العدل لماذا تحتفظ باسمها المغلوط؟ «حقّانية»؟ أترضى العربية الفصحى بلفظة كهذه تطلق على وزارة العدل؟ لا أظنّ. وكما بدلت كلمة indigène فعلى وزارة الحقّانية أن تتخذ لنفسها اسماً عربياً صحيحاً.

* * *

بقي الشعر، وللشعر عندنا حرمة:

أيّـهـا المظـلـوم في هـذا الـورى ... قف، فهذا الباب من باب السماء!

ارفـع الـرأس، فـفـي هـذا الحمـى ... يشمـخ الضعفى ويعنو الأقوياء!

مـنـطـق المظـلـوم فيه مـن شـبـا ... ويـد الجبّـار فيه مـن هـبـاء...

عال، يا أستاذ عبد الله عفيفي(٧).

«بس» ما قولك في إبدال لفظة الجبّار في البيت الثالث بلفظة الظالم؟

الجبّار في رأي القاموس، هو المتسلّط، القاهر، المتكبّر، المتمرّد. وقد يكون المرء كل أولئك معاً دون أن يكون حتماً ظالماً في القضية المعروضة على هيئة العدل. أمّا إذا كان ظالماً فهو ذاك ليس غير، فضلاً عن أنّ هذه الكلمة هي المعارضة للتي سبقتها وهي أوفق إحكاماً في اتزان المعنى. وقارئ الشطر الأول ينتظرها بالبداهة في الشطر الثاني.

ومسك الختام - إذ لا بدّ لختام هذه العجالة من مسك: «كل نصف قرن وأنتم بخير»!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٢٧، ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٣٤، ص ١ .

(١) تشير الكاتبة هنا إلى الأزمة التي ظلّت تختمر لفترة بين هيئة المحاماة الخاضعة لسيطرة حزب الوفد وبين وزارة إسماعيل صدقي (١٩٣٠ - ١٩٣٣)، والتي لم تلبث أن تفاقمت عندما رفضت حكومة عبد الفتّاح يحيى الاعتراف بانتخاب مكرم عبيد، أمين عام للوفد، نقيباً للمحامين فلم تدعه إلى الاحتفال بالعيد الخمسيني للمحاكم الأهلية الذي أُقيم في دار الأوبرا الملكية في ٣١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣ . نظّم عبيد - ردّاً على ذلك - احتفالاً منافساً في فندق هليوبوليس بالاس، وأفادت تقارير الصحافة أنّ حفلته اجتذبت أكثر من ١٣٠٠ محام بيد أنّ الحفلة الرسمية في دار الأوبرا لم يحضرها إلّا ٢٠ محامياً. لمزيد من التفاصيل راجع مقال Donald M. Reid بعنوان "The National Bar Association and Egyptian Politics, 1912-1954" المنشور في *The International Journal of African Historical Studies* ، الصادرة عن مركز الدراسات الإفريقية (African Studies Center) في بوسطن/ مساتشوستس، س ٧، ج ٤، ١٩٧٤، ص ٦٢٨ - ٦٣٢ . فيما يختصّ بمكرم عبيد أُنظر موجز ترجمته في الهامش رقم (٤).

(٢) عبد العزيز فهمي (١٨٧٠ - ١٩٥١)، سياسي وقانوني مصري. مارس المحاماة ثمّ القضاء. أُنتخب عضواً في الجمعية التشريعية عام ١٩١٣ ونقيباً للمحامين ثلاث مرّات منذ عام ١٩١٤ . كان إلى جانب سعد زغلول وعلي شعراوي ضمن الوفد الذي تقدّم للمندوب السامي البريطاني Wingate في ١٩١٨/١١/١٣ بطلب استقلال مصر، ولعب دوراً بارزاً في ثورة ١٩١٩ . شارك في تأسيس حزب الأحرار الدستوريين وتولّى رئاسته عام ١٩٢٤ . تبوّأ منصب وزير العدل ١٩٢٥، فرئيس محكمة الاستئناف ١٩٢٨. نادى بإلغاء الامتيازات الأجنبيّة والمحاكم المختلطة كما تعرّض لانتقادات حادّة من الأوساط المحافظة بسبب رفضه تعدّد الزوجات واقتراحه الاستعاضة بالحروف اللاتينية عن الخطّ العربي.

(٣) مرقس (أو مرقص) فهمي (١٨٧٠ - ١٩٥٥)، محام قبطي أنهى دراسته في جامعة إكس أن بروفانس (Aix-en-Provence) بفرنسا وشارك في نشاطات الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومن تلوه. عُرف على وجه الخصوص بعمله «المرأة في الشرق» الصادر عام ١٨٩٤ والذي دعا فيه إلى القضاء على الحجاب وإباحة الاختلاط وتقييد الطلاق ومنع تعدّد الزوجات وإباحة الزواج بين النساء المسلمات والنصارى.

(٤) وليم مكرم عبيد (١٨٨٩ - ١٩٦١)، سياسي ومحام قبطي. انضمّ إلى حزب الوفد بعد الحرب العالمية الأولى وأُعتقل عدّة مرّات. صار ربيباً سياسياً لسعد زغلول وأصبح بعد وفاته عام ١٩٢٧ أميناً عامّاً للحزب والرجل الثاني فيه لسنوات طويلة. كان نائباً عن مدينة قنا في كلّ برلمان نال الوفد أغلبية مقاعده. تولّى منصب وزير المواصلات عام ١٩٢٨ فوزير المالية في الوزارات الوفدية للأعوام ١٩٣٠، ١٩٣٦ - ١٩٣٧ و ١٩٤٢ . أُنتخب نقيباً للمحامين عام ١٩٣٤ . انفصل عن الوفد عام ١٩٤٢ بعد اختلاف مع زعيمه مصطفى النحّاس باشا وألّف كتاباً سمّاه «الكتاب الأسود» الذي اتّهم فيه قيادة الحزب وبعض وزرائه بمخالفة القانون وبممارسات فاسدة، ثمّ أنشأ حزباً جديداً باسم «الكتلة الوفدية» وأصدر له جريدة خاصّة. شاركت الكتلة الوفدية فيما بعد في بعض الحكومات الائتلافية التي كان الوفد مستثنى منها.

(٥) قَدْمُوس، بطل أسطوري فينيقي رُوي أنّه أسّس مدينة طيبة في اليونان ونقل إليها الأبجدية.

(٦) محمّد لبيب عطية، النائب العمومي لدى المحاكم الأهلية منذ آذار/مارس ١٩٣٣ وأحد الخطباء الثلاثة في الحفلة دار الأوبرا المذكورة أعلاه. أُنظر كلمته في «الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية ١٨٨٣ - ١٩٣٣»، صدر عن وزارة الحقانية المصرية، جزءان، المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٧ - ١٩٣٨، ج ٢، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

(٧) عبد اللّه عفيفي (؟ - ١٩٤٤)، أديب وشاعر مصري، خريج الأزهر ودار العلوم في القاهرة. درّس اللغة العربية في مدارس حكومية، ثمّ عمل محرّراً عربياً في الديوان الملكي. وعيّنه فؤاد الأوّل إماماً للقصر الملكي. أُنظر النصّ الكامل لقصيدته المقتطف منها في مقال ميّ زيادة في «الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية ١٨٨٣ - ١٩٣٣»، المرجع الآنف الذكر، ج ٢، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

حول مشروع القرش وغيره

من المشروعات الاقتصادية الأخرى التي يقوم بها الشبّان

لسنا نسوق نبأً طريفًا إذا نحن ذكرنا السرور الذي خالج جميع الأفئدة عندما انبرى الشبّان يعالجون حركتهم الاقتصادية، ولا نحن نغالي إذا قلنا إنّ الحماسة البريئة أخذت بمجامع النفوس عندما قام الشباب ينتبه إلى النقص المحسوس في صناعة بلاده وتجارتها فشرع يعمل على إصلاح النقص وسدّ الفراغ بمقدار ما يستطيع.

ابتهاج جديد سرى في الملايين المصرية فاشرأبّت القلوب إلى هذا الشباب الذي نهض يستثير بعضه بعضاً وينظّم صفوفه ليروّج فكرته موقظاً النائمين، منبّهاً الغافلين، مرهفاً نشاط العاملين في حين هو يرهف نشاطه في ذاته مستوعباً شيئاً فشيئاً بالخبرة والمران فكرة الواجب الوطني، مكتشفاً يومًا فيومًا من الحياة القومية نواحي تتطلّب العناية والإصلاح والتنظيم.

ابتهج الجميع لحركة الفتيان، وزاد في الابتهاج أنّ تلك الحركة الميمونة بريئة من النزعات السياسية، خالصة من الصبغات الحزبية، لا يستأثر بها مستأثر فرداً كان أو جماعة أو غاية. هذه دعاية ينشرها الشباب المصري في سبيل الصناعة المصرية، بصرف النظر عمّا إذا كان الصانع أو التاجر المصري من هذا الفريق السياسي أو ذاك، وبصرف النظر عمّا إذا كان الفتى المروّج للدعاية من هذا اللون الحزبي أو ذاك. الصناعة مصرية. وكفى. وهو مصري يدعو إلى ترويجها وكفى. لأنّ الصناعة المصرية يجب أن تنشط وتنمو وتروج ليتمكّن الصانع من زيادة الإنتاج وتحسينه، فيكون للشاري وللبائع وللمروّج الفضل (فضل هو في الواقع واجب) في إنهاض الصناعة بوجه عامّ، مع تيسير أسباب العمل لليد المصرية.

مبدأ وغاية فيهما العدل كله والحقّ كله. وعلى ذلك تحمّس الجميع لمشروع القرش ورحّبوا به الترحيب الذي شهدنا في العامين السالفين. فكان طابع القرش الأخضر البهيج رمزاً - في نظر الجمهور - إلى نهضة الشباب القائم بتوزيعه[1]، وكان شارة عيد فتيّ يساهم الجميع في أفراحه[2]، وكان موضوع رجاء حيّ بهذا الشباب الذي رغم حداثة سنّه، أنشأ يعنى بالموضوعات الوطنية الجدّية.

قرش الفتيان، وطابع الفتيان، وعيد الفتيان! كل أولئك كانوا بمثابة شروق جديد في تاريخ البلاد. وكان صباح، وكان مساء... فإذا الاختلاف يدبّ بين الأعزّاء الذين رأينا فيهم رمز الاتفاق، وإذا الاستقالات تتوالى من اللجنة والعضوية فيها، وإذا البيانات المتعارضة من الفريقين تترى، وإذا الشكوى تعلن صريحة من الناحية الواحدة مكبوتة من الناحية الأخرى. وإذا بنا نتساءل عن مصير مشروع القرش وعن مصير الآمال التي علّقناها ليس على القرش وحده بل على كل ما ينمّ عليه القرش من المعاني.

أيّة كانت نتيجة الدعاية للمشروع في هذا العام، سواء أجاءت النتيجة خصبة أم مجدبة أم بين بين، فإنّ كيان المشروع المعنوي قد خالطته الشكوك ورأس ماله الذي كان قويّاً بالاتحاد والثقة والإيمان أصبح اليوم... ماذا؟[3]

* * *

لسنا ندري بالضبط أيّ الأيدي كانت في البدء عاملة على تسرّب أسباب الاختلاف بين المؤتلفين. ولكنّنا ندري أنّ من الناس من لا يريد لهذا المشروع نجاحاً. ولست هنا في حاجة إلى الإيضاح.

كذلك ندري أنّ من الناس من لا يتردّد في مدّ إصبعه بواسطة إصبع أخرى تستعمل هي أيضاً إصبعاً غيرها، إلى هذه الكتلة المتحدة (وإلى كل كتلة من نوعها) لتجعل اتحادها انقساماً تنفيذاً لأغراض غير أغراض المشروع الناصعة، أو لتلقي عن طريق هذه الكتلة دعاية لها صريحة أو ملتوية. وليس أولئك المتسرّبون عن طريق غيرهم وغيرهم، هم فقط الذين يتبادر اسمهم إلى الذهن لأول وهلة. لا، ليس هم فقط، بل هناك آخرون. وهنا أيضاً لست في حاجة إلى الإيضاح.

ولئن كان لكل من الناس أن يسعى إلى نشر دعايته على الوجه الذي يختار فإنّنا نقابل استسلام الشباب البريء لتلك الحركات بشيء غير قليل من الحزن. يحزننا أن يرضوا، ولو بغير سوء نيّة، أن تتسرّب مختلف الصبغات إلى لونهم الرائق. يحزننا أن ينسى الشبّان أنّهم في عملهم لمشروع قومي صرف إنّما هم شخص واحد لا أشخاص عديدون. يحزننا أنّهم لم يكونوا قساة - أجل قساة إلى أقصى حدود القسوة الأدبية - في الذود عن حِمى دعايتهم، ليحتفظوا بها ظاهرة وطنية عامّة شاملة مكينة لا يترامى إليها خيال التفريق أو الانقسام أو الاختلاف.

يحزننا كل ذلك، فلا عجب إذا نحن - نحن الجمهور - سقنا إليهم هذه «الخناقة» وفيها كل ما يستطيعون تصوّره من اللوم والتعنيف والتذكير.

أمّا اللوم والتعنيف فهم حقيقون بهما من أجل هفوتهم تلك، وما أكثر ما تجرّ الهفوة إلى مؤلم النتائج!

وأمّا التذكير فيخيّل أنّهم في حاجة إليه، رغم المثل الأعلى الذي لو هم جعلوه دائماً نصب أعينهم ما وقع بينهم سوء التفاهم الذي نأسف له اليوم.

* * *

والمثل الأعلى الذي أعني هو بنك مصر وشركاته. هذا مثل قريب، لا يحتاج المدرك إلى كبير مجهود ليدركه، ولا هو يتطلّب خيالاً عجيباً ليراه الناظر.

فهل تحزّب بنك مصر لهذا الفريق أو ذاك، وهل اصطبغ بصبغة هذه السياسة المحلّية أو بصبغة تلك السياسة الدولية؟

أقول لكم، أيّها الشبّان، ولا أقول لسواكم إنّ بنك مصر وشركاته لو هم نزعوا منزعاً ما في السياسة والحزبية ما فازوا بهذا النجاح ولا كانت لهم هذه المكانة عند الجميع.

أقول لكم، أيّها الشبّان، ولا أقول لسواكم إنّه رغم عبقرية القائمين بشؤون بنك مصر ورغم أريحيتهم، ما كان لبنكهم ولبنككم أن يظفر بالتفاف الجميع حوله لو لم يكن خالصاً من أثر كل دعاية غير دعايته الوطنية القومية الخاصّة.

لهذا البنك حزب شامل هو حزب مصر، وراية خافقة هي راية مصر، ودعاية حضّانة هي الدعاية لمصر، وكرامة حسّاسة غيورة غضنفرية تنبذ كل ما قد ينال منها حقيقياً كان أو وهمياً. أحاط بكل ما يناط به من الآمال فقام على تحقيقها أملاً أملاً، وعرف تخوم ميدانه فتفرّغ لأعماله يتقنها ويقيها خيال أيّ معنى آخر. لذلك تبوّأ مكانته وأصبح عزيزاً لا كمؤسّسة مالية اقتصادية فحسب، بل كشخصية وطنية حيّة تسعى للفائدة العامّة مجرّدة عن كل دعاية لا تدخل في جدول أعمالها.

كذلك يجب أن يكون مشروع القرش، ومشروع العيد الاقتصادي، وكل مشروع يقوم به الشباب خدمة لبلاده وخدمة لنفسه أيضاً.

أجل، في مثل هذه الخدمات يخدم الشباب نفسه خصوصاً. ولست أعني فقط النواحي المالية الاقتصادية الاجتماعية حيث يتهيّأ العمل لعدد من الفتيان بواسطة هذه المشروعات، بل أعني خصوصاً الناحية الأخلاقية من حيث تربية النفس على العمل الجادّ وتعويدها معالجة الأمور ذات الأثر العامّ، والسير في استقلال عملي نبيل مع قدرة التمييز بين مختلف الشؤون والأفكار والعواطف.

فالشخصية الكبيرة القويّة حقّاً - ونحن نريد لكم هذه الشخصية التي تطمعون فيها لنفوسكم - تستطيع أن تميّز بين فكرة وفكرة وبين شأن وشأن. فتترك لكل من أولئك حقّها واستقلالها جميعاً ولا تسمح لفكرة كائنة أهمّيتها ما كانت أن تطغى على فكرة أخرى لتفنيها فيها أو لتنتقص منها شيئاً. ويجب أن ينطبق هذا المسلك الحرّ العادل على الشؤون الاقتصادية والثقافية والفكرية أيّاً كان نوعها. فإنْ لم تنهجوا هذا النهج ففي أيّة «سَلَطَة روسية» تغوص شؤونكم ومشروعاتكم[٤]؟

هذه هي «الخناقة المهلهلة» التي أوجّهها إليكم جميعاً، يا حبايب! «خناقة» تعلمون أنتم أنّكم تستحقّونها. ويقيني أنّها لا تغضبكم. بل على النقيض، أراكم تتلقّونها معترفين بأنّها في محلّها.

حركتكم بعثت فينا الحماسة والرجاء. وانقسامكم يغشّينا بما هو ليس حماسة ولا هو رجاء... فارحموا نفوسكم وارحموا هذا الجمهور الذي يفرض عليكم أن

تكونوا أهلاً لثقته. وإنّما هو يفرض عليكم كثيراً لأنّه ينتظر منكم كثيراً ولأنّكم تستطيعون كثيراً في سبيل بلادكم.

هاكم العلم المصري!

أفتنقسمون حياله وتختلفون في محبّته وإكباره، أم تكونون كلّكم شخصاً فرداً للذود عن كرامته والاستماتة في سبيل صيانة شرفه؟

كذلك أنتم شخص واحد وقلب واحد ويد واحدة في ما يتعلّق بمشروعاتكم القومية الخاصّة المستقلّة عن المعاني الأخرى!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٣٨، ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٣٤، ص ١ .

(١) أُصدر في شباط/فبراير ١٩٣٢ طابع بريد تذكاري تخليداً لأوّل حملة أُقيمت في إطار مشروع القرش.

(٢) شهدت الحملة الأولى ذروتها في احتفالات أُقيمت في حديقة الأزبكية بالقاهرة في يومي الحادي عشر والثاني عشر من شباط/فبراير ١٩٣٢ وشارك فيها زهاء ٨٥٠٠٠ نفر.

(٣) تعلّق ميّ زيادة بهذه الملاحظات على استقالات أحمد حسين مؤسّس مشروع القرش وأعضاء آخرين من اللجنة التنفيذية للجماعة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٣ . وقد رجعت تلك الاستقالات إلى الضغط الشديد الذي مارسته دوائر وفدية بشكل خاصّ متّهمة حسين ورفاقه بأنّهم أقدموا على تجريد المشروع من طابعه الأصلي غير السياسي بتأسيسهم الجمعية السياسية الجديدة «مصر الفتاة» في ١٢ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٣٣ . كما شكّكت بوسائل استثمار التبرّعات المتجمّعة. وخلال الشهور التي تلت لم يتمّ تنظيم لجان لمقاطعة مشروع القرش فحسب بل حاول بعض الطلاّب في كانون الثاني/يناير ١٩٣٤ إعاقة الاجتماع في حديقة الأزبكية فاعتقلتهم الشرطة. وقد ألحقت هذه المناوشات ضرراً بالمشروع، فلم ينل النجاح الذي حقّقه في السنوات الأولى.

(٤) لعلّ الكاتبة تلمّح هنا إلى الأحوال السياسية المضطربة في روسيا أثناء الثلاثينات من القرن العشرين وهي حقبة حركات التطهير الشاملة التي حقّق بها ستالين القضاء على مناوئيه واضعاً نفسه على الطريق إلى الانفراد بالسلطة.

مشكلة المشاكل في مصر: التعليم (١)

وبعض المشاكل الأخرى المتصلة بها

وددت لو أنّ لكلامي وزناً كبيراً ورجحاناً كبيراً لتأييد السيّدة إحسان القوصي[١] والأستاذ فليكس فارس[٢] في مجاهرتهما بأنّ رفع مستوى التعليم يضرّ مصر أكثر ممّا ينفعها في الوقت الحاضر.

اطّلع القرّاء في «أهرام» الأمس على المحاضرتين المتعارضتين اللتين ألقتهما كل من السيّدة إحسان القوصي يعضدها الأستاذ فليكس فارس من الناحية الواحدة، والسيّدة إستر فهمي ويصا[٣] يعضدها الأستاذ حنفي جمعة المحامي[٤]، من الناحية الأخرى - بدعوة من جماعة نشر الثقافة بالإسكندرية. وتأييدي للرأي القائل بضرر رفع مستوى التعليم في الوقت الحاضر لا يغضّ من تقديري للرأي النبيل القائل برفع مستوى التعليم لنشر المعارف بين الجميع.

فنحن نستطيع أن نقدّر رأياً دون أن نرى الوقت قد حان لتحقيقه. ونظلّ نقدّره ونتذوّق جماله والغاية الشريفة منه حتّى عندما نرى أنّه لم يفلح في بلد من البلدان وأنّ ذيوع تحقيقه في الشعوب الأخرى مع النتائج التي أدّى إليها هو الذي يحملنا على الحذر منه فيسوقنا إلى العمل على تلافيه قدر المستطاع.

أجل، قدر المستطاع لا غير. إذ أنّ ميدان الحياة أوسع من ميدان الآراء، والرأي لا يقوى على ضبط العمل من جميع النواحي. ومن الشؤون ما يبدو مضرّاً أو لاغياً على الأقلّ. فإذا بالحياة وقد أتت بدورة من دوراتها السحرية مظهرة الأمر الذي كنّا نظنّه لاغياً بمظهر الضرورة الملحّة. وما كنّا نظنّه ضارّاً ينقلب نافعاً النفع كله.

ولكنّ ما لا نستطيع الإغضاء عنه هو أنّ مشكلة انتشار التعليم في مصر قبل أن تكون البلاد على استعداد لتقديم العمل في ميادين مختلفة لأبنائها المتعلّمين، أصبحت

مشكلة متعقّدة شديدة الخطورة، ليس في يومنا الراهن فقط، بل هي تلوّح بمزيد من التعقيد والخطورة في الغد المباشر - فضلاً عن الغد الذي يليه.

* * *

يقولون إنّ ذاكرة المرأة عنيدة. وهي كذلك ولو في بعض الموضوعات. وذاكرتي جدّ عنيدة فيما يختصّ بمشكلة التعليم التي سبق أن عالجتها في سلسلة مقالات بالأهرام، قبل أربعة أعوام أو تزيد(٥)، عندما كان مجلس النوّاب على وشك بحث مشروع تعميم التعليم الإلزامي مع النظر في فتح باب التعليم العالي على مصراعيه. فقلت، ولا أزال أقول، بتقييد التعليم العالي وجعله مقصوراً على المستعدّين له بفطرتهم، وبجعل الإلزامي متطابقاً وحاجة البلاد، متوافقاً وحالة الأكثرية من أبناء الفلّاحين بحيث لا يصرفهم عن العمل في الحقول ولا يحوّل قلوبهم عن محبّة الأرض. إنّ حشو الأدمغة بما لا تحتاج إليه الأدمغة ولا قبل لها به ليس في مصلحة البلد ولا هو في مصلحة الأفراد والجماعات. ومجرّد تحويل فتيان هذا الوادي الخصيب إلى «أفندية» يملأون الحانات والبارات ليس ليرهف الخصب ولا هو ليعمر الأرض، ولا يمكن أن يكون وسيلة لإسعادهم والنهوض بمستوى معيشتهم الحسّية والأدبية. وأزيد على ذلك أن ليس فيه شيء من معاني التقدّم...

هذا الذي ألخّصه الآن قلته قبل أربعة أعوام في تبسّط. فلا عجب لو انبرى يلومني اليوم ذاك البحّاثة المتوقّد الأستاذ أمير بقطر الذي... «مرمطني» يومئذ بأدب وكياسة وصبّ عليّ سائلاً من التوبيخ الساخن، إذ قال إنّي بكلامي عن التعليم أكشف عن «رجعية» غير منتظرة وإنّي من صغار الخلائق النونو الذين لا يفقهون في التعليم شيئاً...(٦).

ولكن لو انبرى حضرته للومي اليوم وضعت تحت نظره ردّه على استفتاء ناظر المدارس المرقسية بالإسكندرية في شأن تعليم أبناء الفقراء. وهو ردّ أضع تحته توقيعي بدون تردّد. وأكثر الردود على ذلك الاستفتاء البارع كانت (ولو لم يكن أصحابها عالمين بذلك) مؤيّدة ذلك الرأي «الرجعي النونو» الخاصّ بصغار الخلائق... إلخ.

وأكثر أبحاث الصحافة في هذه الأعوام - إنْ لم يكن كلها - يقول بوجوب التحرّز في معالجة التعليم ويلفت النظر إلى مشكلة المتعلّمين العاطلين وإلى تفشّيها في البلاد مع جلب التعاسة إلى ذويها، وإلى الأهل الذين أنفقوا على أبنائهم جزافاً، فضلاً عن تضعضع آمال المتعلّمين وسوء ظنّهم وتشاؤمهم حيال المستقبل المهاجم.

* * *

والمشكلة ليست قاصرة على أبناء الفقراء وأبناء الفلّاحين بل هي تتناول أبناء الطبقة المتوسّطة بمختلف درجاتها، ولا ينفلت منها أبناء الطبقة العليا كائنة ثروتهم ما كانت. لست أنسى قول أحد المفتّشين الإنجليز بوزارة المعارف، إذ كان يدرّسني اللغة الإنجليزية، وهو من أكثر الذين عرفتهم أستقامة وأصالة رأي. قال عن أحد أبناء كبار الأعيان «إنّه جنتلمن من الطراز الأعلى. ولكن بدلاً من أن يدرس الآداب والعلوم ويضيع الكثير من أعوامه في أكسفورد مثلاً، عليه أن يفتح «جراجاً» لأنّه بارع في قيادة السيارات بينا لن يعلق على ذاكرته من المعارف المدرسية شيء». ويشهد الذين يعرفون ذلك الشابّ الجنتلمن كل الجنتلمن أنّ الأمر هو بالضبط كذلك. وموهبة قيادة السيارة أو الموهبة الميكانيكية ليست دون غيرها أهمّية. ولكنّها ليست موهبة الطبّ أو المحاماة أو الأدب.

وأمثاله كثير، ليس في مصر أو في الشرق فقط، بل في مختلف بلدان الغرب. هناك كذلك أخطأوا بنشر التعليم في غير تبصّر. هناك كذلك لم ينظروا إلى الموهبة هل هي موجودة أو غير موجودة ولم يعنوا بما تتطلّبه الحاجة ليقفوا عنده. هناك أيضاً حشروا الطلبة في معاهد الدراسة وها هم اليوم لا يدرون ماذا يصنعون بهم بعد أن خرجوا من المدارس بشهادات مهلهلة وبألقاب لم تطلق أيديهم في الأعمال فانقلبت عليهم عبئاً وعذاباً.

أغرتنا كلمات رنّانة أغرت العالم من قبلنا فاسترسلنا في الأخذ بها فوجدنا أمامنا جداراً لا وسيلة إلى اجتيازه. صدّقنا أنّ العلم نور ولكن فاتنا أنّ العلم علوم شتّى، وأنّ المعرفة معارف لا تحصى وأنّ النور كله في تنوّع صنوف النور.

صدّقنا، وصدّق العالم قبلنا، كلمة فيكتور هوغو الجميلة أنّ من فتح مدرسة أغلق سجناً. وواقع الحال الذي يجبهنا هنا كما في بلاد أخرى هو - وا أسفاه! - أنّ

الشرّ أمسى يقام على أسس علمية، وأنّ بعض المدارس لو لم تفتح ما اكتظّت بعض السجون ببعض المساجين، وأنّ بعض الناس لو هم اكتفوا بكمّية من المعارف الأولية البسيطة لكانوا أغلقوا في حياتهم أبواباً للشقاء والبطالة وتضعضع الحياة...

عدت إلى هذا الموضوع الذي يجب إرهافه وإنالته كل ما يستحقّ من العناية والاهتمام. عدت لأقول مع القائلين إنّ من شاء تعلّم القراءة تحتّم عليه أن يتعلّم الهجاء أوّلاً: أ.ب.ج.د = أبجد. ونحن ما زلنا نتهجّا الحياة ففي الحياة كما في القراءة يجب أن نعلم أنّ أ.ب.ج.د = أبجد.

عدت، ولا أظنّني أقف هنا. فإذا كان لدى الأستاذ أمير بقطر أو لدى غيره شيء من التوبيخ الساخن فليتفضّل باسم اللّه[٧].

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٧٢، ١٨ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ .

(١) إحسان القوصي (١٨٩٥ - ؟)، تربوية مصرية، من رائدات الحركة النسائية. شاركت في تأسيس كل من جمعية المرأة الجديدة عقب أول مظاهرات نسوية شهدتها ثورة ١٩١٩، ولجنة الوفد المركزية للسيّدات في كانون الثاني/يناير ١٩٢٠، والاتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣ . أدارت مدارس بنات مختلفة ابتداءً من ١٩٣٠، ثمّ تبوّأت منصب مفتّش لمدارس البنات في وزارة المعارف، وتولّت ما بين ١٩٤٦ - ١٩٥١ إدارة المعهد العالي للخدمة الاجتماعية المنشأ حديثاً آنذاك. ألّفت كتابين في موضوع الخدمة الاجتماعية كما ترجمت عن الإنجليزية بعض الأعمال المتعلّقة بمسائل تربوية. يقال إنّها كانت من بين النساء القلائل اللائي كنّ يتردّدن على صالون ميّ زيادة.

(٢) فليكس فارس (١٨٨٢ - ١٩٣٩)، أديب ومحام لبناني. مارس التعليم في بعض المدارس اللبنانية وكتب لصحف ومجلّات في مصر ولبنان. أصدر في بيروت ما بين ١٩٠٩ - ١٩١١ صحيفة «لسان الاتّحاد» التي كانت أسبوعية ثمّ تحوّلت الى يومية، ودرّس اللغة الفرنسية بالمدارس السلطانية في حلب حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى. عاد إلى لبنان ليزاول المحاماة، بعد رحلة إلى الولايات المتّحدة ١٩٢١ حيث أجرى اتّصالات وثيقة مع أدباء المهجر من السوريين واللبنانيين. أقام في الإسكندرية اعتباراً من عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيساً لقسم الترجمة في مجلسها البلدي. كتب بعض الروايات والقصص والقصائد، وترجم كتاب نيتشه «هكذا تكلّم زرادشت» إلى جانب أعمال أخرى نقلها عن الفرنسية. عُرف خصوصاً بخطبه ومحاضراته وقد نُشر جانب منها عام ١٩٣٦ في كتاب «رسالة المنبر إلى الشرق العربي».

(٣) إستر فهمي ويصا (١٨٩٥ - ١٩٩٠)، تربوية مصرية، تعدّ إلى جانب إحسان القوصي من بين مؤسّسات جمعية المرأة الجديدة ولجنة الوفد المركزية للسيّدات التي انتخبت نائبة لرئيستها. كانت عضواً عاملاً في جمعية الشابّات المسيحيات منذ العشرينات وحتّى ١٩٨٣ وأحد أعضاء اللجنة الاجتماعية للصليب الأحمر. أنشأت جمعية العمل لمصر في الإسكندرية عام ١٩٢٤ وتولّت رئاستها إلى عام ١٩٦٢ . ألّفت كتابين، هما «المثل الأعلى للأمّة والدولة» المنشور عام ١٩٣٦ في القاهرة، ومجموعة خواطر صدرت عام ١٩٧٩ في الإسكندرية بعنوان «القلب الطاهر».

(٤) لم يمكن العثور على مزيد من المعلومات عن هذا الشخص.

(٥) انظر مقالات ميّ زيادة في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٥٢، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١ [٦٨]، و ع ١٦١٧٠، ١١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ [٧٠]، و ع ١٦١٨٠، ٢١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١ [٧١]، في هذه المجموعة.

(٦) تنوّه الكاتبة هنا إلى المقالين اللذين نشرهما العالم التربوي أمير بقطر في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٤، ١٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١، و ع ١٦١٨٧، ٢٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١، تحت عنوان «رجعية غير منتظرة في التعليم الإجباري».

(٧) ردّ أمير بقطر على تحدّي ميّ زيادة بسلسلة مقالات من أربع حلقات تحت عنوان «مشكلة المشاكل: التعليم» نشرتها «الأهرام» في الصفحة الأولى من أعدادها بين ٢٠ - ٢٤ شباط/فبراير ١٩٣٤ . أثبت بقطر فيها أنّ جلّ الصعوبة في المساجلات السالفة حول التعليم الإجباري كان عدم تحديد نقطة الخلاف، ومن هنا يتعيّن قبل كلّ شيء إيجاد قاعدة واحدة للنقاش، بمعنى أن يُبيّنَ أيّ الآراء يتعلّق بالتعليم الابتدائي أو الثانوي أو العالي. وحاول عبر إيراده بعض الأمثلة البرهنة على أنّ لا المناقشة في الإسكندرية ولا مقالات ميّ زيادة ميّزت الأمور في هذا المجال بشكل كاف. إذ أنّ المقصود بالتعليم الإلزامي أو التعليم العامّ هو التعليم الأوّلي وحده، فلا يُعدّ التعليم الثانوي أو العالي عامّاً. وقد حكم على وجهة نظر ميّ زيادة بلهجة لاذعة قائلاً: «وإنّني في بحثي هذا أنضمّ إلى الأكثرية من العامّة التي يطلقون عليها الآن كلمة prolétariat، أمّا أنت أيّتها الصديقة فأرستقراطية، كتابة وقولاً، ونشأة ومبدأ، وشكلاً وموضوعاً. وبحكم أرستقراطيتك تريدين أن تحرصي على الأقلّية أو الطبقة المستنيرة intelligentsia، وتلقي بطبقة العامّة في سلّة المهملات، وتريدين أن تضيق هذه الدائرة فلا يتسرّب إليها أحد من الطبقة الوسطى bourgeoisie، ولا تريدين أن تكبر هذه الأخيرة فتصبح خطراً يهدّد كيان الأمّة...».

مشكلة المشاكل: التعليم (٢)
وبعض المشاكل الأخرى المتصلة بها
شكر على التأديب، وتسجيل للتضامن

التأديب شيء حسن. ولنشكر اللّه دواماً على وجود المؤدّب الحازم الرشيد. إنّي ما كدت أقول «بم» حتّى أسبغ عليّ الأستاذ أمير بقطر تأديباً حافلاً مشهوداً، حقّ للركبان أن تسير بذكره في أرجاء الوادي من منابع النيل القدسية الخفيّة إلى مصبّاته الدنيوية العلنية. هذا، وأنا بعد أتهجّا «أبجد». فماذا ترى ينتظرني عندما أصبح من أهل «العلم نور» فترسخ قدميّ في مملكة «سعفص» مثلاً؟

ولنعترف للأستاذ أمير بقطر بكياسته في مناقشته المهذّبة، وبحسن غايته في المساواة بين... الجنسين، وبلطف تأدّبه في توزيع النعوت الأرستقراطية والبروليتارية والبورجوازية ولو على غير... استحقاق من الناحية «الأرستقراطية» على الأقلّ، في الظرف الذي يشغلنا. أمّا أنّ الأستاذ أمير بقطر بحّاثة غيور متوقّد، واسع الاطّلاع، وطني إنساني بأنبل معاني الوطنية والإنسانية فهذا ما كنّا نعرفه من قبل. ونغتبط بما قدّمه في مقالاته الأربع من دليل ناصع جديد لتأييد معرفتنا تلك.

ولكنّه في ردّه المتسلسل أغفل تماماً النقطة التي هي أسّ جوهري في كلامي، وهي – دون غيرها في هذا الموقف – تجعل التعليم مشكلة ذات لجاجة. شاء أن يتناول الموضوع من ناحية المناظرة وأنا أنتظر أن يتناوله من ناحية التأييد، وبخاصّة لأنّ حضرته يسلّم بأنّ الجميع يتفقون معي من حيث التعليم الإلزامي، أو بالحريّ من حيث أحكام تطبيقه. فإذا كان الأستاذ معي فموافقته قوّة، فعلام يناقش مضعفاً تلك القوّة؟ ولسنا في ميدان بحث معاني الألفاظ لنحدّد الغاية من كلمة رفع مستوى التعليم. فهذه الأمور

يعنَى بها الاختصاصيون فيما بينهم. أمّا وأنا أنظر إلى الأمر من الوجهة الاجتماعية والأدبية قائلة بوجوب جعل الإلزامي متوافقاً وحاجة البلاد، وبوجوب جعل التعليم العالي مقصوراً على المستعدّين له بفطرتهم، فالأستاذ بقطر وغيره يدركون ما أعني، وتحديد الألفاظ الفنّية الخاصّة بأهل التعليم ليس ممّا يدخل في موضوعنا.

الأستاذ بقطر وسائر القرّاء يعلمون أن ليس في مصر الآن من ينكر ضرورة التعليم، وأن ليس في مصر من لا يفقه أنّ التعليم المدرسي (وما يليه من تحصيل ينال طول الحياة) إنّما هو الواصل الوحيد الممكن بين الفرد الواحد وبين ما يحيط به من أفراد وجماعات وظروف وأنظمة وممكنات وعوالم. بالأمس كان الكتّاب وحدهم يدركون ذلك فكان من واجبهم أن يحملوا الجمهور على مشاركتهم في ما يدركون ويعلمون مثيرين عنده الرغبة في الإقبال على معاهد التعليم. وقد أفلحوا في ما أذاعوا وفي ما أرادوا. فالإقبال ليس ما نشكو منه اليوم، وإنّما نشكو نتيجة الإقبال والبلاد على غير استعداد لتقديم العمل لجميع المتعلّمين. هذا لباب الموضوع. والنتيجة المحتومة لهذا الإقبال لا يخلقها معالجها خلقاً ولكنّها حقيقة واقعة محسوسة تفرض وجودها الواقع المحسوس في حياة الشبّان «المدبلمين» (ذوي الدبلوما) الذين لا تجديهم شهاداتهم نفعاً، وتفرض نفسها على البلاد التي أخذت ترزح تحت عبء هذه النتيجة، وتفرض نفسها على الأهل وعلى الوزارة. وبتفاهم هذه وأولئك يتيسّر حلّ هذه المشكلة وتلافي أضرارها الخطرة المضنية.

يقال - وكثيراً ما نقرأ هذا في الصحف - إنّ مشكلة المتعلّمين العاطلين في مصر ما زالت أخفّ وطأة منها في بلدان أخرى. وهذا المنطق يتفق سواءً بسواء ومنطق المهلّلين التهليل العرمرم لتعادل الميزانية المصرية. فلو اضطرّت مصر إلى الإنفاق على جيش أوفى من هذا وعلى بحرية وطيران شأن الدول الأخرى حتى الصغيرة بعدد سكّانها، ولو اضطرّت إلى القيام بنفقات الأسلحة والمعدّات والذخائر الحربية كما يفعل الجميع - فماذا ترى تكون حالة ميزانية الدولة؟ وعلى هذا القياس، إذا كان عشرات الألوف من حملة الشهادة، ولنسمّـهم «المدبلمين»، لا يجدون عملاً والنسبة المئوية في التعليم ما فتئت في أدناها، فماذا ترى تكون الحال عندما تبلغ النسبة الخمسين من المائة؟

هذه هي المشكلة، ملخّصة في جملة وجيزة. وحولها يدور الكلام في اتفاق الجميع دون مناظرة ولا مناقشة. لأنّ المشكلة ملحّة تزيد تضخّماً وتعقّداً يوماً فيوماً بينما المدارس ومعاهد العلم تخرج الألوف المؤلّفة من حملة الشهادات عاماً بعد عام.

ولئن اتسعت مناطق العمل في مصر شيئاً فشيئاً بحكم رقيّ البلاد وتدرّجها في معارج الحضارة وتيقّظ أهلها لأعمال ومشروعات لم يكونوا يأبهون لها من قبل، فعدد المتخرّجين من طلّاب الأعمال أسرع إلى الاتساع وأسبق في التزايد. فماذا أنتم صانعون بهؤلاء الشبّان الذين أنفقوا فئة من خيرة أعوامهم في الدراسة والتحصيل فامتلأت نفوسهم بالآمال والأماني؟ كونكم مكّنتموهم من تحصيل ما حصّلوا يفرض عليكم تهيئة مستقبل يعملون فيه، فأيّ مستقبل أعددتم وضمنتم؟

بماذا يجيب على هذه الأسئلة دعاة التعليم بلا قيد ولا شرط؟ قد لا نعدم من مجيب يهتف مسوقاً بالنيّة الصالحة: علّموهم وكفى! وهذا هو الواقع الآن، وهو سلوك يجوز أن نسمّيه «المعلهش العلمية». «والمعلهش» شيء نغتفره للغافلين المستغرقين في النوم الأدبي. ولكنّي أعيذ منه هذه الأمّة الناهضة الأبيّة، وأعيذ منه هذه البلاد العظيمة في ماضيها الذي تذكره وفي مستقبلها الذي تتطلّع إليه، بل أعيذ منه الغاية الشريفة المبتغاة من التعليم في أيّ بلد من بلاد الله!

والدولة التي من واجباتها أن تمهّد السبيل وتجمّل المدن، وتسهر على صحّة الأهلين، وتمنع عنهم الأذى، وتنشر الأمن في ربوعهم، وتنفّذ بينهم شتّى القوانين الموضوعة لحمايتهم جميعاً وراحتهم وتنظيم شؤونهم - تلك الدولة من واجباتها أيضاً أن تقوم بتعليم الأفراد أو الإشراف على تعليمهم باعتبارهم أعضاءً في جسم الدولة يجب ترويضهم بالتعليم ليتسنّى لهم القيام بوظائفهم المختلفة في حياة المجتمع. ولكن لا تقولوا لي إنّ العناية بذلك المستقبل للذين تعنىَ بتعليمهم لا تدخل في عداد واجبات الدولة! فلو صحّ قول كهذا صحّ أنّ ما يهيمن على شؤون الدولة هو فلسفة «المعلهش»!

إذن ماذا؟ الأستاذ أمير معجب بما تفعله الشعوب الأخرى لنشر التعليم بين أفرادها. وأنا مثله معجبة. ولكنّي أشدّ إعجاباً بما يكتبه أفذاذ الكتّاب في مختلف البلدان لنقد التعليم والمقارنة بين نتائجه الراهنة غير المرضية في أحوال كثيرة وبين النتائج

كما ينبغي أن تكون لو روعيت حاجات البلد من جانب وكفاية المتعلّمين واستعدادهم الفطري من الجانب الآخر. للطبيعة في كل منّا مآرب، وهي لذلك تودع كل فرد استعداداً يختلف نوعاً عنه في الفرد الآخر. وتلك خطّتها في البلاد والبقاع. وكل ما يستطيعه الإنسان هو مجاراة الطبيعة وتنقيحها بنفس وسائلها مع توجيهها في حكمة ودراية إلى الهدف الذي ينجم عنه الخير للفرد وللمجموع. وليس من احترام الطبيعة أن تخرج المعاهد العلمية عشرات ومئات الألوف من «الكليشهات» الإنسانية المطبوعة على غرار واحد. وليس في مصلحة أبناء البلد الواحد ولا في مصلحة البلد أن يتهافت جميع المتعلّمين بحكم ما تعلّموه، على نوع واحد أو على أنواع معيّنة قليلة من العمل. وما تخرجه المدارس الآن، باستثناء القليل، يتطلّع إلى نفس المناطق التي ليس في البلد غيرها لمزاولة العمل. والعمل ألزم لحياة الأفرد من العلم، وإن كانت الحياة بدون علم ناقصة فهي بدون عمل مشلولة.

كل المطلوب إذن هو التسوية بين علم الأفراد وعملهم. وهو ما على التعليم الإلزامي أن يقوم به. والتعليم قائم به بلا ريب إذا هو راعى حاجات البلاد مع مراعاة استعداد كل من المتعلّمين وميله الفطري. وعلى ذلك لا يجوز حرمان الفقير والقروي من التعليم الثانوي والعالي إذا تجلّت فيه مواهب خاصّة لنوع من أنواع هذا التعليم أو ذاك. ولكن لا يجوز أيضاً أن يدفع الفقير والقروي، أو الغنيّ والعاصمي في ضروب التعليم الثانوي أو العالي لمجرّد كون العلم، كطنطا، عليه نور[1]! أفسحوا المكان كله في التعليم للموهبة الحقّة إذا هي وجدت، وضعوا كل استعداد في مكانه، ولا أعني المكان المالي أو الاجتماعي بل المكان الذي يتطلّبه الميل الفطري والاستعداد الخاصّ. وهو لا يكون في الجميع متشابهاً لأنّ الطبيعة جدّ حريصة على التنوّع. وهناك طائفة كبيرة من الناس لا تقبل طبيعتها – رغم حرص الطبيعة على التنوّع – ما يزيد على معارف قليلة مبدئية متواضعة. فعلام ترهقون هؤلاء الناس بما لا قبل لهم به وترهقون البلد بمزيد من التعقيد في مشكلتها؟

هذا كلام مجمل ألخّص فيه الردّ على النقطة الجوهرية من الموضوع. فإذا رأى فيه الأستاذ أمير بقطر «أرستقراطية» فهي أرستقراطيته بلا ريب، وهي أرستقراطية البلاد

بأسرها، وفيها راحة المتعلّمين وهم فطرية بشرية تحبّ كل منها أن تأخذ بما يتفق وميلها الخاصّ.

إنّ ما نحتاج إليه في التعليم هو «التكتيك»، أو السياسة التعليمية متطابقة وحالة البلد، متوافقة واستعداد الذين يتعلّمون.

السرّ في كل ثروة طبيعية أو مكتسبة هو التدبير. فهذا النِيل العظيم ثروة طبيعية، ولكن ماذا عسى تنفع هذه الثروة إنْ لم تدبّرها العناية الحاذقة فتوزّعها على السهول والبقاع ريّاً منظّماً محكماً وفق الحاجة؟ والتعليم ثروة عظيمة، ولكنّها ثروة ضائعة أو طاغية أو جافية إنْ لم تتناولها يد العناية الحاذقة بالتدبير والتنظيم والتوزيع المتوافق والحاجة.

أيمكن أن يكون في البلاد المصرية كلها شخص واحد لا يؤيّدني في هذا الكلام؟[٢]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٨٠، ٢٦ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ .

(١) هكذا في الأصل، وليس واضحاً المقصود من الإشارة إلى طنطا.

(٢) استمرّ الجدل بمقالين ورد كلاهما تحت عنوان «مشكلة المشاكل: التعليم» أولهما لإحسان القوصي في الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٨٦، ٤ آذار/مارس ١٩٣٤، ص ١، والثاني لعزيزة فوزي في الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٨٩، ٧ آذار/مارس ١٩٣٤، ص ١ و ١٣ . وقد أيّدت الكاتبتان ميّ زيادة فيما ذهبت إليه.

مشكلة المشاكل: التعليم (٣)

وبعض المشاكل الأخرى المتصلة بها

ميزانية المعارف في مجلس النوّاب وغير ذلك من الطيّبات

تناول مجلس النوّاب خلال جلستيه الأخيرتين في الأسبوع المنصرم، بحث ميزانية وزارة المعارف والنظر في تقرير اللجنة البرلمانية للمعارف. وقد تكلّم نفر من النوّاب المحترمين في عدّة مسائل تعليمية لها أهميّتها النسبية. غير أنّهم شغلوا كثيراً بالفرعيات والثانويات وأعرضوا عن معضلة التعليم في عقدتها الأساسية، فكأنّ هذه المعضلة لم تكن، أو كأنّها ضربت أطنابها في بلاد اسمها أيّ شيء آخر غير مصر.

لمسوا طرف العقدة عندما أشار الدكتور نظمي بك[1] إلى مشكلة المتعلّمين العاطلين. فابتدره أحد زملائه المحترمين بالسؤال عمّا يقترحه لحلّ تلك العقدة. هنا ذكّر الدكتور نظمي بك أنّه طبيب. وذكّر أنّ الطبيب ساعة ينفلت منه العلاج الفعّال أو ساعة يحجم هو نفسه عن وصف ذلك العلاج لسبب من الأسباب فهو وقتئذ يعمد إلى طبّ «التلبيخ» بغية الخروج من المأزق. وهذا ما فعله الدكتور نظمي بك عندما نصح بأن تسعى الحكومة لدى الأجانب لتوظيف عدد من المصريين المتعلّمين في البنوك والشركات وغيرها من دوائر الأعمال الأجنبية. هذا. أمّا إذا شغف أحد بالأرقام فقام بإحصاء حملة الشهادات الذين قد تستهلكهم تلك الدوائر فيما لو وافقت، فجعبه المحتوم الذي لا مفرّ منه وهو أنّ ذلك الاستهلاك الجزئي لا يحلّ المشكل في الحاضر الراهن فضلاً عن المستقبل المهدّد - قلت من أراد أن يقوم بذلك الإحصاء فهو وشأنه. وإذا كان لتلك الدوائر حججها في الاعتذار أو المداورة أو التسويف، فهي وشأنها أيضاً. وأمّا إذا وجد بين هذه الناس من لا يرى في هذا الاقتراح علاجاً فعّالاً، فهو بلا ريب من أهل الدلال والتيه!

أمّا تقرير اللجنة - باقتضابه - فقد لمس المشكلة الأساسية وبحثها بحث الجدّ والاهتمام. وأعلنت اللجنة أنّها ترجئ رأيها وإبداء ملاحظاتها إلى ما بعد الوقوف على ما تقرّره اللجنة المتشكّلة في وزارة المعارف لبحث مختلف الشؤون الهامّة في التعليم (وا حرّ قلباه على هذه اللجنة وعلى كل لجنة سواها!). بيد أنّ التقرير للجنة البرلمانية حرص هو أيضاً على ديبلوماسية «التلبيخ» فوصف وصفة الدكتور نظمي بك وغيرها، وزاد بأن نصح لحملة الشهادات العاطلين أن يعتصموا بالصبر ريثما يأتي الفرج! فها نحن أولاء، والحالة هذه، حيال كتائب من «المدبلمين» ينشدون بنفس واحد:

«الصبر طيّب، واللّه طيّب، طيّب طيّب، طيّب الصبر!». ولكنّنا هنا أيضاً تصدمنا المشكلة إيّاها، إذ أنّ جميع أولئك المنشدين ليس لهم بالضرورة صوت عبد الوهّاب[٢] وفنّه في تنغيم الآهات... إذن ماذا؟

إذن لا يسعني إلّا أن أستعين بالدرس الذي ما فتئ النوّاب والكتّاب والأطبّاء بنوع خاصّ يلقونه علينا، وهو أنّ «التلبيخ» يحسن لتسكين الألم الموضعي الطارئ السطحي. أمّا إذا كان الألم ناجماً عن علّة راسخة مستعصية تحتّمت معالجة العلّة في مركزها الرئيسي: إنْ بالعقاقير الطبّية فذاك، وإنْ بالحمية ومثيلاتها فذاك، وإلّا ففي مبضع الجرّاح العلاج المبين!

[...][٣] صادقة خلال الأجوبة التي ردّ بها على أسئلة السائلين فصرّح بأن ليس للوزارة سياسة في التعليم. فانبرت جريدة «السياسة» الغرّاء و «الشقاوة جدّاً» تعاتبه على تلك الكلمة التي لا يملك أن يقول غيرها في موضعها. و«السياسة» تعلم - وهي التي يقوم بتحريرها أولئك الأدباء القديرون والاجتماعيون الحاذقون - أنّ المناورات السياسية تجوز في الشؤون الحزبية لا في المسائل القومية المشتركة بين الجميع كمسألة التعليم. و «السياسة» تعلم أنّ السياسة التعليمية لا يمكن أن تخلق في يوم وليلة لبلد ظلّ مضعضع الشؤون طوال الأعوام، وأنّ كل سياسة في التعليم إنّما هي صورة متطابقة وسياسة الدولة عموماً. لذلك نرى للتعليم في كل بلد طابعه الخاصّ، من روسيا، إلى إيطاليا، إلى إنجلترا، إلى فرنسا، إلى أمريكا، إلى غيرها. ولذلك لا تصلح برامج البلد الواحد للبلد الآخر نظراً لاختلاف الغاية السياسية بين البلدان واختلاف طبيعة الأرض

والأعمال الصناعية وغيرها، كما لاختلاف استعداد الذين يتعلّمون. والميسور الآن هو محاولة تلمّس السياسة التي يجدر بوزارة المعارف أن تأخذ بها في التعليم، على أن تظلّ تتعهّدها عاماً بعد عام، بل جيلاً بعد جيل، بالتنقيح والتعديل وفقاً لمطالب الوقت وحاجة الأهلين. أكتب هذا إلى جريدة «السياسة» (الشقاوة جدّاً) ويقيني أنّها لا تسخط، بل على النقيض، تبتسم موافقة مؤمّنة.

خذ صحف الأمس، تقرأ في محلّياتها بعنوان «شكوى قرّاضي التذاكر الحاصلين على البكالوريا» الخبر التالي: «رفع قرّاضو التذاكر من حملة البكالوريا شكوىً إلى حضرة مدير السكك الحديدية بسطوا فيها ظلامتهم من أنّهم متساوون في الراتب والعمل بحملة دبلوم مدرسة الصنايع بحيث يتناولون ثلاثة جنيهات. وممّا زاد في المهمّ أنّ عليهم رؤساء من عساكر الرديف. وقد طلبوا في النهاية إلحاقهم بالوظائف الكتابية التي تخلو في المصلحة» اهـ.

أقدّم هذا الخبر إلى حضرات النوّاب المحترمين الذين سيستأنفون في هذا المساء بحث ميزانية وزارة المعارف والنظر في شؤون التعليم. وأسألهم عن حاجة قرّاضي التذاكر إلى البكالوريا، وعن غطرسة تلك التذاكر التي تأبى أن تقرض إلّا بيد تزينها البكالوريا، وعن الحالة النفسية عند أولئك الشبّان المساكين، وهم بلا ريب من خيرة أبناء البلاد، وقد كبا بهم حظّهم على التذاكر يقرضونها بثلاثة جنيهات شهرياً... وما دامت الحالة قد انتهت بهم إلى هذا الموقف، فإن لم يقترح حضرات النوّاب إطلاق مبضع الجرّاح في العلة – فهل من حمية على الأقلّ، وحمية موقوتة، لتخمة التعليم الثانوي والعالي؟ ويا ليت الحكومة، التي تقوم الآن بإحصاء العمّال العاطلين، تقوم أيضاً بإحصاء المتعلّمين العاطلين في تدقيق.. إذن لكان لوزارة المعارف من جرّاء ذلك عبرة. ولعلمت فوق ما تعلمه، أنّ فتح باب التعليم الثانوي والعالي على مصراعيه هو بمثابة تضخيم العلّة على حساب الصحّة، وبمثابة تغذية السرطان المداهم من أذكى دماء القلب!

ساق الدكتور مشرّفة[٤] خلال مناظرة «الروّاد»[٥] يوم الأحد الأسبق، مثل طبيب دُعي لمعالجة جريح في حالة خطرة فاعتذر الطبيب عن الذهاب لأنّه – لا بأس عليه! – مزكوم. وتطرّق الدكتور مشرّفة من هذا المثل إلى تأييد الفريق القائل برفع الطبقات غير

المتعلّمة. فانبرى الدكتور عبد الوهّاب عزّام[٦] يستخرج من حكاية ذلك الطبيب حجّة على أنّ «مصيبة هذا البلد في المتعلّمين من أبنائه» وعلى وجوب الاعتناء بالطبقات المتعلّمة أولاً لتصبح أهلاً للاعتناء بدورها بالآخرين وبإنهاضهم الإنهاض الرشيد. وكان أحدهما بارعاً في التقاط مثله براعة الآخر في الانتقاض عليه. وما علم الدكتوران الفاضلان أنّ مثلهما حجّة مفحمة في موضوعي. فأنا أقول إنّ ذلك الطبيب تعلّم العلوم الطبّية لأنّه رشّح نفسه أو رشّحه أهله لها، أو لأنّه وجد في مدرسة الطبّ مكاناً شاغراً لم يجده في مدرسة غيرها، أو لأيّ سبب غير ذلك، لا تحقيقاً لرغبة فطرية في الطبّ عنده ولا إنماءً لاستعداد فيه طبيعي. فتخرّج مدبلماً بقوّة الظروف لا تثقيفاً لموهبة خاصّة. فهو ليس بالطبيب لأن ليس له نفسية الطبيب وعقليته. ولن ينجح كطبيب أبداً إلّا النجاح السلبي الذي لا يشفي مريضاً من علّته، ولا يشفي بلدًا من جهله وأميّته، ولا هو ينشر في قوم النور الذي يزفّونه إلى العلم في جمل خطابية فضفاضة. ولو تُرك هذا الطبيب رغماً عنه، كطبيب موليير[٧]، لفطرته واستعداده الطبيعي لكان نجح في ما اهتدى إليه بسليقته من الأعمال، بدبلوم أو بغير دبلوم على السواء.

حسبي اليوم أن أقول إنّ التعليم ليس هو العلم، بل هو وسيلة إلى العلم، وإنّ العلم ليس نوراً أُذيب فانتشر، بل هو مفتاح بيد كل واحد منّا يفتح به مخدع ممكناته الخاصّة. أفيمكن أن يكون المفتاح الواحد كافياً لفضّ ملايين الأبواب؟ كل ما نطلبه هو أن يكون في يد كل من المتعلّمين المفتاح الذي يفتح به باب مواهبه الخاصّة دون مواهب جاره، أيّاً كان نوعها. وبهذه الوسيلة نوفّر على الأبواب ازدحام المزدحمين، وننصف استعدادات المتعلّمين أغنياء كانوا أم فقراء – لأنّ المواهب الفطرية لا تتقيّد بالمراتب الاجتماعية. ونأخذ بحمية (régime) طبّية ولو موقوتة، في معالجة مشكلة المتعلّمين العاطلين. وبهذه الوسيلة يمكننا الآن أن نتلافى تضخّم هذه المشكلة في يومنا وغدنا قدر المستطاع.

يستأنف مجلس النوّاب اليوم مناقشته في شؤون التعليم. فننتظر من أعضائه المحترمين أن ينظروا إلى هذه المعضلة النظرة الجادّة وأن يقولوا فيها كلام الرجال.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٩٤، ١٢ آذار/مارس ١٩٣٤، ص ١ .

(١) عبد العزيز نظمي (١٨٧٨ - ١٩٤٥)، طبيب مصري تعلّم في مصر وفرنسا وتخصّص بأمراض الأطفال. كان كبير الأطبّاء في مستشفيات الأوقاف ومن أعضاء جمعية تاريخ الطبّ الفرنسية. أصدر مجلّة «الحكمة» الشهرية في القاهرة ١٩٠٤ - ١٩٢١ كما نشر عدّة بحوث في مسائل الطبّ والصحّة. كان من أعضاء مجلس النوّاب.

(٢) محمّد عبد الوهّاب (١٩١٠ - ١٩٩١)، المغنّي والموسيقي المصري الشهير.

(٣) سقطت بداية الجملة في النسخة الأصلية، ويتعذّر الاستدلال من السياق على المحذوف.

(٤) علي مصطفى مشرّفة (١٨٩٨ - ١٩٥٠)، باحث بالفلسفة والرياضيات، من كبار رجال التربية والتعليم في مصر. تخرّج في مدرسة المعلّمين العليا في القاهرة، ثمّ في جامعة نوتنغهام (Nottingham)، فالكلّية الملكية بلندن حيث حصل عام ١٩٢٣ على الدكتوراه في الفلسفة والعلوم. عُيّن عام ١٩٢٦ أستاذاً للرياضة التطبيقية في كلّية العلوم للجامعة المصرية واختير عام ١٩٣٠ وكيلاً للكلّية فعميداً لها عام ١٩٣٦ . شارك في تأسيس الأكاديمية المصرية للعلوم عام ١٩٤٤ وأُنتخب وكيلاً للجامعة المصرية ١٩٤٦ - ١٩٤٨ . دعته جامعة برينستون (Princeton) في الولايات المتحدة عام ١٩٤٧ أستاذاً زائراً لإلقاء سلسلة من المحاضرات إلى جانب عدد من مشاهير أساتذة علوم الرياضة والطبيعة في العالم وفي مقدّمتهم ألبرت أينشتاين (Albert Einstein).

(٥) «الروّاد» اسم أطلقته على نفسها مجموعة من الشبّان المصريين من أسر مرفّهة تأسّست مطلع الثلاثينات من القرن العشرين بغرض إقامة الصلة مع شباب الطبقات الاجتماعية الدنيا. هيّأت الجماعة ملتقيات تُدعى «محلاّت» في أحياء العمّال، كان كلّ منها يتّسم بسمة خاصّة، وله برنامجه المتميّز، على أنّ الهدف من تبادل الأفكار والتعاون شمل الجميع. فيما يختصّ بجماعة «الروّاد» انظر أيضاً مقال ميّ زيادة «أنفس النفائس في حضارة مصر وفي صعيد مصر»، الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٥٣، ٢ آذار/مارس ١٩٣٥، ص ١ [١٢٧]، في هذه المجموعة.

(٦) عبد الوهّاب عزّام (١٨٩٥ - ١٩٥٩)، بحّاثة مصري. تخرّج في مدرسة القضاء الشرعي في القاهرة ودرّس فيها. نال شهادة الليسانس في الآداب والفلسفة عام ١٩٢٣ من الجامعة المصرية والماجستير عام ١٩٢٨ من مدرسة الدراسات الشرقية في لندن حيث عمل مستشاراً للشؤون الدينية في السفارة المصرية. حصل عام ١٩٣٢ على درجة الدكتوراه من كلّية الآداب في الجامعة المصرية ثمّ عمل بالتدريس فيها وتولّى عمادة الكلّية من ١٩٤٥ - ١٩٤٨ . أُنيط به منصب سفير مصر عام ١٩٥٠ في باكستان وعام ١٩٥٤ في العربية السعودية حيث أشرف على تأسيس جامعة الملك سعود في الرياض وأصبح أوّل مدير لها عام ١٩٥٧ . ألّف وحقّق العديد من الأعمال ومن بينها دراسة شاملة عن الشاعر الهندي محمّد إقبال. كان من أعضاء المجامع العلمية في مصر وسورية والعراق وإيران.

(٧) Molière (١٦٢٢ - ١٦٧٣)، الشاعر الهزلي الفرنسي الكبير، وتلمّح ميّ زيادة هنا إلى مسرحيته *Le Médecin malgré lui* (الطبيب رغم أنفه، ١٦٦٦).

الآن تبتدئ أزمة المحاكم المختلطة

في مشكلتي رياسة الجلسات

واستعمال اللغة العربية جميعاً

شيء غير قليل من التعجّب يستحوذ على الإنسان عندما يقرأ في بعض الصحف كلمة «انتهاء أزمة المحاكم المختلطة»، في حين تلك الصحف نفسها تنبئ بأنّ اللغة العربية أنكر عليها أن تنطق الأحكام بها - بعد أن أنكرت رئاسة الجلسات على القاضي والمستشار المصري[1].

أَوَتصلح كلمة «انتهاء أزمة المحاكم المختلطة» في وصف الطور الذي تجتازه هذه المسألة التي لم تبلغ في سابق أطوارها بعض ما هي فيه اليوم من الخطورة والتحرّج؟

لو نحن رددنا المسألة إلى حقيقتها المجرّدة عاطلة من التزويق، قلنا إنّ الأزمة لم تكن موجودة قبلاً، وإنّ ما كان يجري من أخذ وردّ ومناقشات إنّما كان حركة طبيعية أحاطت بالمطالبة بحقّ ظل إلى هذا العهد مطويًّا لأنّ أصحابه كانوا عنه صامتين.

أمّا وقد استيقظ أصحاب الحقّ فقاموا بما يعلن عن يقظتهم وأرادوا التمتّع بحقّهم وتأدية قسطهم من الواجب نحو قوميتهم ولغتهم وكرامتهم - فقد كان من المعقول المقبول أن يبدي زملاؤهم ملاحظات تتعلّق بما يسمّونه العرف المتداول والعادة المتّبعة، كما تتعلّق بعدم معرفتهم اللغة العربية، على أن تفضي تلك الملاحظات الشكلية بالتسليم (تسليماً كيّساً) للقاضي الوطني بمثل حقّ زميله الأجنبي، وللغة العربية بالمساواة باللغات الغربية الثلاث التي لم يعترض عليها إلى الآن معترض!

ولكن بدلاً من هذه النتيجة المنطقية المنصفة، كان الجواب أنّ في هذا الصرح الذي أقيم للعدل، ينقضّ الظلم جليّاً باهظاً على القاضي الوطني وعلى لغة وطنه! وليس هو ظلم يوم أو ظلم ساعة نجم عن التعجّل في البحث أو عن خطأ غير مقصود، ولكنّه

ظلم هادئ منظّم متماسك. فبه ومنه تنشأ الأزمة، لا الأزمة الكلامية، بل الأزمة الروحية الأدبية الكتوم الكظوم.

الآن تتحرّك في النفوس جميع الحوافز التي كانت من قبل هاجعة، وتثور في الأفكار جميع الأسئلة والاستفهامات والتعليقات التي كانت حتى اليوم صامتة.

قد يظنّ حضرات المستشارين الأجانب أنّ تصرّفهم في شأن اللغة العربية قد عزّز غير العربية وأيّد شوكتها. وقد تنطبق على تصرّفهم تلك الكلمة التي ينعتون بها سياسة مكيافيلي[٢] من أنّها «تتعمّد العمل في حيطة وفي غير حيطة معاً». وقد يعتقد أصحاب الامتيازات أنّهم فازوا في المعركة الناشبة. وقد يكون أنّ الأسلاك الدبلوماسية امتحنت في هذه المصارعة قوّتها فزادت تأكّداً بأنّ مصر ما لمست منها سلكاً إلّا اهتزّت له ومعه شتّى الأسلاك التي تتحّتم معالجة كل منها على حدة. قد يكون كل ذلك وشيء كثير من غير ذلك أيضاً. أمّا الحقيقة الجميلة الناصعة فهي أنّ المنتصر القاهر في هذه المعمعة هو حقّ اللغة العربية وحقّ القاضي الوطني. وكل حقّ آخر في هذا الباب يظهر أمام هذين ضئيلاً واهياً.

من ترأس بعد اليوم جلسة سيشعر في سرّه بأنّ لغيره هذا الحقّ الذي يتصرّف هو به. واللغة التي ستتلى بها الأحكام ستكنّ في كل لفظة من ألفاظها إيماءً إلى أحكام كتبت بلغة البلاد فكان نصيبها تنحية تشبه الإلغاء - ولكنّها في تلك التنحية مهيبة صامدة.

في الأزمة الروحية والأدبية التي خلقتها هذه المسألة، ما لا يقدّر من خيرات الاستيقاظ والتنبّه والتوق إلى النهوض في أهلية وكرامة. ولو أنّ القاضي المصري واللغة العربية نالا حقّهما بسهولة، ما كان هذا الظرف وسيلة لاستجلاء معاني الكرامة في أدقّ مغازيها ولا كان منهلاً لكل ما يهتاج النفوس اليوم من نبيل التأثيرات. فبورك بهذه الأزمة ومرحباً بكل ما تلقيه من الدروس!

وليست الدروس مقصورة على ذوي القاضي الوطني وأهل اللغة العربية، بل إنّ في هذا الظرف ما يمضّ نفوس حضرات المستشارين الأجانب وكلهم رجال علم وفضل وقانون وكل منهم وطني وفيّ لكرامة جنسيته ولكرامة لغته. فإنْ هو غضب من معاملة كهذه لبني وطنه وللغة وطنه، فكيف لا يضع نفسه، ولو بالخيال، مكان أبناء الأوطان الأخرى وأبناء اللغات الأخرى فيشعر، ولو مرغماً، بشعورهم ويتأثّر بتأثّرهم؟

منذ زمن غير بعيد كانت إحدى الدول تشكو وتنوح لأنّ لغتها ليست هي السائدة في المحاكم المختلطة. ومنذ زمن غير بعيد اعترضت دولة أخرى بأنّ عدد القضاة الذي يسلّم لها به قانون المحاكم المختلطة لم يكن مستوفى. أيكون لهم مثل تلك الغيرة في المحافظة على حقّ هو بطبيعة الحال عرضة للبحث والمناقشة، دون أن يتخيّلوا اليوم الحالة النفسية المسيطرة على أصحاب الحقّ الطبيعي الذي لا يقبل البحث والمناقشة؟ ورغم ذلك - فذلك الحقّ يخذل بلا إنصاف حتى ولا مجاملة؟

قرأت في هذه الأيام حكاية طريفة عن «بيجاما» لورد إنجليزي روت حكايته صحيفة إنجليزية شهيرة وذكرت اسمه واسم أسرته. فنقلت الخبر والظروف المحيطة به والنتيجة التي نفذ إليها صحف أجنبية أخرى قرأته أنا في إحداها. وكنت أنوي إيراد هذه الحكاية للمقابلة بين مغزاها الجميل والمغزى الغير الجميل الذي أفضت إليه مسألة المحاكم المختلطة، - لولا أنّها أسفرت عن هذه الأزمة الروحية الأدبية الخصيبة. بيد أنّي أدّخر تلك الحكاية الطيّبة لكلمة أخرى. ولكنّي أودّ أن ألفت اليوم إلى قوّة البداهة الباطنية عند عبد العزيز باشا فهمي. هذه موهبة يجب تسجيلها لقاضي القضاة مع المواهب الأخرى المعترف له بها من الجميع.

بداهة باطنية تكاد تشبه الإلهام.

إنّ هذا الرجل المدهش ما ندّد مرّة بنظام أو بمؤسّسة إلّا كان تنديده إيذاناً بأنّ انهيار ذلك النظام أو تلك المؤسّسة غير بعيد... أوأستعيد أمامكم ذكرى الأمور التي ندّد بها؟ وما الحاجة إلى ذلك؟ إنّها حاضرة في جميع الأذهان! لكأنّه من هواتف الغيب في معبد أبولون «البيثي»(٣)!

وبعد، فقد تشقّقت البناية الجديدة للمحاكم المختلطة ولمّا يكد الباني يخرج منها... أوليس هذا الفأل يستوقف النظر؟ منذا الذي يستطيع أن ينفي بتاتاً صدق قول المثل السائر: «إنّ الأمور وجوه وعتبات...»؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٧٤٤، ٤ أيّار/مايو ١٩٣٤، ص ١ .

(١) ترجع أزمة المحاكم المختلطة التي تتطرّق الكاتبة إليها هنا إلى أوائل الثلاثينات من القرن العشرين إبّان تصاعد معارضة المصريين لنظام قضائي يهضم حقوقهم. تفاقم الوضع في آذار/مارس ١٩٣٤ بعد أن رفضت الجمعية العامّة لمحكمة الاستئناف المختلطة وأكثرية أعضائها من القضاة الأجانب طلب زملائهم المصريين الحقّ في رئاسة الجلسات أسوة بهم. ولم يلبث الموضوع أن تحوّل إلى قضية عامّة شغلت الصفحات الأولى من كبريات الجرائد وجرّت إلى مناقشات حامية في مجلس النوّاب دُعيت الحكومة فيها إلى إبداء موقفها. ولم يتمّ تسوية الأمر إلّا بتدخّل المندوب السامي البريطاني مايلز لامبسون (Miles Lampson) الذي توصّل إلى حلّ وسط مؤقّت. لكن ما إن هدأت الخواطر حتّى نشأت أزمة ثانية إذ كتب الدكتور عبد السلام ذهني المستشار المصري بمحكمة الاستئناف المختلطة في نيسان/أبريل ١٩٣٤ ثلاثة أحكام باللغة العربية في قضايا عهدت إليه المحكمة بدراستها، ورفض رئيس الدائرة المستشار السويسري هوريه (Houriet) التوقيع عليها لكي يُنطق بها في المحكمة. كان هذا الحدث الأول من نوعه لأنّه لم يكن قد سبق منذ تأسيس المحاكم المختلطة عام ١٨٧٥ أن طرح قاض مصري حكماً للتصديق مكتوباً بالعربية رغماً عن كونها لغة البلاد وإحدى اللغات الرسمية للمحاكم المختلطة إلى جانب الفرنسية والإيطالية والإنجليزية. وبين ليلة وضحاها أصبح عبد السلام ذهني بطل الأمّة المحتفى به، وتدفّق على مكاتب «الأهرام» سيل من رسائل القرّاء التي مجّدت شجاعته نظماً ونثراً. حتى وزير العدل لم يتردّد أن يصرّح بتأييده. كان ذلك هو السياق الذي كتبت فيه ميّ زيادة مقالتها معبّرة عن شعور قطاعات واسعة من الرأي العامّ في مصر.

(٢) Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ - ١٥٢٧)، الفيلسوف والسياسي الإيطالي، مؤلّف كتاب *Il Principe* (الأمير) عام ١٥١٣ والذي حلّل فيه أسباب ضعف إيطاليا السياسي ودعا إلى نظام جديد متحرّر دينياً وأخلاقياً لا يهتدي إلّا باعتبارات سلامة الدولة ومصلحتها العليا. صاغ خصومه كلمة «المكيافيلية» كتعبير سلبي عن سياسة القوّة الطليقة من كل قيد، والتي أصبحت مرادفاً للمبدأ القائل إنّ الغاية تبرّر الوسيلة.

(٣) يرجع هذا الاسم إلى بيثون (Python) وهو في الأساطير اليونانية تنّين كان يحمي معبد دلفي. قتله أبولون ليستولي على المعبد. ويُنسب إليه أيضاً اسم بيثيا (Pythia) كاهنة أبولون المشهورة بتنبّؤاتها الغامضة والتي لم يجانبها الصوّاب أبداً.

خواطر متناثرة

* الأمير الحلو الوسيم
* استقالة الدكتور عفيفي باشا
* نهاية قومسيون بلدية الإسكندرية
* اللغة العربية ونسيج زوجة عوليس اليوناني
* خطاب مسز روزفلت

ابتسامته تفيض حلاوة ولطفاً، ومرآه يزيل الكرب. فكم من مرّة كنت كئيبة فأبصرت صورته في الصحف فابتسمت لابتسامته وقلت: «يا حلاوتك! اللّه يخلّيك لأمّك!».

كل ما في مظهره ينطق بالذكاء والوداعة وليست وسامته من ذلك النوع المستنكف الذي يقول: «أنتم تحتي وأنا فوقكم»، أو من النوع المباهي بانصرافه عن الناس عالماً بأنّ الناس إليه مشرئبّون، فيكون عادة مثيراً التأفّف والإعراض، ولكنّها وسامة «تطلب» العطف والحبّ وتنبّه العواطف الهاجعة في زوايا القلوب، وسامة جذّابة تقول في سكوت: «إنّي أحبّ وأريد أن أكون محبوباً. أنتم لي لأنّي أنا لكم بكلّيتي وليس لديّ ما أهبه لكم غير نفسي. أطلب منكم حبّاً. أحببوني بمقدار حبّي لكم».

أحسن جلالة الملك صنعاً في إيفاد وحيده ووليّ عهده إلى الحفلات العامّة وإلى الجماهير في هذه الآونة الأخيرة. هذه كتلة لطيفة من الحبّ المتمركز الذي يأخذ لأنّه يعطي. وتطالع في صفحة وجهه الفصل الأوّل من الحياة بينا تقرأ في وجوه الرجال الرسميين المحيطين به صفحات شتّى من الجهود والمسؤوليات والغموم المكبوتة وراء الابتسامة الرسمية.

هو الآن في عهد تتصل فيه أواخر الطفولة بأوائل الشباب. وصورته تغيّرت بالفعل في هذين الشهرين فأظهرته يترعرع شابّاً ويبدو أكبر من سنّه قليلاً. وسيصبح

شابّاً عمّا قريب، ينعم بالسنّ الغنيّة الطليّة حيث ترهف جميع الحوافز وتتنبّه جميع الخوالج وحيث يبدأ الشعور بالمسؤولية وببهجة الحياة جميعاً.

ألا كانت لك الحياة مؤاتية، أيّها الأمير الصغير، وكانت بك الحياة رفيقة. إنّها ليست دائماً كذلك حتّى للملوك في عظمتهم. ولكن، أنت، فلتحببك الحياة كما تحبّها في حلاوتك المؤثّرة وفي ابتسامتك المطمئنة!

* * *

مهنة الوزراء المفوّضين عندنا مهنة يبدو أنّ أوّلها معروف أمّا آخرها فمجهول. وقد قلّ منهم إلى الآن من كان خروجه منها منطقياً. وقد يكون في هذا دليل على أنّ المنطق الذي يباهي الرجال بأنّهم هم دون النساء أوجدوه ليس بالمنطق المتفق ووقائع الحياة...

استقال عفيفي باشا(١) وليس من يقول لماذا استقال. وكان بمواهبه الشخصية وبمعارفه وبإتقانه اللغة الإنجليزية فضلاً عن غيرها، كما بتربيته في إنجلترا أليق ما يكون بتمثيل بلاده لدى حكومة جورج الخامس. والأمر الذي لا ينتظر عادة من طبيب - الدكتور عفيفي باشا دبلوماسي بفطرته وبخلقه وبميوله. أصغِ إليه في اختيار ألفاظه وفي صياغة جملته وفي توجيه أحاديثه تجده دائماً مستسلماً للفنّ الدبلوماتيكي. وقد كان لي السرور أن أرى بعينيّ مبلغ الهيبة المقرونة بالبشاشة التي كانت تضفيها شخصيته على المفوّضية المصرية في عاصمة إنجلترا. وكانت دار المفوّضية بوزيرها زاهية زاهرة ومتحفّظة أيضاً، شأن سائر المفوّضيات والسفارات. وبما له من ذوق فطري عرف أن يجعل أبّهتها المحسوسة ذات طابع فنّي دقيق يرضي أهل الذوق والملاحظة ويستثير إعجابهم.

وكانت مدام عفيفي باشا سيّدة مثلى لتلك الدار الجميلة، سيّدة تقّدم مثالاً بليغاً جذّاباً من أناقة المرأة المصرية وذكائها وبراعتها فكانت خير سفيرة لبنات بلادها. ما عرفتُ امرأة أقلّ منها تصنّعاً وأوفر بساطة في وداعة. ولم أسمع من المصريين وغير المصريين إلّا الثناء عليها - الثناء الصادق الخالص لا ثناء المراوغة والمداورة.

لست أعني أنّ الإجماع في الثناء والتقدير هو الشاهد على أهمّية الشخصية، بل كثيراً ما يكون النقيض هو الشاهد الفصل. ولكنّ مدام عفيفي باشا من ذلك النوع اليسير الذي يفوز بالإجماع فيكون الإجماع فيه صادقاً.

ولعفيفي باشا كلمة مأثورة يصحّ أن تكون تاريخية في حكمه على إنجلترا. فهو يقول إنّ تلك البلاد تفوّقت في ثلاثة: القاضي الإنجليزي، والممرّضة الإنجليزية، وبوليس الشوارع الإنجليزي.

* * *

ويجوز القول إنّ نهاية قومسيون بلدية الإسكندرية لا تختلف - وإن كانت الأسباب مختلفة كل الاختلاف - عن نهاية الوزراء المفوّضين. قد يفكّر الآن نفر من المتنعّمين بجمال الكورنيش بما جلبته هذه الكورنيش من الغموم والقلق والانقلاب في شؤون بعض الناس. بيد أنّ سنوات قلائل ستنقضي فلا يقى من مشاكل الكورنيش إلّا الكورنيش نفسها صفحة ناصعة مجلوّة على ساحل البحر.

نحن في عصر لا يظهر فيه إلّا المتظاهر ولا يفوز عنده إلّا ذو الوقاحة والمكابرة. هذا في الغالب وإن كان النقيض قد يفوز في النادر. ولكن كائناً ما كان روح العصر فإنّنا لا نتمالك من التعجّب... على الأقلّ عندما نرى المقاولين يطالبون بالمبالغ المتبقّية لهم كاملة غير منقوصة. «ولو» أيّها السادة المقاولون! أتغوص البلد في هذا الاضطراب، ويعمّ الاستياء، ويحلّ قومسيون البلدية، ويظهر الخلل مبيناً في ما صنعتم (وكل هذا الخلل من عملكم لا من عمل القومسيون) ثمّ تطلبون أجرة هذا الخلل وهذا الحلّ وهذا الانقلاب وهذا القلق ١١٤ ألف جنيه قسطاً لهذه السنة من تتمّة المقاولة!

أكنتم تجرؤون على هذا في بلادكم في مثل هذه الظروف؟

كلّا! لأنّ في بلادكم لا تعامل لغتكم الوطنية بمثل ما عوملت به اللغة العربية في المحاكم المختلطة التي هي محاكم مصرية تقوم بنفقاتها الخزينة المصرية، وأكثر المتقاضين فيها مصريون، وهي تصدر أحكامها باسم ملك البلاد التي لها لغة رسمية هي اللغة العربية!

* * *

أراكم، يا قرّاء الخير، تمدّون الأعناق عند ذكر اللغة العربية في المحاكم المختلطة. أفما أتاكم إذاً الخبر السارّ البهيج الميمون المصون بأنّ هذه المشكلة ستحلّ بالطرق الدبلوماسية؟! والطرق الدبلوماسية، كما قد تعلمون أو كما قد تجهلون، هي الطرق المثلى التي كان لا ريب يعنيها أفلاطون عندما كان يشرح «المثل العليا» - تلك الصور المحسوسة الملموسة، ولكنّها لطيفة شفّافة، التي يحاول الناس تحقيقها في أعمالهم اليومية وفي أخلاقهم وأساليبهم على تعاقب الدهور...

الطرق الدبلوماسية هي تلك الأتاويه المحكيّ عنها التي ما إن خرج المرء من أحدها إلّا تورّط في ما لا نهاية له من غيرها. أفلا يروقكم هذا، يا أصدقائي؟ الطرق الدبلوماسية شيء تعرف أين يبتدئ، ولكن علام تعنى بما ينتهي إليه؟ بل علام تريد أن يكون له أيّة نهاية؟ إنّ الطرق الدبلوماسية، على كل حال، تدور دائماً «في جوّ مشرّب بروح العطف، مشبّع برواء الصفاء، مترامي الأطراف على ضوء الوداد والمودّة والودّ، ينبلج في نور الولاء ومصابيحه وفوانيسه ومشاعله! وإن طوي فهو يطوى في لألاء من روح العطف والودّ والوداد والمودّة.. إلخ» (أنظر ما سبق في السطور العليا!). وإن لم يرضكم، أنتم المتحذلقون، إنشائي في هذه السطور فاعلموا أنّ هذا إنشاء الطرق الدبلوماسية، واعلموا أنّكم متحذلقون وأنّ الحذلقة مرض فأنتم إذن مرضى!

ولأزيدكم إيضاحاً في شأن الطرق الدبلوماسية أروي لكم حكاية بِنِيلوبي اليونانية، زوجة عوليس ملك إيثاكا الأسطوري وأحد الأبطال الأفذاذ في حرب طروادة. وقد كانت عودته إلى وطنه بعد سقوط طروادة موضوعاً لأنشودة «الأوذيسا» التي مع «الإيلياذة» خلّدت اسم هوميروس.

دامت محاصرة طروادة عشرة أعوام كما استهلك إياب عوليس عشرة أعوام أخرى. ففي خلال تلك السنوات العشرين رغبَ الكثيرون من الطامعين في إيثاكا وعرشها - في الزواج من بينيلوبي زوجة عوليس وتقدّموا لاختطابها من نفسها. فاتّقاءً لعداوتهم أعلنت أنّها ستختار منهم زوجها عندما تفرغ من تطريز نسيج كانت تعمل فيه. فرضي الخاطبون وكانت هي تحرص على أن تفتق في المساء التطريز الذي أنفقت

نهارها فيه. وبطبيعة الحال لم ينته النسيج في عشرين عاماً. فإذا كانت بينيلوبي مثالاً للزوجة الوفيّة فنسيج بينيلوبي خير مثال للطرق الدبلوماسية.

* * *

ولننتقل من بلاد اليونان إلى العالم الجديد ما دمنا أبناء جيل امتاز بسرعة المواصلات.

خطبت مسز روزفلت قرينة رئيس ولايات أميركا المتحدة، في ختام وليمة أقامها الصحافيون لتكريمها فأوضحت لرجال الصحافة ما تودّ النساء أن تجده في الصحف. وقالت إنّها لا تذكر فقط ميولها الخاصّة بل تعبّر عن فحوى ما تتلقّاه من ألوف الرسائل من النساء في مختلف أنحاء أمريكا، ممّا يتطلّب سكرتيرين عديدين لفضّ تلك الرسائل ومطالعتها. ثمّ قالت:

«قد يدهشكم أنّ هذه الرسائل في الغالب تتحدّث عن التعريفة الجمركية، والتجارة الخارجية والداخلية، والحرب والسلم، وشروط العمل وقوانينه، والسلفات الزراعية إلخ. هذا في حين الصحف ما فتئت تفرد الصحائف للشئون النسائية التي تزعمها ضرورية للمرأة. وأنا أؤكّد أنّ الأكثرية من بنات جنسي قد فرغت من إتقان صناعة الحلويات والتوابل وشتّى صنوف المرقة وكل ما يختصّ بالعناية بالأطفال.

«مما لا شكّ فيه أنّ المرأة أيّا كان عملها والمهمّات الملقاة عليها فالمنزل وتدبيره أَولى شؤونها. ولكن لا بدّ من التبديل في إنشاء الصفحة النسائية وفي موضوعها. إنّ المرأة التي هي أشدّ من الرجل تأثّراً بالأزمة، تعلّمت أن تعنى بحوادث العالم. هي لا تهتمّ كثيراً بالموضوعات السلبية كحركة تداول النقود، ولكنّها تشعر شعوراً مباشراً بهبوط الأسعار وارتفاعها. ثمّ تهتمّ بالموضوعات الاجتماعية. فإن وجد بالفعل زمن كانت النساء تقرأ فيه الصحائف المفردة لهنّ في الجرائد، فذلك الزمن قد انقضى. ونساء اليوم يقرأن جميع الأخبار المحلّية والأنباء العالمية ويحكمن على الحوادث من ناحية خبرتهنّ الخاصّة. وحكمهنّ وإن اختلف عن حكم الرجل، حكم إيجابي عملي لا يستهان به».

هكذا قالت مسز روزفلت قرينة رئيس الولايات الأميركية المتحدة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٧٥٢، ١٢ أيّار/مايو ١٩٣٤، ص ١ و ٢ .

(١) محمّد حافظ عفيفي (١٨٨٦ - ١٩٦١)، طبيب وسياسي مصري. تعلّم الطبّ في مصر وتخصّص في إنجلترا وفرنسا بطبّ الأطفال ليتولّى فيما بعد إدارة مستشفى الأطفال في القاهرة. كان من أعضاء الحزب الوطني ثمّ انضمّ إلى الوفد المصري لكنّه خرج منه عام ١٩٢١ فشارك في تأسيس حزب الأحرار الدستوريين وأصبح وكيلاً له. أُنتخب عضواً في مجلس النوّاب عام ١٩٢٦ وعُيّن وزيراً للخارجية في وزارتي محمّد محمود وإسماعيل صدقي. إلا أنّه استقال من منصبه الوزاري الأخير في تمّوز/يوليو ١٩٣٠ بعد ٢٢ يوماً قضاها فيه لكي يتبوّأ منصب سفير مصر في لندن ١٩٣٠ - ١٩٣٤. كان من أعضاء «الجبهة الوطنية» التي أمضت المعاهدة المصرية البريطانية عام ١٩٣٦ كما أُختير لاحقاً مندوباً لمصر في مجلس الأمن الدولي. تولّى رئاسة بنك مصر ١٩٣٩ - ١٩٥١ فرئاسة الديوان الملكي عام ١٩٥١ .

خواطر متناثرة

* الامتحانات وأخواتها
* الصعوبة في الأسئلة ضرورية ولكن...
* ماذا يصنع الناجحون والراسبون؟
* الانتحار شجاعة وحيوية
* لورد لويد يحبّ مصر والشرق

أمّا الامتحانات فهي الامتحانات. وأمّا أخواتها فمتولّدة بوجودها، متفرّعة من دائرتها. ولا يفرض عليك أن تكون «مدبلماً» في علوم الحساب والجبر والهندسة لتحيط بها. حسبك أن تحصيها على أصابع اليد الواحدة فإذا هي: أولاً - شكوى الطلبة من صعوبة الأسئلة. ثانياً - استعطاف وزير المعارف وتحريك عواطفه الأبوية على أبنائه الراسبين. ومن المدهش أن يكون أبناء وزير المعارف بمصر هم دائماً الراسبون. ثالثاً - الفوز في استغلال الشهادة للوظيفة. رابعاً - البطالة رغم النجاح والشهادة. خامساً - الانتحار بسبب الرسوب. ويجوز أن نذكر على الهامش بدون رقم وبدون إصبع، أنّ لكل من هذه الموضوعات «كليشهات» بيانية ثابتة على كرّ الأعوام.

والامتحانات وأخواتها تهلّ علينا كل عام في شهري مايو ويونيه اللذين تهيمن عليهما إلهتان قديمتان سمّي الشهران باسميهما. فمايو سمّي باسم «مايا» حورية المطر، ابنة المارد أطلس الذي يحمل الكرة الأرضية على منكبيه في الأساطير اليونانية. وهي إحدى زوجات جوبتير سيّد الآلهة، ووالدة عطارد، أو هرمس، إله الهواء والخطابة والفصاحة والاختراع والكتابة والدرس والعلوم والصنائع، ورسول الآلهة. وهو إله السرقة واللصوص في آن واحد، وإله التجارة أيضاً. ولو وجدت الصحافة في عهده لكان إله الصحافيين حتماً - بصرف النظر عن كون أمزجة بعض أساتذتنا الصحافيين منفعلة بتأثير سيّار عطارد بوجه خاصّ...

أمّا «جونون» التي أطلق اسمها على شهر يونيه فهي أولى زوجات جوبتير وأعلاهنّ مكانة وأنفذهنّ سلطاناً. وقد جعلت حياة جوبتير المنزلية جحيم نكد وعذاب لما كانت عليه جونون من شكاسة الطبع وحدّة الخلق وذرابة اللسان وغيرة متّقدة لا تفتأ تخلق المشاكل في الألمبوس مقرّ الآلهة. فلا عجب – وهذه حال حرمه – إذا كان جوبتير سريع الغضب شديد البطش يقذف الآلهة والبشر بصواعقه وفقاً لهواه. ورغم ذلك فجونون إلاهة الزواج. ويحرص الغربيون على التزوّج في شهر يونيه ليكونوا مشمولين برعايتها الهنيئة (؟). صحيح أنّ الوشاة يزعمون أنّ تلك الإلهة القديرة هي التي تثير الخصام والشقاق بين الأزواج والزوجات، ولكن أيّ عاقل يصدّق أقوال الوشاة؟

* * *

والذي يعنينا الآن من مغزى هذين الشهرين هو أنّ الطلبة عندهما يجاهدون تحت رعاية ابن مايا، عطارد، الذي ليس غريباً عنهم. لأنّ اليونان أطلقوا اسم هرمس المثلّث العظمات على عطارد المصري المعروف بالإله «توت» الذي يتمتّع بجميع امتيازات زميله اليوناني وقدراته. بل يقول المؤرّخون إنّه هرمس اليوناني بالذات. فما هو عذر الراسبين إذاً، وشفيعهم إله وطني لا يضنّ على أشبال واديه بالعطف والتأييد؟

العذر يشرحه لنا الطلبة كل عام، وسرّه في صعوبة الامتحانات دائماً وفي عدم توافق الأسئلة والموادّ التي درسوها أحياناً. ولا بدّ أن يكونوا ولو على بعض الحقّ في شكواهم. ترى هل يملي هرمس المثلّث العظمات أسئلة الامتحانات على أولي الشأن باللغة الهيروغليفية فيلتبس المعنى على من يتولّى ترجمتها إلى العربية؟

وقد يكون أنّ شهري مايو ويونيه هما أصعب الشهور في مصر بداعي الحرّ وشدّة تأثيره في قوّة الجسد وفي جلاء الذهن. وما اختاروا هذين الشهرين للامتحان إلّا تشبّهاً ببلاد الغرب دون مراعاة لاختلاف الطقس ومقتضيات الطبيعة. فعلام لا يلتفت أولو الشأن إلى هذه الفروق فيجعلون الامتحانات النهائية في منتصف العام الدراسي لا في آخره؟ أعلم أنّ مثل هذا التغيير يحدث ارتباكاً في طرق التدريس الآن، ولكن منذا الذي يزعم أنّ تلك الطرق متمتّعة بصفة الكمال؟ في مواعيد الامتحان كما في

أساليب التعليم وموادّ التدريس لا بدّ من مسايرة حاجات البلاد وخصائص الطبيعة فيها.

نقول هذا إنصافاً للطلبة. بقي أن ننصف الحقّ أيضاً. أفيستطيع حضرات الإخوان الراسبين والناجحين جميعاً، أن يؤكّدوا لنا أنّهم يضعون عقولهم وقلوبهم في ما يتعلّمون؟ أم هم يدرسون فقط للامتحان والشهادة والوظيفة؟ فإذا نجح فريق فالحظّ موات، وإذا رسب فريق آخر فالأمر معقول إذ الفشل حليف ما يصنعه المرء بدون عناية وبدون اكتراث. لست أتّهم جميع الطلبة بهذا التحصيل السطحي. ولكن لو هم عرفوا لذّة الدرس بغية توسيع المدارك وإعلاء الفكر وتثقيف الملكات وتكوين الشخصية، لو هم درسوا وذاكروا ليتصلوا في كل صفحة بناحية من نواحي العالم المحسوس والمضمر، وليغلبوا الطبيعة على سرّ من أسرارها، لو هم درسوا بهذا الروح لكانت العلوم والمعارف أكثر إغراءً لهم من جريتا جاربو ومارلين ديتريش[1]، فتفوّقوا في كل امتحان وزادت معلوماتهم على المطلوب منهم.

الصعوبة، كالطبيعة، مهذّب عظيم، وعقبة يتحتّم وجودها ليجرّب عليها الطالب ذكاءه ويمتحن في مغالبتها والتغلّب عليها ثقافته ومقدرته. لا بدّ أن تكون أسئلة الامتحان صعبة، شرط أن تكون الأسئلة مستخرجة من صميم موادّ التعليم وأن تكون من النوع الذي لا يكون الظفر به مستحيلاً.

* * *

لا شكّ أنّ الناجحين من أشبال الوادي يتهجون بالفوز فيقيم ذووهم الأفراح إعلاناً لذلك الفوز. أمّا أنا فينخلع قلبي كلّما وقع نظري على قوائم أسماء الناجحين لأنّي أسائل نفسي عن المستقبل الذي هيّئ لهم. أفيظفرون جميعاً بعمل يكافئهم عن جهاد أعوام طويلة ويفتح لهم في الحياة طريقاً كريمة؟ أم يشتغل قوم منهم ويظلّ غيرهم واقفين جامدين في مكانهم حائرين متضعضعين في بحثهم عن وسيلة يصرفون فيها قواهم وينظّمون عندها معيشتهم؟

ولئن كان لكل جماعة من خريجي مدارس الزراعة والتجارة والحقوق والطبّ وغيرهم عملهم المعيّن الواضح أمامهم، فهناك جماعة أولى بالعطف من أولئك جميعاً

لأنّ موقفهم مبهم مرتبك إلى الآن، عنيت خريجي كلّية الآداب بالجامعة المصرية الذين هم بمعارفهم وبنوع شهادتهم خليقون بالعطف كله وبكل الاهتمام. وموقفهم وحالة كلّية الآداب تتطلّب البحث والعناية. وقد أعود إلى الكلام في هذا الموضوع قريباً.

بيد أنّ المستقبل غير مضمون لجميع المتخرّجين من مختلف المدارس والكلّيات وهو أمر جدّ خطير أعجب كيف يتكلّم المتكلّمون عن التعليم فيهملون هذا الجانب منه. لقد آن لمصر أن تعكف على التفكير الجادّ في هذا الأمر الذي يزيد كل عام جسامة. أفتفكّر البلاد في تمهيد السبل وفي غرس الأشجار وفي إيواء الحيوان وفي إشادة المتاحف والصروح، بينا هي معرضة عن أبنائها الشبّان الذين تعلّق على حاضرهم ومستقبلهم كل آمالها؟

* * *

ألمعت في الفقرة السالفة إلى وجوب النظر في مواعيد الامتحانات النهائية لتيسير النجاح للطلبة. أمّا ونحن في موسم الانتحار فجعل الامتحان في الخريف أو في الشتاء سيقلّل من حوادث الانتحار بين الراسبين. إذ أنّ جنايات الانتحار كجرائم القتل ونشوب الحروب تتزايد غالباً في الربيع وفي الصيف حيث يجري الدم متوهّجاً بسرعة وتكون الأعصاب أحفز للتأثّر والانفعال والتهوّر.

الموت محزن دائماً، ولكنّه في الشباب مفجع. فإذا كان الفشل في الامتحان باعثاً عليه كان المنتحر عاملاً على كراهة التعليم لا على الكدّ للنجاح.

يقولون إنّ الانتحار ضعف وجبن. ولعلّ قائل هذا القول لم يفكرّ في الانتحار أصلاً، ولم يكن له من ظروف حياته ما كان بعيد الغور في نفسه، أو أنّ نفسه لا تملك مقدرة التأثّر إلّا لحدّ محدود. أمّا الذين فطرتهم الآلام وشعروا بقسوة الحياة وبوطأة المقادير وبمراوغة الناس، فأولئك يعلمون أنّ الانتحار ليس خوراً في العزيمة وتخاذلاً وهزيمة.

قالت كارْمِن سِيلْفَا ملكة رومانيا السابقة، التي لم يحمها العرش والتاج من مصائب الدنيا، قالت: «ندرت جدّاً الطبائع الحسّاسة الطروبة التي لم تفكّر في الانتحار

ولو مرّة واحدة». وقالت: «لا يحقّ لأحد إصدار الحكم على المنتحر ما دام لا يعرف لا آلامه ولا قوّته».

الواقع أنّ الانتحار بسالة وجنون، ولا بدّ من شيء من الجنون في كل بسالة. والانتحار دليل على حيوية عريقة وعلى اندفاع لم يهتد إلى طريقه لينظّم فيها سيره.

لا تمتنعوا عن التفكير في الانتحار، أيّها الشبّان، إذ طرأ لكم ذلك الخاطر. فهو شاهد على شدّة الحيوية فيكم. ولكن لا تقدموا على الانتحار أبداً، مهما أطبق عليكم اليأس من كل صوب فسدّ أمامكم منافذ الفضاء. ادّخروا ذلك التيّار الحيوي فهو رأس مال منيع. ادّخروه يشدّد عزيمتكم ويجعلكم أوفر رغبة في القوّة والحياة والنجاح. إنّ الفشل بعض وجوه الدنيا، والذي لم يذق مرارة الفشل والانكسار ليس بالرجل كل الرجل. بل اجعلوا الفشل درساً للفوز، والذلّ أمثولة للعزّ. والذي يفكّر في الانتحار فينظر إلى الموت وجهاً لوجه ثمّ يتحوّل عنه مختاراً الحياة، فذاك لا بدّ أن يصبح للحياة سيّداً.

* * *

يظلمون لورد لويد إذ يزعمون أنّه لا يحبّ مصر ولا يحبّ الشرق، ويدلّلون على ذلك بأنّه شديد الحكم عليها وعلى الشرق لا يراها أهلاً للحكم النيابي والاستقلال والديمقراطية(٢).

إنّه، بالعكس، يحبّها كثيراً. ومعلوم أنّ هناك أنواعاً من الحبّ الصارم الذي يغلق النوافذ ويسجن ضمن الجدران ويكبّل الأيدي بالحديد. والطفل الذي يحاول خنق العصافير - أفلا يحاول ذلك من فرط الحبّ لتلك الكائنات الصغيرة من الناحية الواحدة، وليلهو معتزّاً بقوّته وسلطانه من الناحية الأخرى؟

أيبغي لورد لويد الدفاع عن نفسه وتبرير موقفه؟ قد يكون. ولكنّه على كل حال غير متفرّد برأيه في شعوب الشرق. وموقف الأجنبي الواحد كموقف حكوماته ينجم في الغالب عن نيّة ثابتة في الاستغلال وعن جهل أيضاً للنفسية الشرقية أو عن تفسير غير صحيح لتلك النفسية.

ولورد لويد يرى أنّ المصريين (لأنّهم شرقيون طبعاً) لم يتربّوا التربية السياسية التي تعدّهم للنظام الديمقراطي. هذه كلمة نسمعها كثيراً ونعجب كيف يقولها أهلها المفروض أنّهم أهل اطّلاع واستطلاع. فالنظام الديمقراطي، ولو بغير هذا الاسم اليوناني وبصيغة تختلف عن الصيغة الديمقراطية الراهنة - نقول إنّ النظام الديمقراطي سيطر على كل تاريخ الشرق، الشرق الأدنى على الأقلّ، مع حكم الفرد جنباً إلى جنب. وإن لم يصدّق أولئك السادة هذا القول فليعكفوا على قراءة التاريخ ولكن بعد التجرّد من آرائهم المكتسبة العنيدة. وعندئذ يفهمون.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٧٨٠، ٩ حزيران/يونيو ١٩٣٤، ص ١ و ٢ .

(١) Greta Garbo (١٩٠٥ - ١٩٩٠)، الممثّلة السويدية، و Marlene Dietrich (١٩٠١ -١٩٩٢)، الممثّلة والمطربة الأمريكية الألمانية الأصل، وهما من كبار نجوم السينما في الثلاثينات من القرن العشرين.

(٢) كتبت ميّ زيادة هذا التعليق بمناسبة صدور المجلّد الثاني من كتاب *Egypt Since Cromer* للورد جورج لويد (Lord George Lloyd)، المندوب السامي البريطاني السابق في مصر من ١٩٢٦ - ١٩٢٩، وقد نُشر المجلّد الأوّل في كانون الثاني/يناير ١٩٣٣ .

خواطر متناثرة

* أحاديث الصيف: قصّة النملة والزيز
* قطرات لمحبّي البحر وقطرات لمحبّي الآثار
* شبّان مصر في الريف
* فيلسوفان يرميان بالحرم الكبير
* في سبيل نفائس مختار

أوّل ما يذكر من الأقاصيص التي نظمها الشاعر الفرنسي لافونتين[1] قصّة الزيز والنملة. النملة، على ضآلة حجمها، مثال النشاط والذكاء والتدبير. أمّا الزيز فدويبّة تلجأ إلى ظليل الغصون لتصدح بين أوراقها ليل نهار على وتيرة واحدة وبنفس واحد: زيز، زيز، زيز. فجعلوا لهفتها الحادّة اسماً لها.

صوتها غير مجهول لدى الذين اصطافوا في لبنان. وهو صوت يزعج في بادئ الأمر ثمّ لا يلبث السامع أن يألفه فيصبح الصوت عنده وكأنّه جزء لا ينفصل عن سناء السماء وجلال الجبال وروعة الأودية ومرجة البحر عند حدود الأفق. فإذا حننت إلى مغاني لبنان وخمائله حننت في نفس الوقت إلى الصادح الصغير الذي لا يُرى في أحراجه.

وانقضى الصيف والزيز يشدو. فلمّا أقبل الشتاء في قصّة لافونتين - فهزمه الزمهرير عن الغصون العارية هرول إلى شقوق الأرض حيث وجد دفئاً ولكنّه لم يجد غذاء. فمضى إلى النملة (التي صرفت الوقت على عادتها تجلب الرزق وتدّخر وتدبّر كأحسن ما يصنع بنو الإنسان) يسألها أن تجود عليه بالقوت الذي يفتقر إليه بعد أن لبث صيفه صادحاً.

فقالت النملة: - أكنت تصدح؟ ها! إنّ ذلك يروقني. فارقص الآن إذن!

ومغزى هذه القصّة - أو أحد مغازيها - المقابلة بين حظّ الذي يعمل بحكمة لغده، مع تمجيد النشاط، وبين حظّ الذي لا يفكّر إلّا في ما بين يديه من لهو ومرح،

مع تحقير الكسل. وليت الواقفين على دقائق معيشة النمل ينبئوننا في إيجاز ما إذا كانت تلك الجماعة الذكيّة لا تأخذ بشيء من اللهو والراحة في بعض ساعها.

إنّ العمل المتواصل كاللهو المتواصل، يفضي إلى الملل والضجر والعلّة وكراهة الحياة. وسرّ الحياة - على قول المرشّحين للنصح والإرشاد - إنّما هو في تناوب الكدّ والمرح، العمل المنظّم الجادّ والراحة المبدّدة للغموم. ومَن أحسن اللهو أحسن العمل كذلك. ومن عجائب الطبيعة البشرية أنّها خلال الراحة والتسلية تدّخر من القوّة والنشاط ما يعيدها إلى العمل أوفر حماسة وأرهف فطنة وأمضى عزيمة.

* * *

وقد ابتدأ فصل الصيف «رسمياً» منذ أسبوع تقريباً بعد أن لفحتنا بالفعل لوافحه شهرين اثنين، فكأنّنا منه في أواخره في حين ما زلنا بعد في الأوائل. فمن يسّرت له الظروف الفرار إلى جوّ أرفق لاذ بالفرار. وتحتّم على الآخرين تنظيم شهور الصيف على وجه يمكّنهم من اتّقاء القيظ والتماس الطقس المعتدل ما استطاعوا.

ويلاحظ أنّ القاهرة التي هي في طليعة العواصم الجميلة، غير رفيقة بساكنيها. إذ ندرت الحدائق في داخلها، وليس من ميادين عمومية وساحات يستطيع السائر أن يجد فيها مقاعد فيجلس يستريح في ظلّ شجرة قرب نوفرة ماء، ممّا يكثر جدّاً في كل عاصمة، مع أنّ الصيف في عواصم الغرب ألطف جوّاً. وصيف القاهرة يكاد يناهز السبعة شهور.

وقد أخذت مصر أخيراً بتسيير قُطُرات بالتذاكر المخفّضة لتمكّن عامّة الشعب من الرحيل إلى الثغور ولو مرّة واحدة في الأسبوع طلباً للراحة. فأحسنت مصلحة سكّة الحديد بذلك الإحسان كله، وإن كان العدد الذي نقله قطار الأحد الماضي (١١١٢) قليلاً بالنسبة لمليون السكّان الضاربين في أنحاء القاهرة. أفلا يكون السبب راجعاً إلى كون الدوائر الحكومية وكثير من الدوائر الأهلية تكفّ عن العمل يوم الجمعة؟ فعلام تأبى مصلحة سكّة الحديد تجربة قطار ليوم الجمعة أسوة بيوم الأحد؟

أمّا تأفّف مصلحة الآثار وشكواها من كثرة زائري الآثار في الأقصر وطيبة بسبب قطرات الآثار، وطلبها إلغاء تلك القطرات في الشتاء المقبل - فممّا يدلّ على

رقّة مزاجها رغم كونها مصلحة حجرية لا شكّ فيها! لمن تكون الآثار إن لم تكن للزائرين؟ وما الغاية من وجودها إن لم تكن متعة للناظر وعبرة للمعتبر وأمثولة للدارس - ولم لا؟ - ومسرح لهو أيضاً لطالب اللهو الرزين؟ إنّ وضع نظام يكفل عدم الازدحام لأمر ميسور.

* * *

ولا شكّ أنّ الكثيرين من الطلبة والشبّان وأصحاب الأطيان فضلاً عن الأسر ذات الأصل الريفي، سيعودون في الصيف إلى قراهم وعزبهم فيتّصلون مباشرة بالأرض الخصيبة التي أوجدت حضارة مصر القديمة وتاريخها. ومن أولئك الشبّان - وحبّذا لو تطوّعت معهم الفتيات أيضاً - المتطوّعون لتفقّد حياة الفلّاح والعمل على تحسين حالته الحسّية والأدبية ورفع مستوى معيشته مع تدريبه على ما يعود عليه بالصحّة والهناء والتقدّم. فليكن أولئك الشبّان على ثقة من أنّهم اختاروا أنبل المساعي وأشرف الأغراض! لسنا نكافئهم على جهودهم بالثناء المبتذل الرخيص. بل سيجدون في جهودهم نفسها وفي النجاح المرجوّ المكافأة التي تتوافق ومسعاهم شرفاً ونبلاً.

الواقع أنّ النشء المصري الجديد يجب أن يشبّ على فكرة عالية وخصلة جدّ حميدة وهي العمل للعمل نفسه دون توقّع الثناء ودون تخوّف الطعن، ممّا هو قمين بالشخصية المعدّة للرجولة المهيبة المستكملة. خير الثناء يأتيهم من المقصد النبيل ومن السعي المنظّم لتحقيقه على خير وجه. وأقسى ناقد يبيّن العيوب يجب أن يكمن في نفوسهم. هذه هي الشخصية التي نتمنّاها للنشء الجديد، وإن نحن طمعنا فيه كثيراً فلأنّ ما ننتظره منه كثير.

ولدى الشبّان كذلك فرصة لتعرّف الأرض التي هي مستودع حياتهم الوطنية والقومية. فليتعلّموا محبّة تلك الأرض كما يتعلّمون محبّة الفلّاح والأخذ بيده. وليشغفوا بمعالجة تلك الأرض التي لا تطلب إلّا اليد التي تعالجها وتستغلّها وتستثمرها. فما أكثر ما ننسى أنّ مصر أولاً وآخراً أرض زراعية وأنّ أكثر المتعلّمين من شبّانها يجب أن يعكفوا على شؤون الفلاحة والزراعة. لم تأخذ البلاد الصناعية بالصناعة إلّا لأنّها غير زراعية ولأنّ وسائل الصناعة متوفّرة لديها. وأخذ المصريين بالصناعة يجب ألّا

ينسيهم رأس مالهم الكريم النفيس، ألا وهو الأرض التي ستكون لهم دائماً خميرة الحياة والقوّة والمجد.

عودوا إلى أرضكم، أيّها الشبّان، تجدّدوا لديها فتوّتكم وحيويتكم ووطنيتكم، وتطهّروا بلمسها أيديكم من أدران الحضارة، وتذكروا عندها هذه الكلمة الباقية على الدهر: «لا يحسن فلاحة التاريخ إلا من أحسن فلاحة الأرض»!

* * *

تلغراف وجيز مرّ بين التلغرافات وقلّ من التفت إليه. وهو المنبّئ بأنّ قداسة البابا رشق بالحرم الكبير كتابات بنديتو كروتشي[٢] وجيوفاني جنتيلي[٣]، لأنّ الكرسي الرسولي يرى في تلك الكتابات خطّة عدائية نحو الدين الكاثوليكي.

ويعلم العاكفون على هذا النوع من البحث أنّ أهمّ المذاهب الفلسفية السائدة في هذا العصر بإيطاليا هي مذاهب كروتشي وجنتيلي وفاريسكو[٤]. ولئن كان لجيوفاني جنتيلي اليد الطولى في إنشاء نظام التعليم الجديد بإيطاليا إذ كان وزيراً للمعارف مدّة أربعة أو خمسة أعوام في أول عهد الحكومة الموسولينية، فقد أقيل بعدئذ من منصبه. وكان أن أطلقوا على وزارة المعارف الإيطالية اسم «وزارة التربية الوطنية». وجيوفاني جنتيلي وبنديتو كروتشي هما الآن عضوان في مجلس الشيوخ.

ورشق كتاب بالحرم يعني تحريم قراءته على جميع كاثوليك العالم. والكتّاب الذين وقعوا تحت الحرم غير قليلين على كرّ الزمن. وربّما كان بين أشهر الذين يذكرون في هذا الباب، الأسقف فينلون[٥] الذي عاش في القرن السابع عشر ولغزارة علمه وعلوّ مداركه واستقامة خلقه وصادق تقواه اختير مؤدّباً للدوق دي بورجوني حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا، ووالد لويس الخامس عشر. رشق أحد كتب فنيلون الدينية بالحرم خوفاً من أن «يسيء بعض الكاثوليك تفسيره». وكان الأسقف يستعدّ لإلقاء خطبة دينية في عيد كبير عندما بلغه حكم الحبر الأعظم. فامتثل وغيّر موضوع الخطبة إذ جعله «وجوب الامتثال لأوامر الكنيسة وقراراتها».

ومعلوم أنّ كروتشي وجنتيلي لا يوافقان على النظام الفاشستي الذي ينعته كروتشي بالهمجي المضادّ للتاريخ. وينكر كلاهما على دانتي السير بالروح الإنسانية

إلى الاتحاد باللّه، في «الكوميديا الإلهية» التي خلّدت اسمه، مع أنّ هذه الفكرة جدّ عزيزة على كثيرين من كتّاب إيطاليا.

ويخيّل إليّ أنّ المشكل الآن عند الكاثوليك الخاضعين للكرسي الرسولي هو في التمييز بين الكتابات المحرّمة وغير المحرّمة من هذين الفيلسوفين اللذين يوزّعان بهمّة وحذق جهودهما الفكرية والفلسفية والتاريخية والثقافية في شتّى المناحي. وباستثناء كتبهما فبنديتو كروتشي هو ناشر مجلّة «كريتيكا» وهي من خير المجلّات الإيطالية في أبحاث الثقافة المجرّدة عن الصبغة السياسية، المتفرّغة للنظريات العلمية والأدبية المحضة. أمّا جيوفاني جنتيلي فهو عضو في مجلس إدارة أكثر من مجلّة واحدة، وهو مع الدكتور كالوجيرو تومينللي[٦]، مدير دائرة المعارف الإيطالية الجديدة التي تشرف على تحريرها الحكومة الفاشستية وتعنى بها أيّة عناية.

* * *

أؤيّد الآنسة سيزا نبراوي[٧] في مقالها الممتع الذي نشرته في «البورص إجبسيين» لتعنى الحكومة بجمع آثار مختار[٨]، كما أؤيّد جماعة «أصدقاء مختار» في سعيهم لتخليد ذكرى هذا المصري العبقري. أمّا تبرّع السيّدة هدى شعراوي بجائزة مختار للسنة المقبلة فإشارة لا نستكثرها على همّة هدى هانم ووطنيتها وحبّها للفنّ.

ليست مكانة مختار في الوقت الحاضر بين الفنّانين المصريين دون مكانة رودان[٩] بين فنّاني عصره من الفرنسيين. ومن مصلحة مجد مصر الفنّي أن تعنى الحكومة بجمع آثار مختار في متحف يطلق عليه اسمه، أسوة بما صنعته الحكومة الفرنسية بآثار رودان. ولا يكلّفها ذلك إلّا القليل من النفقات في حين يكون العمل كبيراً وباقياً. أمّا الإغضاء عنه فإهمال صريح للواجب الوطني والفنّي.

عاشت ذكرى مختار الذي صاغ اسم الجيل المصري الجديد بحروف الحجر والصوّان كما صاغت مصر السحيقة كل تاريخها الفخم بتلك الحروف العنيدة المجيدة!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٧٩٩، ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٣٤، ص ١ و ٢ .

(١) Jean de La Fontaine (١٦٢١ - ١٦٩٥)، الشاعر الفرنسي الذي حقّق بكتابه «أمثال» (Fables) ١٦٦٨ مكانة دولية كمجدّد لهذا الفنّ من الفنون الأدبية.

(٢) Benedetto Croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢)، فيلسوف ومؤرّخ وشاعر إيطالي. شغل من ١٩٢٠ - ١٩٢١ منصب وزير المعارف، وكتب عام ١٩٢٥ بياناً معادياً للفاشية. كما عمل على إعادة تأسيس حزب الأحرار عام ١٩٤٣ وتولّى رئاسته حتّى ١٩٤٧ . تخلّى عام ١٩٤٨ نهائياً عن النشاط السياسي بعد أن كان عام ١٩٤٤ قد تبوّأ مجدّدًا منصباً وزارياً. أنشأ عام ١٩٠٣ مجلّة *La Critica* واستمرّ في إصدارها حتّى ١٩٤٤ . نال شهرة تجاوزت حدود إيطاليا بكتاباته في علم الجمال وباعتباره أهمّ ممثّلي المثالية الإيطالية الجديدة.

(٣) Giovanni Gentile (١٨٧٥ - ١٩٤٤)، فيلسوف وسياسي إيطالي. عمل منذ ١٩٠٦ أستاذاً في جامعة مسينا (Messina)، واعتباراً من ١٩١٤ في بيسا (Pisa)، ثمّ من ١٩١٧ في روما. كما أصدر ١٩٠٣ - ١٩٢٢ بالتعاون مع بنديتو كروتشي مجلّة *La Critica*. تقلّد ما بين ١٩٢٢- ١٩٢٤ منصب وزير المعارف في وزارة موسوليني الأولى، ونفّذ خلال هذه الفترة أوسع إصلاحات في النظام التعليمي لإيطاليا منذ ١٨٥٩ . كان بين ١٩٢٣ - ١٩٢٤ و ١٩٢٥ - ١٩٢٩ عضواً في المجلس الفاشي الأعلى ومن ١٩٢٥ إلى ١٩٣٥ مسئولاً عن نشر دائرة المعارف الإيطالية *(Enciclopedia Italiana)*. بعد إطاحة موسوليني من الحكم تسنّم رئاسة الأكاديمية (Accademia d'Italia) في فلورنسا. كان إلى جانب كروتشي أبرز معبّر عن التيّارات الفلسفية المثالية الجديدة التي شهدتها إيطاليا مطلع القرن العشرين. لقي حتفه عام ١٩٤٤ على يد فدائيين مكافحين للفاشية.

(٤) Bernardino Varisco (١٨٥٠ - ١٩٣٣)، فيلسوف إيطالي حاصل على درجة الدكتوراه في الهندسة. مارس التدريس سنوات طويلة في معاهد للهندسة ومنحه عام ١٩٠٠ المجمع العلمي في روما (Accademia dei Lincei) جائزة الفلسفة. أُستدعي عام ١٩٠٥ ليتبوّأ كرسي الفلسفة النظرية في جامعة روما وبقي فيه حتّى ١٩٢٥ . عُيِّن عام ١٩٢٨ عضواً في مجلس الشيوخ. بذل خلال مرحلة وضعية أولى محاولة تسجيل نظامي لجميع المطبوعات الإيطالية في مجال الفلسفة بكتاب *Saggio di una bibliografia filosofica italiana dal I° gennaio 1901 al 30 giugno 1908* الذي ألّفه بمشاركة A. Levi، وكانت أوّل مبادرة من نوعها في إيطاليا. ثمّ اتّجه إلى تبنّي مواقف دينية تقليدية إضافة إلى التزام سياسي حازم كما يتّضح على سبيل المثال في كتابه *Discorsi politici* (١٩٢٦).

(٥) François de Salignac de la Mothe-Fénelon (١٦٥١ - ١٧١٥)، كاتب فرنسي. كان قسّيساً فمؤدّباً في بلاط لويس الرابع عشر ثمّ أسقفاً لكامبراي (Cambrai). حلّ عليه غضب الكنيسة والبلاط لاعتناقه مذهب الطمأنينيّة أو السكينيّة (quiétisme) التصوّفي الأمر الذي أدّى إلى مصادرة كتابه *Maximes des saints* (حِكَم القدّيسين) ١٦٩٧ . تعدّ روايته التعليمية *Les aventures de Télémaque* المخصّصة لتلميذه الملكي أبرز أعماله، وقد طُبعت عام ١٦٩٩ دون علمه، ثمّ حُظرت حتّى ١٧١٧

نتيجة لما زُعم من نقده فيها للأسرة المالكة وأفكاره التقدّمية، لكنّها لم تلبث أن حقّقت انتشاراً واسعاً بطبعات لا حصر لها كما تُرجمت إلى أغلب اللغات الحيّة.

(٦) Calogero Tumminelli (١٨٨٦ - ١٩٤٥)، منشئ دار نشر Bestetti e Tumminelli عام ١٩٠٦ في ميلانو، وهي الأولى في إيطاليا التي تخصّصت بالفنون. تمّ لاحقاً دمجها بمعهد Giovanni Treccani وبتكليف منه عمل تومنللي ابتداءً من ١٩٢٤ بالتعاون مع جيوفاني جنتيلي على تخطيط دائرة المعارف الإيطالية وإصدارها حتّى المجلّد الثامن عشر. حُوّلت دار النشر عام ١٩٣١ إلى شركة مساهمة وبعد حلّها أُعيد تأسيسها في روما عام ١٩٣٣ تحت اسم تومنللي وحده. وصدرت دائرة المعارف الإيطالية *(Enciclopedia italiana di scienze, lettere ed arti)* بين ١٩٢٩ - ١٩٣٧ في ستّة وثلاثين مجلّداً تلاها عام ١٩٣٩ مجلّد آخر تضمّن فهرست الموسوعة.

(٧) سيزا نبراوي (١٨٩٧ - ١٩٨٥)، من رائدات الحركة النسوية في مصر. وُلدت في محافظة الغربية ونالت بعض تعليمها في باريس. انضمّت إلى الاتّحاد النسائي المصري الذي أنشأته هدى شعراوي عام ١٩٢٣ وعملت سكرتيرة له ثمّ نائبة لرئيسته كما تولّت رئاسة تحرير مجلّته نصف الشهرية *L'Egyptienne* منذ تأسيسها عام ١٩٢٥ وحتّى ١٩٤٠ . مثّلت مصر في عدّة مؤتمرات نسائية دولية وشاركت في تأسيس بعض الجمعيات النسائية العربية في مقدّمتها الاتّحاد النسائي العربي العامّ سنة ١٩٤٥ .

(٨) محمود مختار (١٨٩١ - ١٩٣٤)، النحّات المصري الكبير. يعتبر تمثال «نهضة مصر» الذي يقف قبالة المدخل الرئيسي لجامعة القاهرة بالجيزة من أشهر أعماله. راجع في هذا الصدد مقال «نظرة في فنّ مختار» الذي نشرته ميّ زيادة في السياسة الأسبوعية، ع ٣٦، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦، ص ٦، وهو مضمّن في كتاب أحمد حسين الطماوي «ليلة باسمة في حياة ميّ»، القاهرة: دار الفرجاني ١٩٩٦، ص ١٨٢ - ١٨٦ .

(٩) Auguste Rodin (١٨٤٠ - ١٩١٧)، أهمّ نحّات فرنسي خلال القرن التاسع العشر ويعدّ منشئ الفنّ التشكيلي الحديث. من أشهر أعماله تمثال Le Penseur (المفكّر) ١٨٨٢ - ١٩٠٦ و Le Baiser (القبلة) ١٨٨٨ - ١٨٨٩ .

عيد حقوق الإنسان

تحتفي الجمهورية الفرنسية في هذا اليوم من كل عام بعيدها الوطني، وذلك منذ هدم الباستيل في ١٤ يونيه سنة ١٧٨٩[١]. وكان حصن الباستيل قد شيد في أواخر القرن الرابع عشر في عهد شارلكان[٢]، فلم يكن حتّى انقلب الحصن سجناً لا للجاني الذي ثبتت جريمته فصدر عليه الحكم من هيئة القضاء، بل لكل مغضوب عليه لسبب خطير أو تافه، أو لغير ما سبب سوى الدسيسة والوشاية وسوء التأويل. فمن عبر عتبته قُضي عليه في الغالب فكان الدفين حيّاً.

لذلك كان الفرنسيون ينظرون إلى الباستيل كمعقل الجور والظلم والطغيان. وما إن نشبت الثورة في أدوارها الحادّة حتّى هجم الباريسيون على السجن يدكّون أسواره وينسفون معالمه وسط قرع النواقيس وهدير المدافع وضرب المعاول، وصليل السيوف، وتفجّر الدماء، وصياح الألوف المؤلّفة من الثائرين المعتقدين أنّهم بهدم تلك الجدران الضخمة الرهيبة وبدكّ تلك الأبراج الثمانية المهدّدة، إنّما يهدمون عالماً قديماً ويشيدون عالماً جديداً.

لست ألمع إلى تاريخ هدم الباستيل إلّا لأنّ الشعب الفرنسي اتّخذه لنفسه عيداً. ولست أقصد من ذكر ثورته الموازنة بين حسنات الثورة ومساوئها. ولكنّي أودّ القول إنّ أظهر يوم عندي لا في الثورة الفرنسية وحدها بل في عدّة من القرون الحديثة هو يوم ٤ أغسطس من نفس السنة التي هدمت فيها الباستيل. لأنّ الفرنسيين أزجوا في ٤ أغسطس أشرف رسالة تؤدّيها دولة أو حضارة، وهي إعلان «حقوق الإنسان».

* * *

لو نحن راجعنا الحضارات الغابرة ما وجدنا لحقوق الإنسان ذكراً. وأتخيّر في هذا المقال تحاشي الكلام عن المذهبين الفلسفيين في الصين (كنفوشيوس) وفي الهند

(بوذا) اللذين قالا بحرّية الفرد الإنساني إلى حدّ ما. كما أتحاشى الكلام عن الدينين الكريمين المسيحي والإسلامي اللذين، رغم تقييد الإنسان بشيء من القدرية والجبرية، أنالاه حرّية الفكر والإحساس والعمل وجعلا له ضميراً يحاسبه على مآتيه وإلهاً يبصر نواياه ويسجّلها له أو عليه. فنحن من هذا البحث في موضوع مدني محض.

عبثاً نبحث حضارة اليونان حتّى في عهد بريكليس[٣] حيث بلغت الديمقراطية أوج مجدها، فهناك ليس «الإنسان» إلّا مدنياً. هو فرد وطني يخصّ المدينة، له حقوق الوطني وعليه واجباته. أمّا شخصيته الفردية الإنسانية فمفقودة. وقدماء الفلاسفة الذين بحثوا أنظمة الحكومات وتناولوا حالة الفرد باعتباره جزءاً من الدولة، لا نرى عندهم اعترافاً بحقّ للفرد كإنسان. حتّى أفلاطون، أفلاطون الإلهي، لم يفكّر في ذلك، والدولة التي يتخيّلها ويرسم معالمها ويعيّن وظائفها، لا تختلف كثيراً عن «المدينة» القديمة فهي ضيّقة محدودة والحرّية فيها مجهولة.

ولكن باستثناء الحكيم الصيني منيسيوس[٤]، إنّما عند أرسطو تظهر للمرّة الأولى فكرة تحرير الفرد الإنساني من ربقة الدولة. فليست الدولة فكرة عليا ثابتة كما يقول أفلاطون، ولكنّها عند أرسطو جماعة من الأفراد المتضامنين المرتبطين فيما بينهم بمصالح مدنية ووطنية مشتركة، وإن اختلف كل منهم في ذاته ميولاً عن الآخر. وليس ذلك التحالف الوطني والمدني يرمي إلى ضمانة الحياة المادّية وصيانة الحقوق المحسوسة فحسب، بل هو يرى في نظام المدينة والجماعة تحالفاً وتضامناً للسعادة والفضيلة في العائلة وفي مختلف طبقات السكّان لاستكمال حياة قائمة بذاتها كافية وافية. فأرسطو في الواقع هو أوّل من ناقش في سلطان الدولة المطلق فأخرج المسائل المدنية والسياسية من قيود العقيدة القديمة ومن ربقة التقليد، عامداً بذلك إلى الملاحظة والتحليل والاستقراء العلمي. لذلك كان هو الخالق الحقّ للعلم السياسي.

وتلت جماعات فلسفية استوحت هذه الآراء وغيرها وشرحتها متوسّعة في تأييدها أو في معارضتها. وكان ديوجنيس الكلبي[٥] أوّل من أعلن أنّه ابن وطن اسمه العالم. وكان لفلاسفة الرواق أو الجلوديين[٦] الفضل في أنّهم شادوا دعائم مذهبهم على فكرة العدالة الطبيعية والحقّ الطبيعي المستمدّ حقيقته من جوهر الإنسان الصميم

المتّصل بالألوهية. وشيشرون اللاتيني تلميذ اليونان، المنتمي بعض الانتماء إلى الرواقيين، تناول آراءهم المناقضة لوسطه الروماني الذي لم يكن يعنيه من الفرد إلّا أن يكون عسكرياً - ونشر تلك الآراء مدافعاً عنها ببلاغته النادرة، معلناً مع الرواقيين أنّ الإنسان في الفرد هو غير الوطني، وإن لم يكن محتوماً أن يتعارض الاثنان فيما بينهما، وأنّ واجب الإنسان الأسمى ليس في خدمة الدولة ولكن في كونه فاضلاً يرضي اللّه.

* * *

هذه فكرة جميلة تشعّ وتنمو حيناً وتنكمش وتتضاءل أحياناً، فكيف تتيسّر مسايرتها مدّة خمسة وعشرين قرناً؟ وكيف تتسنّى ملاحقتها بين أعمال رجال السياسة وأبحاث المفكّرين حتّى تبدو في صيغة قانونية معلنة عن حقّ الإنسان وحرّية الشعوب؟

لقد كان حجر الزاوية في صرح تحرير الأمم الحديثة تلك البراءة الملكية التي نالها الإنجليز في مطلع القرن الثالث عشر فظفروا منها بمبادئ الحرّية الدستورية(٧). وهي مبادئ ستنمو وتنتشر منذ ذلك الحين خلال الحروب والثورات والانقلابات الاجتماعية والسياسية، خلال اكتشاف كولمبوس للقارّة الأمريكية وخلال الاختراعات العلمية والآلية وما ستخلقه من عديد المشاكل. خلال كل ذلك سيتكيّف النظام النامّ على شعور الإنسان بأنّه إنسان ذو حقوق إنسانية. وسيظهر بين الإنجليز والألمان والسويسريين والفرنسيين المفكّرون والاقتصاديون والاجتماعيون فيتأثر الفرنسيون وبخاصّة الأنسكلوبيديون منهم بتلك الآراء فيوسعون فكرة الحقّ الطبيعي والعدل الطبيعي جلاءً وظهوراً، حتّى إذا شبّت الثورة وكان يوم ٤ أغسطس أعلن الفرنسيون «حقوق الإنسان» نصّاً رسمياً في قانون الدولة يقوم عليه نظام الحكم كله.

وهكذا من تأسيس أرسطو لعلم الدولة إلى فلسفة الرواقيين وتأييد شيشرون لها، إلى التمهيد للدستور الإنجليزي، إلى استقلال أمريكا وثورة فرنسا، وكل ما يتخلّل أولئك من قرون وجهود وأبحاث واكتشافات واختراعات وانقلابات - ترى فكرة تحرير الإنسان الفردي والاعتراف بحقّه الطبيعي قائماً على العدالة الطبيعية، ترى كل ذلك خيطاً ضئيلاً من النور يتخلّل ظلمات الدهور ونيرانها، حتّى يزفّها الفرنسيون رسالة ثابتة لا تمحى.

كل ما أتته الثورة الفرنسية من الفظائع يتضاءل حيال إعلان «حقوق الإنسان»، مع تقرير المساواة بين الجميع أمام القانون وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها.

* * *

وبفعل مختلف العوامل سيتفرّع من هذا الإعلان مناقضات شتّى لأنّ النظريات تسبق العمليات ولأنّ تربية النوع الإنساني تتطلّب الأجيال والقرون. والنوع الإنساني جادّا أبداً في سيره لا يتوقّف لحظة في مكانه، ومن خطواته ينسج التاريخ.

وللتاريخ مرّة سير مطّرد ومرّة انحناء وتعرّج ودوران يغيّر اتجاهه. ونحن من التاريخ في هذا الموقف الآن، كبار الشعوب وصغارها، ليس بيننا من يدري أيّة الحركات السياسية الناشبة الآن في العالم ستظفر بالتفوّق والغلبة لحين ما.

أجل، لحين ما فقط. وقديماً قال أرسطو، ذاك النبيّ المدني، إنّ الأنظمة السياسية الكبرى تتناوب السيطرة والتداول نظاماً بعد نظام ضمن دائرة زمنية كأنّها محتومة. لسنا ندري إلى أين نحن صائرون بين عديد الدكتاتوريات المتعارضة (والديكتاتورية عند أرسطو تنبثق من قلب الديمقراطية) الآخذة بأعناق الأمم. ولكنّنا ندري أنّ الاختبار الذي يظفر به النوع الإنساني في تاريخه الطويل لا يضيع ولا يمحق، بل يدّخر في دمه ويصبح جزءاً من كيانه.

* * *

حقوق الإنسان! إنّ ما تنصّ عليه هذه الكلمة وما تعترف به وخصوصاً ما توحيه من كريم المعاني، يخيّل اليوم أتمّ نفاسة وأغلى قيمة. وهذا الدرس الذي ألقته فرنسا على العالم سيبقى دائماً في قلب الإنسان حيث انبثق فجرًا. قد تقضي المقادير بأن ينقلب الإنسان عبداً بعد أن عرف نبل الحرّية، ولكنّ ذكرى الحرّية تجعل له في عبوديته كرامة خاصّة وأنفة مكتسبة راسخة، وتستحثّه على استكمال تربيته ليصبح أهلاً للحرّية كلها.

فلتفاخر اليوم فرنسا برسالتها تلك إلى الإنسان. إنّ من عرف لنفسه حقّاً عرف كذلك لجاره مثل ذلك الحقّ فتولّد الواجبُ من الحقّ وكان الحقّ مغذّياً الواجب في الشخصية الإنسانية المكتملة.

وليرفع الفرنسيون اليوم رايتهم عالية تظلّل ذكرى تلك الرسالة المجيدة! وليكونوا في خصائص تاريخهم الحديث أمينين على تلك الرسالة، وفيّين للدرس الذي نثروه سنيّاً. ولأنّ هذه الرسالة لن تمحى من ذاكرة الإنسان كان لكل شعب أن يتغنّى اليوم بالمرسلييز(٨) هاتفاً كالشعب الفرنسي:

«يا حبّ الوطن المقدّس،

«قُدْ وأيّد سواعدنا المنتقمة!

«أيّتها الحرّية، أيّتها الحرّية العزيزة،

«قاتلي مع الذين يذودون عنك!»

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨١٥، ١٤ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١ . ظهر المقال أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٦٠، ١٧ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١ .

(١) خطأ مطبعي في الأصل، والمقصود هو ١٤ تمّوز/يوليو ١٧٨٩ .

(٢) Charles Quint أو شارل الخامس، ملك فرنسا ١٣٦٤ - ١٣٨٠ .

(٣) Pericles (٥٠٠ - ٤٢٩ ق.م.)، رجل دولة أثيني، زعيم الديمقراطيين الأصوليين.

(٤) ماني أو منيسيوس (Manichaios) باليونانية (٢١٦ - ٢٧٧)، مبشّر ومعلّم بابلي، ذو أصول إيرانية، منشئ مذهب المانوية القائم على الثنائية، والذي انتشر من مملكة بابل حتّى أسبانيا في الغرب وحتّى الصين في الشرق، وبقي نوعاً ما فعّالاً في الديار الإسلامية حتّى مطلع القرن العشرين لكنّه يُعتبر في حكم المنقرض في الوقت الراهن.

(٥) Diogenes (حوالي ٤٠٠ - ٣٢٨ ق.م.)، فيلسوف يوناني ذاع صيته من خلال العديد من الأقاصيص والنوادر اللطيفة، وطبقاً لبعضها فإنّه قضى عمره في برميل. يُلقّب بالكلبي (cynic) نسبة إلى مذهب الكلبية (cynicism) الفلسفي الذي أنشأه أو شارك في إنشائه والذي يدعو إلى احتقار العرف والتقاليد والأخلاق الشائعة وإلى اتّباع أسلوب حياة متميّز بالزهد التامّ.

(٦) الرواقيون أو المتجلّدون، أتباع مدرسة الفلاسفة المؤسّسة نحو عام ٣٠٠ ق.م. على يد زِينُون القِتشيُوني في الرواق المزخرف (Stoa Poikile) بأثينا، والتي أظهرت تأثيرها في القرنين الأوّل والثاني ق.م. على روما، وبالأخصّ على شيشرون (Cicero)، حيث تحوّلت في أواخر أيّامها على يد سنيكا (Seneca) وإبكتيتس (Epiktetos) وماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) إلى منار للمثقّفين. اعتبر

الرواقيون الكون كياناً ذا عقل محكوماً بنظام ذي مغزى يرجع إلى الله، ودعوا إلى نمط حياة ينسجم مع الطبيعة، مستنداً إلى الفضيلة وحدها، ولا مكان فيه لأيّ نوع من التهيّج العاطفي. وقد أصبح تجلّد الرواقي مضرباً للأمثال.

(٧) المقصود هو الوثيقة العظمى أو الماغنا كارتا (Magna Carta libertatum) الصادرة في ١٥ حزيران/يونيو ١٢١٥ والتي أمّنت حقوق جميع الأحرار ونصّت على تشكيل لجنة رقابة من ٢٥ باروناً تكون رديفاً لسلطة الملك، ويوكل إليها صيانة الحرّيات. ومنذ فترة مبكرة أُعتبرت الوثيقة العظمى دليلاً على الحياة البرلمانية الناشئة إذ أنّها أدّت إلى موازنة للسلطة بين الملكية والأرستقراطية أخضعت تنافس القوى السياسية لسيطرة القانون واحتضنت فكرة التمثيل النيابي ممّا كان له آثار كبرى فيما بعد. وبعد تحديثها وتعزيزها بإجراء العديد من التعديلات على بعض البنود أصبحت جزءاً من الدستور البريطاني.

(٨) La Marseillaise، كانت في الأصل «أنشودة ميدان لجيش الراين» (Chant de guerre pour l'armée du Rhin) كتبها ولحّنها Claude Joseph Rouget de Lisle في نيسان/أبريل ١٧٩٢ . وقد أنشدها للمرّة الأولى كتيبة متطوّعين من مرسيليا (Marseille) لدى دخولها في باريس في ٣٠ تمّوز/يوليو ١٧٩٢ . شاعت بسرعة كأنشودة ثورة وحرّية، وأُعلن مبدئياً عن تحويلها نشيداً وطنياً لفرنسا عام ١٧٩٥، بينما تمّت المصادقة على ذلك نهائياً عام ١٨٧٩ .

الدكتور أ.م. بلاكمن

أستاذ العاديات المصرية في جامعة ليفربول

أنبأت برقية من رويتر بتعيين الدكتور بلاكمن أستاذاً لعلم الإيجبتولوجيا في جامعة ليفربول(١).

وقد عرفت هذا العالم (بواسطة الدكتور عفيفي باشا) فتبادلت وأسرته الزيارات. وكان له ولشقيقته الفضل بالطواف بي في مختلف كلّيات جامعة أوكسفورد وكنائسها وغير ذلك من مؤسّسات تلك المدينة الجامعية الجميلة، إبّان إقامتي بإنجلترا في الصيف الأسبق.

والدكتور بلاكمن من أهالي أوكسفورد وكان يومئذ مدرّساً بجامعتها. وكبرى شقيقتيه، مس وينِيفْرِد بلاكمن(٢)، معروفة في مصر حيث كثيراً ما تقضي فصل الشتاء. وقد أحبّت الفلّاحين وألفت معيشتهم الفطرية البسيطة فوضعت عنهم باللغة الإنجليزية كتاباً يحسب مرجعاً في تعرّف شؤونهم. وما فتئت تدرس عاداتهم الإجتماعية، وتقاليدهم، والعرف المتداول بينهم، حتّى الأوهام المساورة حياتهم التي تجد لها مس بلاكمن أسباباً غائصة في غابر التاريخ.

وتفرّغت في الأعوام الأخيرة لدراسة الوشم الذي يزينون به وجههم وأعضاءهم فعثرت في بعض الرسوم على ما تردّه إلى أصل فارسي، وهو بعض المتبقّي من مرور كتائب داريوس قبل جيوش الإسكندر في هذه الديار. أمّا أبحاثها في أنبتة الأرض المصرية وفي مفعول حشائشها فقد عرفها وقدّرها نفر من كبار العلماء والأطبّاء في مصر.

* * *

ومذ خططت هنا اسم الدكتور بلاكمن تمثّل شخصه لمخيّلتي بنظره ذي الهدوء الطبيعي في الظاهر، وبما يكنّه في أعماقه ممّا يحدّث عن حياة نفسية خاصّة «يعيشها» إلى جانب حياته الجامعية والاجتماعية ونشاطه التاريخي المعروف.

بدأت أستشعر تلك الحياة الداخلية عنده ونحن بعد في ردهة الاستقبال بداره اللطيفة في أوكسفورد، نتعاطى الشاي والحلوى والحديث عن تاريخ مصر وفنّها. وكان أن أبديت ملحوظة في المقابلة بين الفنّ المصري الذي تنطق آثاره بخصائص العبوس والكتمان والروعة والاستغراق في النفس مع تصلّب العضلات وحدّة الزوايا، وبين الفنّ الإغريقي الذي يتناول الأعضاء بالتوسّع والاستدارة باعثاً في الوجه بشائر المتعة والانشراح والرفاهية. فطفق الدكتور يشرح البواعث الخفيّة المتحقّقة في الآثار المصرية على أتمّ وجه، ويصف الفنّ المصري بما يجعله فريداً في فحواه الروحانية ومغزاه السرّي.

وما إن دعاني إلى زيارة مكتبه فهبطت السلّم بينه وبين شقيقتيه حتّى استولى علينا السكوت كتمهيد لحدث لم أدرك شيئاً منه إلّا بعد أن جزت العتبة فولجت المكتبة.

هناك انتابني شعور غريب. فيض من سيّال غير ملموس غمر نفسي فانتشلها ممّا هي فيه من حزن وقلق ليحبوها بشعور السكينة والرضى، ثمّ ليجتذبها بعيداً عن هذا العالم بما فيه من ناس وشؤون ومناقضات أليمة. وكنت من الاستسلام لهذا الشعور المفاجئ بحيث لم ألحظ وجود المومياء المصرية وهي أوّل ما يقع عليه نظر الداخل. كأنّ كل قواي تلخّصت في ما يسمّيه أهل الروحانية «الحاسّة السادسة». وكأنّ الدكتور وذويه استطلعوا في هيئتي ما يدلّ على ذلك فتلاقت أنظارنا في سكوت. وعندما استقرّ بنا المكان قالت مس بلاكمن: - أخي يعيش كثيراً في هذه الغرفة.

قلت: - ألا يكون أنّ الأفكار التي يفتكرها هنا الدكتور والخيالات التي يستدعيها ليحييها، هي التي أوجدت ما في هذا الجوّ من الغرابة؟

قال الدكتور ساهياً بعض الشيء كمن يحدّث نفسه: - قد يكون الأمر كذلك. أحسن أوقاتي أقضيها هنا في العزلة والدرس والبحث. وقد يكون كذلك مصدر هذا

الجوّ، «هي»... (مشيراً إلى المومياء المصرية المنتصبة على قدميها مستندة إلى الحائط في تابوتها الخارجي المكشوف).

- ومن تكون «هي»؟

- كاهنة من كاهنات إلاهة إيزيس.

قماطر الكتب تكسو الجدران من أسفلها إلى أعلاها. وبين رفوف الكتب كما على الطاولات الموزّعة في المكتبة، نضدت شتّى القطع الأثرية في تشويش مقصود يتعمّده الذوق الفنّي، وكلها طرف من فنّ مصر، ومن تاريخ مصر، ومن نفائس عادياتها. والنافذة المفتوحة على الحديقة تظهر الأشجار تحت طوالع الشفق ككائنات مسحورة. ومومياء السحّارة المصرية، كاهنة الإلهة المصرية، تبدو في هيئة الجلال والإلهام. ونحن حيالها جمود كأنّنا نتنسّم منها خبراً أو نتوقّع من لدنها بياناً. وجوّ الغرفة، المليء بأفكار لا تفصح عن نفسها، يفيض من مستودعه الخفيّ موجة إثر موجة من سيّال السكينة والرضى...

* * *

أين ذياك الانقباض الذي لم يفارقني منذ ثلاثة أعوام؟ أين الحداد الدامس في كياني، ودونه ثوبي سواداً؟ أين التفطّر في سآمة، الذي هربت منه إلى إنجلترا فوجدته أمامي لأنّي حملته معي، في تلك البلاد التي لا تعرف إلّا النشاط والجدّ والرغبة المدهشة في الحياة؟

لكأنّما كل ذلك كابوس تبدّد في جوّ هذه المكتبة في حضرة كاهنة إيزيس..

وجرؤت خلال الحديث على السؤال هل الدكتور يأخذ بعقيدة مصر القديمة في تناسخ الأرواح؟ وإذا كان، وهو الآن الإنجليزي الصميم، يظنّ أنّه في حقبة غابرة من الزمن، عاش عمراً كان فيه «مصرياً» - ممّا قد يفسّر شغفه بمصر إلى هذه الدرجة؟

ألقيت السؤال متردّدة فيما أقول، مرتبكة في التعبير، مشفقة أن يحمل سؤالي محملاً لا يروق. ولكنّ الدكتور بلاكمن تلقّاه كالشيء الطبيعي الذي يخطر للفكر

بالبداهة، رغم كون البتّ في مثل هذه الأمور شيئاً غير ميسور وذكريات هاتيك الأعمار السحيقة متعذّرة الوضوح والاستجلاء...

ثمّ استأنف قائلاً:

- ليس اهتمامي مقصوراً على مصر الغابرة، بل عندي لمصر الحاضرة مثل ذلك الاهتمام. انظري!

قال، وأشار إلى الصورتين الفوتغرافيتين الوحيدتين في المكتبة، وقد وُضعتا متقابلتين في أظهر مكان، عالياً فوق موقد النار الذي جلسنا نتدفّأ حوله. تمثّل إحداهما شابّاً مصرياً في هندام الضابط الأنيق وحلاوة المعنى في وجهه ناطقة بسمرته الجذّابة. وتمثّل الأخرى رجلاً من عامّة الشعب في جلباب الفلاّح وقد تراءت في عينيه خيالات بلاده السحيقة.

رمق الدكتور هذه الصورة وتلك بنظرة امتزجت فيها الحرارة بالعذوبة، وقال:

- هذا الضابط الفتيّ كان صديقاً لي أحببته الحبّ كلّه، وما زلت على حبّي له ولو أنّه توفّي. وكان الآخر خادمي فعرفت فيه نفساً نبيلة ذكيّة وفيّة. لذلك أحببته صديقاً عزيزاً، وما زلت على حبّي له ولو أنّه توفّي.

* * *

... ليس الموت موتاً بالمعنى الذي ألفناه، لهذا العالم الإيجبتولوجي الذي استهوته مصر فخلق لنفسه وراء البحار وسطاً مصرياً وأحاط حياته بنواح شتّى من وجه مصر الرائع الجلال:

مصر التاريخية العلمية الفنّية، بالكتب التي تغشى جدران مكتبته وبالأثريات التي تزين بيته،

مصر الفلسفية الروحانية، بكاهنة إيزيس خالقة ذلك الجوّ الذي تسوده بسحرها وبهيبتها،

مصر الأنيقة الناهضة الباسلة، في صورة الضابط الشابّ الوسيم،

ومصر الفلّاحة التي عاركها الدهر فما نال من حيويتها شيئاً وما فتئت تستمدّ نبلها وفطنتها ووفاءها من أرضها الإلهية الخالدة، في صورة صاحب الجلباب...[٣]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨١٨، ١٧ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١ . أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٦١، ٢٤ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١ .

(١) Aylward Manley Blackman (١٨٨٣ - ١٩٥٦)، أستاذ علم الآثار المصرية في جامعة لفربول (Liverpool) ١٩٣٤ - ١٩٤٨ ومحاضر متخصّص لهذه المادّة في جامعة مانشستر (Manchester) ١٩٣٦ - ١٩٤٨، أحد ناشري مجلّة *Annals of Archaeology and Anthropology* ١٩٣٥ - ١٩٤٧ ورئيس جمعية Egyptian Society of East Anglia منذ تأسيسها في عام ١٩١٥ حتّى حلّها أثناء الحرب العالمية الثانية.

(٢) Winifred Susan Blackman (١٨٧٢ - ١٩٥٠)، باحثة حصلت على دبلوم في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) من جامعة أُكسفورد (Oxford) وعاشت فترة طويلة في مصر خلال العشرينات والثلاثينات كرّست نفسها فيها لدراسة أعراف الفلّاحين وعاداتهم ومعتقداتهم. نشرت كتاب *The Fellahin of Upper Egypt* (١٩٢٧) وعدداً كبيراً من المقالات.

(٣) ظهر في الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٢١، ٢٠ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١، الخبر التالي إلى جانب صورتي الدكتور بلاكمن وشقيقته: «نشرنا منذ يومين مقالة طريفة لحضرة الآنسة ميّ عن الدكتور بلاكمن أستاذ العاديات المصرية في جامعة ليفربول. وقد أشارت حضرتها في أثناء وصفها مكتبة الدكتور إلى صورة فتوغرافية لضابط مصري معلّقة في المكتبة قال عنه الدكتور إنّه كان صديقاً له وما يزال على حبّه له ولو أنّه توفّي. وقد جاءنا من حضرة «اليوزباشي محمّد نوير معاون بوليس بمدينة معير» كتاب يقول فيه: «أشكر للأهرام وللآنسة النابغة ميّ مقالتها البليغة عن صديقي الدكتور أيلوارد بلاكمن أستاذ علم الآثار المصرية بجامعة ليفربول وصديقتي مس ونيفرد بلاكمن. واسمحوا للضابط أن يصحّح خطأً جاء في المقالة عن وفاته». وقد طوى حضرة الضابط كتابه على صورة الدكتور وصورة شقيقته المنشورتين مع هذا الكلام. فنحن نشكره ونهنّئه ونرجو له عمراً طويلاً».

خواطر متناثرة

* زكي باشا في أوكسفرد
* وجدانيات إنجليزية
* حيث لا تجد شكسبير وحيث تجده

ذكرت أوكسفرد في مقالي السالف. فتنبّهت إلى أنّ اسم زكي باشا امتزج بذكرياتي في تلك المدينة ولو بحادثة صغيرة أرويها هنا بمثابة زهرة أضعها على ضريح فتى العروبة وفقيدها بمناسبة مرور أسبوعين على وفاته، راجية أن أحاول تلخيص دعوته في فرصة أخرى[١].

قضيت يوماً في ضيافة المستشرق الشهير الأستاذ مرجليوث وقرينته[٢]. وهذان الزوجان على تقدّمهما في السنّ ما زالا فتيّين نشيطين مرهفي المدارك موفوري اللطف. وإذ كان الأستاذ يقود سيارته بزوجته وبي من فندقي إلى داره، كان يوقف السيارة في الطريق بين حين وآخر فننزل ونسير خطوات تحت الأشجار نسرّح الطرف في المشاهد الطبيعية البديعة المحيطة بأوكسفورد. فأتساءل عندئذ عن مبلغ تأثير المدينة وجامعتها في تكوين شخصية نفر من كبار المصريين أمثال محمّد محمود باشا، وأحمد حسنين بك، والأستاذ مكرم عبيد، والأستاذ علي عبد الرازق وغيرهم من الذين أتمّوا دراستهم فيها.

أمّا دار الأستاذ مرجليوث فتقوم في ضاحية أوكسفرد على هضبة تبدو تحتها المدينة الجامعية وكأنّها لوحة في إطار من الخضرة السندسية والهضاب الرقيقة الأصباغ. وقد ازدحمت الدار بالكتب تجدها في كل مكان، فضلاً عن مكتبة الأستاذ الزاخرة و«ملحق» شيد من الخشب قرب الدار فرصّت فيه الكتب رصّاً بخمس عشرة لغة أكثرها من اللغات الشرقية، وبخاصّة العربية التي يتولّى العلاّمة مرجليوث تدريسها في جامعة أوكسفرد.

وعندما جلسنا إلى مائدة الطعام، سأل الأستاذ عن أصدقائه في مصر. فقلت: - من تريد أن أذكر أوّلاً؟ فأجاب: - طبعاً زكي باشا.

طبعاً زكي باشا! كان هو أوّل من يسأل عنه السائل من المستشرقين على اختلاف جنسياتهم. وما أكثر ما سمعت منهم مثل هذه الجملة: «حياة زكي باشا مشتّتة مبعثرة يعوزها التنظيم. ولكنّه سفير العروبة العامّ لدى الغرب. ومورده من الهمّة والنشاط والحماسة يضاهي مورده من معرفة لغة العرب وتاريخ العرب، مورد مزدوج زاخر لا ينضب، ولا يوازيه في نظرنا مورد آخر من نوعه...».

ثمّ مضينا نطوف بالحديقة الغنّاء التي يحبّها الزوجان حبّاً جمّاً. فجمعت مسز مرجليوث في منديل من ذلك النبات العطري الذي يعبق به الهواء وأهدته إليّ تذكاراً. فقلت: - شكراً. هذا تذكار يروقني. أيّ شذى يوازي شذى اللاوندة؟ وقلت الكلمة بالعربية بعد الإنجليزية.

فضحك الأستاذ مرجليوث وكان من ناحيته يجمع أزهاراً، وقال بالعربية: - لو سمعك زكي باشا تقولين «لاوندة» أفما كان يغضب؟

قلت: - غضبة مضرية! فيقول: لاوندة أيه! خزامى، يا بتّ!

* * *

ودّعت مضيفيّ الكريمين قبل الوقت الذي كان عيّنه الأستاذ مرجليوث لحضور السيارة، لأبلغ الفندق في الموعد الذي كنت أرتبطت به لاستقبال زائر. غادرت «الفيلا» المليئة بنشاط الفكر وجوّ العلم وهناء الزوجين الفتيّين، وسرت قبيل الغروب في هاتيك السبل الريفية المثيرة شوقاً وتحناناً لا يوصفان. إلّا أنّي، وقد بلغت مكاناً تتلاقى فيه الطرق تحت الأشجار الظليلة، تردّدت في المسير. الطريق مقفرة، ولا أرى حواليّ إلّا أصحاب «الفيلات» في حدائقهم الصغيرة يتأرجحون بالأراجيح، أو يجرون متصايحين متضاحكين. وغيرهم يلعب «التنس» وما إليه. واستلقى آخرون على الكراسي الطويلة يحلمون في سكون الخلاء وشجو المساء. لبثت في مكاني أحاول تعرّف الطريق التي جاءوا بي منها فإذا بفتى مكشوف الرأس بربطة عنق «لافاليير»[٣] يقبل عليّ. أيخطئ أهل البلد نظرة الغريب الحائر؟ لمح منّي الفتى حيرتي وأنس في هيئتي ونظري تشجيعاً فدنا منّي، وبتلك اللهجة المتأدّبة الوديعة التي تجدها حتّى في أدنى مراتب الشعب الإنجليزي في بلاده، قال:

- أأستطيع أن أساعدك في شيء؟

- ضللت طريقي إلى أوكسفرد، كما ترى.

- تذهبين يمنة وبعد نحو خمس دقائق تعطفين شمالاً إذ تبصرين أمامك المحطّة، لا تخطئينها. الأوتوبس يمرّ كل نصف ساعة. فلديك (ناظراً إلى الساعة على زنده) ١٨ دقيقة. وإن لم تعارضي، سرت معك.

- شكراً. أتكون هذه طريقك؟

- هي طريقي على كل حال. و .. قد قُضي الأمر... خير لي أن أعود الى أوكسفورد (وكتم زفرة حفزت تطلّعي).

- أجل، العودة خير. فالجوّ يهدّد بالمطر.

- أوه! شيء ألفناه نحن. أمّا أنتم الإسبان فقد يكون المطر عندكم قليلاً.

- المطر «عندنا» قليل. وعلام تظنّ أنّي إسبانية؟

- جميع من رأيت من الإسبان يشبهونك. ويتكلّمون الإنجليزية بسهولة.

- والمصريون يتكلّمون الإنجليزية وغيرها بسهولة.

- أوه! أنت من مصر؟ أتعرفين أبا الهول؟ وهل تخاطبينه باللغة المصرية أم هو يحذق غيرها أيضاً؟

- أبو الهول يحذق جميع اللغات، ولكنّه حرون قليل الكلام.

- أصحيح أنّه يلتهم البرانيط؟ أخبرني أحد أصدقائي أنّه أكل برنيطة نابوليون.

- هذا أمر طفيف، أبو الهول قويّ.

- هل غضب فأكل البرنيطة؟

- تأمّل أنّ نابوليون حشد في أعالي الأهرام أربعين قرناً لترقب أبا الهول وهو «يأخذ» حمّاماً شمسياً..

أوه! هذا لم يكن لطيفاً من نابوليون. عندئذ؟

– عندئذ أكل أبو الهول البرنيطة وأكل بعدها أذن نابوليون. ومنذ ذلك الحين درج الرجال على السير مكشوفي الرأس، وألف الناس العمليات الجراحية لترقيع الوجوه...

– شيء مدهش لم أكن أعرفه. ألا يغضب أبو الهول من المصريين؟

وكان السير قد جدّ بنا فأدنانا من المحطّة فأخبرته عن حقيقة أبي الهول فانتقل من دهشة إلى دهشة. وسهل عليه الكلام فحدّثني عن يومه أنّه كان ينتظر هنا خطيبته التي تكبره بعامين، لأنّهما يتلاقيان مرّة في الأسبوع سرّاً. القانون يحظر عليهما الزواج قبل بلوغ السنّ القانونية وهو ما زال في السابعة عشرة. وهذه أوّل مرّة تخلف الخطيبة وعدها فلم تأت. فقد يكون الناس قد أقنعوها في التحوّل عنه...

– إنّهم لا ينفكّون عن الوشاية بها إليّ وبي إليها. يكرّرون لي أنّها دميمة خبيثة وأنا أراها المرأة الجميلة الكاملة، لا غيرها في العالم. الناس أشرار حسودون. إذا رأوا ارتباطاً بين اثنين حاولوا التفريق بينهما بجميع الوسائل. وإذا ما أحبّ الرجل قضي عليه بملاقاة جميع هذه المعاكسات وهذه الآلام. ولكنّه بها يتشدّد ويصبح أرسخ عزيمة. فهل هذا شأن المرأة أم هي تتغيّر بسرعة؟..

هذا الغلام! ١٧ سنة، ويصف نفسه بالرجل! ١٧ سنة وقد اختبر شرّ الناس وحسدهم وولعهم في تعكير الصفو بين المحبّين! وزاد الآن أن داهمه الشكّ الأليم في تلك التي هي موضع ثقته وإيمانه وكان يكتفي بها تعزية عن يأسه من بني الإنسان... أحكام سريعة من فتى حديث السنّ، ولكن كم فيها من الانطباق على حالة من هم أكبر منه سنّاً! حقّاً إنّ هذا العالم لذو تركيب رهيب، كما قال شكسبير!

* * *

وعلى ذكر شكسبير، أقول إنّي بحثت في مكاتب أوكسفرد عن «كارت بوستال» تمثّل بعض الأمكنة المتّصلة بذكرى شكسبير فكان جواب جميع من سألت «تجدين كل ذلك في نفس بلدة ستراتفرد(٤) لا في غيرها».

ما أدقّ الإنجليز في المحافظة على حقوق الأفراد منهم والجماعات فيما بينهم!

وستراتفرد بلدة شكسبير العظيمة في صغرها، لا تبعد عن أوكسفرد أكثر من ساعة وبعض دقائق بالقطار.. كنت أنوي الإقامة بها ثلاثة أو أربعة أيّام لاستيعاب روحها واصطحاب حياة شكسبير ليس في بعض رواياته الرائعة فحسب، بل خصوصاً في موشّحاته Sonnets التي قال فيها الشاعر الإنجليزي وردسورث(٥) إنّها تحوي المفتاح الذهبي الذي يفتح به قلب شكسبير. ولكنّ غزارة المطر هزمتني ورفاقي في السفر من ستراتفرد بعد يوم واحد.

كنّا نقتني ما تيسّر من تلك «الكارت بوستال» في كل مكان اتّصل بذكرى شكسبير، في البيت المتواضع الذي أبصره وليداً، في الكنيسة التي دفن فيها، في بيت خطيبته آنا هاثاواي(٦) حيث كان يغذّي روحه التي احتوت العالم بذياك القوت الذي لا اسم له - لتتحطّم بعدئذ جميع آماله فلا يموت إلّا وقد ذاق طعوم اليأس والغمّ والأسى على تنوّعها.

ومعلوم أنّ الحكومة الإنجليزية شادت منذ أعوام قلائل على أنقاض المسرح القديم في ستراتفرد مسرحاً جديداً أوقفته على ذكرى شكسبير لا تمثّل فيه غير رواياته في فصل الصيف، فيتقاطر الناس من كل صوب لشهودها. وإلى جانب المسرح مكتبة فخمة تحوي طبعاً فيما تحوي كتب شكسبير في طبعات شتّى وتراجم شتّى وما كتب عن شكسبير بلغات العالم. وقد زيّن هذا الصرح بعديد التماثيل والنفائس الفنّية. فنظرنا إليه نظرة عقلية هادئة قائلين «هذا شيء حسن!».

ولكنّ تأثّرنا كان عظيماً في المنزل المتداعي الذي تركه الإنجليز على حقارته - الحقارة التي تنكمش أمامها كل عظمة. حتّى عقد البيع بمال الجمهور الذي جعل البيت ملكاً للجمهور، لم ينقش، ولله الحمد، على الرخام بل تركوه على ورقته البسيطة. وكان التأثّر بالغاً في الكنيسة القديمة حيث دفن شكسبير وقربه أصغر أبنائه «هَمْنِت»، وزوج إحدى ابنتيه وابنته.

هناك أيضاً أوحى إليهم الذوق السليم أن لا يشيدوا ضريحاً وأن لا ينصبوا تمثالاً. فتركوا الضريح في حكم موطئ القدم بأرض الكنيسة تحت بلاطة متآكلة

متحفّرة بحيث لا تتمكّن لأوّل مرّة من قراءة البيتين من شعر شكسبير اللذين نقشا عليها.

حيال ضريح شكسبير تفهم بساطة العبقرية وتواضعها، والروح التي تعرف كيف تصغي فجاءت تصغي، تسمع هناك من لدن ذلك العبقري المارد حديثاً لا تترجم عنه الألفاظ.

وإذ غادرنا الضريح آسفين وكأنّ قطعة من نفوسنا ثوت عند قدم شكسبير في خشوع، جال في خاطري بيتان لم يكونا من شعر شكسبير، ولا بلغة شكسبير، ولا ممّا قيل في شكسبير، حتّى ولا ممّا يتطابق والموقف تمام التطابق، بيتان فريدان بلهجتهما ومغزاهما، من شعر إسماعيل باشا صبري اللطيف الظريف الشبيه بالنوفرة اللؤلؤية المتدفّقة على بساط سندسي. ولا أدري كيف أنشأ صبري باشا هذين البيتين اللذين ينبض فيهما الموت والحياة في أوجز لفظ وأروع معنى:

أغداً كلّنا تراب، ولا مـلـــ ـــك خلاف التراب برّاً وبحرَا؟
أغداً يصبح الصراع عناقاً في الهيولى، ويصبح العبد حرّا؟[٧]

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٢٢، ٢١ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١ . أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٦٢، ٣١ تمّوز/يوليو ١٩٣٤، ص ١ .

(١) المقصود هو الأديب والبحّاثة المصري أحمد زكي باشا المعروف بشيخ العروبة. توفّي في ٥ تمّوز/يوليو ١٩٣٤ في القاهرة.

(٢) David Samuel Margoliouth (١٨٥٨ - ١٩٤٠)، أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة أُكسفورد منذ ١٨٨٩، وقرينته Jessie Payne Margoliouth، المتخصّصة في اللغة السريانية، توفّيت ١٩٣٣ .

(٣) lavallière، تعبير فرنسي عن ربطة العنق المعقودة على شكل أنشوطة والتي كانت شائعة بين الفنّانين في أواخر القرن التاسع عشر.

(٤) Stratford-upon-Avon، مسقط رأس الشاعر المسرحي الإنجليزي William Shakespeare (١٥٦٤ - ١٦١٦) الواقع في مقاطعة وارويك (Warwick) البريطانية، نحو ٣٥ كيلومتراً جنوب شرق مدينة برمنغهام (Birmingham).

(٥) William Wordsworth (١٧٧٠ - ١٨٥٠)، شاعر إنجليزي من الجيل الرومنطيقي الأوّل. أصدر ديوانه *Lyrical Ballads* (قصائد غنائية) عام ١٧٩٨ مع صديقه Samuel Taylor Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤) والذي كان مؤشّراً بداية الرومنطيقية في الشعر الإنجليزي. ويغلب على شعره وصف ظواهر الطبيعة ومعطيات الحياة الريفية البسيطة.

(٦) Anne Hathaway، ابنة المزارع التي تزوّجها شكسبير عام ١٥٨٢ وكانت تفوقه في السنّ بثماني سنوات.

(٧) من قصيدة «نجم هالي» (١٩١٠). انظر ديوان إسماعيل صبري، صحّحه وضبطه وشرحه ورتّبه الأستاذ أحمد الزين بدار الكتب المصرية وقام بجمعه صاحب العزّة حسن رفعت بك المستشار بمحكمة الاستئناف سابقاً، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨، ص ١٤٣ .

رحيل فون هندنبورج[1]

اليوم يرفعه جنوده ليسيروا به بين صفّين متراصّين من حملة المشاعل المضطرمة. فيضعونه تحت عقد البرج التذكاري في ساحة مجده الأعلى. وهناك ينام الدهر، مسجّى في أوشحة السكينة والسكوت. والأعلام التي تخفر خوذته في انتكاس وإجلال، تحنو على مضجع ذاك الذي طالما ارتفع في ظلّ هيبته العلم، وطالما تلاحمت باسمه هجوماً ودفاعاً أعلام الأمم. وفي قلب العالم وجيف من جرّاء نومة الرجل الذي ما أكثر ما وجف قلب العالم لكلمة منه أو حركة أو إشارة.

صورة عظيمة الخطر تهجع متولّية من جيل راحل كاد ينقضي. عملاق ساير تأليف الاتحاد الجرماني منذ أن أنشأت تربط خيوطه يد «المستشار الحديدي»[2]، إلى عهد القيصرية السائدة على عرشها الرفيع، إلى عهود النصر فالنصر فالنصر، إلى عهد الاندحار، إلى عهد القلاقل والتضعضع، إلى العهد الهتلري الذي تناول ما ربطته يد فون بيزمارك بمعالجة جديدة... ولو سئلت معاني الظفر والهزيمة رأيها في فون هندنبورج وكان في مقدورها الجواب، لأجابت أنّه في الانكسار لم يكن أقلّ عظمة ومجداً منه في الانتصار.

لكأنه كميّ من كماة الأساطير التي تصرّم عهدها ولن تعود كما كانت. لكأنه بطل في تراجيديات أسخيلوس اليوناني «أبي التراجيديا»[3]، من أفذاذ الأبطال الذين اصطفاهم القدر ليشير بيدهم إشارة ويحقّق بواسطتهم بعض مآربه.

ومع ذلك فقد انتهى بأن كان الحائل دون اندفاع التاريخ في اتّجاهه الجديد المحتوم. أوليس عجباً أنّ هذا الذي ظلّ نصف قرن أداة فعّالة في استحثاث التاريخ، أصبح في العقد الأخير عقبة تحول دون تحوّل التاريخ؟

قد كان هذا يكون عجباً لولا أنّ للحياة منطقها الذي لا يأبه لمنطق البشر. ومن منطق الحياة أن يتّفق للشخص الواحد أن يكون يوماً أداة لعكس ما عمل له بالأمس.

وفون هندنبورج مثير عجاجات المنون وفاتح فغرات الجحيم، هو هو فون هندنبورج الذي صار مجرّد وجوده لاجماً للصولة والتفزّز، ضامناً إلى حدّ ما للتوازن والسلم.

لو أنصفت لجنة نوبل لأهدت إليه في العام الماضي جائزة السلام. ولكنّها لم تجرؤ. لأنّ الإنصاف نفسه حيال بعض الناس قد ينقلب ضرباً من التطاول. لا بدّ من بعض الوقاحة لتهدى الجوائز وشارات الفخار إلى من كان حاصد الآجال وموزّع الأعمار، وكان في حومات الوغى وميادين الردى حليف الحظوظ وقرين الأقدار.

* * *

هوى المنجل، فجندل العملاق من اتّجاه التاريخ، كما أزالت يد أثيمة قبله حاجزاً آخر هو الدكتور دلفوس[٤]. فإلى أين تتّجه مقادير النوع البشري كله بعد اليوم؟

الآن يتحفّز الجبابرة للمصارعة، المصارعة التي لم تكن الحرب الماضية وهدنة السلم التي تلتها إلّا تمهيداً لها واستعداداً.

وكبار الممثّلين في الملحمة المقبلة التي ستشترك فيها عشرات الملايين وربّما مئات الملايين من جميع الشعوب - لا يزيدون على أصابع اليدين عدّاً: هتلر، الدبّ البولشفيكي، الأسد البريطاني، الديك الغولي[٥] (الفرنسي)، موسوليني، مصطفى كمال، العنصر الأصفر، العمّ سام. وقد يضاف إلى هاتيك اسم ربّما لا تنيله أقوامنا كل ما هو حقيق به من الأهميّة الجادّة. عنيت شعوب الشرق الأدنى، الشعوب المتكلّمة بالعربية، الشعوب التي مضى حبّها في الآونة الأخيرة يرعى في حشاشة كل دولة من الدول لا رغبة في موقعها الجغرافي ولا طمعاً في مميّزاتها الطبيعية والاقتصادية، ولكن بدافع الإعجاب بعيونها الدعجاء...

توفّي في باريس سنة ١٨٧٠ الثائر الروسي، هرتزن[٦]، الذي كان ذكر اسمه محظوراً في روسيا القيصرية. وقد كتب هرتزن مرّة في جريدته «كولوكول» أي الناقوس، التي كان يصدرها في عاصمة الفرنسيس، يقول: إنّه يشعر بقلق شأن من يرقب في العالم تولّد قوى جديدة، أو يبصر اكتشاف منجم رهيب، أو يشهد انفصال القشرة الأرضية عن الأرض، أو يميّز في الأبعاد المجهولة وقع خطوات الجبابرة يقتربون

شيئاً فشيئاً... ولم يكن هرتزن يعني روسيا والانقلاب فيها بل كان يعني تحوّلاً منتظراً في تاريخ البشر. أترى سمع موسوليني أيضاً وقع خطوات الجبابرة في الأبعاد المجهولة عندما نهض نهضته بإيطاليا؟ لا شكّ في هذا. أو تراه سمع تلك الخطوات تشتدّ وتدنو عند اجتماعه الأخير بهتلر في مدينة البندقية؟

لقد روت التلغرافات يومئذ خبراً سارعت في الغد إلى السكوت عنه. مفاده أنّ موسوليني الذي كان أمر بإعداد قصر إسترا قرب البندقية لينزل فيه، قضى ليلته بذلك القصر في حالة عصبية قلقة أزعجته إلى حدّ أنّه في الصباح أمر بفتح أحد فنادق البندقية فانتقل إليه وأقام فيه.

وسيّد القمصان السود ليس الرجل الذكيّ القويّ فحسب، بل هو يتمتّع بميزة يخيّل أنّها تهيمن على سياسته كلها وهي ميزة البداهة والإدراك الباطني. ومن كان هذا شأنه كان شديد التأثّر بالفؤول والرؤى. أفهاجمت موسوليني في تلك الليلة الفؤول والرؤى ليضطرب الرجل العظيم ذلك الاضطراب كله؟

ليس من يدري ماذا تراءى له في ذلك القصر المنفرد القديم. ولكنّ الحوادث التي تلت على عجل قد تكون ذات تفسير ما. فهتلر اضطرّ يومئذ إلى مغادرة البندقية على جناح السرعة ليواجه في بلاده تلك المأساة الرهيبة(٧). ولم ينصرف عنها العالم قليلاً إلّا ليتأسّى لوفاة الدكتور دلفوس. وما كاد يدفن الدكتور دلفوس حتّى هجع فون هيندنبورج. فهل رأى موسوليني في تلك الليلة ما كان نذيراً بهذه الحوادث وبأخرى قد يتخيّلها هو الذي انتابه القلق؟

* * *

في قديم الأساطير الجرمانية يمثّلون الزمن طوداً شامخاً من الماس، ينقضّ عليه كل ألف عام طائر عظيم جدّاً فيضرب فيه بمنقاره وينتزع من ماسه ذرّة. وعندئذ يتحقّق في التاريخ اتّجاه جديد.

أفترى حطَّ الطير الأسطوري على الطود الأسطوري فانتزع منه بموت فون هندنبورج ذرّة، فأقبل التاريخ على اتّجاهه الجديد؟

وماذا عسى يكون ذلك الاتّجاه؟

...

اليوم يرفعه جنوده بين صفّين متراصّين من حملة المشاعل المضطرمة. فيضعونه تحت عقد البرج التذكاري في ساحة مجده الحربي الأسنى. وهناك ينام الدهر مسجّى بأوشحة السكينة والسكوت. بينا الحياة تتابع تنفيذ مشيئتها في الكائنات وفي الخلائق...

العملاق فون هندنبورج قال كلمته، وهوى.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٣٩، ٧ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١ . أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٦٣، ٨ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١ .

(١) Paul von Hindenburg (١٨٤٧ - ١٩٣٤)، مارشال ألماني عُيّن عام ١٩١٤ لقيادة الجيش وحقّق سمعة باهرة بانتصاره على القوّات الروسية في شرق بروسيا (بضواحي Tannenberg في آب/أغسطس ١٩١٤). صار رمزاً جماهيرياً لليمين الألماني في جمهورية فايمار (Weimar) فأُنتخب عام ١٩٢٥ رئيساً للرايخ، وأُعيد انتخابه عام ١٩٣٢ بدعم من الديمقراطيين الاشتراكيين وحزب الوسط في مواجهة أدولف هتلر. بعد إعفاء مستشار الرايخ Heinrich Brüning ووزارتي Franz von Papen وKurt von Schleicher، عهد إلى هتلر في ١٩٣٣/١/٣٠ بمنصب مستشار الرايخ. لم يكن من القوّة ولا كانت عنده الرغبة بحيث يتصدّى للإجراءات القمعية المتصاعدة للنازيين فأُبعد بالتدريج عن عملية اتّخاذ القرارات وانتهى الأمر بأن ساعد في تعزيز ديكتاتورية النازيين من خلال قانون التفويض الصادر في ١٩٣٣/٣/٢٤ .

(٢) Otto von Bismarck-Schönhausen (١٨١٥ - ١٨٩٨)، رجل دولة ألماني بروسي، مؤسّس الرايخ الألماني (١٨٧١) وأوّل مستشار له حتّى إعفائه من قبل غليوم الثاني عام ١٨٩٠ . أُطلق عليه لقب «المستشار الحديدي» بسبب سياساته المتشدّدة.

(٣) Aeschylus (٥٢٥/٥٢٤ - ٤٥٦/٤٥٥ ق.م.)، شاعر يوناني يُعدّ المنشيء الحقيقي للمأساة في قالبها الأدبي الفنّي. ولم يبق من آثاره العديدة إلّا سبعة متكاملة، بينها «بروميثيوس مقيّداً» و «أغاممنون».

(٤) Engelbert Dollfuß (١٨٩٢ - ١٩٣٤)، سياسي نمساوي، شغل ما بين ١٩٣٢ - ١٩٣٤ منصبي رئيس الحكومة الاتّحادية ووزير الخارجية. أنشأ عام ١٩٣٤، بعد تعطيل البرلمان وإلغاء الحزبين

الشيوعي والاشتراكي القومي، نظام حكم استبدادي، لكنّه حرم حكمه من دعائم هامّة في مواجهة الاشتراكيين القوميين من خلال تنحية الديمقراطيين الاشتراكيين بالقوّة في شباط/فبراير ١٩٣٤، وذهب في ٢٤ تمّوز/يوليو من العام ذاته ضحية انقلاب نازي فاشل.

(٥) كذا في الأصل، والمقصود هو الديك الغالي الذي أصبح في ظلّ الثورة الفرنسية رمزاً شعبياً وطنياً للفرنسيين. يرجع أصله إلى المعنى المزدوج للكلمة اللاتينية gallus التي يمكن أن تعني الديك كما الغالي.

(٦) Alexandr Ivanovich Herzen (١٨١٢ - ١٨٧٠)، سياسي اجتماعي روسي، كاتب، ومفكّر، من روّاد الاشتراكية. عاش منذ ١٨٤٧ في أوربّا الغربية بعد سنوات من النفي داخل روسيا. أصدر ما بين ١٨٥٧ - ١٨٦٧ مجلّة *Kolokol* في لندن، وليس في باريس كما ورد في مقال ميّ زيادة.

(٧) تعني الكاتبة بتلميحها إلى «تلك المأساة الرهيبة» خطّة الانقلاب المزعومة التي أتّهم بها Ernst Röhm رئيس أركان قوّات الصاعقة النازية ووزير الرايخ منذ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣، والتي اتّخذها هتلر ذريعة لقتل بعض قادة تلك القوّات وغيرهم من خصومه السياسيين في ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٣٤ .

خواطر متناثرة

* لئلّا نغلط...
* زحف الفرسان الثلاثة
* نحن وللّه الحمد في أحسن العوالم الممكنة

راقتني مقالة «الأهرام» المكتوبة بقلم له شكل المغزل وسنان الرمح شُكّت في رأسه ريشة. ولئن اعترض أهل الرأي والحجى على هذا الوصف فقالوا إنّ كل قلم في العالم له هذا الشكل أو ما يقرب منه، كنت أول المصادقين على اعتراضهم. غير أنّ هذه حكاية أخرى، كما يقول الإيرلندي.

علينا حقّاً أن لا نغلط في قدر حفلات الشاي والمآدب وأهمّيتها لحلّ المشاكل ولإجراء عملية جسّ النبض في الحرج من الشؤون. أمّا ونحن في عصر يأبى إلّا تسجيل الذكريات للأشخاص والمواقع والوقائع والحوادث في التماثيل والأنصاب، فأنا أعجب لنكران الجميل الذي حمل النوع البشري على إغفال واجبه نحو تلك الحفلات والمآدب التي سوّت ما لم يكن ليسوّى لولاها. إذ لم نر إلى اليوم في بلد من بلدان العالم نصباً تذكارياً لهذا النوع من الشكر. لذلك أقترح أن تكون مصر هي السابقة في هذا المضمار فتقيم لفضل الشاي والمآدب ذلك النصب في ملتقى شوارع الساحة والمدابغ ومظلوم باشا وجامع شركس حيث ترى الآن البناية القديمة المثلّثة الزوايا التي كانت سابقاً من أملاك المغفور له أحمد مظلوم باشا[1]. ويحاط النصب بحديقة صغيرة جميلة تفتح للجمهور ليل نهار.

ففي تلك البقعة الضيّقة التي تلتئم عندها شوارع رئيسية، بلغت الحركة والحشرجة حالة لا تحتمل المزيد. ولا أدري كيف يسمح بذلك في نقطة من أهمّ نقط العاصمة وفي بلد لها مصلحة تنظيم. ولكنّني نسيت أنّ مصلحة التنظيم من الفلاسفة الروحانيين، فهي منذ أعوام مستغرقة في طور الغيبوبة والإشراق...

إنّما اخترت هذه البقعة للنصب لأنّها أمام وزارة الأوقاف. ولأنّ هذه البقعة ذات اتّصال وثيق بذكرى مظلوم باشا، أقترح بأن يشاد تمثاله فوق النصب أو على مقربة منه، منتصباً على قدميه، باسطاً راحتيه تفيض من كل منهما نافورة إحداهما للشاي الأصفر، والأخرى للشاي الأخضر، وأن يحفر على رخامة قربه هذه الكلمة: «الجاتو الفينو للجيعان[٢] والشاي الأخضر والأصفر للعطشان». أمّا خطيب حفلة التدشين فيكون أستاذنا الكبير خليل ثابت بك[٣]، وموضوع خطابه أنّ الشاي مذكّر بالعربية وفي جميع اللغات، ولولا ذلك ما كان له هذا الفضل المبين على تطوّر الحضارة وصونها من غوائل الحروب والمناوشات وسوء التفاهم. على أن تعارضه في ذلك بلسان الاتّحاد النسائي، السيّدة هدى شعراوي تؤيّدها الأستاذة نعيمة الأيّوبي[٤] للتدليل على أنّ الشاي لا بدّ أن يكون مؤنّثاً ولو باللغة الصينية، ما دامت النساء هنّ اللائي يقمن الآن بنشر الدعاية للسلام في مؤتمراتهنّ وخارجها. ويكون الجمهور لجنة التحكيم وله الكلمة الحاسمة.

بقي القول إنّ المآدب وحفلات الشاي لا تفعل فعلها إلّا إذا كان المدعوّ أو الداعي مصمّماً على التسليم بحقّك. أمّا إذا كان مصرّاً على النقيض فلن يفلح في تحويله عن إصراره حتّى الكوثر الذي كانت ابنة جوبتر تديره على آلهة الأولمبوس، قبل أن تزلّ قدمها فتهوي وقبل أن تزفّ عروساً إلى البطل هرقل.

* * *

اليوم يزحف الفرسان الثلاثة زحفتهم الظافرة على الإسكندرية موفدين من إخوانهم الصحافيين لمفاوضة أولي الشأن في مشروع القانون الذي يحتجّون عليه جميعاً[٥]. فلتعجّ مدينة ذي القرنين بالطرب والحبور عجيجًا! ولتقمز أمواج البحر القديم لغسل وجنة الكورنيش الجديدة، ناشرة على الشاطئ أهازيج اليوم! ولتتحرّك بواقي المنارة التاريخية لتنتصب كاملة حيناً ما فتؤدّي التحيّة الواجبة إلى من هم اليوم يحسبون منائر للأفكار! ولترفع الصروح رايات صاحبة الجلالة الغير الموجودة (الغير الموجودة هي الرايات، لا صاحبة الجلالة الصحافة)!

أمّا حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء وحضرات أصحاب المعالي الوزراء فسيرحّبون بالوفد الصحافي الترحيب اللائق ويقدّمون له خلال الحديث القهوة ذات الرائحة المنعشة. فيشرب كل من الفرسان فنجانه تسجيلاً لروح التفاهم والاتّفاق والوئام السائدة على المفاوضات من الجانبين. ولأنّ الصحافيين غير أنانيين سيفكّرون في الذين أوفدوهم فيحملون إليهم كمّية من سائل القهوة في ظرف يختمونه بالخاتم الحكومي لئلّا يندلق منه شيء في الطريق، فيعودون به إلى إخوانهم يشربونه دليلاً آخر على التفاهم والسلام والوئام.

هذه هي ناحية الضحك. أمّا ناحية الجدّ فتتلخّص في جملة وجيزة. لا يمكن أن تسنّ الحكومة المصرية مثل هذا القانون في حين البلاد تشوق إلى اليقظة الفكرية الصادقة التي لا علاقة لها بالشهادات. فالحكومة أصدق وطنية وأوفر فطنة وأرغب في التقدّم من أن تخنق بيدها الممكنات الجميلة. أمّا الاستهتار في النقد الشخصي والأدبي فلها الحقّ وعليها الواجب في أن تعنى به وأن تعمد لمعالجته. وقانون العقوبات ضمين بذلك. فلتشدّد فيه ما شاءت وليس من منصف يلومها.

* * *

يقول الذين يكتبون الكتب وينشرون المقالات في الصحف إنّ السآمة منهل المعاصي. ونستطيع نحن أن نقول إنّنا في هذا الصيف الذي أصلانا ناراً حامية لم نكن مفتقرين إلى ما يدفع عنّا السآمة والملل. فمعارك صحافية وسياسية مشهودة، وخصومات بين جميع المعارف وجميع الأصدقاء، ومهاجمات من جميع الأدباء لجميع الأدباء، ومناقشات لا عداد لها بعضها لا يحتمل إلّا جُملاً قلائل ولكنّ براعة الكاتبين وقعت منها في الصحف أنهاراً.

وأحفل هذه الحوادث هي الحملة على هندام الشواطئ من جانب الصحف ومن جانب الوزارة، تتّصل بها الحملة على السينما. حتّى جريدة «الإجبشن غازيت» ساهمت في الحملة مساهمة الدفاع عن هندام البحر. ولكنّها عندما تكلّمت نسيت أنّها في بلاد يحتاج أهلها إلى الفرار من حرارة الشمس لا في بلاد تلبّد جوّها بالغيوم فكانت الشمس فيها الشيء النادر الذي يستغلّ عند ظهوره.

ولو كان لي أن أقول في ذلك كلمة صغيرة أسوقها إلى النساء لا من الوجهة الدينية أو الأخلاقية، بل من الوجهة الفنّية التي تحبّها النساء كثيراً، لقلت: إنّ السحر كلّه يقوم في الأستار، أستار النفس، وأستار العواطف، وأستار الجسد. وتلك الأستار الحاذقة، هي أمضى سلاح بيد المرأة. التبذّل ولو في صورة بريئة يليق بالأحجار وبكلّ شيء رخيص. أمّا اللآلئ النفيسة فلا تلقى على قارعة الطريق...

وأمّا الذين يحملون على السينما فمع التسليم بأنّهم محقّون في حملتهم، لا يسعنا إلّا التكهّن بأنّهم لن يتركوا لنا شيئاً. عمّا قليل سنرى الشاشة البيضاء... بيضاء لا ظلّ عليها، اللهمّ إلّا مشاهد المصارعة والملاكمة التي لا أعرف شيئاً أفظع منها. وأعلم أنّي بهذا القول لا أرضي أحداً من أنصار الرياضة وأبدو متقهقرة في هذا العصر الموفور البطولات...

وعلام لا يفكّر المصلحون القساة في حذف مشاهد المصارعة كذلك، والمصارعون لا يمتازون، فيما أعلم، بكثافة الهندام؟

ماذا بقي لنا؟ أهدوء الليل وسحره العميق؟

إنّ الرجل المبدع الذي أوجد لنا على قوله هذه الحضارة البديعة، خلق لنا السيارات وغيرها من أدوات الضوضاء والإزعاج، وخلق الراديو... فلن تستطيع بعد اليوم أن تلمس في الليل وتراً، أو تناجي كوكباً، أو تستسلم لحلم رائق، أو تعيش بين دفّتي كتاب. الراديو، الراديو يزعق حواليك من كلّ صوب. فإذا بنا والحالة هذه في أحسن العوالم الممكنة - على قول فولتير الذي لم يتنعّم بكلّ ما نتنعّم اليوم به.

أين وحيك، يا قداسة الظلام؟ ويا سكوت الليل حيث تنضج الأرواح في الهدوء والسكينة، أين سحرك ذاك، يا سكوت الليل؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٥١، ١٩ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١ . نُشرت المقالة أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٦٥، ٢١ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١ .

(١) أحمد مظلوم (١٨٥٨ - ١٩٢٨)، اقتصادي ورجل دولة مصري. عمل وزيراً للعدل في وزارة مصطفى رياض، ثمّ للمالية في وزارة مصطفى فهمي حتّى عام ١٩٠٨ . عُيّن رئيساً للجمعية التشريعية عام ١٩١٣، وتبوّأ منصب وزير الأوقاف في وزارة محمّد سعيد. أُنتخب عضواً في مجلس النوّاب فرئيساً له عام ١٩٢٤، كما عُيّن فيما بعد عضواً في مجلس الشيوخ. وتلمّح الكاتبة في مقالها هنا إلى خطابها المفتوح إلى مظلوم باشا المنشور في السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٩، ١٢ شباط/ فبراير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧ . انظر نصّه في هذه المجموعة [١٠].

(٢) هكذا في الأصل، ولعلّ المقصود «للجوعان» أو الصيغة العامّية «للجعان».

(٣) خليل داود ثابت (١٨٧٣ - ١٩٦٤)، صحفي لبناني. أنهى دراسته في العلوم في الجامعة الأمريكية بيروت عام ١٨٩٢ وعمل أستاذاً فيها ما بين ١٨٩٣ - ١٨٩٩ . هاجر فيما بعد إلى مصر حيث عمل من سنة ١٩٠٠ - ١٩٠٢ في وزارة الأشغال العامّة بالقاهرة، ثمّ رأس بين ١٩٠٣ - ١٩٠٧ تحرير صحيفة «سودان تايمس» في الخرطوم. التحق بعد عودته إلى القاهرة محرّراً بجريدة «المقطّم» وتولّى بين ١٩١٢ - ١٩٤٨ رئاسة تحريرها. أُنتخب عام ١٩٣٣ عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وعُيّن عام ١٩٣٦ عضواً في مجلس الشيوخ المصري. عُرف بشكل خاصّ من خلال افتتاحياته وتعليقاته السياسية والاقتصادية في «المقطّم»، كما كان له الفضل في اقتراح إنشاء لجنة نشر المؤلّفات التيمورية التي ترأسها فيما بعد. عاد إلى لبنان بعد ثورة عام ١٩٥٢ .

(٤) نعيمة الأيّوبي، كريمة إلياس الأيّوبي، المؤرّخ الفلسطيني المسيحي الذي اعتنق الإسلام، وهي أوّل امرأة تنهي عام ١٩٣٣ دراسة الحقوق بجامعة القاهرة لكنّها لم تحصل على إذن بممارسة المحاماة إلّا بعد احتجاجات واسعة. عُيّنت عام ١٩٣٥ أوّل مفتّشة لعمل النساء في دائرة العمل بوزارة الداخلية. تخرّجت أيضاً في مدرسة الخدمة الاجتماعية التابعة لجامعة لييج (Liège) في بلجيكا لتتولّى بعد عودتها إلى القاهرة منصباً في وزارة الشؤون الاجتماعية المستحدثة عام ١٩٣٩ . كانت عضواً ناشطاً في الاتّحاد النسائي المصري.

(٥) تلمّح ميّ زيادة هنا إلى مشروع قانون تنظيم الصحافة الذي وضعته حكومة عبد الفتاح يحيى في صيف عام ١٩٣٤، وقد قوبلت الشائعات حول نصوصه بالرفض الحادّ بين الصحفيين لا سيّما المادّة التي تلزم الصحفي بالاقتصار على ذكر الأحداث التاريخية دون التعليق عليها وتلك التي تفرض عليه إنهاء دراسات عليا شرطاً لممارسته الصحافة. لم يكتف الصحفيون المصريون بالتعبير عن اعتراضهم في عديد من الافتتاحيات والتعليقات بل انبروا للعمل المشترك فاجتمع في ١٤ آب / أغسطس ١٩٣٤ ممثّلو عدّة جرائد مصرية يومية وأسبوعية في بناية «الأهرام» للبحث في المعلومات المتوفّرة لديهم عن مشروع القانون وتشكيل وفد من الحضور للسفر إلى الإسكندرية والتفاوض مع أولي الشأن، أي رئيس الوزراء ووزيري الداخلية والعدل. تألّف هذا الوفد من ثلاثة أعضاء هم محمّد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة «السياسة»، وأنطون الجميّل رئيس تحرير «الأهرام»، ومحمود عزمي رئيس تحرير «الجهاد». ولكن لم تتح لهم الفرصة للقاء مع الوزراء فعادوا إلى القاهرة خائبين.

ذكرى جبّار الوادي

القمّة هي الغاية لمن رام الصعود، أمّا ريد الجبل فهو الوسيلة. والصعود شاقّ عسير في عالمي المضمر والمحسوس، ولكن عنده تمتحن الحيوية والمناعة.

من استكان وقنع بما هو فيه من راحة وركود لبث حيث هو في الحضيض وكانت له القسمة التي اختار. أمّا المقتحم فعليه أن يقبل سلفاً كل ما يكنّه ركوب الأخطار من عناء ونكال في منازلة الأهوال. عليه أن يعدّ عدّته من الجهود وشدّة المراس والاعتماد على النفس وثبات العزيمة ممّا لا سبيل إلى تعريفه أو تحديده. عليه أن يحتضن سلفاً ما ينتظره من غمّ وألم عندما قد يجد نفسه وحيداً شريداً لا سند له ولا معين. الصخور تترنّح تحت قدميه، وكواسر الغاب وجوارحه تهدّده، في طريق وعر طويل الظلام فيه دامس والنور عنده مفقود. إذا هو نظر إلى أسفل فالهاوية فاغرة لتبتلعه، وإذا هو نظر إلى أعلى فالقمّة متوارية لا يمدّه مشهدها بالرجاء. ولكنّه أصرّ على المسير فهو إذن للمسير مواصل.

ذاك تفطّر يلوه الشاعر عندما يتكوّن في روحه الخاطر العجيب فيعتزم إخراجه قصيدة سنيّة.

وكانت مصر شاعرة فشاءت أن تنشد قصيدتها. وكانت مصر حيّة فاختارت المشقّة والعناء. وكانت مصر أبيّة فاقتحمت مجد الصعود. وكانت مصر عزلاء لا سلاح بيدها، ولكنّها همّت وسارت وكل ذخيرتها عزائم الرجال وقلوب النساء.

* * *

كم من مرّة يتكرّر هذا السؤال: أهي الأمم تدين لعظمائها بيقظتها وبعزيمتها وبإقدامها، أم هم العظماء يدينون للأمم بيقظتهم وبعزيمتهم وبإقدامهم؟ أهي الشعوب تسوق العظيم أمامها، أم هو العظيم يستجرّ الشعب وراءه؟ أهو الفرد الذي يخلق المجموع، أم هو المجموع الذي يخلق الفرد؟

ليس من يستطيع أن يردّ على هذا بالجواب الحاسم. ولكنّ شيئاً لا يمكن إغفاله، وهو أنّ النبتة الحيّة لا تنشأ إلّا في التربة الحيّة، وأنّ حيث لا تزدحم الصدور بحشرجة الكلمة لا تجد الصوت الذي يطلق الكلمة من عقالها. والقول الحقّ في هذا المعنى خرج من قلب امرأة، لأنّ قلوب النساء في اليوم العصيب أقرب إلى الحقيقة من عبقرية الرجال، كائنة ألمعية تلك العبقرية ما كانت. القول الفصل ساقته صفية زغلول عندما قالت: «في مصر ١٤ مليون سعد زغلول». فكانت هذه الكلمة أجمل كلمات الثورة وأصدقها.

كنت وما زلت آسفة لأنّي لم أدرك عهد مصطفى كامل الزعيم الفتيّ، مذكي شرارة الوطنية الذي قضى محترقاً بشواظ شرارته، غير أنّه مات ويده ترفع العلم. كنت وما زلت آسفة لأنّي لم أدرك عهد قاسم أمين الذي جمع بين مزاج الأديب الطروب وبين تبصّر رجل القانون، صاحب القلب الرحيب الرحيم الذي نصر المرأة في حسناتها وندّد بها في سيّئاتها فأهدى ثاني كتبه عنها «المرأة الجديدة» إلى صديقه سعد زغلول لأنّه وجد فيه «قلباً يحبّ، وعقلاً يفتكر، وإرادة تعمل».

بيد أنّي أدركت عهد سعد زغلول في تلك الأيّام المتلظّية، أيّام الحركة الوطنية. فكان شأني شأن الذين شهدوها وولدت يومئذ وكان ذلك مولدي الحقيقي. ولتكرّ بعدئذ الأعوام، ولتحتدم المنازعات والخصومات، وليتناثر المجموع أفراداً إذا قضى القدر بذلك! أمّا الذين رأوا كيف يكون الرجال والنساء والشيوخ والشبّان قلباً واحداً وصوتاً واحداً يطلب شيئاً واحداً، أمّا الذين شعروا وكأنّ الآفاق حولهم صيغت كلها من النحاس المجوّف لترجع أصداء «تحيا مصر! يحيا الوطن!»، أمّا الذين أدركوا قيمة العلم إذ هو يطوّق نعوش الشهداء – فأولئك تلقّوا من ذلك اليوم خميرة استقرّت في كيانهم لا يدرون ما هي الغاية منها، ولكنّهم يدرون أنّها العنصر الذي يفعل فعله في تكوينهم ولا يمكن أن يفنى فيهم.

أدركت تلك الأعوام من عهد سعد زغلول الذي لم أره يوماً عن كثب ولا حدّثته مرّة إلّا تحيّة عارضة وتبادل جملة التعارف بواسطة لطفي السيّد بك بعد محاضرة ألقاها لطفي بك في الجامعة المصرية عن قاسم أمين يوم الاحتفاء بوفاته قبيل الحركة الوطنية بشهور قلائل. وما اجتمعت مرّة بلطفي بك حتّى قبيل وفاة الجبّار إلّا وسمعت من زميل أرسطاطاليس[1] الإشادة بذكر سعد وبمواهبه النادرة.

وسمعت سعداً متكلّماً على المنبر فأدركت ثمّت كيف الوجه العادي يصبح أجمل من الجمال وأوفر إغراءً، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبّان فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف، وكيف ينقشع الجفن الكثيف المتهدّل عن بؤبؤ العين فينجلي البصر حساماً استلّ من غمده وتشيع النظرات أنصالاً تشقّ الصدور، وكيف يشذّ خطيب عن جميع أصول الخطابة ولا تصمد جميع بياناته للتحليل والتمحيص، وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضي يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك لا تفيق، وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وتزمجر خلاله العواصف لتتجلّى فيه إرادة شعب يقول: «أنا! إنّي موجود!». حقّاً، يا سعد يا سيّد المنابر، إنّ من البيان لسحراً!

* * *

قالت مصر: «أنا! إنّي موجودة! ومثلي لا يقيم إلّا فوق رفيع الذرى. فالقمّة لي وإن كانت بعيدة المنال، وريد الجبل سبيلي وإن كان الصعود عسيراً!».

ولإثبات وجودها ولتحقيق حقيقتها شاءت أن تتخلّص من عناصر ضعفها عند اقتحام الصعود. فعالجت فيما عالجت عيوباً كان سبق أن ارتفعت لمقاومتها أصوات وبذلت في مصادرتها جهود. أذكر منها هنا ثلاثة أمور هي في نظري أظهر محاسن الثورة. وقد ذكرتها قبل اليوم ولكنّي لن أملّ تكرارها:

أوّلاً - تحريك طبقات الشعب وخلق شخصيات جديدة وتمهيد السبيل لتركيز شخصيات أخرى. فكتلة الشعب كتربة الأرض إن لم تدغدغها الفاس حقبة بعد حقبة ركدت منها القوى ولم يظهر كل ما تكنّه من كنز وذخيرة.

ثانياً - محو الفروق الدينية بين العناصر لتحقيق الوحدة القومية وجمع الكلمة المصرية. وهل من نهضة ترجى لأمّة اتّكلت على عنصر واحد ولو كان الأكثرية الكبرى؟ لقد نخر في عظامنا ذياك الداء الوبيل الذي يستغلّه المستغلّون لمصلحتهم على حساب حياتنا كلها. ونحن أبناء هذا الشرق الصغير الذي حفلت سماؤه بليالي التجلّي وبرسالة الرسل وبوحي الأنبياء يعلنون للعالم أن ليس للورى من إله غير الإله الواحد القهّار. نحن ننسى غافلين شرف الأرومة التي منها تحدّرنا وإليها ننتمي وكأنّنا

نبغي تحدّي العزّة الإلهية وهي في حكمتها التي لا تدرك، سمحت بأن يكون في الأرض مسلم ومسيحي!

أولئك الذين عمداً أو جهلاً ينفثون سمّ الأفاعي فيشيعون أنّ دول أوروبّا تطغى الآن على الشرق بقصد حماية الأقلّيات المسيحية - أولئك لست أنا التي أحدّثهم عن مشاكل الغرب وأغراضه الاقتصادية. ولكنّي أسألهم علام استولت بريطانيا العظمى على الهند فضربت فيها خيامها، والمسلمون بين الهندوس أقلّية أضأل من الأقلّية المسيحية في هذا الشرق؟ أكل غرض إنجلترا من الهند حماية الأقلّية المسلمة؟ ها! ها! ها! أنا الغريرة الجاهلة، دعوني أضحك!

ثالثاً - تحرير المرأة. فقد اشتركت المرأة المصرية في يقظة الأمّة اشتراكاً فعلياً. ويد سعد هي التي ليلة الرجوع من المنفى رفعت القناع عن وجه المرأة في حضور الأزواج والآباء والإخوة والأبناء. وتلك الإشارة برمزها وبمدلولها أبلغ وأقوى منها في حقيقتها الواقعة المحسوسة. يد سعد مزقت عن حياة المرأة قناع الذلّ. وللمرأة أن تكون بعدئذ خليقة بهذه الإشارة في حياة متّزنة كريمة. إنّ الرجل أوسع المرأة إرهاقاً وإذلالاً خلال قرون طويلة وضرب حواليها سدولاً من الشكّ وسوء الظنّ قائلاً إنّها سخيفة خادعة ماكرة. فصدّقت المرأة، وكيف لا يصدّق الضعيف قول سيّده القويّ المتحكّم في شؤونه؟ صدّقت وحقّقت رأي الرجل فيها فكانت له ما أراد أن تكون. فجاءت يد سعد ومزقت حجاب الدهور.

أمور ثلاثة حقّقتها الثورة المصرية وهي بذور غالية يجب إنماءها والحرص عليها. أمور ثلاثة ظلّلتها الأعلام التي تعانق فيها الهلال والصليب. أمور ثلاثة ذكّتها دماء الشهداء. فبين الشهداء صرعى من جميع المراتب. وبين الشهداء صرعى من المسلمين ومن المسيحيين. وبين الشهداء صرعى من الرجال ومن النساء. وهل يذكي امرؤ إرادته بشيء أغلى من دمه وأقدس؟

أيّها الدم المسفوك! إنّك هدرت للخير في عهد سعد زغلول!

ليست الغاية من ذكرى العظماء تخليدهم وإعلاء شأنهم. فشأنهم عال وهم بأعمالهم خالدون. وليست الغاية السياسية كائنة أهمّيتها ما كانت، هي أهمّ عامل في

نهضة أمّة. إنّ أهمّ عامل وخير عامل وأسمى غرض هو تكوين الشخصية القومية وتكوينها حاذقة كريمة نبيلة مستكملة قدر المستطاع. وهذا التكوين لا ينصبّ على أمّة انصباب الإلهام إذا هي بلغت الذروة من مرادها، ولكنّه يكتسب شيئاً فشيئاً وهي بعد سائرة في سبيلها بين المخاطر والعوائق تتسلّق كتف الجبل. وهذا ما نحن فيه الآن. بل هذا ما نحن فيه منذ الثورة المصرية وسنظلّ فيه حتّى استكمال الشخصية القومية الاستكمال المنشود.

وكما يتكلّم أحياناً حيال القبور العزيزة أضألُ الأصوات وأضعفها فيخشع له الأقوياء ويستلهمونه العبر، كذلك ترتفع اليوم أصوات النساء لا لمخاطبة مصر وحدها بل لمخاطبة سائر الأقطار الشرقية وجميع البلدان المتكلّمة بالعربية. كل تلك الأقطار تحبّ اسم سعد وتكبر ذكراه. ولكل منها حاجات كحاجات مصر، وآلام كآلامها، ومطالب كمطالبها. في جميع تلك الأقطار تهتف أصوات النساء قائلة:

نحن النساء نريد أوطاناً، أيّها الرجال! ومن ذا الذي غيركم ينيلنا أوطاننا؟ أنتم الأقوياء، أنتم الأذكياء، وأنتم المقتدرون، وأنتم تعرفون كيف تتكوّن الأوطان!

إنّنا نحن النساء نريد أوطاناً، ومن أيّ الأيدي نقبل الأوطان الكريمة إلّا من أيدي رجالنا؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٥٥، ٢٣ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١ . ظهرت المقالة أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٦٦، ٢٨ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١، وينبغي عدم الخلط بينها وبين المقالة التي نشرتها ميّ زيادة تحت العنوان ذاته في الأهرام، س ٥٦، ع ١٦٤١٩، ٢٣ آب/أغسطس ١٩٣٠، ص ١، في الذكرى الثالثة لرحيل سعد زغلول، وهي مضمّنة في مجموعة د. جوزيف زيدان «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي ١٩٩٦، ص ٣٥٣ - ٣٥٧ .

(١) تلمّح ميّ زيادة بإطلاقها على أحمد لطفي السيّد لقب «زميل أرسطاطاليس» إلى تبحّره في أفكار هذا الفيلسوف اليوناني الذي قام بتقديمه إلى القرّاء العرب من خلال ترجمة بعض أهمّ مؤلّفاته، ومن بينها «علم الأخلاق إلى نيقوماخوس» (١٩٢٤) و «علم الطبيعة» (١٩٣٥).

النيل يتكلّم
متحدّثاً عن نفسه إلى الذين يحبّونه[١]

تعيّدون لوفائي مرّة كل عام، وأجيالكم من وفائي كل يوم في عيد. إنّما الوفاء لغزي والوفاء بياني. كل لحظة من أجلي العابر المقيم، وكل قطرة من فيضي الدافق العميم إنّما هي وقف للوفاء، وتحقيق للوفاء، ووفاء للوفاء. وما الوفاء عندي إلّا الغاية والوسيلة، وهو علّة وجودي ومعنى حياتي.

أنا نيلكم الجديد القديم. أنا النيل العابر، أنا النيل المقيم.

عبدتموني قديماً كمظهر الإحسان البادي في الطبيعة فأحييتم الأعياد للإشادة بذكري، وطفتم بتمثالي في المزارع وفي الحقول، وبنيتم لي الهياكل ودور العبادة، ومثّلتم صنيعي في المسارح والميادين، وأولمتم الولائم العامّة ليتداول الشعب كله القوت والحبور، كما أنا أنثر خيرات قلبي للجميع على السواء. وعيد الليلة السنوي هو كل ما تبقّى من شعائر العبادة الغابرة. وغداً - غداً ينقضي العيد فتعودون إلى نسيان وفائي. أمّا أنا فسأقابل إعراضكم بالوفاء. وهذه الواحة الغنّاء التي خلقتها في قلب الصحراء سأرضعها دائماً من كوثري وأغذّيها من عصير حياتي، لتبقى أعجوبة للخصب والازدهار والإنتاج، منتصرة دواماً على البرّ وعلى البحر جميعاً!

* * *

أشرقي الليلة، يا ربّة الوادي يا إيزيس، أنت التي كنت، وأنت كائنة، وستكونين دواماً، وليس لبشر أن يحسر لثام الإبهام عن محيّاك! أشرقي الليلة متجلّية فوق الأهرام، متوّجة بإكليل القمر، مجلببة بهالة الأنوار! اجعليني أشدّ شعوراً بحضورك لأروي بين يديك ذكريات شجوني وآمالي، يا إلاهة الجود والحزن والوفاء!

منذ أن بكيت أوزيريس فتساقطت دموعك على الأرض، انطلقت أنا من معقلي فتفجّرت ينابيعي الخفيّة من صميم جبال القمر، من قلب سحيق البحيرات في هذه القارّة السوداء. منذ ذلك الحين وأنا أجري في ديارك نهراً فأجوز بحيرات وأكوّن بحيرات، أتلقّى المدد من أنهار وغدران لأكوّن ترعاً وجداول. أقطع الأغوار والأنجاد قافزاً فوق الجنادل والأصلاد، أهرول مقهقهاً في الشلّالات متحدّراً إلى أرضي المصطفاة لأقوم بحراسة الحياة في واديّ الحبيب الأثير.

أتذكرين كيف أردت أنت أن أكفل الزراعة والخصب والإنتاج ميسّراً لأبنائك وسائل البحث والابتكار والإبداع في العلوم والفنون والإلهيات والنظم وهندسة البناء؟ لقد فعلت، منذ أن كان العالم وليداً. فخلقوا هنا مهد الحضارات. فنسخت عنهم الأمم وتتلمذت عليهم الشعوب وما فتئت حضارتهم معجزة الدهور السابقة أمام لاحق الدهور. ولئن جثمت بعدئذ مصر عند آثارها العظيمة فلأنّ الراحة مشروعة بعد العناء، ولأنّ قانون الكون يرتكز على تناوب المدّ والجزر. فكان شأنها شأن فراعنتها يهجعون في انتظار الروح تحلّ في الأجساد لتبعثها بعثاً جديداً.

وها قد ماجت مصر بالحياة من جديد وبزغ عليها الفجر المنتظر! أوترقبين الصباح الطريف من وراء حجب الخفاء، يا إيزيس؟ وهل أنت، يا ربّة الوادي، راضية عنّي وعن أبناء الوادي؟

* * *

إنّ لي، أيّها المصريون، روحاً سحرية استوعبتها عقائدكم الأولى. وروحي السحرية هي التي أوحت إليكم كيف ترفعون الهياكل، وكيف تنحتون الشخوص، وكيف تصوغون المسلّات، وكيف تشيدون الأهرام منتصبة في وجه الفضاء تنقض أحكام الفناء، وكيف تقيمون أبا الهول شاخصاً إلى أسرار السماء يحاول عندها حلّ رموز القضاء!

إنّ لي روحاً. ومن أجل روحي لا من أجل أوّليتي فقط، دعيت بين الأنهار بحراً. ودعيت بحراً لأنّ لي مهمّة دون سائر الأنهار. مهمّتي أن أمثّل هنا إله الخير الجواد. مهمّتي أن أهزم تِيفُون الذي يناوئني بسَموم الصحراء. مهمّتي أن أصون

ابتسامة الوادي ونضرته في وسط عبوس الرمال ووحشة القفار. مهمّتي أن أخلق في هذه الأرض أمّة لا تفنى. مهمّتي أن أغذّي مجداً أبداً في تجدّد. فأنا الذي لا أعرف من الزمن ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، أوقّت لأجلكم الأزمان، لأنّ وفائي يجاريكم في كل ما تبتغون.

لديّ كل ما تطلبون من بسالة وانفعال، من وحي واتّصال، من ذكرى وجمال. إذا شئتم بسالة فأنا مقتحم المفاوز والأتاويه، وأنا الصامد لشامخ الأطواد، وأنا مكتسح أعماق الأغوار.

وإذا طلبتم وحياً ورجاءً فها هي ذي صفحتي تحضن الصور من ماضيكم وتطلّ عليكم بأطياف أمانيكم. تحضن رسوم المعابد والآثار وصور أسراب النخيل في الأصباح والأمساء. فإذا طلبتم جمالاً فأنا المنسجم وديعاً رفيقاً، وأنا السائر في ترف ورفاهية، وأنا المنساب سماطاً فضّياً بين الأشجار والأغراس في الرياض الخضراء. وعندما أبلغ آثار الأمس أتهادى عندها مؤدّياً تحيّة الذكرى والجلال. وعندما أمرّ بصروح اليوم أهزج فرحاً طروباً لأنّي منها أعلم أنّ غدكم لن يكون دون أمسكم عزّاً وسناء.

وإذا أردتم رحمة وعطفاً فإنّي أهبكم مجموعة كياني ودماء قلبي، لا فرق عندي بين الهانئ منكم والعاني. إلّا أنّ بي عطفًا خاصّاً على صاحب اليد التي تعالج أرضي فتخرج لدياري كل ثروتها. وإذ أرضع السهول القريبة أحنّ إلى الظامئ من سهولي. فإذا أتتني عذراء الريف تستقي من مياهي عند الغروب أصغيت إلى أنشودتها علّي أتعرّف منها أسرار قلبها النقيّ الغرير، ولثمت ذيولها المهلهلة علّها تجرّ تلك الذيول على ناحية من الأرض العطشة فتحمل إليها ذكرى هواجسي وتحناني. وإذ تلمسني يد الفلّاح يحيط عبابي باليد يوسعها تقبيلاً، شكراً على ما تبذل من الجهود للانتفاع بخيراتي. وإذ يبتعد الفلّاح بجلبابه الأزرق يخيّل إليّ، أنا النيل الأزرق، أنّ شيئاً منّي يسير إلى أرض لا ينتهي إليها رضابي فينقل إليها الفلّاح رسالة هواجسي وتحناني.

وإذا طلبتم الاتّصال فأنا بالاتّصال ضمين. من المرتفعات البعيدة المجهولة، إلى تعرّج الصعيد وتحدّره، إلى السهول الخصيبة والشواطئ ذات الاستدارة الشائقة – بين جميع هذه البقاع أربط، أنا النيل، برباط وثيق هو سلكي الفضّي الأثيري. لا فرق بين

ما يطلق عليّ من اسم وبين ما يسنّ لي ما رسم، لا فرق بين التماسيح المقدّسة التي كانت تسبح في أغواري وبين البواخر الطريفة التي تمخر الآن عبابي - إنّي أنا النيل، أحمل كل يوم إلى سهول الدلتا رسالة أعالي السودان، موحّداً بين ما نوّعته الطبيعة، جامعًا بين ما شتّت شمله الأقدار. إنّي أنا روح الوفاء. وما كان الوفاء يوماً إلّا ليؤلّف بين موزّع الأجزاء!

* * *

كم من حرب نشبت على شواطئي وكم من فاتح اجتاح ربوعي! لقد سمعت نبرات جميع اللغات، وشهدت شتّى الكتائب والجحافل على تتابع العصور. ولكنّ للوفاء سرّه، ولنيلكم القديم سحره. حيال صروف الحدثان، أنا النيل لم أخرج عن طبيعة السخاء فيّ. وظللت مسبغ العطايا وهّاب المنح. لأنّ في مياهي قوّة تحوّل إلى جزء منها قوّة الجبّار العنيد. فمن حاول الاستيلاء عليّ بشدّة وعنف استوليت أنا عليه بقوّة العدل والحقّ والإحسان. ولبثت سائراً في فخامتي وجلالي، أجدّد من مناعة شعبي العريق، وأصبّ في دمه عصير الحياة ورُبَّها الوهّاج. إنّي لأحتمل في سبيلكم كل شيء، وأتحايل على كل عائق لأوصل تذكار سخائي إلى كل بقعة من بقاعي. فلا أبلغ محجّتي من البحر إلّا وقد وزّعت كياني أقساطاً من الوفاء. ووفائي متماسك متتابع متلاحق. بل أنا منه أنسج نسجاً منذ أزلي الأحقاب إلى سرمدي الدهور!

* * *

أوزّع من دماء قلبي غير منتظر أجراً ولا شكوراً. ولكنّي أسألكم أن تحسنوا اصطناع وفائي، وأن تذكرني الأمّهات عند مهود الأطفال، وأن يذكرني الشعراء والأدباء عندما يكونون للعهود ذاكرين.

غنّني الليلة، أيّها القصب الشادي، غنّني أغنية الشجن والذكرى.

أنشدن، يا عذارى الوادي، مهمّمات في مسمع النيل الراحل المقيم! إنّ الوفاء لا يطلب بديلاً. ولكنّ نيلكم في ليالي الأعياد يعتكف على الذكرى فينتابه من الكآبة شيء فيطلب المؤاساة!

أنا النيل العابر، أنا النيل المقيم. وجودي بينكم يمدّكم بالذكرى وبالرجاء فانظروا كيف تصلون بين الماضي والمستقبل.

أنا راحل عنكم، وأنا بينكم مقيم. فحدّقوا في أمواهي كل يوم تسمعوا حديثي الذي لا أفتأ أرويه!

انتهيت. اذكروني!

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٥٧، ٢٥ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ٧ .

(١) ألقت ميّ زيادة هذه المحاضرة طبقاً لما أورده تحرير «الأهرام» مساء ٢٤ آب/أغسطس ١٩٣٤ في إذاعة القاهرة لمناسبة عيد الوفاء وهو عيد كان المصريون يحتفلون فيه بموسم فيضان النيل.

قانون تنظيم الصحافة المزعوم
لا يمكن أن يصدر!

كلّما قرأت في الصحف شيئاً عن مشروع هذا القانون قلت بصوت مسموع «هذا القانون لا يمكن أن يصدر!» مترجمة بهذه الكلمات عن اقتناع صميم فيّ.

حاجات البلاد كثيرة، ومشاكلها في الداخل وفي الخارج كثيرة، ومشاغل رجال الدولة كثيرة. فمنذا الذي يعرف ذلك فلا يضنّ بما تزعم الصحف أنّ الوزراء والمستشارين الملكيين ورئيس النيابة يبذلون من وقت وجهد ليصوغوا قانوناً على أيّة ناحية قلّبوه صدمتهم منه ومن ضمائرهم كلمة «لا!»؟

منذا الذي لا يأسف أنّ أولئك الرجال الممتازين، فوق ما تقتضيه أعمالهم من احتمال وعناء، يعنتون أنفسهم ليوجدوا شيئاً لا يتطلّب الوجود، ولا منفعة من وجوده، ومصلحتهم كوطنيين مصريين أن لا يكون موجوداً؟

كل من أولئك السادة رجل علم وفضل وقانون فهم أدرى الناس بأنّ القوانين المجدية هي التي تفرض نفسها فرضاً لتلبية حاجة تحتمها، لا القوانين التي تُلتمس التماساً حيث الحاجة تأباها وتنكرها.

أصحيح أنّهم يستلهمون قوانين إيطاليا وألمانيا وغيرهما من بلاد الغرب ليضعوا قانوناً لمصر الصحافية؟ أنا لست بالوزير، ولا بالمستشار، ولا برئيس النيابة، ما أنا إلّا امرأة. وأستطيع مع ذلك أن أنظر إلى الموضوع من عدّة وجوه، من طبيعة رجال كأولئك أن يروا أكثر منها.

كلّهم رجل خبرة في شؤون العالم ومعرفة للظروف الخاصّة التي تسنّ فيها الآن قوانين الغرب. كلّهم يعلم أنّ في طليعة وسائل الائتلاف والإختلاف بين دول الغرب، بل ومقدّمة أسباب الحرب فيها هي فكرة التوسّع الاستعماري. كلّهم يعلم أنّ أهمّ

دعائم الديكتاتوريات القائمة والمنتظر أن تقوم هو تعليل الشعوب بفكرة التوسّع الاستعماري وبما يجرّه تحقيقها من غنائم وأرباح. كلّهم يعلم أنّ هاتيك الشعوب تمتثل للديكتاتوريات وتتنازل عن حرّيتها الغالية لتنتهي إلى حلّ مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية وإلى تفريج أزماتها المحرجة الخانقة، فتسنّ لها القوانين ردعاً لمساعي الاشتراكيين والشيوعيين المقاومين باسم حرّية الشعوب وحقّها في بلادها، وتركيزاً لوحدة القيادة العاملة لتمهيد الخطط ونيل المآرب.

كل من أولئك المصريين الممتازين يعلم أنّ الشرق وحبّ استعمار الشرق، وحلول دولة في الشرق مكان دولة، هو الغاية أو هو أهمّ غاية من الغايات التي تحرّك الغرب في هذا العصر. فالقوانين التي تتّفق ومصلحة الشعوب الغربية، وتلك غاياتها، تنقلب علينا وبالاً نحن الذين نحتاج الآن إلى اليقظة وإلى إثبات وجودنا. أفي محاولة الاستيقاظ وإثبات الوجود تشويش وارتباك وأغلاط؟ وكيف لا يكون ذلك؟ أيّ طفل نهض من مهده وجرى على قدميه دون أن يترنّح ويهوي؟ أتضعون قدمه في القالب الحديدي لتصونوه من الزلل؟ إذن سلاماً على أقدام الصينيات الشهيرة! إنّها أنشأت تكسر قوالبها! أم تدعون الطفل يسير ويترنّح وتزلّ قدمه، وقد أقمتم إلى جانبيه سدوداً معقولة مؤدّبة، لا سدوداً قاضية مهلكة؟ إنّ هذه السدود موجودة وعنيفة والدليل أنّ النيابة والمحاكم شديدة العطف على زمرة الصحافيين...

كتب بالأمس مسيو دي لوموا في جريدة «لا بورص إجبسيين» يعلن تضامن الصحافة الأجنبية مع الصحافة المصرية في استنكار هذا القانون. فلسنا نشكر مسيو دي لوموا على موقفه الكريم، بل حسبنا أن نعلنه أنّ هذا هو ما ننتظره من أصدقائنا الأجانب وأنّ الآراء التي أعرب عنها في هذا المعنى، هي ما نتوقّعه من الغربي المثقّف المنصف.

وقد ذكر مسيو دي لوموا الامتيازات كذلك. الدول صاحبة الامتيازات لن ترضى بهذا الغلّ لتقييد أقلام أبنائها في مصر. أَوَليس أليماً أن نضطرّ نحن إلى التفكير في ذلك وأن نساق سوقاً إلى ذكره؟ فكم من مشكل يخلق هذا القانون الذي لن يصدر، وكم من حيلة يوحي، وكم من تهرّب يمهّد، وكم من ذلّ يهيّئ، وكم من

نكتة يلهم! ومن ذا الذي يرضى أن يعرض قانون مصري لكل أولئك فتزول هيبته ويصبح على نوع ما شبيهاً بلعبة اليويو؟

ولنفرض أنّ الدول وافقت على هذا القانون، فماذا تكون النتيجة عند تنفيذ الحكم على صحافيين اثنين ارتكبا جريمة (جريمة في نظر هذا القانون الذي لن يصدر!) واحدة؟ الأجنبي يسير معزّزاً مكرّماً إلى سجن الأجانب حيث يتمتّع بامتيازاته، ضاحكاً من هذا الشرق المسكين الذي يطالب الناس باحترامه وهو لا يدري كيف يحترم نفسه، في حين الصحافي المصري يكون مهاناً حقيراً، وكل حيلته هذا السؤال الذي لا جواب عليه: «أين وطني؟».

في شهور قلائل أهينت مصر في المحاكم المختلطة التي هي محاكم مصرية، أهينت في مستشاريها الذين أنكروا عليهم رئاسة الجلسات، أهينت في لغتها لغة البلاد التي طويت ملفّات الأحكام التي كتبت فيها، واستبعدت لتعلن الأحكام بلغة غير لغة البلاد... وهل أمضي في إحصاء كل تلك الصدمات؟ لا! ولكن منذا الذي لا تمضّه ذكرى موقف المندوب المصري في هذا الذي سمّوه مؤتمراً للمفاوضة في حكاية الدفع بالورق أو بالذهب، حكاية إبريق الزيت... وكان للصحافة المصرية في جميع تلك الشؤون صوت أبيّ ناصع. أفتجيء الحكومة المصرية بعد جميع هاتيك الصدمات، فتسجّل بقانون تسنّه أنّ معاملة الآخرين لها ولبلادها كانت معاملة منطقية، وأنّ كلام صحافتها ليس الكلام الذي يؤبه له، ولكنّه الكلام الذي تسنّ لقائله القوانين المسكتة وتعدّ لكاتبه السجون، وهي غير سجون الأجانب...؟

أقول لكم، أيّها القرّاء، إنّ هذا القانون لا يمكن أن يصدر!

إذ ما هو الداعي إليه؟ إذا كانت الغاية منه ردع الذين يتناولون الشؤون الشخصية والعائلية في كتاباتهم فلديكم لذلك ما فيه الكفاية من القوانين ولتزيدوا فيها إذا شئتم فليس من منصف يلوم. وليعلم الصحافيون أنّ ما يكتبون في هذه الموضوعات لا هو من آداب الكتابة ولا هو من آداب الشخص المهذّب. فالدرس الأدبي الذي نالوه من جرّاء التفكير في هذا القانون سيكون ذا أثر، وفيه الكفاية. ولكنّ هذا القانون لن يصدر. لأنّ الشدّة المستحسنة جدّاً في مكانها، بل الواجبة حيث لا بدّ أن تكون، إذا

هي استعملت في غير وقتها تؤدّي إلى عكس ما يراد منها. هذا قانون الطبيعة وهو أقوى من كل قانون بشري. ولا تفلح قوانين البشر إلّا في مسايرتها قوانين الطبيعة الموافقة لمنهجها ولغرضها.

وأمّا نقد أصحاب الوظائف في أعمالهم، فأيّ أهمّية لهذا؟ وهذه القوانين القائمة فيها الكفاية لمكافحة التطرّف والغلوّ. ولكن أعود فأقول أيّ أهمّية لذلك؟ أيّ حكومة في العالم لا تنتقد؟ وهل يتعدّى النقد كونه رأي شخص أو رأي جماعة قد يكون له نصيب من الصحّة وقد يكون كله خطأً؟ والخطأ والصواب غير موجودين في ذاتهما بل هما من الأمور النسبية أيضاً.

وأمّا حكاية التكميم التاريخي فليست دون غيرها تفكهة... وعلام إنجلترا لا تكمّم صحفها ومراسلي صحفها في حين ترى بينهم أمثال السير بمفيلد فولر[1] الذي كتب أخيراً إلى «التيمس» يتحدّث عن الديمقراطية بكلام كله خطأ ليس فيما يتعلّق بالديمقراطية في الشرق - فهذا شيء ألفناه من طائفة خاصّة بين أولئك الكتّاب - ولكنّ كلامه أظهرنا على مبلغ معرفته لتطوّر التاريخ في الغرب أو في البلاد التي تأبى إلّا أن تحسب نفسها من دول الغرب.

إنّه أخبرنا، لا فضّ فوه، أنّ الديمقراطية أهلكت أثينا. ونسي أنّ إسبارطا، منافسة أثينا وقاهرتها، كانت ديكتاتورية طوال تاريخها ومع ذلك سقطت وكان سقوطها عظيماً.

وقال الكاتب العجيب الذي يكتب لجريدة «التيمس» الرصينة، إنّ الديمقراطية كادت تودي بروما لولا حكمة أغسطس (قيصر).

فماذا ترى جنينا، نحن الأطفال، لتضحك منّا كتب التاريخ فتنبئنا أنّ الديمقراطية الخالصة لم تعرفها روما، بل كانت دائماً حكومتها مزيجاً من الأرستقراطية والنظام العسكري والديمقراطية جميعاً؟ وعلام عبثت بنا تلك الكتب التاريخية فأعلمتنا أنّ الذي وضع دعائم الإمبراطورية الرومانية هو يوليوس قيصر الذي يشيد الإيطاليون بذكره الآن ويرفعون تماثيله ويطمعون في تجديد فتوحاته -، وأنّ حفيده ووريثه وخليفته أغسطس أوكتافيوس قيصر نسج على منواله وابتغى إتمام أعماله...؟

ومع هذه الأغلاط فقد عنيت صحافتنا، بارك اللّه فيها، بكتابات السير بمبفيلد وفنّدت أقواله في مقالات طويلة...

ألا حسبنا شقاءً! اتركونا وشأننا نستخلص من الظلمات المحيقة بنا خيطاً من النور!

تلطّفوا، أيّها السادة، وأرسلوا لي صورة هذا القانون الذي لن يصدر، أضعها بين ما لديّ من عديد مجلّات الأزياء. ففي هذه المجلّات أزياء كثيرة عني بوضعها الاختصاصيون، ولكنّ ذوق النساء لم يقبلها ولم ينتحلها لأنّها غير جميلة وغير حسنة وغير موافقة.

إنّنا نعرفكم مصريين قبل كل شيء. فاسمحوا لنا أن يكون رأينا فيكم أعلى ممّا تظنّون.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٧٣، ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٣٤، ص ١ .

(١) Sir Joseph Bampfylde Fuller (١٨٥٤ – ١٩٣٥)، موظّف في إدارة المستعمرات البريطانية في الهند ابتداءً من ١٨٨٥ . عُيّن نائباً لحاكم مقاطعة شرق البنغال وأسام الجديدة بعد تقسيم البنغال عام ١٩٠٥ وكرّس نفسه منذ استقالته عام ١٩٠٦ للكتابة. من بين أعماله *Studies of Indian Life and Sentiment* (١٩١٠) و *The Law Within* (١٩٢٦).

خواطر متناثرة

*** مؤتمريات على وزن برلمانيات**
*** اجتماع حضرتُه بالفكر**
*** في استقبال الأميرة «النونو» ماريا بيبا**

يدي لا أثر لمساعيها في توفيق التاريخ بين المؤتمرين البوذي والبرلماني. أمّا متعتي فلا حدّ لها في انطواء أسبوع واحد على مؤتمرين اثنين في إسطنبول ولندن.

معالي رفعت باشا[1] أبرع ممّا يظنّ الجمهور في إلقاء الخطب بالعربية والفرنسية. وحبيب بك دوس[2] «دوسي» قحّ من حيث موهبة أسرته البيانية رجالاً ونساءً. ولكن لو خطر للحكومة المصرية أن توفدني يوماً إلى مؤتمر أتكلّم فيه عن الامتيازات الأجنبية، لكانت خطبتي كما يلي:

«أيّها الزملاء المؤتمرون،

«في قديم الزمان وسالف العصر والأوان كانت مصر تعدّ لضيوفها الأجانب طبقاً خصيصاً من الكنافة يأكلونه هنيئاً مريئاً فينقلب الآكلون سادة وينقلب المضيفون... مأكولين! أمّا وقد فهمت مصر من تاريخ إسكندر المكدوني أنّه عندما واجه العقدة التي كانت تسدّ الطريق على العابرين انتضى سيفه فقطعها بضربة قاضية فانفتحت الطريق أمامه – رأت مصر أن لا تنتضي سيفاً ولا تقطع عقدة، بل أن تكفّ عن طهيّ الطبق الخصيص، مكرمة ضيوفها بإشراكهم في الكنافة التي تأكلها هي، عملاً بالآية الإنجيلية الكريمة: أحبب قريبك كنفسك!

«مزاج صديقتنا العزيزة الغالية، بريطانيا العظمى، مزاج جدّ حسّاس، وحرصها على التحفّظات الأربعة[3] العزيزة الغالية أيضاً بالطبع، حرص جدّ دقيق لا يحتمل معارضة ولا مناقشة. فمع ابتساماتنا الملاطفة لهذا الحرص ولذاك المزاج – نتشرّف بإعلانكم جميعاً أنّه منذ الآن فصاعداً امتيازات أجنبية «بحّ! مفيش!».

«طبق كنافة واحد للجميع! ولتحيا «من سوّاك بنفسه فما ظلم»!» انتهى.

أمّا ما يفوز بالجائزة – لو كان هناك جائزة – فهو إعلان العضو الألماني الهتلري في المؤتمر البوذي، أنّ المسيحية لم تتغلغل في ألمانيا وأن لا شيء أكثر مناقضة للطبيعة الألمانية من التواضع الذي دعا إليه المسيح. يشاركه في الجائزة ردّ رئيس المؤتمر، تاوو تشِن (الكاهن البوذي الوحيد في أوروبّا وهو من أصل ألماني)، الذي ختم بهذه الجملة: إنّ الهِرّ جويدو (هذا اسم إيطالي لا ألماني) آوستر[٤] خلط في كلامه بين مذهب نيتشه ومذهب ساكْيا مُوني (بوذا).

وأنا التي منحت الجائزة السلبية، أستبيح لنفسي القول إنّ نيتشه الفيلسوف الشاعر الألماني تأثّر كثيراً بمذهب مؤسّس البوذية الهندية. ولكن شأنه شأن كل من البشر كيّف ذلك المذهب بقالب طبيعته وأناله صبغته النفسية الخاصّة فإذا هو يسفر عن الدعوة إلى خلق «الـ Übermensch أو السوبرمان» والوسيلة إلى ذلك هي كلمة «عش في تفجّع!». وهي الكلمة التي يأخذ بها الآن كل من موسوليني وهتلر بلغتين وطريقتين مختلفتين.

وقد قال بوذا بذلك منذ خمسمائة وألفي سنة. «والحقائق الأربع» التي شاد عليها مذهبه كله هي: أولاً – حقيقة الألم في الوجود. ثانياً – خصوبة الألم. ثالثاً – إمكان التغلّب على الألم وملاشاته. رابعاً – الطريقة للتغلّب على الألم وملاشاته. وبالتغلّب على الألم وملاشاته يرتفع الإنسان إلى ما فوق البشر فيصبح نصف إله، أو «آرهات» بتعبير بوذا. أترى التباين عظيماً بين المذهبين؟ إنّ أهمّ فرق فيه عندي هو أنّ نيتشه يدعو إلى القوّة والعلوّ بواسطة القسوة والفتك، في حين بوذا يدعو إلى القوّة والعلوّ بواسطة الحكمة واللين. وغاندي يدعو إلى مثل هذا الآن ومن لا يفهم ذلك لا يستطيع أن يفهم أن التواضع الذي دعا إليه السيّد المسيح مليء بالشمم والأنفة والعزّة دون كبرياء أو غرور.

* * *

لا حاجة بنا إلى البحر لنعوم. فنحن نسبح صيف شتاء في حفلات الشاي. ومن أصدقائي وبخاصّة صديقاتي من هم وهنّ – وا حرّ قلباه! – ناقمون وناقمات عليّ لأنّي لم أشهد شاياً واحداً من شاياتهم وشاياتهنّ المرتفعة بالمشرقين الأدنى والأقصى إلى

أعلى ذرى العظمة والمجد! فما حيلتي إن أنا خلقت لأبقى في الحضيض، همجية في عزلتي المتوحّشة؟

غير أنّي حضرت بالفكر من تلقاء نفسي الاجتماع الذي عقد في الإسكندرية لتوديع الأستاذ إسكندر يوسف ناظر المدارس المرقسية بمناسبة تعيينه مفتّشاً بوزارة المعارف.

لست أدري ماذا يصنع بالضبط أساتذتنا المفتّشون في تفتيشهم. أو بكلمة أصدق - لست أدري هل يمكّنهم نوع عملهم من إنماء شخصياتهم والتعبير عنها في مساعيهم. أمّا في عمله السابق فقد أظهر الأستاذ إسكندر يوسف من الحذق وبعد النظر ما يجعله حريّاً بالإكرام. فهو في محاضراته ومذكّراته بحث الاتّجاهات الحديثة في مناهج التعليم وعني بخريجي المدارس الثانوية والحالة التي آل إليها أمرهم، وقام باستفتاء بارع في ذلك الموضوع، وقال بوجوب تطبيق التعليم على حاجات البلاد. ولا شكّ أنّه في دائرته حقّق آراءه بقدر ما سمحت الحال مع مراعاة استعدادات المتعلّمين وميولهم الفطرية.

إنّه واحد من القليلين الذين سبقوا إلى الإعراب عن شعورهم بالنكبة المهدّدة من جرّاء نشر التعليم لنشر التعليم ليس غير. لأنّه أدرك أنّ الجهل هو غير الأمّية وأنّ التعليم لا يخلق الموهبة بل كل عمله في إنماء مختلف المواهب وصقلها وتوجيهها بمقتضى مطالب الوسط.

وكان صدى صوته يبلغني يوم كان عدوّي الكريم الأستاذ أمير بقطر لا يهادن في تأديبي كلّما عبّرت عن شيء من ذلك وكان الناقدون يلومونني ليؤيّدوا غريمي المفضال. وأنا مع هذا لا أنسى تأييد الأستاذ محمّد بك نصّار والدكتور رياض شمس في كلامي عن التعليم الإلزامي وما جاءا به يومئذ من مفحم الحجج[٥].

أمّا اليوم وقد تكوّن هذا الجيش من حملة الشهادات العاطلين فقد فرض الواقع نفسه على الجميع. فحدث ما لا بدّ من حدوثه، وكان هناك مؤتمر لبحث المشكل والنظر في حلّه... فهل من منبئ بما آل إليه كل ذلك؟

وقد أعجبت يومئذ بخطبة عبد الوهّاب باشا[٦]، ولكن أدهشني منها قوله إنّ مشكلة العاطلين المتعلّمين في مصر ليست من الخطورة التي بلغتها في أوربّا. فليراجع المفتّشون قوائم الإحصاء في المقابلة بين عدد المتعلّمين والعاطلين منهم، يروا أنّ المشكلة

هنا أعظم خطراً. أتمنّى للأستاذ إسكندر إبراهيم يوسف ولزملائه رجال وزارة المعارف التمكّن من معالجة هذه النكبة المتفاقمة يوماً بعد يوم.

* * *

يمتاز ساداتنا الرجال بصفات ومواهب لا يحصرها عدّ. هذا ما يعلنون هم على الأقلّ، وعلينا نحن معشر النساء أن نصدّق في امتثال مع الشكر العرمرم. ومن تلك الصفات والمواهب أنّ المولى سبحانه اصطفاهم واجتباهم ليستوعبوا في نفوسهم وعقولهم جميع مدركات الشهامة والأنفة وكل عاطفة عظيمة فلا يتركوا لنا منها ولا «حتّة قدّ كدا»!

ابكي، يا عيوني!

وقد امتازوا خصوصاً بحاسّة العدل والإنصاف! لذلك لم يطلقوا مدفعاً للترحيب بالأميرة الإيطالية «النونو» ماريا بيا. فماذا كان يضير أصدقاءنا الطليان لو هم جبروا خاطر تلك الصغيرة البريئة ولو بنصف دستة من طلقات المدفع، التي كان عددها يناهز المائة وربع المائة في البرّ والبحر لو كان المولود ذكراً؟

ولكنّ جلالة ملك إيطاليا لم يتقيّد بذلك النوع من العدل والإنصاف في العفو عن ألفي سجين. ولا تقيّدت الجمعيات الوطنية والخيرية الإيطالية بما صنعت في هذا الظرف. ولا تقيّدت إدارة الحزب الفاشستي في القاهرة بتعهّدها بتربية كل طفل يولد في القاهرة، يوم ولادة الأميرة الإيطالية، مهما كانت جنسيته وعقيدة أهله، منذ يوم ولادته حتّى يبلغ الخامسة من عمره، مقدّمة للطفل كل ما يحتاج إليه من ملابس وغذاء وعلاج سواء أتركه أهله في دار الرعاية أم تردّدوا به عليها. وقد كتبت السيّدة ريتا شارينو في جريدة «الجورنالي دورينتي»(٧) وصفاً مسهباً لتلك الدار ولما تقوم به من الخدم – وصفاً لا يتأتّى إلّا لقلم امرأة وأمّ.

والواقع أنّ إيطاليا شديدة العناية بالأطفال وبالنشء من الجنسين في دور المراهقة والشباب، لاعتقادها أنّ تكييف العقول وفق العقيدة السياسية أيسر في هذا الطور منه في الكهولة والشيخوخة.

وهو رأي له أهمّيته كغيره من الآراء. إذ هناك من يرى أنّ الإنسان يتكيّف بتتابع لا في قالب فكري واحد، بل في قوالب عدّة في مختلف أطوار حياته، وأنّ السنّ لا تتلخّص في عدد الأعوام، بل في نوع استعداد العقل والقلب. إذ كم بين الفتيان من شيخ طاعن لا يتحرّك إلّا الحركة الآلية! وكم بين الشيوخ من فتى يتفجّر حياة!

وفي السياسة كما في غيرها، لا بدّ من التنويع وفاق مقتضيات الزمن وحاجات القوم. والحاجات والمقتضيات لا تتماثل عند كل قوم بل كثيراً ما تتعارض فيما بينها وفي وقت واحد. والأقوام المحظوظة هي التي يدرك أقطابها أيّ النظم وأيّ الاتّجاهات تعوزها في وقت معيّن ويوم معيّن...

منذ عام مضى رأيت الأمير أومبرتو[٨] وقرينته يشهدان في سيينا (Siena) مهرجاناً قومياً بديعاً جرت فيه المسابقات بضروب مختلفة من الفروسية بين شبّان مختلف أقسام المدينة، ولكل قسم علمه وألوانه وموسيقاه وأناشيده وأبطاله المرتدون ثياب الفرسان في القرون الوسطى، والمنافسة بينهم من الشدّة بحيث تثير العداء والضغينة أعواماً طوالاً بين بعض تلك الأقسام. وقد أقيم المهرجان في ميدان احتشد فيه عدد قدّرته الصحف الإيطالية بثلاثين ألفاً أقبلوا من جميع أنحاء إيطاليا إلى سيينا في توسكانا الجميلة، وطن دانتي أليجييري، حيث يزعمون أنّ هناك أجمل لفظ للغة الإيطالية وبخاصّة إذا مازجت ذلك النطق الميعة التي يعرف بها أهل روما.

وقد قابل الحشد الأميرين مقابلة باهرة فلم ينقطع هتاف «عاش الأمير!» طول وقت إقامتهما. ومعلوم أنّ الشعب الإيطالي شديد التعلّق بأسرة سافويا المالكة. فلا عجب إذا هو رحّب اليوم ترحيباً حارّاً بالأميرة «النونو» وأقام الأفراح لقدومها، رغم كون إيطاليا لم تطلق في هذا الظرف مدفعاً واحداً، مكتفية بصفير صفّارات البواخر في مياه نابولي قبيل انتصاف الليل...

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٩١، ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٣٤، ص ١ . ظهر المقال أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٧١، ١٢ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٣٤، ص ١ .

(١) محمّد توفيق رفعت باشا (١٨٦٦ - ١٩٤٤)، حقوقي مصري تقلّد منصب وزير عدّة مرّات. تولّى رئاسة مجلس النوّاب بين ١٩٣١ - ١٩٣٤ ورئاسة مجمع اللغة العربية في القاهرة من ١٩٣٤ وحتّى وفاته.

(٢) لم يمكن العثور على أيّ معلومات عن هذا الشخص.

(٣) التحفّظات الأربعة هي الشروط التي وضعتها إنجلترا لإلغاء الحماية على مصر والاعتراف بها مملكة مستقلّة في ٢٨ شباط/فبراير ١٩٢٢، وقد تضمّنت استمرار الاحتلال العسكري، وحقّ المشاركة في اتّخاذ القرارات ذات الصلة بالشؤون الخارجية، وعدم تقديم أيّ تنازلات في قضية السودان.

(٤) Guido Auster (١٩١٢ - ١٩٩٦)، أحد أبرز ممثّلي الجيل الأوّل من البوذيين في ألمانيا. انتمى إلى الدار البوذية (Buddhistisches Haus) في برلين وقام بتقديم التعاليم البوذية إلى القرّاء الألمان بكتاباته العديدة.

(٥) فيما يتعلّق بالنقاش المذكور بين ميّ زيادة وأمير بقطر حول التعليم الإجباري وموقف محمّد بك نصّار والدكتور رياض شمس منه، راجع مقالات ميّ زيادة المنشورة تباعاً تحت عنوان «كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون» في الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٥٢، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١؛ س ٥٥، ع ١٦١٧٠، ١١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١؛ س ٥٥، ع ١٦١٧٣، ٢١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١، وهوامشها، في هذه المجموعة [٦٨، ٧٠ و ٧١]. وقد استؤنف النقاش في سلسلة مقالات تحت عنوان «أ.ب.ج.د = أبجد. مشكلة المشاكل في مصر: التعليم وبعض المشاكل الأخرى المتّصلة بها» نُشرت في الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٧٢، ١٨ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١؛ س ٦٠، ع ١٧٦٨٠، ٢٦ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١، وس ٦٠، ع ١٧٦٩٤، ١٢ آذار/مارس ١٩٣٤، ص ١، وهي مضمّنة كذلك في هذه المجموعة [١٠٣، ١٠٤ و ١٠٥].

(٦) أحمد عبد الوهّاب باشا (١٨٩٤ - ١٩٣٨)، عالم اقتصادي مصري. تلقّى تعليمه في مصر وإنجلترا ودرّس في مدرسة التجارة العليا بجامعة ليدز (Leeds). عاد إلى مصر وعُيِّن عام ١٩٢٦ وكيلاً مساعداً لوزارة المالية، ثمّ تولّى الوزارة ثلاث مرّات الأولى في حكومة حسين صبري باشا عام ١٩٣٢ والثانية في حكومة توفيق نسيم باشا عام ١٩٣٤ . استقال في كانون الثاني/يناير ١٩٣٦ وعُيِّن للمرّة الثالثة وزيراً للمالية في العام نفسه في حكومة علي ماهر باشا. رأس لجنة القطن الدولية كما شارك في تأسيس بنك مصر. كان عضواً بمجلس إدارة شركة الإسكندرية للنقل البحري والعديد من الشركات التي أنشأها بنك مصر.

(٧) Il Giornale d'Oriente ، صحيفة يومية إيطالية كان يصدرها Enrico di Pompeo في القاهرة باسم Messagero Egiziano حتّى اقتناها عام ١٩٣٠ الحزب الفاشستي وفقاً لمرسوم من الحكومة الإيطالية وغيّر اسمها.

(٨) Umberto II. (١٩٠٤ - ١٩٨٣)، ابن Victor Emanuel III. من بيت سافويا (Savoia)، الحاكم العامّ لمملكة إيطاليا عقب تخلّي والده عن العرش في ٥ حزيران/يونيو ١٩٤٤، وملك إيطاليا ابتداءً من ٩ أيّار/مايو ١٩٤٦ . تنازل عن العرش بعد تصويت الشعب لصالح الجمهورية في ١٢ حزيران/يونيو ١٩٤٦، وعاش منذ ذلك الوقت في البرتغال.

«الإجبشن غازيت» تنشد على قرار «الكونترالتو»

«الكونترالتو»، ولا أزيدكم علماً، هو القرار السفلي في الغناء المقابل للقرار الأعلى المعروف عند المنشدين في الغرب «بالسوبرانو». و «للكونترالتو» - أرجو أن لا تقرؤوا «كونتراتو» - روعته وتأثيره، ولو كان صوتاً فرداً لا غير يحبو وسط جوقة تامّة تنشد في القرارات العليا.

منذ أن أتحفنا أولو الشأن بنبأ هذا القانون الميمون (ميمون لأنّه لن يصدر)، ونحن نعجب كيف صحافة «الحبايب» لم تسمعنا صوتها الرخيم في الموضوع، وكيف ضنّت برأيها الذي اعتادت الإدلاء به في لباقة ودهاء، وقد وقّعته على ناحية خاصّة تهمّها منه دون سواها، وإن كانت لا تهمل النواحي الأخرى التي تفرضها مقتضيات «الإحاطة».

فقبل ثلاثة أعوام أو تزيد، بمناسبة التشريع للصحافة على عهد صاحب الابتسامة «الجيوكوندية»(١) الدقيقة صدقي باشا(٢)، كان للصحافة الإنجليزية البعيدة موقف يذكر. سمعنا فيه صوتاً أو صوتين ينكران ذلك التشريع - وكانا على قرار «الكونترالتو» هما أيضاً. أمّا الجوقة في الصحافة الإنجليزية فقد أيّدت الغلّ والتكميم على قرار «السوبرانو» القويّ الجليّ(٣).

وتفرّد بين أفراد الجوقة الغنائية المستر «هنت» الذي انقلب شاعراً. فحمل قيثارته ومضى يتغنّى على صفحات «الساترداي ريفيو» بمزايا القيود والأغلال وواجب فرضها على الصحافة المصرية. والسبب؟ السبب أسباب. أهمّها على ما بدا لنا من ترنيمته المتكرّرة، أنّ الفلّاح المصري غير ملمّ بقواعد الإعراب وأنّه يلحن عندما يطالع

الصحف. وعلى ذلك لا بدّ من تكميم الصحف بتشريع خاصّ حرصاً على كرامة اللغة العربية...»[٤].

* * *

من الناس من يزعم أنّنا في عالم نشوء وارتقاء. فينكر ذلك قوم آخرون مكتفين بالقول إنّنا في عالم يتطوّر وحسب، وليس من المحتّم أن يكون التطوّر سيراً إلى الأمام. وأيّاً كانت الحال في نظر أهل الرأي من الفريقين، فممّا لا شكّ فيه أنّ رأي «الإجبشن غازيت» اختلف عن رأي المستر «هنت» في حملته تلك من حيث الأسباب الداعية إلى التكميم.

لقد صمتت «الإجبشن غازيت» كل هذه المدّة صمت المفكّر المتمهّل في إعلان رأيه، أو صمت السياسي المرتقب سير الأمور في تدقيق، أو صمت الصحافي «الجنتلمن» الذي لا يتدخّل في شؤون الآخرين إلّا عندما يحكم بأنّ تدخّله أصبح محتوماً ليقول كلمته ضارباً بحجر واحد عصفورين أو أكثر، لامساً بموضوع واحد عدّة موضوعات منها المعروف ومنها المجهول.

وهكذا تركتنا نتلظّى شوقاً طيلة شهور الصيف فلم تصمّم على الإرواء من غليلنا إلّا بحلول الخريف ذي الأمساء الشجية والأصباح الساهمة التطريب. وأصغت إلى حاسّتها الموسيقية فعلمت أنّ الأصوات الموافقة لأشجان الخريف هي الأصوات السفلى ذات القرار الجزل البعيد الغور. فشذّت عن رأي المستر «هنت» وعن قراره، وتركت الفلّاح وشأنه يلحن في قراءة اللغة العربية على هواه، مستسلمة لحركة التطوّر. فأمسكت بتلابيب المثل الأعلى في الصحافة وهو «الجنتلمن» الذي لا ترى له وجوداً بين الصحافيين المصريين في زمننا الحاضر. ولكنّها بشّرتنا بأنّه سيلج باب الصحافة بعد أن تتطهّر الصحافة وتقام لها الحدود والقيود بواسطة التشريع الجديد. وليس هو «الجنتلمن» وحده الذي سينهض بالصحافة من ورطتها ولكن سيكون هناك سيّدات أيضاً.

سبحانك ربّي! تخفض من تشاء وتعلي من تشاء! وكذلك «الإجبشن غازيت» تبصر من تشاء في المستقبل المشرف وتغضّ الطرف عمّن تشاء في الحاضر القائم. إنّها

فنّانة! ومن صفات الفنّان الصميم أنّه يعيش في عالمه الخاصّ غير حافل بالعالم المحسوس حواليه! ولو استطاعت الصحيفة الإنجليزية أن تنظر إلى ما يحيط بها بعين لا تغشيها غمرة الفنّ الأعلى.. لرأت أنّ رغباتها متحقّقة وأنّ «الجنتلمن» غير مفقود في الصحافة الراهنة، وإن كان من الطراز المختلف بعض الشيء عن الطراز البريطاني بحكم طبيعته الشرقية. ولكنّه ليس دون هذا إدراكاً وسمة في الثقافة العامّة واتّزاناً ومنطقاً واعتدالاً، حتّى في الصحافة الحزبية التي لا نظنّها في إنجلترا نفسها دائماً هادئة غير مهاجمة في معارضتها.

* * *

ليست الصحافة المصرية من الفقر بحيث تظنّ «الإجبشن غازيت». أجل، إنّها في حاجة إلى التحسين والتعديل في بعض موادّها، إلى حذف أشياء وإدخال أشياء أخرى. ولكن أيّ عمل إنساني كائناً ما كان لا يحتاج في دائرته وفي نوعه إلى مثل ذلك؟ وليست القيود التي قامت اليوم «الإجبشن غازيت» تتغنّى بها، هي التي تجعل التحسين ميسوراً. بل التحسين يتيسّر في الصحافة وفي كل ميدان آخر، بالمران والاختبار والخطأ. أجل، الخطأ نفسه هو أحسن وسائل التحسين. وقد كان الخطأ وسيلة للتحسين الذي بلغته الصحافة المصرية خلال هذه الأعوام. وإن جهلت «الإجبشن غازيت» هذا الأمر فلوفرة مشاغلها التي لا تمكّنها من التفرّغ للغة العربية.

مع تقديرنا الصادق لما في الصحافة الإنجليزية والغربية عموماً من عناصر صالحة رصينة، نسأل هل جميع العناصر الصحافية في إنجلترا وغيرها من هذا النوع؟ فإن لم تجب «الإجبشن غازيت»، وهي لن تجيب - أجبنا نحن مصارحين بأنّنا نلقي بالكثير من تلك العناصر ومن تلك الموادّ على حدة، حائرين في أمر تلك الصفحات المزدحمة بما لا طائل تحته ولا معنى له، معجبين كيف يكون لتلك الترّهات قرّاء. وبالجملة فموقفنا حيال ذلك الصنف من الصحافة الغربية هو نفس موقف «الإجبشن غازيت» حيال نوع خاصّ من صحافتنا. على أنّ الفرق بينها وبيننا أنّها هي تعرب عن رأيها ونحن نظلّ صامتين. والفرق بينها وبيننا أنّها هي تنكر عندنا كل شيء، حتّى ما لا يكون إنكاره من دلائل الإنصاف، ونحن نقتصر على التغنّي بحسنات ما نستحسن.

هي تقول بإحكام القيود علينا، ونحن نرثي لحالة المقيّدين وندرك الأسباب في تقييدهم وفي امتثالهم للقيود.

* * *

في التوراة أنّ اللّه سبحانه وتعالى رضي أن لا يهلك أهل سدوم وعمورة فيما لو وُجد فيهم صالح واحد حيال أشرار لا يحصى عددهم. «والإجبشن غازيت» لا ترى ذلك الصالح الواحد في الصحافة المصرية الراهنة. فلا شكّ أنّ جهلها للغة العربية أوحى إليها الحجج في تكوين رأيها.

إنّ جميع الصحف في العالم متشابهة، وهنا كما غير هنا أنواع شتّى من الصحف ومن لهجات الكتابة، ومن أغراض الكاتبين. إنّما تختلف الصحافة المصرية عن زميلاتها السابقة بأنّها في طور التكوّن وأنّها في هذا الطور تحتاج إلى الحرّية. أقول الحرّية ولا أقول الفوضى، فالفوضى هي أقصى العبودية. وإن كان هناك فوضى فقد نجمت عن وزارة الداخلية التي رخّصت في كل هذه الأعوام لكل من طلب إصدار صحيفة، دون محاولة الوقوف على مؤهّلاته العلمية والكتابية. وصحف ذاك شأن أصحابها ستذوي من تلقاء نفسها، في حين التكميم والتقييد يجعلان لها أهمّية ويضمنان لها قسطاً من البقاء... وهذا هو المدهش في سعي الساعين الذين لا يرون هذه الناحية من الموضوع.

لا، لا حاجة بنا إلى هذا التشريع الذي ينال من كرامة المشرّعين قبل النيل من كرامة الذين يوضع لهم. إنّ هذا القانون لن يصدرا

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٩٧، ٤ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٣٤، ص ١ . أُعيد نشر المقالة في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٧٢، ١٩ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٣٤، ص ١ .

(١) نسبة إلى الجيوكندا (La Gioconda) ، وهو لقب مونا ليزا (Mona Lisa) المرأة الفلورنسية التي صوّرها ليوناردو دافينتشي (Leonardo da Vinci) حوالي عام ١٥٠٣ في لوحته الشهيرة الموجودة اليوم في متحف اللوفر (Le Louvre) بباريس.

(٢) إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ - ١٩٥٠)، رئيس وزراء مصر بين ١٩٣٠ - ١٩٣٣ . حكم البلاد حكماً شبه ديكتاتوري بالتحالف مع القصر عقب حلّ البرلمان ذي الأغلبية الوفدية في حينه، وتعطيل دستور ١٩٢٣ . وقد امتازت سنوات حكمه بالاستقطابات السياسية الحادّة، وكم الأفواه، وأعمال العنف. عاد لترؤّس الحكومة عام ١٩٤٦ - ١٩٤٧ .

(٣) انظر في هذا الصدد مقالي ميّ زيادة «بين تعديل القانونين. موضوع جوهري يتحتّم الانتباه إليه: السجن السياسي» في الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٧٢٩، ٦ تمّوز/يوليو ١٩٣١، ص ١، و «جائزة أتبرّع بها لمجلّة «ساترداي ريفيو» الإنجليزية على كلامها عن قانون الصحافة وعن الديمقراطية» في الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٧٤٢، ١٩ تمّوز/يوليو ١٩٣١، ص ١، وكلاهما مضمّن في مجموعة د. جوزيف زيدان «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي ١٩٩٦، ص ٤٦١ - ٤٦٤ و٤٦٥ - ٤٦٩ .

(٤) راجع هنا مقال ميّ زيادة «ولم لا؟؟ المستر هنت أيضاً ينقلب شاعراً ليصدح بنشيد «تكميم الصحافة» المصرية في مجلّة «ساترداي ريفيو» » في الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٧٥٧، ٣ آب/أغسطس ١٩٣١، ص ١ . ويمكن الاطّلاع عليه كذلك في مجموعة د. جوزيف زيدان، المصدر الآنف الذكر، ص ٤٧٠ - ٤٧٢ .

خواطر متناثرة

* بين ذقن المستر وملعب أوكسفورد
* الموسيقى في مدارس البنات
* بعد عام

ذكاء صديقتنا الكبيرة بريطانيا العظمى أشبه ما يكون بقلب الشاعرة الطيّبة الذكر الكونتس آنا دي نواي، التي أصدرت فيما أصدرت خلال حياتها مجموعة شعرية باسم «القلب الذي لا يحصى»، في تعدّد نواحيه وتشعّب نزعاته[1].

الذكاء الإنكليزي كذلك لا تحصى نواحيه ولا تعدّ وجهاته. إنّه يتناول زهيد الأمور وجليلها باهتمام وتدقيق. وهو يعذّب نفسه كثيراً لأجل الذين يحبّهم قلب بريطانيا العظمى. وقلب بريطانيا العظمى خلق ليحبّ كثيراً. وككل محبّ كتب على جبينه على قول عائشة التيمورية[2] «والحبّ خطّ في الجباه قديم»، وتأبى بريطانيا العظمى إلّا حمل أثقال الذين تحبّهم على عاتقها، وتولّي القيام بشؤونهم ليتفرّغوا هم للدلال والتيه. وتخاف أن يلقوا في طريقهم ما يجرح قدمهم، فتسير في وعر السبل أو هي تبتكر الوعورة بإحساسها الرقيق، لتزيل منها الحصى والأشواك وتفرشها بأوراق الورد، فيمشي عليها الذين أمتعهم اللّه بحبّها، كما على طنفسة وثيرة...

وبينما يتناول ذكاؤها عديد المشاكل يقوم بعض أفرادها بعمليات فذّة في بابها.

أمّا أنّ عمليات الإحصاء ضرورية بل واجبة أحياناً فذلك أمر لا جدال فيه. وقد يتّفق أن يكون مفكّهاً. وما أحوج الناس إلى الفكاهة في هذه الأيّام!

لم يتعمّد الفكاهة المستر الإنجليزي الذي بلغ عامه السبعين وهو كل يوم يعالج ذقنه تلك المعالجة الكلّية أو الجزئية التي يعرفها الرجال - باستثناء الذين لا يعرفونها منهم. وإنّما كان جادّاً عندما أجرى إحصاء في تفاصيل تلك المعالجة التي يمارسها منذ خمسين عاماً، فانتهى من إحصائه إلى الخلاصة التالية: إنّه في نصف قرن «طهّر» من وجهه مساحة تضارع الثلاثة الأرباع من أرض لعب كرة القدم الشهيرة في

أوكسفورد، وإنّه لو أضاف عملية التطهير خلال العشرين عاماً الأولى حيث لم تكن ذقنه في حاجة إلى عنايته، لاستطاع أن يغطّي مساحة تلك الأرض بأكملها.

وقد قرّر جنابه أن يعيش عشرين عاماً أخرى للاستعاضة عمّا فاته، إذ لا يروقه أن يرحل عن الدنيا تاركاً وراءه عملاً ناقصاً!

أمّا ما حزّه من.... من محصولات وجهه فيوازي الطنّ. ويوازي القنطار كذلك ما استهلكه من الصابون. ونصال الفولاذ المستعملة يكفي مجموعها لصنع بندقية من الطراز العصري. واستهلك من الفوط كمّية تقوم بحاجة أكبر فندق في لندن. وأمّا القوّة الحيوية التي بذلها في سبيل كل ذلك فكافية لسوق مركبة ترام من لِيفِرْبول إلى مانْشِسْتِر! ومن هذه اللمحة السريعة تدرك النساء المسكينات لماذا حقّ على الرجال اسم «الجنس القويّ»..

* * *

أذاعت الصحف بياناً لوزارة المعارف في ما يتعلّق بالموسيقى في مدارس البنات، وكنت أودّ أن أفهم منه أكثر ممّا فهمت، مع علمي أنّ العناية منصرفة إلى تحسين هذا النوع من الثقافة في السنوات الأخيرة الأربع أو الخمس، ممّا تشكر عليه الوزارة مع استزادتها في هذا السبيل.

السليقة المصرية طروبة من تلقاء نفسها. وحسبك الإصغاء إلى العامل المصري يحدو إبّان العمل، أو الاستماع إلى آهة يرسلها عابر سبيل في أواخر الليل، لتحسّ أنّ هذا وذاك قد تغلغل الطرب في جوانحه واهتزّت كل ذرّة من كيانه إذ هو ينغّم ذلك الحداء أو يرسل تلك الآهة. ولأنّ هذه الموهبة فطرية وجب تثقيفها بالوسائل الصحيحة المطلوبة.

وقد سبق قبل الأعوام الأخيرة أن شهدت عدّة حفلات في مدارس البنات الأميرية فشعرت كل مرّة بوجوب تبديل صنوف العزف والإنشاد فيها، وشعرت بوجوب تغيير الأناشيد أيضاً. لأنّ مؤلّف كل نشيد يظنّ أنّه يتحتّم ذكر الأهرام وأبي الهول والعلم والمجد، على أن يختم بكلمة «إلى العلاء!» أو «إلى الأمام!» وانتهى النشيد الجميل! ولهذه الكلمات وقتها ووقعها المستثير، على ألّا تكون بمثابة الإفطار والغداء

والعشاء كل يوم. ويجب أن تكون أكثر الأناشيد في المدارس بهيجة مفرحة مشوّقة «فتيّة» تحرّك الأعصاب للعمل دون إلقاء ظلّ المعاني الخطيرة على الفكر فيأباها ويملّها.

قد يصلح البيانو لبعض الألحان الشرقية ولكنّ الموسيقى الشرقية خلقت بطبيعتها الآلات الوترية وأخصّها العود. لأنّ البيانو لا يؤدّي إلّا النغم ونصف النغم وأحياناً ما يقرب من ربع النغم، في حين توزُّع اللحن الشرقي إلى أجزاء صوتية عديدة يجعله جامحاً عن بيان البيانو، مندغماً في بيان الأوتار. وعلام لا تفكّر وزارة المعارف في إدخال تعليم العود في مدارس البنات؟

أعلم أن ليس للعود سمعة حسنة لامتزاج معناه بحياة المغنّين والآلاتية و«العوالم». وهذه فكرة خاطئة يتحتّم تعديلها، إذ لا بدّ من تقرير العود أو غيره من الآلات الوترية كأداة موسيقية قومية. كذلك خاطئ القول إنّ الموسيقى عارض كمالي في الثقافة النسائية. إتقان الموسيقى إلى الحدّ البعيد شيء كمالي، أمّا تداولها المعقول فضروري وواجب.

ما هي المرأة التي لم تتثقّف فيها الحاسّة الموسيقية؟ إنّ ذلك النقص يبدو في تدبير منزلها، في تنسيق أثاثاتها، في إدارة أعمالها، في تنشئة أطفالها ومعاملة ذويها، في اختيار هندامها، في انتقاء ألفاظها، في حركاتها وسكوتها ونظراتها ونغمة صوتها، وفي كل هيئتها وسلوكها. لا شيء يخلق الاتّزان في المشية وفي الحياة كالثقافة الموسيقية. فهي في تعليم المرأة أصل لا فرع ودعامة لا إضافة.

* * *

طوي العام على وفاة الأستاذ داود بركات. واليد التي طوال ٣٥ سنة كتبت عن رحيل الراحلين وعن إحياء ذكراهم، تجمد اليوم تاركة لغيرها مهمّة الكتابة عنها. وذاك الذي شارك الناس كثيراً في مآتمهم وفي احتفالات إحياء الذكرى لموتاهم وعرف كيف يهتدي إلى الكلمة المعزّية في حينها وإلى السكوت المواسي في وقته - ينام اليوم وسيّان لديه أن يذكر أو أن يكون منسيًّا. واللسان الذي كان كاللولب لا يستقرّ فلا تدري أهو جادّ ساعة يمزح أم هو قادح حين يمدح - عمد اليوم إلى السكون ولن تعاوده حركة الحياة. والعينان اللّتان كانت تعلن مياههما عديد التأثيرات في لحظات قلائل، العينان اللّتان غشّتهما في الأعوام الأخيرة سحابة حزن طالما عبّر عنها اللسان بقوله: «ما أحلى

الموت! الحياة متعبة مضنية ونحن في حاجة إلى الموت. أنا مائت عمّا قريب وفي ذلك راحتي!» – تانك العينان أغمضتا عن هذا العالم لتنفتحا على عالم آخر. وكم أغمضت عيون من قبل ومن بعدّ! وغمض العيون حقيقة لا مفرّ من وقوعها في حياة هذه الناس.

أنذكره اليوم ولا نستعبر؟

إنّه في سكوته وغيابه ينفث في خاطرنا بحكم أبلغ من كل ما خطّه قلمه الخصيب. ويخيّل إليّ أنّه الآن يقول: «الحياة بحر يتضاءل الأوقيانس حيالها. وما الخلائق والكائنات إلّا موج فيها. موجات تأتي وموجات تمضي. موجات تقترب وأخرى تتباعد. موجات تطفو وغيرها تغور... أنتم الذين تبغون تخليد بعض تلك الموجات ولو تخليداً موقوتاً، اعلموا أن لا خلود إلّا لمجموع الحياة ولاطّراد تيّارها الدافق..

«سلاماً، أيّتها الأمواج الطافية اليوم على وجه الماء! بالأمس نشرت أنا حبابي. وعليك اليوم أن تنشري الحباب. على أن يقوم في الغد بنشره آخرون!».

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٩٢٩، ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٤، ص ١ . نُشر المقال أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٧٦، ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٤، ص ١ .

(١) Anna Elisabeth Comtesse de Noailles (١٨٧٦ – ١٩٣٣)، شاعرة فرنسية. كتبت فضلاً عن أشعارها العديدة روايات بعضها غير مكتمل، وقصصاً، وسيرتها الذاتية المعنونة *Le livre de ma vie* (١٩٣٢). نُشرت مجموعتها الشعرية *Le cœur innombrable* عام ١٩٠١ .

(٢) عائشة عصمت التيمورية (١٨٤٠ – ١٩٠٢)، أديبة مصرية، شقيقة العلاّمة والباحث اللغوي والمؤرّخ أحمد تيمور، من رائدات النهضة النسائية. نظمت الشعر بالعربية والفارسية والتركية. لها ديوان عربي بعنوان «حلية الطراز» (١٨٨٥) ومجموعة شعرية تركية (١٨٩٤) إلى جانب دراسة «مرآة التأمّل في الأمور» (١٨٩٢) وعمل روائي بأسلوب المقامات عنوانه «نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال» (١٨٨٨). راجع دراسة «عائشة تيمور: شاعرة الطليعة» التي نشرتها ميّ زيادة تباعاً في مجلّة «المقتطف» بين ١٩٢٣ – ١٩٢٥ وصدرت في طبعتها الأولى عن دار الهلال في القاهرة عام ١٩٢٦، في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ١، ص ٢٣٣ – ٣٩٨ .

«ذهني بك المستشار الفخري في المحاكم المختلطة بمصر»

لإدراك المعاملة الشاذّة التي تعامل بها اللغة العربية يجدر بنا أن نتخيّل وقوع حوادث المحاكم المختلطة في بلد غير مصر[1].

كنت أودّ أن أسمع الكلمة الواحدة التي قد كان يرسلها في مثل هذا الظرف موسوليني، أو مصطفى كمال، أو هتلر، أو أيّ رجل من رجال السياسة في فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا أو غيرها، كلمة تكون جمرة، لا جمرة تتقد ثمّ تنطفئ، بل جمرة تطهى شيئاً وتنضج أشياء، جمرة فعّالة عاجلة النفاذ.

ليس بين قرّاء الصحف من يجهل غضبة إيطاليا من إنجلترا بسبب تنحية اللغة الإيطالية في مالطة إلى درجة غير رسمية. ومن حجج إيطاليا في غضبها أنّ الكثير من المفردات الإيطالية قد اندمج في اللغة المالطية.

وما هو عدد تلك المفردات؟

سمعت من قوم مالطيين من أهل الثقافة اجتمعت بهم خلال الصيف الأسبق في أوربّا، وبينهم محام معروف في بلاده، أنّ عدد المفردات الإيطالية يناهز الثلاثين في كل مائة، في حين المفردات الإنجليزية وغير الإنجليزية تداني العشر. والباقي وهو ما يزيد عن الستّين في المائة مفردات عربية صحيحة أو مشوّهة. ومع ذلك فإيطاليا تغضب غضبة يكفي وصفها بالفاشستية. وتكتب مذكّرات فاشستية أيضاً إلى بريطانيا العظمى التي ذكرها موسوليني في خطبة مشهودة بمجلس الشيوخ الإيطالي بصفتها «صديقتنا الكبيرة فينيقيا القرن العشرين».

أمّا ما يحدث هنا منذ عام في مقاومة اللغة القومية والإغضاء عنها بين جدران محاكم مصرية تضيّفها أرض مصرية فيعالج بالتطريز والزركشة، تطريز بينيلوبي

اليونانية زوجة عوليس، وزركشة لنسيجها الذي لن ينتهي، تطريز وزركشة المذكّرات التي تكتب بقلم (أو آلة كاتبة) من قطيفة على قرطاس من قطيفة وكلمات من قطيفة. ومع ذلك فالدول ذات الحسّاسية الرقيقة ستجد تلك المذكّرات شديدة اللهجة، خالية من المجاملة المفروضة على الذي ضرب نحو الذي اعتدى عليه بالضرب.

وها هم الآن يهدّدون ذهني بك بالنقل لأنّه يقوم بواجبه، بعد أن هدّدوه بإهمال دوره في توزيع القضايا.

أنا لا أعرف ذهني بك شخصياً. غير أنّ موقفه ينمّ على طيّة خاصّة في خلقه ويمكّننا من البتّ في أنّه لن يقبل النقل ولن يسلّم به. موقفه منذ عام تقريباً يعلن بأنّه ليس الرجل الملاين حيث الملاينة ضعف، وتفريط بالواجب، وإهمال لأداة الظفر المستودعة في قبضة يده.

لئن قيل إنّ في نقله حلاً لهذا المشكل فذهني بك لم يخلق هذا المشكل ولذلك لم يكن مسؤولاً عن حلّه بالتراجع، بل خلقه الذين صمّموا على تناسي الحقّ والعدل في هذا المقام وما زالوا، على ما يظهر، دائبين على الاحتفاظ بخطّتهم لتغذية المشكل.

وقبول النقل اعتراف منه بأنّهم على صواب وهو على خطأ، واعتراف منه بأنّه أساء عندما فكّر في حقّ اللغة العربية وفي وجوب إنصافها وإنصاف المصريين المتقاضين الذين لا يعرفون غيرها وليس عليهم أن يعرفوا حتّى لو عرفوا، فجعل عمله متوافقاً وتفكيره.

قبول النقل يعني دوس الواجب الذي أُهمل أعواماً طويلة، وامتهان العدالة الشاملة التي تضمّ في رحابها عديد العدالات الجزئية. وقد كان خيراً له ولبني قومه أن يقمع انتباهه لهذه العدالة وذلك الواجب منذ البداية، من أن يركن اليوم بقبول النقل إلى التخاذل والهزيمة.

موقفه في المحاكم المختلطة يقدّم مثالاً من قوّة الشكيمة والمناعة والصلابة، بعد أزمان طويلة كانت الرخاوة الشرقية رائد المصريين وغيرهم في الشرق الأدنى في كثير من الشؤون والمعاملات.

موقفه يجلّي ناحية من اليقظة الروحية - وهي أهمّ من اليقظة السياسية على أهمّيتها - التي تنتشر الآن بين الأفراد والجماعات متفشّية في البلاد. فكيف ينكر كل ذلك بقبول النقل، قانعاً بالتقهقر والخيبة والهزيمة؟

ذهني بك لن ينهزم. وسيظلّ ثابتاً في مكانه لا يتحرّك. ولئن منعوا عنه القضايا فليس هو الذي يأبه لهذه المناورات التي لا تليق بالرجال. ولئن تعمّدوا إهانته فالإهانة لا تبلغ موطئ قدمه حتّى تنقلب لذكره إكراماً وفخاراً!

سيظلّ الرجل كل الرجل. سيعرف كيف يسكت وكيف يحتمل. فيكون في احتماله وسكوته حصناً للحقّ والعدالة محدّثاً عن كرامة بلاده وكرامة لغة بلاده.

ويكون بمفرده أعظم شأناً من الذين يقاومونه ويناهضونه على كثرتهم.

ليبق ذهني بك بين مستشاري المحاكم المختلطة في حكم «المستشار الفخري»، في حكم «مستشار الشرف».

وكم لهذا الاسم وذاك اللقب في مثل هذا الموقف من مغزى جميل!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٩٥٩، ٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١ . أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٨١، ١١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١ .

(١) للاطّلاع على المزيد في مسألة حقّ استعمال اللغة العربية في المحاكم المختلطة ودور عبد السلام ذهني فيها، أُنظر مقال ميّ زيادة «الآن تبتدئ أزمة المحاكم المختلطة في مشكلتي رياسة الجلسات واستعمال اللغة العربية جميعاً»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٧٤٤، ٤ أيّار/مايو ١٩٣٤، ص ١ [١٠٦]، في هذه المجموعة. وصفت د. لطيفة محمّد سالم في دراستها «النظام القضائي المصري الحديث ١٩١٤ - ١٩٥٢»، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٨٦، ص ١٠٦ - ١٠٩، كيف أثارت هذه المسألة الرأي العامّ، وتناولتها الصحافة، وصعّدها مجلس النوّاب، وكيف توالت الاجتماعات بين المندوب السامي ووزير الحقّانية ورئيس محكمة الاستئناف والمستشار القضائي من أجل التوصّل إلى حلّ ترضاه الأطراف المعنية، حتّى أصدر رئيس محكمة الاستئناف المختلطة فوكس (Vaux) منشوراً وُزّع على جميع مستشاري المحكمة، وافق فيه على أن تُكتب الأحكام بالعربية لكنّه

أصرّ على أن تُترجم إلى الفرنسية فتكون هذه الترجمة هي التي يوقّعها رئيس الدائرة وتُتلى في الجلسة. غير أنّ ذهني بك أبى قبول هذا الشرط واستمرّ في تدوين أحكامه باللغة العربية ممّا ترتّب عليه عدم النطق بها لأنّ الأحكام كانت تحتاج إلى موافقة جميع القضاة المعنيين بالقضية لكي تصبح نافذة المفعول. كان الموقف الصلب لذهني بك وقضاة آخرين حذوا حذوه علامة لمرحلة جديدة على الطريق إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية بما فيها نظام القضاء المختلط في مصر كما تقرّر مبدئياً في الاتّفاقية الأنجلو المصرية عام ١٩٣٦ وتحدّد تفصيلاً في اتفاقية مونترو (Montreux) عام ١٩٣٧ .

خواطر متناثرة

* حكاية إبريق الزيت... واللغة العربية
* مشروع القرش مشروع اليوم والغد
* سعاة توزيع البريد وكيف يكتبون

حكاية إبريق الزيت هي مسألة الدين العامّ. كثرة الأخذ والردّ في هذه المسألة التي لا تحتاج إلى الكلام أثبتت لنا أنّ الرجال هم «الجنس الثرثار» حقًّا. من أين يأتون بالمادّة لكل هذا الكلام؟ كيف يبتكرون كل هذه الثرثرة من لا شيء؟ قد كانت الخليقة تدرك معنى هذه العجاجة الكلامية لو أنّها من صنع المرأة التي يتّهمها «الثرثارون» بالخروج بفطرتها عن قواعد المنطق، أمّا أن تكون العجاجة من عمل الفصيلة الإنسانية المباهية بأنّها أوجدت بين شتيت العلوم العقلية شيئاً اسمه علم القياس والمنطق – فذلك ما يصبح موضوعاً طريفاً لرواية هزلية.

في العالم بأسره تتمّ المعاملات بالورق وجميع الحكومات تدفع فوائد ديونها العامّة بالورق، وتجارة الشرق والغرب والشمال والجنوب تدور بالورق، والمصريون يتقاضون فوائد دينهم بالورق ولا يرون في ذلك ما يقال. أمّا ضيوف مصر فلا يرضون هنا بما يرضون به في بلادهم. الخطّة التي يجري عليها العالم قاطبة تصبح هنا تهديداً لمصالح الأجانب وحقوقهم وامتيازاتهم وعاداتهم وعقائدهم. ومن ثمّ إشكالات دولية تثير ذكرى التحفّظات الأربعة المقدّسة، واعتراضات ومناقشات وقضايا وأحكام، واحتجاجات لأنّ الأحكام لم تنفّذ، ومقابلات ومؤتمرات وتصريحات وتأكيدات. أفّ! ما أكثر ثرثرة الرجال!

الأمم الكبيرة تعلن بأنّها لا تدفع في هذه الأيّام أقساط ديونها إلى أمريكا لا بالذهب ولا بالورق ولا بالخيال. أمّا أبناء تلك الأمم فيطالبون هنا بالفوائد ذهباً. وهؤلاء

الذين يطالبون بحقّ جزئي تقوم جميع المعاملات الدولية الآن على صورة أخرى منه بحكم الحالة العامّة، هم نفس الذين ينكرون على اللغة العربية حقّها في بلادها. أين الأديب الذي يؤلّف رواية هزلية في هذا الموضوع الثنائي الذي لا مثيل له في العالم؟[1]

لقد خطا المستشار الأمريكي مستر برنتون[2] خطوة صالحة بموضوع اللغة العربية في المحاكم المختلطة. ومع أنّ تلك الخطوة محض مجاملة في الظاهر فهي تبعث على الرضى. أهو سلّم بالحقّ ولو هذا التسليم الشكلي لأنّه من أبناء الأمّة الأمريكية المكوّنة من خليط الأجناس فهي بطبيعتها أقرب إلى فهم نزعة كل قوم إلى لغتهم؟

قد يكون ذلك كما قد يكون غيره أيضاً. والمسيو هورييه، الذي تعنّت وما زال متعنّتاً، سويسري، وفي الجمهورية السويسرية اللغات الرسمية ثلاث: الفرنسية والألمانية والإيطالية وكلهنّ متساويات في المكانة لا تتقدّم إحداهنّ على الأخرى إلّا في مقاطعاتهنّ الخاصّة حيث يتداول الأهالي هذه اللغة أو تلك.

* * *

مشروع القرش هو، على ما أذكر، أوّل المشروعات الاقتصادية التي قام بها الشبّان من تلقاء أنفسهم، وقد تحمّسنا له كثيراً في بادئ الأمر. وأعرف أناساً كانوا يصرفون كمّية من طابعه بلصق ذلك الطابع على ظروف الرسائل إلى جانب طوابع البريد، وكثيراً ما كانوا يلصقونه في أعلى ورقة الخطاب ليشرحوا خلال الخطاب معنى وجوده فيقوموا بالدعاية الأدبية - ولو محدودة - لذلك الطابع وللمشروع وللناهضين به. وحماستنا تلك إن هي لبثت لا تفصح عن نفسها مدّة من الزمن فهي اليوم، بسبب ذلك، أغنى وأنضج (إن صحّ الوصف) منها في الماضي.

إنّه من أخلق المشروعات بالنجاح لأنّه لطيف رشيق يمكّن الجميع من المساهمة فيه. وطابعه كالإبرة المغنطة يستطيع أن يجتذب إليه كل يد. فيجني الشبّان من وراء ذلك المبالغ الوافرة، وبخاصّة إذا تجدّد توزيع الطابع كل عام بهمّة وانتظام وثبات. وتمكّنهم تلك المبالغ من تغذية عدّة مشروعات تجارية وصناعية وغيرها.

مستر... نسيت اسمه، هو أغنى أغنياء إنجلترا الآن، ومصدر ثروته طاحونة صغيرة ورثها عن والده قبل أربعين عاماً، فتعهّدها بالعناية لأنّها كانت تكفل عيشه وعيش ذويه، وشاء اللّه أن يزيد ويبارك في الطاحونة العتيقة فإذا بها وقد أصبحت طواحين أعجز عن إحصاء عددها لعجزي عن ضبط الأرقام في ما يزيد عن الأصابع العشرة (وا خجلي من مسيو فلوري أستاذي في العلوم الرياضية)، وبعد أن كانت الطاحونة الصغيرة تدور كثيفة بطيئة لتغذّي بعض أهالي القرية، صارت طواحين مستر.. نسيت اسمه، من الطراز الحديث مجهّزة بجميع مستحدثات الميكانيكا، وهي التي تمدّ خمس سكّان الأراضي البريطانية بالدقيق!

كذلك يصبح الصغير كبيراً. ولو سار مشروع القرش في اطّراد وانتظام بهمّة الشبّان عاماً بعد عام، فليس بيننا من يدري مبلغ الفوائد التي قد تجنيها البلاد من هذا القرش الواحد، ولا من يدري مقدار الثروة التي قد تترتّب على القرش بعد أربعين عاماً.

«هيوريه»(٣) لمشروع القرش ولفتيان القرش!

* * *

قام سعاة توزيع البريد في القاهرة بفروض الترحيب بوزير المواصلات عند زيارته مصلحتهم. ولمّا كانوا متغيّبين في ذلك الوقت بحكم عملهم لتوزيع البريد في المدينة فلم يتمكّنوا من استقبال الزائر الكريم شخصياً، فقد زفّوا إليه خطاب الترحيب مطبوعاً طبعاً لا شكّ فيه على صفحات المقطّم.

كيف لا يتلقّى سعاتنا النشيطون عدوى «البلاغة» من الخطابات التي يتولّون توزيعها، إلى جانب ما لا بدّ من وجوده عندهم من البلاغة الفطرية؟

لقد بدأوا الخطاب بهذا النداء المؤثّر: «سيّدي يا صاحب المعالي!». وبعد الترحيب الرحراح بالزائر الكبير بسطوا ظلامتهم بين يديه، وختموا أو كادوا يختمون بهذه الجملة المفجعة: «... نضرع إلى اللّه عزّ وجلّ أن يبقيك لمثل هذه الكرب تفرّجها، ولشبه تلك الزفرات تنفّسها، ولنحو هذه الآمال تحقّقها. إلخ».

أفي الدنيا كلها وزير واحد لا يلبّي مثل هذا الطلب العادل، وبخاصّـة عندما يكتب بهذه اللهجة الليريكية الدراماتيكية؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٩٧٠، ١٦ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١ .

(١) للاطّلاع على المزيد في موضوع استعمال اللغة العربية في المحاكم المختلطة، راجع مقالتي ميّ زيادة المنشورتين في الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٧٤٤، ٤ أيّار/مايو ١٩٣٤، ص ١، و ع ١٧٩٥٩، ٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١، وكلتاهما مضمّنة في هذه المجموعة [١٠٨ و ١٢١]. أمّا قضية الدين العامّ والدفع بالذهب فيمكن مراجعتها بالتفصيل في دراسة د. لطيفة محمّد سالم «النظام القضائي المصري الحديث ١٩١٤ - ١٩٥٢»، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٨٦، ص ٦٩ - ٧٣ .

(٢) Jasper Yeates Brinton (١٨٧٨ - ١٩٧٣)، حقوقي أمريكي عمل قاضياً في محكمة الاستئناف المختلطة في الإسكندرية من ١٩٢١ - ١٩٤٣ فرئيساً لها حتّى عام ١٩٤٨، ثمّ عُيّن مستشاراً قانونياً للسفارة الأمريكية في القاهرة. ألّف كتاب *The Mixed Courts of Egypt* المنشور عام ١٩٣٠ . ولم يتسنَّ لي العثور على أيّ معلومات عمّا أسمته الكاتبة في مقالتها ب «خطوته الصالحة» في مسألة استعمال اللغة العربية في المحاكم المختلطة.

(٣) المقصود هو "Hurray" ، وهي تعبير فرح بالإنجليزية.

أجراس عيد الميلاد

ترنّمي، يا أجراس العيد، وأعلني للعالمين مجيء الوليد!

إلى تسبيح الملائكة في فلوات السماء، إلى مزامير الرعيان في سهول بيت ساحور[1]، إلى جوقة الأنبياء المحدّثة عنه جيلاً بعد جيل، إلى تألّق كوكبه في أفق المشرق، ضمّي ترنيمتك، أيّتها الأجراس، واهتفي: المجد للّه في الأعالي والرجاء في الأرض للصالحين من البشر!

ها قد جاء الوليد المنتظر!

جاء فأشرف على العالم من مغارة حقيرة حيث ينام على القشّ وتدفئه أنفاس الحيوان، الحمار والبقرة صديقان له، والخرفان والنعاج تهرول حواليه، والأعشاب والنوامي تشرئبّ إليه من شقوق الصخور. لأنّه سيتغنّى بجلال السنابل وبمحاسن الأزهار، ويضرب الأمثال بالنباتات والأشجار، ويعلن جمال الطبيعة ونعمة الوجود، ويجعل من رمال الشاطئ قرطاساً يخطّ عليه رائع الحكم ويخاطب أمواج البحر فتعنو صاغرة لسلطانه. إنّه هو الذي سينفث في الجوامد حركة، وينيل النوامي والأغراس لغة، ويظهر ما بين الأنعام والناس من ممكنات الألفة والتعاطف، ويربط الكائنات والمخلوقات فيما بينها برابطة الحياة الممنوحة من اللّه!

ترنّمي، يا أجراس العيد، وأعلني للبرايا مجيء الوليد!

* * *

لقد جاء ذاك الذي سيسمّي نفسه «ابن الإنسان»!

جاء فهرع المجوس من شاسع الأقطار يحملون إليه رمزي الهدايا:

فمن بخور سيحرق على مدى الدهور في هياكله، إلى مرّ سيكون شعار التجرّد والحرمان وقمع النفس والتضحية والمفاداة في صميم تعاليمه، إلى ذهب يشير إلى

ارتفاع ذكره فوق رفيع العروش إذ يفاخر أهل الصوالجة والتيجان بتعفير الجباه في الثرى عند موطئ قدمه!

جاء ومجد الرومان في أعزّ الصولة والعنفوان، جاء وبلاده فريسة الشقاء والهوان وغنيمة للظافرين. جاء وأهل الجاه والثراء في بطرهم واستهتارهم يعربدون. جاء وأئمّة الأديان يتذرّعون بسلطانهم الروحي وسيلة لترويج حقير الغايات ويضخّمون ألقابهم وثروتهم ومكانتهم في خدمة الظالمين على حساب المظلومين. جاء وهو الذي سينهض بالمدقعين والضعفاء والخاملين لينادي بالمساواة أمام وجه اللّه. وهو الذي سيتّخذ تلاميذه من البسطاء الفقراء الأمّيين ليعطي مثالاً مبنيّاً على العظمة الكامنة في الشعب ويفهم المتحذلقين والمدّعين العلم أنّهم هم الأغبياء الجاهلون. جاء ليهيب بالعبيد أن ارفعوا الرؤوس وانهضوا فأنتم أبناء الذي خلقكم أحراراً، ويعلن لأهل الصولة والبطر والاستهتار بأنّهم هم العبيد الأذلّاء.

ويل للمنافقين والمستبدّين من «ابن الإنسان الذي لا يجد مكاناً يسند إليه رأسه»!

* * *

غدًا سوطه يلهب الذين يتاجرون باسم اللّه، ويدمغ جباه المراوغين بدمغة العار فهم بعده «القبور المكلّسة» وهم «أبناء الأفاعي»، في حين هو يعلن أنّ الذي يندم لفعل الشرّ وينوي الخير عند صنع الخير فهو المقترب إلى اللّه كائنة ما كانت نقائصه وآثامه.

وهو الذي سيصفح عمّن يخطئ بدافع الضعف والعجز لا يقصد الخيانة واستغلال النفاق.

وهو الذي سيطلب من السامرية المنبوذة جرعة الماء ليشرب. ويردّ عن المرأة الآثمة زمرة المنتقمين المهدّدين قائلاً: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر! وسيسمح للمجدلية بسكب الطيب مع الدموع على قدميه لتجفّفهما بشعرها، فيقول للذين يعلنون غير ما يضمرون: هذه المرأة أحبّت كثيراً، فلها من الغفران بقدر ما أعطت من الحبّ!

وهو الذي سيعلن: إنّما إخوتي وأهلي هم الذين يحبّونني ويسمعون كلامي.

وهو الذي سيعلّم مخاطبة اللّه وجهاً لوجه، لأنّ اللّه خالق الجميع ومدبّر الجميع هو للجميع أب رحيم.

وهو الذي سيلزم الصمت الأبيّ عندما يقذفه أهل الحقارة بالتهم والآثام وبتغذية الثورة الدينية والمدنية.

وهو الذي سينطق بكلمة الحقّ والعدل والروح طاهرة متألّقة.

وهو الذي سيهتف بأنّ العظمة والمجد ينبثقان من داخل الروح لا ينجمان عن المظاهر والدعايات. وهو الذي سيعلّم عظماء العالم رفاهية الفقر، ولذّة التجرّد والحرمان، ورغد الألم والعذاب، وشرف التضحية في سبيل إثبات الحرّية النفسية وتأييد مبدأ عظيم.

وهو الذي سيقول للمتنطّعين: «لا تدينوا لئلّا تدانوا. خير لكم أن تنتبهوا للخشبة في عيونكم من أن تذيعوا وجود القشّة في عيون إخوانكم».

وهو الذي سيصيح بمن يبغي الدفاع عنه: «اردد سيفك إلى غمده! فمن أهلك أحداً بالسيف فبالسيف هو يهلك».

جاء الذي سيكون نقمة للظالمين، وحرباً على المستهترين، وثورة على الغاصبين، ورحمة للضعفاء والمخلصين، وحبّاً لأنقياء القلوب ورجاءً لمن يطلب الرجاء بنيّة الخير والحقّ والإصلاح.

ترنّمي، يا أجراس العيد، وأذيعي مجيء ابن الإنسان الذي سينقض التاريخ القديم حجرًا حجرًا ليشيد تاريخاً جديداً يغذّيه بالحبّ والعدل ويبشائر الحقّ والسلام!

* * *

عشرون قرناً انقضت على مجيئك، يا ابن الإنسان. وها نحن أولاء ما زلنا حيث كنّا قبل ألفي عام.

إنّها من التاريخ القديم ولكنّ البشرية ما زالت تخرج أفواجاً من المستبدّين والمراوغين المتّخذين أشرف المبادئ وسيلة لإنجاح أحقر الغايات.

ما زال الإنسان يطلب ما كان يسعى إليه يوم قدومك، بيد أنّه الآن يطلب ما يطلبه باسمك، ويسير بصليبك في مطلع الجيوش، ويرتّل مدائحك لتمكّنه من الجور والطغيان.

إنّ العالم كله لفي اضطراب واضطرام، والشعوب تصوغ الذخائر وترهف النصال، وشياطين المطامع والشهوات والانتقام تجتاح كل بقعة من بقاع الأرض. فأين ذياك السلام الموعود، يا ابن الإنسان؟

كلمتك التي أعلنت الروح والحقّ والجمال والعدالة والحبّ إنّما هي كلمة مسطورة تهلّل لها خلائق البسيطة. ولكن متى ترى يحقّقها الإنسان في حياته؟

وها نحن أولاء نحبّ الحيوانات والأعشاب والأزهار والأمواه التي أحببتها، ونحبّ الأطفال الذين قرّبتهم إليك، ونتهادى الهدايا في يوم عيدك ولكنّ عيدك يوم واحد وسائر أيّام العام مليئة بشرور الغدر والكراهة والحسد والنقمة والطغيان. أفيظلّ السلام الذي أعلنته سراباً والرجاء الذي ناديت به وهماً؟

* * *

ألا ترنّمي، يا أجراس العيد، وأنسينا لحظة وطأة الحقائق!

ترنّمي وأرينا أسراب الملائكة محلّقة في زرقة السماء! ترنّمي وأسمعينا مزامير الرعاة شادية في سهول بيت ساحور! ترنّمي وأذيعي بشائر السلام والحبّ والصفاء في دقائق الأثير وفي قلوب البشر! ترنّمي، ترنّمي في قوّة وإلحاح حتّى تسكتي أصوات اليأس وتنبّهي أصوات الأمل!

ترنّمي وأطربينا برخيم الألحان، ترنّمي واستولي علينا بإشراق الغيوب، ترنّمي واحملينا على الإنشاد معك: المجد للّه في الأعالي والرجاء في الأرض للصالحين من بني البشر!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٩٧٩، ٢٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١. أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٨٣، ٢٦ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١ .

(١) بلدة فلسطينية قريبة من مدينتي بيت لحم والقدس.

«كأسي صغيرة ولكنّي أشرب من كأسي»

هذه الكلمة التي لا يهتدي إليها في لطافتها إلّا شاعر بلطف ألفريد دي موسيه[1] تنطبق على مشروع الأبيض الأغرّ ذي العشرة مليمات. وللقائمين بالمشروع أن ينتحلوا قياس الشاعر الفرنسي متوسّعين فيه وفاقاً لموضوعهم فيقولون: قرشي صغير ولكنّه لي ومنّي. قرشي صغير ولكنّ أهمّيته تفوق أهمّية الثراء الوفير!

قلت «جماعة القائمين بالمشروع» وأستدرك لأقول إنّ تلك الجماعة على كثرتها، يجب أن تتسع وتترامى وتتفرّع حتّى تشمل جميع فتيان القطر وجميع فتياته بين منظّم ومنمّق ومتطوّع ومساهم، عاملين في انتظام وترتيب ونشاط وحماسة وتدبير وتدقيق كأنّهم شخص واحد. وعندئذ نقول صادقين إنّ مشروع القرش هو مشروع الشباب كله، وإنّ الحماسة التي يبعثها القرش في البلاد من أقصاها إلى أقصاها هي حماسة الشباب كله، وإنّ الخير الذي تجنيه مصر من وراء قرشها هو خير ناجم عن الشباب كله، وإنّ الغبطة المنتشرة في موسم القرش هي غبطة مصدرها شباب البلاد كله.

* * *

يستحسن الناس هذا المشروع ويتحمّسون له لأنّه ييسّر جمع مبالغ من المال لإنشاء صناعات وتغذية أعمال كلها وطنية وكلها ضرورية. وهذا صحيح. ولكنّه ليس وجه النفع الوحيد، بل هناك وجوه أخرى ليست دون ذاك أهمّية وربّما فاقته من الناحية الأدبية.

وفي طليعة كل ذلك اتّفاق الشبّان وتفاهمهم وتآلفهم وتوحّدهم من جميع الأحزاب والنزعات والميول السياسية وغير السياسية. فهم يثبتون قبل كل شيء استقلالهم الشخصي ومقدرتهم على التجرّد من كل صبغة وكل تحزّب ليكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً حيث تقضي الخدمة الوطنية بذلك. وهذا من خصائص الشخصيات الحرّة القويّة الغنيّة.

ثمّ إظهار مقدرتهم في خدمة بلادهم. فكأنّهم بالنهوض بهذا المشروع وبإنجاحه النجاح المنتظر إنّما يسبرون غور تلك المقدرة الغير المعروفة ويقدّمون منها مثالاً مبينا.

ثمّ الصفة الاجتماعية والأدبية. فالطلب ولو في أمور طفيفة، شيء عسير على الطبائع الحسّاسة وما أسرع ما تدلف لهجته إلى ناحية التذلّل أو إلى ناحية الوقاحة، وكلاهما منفّر. وقد يتّفق أن يكون الإنسان مستعداً للتلبية فيحجم نافراً من جرّاء أحد هذين أو يلبّي بدون ارتياح أو كمن يفعل آسفاً. قد يحدث هذا عندما يطلب شخص واحد من شخص واحد. فماذا تكون الحال عندما يقوم العديد من الشبّان بعرض طلبهم على عديد الناس من مختلف الأعمار والأجناس والمراتب والعقليات؟ هذا ظرف يتطلّب «فنّاً» في العرض السريع البصير مع ممارسته في تأدّب وكرامة. لأنّ الطلب فنّ كما أنّ التلبية فنّ كذلك.

وأسلحة الطلب هي النظرة والابتسامة والكلمة المنتقاة ونغمة الصوت. فليعكف المتطوّعون والمتطوّعات على معالجة هذه «الأسلحة» أمام مرآتهم. أجل، أمام المرآة. وليتقنوا الابتسامة المتحفّظة المغرية دون تعمّل. ليتقنوها حتّى تصبح بسيطة طبيعية. فتلك الابتسامة هي فنّ الفنون الاجتماعية. وذلك الفعل الصغير - فعل عرض الطابع للبيع يتطلّب جميع الصفات الاجتماعية الأدبية من دماثة ورقّة وإغراء وإرضاء مع التزام واجبات اللياقة.

ولا بأس من الإلماع إلى الشكوى التي نجمت في الماضي عن إلحاح بعض المتطوّعين. فقد سمعت تلك الشكوى بأذني من عدّة أشخاص وطنيين وأجانب، ولا بدّ أن يكون غيري قد سمعها أيضاً. ذلك أنّ بعض الإخوان بدافع يشكرون عليه لأنّه يرمي إلى إنجاح المشروع وجمع أكبر مبلغ ممكن من القروش، كانوا يكرّرون العرض مرّات على أناس سبق أن اشتروا طابعاً أو عدّة طوابع. وذلك يجب أن لا يحدث هذه المرّة. لأنّ هذه الحركة ليست وسيلة لتصريف الطوابع وحسب بل هي فرصة لظهور آداب الاجتماع وإحكام التنظيم ولطف المسعى وحسن السلوك ورقّة المعاملة في الدور الاجتماعي الذي يقوم به الفتيان والفتيات. وليذكر الإخوان والأخوات أنّ مشروعهم قومي صرف لا شأن للأجانب فيه. وهذا لا يحول دون عرض الطابع عليهم بالتأدّب

والرقّة المفروضين بل شيء من الإغراء أيضاً دون تبذّل أو إلحاح. فإذا اشترى الأجانب - وقد اشتروا كثيراً في المرّة السالفة - فالشكر واجب في لطف خاصّ. وإن لم يشتروا فالتأدّب واللطف واجبان على كل حال. لأنّي أكرّر أنّ الشباب المصري سيظهر في أتمّ آداب اللياقة لنظر الجميع ولنظر الأجانب بوجه خاصّ.

وهل لي أن أحدّث اللجان العاملة عن البيانات التي تنشرها لتوقف الجمهور على ما نظّمته ورتّبته في شأن توزيع الطابع وفي شأن الاحتفاء بالمهرجان والدعوة إلى الإقبال على كل أولئك؟ فتلك البيانات يجب أن تكون خلواً من الغلوّ ومن «الكليشهات» البيانية، سمتها الحرارة والحماسة والشباب، خالصة من ألفاظ «التضحية» وما يلتصق بها من معاني التجهّم والعبوس والفريضة. فللعبوس والواجب والتضحية ساعاتها الخطيرة. أمّا مشروع القرش فهو مشروع الشباب والفرح والبهجة. قولوا للجمهور «نريد منك قرشاً ومعه ابتسامة» بدلاً من القول «نريد تضحية ومعها قرش». اطلبوا بكلمات فتيّة تلك المليمات العشرة، مرفوعة الرأس موفورة الكرامة، كاملة غير منقوصة، يشدّ بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص..

* * *

ويستحسن جدّاً أن يلصق المصريون طابع القرش قرب طوابع البريد على الرسائل والطرود إبّان مهرجان المشروع، وحبّذا لو اشتركت في ذلك مصالح الحكومة (ولكنّها ستكون في الإجازة!) والبنوك والشركات والصحف ودوائر الاعمال العامّة والخاصّة.

ولا نريد أن يتمّ هذا بأمر رسمي من الحكومة لئلّا يصطبغ بصبغة إجبارية عابسة ويتجرّد من معناه الحلو اللطيف. بل نتمنّى أن يتمّ بدافع الاختيار والرغبة في الترويج والدعاية الأدبية. والرجاء أن يتحقّق ذلك لأنّ هذا الجمهور الكريم لا يحتاج إلى أكثر من التنبيه للأمر المستحسن ليزاوله ويقوم به راضياً.

كلّنا نحبّ هذا المشروع ونؤيّده التأييد الخليق بالهمّة التي يبذلها الشبّان لإنجاحه.

المشروعات تقوم بها عادة الشخصيات الناضجة والأفراد الموثوق بهم. وهذا المشروع تقوم به شخصيات في طور التكوّن والنضج مثبتة أنّها صاحبة كفاية وأهل للثقة.

المشروعات يدرسها أهل الطول والسلطان في جوّ الوقار والهيبة. وهذا المشروع الذي يعمل له في هدوء وتدقيق يقوم به الشبّان الذين لا سلطة لهم ولا قوّة، وينجحونه لمصلحة أهل البلاد من جميع الأعمار في جوّ من الحماسة والسرور. فهو مشروع كله ابتسام وكله حرّية وكله حبّ.

لكل مشروع لجنة محدودة. ولهذا المشروع لجنة تشمل جميع أهالي القطر. كلهم فيها عاملون وإن اختلفت صنوف العمل.

وقد أحسن جماعة العيد الاقتصادي وجماعة مشروع القرش بالتفاهم، فكلاهما يعمل من ناحيتين اثنتين لغرض واحد، والمباراة ترهف الرغبات، والمنافسة في خدمة الأوطان شرف للمتنافسين. وسيكون الإقبال على العيدين شديداً في تلك الضاحية الجميلة، ضاحية الجزيرة، التي هي في طليعة مفاتن القاهرة الفاتنة بين مختلف العواصم. تخيّم عليهما بهجة عيد الفطر المبارك ورونق العام الجديد، وتحتضن مجاليهما ذراع النيل الحنون يضمّ إلى قلبه أفراح فتيانه وفتياته وذكرى مساعيهم الحميدة في خدمة واديه السعيد..

أمّا القرش الأوّل فيطلبه الشبّان طبعاً من حضرة صاحب الجلالة. وعطف المليك على فتيانه شيء غال نفيس يضاعف من حماستهم ومن قيمة مشروعهم. فيكون قرش فؤاد الأوّل وقرش الأمير فاروق بشيرين بالنجاح العظيم.

ونجاحكم - اسمحوا، يا فتيان القرش، أن أذكر هذا - يبيّض وجهي أمام شبّان سوريا ولبنان فقد اقترحت عليهم قبل عامين بواسطة جريدة «فتى العرب» بدمشق أن ينتحلوا مشروعكم لبلادهم لينجحوا نجاحكم. وقد بدأ طلبة الطبّ والحقوق بمساعدة الفتيات يجمعون القروش. ثمّ لم أسمع عن حركتهم شيئاً. إذا هم سكتوا بسكوتكم فسيعودون مثلكم إلى إحياء المشروع في هذا العام. ويجب أن يقوم شبّان فلسطين والعراق وسائر البلاد العربية بمثل هذا المشروع. أفرأيتم مبلغ تأثيركم، أيّها الإخوان، في

بلاد إخوانكم وجيرانكم؟ إنّكم بهمّتكم وبمساعيكم تؤيّدون بلادكم في حين أنتم تخدمونها.

عاش أشبال الوادي الأخضر! وحيّ على الفلاح!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٩٨٤، ٣١ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ١ . ظهر المقال أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٨٤، ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٣٥، ص ١ .

(١) Alfred de Musset (١٨١٠ - ١٨٥٧)، أديب وشاعر فرنسي، أحد أبرز ممثّلي الرومنطيقية الفرنسية. من قصائده الأكثر شهرة *Les Nuits* (الليالي) المنشورة بين عامي ١٨٣٥ - ١٨٣٧ وهي تعبّر عن أشجانه بعد انتهاء علاقته مع الكاتبة المعروفة جورج صاند (Georges Sand) .

خواطر متناثرة

* سليل بلقيس يتكلّم
* مساعي عبد الوهّاب باشا
* أسماء وأسماء

يروى عن ملكة سبا أنّها زارت مرّة سليمان الحكيم ملك أورشليم. وكان كل من الملكين معجباً بالآخر عن بعد، يتلهّف إلى لقاء صاحبه ويرغب في امتحان فطنته وحذقه بنفسه.

وسأل الملك ضيفته عمّا تتمنّى فأجابت أنّها تودّ أن تشعر بلذّة الخوف، على شرط أن يكون بقربها صديق ينجيها من الخطر في الوقت المناسب فتشعر كذلك بلذّة الحماية. فحقّق سليمان رغبتها تلك بما أحكم عرى الألفة والمحبّة بينهما.

وسألته هي عن مشكل تساعده على حلّه. فشكا شقاءه بزوجاته التسعمائة والتسع والتسعين وما هو فيه من النكد من جرّاء تحزّب كل منهنّ ضدّ الأخرى ووفرة ما يدسسن حوله من الدسائس. وقال إنّ تلك محنة لا خلاص منها. فضحكت بلقيس ضحكتها الفتّانة وقالت: «بل الخلاص ميسور إذا جعلت زوجاتك ألفاً. لأنّ جميع الموجودات سينقلبن حزباً واحداً مكيناً ضدّ الزوجة الجديدة».

وعمل سليمان بالنصيحة بعد ذهاب بلقيس وتزوّج من ابنة فرعون فتمّ له ما أراد من حيث الراحة المنزلية، وزاد بأن اكتسب صداقة مصر والتحالف مع فرعون. ومن ثمّ ابتدأ تمازج تاريخ مصر بتاريخ فلسطين في دور من أدوار العهد القديم. هذا ما يذهب إليه نفر من مؤلّفي الروايات.

وقد أعاد إلى تلك الذكرى ما قاله القائم بأعمال المفوّضية الحبشية في روما، بإزاء حملة الصحف الإيطالية على قومه وما ترميهم به من الأوصاف التي لا مجاملة فيها.

وأضاف في دفاعه قائلاً: «وفي المذهب المسيحي مثل عن الخشبة والقذى في العين. فعلى الذين يصفون الحبشة بالهمجية وأنّها خطر على العناصر البيضاء في إفريقيا

أن يتذكّروا الاضطرابات الدموية التي وقعت في إيطاليا وإسبانيا وفي باريس أيضاً من مدّة غير طويلة».

ويلاحظ أنّ هذه الكلمة يقولها مسيحي ويقولها في روما حيث سعت الحكومة منذ عهد قريب لإبرام الصلح مع رئيس الكنيسة الكاثوليكية المسيحية في اتفاقية لاتيرانو[1]...

لست أبغي المقابلة بين نصيحة بلقيس ونصيحة القائم بأعمال المفوّضية الحبشية من حيث الظرف والموضوع، بل أريدها من حيث التوقيت والإحكام. وهما في ذلك فريدتان.

هذه الكلمة المهذّبة اللطيفة الرصينة تنسف كل ما تقوله الصحف والدبلوماسيات والحكومات تمهيداً لانتزاع بلاد الناس من أهلها...

* * *

لست ناظراً لمدرسة التجارة العليا ولا أنا طالبة في تلك المدرسة. ومع ذلك أضع توقيعي إلى جانب توقيع الأستاذ محمّد حمدي بك في الثناء على عبد الوهّاب باشا[2] للخطاب الذي وجّهه إلى مديري البنوك والشركات الأجنبية في سبيل توظيف الشبّان وتحقيق حقّ طبيعي للمصريين.

أحسن ما في ذلك الخطاب هو العناية التي أوحته رغبة في حلّ طرف من مشكل البطالة والتخفيف من محنة المتعلّمين.

غير أنّ هذه المساعي الطيّبة لا تكفي، ولو حقّقها أصحاب المصارف فوظّفوا في دوائرهم أكبر عدد ممكن من المصريين لظلّت البطالة على ما هي، لأنّ عدد العاطلين متزايد حتماً عاماً بعد عام بتزايد عدد المتخرّجين من المدارس.

عدد المتخرّجين من المدارس يتزايد عاماً بعد عام، والحلول المنتظرة من جانب الحكومة ما زالت - إلّا النادر منها - في حيّز الدرس والبحث والنيّة الصالحة.

ويلوح لي أنّ حلّ مشكل البطالة منوط أوّلاً بالأهل وبوزارة المعارف. فعلى هؤلاء أن يتفاهموا للاهتداء إلى استعداد الطالب فيلقّنوه ما هيّأته له الطبيعة من المعارف

والمعلومات، بدلاً من تكديس الطلبة «زيّ ما تجي» في أيّة مدرسة وجدوا فيها أمكنة خالية. وهذا هو الواقع الآن وفيه الخطأ الأساسي.

ثمّ تتعاون جميع الوزارات على إيجاد الأعمال والمشروعات المتوافقة وما يحصّله الشبّان من العلوم ليتمكّنوا من استثمار ما تعلّموه وأنفقوا في تحصيله الأعوام العديدة. وفي رأس قائمة المشروعات والمنشآت يجب - نظراً لطبيعة الأرض وحاجة البلاد - أن تثبت الأعمال الزراعية والصناعية والتجارية، دون أن يعني هذا إهمال الأعمال الأخرى أو الغضّ من نشاطها. فيتسنّى عندئذ توزيع مختلف الاستعدادات الفطرية على مختلف مناطق العمل، على أن يوضع كل منها في مكانه.

ومن اللغو القول إنّ مضيّ الحكومة المصرية في تقرير العلاوات للموظّفين شيء لا يغتفر في حالة عسيرة كهذه حيث ترهق الناس بالضرائب ويشقى عشرات الألوف من العاطلين، باستثناء ذوي المرتّبات الضئيلة الذين يكدّون كثيراً، فإنصافهم واجب كما هو من حسن السياسة لضبط العمل. والأموال المتجمّعة من العلاوات وحدها في عامين أو ثلاثة قد تكفي لإنشاء بعض المشروعات المفيدة التي تنجي من ورطة البطالة عدداً من الشبّان وتكون حسنة العائدة على البلاد.

* * *

قد يكون النجاح أحياناً رهين اسم جميل أو اسم شهير لبعض الناس. ولكن كم في الاسم المتشابه من باعث على الامتعاض والأسف في أحيان أخرى!

هذه ملاحظة يستطيع أن يبديها الكاتب جِرْهارت هاوبتْمَن(٣) في هذه الأيّام حيث تنقل الأنباء تفاصيل محاكمة هاوبتمن الأمريكي المتّهم بقتل طفل لِنْدبِرْغ(٤).

فجرهارت هاوبتمن من أكبر كتّاب الألمان وهو شيخ طاعن في السنّ وقد اختفى اسمه قليلاً في هذه الآونة - إلّا أن يكون قضى ونحن لا ندري.

وقد عانى من قبل كثيراً بسبب آرائه الاشتراكية. حتّى يقال إنّه كاد يفوز مرّة بجائزة نوبل للآداب لولا المعارضة العنيفة من ناحية العاهل غليوم الذي كان شديد

السخط عليه بسبب كتابه «النسّاجون»(٥). وفي هذا الكتاب وصف لحالة النسّاجين وبؤسهم ودعوة خفيّة إلى إثارة الخواطر والتمرّد بين طبقات الشعب.

وما أحرى هاوبتمن الألماني بالاكتئاب لتواري اسمه الأدبي في حين لا يتناقل الناس اسم سميّه الأمريكي إلّا للتحدّث عن جريمة شنيعة سبقها وعقبها عدّة جرائم تشين الطبيعة الإنسانية!

ولكن ألا يكون في هذه المصيبة ما يوحي إلى الكاتب رواية طريفة في الموضوع؟ لأنّ الأديب الحقّ يتغذّى من جميع العناصر....

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٣١، ٨ شباط/فبراير ١٩٣٥، ص ١ . ظهرت المقالة أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٩٠، ١١ شباط/فبراير ١٩٣٥، ص ١ .

(١) اتّفاقية لاتيرانو هي إحدى الاتّفاقيات الثلاث المبرمة في ١٩٢٩/٢/١١ بين إيطاليا (موسوليني) والكرسي الرسولي لتنظيم العلاقات بين الدولة الإيطالية والكنيسة الكاثوليكية. نصّت اتفاقية لاتيرانو ذاتها على إنشاء دولة الفاتيكان المستقلّة التي يكون البابا رئيساً لها، وبهذا ضُمنت سيادة الكرسي الرسولي في العلاقات الدولية. كما أعلن كلا الجانبين عن حلّ ما سُمّي بقضية روما وتحديد الملكية الخالصة للفاتيكان في مختلف الكنائس والقصور الواقعة في الأراضي التابعة للدولة الإيطالية بروما. أكّدت الاتّفاقية الثانية بين الكنيسة الكاثوليكية والدولة الإيطالية أنّ المذهب الكاثوليكي دين الدولة. ومن جهة أخرى كفلت الاتّفاقية المالية للكرسي الرسولي دفع تعويض مالي عن نقل أملاك الدولة البابوية السابقة إلى الدولة الإيطالية.

(٢) المقصودان هما محمّد حمدي أحمد بك، ناظر مدرسة التجارة العليا في القاهرة، وأحمد عبد الوهّاب باشا، وزير المالية المصري في ذلك الحين.

(٣) Gerhart Hauptmann (١٨٦٢ - ١٩٤٦)، الشاعر والمسرحي الألماني الذي اشتهر على وجه الخصوص بكتابة الدراما الواقعية المشبعة بالنقد الاجتماعي.

(٤) Bruno Hauptmann ، النجّار الأمريكي الألماني الأصل الذي اُتّهم عام ١٩٣٤ بخطف ابن رائد الملاحة الجوّية الأمريكية Charles August Lindbergh البالغ من العمر عشرين شهراً وقتله. حُكم عليه عام ١٩٣٥ بالإعدام على الكرسي الكهربائي.

(٥) من الصحيح أنّ هاوبتمن رُشّح لجائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٣ ولم يلق موافقة لجنة التحكيم آنذاك إلّا أنّه وعلى عكس ما ورد في النصّ فاز بجائزة نوبل عام ١٩١٢ .

صباح الخير - سامحوني!

حديث الصباح يحسن مزجه بشيء من معنى الصباح ومن الأنس والابتسام. فإن أبى الموضوع ذلك فعلى الحديث أن يحتوي شيئاً من الغذاء العقلي، أو الملاحظة الدقيقة، أو المعلومات الشائقة، أو المقارنات الطريفة، مع إلهام حبّ الحياة ولذاذة المغامرة.

وأنا في هذا الصباح أحتاج إلى الغفران لأنّي أتعمّد استثارة الكراهة العنيفة عند كل من يقرأ. لأنّ هذا الموضوع جدير بالمقت، وهو يمحق فيّ كل عذوبة ويثني شفتيّ إذ أنا أكتب ثنية المرارة والاشمئزاز.

إنّ محنة تعاطي المسكرات والإدمان عليها هي الداء الوبيل الذي يتضاءل أمامه كل داء وكل شقاء، لا فرق في ذلك بين أهل الفاقة وأهل الثراء. سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية أم قدرية، جميع الكوارث يرجى الخلاص منها، إلّا هذه الكارثة فهي تجتاح كل ما هو خير وحسن في الفطرة الإنسانية. الصحّة والذكاء والمال والكرامة جميعها فريسة يلتهمها ذلك الداء الوبيل فلا يترك مكانها إلّا الجسم المتهدّم، والبصر الكليل، والنفس المتداعية والعاطفة المتحجّرة، والعقل المختلّ، والجيب الفارغ والحقارة والذلّ.

أتتكلّمون عن نشر التعليم وإيجاد العمل لطالبي العمل وتكوين المجتمع وتنشئة أجيال جديدة؟ أين كل ذلك - لا من الحقيقة بل من الوهم العابر، مع تعاطي المسكرات والإدمان عليها؟

أتتكلّمون عن إصلاح الأسرة وتكييفها منيعة كريمة تكتمل فيها حقوق الرجل وواجباته، حقوق المرأة وواجباتها، حقوق الأبناء وواجباتهم؟ أين تلك الحالة المحيية الآمال، الجالبة السلام والرضى، مع تعاطي المسكرات والإدمان عليها؟

ألا إنّ الأماني سخرية مفجعة وهباء مع المسكر! فالمسكر يقضي على مقدرة العمل، ويمحق المال، ويقتل عزّة النفس، ويهدم أركان العائلة وأركان المجتمع معاً. إنّه يحوّل الأمّ ثكلى وولدها موجود، ويحوّل الزوجة أرملة وزوجها حيّ، ويحوّل الأبناء

أيتاماً بأوجع صنوف اليتم ووالدهم يتمرّغ في الأوحال، ويجعل علاقة الدم والنسب بين الأقارب والأنسباء علاقة علقم ولهيب!

لا تذكروا اليقظة والنهوض والتقدّم، مع الإدمان على المسكرات! لا نور في الدنيا ولا ابتهاج ولا رجاء مع تلك المحنة المعسكرة ليل نهار. والمحنة الصميمة ليست محنة السكّير المدمن في نفسه، بل هي محنة الأبرياء حوله فيه وفي ما يجلبه لهم من الآلام. هو محنة ذويه، محنة معارفه، محنة جيرانه، محنة كل من صادفه في طريقه. لا شيء ينبّه الكزازة (الكزازة المؤلمة البعيدة القرار لأنّـها تشمل القوى الحسّية والنفسية جميعاً) كمشهد السكّير. لا شيء يقطع الرجاء من الحياة، ويمحق كل جمال في الوجود، ويشلّ من العزم والشجاعة والإقدام كتبادل كلمة واحدة مع السكّير. كل آفة كائناً خطرها ما كان قد يرجى الخلاص منها ولو بتأثير الوهم، إلّا آفة السكر والإدمان فهي تصرع حتّى الوهم الجميل، وهو ثروة كبيرة.

كل كائن بشري يستحقّ العطف والرحمة في وقت من الأوقات: المجرم بالغة فظاعة جريمته ما بلغت، الطاغية العتيّ الذي يجعل العمران طعاماً للسيف والنار ويجري الدماء أنهاراً، المتعمّد الأذى في خبث ونفاق ينفث سمّه بألطف الأساليب وأعذب الابتسامات - كل من أولئك ترحمه وتعطف عليه عندما يصبح ضعيفاً عاجزاً عن البطش والإساءة. أمّـا السكّير فدائم الأذى ولا يترك لك مجالاً للعطف والرحمة، ينفّرك منه شكله وهيئته وحركاته وسكناته ونظراته وغباوته وكثافته. وينفّرك منه كلامه الذي لا تصدق منه كلمة، سواء أأرسله وهو تحت فعل الخمر أم ساقه وهو يتهيّأ لتعاطيها. لأنّ الإدمان يرجّ قيّمات الشؤون والمعاني في دماغ المدمن فلا يعود يحسّ الأمور كما هي، بل يختلقها اختلاقاً. فهو الكذّاب، الكذّاب المقتنع بأنّ كذبه صدق. ويخيّل أنّ انعكاس ظلّه يثقل على الأرض كأحمال الرصاص ومجرّد ذكراه وإن لم تره، شديدة الوطأة على النفس كأنّـها أثقال الرصاص.

لا! لا تتحدّثوا عن التقدّم مع وجود محنة السكر والإدمان! ولكن تحدّثوا عمّن عصمتهم التربية وعصمهم خلقهم من هذه المحنة فكانوا هم الرجاء! تحدّثوا عن جماعة الشبّان النجباء الذين برياسة الدكتور علي إبراهيم باشا[1] يبذلون ما في وسعهم لنشر الدعاية ضدّ الآفة ويذيعون في الجمهور وسائل محاربتها ومكافحتها!

تحدّثوا عن جمعية منع المسكرات برعاية سموّ الأمير عمر طوسون ورجالها الأماجد منذ أكثر من ثلاثين سنة يجاهدون جهاداً متواصلًا في إيمان وعناد ليرفعوا عن البلاد ظلّ هذا الكابوس الفتّاك. وكانت آخر مساعيهم العريضة التي رفعوها حديثاً إلى جلالة الملك ملتمسين فيها سنّ قانون بتحريم المسكرات. وحسب الأريحي الكريم أن يقال له: إنّ البلاد في حاجة إلى نخوتك وهمّتك.

واذكروا العناصر النسائية التي تجاهد هي أيضاً من ناحيتها وتبذل المساعي. فالمرأة هي أوّل من يشعر بنتائج السكر والإدمان فيتهدّم من جرّائها بيتها وتتزعزع كرامتها ويمحق هناؤها وتندثر آمالها، ويتشرّد أبناؤها وهي لا تدري إلى أين المصير! ومدام عازر جبران[٢] في أسيوط والسيّدة روجينا خيّاط[٣] في القاهرة والسيّدة إستر فهمي ويصا وغيرهنّ من الفضليات هنّ أركان هذه الجمعية النسوية الكريمة.

وعلى ذكر مدام عازر جبران وهي رئيسة الجماعة أقول إنّ الباري سبحانه حباها بالذكاء والهمّة والرغبة في الخير، وهي نغشة نغشة، تؤكل شَرَهاً بلا ملح ولا فلفل وبخاصّة عندما تتكلّم بلهجة الصعيد. وقد ترجمت - مع نغاشتها - كتاباً يدرّس بمدارس الغرب من ابتدائية وثانوية لإطلاع الطلبة على مضارّ المسكرات والمخدّرات من شتّى النواحي الجسدية والأخلاقية فخليق بالوزارة أن تنيل هذا الكتاب ما يستحقّه من الاهتمام فتقرّره في المدارس لينشأ الصغار والشبّان على كراهة المكيّفات والمخدّرات ويتطوّعوا جنوداً في صفوف مناهضيها. فمهما كثر المحاربون في هذه المعركة فإنّ عددهم يحتمل المزيد.

إنّ سنّ قانون بتحريم المسكرات يخيف، لأنّ طبيعة الإنسان تشوق إلى كل ممنوع. وقد سنّت بعض البلدان قانوناً من هذا النوع فانقلب ما طلبته من خير وبالاً عليها وعلى قومها. إذ صار غشّ المسكرات وتهريبها وسيلة تجارية رابحة مع إمعانها في إفساد الصحّة والأخلاق وهي تهزأ من القانون ومن المتوّلين تطبيقه.

وكانت إسبارطة في عنفوان شدّتها وازدهارها تعمد إلى طريقة فذّة في هذا الموضوع. إذ كانت الوقت بعد الوقت تجمع عدداً من العبيد في الساحة العمومية وتقدّم لهم ما يطلبون من المسكرات، على مشهد من الشبّان يتملّون من العبيد في عربدتهم

وحقارتهم بعد تأثير الخمر، فيدركون معنى الدمامة الأخلاقية المتأتّية عن المسكرات وينفرون منها ويمقتونها فلا يتعاطونها حياتهم لئلّا يهبطوا إلى تلك الدركة من الدمامة الحسّية والأدبية.

لم يكن في ذلك شيء من الإنسانية نحو العبيد. أمّا في عصرنا فلدينا مساعي الجمعيات مع إيضاحات الكتب وحملات الصحافة، فكلها يجب أن لا تتوانى ولا تكلّ وإن كان العمل شاقّاً. ولدينا السينما التي لم تستغلّها الحكومات من هذه الناحية قدر المستطاع، مع أنّها قد تكون شديدة الأثر إذا هي عرضت على الجماهير مشاهد كمشاهد إسبارطة.

أرأيتم كيف أنّي في هذا الصباح أستحقّ الغفران حقّاً؟ وأمضي في الطمع فأعيّن نوع الغفران الذي أطلبه متمنّية أن يحسّ القارئ إحساساً عميقاً بكراهة المسكر وأن يحمل غيره ممّن في دائرة نفوذه على كراهة المسكر كراهة عميقة.

يظهر أنّ هذا هو نوع من الغفران قد تطلبه المرأة أحياناً..

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٤٠، ١٧ شباط/فبراير ١٩٣٥، ص ١ .

(١) علي إبراهيم باشا (١٨٨٠ – ١٩٤٧)، أحد أكبر الجرّاحين المصريين في عصره. تخرّج في مدرسة القصر العيني وحصل على الدكتوراه عام ١٩٠١ . كان أول مصري يتولّى عمادة كلّية الطبّ عام ١٩٢٩ حتّى عام ١٩٤٠، كما رأس الجمعية الطبّية المصرية. عُيّن وزيراً للصحّة عام ١٩٤٠ فمديراً للجامعة المصرية عام ١٩٤١ لمدّة خمس سنوات. عُني كثيراً بالفنّ والأدب وكان وثيق الصلة بالأدباء والشعراء فأصبح عام ١٩٤٠ أوّل طبيب ينال عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة.

(٢) لم يمكنّي الاستدلال على هويّة هذا الشخص.

(٣) روجينا حبيب خيّاط (١٨٨٨ – ؟)، ابنة ويصا بقطر ويصا أحد كبار ملّاك الأراضي الأقباط في أسيوط. كانت من بين الأعضاء المؤسّسين للجنة الوفد المركزية للسيّدات عام ١٩٢٠ وللاتّحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣، وعملت في العديد من الجمعيات الخيرية. كما أنشأت عام ١٩٢٦ فرعاً للجمعية المسيحية للشابّات في القاهرة رأسته حتّى عام ١٩٤٢ .

أنفس النفائس في حضارة مصر وفي صعيد مصر

كتب إليّ أديب غربي كان قد زار مصر وتملّى من القديم والجديد في روحها، فقال إنّ الصعيد أروع بقعة فيها. فكتبت إليه أنّ هذا الرأي شائع لا يكشف عن فكرته الشخصية التي أرغب في معرفتها ومعرفة المشهد أو الهيكل أو التمثال الذي كان أوقع في نفسه وأبقى أثراً. فأجاب بجملة لا شكّ أنّها تثير عند كل قارئ نشوة مثلما أثارت عندي:

«أجمل ما رأيت في الصعيد الجميل هو عيون الأطفال المصريين. وأبقى صورة عندي من مصر هي صورة الحضارة كلها وقد «تلخّصت» في عيون الأطفال. لقد كانت تلك الأحداق القاتمة تجتذبني إلى هاويتها المتشعّعة بسحيق الأضواء فأهيم فيها طويلاً حتّى لأنسى حاجة تلك العيون وتلك الوجوه إلى النظافة».

في كل ما سمعت وقرأت عن الحضارة المصرية لم أقع على وصف أبلغ من هذا وأجمل. والنقد المتّصل بالوصف لا يغضب لأنّه جاء عفواً ولم يتعمّده صاحبه. ولا ينطبق هذا النقد على الأطفال الذين حبتهم الحياة بالأهل المثقّفين المدركين أهمّية واجبهم، إلّا أنّه ينطبق على كثرة الأطفال الذين نراهم في كل مكان.

انظر إليهم من مختلف الأعمار تجد أنّ تلك الوجوه السمراء المشويّة تنمّ على ذكاء وتوقّد، وترَ حركات الأعضاء متوثّبة رشيقة بطبيعتها، والجسد كله طروباً على استعداد للاتّزان في الرشاقة، وتسمع الألفاظ ترسلها الشفاه عذبة النطق ظريفة اللهجة - حتّى ساعة يعوزها التهذيب. غير أنّك تدرك لأوّل نظرة حاجة الأطفال إلى النظافة. والنظافة أظهر مظاهر التربية وألزم لوازم الصحّة والوقاية والتهذيب واللياقة والذوق والجمال.

* * *

لقد أعرب الجمهور عن ابتهاجه بكل حركة قامت بها جماعات الشبّان في سبيل الخدمة العامّة اجتماعية كانت أم أدبية أم اقتصادية، معتقداً أنّ مثل تلك الحركات مزدوجة الجدوى لأنّها ترمي إلى غاية صالحة ولأنّها تدلّ على تفكير الشبّان في أنّ العمل مفروض عليهم فيخرجون بالمسعى من شخصياتهم المحدودة وأنانيتهم الفردية إلى شخصية المجتمع الكبرى وإلى الغيرية الرحيبة الشاملة. وهذه اليقظة المتعدّدة النواحي التي نراها كل يوم مترامية بصورة طريفة ما زالت - مع الأسف الشديد - مشوّلة من ناحية العناية بالطفل. باستثناء الأقلّية من الذين يتربّون التربية المطلوبة في منازلهم وفي رياض الأطفال، يمكن القول إنّ الطفل المصري ندر المفكّرون فيه بوجه عامّ.

لست أنسى المستوصفات الخيرية التي تداوي الطفل المريض وترشد والدته إلى وسائل المعالجة والوقاية وتعلّمها ما تيسّر من مبادئ النظافة وحفظ الصحّة. ولكن كم هو عدد تلك المستوصفات ليس في القطر المصري، بل في القاهرة وحدها؟ كان فولتير الشرير يقول إنّ الأرقام تكشف العيوب أحيانًا فجهلها خير في بعض المواقف. فلنقل نحن إنّ عندنا مستوصفات والسلام، وللمغرم بالإحصاء أن يجري وراء التعداد ثمّ يأتي فيصدقنا الخبر.

وعلام الانتظار حتّى يمرض الطفل؟ علام كل هذه الأقذار على الوجوه الجذّابة الطاهرة، وفي العيون الجميلة البعيدة الغور، وفي الأعضاء التي جعلتها طبيعة الأرض ووراثة النشاط حسنة التكوين خفيفة الحركة؟ وإذا كانت الأجساد على هذه الحاجة إلى النظافة فماذا ترى تكون حاجة تلك النفوس إلى الترتيب والتنشئة والتدريب؟ جميع الشعوب تبذل الآن عناية خاصّة في سبيل الطفل فعلام هذا الإغفال في مصر ومصر أحوج من سائر البلدان إلى الاهتمام بذراريها الجديدة؟ جميع الشعوب تتفرّغ لبحث كل شأن من شؤون الطفل الحسّية والأدبية فعلام لا نفكّر نحن بمثل ذلك؟

أسئلة عديدة تبادلها بلا ريب جماعة من الشبّان فردّوا عليها بتنظيم أسبوع للدعاية إلى تربية الطفل، إلى تذكير الجمهور بواجباته، إلى مخاطبة الأمّهات كل يوم طيلة الأسبوع بواسطة أقلام الاختصاصيين فيفضي كل منهم بما لديه من علم واختبار ورأي في موضوع الطفل المصري لمعالجة عيوبه وتكوين شخصيته وإعداده لمواجهة

الحياة. ولست أبغي المكابرة والمباهاة إذا ذكرت أنّ أقلام الباحثات في هذا الأسبوع ليست دون أقلام الباحثين عدداً...

قليل ما أعرف عن الجماعة التي تستحقّ كل الشكر وكل الثناء على فكرتها هذه. وأهمّ ما أعرفه هو ما سمعته من فم بعض أعضائها في الحفلة التي أقاموها في العام الماضي بقاعة الجمعية الجغرافية حيث بسطوا للجمهور أغراضهم وآمالهم.

تلك الجماعة اتّخذت لنفسها اسماً شاقّ المدلول شاقّ الواجب «الروّاد». جماعة لا رئيس فيها ولا مرؤوس، لا كبير عندها ولا صغير، لا أسماء لأعضائها ولا ألقاب. فئة من ذوي الهمّة والثقافة يعملون في الأحياء الفقيرة البائسة باحثين عن أكثر الأفراد احتياجاً إلى التعليم والنظافة والنور.

فئة من الشبّان هم خصوصاً من أهل الإقدام والشجاعة والاحتمال يتناولون البائسين ليرفعوا بهم شيئاً فشيئاً إلى حيث معنى الكرامة والإنسانية. لا يعلّمونهم بواسطة المعلّمين والأعوان والمساعدين بل على كل منهم أن يبذل من وقته وصبره وعلمه. على كل منهم أن يخدم بنفسه راضياً بأن يكون مجهولاً لا اسم له غير اسم الرائد، ولا فخر له غير فخر الرائد، ولا غاية له غير غاية الرائد. فلئن كان بين الناس من يظنّون أنّ اكتشاف بقعة من الأرض كائناً غناها ما كان أهمّ من اكتشاف نفس إنسانية فأولئك الناس ينسون أنّ الشعب هو البحر الزاخر وأنّ هاوية الشعب هي التي تخرج أفذاذ الشخصيات وأنّ شخصية واحدة اهتدت إليها يد الغوّاص الماهر لأجدى على البلاد وأكرم عائدة من مساحة دولة بأسرها أحياناً.

هنيئاً للروّاد بهمّتهم واحتمالهم وتضحيتهم وهنيئاً لهم فطنتهم فقد اهتدوا إلى وسيلة فعّالة لخدمة وطنهم. إنّ مهمّتهم عسيرة ولكنّ المجد الحقّ على قدر المشقّة والاحتمال. أمّا تفكيرهم بالأطفال فهو عنوان جميل لصفحة أعمالهم الجميلة. ولا شكّ أنّ الجمهور سيتّبع هذه الأبحاث بما تستحقّ من العناية فيستفيد منها ويحقّق هذه الاستفادة في معالجة التحفة الإنسانية الفريدة التي أودعته إيّاها يد الرحمن - الأطفال.

إنّ هؤلاء الصغار هم كل آمال البلاد وبين أيديهم الليّنة وديعة الحاضر كما حوت أحداقهم الجميلة صورة من كنوز الماضي. هؤلاء هم خلاصة الذراري والأنسال

الذين انتهى إليهم قبس الحياة منتقلاً إلى الآباء عن الأجداد، وعلى الصغار أن يرفعوه في الغد مشعالاً ومنارة وأن ينقلوه بدورهم إلى الآتين بعدهم.

لو لم تكن مصر إلّا ماضياً عظيماً لكانت متحفاً فقط وكان التحدّث عنها لا يليق إلّا بعلماء الآثار. ولكنّ مصر حياة حيّة ازدهرت وأينعت غير مرّة على كرّ الأحقاب. وها هي ذي مقبلة على ازدهار جديد بعضه أخذ في التحقيق[1] والبعض الآخر ما زال حيوية كامنة وثروة مكنونة عند هؤلاء الأطفال.

كل أريحية الزعماء، وكل مفاداة الشهداء، وكل حماسة الشبّان، وكل رغبات النساء، وكل الآمال والأخيلة المراودة خواطر المبدعين والأفذاذ، وجهود كل عامل كائناً ما كان نوع عمله، كل شيء يتجمّع اليوم في هذا الجيل الغضّ. حتّى يأس الذين فشلت آمالهم، وجرحت قلوبهم، وصرعت جهودهم وأشواقهم - كل ذلك ينتهي إلى الصغار الذين قد يستخرجون غداً حتّى من الألم واليأس وقوداً للقوّة والمناعة فيستأنفون الجهاد بيد قويّة وعزم وثبات، وعلى التربية أن تهيّئهم لذلك.

يا أطفال مصر! وددت لأتحدّث عنكم أن أغمس قلمي بألوان قوس السحاب وأمسحه على جناح فراشة الروض فيخطّ الكلمات الخليقة بكم وبكل ما تعلّقه البلاد عليكم من الرجاء!

ويا أمّهات الأطفال! أنتنّ أقدر قدرة في مصر! وددت لو أنّ في إمكاني أن أسهب في شرح هذه الكلمة لأرهف فيكنّ العناية بهذه الثروة الفريدة التي تحنو عليها قلوبكنّ! ولكنّ هذه المهمّة سيقوم بها أهل الجدارة من رجال ونساء. وأنا أعلم أنّ قلوبكنّ ستصغي وأنّ إرادتكنّ ستعمل لتحقيق ما استفدتنّ به من هذه الأبحاث.

وإذا ما أصغت قلوب النساء وعملت إرادة الأمّهات - فعندئذ بشّر البلاد بالفلاح!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٥٣، ٢ آذار/مارس ١٩٣٥، ص ١ . أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٩٣، ٤ آذار/مارس ١٩٣٥، ص ١ .

(١) هكذا في الأصل، ولعلّ المقصود «التحقّق».

خواطر متناثرة

* جوّ العيد وأصوات الصغار
* ذكريات تثيرها الأسماء والتواريخ
* أخذ الشبّان بعادة تنظيم الأسابيع

«جوّ» الأعياد شيء يحسّه بعض الناس إحساساً جليًّا، مؤكّدين أنّه يزيد في سعادة السعيد ويحفز السرور في كل نفس ليس عندها ما يدعوها إلى الاكتئاب، بينا هو يرهف حزن الحزين ويكشف له أسباباً جديدة للألم. أمّا وليم ووكر أتكنسن[1] الذي يزعم أنّ «الأفكار أشياء» محسوسة، فهو يثبت بطريقته العلمية الروحانية أنّ «الأجواء» التي نحسبها عادة من منتجات الوهم والخيال إنّما هي مجموعة آثار محسوسة من مادّة أشفّ من المادّة الكثيفة التي ألفناها، وأنّ تلك الآثار تبقى زمناً طويلاً بعد فناء العين التي سبّبتها، كما يبقى عطر الزهرة متضوّعاً بعد اندثار الزهرة بأعوام أحياناً - ومجموعتها تكون ما نسمّيه «جوّاً». وعنده أنّ وجود تلك الأجواء يتماسك ويتقوّى ويتركّز بإحياء الذكريات التي سبّبتها إحياءً دورياً المرّة بعد الأخرى.

ومهما يكن من صحّة هذا الظنّ أو من خطأه - فإنّي أتخيّل جوّ العيد خالياً من عنصر هامّ لو هو فقد أصوات الفرح التي يرسلها الأطفال.

إنّهم وحدهم ينعمون بالرغد صافياً لا تشوبه كدرة. وقد يكون الفقراء منهم أقرب إلى صادق الرغد من الأغنياء أو ممّن هم في حكم هؤلاء بتربيتهم ورفاهيتهم العقلية وطريقة معيشتهم. لماذا؟ قد يكون لأنّهم أقرب إلى الاتّصال والتفاهم فيما بينهم وأبعد من أن يستسلموا للوحدة النسبية المفروضة على أبناء الأغنياء. وقد يكون لأنّ الحياة إذا هي منحت باليد الواحدة فلا بدّ أن تسلب باليد الأخرى. وقد يكون لأنّ الفقراء يسرّون بما لا يحفل به الأغنياء في الغالب وأنّهم أقلّ طمعاً أو أقلّ تفنّناً في الطمع. والطمع يقتل أسباب السعادة عند الكبير والصغير على السواء.

هؤلاء الصغار لا يطلبون شيئاً ليكونوا سعداء بل هم الذين يخلقون السعادة وينثرونها في أحياء المدينة. لا حاجة بهم إلى الأوركسترة والتلحين ليطربوا، إنّ لهم من حناجرهم وكفوفهم أدوات للإنشاد والعزيف والنغم. كله يتلخّص عندهم في كلمة أو جملة يكرّرونها ويردّدونها في حداء واحد ونفس واحد ساعات متعدّدة. وهم أبعد ما يكونون عن الأثرة وعن الاقتصار على جماعاتهم وأشخاصهم. أنصار وحدة الوجود على طريقة علمية ودينية منظّمة ليسوا في براعة الصغار من حيث إشراك الحيوان والنبات والزهر في ابتهاجهم وتشعّع حيويتهم.

الثوب كائناً ثمنه ما كان - على شرط أن يكون زاهياً - هو حلّة العيد. وهل من إيوان يوازي عربة «الكارّو» إذ يعسكرون عليها في ازدحام لذيذ؟ وهل من سيارة ميكانيكية أو سيّار فلكي يوازي الحمار الأليف إذ هو ينطلق بخفّة ورشاقة إلى حيث يريدونه أن يجري، وكأنّه شاعر بأهمّية الدور الذي يقوم به لإتمام فرح الأطفال في العيد؟ وها هي ذي الغصون الخضراء وأحزمة النباتات ترقص مع الراقصين منهم فوق عرش «الكارّو» والدنيا كلها لأجل الصغار وبفضل الصغار مهرجان فرح وهناء.

هؤلاء يستفيدون من العيد أكثر من أولئك الذين يحتفون به داخل الجدران أو في الأندية العامّة ودور اللهو والتسلية أو حتّى في الخلاء وقد حملوا معهم قلوباً وعقولاً نسجت عليها هموم الحياة ومشاغلها مثل نسج العنكبوت.

يشدو الصغار فيسيرون بنا إلى عوالم بعيدة لا ندري أهي وهمية أم حقيقية، ولكنّنا نكاد نلمس فيها المكان الذي سينبثق منه الفجر الآتي والحدّ الذي ستبتدئ عنده السبل الجديدة.

ومنذا الذي يدري؟ أعوام قلائل تنقضي وقد يخرج من هؤلاء الصغار الزعماء والقوّاد والساسة والمدبّرون والعلماء والشعراء فيستأنفون عمل الذين سبقوهم ويصبحون بدورهم الأمناء على مصالح البلاد وحظوظها وأقدارها. وقد يرجع الواحد منهم، وهو يومئذ في أوج مجده، إلى ذكريات هذه الأيّام في طفولته إذ كان يطرب ويحدو بالاشتراك مع أبناء جيله أطفالاً كانوا أم حيواناً أم نباتاً أم زهراً... فيغمر قلبه

الحنين ويستدرّ من هذه الذكريات الحلوة قوّة تمكّنه من القيام بواجبه الشاقّ. إنّ هذه الطفولة مكمن الأسرار ومستودع جميع القوى...

* * *

من ألصق الذكريات التاريخية العالمية بمنتصف شهر مارس ذكرى موت يوليوس قيصر الذي اغتاله شيوخ السناتو[٢] الروماني مكافأة له على انتصاراته وفتوحاته أو قضاءً على نفوذه الديكتاتوري الذي كان قد بلغ الذروة... وفي رواية كليوباترا التي رأيناها أخيراً في دور السينما حيث كانت مشاهد البناء والزينة والترف في أصدق مظاهرها، كانت الشخصيات الممثّلة مفتعلة وضعيفة وغير منطبقة على حقيقة الأشخاص التاريخية. كليوباترا كانت تصلح راقصة ومغنّية في الطبقة الثالثة. وأنطونيو الذي عشقناه كلنا نحن اللاتي قرأنا قصّته ولو مرّة واحدة فوددنا يوماً ما أن نموت فداءً له – أنطونيو المسكين كان مخلوقاً يصلح أن يركل بالقدم. أمّا قيصر فكان إنساناً لا يحتمل في تلك الرواية. وأحسن تلك المشاهد كلها كان مشهد اغتياله وأحسن نبرة بين هاتيك النبرات هي صيحته المنتحبة: «وأنت أيضاً، يا بروتو!» عندما هوى يجهز عليه خنجر ذاك الذي كان ربيب نعمته وصديقه.

وخلال الثورة اليونانية في الأيّام السالفة وردت في الأنباء أسماء بلدان وأنهار وأمكنة ملأت سجلّات التاريخ وقد أحاطت بها هالة العظمة والرواء. وآخر تلك الأسماء التي قرأتها اسم سلامينا. وسلامينا هي الجزيرة التي كانت ميداناً لانتصار الأسطول اليوناني في الحرب «الميدية» منذ القرن الخامس قبل الميلاد. ولا يذكر الأسطول اليوناني القديم إلّا ويذكر معه اسم ثِمِسْتُوكْلِيس الذي حمل أبناء بلاده على تكوين الأسطول كما كانت له اليد الطولى في إشادة مرفأ بيريا وتكوين عظمة أثينا. ولم تكن حياة ثمستوكليس في نهايتها لتفضل حياة قيصر مع أنّه قاد الأسطول إلى ذلك النصر الحاسم بعد الانكسار المفجع، انكسار حدا بحاكم كُورِنْثُس إلى إسكات ثميستوكليس عندما كان يبسط آراءه في مؤتمر قوّاد الإغريق وزعمائهم، فقال الحاكم: «وكيف نصغي إلى رجل لم يبق له وطن؟». فأجاب ثميستوكليس: «وطننا هو المائتا

سفينة التي يركبها مواطنونا، وهو أقدر من وطنك المستقرّ على الأرض!» فكانت هذه الكلمة المجيدة نواة الاستبسال والانتصار للأثينيين.

* * *

الوطن! أيّ اسم يستثير مثله ضروب الشجاعة وعواطف التضحية والحبّ؟ باسم هذه الذخيرة الغالية يتحفّز اليوم شبّان مصر للنهوض مستجمعين لخدمته القوى الحسّية والأدبية متلمّسين في سبيل وقايته وتحسينه وسائل العمل.

لأجله قام الشبّان ينظّمون «الأسابيع» المجدية في مختلف النواحي ويصرفون همّتهم ومساعيهم مدركين أنّ العطاء أهمّ من الأخذ وأغنى، وشاعرين بأهمّية تأثيرهم كأفراد مستنيرين وسط المجموع الذي يحتاج إلى من ينيره ويخدمه.

جميل حقّاً أن يستطيع الفرد أن يقول لنفسه صادقاً: «إنّي شيء قليل. ما أنا إلّا فرد يحتاج إلى الآخرين في كل أمر من أموره. ولكنّي أستطيع أن أكون عنصراً فعّالاً للخير في وسطي، وها أنا أباشر العمل منذ زمن الدراسة».

لنا عند «الروّاد» رجاء، وهو أن لا يهملوا أسبوع الطفل في المستقبل. كان أسبوعهم بداية صالحة في هذا العام ولكنّهم يستطيعون توسيع عملهم فيه في العام المقبل فيجعلونه ذا أثر مباشر ليس لدى الذين يقرأون فقط بل لدى الأمّيين خصوصاً.

وأمّا أسبوع طلبة الطبّ فجاء تابعاً طبيعياً لأسبوع الطفل، وقد عرف الشبّان كيف يجمعون من السادة الأطبّاء طاقة «ناجعة» من الموضوعات لعدد «الأهرام» في صباح العيد. وكانت صورتا الدكتور شاهين باشا[٣] والدكتور علي إبراهيم باشا بشير خير في مطلع الملحق، كأنّ كلاً من كبير أطبّائنا وكبير جرّاحينا يقول لنا نحن الجمهور بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن زملائه: «لا تخشوا مرضاً ولا ترهبوا داءً. فأنا موجود. أطيعوني تأمنوا!».

ولرسل باشا[٤] أن يسجّل في قائمته اسمي وإلى جانبه علامة «حسن جدّاً»، فقد صنعت الشاي بيدي بالأمس على الطريقة التي وصفها وقال الذين شربوها هنا إنّها «كويّسة قوي».

يسرّنا جدّاً أن يدرك طلبة الطبّ منذ الآن أهمّية عملهم في بلادهم وكل ما ينتظر منهم في الغد لصحّة الجمهور ولخيره وهنائه. الصحّة أعظم النعم في الحياة وكل نعمة فردية أو قومية تأتي بعدها. والطبيب الصالح الذكيّ أوّل من يحتاج إليه الأفراد والأقوام، والطبيب بواقع وظيفته وأثره محسن أو مسيء ولا يستطيع أن يكون يوماً بين بين.

والطبّ الذي هو علم وفنّ في آن واحد كان من أميز ما امتازت به مصر في ازدهارها السحيق وكان الطبيب ثلاثي القدرات عند قدماء المصريين لأنّه كان طبيباً وكاهناً وساحراً في آن واحد.

وسحر الطبيب والكاهن هو السحر الأبيض أو السحر الحلال، أمّا المشعوذون والدجّالون فهم ممارسو السحر الأسود أو السحر الحرام، حتّى في أيّامنا هذه. وهل العلم والفنّ إلّا سحر حلال؟ فمن البديهي أن ينتبه شبّان اليوم إلى ميزة بلادهم العريقة وأن يعالجوها بهمّتهم الفتيّة ليرقوا بها إلى أعلى مكانة ممكنة.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٦٧، ١٧ آذار/مارس ١٩٣٥، ص ١ .

(١) William Walker Atkinson (١٨٦٢ - ١٩٣٢)، محام وكاتب أمريكي، أصدر عدداً من المجلّات في شيكاغو، ومن بينها *New Thought* (الفكر الجديد) ١٩٠١ - ١٩٠٥ و *Advanced Thought* (الفكر المتقدّم) ١٩١٦ - ١٩١٩ . ألّف العديد من الأعمال لا سيّما عن حركة الفكر الجديد (New Thought Movement) التي تأسّست عام ١٨٤٣ في أمريكا وامتدّت إلى كثير من البلدان الأخرى منذ ١٨٩٠، كما تناول في كتاباته علم النفس والفلسفة الهندية.

(٢) مأخوذة عن الإيطالية ومعناها: مجلس الشيوخ.

(٣) د. محمّد شاهين باشا (١٨٨٧ - ١٩٥٣)، من روّاد الطبّ في مصر، تخصّص في علاج الأمراض الباطنية. كان الطبيب الخاصّ للملك فؤاد ومدير عامّ الصحّة العمومية.

(٤) Sir Thomas Wentworth Russell Pasha (١٨٧٩ - ١٩٥٤)، حكمدار القاهرة ١٩١٧ - ١٩٤٦، آخر إنجليزي يتولّى هذا المنصب في مصر. بذل أقصى جهده في سبيل محاربة إدمان المخدّرات وخاصّة بعد تعيينه مديراً لدائرة الاستخبارات المركزية للمخدّرات عام ١٩٢٩، فذهبت السلطات المصرية تحت إشرافه إلى حدّ إغلاق مقاه ومحلّات للشاي لمنع المصريين من شرب الشاي «المغليّ» بكميّات قادرة على أن تؤدّي إلى التسمّم.

خواطر متناثرة

* على ذكرى سمكة أبريل
* الصحافة المصرية ترشقنا بسمكة أبريل
* إضراب الشمس خمس مرّات هذه السنة

تحيّة، يا أوّل أبريل، يا موسم الأكذوبة التقليدية المشروعة! إنّ خاصّتك هذه آخذة في التلاشي، لأنّ للعادات نفسها - كما لكل كائن حيّ - أطواراً محتومة من الطفولة والنضج والشيخوخة تنتهي بالموت، لتفسح المجال لغيرها من العادات والأساليب.

ستطوى هذه العادة دون أن يكون الناس على جليّة من أمرها. منذا الذي أوجدها؟ ولماذا وجدت؟ وما هو مصدرها؟ التأويلات كثيرة، أمّا الجواب الحاسم المقنع فمفقود. وهذا شأن العديد من الموضوعات والعادات. وعلام لا نقول إنّه شأن كل ما احتوته الحياة البشرية؟

أصحيح أنّ الناس اليوم يصطنعون الكذب للكذب، على نحو اصطناع بعضهم الفنّ للفنّ؟ أم لنا دائماً من وراء الكذب مصلحة ولو مضمرة؟ أم صدق القائلون باحتياجنا إلى الكذب احتياجاً لم نكتنه إلى الآن كل غوره، فجعلنا الكذب حلالاً يوماً من أيّام العام لنفرّج ولو مرّة واحدة عن احتياجنا ذاك في حرّية مشروعة؟

ظلمناك، يا أوّل أبريل! فأكاذيبك الرسمية على نوع ما، أخفّ وطأة وأقلّ ضرراً من كل أكذوبة سواها! كل يوم من أيّامنا أوّل أبريل، يا أوّل أبريل! لقد شاع حولنا الكذب وشاع كذبنا في تصديق الكذب حتّى صارت حياتنا كلها مفجعة هزلية في مغالطتنا لنفسنا. وعلام جعلوك أنت محلّل تلك الأكذوبة؟ علام لم يعيّنوا لذلك شهراً آخر في أوّله أو في منتصفه أو في أيّ يوم من أيّامه؟ وعلام جعلوا رمز الكذب فيك سمكة؟ ألأنّ السمكة تموت لو هي خرجت من جوّ البحر والماء كما تموت بعض مظاهرنا الاجتماعية لو نحن خرجنا من جوّ الكذب والافتراء؟ أم لأنّ السمكة صمّاء وأنّ الكذب أقدر وأفعل في السكوت منه في الكلام؟

كل هذا كلم في كلم! ليس بيننا من يعرف سرّك، وسنذكرك بعد اضمحلال امتيازك ويذكرك الآتون بعدنا كيوم جميل جاز فيه تفخيم الوهم وابتداع الافتراءات لمحض اللهو والتفلّت من المحظورات، يوم ربيعي فيه كانت الحياة طليقة من قيودها احتفاءً بازدهار الوجود وبتجلّي الأرض العروس!

* * *

بعض صحف الغرب - وقد قلّدتها في ذلك بعض صحف الشرق - ما زالت تفاجئ قرّاءها في أوّل أبريل بخبر غير منتظر يغضب أو يسرّ ولكنّه على كل حال يثير الدهشة في الجمهور يوماً كاملاً. وتعود الصحف فتقول في الغد إنّ القرّاء لم يذكروا تاريخ اليوم الذي ظهر فيه الخبر... وفي ذلك البيان الشافي.

أمّا الصحافة المصرية فقد عكفت هذه المرّة يومين اثنين على تهيئة سمكة أبريل فنشر كثير من الصحف في ٣٠ و ٣١ مارس الخبر المعلن أنّ أربعة آلاف من العمّال المصريين سيتوجّهون في الأسبوع الأوّل من أبريل للعمل في تمهيد الطريق بين الأريترية والحبشة، أربعة آلاف يتبعهم بعد أيّام قلائل ثلاثة آلاف آخرون فيكون المجموع، إذا أفلحت في ضبط الحساب، سبعة آلاف من المصريين يعملون لمصلحة غير المصريين. فيكونون تحت رحمتهم في جميع شؤونهم وكلها حيوية ولا يكون لهم من ملجأ رسمي لحين الحاجة يمثّل حكومتهم ويمثّل بلادهم ويعنى بهم كما يجب أن يعنى المواطن بمواطنه في الساعة العصيبة.

وتقول الصحف إنّ الحكومة المصرية حصلت على تعهّد يضمن لهؤلاء العمّال أن يكونوا خارجين عن منطقة الخطر. سبحان اللّه، يا سادتي! ومنذا الذي يستطيع أن يضمن تحديد مناطق الخطر أو ما يدانيها في حالة الحرب أو في حالة السلم الملامسة الحرب؟ أتعهّدات؟ أضمانات؟ إنّنا نغوص الآن ومنذ أعوام في يمّ من تمزيق المعاهدات وإنكار الضمانات. والحكومات تفاخر بذلك وتقدّم له تعليلات وتأويلات يرضى بها أو يتظاهر بالرضى عنها والسكوت عليها أصلب الناس عوداً في نواح أخرى. فكيف تكتفي بها الحكومة المصرية فتفرّط في سبعة آلاف بل في فرد واحد من أبناء وطنها؟ إنّ المسألة مسألة واجب لا مسألة أرقام، والواحد في هذا الموقف لا يختلف عن الملايين

أهمّية. وها نحن أولاء نرى كيف أنّ أسباب الحروب تستخرج من جرح أفراد أو قتل فرد فتتلاحم الشعوب باسم الكرامة والحرص على شرف الاسم... كائناً ما كان مبلغ الصدق من هذه المزاعم.

كل ما في هذا الخبر يدلّ على أنّه سمكة لا يتفكّه الجمهور بها ولا يشكر الصحافة عليها. وكان أجدر بالصحافة أن تقدّم لنا سمكة أبريل من نوع آخر، كأن تقول مثلاً إنّ بعض العمّال الأجانب الذين يشتغلون في إنشاء الخزّانات التي تنفق عليها الحكومة المصرية قد حلّ محلّهم عمّال مصريون لأنّ أولئك مضوا يمهّدون الطرق التي لحكوماتهم مصلحة في تمهيدها. فأهل العمل أحرى بتولّي أعمالهم من الآخرين. وقد كانت هذه السمكة تجيء مصدر وحي صالح.

* * *

كتب أفلاطون على باب مدرسته: «لا يدخل هنا إلّا الملمّ بالعلوم الرياضية والهندسية» لاعتقاده أنّ العقل المتخرّج على هذه العلوم يكون معدّاً لتركيز قياساته وتعليلاته على قواعد متينة حتّى في الموضوعات النظرية والاجتماعية والأدبية.

نقول هذا بمناسبة إعلان علماء الفلك أنّ الشمس ستكسف خمس مرّات خلال عامنا الشمسي هذا، وهو أمر لم يقع منذ منتصف القرن الثالث عشر وسيقع على قولهم بعد مرور أربعة قرون وبعض القرن من يومنا هذا.

كثيراً ما يكذب المنجّمون، فيما يرى غير المنجّمين. بيد أنّ القرائن تدلّ على هذا الاتّفاق الغريب: وهو أنّ كسوف الشمس كان دائماً في التاريخ حليفَ خطير الحوادث على الكرة الأرضية ونذيراً بكثير من الحروب والمصائب. فماذا يكون من الأمر إذا تكرّر الخسوف خمس مرّات في عام واحد؟ وعلى ذلك لا نستكثر شيئاً من المحن والويلات التي تهدّدنا بها الأنباء التلغرافية كل يوم، مقبلة من مختلف أنحاء العالم.

الحرب، الحرب! ومع الحرب كل ما يلازمها ويتبعها من الشقاء والاضطراب لكثرة الناس الغالب والمغلوب منهم على السواء، وكل ما يلازمها ويتبعها من النعمة والعظمة لبعضهم. وقبل الحرب وخلالها وبعدها بحر عرمرم من التلفيق والافتراء

وتشويه الوقائع والمعاني من كل صوب ومن كل بقعة. وكل الزمن الذي تقضّى منذ يوم الهدنة لم يعمل فيه الجميع إلّا لإعداد هذه الحرب التي نكاد نلمح طلائعها.

كانت تدري ذلك الشبيبة في جميع أنحاء العالم فانصرفت إلى اللهو والمتعة والسرور لعلمها بأنّها ستكون عمّا قريب طعاماً للنار، وانصرفت عن حياة الكدّ والغمّ لعلمها بأنّ ساعات الأنس في عمرها معدودة. وأضربت عن الزواج كيلا تكون سبباً لمثل الشقاء الذي ينتظرها في حياة الآتين بعدها. وكأنها بإضرابها عن الزواج وباستسلامها للهو في انتظار الحرب تقول بلسان المعرّي دون أن تعرف لغته وشعره:

هذا جناه أبي عليّ   وما جنيت على أحد

أمّا الشعوب التي تعرف المعرّي وتتداول لغته فهي تعنى بأخبار الحرب بين الدول، وبراعتها في تفسير تلك الأخبار وتأويلها براعة تنمّ على ذكائها الفطري وعلى علمها المكتسب. أمّا وجه العجب في كل ذلك ففي كون هذه الشعوب الشرقية قليلاً ما تفكّر في نفسها وفي المصير الذي ينتظر كلاً منها كبعض نتائج الحرب. بينما الشعوب الأخرى تستعدّ وتتسلّح وتتقوّى، الشعوب الشرقية تتفلسف وتتشعّب وتضعف حيال هذه الدول أو تلك، دون أن تجهل حاجتها في حياتها، ودون أن تنسى المذلّة التي تنتظرها أيّاً كان الغالب وأيّاً كان المغلوب. هذه هي حالة الشعوب في الشرق الأدنى في الواقع الراهن.

... ثمّت فرق جوهري، إن لم يكن باللفظ فبالمعنى وبالأهمّية الأدبية، في قول المعرّي عندما ينتحله أهل الشرق:

هذا جناه أبي عليّ   وما جنيت على أحد!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٨٢، ١ نيسان/أبريل ١٩٣٥، ص ١ . أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٩٦، ٢ نيسان/أبريل ١٩٣٥، ص ١ .

خواطر متناثرة

*** العيون**
*** نجّنا ربّي من «البيدانتزم»..!**
*** جمعية نهضة القرى تستأنف نشاطها**

يا عيوناً راميات في الحشا سهمها الفتّاك.. إلى آخر ما يروي الشاعر الأندلسي في موشّحه ذاك، الغنائي كثيراً مع كثير من البحث والارتباك.

لست أبغي شدّ الوتر الحسّاس - وتر العيون والمقل واللواحظ والأحداق - الذي يطرب له الشعراء في كل زمان ومكان، فيتغنّون على شدوه بالعيون، وبسحر العيون، وبما ترميهم به العيون من سهم ونصل وحربة ومدية وقوس ونشّاب. بل أودّ الإلماع إلى حديث الدكتور عزمي القطّان مساء الأحد المنصرم - وأرجو أن يستأنف ذلك الحديث - في الراديو عن أمراض العين. وهي غير الأمراض التي يتعشّقها الشعراء ونفر من أبناء أعمامهم الناثرين.

إنّي ما زلت أذكر، بألم مقيم، بياناً مروّعاً سمعته في الجامعة الأمريكية منذ ثلاثة أو أربعة أعوام من الدكتور نجيب برّادة في خطبة له تناولت هذا الموضوع. فقال ما معناه: «الأسبقية شيء تتنافس فيه الشعوب، ولكن في غير العمى. ومصر مع الأسف تسبق سائر البلدان في هذا الباب إذ يثبت الإحصاء أنّ سبعة من كل ألف فيها مصابون بالعمى».

هذا عدد باهظ جدّاً. وعلينا أن نثبّته، لأنّ الذي أورده ملمّ بموضوعه، وأمراض العين أوسع تفشّياً في مصر منها في كثير من الأقطار الأخرى.

ألأنّ الهواء مثقل بالغبار والأتربة التي تغير عليه من الصحراء؟ ألأنّ الإهمال شائع بشيوع الجهل وبالركون إلى إغفال قواعد النظافة والصحّة والوقاية؟ ألأنّ حرارة الشمس وتلظّي الجوّ يعدّان لأمراض المناطق الحارّة، ومنها هذا المرض الرهيب؟

قد يكون أنّ جميع أولئك تتعاون معاً. وكائنة الأسباب ما كانت، فإنّ مقاومتها لدفع كارثة العمى ولردّ الأمراض عن عضو البصر، واجب محتوم لا مبرّر للتهاون فيه.

نعرف ما يبذله طبيب الأسرة المصرية الكبرى، الدكتور شاهين باشا الهمام، ومعاونوه الأفاضل في مصلحة الصحّة، لردّ عادية هذه الفجيعة عن العين المصرية. ولكن كل شكر منّا إليه وإلى أعوانه يتضمّن معنى الاستزادة. إنّ نظرة واحدة إلى أفراد الشعب في أيّ شارع من الشوارع تكفي للدلالة على أنّ حالة العيون ليست على ما يرام.

مصلحة الصحّة ليست مسؤولة عن الماضي المرتبك الزاخر. ولكنّها مسؤولة عن المستقبل. وهذه المسؤولية فادحة نظراً لذيوع الأمّية. بيد أنّ «ذكاء المرء محسوب عليه». وقيمة الأفراد رغم العقبات، إنّما تتلخّص في الخطوة التي يخطونها بقومهم إلى الأمام. وعلى هذا يتحتّم ترويج الدعاية للأخذ بالنظافة والوقاية ومحاربة الوسائل التي تمهّد لأمراض العين – قدر المستطاع.

هذا ما فعله الدكتور عزمي القطّان الذي قام بمهمّته على خير وجه. إنّه قام بذلك بدقّة العالم، وبسلطان الطبيب الخبير، وبإحساس الوطني، وبسهولة قرّبت إلى الأفهام ما بعد عنها. وكل هذه الطلاوة لم تكن منتظرة من طبيب في موضوع جافّ كهذا الموضوع.

لقد أدّى المعنى في ألفاظ قلائل منتقاة وإن لم يشعر هو بذلك. وكانت جمله منسّقة في بساطتها، وصوته مشوّقاً في جزالته، ونطقه كان واضحاً بلا تعمّل، وإلقاؤه جذّاباً بلا تقعّر. وكانت إرشاداته «ناجعة» بلا تدريس.

* * *

إرشاداته كانت ناجعة بلا تدريس. وأسدي له الشكر خالصاً لهذا بنوع خاصّ.

فنحن الآن – مع ما نسجّله بصادق الاغتباط من دلائل اليقظة والتطلّع – تجتاحنا محنة لا أدري كيف أنعتها.

أهي إفراط في الغلوّ؟ أم هي نوع من «الكثاثة الأدبية»؟ أم هي «وطأة معنوية»؟ أم هي ضرب من «البيدانتسم»[1] في الإيجاب وفي السلب معاً أو بالتعاقب؟

لا أدري. ولكنّنا نحسّ ذلك بغير وصف وغير تعبير. ونتبيّن تلك الوطأة أحياناً بمجرّد قراءة أو سماع كلمات «الإصلاح» و «الرقيّ والتقدّم» و «النهضة» وما إليها.

وقد لازم «البيدانتزم» كل دور تاريخي كان فيه التقهقر واضحاً، في حين الرشاقة الفكرية والثقافية والبيانية ولو في أعوص الموضوعات وأعسر المسائل كانت حليفة اليقظة والتطلّع وتجدّد الحياة. حتّى معلّم المدرسة الذي يعمد إلى «البيدانتزم» في التلقين والتدريس يخفق ويرسب، ولو كان في طليعة العلماء ومن صفوة أهل الفضل.

علّمونا، يا سادتي. وأرشدونا ووبّخونا وأدّبونا و «مرمطونا» ما شئتم وشاء لكم الواقع فنحن جهلاء أشرار، ثرثارون، مزهوّون، ضالّون. ولكن خذونا بالحسنى ولا تشعرونا في عنف بالفرق بين علمكم وجهلنا، وبين رشادكم وغباوتنا، وبين كمالكم ونقصنا. «من علّمني حرفاً كنت له عبداً» - على شرط أن لا يرهقنا بذكريات فضله علينا. وقد سمعت في هذه الأيّام الأخيرة من سيّدة كانت تشكو معاملة زوجها، هذه الملاحظة الدقيقة:

«إنّي أقبل من زوجي حتّى الضرب على شرط أن يضربني بكياسة».

* * *

سياق الموضوع يدرج بنا بداهة إلى الكلام عن جمعية نهضة القرى التي تحتفي بافتتاح أعمالها للعام الثالث تحت رياسة وزير المعارف مساء اليوم بدار الجمعية الجغرافية.

لقد عارض الأستاذ «خلدون» في «الأهرام» السهولة التي يؤلّف بها الشبّان جمعياتهم. وندّد ببعضهم لولعهم بمجرّد الإعلان عن تأسيس الجمعيات مع نشر اسم الرئيس وأسماء الأعضاء وإن لم يكن لذلك من أثر غير النشر والإعلان.

وقد أصاب الأستاذ «خلدون» في النقد والمعارضة، ولكن إذا جاز لي إبداء الرأي في هذا الشأن، قلت إنّ هذا الهوى بشري مشروع على نوع ما، إن هو لم يتعمّد الأذى ولم يكن ضارّاً بمصلحة الجمعيات الجادّة في السعي والعمل، بل إنّ هذه النزعات البريئة لها الفضل في إظهار أهمّية الجمعيات الأخرى.

معذورون أولئك الذين يطمعون في الشهرة ظنّاً منهم أنّ في الشهرة السعادة والهناء. إنّهم يجهلون مبلغ ما تجنيه الشهرة على صاحبها من العناء والآلام التي لا توصف. إنّهم لا يعلمون أنّ الشهرة إن هي جذبت عدداً نادراً جدّاً من الأصدقاء، فهي تجلب حتماً عديداً من الأعداء وقد يكون ألدّ العداء أحياناً - وا أسفاه - من أقرب الناس إلى ذلك المعروف ومن أحبّهم عنده.

غير أنّ جمعية نهضة القرى تستحقّ الاهتمام والتعضيد، ما دام المهيمن على شؤونها ذياك «الجزّار الرحيم» الدكتور علي إبراهيم باشا، يؤيّده ويساعده رجال كرام كل منهم موضع الثقة والاحترام.

سنسمع في هذا المساء ملخّصاً لما قامت به الجمعية من الخدم في عاميها السابقين مع بيان عمّا حقّقته من غاياتها. وتلك الغايات كما نقرؤها في قانونها الذي وزّعته من الدعوة إلى حفلتها، إنّما هي تعريف صالح لها. منذا الذي يدرك حاجات الشعب في هذا الطور الحاضر فلا يرحّب بجمعية جادّة تعمل لتحسين حالة الفلّاح وتسعى لتحقيق «النهضة» في البلاد؟

وهذه الكلمات الأخيرة تقذف بي إلى صميم صديقتنا العزيزة: أ + ب + ج + د = أبجد، أي التعليم الذي بحثه حملة الأقلام كثيراً وما زال للبحث فيه متّسع.

أمامي الآن التقرير الذي قدّمه أحد مفتّشي وزارة المعارف الأستاذ إسكندر إبراهيم يوسف إلى سعادة الوزير بعد بحث حالة التعليم الإلزامي في الأرياف. وهو تقرير حوى من دقّة الملاحظة وسداد الرأي والمعرفة بحاجة البلاد وصائب الاقتراحات ممّا يزيد في إجلاء شخصية صاحبه ويحملنا على الاعتقاد بأنّ وزير المعارف لا بدّ منيل هذا التقرير ما يستحقّه من العناية والتنفيذ.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨٠٩٨، ١٧ نيسان/أبريل ١٩٣٥، ص ١ . ظهر المقال أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٩٨، ١٧ نيسان/أبريل ١٩٣٥، ص ١.

(١) عن الفرنسية (pédantisme) ومعناها الحذلقة.

أجراس عيد الفصح

... وترنّمي، يا أجراس العيد الجديد، لتبشّري الورى بقيامة الدفين المجيد!

ترنّمي، يا أجراس السحر، وحدّثي كيف المصلوب انتصر!

ترنّمي، يا أجراس الربيع، وأعلني سرّ القصيد البديع!

خلجان السحب في لألاء الفجر كدخان تقدّمه وبخور وقربان. ونشوة الحياة والشباب سرت في الألياف والنوامي والأغصان. وأطياف الأبراج والصروح في غمرة الصباح توضح طائفة خاصّة من الذكريات فوق مدينة سليمان. والأرض المتجدّدة لاستقبال الحادث العظيم، كلها في انتظار وخشوع ومهرجان!

فترنّمي، يا أجراس السحر، وحدّثي كيف المصلوب انتصر!

على مقربة من البقعة التي انحدر فيها رضيعاً، وحيال أكمة الحسرات حيث تألّم عن أوزار الخلق جميعاً، هنالك ينفض عن جسده الطاهر الأكفان وهناك يغادر جوّ العطور والطيوب في ظلمة القبر الكظيم، ليخرج إلى جوّ الحياة التي خلقها جديدة فنشر فيها مجد الحبّ المقيم.

نواقيس كنائسك تشدو معلنة انتصار الروح بانتصارك. فانهض، يا قاهر الموت، وأرنا في يديك وقدميك أثر الجراح والمسامير! انهض وأدننا من قلبك المتأجّج حبّاً لنتعرّف فيه طعنة الحربة التي أفاضت البركات علينا كالماء النمير!

ثلاثين عاماً طويتها في حياتك المتعجّلة ففتحت لنا خلالها منفذاً من ظلمات الأرض إلى بهاء السماء. ثلاثين عاماً عشتها ملتاعاً إلى الحبّ عطشانَ، أنت الذي طالما رويت الظامئين بالحبّ والحنان. ثلاثين عاماً قضيتها بيننا لتدعو إلى الحبّ وتتحدّث عن الحبّ، وتشرح ألغاز الحبّ، فكانت صيحتك الأخيرة «إنّي عطشان!» ولم تكن تطلب في تلك الساعة إلّا صادق الحبّ يكفيك لا أجّاج الينابيع يرويك! وقد متّ محبّاً

مباركاً لتثبت أنّ الحبّ هو وسيلة الحياة وسحرها الوحيد، وأنّ الحبّ الذي يتحاشى العذاب والتضحية والموت إنّما هو حبّ مشوّه ناقص، وأنّ الحبّ الذي لا يشعر بالمكافاة في ذاته وبمجرّد وجوده، ويطلب بديلاً، إنّما هو الحبّ المشوّه الناقص. فولدت أنت وعشت ومتّ مثالاً للحبّ يتألّق فوق عجاجات الغايات ومواكب الدهور.

* * *

قبلك لم يقل أحد بمثل هذا الحبّ، يا كلمة الحبّ! قبلك نادى سُقْراط بسلطان العقل وجاء موسى بالشرائع. وقبلك قال حكماء الصين «قابل السفاهة باللطافة» ولكنّ ذلك التأدّب حذر وبراعة وليس حبّاً. وقالوا بضرورة الحبّ الذي يسوّي الأمور فعنده «الدول والجماعات لا تتخاصم، والعائلات لا تتضعضع، واللصوص يختفون، والأمراء والرعايا والأهل والأبناء يأخذون بالتسامح ويعمدون إلى الاحترام، وكل ذلك في مصلحة نظام العالم» ففي هذا الحبّ دواء اجتماعي ومعالجة نفعية وليس فيه شيء من الحبّ الذي يسحق النفس فيرفعها ويغنيها.

وقال كُنْفُوشِيُوس «أحبب قريبك كنفسك» ولكنّ القريب ليس هو الغريب والبعيد والعدوّ. وقد يكون الغريب غريباً وبعيداً وعدوّاً. فما دعاية ذلك الحكيم إلّا نصيحة لتسوية مصالح الدولة وتنظيم شؤون العمران.

وعمد بوذا إلى التغلّب على آلام العالم ومآسيه بالحبّ العقلي. فكانت معالجته تلك هرباً من فواجع القلب وفراراً من شرور الحياة، لملاقاة وجه «النِيرْفانا» والغوص في أوقيانس «الفناء النوراني».

وكم من مرّة قلّبنا أسفار التاريخ القديم لنعثر فيه على ما يشبه حبّك. ولكنّ أتمّ الأزمان فروسية وبطولة كانت مقيّدة بقيود الأقدار، خانعة لتسلسل الثأرات والانتقامات والعدوان. العالم القديم في ما بلغه من ارتفاع وعظمة، عرف عشق المرأة الذي قد يسوق إلى الجريمة، وعرف الوفاء للصديق الذي قد يقتحم التضحية، وعرف الإنصاف للمواطن والضيافة للغريب والحماية للمستجير. أمّا الحبّ الذي أتيت به، يا سيّد الحبّ وضحية الحبّ، فلم يعرفه قبلك العالم. الحبّ الذي يتفطّر ويستسلم، الحبّ الذي يتعذّب ويظمأ، حبّ الأشقياء والجناة والمنبوذين والصغار والخاملين والمشرّدين

والملعونين – وفي آن واحد حبّ اللاعنين والمتعجرفين والطغاة والظالمين – كلّا! هذا الحبّ لم يعرفه ولم يتخيّله من قبلك أحد.

إلهك الذي تقطّرت من روحه، الإله الذي أعلنت اسمه ودعوت إلى الإيمان به ليس هو «يَهْوَه» القديم البطّاش الذي يأمر بالفتك بالأعداء، ولا هو «جوبتير» الذي يحنق ويقذف الناس بصواعقه، ولا هو السيّد العتيّ الذي يفرض على الأشراف من سلالة الملوك تمريغ الجباه في تراب أعتابه ويقضي عليهم بخدمة المراسيم والطقوس في هياكله.

إلهك الذي مجّدته وحدّثت عنه قمم الجبال وأمواج البحر وجماهير البشر لم يكن الطاغية الذي يحارب وينتقم ويعاقب، بل هو للجميع «أب» رحيم تشرق شمسه على الصالحين والطالحين وتخرج أرضه الخيرات للقدّيس والقاتل على السواء، وكواكبه تسكب أشعّتها على السجون وعلى أكواخ الرعاة، وكرمته تهب العصير لمآدب الزفاف ولمؤامرات اللصوص. إلهك كما يعنى بالإنسان يعنى بالنبات والحيوان. فالأطيار تغرد في فلوات السماء وهو يعدّ لها الطعام والمتاع. وسنابل الحقل تمتصّ من الثرى حاجتها وترتدي، في فيض الضياء، حللاً أبهى من حلل سليمان.

إلهك حبّ، ونحن الذين تلقّينا نطفة من حياة اللّه يجب أن نشبه الذي برأنا. ولكنّ حيوانيتنا تحدق بألوهيتنا وتطبق عليها قشرة الشرّ الخانقة فتحول دون نموّنا وتشعّع الحبّ فينا. فجئت أنت لتكسر بيدك القديرة تلك القشرة الحقيرة وحطّمت أغلال الانتقام وقيود الأقدار فاغتفرت لمتهنيك وباركت لاعنيك وألقيت من شاهق مجدك نظرة الرحمة على جلّاديك ومعذّبيك فقلت «اغفر لهم، يا أبت، فهم لا يعلمون ماذا يصنعون!».

ولم يكن الحبّ الذي أعلنته جموداً. إنّك عملت بيديك فعلّمت أنّ العمل يتلخّص في تحويل الأشياء الجامدة الغير المجدية إلى أدوات حيّة نافعة وأنّ المادّة الكثيفة الحقيرة إذا هي عولجت وصيغت أصبحت جميلة مفيدة نبيلة. وكما في عالم المظهر كذلك في عالم الروح. فكما يستخرج من الجذع الملتوي مهد الطفل وأريكة العروس، فكذلك من المرأة الساقطة ومن الرجل الفاسد قد يستخرج عضوان كريمان للملكوت

السماوات على الأرض ولوطن الحبّ الشامل الحضّان. لأنّ العمل مجهود وتفكير وتأمّل وإنشاد وصلاة واتّصال بجميع أجزاء الوجود.

* * *

هذه هي الحياة الجديدة التي حملتها إلينا، ولبابها حبّ الغريب والعدوّ لا حبّ الصديق والقريب. هذه هي الحياة التي مهّدتها سبيلاً سويّاً للإفضاء بالبشرية إلى ما وراء حدود البشرية. فإذا كان هذا الحبّ مستحيلاً فالخلاص مع الهناء مستحيل. إنّ قهر الطبيعة في حبّ الأعداء محض جنون. وأنت كنت عالي الصوت في الترويج لهذا «الجنون» لأنّ كل مبدأ أخلاقي سام إنّما تقاس أهمّيته بمبلغ ما يفرضه من قهر الطبيعة. فأين نحن من كل ما أعلنت وعلّمت؟ وأين نحن من الغايات العليا التي عيّنتها وضحّيت في سبيل الوصول إليها؟

لقد جرّب الإنسان كل شيء وعرف النهاية من كل ابتكار. ولم ينقصه الوقت لذلك، فتجاريبه تتراكم منذ ملايين العصور.

جرّب القسوة الوحشية فعرف أنّ الدم ينادي الدم، وجرّب المراوغة الثعلبية فعرف أن الغشّ والخداع ينبّه الغشّ والخداع.

جرّب اللذّة والنعومة والمتعة فبقي من أولئك في فمه طعم الفناء ومرارة محرقة لاذعة. جرّب تدليل الجسد وإرضاء الغرائز في مبتكر المسرّات، وعندما استيقظ مترضرضاً كئيباً خيّل إليه أنّه قضى عمره على الحجر الصلد وفي عفونة الدمن.

جرّب الوشاية والنميمة والتحقير علّه يعظّم بها من شأن نفسه ويغضّ من قيمة غيره، فارتدّ عليه الحسد والافتراء والإيذاء سرطاناً في جوفه عريق الأصول مستقرّ البقاء.

جرّب القوانين والشرائع والأنظمة وقد حوّر فيها وغيّر وبدّل ليكون واثقاً من توطيد أركان العدل. فإذا عدله يشبه الطغيان والانتقام ولم ينله منه إلّا الأسف والاكتئاب.

وجرّب معجزات العقل والعلم والعرفان فصفّى حسابه مع موجودات الكون وأحصى النجوم ورتّب لها الأقدار والأحجام وعيّن عند المستقبل البعيد مرورها في

فلوات الفلك. ووقّت حركة المذنّبات والنظم الشمسية. وحلّل أشعّة المجرّة وعناصر السديم. ونهب كل سرّ من أسرار الجوامد والنوامي والأحياء. كل ذلك كشفه بقوّة العقل والفطانة والإدراك. ونضّده كياناً قائماً بذاته وكأنّه مغمور في ضباب ما وراء الطبيعة. ولكنّ الأسماء والأرقام لا تشبع جوعه ولا تروي ظمأه فانتهى بالاعتراف بالسأمة وبالجهل.

وجرّب الفنّ، أعلى صيغة للإبداع والسلوى. فتركه الفنّ حزيناً محروباً. لأنّه أدرك عجزه عن حصر الوجود المطلق في الصور والأشكال والألحان. التفريج عن محنة الشوق فيه بواسطة الفنّ أزكى أشواقه وجعل ظمأه أواراً.

وجرّب الثروة والقوّة والبطش. فانقلب كل ذلك وبالاً عليه وقيّده بقيود العلّة والمعلول، وجعله أشدّ شعوراً بفقره وضعفه ومذلّته. وجرّب الضغط والظلم فإذا بكل وزر يقيّده بسلسلة لا تنتهي من الأوزار والأسقام.

ألم يبق شيء غير صليبك وحبّك؟ أوَلم يبق شيء غير التجربة التي تعرضها علينا وقد جاهدت لأجلها وعشت ومتّ وقمت من الموت في سبيلها؟

لَكَم شدونا في طفولتنا أنّك قمت وانتصرت، ولأعداء الحبّ والروح قهرت، وأنّ السلام تمّ للبشر وأنّ مملكة السماء استقرّت على الأرض!

غير أنّنا الآن نجيل الطرف في ما يحيط بنا عن قرب وعن بعد فنعجب كيف نتكلّم عن ظفرك وانتصارك. نفهمك وحيداً فالوحدة التي تخنق النفوس المدقعة، هي للنفوس الغنيّة وحي وثروة ومجد. نفهمك أسير ظلم الظالمين، فريسة المفترين والمراوغين، ممزّقاً بسياط الطغاة والمستهترين، نفهم ذلك لأنّ عظمة العظيم إنّما تقاس بفداحة ما يحتمله من الآلام.

نفهمك مهاناً حقيراً ذليلاً شريداً منبوذاً مهجوراً مدحوراً، ممرّغاً في حمأة الهوان حيال الذين ضاقت نفوسهم دون إدراك نقائك وشرفك وعلاك. نفهم شفتك ملتوية من أثر قبلة الغدر يبيعك بها من أغدقت عليه عطفك وإحسانك. نفهم قلبك الجريح بالحبّ مطعوناً بحربة التعذيب. نفهمك مصلوباً بين لصّين تنظر نظرة الوداع إلى بهجة

العالم وتعرف ما تخفيه البهجة من شقاء. نفهم كل ذلك لأنّك حملت راضياً جميع الأوزار والآثام على منكبيك. فليكن عذابك قميناً بذلك العبء المنوّع الجسيم!

ولكن كيف نتخيّلك منتصراً، والعالم اليوم أفعم بالآثام، وبنو الإنسان قد زادوا في انتحال الشرّ وأوغلوا في ارتكاب المعاصي! اسمك أصبح تجارة، أيّها المسيح، وصليبك صار راية للطغيان والعدوان، ومذهبك أمسى حافزاً يحفز المساكين والخائفين والمغبونين لاصطناع الأذى وأنت من كل أولئك بريء!

* * *

شوقي لم يكن مسيحياً، أيّها المسيح، ومع ذلك فهو القائل بلسان المسلمين واليهود والمسيحيين:

عيسى، صليبُك رحمةٌ ومحبّة — في العالمين، وعصمةٌ وسلام
ما كنتَ سفّاك الدماءِ ولا امرأً — هان الضِّعافُ عليه والأيتام
يا حاملَ الآلام عن هذا الورى — كثرت عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعل الخلائق كلَّهم — رَحِماً، وباسمك تُقطَع الأرحام
خلطوا صليبَك بالخناجر والمُدى — كلٌّ أداةٌ للردى وحمام[١]

فانهض، يا فتى الصليب، وانتزع صليبك من المتاجرين به! انهض، يا نور الحبّ والحنان، وأبعد عن حوزتك الداعين باسمك إلى الجور والطغيان.

انهض، يا محرّر العبيد، فقد أمسينا كلنا عبيداً! انهض، يا قاهر الموت، فكلنا في الحياة أموات! انهض وقل الكلمة الواحدة التي تفصل بين ما يريدون وما تريد وأعلن من جديد أنّ «مملكتك ليست من هذا العالم».

انهض، فاليوم موعد قيامتك! فلا تخيّب الرجاء!

... وترنّمي، يا أجراس السحر، لتحدّثي كيف المصلوب انتصرا!

ترنّمي، يا أجراس الربيع، لتعلني سرّ القصيد البديع!

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨١٠٢، ٢١ نيسان/أبريل ١٩٣٥، ص ١ و ٢ . أُعيد نشر المقالة في المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٩٩، ٢٣ نيسان/أبريل ١٩٣٥، ص ١ و ٢ .

(١) من قصيدة «الأندلس الجديدة» لأحمد شوقي المنشورة في الجزء الأوّل من ديوانه «الشوقيات». على أنّ بعض الأبيات يرد في الديوان بصيغة مخالفة لما يأتي في مقالة ميّ زيادة:

عيسى، سبيلُك رحمةٌ ومحبةٌ ... في العالمين، وعصمةٌ، وسلام
ما كنتَ سفّاك الدماءِ، ولا امرأً ... هان الضِّعافُ عليه والأيتام
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورَى ... كثُرَت عليه باسمك الآلام
أَنت الذي جعل العبادَ جميعَهم ... رَحِماً، وباسمك تُقطَع الأرحام

(...)

خلَطوا صليبكَ والخناجرَ والمُدى ... كلٌّ أَداةٌ للأَذى وحِمام

انظر الطبعة الصادرة عن مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، د.ت.، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

خواطر متناثرة

* حيث تسمع حديثاً عن «كافور»
* «الإنجليز في بلادهم» وفي الخارج
* بِيلْسُوذْسكِي

ليس هو كافور المتنبّي[١]، بل «كافور» السياسي الإيطالي وزير الملك فيكتور عمانوئيل الثاني الذي كان عاملاً فعّالاً في جعل إيطاليا واحدة متحدة، بعد تناثرها وتنابذها في عدّة دويلات وممالك[٢]. وقد توفّق السر إدورد كوك[٣] في إدماج هذه المقارنة ضمن خطابه السهل الممتنع الذي، باستثناء ما رأى فيه بعضهم ممّا رأى، جعلنا ندرك كيف يتكلّم الرجل عن الرجل.

بيد أنّ كافور ردّ على الذين شبّهوه بريشليو الكاردينال والسياسي الفرنسي[٤]، وزير الملك لويس الثالث عشر، فقال: «لي شبه بريشليو إذا شئتم، باستثناء الدم والثوب الإكليريكي». ولطلعت حرب باشا كذلك أن يقول: «لي شبه بكافور إذا شئتم، باستثناء الاشتغال بالسياسة والمنصب الوزاري والمساعدة الحكومية الرسمية».

عندما ابتدأ طلعت حرب باشا وحده بلا دسائس وبلا دعاية طنّانة، كان المعارضون والساخرون كثيرين. أمّا هو فكان له من القيمة الشخصية ما يكفي ليرتفع فوق كل مقاومة واستهجان وليثبت أنّ السخرية التي تجهز على الضئيل والتافه إنّما تقوّي القويّ وتجلو تشعّع مغناطيسه.

وقد نسينا، وربّما نسي هو أيضا، أنّه بتلك الخطوة الحاسمة كان مجازفاً بأكثر من مركزه المالي ومكانته الاجتماعية. كان مجازفاً بكل هيبة كلمته وبكل كرامة رأيه. على أنّ ازدواج الشخصية فيه بين نظرية وعملية كان ملجأه وملهمه. وهو بتلك السليقة النظرية التي لا اسم لها «يعرف» الأشخاص قبل معاملتهم، و«يرى» نتائج الأمور قبل حدوثها. وبالإشارة إلى هذا التضاعف في الشخصية أثبت السر إدورد بعد نظره هو شخصياً ومقدرته السيكولوجية. كما مكّن تلك التي قالت في محاضرة

بالجمعية الجغرافية عن رحلة إلى السويس، إنّ طلعت باشا وإخوانه رجال البنك شعراء أفذاذ وإنّ أعمالهم وشركاتهم قصائد باهرة - مكّنها من تذوّق التشفّي الشريف والانتقام النبيل من الذين وصفوا كلامها «بالخيال الرائع الجميل» قبل خمسة أو ستّة أعوام(٥)!

وطلعت باشا بعد مؤمن باللّه يلقي عليه اتّكاله ويلتمس في كل أعماله بركته ورضاه. وهو في هذا كما في سائر خصائص نشاطه مثال للأجيال الجديدة.

وعندما احتضن مشروعه مدحت يكن باشا(٦) والدكتور فؤاد سلطان(٧) وسائر زملائهما، أثبت أولئك الرجال الأمجاد أنّهم في مستواه المعنوي وأنّ الصوت الداعي إلى الواجب وإلى الخير لا يدوّي على قاحل الرمال في مصر. فهمّوا وساروا متّكلين على نفوسهم وعلى شرعية مشروعهم وضرورته اللاحّة.

وقد نجح بنك مصر ومؤسّساته لأنّ البلاد تموج بالحياة، ولكنّي لا أتردّد في القول إنّ بنك مصر لو لم يلاق نجاحاً - لا سمح اللّه - لكان في مجرّد الإقدام على تأسيسه وفي تضافر عيون الرجال على تكوينه وإنجاحه ما يكفي ليزيل عن البلاد وصمة الذلّ المعنوي والعبودية الأدبية المعزوّة إلى الشرقيين في تنابذهم وتحطيم بعضهم البعض، ممّا يجيد استغلاله الماهرون من أصحاب المصالح...

أقول الشرقيين لا المصريين فقط. لأنّ فروع بنك مصر منتشرة في بعض أنحاء الشرق العربي وهي هناك كما هي هنا محبوبة مكرّمة.

كل ما قيل في وصف البنك ومؤسّساته وفي الإشادة بالخير المنوّع الناجم عنه في الحاضر وفي المستقبل - كل ذلك حقّ. ولكنّ هناك أمراً آخر، فوق الأمر الذي ذكرت، هو أهمّ من سائر الفوائد لأنّه الجوهري. إنّ هذا المشروع كان مسباراً للشخصية العامّة من عدّة نواح، فإذا بالشخصية العامّة غنيّة زاخرة فطنة رشيدة. هذا ما أعلنه مشروع بنك مصر، وهذا هو الأساس. والباقي، على خطورته، ثانوي في نظري.

وكان هذا المشروع وتحقيقه في حاجة إلى الزمن يسجّله ويمتحنه ويلقي عليه مسحة الجلال. فانقضت الأعوام الخمسة عشر والبنك مركز ممغنط يزيد كل يوم قوّة

وترامياً، ويتغلغل شيئاً فشيئاً بمشروعاته في حياة البلاد الاقتصادية والخلقية والأدبية أيضاً. فبينا هو يعلن الشخصية العامّة، إذا به يحفزها ويركّزها. وبينا هو يتغذّى من قوّة الشخصية العامّة، إذا به يفتق فيها تلك القوّة ويرهفها ويهذّبها ويدرّبها ويمدّها بالثقة بالنفس، وبالاعتداد بالذات وبالنشاط وباليقين. وإذا بماضيه ضمان لمستقبله من عدّة وجوه. ولنا أن نعتقد فيما نعتقد أنّ البنك لن يكون يوماً أداة في غير اليد التي هو لها ومنها، وأنّه لن يخدم مصلحة غير المصلحة التي قام لأجلها، مع الإخلاص والصدق نحو الجميع - ولكن سيّداً، لا عبداً.

وقد قامت لجنة الاحتفال بواجبها في فخامة وأناقة تليق برجالها وبالعيد الذي احتفت به. ومساهمة الأمّة في هذا العيد بهذه الرحابة شهادة للأمّة ولصدق المواهب في شخصيتها الخصيبة.

فيا ذات النوم والدلال والتيه، يا مصلحة التنظيم! هلّا ترامى إليك صدى ينبئ بوجود شيء اسمه بنك مصر، يقوم في شارع اسمه عماد الدين الشهير بنكرته الألمعية؟!

* * *

وجهان يشعّان الآن بين شعوب العالم بينما الإمبراطورية البريطانية تحتفي باليوبيل الفضّي لجلوس جورج الخامس على العرش الذي تذهّب الشمس قوائمه ليل نهار: وجه الملك الوديع الرزين في شيء من الكآبة العذبة، ووجه الملكة الساهم الوديع في شيء غير قليل من معنى الاحتمال والتغلّب على النفس.

وجهان إنجليزيان كل الإنجليزية رغم خليط الدماء الممتزج بدمائهما - شأن سائر الأسر المالكة في بلاد الغرب.

يتحدّر البيت الإنجليزي من بيوت برونسويج ولونيبرج وهانوفر(٨)، وكان عند جلوس جورج الخامس يعرف باسم ساكسوني كوبرج جوتا(٩). ولمّا لم يفلح الملك في مساعيه مع قريبيه قيصر روسيا السابق وعاهل ألمانيا في ذلك الحين، لدفع النكبة العالمية فنشبت الحرب - عندئذ نبذ عنه كل قرابة وكل نسب لينقلب الإنجليزي المحض واتّخذ

لبيته اسم ويندسور الإنجليزي. على أنّ العهد «الويندسري» سبق التسمية لأنّه بدأ بعهد الملكة فيكتوريا التي رغم زواجها بأمير ألماني «نجلزت» بيتها كما ترامت في ظلّها عظمة الإمبراطورية البريطانية.

وأيّة إمبراطورية هي! هل عرف لها التاريخ مثيلاً؟ طبعاً، الزمن تغيّر فيسّر القرنَ الاخير ما كان في سابق القرون متعذّراً أو مستحيلاً. إلّا أنّ الشخصية الإنجليزية المدهشة في قدرتها الهادئة الصامتة الرصينة المترفّعة عن الدعاية الرخيصة، استغلّت الظروف إلى أقصى حدود الاستغلال.

نحن أهل الشرق نعيش الآن يدغدغنا ناب الأسد البريطاني في مزيج من الهزل والجدّ. فأنى لنا الذهن الصافي لنحكم بنزاهة من وجهة المؤرّخ العليم بنفسيات الشعوب، متملّصاً من ظروفه الراهنة ليسمو إلى أفق التأمّل الهادئ؟ ولو استطعت أن أعود إلى الحياة بعد قرون، يوم يكون شرقي صديقاً للجميع مصافياً كريماً في حرّية واستقلال، واستطعت أن أضمن لنفسي يومئذ مكانة عالية بين مؤرّخي العالم، لوددت أن أكتب تاريخ هذه الإمبراطورية الفريدة.

لكن بصفتي مؤرّخة المستقبل (!) أقول للإنجليز إنّ الأزمان تغيّرت أيضاً في هذه الأعوام وإنّ معنى العظمة والمجد نفسه قد تبدّل. فما كان بالأمس مهارة أصبح الآن قصوراً، وما كان من قبل قوّة صار الآن ضعفاً. إنّ تاريخهم يفرض عليهم أن يفهموا روح العصر (وهي غير روح الطغيان التي تجلجل بها وتذيعها بعض الدول، ضاربة على جميع الطبول الكبيرة) ليمهّدوا لتاريخهم إتمامه الطبيعي بدلاً من تشويهه بلجم الرجعية التي لا تصلح تتويجاً لهذه الإمبراطورية العظيمة.

لست أدري هل تعمّد الدكتور حافظ عفيفي باشا إصدار كتابه بمناسبة اليوبيل الفضّي لجورج الخامس(١٠)؟ إنّ الكتاب جاء في وقته على كل حال. و «الإنجليز في بلادهم» اسم محكم على ما أراد أن يقول في حدود ما أراد. لأنّهم في بلادهم غيرهم في خارجها، وإن هم حملوها وأساليبها وخصائصها في حقيبتهم إلى أقصى أنحاء الدنيا. ولتحكم عليهم في نزاهة تليق بالإنسان المثقّف المنصف، يجب أن تعرفهم في بلادهم وأن تتعرّف - بمجهود وعناء! - تلك الشخصية الإنجليزية المشوّقة بمناقضاتها المدهشة،

ببساطتها وتركيبها، بكآبتها العميقة وبابتسامها البهيج، بسآمتها التي لا يداويها ملك العالم وبدهشتها حيال كل جديد ولو كان ضئيلاً، باعتدالها وشذوذها، بما فيها من غرارة الطفل ومن دهاء الشيخ المحنّك، من المحافظة الدقيقة والمغامرة التي لا حدّ لها، من الروح العملية الصرفة والروح التي لا يشبعها مثل أعلى كائناً نبله وسموّه ما كان.

يا شعراء الإنجليز، كم أنا مدينة لكم! يا شكسبير! أنت وحدك إمبراطورية فريدة، أعظم من الإمبراطورية البريطانية، وتغيُّر الأزمان يزيد في مجدك الساطع!

وقد كشف الدكتور عفيفي باشا عن الصيغة «المرئيّة» من الحياة الإنجليزية في شتّى خصائصها وفي اتّجاهات تطوّرها، وقرأت باهتمام ما نشر عن هذا الكتاب لأسبر غور سير النقد عندنا. فكان بعض ما نشر حسناً.

وأستبيح لنفسي التعليق على ملاحظتين. ففيهما يتلخّص الكتاب كله. فقد لحظ كاتب فاضل في إحدى الصحف أنّ «شخصية» الدكتور حافظ عفيفي باشا غير ظاهرة في الكتاب. وفي صحيفة غيرها قال أديب آخر إنّ المؤلّف أدمج في مؤلّفه بيانات رسمية ونشرات حكومية ليقدّم بعض الموضوعات.

والواقع أنّ هاتين الملاحظتين «النقديتين» تصفان هذا الكتاب الذي هو يصف نفسه. إذ ليس بالكتاب الأدبي أو التاريخي أو الوجداني ليعلن «شخصية» واضعه. بل هو كتاب دبلوماتي تقريري يسجّل الأمور كما هي في الظاهر. وهي حقيقية. ولكنّ الكاتب رجل سياسي ما زالت حياته السياسية في نظره سائرة إلى مستقبلها. فكيف يعلن شخصيته وهذا موقفه؟ وإدماجه التقارير الرسمية ينمّ على رغبته في تصوير الحوادث والماجريات صادقاً دون الكشف عن رأيه الخاصّ.

أمّا ثمن الكتاب فيستحقّ المهاجمة.

* * *

توارى وجه آخر من الوجوه المشرفة على حظوظ الحرب والسلم في العالم.

وجه بيلسودسكي(١١) كان ثانوياً بين الوجوه العالمية الكبرى من حيث جوهر المعنى. أمّا في وطنه وبالنسبة لموقف بلاده من جيرانها الأقوياء فقد كان أوّلياً.

شيء غير قليل أن يتوحّد تاريخ بلاد وتاريخ فرد في حقبة من الزمن، وأن تنهض ذكرى مفاخر شعب لمجرّد حياة شخص أو موته.

بولونيا، تلك البلاد القصيّة، موفورة الثروة في العبقريات من شتيت الأنواع والصيغ. ألأنّ الألم والعذاب قد حرّك أغوارها وأنضج طبيعتها؟

بين جميع الأناشيد الوطنية التي اطّلعت عليها لمختلف الشعوب لا أعرف ما هو أنصع جمالاً وأفجع غوراً من الأناشيد البولونية الوطنية والشعبية. وكل آداب البولانديين وفنونهم ممتازة وذات طابع حزين خاصّ، مع نبرات ثورية وحماسية هي أوقع ما تكون.

والمستمعون إلى إذاعة فرسوفيا ليلة الأمس حول منتصف الليل سمعوا الأجراس الحزينة وما تبعها من «كُورَس» المزامير الجنائزي. وسمعوا تلحينات شوبان المسيطرة على القلب والعقل معاً. وشوبان، مع أنّ أسرته من أصل فرنسي، كانت روحه بولونية لأنّه ولد قرب فارسوفيا. وجورج ساند، بعد أن أوحت إلى موسيه وغيره، أوحت إليه أبدع تلحيناته وأكثرها تفطّراً في تجرّد بياني مؤثّر(١٢).

ونيتشه؟ إنّ نظريات نيتشه تتحقّق الآن في سياسة الدول بوجه من وجوهها العديدة - سياسة القوّة المادّية المحسوسة. ونيتشه الشاعر الفيلسوف الألماني من أصل بولوني، وتركيب حروف اسمه يدلّ على ذلك.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨١٢٦، ١٧ أيّار/مايو ١٩٣٥، ص ١ و ٢ . نُشر المقال كذلك في المحروسة، س ٥٩، ع ٥١٠٣، ٢٢ أيّار/مايو ١٩٣٥، ص ١ و ٢ .

(١) أبو المسك كافور الإخشيدي (٩٠٥ - ٩٦٨)، مملوك الإخشيد ملك مصر. تولّى الحكم بالوصاية بعد وفاة سيّده في ٩٤٦ وأصبح سلطاناً على مصر وسورية عام ٩٦٥ . جمع حوله مجموعة من الأدباء والشعراء، من ضمنهم أبو الطيّب المتنبّي (حوالي ٩١٥ - ٩٦٥)، الذي كتب العديد من القصائد في مدحه، لكنّه اختلف معه فيما بعد فهجاه بقصائد ذائعة الصيت.

(٢) Camillo Benso Conte di Cavour (١٨١٠ - ١٨٦١)، رئيس وزراء سردينية (Sardegna) ابتداءً من ١٨٥٢ . تمكّن عام ١٨٦٠ - ١٨٦١ من توحيد إيطاليا ما عدا إقليم فينيسيا في الشمال والمنطقة المحيطة بروما. كان Victor Emmanuel II. (١٨٢٠ - ١٨٧٨)، ملك سردينية (١٨٤٩ - ١٨٦١) وإيطاليا (منذ ١٨٦١)، أقرّ التحالف مع الحركة القومية الليبرالية (كافور) والانتقال إلى نظام الحكم البرلماني وحتّى دعم القوى الديموقراطية الجمهورية بزعامة غريبالدي (Garibaldi) إبّان توحيد إيطاليا، وذلك على أساس المحافظة على دستور عام ١٨٤٨، لكنّه استطاع الاحتفاظ بمكانة قويّة للأسرة المالكة عبر الإبقاء على بعض امتيازاتها الهامّة.

(٣) Sir Edward Mitchener Cook (١٨٨١ - ١٩٥٥)، موظّف في إدارة المستعمرات البريطانية. عمل سكرتيراً للمندوب السامي البريطاني في الهند ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ومستشاراً مالياً لحكومة سيام (Siam) ١٩٢٥ - ١٩٣٠، كما كان عضواً في مجلس إدارة بنك مصر ما بين ١٩٣١ - ١٩٤٠ .

(٤) Armand Jean du Plessis Duc de Richelieu (١٥٨٥ - ١٦٤٢)، كاردينال ابتداءً من ١٦٢٢ ووزير أوّل للملك لويس الثالث عشر منذ ١٦٢٤ . نجح في الحدّ من سلطة النبلاء وتعزيز الحكم المطلق. انتصر على البروتستانت الهوغونوت (Huguenots) عند لا روشِل (La Rochelle) عام ١٦٢٨، وتدخّل في حرب الأعوام الثلاثين ضدّ آل هابسبورغ (Habsburg)، وبذلك وضع لبنة السيطرة الفرنسية في أوربّا. مثّل الاتّجاه السياسي العقلاني الذي يضع سلامة الدولة ومصلحتها العليا في المقام الأوّل. أنشأ عام ١٦٣٥ الأكاديمية الفرنسية.

(٥) ألقت ميّ زيادة المحاضرة المذكورة في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، وقد نُشر نصّها في الأهرام، س ٥٤، ع ١٥٨٢٤، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، ص ١ وص ٧، وهو مضمّن في هذه المجموعة [٣٧].

(٦) أحمد مدحت يكن باشا (١٨٧١ - ١٩٤٤)، حقوقي وسياسي مصري، أوّل رئيس لمجلس إدارة بنك مصر من عام ١٩٢٠ حتّى عام ١٩٤٠ . عُيّن محافظاً للإسكندرية عام ١٩١٨ ووزيراً للزراعة عام ١٩١٩ ثمّ للأوقاف ١٩٢١ فللخارجية ١٩٢٩ - ١٩٣٠ . كما تولّى منصب نائب الرئيس لحزب الأحرار الدستوريين عام ١٩٢٢ .

(٧) د. فؤاد سلطان، حقوقي مصري، من كبار ملاّك الأراضي. كان أحد الأعضاء العشرة الذين شكّلوا مجلس إدارة بنك مصر لدى تأسيسه في نيسان/أبريل عام ١٩٢٠ وصاحب أسهم تأسيسية في عدد من شركات البنك لاحقاً، كما عُيّن عام ١٩٢٤ عضواً في اللجنة المالية لمجلس الشيوخ. ألّف كتاب *La Monnaie Egyptienne* المنشور في باريس ١٩١٤ .

(٨) Braunschweig و Lüneburg و Hannover، إمارات سابقة في شمال غربي ألمانيا، وهي ملحقة اليوم بالإقليم الاتّحادي ساكس السفلى (Niedersachsen).

(٩) Sachsen-Coburg und Gotha، اسم لإمارة ساكسونية كانت قائمة حتّى عام ١٩١٨ .

(١٠) صدر كتاب الدكتور محمّد حافظ عفيفي «الإنجليز في بلادهم» عام ١٩٣٥ عن دار الكتب المصرية في القاهرة، وقد نجم عن فترة تولّيه منصب سفير مصر في لندن ١٩٣٠ - ١٩٣٤ .

(١١) Jósef Klemens Pilsudski (١٨٦٧ – ١٩٣٥)، مارشال ورجل دولة بولوني، أحد مؤسّسي الحزب الاشتراكي البولوني و «رئيس الدولة» بين ١٩١٨ – ١٩٢٢، الذي عُهد إليه بالإشراف على الجيش والسلطة. قاد الجيش البولوني إلى النصر على الجيش الأحمر عام ١٩٢٠، وبعد قيامه بانقلاب عسكري عام ١٩٢٦ أقام ديكتاتورية عسكرية معتدلة. قاد الحكومة فيما بين ١٩٢٦ – ١٩٢٨ وفي ١٩٣٠ من موقعه رئيساً للوزراء، لكنّه من الناحية العملية تحكّم أيضاً في أجهزة الدولة المختلفة كوزير للدفاع ومفتّش عامّ للقوّات المسلّحة (١٩٢٦ – ١٩٣٥). أمّا في مجال السياسة الخارجية فقد حاول تأمين سياسته الهادفة إلى خلق دور قيادي لبولندا في أوربّا من خلال إبرامه معاهدتي عدم الاعتداء مع الاتّحاد السوفييتي ١٩٣٢ وألمانيا ١٩٣٤ .

(١٢) Georges Sand (١٨٠٤ – ١٨٧٦)، كاتبة فرنسية، اسمها الحقيقي Aurore Dupin، وبعد زواجها صارت تُعرف بالبارونة Dudevant. تركت زوجها عام ١٨٣١ لتغادر إلى باريس في صحبة الكاتب Julien Sandreau (وإليه يرجع اسمها المستعار)، حيث تعاونت مع مختلف الصحف ومنها *Le Figaro* . ارتبطت عام ١٨٣٣ بعلاقة صداقة مع Alfred de Musset، وعقب طلاقها عام ١٨٣٦ أقامت علاقات أخرى مع الملحّنين Franz Liszt و Hector Berlioz، والروائي Honoré de Balzac وآخرين. كما عاشت مع Frederic Chopin ما بين ١٨٣٨ – ١٨٤٦ في مايوركا وباريس. انصرفت بعد انفصالهما إلى نشاطات سياسية اجتماعية، ثمّ انسحبت لخيبتها من نتائج ثورة عام ١٨٤٨ إلى مقرّها الريفي Nohan الذي تحوّل إلى ملتقى للكتّاب والفنّانين. شرعت في تأليف روايات حبّ من الطراز الرومانسي المثالي، دافعت فيها عن تحرير المرأة، ثمّ كتبت روايات هادفة ذات طابع اشتراكي إنساني. من الناحية الأدبية تُعتبر كتاباتها الوصفية الحيّة للبيئة الريفية أكثر قيمة، رغم كونها مثالية بعض الشيء، بينما تُعدّ محاولاتها المسرحية أقلّ أهمّية.

ذكرى فيكتور هوجو

توفّي فيكتور هوجو في ٢٢ مايو ١٨٨٥، إلّا أنّه لم يدفن إلّا بعد عشرة أيّام. لأنّ الحكومة الفرنسية قرّرت بموافقة المجلسين أن تحتفي بدفنه احتفاءً حكومياً رسمياً وأن يكون يوم الدفن «يوم حداد وطني». وقرّرت كذلك ردّ البانثيون للغرض الأوّل الذي شيد من أجله، أي جعله مدفناً للعظماء، وأن يدفن فيه فيكتور هوجو. وتنفيذ هذه القرارات كان يتطلّب عدّة أيّام، في انتظار الوفود الرسمية وغير الرسمية المقبلة من مختلف البلدان الأوربيّة.

وفي ٣١ مايو عرض هوجو تحت قوس النصر الذي تغنّى به في قصيدة باذخة، وبقي هناك يوماً وليلة يتلقّى صامتاً زيارة الوداع من الشعب الذي أحبّه كثيراً. وفي أوّل يونيو فقط، في مثل هذا اليوم منذ خمسين عاماً، ساروا بالشاعر من تحت قوس النصر إلى المحفل الذي خصّصته فرنسا «لعظماء الرجال من الوطن الشكور».

حادثتان في موكب تشييعه تستوقفان الانتباه وتثيران التأثّر. ذلك أنّه وسط الحداد الوطني العامّ كانت جميع التماثيل في باريس تحمل شارة الحداد، إلّا تمثال واحد في طريق الموكب، هو تمثال (الخلود) الذي زانوه بقلائد الرياحين والأزهار. ووضعوا عند قاعدته ثلاثة أكاليل ضفرت من زهر «خلود» وقد طوّق كل إكليل بشارة سوداء. وضربت حول التمثال كوكبة من الجنود.

وعندما مرّ النعش بالتمثال أوقفوه هناك دقيقة فأدّى الجنود التحيّة العسكرية ودوّت أبواق النحاس تردّد التحيّة، بين قصف المدافع ونقرات الحزن على الطبول. وحيّت الجماهير الحاشدة بكشف الرؤوس وبالإطراق، بينا تمثال الخلود يمدّ يده بغصن النخيل نحو النعش، كأنّما هو يهدي إلى الشاعر النائم شارة المجد والظفر. وتحرّك الموكب فهتفت الجموع: يحيا فيكتور هوجو!

وإذ بلغ الموكب جسر «لاكونْكورد» أطلق سراح مئة وخمسين حمامة، تحيّة رمزية للذي دافع عن حرّية الرأي وحرّية العقيدة وحرّية التعليم، وطالب بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين وبردّ المنفيّين إلى وطنهم، ورأس مؤتمر السلام داعياً إلى تكوين «ولايات أوربّا المتّحدة» - ممّا كان فكرة تمهيدية لعصبة الأمم التي تعاني اليوم ما تعاني في جنيف. فرفرفت الحمائم طليقة فوق الموكب، تحدّث بتعدّد اتّجاهاتها عن العبقرية التي لم تحاصر في نقطة واحدة، بل ألّفت الهواء والنور باحتضانها جميع الأجواء. وتشير ببياض أجنحتها إلى القلب الذي عرف جميع الانفعالات وقاسى جميع المحن فلم يعمد مرّة إلى النفاق والتمويه والبطلان.

وبين قصف المدافع ونقر الطبول تعالى صوت الجماهير بهتاف واحد كرّره طيلة الاحتفال رغم تناقضه ومعنى الموكب: يحيا فيكتور هوجو!

ذاك لم يكن موكب جنازة، بل كان موكب انتصار ومجد لهوجو ولباريس ولفرنسا. وسجّل التاريخ أنّ ذلك أعظم وأفخم يوم شهدته باريس في القرن التاسع عشر كله.

* * *

وموضوع هوجو والقرن التاسع عشر موضوع مشوّق حريّ بالتدوين لو اتّسع له المجال. فالقرن التاسع عشر منيف بين العصور لوفرة ما تجمّع فيه من خلاصة الجهود السياسية والعلمية والاجتماعية والأدبية ولوفرة ما اتّضح فيه من دلائل اليقظة الفكرية والروحية عند الأفراد وعند الجماعات، مع الانتكاس في غمرة العبودية والظلم دفعة بعد دفعة. وشخصية هوجو منيفة بين شخصيات القرن التاسع عشر، تلقّت تيّارات زمنها كلها فعصفت فيها جميع الزعازع وتلامست عندها جميع النسائم.

بطبيعته الأدبية والشعرية كان معدّاً لتقبّل تأثيرات مختلفة من مختلف الأنواع. وقد وصف نفسه بأنّه «روح قامت في وسط الأشياء، تتلقّى جميع التيّارات وترجع جميع الأصداء».

أجل، تلقّى جميع أصداء عصره - شأنه شأن كل إنسان وبخاصّة إذا كان شاعراً عبقرياً - ومعها أصداء جميع العصور، فصهرها بفنّه وأخرجها عناصر جديدة. لم يترك صيغة من صيغ الفكر، فرنسياً كان أم إنسانياً، إلّا وعالجها بقدرة نادرة. ومع أنّه كان زعيم المدرسة الرومانتيكية، فقد حوى فنّه نماذج بارعة من جميع المذاهب الأدبية المعروفة. ولئن وجد في فنّه عيوب، فهي عيوب المقدرة والشهامة والأريحية والتدفّق المترامي من كل صوب، لا عيوب الجبن والإدقاع والإسفاف والتطفّل. وهي الثقافة التي تجلب البحرين باتّساعها فيحسبها بعضهم محفوظات ذهنية، في حين هي ممتزجة بالدم، مكوّنة أعصاب الفكر، متداخلة بنسيج العاطفة. وقد قيل إنّ هوجو يجهل القلب الإنساني. وكم في هذا القول من جهل للعاطفة ومن تحديد للقلب الإنساني!

وهل من خيال كخيال هوجو، ذاك الخيال الجوّال الأروع الذي ما لمس شيئاً منظوراً أو غير منظور إلّا كان فعله فيه فعل المجنوسكوب[١] في عالم العلم وفعل ميكلانجلو في فنّ النحت والعمارة، فجسّم التفاصيل، وفخّم الرؤى، وصاغ من كل صورة عالماً تامّاً.

وقد حكموا عليه بالشذوذ والاستهتار عندما أعلن رأيه في «الدراما» فعارض به كل رأي سابق بقوله: «إنّ الدراما هي مزيج من العظمة والسخرية، وإنّ فيها أصدق بيان عن روح العصر الحديث، وشكسبير هو موحيها». وبعد محاولات هوجو في مسرحياته لإثبات تلك النظرية، نرى الآن بيراندللو[٢] مثلاً (كيلا نذكر غيره) محقّقاً ذلك الرأي في شخصيات عادية لا تاريخية فقط.

لم تعرف اللغة الفرنسية من عالجها ببراعة تفوق براعته في مرونة وتوسّع وتفنّن وحذق وتلاعب واستنباط وإشراق. إنّها حقّاً سطعت به سطوعاً. وقد غذّى خمسة أجيال من كتّاب عصره وكتّاب هذا العصر شعراء وناثرين، صحافيين ومؤلّفين مسرحيين. فنسخوا من النعوت والصور، من تحالف الاستعارات ومفاجئات الأسجاع، من دورات الجمل وصيغ البيان ما كان من إبداع قريحة هوجو. وما أكثر ما تجده الآن

في الصحافة العربية بمصر وغير مصر من تعبيرات هوجو والاستشهاد بآرائه، ربّما دون أن ينتبه الكاتبون والقارئون إلى ذلك.

* * *

كان قد سبقه أندريه شينييه[٣] ولامرتين إلى تحرير الشعر الفرنسي من قيوده الكلاسيكية. أمّا هوجو فقد حطم القوالب ليخلق من بقاياها قوالب جديدة، وقلب جميع أوضاع الشعر الفرنسي ليستغلّ جميع ممكناته. سواءً في القصائد التي هي محض مناورة صناعية كما في ديوان «الشرقيات»، وفي أشعار التشبيب والوصف والحنين وحبّ الأطفال وعاطفة الأمومة والهناء في الحياة المنزلية، وفي شعر السياسة والتاريخ والثورة والأسطورة، وفي شعر الكراهة العاصفة والانتقام الذي لا يرتوي، وفي شعر التمجيد والتعظيم، وفي شعره الكوني البديع - إنّه أوجد من القوالب والصيغ والوسائل ومن صنوف التوقيع والسجع والرويّ ما يكفي لتخليد ثلاثة من كبار الشعراء. أمّا روعة الصور، وثراء الألوان، ولذاذة المفاجئات، ونشوة الموسيقى التي تشعرك دائماً بعزف «أوركسترات» عديدة - فذلك خاصّ بفنّ هوجو.

وأمّا في النثر فقد قال هو إنّه «ألبس الألفاظ القلنسوة الحمراء (قلنسوة الثورة الفرنسية) وأثار الزوابع في أعماق المحابر» وذلك صحيح. قد يأتي بأغرب الألفاظ فتظهر في جملته محكمة أليفة التداول، وقد يلتقط العادي من الألفاظ فينقلب بتعبيره شريفاً ناصعاً. وبإحداث هذه الحركات الكبيرة العنيفة في كيان اللغة الفرنسية هو أخرجها من الماضي، وأفصح عن الحاضر (حاضره) ومهّد السبيل للآتين بعده من حملة القلم. لو فقدت اللغة الفرنسية عشرات من كتّابها ما أحسّت بفقدهم. ولكن لو فقدت هوجو لكان ذلك بمثابة باريس وقد خلت من قوس النصر ومن غاب بولوني.

* * *

قال هوجو في بعض كتاباته: «لكل زمن عظيم وجهان، الوجه السياسي والوجه الأدبي. وكل عصر يزدوج برجل العمل ورجل الفكر، يتضاعفان الواحد بالآخر فيؤدّيان معاً قيمة عصرهما. رجل العمل، ثمّ رجل الفكر. رجل الحضارة يضاف إليه رجل الفنّ. لوثر[٤] ثمّ شكسبير، ريشليو ثمّ كورناي[٥]، كرومويل[٦] ثمّ ميلتن[٧]،

نابوليون ثمّ «المجهول». لم نعرف من هذا العصر إلّا وجهاً واحداً: نابوليون، فدعوا الآخر يظهر، إذ بعد الإمبراطور الشاعر. قد كان لنابوليون قصائده، وسيكون للشاعر معاركه. فليخرج الشاعر من صفوف هذه الشبيبة حيث جبهته ما زالت مغمورة بالظلام. فليخرج المختار الذي سيتوازى ونابوليون فيؤدّي إلى المستقبل بياناً عامّاً عن القرن التاسع عشر!».

ونبحث اليوم عن ذلك الشاعر فلا نجده في غير فيكتور هوجو. ونابوليون تناثرت فتوحاته، وردّت إلى أهلها الأراضي التي اغتصبها بدماء الجنود وبتفطّر القلوب وبإشقاء الأسر. لقد تعذّب هو للتفكير عن كل ذلك، بقضاء من العدل السريّ الرهيب الملازم صميم الحياة. وتعذّب ولده البريء، لأنّ الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. ولم يبق من نابوليون إلّا صورة النجم الطالع تحاذيها صورة الأفول.

أمّا الشاعر هوجو، أمّا نابوليون الأدب والشعر، فستزيد هالة مجده تشعّعاً كلّما توغّل تاريخه في التباعد مرجعاً طيفه إلى أعماق الزمن.

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨١٤١، ١ حزيران/يونيو ١٩٣٥، ص ١ . نُشر المقال أيضاً في المحروسة، س ٥٩، ع ٥١٠٥، ٥ حزيران/يونيو ١٩٣٥، ص ١ .

(١) المجْنُوشكُوب هو العدسة المكبِّرة.

(٢) Luigi Pirandello (١٨٦٧ - ١٩٣٦)، أديب إيطالي، من كبار الكتّاب المسرحيين في القرن العشرين، والذي لا يقلّ عمله الروائي والقصصي الواسع عن إنتاجه الدرامي. أمدّ المسرح الإيطالي الذي خضع فترة طويلة لتأثيرات أجنبية بقوّة دفع جديدة كما شقّ الطريق للمسرح الواقعي الحديث بصفة عامّة. درّس تاريخ الأدب الإيطالي في Istituto Superiore di Magistero بروما ما بين ١٨٩٧ - ١٩٢١، ثمّ أنشأ عام ١٩٢٥ مسرحه الخاصّ (Teatro d'arte) وقدّم عروضاً مسرحية في أوربّا وأمريكا مع فرقته. أصبح عضواً في الأكاديمية المعروفة باسم Accademia reale d'Italia، وحاز عام ١٩٣٤ على جائزة نوبل. أُنظر في هذا الصدد مقالة ميّ زيادة «بيراندللو ومسرحياته الوجيعة» الصادرة في المقتطف، ج ٨٦، يناير ١٩٣٥، ص ١٥ - ٢٠، والمضمّنة في كتاب «نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة»، إعداد أنطوان محسن القوّال، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٣، ص ٤٤ - ٥٤ .

(٣) André Chénier (١٧٦٢ - ١٧٩٤)، شاعر غنائي فرنسي. عمل ما بين ١٧٨٧ - ١٧٩٠ موظّفاً في سفارة بلاده في لندن. دفعه الإرهاب إلى معاداة الثورة الفرنسية، بعد أن كان أحد أتباعها، فاضطرّ إلى الهرب. أقام عاماً واحداً في فرساي ليعود عام ١٧٩٣ إلى باريس حيث أُعدم بتهمة مساندة الملكية قبل بضعة أيّام من إطاحة روبسبيار (Robespierre). ومع أنّه لم ينشر في حياته سوى اثنين من قصائده فإنّه يُعدّ الأهمّ بين الشعراء الوجدانيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر. تمسّك عن وعي بالنماذج الكلاسيكية، ولكنّه احتفظ في مراثيه وأناشيده بأسلوبه الخاصّ من خلال جرأته الشعرية، وأصالة معايشته وأحاسيسه، إلى جانب بساطته الطبيعية، ما جعله يترك بصمات واضحة على الشعر الرومنطيقي.

(٤) Martin Luther (١٤٨٣ - ١٥٤٦)، اللاهوتي والمصلح الديني، منشئ البروتستانتية في ألمانيا.

(٥) Pierre Corneille (١٦٠٦ - ١٦٨٣)، الشاعر المسرحي الفرنسي الكبير. انتمى إلى مجموعة المؤلّفين المحيطين بريشليو (Richelieu) في باريس. حقّق أكبر نجاحاته عام ١٦٣٧ بالتراجيديا الكوميدية *Le Cid* (السيد) التي شكّلت علامة على مرحلة جديدة في تطوّر الدراما الكلاسيكية الفرنسية وتُعتبر قمّة في الأدب الفرنسي خلال القرن السابع عشر.

(٦) Oliver Cromwell (١٥٩٩ - ١٦٥٨)، قائد أعلى للجيش ورجل دولة إنجليزي. كان عضواً في البرلمان منذ ١٦٤٠ وتزعّم حركة المعارضة لسلطة الملك. انتصر على تشارلس الأوّل في الحرب الأهلية وأعدمه عام ١٦٤٩ . ألغى الملكية بدعم من بقية أعضاء البرلمان وحصل عام ١٦٥٣ في عهد الجمهورية (Common Wealth and Free State of England) بصفته لوردبروتكتور (Lord Protector) أي السيّد الحامي أو كبير الحماة على صلاحيات مطلقة مدّة حياته. تعجّل في توسيع القوّات البحرية الإنجليزية، وأرسى بالمكاسب التي حقّقها في الصراع مع هولندا من جهة ومع أسبانيا الاستعمارية الكاثوليكية من جهة أخرى دعائم إنجلترا كدولة عظمى.

(٧) John Milton (١٦٠٨ - ١٦٧٤)، شاعر وسياسي إنجليزي. وقف خلال الحرب الأهلية في إنجلترا إلى جانب البرلمان، وعُيّن في عهد كرومويل وكيل وزارة. ساند سياسياً تكتّل الدول البروتستانتية الأوربّية، وعاش بعد عودة الأسرة المالكة (the Stuarts) وحيداً فقيراً مكفوف البصر، لا يملك شيئاً سوى إبداعه الشعري. أهمّ أعماله الشعرية هي ملحمة *Paradise Lost* (الفردوس المفقود) في عشرة أجزاء ١٦٦٧ (تمّ توسيعها إلى ١٢ جزءاً ١٦٧٤)، وفيها يعالج خلق الإنسان والخطيئة. أثّرت صوره الشعرية ذات الخيال الجريء على الحركة الرومنطيقية الإنجليزية لاحقاً.

خواطر متناثرة

*** ابتسامات ربيعية في القيظ المرهق**

*** الشمس وعلاقتها بالآثار المصرية**

*** ... وبما يدعو إليه النفير**

تلك الابتسامات تعرضها الصحف بوصف زيارة أمير الصعيد[1] مع الأميرتين شقيقتيه لآثار القاهرة ومساجدها وصروحها ومتاحفها. وإلى جانب الوصف بالقلم «وصف» بالتصوير الشمسي.

والصور الفوتوغرافية أبلغ من الوصف الكتابي وأسرع تأدية. وهي تظهر تلك الوجوه الفتيّة الثلاثة كابتسامات ربيعية تنسينا لحظة إرهاق هذا الجوّ القائظ.

والتشابه شديد بين الوجوه الثلاثة، سواءً في غضارة الحداثة، ودقّة التقسيم، وبيان الملامح، وفي الوثبة النفسية الخاصّة بحداثة السنّ، يصحبها التغلّب على النفس وضبط الانفعال والرصانة التي تفرضها التربية الصالحة وحسن التأدّب.

وبتقسيمها وبسيمائها، لا سيّما بطريقة توجيه النظر وبخطوط الشفاه وبنوع انطباقها، جميع هذه الوجوه شديدة الشبه بوجه جلالة الملك، كما تراه في أيّة صورة من صوره.

نستطيع أن نتخيّل مرح الأمراء الصغار إذ يروون لوالدتهم المعظّمة – والوالدة أطول بالاً في الإصغاء إلى مثل هذه الأحاديث اللذيذة – حكاية تجوالهم، ويعبّرون عن الأثر الذي تركه في نفوسهم هذا المشهد أو ذاك، وبخاصّة أنّهم يرون هذه النفائس للمرّة الأولى. ربّما أوجدت سرعة تعاقب هذه المشاهد مزيجاً من الدهشة والإجهاد لا يترك لهم المجال الكافي لتذوّق السرور. على أنّ السرور سيتذوّقونه شيئاً فشيئاً فيما بعد، لأنّ بعض أنواع الذكرى تركّز الأشياء في مكانها وتنيلها قيمتها الخاصّة التي قد تنقص منها أو تفخّمها المشاهدة المحسوسة الأولى.

وكون الأمير على وشك السفر يجعل هذه الزيارات المشتركة أعزّ عنده وأشدّ وقعاً. ثمّ، أليس أنّ اختلاط التأثّرات والانفعالات في النفوس الغضّة، هو الذي يلقي على الوجوه الوسيمة ظلّاً طفيفاً من الكآبة كما يبدو أحياناً في الصور؟ أولا يفكّرون جميعاً أحياناً في الوداع القريب؟

كلنا، كباراً وصغاراً، نذكر كآبتنا لدن مغادرة المنزل لأوّل مرّة والابتعاد عن حضن الوالدين بسبب الدراسة. ومن الناس من لا ينسى طول الحياة مرارة هذا الفراق الأوّل.

ولكن عنك الكآبة، أيّتها الوجوه الجميلة! فأمير الصعيد لا بدّ له من التشدّد والنموّ الحسّي والأدبي ليتفهّم في رحابة خصائصه وتبعاته ولينضج فكراً ودراسة وتنشئة رسمية واجتماعية. وسيكون إلى جانبه ومعه في إنجلترا قلبا والديه الجليلين وقلوب أخواته وقلب الأمّة المصرية يرعاه ويرقب تقدّمه خطوة خطوة. وسيخيّم عليه وراء البحار طيف مصر الرائع المجيد.

وسيعود الأمير الوسيم بأمان وسلام. سيعود فخوراً بما جهد وبما حصّل واقتبس، فيقول بعودته لوالديه المشتاقين ولمصر المترقّبة: «ها أنذا! إنّي لم أبتعد عبثاً، وقد استفدت من ممكناتي وممكنات وسطي كل يوم وكل ساعة».

* * *

شمس مصر من الشهرة بحيث يلتمس قربها المقبلون من جميع أنحاء العالم حتّى في قلب الشتاء وفصل الزمهرير. أمّا في فصل الصيف فهي السائد الأعظم الذي نحسّ سلطانه من كل صوب. وقد كانت كذلك منذ بدء التاريخ بل قبل أن يفكّر أحد في إمكان تدوين التاريخ. فلا عجب أن يؤلّهها قدماء المصريين منذ أنشأوا يرقبون مظاهر الطبيعة وحركة الأجرام السماوية، متدبّرين أثرها وفعلها في أرضهم وجوّهم وحياتهم.

وحسبنا أن نذكر أنّ هيليوبوليس القديمة أي مدينة الشمس، كانت مركزاً لمدرسة من أعظم المدارس المصرية السحيقة. وفيها أقام أفلاطون العظيم ثلاثة عشر عاماً يطلب العلم على فلاسفة مصر وكهنتها، قبل أن يخرج آثاره الأدبية والفلسفية.

وقد شيدت هيليوبوليس باسم الشمس ولعبادتها. وأقاموا فيها هيكلاً عظيماً حملت أعمدته الاثنا عشر نقوشاً ترمز إلى تحوّل العناصر وتعاقب الفصول، كما أشار عدد الأعمدة إلى الأبراج الاثني عشر التي تجتازها الشمس في دورتها السنوية. وكان كل من تلك الأعمدة الباذخة ذا شكل هرمي، يبتدئ بقاعدة كبيرة رحيبة، ويتدرّج صعوداً في تصاغر لينتهي برأس دقيق سنين (نسبياً). لأنّ الشكل الهرمي أقرب الأشكال إلى تمثيل أشعّة الشمس وألسنة اللهيب.

وقد يكون هذا بعض ما تشير إليه أهرام مصر عموماً، وإن رمت هندستها إلى غير ذلك من الأغراض العلمية والفلسفية والكونية.

ورفعوا في صحن الهيكل تمثالاً ذهبياً بلون الشعاع، يعرض فتى أمرد ارتفعت يده الواحدة بالسوط كمن يسوق المركبة أي «مركبة الشمس»، وحملت يده الأخرى الصاعقة وسنبلة القمح. فكانوا ممثّلين الجبروت والإحسان في آن واحد، من ذلك الإله الرامز إلى الشمس، الذي تنسكب أشعّته فتحيي وتنضج، وتنقضّ صواعقه فتميت وتفني.

* * *

ولمّا كانت الشمس مصدر الصواعق والأشعّة معاً، فهي كذلك مصدر كل ما ينجم ويتفرّع عن هؤلاء وأولئك. ومعلوم أنّ أكثر الثورات والحروب تنشب بين الربيع والصيف، عندما تشتدّ حرارة الشمس على الأرض ويشتدّ وهيجها في دم الإنسان.

وعلى ذلك، نتخيّل الشمس مسؤولة بعض الشيء عن دويّ النفير العامّ الذي نكاد نسمعه داعياً إلى الحرب ومعلناً أنّ ساعة الانفجار قد دنت، بعد تأهّب العالم لهذه الساعة منذ هدنة الحرب السالفة. وسيكون الأمر كذلك دائماً: كل حرب ستنتظر فيها ساعة السلم، وكل سلم ستنتظر فيه ساعة الحرب.

لا ريب في أنّ التربية العسكرية جمّة الفوائد. ولا خلاف في ضرورتها لحفز عزائم الرجال ولاستكمال رجولتهم. غير أنّ الحرب أيضاً كثيرة الشرور لا الوقتية فقط بل المزمنة خصوصاً.

ليس الويل للمغلوب وحده، بل الويل للغالب وللمغلوب جميعاً. ولا تقتصر الويلات على المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل المشكلات المستفحلة هي في الأمراض الأخلاقية وفي العلل العصبية والجسدية. وهي لا تقف عند الجيل الذي يخوض المعارك «ويعيش» زمن الحرب. وإنّما تنتقل بالوراثة إلى الأجيال التالية.

وكيف لا نفكّر في حزن النساء الآن؟ إنّ في كل بيت وكل شعب هلعاً وغمّاً وتساؤلاً أين هناء العائلة وكيف تكون الطمأنينة ميسورة؟ وتلك النظرية التي كنّا نودّ أن تكون صحيحة، من أنّ على المرأة أن تعيش للأسرة وفي داخل الأسرة تحت حماية الرجل الذي يردّ عنها المصائب ويمهّد لها سبيل الحياة - كيف تتحقّق تلك النظرية مع التهديد بالحرب؟

إنّ الحرب - مع الفواجع البيتية الملازمة لها - ستخرج المرأة غداً إلى الميادين العامّة ودوائر الأشغال لتقوم بالأعمال المطلوبة في غياب الرجال، وستزيد الحرب في عدد النساء العاملات في المصانع فضلاً عن معامل الذخائر الحربية التي اشتغلت فيها المرأة إبّان الحرب العامّة.

هذا ما سيسوقونها إلى العمل فيه، وقلبها ينفطر غمّاً ويقطر دماً. وهذا ما تفكّر فيه النساء الآن. أمّا الرجال فيفكّرون في أمور أخرى ويتفلسفون.

مكتوب؟

(ميّ)

(*) الأهرام، س ٦١، ع ١٨١٦٠، ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٣٥، ص ١ . أُعيد نشر المقال في المحروسة، س ٥٩، ع ٥١٠٨، ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٣٥، ص ١ .

(١) لقب وليّ عهد العرش المصري في ذلك الوقت، الأمير فاروق الذي تولّى الملك ما بين ١٩٣٦ - ١٩٥٢ .

المحروسة (١٩٣٤ - ١٩٣٥)

١ - هل الأدب العربي في غنى عن الأدب الغربي؟
٢ - وهل نحن في حاجة إلى كتب موضوعة أم إلى كتب مترجمة؟

[تقديم الجريدة: خطر لأحد محرّري المقطّم أن يستفتي طائفة من الأدباء والكتّاب في هذين الموضوعين. وفيما يلي ردّ حضرة الآنسة «ميّ» على هذين السؤالين.]

ردّ الآنسة ميّ

هل الأدب العربي في غنى عن الأدب الغربي؟

نظرة إلى نتاج الأدب العربي قبل قرن من الزمن تظهرنا على فقر الأدب المقتصر على نفسه في مقرّه دون الاتّصال بالآداب الأخرى وتفهمنا لماذا تقدّم أدبنا اليوم عنه قبل مئة عام. الحجر القائم بمفرده صورة من وجود جامد قاحل. فإذا ما احتكّ بحجر آخر انبثقت منه الشرارة والحياة. وقد يعترض المعترضون على تشبيه الأدب بالحجر ولكن إذا ذكروا أنّ الحجر مجموعة ذريرات من وجود محسوس وأنّ الأدب مجموعة ذريرات من وجود أشفّ وألطف فعندئذ يصحّ التشبيه.

أدب الأمّة الواحدة بيان عن روح الأمّة العامّة كما أنّ الرأي الشخصي بيان عن صورة الشخصية الفردية. فأيّ رأي شخصي - كائنة ما كانت مواهب صاحب الرأي - يتمّ له التشبّع والنموّ وتتوفّر له الإحاطة والمناعة دون الاطّلاع على الجليل والتافه من آراء الآخرين ودون تقديم نفسه للامتحان والمقابلة في معرض الآراء الأخرى؟ وكيف يتسنّى لأدب ما أن يجعل لنفسه معياراً ومكانة دون اختبار الآداب الأخرى وتناولها بالنقد والتمحيص والاستفادة منها بالاستيحاء والاستلهام؟

لأدب الجماعات التي تعيش على الفطرة في انزوائها طلاوة ولذاذة وأهمّية نسبية ولكنّه محدود ضيّق الدائرة يقتصر على حوافز حيوية معدودة. أمّا الجماعات الطامعة في الحضارة فلا غنى لها عن غيرها وكلّما تعدّدت أسباب الاتّصال بين أدبها والآداب الأخرى استزادت لنفسها مصادر النموّ والثروة.

أعلم أنّ هذا القول عرضة للالتباس والتفسير الخاطئ إذ كثيراً ما يفهم منه المحاكاة والنسخ أو ما يسمّونه «النسج على المنوال» ممّا يحمل على تشويه الروح العامّة في بيانها الأدبي. وهذا أسوأ صنوف الاستفادة، وهو يدلّ على قحط في النفوس، وإنّما الغرض من الاتّصال بآداب الغرب هو الاستنارة بها لاستجلاء صميم ما لدينا، وتعرّف ما ابتكرته من فنون التفكير والشعور والبيان لنتعرّف كل ما نستطيعه في ذلك السبيل.

وقد تناول التغيير الأدب في أيّامنا كما تناول كل مظهر آخر من مظاهر الحياة. وبعد أن كان الأدب سجيناً في برج من العاج - على نحو تعبير الفرنجة - ينمّق من وحدته ألفاظاً وجملاً ومصنّفات غريبة عن الروح العامّة، أصبح الآن يطوف بالميادين والمنازل والأكواخ ويلج الساحات المائجة بالحركة وبالحياة ليشعر مع الجماهير بكل ما يهزّها من شوق ويتنازعها من انفعال. هذا بعض ما نتعلّمه من أدب الغرب.

فإذا ابتغى أدبنا الانتحار بالجوع فليبتعد عن الأدب الغربي. أمّا إذا كان حقّاً تائقاً إلى الحياة فليستنر بمصباح الغرب ليكتشف خفايا أغواره مخرجاً منها التحف والنفائس.

* * *

هل نحن في حاجة إلى كتب مترجمة أم إلى كتب موضوعة؟ وما هي حاجتنا إلى كل نوع منها؟

أظنّ أنّ ردّي على السؤال السابق يتضمّن ردّاً مجملاً على هذين السؤالين.

نحن في حاجة إلى هذه الكتب وتلك، في حاجة إلى الكتب المترجمة لنشرف منها على حركة العالم الأدبي نستلهمها ونستوحيها ونتعلّم منها الشيء الكثير، وفي حاجة إلى الكتب الموضوعة المعبّرة عن مكنونات نفوسنا وعمّا نتطلّع إليه من مثل عليا.

وحاجتنا حاجات إلى جميع أنواع الكتب لا الأدبية وحسب بل الفنّية والثقافية والزراعية والصناعية والعلمية بعديد فروعها فافتقارنا إلى كل هذه الكتب محسوس رغم الشيء الكثير الذي تخرجه المطابع. إنّ اليقظة المليئة بالبشائر والآمال إنّما هي قبل كل شيء مليئة بشعورنا بما نفتقر إليه، وهذا الشعور نفسه كفيل باهتدائنا شيئاً فشيئاً إلى الكثير الذي نحتاج إليه.

(ميّ)

(*) المحروسة، س ٥٩، ع ٥٠٨٣، ٢٦ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٤، ص ٣ .

من الربيع إلى الصيف[1]

من الربيع إلى الصيف، أي من فصل النموّ والازدهار إلى فصل النضوج والامتلاء، من موسم الوعود إلى موسم إنجاز الوعود، من موسم الشعراء والمتأمّلين يقطفون أزهار الخيال ويجمعون غلّات التفكير، إلى موسم الزرّاع والفلّاحين يجمعون محصول الحبوب والبذور التي غذوها بجهودهم وآمالهم ورووها بالعرق المتصبّب من جباههم وأجسادهم. حتّى في هذا القطر حيث تنتج الأرض عدّة مرّات في العام يصحّ القول إنّ الأرض تنطق في الربيع لتعترف بما أودع في صدرها، وفي الصيف تسلّم الأرض وديعتها وقد ضاعفتها آلافاً، فتثبت مرّة أخرى أنّ عناء الفلّاح بمعالجتها لم يكن فاشلاً وأنّها دائماً موئل الرجاء للعاملين ومستودع القوّة الإيجابية لأبناء الشعب.

ومن جميل الاتّفاق أن يقع بين الربيع والصيف مولد ذاك الذي كان في خاطر الوجود ضميراً ربيعياً وكان مجيئه بشيراً بالنضوج وإعلاناً لجلال الصيف. وجميل أن يكون موعد التحدّث عن الربيع والصيف يوم تحتفي الديار المصرية والأمم الإسلامية بمولد النبيّ الكريم الذي كان سليل ذؤابة القوم الأماجد وكان في نفس الوقت ابن الشعب فنشأ يتيماً، وترعرع فقيراً وشبّ عصامياً عاملاً فعرف بالتجربة كل قدرة الشعب وجميع ممكناته.

إنّي أنحني احتراماً لذكرى الفتى الأمّي العربي الذي كشف للشعب عن حاجته إلى الإيمان باللّه الواحد الأحد، وأوجد حضارة عربية ربطت بين سابق الحضارات ولاحقها فكانت حضارة نسجتها حقّاً يد الشعب!

* * *

أيّها السادة والسيّدات،

أكاد أشعر، وأنا هنا بمحطّة الإذاعة، بأنّي أتنسّم عبير الفلّ والياسمين متضوّعاً الآن في بعض شوارع القاهرة وساحاتها الكبرى.

ما أذكى ذاك العبير إذ ينتشر من النوامي الكاسية الجدران والمعرّشة على الأسوار، ومن شجيرات الحدائق في المدينة وفي الضواحي. بيد أنّه أقدر ما يكون إلى السابلة عندما يفوح من تلك القلائد البيضاء تتوسّطها وريدة حمراء التي يعرضها الغلمان السرّيحة للبيع.

زهر الفلّ والياسمين من بشائر الصيف، والنساء تحبّه هديّة وزينة لرقّة زهرته، ونقاء بياضه، وطيب شذاه وربّما أيضاً لبلاغة مغزاه. فهو دون سائر الأزهار لا يعيش إلّا ساعات معدودة. وكأنّه يقول إنّ الشباب والجمال والازدهار والتضوّع - تلك المنح السنيّة في الحياة، سريعة العطب، سريعة الزوال ككل شيء إضافي في مدّ الوجود وجزره. أهو يتعمّد أن يرهف إدراكنا هذه الحقيقة عندما يسري أريجه في الدم مثيراً كآبة مضعضعة مبهمة مع الرغبة في الشعور المتعجّل الرحيب بالحياة وبكل ما في الحياة من سحر وفتنة؟

نحن ما زلنا في أواخر الربيع، ولدينا أسبوع آخر نطويه قبل الصيف الذي يبدأ بين الحادي والثاني والعشرين من هذا الشهر. على أنّ نوع اتّصال قطرنا بحركة الشمس يمدّ في صيفنا من طرفيه! ويشعرنا بحلوله منذ منتصف الربيع. لذلك كان كل ما يحيط بنا ممّا نحسّ ونرى ونقرأ معلناً سلطان الصيف منذ أسابيع.

والصيف الذي هو موسم الغلّة والحصاد هو كذلك فصل الراحة للمتعبين وفصل السفر للتائقين إلى الرحيل. وها قطرات البحر تستأنف رحلاتها. وقطرات المفاجأة تستهلّ نشاطها. وصناديق السفر والحقائب في واجهات المخازن تحدّث عن البحار البعيدة وعن قصيّ البلدان وملابس البحر وأزياء الشاطئ. توهّمنا أنّ البحر ينادينا ليستقبلنا في عبابه فينعش فينا الحياة، ويجدّد منّا القوى، ونخرج من لدنه شاعرين - بالحقيقة لا بالمجاز - بأنّنا غرقى فضله وإحسانه. وأمّا الذين قضت عليهم الأعمال والأحوال بالبقاء فيعاتبون الدهر ويقرّرون أنّ الدنيا.. هي بنت ذياك الحيوان الأمين الذي يحبّه الإنسان ويرهفه في المنازل.. ويحتملون وطأة النهار في انتظار رحمة الليل.

أجل، الصيف هو موسم الراحة واللهو البريء والاستفادة بلا عناء وتجديد القوى وموسم السفر وبخاصّة لأهل البلاد الحارّة. وقد يكون السفر أحياناً محتوماً على بعض

طوائف الناس الذين يجهدون أعصابهم وأفكارهم أكثر من غيرهم، وكم في السفر من دواء للأعصاب المنهوكة، وللذين اعتلجت في حياتهم الآلام والأحزان، وللذين سئموا الحياة متّجهة على وتيرة واحدة، وكم في الانتقال من مكان إلى مكان من فوائد حسّية وأدبية لا تقدّر! السفر هو الكتاب الأكبر المفتوح لكل ذكيّ لبيب. ولئن لم يفهم بعض الناس من السفر إلّا المسرّات السطحية، الرخيصة بمعناها، الهدّامة بمفعولها المالي والأخلاقي فذلك لا يحول دون صدق قول بايكون[٢]: إنّ السفر بعض الثقافة للشابّ وبعض الاختبار للكهل.

فلا عجب إذا نحن رحلنا إلى بلاد الغرب نطلب عندها وجوهاً أخرى من العالم ونقف على بعض ما بلغته في النظام والترتيب والعلم والفنّ والاجتماعيات، فنقتبس عنها ما توافق ومطالبنا دون أن يتنافر وروح بلادنا. ولا عجب إذا نحن رحلنا إلى الأقطار الشرقية الشقيقة حيث الجمال، والائتناس، ووحدة اللغة، والاشتراك في ذكريات الماضي وفي آمال المستقبل. إنّنا لنعود من تلك الرحلات أغنى نفوساً، وأركز شخصية، وأوفر صحّة ونشاطاً.

ولكن علينا خصوصاً أن نختلف إلى المصايف المصرية لننعش الحركة المالية والاجتماعية في محيط نتلقّى منه حياة ونشاطاً وانتعاشاً. والمصايف المصرية قليلة العدد، فقد كان يجب أن يكون الإقبال عليها أشدّ كما كان يجب أن يعنى أهلها والقائمون على شؤون بلدياتها بإزالة أسباب التذمّر والشكوى وتمهيد وسائل الإغراء والراحة والرضى للمصطافين من مختلف الطبقات. وهي بعد مصايف جميلة الموقع، حافلة بمحاسن الطبيعة ومجالي السرور. وهي تعلن ناحية من روح البلاد وتاريخها واحتياجاتها ويقظتها لمن يروقه أن ينتبه إلى ذلك.

وجميع تلك المصايف بحرية فيما أعلم. ومع أنّ في بعض مديريات الوجه البحري بقاعاً تصلح للاصطياف فالمصيف الريفي مفقود في هذه البلاد. ليس من بلد في العالم إلّا تيسّرت فيه الحياة الريفية للغريب بنفقة زهيدة، في هدوء وبساطة، بعيداً عن ضوضاء المصايف الكبيرة وقيودها ورسمياتها. وكثيرون من الناس يؤثرون هناء هذه الحياة الريفية على حياة الجلبة والازدحام والظهور. أمّا في مصر، فلا مكان في الريف

لغير أهله ولغير أصحاب الأطيان فيه. حتّى مواقع الآثار التاريخية والفنّية، لولا الفنادق الأجنبية ما استطاع أن يرتادها سائح أو يزورها زائر.

ولكن كيف أجرؤ على ذكر المصيف الريفي في حين يفتقر الريف إلى أولى الوسائل الصحّية، وهو في شديد الحاجة إلى الإصلاح والتحسين؟ الواقع أنّ حركة التطوّر بمصر نشيطة في المدن الكبرى، تليها المرافئ، وبعدها حواضر الأقاليم، والفارق بين هذه والريف كالفارق بين بلاد نظّمت على أحدث طراز وآخر ابتكار، وبين بلاد تعيش على الفطرة شأنها قبل مئات الأعوام.

ومن عادتنا أن نتّكل على الحكومة في كل شيء، وأن نطالبها بكل شيء. ونفوذ الحكومة ضروري بلا شكّ ولكنّ الحكومة على قدرتها وامتداد سلطانها لا تنجح في مشروع إلّا إذا كان كل من أبناء البلاد راغباً في مساعدتها، ساعياً إلى التحسين وتحقيق الإصلاح الصحّي والاجتماعي والأدبي في حيّزه، مهما يكن صغيراً محدوداً.

أقول هذا بابتهاج لأنّي أذكر في الحال مساعي جماعة نهضة القرى. أجل، السفر حسن ومفيد وضروري. على أنّ أنبل الأسفار سفركم، يا أعضاء هذه الجماعة، إذ تعودون إلى الريف، منجم البلاد الأكبر. وأخصب صيف تصطافون هو الصيف الذي تقضونه عاملين لإصلاح حال الفلّاح، للأخذ بيده والنهوض به.

هنيئاً لكم، إنّ لكم وطناً تستطيعون أن تكونوا له المدرّس والطبيب والمواسي كما يكون هو لكم عند الضرورة. والمشقّة التي تعانونها في سبيله أعذب من كل صنوف الراحة. أنتم تخدمون الفلّاح وتفهمونه أهمّية مكانته ونبل الخصائص التي اكتسبها بمحاذاة أرضه العجيبة، من خصوبة واحتمال ولين وقوّة ومناعة. أنتم تخدمون الأمّ الريفية التي لم تحصّل علماً ولم تنل شهادة، وهي مع ذلك أنجبت رجالاً كانوا وما زالوا في وسطهم نوراً. أنتم تحمون الطفل الريفي المحتاج إلى المحبّة والعناية والتثقيف، وتفهمونه – وعليكم أن تفهموه – أنّ روح المستقبل مدّخرة عنده.

هذا سفركم، وذاك صيفكم. أمّا المكافأة فتجدونها في نتيجة عملكم، سريعة كانت أم بطيئة، حتّى إذا ما شعرتم أحياناً بالتعب وانحطاط القوى سرتم متمهّلين إلى أسراب النخيل، أو تفيّأتم ظلّها بعد الغروب، لتتأمّلوا كيف تشرئبّ تلك الأشجار نحو

الأعالي بتناسق هندسي كأعمدة الهياكل. وقد تتخيّلون كذلك أنّ تلك الأشجار البديعة الفخمة التي ألهمت بعدئذ فنّ العمارة الغوطية ما زالت كما كانت تثب وثبتها في الهواء، كأنّما عليها أن تلهم فنّاً جديداً لم يحزِ به أحد منّا إلى اليوم.

* * *

والآن، أيّتها السيّدات والأوانس، هيّا إلى تنظيم الحقائب وترتيب ثياب السفر، هذا فنّ تفرّدنا به نحن، معشر النساء، والرجال الذين يباهون بمعرفة كل شيء، لا يعرفون من ذلك الفنّ شيئاً.

أتمّ ترتيب الحقائب؟ إذاً، هيّا إلى المحطّة قبيل قيام القطار! مع السلامة! صيف سعيد! نشوف وجهكم بخير.

(ميّ)

(*) المحروسة، س ٥٩، ع ٥١٠٩، ٣ تمّوز/يوليو ١٩٣٥، ص ١ .

(١) بثّت ميّ زيادة هذا الحديث من محطّة الإذاعة في القاهرة كما يتبيّن من إشارتها الوجيزة الواردة في النصّ.

(٢) المقصود هو Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦)، الفيلسوف والسياسي الإنجليزي.

السياسة (١٩٢٣)

رسالة إلى محمّد صبري[1]

القاهرة في ٢٣ يونيه سنة ١٩٢٣

سيّدي،

تلقّيت رسالتك عن البارودي بالشكر. وتصفّحتها مقدّرة مجهودك في مزاولة هذا النمط من البحث والتحليل وإخراج خطوط الشخصية الأدبية ورسم صورتها من خلال الآثار القلمية. وإنّي لأرى رأيك في أنّ بين شعراء الجيل الأسبق - مدّ اللّه في عمر الجيل السابق وأبقاه «تاجاً» يزين رأس جيلنا... - تبرز شخصية البارودي قويّة مهيبة جامعة بين الرجولة والرقّة كما جمعت بين السيف والقلم.

ومن ثمّ يسهل علينا أن نغتفر ما في شعره مرّة من حشو ولغو، ومرّة من طنين أجوف كما في هذا البيت الذي قد يعجب به كثيرون، وأنا أراه مثالاً لعلّة هي من ألزم علل الأدب العربي. والبيت هو:

إذا استلّ منهم سيّدٌ غَرْبَ سيفِه[2] تفزّعت الأفلاك والتفت الدهر

وأذكر أنّه كان يستحسنه في البدء المرحوم إسماعيل صبري باشا، ذاك الأستاذ الكبير في التمحيص الفنّي وصفاء الذوق. وإذ أبديت عليه اعتراضاً قال: «ليه مالو؟ هيه؟ واللّه كويّس!» فمضيت أشرح أنّه لو قال: «إذا استلّ منهم سيّد غرب سيفه (خيّل إلى رجاله وخائفي بطشه أن) تفزّعت الأفلاك والتفت الدهر» - لو قال ذلك إذن لجاء البيت جزلاً لا يشوبه ذلك التجوّف الطنّان. وبعد شرح وتفسير مسهبين تأمّل صبري باشا، ثمّ ضحك وقال: «هيه؟ واللّه مالوش معنى! صحيح!».

قلت إنّه يسهل أن نغتفر ذلك إذ نفطن إلى مقتضيات عصره ومؤثّرات محيطه والأفكار التي تغذّى بها. نغتفره خصوصاً لما ترك من قصائد مستكملة وأبيات فرائد من قصائد أخرى، قصائد وأبيات تجلّت فيها شاعرية جزلة، وعاطفة جريحة، وفنّ صادق، وشمم وإباء.

وقد أوضحت حضرتك بعض تلك المعاني وأشرت إلى علاقتها بحياته - بلباقة تنمّ عن حاسّة فنّية للنقد، وتعرّف خالص للجمال، ومراعاة عادلة لنفوذ أنظمة الحياة. وإنّه

لنمط في النقد جمّ المنافع. أوّل هذه المنافع إنماء قوىَ الملاحظة والإدراك والعطف والإنصاف في نفس الناقد ذاته، ثمّ رسم الشخصية الأدبية التي اختارها، وأخيراً وخصوصاً إفادة حملة الأقلام من كتّاب وشعراء وإلقاء درس عليهم خلال الكلام عن سواهم، دون أن يعمد إلى جرحهم في فنّهم وفي مجهودهم، وفي نتاج قرائحهم. حقّاً إنّ الذين تفوّقوا إلى الآن بيننا كانوا ذوي فضل عميم لأنّهم نجحوا دون أن يكون لهم من النقد الحصيف مهذّب. وكل ما كان يصل إليهم لم يتعدَّ الملق المائع أو الهجو الأليم – على هذه الصورة كان صدى خواطرهم يعود إليهم. ولقد كان يفيد بعضهم، على الأقلّ، النقد التحليلي الهادئُ الصائب الذي لو لم نذكر من المبرّزين فيه عند الفرنسيين سوى تاين[٣] وبُورْجِيه وعند الإنجليز سوى رَسْكِـن لكنّا ذاكرين من غدا عندهم النقد علماً وفنّاً جميعاً تضمّنا كثيراً من تاريخ الميول الإنسانية وتاريخ تطوّر البشر.

وإنّي لأهنّئك أن تقوم بقسطك من المسئولية المعنوية الملقاة اليوم على كل مصري ناهض، بل على كل شرقي لبيب يدرك وجوب التجديد في وجوه شتّى من الحياة القومية. وأهنّئك على ما تبديه من فطانة ودراية في القيام بهذه مسئولية الكريمة.

(ميّ)

(*) السياسة، س ١، ع ٢١١، ٢ تمّوز/يوليو ١٩٢٣، ص ٦ .

(١) محمّد صبري (١٨٩٤ – ١٩٧٨)، مؤرّخ وناقد أدبي مصري، كان يلقّب بالسوربوني لأنّه حصل على الدكتوراه من جامعة السوربون في باريس عام ١٩٢٤ . عمل بعد عودته إلى القاهرة أستاذاً للتاريخ الحديث في مدرسة المعلّمين العليا ثمّ في دار العلوم، وعيّن عام ١٩٣٧ مديراً للبعثة التعليمية في جنيف. كان أول رئيس لأول قسم للوثائق والمكتبات بالجامعات المصرية. من بين أعماله العديدة في التاريخ والأدب والشعر دراسته عن الشاعر المصري محمود سامي البارودي (١٨٤٠ – ١٩٠٤) التي تناولتها ميّ زيادة في خطابها، وقد صدرت عام ١٩٢٣ عن مطبعة الشباب في القاهرة.

(٢) «غرب السيف» هو أوّله أو حدّه.

(٣) Hippolyte Taine (١٨٢٨ – ١٨٩٣)، الفيلسوف والمؤرّخ وعالم الأدب الفرنسي. تتلمذ على يد الفيلسوف Auguste Comte مؤسّس المذهب الوضعي فجعل من نظرية البيئة بؤرة استقطاب لرؤيته التاريخية.

السياسة الأسبوعية (١٩٢٦ - ١٩٢٧)

امرأة مصرية تتكلّم
وكلمتها من أغلى وثائق الثورة

حادثان جليلان يقعان في أسبوع واحد بين ١٣ نوفمبر و ٢٠ منه، أي بين موعد صدور هذا العدد والعدد الذي سبقه من السياسة الأسبوعية وهما: ذكرى عيد الجهاد الوطني، وافتتاح الدورة البرلمانية الجديدة.

ومهما خلص هذا القسم النسوي الاجتماعي بطبيعته وبميل محرّرته من كل صبغة حزبية ليقوم طليقاً بكل ما يودّ أن يخدم به الجميع وليتمّ له التعاطف بينه وبين قرّائه وقارئاته، فإنّه بطبيعته كذلك قسم المرأة الذي يتحدّث عنها مثل ما يتحدّث إليها.

وكما له أن ينبّهها على مواطن الضعف في حياتها ومواقع الخطأ في سيرها، فله كذلك أن يثبت أنّها نهضت ورقيت إلى حيث يتلاقى جميع المصريين فإذا بالاختلافات بينهم وهم عارض، وإذا هم قلب واحد يحبّ الوطن ويد واحدة تسعى لإنعاشه وإسعاده.

لذلك كان من واجب هذا القسم ومن مفاخره جميعاً أن يشير بمناسبة هذين الحادثين الجليلين إلى كلمة قالتها امرأة مصرية، فيقيم بها الدليل على أنّ صوت النساء ليس ليُصغى إليه بدافع التساهل والتشجيع فحسب؛ بل إنّه قد ينيف أحياناً على سائر الأصوات بما يعلنه من حقّ وقوّة، ويستولي على النفوس بما يبعثه فيها من روعة وخشوع. تلك الكلمة العظيمة التي قالتها مصرية عظيمة نشرناها في غير هذا المكان تحت عنوان «أصوات النساء»[(1)].

وعندي أنّ التاريخ سيضرب على شيء غير قليل ممّا قيل ويقال في هذه الأعوام، أعوام النهضة، فيرجع ولو بعضاً من الألفاظ الطنّانة والشهرات الجوفاء إلى الدائرة اللائقة بها فيقضي عليها بالانكماش والتضاؤل، إن لم يلق بها في هوّة التلاشي والنسيان.

أمّا هذه الكلمة فتزيد أهمّيتها ويزهو أثرها على تتابع الأزمان. ويوم يسير الباحث الحصيف والمقرّر الرصين بين أكداس اللغو والحشو من الأقاويل ناشداً الحجّة الصادقة والبرهان الساطع على خطوة خطتها الأمّة في سبيل التقدّم الصحيح الصريح، إذن سيقع من هذه الكلمة على دليل واضح وعنوان لامع فيدوّنها في السطر الأوّل من صحيفة الشرف والخلود.

لقد برحت من الأذهان خطب جمّة وأحاديث لا تحصى منذ قامت البلاد قومتها. ولكن من ذا الذي لا يذكر، وفي الجوانح رعدة ووجيف، ما تناقله الناس ممّا ردّت به السيّدة صفية زغلول على رسول الجنرال أللنبي وقد حمل إليها خبر الإفراج عن قرينها وعن أصحابه الثلاثة – حمد الباسل باشا وإسماعيل صدقي باشا ومحمّد محمود باشا – المعتقلين معه، وأنّهم قد أجيز لهم أن يغادروا مالطة[٢]. فقالت حرم سعد:

«في القطر المصري أربعة عشر مليون سعد زغلول. فلكم أن تطلقوا سراح زوجي، إذا شئتم، ولكم أن تبقوه منفيّاً سجيناً!».

* * *

إنّ هذه الكلمة لَمن أسهل ما يجري على لسان المتفائل باليقظة الجديدة، المتنبّئ لهذا الوادي بمستقبل زاهر.

وقد تكون من أسلس ما يمرّ في خاطر الصديق والعدوّ، والمشايع والمناهض، فيستغلّها كل لما أراد ويستنتج منها ما اتّفق مع غايته.

وقد ينطلق بها لسان سعد باشا نفسه في غير موقف فتخدمه كل مرّة وتظفره بما رمى إليه من هدف ومعنى.

ولكن إذا شئتها قطعة حيّة من القلب النابض، ملتهبة بنار الحماسة والأسى، ناطقة بالإباء وعزّة النفس، فضعها على لسان هذه المرأة دون غيرها، واسمعها منها في ذلك الموقف، لا سواه!

ضعها على لسانها وقد أُبعد زوجها المريض إلى مكان جهلت منه إلّا أنّه سجن له ومنفى. واسمعها منها وأنت تذكر أنّ صفية زغلول، على ما يحيط باسمها من ملايين الأصدقاء والصديقات، وحيدة في العالم لا أب لها، ولا أخ، ولا ولد، وأنّ جميع العواطف التي تتقاسم قلب المرأة بحكم الطبيعة قد توجّهت إلى هذا الرجل وسُكبت كلها عليه. فهو الأب، وهو الأخ، وهو الابن، وهو الزوج. وهو بعد هذا المبعد الذي تأتيها الساعة بشرى الإفراج عنه.

أُذكرْ كل ذلك وارقب وقع هذا الخبر عندها، ترى كيف هي تتلقّاه؟

أبدموع الفرح؟ أبدهشة المفاجأة؟ أبالحمد للّه على إطمئنان بالها وانتفاء القلق من نفسها؟ أم بلفظة فاترة تقضي بها اللياقة ولا تعني شيئاً معيّناً؟

قد يكون – وهو المعقول – أنّها شعرت بتلاطم عواطفها وتوثّبها، على أنّ ذلك سرّ لن يكشفه الرسول.

للرسول إشارة بديعة في وقفة نتخيّلها جديرة بأن يخلّدها الفنّ. وللرسول كلمة واحدة تعلو فوق عجيج الجماهير وهتاف المتظاهرين، ولا تدهشنا من صاحبة ذلك الأنف الروماني الأشمّ:

«في القطر المصري أربعة عشر مليون سعد زغلول. فلكم أن تطلقوا سراح زوجي، إذا شئتم، ولكم أن تبقوه منفيّاً سجيناً!».

* * *

لسنا ندري ما إذا كانت هذه الكلمة قد قيلت بالحرف أو أنّه قيل غيرها ممّا يدور حول معناها، ولكن هبْ أن قد عزاها الناس إلى تلك السيّدة لأنّ النفوس الطلعة طلبت غذاءً من مثل ذلك القول الجزل الموفور الغنَى والكرامة، المشبع بروح الوطنية العالية الناضجة! فما أحراها في الحالين بأن تُردَّد وتُنشر بين الكبار والصغار، لأنّنا لا نجد بين المأثور عن الزعماء والشعراء والخطباء ما يضارعها جمالاً ونبلاً.

ولا يغارنّ دولة الرئيس من هذا التفوّق في جانب الجنس اللطيف، فإنّه هو كان موحيه وذكره كان مذكيه.

لذلك نخطّ اليوم هذه الكلمة المؤثّرة الخالدة، ونغتبط بأنّ الصوت الذي يرسلها إلى رجال الأمّة ونسائها في هذا اليوم المشهود فيحرّك منهم الشجون ويطرب النفوس إنّما هو صوت امرأة.

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٣٧، ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦، ص ٦ .

(١) «أصوات النساء» اسم عمود في القسم النسوي الاجتماعي من «السياسة الأسبوعية» الذي تولّت ميّ زيادة مسؤولية تحريره من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦ إلى شباط/فبراير ١٩٢٧ . ظهر هذا العمود بالتناوب مع آخر عنوانه «أصوات الرجال»، ونجحت ميّ زيادة في استدراج كبار الكتّاب للمساهمة فيه ومن بينهم عبّاس محمود العقّاد الذي نظم أبياتاً شعرية تلبية لاقتراح منها لتُنشر في ذلك الباب كما يُفهم من رسالة له إليها نُشرت في كتاب محمّد محمود حمدان «من رسائل العقّاد»، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧، ص ٢٣٠، والتي سبق نشرها في حلقة من سلسلة مقالات أنيس منصور المجموعة لاحقاً في كتاب بعنوان «كانت لنا أيّام في صالون العقّاد»، مجلّة أكتوبر، ع ٢٤٣، ٢١ حزيران/يونيو ١٩٨١، ص ٧٦ . وما يلفت النظر هو مشابهة اسم العمود لعنوان كتاب قال عنه المؤلّف الفرنسي Raoul Fargeon في عمله *Silhouettes d'Egypte (Lettrés et Mondains du Caire)*، القاهرة ١٩٣١، ص ٣٩، بأنّ ميّ زيادة كانت تعدّ نشره آنذاك باللغتين الفرنسية والإنجليزية، وهو *Voix des femmes d'Orient* (أصوات النساء الشرقيات). يحمل التطابق بين العنوانين على الظنّ أنّ ميّ أرادت جمع النبذ المنشورة في هذا العمود وإصدارها في كتاب. لكنّ هذا العمل لم يُعثر له على أثر حتّى اليوم، وربّما يصحّ حدس الأديبة سلمى الحفّار الكزبري في كتابها «ميّ زيادة أو مأساة النبوغ»، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٧، ج ١، ص ١٩٨، أنّه من ضمن المشروعات الأدبية التي لم تنجزها ميّ زيادة.

(٢) كان الجنرال Edmund Henry Hynmann Allenby (١٨٦١ - ١٩٣٦) المندوب السامي البريطاني في مصر من ٢٥ آذار/مارس ١٩١٩، عقب اندلاع الثورة، حتّى ١٩٢٥ . أعلن في ٧ نيسان/أبريل ١٩١٩ - محاولاً استعادة النظام في البلاد - إخلاء سبيل سعد زغلول ورفاقه الثلاثة من الوفد المصري الذين كانوا معتقلين معه في جزيرة مالطة وسمح لهم بالمغادرة إلى باريس للمشاركة في مؤتمر السلام.

جمعياتنا النسائية

استأنفت عاصمتنا الجميلة نشاطها بعد الفتور، وحفزت الدوائر إلى العمل بعد التباطؤ المتوافق وعطلة الصيف. وقد جاءتنا الصحف اليومية بما ينبئ أنّ جمعياتنا النسائية قامت تماشي المدينة في حركتها المتجدّدة فأذاعت عن مآتيها الأخبار.

ومهما يكن اهتمامنا بمظاهر الحياة الطيّبة في هذا الوادي، فإنّ تلك المظاهر لتثير الاهتمام وتستوقفه بوجه أخصّ يوم تكون صادرة عن المرأة لشعورنا بأنّ في أعمال النساء إنّما هي يدنا التي تعمل، وقلبنا هو الذي يخفق، وإدراكنا هو الذي يحذق فينظّم من الصالحات والمجديات ما تقوم الإرادة بتحقيقه.

فقد أعلنت جمعية «العمل لمصر» استئناف عقد اجتماعاتها. وحدّثتنا جمعية «الاتّحاد النسائي» عن ذهاب وفد من أعضائها لمقابلة دولة رئيس الوزراء، بعد أن قصدن إلى مجلسَي الشيوخ والنوّاب فقدّمن من جديد مطالب كنّ قدّمنها إلى الوزارة السالفة.

وحبّذا لو شاءت كل من الجمعيتين الكريمتين فأوقفت الجمهور على ما لا بدّ أن يعرفه من طبيعة أعمالهما وتفاصيلها. فأوضح «الاتّحاد النسائي» تلك المطالب، وأفصحت الجمعية الأخرى عمّا تعنيه من «العمل لمصر». وعلى أمل أن لا تضنّ علينا أخواتنا ببيان من هذا النوع، نحن نطرب للروح الجديدة السارية إلى هذه القلوب مرهفة فيها الذكاء، وحبّ السعي، والرغبة في القيام بخدمة بلادهنّ ونفع قومهنّ.

* * *

أكتب هذا وأنا ملقية بسمعي إلى صوت شجيّ ينشد في الشارع، هو صوت المرأة «البلغارية» الذي يعرفه كثيرون من سكّان هذه المدينة.

كنت ألفت سماع هذا الصوت كل صباح في أواخر الحرب. يأتي فيبدأ بإرسال شكواه في توسّل ومذلّة، ثمّ يتعالى ويتثبّت شيئاً فشيئاً كأنّه ظفر بعطف الخلائق. وينطلق موزّعاً أصداءه متوافقة متماسكة في الفضاء حتّى لَيبلغ الحدّ الأقصى من الجزالة

والتفجّع فيستولي على القلب، ويتسرّب حتّى إلى المجهول من ثناياه، ويلقي في قرارته كآبة لا توصف.

كنت وأهل الشارع نسمع النشيد الغريب كل صباح فلا الموعد يختلف، ولا النشيد يتغيّر، ولا وقع الصوت على التكرار يضعف، فنتسابق إلى النوافذ لنرى «البلغارية» التي يكرب منظرها بقدر ما يشجي غناؤها. فإذا بها وقد حملت على كتفها طفلاً بانت عليه نهكة السقام وحقارة الهوان. ولكن قلّ من يلتفت إلى هيئة المرأة وإلى ما تحمل أو لا تحمل. صوتها هو مركز المغناطيس فيها فإنّما عليه كنّا نقبل، وإيّاه نلبّي، وله يؤدّي كل فلسه.

اختفت «البلغارية» فجأة بعد الحرب. وسكت الصوت المنتحب في عذوبة وامتثال، على أنّ صداه كان من القوّة والجلاء بحيث أنّي سمعته هذا الأسبوع بعد مرور أعوام فعرف في الحال سبيله القديم إلى نفسي. أجفلت وقلت «البلغارية!»، وقمت إلى نافذة هي غير تلك، في شارع ليس هو ذاك، بيد أنّ الصوت هو هو في الهوادة والتفجّع. وعلى كتف المنشدة إن لم يكن ذياك الطفل بعينه فهو هو بالحجم والنحول وهجعة المرض والهوان!

عادت «البلغارية» وعدنا إلى الاستماع إليها كل يوم.

* * *

وبينا أنا أسطر ما سلف من القول، وقبل أن تفرغ «البلغارية» من غنائها المألوف، ارتفعت تلك الصيحات المزعجة التي ترسلها النادبات اللاطمات وراء نعوش الموتى. ارتفعت فأقلقت الجوّ وتوالت وانتشرت قُصمت منها الآذان واقشعرّت من جرّاء حدّتها الكريهة الأبدان.

نحن أهل الشرق وقد اعتدنا سماعها كل يوم مرّات نمقتها المقت كله ولا نرى ما يشفع في احتمالها من جانب الجمهور ولا ما يجدي في السكوت عنها والإبقاء عليها من جانب الحكومة؛ فهل يلام الغريب إذا هو استهجنها واعتبرها ناطقة عن بقية من الحوشية والهمجية؟

ولكأنّ ما أحاط هذا المقال من المؤثّرات الخارجية يملي عليّ كلمة ملحّة، ويحدوني إلى تذكير جمعياتنا النسائية بالأمرين الجوهريين اللذين يجب أن يصرفن عنايتهنّ لمعالجتهما، لأنّ فيهما تقهقر الأمّة وظلامها وشقاءها: عنيت جهل المرأة وحاجة الأطفال إلى الرعاية. وكلا الأمرين ممثّل في الحادثين اللذين ذكرت في سياق الكلام، وإن رُئيت منهما شتّى المشاهد في طول الشوارع وعرضها.

فلئن كان الطفل على كتف البلغارية دليلاً صارخاً على التعاسة المخيّمة على حياة الطفل المصري وعلى أنّه يستعمل في ضعفه أداة للتجارة ووسيلة للكسب والاستغلال، فصياح هؤلاء النسوة في الجنازات إنّما هو مظهر جهلهنّ. فتأمّلْ كيف يكون نفوذ هذا الجهل في حياتهنّ اليومية، وفكّرْ في نتائجه الوبيلة وكم هي تُحكم قيود الخمول والضلال والتقهقر على نفوس الناشئة الصغيرة الجاثمة بحكم العمر في أحضانهنّ.

إنّ تثقيف هؤلاء المسكينات ليس بالميسور. ولكنّ الميسور هو كفّ أذاهنّ عن الأطفال وحماية النفوس الصغيرة من جهلهنّ.

وهذه أجلّ خدمة تقوم بها الجمعيات النسائية، بل أقول إنّ القيام بها ملقى على عاتقهنّ لأنّها من خصائصهنّ دون الرجال.

* * *

جهل المرأة المصرية يقضي بفتح المدارس وإنشاء المشاغل تتلقّى فيها بنات الشعب ليس ما تنصّ على تعليمه البرامج الوزارية لمختلف المراتب على السواء، فبرامج الوزارة تناسب في الغالب بنات الطبقة المتوسّطة فضلاً عن العالية، أمّا بنات هؤلاء النسوة، أمّا الفقيرات اليتيمات المتشرّدات فيحتجن إلى مدارس وملاجئ تقوم بها الجمعيات النسائية.

وأمّا رعاية الطفل، فنِعْمَ ما كتبته في هذا الموضوع الآنسة عطيات أحمد، مديرة الملجأ العبّاسي، في «سياسة» يوم الاثنين الماضي، فسردت ما تصنعه الجوالي الأوربّية من جمعيات خيرية وأعمال فردية للأخذ بيد المعوزين وللعناية بالطفل، إنسان الغد. وليت المديرة الفاضلة تعيد الكرّة في هذا الموضوع، وترسل النداء تلو النداء، جاعلة اقتراحها أتمّ جلاءً فيما تريد أن تعنى به السيّدات المصريات من هذا القبيل.

أعلم أنّ لدينا فضلاً عن الجمعيات القبطية، جمعيات محمّد علي، و «المرأة الجديدة» و «الاتّحاد النسائي» وأنّ المشرفات عليها لا يألون جهداً في تحسينها وترقيتها وتوسيع دائرة فائدتها. وإنّنا ليزيد تقديرنا لعمل أولئك النساء الناهضات بعلمنا ما يتحتّم عليهنّ أن يأتينه من البذل والشجاعة لمتابعة جهودهنّ المباركة. ولكنّي لا أحجم عن القول بأنّها قليلة إذا ما قيست بالحاجة إليها، وبالنسبة لما تستطيعه المصريات ذوات الذكاء والحنان واليسار.

إنّ من أعطي كثيراً يطلب منه كثير. ولا أفهم لماذا لا تؤلّف السيّدات المصريات جمعية خيرية رسمية كبيرة، أسوة بمختلف العناصر والطوائف؟

* * *

هذا من جهة المرأة الجاهلة والطفل المهمل. أمّا هؤلاء الصائحات في الشوارع فما هي الحاجة إلى ترك الحبل لهنّ؟ إنّ منعهنّ من السير على هذه الحال لا يكلّف وزارة الداخلية أكثر من قرار وتوقيع، في حين ذلك لا يضير أحداً بل يتلقّاه الجميع بالشكر.

لقد اقترحت باحثة البادية، رحمها اللّه، هذا المبلغ فيما قدّمته إلى المؤتمر الإسلامي من الاقتراحات[1]، وقد انقضت ستّة عشر عاماً تبدّل فيها الكثير من معالم هذه المدنية وعاداتها فهل لدولة وزير الداخلية أن ينيل هذا الاقتراح الذي نجدّده اليوم، ما نتوقّعه من عنايته وعطفه فينفي عن العاصمة هذه العادة الشائنة، لا سيّما أنّنا مقبلون على فصل يكثر زائروه من العظماء والكبراء؟

هذا أوّل رجاء يتقدّم به إلى دولته «القسم النسوي الاجتماعي»، ولنا وطيد الأمل بأنّه ناجح محقّق، بمنّ اللّه وكرمه.

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٣٨، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦، ص ٦ - ٧ .

(١) قدّمت الكاتبة المصرية ملك حفني ناصف الشهيرة باسمها المستعار «باحثة البادية» قائمة من عشرة طلبات تتناول حقوق المرأة إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد عام ١٩١١ في القاهرة. وقد تلا طلباتها نائب عنها لعدم جواز الخطابة للمرأة، ورفضها أعضاء المؤتمر بالإجماع.

حديث مع مدير بنك

مدير البنك الذي أنا راويةٌ حديثه من أولئك الحائزين لما يصحّ أن يسمّى الحاسّة الاجتماعية وفنّ السلوك وحسن التصرّف. يقوم بواجب الأدب واللياقة نحو الجميع، سيّما نحو السيّدات فلا يشعرن بنقص فيما يؤدّي إليهنّ من الاحترام لمجرّد مرورهنّ في جوّ مزدحم بالأعمال والمشاغل.

وإنّ المرأة ليعجبها من الرجل الفروسية في حدود الكرامة. لأنّه كما أنّ العذوبة والحنان من أحبّ الصفات النسائية، كذلك يخيّل إليّ أنّ الفروسية من أصدق مظاهر الرجولة القويّة الجزلة. وهي كالحصافة والذكاء والرشاقة والفطنة، تعدّ بحقّ ذخراً في مستودع المحامد الإنسانية.

قلت إذن: إنّ المدير المذكور بينا هو يقوم بمختلف أعماله كرقابة ما يقدّم إليه من رسائل ووثائق، ومهر الأوراق بتوقيعه، ومخاطبة بالتليفون، وتبادل الآراء مع موظّفيه – كان في الوقت نفسه يجاذبني أطراف الحديث في مسائل عامّة لا علاقة لها بما هو فيه من المهامّ. وأنا أنظر إلى تنوّع «الحاسّة الاجتماعية» عنده وأفكّر كم هي تسهّل العلاقات دون أن تكلّف صاحبها شيئاً، ثمّ أفكّر في أنّ فقدانها يعكّر صفو الحياة ويجعل العلاقات مزعجة شائكة إذا نحن كان علينا أن نحتكّ، ولو بعض الشيء، بمن لا يفقه أهميّة تلك الحاسّة وليس في نفسه منها أثر.

* * *

وإذ نحن في مساجلتنا دخلت إحدى الفتيات العاملات في المصرف تعرض على رئيسها أوراقاً، شأن غيرها من زملائها وزميلاتها. فقلت بعد خروجها:

– «أرى في إدارتكم عدداً من الفتيات غير قليل، يا جناب المدير».

فقال: «الأمر كما ترين. فعندنا منهنّ عدد يذكر».

قلت: «أيشتغلن في جميع الدوائر، أم يقتصر عملهنّ على بعض الدوائر الثانوية فقط؟».

قال: «أظنّ أنّ منهنّ في جميع الدوائر. على أنّ عملهنّ متشابه متقارب في كل دائرة».

قلت: «إذن أنت في خطر... لأنّه إذا تغلّب يوماً حزب المحافظين، أو حزب الرجعيين، وعمدوا إلى محاكمة الذين ناصروا الحركة النسائية، فأخشى أن يكون لإدارة هذا البنك مكانها في قفص المتّهمين».

فضحك المدير وقال: «همّ لم يخطر على بالي، مع وفرة ما تلقيه عليّ المسئولية من الهموم. وماذا تراني جنيت لأهدّد بمثل هذه العاقبة المفزعة؟».

قلت: «إنّك بعملك هذا تنشّط الحركة النسائية وتسعى لهدم كيان الأسرة، وتعاون على إخراج الفتيات من الحظيرة التي يقولون إنّ الطبيعة أهدتهنّ لها، أي زاوية المطبخ وما يحاذيها من أعمال تدبير المنزل والتفصيل والخياطة والتطريز..».

قال: «أحمد اللّه أنّك لن تكوني نائباً عمومياً في مثل ذلك الموقف. أمّا جوابي فإنّنا لم نقصد الأذى عندما قبلنا الفتيات في دوائرنا، ولا نحن تآمرنا على قلب نظام المجتمع وهدم العائلة، بل بالعكس: أردنا أن نساعد العاملات على عول نفوسهنّ وتقديم ما قد يكون ذووهنّ في حاجة إليه من المعونة الكريمة التي لا يشوبها ذلّ الإحسان، فنحن إذن أحقّ بالمكافأة منّا بالعقوبة».

قلت: «لولا خوفي من تجاوز الحدّ في التمتّع بحلمك كنت تشجّعت وألقيت بعض الأسئلة».

قال: «لك ما تشائين وأنا مستعدّ للجواب».

قلت: «إنّي شديدة الاهتمام بحركة المرأة وأرغب في استجلاء صميم الرجاء من هذه الحركة القائمة، كما تعلمون، على كفاية النساء فيما يزاولن من الأعمال. فهل أنتم راضون عن عمل الفتيات؟ وهل هنّ يشتغلن بجدّ ومثابرة؟».

قال: «أجل، راضون في الغالب. وهنّ في مجموعهنّ يدين كل الجدّ المنتظر منهنّ».

– «الجدّ المنتظر منهنّ؟ ألهذه الكلمة معنى خاصّ؟»

– «طبعاً! نحن لا ننتظر من الفتاة ما ننتظره من الرجل، ومن ثمّ الاختلاف في الراتب الذي لا بدّ أن يتوافق والكفاية ونوع العمل».

قلت: «أترى الرجل في تفوّق مؤكّد إذا هو تبارى والمرأة في عمل واحد؟».

قال: «ذلك هو الواقع غالباً، فدرجة الإتقان في عمل الرجل أعلى وأجود منها في عمل المرأة وهذا لا ينفي أنّ بعض الفتيات قد يتفوّق على خيرة الشبّان ولكنّه نادر. أمّا الأعمال التي تقوم بها عندنا أكثرية الفتيات فقد لا يرضى بها أدنى الموظّفين كفاية وأحوجهم إلى العمل».

قلت: «مثلاً؟».

قال: «نسخ الخطابات المعدّة لهنّ على الآلة الكاتبة، وترقيم الصفحات، وتنظيم السجلّات، وإحصاء أوراق البنكنوت وترتيب خبائرها، وتسلّم سنترال التليفون الخاصّ بدوائرنا، وما إلى ذلك من الأعمال التي تحتاج إلى صبر ودقّة وطول أناة دون أن يكون فيها لأعمال الفكرة أو للذكاء أو للبراعة يد».

قلت: «ألا ترون في عمل الفتيات تقدّماً بعد الممارسة؟ ألسن اليوم أكفأ وأحذق منهنّ يوم كنّ دخيلات على العمل؟».

قال: «لا شكّ أنّ التقدّم محقّق وأنّ التحسّن مرهون بالمرانة. ولكنّه عادي عند مجموع الفتيات لا يستوقف الملاحظة بوجه خاصّ».

قلت: «ألا ترى من سبب لهذا التوقّف عند حدّ؟».

* * *

هنا انقطع الحديث كما انقطع مرّات من قبل فكنّا نعود إليه كلانا مسوقين بدافع واحد. ولمّا فرغ المدير من النظر في الأوراق المعروضة عليه والتأشير عليها، لبث

جامداً كأنّه يتابع فكرة لم يفلح في بترها ما يقلّبه بين يديه من ثروات الناس وحظوظهم، وأخيراً قال:

«السبب في نظري راجع إلى أمرين اثنين: الأوّل تيقّن الفتاة من البقاء في درجتها دون أمل بالترقّي – وإنّي لأتكلّم عن مصلحتنا لا سواها. أمّا الرجل فالترقّي ميسور له إذا هو كان ذا كفاية وساعدته الأحوال فاليوم موظّف صغير، وغداً موظّف أكبر، وبعد غد وكيل قلم، وبعده رئيس قلم إلى ما هنالك من المراتب العالية في حين تنتهي الفتاة حيثما ابتدأت، وقد تتقهقر بعد عناء أعوام.

«أمّا الأمر الثاني فشعور الفتاة في صميم نفسها أنّها في غير مكانها بين المتزاحمين المتناكبين وأنّها لم تغادر المنزل مخيّرة بل مسيّرة لأنّ من طبيعة الرجل أو من وراثته – إذا شئت – أن يعمل خارج المنزل، ومن طبيعة المرأة، أو من وراثتها، أن تعمل في داخله. بيد أنّ الظروف أحرجتها بفقد من يعولها من الرجال أو باضطرارها لمساعدة عائلتها أو للقيام بنفقاتها الخاصّة في هذه الأيّام العصيبة التي تفاقمت فيها أهمّية المال، فرأينا ناموس تنازع البقاء يقضي على المعدم إن لم يكن لديه من النشاط ما يقيه شرّ الفناء، وأصبح العراك هائلاً بين الثروة والذكاء، بين المقدرة المكتسبة والمقدرة الطبيعية الشخصية، فترين المرأة في كل ذلك مغالبة غريزتها مكافحة ميولها، لأنّها تحنّ مرغمة إلى الحياة العائلية بين زوج يعولها وأبناء يحيطون بها ويحبّونها وإن كانت في يقظتها الحالية وعلى رغم فقرها تريد أن «تختار» الرجل ولا تكتفي كأختها بالأمس بأنّها قد «اختيرت». فيتّضح من هذا وذاك أنّ المدنية، من بعض وجوهها، تصدّ من طبيعة المرأة بينا هي تستمرّ في إطلاق طبيعة الرجل. وممّا يؤسف له أن لا دواء لهذا الداء لأنّ الحرب جنت زهرة الشبّان وألقت عبء الحياة على عاتق المرأة».

قلت: «وفي المستقبل؟».

قال: «ومن ذا الذي يعلم ماذا سيجيء على يد الغد؟ ولكنّنا قرب محاولة الاحتفاظ بالسلام نرى شبح الحرب مهدّداً من ناحية أكثر الدول. وكل حرب، وكل مناوشة تعرّض الرجل للهلاك وتبقي النساء وحيدات. فحسبُنا حالة العالم اليوم لنبتّ بوجوب تنشئة الفتاة في جميع الطبقات على فضائل العمل والنشاط والاتّكال على

النفس. لأنّ السبل اليوم وفي الغد غيرها بالأمس، والممكنات اختلفت كالواجبات والحقوق. والتيّارات التي تسوق الأمم والجماعات أقوى من ميول الأفراد ونزعاتهم. وخير للمرء أن يساير الزمن مختاراً من أن يجمد في مكانه فيجري الناس من حوله ويتركونه مهزلة للعابرين!».

* * *

كان الأمر الذي حضرت لأجله قد تمّ أثناء هذا الحديث، إلّا أنّ صوت المدير كان قد ذهب إلى قرار بعيد فإذا به يتكلّم كحكيم عرك الدهر واختبر البشر، وخرج من كل ذلك بنظرة صائبة ورأي صادق؛ فلم أطاوع نفسي إلى الانصراف قبل نهاية الكلام.

ثمّ قلت: «أتسمح لي بسؤال أخير؟ أترى في اختلاط الفتيات والشبّان ما أحدث في سلوكهم خللاً أو فساداً في أخلاقهم؟ هل تشكو الإدارة من هذا الاختلاط والعمل جنباً إلى جنب؟».

قال: «لا شيء من ذلك بل العكس. فكلاهما حريص على الظهور أمام صاحبه بأحسن مواهبه، من التفوّق في العمل، إلى التأنّق في الهندام، إلى التمرّن على أساليب الأدب واللياقة. وهذا مصداق على أنّ الجنس الواحد لا يصقل ويكمل إلّا بمعاشرة الجنس الآخر وبفعل نفوذه، وهو بديل عمّا كنّا نودّ ألّا يكون من نزول المرأة إلى ميدان الكفاح والجهاد ومزاحمة الرجل في العمل المحسوس المباشر. وذاك شأن العالم في كل تطوّر وكل مظهر: ما بدا الخسران من ناحية إلّا ولاحت المنفعة والخير من الناحية الأخرى.

«وعلى كل فحكمة الحياة أزكن وأسمى وأصدق من حكمة الأفراد والأجيال؛ وما تريد الحياة يكون..».

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤١، ١٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٦، ص ٦ - ٧ .

جوّ المواسم وبهجة الأعياد

للمواسم «جوّ» غير جوّ الأيّام العادية ينتشر فيه رحراح الصفاء والرونق والبهاء. فممّ يتكوّن هذا الجوّ وعن أيّ شيء هو ناجم؟

أهو في الفكرة الواحدة التي تجول في جميع الخواطر على ما بين الناس من فروق في الميول والاستعدادات والمراتب؟

أهو في حذق رجال التجارة ولباقة أصحاب المخازن الذين يتحيّنون الفرص بفنّ أصبح أدهى الفنون وأنجحها في المجتمع، فينشرون للجمهور ما يريه الفكرة المشتركة وقد تشكّلت في صور ملموسة وشُجحت له برموز ملمّحة موعزة؟

أهو في تهافت الناس على اقتناء ما يذكّرهم بأنّهم شاهدوا الموسم مرّة أخرى، وأنّهم في بحبوحة من الرغد والطمأنينة ما داموا قادرين على امتلاك جديد - نفيساً كان أم زهيداً؟

أم هو لمحة الوصول إلى نقطة مركزية في دورة الفلك وحركة الكواكب، نحسّ نتائجه - ونحن جزء حيّ من هذا الكون - كما نحسّ القرّ في الشتاء والحرّ في الصيف، والكآبة في الخريف والنشوة في الربيع؟

أم الإنسان الذي يحيا مسيّراً، وهو يدّعي الاختيار، يستأنس بالمواسم والأعياد استئناس راكب البحر بمنارة على الشواطئ، ورائد الصحراء بعلم في المجاهل؟ أم هو تأخذه هزّة الطرب لأنّه يقوى حيناً بقوّة المجموع فيدرك أنّه هذه الإنسانية وأنّها إيّاه، وأنّه رغم كل ما يفرّق بينه وبينها وينحّيه عنها، فإنّما هو يشترك معها الساعة في خطوة عامّة ومهرجان مشاع؟

* * *

وقد يكون كل هذا في جوّ المواسم، وقد يكون أقلّ منه أو أكثر، وفاقاً لسعة النفس المتأمّلة ومقدرتها على الاستيعاب والإحساس.

على أنّ المقرّر أنّ جوّ المواسم موجود محسوس، يشعر به الجميع ولكن بدرجات متفاوتة. وقد يشتدّ الشعور في بعضهم فينتزعهم عن المشاغل والمصالح والانفعالات والأهواء، بينا آخرون لا يصدفون ولا يعرضون بل يستسلمون لفعل ذلك الجوّ دقائق أو ساعات، إن لم يكن طيلة الموسم.

يشعر بجوّ المواسم ويمرح في بهجة الأعياد كل سعيد حقّقت الأيّام حلماً من أحلامه، أو أرغده الزمان بمنحة غير منتظرة.

يشعر به الشبّان الذين يقفون منه عند باب المستقبل حائرين قلقين. ويشعر به الشيوخ فيتساءلون كم موسماً قدر لهم أن يروا بعد هذا؟ وأرهف الناس شعوراً به المغبون المحروم الذي مهما كان بطبيعته متفائلاً منصفاً فلا يسعه إلّا الإقرار بأنّ الحياة سلبته ما ينعم به سواه، ومنعت عنه حتّى قطرة واحدة ممّا أغدقته بلا حساب على الآخرين.

ولئن هنئ السعيد في بهجة الأعياد فرآها وكأنّها منعكسة على العالم من جوّ نفسه اللامع، فإنّ المظلوم الذي ذاق طعم الضعف والعجز إزاء بطش القوّة، ورواج الزور والبهتان، وتفوُّق الباطل على الحقّ في كثير من الحالات، ذلك ينظر إلى بهجة الأعياد وفرح المعيّدين بعين كئيبة رحيمة. أمّا الحزين المتوجّع فينزوي في خلوة بعيدة، رفقاً بنفسه من الشعور بالنفي الأليم والغربة المريرة، وسط الجماعات الضاحكة الفرحة الذي ليس له أن ينتمي إلى سواها بين مراتب الموجودات!

* * *

وشعور الأطفال بالمواسم هو الشعور الأقصى، لاجتماع قوّة الوراثة وقوّة الفردية في نفوسهم دفعة واحدة، فإن هم نالوا ما يتوقّعون فذاك، وإلّا فهم ضحايا القوانين والأنانية، ضحايا الفقر والغنى قبل أن يدركوا شيئاً من هذه المعاني بوقت طويل.

وأتعس الأطفال هم اليتامى. لأنّ الطفل الفقير قد يرى من عطف أبويه ومهارتهما في مواساته ما ينجح في تسليته عن الحلوى واللعب والهدايا التي يستمتع بها الطفل الغنيّ. ولكن أيّ الهدايا، وأيّ الملاعب، وأيّ صنوف الحلوى يمكن أن تقوم مقام حضن الوالدة وقبلات الوالد؟

أتعس الأطفال هم اليتامى لأنّهم يتلقّون من الحياة القشور دون اللباب، ولأنّهم الغصن الذي قطع من تحته جذعه الذي عليه يعيش. وأياً كان حظّهم من نعم الحياة فإنّ في صدورهم حرقة لا تطفأ وغصّة لا تنقضي.

أفتحسبون أنّ اليتيم هو الذي مات أبواه؟

ألا إنّ أمرّ أنواع اليتم وأشقّها هي العيشة بين أبوين لم تنمُ فيهما عاطفة الوالدية، لنقص في إدراكهما أو خبل في عواطفهما، أو لشذوذ خلقي فيهما. ومثل هؤلاء أكثر كثيراً ممّا نظنّ، وأكثر كثيراً ممّا تحدّثنا به محلّيات الصحف أو أحكام المحاكم. وإن شئتم مثالاً - وأضأل مثال - لذلك فعليكم بصبية الأزقّة فمنهم تعلمون ما قد لا ينبئكم به الخبير الحكيم.

* * *

أخواتي، يا نساء مصر المستيقظة! أما وصل إليكنّ حديث الطوائف الغربية؟

إنّ الأطفال محور العناية في هذا الموسم وفي كل موسم، لهم تقام الحفلات، ولأجلهم تنصب شجرات عيد الميلاد، وعليهم توزّع الهدايا والحلويات، وتشترك جميع الأمّهات الصالحات في بعث السرور إلى نفوسهم. تشترك في ذلك على السواء الأمّ الثكلى والأمّ السعيدة فتنيل الطفل الغريب نظرة المحبّة، ولمسة المحبّة، وقبلة المحبّة، وهديّة المحبّة.

ماذا أنتنّ تعرضن من برامجكنّ على الأمّة في حين لا تسهرن على غرساتها اللينّة؟ كيف ترغبن في إدخال الإصلاح على الإعوجاج، والتعديل في الخطأ وأنتنّ تبدأن حيث يجب أن تنتهين؟ كيف تصعدن إلى القمّة قبل أن تتسلّقن الجبل؟

مشاريعكنّ ومطالبكنّ كلها ناجحة من نفسها إذا أنتنّ عنيتنّ بالطفل العناية الواجبة. والأمّة صاعدة في معارج التقدّم إذ أنتنّ عنيتنّ بالطفل العناية الواجبة. وليس ميسوراً أن نعيد تربية الأمّهات الجاهلات من المصريات ولكن من الميسور، ومن الواجب، ومن الواجب الذي لا يجوز تأجيله، أن تقوم المصريات المتنوّرات بالسهر على تربية الطفل والعناية بصحّته وعقله ونفسه قدر المستطاع.

كم من موسم يمرّ على هذه الأمّة فلا نرى من المرأة عطفاً على الأطفال؟ لماذا يجيء عيد المولد النبوي الكريم سنة بعد سنة فلا تتحرّك النساء؛ وكل ما يناله الأطفال إنّما ينالونه بشكل كثيف غير منظّم، ومن غير الأيدي التي خلقت لتداعبهم وتعطيهم، في حين نرى ملكات الغرب يفاخرن بتصدّر الحفلات التي يمرح فيها الصغار وينعمون.

في جوّ هذا الموسم السنوي وفي بهجة الأعياد المقبلة انظرن إلى الشوارع ترين الأطفال المصريين عراة الأجساد، يجرون وراء أعقاب اللفائف، ويؤلّفون جيشاً رهيباً سيكون هو في الغد رهط نزلاء الليمانات والجماعة التي تعيث في الأرض فساداً. فعفواً إن أنا ألقيت إليكنّ بهذه الكلمة الحقّة التي أعرف أنّها جائلة في قلوبكنّ وراء مشاغلكنّ الكثيرة.

في الطفل يجب أن تبدأ نهضتكنّ، وفي الطفل يجب أن تتتابع، ومن الطفل تستطعن أن تسيطرن على جميع نزعات الأمّة فتوجّهنها في سبل الخير والرشاد.

إنّ أعظم ما يحتاج إليه العالم اليوم هو «الأمّ» فلتكن كل منكنّ أمًّا لأطفالها في المرتبة الأولى، ثمّ أمّاً لأطفال مصر جميعاً.

إنّ أطفال مصر مهملون فكيف نجرؤ على التحدّث بنهضة الأمّهات؟

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٢، ٢٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٦، ص ٧ .

مصر تنسج جلابيبها

انبرى المهاتما غاندي منذ أعوام خلت فقال إنّ الأمم إن هي استفادت من أحوال تحيط بها وعوامل خاصّة تسعفها فإنّما هي تستمدّ من نفسها لباب غذائها، ورغبتها في الوجود إنّما يتوقّف تحقيقها على ما لديها من حيوية عريقة وثبات وبراعة في استثمار ما عندها. وما قال المهاتما يومئذ إلّا كلمة الحقّ، وما جاء إلّا بالنظرة الثاقبة والرأي الأصيل من الوجهة السياسية والوجهة الحيوية معاً.

ويوم حمل منسجه يعمل عليه في منزله، وفي مجتمع أصدقائه، ويوم استصحب ذلك المنسج إلى وحدة السجن داعياً أهل الهند (وهنا ليست الاستعارة مجازاً) إلى «النسج على منواله» إذا هم أرادوا أن يسلكوا سبيل الاستقلال، يومئذ كان مؤدّياً مثالاً جميلاً فعّالاً من حبّ السلام والنشاط جميعاً، ومثبتاً أنّ العمل المجدي غير الكلام الكثير، وأنّ نهضات الأمم - كتقدّم الأفراد - لا مندوحة لها عن ركنين وطيدين: الاقتصاد والعمل.

بهذا المثال وحده كان في وسع غاندي أن يقوم بدعوته الوطنية كلها، فلا يدرج في برنامجه فكرة «المقاطعة السلبية». لأنّ المقاطعة إن تيسّر تطبيقها زمناً إبّان ثورة سياسية أو مناجزة حكومية، فالمضيّ عليها أمر مستحيل، وعودة «المقاطعين» إلى ارتياد السوق المهجورة واقتناء المشتريات المنبوذة عجز ظاهر وإخفاق مبين.

ذلك لأنّ العالم اليوم غيره بالأمس، وليس لشعب حياة في الانقطاع إلى حدوده والاكتفاء بما ورثه عن آبائه وأجداده، بل الحياة في قبول العلاقات الكريمة مع الشعوب الأخرى، وتبادل المصالح والمنافع، والاستفادة من كل تقدّم علمي وآلي وصناعي وغيره ممّا تتداوله الشعوب فيصلح من شؤونها ويسرع في قضاء حاجاتها، ويسلّحها بما يجعلها مرهوبة الجانب قويّة السلطان.

ولو انتهز غاندي تلك الفرصة فحقّق نظرية المغزل والمنسج ليس بمعنى التحصّن في الماضي والاقتصار على النول القديم، بل بطريقة علمية عملية تماشي حاجة العصر وتعترف بما فيه من حسنة واختراع، لو دعا غاندي إلى تنشيط الصناعة الهندية وإدخال التحسينات الحديثة عليها وحمل الأغنياء على التعاضد في جمع الأموال وعقد الشركات لإنشاء المعامل وتأسيس المصانع - لو فعل «النبيّ الوديع» ذلك وناصرته الأحوال قدر المستطاع، إذن لكان لدعوته شأن آخر وأثر أبقى في بني وطنه، ولما أصبحت «رواية المنسج الهندي» كما يسمّونها، لا وجود لها في غير عالم النظريات، رغم إخلاص غاندي العظيم وحكمته وحصافته وشدّة نفوذه.

* * *

وها قد اهتدى المصريون إلى السبيل الذي يتحتّم السير فيه، فكانت أزمة القطن باباً للفرج ونجم الخيرُ العميم عمّا يريدون أن ينعتوه بالشرّ. ولو أنّهم فكّروا في إيجاد نواة لصناعتهم قبل اليوم لنجحوا، ولديهم كبار الأغنياء والمقتدرون من أرباب التفكير والتدبير المالي المنظّم.

كانوا ينجحون حتّى لو اقتصروا في تحويل قسط ممّا أنفق جزافاً إلى شراء الآلات الحديثة وتأسيس الشركات الصناعية. فكانوا يرون اليوم معاملهم تستهلك جانباً من محصولهم، وتقدّم لهم كثيراً ممّا يحتاجون إليه من الأقمشة والأنسجة والأدوات، وتفتح لعدد غير قليل من العاطلين باباً للرزق وميداناً للعمل، فما يكونون بذلك أضعف وطنية ولا أقلّ أريحية!

اشتهر عن مصر أنّها بلد زراعية، وهل الصناعة تجدب من خصب الأرض أو تفسد على التربة جودتها؟

الواقع أنّ لا غنى عن الصناعة لأيّ شعب من الشعوب أيّاً كانت موارد ثروته. ويسمّى البلد زراعياً، أو صناعياً، أو تجارياً، لتغلّب أحد هذه المصادر فيه على غيره. ولكنّ الطبيعة قالت قبل العالم الاقتصادي ساي[1] في بحثه الخطير في الاقتصاد السياسي: إنّ الزراعة والصناعة والتجارة متماسكة متلازمة عند كل أمّة من الأمم، وإن

كان لكل منها الفوز في فرع دون آخر نسبة لاستعدادها الطبيعي ومواردها وموقعها الجغرافي وعلاقاتها السياسية والدولية.

* * *

وقد رغد قدماء المصريين في هذه الأرض الموفورة الخصب، وكانت مصر في عهدهم زرعاية كما هي اليوم. إلّا أنّ هذا لم يحل دون مزاولتهم دوائر النشاط الأخرى والتفوّق في جميع ما تفوّقوا به وجعلوا منه أمثولة للعالمين.

نظرة إلى حضارة مصر القديمة ترينا أنّ على مقربة من ازدهار العلم والفنّ والحكمة والفلسفة الروحانية وهندسة البناء والآليات وعلوم الكيمياء والفلك والرياضة ورفع الأثقال والملاحة وغيرها كانت العناية بالغة أقصاها في نسج الأقمشة والتفنّن في حبكها والبراعة في فتل الخيوط وجمعها وحياكتها حتّى اشتهر النسيج المصري بجماله ودقّته ونفاسته وكان الملوك والعظماء يتهادونه كقطعة من الجمال والفنّ. وقد ذُكر نسيج مصر في التوراة غير مرّة، ووصف المؤرّخ بليني(٢) ثوباً أُهدي من أحد ملوكها قبل المسيح بستّمائة سنة، فقال: إنّ كل خيط من النسيج كان يتركّب من ٣٦٠ خيطاً في نهاية الدقّة والنعومة فتلت جميعها في خيط واحد على أبدع مثال. وهيرودوتس في سياق الكلام على الإلهة إيزيس ووصف الحفلات المقامة في هياكلها ذكر «النعومة العجيبة فيما يرتديه الكهّان المصريون من فاخر الملابس الدينية خلال تلك الاحتفالات».

هذا إلى الأنسجة المصبوغة بأجمل الألوان، المنمّقة بألطف النقوش التي تدلّ على إلمام المصريين بأسرار الكيمياء. وقد نسخ الإسرائيليون عنهم الشيء الكثير سواءً في صناعة أثواب كهنتهم وإقامة التماثيل والحفلات الدينية. ولنا فيما تبقّى من أكفان الموميات وفي الأنسجة المعروضة في المتحف المصري لشاهد على براعة المصريين في النسج والنقش والزخرف والتطريز والتلوين ذي الفنّ الدقيق الرقيق.

* * *

احتفظوا بأنوالكم، يا أهل النول القديم، وانسجوا عليها تلك الأقمشة التي ألفها السلف الصالح وما زلنا نعجب بها ونقتنيها ونستعملها فنشعر إذ ننظر إليها بأنّنا في عصر غير هذا، وأنّ الأيدي التي تنسجها لم تلتق بعد في صراع مع الأنوال الآلية والمكينات الجديدة!

واشتروا من مصنوعات الشعوب ما شئتم، أنتم أهل الترف والكياسة، علّكم تجدون فيها خيالات أحلام غذيتموها من نظريات الغرب ومن كتبه!

ولكنّ معامل الغزل والنسيج خيال بنك مصر وأعماله ما أصدق هذه شاهداً على نهضة مصر الحديثة(٣)!

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٣، ١ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧ .

(١) Jean Baptiste Say (١٧٦٧ - ١٨٣٢)، عالم اقتصادي فرنسي. اشتهر بنظرية الطلب المسمّاة بنظرية ساي نسبة إليه، والتي تقول بحتمية تساوي العرض والطلب في الاقتصاد القومي لأنّ كلّ إنتاج يوجد الطلب الملائم له في القيمة والقدرة الشرائية، فليس بوسع القوى الاقتصادية أن تطلب إلّا بقدر ما تنتج وتعرض.

(٢) لعلّ المقصود بلينيوس *(Plinius)* الأب (٢٣ - ٧٩)، المؤرّخ الروماني، مؤلّف عمل موسوعي *Naturalis historia* (التاريخ الطبيعي) في سبعة وثلاثين مجلداً.

(٣) أُنشئت شركة مصر للغزل والنسيج عام ١٩٢٧ في المحلّة الكبرى بمحافظة الغربية. أنظر في هذا الصدد حديث ميّ زيادة مع طلعت حرب المنشور في السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٧، ٢٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧، تحت عنوان «طلعت حرب بك يتكلّم عن شركة الغزل والنسيج»، وهو مضمّن في هذه المجموعة [٨].

الفتاة المصرية وموقفها اليوم

موضوع خطير قصيّ الأغراض، معقّد الأشتات، ولعلّه أهمّ الموضوعات الاجتماعية وأحراها بالبحث الدقيق الرشيد، إذ على فتاة اليوم يقوم مجتمع الغد.

إنّ موقف الفتاة أهمّ وأعسر من أن يتناوله المتشائمون بالتشنيع والزراية والتنديد ورمي ابنة مصر الحديثة بالغلوّ في التبرّج، والشرود عن حدود الاحتشام، وإغفال اللياقة والكرامة فيما خطت إليه من بسطة الحرّية. وموقفها اليوم أدقّ وأرفع من أن يغمره المدّاحون بذلك الصنف الهلامي المائع من الثناء الذي يخيّل أنّه بضاعة «تحت الطلب» بالجملة سواء أكان المطلوب منها بعضها، أو ما يختلف عن صنفها كل الاختلاف؛ ففي الحالين إنّما يفسد من الفتاة ذوقُها، ويعكّر عليها وجدانُها، ويلتبس أمامها وضوح المعاني والأشياء، ويضاعف في تشويش نفسها الحائرة.

ابنة هذا الجيل كابنة كل جيل، لها عيوب ولها حسنات، وإن بدت العيوب مكبّرة لأنّنا نعيش على مقربة منها في حين ضربت بيننا وبين الماضي الحجب. وتشترك في تكوين هذه الميول عوامل شتّى: من وراثة، إلى وسط، إلى ألم، إلى سرور، إلى فرق بين عقلية هذا الجيل وعقلية الجيل الذي تولّى أمره، إلى وحدة الفتاة بين نزعاتها وحاجاتها وحيرتها وسط قوم قلّ أن يعترفوا بأنّ لها شخصية غير شخصيتهم وأنّها تعيش في زمن غير الذي كانوا فيه فتياناً.

وخير لصحافتنا – هازلها كجادّها – أن تقلع عن لهجة التهكّم والتناول بالقبيح وتعقّب السقطات التي يعجبها أن تعمد إليها الوقت بعد الوقت رغبة في الإصلاح. خير لها وهي صحافة شرقية والشرق كان أبدًا غيوراً على المرأة، أن تشعر الفتاة بأنّها محاطة بجوّ من التهيّب والاحترام فيكون لها هذا الشعور من خير الدروس وأنفذ المؤثّرات.

* * *

أمّا حاجة الفتاة المصرية اليوم في مختلف الطبقات (لأنّ التطوّر ظاهر ولو بعض الظهور في حياة الصغير والكبير على السواء) فأشدّ ما تكون إلى من يفهمها ويعنى بما استجدّ عندها وحولها من مطالب الحياة. حاجتها أشدّ ما تكون إلى من يوضح لها معالم السبيل، ويساعدها على تفهّم الأحوال المارّة واستغلال الموافق منها لمصلحتها ومصلحة قومها جميعاً.

إنّ من أصدق وأجمل ما سمعته من تاغور في خطبته بحديقة الأزبكية قوله إنّه إنّما أنشأ مدرسة «سَانْتِنِكِتان» ليوجد مثالاً جديداً للتربية والتهذيب. وما ذلك إلّا لأنّه قاسى العذاب في طفولته وشبابه في محاولته التوفيق بين ما حبته به الطبيعة من الاستعدادات والميول وبين ما كان أساتذته وذووه يكرهونه عليه ممّا يظنّونه خيراً وكل الخير فيه.

ويذهب مذهب تاغور هذا كل مفكّر منّا عذّبه وما فتئ يمضّه التنافر والتنابذ بين أساليب التربية القديمة ومطالب النفسية الجديدة. وهذا أنكد ما يكون في نفس الفتاة وأنغص ما يكون في حياتها أيّاً كانت درجة شعورها به، وسواء عرفت أن تفصح عنه أو طوته في دفينة صدرها.

وهو هذا التنابذ الذي يعتاص نموُّ المواهب الطبيعية، ويعطّل انطلاق الحيوية في سيرها، هو الذي حمل مختلف الشعوب على إصلاح برامج التعليم والتهذيب فانقلبت طريقة التربية من النقيض إلى النقيض في وقت قصير. فإذا بها حرّة في انتظامها تساير الطبيعة وترقب منها الاتّجاه والميل فتنيله قوّة أو تحوّله إلى مجرى آخر وفقاً لما تحكم به له أو عليه، وبحذق فنّي أقرب إلى اللين منه إلى ذينك الضغط والإخضاع اللذين ملآ هذا العصر بالأقزام والعبيد... قرب أهل الفضل والنبل.

وحدث هذا الانقلاب في مصر الفتاة، وها هي ذي أساليب التربية والتعليم في تطوّر وتحسّن بفضل رجال المعارف والتعليم والصحافة، وبفضل البرلمان المصري الذي أدرك مهمّة المدرسة في هذا القرن وفي مصر بوجه خاصّ، فيدقّق ويقتصد في جميع النفقات حتّى إذا عرضت عليه ميزانية المدارس والمعاهد أصبح السخيّ الجواد فقرّر الألوف والملايين متذوّقاً سلفاً طعم ثمراتها اللذيذة الناضجة...

* * *

وربّما كان أعسر مواقف الفتاة ذاك الموقف الممتدّ من خروجها من المدرسة أو من حين إنهاء دراستها حتّى ترتبط بوعد الزواج فيتّضح السبيل الذي عليها أن تمضي فيه إلى النهاية.

فماذا تراها تصنع في هذه الفترة من الزمن طويلة كانت أو قصيرة؟ بأيّ الأفكار وأيّ العواطف وأيّ الأعمال تراها تشغل ساعات النهار والفراغ؟ وكيف هي تصرف في هذا الوقت حساسيتها الوثّابة الناضرة الفيّاضة؟

هنا يرى الصالحون ميداناً للوعظ والإرشاد. ولكنّ الوعظ والإرشاد سهل والفرق بينه وبين الماء - على رأي روزفلت[١] - هو أنّ الماء تشربه بفمك إذا أنت عطشت؛ أمّا الإرشاد «فتشربه» أسماع المنصتين وإن كانت في غنى عن الارتواء...

الفلّاحة تعمل في الغيط. والتي تمتهن التعليم أو ما نحوه وجدت من عملها ما يشحن أوقاتها بالمشاغل والواجبات. ولكن ماذا ترى تصنع الأخريات؟ ومهما كان شغف الفتاة بتدبير المنزل فذلك لا يستغرق أكثر من ساعات قلائل كل يوم.

لخيرهنّ ومساعدتهنّ وإنماء ملكاتهنّ الصالحة وإدخال السرور إلى نفوسهنّ تألّفت الجمعيات الخاصّة بالفتيات التي نرى منها مثلاً طيّبة مفيدة في مختلف البلدان. والأهل أرغب ما يكونون في التحاق بناتهم بتلك الجمعيات النسائية الصالحة، لعلمهم أنّها تقدّم لهنّ من الفائدة والخدمة واللهو البريء والممكنات ما لا يملكونه هم رغم ما في قلوبهم من العطف والغيرة والمحبّة.

وأظنّ أنّ الفتيات المصريات في موقفهنّ اليوم شديدات الحاجة إلى جمعية أو جمعيات من هذا النوع يزاولن فيها الألعاب الرياضية والأشغال اليدوية، ويقمن حفلات الأدب والموسيقى والرياضة، وينظّمن في دوائرها أعمال البرّ، ويسعين في ترقية عقولهنّ وتثقيف ميولهنّ الفنّية في وسط تكون فيه كل منهنّ للأخرى صديقة ومساعدة.

* * *

ما الآراء المنثورة في هذه الفذلكة إلّا عناوين لمقالات أو موضوعات لأبحاث قد يتسنّى لي أن أعقد لها الفصول فيما بعد.

أمّا ما حداني اليوم إلى إيرادها فسؤالان ندرجهما في «خليّة النحل»[٢] وهما على اقتضابهما يدلّان على نفسية متألّمة لا تلقى من وسطها المعونة المقتضاة، فذكّرتني كل من الفتاتين السائلتين بالفتاة عموماً وبموقفها الحرج في هذا الجيل.

أحد السؤالين (رقم ٦١) يقول: «فتاة متعلّمة أهلها متوسّطو الحال تريد أن لا تكون عالة عليهم ولا تريد الزواج. فما هو العمل الذي يمكنها أن تلتحق به؟».

ويقول الآخر (رقم ٧١): «أنا فتاة مصرية متعلّمة وأحبّ جدّاً كل أنواع الرياضة ولكنّ الوسط الذي أعيش فيه لا يسمح بذلك. فماذا أعمل وأنا تعبة جدّاً من عدم الرياضة؟».

نعم، ماذا تصنع الفتاة إذا كانت ذات ميل خاصّ بريء وموهبة واضحة لا يفهم منها وسطها شيئاً؟

وماذا تصنع الفتاة إذا هي شاءت، بدافع النشاط والنبل، أن تعمل لنفسها فلا تكون عالة على ذويها؟ الى من تقصد وأيّ باب تطرق؟

هذه المشاكل التي تبدو جزئية هي جِدّ جوهرية وربّما توقّفت على حلّها صحّة الفتاة وراحتها وسلوكها في العالم.

أرجو أن يصفح عنّي معشر النحل لأنّي تعدّيت هذه المرّة على حقوقهم وألمعت إلى موضوع هو من اختصاصهم. إنّهم بلا ريب يسامحونني نظراً لرغبتي في إنصاف الفتاة المصرية ولأنّي تألّمت عند الاطّلاع على هذين السؤالين المؤثّرين على بساطتهما في الظاهر. وأملي وطيد بأن ينال السؤلان ما هما جديران به من العناية والاهتمام، وأن تشترك السيّدات والأوانس أكثر من كل مرّة سابقة في إبداء الرأي. ففوق أنّ هذا القسم قسمهنّ، وأنّ الخليّة مملكتهنّ (التي نرحّب فيها بالرجال) فهذا الموضوع يتناولهنّ دون غيرهنّ.

أمّا أنتما أيّتها الأختان المجهولتان، فإنّكما الأمل المجاهد للحياة. فإليكما تحيّة خالصة فائضة بالعطف والتشجيع!

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٤، ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧ .

(١) Theodore Roosevelt (١٨٥٨ - ١٩١٩)، رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية السادس والعشرون (١٩٠١ - ١٩٠٩). نال عام ١٩٠٦ جائزة نوبل للسلام بعد توسّطه في عقد الصلح بين روسيا واليابان عام ١٩٠٥ .

(٢) «خليّة النحل» عنوان باب أوجدته ميّ زيادة في القسم النسوي الاجتماعي من «السياسة الأسبوعية» لتمكين القرّاء من طرح أسئلتهم وتولّي آخرين الإجابة عنها. كان هذا النوع من الأخذ والردّ بين القرّاء أمراً غير معتاد في صحافة ذلك الزمان، ولقي إقبال الكثيرين لا سيّما الشباب.

جواب إلى النائب سكلاتفالا[1]

ليس من خطاب يوجّه من شرقي إلى شرقي عبثاً إذا كان مصدره القلب. وليس من نداء يشيع في مصر جزافاً إذا كان مذكّراً بحقّ أو داعياً إلى واجب. بل ليس من ملحوظة تمرّ مهملة حتّى ولو قصرت على التنبيه على فرض من فروض اللياقة وحسن المعاملة.

وعلى ذلك سمعت الصحافة المصرية نداءك، أيّها النائب المحترم، ولم تتوانَ عن تمحيصه. ومع موافقتها على عمل السفارة المصرية في لندن التي نهجت معك النهج المرعيّ في المعاملات القنصلية في مثل هذه الأحوال، فإنّ الصحافة عرفت أن تستدرك فتميّز بين صبغتك الشيوعية وبين شخصيتك الفردية. وعرفت أن تلمح إلى أنّك لو شئت أن تزور هذه البلاد دون إصرار على نشر الدعاية الشيوعية، إذن للقيت، وأنت أخ شرقي، مثلما يلقى ضيوف مصر جميعاً من الترحيب وحسن الوفادة، وإذن لشهدت كيف تعرب مصر الفتاة عن شكرها لمن عطف عليها في بعض مواقفها الحرجة فرفع صوته في الدفاع عنها.

ولمّا كنتَ موجّهاً شكايتك إلى رجال مصر ونسائها جميعاً فهاك - على مقربة من صوت الرجال - صوتاً نسائياً يسمعك الكلمة بعينها - كلمة العطف والصدق ويضيف إليها كلمة أخرى.

لقد مرّ على هذه الأمّة زمن كانت فيه متلكّئة العزم فاترة الهمّة، لا تنبو في يد الظروف ولا تمتنع عن الانقياد لها. فكانت في حاجة إلى هزّة تحرّك منها صميم كيانها فتلفتها إلى وجودها، وتنفث فيها الثقة بنفسها بعد تمام الوقوف على ما لديها من قوى وممكنات.

كان لهذه الأمّة أن تتبينّ موقعها في خريطة العالم وتتعرّف علاقاتها مع الأمم ليكون لها بعدُ أن تقضي هي لنفسها بالحياة إذا كانت بالبقاء الحيّ جديرة.

ولقد توالت على هذه الأمّة الحوادث فنبّهتها دفعة بعد دفعة، حتّى تناولتها منذ أعوام تلك الهزّة العنيفة التي تحكّمت بانفعالاتها وضربت حول كيانها نطاقاً من الحميّة والمفاداة. فحيينا تلك الساعة المتلظّية بكل ما في القلوب من أنفة وشمم، الناضرة بكل ما في النفوس من شباب وانتعاش، الطروبة النشوى بكل ما تجاوبت به الآفاق من هزج وإنشاد، ساعة كانت الجماهير المتدافعة وكأنّها روح مصر تسري محسوسة ملموسة من حيّ إلى حيّ، تنشر رايتها بيد واحدة، وتهتف بصوت واحد هتاف الكرامة والأريحية.

وجاءت بعدُ أوقات حزن ولوعة، فمضت مواكب الجنازات تخترق الشوارع الصامتة، ونعوش الموتى ملفوفة بالراية التي طالما هتف أصحاب تلك النعوش لها، والأعلام من حولهم منكّسة والقلوب خاشعة. ولكنّ السكوت أمام رهبة الموت كان يتفجّر الوقت بعد الوقت عن التهاب الضلوع فيهتف المشيّعون لحياة مصر وحرّيتها وراء النعوش شأنهم وهم في مواكب الفرح والطرب!

ساعة عبرت لأنّها ابنة الزمن العابر؛ على أنّها ألقت في مرورها دروساً لا تنسى. عبرت، إنّما في معناها ومغزاها بمثابة الخميرة التي يصلح بها الخبز والقوت. وصمتت تلك الأصوات، على أنّ الأصداء مضت منها إلى رحبة المستقبل لتذكّر الأجيال الآتية بما قطعته مصر على نفسها من الوعود أمام الشعوب وأمام التاريخ.

تلك كانت ساعة اليقظة، ساعة الميلاد، ساعة تتعرّف الحياة نفسها وتسبر ممكناتها وتتلمّس آثار المناعة والعزم والتصميم والاجتهاد والاحتمال التي تؤهّلها للسير في طريق النموّ والبقاء والمجد.

انقضت ساعة اليقظة وتركت بعدها مسئولية باهظة تفرض العمل الطويل والعناء الجزيل لتنشئ مصر نفسها على تربية صالحة في العلم والاجتماع والفنّ والاقتصاد والسياسة. وذلك لا يتمّ خلال الثورات والفتن بل يتحتّم له جوّ الهدوء والسكينة والمثابرة.

وهذا ما شاء أن يفضي به إليك، أيّها النائب المحترم، صوت نسائي يخاطبك في ظلّ النخيل المصري. فاذكر مصر مدافعاً، وحيّها أخاً، وزرها صديقاً، وابعث إليها بالنيّر

من الأفكار مساجلاً، ولكن لا تقذف عليها بشظايا التهييج والتحريض، فليس ذلك يجديها نفعاً ولا هو يصلحها فتيلاً.

أنت تسعى الآن بين الماء والسماء في طريقك إلى وطنك العظيم الذي لا يحييه إلّا مثل المجهود الذي تحيا به مصر. أتراك لا يحزنك ما تجده هناك من تفريق بين الأحزاب والأديان وتقتيل بين الأهل والإخوان؟ أو ترى في مثل ذلك السبيلَ إلى الارتقاء والحرّية؟ أفي جوّ الهيجان والالتحام تُحسن الأمم اختيارَ نصيبها من ثقافة العالم واختباراته وتجاربه؟ أبالحديد والنار هي تتخلص من جهلها وتنير ليلتها الحالكة؟

ألا إنّ الشرق اليوم في بؤسه ومشاكله أحوج ما يكون إلى السلام والهدوء، ليتسنّى له أن يهيّئ غده. وحلّ مشاكله إنّما هو مضمر في ذاته وليس متعلّقاً بمعاهدات الشعوب ومؤتمرات الدول فقط.

حتّى نحن النساء والفتيات نعلم هذه الحقيقة ونثبتها على القرطاس، ونحن نحيّيك من وراء البحار ناظرات إلى العلم الأخضر الجميل رمز الحياة لأنّه علم الرجاء. والسلام.

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٥، ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧.

(١) Shapurji Saklatvala (١٨٧٤ - ١٩٣٦)، سليل أسرة تجّار فارسية في بومباي والهندي الثالث الذي أُنتخب عضواً في مجلس النوّاب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٢٣ و ١٩٢٤ - ١٩٢٩ ممثّلاً لحزب العمّال رغم أنّه بعد انشقاق الدولية الثالثة التحق بالحزب الشيوعي. قام في أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٢٧ برحلة إلى الهند ونجح في بثّ دعايته لمقاومة الإمبريالية في أوساط العمّال والنقابيين إلى حدّ أنّ السلطات البريطانية أبطلت صلاحية جوازه لدخول الهند فلم يُسمح له بالعودة إلى البلاد التي وُلد فيها مرّة ثانية.

طلعت حرب بك يتكلّم
عن شركة الغزل والنسيج

وقلّما تكلّم طلعت بك. وقلّما سُمع صوت هذا الرجل الفذّ إلّا ساعة تصبح الكلمة واجباً محتوماً وتقريراً للشروع في عمل عظيم. ذلك من أدلّ الدلائل على خطورة تلك الشخصية ومن أفعل البواعث على الثقة بصاحبها والتسليم إليه بمقاليد الأمور.

إنّ ضرب الطبل لأقلّ الأسباب والتهوّر في تقديم الأشياء في صورة التبريز والتفوّق وانقطاع النظير كان - وما زال في كثير من الأحيان، مع الأسف! - عيباً فينا عريقاً ما فتئ يفسد منّا الذوق، ويضلّل الحكم، ويموّه أمامنا السبيل. فلا غرو بعد إن نحن فخّمنا الغباوة لنغمط الحقّ، وجعلنا من الحبّة قبّة لنغضي الطرف عن النعمة السابغة والفضل المبين.

وكأنّما طلعت بك مع أقرانه العظاميين العصاميين من رجالات مصر وأبنائها الأبرار جاءوا وكأنّهم في أخلاقهم ردّ فعل لتلك النزعة الخرقاء، فكانوا قليلي الكلام عظام الفعال.

ما كانت تتجلّى النهضة المصرية بمعناها الحاضر - رغم أهمّيتها في إيقاظ النفوس واستفزاز العزائم - لو هي اقتصرت على الألفاظ الملتهبة والبيانات المتسعّرة. لأنّ الحماسة الوطنية كبيرة السلطان في ساعتها. بيد أنّ الأعوام تمرّ دون أن تتوانى الحياة في مطالبها وحاجاتها فإذا تلك الحماسة فورة من فورات الماضي فحسب.

فطلعت بك ببداهة خارقة ودراية تامّة وعلم ناضج وعقل راجح عرف أن يستغلّ تلك العواطف الوطنية أجمل استغلال. عرف أن يتكاتف وإخوانه ذوي المروءة والأريحية فرفعوا أصواتهم في دعوة الأمّة إلى إشادة الدعائم من ذلك الاستقلال الذي تهتف له وتموت في سبيله.

وبفضل تلك الدعوة الحكيمة وبفضل ما أسفرت عنه من المشروعات الحيوية والأعمال الناجحة ما فتحت مصر الفتاة عينيها للنور إلّا ورأت لها المصارف والشركات تتموّن بأموالها و ... تها[1] ورأى الشبّان أمامهم ميادين جديدة للعمل وتصريف قواهم الفتيّة، ورأينا – وربّما كان هذا خير ما ترينا هذه الجهود النبيلة – مثالاً بديعاً من الخلق المتين والتضامن للخير العامّ والحزم والثبات والوداعة وتوقيت الأمور وإحكام تهيئتها والقيام بها. صفات كلها لم توجد في الشرق الجديد إلّا في حالات فردية ومستثناة، وها هي اليوم مثال حيّ قائم بين أبناء مصر النابهين.

لقد «هنّأني» كل من علم بهذا الحديث مع طلعت بك ذلك «الرجل الجافّ العبوس القاسي». فأنا أقبل «التهنئة». أمّا أنّ طلعت بك رجل جافّ فصحيح عندما يكون الجفاف حسنة، وفي غير ذلك فإنّ همّته وأعماله شاهدة بأنّه الطبيعة الغنيّة المخصبة. وأمّا أنّه «عبوس قاس» فما أحسنه من عبوس مأنوس حيث لا مندوحة عنه، وحبّذا هي قسوة أبيّة لا تحتمل السخافة والتهويش. فإن لم يكن ذلك كانت حناناً واسعاً وبرّاً رشيداً يشمل الأمّة أفراداً وجماعات وينظّم الحاضر ويجعل الغد راسخ الأركان.

وإنّي لأشكر «الرجل الجافّ العبوس القاسي» على بيانه النفيس. أشكره عنّي وعن الجمهور كله الذي سيطّلع عليه بشغف وعناية يتوافقان وما تكنّه النفوس لطلعت بك وأقرانه (وكلهم طلعت حرب) من الاحترام والتقدير والإعجاب.

وهاك طلعت بك يتحدّث عن الشركة المنويّ تأسيسها. وهي من أهمّ ما يشغل الأفكار الآن نظراً لأهمّيتها وعلاقتها الشديدة بمحصولات الأرض المصرية وما ينتظر عن طريقها من الخير والفرج.

* * *

قلت – لقد تناقلت الصحف والألسنة خبر مشروع جديد لتأسيس شركة مساهمة مصرية للغزل والنسيج في مصر. فهل هذا صحيح؟

قال طلعت بك – بصوت جزل هادئ النبرات – نعم.

- أهي إدارة بنك مصر التي تقوم بهذا المشروع؟

- إدارة بنك مصر تقوم بدراسة المشروع فقط وتهيئته وجمع الأشخاص الذين يتّفقون على تأسيس الشركة والتوقيع على عقدها الابتدائي واستصدار المرسوم اللازم.

- وهل تمّ وضع المشروع؟

- يمكن القول إنّ بنك مصر قد انتهى من الأبحاث التمهيدية التي قام بها منذ عامين. وعلى أساس هذه الأبحاث قرّر مجلس إدارة البنك أن يشترك في تأسيس «شركة مصر للغزل والنسيج». ومتى انتهى الخبراء من دراسة وسائل التنفيذ يكون المشروع قد تمّ وضعه بصفة نهائية.

- هل اتّفقت إدارة البنك على أعمال الشركة وغايتها؟ وهل قرّرت المبلغ الذي سيكون رأس مالها؟

- الغاية غزل القطن ونسجه. وأمّا رأس المال فلم يحدّد بعد تحديداً نهائياً. لأنّ هذا التحديد متوقّف على إتمام دراسة المشروع ومراجعته بواسطة الخبراء المشار إليهم.

- متى تُعرض أسهم الشركة للاكتتاب العامّ؟

- تُعرض في الوقت المناسب.

- هل تتوقّعون من الحكومة مساعدة مالية أم تكون مساعدتها أدبية فقط؟

- نتوقّع مساعدة الحكومة المساعدة الأدبية. أمّا المساعدة المادّية فتقتصر على ما تسمح به من إعفاء الماكينات والأدوات من الرسوم الجمركية، وإعفاء الخامات والمنتوجات من الضريبة، وتفضيل منتوجات الشركة في لوازم الحكومة، وتعديل تعريفة النقل بالسكّة الحديد بالنسبة لمنتوجات الشركة الجديدة، وغير ذلك من أسباب حماية الصناعات الناشئة وتسهيل وسائل إنشاء مثل هذه الشركات.

- من أيّ البلدان تنوون شراء الماكينات والأدوات اللازمة؟

- من البلد الذي يقدّم أحسن بضاعة تؤدّي أغراض الشركة بأرخص الأثمان.

– أيقوم بشراء الآلات خبراء مصريون أم أجانب، أم خليط من هؤلاء وهؤلاء معاً؟

– ستُعمل مناقصة بين مصانع جميع البلدان حسب المواصفات التي سيقرّها الخبراء. وقد بدأنا نستعين بخبير أوروبّي في مسائل الغزل والنسيج وهو عضو في مؤتمر الغزّالين. وهو يشتغل بطبيعة الحال مع خبرائنا المصريين الذين قاموا بالأبحاث التمهيدية منذ عامين.

– متى، ولماذا تولّدت عندكم فكرة إنشاء هذه الشركة؟ وكيف تطوّرت الفكرة حتّى قاربت حيّز الواقع؟

– هذه الفكرة قديمة؛ وهي أمنية كل مصري. لأنّه من غير الطبيعي ومن غير المعقول أن تكون مصر هي البلاد الوحيدة التي تزرع القطن وتنتجه بكثرة ولا تصنّعه. وقد تأكّدت هذه الفكرة حينما شرع بنك مصر بتأسيس الشركة المساهمة المصرية لتجارة وحلج الأقطان. وجاء في بيان مجلس إدارة هذه الشركة لمناسبة وضع الحجر الأساسي لمحلج المحلّة الكبرى، أنّ تأسيس شركة الغزل والنسيج هو المرحلة الثانية بعد صناعة الحلج.

– أتنشئون الآن معملاً واحداً أو أكثر؟

– ننشئ معملاً واحداً صغيراً قابلاً للتوسيع ندرّب فيه المصريين، ويكون نموذجاً لمصانع أخرى.

– هل اتّفقتم على المدينة والمكان اللذين يقام فيهما المعمل؟

– هذا متوقّف على اختيار الخبراء.

– متى تقدّرون أنّ منتوجات المعمل يمكن أن تُعرض في السوق؟

* * *

ما كنت أريد عند هذا السؤال أن أقطع عليكم الحديث الذي تودّون طبعاً أن تأتوا عليه. ولكنّي لا أتمالك أن أذكر أمراً طفيفاً في ذاته مهمّاً في معناه، ذلك أنّ

طلعت بك الذي لا «يتدفّق» في كلامه تدفُّق من لا يحاسب، ولا «يتلكّأ» تلكّؤ العاجز العيّ، إنّما هو بنطق عربي فصيح وفي حصافة وإحكام ينزل الكلمة المعربة في مكانها، شأن الباني في أحجار الصرح الذي يشيد، وشأن من أحصى أرقامه فرَسًا على الرقم الواحد الذي لا يجوز إبداله بغيره.

قلت إنّ طلعت بك وهذا شأنه يضحك أحياناً. يضحك ضحكاً جزلاً ظريفاً فيه، على رأي أهل الفراسة، «صِدْق» وهو يدلّ عند هؤلاء الناس على خلوص النيّة وصفاء الطويّة، وعلى أنّ تلك النفس أهل للثقة والاتّكال.

- إنّي أخاف من هذا الرجل - كان يقول لافاتير العالم الشهير في الفراسة(٢) - ولا أضع ثقتي به لأنّه كثيراً ما تسمع ضحكته وكأنّها من غيره. إنّه لا «يعرف» أن يضحك.

أمّا طلعت فيعرف أن يضحك وضحكته منه لا من سواه. فإذا شاء أن يخرج من عالم التبعة والمسؤولية حيث يقضي أكثر أوقاته وترقرق ماء البشر في وجهه، رأيتَ البهجة تنشر على ملامحه وبدا أحدث سنًّا وأقرب إليك عالماً. فكان لك من ذكرى ذلك الضحك ما يشجّعك على احتمال القطوب الذي سيعود إليه عمّا قريب.

ولمّا ألقيت السؤال السالف ضحك ضحكة «حرّة» مليحة، كأنّما هو قال في نفسه: هي الفتاة وحدها التي تقتحم مثل هذا السؤال عن شركة نعالج الآن تأسيسها. ضحك وأجاب بصوته الهادئ الجزل:

- بأقرب ما يمكن (وأتبع الجواب بضحكة أخرى من طراز أختها. فلم يفت من عزمي وتشجّعت وسألت بصوت أرجو أن لا يكون قد بدا فيه شيء من الاستياء:)

- هل ترجون النجاح لهذا المشروع وهل عندكم من الضمانات ما يجعل النجاح محقّقاً؟

- إن لم نرجّح النجاح لا نقدم على العمل. لماذا تنجح المغازل في جميع البلدان الأخرى ولا تنجح في مصر!

– ما هو دوركم الخاصّ وعملكم في هذا المشروع؟

– لا دور لي. إنّي أحد الذين يفكّرون في المشروع وعملوا ويعملون على إنجاحه، بإذن اللّه تعالى.

– أرى الجمهور ينتظر بفارغ الصبر عرض الأسهم للاكتتاب. أتظنّون أنّ إقباله عليها بالفعل سيكون عظيماً؟ ولماذا؟

– إن شاء اللّه سيكون الإقبال أعظم عندما تطرح الأسهم على الجمهور بعد تحقّق إنجاح المشروع. هذا الإقبال هو وليد شعور الأمّة بحاجتها لهذا المشروع الحيوي لها.

– كان قد شاع أنّ بدراوي باشا عاشور[٣] قدّم مائة وخمسين ألف جنيه لتأسيس هذه الشركة، ثمّ قيل إنّه لم يكتتب إلّا بستّين ألفاً فأيّهما الصحيح؟

نعم – قرأت بالجرائد هذين الخبرين. والحقيقة هي أنّ سعادة بدراوي باشا عرّفنا غير مرّة أنّه مستعدّ للاكتتاب بمائة وخمسة وعشرين ألف جنيه. ونعتقد أنّه سيبرّ بوعده متى حان وقت تحصيل رأس المال.

– نريد أن ننشر هذه المحادثة في «القسم النسوي الاجتماعي» من جريدة «السياسة الأسبوعية» إثباتاً لاهتمام المرأة بكل مشروع وطني مفيد. فما رأيكم، والشائع أنّ عزّتكم من المعارضين في تعليم المرأة؟

– بكل سرور أوافق على نشر هذا في «القسم النسوي الاجتماعي» ولا أذكر أنّي كنت يوماً من الأيّام ضدّ تعليم المرأة. ولكنّي أعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ للمرأة وظيفة يجب أن تهيّأ لها بالتعليم والتربية.

– ما هو في نظركم الدور الذي تستطيع المرأة المصرية أن تقوم به لتنشيط هذا المشروع والمساعدة على ترويج أعمال الشركة؟

– كل ما تطلبه الشركة من المرأة هو تنشيطها وتشجيعها بشراء منتوجاتها، والاكتتاب في أسهمها عندما تُطرح للاكتتاب، وهذا ما يُطلب منها إزاء كل شركة من الشركات المصرية تأسّست أو تُؤسَّس.

* * *

وستكون المرأة عند ظنّك، يا صاحب العزّة، وما هي في ذلك إلّا والرجل سواء.

فسِر أنت وأقرانك على بركات اللّه كلّما أفرغتم في سلسلة الفضل حلقة قمتم تحبكون حلقة وكلّما فرغتم من مشروع قمتم تؤسّسون آخر.

وحسبكم تشجيعاً وافتخاراً ما تلاقونه من إقبال الكبير والصغير على تلبية دعوتكم بحرارة الإيمان ومتانة اليقين. وحسبكم أنّكم من هذه الأمّة بمثابة هؤلاء الرجال الذين قال عنهم كارْلايل الإنجليزي إنّهم «ملح الأرض» الذين يحفظونها من الغشّ والفساد!

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٧، ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧ .

(١) سقط معظم الكلمة في النصّ الأصلي، ولعلّها أن تكون: ثرواتها، قدراتها، خبراتها، أو ما أشبه ذلك.

(٢) Johann Kasper Lavater (١٧٤١ - ١٨٠١)، عالم لاهوت وفيلسوف سويسري، رأى أنّ المزاج والخلق ينعكسان على ملامح الإنسان وحاول البرهنة على صحّة هذه النظرية في كتاب *Physiognomische Fragmente zur Beförderung der Menschenkenntnis und der Menschenliebe* (شذرات في علم الفراسة لترقية المعرفة بالبشر ومحبّتهم، ١٧٧٥ - ١٧٧٨) الذي يعدّ أهمّ أعماله.

(٣) محمّد بدراوي باشا عاشور، من كبار ملّاك الأراضي في مصر وقتئذ وصاحب أسهم تأسيسية في عدد من شركات بنك مصر.

أخ يقتل أخته لسوء سلوكها

جاء في محلّيات الصحف في الأسبوع الفارط خبر فحواه أنّ أخاً قتل أخته في الأرياف لسوء سلوكها.

هذا الخبر أصبح مع أمثاله من المألوف غير النادر حتّى قلّ من اهتمّ له اهتماماً خاصّاً. وقد يكون عند عدد كبير من القرّاء في مقدّمة الأخبار التي لا تستحقّ أن يُقرأ منها غير العنوان.

وقد قيل لي – وثُبِّت هذا القول من أحكام سبقت في مثل هذه القضايا – إنّ هيئة القضاء في الغالب تنظر إلى هذا النوع من الجرائم بغير العين التي ترى بها جرائم القتل الأخرى. والعقوبة التي توقعها عادة بهؤلاء الجناة عقوبة غير شديدة، لا تردع ذاكرها عن سفك الدماء والإجهاز على حياة بشرية إنّما وجدت وتنفسّت وعاشت أمام وجه الشمس بسماح البارئ جلّ وعلا.

وبتخفيف العقوبة في أحوال كهذه إنّما يراعي القضاء تقاليد الوسط الذي يعيش فيه الجاني ونظرته إلى هذه الأمور، والمؤثّرات التي دفعت بالرجل إلى ارتكاب الجريمة، والاعتبارات الخاصّة التي جرى عليها بعض أهل الريف من أنّ قتل المرأة في مثل هذا الموقف إنّما هو بمثابة الدفاع عن الشرف والذود عن العِرض إلخ إلخ.

هذا ما سمعته من المطّلعين على عادات أهل الريف. ولا يسعني إلّا أن أتساءل كيف يمضي دم إنساني هدراً، وكيف تجوز سكّين إنسان على إنسان لمجرّد أنّ ذلك أمر داخل في العادات والاصطلاحات، ثمّ تأتي هيئة القضاء التي لها القول الفصل في إجراء العدالة، وكأنّها بتواطئها على تخفيف الحكم توافق ضمناً على وقوع الجريمة وكأنّها تشجّع على استمرار تلك العادة عند أهلها ما دامت لا تسعى جهدها للقضاء عليها.

إنّ هيئة القضاء لأسمى غاية وأشرف عملاً من أن ترمي إلى هذه النتيجة في أحكامها. ولكن أليس يسهل أن يؤوَّل تسامحها عند صاحب الغاية هذا التأويل؟

* * *

ولقد تبع ذلك الخبر في الأسبوع نفسه خبران اثنان إن لم يكونا من نوعه تماماً فلا يسع المرء إلّا المقارنة بينه وبينهما والوقوف حيال جميع هذه المحلّيات الريفية وقفة الاستفهام.

أحد الخبرين يقول إنّ امرأة ذبحها رجلان من أقاربها لأنّها تطالب معهما في ميراث. وفي الخبر الآخر أنّ امرأة قتلها رجال من أقاربها وأنّ السبب غير معروف، على أنّ التحقيق كاشفه لا محالة.

ترى، هل سلم ذلك الأخ الذي قام يقتل «دفاعاً عن الشرف» من التفكير فيما عساه يجنيه بعد موت أخته؟ أوليس «سوء السلوك» من الأسباب المضمونة التي يتسنّى لكل من شاء أن يتذرّع بها ويلوّث بها ذكر امرأة عاجزة في حياتها - ناهيك في مماتها؟

يقتل القاتل ويشهد جنايته وهو يرتكبها العشرات والمئات من الخلق. فيؤتى به إلى المحكمة ويؤدّي الشهود شهادتهم، ويترافع رجال القانون، ويخوّل الجاني نفسه حقّ الدفاع عن ذاته وتبرير عمله. وما واجب القضاء إلّا أن يصغي لجميع هاتيك الأقوال لتتوازن عنده جوانب الرأي من شتّى الوجوه ولأنّ الحياة البشرية مهمّة غالية واحدة لا تعوَّض.

فما بالك برجل يدّعي العصمة وينيل نفسه جميع القوى دفعة واحدة فيكون الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية التي لا مردّ لحكمها ولا صوت يسمع عند محكمتها؟

ليس الغرض هنا إدانة ذلك الجاني البائس وتحميله وزر تلك العادة عادة قتل النساء اللائي ساء سلوكهنّ - فيما لو كان هذا هو الباعث الحقيقي إلى تلك الجريمة. وذلك ما سيبيّنه التحقيق. فإنّ الحياة البشرية أبداً غالية، أبداً وجيعة، حتّى حياة المؤذي والجاني، من بعض جهاتها.

ولكن أرى أنّ الواجب يقضي علينا برفع الصوت والاحتجاج ضدّ هذه العادة الفظيعة. ما معنى أن يكون في البلد جرائد توقف بعض صحائفها وطائفة من موضوعاتها على خدمة المرأة وإنارة المرأة، ولا ترسل في مثل هذه الحالة كلمة استياء وشفاعة ودفاع؟

ما معنى أن نكون اليوم هاتفات بتعليم المرأة، وتحرير المرأة، وإنالة المرأة حقوقها الاجتماعية والأدبية - ولا نذكر إلّا هذه - فتخبرنا الصحف بأنّ النساء تُذبح ولا نقول للقاتل لقد جئت شيئاً فريًّا؟

* * *

لقد مضت قبل هذه الضحيّة ضحايا أخرى كثيرة لم تستطع دفاعاً عن نفسها؛ لأنّ الجهل والموت أخرسها؛ فحقَّ عليها كل ما رُميت به من التهم الشنيعة. من ذا يدرينا كل ما قاسته أولئك النسوة من الآلام في الحياة والممات؟ من ذا يدرينا هنّ ظُلمن وحُرمن وعُذِّبن في جهلهنّ إلى من يلتجئن ليخلّصهنّ[1]؟

وحيال ذكرى هذه الآلام الصامتة التي سترتها القبور، أشعر بأنّ الاحتجاج الحادّ الذي يفيض من نفسي يودّ لو استطاع أن يتقوّى بملايين من أصوات النساء.

أودّ، نعم. ولكنّ صوتي يرتفع وحده ومع ذلك فهو لن يضيع. لأنّه الصوت الذي يطالب بالحقّ فهو لذلك قويّ وكل القوّة فيه.

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٨، ٥ شباط/فبراير ١٩٢٧، ص ٧ .

(١) لا يستقيم معنى الجملة، ولعلّ المقصود «من ذا يدرينا إنْ هنّ ظُلمن...؟».

خطاب مفتوح إلى مظلوم باشا

حضرة صاحب المعالي،

أهمّ بمخاطبتك منذ شهور ولا أهتدي إلى الطريقة المناسبة. فلو أنّ لي الشرف بمعرفتك الشخصية لكنت دعوتك إلى تناول الشاي هنا وتطرّقنا بعدئذ إلى الحديث المقصود. ولو اتّفق وجمعتنا المصادفة لكنت سعيت أن أفسح المجال للكلمة التي لا بدّ أن أفضي بها إليك. أمّا والتعرّف غير متيسّر، والمصادفة حتّى الساعة غير مساعدة، فلأعمدنَّ إلى الأداة الصغيرة التي كثيراً ما تكون هي الرسول والرسالة جميعاً. عنيت القلم الذي يجعل حامله مواطن العالم، وصديق الجميع، وصاحب القول النافذ عندما يصبح الكلام محتوماً.

وأوّل ما تجري به يراعتي الصغيرة جملة أرجو ألّا تقع عندك موقع الاستغراب. وهي هذه: إنّي أفكّر فيك كثيراً، يا باشا.

أفكّر في الصباح وفي المساء، وعند الظهر ووقت الأصيل، وخلال هذه المواعيد المعيّنة مرّات لا أجرّب أن أحصيها. وقد يكون اسمك أوّل ما يستقرّ في خاطري عند السحر، وأنا أرقب الشمس تشقّ حجب الغمام لتعتلي منصّة النور في الأفق. ويظلّ ذلك الاسم مهمّماً في ذاكرتي إذ يسدل الليل سجوفه المرصّعة بالنجوم ساعة يحلك الظلام فتعكف النفوس على ذواتها، وساعة يسدر البدر في الأعالي فتشيع الأرواح مع أشعّته إلى كل ما تنتهي إليه من رحبات العالم.

أمّا الباعث إلى تواتر الذكرى فموقع المنزل الذي أقطنه منذ أوائل الصيف المنصرم.

إنّ لهذا المنزل وجهة على شارع يُدعى باسمك وإذ أرسل النظر إلى ما بعد الشارع أرى طاقة من الأشجار الخضراء كأنها الواحة المنعشة وسط الجدران والمنازل والأسوار. وفي ظلّ هذه الأشجار أسمع الوقت بعد الوقت أصواتاً فتيّة تصيح صيحات

المرح والسرور. فعلمت بعد التحرّي أنّ تلك حديقة المدرسة العلمانية الفرنساوية وأنّ بناء هذه المدرسة وفناءها مع المربّع الكبير من المنازل والحوانيت الممتدّة من شارع المدابغ إلى شارع أبو السباع، ومن شارع الساحة إلى شارع جامع شركس - أنّ كل ذلك ملكك، أو هو بعض أملاكك الغنيّة الواسعة.

فأنا إذن مدينة إليك بسرب هذه الأشجار التي تحطّ عليها تخيّلاتي وخواطري - شأن جماعات الطير - قبل أن تنطلق إلى المدى البديع فوق المنازل والصروح والقصور والأبراج والجوامع المتدرّجة في انتظام يجمله البعد، حتّى هضاب المقطّم المصطبغة بجميع الألوان، المتشكّلة بمختلف الصور والهيئات، المتميّزة بكل ما يتعاقب عليها من ظلال وأشعّة وفقاً لشتّى الساعات في الليل والنهار.

هذا مشهد بارع الحسن. ولا أشكّ في أنّه من أبدع المشاهد (من نوعه) في القاهرة. ولو شاركتَني مرّة في التملّي منه، يا صاحب المعالي، لانشرح صدرك وسررت بامتزاج اسمك مع هذا الجمال؛ وثارت لديك الرغبة في إزالة ما يشوّه هذه البقعة ولسارعت إلى جعل هذه النقطة من شارعك آية في الملاحة والزينة والفنّ والنفع العامّ فكانت همّتك مثالاً يحتذى لأهل الذوق وذوي الهمم.

ثمّة بناية قائمة بين جامع شركس ووزارة الأوقاف، والمربّع الذي ذكرت سابقاً وشارع مظلوم باشا. وهذه البناية من أملاكك كذلك وهي تعرف بسراي مظلوم باشا. تمثّل مثلّثاً قائماً في ملتقى هذه الشوارع، فيها أدوار للسكن ويحيط بها من جميع النواحي مخازن ودكاكين ومطاعم وبارات. منها بار اللواء الوجيهة[1] التي شاء الأساتذة الصحافيون أن يجتمعوا أحياناً في طابقها العلوي للمداولة في شؤونهم الخاصّة وتنظيم أعمال نقابتهم.

وهذا المثلّث في غير محلّه هنا بتاتاً، وإنّه ليتلف هندام الشارع (إذا جاز هذا التعبير) ويشوّه هذا المشهد الجميل، ويفسد نظام الشارع الفنّي والأثري فضلاً عن أنّه يحشد من النفوس في هذه النقطة ما لا قبل لها باحتماله. فهو إذاً غير موافق من الوجهة الصحّية.

يخيَّل من جرّاء هذا المثلّث أنّ ملتقى الشوارع مصاب بالربو وبأزمة التنفّس وأنّه قد قلّ عليه الهواء وضاقت عنده المسافة حتّى كاد يختنق طالباً الفرج. وممّن يطلبه إن لم يكن منك، يا صاحب المعالي، وأنت وحدك قادر على منحه؟

يجب أن يحذف هذا المثلّث الحجري فتحلّ محلّه حديقة صغيرة تتشابك الغصون في جوانبها وتفرش أرضها ببساط العشب المزدان بالأزهار. وبدلاً من أصوات العمل وجلبة التجارة يجب أن يتجاوب في جوّ الحديقة - حديقتك، يا باشا - تغريد الأطيار وهينمة النسائم المعطّرة بشذا الورود والرياحين.

إنّ المدينة لفي حشرجة من ازدحام المنازل واحتشاد السكّان. وحاجتها ملحّة إلى حدائق صغيرة ومتنزّهات أنيقة تلقي عليها بين شارع وآخر جلباب الخضرة والجمال، وتلك حاجة لا بدّ متحقّقة عاجلاً أو آجلاً.

فكن أنت البادي(٢) بالفضل، يا صاحب المعالي، وجئ بهذه الإشارة الوسيمة إشارة المنح السنيّ، الإشارة المثبتة أنّ الجود والسخاء غير التبذير والإسراف، وأنّ الكرم يتلخّص سرّه في وضع الأشياء حيث يجب أن تكون.

تدرس اليوم مصلحة التنظيم مشروعاً يقضي بوضع تماثيل فنّية عن الحياة الوطنية المصرية وتماثيل لعظماء الرجال وأقطاب المحسنين في حدائق العاصمة ومتنزّهاتها فتمثالك، يا صاحب المعالي، يجب أن يقوم هنا في رحبة شارعك وعلى مقربة من هذا الجزء من أملاكك. يجب أن تحكم قائمته هنا في ملتقى الطرق في منتصف الحديقة الجميلة التي يجب أن تحلّ محل هذا المثلّث.

ويوم تتحف العاصمة بهذه الهديّة القيّمة يحقّ على مصلحة التنظيم وعلى لجنة الفنون الجميلة معاً أن تسعيا لجعل شارع مظلوم باشا يبتدئ من شارع عبد العزيز بدلاً من شارع الساحة، فيسير إلى قطع شارع المدابغ حيث ينفسح ميدان مظلوم باشا وتتجلّى حديقة مظلوم باشا، ثمّ ينتظم شارع مظلوم باشا من جديد ليخترق الجهات المختلفة من العاصمة التي رصّعت صدرها وبقعة من أجمل بقاعها بهذا الوسام الأخضر البهيج. وليس ذلك على ذوقك وكرمك بعزيز.

يقولون، يا صاحب المعالي، إنّ من دلائل الشخصية الكبيرة أنّها لا تتوانى عن التنفيذ يوم يلفتها خبير إلى واجب محتوم أو مستحسن. ويقولون إنّ من دلائل الشخصية الكبيرة أنّها تحتاج إلى الهواء الطلق ولا تحتمل الهواء المضغوط في ألوف الصدور ضمن جدران ضيّقة متقاربة.

وأنا خبيرة بالأمر لأنّي أسكن هذا الشارع وحاشا أن ترضى، يا باشا، أن يكون الهواء في شارعك غير طلق وأن تكون المسافة غير رحبة.

لذلك أسألك ألّا تسمح لمظلوم باشا أن يضيّق الخناق على مظلوم باشا!

وهبنا أن نرى قريباً المتنزّه الجميل مكان المثلّث الحجري، وأن نرى تمثالك في المتنزّه، أنت الواهب السخيّ، وصاحب اليد البيضاء - أو بالحريّ الخضراء - فنحيّيك ونبارك ذكرك كلّما هبّت علينا النسمات العطرية من أزهارك وكلّما تمايلت فوقنا الغصون ونحن نستظلّ أشجارك![٣]

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٩، ١٢ شباط/فبراير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧ .

(١) الإشارة إلى جريدة «اللواء» لسان حال الحزب الوطني التي أنشأها مصطفى كامل عام ١٩٠٠ والتي سُمّي البار باسمها.

(٢) كذا في الأصل، والمقصود «البادئ».

(٣) أنظر في هذا الصدد الخاطرة الأولى في مقالة ميّ زيادة «خواطر متناثرة» المنشورة في الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٨٥١، ١٩ آب/أغسطس ١٩٣٤، ص ١، والمضمّنة في هذه المجموعة [١١٤].

عود إلى موقف الفتاة المصرية

في عدد سابق، ولمناسبة توجيه بعض المراسلات إلى «خليّة النحل» أسئلة تتعلّق بحاجتهنّ إلى العمل أو بميلهنّ إلى الألعاب الرياضية، ذكرت كلمة عن موقف الفتاة المصرية بعد خروجها من المدرسة وعن وجوب تأسيس جمعيات ذات أغراض متعدّدة تلتحق بها الفتيات من مختلف الطبقات[١]. فتجد كل في جمعيتها ما تحتاج إليه من المعونة أو الفائدة أو التسلية ممّا لا سبيل حتّى ولا إلى بعضه عن غير طريق الجمعية المنظّمة.

وقد خطر لي هذا الموضوع ثانية ومثل بصورة أوضح في فكري مساء يوم الاثنين الماضي، وأنا أحضر في فندق الكونتننتال الاجتماع العامّ الذي تقيمه جمعية الشابّات المسيحية في القاهرة كل سنة.

كانت لايدي لويد[٢] في كرسي الرئاسة، والقاعة الفسيحة غاصّة بنخبة من أهل العلم والفضل والحيثية رجالاً ونساءً من مختلف الجنسيات والطوائف. فبعد أن تلت السكرتيرة العامّة ملخّص تقرير الجمعية عن العام الماضي وأعلنت عن تقديم ذلك التقرير مفصّلاً في رسالة مطبوعة إلى الأعضاء في البريد، كما كانت توزّع النسخ منه في الاجتماع، تناوبت الكلام خطيبتان إحداهنّ إنجليزية والأخرى أمريكانية. فحدّثتنا الإنجليزية عن أعمال الجمعية في دوائر الاجتماع والبحث والفنّ واللهو البريء الصالح والمساعدة التي لا تفتأ تقدّمها للمقيمات في القاهرة وللوافدات من الخارج على السواء.

وحدّثتنا عن الفروع الجديدة التي أسّستها الجمعية في فلسطين وعن الدروس الأثرية والتاريخية التي عكفت عليها المتعلّمات من الأعضاء، في حين كانت تقدّم المعونة للفقيرات الراغبات في العمل والتعليم أو الحصول على معلومات في متعدّد المسائل. واقترحت في الختام إنشاء فروع أخرى في البلدان المفتقرة إلى مثل هذه الجمعيات لتجد النساء المقيمات فيها وسطاً يؤتيها المساعدة والتنشيط والاستنارة

ويكون للسائحة الغريبة المضطرّة إلى العمل للارتزاق مكاناً صالحاً تأوي إليه مطمئنّة ويحيط بها فيه المعارف والصديقات والمرشدات.

* * *

أمّا الخطيبة الأخرى فبثّت في خطابتها روح أهل الولايات المتّحدة وشغفهم بالظرف والنكتة لإثبات الرأي الجدّي العابس، وجنونهم بالحرّية وفهمهم للحياة «بحواسّهم الحديثة» - على رأي كاتب أحبّه ونسيت اسمه.

وممّا قالته في الثناء على هذه الجمعية الدولية التي يشترك ستّون شعباً فيها ولها فروع في جميع أنحاء العالم: إنّ الجمعية في نيويورك تلقّت بنيّة يتيمة لا أقارب لها ولا أصدقاء. فعنيت بتعليمها وتنشئتها ثمّ بإيجاد عمل لها تزاوله. فكانت النتيجة الباهرة أنّ تلك اليتيمة أصبحت اليوم في صفّ أشهر شاعرات العالم الجديد وصوتها من أكثر الأصوات النسوية تأثيراً ونفوذاً. وهو الأمر الذي ربّما ما كان يتوفّر لها لو هي نشأت في عائلتها لأنّها إذن كانت في الغالب تشبّ «داخل حدود الرأي المقيّد وعلى تقاليد يقدّسها الجيل القديم، ويعذّب كل خارج عنها إلى ما تتطلّبه مواهبه الجديدة من فضاء واسع، ورأي رحيب، ونظرة شاملة إلى الحياة، وأسلوب علمي في معالجة النفوس» كما قالت الخطيبة الأمريكية.

* * *

هذه هي الفكرة التي وقعت من نفسي موقعاً بعيداً، وحملتني على التفكير في مصير الفتاة المصرية بل الشرقية بوجه عامّ. قد تتحرّك المواهب وتزكو في الطفولة إذا تهيّأ لها من المنزل والمدرسة وسط ملائم فطن؛ ولكن قد يكون الوسط على غير ذلك؛ فماذا تصنع الفتاة؟ وأيّاً كان وسطها، فماذا تراها تصنع بعد الخروج من المدرسة أو إتمام دراستها في البيت؟ وبأيّ الوسائط يمكنها الاهتداء إلى العمل النبيل إذا كانت في حاجة إليه؟ وأيّ الوسائط تعمد إليها لتوسيع معارفها وإنماء مداركها والاستمرار على مسايرة حركة التطوّر في العالم؟

ليست الصعوبة قاصرة على هذه الحيرة التي كثيراً ما تقضي على تيقّظ الفتاة ورغبتها في التقدّم ولكنّ هناك نزاعاً وصراعاً لا مندوحة عنهما (إلّا في أحوال مستثناة حيث يكون الوالدان من أهل المعرفة والنور) بين ذويها الذين يمثّلون جيلهم ولا يرون الخير والفضيلة في غير أساليبه، وبينها هي التي تمثّل جيلها وتشاطره نظرته الجديدة إلى الحياة - مسيّرة غير مخيّرة.

وهذا البون الشاسع بين جيلي الآباء والأبناء ليس مشكلتنا وحدنا نحن معاشر الشرقيين، ولكنّه مشكلة عالمية وجيعة عبثاً يسعى الراغبون في حلّها لأنّ كلّاً من الجيلين على صواب فيما يدّعي، وكلّاً منهما صادق في وصف ألمه واستيائه. وما الجاني إلّا الحياة ومقتضياتها وتيّارات التجدّد فيها. وكيف يرى كل ذلك من مشى يوماً ووقف في مكانه من الجيل السابق؟ ومن ناحية أخرى، كيف لا يرى كل هذا ويتملّى منه ويتوق إلى التوحّد وإيّاه الجيل الجديد الذي يسير مرغماً بحكم سنّه والمستحدثات المحيطة به؟

* * *

والجمعيات خير دواء عرف حتّى الآن.

أليس من الغرابة أن تمرّ على مصر ثمانية أعوام اليقظة هذه ولا يفكّر في أمر الفتاة المضطرّة إلى العمل، أو المضطرّة إلى استكمال معارفها خارج المدرسة وعن غير طريق الدرس؟ ولا في أمر تلك الأخرى العائشة في بيت يطفئ كل يوم من جذوة شبابها وحماستها؟

ثمّ لماذا لا يكون هناك جمعيات نسائية اختصاصية قاصرة على طائفة من المشتركات في عمل أو حرفة أو غاية واحدة؟

كانت تأسّست «جمعية فتاة مصر الفتاة» للناظرات والمعلّمات في مدارس الحكومة، فماذا حلّ بتلك الجمعية حتّى تبدّد شملها، مع أنّها ضرورية جمّة الفوائد لأعضائها الشديدات الاحتياج إلى التفاهم والتعاون والاستنارة والتسلية؟

ولماذا لا يكوّن[٣] الحكيمات جمعية لهنّ؟ ومثلهنّ المتخرّجات في مختلف المدارس؟

أعلم أنّ للفتيات القبطيات جمعية مركزها في شارع الملكة نازلي هي من نوع جمعية الشابّات المسيحية الدولية التي ذكرت خبر اجتماعها في مطلع هذا الحديث - إلّا أنّها مستقلّة عنها تمام الاستقلال وهي ذات صبغة وطنية خالصة. وقد سررت بأن أخطب في تلك الجمعية قبل عام أو عامين فأتعرّف فيها بكثير من السيّدات والفتيات القبطيات المليحات. ويتّفق أنّي في بعض الأحيان أرى في اجتماع أو في شارع عيوناً تحدّق فيّ وشفاهاً تبتسم لي، ثمّ تبادر الأيدي إلى مصافحتي فإذا بهنّ صويحباتي القبطيات يذكرنني بلطفهنّ. غير أنّي لا أعرف أعمال جمعيتهنّ بالضبط، وإن كان الخير رائدها والإخاء غايتها.

وأياً كان عدد الجمعيات الموجودة الآن فلا بدّ من التفكير في إنشاء غيرها التي تفي بمتنوّع الحاجات فتهيّئ للفتاة الغنيّة وسائل التقدّم وتطلعها على تطوّر الأفكار في العالم، وتهديها إلى كيفية الاستفادة من كل ذلك بأن تدخل منه الحسن الموافق لرقيّ وسطها، ولتكون هي عاملة ذات منفعة وأثر.

وتتنظّم تلك الجمعيات من الجهة الأخرى بحيث تفرد مكتباً للاستعلامات التي تطلبها الفتيات، وتكون وسيطاً بين هؤلاء الساعيات إلى كسب الرزق وإعالة نفوسهنّ أو ذويهنّ وبين دوائر العمل الشريف المصون، وفقاً لاستعداد كل فتاة وموهبتها الطبيعية.

* * *

إنّ دور المرأة يتغيّر شيئاً فشيئاً على هذه الأرض بتزايد عددها والنقص في عدد الرجال، وبكابوس الحرب الذي يهدّد شعوب الشرق والغرب رغماً عن جميع مهازل الصلح والسلام.

إنّ دور المرأة يتغيّر وليس هذا التغيّر متعلّقاً بإرادتها أو بإرادة الرجل. فكلاهما فيه منفعلان، وهو نتيجة الأحوال العالمية التي لن يفلح في تعديلها شعب ولا جماعة. فعلى

الأفراد أن يتأهّبوا ليسيروا مع السائرين كل في سبيله. والفتاة، لأنّها ضعيفة، أحقّ الناس بالتأهّب والتسلّح بما يضمن لها استقلالها الإنساني وكرامتها النسائية، ويمكّنها من إعالة غيرها عندما تلقي الحياة هذا العبء على عاتقها.

(ميّ)

(*) السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٥١، ٢٦ شباط/فبراير ١٩٢٧، ص ٧ .

(١) أنظر مقالة ميّ زيادة «الفتاة المصرية وموقفها اليوم» المنشورة في السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٤، ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧، ص ٦ - ٧، وهي مضمّنة أيضاً في هذه المجموعة [٦].

(٢) Lady Blanche Isabella Lloyd (١٨٨٠ - ١٩٦٩)، قرينة Lord George Ambrose Lloyd المندوب السامي البريطاني في مصر من ١٩٢٥ - ١٩٢٩ .

(٣) هكذا في الأصل، والمقصود «تكوّن».

مجلّة سركيس (١٩٢١ - ١٩٢٤)

إلى سليم سركيس

القاهرة في ١٨ مايو سنة ١٩٢١

سيّدي،

ألقيتُ هذه المحاضرة[١] في الجامعة المصرية في ٢٩ أبريل الماضي وقبل أن أبدأ بإلقائها حملني الخيال مجتازاً ثمانية أعوام ماضيات إلى أواخر أبريل سنة ١٩١٣ يوم كنت حديثة العهد بمعالجة القلم. رأيتني في الجامعة المصرية وقد وقفت في محفل عظيم يرئسه سموّ البرنس محمّد علي باشا يحفّ به الوزراء والعلماء والوجهاء. رأيتني مضطربة إزاء ذلك الجمع الخطير لأنّي حُشرت، أنا الفتاة الجاهلة القاصرة، بين أولي النبوغ والشهرة وأُرغمت على المثول أمام أهل النقد والتمحيص. وقفت يومئذ لأنّك أرغمتني أنت على ذلك بذلك النشاط الذي يهزأ بالصعاب عندما تصمّم على أمر من الأمور.

كنت مضطربة ولم يفتك اضطرابي فهمستَ قائلاً:

«تشجّعي ولا تخافي! أريد أن تبيّضي لي وجهي. أريد أن أرفع رأسي بك». هذه هي كلمات التشجيع العادية التي لا يعنيها المرء عندما يتلفّظ بها. غير أنّ السرّ ليس في الألفاظ نفسها بل بالبراعة في انتخاب الوقت لاستعمالها، ولا سيّما في اللهجة الجدّية التي توقع عليها – وقد فعلت فعلها فكان لي أعظم دافع وأقدر محرّك. فخلعت عنّي جبن الجهلاء واضطراب النساء، واللّه يعلم والحضور جميعاً أنّني ألقيت خطبتي يومئذ بلا وجل.

تلك كانت حفلة تكريم شاعرنا الأروع خليل مطران[٢].

كل هذا مرّ في خاطري قبل أن أبدأ بإلقاء المحاضرة فشعرت للحال بأنّي مدينة إليك بشيء كثير.

وها أنا أهديك هذه المحاضرة المتواضعة ليس برسم االتقريظ والانتقاد لمجلّة سركيس، ولا هديّة تكريم للكاتب والصحافي منك، وإنّما تذكار شكر لأنّها خطابي الأخير. أهديها تذكار شكر إلى الرجل الذي دفعني إلى إلقاء الخطاب الأوّل.

(ميّ)

(*) مجلّة سركيس، س ١٠، ع ١٠ و ١١، ١٥ أيّار/مايو و ١ حزيران/يونيو ١٩٢١، ص ٣٤٢ – ٣٤٣.

(١) أرفقت ميّ زيادة بخطابها هذا نسخة من محاضرة «غاية الحياة» التي كانت ألقتها في ٢٩ نيسان/أبريل ١٩٢١ في الجامعة المصرية استجابة لدعوة جمعية «فتاة مصر الفتاة»، وقد طبعتها على حدة في العام نفسه دار المقتطف والمقطّم في القاهرة، كما أنّها مضمّنة في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ١، ص ٦٤٣ – ٦٥٥.

(٢) أنظر الكلمة التي أرسلها جبران خليل جبران وتلتها ميّ زيادة نيابة عنه ثمّ علّقت عليها في حفلة تكريم خليل مطران المقامة في سراي الجامعة المصرية مساء ٢٤ نيسان/أبريل ١٩١٣ في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المرجع الآنف الذكر، ج ٢، ص ١٧ – ٢٦.

تهنئة(١)

القاهرة في ٦ يوليو (تمّوز) سنة ١٩٢٣

عزيزتي الآنسة نجلا،

بعد غد هو لك اليوم الذي يسمّونه اصطلاحاً في حياة المتزوّج والمقدم على الزواج (يوم الفرح) وأنا جئت أقول إنّي لا أكتفي به كذلك بل أودُّ أن يكون لك عنوان حياة طويلة مفعمة بصنوف الأفراح المتنوّعة.

كثيرة هي التمنّيات التي تحاول اليوم أن تقتنص لك ضمان السعادة: أهمّها تمنّيات يرسلها قلبا الوالدين الجليلين بحرارة الإخلاص ودموع التأثّر، ثمّ تمنّيات الإخوة والأخوات والأحباب والأصدقاء والمعارف والشعراء الذين ما نزلوا في آخر هذه القائمة إلّا لأَنّ الأوّلين آخرون - كما جاء في الكتاب.

كثيرة هي التمنّيات وكثيرة الهدايا، أمّا أنا فالهديّة منّي والتمنّي متوحّدان وهما قنّينة العطر الصغيرة هذه. هي أضأل هدايا عرسك من حيث القيمة المادّية ولكن إذا شئت أن تنظري إليها - يا ابنة أبيك - بالعين التي تستطيع أن تمضي إلى ما وراء الظاهر المحسوس، وجدتِ فيها رمزاً لكل الهدايا وكل التمنّيات وكل السعادة لأنّ العطر من الأزهار والأزهار زينة وأنس وأريج وذوق (سليم)[٢] وربيع (وبهجة)[٣] وأمل وتحقيق للأمل. والأزهار خيال وحقيقة وشعر ونثر وحليّ ولآلئ. والأزهار ابتسام ونظرات وصدق وأمانة وجمال وتوفيق ونموّ وحياة وخلود. والأهمّ بعد كل هذا - أو قبل كل هذا - هو أنّ المرأة المعطّرة هي المرأة المحبوبة كما يقول الفرنسيون.

هذا ما تحمله لك زجاجة العطر الصغيرة. فضعيها في أخفى زوايا (الصباحية) تظلّ مرسلة هذه المعاني، ممثّلة هذه الرموز كما ترسل الزهور الصغيرة المحجوبة شذاها النمّام في الفضاء.

وبعد هذا الشرح فرسالتان أرجو أن تؤدّيهما - يا حلوة، يا عروسة - بأمانة ودقّة. الرسالة الأولى: قبلة على وجنتك السمراء الحسناء. ولك الخيار في تأدية هذه الرسالة على الوجه الذي تختارين. أمّا الرسالة الأخرى فيجب تأديتها بالحرف وهي للعريس: قولي له - اسمعي جيّداً، اسمعي ولا تغاري أن تنقلي إليه ما توجّهه إليه أخرى - قولي له أن يظلّ طول الحياة كفوءاً لك وأن ينيلك من الحبّ والسعادة والإكرام كل ما تستحقّين. واتخطري(٤)، اسم اللّه، يا زينة!

(ميّ)

(*) مجلّة سركيس، س ١٢، ع ٧ و ٨، تمّوز/يوليو وآب/أغسطس ١٩٢٣، ص ٤٤٢ - ٤٤٤ .

(١) أرسلت ميّ زيادة هذه التهنئة مع زجاجة عطر صغيرة إلى نجلا، كريمة سليم سركيس، لمناسبة زفافها، وقد تلاها الشاعر خليل مطران على المدعوّين.

(٢) [هامش المجلّة] إشارة إلى اسم والد العروس.

(٣) [هامش المجلّة] إشارة إلى اسم والدتها.

(٤) كذا في الأصل، والمقصود «واتمخطري» وهي الصيغة العامّية المصرية لـ «تمخطري». والعبارة مأخوذة من أغنية الزفاف المصرية الشهيرة.

لإنصاف الأنانية المظلومة[١]

أيّها السادة والسيّدات،

يتيسّر الكلام في جمعيات العلم والفنّ والإصلاح، والأدب والاقتصاد والسياسة، لأنّ لكل جماعة من هؤلاء غايةً يسعون إليها وقاعدة يجرون عليها. إن تغيّرت منها الكيفيات بحكم الظروف فإنّ مبدأها الأساسي لا يتغيّر. ولكن ماذا يقول في مثل هذا الاجتماع الوادع المأنوس من كان حائراً قلقاً تدوّي في نفسه جميع أصداء العالم؟ من كان شاعراً بالعواطف المهاجمة من كل صوب، الثائرة من كل ناحية تبدّل النظريات وتزعزع النظم سائقة تناقضاً بعد تناقض، وألماً بعد ألم، وحميّةً بعد حميّة؟

إنّ العالم اليوم لمأخوذ بنوبة من الصياح والنزاع والحاجة، نوبة تتلاقى فيها الحكمة والجنون، والزهد والطمع، والصراحة والمواربة، والذلّ والأنفة، والاستعباد والحرّية. فماذا يقول من كان شاعراً بكل ذلك إذا هو رغب في أن يكون معبّراً عمّا يجول في جميع النفوس فلا يقع كلامه موقع الاستفهام والاستغراب؟

سرعان ما يهتدي الرجل إلى الكلمة المناسبة التي ترضي وتفيد في جميع المواقف. لأنّ الرجل ألف الضوضاء والجهاد خلال الأجيال، وما المصاعب عنده إلّا بعض مشوّقات الطريق. ولكنّ المرأة، ولكنّ الفتاة، ولكنّي أنا أميل ما أكون إلى السكوت بين هذه الزعازع العالمية.

نعم، يا سادتي، السكوت، لولا همّة هذه الجمعية الناهضة التي مثّلت الإخاء والأريحية على أجمل صورة، فأبت إلّا أن تأتي بنا الوقت بعد الوقت لترسل إلينا نفحة من يقينها، وتبعث فينا نسمة من حياتها، وتجدّد منّا قديم الآمال.

والسكوت، لولا سكرتير هذه الجمعية البارع في كل شيء - حتّى في الاستبداد - الذي لا ينسى أبداً ما نذكره نحن دواماً، وهو أنّ المرأة في طنطا تجلّت مثلاً أعلى في جمالها وحنوّها وفضلها ونشاطها. فأبى السكرتير المحترم إلّا أن يكون في الحفلة السنوية صوت يُسمع لهذا الجنس الذي - بشخص سيّدات طنطا - يعمل للاتّحاد والإحسان كل يوم بل كل ساعة من ساعات السنة.

ولكان يجدر بي أن أحدّثكم عن بعض خصائص المرأة: عن البرّ، عن الشفقة والوفاء، عن التضحية. إلّا أنّي قرأت لحكيم هذه الجملة: «ثقّف عيوبك، يا هذا! أمّا فضائلك فدعها تثقّفك صامتة!».

فلتثقّف نفوسَنا إذن الرحمة العاملة والوفاء الصامت! ولتخلق منّا التضحيةُ الأبطال والشهداء عندما يحتاج الشرق إلى أبطال وشهداء يكونون منه خميرته المقدّسة! وإذا علّلتموني، أيّها السادة، بأن تصغوا إليَّ بالعطف والحنين الذي نراه الآن من رجال الشرق - حتّى من الأستاذ فكري أباظة المحافظ الشديد التعصّب - عند سماع صوت المرأة يهتف شاكياً أو منادياً أو محمّساً، وإذا علّلتموني بذلك قلت لكم كليمات قليلة عن نقيض التضحية، أي عن الأنانية.

لا تجفلوا، أيّها السادة والسيّدات، لذكر الأنانية. ما أكثر ما احتملته هذه الأنانية المسكينة من ظلمنا وافترائنا في حين أنّها جرثومة الحياة المتأصّلة في الأفراد والكائنات. وبها تتماسك هذه الأكوان وتتوازن في الفضاء مجدّدة كل لحظة عجائب القوّة والثروة والروح والجمال.

إنّ الأنانية التي نستبيح مقتها ونبالغ في ذمّها هي تلك التي تتضخّم وتضع نفسها في غير موضعها، وتدّعي من القدرات والكفاءات ما هو غريب عنها، وتمتهن جميع الحقوق أو تحوّلها إلى مصلحتها دون تأدية واجب من الواجبات. هذه هي الأنانية التي ترهق العالم، وتملأ الآن جوَّه باصطخاب التظلّم والثورات والأنين.

على أنّي أستجلي مظاهر ثلاثة من الأنانية المشروعة المستحبّة العريقة، مظاهر تزيد كل يوم وضوحاً من خلال الحوادث والضجيج.

أوّلها - الأنانية الفردية، أي ميل كل فرد رفيعاً كان أم وضيعاً إلى إثبات شخصيته وإنمائها كما هو يعترف بشخصيات الآخرين ويقف عند حدودها. وهذه العناية بالشخصية الفردية هي أساس التهذيب والتقدّم، وهي من ارتقاء الأمّة حجر الزاوية. لأنّ الذي لا يحبّ نفسه لا يحبّ أحداً، والذي لا يحترم نفسه لا يحترم أحداً. وامرؤ لا يقدّر من أعماله المجهود والغاية والسعي ضمن حدود شخصيته ومقدرته الطبيعية فهو لا يقدّر أحداً ولا مذهباً، ولا شأناً. وأمّة لا يعرف كل من أفرادها رجالاً ونساءً أن يقول «أنا»، لا بغلوّ ولا بغرور، لا بخبث ولا بمداجاة، بل يقولها بكرامة

الوجود البديهي وبإدراك ما تقتضيه من تبادل الحقوق والواجبات، الأمّة التي لا يعرف أفرادها ذلك أمّة لا تستحقّ أن تُنشر لها راية، ولا يجوز لها أن تقف بين الشعوب عالية الرأس وتقول «نحن!».

لا يجوز لها ذلك لأنّ كرامة الأمّة ونشاطها يبدآن بنشاط الفرد وكرامته. كما أنّ في ابن الوطن الواحد الصادق الأمين تتهيّأ وطنية صادقة أمينة عظمى: وطنية الإنسانية.

أمّا المظهر الثاني فهو أنانية الجماعة، أي أنّ الأفراد المتجانسي الميول والكفاءات يتضامنون لتعزيز مبدأ واحد والسعي إلى غاية واحدة. ومن هذا المظهر الجمعيات المختلفة علمية واجتماعية وعمرانية. ومنه تحالف الوحدات الدولية لصيانة مصالحها المشتركة ودفع الخطر عن ممتلكاتها، بأسماء منمّقة شتّى أهمّها وأبعدها دويًّا اسم «الدفاع عن صرح الحضارة»!

ومن ثمّ يتّسع هذا المظهر الثاني ويشيع عن طريق رسله النظريين أمثال ووِدْرُو ويلْسُن. فإذا به يتبلور ويتحقّق شيئاً فشيئاً متجاهلاً ما بين الشعوب من ضغينة وافتئات وتغاير مصالح، ليربط بين بني الإنسان برابطة الحبّ والتفاهم.

ففي هذه الأيّام، أيّام تنازع الحقوق والحرّيات، نرى المؤتمرات تُعقد في العالم. لست أعني المؤتمرات السياسية التي يخرجون من كل منها وهم لا يتّفقون إلّا على عقد مؤتمر جديد. ولكنّي أعني المؤتمرات العلمية والأخلاقية والمالية والتجارية. أعني المؤتمرات الصحّية التي تعقد لمكافحة الأمراض وإيقاف تيّار العدوى. أعني المؤتمرات التي تعقد لإصلاح حال المرأة وتعليمها واجباتها، وصيانة كرامتها وحقوقها، مؤتمرات تعقد ليس لخير أمّة، أو وطن، أو قارّة، بل ترمي إلى نفع كل أمّة، وكل وطن، وكل قارّة في الأرض، وطن بني الإنسان أجمعين. وإن لم تصادف هذه المؤتمرات في بادئ الأمر كل النجاح المباشر الذي هي حقيقة به فلأنّها جديدة غير مألوفة لم تنتظم بعد منها الفكرة والأساليب. إلّا أنّ النجاح حليفها في الغد، والزمان لها كفيل بالتقدّم والرسوخ لأنّها حيوية خطيرة لا غنى للإنسانية عنها وعن منافعها.

في هذه المظاهر الثلاثة من الأنانية العريقة المشروعة المستحبّة تتثقّف الآن صفوة الإنسانية مدركة نفسها في شخصية الفرد، مؤيّدة قوّتها في شخصية الجماعة، مشرّفة

عطفها في شخصية الإنسانية. ولئن كان التثقيف الفردي أساساً، وكان الترابط الإنساني غاية، فانّ تضامن الجماعات وسيلة ضرورية نبيلة. وكأنّي عندما أقول هذا أحيّي جمعية الاتّحاد والإحسان وأجاهر لماذا هي عزيزة عليّ.

لقد تناوبت على هذا الشرق المصائب بعضها من الخارج وبعضها من الداخل. وأشدّ هذه المصائب خطراً وأذرعها فتكاً مصيبة التفرّق والتحزّب، وما إن عرف الشرق علّة العلل فيه وأخذ يستجمع قواه للنهوض حتّى قمتم، أيّها السادة والسيّدات، تنشئون من الاتّحاد والإحسان عروة وثقى. وبينا أنتم تغيثون البائس وتخفّفون عن المتعبين أثقال الحياة الظالمة في كثير من جهاتها، إذا بكم تتوحّدون في رابطة مباركة تجمع بين الرجل والمرأة في مستوى واحد وتمحو فروق الطوائف والمذاهب. وبينا جمعيتكم تقف كريمة إلى جنب أخواتها الأخرى من جمعيات الإحسان، إذا بها لنا قدوة مثلى في الاتّحاد والإخاء.

إنّها قدوة مثلى لجميع أبناء المشرق. لذلك يرتفع فيها صوت المصري وصوت السوري على السواء. ويتكلّم كل منهما باثّاً شكايته، مرسلاً تحيّته، مجاهراً بآماله، عالماً أنّ صوته لا يقصر على المضيّ في ناحية واحدة بل يجد له صدى في جميع النفوس الشرقية الناهضة التي تسير نحو المستقبل بحرارة الإخلاص والإيمان.

وبهذه الثقة وهذا الإيمان أرفع صوتي هاتفة للشرق الجديد، شرق النهوض والتجدّد والحرّية، شرق الاتّحاد والتضامن والإخاء!

ولتحيَ الجمعية التي ترينا كيف تتحقّق النظريات السامية فتفيض على حياة الأمّة بركة وخيراً وهناء!

(ميّ)

(*) مجلّة سركيس، س ١٣، ع ٣، آذار/مارس ١٩٢٤، ص ١٨١ - ١٨٥ .

(١) كلمة ميّ زيادة في الحفلة السنوية التي أقامتها جمعية الاتّحاد والإحسان السورية في ٣٠ آذار/مارس ١٩٢٤ في طنطا بالاشتراك مع جمعية السيّدات. تصّدر الحفلة الأمير ميشيل لطف الله رئيس شرف الجمعية. أمّا ثاني الخطيبين فكان المحامي والكاتب المصري محمّد فكري أباظة.

الهلال (١٩١٧ - ١٩٣٤)

تحيّة

إلى «الهلال»

[الهلال] ليس بين القرّاء من يجهل الآنسة «ميّ» وما لها من المكانة في عالم الأدب. وقد طلبنا إليها أن تتحف الهلال بشيء من قلمها ننشره في هذا الجزء فتفضّلت بهذه «التحيّة» وبمقالة «ما هي اليوجا؟» المنشورة في غير هذا المكان. فالأولى منهما تنمُّ عن أدب الكاتبة وجمال تعبيرها وبعد خيالها والثانية تدلّ على علمها وغزارة مادّتها وسعة اطّلاعها.

في عمرٍ يشبه الحلم عرفتك، أيّها الهلال الفضّي، وليس لديَّ من تذكارٍ مطبعيٍّ أقدم منك. لذا يختلط ذكرك في حافظتي بخيالات جبال الطور وحرمون والكرمل، وخضرة مرج ابن عامر الواسع، وأنفاس الليمون والصعتر والياسمين المنبعثة من تلك الأرض التاريخية، أرض الجليل الجميلة.

يومئذٍ كان لثامك وردياً باهتاً، على ما أظنّ، ولكلمة «الهلال» في وسطه فخامة وجلال يكسوان كل كتابٍ مطبوع. لست أدري كيف سمعت اسمك للمرّة الأولى، غير أنّي كنت أعرفه وأعرف أنّك آتٍ من وراء الأزرق البعيد البادي في أطراف الأفق عند حدود المرج الكبير، من جبّار كدّ اسمه زيدان[1] ومن أرض سحرٍ وجمال اسمها مصر.

كان يذهلني تعدّد أجزاء «الهلال» وأسائل نفسي هل تأتي من مصر حيناً بعد حين، أم جاءت كلها دفعةً واحدة وانتهى الأمر؟ لكنَّ السديم الصغير القائم عندي مقام العقل يومئذٍ لم يكن ليقدر على حلّ هذه الألغاز العظيمة، بل كنت أتناول «الهلال» مقلّبة صفحاته بسرورٍ يتزايد كلّما تعدّدت الصور والرسوم والأوراق، وإن كانت الصفحات المكتوبة من أوّلها إلى آخرها تضايقني لأنّ «ما فيهاش حاجة». لكن لا ألبث أن أتعزّى برسوم الرجال والنساءِ والحيوانات والآلات المتجسّمة بين جانبيك. وبعد أن أقلّب تلك الصفحات مراراً من اليمين إلى الشمال، ومن الشمال إلى اليمين، كنت

أطبقكَ مفكرةً بهلال الفلك، ومذهولة لشيءٍ لا أدري الآن ما هو. لعلَّ مادّة الفكر غير المتكوّن فيَّ يومئذٍ كانت ترتعش لدى مظاهر الفكر الناضج. لعلَّ حبّي العظيم للعلم، ذلك الحبّ الدفين يومئذٍ في نفسي الصغيرة، كان مستشعراً بأنّ بين صفحاتٍ أقلّبها جاهلة أشعّة شمسٍ تحيي وتنمي؟ لعلَّ الروح الخالد القاطن فينا منذ النفس الأوّل إلى النفس الأخير، كان متنبّئاً بالمستقبل، كان ناظراً في مدى الزمان المنبسط أمامه يتتبّع عمل حافظتي الآن في استدعاء هذه التذكارات، وحركة يدي في تدوينها؟ كان يراني مفكّرةً تحت سماء مصر العزيزة أكتب «للهلال» مقالي الأوّل بمناسبة عيده الفضّي..؟

هذه التذكارات كانت تمسك قلمي عن الكتابة إليك كلّما هممتُ أن أفعل. تذكاراتٌ صغيرة في نظر الغير، لكن ما أكبرها وأهمّها في نظري أنا التي تملأ حياتي عبادة الفكر وتقديس مظاهره! أكتب إليك اليوم مهنّئة بعيدك. في لغتنا بيتٌ لشاعر يقول:

وإذا رأيتَ من الهلال نموّه أيقنتَ أن سيصير بدراً كاملا

ولا بدّ أن يقوله لك غير واحدٍ من أصدقائك متمنّياً أن تصير بدراً كاملاً. أمّا أنا فلا أتمنّى لك ذلك لأنّه يتحتّم عليك إذ ذاك أن تعود إلى النقصان كبدر السماء، بل أتمنّى أن تظلّ كما أنت هلالاً جميلاً يعكس بين صفحاته أنواراً يقتبسها من شمس الفكر الإنساني الدائم التجدّد، باعثاً بها إلى نفوس معطاشة إلى تناول العلم والسير في سبيل الارتقاء.

هلالاً أوجدتك الروح الطيّبة التي أبدعتك، وهلالاً يجب أن تظلّ دائماً. وما أقدر الهلال على إرسال النور مهما يكن الليل غدافيًّا! هلالاً تجمع كيانك الروح الفتاة العاملة فيك بيدها وبفكرها تحت رعاية الروح الكبرى التي تنظر إليك غير منظورة، وتخيّم عليك باهتمامها وحبّها نافخة فيك وحياً ونشاطاً.

(ميّ)

(*) الهلال، س ٢٦، ج ١، تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩١٧، ص ٩ - ١٠ .

(١) المقصود هو جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤)، الأديب والمؤرّخ اللبناني الذي أنشأ عام ١٨٩٢ مجلّة «الهلال» في القاهرة.

ما هي اليوجا؟

منذ ثلاثين أو أربعين سنة حركة فكرية تذكر في أوربّا وأميركا، تزايدت في السنوات الأخيرة. ولكنّها غير مبتدعة. هي أقدم حركة نفسية عرفها العالم، تتغلغل في المذاهب الفلسفية الأُولى والديانات الكثيفة وخرافات البشرية البعيدة.

بعد ريح المادّية التي هبّت على العالم بكتابات داروين وهكسلي وتيندل وباستور[١]، واضعةً في فم المفكّرين كلمات «النشوء والارتقاء وبقاء الأنسب» ونسب أصل الحياة البشرية، ضمناً لا تصريحاً، إلى التولّد الاختياري والتكوّن الذاتي، ومثبتة أنّ كل شيء هو مادّة فمادّة، وما وراء المادّة إلّا المادّة - شعرت النفوس باحتياج إلى نقب هذا الستار الضخم والبحث في ما يعطيه الحركة والحياة. هل هو الدكتور فيرخو الألماني[٢] الذي طعن هذا المذهب الطعنة القاضية؟ قد يكون. لكنّ عطشاً روحياً قبض على فئة من الباحثين فانقلبوا عائدين إلى الماضي وطفقوا يعلّلون فلسفته الخفيّة وحكمته الخالدة: نقبوا في الفرس تعاليم زرادشت وعلوم المجوس. نبشوا معارف الكلدان وتلمّسوا ألغاز آشور وبابل. تصفّحوا حكمة المصريين من أيّام هرمس مثلّث العظمات ورفعوا مع الكهنة قناعاً يختفي وراءه محيّا تلك التي هي «ما كان وما هو كائن وما سيكون» إيزيس إلهة الطبيعة. اقتفوا آثار الخفاء والكتمان في دهاليز الأهرام وفي أخربة الهياكل، وكادوا يتناولون من بين شفتي أبي الهول سرّاً منذ ابتداء الدهور كميناً - سرّ الحقيقة الأبدية. رجعوا إلى فيتاغورس وأرفيوس[٣] يلتقطون شرارات نورانيات من تعاليمهما متناثرات، واستنطقوا آثار أفلاطون في أثينا وروما والإسكندرية. آخوا أفلوطين ويمبليخوس وبروكلوس في أفلاطونيتهم الجديدة واستجوبوا الهشنيين والغنوستيين عند المسيحيين، والكبّاليين عند اليهود، والصوفيين عند المسلمين. عبروا القرون الوسطى باحثين عن الهيكليين[٤] وغيرهم من الروحانيين ولم تفتْهم حقائق فرسان صليب الوردة[٥] الخفيّة. بحثوا ثمّ بحثوا وما زالوا باحثين. واستقوا معلومات كثيرات من الهند الفلسفية بواسطة مؤلّفات دويسن المستشرق الإنجليزي[٦] الذي قضى الأعوام الطوال

في الهند دارساً السنسكريتية ناقلاً دياناتها وحكمتها إلى لغته، وتُعدّ مؤلّفاته أهمّ أثرٍ إنجليزي في هذا الموضوع، وبواسطة كتابات مسز بيزانت الكاتبة الشهيرة ورئيسة جمعية المتصوّفين المركزية في الهند، كذلك كتابات مدام بلافاتسكي الروسية(٧) التي كانت سكرتيرة هذه الجمعية في نيويورك. كثيرون غير هؤلاء يقصدون الهند أرض الأسرار. فما خفيت على القوم تعاليم البراهمة ولا مذاهب بوذا والجانابيسم. ولكنّهم انتخبوا اليوجا لجمالها واستخرجوا منها مذهباً كثير الانتشار في العالمين في هذه السنوات وهو ما يسمّونه الفكرة الجديدة أو «الفكر الجديد».

مصدر أم مصدران؟

يختلف مؤرّخو المذاهب الروحانية في هل أصل المذاهب المذكورة واحد (الهند) أم هل هناك مصدران أحدهما إغريقي والآخر هندي.

يؤكّد الهشنيون والتربيث أنّ الأثر الجليّ في مذاهبهم فيثاغوري محض، ويقول آخرون إنّه بوذي، والشائع أنّ الشرارة الروحانية جاءت من الهند بواسطة فيثاغورس الحكيم الذي يصحّ أن يقال فيه إنّه منهل الفلسفة الإغريقية خصوصاً الفلسفة الأفلاطونية الكمالية.

عاش فيثاغورس في القرن السادس قبل المسيح، ويقال إنّه زار مصر وبابل والهند. مذهبه الفلسفي المرتكز على الاعتقاد بالتناسخ (كأكثر المذاهب الهندية إنْ لم يكن كلها) مستخرج من علم الأعداد، ويظنّ أنّه اقتبس أصوله من جمعيات سرّية منتشرة يومئذ في مصر وبابل وإيران والهند. كذلك ينسب إليه اختراع بعض الآلات الوترية وجدول الضرب الذي تتداوله جميع الأيدي في أيّامنا هذه. هو أوّل من استعمل كلمة فلسفة جاعلاً معناها العمليّ مباشرة الحكمة. فعنده كلمة فيلسوف تشمل كلمة كاهن وقد كان كاهناً وفيلسوفاً معاً في جمعيته المؤلّفة من ستّمائة من تلاميذه وأتباعه. كان أعضاء هذه الجمعية يرتدون الثوب الأبيض ويمتنعون عن أكل اللحوم كما أنّهم لا يلبسون حذاءً مصنوعاً من جلد حيوان مذبوح، وأملاكهم وثروتهم مشتركة بينهم.

لا يسهل نفي زيارة فيثاغورس للهند لما بين مذهبه والمذاهب الهندية من المشابهة النظامية والعملية. ثمّ إنّه تعلّم على فريسيدس الفارسي(٨) الذي كان يعلّم في أَفَسُس

مذهباً قائماً على فكرة التناسخ، وهو أوّل القائلين بخلود النفس بين فلاسفة الإغريق. لا يبعد أنّ هذا العالم الآسيوي كان ذا صلة بالفكر الهندي لأنّ علاقات الفرس بالهند ترجع إلى عهد قديم جدّاً. يقال إنّ يوم جرّ سيلاكس الفارسي[٩] جيوشه وجحافله على نهر السند لاجتياح شواطئه (في أوائل القرن الخامس قبل المسيح) كانت تعدُّ الهند المرازبة[١٠] (المملكة) العشرين لدولة الفرس، وقد كثر جنود الهنود بين جيوش كيشايرشا[١١] يوم أغار على طساليا[١٢] ودوَّخ بلاتيا[١٣]. أمّا بعد غارة الإسكندر فقد كثرت المواصلات بين الهند وبلاد الإغريق.

فمن يستطيع أن يحلّ المشكل ويثبت لنا بالبرهان القاطع أنّ الروحانية دخيلة في بلاد الإغريق وأنّ الهند وطنها الوحيد؟ ومن جهة أخرى ما حاجة الفكر الإنساني إلى النقل والتقليد؟ أليست احتياجاته متشابهة، ورغباته متماثلة، ونتائجه واحدة في كل آنٍ ومكان؟ مهما تعدّدت مظاهره وتنوّعت اختراعاته ألا ينتهي متوحّداً في قوّة فردية؟ فهو من هذا القبيل كالكهرباء. طبيعتها مجهولة لدينا، وهي واحدة متنوّعة إذا ما قيّدناها بظروف مناسبة. هي قوّة متحرّكة. فإذا ما حصرنا تلك القوّة في مصباح اشتعلت نوراً. وإذا ما استبدلنا المصباح بآلةٍ كلوانية[١٤] انقلب النور مظهراً كيماوياً. وإذا ما وضعنا في طريقها آلة قادرة على توليد الحركة استخرجنا منها محرّكاً قادراً. وإذا ما حبسناها في آلة تليفونية نقلت منّا وإلينا الأصوات. ويرى هذه النتائج كل من استعمل هذه القوّة في أيّ بقعةٍ من الأرض. فلماذا لا يكون الفكر كذلك؟ ومن يُدرينا أنّ عنصر الفكر هو غير عنصر الكهرباء؟

ما هي اليوجا؟

اليوجا هي أحد المذاهب الهندية الفلسفية الستّ ومعنى لفظتها السنسكريتية «اتّحاد» و «تطبيق» في آنٍ واحد وهي في الحقيقة السبيل المؤدّي (عندهم) إلى الاتّحاد التامّ، اتحاد الروح بالله بواسطة التأمّل وطهارة الحياة، وحصر الفكر في موضوعات دون غيرها. ولأهمّيتها الكبرى عند الهنود ترى أثرها بادياً في المذهب البوذي العذب، كما أنّ مذهب البراهمة، على تعجرفه وتعصّبه، لا يخلو من ذلك الأثر. كذلك لا يبعد أن تكون مؤثّرة في المذاهب الروحانية عند الإسكندرانيين (كما سبق) وفي الأفلاطونية الجديدة. لأنّه من

المقرّر أنّ أفلوطين (وهو زعيم المذهب الأفلاطوني الجديد) شغف بحكمة الهند لما سمعه عنها مرويّاً عن آپولونيوس التياني[١٥]. فدفعه ذلك الشغف إلى الانضمام إلى حملة غورديان[١٦] لزيارة وطن الحكمة العجيبة. ولكنّه عاد مرغماً ذاوي الآمال إذ فشلت الحملة وقتل الإمبراطور. وعلى كل فهي الآن منتشرة بين الخاصّة باسم التصوّف (Theosophy) وعلاقتها بالسبيرتيسم[١٧] الأوربّي الحديث جديرة بالذكر.

يعتقد أكثر الناس أنّ الإنسان جسم ذو نفس، لكنّه عند أهل اليوجا روح ذات نفس وجسد، بل هو مركّب من أصول سبعة تتفاوت لطافة وكثافة. أمّا «الأنا» الحقيقية في الإنسان فليست جسمه ولا هي فكره، بل هي روحه وهي شرارة من النار الأزلية السرمدية. وما الجسم والفكر إلّا بعض الظروف السبعة الحائلة بين الروح وبروزها المنير. فإذا ما ارتقى المرء إدراكاً وأخلاقاً وفضيلة تمزّق حجاب يغشى عينيه، وظهرت له حقيقة الظرف التالي، واستشعر بالروح الكامنة فيه الحاوية لجميع القدرات. أمّا الأصول السبعة فهي:

١ً الجسم الطبيعي
٢ً الجسم الهوائي
٣ً «پرانا» أو القوّة الحيوية
٤ً العقل بالملكة أو العقل الغريزي
٥ً الإدراك
٦ً العقل الروحاني
٧ً العقل الأوّل أو الروح

«فالأنا» كتلة نور تحيط بها الظروف الستّة. ولئن كان كلّ حاوياً للأصول السبعة فالأكثرية لا تستعملها ولا تشعر إلّا بالخمسة الأولى، والأقلّية تشعر بالجوهر السادس. أمّا السابع الخالص فلم ينته إليه أحد من جيلنا هذا.

يطول بنا الكلام كثيراً إذا ذكرنا كلاً من الأصول بالتفصيل. لأنّ الأربعة العليا معنوية أكثر منها حسّية. فنذكر إجمالاً الثلاثة الأولى منها: الجسم الطبيعي، والجسم الهوائي وهو آلة العجائب عند الروحانيين، والقوّة الحيوية.

الجسم الطبيعي والقوّة الحيوية

الجسم الطبيعي معروف لدى الجميع وهو أظهر أصل لأنّه أكثر الأصول كثافة. ولئن أنزل أهل اليوجا هذا الجسم المنزل الأخير من قائمتهم فهم لا يحتقرونه بل يعتنون به أيّما اعتناء لأنّهم يعتبرونه هيكل الروح. وتعدّ آراؤهم في النظافة وضبط التنفّس وبساطة الغذاء وخلوّه من اللحم أوجه الآراء الصحّية. نعم، يعتنون بالجسم، ولكن يعوّدونه على الإذعان لسلطة العقل لا أن يكون له العقل رقّاً كما هي الحالة عند أكثر الناس.

الجسم الطبيعي مركّب من خلايا متعدّدة ولكل حياتها الخاصّة ووظيفتها الخاصّة وذكاؤها الخاصّ تحت سلطان قوّة كبرى تجمع الخلايا جسماً واحداً باعثة فيه حياة عامّة تشمل جميع الأجزاء، وهي الأصل الثالث المدعوّ قوّة حيوية؛ ويسمّيه البعض المغناطيس الشخصي. فإذا ما حلّ الموت بالجسد تفرّقت منه الخلايا وتبعثرت، ونزل بها ما نسمّيه البلى إذ تتقلّص القوّة الجامعة لها، عائدة إلى مستودع القوى الأكبر في الكون. فتصبح الخلايا مطلقة الحرّية لفقدها رئيسها العامّ ثمّ تنضمّ إلى ما تطلبه طبيعتها ممّا حولها. فقد تعطي قوّتها إلى عشب نابتٍ على مقربة منها أو تدخل في جسم حيوان يأكل العشب أو تظلّ كامنة في الأرض زمناً غير محدود. وكيف كانت الحال فإنّ الجوهر الفرد (الذرّة) خاضع أبداً لناموس التغيّر المتتابع. لذلك قالوا إنّ الموت ليس إلّا مظهراً من مظاهر الحياة وإنّ اضمحلالاً لَحِقَ بصورة مادّية لَمقدّمة لتكون صورة أخرى.

الجسم الهوائي

هذا الجسم أقلّ اشتهاراً من أخيه مع أنّ له صورته تماماً ويصله به شبه خيط حريري دقيق. هو من مادّة شفّافة لا تراها العين العادية ولا تنجلي إلّا لذوي البصيرة الروحانية المسمّاة بالعاقلة النظرية (clairvoyance). يعيش الجسم الهوائي زمناً بعد موت الجسم الطبيعي ويراه ذو البصيرة الروحانية متباعداً من الجسم في ساعة الموت، فحائماً حوله، وبينهما ذلك الخيط الدقيق يربط الواحد بالآخر، حتّى إذا ما انقطع الخيط الواصل، مات الجسم الطبيعي، وانطلقت النفس آخذة معها الجسم الهوائي. فلا تلبث

أن تلقيه عنها. ويظلّ هذا حول ضريح الجسم الطبيعي حتّى تنحلّ منه الأجزاء، وقد يراها البعض منبعثة من المدافن كنور بنفسجي.

عرفت جميع الشعوب الجسم الهوائي، وقد جعله العامّة موضوع خرافات وخزعبلات وأسرار جمّة لجهلهم ماهيّته الحقيقية، فدعوه «الجسم الأثيري» والجسم السائل و «القرينة» إلخ. وقد استحضره بعض الشعراء والكتّاب في مؤلّفاتهم كهوميرس مثلاً، وشكسبير (في هَمْلِت ومَكْبِث ويوليوس قيصر). وغيرهما كثيرون.

ينفصل الجسم الهوائي عن أخيه الطبيعي في أحوال شتّى. فالروحاني الراقي الذي كشفت له يد الحكمة السرّية جميع حجب الطبيعة، وبلغت به قوّة الإرادة إلى الإتيان بما هو في نظرنا عجيبة، يستطيع فصل جسمه الهوائي، والبعث به حيث شاء من الأمكنة التي يعلم أنّ وجوده فيها ضروري أم نافع. وهو يفعل ذلك عالماً مريداً. أمّا في غير هذه الحال فقد ينتقل الجسم الهوائي في اليقظة أو في المنام على غير علم من صاحبه. فقد يشتدّ شوق المنازع مثلاً في ساعة الموت إلى عزيز له فينطلق طيفه إليه، ويراه ذاك باسماً أو يسمعه متكلّماً ولا يعلم لذلك من سبب. وقد يظهر آخرون لأصدقاء لهم أو لغرباء عنهم، في ظروف معيّنة وتحت تأثيرات خاصّة. وتنسب إليهِ الأحلام وتوارد الخواطر، والبصيرة الروحانية (clairvoyance) والسمع الروحاني (clairaudience) وقراءة الأفكار، والتِلِباتي. جميع هذه الإدراكات تحصل بواسطة حواسّنا الهوائية الخمس الشبيهة بحواسّنا الطبيعية تمام الشبه. ولنا حاسّة سادسة هي الحاسّة التِلِباتية في الجسم الهوائي، ولها مركز معيّن في الجسم الطبيعي كذلك.

الغدّة الصنوبرية مركز الحاسّة التلباتية

في وسط الجمجمة الإنسانية (تقريباً) كتلة ذات علاقة بالدماغ تدعى الغدّة الصنوبرية. هي كتلة تكوّنها مادّة عصبية ذات لون أحمر ضارب إلى الرمادي. وظيفة هذه الغدّة في نظر العلم غير مفهومة بعد، وغاية ما يميّزه العلم هو أنّها أكبر في الطفل منها في الكهل كما أنّها أكبر عند المرأة منها عند الرجل. أمّا أهل اليوجا فيعلمون منذ أجيال أنّ هذه الغدّة مركز الحاسّة التلباتية، وأنّها آلة تستقبل الاهتزازات الآتية من

الخارج فتناولها للمركز المقابل في الجسم الهوائي، ويصبح المرء مدركاً أنواع أفكار تنبعث من الآخرين، مهما اتّسعت المسافة بينه وبينهم. لا يحتاج هذا العضو إلى ثقب خارجي، كالعين والأنف والفم، لأنّ اهتزازات الفكر تخترق المادّة كما تخترق الزجاجَ أشعّةُ النور، أو كما تنفذ أشعّة إكس في الجسم نفسه وفي الحجر والخشب إلخ.

التلباتي هو انتقال الفكر من شخص إلى شخص، أو تبادل أفكار بين شخص وأشخاص، بلا واسطة إحدى الحواسّ المحسوسة الخمس. وينكر العلم إمكان المواصلة بغير واسطة الحواسّ. أمّا العلم الروحاني فيؤيّد عكس ذلك آتياً بالبراهين من ظروف تافهة وجدّية تحدث في الحياة اليومية لأيّ من الناس. ولمّا أثبت العلم الحديث أنّ الفكر مادّي، كان هذا مؤيّداً قول أهل اليوجا بأنّ «الأفكار هي أشياء»، أي أنّ كل حركة من حركات الدماغ الفكرية تولّد بتموّجها مادّة لطيفة بشكل غيمة شفّافة، تنتقل من فكر إلى أفكار تهتمّ به وتأتلف اهتزازاتها باهتزازاته. كما تنطلق اهتزازات تحدثها آلة لاسلكية في مصر مثلاً، باحثة عن آلة لاسلكية في أوربّا قابلة لنوعها مدوّنة لمعانيها.

وظيفة الأساتذة والفناء النوراني

اليوجا قائلة بوحدة الوجود وبالتناسخ. فإنّ الفرد الأحد ينعكس في كل نفس من النفوس العديدة التي هي شرارات من نورانيته الخالدة. لا يعيش المرء عمراً واحداً بل أعماراً متعدّدة تنتقل فيها «الأنا» من جسم إلى جسم آخر، إذ أنّ التناسخ عبارة عن تعلّق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر. وغاية التناسخ هي الإصلاح بواسطة الألم، واستعمال ما هو أولى على السرمدية(١٨) كي تستحقّ النفس الاتّحاد بالذات الإلهية.

ما يأتيه المرء من شرّ في حياة سابقة يجده في حياة لاحقة ويوجع بيد من أوجع، وفي ظروف تشبه الظروف الأولى. فالقاتل يقتل بيد من قتل، والسارق يسرق بيد من سرق إلخ. وما دام الألم عندهم نتيجة لسبب أوجدوه، فهم لا يتشكّون ولا يتظلّمون، بل يحتملون صابرين متّخذين الألم واسطة للتطهير لأنّه نار تحرق كل فاسد. ثمّ إنّهم يخمدون الحركات الحسّية، ويوقفون صور الإدراك، مفارقين الأخلاق الطبيعية،

ويحيون حياة عقلية مستجمعين الفكر على موضوعات عالية دون غيرها، حتّى يصلوا إلى درجة الانخطاف بالروح والتجلّي. فتنكشف لهم من موارد التجلّي أسرار الغيوب، ويصبحون ذوي مقدرة فائقة على الأرواح والأجسام جميعاً ويقرأون في الماضي والمستقبل كما في كتاب مفتوح، وكما يرون ما في ثنايا الفكر وخفايا النيّات، ويعثون بجسمهم الهوائي متى شاءوا وحيثما شاءوا إلخ، حتّى إذا ما جاء الموت وكانت النفس قد طهّرت تطهيراً اتّحدت نهائياً بالألوهية وهذا ما يسمّونه «نِيرْفانا» أو الفناء النوراني.

يعتقدون أنّ لكل واحد منهم أستاذاً في عالم الغيب هو دائماً بقرب التلميذ، ولا يستطيع التلميذ الشعور بوجوده إلّا إذا كان على جانب عظيم من الطهر والارتقاء، فيقوده الروح في السبيل القويم، ويساعده في جهاده للتغلّب على التأثّر والألم، وفي محاولته الوصول إلى الفضيلة، ويرشده إلى منازلة الصفات الروحانية والجري وراء الحقيقة الواحدة. فهم يذكرون «الأستاذ» كمن يجتمع به كل يوم، ويكثرون من الدخول إلى أنفسهم حيث يجدونه دائماً ويختلون به ليقتبسوا من روحه سرّ الفضيلة الموصلة إلى الخير الأسمى، إلى الحياة النورانية العامّة، إلى «نيرفانا».

وفي كتاب لهم شهير هذه العبارات البديعة: «قبل أن تبصر العين يجب أن تعجز عن ذرف الدموع. قبل أن تسمع الأذن يجب أن تفقد حسّها. قبل أن يتكلّم الصوت في حضرة الأساتذة يجب أن يعجز عن التلفّظ بالكلمات الجارحات. قبل أن تستطيع النفس المثول في حضرة الأساتذة يجب أن تغسل قدميها في دماء القلب».

(ميّ)

(*) الهلال، س ٢٦، ج ١، تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩١٧، ص ٧١ - ٧٨ .

(١) Charles Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢)، عالم الطبيعة الإنجليزي وواضع نظرية النشوء والارتقاء على أساس الانتقاء الطبيعي؛ Thomas Henry Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥)، عالم الحيوان والتشريح والفيزيولوجيا، أحد أوائل الباحثين البريطانيين الذين دافعوا عن نظرية النشوء والارتقاء؛ John Tyndall (١٨٢٠ - ١٨٩٣)، العالم الفيزيائي الإيرلندي مكتشف انتشار الضوء في الجوّ بواسطة الجزيئات الكبيرة والغبار وكذلك طريقة للتعقيم تُدعى تَنْدَلَة (tyndallisation) مأخوذة عن اسمه؛ Louis Pasteur (١٨٢٢ - ١٨٩٥)، العالم الفرنسي أحد مؤسّسي علم الجراثيم الحديث.

(٢) Rudolf Virchow (١٨٢١ - ١٩٠٢)، طبيب وسياسي ألماني وضع مؤلّفات أساسية في علم التشريح الباثولوجي وفي أنثروبولوجيا (علم الإنسان) وفي دراسات ما قبل التاريخ.

(٣) Orpheus، مغنّ وعازف قيثارة من تراقيا في الأساطير اليونانية وفي الوقت ذاته المنشئ الأسطوري لمذهب باطني يُسمّى باسمه أورفية (Orphism) .

(٤) الهيكليون أو فرسان الهيكل (the Templars)، جماعة رهبانية محاربة من الصليبيين تأسّست عام ١١١٩ في القدس للدفاع عن الأراضي المقدّسة. تمتّعت بامتيازات عديدة بعد نيلها مباركة البابا عام ١١٢٨ فانتشرت بسرعة في غرب أوربّا وجنوب غربها كما توافرت لها ثروات واسعة بفضل ارتباطاتها عبر الدول ومشاركتها في صفقات مالية. اتّهمها فيليب الرابع ملك فرنسا عام ١٣٠٥ بالإلحاد والفساد وحثّ البابا كليمنص الخامس على حلّها عام ١٣١٢ .

(٥) فرسان صليب الوردة (the Rosicrucians)، حركة سرّية نشأت خلال القرن الثاني عشر ولم تبرز إلّا في القرن السادس عشر عبر تأسيس أخويات تهدف إلى إصلاح الأوضاع الدينية والثقافية والسياسية. يرجع اسمها إمّا إلى منشئها الأسطوري Christian Rosenkreutz أو إلى عمل اللاهوتي Johann Valentin Andreä (١٥٨٦ - ١٦٥٤) المعنون *Societas Rosae Crucis* . نشط أعضاؤها في مجال العلوم الطبيعية، لا سيّما في الكيمياء، وأثّروا على الحركة الماسونية في إنجلترا وإسكتلندا وألمانيا. لا يزال بعض جمعياتها في الولايات المتّحدة وهولندا وألمانيا قائماً حتّى اليوم.

(٦) تعذّر العثور على مستشرق إنجليزي بهذا الاسم ويرجّح أن يكون المقصود Paul Jakob Deussen (١٨٤٥ - ١٩١٩)، الفيلسوف وعالم الهنديّات الألماني، أستاذ في جامعة كيل (Kiel) منذ عام ١٨٨٩ . ارتبط بعلاقة صداقة مع فريدريش نيتشه (Friedrich Nietzsche)، كما كان من أتباع أرثر شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) الذي قام بإصدار أعماله وأنشأ جمعية باسمه عام ١٩١١ . عمل على الجمع بين الفلسفتين الغربية والشرقية، وأسهم في التعريف بالفلسفة الهندية من خلال الوصف والترجمة. نُشر العديد من أعماله أيضاً بالإنجليزية وعلى سبيل المثال *Philosophy of the Upanishads* (١٩٠٦) و *Outline of the Vedanta System of Philosophy* (١٩١٥)، ولعلّ هذا ما حدا بميّ زيادة إلى الاعتقاد بكون دويسن مستشرقاً إنجليزياً.

(٧) Helena Petrovna Blavatsky (١٨٣١ - ١٨٩١)، ثيوصوفية روسية، أحد مؤسّسي الجمعية الثيوصوفية في نيويورك عام ١٨٧٥ .

(٨) المقصود هو Pherecydes (٥٨٤/٥٨٣ - ٤٩٩/٤٩٨ ق.م.)، الكوزمولوجي (عالم الكونيات) اليوناني. كان أصلاً من جزيرة سيرا إحدى جزر أرخبيل سيكلاد في جنوب بحر إيجه وليس من بلاد فارس كما ذُكر في النصّ.

(٩) Scylax من كارياندا (Caryanda) (توفّي حوالي ٤٨٠ ق.م.)، ملّاح وجغرافي، وهو يوناني وليس فارسياً كما ورد في النصّ. عهد إليه داريوس الأوّل ملك فارس نحو عام ٥١٠ ق.م. باستكشاف منطقة نهر السّند بغرض شقّ طريق يصل بين الهند ومصر.

(١٠) خطأ مطبعي في النصّ الأصلي، والمقصود «مَرْزَبَة»، وهو لفظ فارسي معناه إقليم (satrapy) يحكمه مَرْزُبان (satrap). أمّا مَرَازِبَة فهي جمع مرزبان.

(١١) كيشايرشا، الاسم الفارسي القديم لأحشويرش (Xerxes) الأوّل (حوالي ٥١٩ - ٤٦٥ ق.م.)، ابن داريوس الأوّل وملك الفرس ابتداءً من ٤٨٦ ق.م.

(١٢) طساليا (Thessalia)، منطقة في شرق اليونان الوسطى.

(١٣) بلاتيا (Plataia)، مدينة يونانية قديمة في بُيُسِيا جنوبي طيبة، وقد شهدت معركة حاسمة في الحروب الميدية انتصر فيها اليونان على الفرس عام ٤٧٩ ق.م.

(١٤) المقصود هو عملية الكَلْفَنَة أو الغَلْفَنَة (galvanisation)، وهو مصطلح يرجع إلى عالم الطبيعة الإيطالي Luigi Galvani (١٧٣٧ - ١٧٩٨) ومعناه إخضاع الشيء لسريان تيّار كهربائي لتغطيته بطبقة من الزنك.

(١٥) آپولونيوس (Apollonios) من تِيانا في كَبَدوقية، فيلسوف فيثاغوري وواعظ عاش في أواخر القرن الأوّل ق.م. وقد رُويت عنه معجزات كتلك التي نُقلت عن عيسى الناصري السيّد المسيح. صاحب مذهب يدعو إلى الكوزموپوليتيّة على نحو قريب ممّا قال به الرواقيون.

(١٦) غورديانوس (Gordian) الثالث (٢٢٥ - ٢٤٤)، الإمبراطور الروماني منذ عام ٢٣٨ . قام عام ٢٤٢/٢٤٣ بغزوة على الفرس ونجح في استعادة بلاد ما بين النهرين. لكنّه قُتل قرب دورا في ربيع عام ٢٤٤، والمرجّح أنّه سقط فريسة لكمين دبّره فيليپّوس العربي (Philippus Arabs) خلفُه في الإمبراطورية.

(١٧) Spiritism، تسمية إنجليزية لنظرية تقول بإمكان استحضار أرواح الموتى والاتّصال بينها وبين الأحياء عن طريق وسطاء.

(١٨) كذا في الأصل والمعنى غير واضح، ولعلّ المقصود «أولى بالسرمدية».

فهل من مدَّكِر؟

مات نجيب البستاني[1] فتلقَّينا نعيه بأسفٍ عميقٍ يثيره رحيل أمثالِهِ العظامين العصاميين الذين كانوا بجدّهم صلةً بين الماضي والمستقبل، وكانت أبحاثهم سعياً بين تلمّس المعرفة والحصول عليها. فالجمجمةُ الكبيرةِ التي كان يقدحُ فيها الذكاء زناد الفكر توسَّدت الراحة التي لا يشوبها قلق، والأَساريرِ الناطقة بعمقِ ثناياها واشتباك خطوطها عن قوّة الانفعال ومداومة الجهاد لها من الأَبدية متّسع فيه تنفرج عن ملامح هادئةٍ منبسطة، وتقاطيع الوجهِ الكبيرة تحت البَشَرة المكفهرّة المعبّرة عن رجولة عالية وأنفة واقتدار ستظلُّ محاطةً بعظمة الموت وجلاله ساعاتٍ معدوداتٍ، ثمّ تذبلُ قليلاً قليلاً لترتدي هيئةً وتتحوّل جوهراً يتّفقان مع عنصر ذلك العالم المجهول الذي نعرفُ منهُ العتبة، وهي القبر، ونجهلُ كلَّ ما عداها.

اسم «بستاني» ما أتمَّ معناهُ عند الأسرةِ التي غرَستْ في حديقة الفضل أشجاراً شجراء! فمن «محيط المحيط» إلى دائرة المعارف إلى إلياذة هوميروس مع ما يتخلّل هذه من شجيرات مثلها خالداتٍ –، كل ذلك يحملُ على الظنِّ أنّ الاسم لم ينتخبهُ ذووهُ إلّا شعاراً لأعمالهم ورمزاً بليغاً.

وإذا ما ودَّع فردٌ من هذا الربع الأَمثل الذي تسنَّم أسمى الدرجات وأشرفها وهي درجة العلم، فكأنّما نحن بأسفنا عليه نحيي كلَّ من رحل قبلَهُ نحو الأفق الذي لا يُدرك، مطأطئين الرؤوس أمام خيالاتهم المتباعدة، وليس لدينا ما نشيّعهم به ممّا يليقُ بهم سوى نظرات الشكر والإعظام.

* * *

على أنَّ لنا نحن أبناء هذه الحياة، أماني لا ننساها ورغباتٍ حيّة لا تسطو عليها مخالب الردى. نحن نريدُ استطراد السير إلى الأمام، وهي رغبةٌ لا تُفارقنا حتّى ولا إزاءَ

قبورٍ عزيزة فتحها الموتُ حديثاً. ويؤلمنا ساعةَ يطوف منّا الفكر في عالَم النور أن نجد لنا فيه موجات ضياءٍ قصيرةٌ أشواطها لا ينبسطُ مداها إلّا قليلاً.

أعني دائرة المعارف العربية.

أعني دائرة المعارف وينطلقُ فكري نحو سليمان أفندي البستاني[٢] نزيل سويسرا، على ما يقولون. ترى ماذا يفعلُ هناك؟ أهو يتعاطى التأليف والتحبير أم يرتاحُ من إجهادٍ عقليٍّ وعناءٍ سياسيٍّ حمل عبئهُ سنواتٍ عديدات؟ إنَّ الذي نقل هوميروس إلى لغة العرب ووضعَ للإلياذة المقدّمة التي نعلمُ لا يخصُّ نفسهُ، بل هو من الذين وُجدوا ليكونوا مُلك لغتهم وقومهم، ولا يجوز لهم الراحة مدّة طويلةً وإن كانوا أحوج الناس إليها. لئن تيسَّرت الاستنامة والاستكانة للصحاري القواحط الأَجادب أعواماً ودهوراً فذلك ليس بالميسور للأَرض الخصبة التي كلّما أفاضت خيراً زادت فيها قوّةُ الإنتاج وتضاعفت عناصرُ الغنى، وتفتَّقت في صدرها بذورٌ يتوقّعُ الغدُ أن يراها حصاداً عسجدياً...

أثبتُ هذا لأنّهُ الحقيقة. غير أنّي لا أقصد أنّ هذا الأثر النفيس يجبُ أن يتمَّ على يد آل البستاني دون غيرهم. قلّما ترى دائرة من هذا النوع يضعها فردٌ واحد. نعم، يوجد معاجم كبيرة عند الغربيين وأنسيكلوبيديات في موضوعات معيَّنةٍ من وضع شخصٍ لم يتخذ لهُ في تصنيفها مساعداً، ولكنّ ذلك نادر. ومثل هذا الأَثر، خصوصاً إذا كان شاملاً لجميع الموضوعات، يتعاونُ عليه طائفةٌ من العلماء الاختصاصيين فيتضامن لتنسيقه حلقةٌ من الباحثين. ثمّ ينقضي العامُ والعامان، وقد تنقضي عشرات الأعوام قبل أن يأخذ طابعه النهائي متكيّفاً في القالب المقصود.

* * *

إنّنا على فقرنا العلمي لا نعدم الأَكفاء القادرين لو كان لنا من التعاون ظهير، ولكنَّ الأَكفاء مبعثرون يفصلُ بينهم الدينُ والملّة والتحزّب والعشيرة! أما آن لنا التآخي بحذفِ الفروق الثانوية، ذاكرين أنّ هناك أوجاً يتلاقى عندهُ الغرباءُ ويتقاربون برابطة هي فوق جميع الروابط البشرية، وهي رابطة العلم؟ ألا إنّ هذه الرابطة تجهلُ أسماءَ مصر وسوريا وبغداد والحجاز ولا تحفل بذكر المسلمين والنصارى واليهود والدروز

والدهريين! ألا إنّما العلاقة الدينية سرٌّ بين الخالق ومخلوقهِ والحدود الجغرافية كانت وستظلُّ دائماً عرضة التبديل والتسجيل في المعاهدات السياسية والبروتوكولات الدولية. ولكن وراء حجاب الاصطلاحات والاختلافات والاتّفاقات يظلُّ عالم النور، عالم المعرفة، واحداً لا يتغيّر.

ترى أيُّ شعبٍ أكثر اقتداراً من الشعوب الشرقية على تمزيق هذا الحجاب الغرور لتطلُّب ما وراءَه، وهي الشعوب التي تهجعُ في روحها ذكرى مدنياتٍ مندرسة؟ لستُ مترنّمة هنا بذكر الآباء والجدود كما يفعلُ بعض الشعراءِ ساعة تجفُّ بين أيديهم سيولُ المعاني، إنّي أعني أمراً ثابتاً وإن كان خفيّاً. إنّ أمزجة الأمم تحفظُ تذكارات الأزمنة السحيقة. وقد يتبكّمُ صوتُ الوراثةِ دهوراً ولكنّهُ يتصافى بغتةً عند ذرّيةٍ لاحقةٍ أودعتها الذراري السابقاتُ شارةَ العزّ الغابرِ والمجدِ الأثيل.

أيُّ فكرٍ أبعد غوراً من الفكر الهندي وأسرع تناولاً لِما شفَّ وغمض من الأسرار وراءَ كثافةِ المادّة؟ أين من يُنكر على المشرق جلال مدنيات أشور وبابل وصور وصيدا؟ وفي أيِّ صقعٍ تحفظ بقايا الأحجار، مع آثار الغموض والالتباس، دلائل الرفعة والسؤدد كما نراها في أخربةِ الهياكل المصرية الدائمة الجلال والرهبة؟ وأيُّ مدنيةٍ حَملت عظمةَ العلم ونشرتهُ في ظلّ أعلامها الخافقاتِ نصراً أكثر من المدنية الإسلامية؟

نحن نائمون منذ عصور كان فيها الآخرون مجاهدين، وما ذلك إلّا لأنّ للأقوام كما للأفراد، الوقت بعد الوقت، تَهجاعاً ورقاداً. والآن وقد أشعلنا من مصباحِ الغربِ مصباحنا فإنّنا نستعينُ بنورهِ لاستجلاءِ ما عندنا من قُوّى وراثيةٍ ونفسية نضيفُ إليها قوّى جديدة تخلقها فينا مطالبُ العصر واحتياجاته.

* * *

ورُبَّ معترضٍ يقولُ إنّ العالم اليوم متغلّبةٌ فيهِ الضوضاء وإنّ الشرق الأدنى يخطو خطوةً لم يألفها في تاريخهِ الحديث وهي لا تصلحُ للبحث والتنقيب والتأليف. ولكنَّ المعرفة من العناصر الحيويّة الأوّلية التي لا تقتُلها بنود الشعوب ولا تقيّدها قلاقل الاجتماع، ولا شكّ في أنّ الغرب سيبرز بعد إتمام الصلح آداباً جديدة ومبتكراتٍ تكوّنت بذورُها وارتسمت خطوطُها في ظلمةِ الخنادق، وتغذّت بمرارة الدخان ولعلعةِ

النيران. لعلَّ أزمان المنازعات والأخطار كانت وستظلّ الوسط الأنسب لنشوء أفضل القوى الإنسانية، كما أنّ الأشجار العظيمة لا تقوى إلّا بمكافحةِ الإعصار والزوابع. إنّما الفكر البشري عبقريٌ من طبعهِ، وما أحوج العبقرية إلى الوجع والعذاب لتدرك سرَّ الاستشفاء والراحة! وما أحوجها إلى المقاتلة والمحاربة والمجالدة لتشعر بلذّة التغلُّب والتفوّقِ والنموّ! إنّها لا تنمو إلّا بين العواصف وتحت الصواعق، وأتمُّ ما خلّد الفكرُ من البدائع لم يختمر إلّا في أزمنةِ الاضطراب والقلق والانفعال. وقد تخدم الثورات النهضة الفكرية والحركة الاجتماعية فتهدم من قديم بالٍ وتشيد من جديدٍ مطلوب في ثلاثة أيام ما لا تأتي بمثلهِ أقلام الناقدين وآراء المصلحين في مئة عامٍ وعام.

إنّ الذين رأوا مصر في هذه الأسابيع يدركون ذلك والذين شهدوا النساء المحجوبات ذوات الخدر من أعظم البيوتات الإسلامية سائراتٍ في مركباتٍ مكشوفة أمام الأجنبي والوطني، منضمّات إلى الرجال في المظاهرات، هاتفات معهم هتاف الحماسة والشجاعة «ليحي الوطن!»، راشقاتٍ المارّين بالأزهار والرياحين، محيّيات بالمناديل والبسمات، مشيراتٍ بالأيدي، ملوّحاتٍ بالأعلام، ومنهنَّ من ينبرين للخطابة في الجماهير المزدحمة – أولئك يدركون أنّ هذه الساعات المعدودات في تاريخ الوطنية المصرية قد دفعت بالفكر القومي عموماً، وبالفكر النسائي خصوصاً، دفعة عظيمة وأوصلت الرجل والمرأة معاً إلى حدٍ بعيد لم يكن ليُدرك في غير هذه الحالة بعشرات الأعوام، ولو كان الحاثّ على السير عشراتٌ من أمثال قاسم أمين.

إنّ البشرية تكتشف ما عندها من مستودعات إقدام ومجازفة في هذه اللحظات العصيبة، وتقيس هوّة اقتدارها بما يتدفّق منها من غليان وفوران يلقّنانها أمثولة نادرة لا تنسى منها حياتها حرفاً. فما تجيء ساعة الهدوء إلّا وقد عثرت الجماعات على ثروةٍ جمّة جهلتها طويلاً لأنّها كانت في حاجةٍ إلى معول الانفعال يقرع أديم نفسها ويصيبُ منها خفاياها ليرفش فيها رفوشاً فيجرف ما وجب جرفه ويقلّب ما بقي تقليباً. إذ ذاك تظهر في الأقوام حياةٌ حديثة نشيطة نضرة تدرك احتياجاتها بحدّةٍ فتبتدع ما يرضيها إذا كان مفقوداً أو تكتفي بتطبيقه على أحوالها إذا كان موجوداً.

* * *

فهل من مُدّكر؟

كلّا، ليس اليوم من يدَّكر لأنّ المعول ما زال نائلاً من تربة النفوس ولكنَّ للاضطراب حدًّا كما لكل حركة نفسية أخرى. والبشرية واحدةٌ في جميع المناطق، شعورها واحد واحتياجها واحد. هي تعلم أنّ الجهل سجنٌ فيه يحرمُ المرء من العلاقة الوحيدة التي تصل بينه وبين الأشياء، وما تلك العلاقة إلّا نسيج المعرفة والحبّ، وأنّ مَن فقد قوّة المعرفة لا يحبُّ إلّا الخيالات والأوهام. أليس الحبّ والمعرفة ماء البشرية ونورها؟ أليست البشرية ككل جسم حيّ تائقةً من وراء تردّدها وهفواتها وفظائعها وانسحاقها، تائقة إلى التطوّر المؤدّي بها إلى تنبيه قواها الكامنة، واتّساع جوانب كيانها، وتكييف صور حديثة من عنصر استعدادها الفطري؟

بعد أن يقلّب معولُ الانفعال تربة النفوس تتنفّس الأقوام برئتين ملؤهما الهواء الجديد النقيّ، إذ ذاك نشعر نحن أهل الشرق الأدنى بحاجتنا إلى غذاءٍ معنويّ صحّي. إذ ذاك نخلق ما يرضي مطالبنا ونتمّ ما هو الآن ناقص، ونبتكر ما لم يحلم به آباؤنا ممّا سيكون نوراً لأجيال لاحقات.

كلّا، كلّا! ليس اليوم من يدَّكر، ولكنّ جميعنا في الغد ذاكرٌ، عاملٌ مجاهد.

(ميّ)

(*) الهلال، س ٢٧، ج ٨، نيسان/أبريل ١٩١٩، ص ٦٨٨ - ٦٩٢ .

(١) نجيب البستاني (١٨٦٢ - ١٩١٩)، أديب وحقوقي لبناني، من أبناء بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) مؤلّف «محيط المحيط» أوّل قاموس عربي حديث (١٨٦٧ - ١٨٧٠) و «دائرة المعارف» أوّل موسوعة عربية وفق الطراز العلمي الغربي في أجزائها الستّة الأولى (١٨٧٦ - ١٨٨٣). عاون والده في تأليف دائرة المعارف، كما خلفه وأخاه سليماً، بعد وفاتهما، في إصدار صحيفتي «الجنان» و «الجنّة». بعد احتجاب الجريدتين عام ١٨٨٦، تابع نشر دائرة المعارف بمساعدة أخويه أمين ونسيب وابن عمّه سليمان البستاني حتّى المجلّد الحادي عشر منها (١٩٠٠). تولّى مختلف المناصب في القضاء اللبناني، ثمّ استقال عام ١٩٠٥ ونزح إلى مصر حيث مارس المحاماة. من بين آثاره أبحاث تاريخية وديوان شعر.

(٢) سليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥)، أديب وشاعر ورجل دولة لبناني. أُنتخب عام ١٩٠٨ نائباً عن ولاية بيروت في مجلس المبعوثان العثماني، كما عُيّن عضواً في مجلس الأعيان. كان من أشدّ معارضي حكم السلطان عبد الحميد الثاني وساند حركة تركيا الفتاة. عُهد إليه عام ١٩١٣ بوزارة التجارة والمعادن والزراعة في الآستانة لكنّه استقال بعد فترة وجيزة لعدم إقراره دخول تركيا الحرب العالمية الأولى. سافر إلى سويسرا حيث أقام حتّى أواخر الحرب، ثمّ انتقل إلى مصر. اشتهر بترجمته «إلياذة» هوميروس نظماً إلى العربية وبالمقدّمة التي وضعها لها (١٩٠٤) فكانت عملاً رائداً في مجال الأدب العربي المقارن.

العمّ أبو حسن يستقبل

في مقدّمة ما ينقص أدبنا العصري صور تمثّل نفسية الطبقات الاجتماعية المختلفة وتبيّن ما تحسّه وما تدركه بأسلوب قصصي قريب المنال كما يفعل كبار الكتّاب القصصيين في أوربّا وأميركا. ويسرّنا أنّ الآنسة ميّ قد طرقت هذا الباب فهي تقدّم لنا اليوم في سياق حكاية طليّة صورة من صور النفسية المصرية الساذجة.

[المحرّر]

- «باسم اللّه، يا مزمزيل. اتفضّلي شاركينا. أنا أحمد أبو حسن. وأهو ابني حسن. وأهو أخوه الصغير حسين».

كان الصباح يتسم بنوره الخريفيّ الذابل تحت ذلك الرواق الطويل من الأشجار المتعاقدة على شطّ النيل. وقد أناخ الفلّاحون والفلّاحات يستريحون قرب الحمير الصغيرة المثقلة بأحمال الخضرة والدجاج والبيض والفاكهة المجلوبة من القرى والعزب. ويتناولون الفطور قبل استئناف السير ليبيعوا سلعتهم إلى المقيمين في الذهبيات وإلى المشترين في بولاق[1] وفي أسواق الخضار الأخرى.

وكانت الصاحبتان - وإحداهما إنجليزية هي مندوبة «جمعية المجاهدات لتحرير المرأة» في لندن، والأخرى شرقية - قد كدَّهما المسير في تلك النزهة المأنوسة. فأخذتا تبحثان عن مكان يتيسّر الجلوس فيه والاستراحة ولو دقائق. عندئذٍ اشتمّتا رائحة الطبخ الشائعة في الهواء. وأبصرتا محفل العمّ أبي حسن وقد جلس القرفصاء أمام مِقلى من الفخّار يهدر بما فيه فوق نارٍ أضرمت في حفرةٍ في التراب على أقدم الطرق وأبسطها، تذكيها الوقت بعد الوقت قطع من الغصون اليابسة المنتشرة حوله.

فاتّجهت الفتاة الشرقية نحوه ناظرة إلى عودٍ في يدهِ يقلّب الطعام بلباقةٍ وحذقٍ قلّما ينتظران من العود الأعجم. فاستقبلها العمّ أبو حسن بتلك التحيّة اللطيفة.

فاستندت إلى جذع الشجرة المستظلّ بها مضيفها، بينا صاحبتها الإنجليزية استوت تستريح على جذعٍ مطروحٍ في جهة الطريق المقابلة.

- صباح الخير، يا عمّ أبو حسن - قالت الفتاة الشرقية.

- يا ألف أهلاً. يا صباح القشطة. يا صباح الفلّ.

- إنت مشغول قوي. بتعمل أيه، يا عمّ أبو حسن؟

- واللّه طعام نعمله للأولاد. مساكين. أمّهم راحت واللّه، وبقيت أنا.

- أمّهم راحت فين؟

- واللّه راحت كدا (مشيراً إلى الطريق) عبلدها.

- راحت تعمل أيه في البلد؟

- واللّه زعلت منّي وراحت، يا مزمزيل.

- وليه تزعلها كدا؟ اتزوّجت عليها؟

- معاذ اللّه! - قال العمّ أبو حسن بأنفة - أديني داير أطبخ لأولادي وأطعمهم. وأبقى مجوّز إزّاي؟

- أهي المرأة الوحيدة التي تزوّجتها، يا عمّ أبو حسن؟

ابتسم «العمّ» مشفقاً وقال - هو دا ممكن؟ إحنا نجوّز كثير.

- وهل تزوّجت كثيرات غيرها؟

- كثير قبلها. ولكن بعدها (وهنا ترك العود الذكيّ ليهزّ إصبعه بقوّة نافياً عن نفسه التهمة) لسّه ما اتجوّزتش وحياة النبي محمّد!

- بارك اللّه فيك، يا عمّ أبو حسن. وهل تركتك من وقتٍ طويل؟

- آ واللّه - قال العمّ أبو حسن آسفاً - بقالها زمان خالص. بقالها يجي جمعة.

- يا خسارة المديح! ذهبت زوجتك منذ أسبوع لا غير، وتقول «لسّه ما اتجوّزتش».

أجفل المضيف شأن من يشعر بأنّ مخاطبه قاصرٌ عن إدراك جميع مناحي عقله، وقال متأفّفاً - أمّال أيه؟

- لا تغضب إن كنت جاهلة عاداتكم. وأخبرني كم امرأة تزوّجت قبل... (بحثت الفتاة عن اسم للزوجة الغائبة وبعد إجهاد الفكرة رأت أنّه يليق أن تدعوها بأمّ حسن، لا سيّما وأنّه ليس مستحيلاً أَن تكون تلك هي) قبل أمّ حسن؟

- كتير.

- كثير يعني ثلاث، أربع، خمس؟

- أكتر كتير.

- يا لطيف! يعني ثلاثين؟

- ماعدّتهمش بالواحدة. لكن يجوا خمستاشر.

- والجيش دا راح فين، يا عمّ أبو حسن؟

- ما رحش مطرح. أديني طلقتهم وارتحت. هات، يا حسن! هات، يا حسين! شفتِ حسين دا، يا مزمزيل؟ دا خلق أيّام ما كان السلطان حسين سلطان.

جاء حسن بحفنةٍ من الغصون اليابسة فدسّها والدهُ تحت المقلى. ونظر إلى يد حسين الحافلة بأربع طماطم، وكل طماطمة تباهي بعرفها الأخضر المكلّل كيانها القرمزيّ المستدير. فحرّك العمّ أبو حسن محتويات المقلى من بطاطس وبصل بجولة سريعة. ثمّ ألقى بالعودِ جانباً ليتفرّغ لعملية خطيرة الشأن في ذاتها وفي تطوّر الطبخ جميعاً.

قبض على كل طماطمة، الواحدة بعد الأخرى، بإحكام. وجاءَ بإشارة من يذبح الذبيحة وهو يقول: بسم اللّه الرحمن الرحيم! فأخذت قطع الطماطم تهدر بعد هنيهة مع القطع الأخرى. فرجع العود في يد العمّ أبي حسن إلى تأدية وظيفته الدقيقة.

- قل لي بماذا تشتغل، يا عمّ أبو حسن - قالت الفتاة عندما رأت أن لا مانع من استئناف الحديث.

- أصطاد سمك. واللّه سمكي أحسن سمك في مصر.

وهرع حسن إلى سلّةٍ هناك وأخرج منها ورقة لفّت فيها ثلاث سمكات كبيرة. فقبض على إحداها من ذنبها ونشرها في الهواء وقال: أهي لسّه بتتحرّك!

– وهل حسن وحسين يصطادان السمك معك؟
– لا واللّه! عايزين نعلّمهم يقروا ويكتبوا علشان يتعلّموا صنعة كويّسة.

وقال حسن – أنا أروح المدرسة في بولاق كلّ يوم. بسّ النهار دا الجمعة. وأنا أشطر واحد في المدرسة. أعرف أقرا وأكتب وأرسم المركب. حتى أنّ الأستاذ قدّ ما أنا شاطر يعيّر الولاد الكبار يقول لهم شوفوا دا أصغر واحد فيكم يعرف أحسن منكم. ما تختشوش؟

– اللّه يخلّيك ويكون معك، يا ابني! – قال العمّ أبو حسن رافعاً يديه نحو العلاء.

– وفي أيّ جهة من البحر تصطاد، يا عمّ أبو حسن؟
– في كلّ جهة. هنا، هناك، هناك. زيّ ما يعجبني!
– في صيد السمك وفي طلاق زوجاتك تعمل زيّ ما يعجبك. مش كدا؟
سرّ العمّ أبو حسن وابتسم وقال – صحيح واللّه. تمام كدا.
– ألم تطلقك ولا واحدة من زوجاتك؟
– واحده مره تطلقني (قال مشيراً إلى نفسه) أنا؟ هي المره تطلّق؟
– ولماذا لا تطلق المرأة إذا كانت مستاءة من زوجها زيّ ما هو يطلقها إن أزعجته عشرتها؟ أليست مثله إنساناً يستاء ويرضى ويفرح ويحزن؟

– إنسان مثله؟ – قال بتأفّف وازدراء – دي واحده مره وتبقى مثله إزّاي؟ الراجل يعمل زيّ ما يعجبه علشان راجل. إن خلّاها ويّاه أهو خلّاها. وإن طلقها برده كتر خيره.

* * *

استأنفت الفتاتان المسير تحت رواق الأشجار تنظران إلى شريط النيل اللامع وراء سدول الغصون. وللقصب في تمايله أنين كتلهّف المفجوع.

ولما أفضت بهما السبيل إلى كُبري الزمالك[٢] قالت الفتاة الشرقية – إنّ الرجال المستعدّين بطبيعتهم وبعلمهم إلى تحرير المرأة هم الأقلّية ليس في الشرق فقط، بل في

العالم. ولكن للأكثرية على ما أظنّ عقلية إن لم تكن كهذه تماماً فهي تقرب منها مع بعض اختلافٍ. فقولي لي كم يقتضي من الزمن لتغيير هذه العقلية؟ كم يقتضي من الأجيال لتحرير الرجل قبل أن نصل إلى تحرير المرأة؟

- سيقتضي ذلك عمل الأجيال والدهور - قالت المندوبة الإنجليزية - ولو لم توجد هذه العقلية لما احتجنا إلى الجهاد. ليست الغرابة في ما نبذله من مجهود. ولكنّ الغرابة في أن يكون لهذه العقلية على حياتنا سلطان فلا نسعى في تثقيفها وإصلاحها، والتفلّت من استبدادها، وذلك بتهذيب الجيل الجديد وإذاعة قضية النساء التي هي قضية العدل والمدنية، بل قضية الإنسانية.

- أتظنّين أنّ النساء اللائي يدركن الآن معنى قضيتهنّ كثيرات؟ - سألت الفتاة الشرقية.

- عندما يريد الرجل النشيط أن يصنع خيراً لنفسه وللآخرين فهو لا يبذل التعب والوقت والمال على أرض صخرية أو صحراوية، بل يعالج الأرض المنتجة التي لا تضيع فيها الجهود ولا تجازيه منها الحشرات والأفاعي باللسع والتسميم. نحن لا نسعى للمرأة المدمّرة، ولا للمرأة اللاهية، ولا للمرأة المداجية. فهؤلاء لا رجاء فيهنّ وكل ما نتمنّى هو التخلّص من أذاهنّ. وإنّما نسعى للمرأة المظلومة مع أبيها وأخيها وزوجها، تلك التي تستطيع أن تفيد وتستفيد فلا تجد من الأهل والبيئة والمجتمع إلّا نكالاً ومقاومة وافتئاتاً. نسعى للأجيال المقبلة ولا شكّ أنّ الرجال النبلاء تتّسع منهم المدارك وتتطوّر العقليات جيلاً بعد جيل. ستيورت مِلّ الأب(٣) أنكر على النساء في إنجلترا حقّ التصويت في الانتخاب. وستيورت ملّ الابن أيّدهنّ في ذلك الحقّ وأثبته لهنّ لأنّه وجد في زوجته المثل الأعلى للمرأة من جهة، ولأنّه يعلم أنّ جميع الرجال لا يشبهونه من جهة أخرى.

وكانت الصاحبتان قد انتقلتا من كُبري الزمالك وسارتا في شارع فؤاد الأوّل في الجزيرة. وحولهما روح الخريف الشجيّة تنفخ في الغصون منذرة بوجوب الانفصال القريب ليتّسع المجال لتجدّد مقبل. وتساقطت بعض الوريقات الصفراء، الوريقات

الخريفية الأولى. وبعد أن دارت قليلاً في الهواء هبطت إلى الأرض، وهناك ثوت في انتظار الانحلال والتحوُّل.

- كهذه الوريقات - قالت مندوبة نساء لندن - لا بدّ أن تسقط بعض الأفكار عن غصون النفس الإنسانية. فتحلّ محلّها وريقات تنمو وتخدم في حينها وتموت عندما تفرغ من مهمّتها.

(ميّ)

(*) الهلال، س ٣٣، ج ١، تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٢٤، ص ٧٣ - ٧٧ . أُعيد نشر هذه المقالة القصصية - إن جاز التعبير - في السياسة الأسبوعية، س ١، ع ٤٦، ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٢٧، ص ٦ - ٨ . وكتبت ميّ زيادة في تقديمها لها أنّها «... تنقل منالاً من عقلية الرجل العادي من طبقة الشعب وكيفية نظره إلى المرأة وضآلة قيمتها في تقديره. وليس في هذه «الأقصوصة» ما هو اختلاق أو محض تخيّل بل هي تقرير لحديث جرى ولم يزد عليه». علاوة على ذلك نُشرت صيغة مختصرة للمقالة في كتاب حسين عمر حمادة، أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها، دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٣، ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

(١) بُولاق، حيّ شعبي من أحياء القاهرة يقع شماليّ الجيزة على ضفّة النيل.

(٢) الزمالك، من أحياء القاهرة السكنية الرفيعة. يشكّل جزيرة وسط النيل.

(٣) المقصود هو James Mill (١٧٧٣ - ١٨٣٦)، الفيلسوف والمؤرّخ الإنجليزي، الذي يُعدّ مع ابنه الفيلسوف والعالم الاقتصادي John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) من أهمّ أنصار مذهب المنفعة في إنجلترا.

في عالم الوحدة والمجد

هو غريب مجهول يضرب في بلاد الله بلا هدف ولا محور - فماذا عسى يجديه الشباب والموهبة نفعاً؟

يقولون إنّ الشباب غنيّ بالآمال والتفاؤل. أمّا شبابه هو فغنيّ باليأس والتشاؤم. إذ لا مال يقوم بحاجته، ولا حبيب يؤنسه، ولا قريب يعطف عليه، ولا صديق يؤيّده، ولا من يعرفه فيزوّده برسائل التوصية أو يقدّمه إلى ذي نفوذ في وسعه أن يمهّد أمامه أسباب العمل.

هجر وطنه - الوطن الذي لم ينسحب منه العدوّ إلّا بعد أن جعل عمرانه خراباً - وطفق يجوب البقاع والبلاد باحثاً له عن طريق في أتاويه المجهول. فهبط أخيراً المدينة العظيمة المأخوذة بدوّار السرعة، المتلظّية بحمّى الطمع، الداوية بجميع ألحان الفنّ وأصدائه.

يده خالية إلّا من حقيبة السفر. وحقيبة السفر خالية إلّا من تلك البذلة السوداء التي لا مندوحة عنها للمثول أمام الجمهور في الاجتماعات الرسمية. وكل ذخيرته كمنجة تهتزّ أوتارها بشتّى الألحان والأنغام كلما داعبتها أنامله.

عرف الفتى مرّة بعد مرّة جميع صنوف الغمّ والألم، وتجرّع مرارة الوحدة في ديار الغربة، ووخزته كل يوم وكل ساعة تلك النظرات الموجّهة عادة إلى الذي يسير دواماً بمفرده في الشوارع ويزور وحده المتاحف والهياكل والآثار. فأدرك سرّ ما يجول بخاطر كل من نظر إليه تلك النظرة كأنّه يسأله بغير كلام: من تكون، يا هذا؟ وأيّ عمل تعمل؟ علام تقيم بهذه الدار وأنت عنها غريب؟ أتكون غنيّاً؟ إذن أنت جئت لغرض لا يمكن أن يكون في مصلحة البلاد. أو تكون فقيراً؟ إذن أنت جئت لغرض لا يمكن أن يكون في مصلحة البلاد. علام تغادر بلادك وما هو السرّ الذي يقصيك عن أهلك؟ أنت غريب. أوَلا تعلم أنّ الغريب مشبوه أنّى توجّه وكائناً عمله ما كان...؟

يدرك الفتى معنى هذه الأسئلة الصامتة فتستولي عليه عاطفة أليمة، ويغصّ بالدموع، وكأنّه يجيب بلا كلام: لا وطن لي غير ذياك الوطن الذي تنعق فيه الغربان. ولا أهل لي غير أولئك الذين هم غلّ في عنقي، وقيود في يدي، وحجر عثرة في طريقي. ولا مال لديّ يكفيني ذلّ الحاجة ولا أنا من الذين يتسوّلون أو يقبلون نفحة الصدقة، وفي نفسي عالم جمال يلهيني ويعذّبني لا أجد له منفذاً إلى الفضاء. هذه هي حكايتي التي تستفهمون عنها، ولكنّكم لا تستطيعون فهمها لأنّكم سعداء...

كذلك يجيب الفتى في صمته إذ تصوَّب إليه النظرات الحادّة فتشقّ صدره كالنصال متغلغلة في حشاشته. غير أنّه بعد كل أزمة من هذه الأزمات النفسية حيث يخيّل إليه أنّه فقد ذاته ونسي معنى وجوده - كان يرسل زفرة عميقة ويعمد إلى مناجاة صديقته الوحيدة في الحياة: الكمان.

أنشأ يطوف بالحانات الفخمة التي تجمع بين شتّى صنوف الخلق في السهرات. فيعزف في جماعات اختلطت عندها المراتب والأخلاق والمطامع والميول، وتوحّد لديها طلب اللهو والرغد وتلمّس وسائل المتعة والانفعال، دون اكتراث بالجادّ من الحديث والصادق من المواهب.

هوه؟ عازف آخر ينضمّ إلى فيالق المتسوّلين على آلة النغم؟ أفّ، ما أكثر أولئك الناس من أهل الفضول! ولزملائه امتياز واحد على الأقلّ إذ يستصحبون صديقاً لهم أو غلاماً يجمع النقود من المتسامرين في مجلس الأنس الهنيء بينما العازفون يعزفون. أمّا هذا فيجمع النقود بنفسه بعد الفراغ من العزف! لكأنّه يتعمّد العزف وقتاً طويلاً بدلاً من أن يأخذ بسرعة الفلس الذي يلقى في قبعته المقلوبة فيريح الناس من ضوضائه على عجل.

يطوف كل ليلة بتلك الحانات فيعزف، ويعزف، ويعزف في نشوة اليأس. وتقوم كمنجته بإرسال دموعه المكبوتة أنغاماً. فأصغى القوم بادئ ذي بدء بانزعاج وتململ، ثمّ أصغوا بتلك السخرية الاجتماعية التي تحسب في نفسها الأناقة كلها، ثمّ مزجوا السخرية بشيء من التطلّع، ثمّ أصغوا ببعض الانتباه وصفّقوا تصفيقاً فاتراً على سبيل العادة، ثمّ استوقف انتباههم شيء لم يفقهوا ماهيّته، ثمّ صفّقوا متحمّسين. وأخيراً صار بعضهم لا يرتاد تلك الحانات إلّا ليسمع كمنجة الغريب الفقير الذي لا يعرفه أحد.

واتّفق أن وجد ذات ليلة في ذلك الجمع شخص لم تفلح حياة المجتمع في شلّ أعصابه، ولا هي فازت بتشويه مداركه وتحجير عواطفه وإفساد ذوقه وإخماد حميّته، بل ظلّ باستعداده الفطري وبصفاء روحه وبنبل فكره وبرفيع ثقافته، يمتاز على سائر أقرانه من أهل الوجاهة والترف والثقافة الممسوخة. وجد شخص يقدّر الموهبة فأصغى في سكوت وفهم: فهم العظمة الكامنة في تلك الكمنجة، فهم التفرّد الفنّي الذي يحرّك هاتيك الأنامل، فهم الكنز الزاخر المختفي في تلك الروح الوجيع، فهم يأس الغريب الفقير الذي ساقته الحاجة إلى إرسال عبقريته ألحاناً عجيبة على جموع ساخرة، دعيّة، متغطرسة تجري وراء اللهو والرغد والانفعال والشهوات، وليس فيها من يميّز بين فنّ وفنّ، وبين كمنجة وكمنجة...

لم يدنُ الشخص الممتاز من الموسيقار، إنّما اختلى بصاحب أفخم هاتيك الحانات وحمله على التعاقد مع الغريب ليعزف كل ليلة في ناديه. وكان ذلك فاتحاً لما يسمّونه باب الفرج. إذ من ذلك الحين ذاعت شهرة الغريب وصارت تتخاطفه الفرق الموسيقية والحفلات الكبيرة والمسارح العظيمة، وهو في جميع مواقفه يتدرّج من تفوّق إلى تفوّق.

ولم يذهب النجاح بلبّ الفتى وبرصانته، لأنّ الخيلاء لا تملأ غير النفوس الخاوية. أمّا هذه النفس المليئة بغناها فكان النجاح يحملها على التوغّل في الاكتئاب والتأمّل...

لم يذهب النجاح بلبّ الفتى، بل كان - كالفشل من قبل - مهذّبه الصارم. وأنشأ يقتني لنفسه ما لا غنى عنه من الحوائج والأدوات. فحسن في نوع معيشته مستعيناً بتلك الرفاهية المتواضعة على إتقان فنّه الإتقان الذي يطمع هو فيه. وعندما تضاءلت همومه المالية واطمأنّ بعض الشيء على غده، أراد أن يحقّق حلماً قديماً عزيزاً راود خياله منذ عهد الطفولة. فمضى يحجّ إلى ضريح موسيقار خالد.

هناك وقف جامداً في الظاهر لا يتحرّك، غير أنّ رؤى الفنّ أخذت تتجلّى في مخيّلته ودفقت سيول الإلهام على قريحته. وقف متهيّباً واجماً مصغياً مترقّباً. فخيّل إليه أنّ الحجارة البكماء حواليه، وحفيف الأوراق على الغصون، وتلاطم الريح في

الفضاء، والجلبة البعيدة الناجمة عن جهود الإنسان، وتفطّر القلوب وتسكاب الدموع، وأجيج العناصر، وتعاقب الأزمنة في هاوية الأبد - خيّل إليه أنّ كل أولئك جوقة رائعة تتعاون على نسج عزيف واحد شامل. وتسرّب إليه من جوانب قبر العبقري أمر عنيف في لطافته، يحثّه على اكتناه لغز العزيف الفخم ليرجعه توقيعاً على أوتار الكمنجة.

يا إشراق الوحي! أأنت حلم في اليقظة أم يقظة في الحلم؟ أأنت نور أم أنت لهيب؟ أأنت ضراعة المخلوق إلى الخالق، أم أنت عطف الباري على براياه؟ أأنت المكافأة العادلة لمن عرف أن يتألّم في تجلّد وبسالة، أم أنت البسالة والألم والجور اللذيذ في شكل مكافأة ومنحة؟ ما أنت وما هي ماهيّتك، يا إشراق الوحي المتعالي عن كل وصف؟

عاد الفتى من حجيجه(1) وكأنّه في لحظات قلائل عاش وتعلّم وجرّب وجاهد ألف ألف عام: تلك هي آثار الوحي تفوق في فوائدها كل وسيلة محسوسة، وتبزّ في نتائجها كل نظام موضوع. فانطلق في أفق الإبداع. وبقيت له تلك الذكرى منهل إشراق لا ينضب وهمساً سرّياً يسوق إليه الأنغام من عالم فوق هذا العالم، وهيمنة سحرية تنقل إليه الأصداء من أجواء لم تكن تتّصل بها قبلاً مملكة الألحان.. وطفق يعيش نهاره في وجود غير هذا الوجود، حتّى إذا جنّ الليل فانبرى على خشبة المسرح، بدا النور كهالة تفصل بينه وبين ما تحمل الأرض من خلق وأشياء وشؤون. يمثل الفتى حيال الجموع في وحدة نورانية، ويعزف...

الألحان تتناثر من خشبة الكمنجة مكوّنة أسراباً موسيقية تنفلت من السجن الضيّق لتطير وترتفع وتحلّق في فضاء أثيري سحيق، ناسجة بانتشارها مقاطع لغة تسكت جميع اللغات، مثيرة في كيان السامعين رعدة مخيفة لذيذة، ساكبة على الجموع الخاشعة آيات تلك اللهجة العلوية التي تذهب بالنفس شعاعاً في حين هي تخضعها لسلطانها الرفيق الحنون، حتّى إذا أمعنت الأسراب في التحليق والانتشار عادت فلمّت شعثها وأخذت تهبط شيئاً فشيئاً آئبة إلى عشّها السحري في الكمنجة فتضاءلت الألحان حتّى تصبح همساً، وتضاءلت في الهمس أيضاً حتّى تغدو نفساً رقيقاً شفيقاً وديعاً منغّماً يذوب ذوباً في عالم الخيال، دون أن ينتهي في عالم

المحسوس... فلا يدرك القوم أنّ العزف قد انتهى إلّا بعد سكون دقائق. وعندما يحاولون الإعراب عن الرهبة والتحنان الآخذين بلبّهم يكون الغريب السحّار قد خرج إلى الشارع وسار في طريقه إلى منزله الصغير.

ولكن اتّفق مرّة أنّ الجمع المزدحم أخذ يتدافع بالمناكب ليلحق به. فأدركوه وحملوه على الأعناق وانطلقوا به مهرجاناً عجيباً في قلب الظلام حتّى انتهوا به إلى منزله، إلى غرفته، إلى سريره، فأغلق بابه وراءه يطلب الراحة بالاختلاء بنفسه، وينشد عالمه البعيد عن هذا العالم. غير أنّ الجماهير في الخارج ظلّت تموج كمياه البحر، بينا ألوف الأصوات تناديه ليظهر على الشرفة. فلبّى النداء، وما إن بلغ الشرفة حتّى رفع يده مسلّماً. وإذا بالأصوات تتعالى وتشتدّ وتحتدم وتعصف حتّى انقلبت صوتاً واحداً شاملاً مفزعاً يروّع المدينة. وأراد الفتى أن يسكتها فلم يجد إلى ذلك سبيلاً.

لم يجد من سبيل سوى العودة إلى مخدعه ريثما يلتقط الكمنجة. وهناك على الشرفة الصغيرة، حيال الجموع العجّاجة، أخذ الغريب يعزف. فسكنت الأصوات في لحظة، وكان سكوت، وكان هدوء، وكان جمود، كأنّ جميع أهل الحيّ مستغرقون في النوم. وفي السكون الشامل أقام الغريب في قلب المدينة العظيمة مملكة جديدة كلها سحر وطرب وشجن وفتنة وإشراق...

السماء صافية الأديم، والنجوم تسطع ببهائها الجديد القديم. ونور القمر هنا - شأنه شأن نور الكهرباء في المسرح - يقيم حول الغريب هالة سحرية تفصل بينه وبين كل ما حملته الأرض من مخلوقات وموجودات وشئون... والغريب ضمن هالة القمر يعزف، يعزف ناسياً عبادة الجماهير، يعزف جاهلاً أنّ أحداً يصغي إليه. يعزف متّكئاً على عود الكمنجة في حزن عميق إذ لا شيء يثير دفين الحزن كالمجد الغير المختلس...

ليست هذه رواية كاتب بارع الخيال، بل هي ترجمة حياة قام يرويها رجل غريب في جماعة صغيرة من أهل الثقافة التأمت حلقة في قاعة هادئة بإحدى مدن أوربّا. وعندما بلغ هذا الحدّ من الحديث سكت. وما لبث أن نهض مسلّماً وانصرف عن القوم سائراً بخطوات هادئة متباطئة إلى ناحية الباب.

فسألت إحدى الموجودات: ما اسم هذا الرجل؟

- أولا تعرفينه؟

- سبق أن رأيته عدّة مرّات بين الزملاء والزميلات. ولكنّي لم أتعرّف به ولم أكلّمه. ما رأيكم في روايته؟ أليس أنّه محدّث ماهر؟...

- لم يرو غير حكاية حياته...

- ومن يكون هذا الرجل؟

- هذا واحد من ثلاثة. هم في هذا العصر أنبغ عازفي الكمنجة بين جميع الشعوب على الإطلاق...

(ميّ)

(*) الهلال، س ٤٢، ج ٦، نيسان/أبريل ١٩٣٤، ص ٦٤٨ - ٦٥١ .

(١) هكذا في الأصل، ولعلّ المقصود «حُجَيْجَته».

الرسالة (١٩٣٣)

... بل مصر مصرية![1]

«مصر للمصريين». هذه الكلمة أقرؤها لكم كاتبين، أيّها الشبّان، وأسمعها منكم محدّثين.

وإنّها لكلمة جميلة خصيبة عادلة. لكنَّ ما هو أجمل منها وأخصب وأعدل هو الغرض الذي ترمون إليه في حركتكم الوطنية الاقتصادية: جعل مصر مصرية!

المعلوم عن مصر أنّها بحكم موقعها الجغرافي بلدٌ دوليٌّ حتماً. فهي بمقتضى ذلك تفتح بابها لكلِّ شعب، وترحّب بكلّ حضارة، وتستسيغ كل صناعة، وكلُّ ثقافة تجدُ في مغناها ضيافةً وانتشاراً.

ولمّا كان لكل مقام مقال، فإنّ مصر لم تعدم من ينعى عليها موقفها ذاك. والشعراء - الشعراء البررة القساة، كم استوحوا هذا الموضوع فنمّقوا المراثي يعرضون فيها جيوش المصائب والمحن الضاربة في هذا البلد الأمين، ويشهدون العالمين - باللغة الفصحى! - على ما معناه أنّ: «مصر بنت طيّبة، ولكنّها مظلومة قضاءً وقدراً»!...

ولكَم بكى الباكون من جرّاء وقع هذه البلاغات الشعريات (... جمع بلاغة شعرية!). وإن لم يبكوا بدموع تُمسح بالمناديل فلا أقلّ من زفرات ملتهبة تتسرّب من القلوب المحروبة حيث الشفاه تردّد قول الشاعر: «مصر بنت طيّبة، ولكنّها مظلومة قضاءً وقدراً!»...

* * *

فتيان مصر، فتيان الحياة الجديدة في مصر!

بحركةٍ واحدةٍ قمتم أنتم قومة رجل واحد. قمتم لأنّكم بحميَّتكم الأبيّة، وبشبابكم الحارّ، وبوفائكم البصير، أدركتم أنّ سلاسل القضاء والقدر كثيراً ما يحبكها المرءُ لنفسه، وأنّ البلاد كثيراً ما يهمل أبناؤها أمرها فيكونون لها ظالمين!

أمصر ميدان لشتّى الصناعات والثقافات والحضارات؟ إذن لتستفيدوا من كل أولئك. وما كان في نظر المتشائمين موضوع رثاءٍ وحسرة ينقلب بين أيديكم موضوع جذل وأريحية وميدان خير عميم! تأخذون من كل قوم خير ما عندهم من ابتكار ونظام وتدبير، فتطبّقونه على قومكم بمقدار ما يتناسب وحاجاتكم. وما أنتم بذلك إلّا مماشون سنن التاريخ. فما من صناعة أو ثقافة أو حضارة إلّا اقتبست شيئاً ممّا سبقها أو استلهمت شيئاً ممّا يحيط بها.

ما هو الفرق بين مصر وبين غيرها من البلدان القويّة؟ أوّل فرق ظاهر أنّ البلدان القويّة تستهلك ما تنتج، وتدفق على غيرها من الأقطار ما يفيض عن حاجتها، في حين أنّ مصر تنتج قليلاً وتستهلك كثيراً ممّا يقدّمه لها المنتجون. وهذا هو النقص الذي قمتم تعالجون!

أوتذكرون قول الإسكندر قبل أن يقدم على فتح الأمصار القريبة والبعيدة؟ قال: «أريد أن أرث عن أبي فيليب بلداً صغيراً فقيراً مرتبكاً ليكون لي الفخر بأن أجعله بلداً فسيحاً غنيًّا تضرب الأمثال بقوانينه وأنظمته وعظمته».

أنتم ورثتم عن آبائكم بلداً عظيماً غنيًّا ما زال في حاجة إلى التنظيم في بعض نواحيه. ولتكونوا فخورين بهذا الوطن وخصائصه، ولتكونوا فخورين بحاجته إليكم، وبما لا يروقكم فيه. ولتكونوا فخورين لأنّكم وجدتم في هذا العهد الذي تستطيعون أن تقوموا فيه بالخدم اللاحّة! كذلك تسبرون غور مقدرتكم، ومبلغ تأثيركم، وتعرفون مقدار قيمتكم الأدبية أفراداً وجماعة!

عيدكم عيد الوطن، وعيد نشاط الوطن. صيحوا بأصواتكم الفتيّة بوجوب توزيع إنتاجه من كل نوع وكل صنف وكل فصيلة، اهتفوا في قومكم أن اجعلوا أثوابكم مصرية، وأثاثات منازلكم مصرية، وزينات حياتكم مصرية، لتهيّئوا وسائل العمل والرفاهة لملايين الأيدي المصرية.

ردّدوا أن خذوا عن الآخرين، واقتبسوا، وحصّلوا، على أن تمصّروا كلَّ ما تحصّلون وتقتبسون وتأخذون، فينقلب كلٌّ منكم إسكندراً خلّاقاً في بابه!

* * *

فتيان مصر، فتيان الوادي الأخضر!

عيدكم رأس سنة جديدة، بل هو مطلع عهدٍ جديد! هو مطلع العهد الذي تسعون فيه إلى تمصير حاجاتكم. فلا يكفي أن تكون مصر للمصريين، بل يجب أن تكون مصر مصرية!

ولكم الفضل بلفت البلاد إلى هذا الشأن الخطير. إنَّ لتربة بلادكم هذه خاصَّة سحرية في تحويل كل غريب عنها إلى جزء منها. فكم ذا تصبح هذه الخاصّة فعَّالة إذا ما أنتم عالجتموها بما نراه منكم من ذكاء وإدراك وهمّة وحماسة وحيوية!

عيشوا تحقيقاً للرجاء الذي يجعل واديكم دائم النضرة ويجعل علَمَكم دائم الخضرة!

ولتعش مصر مصرية!

(ميّ)

(*) الرسالة، س ١، ج ٢١، ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٣، ص ١١ - ١٢ .

(١) كتبت ميّ زيادة هذه المقالة بمناسبة تدشين مصنع الطرابيش في العبّاسية بالقاهرة، أوّل مصنع مصري صرف تمّ تمويله بالتبرّعات لمشروع القرش الذي أسّسه عام ١٩٣١ بعض طلاّب جامعة القاهرة.

الخزر (١٩٢٢ - ١٩٢٤)

الثروة والعمل

الثروة كل الثروة في الإباء والاستقلال الفردي وتعاطي عمل ما بجدّ واهتمام وبراعة. العمل الكبير مجموع تفاصيل صغيرة دقيقة. أليس أنّ الجوامع الأثرية البديعة، والمآذن الهيفاء الباذخة إنّما برزت وثبتت بتناسق الحجر كل الحجر؟ كذلك فلتكن مجموعة أعمالنا غاية جليلة نقوم بها عاليات الجباه تحت أكاليل العزم والجهاد؛ وقد اختفت من عيوننا خيالات الخضوع والمسكنة وحلّت محلّها نظرة من لم تعُد عبدة المجتمع ولا عبدة الحاجة ولا عبدة الرجل ولا عبدة قلبها وهو أعظم جائر مستبدّ، بل نظرة من أصبحت سيّدة نفسها تطيع مختارة وتعمل مختارة بهدوءٍ من فاز أو قُدّر له أن يفوز في الحياة.

(ميّ)

(*) الخدر، س ٤، ج ١ و ٢، تمّوز/يوليو و آب/أغسطس ١٩٢٢، ص ١١٦ .

الفاتحة

خير ما تفعلون

هي الحياة!

ولن تفرش الأيّام سبلنا بالورود وإن أجهدتم نفوسكم، أيّها الآباء الألبّاء، في نزع الأشواك تحت خطانا وإزاحة العثرات التي تعترضنا.

ستجرحنا الحياة كما جرحتكم، وتصرعنا قبضتها العنيفة فنمتثل ريثما ينجز المقدور ما تحتّم أن نكابده من عذاب ونكال.

وغاية ما تستطيعون هو أن تقوّوا فينا الشجاعة المعنوية، والاتّكال على النفس، والاحتمال بعزّة وإباء. خير ما تفعلون هو تعليمنا براعة الكفاح في حينه، غير خانعين أمام الألم المثقّف، ولا ناكصين على أعقاب الخذلان، تاركين لنا من عطفكم وعنايتكم وحكمتكم ذكرى وسلوى وقدوة.

(ميّ)

(*) الخدر، س ٥، ج ١٢، حزيران/يونيو ١٩٢٤، ص ٥٧٩ . تتصدّر هذه الخاطرة الصفحة الأولى من الجزء المذكور وهو سرّ عنونتها بالفاتحة.

الحديث (١٩٣٤)

كلمات في المرأة

لهفي على مجتمع يحسب أنّ فضيلة المرأة وصيانتها وكرامتها كلها رهينة الجدران التي تُفرض عليها فرضاً!

* * *

يصيحون: علّموا المرأة لتستنير، علّموها لتكون حرّة، علّموها لتشعر بكرامتها ككائن إنساني، علّموها لتتعرّف حقوقها فتخرج مسلّحة بها إلى ميدان الحياة الفسيح...

وأنا أقول: علّموا المرأة ليكون لها شرف الرجوع إلى داخل المنزل، ففي داخل المنزل الحرّية الحقّة والكرامة الإنسانية الحقّة، وانتصار الحقّ بانتصار الواجب، وفي داخل المنزل ميدان الحياة الفسيح والعمل الأعظم الذي يذيع النور في بني الإنسان. إنّ المرأة التي لا تدرك عظمة المنزل – سواء أكان قصراً أم كوخاً – ولا تقدّر أهمّيته وعذوبته ومبلغ تأثيرها فيه فتلك امرأة جاهلة ولو هي فازت بنصف دستة من الشهادات الدنيا والعليا والتي هي بين بين!

علّموا المرأة لترجع إلى داخل المنزل فتكيّفه على ما يجب أن يكون. فكما يكون منزل القوم كذلك يكون وطنهم الحسّي والأدبي.

* * *

لا أطلب للمرأة المساواة بالرجل لاعتقادي أنّها تفوقه سموًّا بقلبها. والنظريات التي ترمي إلى تسويتها بالرجل تحول حتماً بينها وبين عالمها الخاصّ الذي به – به وحده – تظلّ محلّقة فوق كل أفق يستطيع الرجل في جدّه وعبقريته أن يبلغه. فالمساواة هبوط لها، لا صعود.

(ميّ)

(*) مجلّة الحديث (حلب)، س ٨، ع ٤، نيسان/أبريل ١٩٣٤، ص ٣٢٤ .

المكشوف (١٩٣٩)

«القوّة والضعف في روحياتنا»[١]

عدتم وعدنا بضيافة «العروة الوثقى» في هذا النادي ذي الفضل العميم على اليقظة الفكرية والروحية في الشرق العربي. تسعة شهور تقضّت منذ أن اجتمعنا هنا في الثاني والعشرين من شهر مارس الماضي نحيّي مطلع الربيع[٢]. وقد تولّى الربيع، وتلاه الصيف، يتبعه الخريف. فإذا بـ «العروة الوثقى» تشرّفني بالدعوة إلى اعتلاء منبرها مرّة أخرى، بينا العام يتأهّب للرحيل، والخريف مشرف على نهايته. أترى «عروتنا» العزيزة أرادت أن ألقي عليكم تحيّة الوداع بعد أن أنالتني السرور بأن أقرؤكم تحيّة اللقاء؟

نحن في هذه الحياة الدنيا في جميع شؤوننا دواماً بين لقاء ووداع، بين ذهاب وإياب، بين مدّ وجزر، بين شروق وغروب، بين ربيع وخريف. ولئن اتّفق الناس جميعاً على الإعجاب بالربيع، فالكثيرون يظلمون الخريف وينسبون له كآبة الرحيل والموت والجمود، مع أنّه الفصل المليء بالحياة، المهيّئ للحياة، العاكف مع الشتاء على تنشئة الحياة. ولولا الخريف ولولا الشتاء، لما عرفنا بهجات الربيع وخيرات الصيف.

أليس الخريف موسم الفلاحة، والحراثة، وتجديد الأرض بإعدادها لتلقّي البذور؟ أوليس الشتاء موسم احتضان الأرض للبذور، تنضجها على مهل، لتخرجها في الربيع زينة وفي الصيف غلّة؟ ولئن تساقطت الأوراق في الخريف وتعرّت الأفنان في الشتاء، أفليست الأصول باقية على رسوخ، والجذوع قائمة على أصول، والغصون ذاهبة في الهواء صعوداً كأنّما هي تلتمس تحقيق الآمال في النشء النباتي الجديد؟ أوليس كذلك ضرورياً أن تتساقط الأوراق التي فرغت من تأدية وظيفتها لتفسح للأوراق المقبلة مكاناً كما يحلّ جيل محلّ جيل في عمر بني الإنسان، وكما تشغل الأفكار اللاحقة مكان الأفكار السابقة، حقبة بعد حقبة في دورة الأزمان؟

لو نحن تلمّسنا التشبيه الصادق قلنا إنّ المجتمع الشرقي الجديد يجتاز الآن من عمره طور الخريف إذ هو ينبذ آراء وعادات ليقتبس ما هو أصلح له من عادات وآراء. ريح عاصفة تهبّ على شجرة حياتنا وتهزّها هزّاً عنيفاً ملقية عنها ما بلي مجدّدة فيها

فاعلية الحياة. وما عمل هذه الجامعة العظيمة إلّا عمل الفلّاح في الخريف، وهي التي تفلح الأفكار، وتحرث العقول، وتنقي النفوس من الأدران والشوائب لتغرس صالح الأغراس. وما عمل «العروة الوثقى» إلّا عمل الزارع الذي، بإشارة رحيبة فخمة، ينثر بذور الحياة الحيّة في بقاع تتوق إلى بذور الحياة الحيّة لتجتمع عليها فاعليتها ونشاطها فتصبح في ربيع الأقوام ربيعاً يملأ البلاد ازدهاراً وعمراناً وجمالاً. فحيَّ على الخريف الممهّد للربيع! حيَّ على الوداع المبشّر باللقاء! حيَّ على الموسم المليء بالرجاء، المعلن تحقيق الرجاء بتحويلنا عن الزمنيات السطحية إلى الروحيات المجدية السنيّة!

* * *

أيّها السادة والسيّدات،

منذ ثلاثة وعشرين قرناً قال أرسطو فيلسوف اليونان إنّ الإنسان حيوان سياسي. والسياسة عند أرسطو هي علم إدارة المدينة أو الدولة أو الوطن. والإنسان، وهو فرد من أهل المدينة والدولة وأحد المواطنين، لا بدّ له أن يعنى بشؤون مدينته ووطنه ودولته.

وفي القرن السابع عشر قال فِينِلُون إنّ الإنسان حيوان اجتماعي، أي أنّ الإنسان، وهو عضو من أعضاء المجتمع، لا بدّ أن يعنى بشؤون مجتمعه على تنوّعها. ولا عجب أن يصدر هذا القول عن مفكّر فرنسي، فالفرنسيون من أشدّ الشعوب تعلّقاً بالحياة الاجتماعية ومن أبرعهم في إيجاد الألفة الاجتماعية. كما لا غرابة في صدور الرأي السالف عن أرسطو وهو أوّل من أنشأ علم الدولة أو المدينة، في زمن كان جميع المواطنين من اليونان يشتركون في سياسة المدينة أو الدولة أو الوطن. أفمن عجب بعد هذا أن نقول نحن أهل هذا الشرق الذي نشر في العالم عقيدة التوحيد وروحية الإنسان - هل من عجب أن نقول إنّ الإنسان... كائن روحي؟

ممَّ يتكوّن جسد الإنسان؟

لقد حلّلوه فوجدوا فيه تآلف التراب والماء مع عناصر كيماوية أخرى. فقام أحد العلماء يركّب هذه العناصر بالمقادير الموجودة في الجسد، فصوّر منها إنساناً ذا أجهزة عظمية وعضلية وعصبية، مكتمل الأجهزة الداخلية في الدماغ وفي الصدر وفي

الأحشاء. ثمّ قال لهذا الجسد: «كن إنساناً! فكّر! تحرّك، تكلّم، اسمع!» فلم يكن الجسد إلّا تمثالاً. كان صورة متقنة من صنع المخلوق، ولكن على افتقار إلى ما لا يجود به إلّا الخالق العظيم.

وراءنا نحن أهل الشرق وراثة ولا كالوراثات. كل أمّة من الأمم تجدّ جدّها، وتأتي بخيرها، ملقية بغنائمها الفكرية والعلمية في حضارة العمران. في كل ناحية من أنحاء الخليقة، وفي كل شأن من شؤون الإنسان أبحاث ودراسات واستنتاجات هتكت أستار الماضي إلى ما سبق التاريخ، وعالجت ممكنات الحاضر في ما يرى وفي ما لا يرى، وهيّأت للمستقبل كشف المخبّآت وإعلان المكنونات. لم تفلت من مجهر العلم ذرّة من ذرّات التراب، ولا قطرة من قطرات الماء، ولا شعاع من الأشعّة الغائرة في سحيق الأفلاك، ولا خليّة من خلايا الكيان. للعلوم العقلية والرياضية والطبيعية والميكانيكية والكهربائية والجراحية والنفسية والاجتماعية انتصارات لا تعدّ ولا تحصى. وما اهتدت أمّة إلى سرّ علمي أو صناعي إلّا انبرت الأمم الأخرى تبحث طبيعته وتكتنه أغواره وتستزيد من ممكناته. جوق مهيب من الأمم يشترك في الكشف عن أسرار الطبيعة وتذليل العناصر لخدمة الإنسان. ولنا نحن معشر الشرقيين في بعض هذه الجهود ذكر مشكور. على أنّ أنبياءنا اتّصلوا بمصدر الكيان والإبداع، فجاءوا بمعجزة المعجزات يوم أعلنوا وحدة الألوهية ووحدة الروح. إنّ المبادئ العلمية ما فتئت يهدم بعضها البعض الآخر جيلاً بعد جيل. أمّا حقيقة الله وحقيقة الروح، على كثرة اللاأدريين والمعطّلين، فلم يأت أحد بما ينقضها ويحلّ محلّها ما هو خير منها.

ولكَم قيل لنا إنّنا أهل الشرق رقدنا على أكاليل الغار فانحططنا من ذروة المجد الأسنى إلى حضيض الخنوع والاستسلام، وجرينا وراء الخزعبلات والأوهام، ضاربين صفحاً عن قيم الحياة الجلّى في السعي والبسالة والإقدام. ونحن في الواقع نستحقّ من تلك التهم شيئاً غير يسير، وإن كنّا لا نحمل مسؤولية ما صرنا إليه إذ كنّا في طور الجمود. غير أنّنا مسؤولون عمّا نحن فيه الآن. وأعلن هنا آسفة أنّ مجموعنا، مع الاستثناء الجميل، قد فقد كثيراً من قوّة الروح وأنّه إلى الاتّصال بالروح أحوج ما يكون.

نعلم أنّنا مكوّنون من روح وجسد. ويؤكّد الذين ينعتون نفوسهم بالعمليين أنّ للجسد شؤونه الزمنية التي يتحتّم علينا الاعتناء بها، وأنّ للروح شؤونها الخيالية التي يجدر بنا الإقلاع عنها. الحياة الروحية، على قولهم، تصلح لبحث نفر من أهل الوهم أو أهل المثل العليا، شعراء كانوا أو فلاسفة، علماء لاهوت أو صوفيين، أولئك الذين لا يحيون الحياة المحسوسة التي يحياها الجميع. أمّا الإنسان العادي فليس له في نظرهم أن يعنى بتلك الحياة الروحية إلّا متى انتظمت له الضروريات المحسوسة في المعيشة والاقتصاد والاجتماع. وهنا هنا منشأ الخطأ.

الإنسان يتغذّى ويتحرّك ويفكّر ويحسّ ويسعى. حياة المجتمع من الغريزة والشعور وحياة الدولة من العقل والمنطق. فعلام توجد الروح إذا كانت وظيفتها لاغية؟

إنّ زمنياتنا وروحياتنا شيء واحد. ولكن عندما نحسب الزمنيات مستقلّة عن الروحيات يكون حسباننا ضعفاً وخيبة وضلالاً. وعندما ندرك أنّ زمنياتنا ترتبط بروحياتنا ارتباطاً وثيقاً فنحن عندئذ أهل القوّة وكل القوّة فينا.

وما هي الروح؟

سؤال خطير، أيّها السادة والسيّدات، وأشدّ خطورة منه الجواب عليه. عنّي وعنكم تعريفات الفلسفة والعلم الافتراضي والطبّ، مع احترامي للدكتور مالك[٣]، إذ لا شيء يضعضع الموضوعات أكثر من تعريفها أحياناً.

من كل العلوم والفلسفات حسبنا إيماننا القديم باللّه. ومن آمن باللّه أدرك أنّه يحوي في كيانه نطفة من الروح الأزلية السرمدية التي لا يعتورها تشويه ولا يداهمها فناء.

نجيل الطرف والفكر في العالم المحيط بنا عن قرب وعن بعد، فنجد الروح في كل مكان وفي كل كائن. ليس من شيء يخلو من الروح وإن تفاوتت كمّية الروح في الكائنات: الروح في امتداد المسافة، في رحبات الأفلاك، في العوالم والشموس المنثورة في الفضاء، في النظام الشامل الذي يسيّر كل كوكب وكل سديم ضمن منطقة فلكية لا يتعدّاها. الروح في حركة الأرض، في شروق الشمس وغروبها، في ألوان الأسحار

وألوان الآصال، في الجبل الصامت، في الصخر الأصمّ، في الشجرة المزهرة، في أغرودة الشحرور، في تدفّق النهر، في ترامي البحار، في تقلّب الفصول، في تسلسل التاريخ، في دورة الدهور. الكون كله في ألوف الألوف من الصور والأشكال مليء من الروح المتجلّي في كائنات وأحداث مرئيّة وغير مرئيّة، محسوسة وغير محسوسة في مختلف مراتب الوجود الملموس والمعقول والروحي.

الوطن قوّة روحية. ولو لم يكن كذلك ما كوّنت البقاع الرحيبة وطناً ولا اتّفقت قلوب الملايين على حبّ واحد وغرض واحد.

الدولة قوّة روحية، لأنّ مجموع وظائفها المتعدّدة تتلخّص في صيانة الحرّية والكرامة وتمكين أهل البلاد من التدرّج شيئاً فشيئاً في معارج الارتقاء ولا يصدر الارتقاء إلّا عن الاتّصال بالروح.

الأسرة قوّة روحية، وعندما تنقلب الأسرة شركة زمنية ينتابها التفكّك وتتناهبها الأطماع والأهواء ويخيّم عليها الشقاء.

المدرسة قوّة روحية. وما التهذيب والتثقيف والعلوم والمعارف إلّا مفتاح تضعه المدرسة في يد الطالب ليفتح به الباب المؤدّي إلى مصادره الروحية.

وما هو الدين إن لم يكن قوّة روحية؟ وما غاية الإنسان من الصلاة سوى الارتفاع إلى مصادره العليا ليكون عندها أقرب إلى الاتّصال باللّه؟

بيد أنّ الروح أبدع ما يتجلّى في الفرد الواحد. والروح في جوهرها حرّة طاهرة قويّة كاملة. السماء عندها صافية. ولكنّ الدخان واللهاث المتصاعد من حياة زمنية تتجاهل وجود الروح يولّد بيننا وبينها كثيف الغيوم ويحجب عنّا شمسها المنيرة.

فهل من تبدّد لتلك الغيوم؟ وما هو الحائل دون الاتّصال بالروح فينا؟ أستميحكم الجواب عن هذا السؤال بتشبيه إن لم يكن وافياً من جميع الوجوه، فهو على كل يقرّب الموضوع إلينا قدر المستطاع.

هاكم آلة راديو، ونحن نستمع إلى إذاعة شيّقة ولكنّ أصواتاً دخيلة طارئة وطفيليات تحدث جلبة وتشويشاً وصخباً يطغى على الإذاعة الجوهرية. عندئذ ندرك أنّ

خللاً طرأ على بعض الأدوات أو الأسلاك في الآلة. فيهتدي العامل الماهر إلى موضع ذلك الخلل فيصلحه، فإذا بالإذاعة تنتشر صافية رائقة في انسجام وجلال. ماذا حدث لتتمّ الأعجوبة؟ حدث أنّ سلك الاتّصال بالمصدر كان معطّلاً أو ملتوياً، فأصبح الآن مباشراً محكماً. كانت أدوات الراديو تشتغل كل منها لحسابها وعلى هواها حتّى بات الراديو خليقاً بالاسم الذي اختير له حديثاً: الطمطمان أو الطرطران. فأصبحت الأدوات بعد إحكام السلك خاضعة للنظام القاضي بتعاونها جميعاً على إرسال الإذاعة في أسلوب خاصّ واتّساق خاصّ.

قد يدهشكم أن أذكر الروح إلى جانب مركز الإذاعة، في حين نعلم جميعاً أنّ الراديو محض أداة ميكانيكية، غير أنّ الراديو لم تخلقه العلوم الميكانيكية وحدها، بل الروح هو الذي خلقه وسخّر له العناصر والميكانيكا. ليس من مكتشف أو مخترع إلّا وقد اتّصل في عزلته بالقوّة الروحية في كيانه. ليس من عمل عظيم، ليس من بطولة، ليس من عبقرية، ليس من مغامرة تروع العالم، ليس من إقدام باهر أسفر عن النجاح الباهر إلّا وقد نجم عن اتّصال الفرد بمصدر الوحي والقوّة في كيانه.

أجل، في المجتمع مغالطات كثيرة وفي العالم فوادح جسيمة تفرض نفسها أحياناً حتّى على الذين لا يشتركون في تنفيذها. أجل، الضلال فاشٍ مع المراوغة الثعلبية والجشع والأنانية وحبّ اللهو والعربدة والتمويه. أجل، القوّة المادّية العنيفة تلقي الذعر في العالم، والأزمات المالية الاقتصادية ترهق الجماعات والأفراد، والعباد من جرّاء التناقض بين القول والفعل لفي حيرة ووجل واضطراب. ففي مثل هذه الحال خصوصاً على كل منّا أن يرجع إلى مصدر القوّة فيه فيصلح الأسلاك المعطّلة ليتّصل بروحه اتّصالاً مباشراً. ولو عُني كل منّا بإحكام ذلك الاتّصال لكانت الإنسانية على غير ما هي فيه اليوم.

فيا أهل الشرق الناهض، رجالاً ونساءً، شيوخاً وشبّاناً! إنّكم لا تستطيعون تعديل نظام الكون، غير أنّكم تستطيعون أن تكونوا أقوياء أحراراً ضمن ذلك النظام. إنّ من الحوادث والوقائع ما لا نملك تبديله دفعة واحدة. ومع ذلك فكل منّا يشعر بقدرة صميمة في داخله تمكّنه من تكييف بعض الظروف وجذبها إلى ناحيته لا بالرياء والنفاق والمذلّة، بل بإباء واستقامة وبسالة ليتمّ في الحياة رسالته.

وممّا يستوقف الانتباه أنّ الصعوبات التي تصدمنا، والمحن التي تحلّ بنا، والآلام التي ترعى في نفوسنا، والأوجاع التي تجتاح أيّامنا ولياليبنا، كل ذلك ممّا يدفع بنا إلى ولوج داخل الكيان لنتّصل بالروح مصدر القوّة والمناعة فينا.

فتيان «العروة الوثقى»، فتيان سائر الجمعيات والمؤسّسات، فتيان هذا المعهد العظيم، فتيان الشرق العربي من أقصاه إلى أقصاه! ألا تشعرون الساعة بالشمس تشرق في داخلكم، بالنور يشيع في قلوبكم، بالحميّة تهزّكم وتطربكم، إذ أنا أوصل إليكم دعوة الروح وأناديكم إلى الاتّصال بقوّة الروح فيكم؟ ليست الشخصية الكبيرة هي التي تستسلم لعوامل الضعف والكسل والتراخي، بل كل مقاومة، وكل غمّ، وكل حرمان يوقظ تلك الشخصية ويردّها إلى داخل نفسها تتّصل بمصدر الروح فيها.

أنتم أبناء اليوم، تُعدّون وراثة الغد ووسط المستقبل، فإذا ابتغيتم تبديل ما يسخطكم من عوامل الوراثة والوسط، فليصلح كل منكم نفسه بالاتّصال بمصدره الروحي. منذا الذي يفهم مجموعاً بدون أفراد؟ إنّ كل معالجة للضعف تتناول الفرد أوّلاً وآخراً.

فإذا أنتم أردتم حياة مجدية، ومدرسة مفيدة، وأسرة عامرة، وحكومة نزيهة، ووطناً عظيماً، فاجعلوا الفرد منكم بالروح وبقوّة الروح غنيّاً قويّاً نزيهاً نبيلاً رشيداً عظيماً.

كل ممكنات الدولة والأمّة والمجتمع والوطن تقوم في روح الفرد، وخير مصلح للفرد هو الفرد نفسه. الفرد كتلة مغناطيسية تجذب وتلهم وتؤثّر وتجتاح. ثقافة فرد واحد تثقّف أفراداً عديدين. نور صغير واحد يضيء بقعة واسعة. قوّة فرد واحد تبعث القوّة في ألف فرد. بطولة فرد واحد تخلق ألف بطل.

هذا وداعي إليكم. وكل عام وأنتم على اتّصال بأرواحكم، مصدر القوّة، والبسالة، والعظمة فيكم!

(ميّ)

(*) المكشوف، س ٥، ع ١٨١، ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٣٩، ص ٢ - ٣ .

(١) النصّ الكامل للمحاضرة التي ألقتها ميّ زيادة في أواخر كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٨ في مقرّ جمعية «العروة الوثقى» بالجامعة الأمريكية في بيروت قبيل مغادرتها إلى القاهرة. وقد سبق نشرها باختصار منقولة عن مجلّة الهلال، ج ٤٧، آب/أغسطس ١٩٣٩، ص ٩٨٣ - ٩٨٧، تحت عنوان «الإنسان كائن روحي» في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٩ .

(٢) تشير ميّ زيادة هنا إلى محاضرة «رسالة الأديب إلى المجتمع العربي» التي ألقتها في ٢٢ آذار/مارس ١٩٣٨ بدعوة من «العروة الوثقى» في قاعة «وِشت هول» بالجامعة الأمريكية في بيروت. وقد نُشر نصّها في جريدة المكشوف، س ٤، ع ١٤١، ٢٨ آذار/مارس ١٩٣٨، ص ٢ - ٣، كما أصدرته جمعية «العروة الوثقى» في حزيران/يونيو من العام نفسه بطبعة خاصّة وزّعتها مجاناً على أعضائها. وهو مضمّن أيضاً في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، المرجع الآنف الذكر، ج ٢، ص ٢٥٣ - ٢٦٢ .

(٣) شارل حبيب مالك (١٩٠٦ - ١٩٨٧)، مفكّر وسياسي لبناني. درس في الجامعة الأمريكية ببيروت ونال الماجستير من جامعة هارفارد (Harvard) في الولايات المتّحدة ثمّ الدكتوراه من جامعة فرايبورغ (Freiburg) في ألمانيا. عمل أستاذاً للرياضيات والفيزياء ١٩٢٧ - ١٩٢٩ فأستاذاً للفلسفة ١٩٣٧ - ١٩٤٨ و ١٩٥٥ - ١٩٦٠ في الجامعة الأمريكية ببيروت كما تولّى رئاسة قسم الفلسفة فيها ما بين ١٩٣٩ - ١٩٤٥ . شغل منصب المفوّض العامّ ١٩٤٥ - ١٩٥٣، فمنصب السفير ١٩٥٣ - ١٩٥٥ في أمريكا ورأس الوفد اللبناني في الأمم المتّحدة بنيويورك ١٩٤٥ - ١٩٥٣ . مثّل بلاده في مجلس الأمن للأمم المتّحدة ما بين ١٩٥٣ - ١٩٥٤ وترأس الجلسة الثالثة عشرة للجمعية العمومية للأمم المتّحدة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ . تبوّأ وزارة الخارجية اللبنانية ١٩٥٦ - ١٩٥٨، وأُنتخب نائباً عن مسقط رأسه الكورة ١٩٥٧ - ١٩٦٠، ثمّ عاد عام ١٩٦٢ إلى الجامعة الأمريكية في بيروت لتدريس العلوم السياسية.

«ميّ» تودّع لبنان من محطّة راديو الشرق[1]

أيّها السادة والسيّدات،

عندما يغادر الغريب بلداً قضى فيه ولو مدّة وجيزة، يلتفت إليه متملّياً من مناظره وخصائصه، مستجمعاً خلاصة تأثّراته فيه وذكرياته، مستعيداً صور الذين أثاروا عنده حالات نفسية خاصّة من فرح وترح وشجن وطرب، ملخّصاً في خاطره الحوادث التي مرّت به وتقلّبت حواليه فردية كانت أم اجتماعية، اقتصادية كانت أم فكرية وعاطفية.

أمّا وأنا لست بالغريبة عن لبنان ولا لبنان بالغريب عنّي، أمّا وأنا أرتبط بلبنان عن طريق والدي بصلة مقدّسة هي علّة وجودي، أمّا وأنا قد وصلتني بلبنان في الآونة الأخيرة روابط جديدة وثيقة – فإنّي، وقد دنت ساعة الرحيل، ألتفت الآن إلى لبنان والقلب المليء بالتأثّرات والمشاعر شبيه بهذا البحر الفيّاح، يلتفّ بلبنان ويدور حواليه شواطئ، وآكاماً، وأودية، وقمماً، ويحتضنه في عناق طويل حنون، مخاطباً إيّاه في مغمغة هي أقرب إلى حفيف الأمواج منها إلى الألفاظ البشرية، ليبثّه بعض ما يختلج بين ثناياه.

على أنّ الفكر لا بدّ أن يستقرّ، واللفظ لا بدّ أن ينجلي. لأنّ هذه الأعوام الثلاثة (ثلاثة أعوام إلّا خمسين يوماً بالضبط) لهي أطول مدّة متجمّعة قضيتها في حياتي في لبنان، مشاهدة الكثير من الحوادث، منفعلة بالكثير من الوقائع، معالجة الكثير من الاختبارات، ذائقة – على مضض – الكثير من الطعوم.

ولو أنا بعد كل هذا ودّعتكم بكلمات مألوفة كنتم عنّي غير راضين وفرضتم عليّ إرسال كلمة صدق ويقين. لذلك ألبّي الرغبة التي أتلمّسها عندكم في إبداء ملاحظات لا أتفرّد بها دونكم، بل هي شائعة بين المفكّرين والصحافيين والنوّاب وأولي الأمر من رجال الحكومة وسائر ذوي المصلحة من أبناء البلاد.

أقدم على إبداء هذه الملاحظات لأثبت أنّي معكم فيما ترتأون، لأثبت أنّ مَن أحبَّ شعباً وبلداً سعى جهده في سبيل الخير لهذا البلد ولذلك الشعب. ولي من

اللبنانية الصميمة ما يكفي لأشعر بجميع احتياجات الشعب اللبناني ولأتكلّم باسمه. ولي كذلك من البعد النسبي عن لبنان ما يكفي لأطالب بما يطالب به الغريب، ولأتكلّم باسم الضيف في لبنان.

ومن الملاحظات والمطالب ما هو موجّه إلى الحكومة اللبنانية المحترمة، ومنها ما هو موجّه إلى الشعب اللبناني الكريم، ومنها ما هو مشترك بين الحكومة والشعب. فليتفضّل كل من الشعب والحكومة بالاهتداء إلى ما هو خاصّ به في حديثي هذا. إنّ كلمة الوداع لهي الكلمة الصادقة، ذات الوقع الخاصّ، الباقية الأثر.

أوّلاً – الطبقات الاجتماعية: أوّل ما نلحظه في أهل هذه البلاد سواءً في المدن وفي القرى هو الهوّة الفارقة بين طبقتين اثنتين: طبقة الذين يعيشون عيشة الرفاهة والتنعّم والبذخ، وطبقة الذين يعيشون عيشة الكدّ والفقر والحاجة. وبعض الفقراء يأبون إلّا تأثّر الأغنياء في الهندام والمظهر، وذلك على حساب دماء قلوبهم التي يهرقونها في تأدية عملهم أياً كان، أو بالدَين، أو بوسائل أخرى غير جليّة وغير خيّرة. بينا بعض الأغنياء يظهرون بمظهر أفخم ممّا تسمح به ماليتهم، وذلك أيضاً على حساب دماء قلوبهم ودماء قلوب الغير، أو بالدين، أو بوسائل أخرى لا هي جليّة ولا هي خيّرة. وبسبب هذا الإفراط في الطبقتين تكاد الطبقة المتوسّطة تكون مفقودة. مع أنّ هذه الطبقة بمثابة المصفاة تتصفّى عندها مواهب الأمّة وقدراتها وتربيتها وتعليمها وثقافتها، وبها خصوصاً يتمّ التوازن بين مختلف الطبقات.

ثانياً – المدارس: الإقبال على المدارس ظاهر في لبنان، ولكنّ نتائج هذا الإقبال أضأل من الجهود المبذولة في سبيله، لأنّ برامج الدراسة تتجاهل استعداد الأفراد ولا تتوافق وحاجات البلاد. كم من تلميذ وتلميذة من أبناء أصدقائي وبناتهم رأيتهم عاكفين ساعات الليل على معالجة موضوعات ثانوية بعيدة، عسيرة، لا تنفعهم في شيء، في حين هم لا يدرسون شيئاً ممّا لهم فيه مصلحة مباشرة.

أجل، إنّ دراسة أيّ موضوع من الموضوعات تثقّف ناحية من نواحي الفكر وتوسّع المدارك. ولكنّ التوسّع والتثقيف ميسوران في صورة أتمّ بدراسة الموضوعات الضرورية التي يستفيد منها التلميذ ويستثمرها في حياته كفرد وكعضو في جسم

الأمّة. ما هو الغرض من التعليم؟ أجلىَ جواب على هذا السؤال نجده عند رَسْكِن الذي يعرف ماذا يقول. وهو يقول إنّ الغرض من التعليم هو أن يعرف الطالب أوّلاً من هو، ثانياً أين هو، ثالثاً أن يعرف جميع الممكنات التي يقدّمها له وسطه ليحيا حياة مليئة مجدية. وليس في البرامج الراهنة إلّا القليل من ذلك. وفي مقدور الحكومة اللبنانية الرصينة إصلاح هذا الخلل بواسطة لجنة من الخبراء الصادقي النظر. فتعدّل برامج الدراسة بحيث لا تحتوي إلّا على الموضوعات المفيدة المثمرة لتخرج من أبناء البلاد أبناءً للبلاد.

ثالثاً – الضرائب: الضرائب فادحة. ويخيّل أنّها تتزايد بتزايد القلق المالي والفقر في الأهلين. والفلّاح يساق إلى تسديدها من كدّ يمينه وعرق جبينه، وقد يستدينها في حين هو لا يجد ما يقوم بأوده وأود عياله. قد يستدينها وهو يدفعها على كل حال، في حين تلك الضرائب لا تجديه نفعاً محسوساً لا في الوقاية الصحّية، ولا في تمهيد الطرقات، ولا في جلب النور والماء، ولا في تحسين قريته، ولا في تسهيل وسائل معيشته. فعلامَ الضرائب إذًا وعلام الجباية؟

رابعاً – الزراعة: الفلّاح اللبناني ذكيّ نشيط عامل، والفلّاحة اللبنانية كالنحلة تسعى ليل نهار لخدمة بيتها وعائلتها ولخدمة الأرض والماشية. على أنّ هذه أعمال فردية لا ترابط بينها. ففي لبنان مسافات مهملة مع أنّها صالحة للزراعة ولمزيد الإنتاج في الحبوب وأشجار الفاكهة. وهذا يستدعي مساعدة الحكومة التي في وسعها تنشيط الزراعة والإنتاج بتعيين الجوائز وتسليف الأموال وغير ذلك من أساليب التنشيط. فتفسح مجالاً للعمل بين المتعلّمين العاطلين وتناصرهم في إيجاد شتّى الصناعات الزراعية وتكفي البلاد مؤونتها من حاجيات المعيشة.

خامساً – الصناعة والتجارة: الصناعة ناشطة في بعض صنوف الإنتاج، ومنها ما هو غاية في الإتقان، كصناعة الأثاثات مثلاً. وممّا يسرّ حقّاً أنّ الأهالي يزيّنون منازلهم بهذه الأثاثات. وحبّذا لو عمد المنتجون إلى إيجاد طراز خاصّ في صناعتهم دون احتذاء المثل الأجنبية ونسخها فقط. فقد آن للصناعة الوطنية أن تبتكر لها مثالاً محلّياً. ومن الأنسجة المصنوعة في لبنان وسوريا ما هو في مرتبة عالية من الجمال والإتقان.

ولا يسعني هنا إلّا توجيه التحيّة الخالصة إلى قرينة الرئيس الأوّل، مدام إميل إدّه، لعطفها على صناعات البلاد واهتمامها بإنعاشها وترويجها، مع تحيّة سائر مساعداتها ومناصراتها في هذا المسعى المشكور، وتحيّة النساء اللبنانيات العاملات، بهندامهنّ وبتنظيم منازلهنّ، على تنشيط الصناعات الوطنية وإفساح المجال لتنويعها وإتقانها.

أمّا التجارة في لبنان فهي تيه الأتاويه للوطني والضيف على السواء. يا لها من معركة حامية بين المشتري والبائع عندما تعرض الأسعار على بساط البحث! ويا لذلك البساط من بساط رحيب مطّاط! حدّدوا أسعاركم، أيّها التجّار، رحمة بأعصابكم وبأعصاب المشتري، واقتصاداً في الوقت، وصوناً للكرامة! وفّروا على نفوسكم وعلى غيركم الأيمان المغلّظة، لا تقسموا بالشرف ولا بأولادكم، بل قولوا كلمة واحدة لطيفة غير كاذبة، في تأدّب واستقامة. فالبيع الكثير في ربح معقول خير من الربح الباهظ في بيع قليل. وشرف التجارة يقوم بتسعير المبيع تسعيراً معقولاً مع توحيد الأسعار للجميع لضبط حركة السوق بإيجاد الثقة المتبادلة.

سادساً – الاصطياف: الاصطياف من خير الموارد للبلاد، ولا عجب ممّا يبذله اللبنانيون حكومة وشعباً لجعل لبنان مصيفاً محبوباً لدى جميع الأقطار الشرقية. وقد أصبح بعض مراكز الاصطياف في الجبل يضاهي بيروت وقد يزيد عليها في النشاط الاجتماعي والترف والبذخ وغلاء المعيشة، ومع ذلك ففيها كما في بيروت عيوب لا يجوز السكوت عليها. فالنظافة ليست على ما يرام، والمنازل أضحت متحاذية متراكمة، ووسائل الوقاية الصحّية ليست دائماً مضمونة. الذباب جيوش في كل مكان، والبعوض كأنّه بعض ضربات مصر في عهد فرعون قد تحوّلت إلى لبنان في القرن العشرين. وعلام ترى تجعلون للاصطياف مراكز؟ إنّ لبنان جميل في كل بقعة، صحّي في كل واد، بهيج في كل قمّة، مغرٍ في كل قرية. فلئن تحدّدت أماكن رياضة «السكي» في الشتاء فالاصطياف يجب أن يشمل جميع القرى في لبنان. ومن المصطافين من لا يطلب إلّا الراحة والهدوء والسكينة في قرى لا يكثر فيها الازدحام والجلبة، ولكنّ تلك القرى خالية، مع الأسف، من وسائل الراحة، جامعة أحياناً لوسائل الانزعاج والخطر.

سابعاً - الماء والنور: يعجب الإنسان كيف يمكن أن يكون بعض القرى على بعد ربع ساعة من محطّات الكهرباء ومن غزير الينابيع وشهير الأنهار، فلا يستنير ساكنوها إلّا بمصباح البترول، ولا يشربون إلّا المياه المجلوبة على الأكتاف في كثير من العناء، من عين بعيدة وعرة المسلك. وحوض تلك العين لا ينظّف إلّا نادراً ممّا يجعل صحّة الأهلين في خطر. أضف إلى هذا افتقار المنازل إلى الملحقات والمنافع التي تتحتّم العناية بها على وجه صحّي قبل الاهتمام بالأبهاء الرحيبة وغرف الاستقبال الجميلة. ولجماعة إنعاش القرى في الجامعة الأميركية مساع مشكورة في تحسين حال القرية اللبنانية والسورية، فإلى القائمين بشؤونها تهنئتي الخالصة مع التمنّي بأن تعضدهم الحكومة في جهودهم المحمودة، فإنعاش القرية أمر ملحّ حرصاً على صحّة الأهلين وعلى صحّة المصطافين جميعاً.

ثامناً - الطرق والمواصلات: بعض الطرقات في لبنان حسن جدّاً من حيث الاتّساع والرصف بالأسفلت وتأمين السلامة والراحة. ولكنّ الطرقات الأخرى وعرة المسالك، جمّة الأخطار، متعدّدة الدورات والأكواع، ومن تلك الطرقات ما يؤدّي إلى أمكنة يعرف بها لبنان في التاريخ ويرغب الجميع في زيارتها ومشاهدتها، كالطريق الصاعدة من بشرّي مثلاً إلى الأرز، فهي وعرة ضيّقة لا تكفي لتحاذي سيارتين إحداهما ذاهبة والأخرى آيبة إلّا بالاستهداف لأشدّ الخطر. ولا متّسع لتدوير السيارة في تلك الطريق المتعدّدة الأكواع، مع أنّها على حرف الجبل الواقف، وبعض الزلل يكفي لتتهوّر السيارة إلى أعماق وادي قاديشا. فعلام لا يحذف الجانب الآخر من الصخور لتوسيع الطريق، وعلام لا تمهّد المساحات الكافية لتدوير السيارات، وعلام لا يقوم جدار للطريق من ناحية الوادي متكفّلاً بسلامة السيارات والأرواح؟ ومثل طريق الأرز طريق مغارة قاديشا. يجب أن تمهّد الطريق بحيث تؤدّي إلى باب المغارة في أمان بإيجاد جدار عال من ناحية الوادي فلا يعرّض الزائر حياته للخطر في كل خطوة.

معاشرة القدّيسين في وادي قاديشا شيء حسن، شرط أن لا يهبط الإنسان إلى واديهم من أعالي الجبل هبوطاً غير مطلوب! وممّا يستدعي الانتباه أنّ الطريق في لبنان إذ هي اجتازت قرية أمست ضيّقة وعرة تثور فيها أمام السيارة عجاجة من الدواجن

والكلاب والأطفال والأهلين، حتّى إذا انتهت الطريق إلى الخلاء صارت أكثر رحابة وأسهل وطءًا، على نقيض المرغوب فيه. بل المرغوب فيه أن تكون الطريق رحيبة هيّنة في القرية وفي الخلاء على السواء.

وممّا يزيد في الخطر عدم انتظام حركة السير في بيروت وفي الجبال جميعاً. المألوف أن تلتزم السيارة ناحية اليمين دائماً، فإذا التزمت كل سيارة الميمنة ذهاباً وإياباً انتظمت حركة السير. ولكن كم ذا رأيت في بيروت وفي الجبال سيارة تلتزم ناحية اليمين فتقبل عليها فجأة سيارة لا تراعي ناحية ولا تعلن عن مجيئها، وكيف لا يتمّ الاصطدام وتكثر الحوادث في مثل هذه الحالة لولا براعة السوّاقين؟ ولكن خير للسوّاقين أن يستعملوا براعتهم قبل التعرّض للخطر، وذلك بالتزام الميمنة دائماً. أمّا التعليمات والإرشادات التي تصدرها الحكومة في هذا المعنى فعلى الصحافة أن تتناولها بتبسّط وأن تقوم بنشرها وإذاعتها كل يوم مدّة كافية حتّى يتمّ الانتظام. ويمكن كذلك إذاعة تلك التعليمات والإرشادات في محاضرات تنظّمها جماعة السوّاقين أو تنظّمها الحكومة لضمانة الانتظام المنشود.

تاسعاً – التشجير: لبنان الجميل، الفتّان في ألوانه، الباهر في أنواره، يحتاج إلى الأشجار الجالبة الظلّ ليقول المنشد الشعبي بحقّ: «لبنان ما أحلى فيّاتك، لبنان ما أحلى غاباتك!». فهذه الجبال التي كانت في مختلف أدوار التاريخ عامرة بالغابات والأحراج أمست اليوم صلعاء جرداء في كثير من الأنحاء، مع أنّ الصخر اللبناني رفيق كريم، يستطيع أن ينبت الشجرة في ذريرات من التراب المنبثّ في شقوقه. وكيف نذكر الطرقات في لبنان ولا نذكر خلوّ أكثرها من الشجر؟

ولقد يسير المسافر ساعات طويلة دون أن تظلّله شجرة وحرارة الشمس تصليه ناراً حامية. إنّ الشجرة لغزيرة الفوائد الطبيعية والصحّية والاقتصادية والصناعية، وأثرها الفنّي في تنظيم المدن والقرى والطرقات أثر لا يضاهى، ومن شاء تصوّر ذلك الأثر فما عليه إلّا أن يتخيّل طرقات بيروت كلها تحفّ بها الأشجار من الجانبين ومثلها طرقات الجبل فعندئذ يتّضح له جمال بيروت وجمال لبنان وضوحاً جليّاً. وهل من جمال يضاهي الجمال الظليل؟ يجب أن ينشأ الطفل اللبناني على حبّ الطبيعة وحبّ الشجرة. يجب أن يكون الشعب اللبناني كله صديقاً للشجرة.

عاشراً - الفنّ: الثقافة الفنّية في لبنان ضئيلة، والآثار الفنّية في البلاد قليلة، ورجال الفنّ هنا في حالة لا يحسدون عليها. إنّ الذوق المصفّى لأقوى العوامل في تكوين الشخصية، فكيف تنمو أمّة وترقى دون تربية الذوق فيها؟ والفنّ خالق الذوق. إنّ الأدب لفي ازدهار، والعلم في تقدّم، والنفوس تحتدم فيها الرغبات والمطالب. فكيف لا ينشط الفنّ ليقدّم من كل ذلك مثالاً ناطقاً؟ وكيف تخلّد نهضات الأمم، وأطوار تاريخها بدون إشارة فنّية وآية فنّية؟

وهل لي أن أرسل كلمة عن علاقة لبنان بفرنسا؟ إنّ اللبنانيين أحبّوا فرنسا منذ زمن بعيد لا لأنّها دولة مستعمرة، بل لأنّهم تشرّبوا مثلها العليا في الحقّ والإنصاف والإنسانية، في التعاون على الكرامة وعلى تحقيق النظام وتحقيق مثل[٢] الحرّية. ولنا في قدوم المفوّض السامي الفرنسي الجديد، مسيو بيو[٣]، بشير خير للبلدين. إنّنا نقدّر الخدمات التي استطاع أسلافه أن يؤدّوها، على أنّ في وسع فخامته تلافي ولو بعض السيّئات. فالبلاد اليوم غير ما كانت عليه بالأمس. تاريخ العالم بأسره يتحوّل عن مجراه، والحالة هنا تتطلّب براعة وكياسة ووفاءً وصدق نظر من تلك الصفات الفرنسية العالية التي لا نشكّ في أنّ العميد الجديد يتحلّى بها، وهذه الصفات مقتضاة الآن في لبنان، في سوريا، في كل بلد شرقي ترتبط مصالحه بمصالح فرنسا، بل هي مطلوبة من كل دولة غربية ذات مصلحة في أقطار الشرق. إنّك، يا صاحب الفخامة، بالعمل لمصلحة هذه البلاد إنّما تعمل لمصلحة بلادك، ولا يمكن تعزيز المثل العليا الفرنسية إلّا بتعزيز المثل العليا في هذه البلاد. اذهب إلى قلب الشعب، تعرّف حاجات الشعب، أصغِ إلى مطالبه، طُفْ في المدن والقرى بروح الديموقراطية الفرنسية الصحيحة وبذلك اللطف الفرنسي الساحر، ثمّ حقّق المطالب اللائحة وحقّق الآمال المرجوّة، تكن عاملاً وفيّاً لبيباً لمصلحة البلدين معاً. وعلى هذا الأمل أحيّيك، مهنّئة بسلامة الوصول.

أحيّي الحكومة اللبنانية الموقّرة راجية منها أن تذكر فيما تذكر أنّ في بلادها معاهد وملاجئ ومستشفيات من واجبها الإشراف عليها. ليس معقولاً أن يُلقَى في مستشفى المجاذيب شهوراً وأعواماً من لا يحتاج إلى معالجة مرض عقلي غير موجود فيه، وليس معقولاً أن يُسجن شهوراً طويلة في مستشفيات الجراحة من لا يشكو مرضاً ولا هو يفتقر إلى عملية جراحية. وأؤكّد للحكومة اللبنانية المحترمة أنّ في بعض تلك

الملاجئ نساءً مظلومات لا يستحققن أن يكنّ على هامش الحياة الحرّة التي منحها اللّه للبشر، إلّا إذا كان الوسط، بعد مرور أعوام، قد فعل الآن فعله في عقولهنّ وفي أعصابهنّ. إنّي شخصياً لا أستطيع أن أشكّ في نزاهة طبيب تؤهّله مهنته الشريفة لخدمة الإنسانية. بيد أنّ الطبيب النزيه قد يضلّله طبيب آخر قد سبق وضلّله أناس غير نزيهين أو أطماع غير شريفة. فإشراف حكيم رصين من الحكومة يضع حدّاً للتضليل وللظلم. ولا ريب عندي أنّ مختلف الملاجئ والمستشفيات التي لا ترمي إلّا إلى الخير، تفتح أبوابها رحيبة لإشراف كل حكومة تعرف واجبها وتقوم بواجبها في غير ما تحيّز.

أحيّيكم، يا أبناء لبنان وبناته، تحيّة القلب الشاعر بشعوركم، المغتبط لاغتباطكم، المتألّم بآلامكم. أحيّيكم، أيّها المهاجرون الأعزّاء! أنَّى وجهّنا النظر في لبنان وجدنا اسمكم ماثلاً في المنازل المقرمدة المنثورة على الجبال وروداً حمراء ووجدنا أشخاصكم في العمران الذي شدتموه في لبنان، أنتم الأوفياء لأرضكم وللغتكم، لقد نزحتم عن الديار، ولكنّ آثار نشاطكم وفضلكم بيننا مقيمة!

وأنتم، يا أصدقائي وصديقاتي في بيروت ودمشق، في لبنان وسوريا، إنْ أنا تكلّمت اليوم فبفضلكم أتكلّم، وإنْ أنا تحرّكت اليوم فبفضلكم أتحرّك. يا أهل النجدة والكرم والأريحية، لقد أفهمتموني معاني النجدة والكرم والأريحية. لقد غالبتم القدر العتيّ فكنتم ظافرين. لقد رددتم إليّ الحياة بعد أن عانيت ما هو أفظع من الموت! كم ذا رأيت في الرجال منكم شهامة الرجل تقترن بحنان المرأة، وكم ذا رأيت في النساء منكم حنان المرأة يقترن ببسالة الرجل! ولم يكن عملكم في سبيل فرد واحد، بل كان عملكم عملاً اجتماعياً وطنياً تاريخياً، لأنّ مثل هذه النكبة قد تكون انتابت وقد تنتاب كثيرين، فأنتم أنتم حماة الإنسانية، وقد أثبتّم بأعمالكم أنّ الإنسانية شيء غير وهميّ وأنّها في الشخصية الأبيّة هي الحقيقة المحسوسة.

كيف أشكركم، يا أصدقائي وصديقاتي، أنتم الذين كنتم لي أهلاً ووطناً يوم أنا لا أهل لي ولا وطن؟ بأيّ الألفاظ أعتذر عن قصوري نحوكم، عن كل ما آلمكم وأحزنكم منّي أو بسببي؟ وجّهوا إلى نفوسكم الكلمات التي تعصاني فأنتم في رقّتكم وكرمكم تستطيعون أن تهتدوا إليها. أمّا أنا فاقبلوا دموعي، لأنّ لسان الدمع أفصح من بياني.

وأنتم، أيّها الأصدقاء الذين أيّدتموني وشجّعتموني عن بعد بالرسائل، بالبرقيات، بمقالات الصحف، بالدفاع عن حقّي وحرّيتي، لقد أنعشت روحي مكارمُكم المقبلة من لبنان، من طرابلس، من حلب، من دمشق، من فلسطين، من شرق الأردن، من العراق، من مصر، من المهاجر الأميركية. فاقبلوا شكري وتأثّري، واعذروا قصوري في الجواب على رسائلكم، لأنّ ظروفي الأليمة حالت دون قيامي بالواجب نحوكم، وأرجو أن تمكّنني الأيام من توجيه الشكر إلى كل منكم شخصياً.

أشكر الجمعيات النسائية في دمشق، فقد أثبتت أنّ في دمشق نساء. أشكر فلسطين الدامية التي عرفت في إبائها أن تنسى محنتها أحياناً لتتألّم لمحنتي. وأشكر إدارة هذه الإذاعة التي شرّفتني بالدعوة إلى مخاطبتكم فمكّنتني من الإعراب عن شعوري.

وداعاً، يا لبنان الناهض، يا حصن الأرز الخالد، ودار الجمال والصفاء، ومسرح الأنس والهناء! يا جبالي الشمّاء، يا جبالي الجرداء، يا جبالي الشجراء، اذكريني، يا جبالي!

وأنت، يا مصر التي تحنو تربتها على دفينيَّ الغاليين، سلاماً! إنّ لي في ربوعك ملكاً مساحته ثلاثة أمتار طولاً في مترين عرضاً! على تلك البقعة ترفرف أفكاري، وعواطفي تطوف هناك بضريح لم تضع عليه يد زهرة منذ ثلاثة أعوام! يا واحة الأغاريد والأزهار، أعدّي لي طاقة أضعها على ذلك الضريح، وكوني لي، يا مصر، وفيّة!

(ميّ)

(*) المكشوف، س ٥، ع ١٨٣، ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٣٩، ص ٢ .

(١) النصّ الكامل لكلمة الوداع التي ألقتها ميّ زيادة في أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٣٩، وهي على أهبة السفر إلى مصر، من محطّة راديو الشرق في بيروت. نُشر القسم الأخير منها كذلك في مجلّة المرأة المصرية، س ٢٠، ع ٣، آذار/مارس ١٩٣٩، ص ١٠٧ - ١٠٨، تحت عنوان «ميّ في طريقها إلى مصر: وداعها لبنان في أسلوبها العذب الرشيق»، وهو مضمّن في مجموعة د. جوزيف زيدان «الأعمال المجهولة لميّ زيادة»، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي ١٩٩٦، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٢) كلمة «مثل» غير واضحة في الأصل إلّا أنّ السياق يعزّز اختيارنا لها.

(٣) Juin Gabriel Puaux (١٨٨٣ - ١٩٧٠)، دبلوماسي فرنسي تولّى منصب المندوب السامي في لبنان وسوريا من كانون الثاني/يناير ١٩٣٩ حتّى كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٤٠ .

مقالة من مجموعة

أين وطني؟

أيّها السادة،

عندما عهد إليّ والدي أن أقوم أمامكم بالواجب العذب، واجب الترحيب والامتنان، كنت أقرأ لماكس نورداو[1] كتاباً ورد فيه رأي من الآراء المعروفة لهذا الكاتب، وهو قوله «إنّ الشكر الذي يزعمونه إقراراً بجميل حاضر أو سابق إنّما الغرض الصميم منه اقتناص جميل جديد». فأغرتني هذه المغالطة الشيّقة ككثير من مغالطات نورداو وطفقت أقلّبها على وجوه شتّى لأتبيّن الغاية التي أرمي إليها – على غير معرفة منّي – تلك الغاية المضمرة التي ما زلنا نطلبها بعد أن فاز منزلنا بتشريفكم له وضمّكم ساعة بين جدرانه السعيدة بحضوركم.

أمّا الغاية الصريحة التي نسدي الشكر لأجلها فهي تفضّلكم بتلبية الدعوة وحضور هذا الاجتماع الذي عقد باسم العلّامة جبر أفندي ضومط. وإنّما أردنا بهذا الاجتماع أن نزجي إلى الأستاذ تحيّة يشترك فيها أصدقاؤه الذين نعموا بعطفه فقدّروا ما فطر عليه من الصلاح والصدق والإخلاص، تحيّة يشترك فيها تلاميذه العديدون المنتشرون في القطر المصري – فضلاً عن الأقطار الأخرى – اعترافاً بما له من يد في تخريجهم على حبّ اللغة العربية وإتقانها، على حبّ العلم وخدمته، على حبّ التخلّق برضيّ الأخلاق وهو لهم في ذلك خير قدوة، تحيّة يشترك فيها كذلك أهل العلم وحملة الأقلام الذين عرفوه في كتبه اللغوية القيّمة، أو فيما سمعوا عنه من حديث فضله، فجاءوا يثبتون أنّه بينا تتناحر الأسر باحتكاك الحاجات، وتتنابز الأنساب بتنافر المطالب، يظلّون هم أهل العلم والقلم عائلة واحدة سامية دواماً على استعداد لتوحيد الكلمة في كل ما هو تحبيذ للفضل، تقدير للكفاءة، شحذ للعزائم، وفي كل ما من شأنه أن يبعث في النفوس نوراً وحياة ونبلاً.

بيد أنّ لديَّ أمراً آخر أودّ أن أفضي به وقد اكتشفته عند الأستاذ ضومط خلال الصيف الماضي: كان ذلك على قمّة من قمم لبنان الشمّاء المشرفة على استدارة

الشواهق المتناسقة، على الآكام والهضاب المترامية نحو الساحل، على البحر البعيد الفسيح وقد امتزج أفقه الأقصى بسحب الغروب الملتهبة. كنّا هناك تحت خيمة النزل في حلقة من الزائرين، وأمام مشهد المساء البنفسجي، أمام مشهد الشفق الرائع.

تعلمون – أيّها السادة – ما يخالج النفس من توق عميق وصبابة إلى أزمنة غير معروفة، إلى أمكنة غير محدودة، إلى مدركات غير مدركة، يحاول المرء أن يفسّرها بحاجاته البشرية الوجيعة، ويحاول الإحاطة بها بممكناته الإنسانية الميسورة، وإنما هو يحاول ذلك ليتسنّى له أن يرجو، يحاول ذلك ليتسنّى له أن يستخدم – في سبيل أمر ما – ما أوتي من ذكاء ونشاط وقوّة.

عندئذ وتحت هذا التأثير دوت نفسي بأسئلة تضطرب لها اليوم الشبيبة الشرقية اليقظى، وقد ينطوي كثير منها تحت هذا السؤال الواحد:

– أين وطني؟

أين وطني، يا من تقدّمتموني في حياة الأمّة فأناخ عليكم الدهر بكلكله، فما تركتم لي غير ميراث موزّع الأجزاء مقطّع الأوصال؟

أين وطني، أيّها المتقاذفون بالحجج والأدلّة، المتمادون في التأويل والتحريف، حتّى نسيتم في غضبكم الغرض الذي لأجله تغضبون؟

أين وطني، أيّها الجيل السائر أمامي، الطالب منّي الخضوع والامتثال ولكنّك لا تستطيع أن تنتحي لي في الحياة سبيلاً، وها أنا بين تردّدك وتردّدي في عناء وشقاء؟

أين وطني، أيّتها الأرض التي أنت هي وطني، أين وطني؟

وهنا لفتني عن سؤالي المتكرّر مناقشة دارت حولي بين اثنين من الزائرين: مناقشة هادئة حصيفة، ولكنّها جادّة جليلة الشأن موضوعها: يقظة الشرق، وكيفية تنظيم الرابطة المعنوية بين أهل الشرق. فأحد الرجلين يقول بالعنصرية والآخر يدعو إلى القومية – العربية.

المناظر الواحد يقول: إنّما أريد للشرق مناعة وكرامة وإن لم يكن لذلك من سبيل سوى العنصرية – أي تغلّب عنصر على عنصر أو على عناصر – فحيٌّ على العنصرية.

وإنّي لملمّ بمواهب أبناء الشرق وبعظمة كرمهم الموروث لأكون واثقاً بإنصافهم في إعطاء كل ذي حقّ حقّه.

فيعترض المناظر الآخر قائلاً: كلّا! لقد أصبح الشرق أشرف من أن يتسوّل أهله الإنصاف والحرّية، وإذا شئنا أن نكون من أبناء الحياة فعلينا بالقومية بما تنطوي عليه من عوامل اللغة والاقتصاد والعلم والعطف والتفاهم.. إلخ، فنتبادل ضمنها الحقوق والواجبات، الحرّية والمساواة لا تبرّعاً ولا تسوّلاً، بل بالحقّ الطبيعي المعطى لكل ذي مقدرة. فبالقومية وحدها نقيم صرح الشرق الجديد.

قد يُظنّ لأوّل وهلة أنّ الداعي إلى القومية - أو المتطوّر كما نقول بلغة هذا العصر - هو من الأقلّية في بلادنا، بينا المدافع عن العنصرية - أو المحافظ كما نقول بلغة هذا العصر أيضاً - هو من الأكثرية. ولكنّ الواقع هو أنّ ذلك «المتطوّر» هو رجل من أكبر البيوتات الإسلامية في سورية، تلك البيوتات التي كانت الزعامة دواماً في يدها، أمّا المدافع عن العنصرية أو «المحافظ» فكان هذا الأستاذ ضومط المسيحي الذي ترون.

لذلك أضيف إلى تلك التحيّة المشتركة تحيّة أخرى: إنّي أحيّي فيه الرجل الشرقي الصميم الذي يحبّ بلاده لا لأجل ما يجني منها ويبتغي، بل يحبّها لأنّها هي هي، شأن المحبّ العنيد الذي يستوي عنده الغنم والتضحية، والعذاب والنعيم.

قد تقولون - أيّها السادة - إنّ ماكس نورداو صدق هذه المرّة لو أنا سألتكم أن تزدادوا اهتماماً بموضوع القومية الشرقية. وإنّي لأرضى أن يقال إنّ وراء شكر أسديه إنّما أدعو إلى الجمع بين الرأيين اللذين لا غنى لنا عنهما، رأي المحافظة على كل ما عندنا من موروث نبيل ورأي احتضان كل مكتسب نافع. وتلك سنّة الخليقة في جميع الموجودات إذ لا تتمّ للكون غاية من جميع أجزائه إلّا بتتابع النبذ والمحافظة، والتخلّي والاكتساب. إنّي لأغتبط إن ترك فيكم هذا الاجتماع ولو بعض الرغبة في أن يتناول كل منكم هذا الموضوع بعطفه، ويمحّصه بمقدرته، وينشره بنفوذه فيكون عاملاً في سبيل غاية عظيمة. وإنّما السعي لغاية عظيمة غايةٌ في ذاته ورفعة ونوال.

أما أنت - أيّها الأستاذ المسافر - فغداً عندما تجتاز الصحراء تمرّ بالعريش - الذي يرونه الحدّ الفاصل بين مصر وسورية - فتراه أنت الشرقي الصميم يداً خضراء،

يد السلام والرجاء، الجامعة بين القطرين رغم أهوال المفاوز وقحط الصحراء. وحسبك يا سيّدي فخراً وفضلاً أن تواصل ما قمتَ به إلى الآن وهو نشر اللغة الجميلة، لغة القرآن، وتأييد العلم والعرفان، والدعوة إلى الثقة والتسامح ومحبّة الأوطان.

(ميّ)

(*) خطاب ترحيبي ألقته ميّ زيادة في حفلة أُقيمت في منزل والديها تكريماً للأديب السوري جبر ضومط مدرّس اللغة العربية في جامعة بيروت الأمريكية أثناء زيارته للقاهرة في نيسان/أبريل ١٩٢٣، وقد نُشر في «الحديقة: مجموعة أدب بارع، وحكمة بليغة، وتهذيب قومي»، جمعها ووقف على طبعها محبّ الدين الخطيب، الجزء الأوّل من الطبعة الثانية، القاهرة: المطبعة السلفية ١٩٣١، ص ١٧٨ - ١٨٤ . كما ظهر الخطاب في مجلّة «الكلّية» الصادرة عن الجامعة الأمريكية ببيروت مع تعليق عليه وعلى الحفلة، ج ٩، ع نيسان/أبريل ١٩٢٣، ص ٢٧٨ - ٢٨١ . ولا ينبغي الخلط بين هذا الخطاب وبين قصيدة ميّ زيادة المنثور والمنشورة أيضاً تحت عنوان «أين وطني؟» في مجموعتها «ظلمات وأشعّة». راجع «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٣٦٤ - ٣٦٨ .

(١) Max Nordau (١٨٤٩ - ١٩٢٣)، كاتب وطبيب مجري. مارس الطبّ في النمسا، ثمّ انتقل عام ١٨٨٠ إلى باريس، وشارك الكاتب والسياسي المجري اليهودي تيودور هرتسل (Theodor Herzl) في تأسيس الحركة الصهيونية. ألّف دراسات في انتقاد المدنية والعصر على قواعد عقلية مادّية، كما كتب في أدب الرحلة ووضع مسرحيات وروايات لم تسترعِ الانتباه.

مقدمة الكتاب

مقدّمة

أكتابٌ بقلم الدكتور صرّوف؟

إنَّ ذلك القلم الذي قصفته يد الردى لَخالدٌ في نتاجهِ الموفور، والدروس المجموعة بين دفّتَي هذا الكتاب لجديرة بأن تُحسب اليوم جديدة.

يحدّثنا هذا الكتاب حديثاً علميًّا وضعيًّا استقرائيًّا على نسق مشوِّقٍ كنسق الروايات، مفيدٍ لأنّهُ عديد المعلومات، خلقيٍّ لأنّهُ يشحذُ الهمم، نبيلٍ لأنّهُ يرفع المدارك ويمضي بها إلى أبعادٍ يلمس الإنسان عندها الصلة التي تربطهُ بجميع الخلائق فيدرك أنَّ الحياة النابضة فيه هي هي نفسها التي تنبضُ في قطرة الماء، في الغرسة الضئيلة، في الزهرة المنسيّة، في نسمة الهواء، في نطفة النار[1]، في الحيوان الأعجم، في الجبل الصامت، في مدّ البحار وجزرها، في ذرّة الأثير، في العوالم والمنظومات الشمسية والسدم المنثورة، في ما يُرى من الأفلاك وفي ما لا يرى.

حديث جذّاب يستوقف الانتباه ويستولي على الفكر ككل موضوعٍ ذي علاقةٍ مباشرة بالإنسان لأنّهُ حديث عن الطبيعة: تلك القوّة الباهظة الرهيبة التي تهدم أبداً وتبني وتهدم بحركة واحدة متشكّلة بألف ألف شكل، متكوّنة بألف ألف صورة، مبتدعة من نفسها ولنفسها ما لا يُحصى ولا يحصر من الأصوات والألوان والحركات والنظم والكيفيات والنزعات والأشواق، تلك القوّة المستأثرة الجبّارة التي نصفها تارةً بالرفق والجود والخير، وطوراً بالجور والبخل والشرّ لأنّنا نحسبنا النقطة المركزية منها ونزعم أنّها لم تخلق إلّا لمصلحتنا وخدمتنا. ولكنّنا نحن الذين نتمّم مشيئتها وننفّذ أغراضها وشأننا في ذلك شأن سائر المخلوقات...

حديث عنّا نحن بني الإنسان لأنّهُ يحدّثنا عن الحيوانات والنباتات إخوتنا في الطبيعة وفي الحياة وشركائنا في محاولة رفع وطأة الأقدار للتغلّب على قيود الجبرية والانطلاق إلى فضاء الحرّية. ولقد ألفنا في الحيوان الحركة والانتقال والسعي من غير

انتباه إلى ما ينفقهُ من ذكاءٍ وشجاعة وإقدام لمكافحة ما يعترضهُ في سبيله من مقاومة وحاجز. على أنّنا مهما اتّسع خيالنا ومهما دقَّ نظرنا في التعرُّف إلى أحكام القدرية والجبرية فإنّنا لا نجد بين النواميس الكبرى التي ترهقنا ناموساً أفظع من ذاك الذي يقضي على الغرسة بالعبودية ويحكم عليها بالجمود في مكانها من ساعة الولادة إلى ساعة الاندثار.

إنَّ عالم النبات الذي قد يبدو للكثيرين مثال الوداعة والرضا والقناعة والامتثال لهو، على النقيض، عالمٌ تصطخب فيه عوامل العصيان والثورة على القَدَر في أقسى مظاهره المتمثّلة في العضو الجوهري الذي يمدّ الغرسة بالغذاء في حين هو يقيّدها بالأرض من غير ما أمل بالانعتاق... وتتمرَّد الغرسة الصغيرة على هذا القدر في بادئ الأمر. وحرارة أشواقها وقوّة نزعاتها المتصاعدة من ظلمات جذورها لتنتظم أوراقاً، وتتفتَّح أزهاراً، وتنضج أثماراً - لهي مشهد فريد لا يُضاهَى. فهي بكلّيتها تصبو إلى التفلُّت في أعاليها من القدر العصيّ المستحكم في أصولها، وإلى تحطيم قيد ذلك النظام الجائر للانطلاق بعدئذٍ من المجال الذي يأسرها مستعيرة من الهواء جناحاً ينقلها إلى أبعد مدى ممكن، حيث تنعم في فضاءٍ جديد وتشترك في حياةٍ ووجودٍ آخر... وليس في هذا شيء من الوصف الشعريّ الخياليّ بل في الفصول التالية ما يثبتهُ بالدليل العلميّ المحقّق.

قد يُقضى عليها في طريقها، وقد تفوز بغايتها وهي كثيراً ما تفوز. وعلى كلّ فإنّ تلك النبتة الصغيرة تقدّم أبدع مثالٍ من عدم الرضى بالواقع وعدم الركون إلى أحكام القدر، ومن الذكاءِ والنشاط وبراعة الابتكار وركوب الأخطار والمفاداة رغبةً في تحسين نوعها وإنالة ذراريها حظًّا خيراً من حظّها.

أنّى أدرنا البصر في جوانب الخليقة وجدنا أنّ النظام الأعظم المسيطر على حياة الجماد والنبات والحيوان لهو نظام العمل والنشاط، ووجدنا أنَّ فكرة العالم في الوقاية والجمال والتمتُّع والحبور والانتقال من مرتبة إلى مرتبة وقهر المسافة والتغلُّب على القدر شديدة الشبه بفكرة الإنسان في كلّ أولئك. بل ليس هناك ما يثبت أنّ الإنسان ابتكر شيئاً من تلقاءِ نفسه ومن وحي خياله الخاصّ. وإنّما جميع ما لديه من الأنماط الهندسية

والبنائية والفنّية والموسيقية، وكل ما يسمّيه اختراعات ميكانيكية وكهربائية وغيرها بما فيها فنّ الطيران - كلها مستعارة من الطبيعة وقد سبقهُ إلى اصطناعها والانتفاع بها الحيوان والنبات. وبعض الصفات التي نكبرها ونمجّدها في الأبطال من بني الإنسان نراها أحياناً في أروع مظاهرها في الحيوان المجهول وفي النبتة التي لا تختلف عن صاحبتها في شيءٍ...

جميع فصول هذا الكتاب تحدّثنا عن قدرة الطبيعة وسليقة الحياة ونباهة الحيوان والنبات وذكائهما. ولكن بينا هي تبسط تلك الحقائق العلمية الشائقة إذا بها تلفتنا إلى الفرق الجوهري بين النوع الإنساني والأنواع الأخرى. فتقول إنّ الحيوان، مثلاً، «يتآلف ويتعاون ويحارب بعضهُ بعضاً ويبني المنازل ويشيد الجدران ويحفر الأسراب ويصنع لها أبواباً ومزاليج ويحبّ ويبغض وينتقم ويعاقب ويثيب ويرضى ويدّخر للغد ويقيم القوّاد والقضاة إلى غير ذلك من الأخلاق العقلية والأدبية والاجتماعية على ما تراهُ مبسوطاً في هذا الكتاب. فإذا أنكرنا النطق على الحيوان لا نكون أنكرنا عليهِ صفةً أسمى من هذه الصفات، وإذا أثبتناهُ لا نكون قرّبناهُ من نوع الإنسان. بل يبقى الفصل بين الإنسان والعجماوات بالنفس الخالدة صفة مميّزة لنوع الإنسان» (ص ١٢٠ - ١٢١).

... «النفس الخالدة»... إنّ الدكتور صرّوف، الفيلسوف الوضعي والعالم الطبيعي، كان يعتقد بوجودها، وفي هذا أمثولة للذين يرون الإيمان ملازماً للجهّال دون العلماء. وكان يؤمن بالمبادئ الأخلاقية مبادئ الحقّ والعدل والصدق والاستقامة والرحمة والحبّ التي، برغم ما يطفو على العالم من ظلمات الشرّ، ما فتئت تهزّ النفوس بأسمى العواطف وما زالت الجماهير تؤيّدها وتنشدها ولو سارت تلك الجماهير بأعمالها الفردية على ما يناقضها. كان يؤمن بالجمال الأخلاقي وبروح الحرّية التي لا تترتّب على نظام بل هي ميزة نفسية داخلية تدفع بالإنسان إلى الأعمال العظيمة والتضحيات الجسيمة في سبيل تحقيق مثل أعلى يختلف عن غايات الطبيعة في جمادها ونباتها وحيوانها. لأنّ الطبيعة التي أوجدت في كل نوع من الأنواع الغرائز المتوافقة وطبيعته، الضرورية للقيام بنصيبه من مشيئة الحياة فيه، قد أوجدت كذلك في

النوع الإنساني مبدأً خلقيًّا سامياً ومثلاً أعلى لا يفتأ ينشده سعيداً كان أو شقيًّا. النوع الإنساني وحده خُصَّ بالمثل الأعلى، وفي تطلّبهِ يتلمّس الغايات السرّية الغامضة الكامنة في قلب الوجود وينزع إلى الاتّصال بالألوهية الشاملة المهيمنة على هذا الكون العظيم.

وفي هذه الفصول مثال جميل من أسلوب الدكتور صرُّوف في التفكير والكتابة، ذلك الأسلوب المعروف بالسهل الممتنع الذي لا تستطيع أن تزيد عليهِ كلمة أو تحذف منهُ كلمة، لأنّ كل لفظة راسخة الوضع، محكمة الدلالة، وكل جملةٍ أنيقة في بساطة، بليغة في جلاء، طليّة في وضوح، مشبعة في إيجاز. ففي كل هذا طراز لطالبي التجديد في الإنشاء. ولو نحن ذكرنا أنّ بعض هذه الفصول كُتبَ قبل نصف قرن يوم كان البيان العربي زركشة في اللفظ وسجعاً وتوريةً وبديعاً وإغراقاً – لتجلّى لنا جانب من مواهب ذلك الفقيد العظيم فأبصرنا خياله الرصين المهيب يتهادى بين هذه الصفحات.

إنّ خياله ليتهادى بين هذه الصفحات. وإذا كانت الروح الخالدة، التي كان يعتقد بوجودها، تشترك في شؤون عالمنا هذا ولو بعض الاشتراك، فإنّ روح الدكتور صرُّوف لتنظر إلى هذه المجموعة فتبتسم ابتسامة الرضى وتشترك مع القرّاء في الثناء على جامع هذه الفصول ومنسّقها وناشرها، خليفة الدكتور في مكانتهِ العلمية وولده بالفكر والروح الذي احتفظ بحياة «المقتطف» ونهض بهِ هذا النهوض الذي نشهد. إنّ صرُّوف الفتى ورث عن عمّهِ العظيم شتّى المواهب العلمية والخلقية والفكرية كما ورث عنهُ مميّزاتهِ الكتابية وخصائص إنشائهِ وبيانهِ. ويسرُّني أن أُذيع سرًّا (إن صحّت تسمية هذا بالسرّ) وهو أنّ فئة من هذه الفصول كُتبت بقلم الأستاذ فؤاد صرُّوف. فأدعو القارئ إلى الانتباه إلى تلك الفصول والمقابلة بينها وبين الفصول الأُخرى إذن ير[٢] أنّ التمييز بينها متعذّر[٣].

ولقد أحسن الأستاذ فؤاد صرُّوف بنشر هذا الكتاب في حين اللجنة المحترمة تحاول القيام بواجبها في نصب تمثال صرُّوف الكبير في الجامعة الأمريكية ببيروت حيث تلقّى دروسه. ونحن حيال فكرة هذا التمثال المتحقّقة في الغد وحيال الخيال الخالد المتهادي بين هذه الصفحات نصمت طويلاً وننحني في خشوع وإعجاب وشكران.

(ميّ)

(*) مقدّمة ميّ زيادة لكتاب الدكتور يعقوب صرّوف «فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي النبات والحيوان»، هديّة المقتطف السنوية، القاهرة: مطبعة المقتطف والمقطّم ١٩٣١، ص أ - د .

(١) كذا في الأصل، واستعمال كلمة «نطفة» في هذا السياق غير واضح.

(٢) كذا في الأصل، وصوابه «إذن يرى».

(٣) [هامش الكاتبة] الفصول المكتوبة بقلم الأستاذ فؤاد صرّوف هي: (١) المعادن في غذاء النباتات، ص ٤٢؛ (٢) هل للنبات إحساس نابض؟، ص ٥٢؛ (٣) الأحياء المنيرة، ص ١٩٢؛ (٤) الرعّاد أو السمك الكهربائي (الجانب الأخير من المقالة)، ص ١٩٨؛ (٥) طير القيثارة، ص ٢٤٣ .

قصص للأطفال

(٤)

حَادثَة في الطريق

مَن خالف تعليمات المرور عرّض نفسه للخطر

-١-

قال سامحٌ لأمّه وهو يتأهّبُ للانْصراف:

- إنّي ذاهبٌ الآنَ يا أمّاهُ لأقضيَ اليومَ عند صديقي عادلٍ في الضواحي.. وما زال لديَّ مُتّسعٌ من الوقت لأَلحقَ «بالأتوبيس» فإلى اللقاء.

فقالت الأمُّ:

- إلى اللقاءِ يا بنيَّ.. ولا تَنْسَ أنّ آخرَ أتوبيس يقومُ من هناكَ الساعةَ السادسةَ والنصفَ مَساءً.. فحاذِرْ أن يفوتَك.

قال سامح:

- كلّا.. لا تخافي يا أمّاه. فلن يفوتَني أتوبيسُ السادسة والنصف.. إلى اللقاء يا والدي..

وهنا.. وضع والدُ سامحٍ الجريدةَ التي كان يقرؤُها جانباً وتطلّع إلى ولده وقال:

- مع من تقول يا سامح إنّك ستمضي هذا اليوم؟ مع عادل؟ حسناً.. ولكن حَذارِ أن تنسى ما قلتُه لك آخر مرّة.. لا تركبْ درّاجةَ عادلٍ في الطرقات، لا بأسَ أن تركبَها حولَ الحدائق. أمّا في الطريقِ العامّ فلا، إلى أَنْ أُعَلِّمَكَ ما يجبُ أن تتعلّمه عن إشاراتِ المرورِ وتعليماتِ السيرِ في الطريق.. مفهومٌ يا سامح؟

أجاب سامحٌ مُبتسِماً:

- مفهوم يا أبتاه..

قال سامحٌ ذلك وانطلق ليلحقَ بالأتوبيس..

-٢-

وفي الطريق إلى محطّة الأتوبيس كان سامحٌ يفكّر في درّاجة عادل.. تلك الدرّاجةِ القديمةِ العتيقة. كما ذهب فكرُه إلى درّاجتِه الجديدةِ التي ينوي شراءَها قريباً.. راح يُحدِّث نفسَه:

- لقد صار المبلغ الذي اقتصدته سبعةَ جنيهاتٍ وسبعينَ قرشاً..

إنّ حصّالتي قد أوشكت أَنْ تمتلئ. وخلالَ الشهر القادم سيتوافر لي المبلغُ المطلوب وأذهبُ مع والدي لأبتاع تلك الدرّاجة الفاخرة التي رأيتُها في أحد محالّ الدرّاجات.. إنّها فاتنةُ المنظر.. وذاتُ لون فضّي وإطاراتٍ زرقاء.

وأنا متأكّد أنّه سيغارُ متى شاهد درّاجتي الفاخرة..

* * *

الحقيقة أنَّ سامح ظلّ يقتصدُ طوال العام حتّى توافر لديه هذا المبلغ.. لم يُفرِّطْ في قرش واحد من مصروفه، بل ولا في ملّيم واحد من المبالغ التي أُعطيتْ له بمناسبة عيد ميلاده..

حقيقة أنّه ضيَّق على نفسه بما فيه الكفاية.. ولكنّه يشعر الآنَ بفخر أَن استطاع أن يصلَ بادِّخاره إلى هذا الرقم..

أمضَى سامحٌ وصديقُه عادلٌ يوماً مُمْتِعاً.. فقد ركب الصديقان الدرّاجةَ خلالَ الأزقّةِ والحارات وممرّاتِ الحدائق.. كما تحدّثا طويلاً عن الدرّاجة الجديدة التي سيبتاعها سامحٌ عمّا قريب.. تحدّثا عن إطاراتها الزرقاء الجميلة وأجزائها الأُخرى المصنوعة من النِيكْل البرّاق..

ولم يستطع عادلٌ أن يكتم غيرته، فقال:

- يُخيَّلُ إليَّ يا سامح أنّه لن يأتيَ عليَّ يومٌ أقتني فيه درّاجةً جديدةً مثلك. فإنّ والدي يقولُ لي إنّه يجب أنْ أُدَبِّرَ أمري بحيث أظلُّ أستعمل درّاجتي القديمةَ هذه لثلاثِ سنواتٍ أخرى قادمة وحينئذ يستبدل بها أخرى مستعملةً أيضاً، لكنّها تكون أحسن حالاً من هذه.. وأنت تعلمُ يا سامح أنّي أنا ووالدي نستعمل الدرّاجةَ بالتناوب.. أنا في ذهابي وإيابي من المدرسة يومياً.. وهو في زياراته إلى جَدَّتي كل خميس.. والدرّاجة كما ترى أصبحت مستهلكة قديمة ولكنّا لا يمكننا الاستغناءُ عنها.

-٣-

وانقضَى اليومُ بسرعة.. حان وقتُ الغداء.. ثمّ ما لبثت الساعةُ أن دقَّتْ الخامسة.. وأخيراً أقبلت أمّ عادل تنادي «سامح» وتذكّره ألّا يدعَ أتوبيس السادسةِ والنصفِ يفوتُه.

فقال عادلٌ مُتبرّماً:

- يا سلام - يا أمّاه - دائماً تقطعين علينا تسليتنا. لا بأسَ يا سامح فما زال أمامَك متّسعٌ من الوقت حتّى يجيء الأتوبيس.. فاقعد ولا تتحرّك.. حتّى ننتهيَ من هذه اللعبة أوّلاً..

وفعلاً انتهيا من اللعبة.. ولكن.. بعد أن فات سامح الأتوبيس!!

هرول سامح بأقصى سرعة ليلحقه وعادلٌ وراءه، ولكن بلا جدوى.. تراءى الأتوبيس أمام نظرَيْهما على مبعدة وهو ينعطف عند أوّل منحنىً، ثمّ يغيبُ عن الأنظار..

قال سامح لصديقه عادل وهو في أشدّ حالات الضيق والانزعاج:

- ما العمل الآنَ يا عادل؟ سيكون موقفي سيّئاً للغاية.. فإنّ والدي يكره جدّاً أن أرجعَ متأخّراً، وهأنذا، لم ألحق بالأتوبيس.

قال عادل:

- هوِّن عليك يا صاحبي.. خُذْ درّاجتي.. وتستطيع أن تردَّها غداً..

فردّ سامح بأسىً:

- كلّا.. يا عادل.. فوالدي نبّه عليَّ مراراً ألّا أركبَ درّاجة في الطريق العامّ، حيث أنّه لم يُزَوِّدني بعد بتعليماتِ السير في الطريق أو إرشادات المرور..

فقال عادل باستهتار:

- هُراء.. فإنّك تحذِق هذه التعليمات جيّداً.. خذها يا صديقي وتستطيع أن تخفيَها وراءَ سورِ منزلكم ليلاً فلا يراها أحد..

-٤-

وهكذا.. أخذ سامح درّاجةَ صديقه على الرغم من أنّه كان يعرفُ جيّداً أنّه يرتكبُ بذلك غلطة لا تُغتفَر..

اعتدل سامح فوق الدرّاجة وسار بها وهو يُلَوِّحُ لصديقه مودِّعاً..

* * *

ولم يَلبثْ غيرَ قليل حتّى أدركه التعب.. ثمّ فُوجئ أمامه بمرتقىً كان عليه أنْ يجتازَه.. ولكنّ التعبَ كان قد نال منه، وفقدت رجلاه القدرةَ على الحركة وإدارةِ الدرّاجة..

وعندما مرّت به إحدى «عربات النقل» متباطئةً في سيرها، لم يدَعْ سامح تلك الفرصة تُفْلِتُ منه.. بل عمد إلى مؤخَّرة العربة وأمسك بيده اليمنى بسلسلة كانت مثبّتةً في المؤخَّرة..

قال سامحٌ في نفسه:

- أيّها اللوري العظيم، خذني معك.. فإنّ رجليَّ قد أعياهما الجهد.

وفعلاً.. جذبه اللوري برفق صاعِداً المرتقَى حتّى وصل إلى قمّته، ثمّ شرع يهبِط به، نازلاً في المنحدر..

ولم يدَعْ سامحٌ السلسلة.. بل ترك للوري أن يجذبَه أيضاً في أثناء الهبوط..

* * *

وكان هناك لوريٌّ آخرُ وراء سامح..

صرخ فيه سائقُ اللوري الخلفي:

- اترك هذه السلسلة.. هذا مخالفٌ لتعليمات المرور.. اتركها يا غلام..

ولكنّ سامح لم يتركها.

وحينئذ تتابعت الأحداثُ بسرعة فُجائية.

وقف اللوري الأمامي بَغْتةً حين اعترضه كلبٌ يعبر الطريق.. فاصطدم سامح في مؤخَّرة اللوري صدمةً شديدة..

واللوري الخلفي - بدوره - لم يستطعْ أن يقف في الوقت المناسب.. إذ كان الجميع وقتئذ يهبِطون المنحدر.. فاندفع مباشرة نحو مؤخَّرة اللوري المتقدّم..

وفي تلك اللحظة صرخ سامحٌ صرخةً عالية.. كما صاح سائقُ اللوري الخلفي صيحةَ ذُعْر..

ثمّ سُمِعت أصواتُ تهشُّم الدرّاجة عندما مرَّتْ عليها عجلاتُ اللوري الخلفي..

حدث كل هذا في ثانية واحدة أو اثنتين!!

شعر سامح في أثنائهما بآلام شديدة في ذراعه اليمنَى، ثمّ وجد نفسه مُلْقىً على الطريق تحت اللوري.

-٥-

بعد خمسِ دقائق من هذا الحادث.. كان جرسُ «التليفون» يدقُّ دقّاتٍ متواصلةً في منزل والد سامح.. ومن خلال المسماع سُمع صوتُ أحدِ رجال البوليس يقول:

- مَن المتكلّم؟.. هل هذا منزل السيّد خلّاف والد سامح؟.. حسناً.. مَن؟ والدته؟ آسف جدّاً يا سيّدتي لأَنْ أُبلغَكِ أنّ سامح حدثت له حادثةٌ في الطريق، وحُمل إلى المستشفى بذراع مكسورة وكثيرٍ من الرضوض والإصابات.. ودرّاجتُه للأسف.. قد تهشّمت عن آخرها واستحالت إلى قطع صغيرة. ويُؤْسفُني يا سيّدتي أن أُخبرَكِ أنّه كان مُمْسِكاً في أثناء سيره بسلسلة أحد اللوريات.. وعندما وقف هذا فجأةً اندفع نحو سامح لوري آخر كان يسير خلفه.

* * *

وما أسوأ الأثرَ الذي سبّبته هذه الأخبارُ المزعجةُ على أمّ سامح!

كانت طوالَ الحديث التليفوني ذاهلةً لا تكاد تَعِي ما تسمع.. وحالما ردّت السمّاعة إلى مكانها انفجرت بالبكاء.

أمّا والد سامح.. فعندما التقطت أذناه بعض هذا الخبر.. صرخ كالرعد متسائلاً:

- أيُّ درّاجة تلك التي كان يركبها سامح؟.. أريد أن أعرف. كم مرّةً أحذّرُه ألّا يمتطيَ درّاجاتٍ في الطريق العامّ..

الحقيقة.. أنّ هذه هي النتائج الحتميةُ لمن لا يستمعُ لنصائحِ والدَيْه.. فهذه الحوادث تحدثُ دائماً للأولادِ العصاة..

-٦-

كان سامح أكثر الجميع حزناً لما حدث.. فحين زارته أمّه في المستشفى.. راح يتحدّث إليها بأسىً ويقول:

- أمّاه.. إنّني لفي أشدّ حالات الأسف والندم. وليس حزني على إصابتي بأشدّ من حزني على تحطيم درّاجة عادل.. إنّها قد تحطّمت تماماً.. وأسرَتُه كلُّها لا تستغني عنها كما تعلمين.

قالت الأمّ:

- نعم.. أنا أعرف ذلك.. فانظر إذَنْ ماذا ستفعل؟

ردّ سامحٌ بقوله:

- ليس أمامي إلّا أن أعطيَ عادل كلَّ ما اقتصدتُه ليشتري به درّاجة جديدة.. فهذا هو عينُ العدل والصواب.. فإنّ أسرتَه يجب أن يظلَّ لديها درّاجة. وسيكون لديهم الدرّاجة الجديدةُ الفضّية البرّاقة التي كنت أحلم بها وأدّخر النقود من أجلها.

-٧-

وهكذا كان.. أخذت أسرةُ عادل الدرّاجةَ الجديدة..

أمّا سامح.. فإنّه صار عليه أن يبدأ من جديد وأن يعاودَ الاقتصادَ مرّةً أخرى..

ويا له من مسكين سيّىء الحظّ عندما خالف نصيحة والده وفاته أتوبيس السادسةِ والنصف.!

(*) نشرت ميّ زيادة اثنتي عشرة قصّة للأطفال في سلسلة بعنوان «قصص هادفة للناشئين» صدرت عن المؤسّسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالفجّالة - القاهرة. اشتملت السلسلة على العناوين التالية: (١) حدث ذات ليلة، (٢) لسعة الدبّور، (٣) رحلة في الظلام، (٤) حادثة في الطريق، (٥) الرسّام الموهوب، (٦) بالونات بالجملة، (٧) في قرية الأقزام، (٨) أعظم سيرك في العالم، (٩) عدوّ الطيور، (١٠) كان ترتيبه الأخير، (١١) مغامرة صغيرة، (١٢) الضيف الثقيل، كما هو معلن عنها على الأغلفة الخلفية للكتيّبات. وحتّى الآن لم يمكن العثور إلّا على اثنتين من هذه القصص هما الرقم (٤) المنشورة على الصفحات السابقة والرقم (١٠) على الصفحات التالية، ولم يتسنَّ التحقّق من تاريخ نشرهما أول مرّة.

(١٠)

كان ترتيبه الأخير

استغلال المواهب في الأعمال يكشف النبوغ ويحقّق الآمال

-١-

في كلِّ فصلٍ.. تلميذٌ يجيءُ ترتيبُهُ الأخير. ولكنْ ليس لِزاماً أَنْ يكونَ هذا التلميذ تلميذاً بِعَيْنِه في كلِّ امتحانٍ وفي كلِّ اختبار..

ولكنَّ العجيبَ.. أَنَّ مصطفى كان دائماً ترتيبُه الأخير..

والحقُّ.. أنّه كان يَذُوب أسفاً وحُزْناً عندَ ظهورِ النتيجة.. ولكن ماذا كان في وُسْعه أن يفعل؟ فهو لم يكُنْ يَدَّخِرُ جُهْداً حتّى يُغَيِّرَ مِنْ وَضْعِه هذا.. ولكنّه يُفَاجَأُ دائماً بهذا الترتيبِ المخجل.. الأخير.. الأخير..

ولكنّنا لو فَحصْنا حالتَه بدِقَّة، لوجَدْنا أنّه تخلّفَ عن الدراسة عامَيْنِ بسببِ مرضِهِ لَزِمَ فيهما الفِراش.. وهكذا فاته مِنْ سِنِي حياتِهِ الدراسية عامانِ دراسيانِ كاملان..

وعندما شُفِيَ اضْطُرَّ أَنْ يختزِلَ هذه المدّةَ التي قضاها مريضاً.. فكانت النتيجةُ أنّه لم يَسْتَوْعِب المعلوماتِ واللغاتِ استيعاباً كافيا.. وعلى هذا ظَلَّ مصطفى متخلِّفاً عن زملائه كافَّة..

* * *

وبجانبِ ذلك أيضاً، كان مُتخلّفاً في الأشغالِ اليدوية.. لأنّه.. كان أَعْسَرَ.. أي تعوَّدَ استعمالَ يدِه اليُسْرَى بصفةٍ أساسيةٍ بدَلاً من اليُمْنَى..

وكان هذا وحدَه يُسَبِّبُ له الحَيْرَةَ والارتباكَ في كل مرّة يُمْسِكُ فيها قَشَّ الخيزُرَان الذي يُعْطَى له لعملِ السّلال والأقفاص..

وأيضاً.. كان متخلّفاً في الألعابِ الرياضية.. لأنّه كان ضعيفَ البِنْيَةِ هزيلَ الجسمِ.. ولا يقوى على الركْضِ أو العَدْوِ السَّريع..

* * *

أَمَّا أُمُّه.. فكانت دائمةَ الحزنِ والهَمِّ له.. فما من مرّةٍ سمعَتْه يتذمَّرُ أو يَشْكُو.. ولذا كانت تعتقدُ أنّه يشعر بتَعاسةٍ لا حدَّ لها حتّى أنّه يكتُمُ شعورَه ولا يَبُوحُ لأحدٍ بمكنونِ نفسِه..

-٢-

على أنّ مصطفى كان يُغْرَمُ جدّاً بشيءٍ ما.. شيءٍ ملك عليه لُبَّهُ وسيْطَرَ على تفكيرِه وحواسِّه.. كان مصطفى يَعْشَقُ الفِلاحة..

حقيقةً، قد لا يقوى على العَدْو، ولكنّك تراه مُكِبًّا على فِلاحةِ الأرض لا يكلّ.. والأزهارُ بالطبع، لا تهتمُّ كثيراً إذا كان مصطفى أعسرَ أم غيرَ أعسر، طالما أنّه يعرِفُ على وجه الدقّةِ متى يُزَوِّدُها بالماء، ومتى يُنَقِّيها من الطُّفَيْلِيَّات.. ومتى يَقِيها هُبوبَ الرياحِ ويُجنِّبها السقوطَ قبلَ أَنْ تَزْكُوَ وتتفتّح.. كان مصطفى.. هذا الصبيُّ المتخلِّفُ في فصلِه باستمرارٍ بُسْتانياً من الطِّرازِ الأوّل..

* * *

وكثيراً ما كانتِ الأمُّ تخاطبُ أباه قائلةً:

- «إنّ مصطفَى لا يُتْقِنُ إلّا الفلاحة.. ولذا علينا أن نُنَمِّيَ فيه هذه الْمَوْهِبةَ ونَرْعَى عنده هذه الهواية..».

ومرّةً قالتِ الأمُّ عبارةً خالدة.. قالت:

- «إذا كان الشخصُ عديمَ الكفاية في كلّ شيء.. مُتخلّفاً في كلّ ميدان، رَغْمَ إرادتِه.. فمنَ الأَهَمّيّةِ بمكانِ البحثُ عن شيءٍ يمكنُه القِيامُ به بكفاية.. أيِّ شيءٍ.. ثمّ المثابرةُ على إجادتِه والمِرَان عليه حتّى يصيرَ بارعاً فيه..».

والفلاحةُ هي الشيءُ الوحيدُ الذي يعشَقه مصطفى، ويفهَمُه، ويتفنَّنُ فيه..

-٣-

وهكذا.. زوَّده والداه بقطعةٍ واسعة من أرضِ الحديقة، وابتاعا له جارُوفاً ومِذْراة، ووعاءً لرشِّ الحدائقِ وأدواتٍ للحفرِ، وعربةَ يدٍ بعجلةٍ واحدة.

ويومئذ، كاد مصطفى يطيرُ من الفرح..

قال لوالده وأمّه وعيناه تتألَّقان من الغِبْطة والسرور:

- «ياه.. لا أستطيعُ أَنْ أُعَبّرَ لكما عن شكرِي وامْتِناني.. ففي وُسْعي الآنَ أَنْ أَسْتنبِتَ زهوراً ممتازةً وأنتِ يا أمّاه.. هل تعلمِينَ ما اعتزمتُ عملَه؟ سأستَنْبِتُ زهوراً كثيرةً جدّاً ستغَصُّ بها حجُراتُ المنزل.. ويمكنُكِ أيضاً أَنْ تُهْدِيَ باقاتٍ منها لصديقاتِك.. أمّا أنا فسأحملُ «لأبلة» سَناء مُدَرّستي كلَّ يوم سبتٍ واثنَيْنِ باقةً منتقاةً تُزَيِّنُ بها حجرةَ الدراسة.. وحينئذٍ ستعلمُ «أبلة» سناء أنّه ولو أنّي الأخيرُ في الترتيبِ إلّا أنّي أستطيعُ أَنْ أَقومَ بعمل شيءٍ ما..».

* * *

أقبلَ مصطفى على العملِ بهمّةٍ لا تَفْتُر.. كان يَوَدُّ من صَميمِ قلبِهِ أَنْ يُحَقِّقَ ما اعْتَزَمه.. كان يَحْفِرُ الأرضَ.. ويبذُرُ التقاوي.. ويُنَقِّي النباتَ.. ويسقيه بالوعاء الرشَّاش.. كلُّ ذلك بجُهْدٍ متزايدٍ.. وعزمٍ لا يَفْتُر..

أَكَبَّ على نَبْتِه الرقيقِ يعتَنِي به عناية لا حَدَّ لها..

* * *

وشيئاً فشيئاً.. غَصَّتْ حُجُرَاتُ المنزلِ بالزهور.. زهورٌ من كل نوع، ومن كل فَصِيلَة..

أمّا حجرةُ الدراسة.. فكم كان بِوُدّي يا صديقي القارئَ العزيز أَنْ تراها..

الورودُ فوقَ زوايا الأركان.. والفُلُّ على أفاريز النوافذ.. والقرنْفُلُ فوقَ مكتبةِ الفصل.. انبعثَت من حجرةِ الدراسةِ أَزْكَى الروائح وأعطرُها..

«وأبلة» سناء تُؤَكِّدُ أنّه لم يَسْبِقْ في تاريخِ المدرسة أَنْ حوَتْ حجرةٌ من حجراتِها مثلَ تلكَ الباقاتِ الرائعةِ من الزهور..

وزملاءُ مصطفى راحوا يدُورون به ويغبِطونه وينظرونَ إليه بإعجاب وإكبار.

-٤-

أوشك العامُ الدراسيُّ على الانتهاء..

وشرع أفرادُ الفرقةِ الموسيقيةِ يستعدُّون للحَفلِ الغنائيِّ الذي يُقَام لهذه المناسبة.. كما عَكَفتِ المدرِّساتُ على تنظيمِ مَعْرِضِ الأشغالِ اليدوية..

على أَنَّ مصطفى لم يكُنْ له دَوْرٌ في كل هذا.. إلّا في الأغنيةِ الافتتاحية، لأنّه - ويا لَلأَسف - ما كان يتذكَّرُ العباراتِ في أدوار التمثيل.. كما كان ينْسَى أَلفاظَ الأناشيد.. ولذلك ظَلَّت «أبلة» سناء تُنَبِّهُهُ ألّا يجعلَ صوتَه يعلو في أغنيةِ الافتتاح خشيَةَ أن تفشلَ الأغنيّة..

وأيضاً.. كان مصطفى هو الطفلَ الوحيدَ الذي لم يشارك في معرِضِ الأشغالِ اليدوية..

فقد لبثَ المسكينُ يحاولُ عبثاً أن ينتهيَ من صُنع سَلَّةٍ كباقي زملائِه.. ولكنّها كانت رديئةَ الصُّنع حتّى أَنَّ «أبلة» سناء أسِفَتْ كثيراً ولم تستطِعْ أن تعرِضَها في المعرِض..

* * *

كانت الاستعداداتُ لحفلِ آخرِ العامِ قائمةً على قَدَمٍ وساق.. فإنّ كبيرةَ مفتّشاتِ الموسيقى والأشغال اليدوية ستشرّفُ الحفلَ وتستمِعُ إلى الأناشيدِ والموسيقى وتفتتحُ مَعْرِضَ الأشغالِ اليدوية..

ولكن.. في اليوم السابق على الحفل أصابت كبيرةَ المفتّشاتِ وَعْكَةٌ ألزمَتْها الفراش، فاعتذرَتْ عن الحضور..

أسف التلاميذُ لذلك.. لأنّهم كانوا يحبّونها كثيراً، ولكنّها أرسلت رسالةً مثيرةً شائقةً قالت فيها:

- «أعتذِرُ عن الحضورِ لمرضي.. ولكنّي رجَوْتُ صديقةً فاضلةً الحضورَ بدلاً منّي.. إنّها عضوُ مجلس الأُمّة.. ولذا آمُلُ أن ترحّبُوا بها كعادتِكم.. وتقدِّموا لها الشكرَ على تفضُّلِها بالحضور..».

- «عضو مجلس الأُمّة..!!»

قال التلاميذُ في دهشة: «هذا مدهشٌ يا أبلة سناء.. علينا إذَنْ أن نكونَ جميعاً في أَبهَى زينة.. أليس واجباً علينا أَنْ نُقَدِّمَ لها باقةً جميلةً من الزهور؟».

أجابت أبلة سناء في سرور:

- «حقّاً.. سأوصي بصنعِ باقةٍ جميلةٍ من الآن.. والآن، من يا تُرى سيقدِّمُ لها تلك الباقة؟..».

رجَّحَتْ التلميذةُ الأولَى - رائدةُ الفصل - أَنَّ الاختيارَ سيقَعُ عليها هي حتماً لتقديمِ باقةِ الزهرِ للزائرةِ العظيمة..

والتلميذُ المتفوّقُ في الألعابِ الرياضية دار في خَلَده هو أيضاً أنّ الأختيارَ سيقَعُ عليه بالتأكيد.. وسُوزي.. كذلك.. أجملُ تلميذةٍ في الفصل جرَى فكرُها في الحال إلى ردائِها الأنيقِ الرائع، ولاح لها أنّها الوحيدةُ التي سيُعْهَدُ إليها بهذا الدورِ الخطير.. أليست هي أجملَ التلاميذ والتلميذات؟..

* * *

ولكن.. فجأةً.. تكلّمت الطفلةُ الصغيرة ليلى.. قالت:

- «أبلة سناء.. أعتقِدُ أَنَّ مصطفى هو خيرُ من يقومُ بتقديم باقةِ الزهر، إنّنا لا ننسَى زهوره الفاتنة التي أغدقَها علينا طِوالَ العام.. وهو خَلِيقٌ أَنْ ينالَ منّا بعضَ التكريم.. وبخاصّـةٍ أنّه ليس له أيُّ دَوْرٍ في الحفل الموسيقي أو أيّة معروضات في مَعْرِض الأشغال.. وفي رأيي أنَّ الدورَ الذي يناسبه تماماً هو تقديمُ باقةِ الزهورِ لزائرتنا الكبيرة..».

* * *

وعلى الأثر.. ساد صَمْتٌ عميق.. ثمّ سَرْعانَ ما صاح جميعُ الأطفال في صوت واحد:

- «تماماً..». حتّى الطفلةُ الأولى في الفصل، حتّى بطلُ الألعاب الرياضية.. وأيضاً سُوزي هي الأخرى صاحوا جميعاً:

- «مَرْحَى.. مَرْحَى.. هذا هو دَوْرُ مصطفى حقيقةً.. فَلْيُقدِّمْ مصطفى الزهور..».

وما كان أعظمَه من تكريم.. هبطت على مصطفى سعادةٌ غامرة.. جلس على كرسيِّه وقد تورَّدَ خداه من فَرْط الخجل.. بينما لمعت عيناه غِبطةً وسرورا.. فَكَّرَ مصطفَى في أمِّه:

- يَا للّه.. ماذا ستقولُ أمُّه عندما يبلغ مسامِعَها هذا التشريفُ العظيم؟ هل ستسعُها الدنيا من الفرح عندما تراه يتقدّم ترمقه آلافُ العيون حاملاً بين يديه باقةَ الزهور إلى تلك الزائرة العظيمة.. وهو ينحني لها مُرَحِّباً نيابةً عن المدرسة بأَسرها.؟

لم يكن سرورُ مصطفى بفرحةِ أمِّه بأقلَّ من سروره هو..

* * *

تمّت كافّةُ الترتيبات واستقرَّ الرأي على كُلِّ شيءٍ.. فيما عدا أنّ مصطفى صمّم أن تكونَ الزهورُ منتقاةً من حديقتِه هو، وأن يتْرَكَ ذلك لذوقِه الخاصّ.. وفي ذلك راح يقول:

- «لا رَيْبَ أَنَّ عندي هذا الأسبوعَ أجملَ الزهور وأزكى الورود.. أفضَلُ بكثير مِمّا تعْرِضه محلّاتُ الزهور.. صدِّقوني أنّ ورودي وزهوري في غاية الجمال والروعة، وكم أودُّ أن أُهْدِيَ باقةً منها إلى زائرتِنا العظيمة..».

* * *

وهكذا.. راح مصطفى ينتقي أجملَ الورود وأبهى زهور القرنفل من حديقته ونسَّق منها باقةً لم تقعْ عينٌ على أبدعَ وأحلى منها.. ومضَى بها إلى المدرسة عصرَ اليومِ التالي..

* * *

في عصر اليوم التالي احتشدت أمّهاتُ الأطفالِ جميعاً.. كما حضر بعضُ الآباء..

كان يوماً من تلك الأيّامِ الخالدةِ بالنسبةِ للمدرسةِ وللآباءِ والأمّهات..

* * *

أقبلت الزائرةُ العظيمة.. في عربة فارهةٍ خلّابةٍ سوداء..

وما تمالك الأطفالُ أن هتفوا هُتافاً عالياً منظَّماً مُرَحِّبين.. فابتسمت الزائرةُ العظيمةُ لهم في وُدّ، وارتقت المنصَّةَ لتُحَيِّيَ الأطفالَ وتقولَ كلمتَها..

حينئذ.. وبكلِّ فخرٍ واعتدادٍ وثِقةٍ.. تقدّم مصطفى صَوْبَ المنصَّة وارتقاها كذلك.. حاملاً باقتَه الرائعةَ التي هي من صُنْعِ يدَيْه..

بدا مصطفى في تلك اللحظة وَسيماً أنيقاً نظيفا.. بشعرِه الممشَّطِ الجميل.. وبحذائهِ المصقول اللامع، وبأظفارِه المقصوصةِ النظيفة..

والحقّ.. كانت «أبلة» سناء فخورةً جدّاً به..

* * *

حيّا مصطفى الزائرةَ العظيمة.. وقدَّم لها باقةَ الزهور..

* * *

لم تتمالك أمُّ مصطفى نفْسَها فصرخت من الفرحة..

* * *

مدّت الزائرةُ العظيمةُ يدَيْها وانحنت لمصطفى تتقبّل منه هديّةَ الودّ والإعزاز.. وما لبثت أن أبدَتْ دهشتَها وعجبَها لفرط جمالِ الباقةِ وعظمتِها، فقالت وعينُها تتألّقُ من السرور والعجب:

- «ما أجملَها.. ما أروعَها.. لم يسبِقْ لي أبداً.. أبداً.. أن رأَيْتُ مثلَ هذه الباقةِ الرائعةِ الخلّابة.. يَا للّه.. أشكرك كثيراً كثيراً يا صغيري.. ما أعظم الورودَ وزهورَ القرنفل.. مدهشةٌ حقّاً..».

* * *

حينئذ لم تَقْوَ ليلى الصغيرة على السكوت.. ولم تتمالَكْ نفسَها فصاحت بصوتٍ عال - من بين الصفوف - تقول للزائرة الكبيرة:

- «إنّ مصطفى الذي استنبت هذه الأزهار والورودَ بنفسِه.. وهو الذي قطفها من حديقتِه خصيصاً ليقدِّمَها لك..».

فردّت الزائرة في عجب:

- «يا إلٰهي.. إن صحّ ذلك فأنتَ في الحقّ طفلٌ ذكيٌّ مدهش.. ولمدرستك كُلُّ الحقّ أَنْ تفخرَ بك وتتباهَى..».

* * *

اصطبغ وجهُ مصطفى بحُمْرةِ الخجلِ والاستحياء.. وأوشك أَنْ يُجَنَّ من الفرح..

كيف لا وهو الذي ظلَّ مُتخلّفاً عن كافّةِ زملائه وما يزال، ثمّ يفاجَأُ الآن بإطراءٍ عجيب مدهش.. ومِمَّنْ.. من زائرةٍ عظيمةٍ ظلّت المدرسةُ تنتظرُ تشريفَها.. وتحسِبُ لزيارتها ألفَ حساب.. وبماذا تُطْرِيه؟.. بأنّه طفلٌ ذكيٌّ بارعٌ نابغة..

حَسْبُه هذا فخراً.. يكفيه ذلك تماماً ولا يريدُ المزيد.. فإنّه آمنَ الآنَ أنَّ مدرستَه كلَّها تُفاخر به وتزهو ببراعته..

* * *

والحقّ، أنّ مدرستَه شرعت تُفاخِرُ به فعلاً وتتباهَى.. بل وأحبّه كلُ فردٍ فيها.. أمّا أمُّه.. فكادت تطير من شدّة الفرح والخيلاء عندما دارت بها - بعدئذ - كافّةُ الأمّهاتِ يُثْنِين عليها وعلى صغيرِها البارع النابه..

* * *

ومصطفى كبر الآن.. وصار شابًّا..

أتدري مَنْ هو الآن؟

إنّه مديرُ مُؤَسّسةٍ كبيرةٍ لاسْتِنْبات الأزهار.. ولا تَعْجَبْ عندما تعلَمُ أنّه نال كافّةَ الجوائزِ في معارض الزهور..

إنّما لك أَنْ تعجَبَ يا صديقي القارئُ العزيز وتدهَشَ كذلك عندما تكْتَشف طاقاتٍ هائلةً عندكَ وإمكانياتٍ لا حدَّ لها في نفسِك، حتَّى ولو كان ترتيبُكَ في الفصلِ الأخير.. جَرِّبْ وسترَى.

نصوص في لغات أجنبية

In all schemes of reform, however, it should always be remembered that in spite of all that can be learned from other countries all that is good in Europe is not necessarily good in Egypt. Both in education and in social reform we need a clear vision of the real needs of our own country, and then the power to meet them in our own way.

What still remains to be done to ensure to the women of Egypt their own evolution?

They need to pursue the path which has been followed up to the present time with the support of men, receiving a solid culture and education in the schools, and founding societies dedicated to moral, social, national and philanthropic ends. They ought to found a special work for the relief of working women, and to look after and find work for girls who are in need. It should be their task to succour the orphan and the homeless. They should feel that human sorrow is their own concern, that the poor woman is the sister of the rich woman, and they should lavish upon all who are neglected and downtrodden in life the treasures of their hearts and minds, together with financial help. Finally, the Egyptian woman has a great task as a true homemaker working for the best interests of the family, and beyond that for the highest national ideals.

1 The following figures refer to the education of women in so far as it comes within the scope of the Egyptian Ministry of Education. (There are several independent schools in addition):

Elementary schools, primary and seconday	224
Egyptian teachers and directors (?)	800
Pupils	36,600
Doctors and midwives dependent on the ministry	28
Egyptian inspectors in the ministry	4

(*) مجلة *The Woman's Leader and the Common Cause*، س ٢١، ع ٣٥، ٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

For some time past Syrian Christian women have taken public part in festivals of literature and art, but Muslim women did not follow suit until 1927. Great changes have taken place in the sphere of education. The previous disapproval of Egyptian women teachers has disappeared, and Egyptian girls who study in foreign countries are treated with respect and sympathy when they return home.[1]

Today Egyptian women are studying for most of the professions open to women in other lands. The subject which occupies the foremost place in the minds of modern women, however, is that of the protection of children. In my opinion this is the first, the most noble, and the most useful of all the duties of woman.

Egyptian women may be divided into five classes: the upper class which is rich and powerful; the middle class; the poor women in the cities; the peasant women in the country districts, and the Bedouin women who belong to tribes of Egyptian nationality.

The upper class women have all the means of culture and progress in their own hands; for many years past several of them have been accustomed to travel in the different countries of Europe, where, with their husbands, fathers or brothers, they could move about freely without the veil. Thus they learned much and always returned with renewed energy to introduce intellectual and social reforms into their own lives and into those of other women of their own class. Further, their influence has been felt among the poor mothers and girls of the lower classes in Cairo, thanks to the schools, dispensaries, and other social activities which they have founded. But all that has been done so far is a mere fraction when one thinks of all the misery and need that still exists. There is an urgent need for more women of the upper and middle classes to give themselves to works of social and national utility.

I know little about the Egyptian Bedouin women. I can only suppose that her lot is very similar to that of all other Bedouin women of the East in their primitive state.

And I do not know much more about the conditions of the women belonging to the peasant class in the rural districts. From all I can learn, however, it appears that the lives of these women are still what they have been for centuries and that they are in urgent need of instruction and of social aid. In various ways the government is trying to educate the peasant women, but the rich woman proprietor could do much for the women on her estate by teaching them the simple elements of child welfare and hygiene.

THE AWAKENING OF EGYPTIAN WOMANHOOD

(2)

III.

The third period in the feminist awakening begins with the armistice of 1918, and with the hopes which were raised throughout the world of self-determination of life and liberty for the nations. At this juncture Egypt also arose to demand life and liberty.

How can I speak of the awakening of women in those days without emphasizing that wave of patriotism which surged through all the inhabitants of the Nile Valley without distinction of race or religion? The women of Egypt were enthusiastic and indomitable; no longer were they the veiled and secluded women of earlier days. They organized public patriotic demonstrations, and marched through the streets waving banners and acclaiming their country and the cause of liberty. Egyptian boys and young men formed a kind of hedge on either side of the women as they marched, in order to protect them from insult or danger.

In 1918 Bahithat al-Badiyah died. In 1919 a commemoration meeting was held in her honour in the courtyard of the Egyptian University. This was the first occasion of its kind when fifteen Egyptian women (among whom was the writer of this article) took public part.

The energy of the women's movement had been reawakened. Fresh political, educational, and social societies were formed during the next few years, and many individual women became active in literary and in social work. These are the main features of this movement between 1918 and 1925. Only a few years ago the women of the middle and upper classes were submissive, living in a kind of cloistered retirement. Today all is changed. Women work with men for the good of the nation; they take part in international conferences, and in their own homes they have a much freer and wider social life. The champions of the women's cause are no longer a little minority scattered throughout the millions of Egypt. Amongst the educated public it is now difficult to find a writer or journalist who does not claim for women education and progress, the reform of the laws governing marriage and repudiation.

association founded by Muslim women. The women of the Copt community also soon became active, establishing schools, caring for the poor and the orphan, and founding a fine large hospital. The Christian women of Syrian and Lebanese origin also worked hard, founding schools and philanthropic activities, striving to arouse public opinion by their writings, and assisting Qasim Amin in his mission as the "liberator of womanhood".

The Egyptian University which was founded in 1908 by the present King of Egypt, then Prince Fuad, opened its doors also to women, and established for their benefit special courses in Arabic and in French. Several other societies for mutual education and preparation for citizenship were initiated during this period, but all these efforts came to an abrupt end with the War. For the women of Egypt the War years were years of silence and of waiting.

(To be continued.)

1 Abridged translation of an article by Madame Ziadé in the *Oriente Moderno*, for May, 1929. Madame May Ziadé is well known throughout the Near East for her writings on literary and social questions. For the past fifteen years Madame Ziadé has lived in Cairo. In 1929 the government of the Lebanon decorated her with the "Médaille du Mérite Libanais" (the only time a woman has received this honour).

2 1769 - 1849.

3 1830 - 95, a grandson of Mehemet Ali.

4 Several times a minister in the Egyptian government. He died in 1928.

(*) مجلّة *The Woman's Leader and the Common Cause* الصادرة بلندن، س ٢١، ع ٣٤، ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٢٩، ص ٢٥٧ . تشير المجلّة في الهامش الأوّل إلى أنّ هذا المقال ترجمة ملخّصة للمقال الذي نشرته ميّ زيادة باللغة الإيطالية في مجلّة *Oriente Moderno* ، وقد ورد نصّه في الصفحات السابقة من هذه المجموعة. أمّا بقية الترجمة التي ظهرت في العدد التالي للمجلّة الإنجليزية فيمكن الاطّلاع عليها في الصفحات اللاحقة من هذه المجموعة.

The theory of Qasim Amin immediately divided public opinion into two camps: the camp of the *sufuriyyun* (champions of the uncovered face), and the camp of the conservatives.

The first wife of Husein Rushdi Pasha[4], who was a Frenchwoman, and who wrote under the name of *Niya Salima* (Pure Intention), published two books about the harem in Egypt and the questions of polygamy and repudiation, which supported Qasim Amin's theories.

Aishah, the writer and poetess, died in 1902, and her mantle fell upon a girl named Malak Hifni Nasef, who was at that time a student. A little later she became well-known under the name of *Bahithat al-Badiyah* (Student from the Desert). When she had passed her final examinations in 1903, she gave herself to the work of education. In 1907 Bahithat married the chief of the Bedouin tribe er-Rimah (in the Fayyum), and began her career as a writer and reformer.

In 1905 another event helped to open the way for Egyptian women to study in Europe. Mohammed Maghrabi Pasha, then Secretary-General to the Ministry of Education, sent his niece to a school in London; this aroused the indignation of the conservatives: "Fancy sending a Muslim girl, alone, into a foreign land, and to a school kept by unbelievers!" When the girl returned to Cairo, she was appointed assistant principal of the normal school for girls at Bulaq; she was the first Egyptian woman to occupy this post, which had hitherto been held only by Europeans.

In 1907 a new journal made its appearance in Cairo; it was called *al-Garidah*, and it was the organ of the party *"al-Ummah"* (the Nation). Its political editor was Ahmed Lutfi Bey es-Sayyid: Egyptian thinker, liberal writer, and the friend of Qasim Amin, who was then the Minister of Education. The *al-Garidah* became an open forum for all the new ideas on politics, literature, art and social reform. All the younger intellectuals, the followers of Ahmed Lutfi Bey, who are today the well-known leaders of the renaissance movement, were his collaborators.

Bahithat al-Badiyah was among the contributors to this paper, and her articles were eagerly read and discussed. In 1911 she took part in the Islamic Congress at Heliopolis, and laid before it her moderate and sane proposals for reform.

Alongside of this effort to arouse public opinion to the sense of the need for reform, women were initiating all kinds of practical social service. In 1909 Lady Cromer founded a dispensary for sick children and poor mothers; shortly afterwards her example was followed by several Egyptian ladies of the aristocracy; their society was the first philanthropic

European schools for girls were those started by the Catholic Sisters of the Order of the Good Shepherd, at Shubra near Cairo (1844); the American Protestant School at Ezbekieh, in the centre of Cairo, was founded in 1856, and the third pioneer school was that of the Italian Franciscan Sisters in 1859. From that time forward the number of European schools increased from year to year, until in 1873 the first Egyptian school for girls was founded by the Princess Ceshmet Afet, the third wife of the Khedive Ismail Pasha[3]. After this, many other schools of this kind were founded, so that during the lifetime of Aishah (i.e. from 1840 to 1902) about one thousand schools for both sexes were founded by government, municipal, private and European authorities.

During the reign of the Khedive Ismail the intellectual movement was very active amongst Egyptian men. Many well-educated men were trained in the schools of their own country; several also went abroad and studied at foreign universities. At that time many modern scientific books were published as well as several translations from foreign languages. Among the most intelligent of the men of those days was the Muslim reformer *Sayyid* Gemal ad-Din al-Afghani, who spoke with fiery eloquence of renaissance, of independence, and of liberty. As they listened to him, the most broad-minded among his male hearers associated woman with these great ideas of national emancipation.

All through this period, as well as in the days which were yet to come, the feminist cause was generously supported by many princesses and ladies of the aristocracy.

II.

The second period began during the last decade of the nineteenth century; it owed its inception to the work of one courageous and just man – a man with a compassionate heart and a clear social vision – the judge Qasim Amin, a disciple of Gemal ad-Din al-Afghani, and a friend of Sa'd Zaghlul Pasha. Between 1899 and 1902 Qasim Amin published two books on the emancipation of women, in which he demanded the reform of the laws relating to marriage, polygamy and divorce, and summoned his compatriots to provide the women of the land with a good education and to set them free for the welfare of the nation and the race. He insisted on the abolition of the veil; without this he held that all talk about the freedom of woman would be a mere farce. Several factors contributed to urge Qasim Amin to issue this appeal which, when it was issued, had the effect of an earthquake throughout the Islamic world.

THE AWAKENING OF EGYPTIAN WOMANHOOD[1]

(1)

The awakening of modern Egyptian womanhood falls into three distinct periods: the first period covers the whole of the nineteenth century; the second begins with the twentieth century and closes in 1919; the third period, which is still going on, opens with the nationalist movement.

I.

The history of modern Egypt begins with the reign of Mehemet Ali[2], and it was during his reign that there appeared the first signs of a feminist awakening. In 1831 this geat ruler ordered his minister, Habib Effendi, to buy ten young Sudanese girl slaves. These young women were chosen with the aid of the French doctor Clot Bey, and they were then trained for midwifery. At the same time Mehemet Ali arranged that two eunuchs of his harem should study medicine and surgery. The present School of Nursing and Midwifery owes its existence to these two events.

In 1840, the Egyptian poetess, Aishah Ismat Taimur, was born. Her father, contrary to all customs of the day, gave his daughter a good education, which indeed entitles him to be enrolled among the forerunners of the women's movement in Egypt. Aishah wrote poems in Arabic, Turkish and Persian; she also published a novel dealing with social and moral questions, and wrote numerous essays and articles dealing with such problems as the education of girls, the reform of the marriage laws, the questions of divorce and of the family, long before Qasim Amin took up these questions. All through her life she upheld the ideal of the equality of the sexes, and she continued to write until her death in 1902.

Meanwhile, the lives of the Muslim women followed their usual course: they were veiled, ignorant, and secluded in the harem, never dreaming that there could be any other life for women, a life of light and liberty. However, the progressive movement went forward steadily. European missions, especially those of a religious character, began to enter the country, and they founded schools both for boys and for girls. The first

The Woman's Leader and the Common Cause (1929)

dignità della casa. Ella può far amare la lingua nazionale, può diffondere le arti indigene, può esaltare la storia della patria e il suo glorioso passato, può diffondere la confidenza nell'avvenire di essa, glorificare i suoi uomini illustri ed i suoi eroi, e santificare i suoi simboli ed i suoi vessilli.

MAY ZIADÉ

1 La signorina Mayy ha consentito gentilmente a riassumere ella stessa in italiano, per l'*Oriente Moderno*, due conferenze da lei tenute in arabo, il 2 e 10 aprile 1928, nella cosiddetta *American University* del Cairo; l'eleganza della forma originaria è stata sacrificata alle esigenze della nostra rivista. La signorina Mayy, alla fine del marzo scorso (1929), è stata insignita, unica donna, della "médaille du mérite libanais" *(wisaŸm al-istih̆qaŸq al-lubnaŸniŸ)*, che il governo libanese ha voluto conferirle per le sue benemerenze letterarie e sociali. Su di lei si può vedere l'articolo di E. Rossi, *Una scrittrice araba cattolica: Mayy (Marie ZiyaŸdah)*, in *Oriente Moderno*, vol. V, 1925, pp. 604-613. – *[Nota della Redazione]*.

2 La data 1914, riferita nel *Dizionario bibliografico* di J.E. Sarkis in corso di stampa, è un errore.

3 In Egitto significa un maestro che insegna a leggere ed a scrivere e fa imparare a memoria brani del Corano.

4 Così viene pronunziato il suo nome, che propriamente è *'Iffet* عفت .

5 Più volte ministro, morto nel 1928.

6 *Niyyah saliŸmah*, "intenzione pura".

7 *Harems et musulmanes d'Egypte* (Parigi, 1902) e *Les répudiées* (Parigi, 1907).

8 *SeŸzaŸ*, diminutivo turco del nome proprio Zainab.

9 Citiamo, al Cairo, i dispensari dell'Amministrazione d'Igiene Pubblica, dovuti alla sollecitudine di S.E. il dottor ShaŸhiŸn Pascià, capo di detta amministrazione e medico privato di S. M. il Re; quelli della Società Internazionale per la Protezione dell'Infanzia; quelli della Società Egiziana, il cui presidente è S. E. il dottor H̆aŸfiŸz 'AfiŸfiŸ Bey, Ministro degli Esteri; il dispensario di Lady Cromer, fondato nel 1909; quello di BaŸb ash-Sha'riyyah, fondato nel 1923 per iniziativa della compianta dottoressa Buchanan, già direttrice della Scuola Femminile Americana, con la collaborazione di signore egiziane; quello di as-Sayyidah Zainab, fondato nel 1927, con una piccola scuola per le ragazze povere, dalla signora Maclenahan, consorte del direttore della cosiddetta Università Americana del Cairo. È doveroso ricordare anche l'attività delle signore israelite e lo zelo mostrato in questo campo da Lady Lloyd, moglie dell'Alto Commissario britannico.

(*) مجلّة *Oriente Moderno* الصادرة بروما، ج ٩، ع ٥، أيّار/مايو ١٩٢٩، ص ٢٣٧ - ٢٤٨ . لخّصت ميّ زيادة في هذا المقال محاضرتين ألقتهما في ٢ و ١٠ نيسان/أبريل ١٩٢٨ تحت عنوان «يقظة المرأة المصرية من عهد محمد علي إلى هذا العهد» في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد تعذّر حتّى الآن العثور على نصّها العربي.

Era l'opinione di BaŸhīthat al-BaŸdiyah e d'altri scrittori prima della guerra, che la donna egiziana imitasse le donne turche nel vestire e nelle abitudini di vita domestica e sociale. Ma la Turchia ha poi dovuto far fronte ad una profonda crisi nazionale, che l'ha costretta a formarsi come nuova. Questo non è il caso dell'Egitto; perciò l'egiziana non può dipendere se non da se stessa nell'imitare quel ch'essa crede opportuno dell'Occidente e nel conservare quello che crede dell'Oriente, per dare una nuova forma alla società egiziana ed essere un ideale degno di esser ammirato ed imitato negli altri paesi del vicino Oriente.

Che cosa resta ancora da fare alla donna egiziana per assicurare la propria evoluzione?

Le resta di continuare la strada percorsa fino ad ora con l'appoggio dell'uomo, ricevendo una solida cultura ed educazione nelle scuole, fondando società dedicate ai bisogni morali, sociali, nazionali e filantropici. Le resta di fondare un ufficio speciale per soccorrere le operaie, migliorarne la situazione e trovare lavoro alle ragazze bisognose; di modo che ognuna di queste sia sotto la vigilanza di associazioni femminili e sia tranquilla sul suo domani, invece di essere, come ora, senza aiuto e senza sicurezza. Le resta pure di fondare un'associazione nazionale di beneficenza, che sia il rifugio d'ogni povera e d'ogni bisognosa. Le resta di fondare orfanotrofi per le orfanelle, scuole per le disperse, case per quelle che non hanno casa. Le resta di chinarsi sulle miserie umane, sentire che la donna povera è sorella della ricca, e diffondere sulle abbandonate e vinte dalla vita i tesori del cuore, i raggi della mente insieme col soccorso finanziario.

Resta ad ogni donna egiziana di comprendere e di apprezzare il suo altissimo ufficio d'onore e d'amore, che consiste nell'essere la madre, la sposa, la sovrana del focolare, ch'essa sola può rendere infelice o riempire, al contrario, di vita e di gioia. Deve saper stabilire un bilancio finanziario adatto ai bisogni della famiglia; deve saper rendere la casa pulita, piacevole, estetica, amata dal marito e dai figliuoli, affichè essi non l'abbandonino per i circoli, i caffè ed altri luoghi pubblici, che ne vuotano la borsa e ne guastano il morale.

Le resta di educare la nuova generazione di corpo e di mente, e abbellirle l'anima con le virtù morali e patriottiche, così da dare all'Egitto uomini nuovi forti, sani ed attivi.

Nel tempio della famiglia la donna può accelerare la sua evoluzione, essendo madre, sposa, amica, educatrice e sovrana. In quel tempio può operare anche per il bene nazionale, curando l'interesse della famiglia, vegliando sulle culle e la salute di tutti, sull'economia, l'armonia e la

cittadine nel vestire e nel modo di vita e di tenere la casa. Ma la contadina povera non ha cambiato; nella sua ignoranza, nelle sue abitudini, nella sua passività, sembra vivere la vita dei secoli scorsi, malgrado che sia costretta a lavorare vicino all'uomo nei campi, malgrado la sua intelligenza naturale, il suo istintivo buon senso, la sua abilità nell'accudire alle cose sue, e malgrado che essa abbia dato all'Egitto parecchi dei suoi grandi uomini.

Ecco un bel campo d'azione, nel quale dovrebbero gareggiare le società femminili e tutte le egiziane che desiderino mettere il loro patriottismo alla prova. Mentre il governo sta educando i contadini per mezzi vari, specialmente mediante conferenze proposte da ShaŸhïŸn Pascià e date in dialetto popolare affinchè siano alla portata di tutti, la donna ricca e proprietaria di terreni potrebbe rendersi utile al governo preparando le giovani contadine ad una vita nuova ed inculcando loro principii di pulizia e d'igiene ed istruendole sui mezzi pratici per curare le malattie usuali e per allevare i bimbi.

Se in questi anni in Egitto si celebrano le glorie del passato e si esalta la vitalità del nuovo risveglio, è pure indispensabile valersi o dell'imitazione, di quanto si fa all'estero, o di intuizioni ed idee proprie per formare una nuova cultura nazionale e preparare nuove glorie degne di quelle che furono. La donna è particolarmente esperta nello scegliere quegli elementi che devono essere imitati più o meno fedelmente e nell'ispirare quegli elementi nuovi che occorrono ai bisogni speciali del paese.

Non tutto quello ch'è buono in Europa è buono in Oriente; poichè ogni paese ha la sua natura, il suo clima, le sue condizioni di vita, i suoi usi e le sue esigenze. In Europa, per esempio, si deplora ormai il troppo sapere della donna, la sua cultura eccessiva; qui, invece, è da deplorare l'ignoranza della donna. Un solo e medesimo rimedio non può dunque essere efficace per due malattie antagoniste fra loro. In alcuni paesi d'Europa il numero delle done supera quello degli uomini; invece qui, grazie a Dio, i due sessi si equivalgono quasi in numero. Là il freddo invernale, la pioggia e i venti violenti anche nel cuore dell'estate, mentre qui anche i nostri uomini vestiti di bianco sembrano angeli di Dio e dolci colombe!

Si potrebbe continuare a lungo la lista delle differenze e degli antagonismi, che esigono molta chiaroveggenza e saggezza nella rivendicazione delle riforme femminili. È dunque logico che noi incoraggiamo il governo nell'intrapresa riforma dei programmi di studio tanto nelle scuole maschili che nelle femminili; perchè quasi tutti questi programmi furono copiati in origine da quelli europei, ossia da programmi elaborati secondo i bisogni che al presente non sono i nostri.

Le donne egiziane si dividono in cinque classi: l'alta classe, ricca e potente; la classe media; la classe povera nelle città; la classe delle contadine nella campagna; infine la classe delle beduine appartenenti a tribù di nazionalità egiziana.

Le donne dell'alta classe, tanto signore che signorine, hanno tutti i mezzi di cultura e di progresso; da lunghi anni parecchie di loro sono abituate a trascorrere l'estate in differenti paesi d'Europa, ove viaggiano senza velo con i loro mariti, padri o fratelli, raccolgono nuovi fattori d'elevazione sociale ed intellettuale e tornano in Egitto con rinnovata energia e nuove riforme da introdurre nella vita loro e delle signore della loro classe. Il loro caso in Egitto è esattamente quello delle loro simili in ogni paese; quindi tra loro è cominciata la riforma, che va propagandosi di giorno in giorno, nella concezione femminile della vita, nella cultura della donna, nel modo di vivere, di parlare e anche di vestirsi; furono esse le prime ad affermare l'emancipazione della donna, tanto con le parole che con l'esempio. La loro influenza fu sentita tra le povere madri e ragazze della bassa classe del Cairo, grazie alle opere delle loro società, che hanno fondato scuole gratuite, laboratori, dispensari, ecc. Ma quanto è minimo il numero di queste povere favorite, in confronto dall'enorme maggioranza delle abbandonate nel fango e nella miseria! Appunto per interessarsi a queste è necessario che cresca il numero delle signore dell'alta e media classe, le quali si diano alle opere sociali e nazionali.

Poco so della condizione della beduina egiziana, che deve essere simile a quella di tutte le beduine dell'Oriente nella sua forma di vita primitiva.

E non ho maggiore conoscenza della condizione della contadina, il cui nome evoca in noi visioni poetiche e pastorali; la vediamo, nel suo atteggiamento dignitoso ed antico, camminare lungo le sponde del Nilo, ravvolta nella larga tunica, portando sul capo l'anfora con quel gesto armonioso, che si accorda così bene con l'immensità dell'orizzonte, con la calma delle campagne e con i gruppi di palme nel chiaroscuro del tramonto e del crepuscolo. Ma questo bell'atteggiamento egiziano, che ispira i poeti e artisti, non è tutta la vita della contadina. Nel 1913 il dottor Haikal Bey, nel suo romanzo *Zainab*, ha descritto la condizione della contadina, i suoi lavori quotidiani, i suoi usi, le sue tradizioni. Numerosi scrittori e giornalisti hanno preso a cuore di risvegliare la simpatia del pubblico per i contadini, di rivendicare per loro migliori condizioni di vita, d'igiene e di istruzione indispensabile. I molti proprietari egiziani che ho interrogati sono d'accordo sul fatto che il progresso si faccia sentire tra le figlie delle famiglie ricche, abitanti nelle località minori, le quali sono educate nelle scuole ed imitano le

Scuole elementari, primarie e secondarie	224
Insegnanti e direttrici egiziane	800
Alunne	36.600
Medichesse e levatrici alla dipendenza del ministero	28
Ispettrici egiziane nel ministero	4

Le studentesse mandate in missione dal ministero per terminare gli studi in Europa sono 45, distribuite fra Inghilterra, Francia, Germania e Svizzera; si specializzano nell'esercizio della professione d'infermiera, in scienze, letteratura, pedagogia (e giardini d'infanzia), disegno, economia domestica, educazione fisica e ginnastica, musica, lavori d'ago, preparazione agli studi universitari. Due altre studentesse sono in missione dell'Amministrazione di Igiene Pubblica per specializzarsi in medicina. Le ragazze mandate nelle scuole d'Europa dai genitori o da associazioni private sono numerose.

L'anno scorso (1928) il governo fondò la scuola secondaria per ragazze a ShubraŸ (sobborgo del Cairo), con programma eguale a quello delle scuole secondarie maschili; il risultato degli esami fu superiore a quello dei maschi.

Inoltre l'Università Egiziana ha ammesso le donne alla Facoltà di Lettere (qualche copta per l'eggitologia) e alla Facoltà di Medicina; in quest'ultima furono iscritte per la prima volta 7 studentesse nell'anno scolastico 1928-29.

Ma ora la protezione dell'infanzia è tra i problemi ai quali più s'interessa l'Egitto. Numerosi dispensari femminili sono stati fondati: quello dell'opera «Moȟammed 'AlïŸ», quello dell'«Unione Femminile», quello del «Lavoro per l'Egitto» *(ǵam'iyyat al-'amal li-Miśr)*; a questi, d'iniziativa femminile egiziana, si devono aggiungere quelli dovuti a signore europee, a uomini egiziani e ad iniziativa del governo[9].

La protezione dell'infanzia è necessariamente a capo del programma del risveglio della donna; il bimbo, che è la speranza d'oggi e la forza di domani, è naturalmente sotto la protezione della donna, e curarlo, interessarsi a lui, dargli salute, gioia e vita è, secondo me, il primo, il più nobile, il più utile dei doveri femminili.

* * *

Ma è necessario ed urgente che il numero di queste zelanti figlie d'Egitto, le quali lavorano per il bene pubblico, aumenti, affinchè le società femminili possano sviluppare e attuare il loro programma e così fare tutto quello che da loro si aspetta.

applaudito discorso. Questa signora si è recata per tre anni, col marito, a Beirut, allo scopo di perfezionarsi nelle scienze pedagogiche nell'Università Americana.

La donna ha anche preso parte a concorsi letterari e ne fu vincitrice. Nel concorso bandito dal giornale quotidiano cairino *as-SiyaŸsah*, nel 1926, sulla «evoluzione della donna egiziana nell'ultimo decennio» (i cui premi erano stati elargiti da 'AbbaŸs Bey SïŸd Aȟmed), io ho avuto l'onore di essere il solo membro femminile della commissione giudicatrice, composta da uomini sotto la presidenza di S. E. Aȟmed LuťfïŸ Bey as-Sayyid, ora Ministro della Pubblica Istruzione. Il primo premio fu vinto da un uomo, ma il secondo da una donna, che firmava con un nome a tutti ignoto e che, solo molti mesi dopo, ho saputo essere uno pseudonimo della signora IȟsaŸn Haikal, sorella del dott. Moȟammed Ȟusein Haikal Bey, redattore capo della *as-SiyaŸsah*.

A proposito del dott. Haikal Bey, il quale è fra i nostri più brillanti giovani rinnovatori, devo accennare ad un fatto unico compiuto da lui l'anno scorso. Trovandosi a Parigi nell'estate del 1927, quando il Re d'Egitto era in quella città, assistè con la moglie, a viso scoperto, al ricevimento ufficiale dato all'Eliseo dal Presidente della Repubblica in onore di Sua Maestà. In quest'atto coraggioso il dott. Haikal fu sostenuto dallo suocero S. E. 'Abd er-RaȟmaŸn RiďaŸ Pascià, Sottosegretario di Stato alla Giustizia (noto agli Italiani per aver rappresentato il governo egiziano nel congresso tenutosi a Roma nell'estate del 1927 per i diritti d'autore), il quale anzi, su domanda della rivista femminile cairina *L'Égyptienne*, diede a questa la fotografia della figlia e ne permise la pubblicazione.

Pochi anni fa, le direzioni delle scuole femminili governative erano affidate a signore straniere, e la disapprovazione generale e violenta accoglieva quel padre che avesse osato mandare la propria figlia a terminare gli studi in Europa. Ma ora che le scuole femminili, tanto governative che private, sono numerosissime, la direzione ne è affidata a signore egiziane; e d'altra parte le ragazze che vanno in Europa a perfezionarsi in qualsiasi genere di studio diventano di giorno in giorno più numerose e al loro ritorno sono sempre accolte con simpatia e considerazione.

Nel 1928 le statistiche fornivano i dati seguenti intorno alle scuole femminili governative oppure private sottomesse alla vigilanza ed ai programmi del Ministero della Pubblica Istruzione (escluse quindi le numerose scuole private indipendenti):

Tali sono le grandi linee di questo risveglio fino al 1925.

DAL 1925 AD OGGI

Pochi anni fa, la donna delle classi medie ed elevate era umile, vivente in una specie di clausura; quando era malata non permetteva al medico di tastarle il polso.

Ora le cose sono cambiate. Parecchie donne si occupano delle cose loro, frequentano quegli uomini che la necessità impone, come il commerciante, il medico, l'avvocato, l'insegnante ecc., si associano agli uomini nello sforzo per il benessere nazionale, fondano scuole, società, laboratorî e dispensarî; prendono anche parte ai congressi, come hanno fatto la signora Hudà Sha'raŸwīŸ e la signorina Céza NabaraŸwīŸ nei congressi dell'Unione Femminile Internazionale, le signorine Emily 'Abd el-MasīŸh (cristiana) e FaŸṫmah FahmīŸ (musulmana) rappresentanti il governo egiziano al Congresso d'Economia Domestica, tenuto a Roma nel 1927, e la signorina Flora H̆annaŸ (cristiana) al Congresso Internazionale per la Proibizione delle Bevande Alcooliche, tenutosi a Manchester nel 1925.

Non mancano signore le quali, a profitto di associazioni femminili, organizzano feste e serate di gala, come non mancano le signore colte le quali, col permesso dei loro mariti progressisti, ricevono le amiche coi rispettivi mariti e alcuni uomini distinti della letteratura o della politica; in tali riunioni generalmente si trattano argomenti di carattere pubblico e sociale.

I difensori della donna non sono più una piccola minoranza dispersa fra milioni d'egiziani. Adesso è difficile trovare fra il pubblico educato lo scrittore o il giornalista che non rivendichi per la donna l'educazione, l'istruzione, il progresso, anche la riforma delle leggi sul matrimonio ed il ripudio, benchè tutti siano d'accordo nel non volere il «mascolinizzamento» della donna.

Notevole è pure il cambiamento fattosi nell'attitudine dei poeti, i quali ora indirizzano le loro poesie alla donna e le parlano come tale, laddove nel passato il poeta usava rivolgersi alla donna della sua fantasia con parole che designavano il sesso maschile.

La donna ha inoltre il suo posto nelle riunioni patriottiche, alle quali talora partecipa come oratrice. E benchè le siriane cristiane abbiano sempre avuto parte, come oratrici, in feste di letteratura ed arte, la donna musulmana le imitò soltanto nel 1927, nella festa data in onore del poeta egiziano ShawqīŸ, durante la quale la signora Ih̆saŸn Ah̆mad tenne un

donne velate e rinchiuse. Organizzando pubbliche dimostrazioni patriottiche, passavano per le vie agitando bandiere e acclamando la patria e la libertà. La gioventù maschile le circondava, formandosi dai due lati come una siepe per proteggerle e difenderle.

BaŸhithat al-BaŸdiyah morì nel 1918; nel 1919 ne fu tenuta una commemorazione nel cortile dell'Università Egiziana; e fu la prima del genere, presenziata da centinaia di signore, ed in essa quindici donne egiziane, fra le quali la scrivente, presero la parola.

Pochi giorni dopo sorgeva il «Comitato Femminile Centrale del Wafd», formato dalle mogli e sorelle dei membri maschili del comitato; ne ebbe la presidenza la signora Hudà Sha'raŸwiŸ, il cui marito era vice-presidente del comitato maschile. La signora di ZaghluŸl Pascià, essendo a Parigi vicina al marito, fu nominata presidentessa d'onore.

L'energia della donna si era risvegliata e si manifestò fondando delle società, dandosi allo studio, alle arti ed alle opere sociali e politiche, pubblicando giornali e riviste.

Nel 1923 il «Comitato Femminile Centrale del Wafd», essendo stato sciolto il «Comitato Femminile Sa'dista», si formò con parecchie signore del precedente comitato; esso fin'oggi è il solo gruppo femminista politico.

La signora Hudà Sha'raŸwiŸ, non facendo più parte di quel gruppo nonchè delle altre società femminili (come «La Donna Nuova» ecc.), fondò l'«Unione Femminile Egiziana» *(al-IttihaŸd an-nisaŸ'iŸ al-misriŸ)*, che si aggregò all'«Unione Femminile Internazionale» e pubblica una sua rivista, *L'Égyptienne*, in lingua francese, della quale è redattrice in capo la signorina Céza[8] NabaraŸwiŸ, amica della signora Sha'raŸwiŸ.

Fu anche fondato il «Club delle Dame» *(naŸdiŸ as-sayyidaŸt)*, al quale s'interessano le principesse della famiglia reale; esso è il luogo d'incontro delle signore europee ed egiziane, e vi si dànno conferenze, concerti, serate di gala, ecc.

Altre società seguirono, di cui la più importante è il «Travail pour l'Egypte» *(ğam'iyyat al-'amal li-Misr)*. Questa società è forse la più ricca di socie ed ha la sua sede al Cairo (presidente la signora di 'AliŸ MahmuŸd Bey, fratello di Mohammed MahmuŸd Pascià oggi Capo del Governo). La sezione d'Alessandria è presieduta dalla copta Esther FahmiŸ WiŸsaŸ Bey; un'altra sezione è ad AsyuŸt; e sono in vista nuove ramificazioni in altre località. Come le precedenti società, essa s'occupa delle ragazze povere, fondando scuole gratuite, laboratorî, dispensarî per bimbi malati e madri povere. Il suo programma contiene anche riforme sociali.

l'incarico di parlare in pubblico in una cerimonia ufficiale in lingua araba.

L'anno seguente, nella commemorazione funebre di FathīŸ ZaghluŸl Pascià, fratello di Sa'd, le donne non erano state invitate; allora la scrivente inviò una protesta ad Aḥmed LuṭfīŸ as-Sayyid Bey, direttore dell'*al-ĠarīŸdah* e membro del comitato, il quale la pubblicò nel giornale con parole di approvazione a congratulazione. Questa fu la prima protesta femminile del genere; ora le donne hanno il loro posto in quasi tutte le cerimonie consimili.

Nel 1914 Mrs. Byng, moglie del generale in capo dell'esercito d'occupazione, invitò le signore egiziane ed europee a fondare una società mista, chiamata *Union féminine d'éducation*, che venne fondata sotto il patronato della Khediva madre e la presidenza di Mrs. Byng; ne furono membri le consorti dei ministri egiziani e dei plenipotenziari diplomatici stranieri. Numerose signore egiziane ed europee aderirono ed assistevano alle riunioni tenute nelle sale dell'Università Egiziana, dove si tenevano conferenze in arabo, francese ed inglese. Una volta BaŸḥithat al-BaŸdiyah, che ne era la segretaria araba, tenne una conferenza.

Un'altra società del genere fu fondata dalle dame egiziane sotto la presidenza della Principessa AmīŸnah ḤalīŸm; tra le dame del comitato erano alcune europee.

Ma ambedue le società chiusero l'opera loro a causa della guerra mondiale; gli anni del conflitto furono anni di silenzio e d'aspettazione.

LA TERZA EPOCA

Siamo ormai a dopo la fine della guerra, quando le potenze in conflitto si imposero tregua col proposito di conservare ai popoli vita e libertà e l'Egitto sorse a domandare appunto libertà e vita.

Ricordo Sa'd ZaghluŸl, l'uomo affascinante e pieno d'ardente eloquenza, a cui l'amico QaŸsim AmīŸn aveva dedicato il suo libro «La donna nuova», perchè «in lui aveva conosciuto un cuore che ama, una mente che pensa ed una volontà che agisce». Sa'd fu all'altezza di quest'opinione dell'amico defunto: tolse il velo alla moglie (Ṣafiyyah ZaghluŸl) dopo il ritorno dall'esilio (1921) e la presentò all'oriente e all'occidente come un ideale femminile di patriottismo, di dignità, d'elevazione morale.

Come parlare del risveglio della donna in quei giorni senza accennare a quella ondata di patriottismo che travolse tutti gli abitanti della valle del Nilo, senza distinzione di razza e di confessione?

Le donne d'Egitto si mostrarono entusiaste e indomite; non erano più le

Ella fu la sola donna che prendesse parte al Congresso Islamico del 1911 ad Eliopoli presso il Cairo; ella gli mandò le sue proposte di riforma.

La *al-ǴarīŸdah* cessò le sue pubblicazioni quando il suo partito sospese la sua attività allo scoppio della guerra mondiale del 1914-1918. Uno dei suoi redattori, 'Abd el-ȞamīŸd ȞamdīŸ, «sufuŸrista» ardente, pubblicò nel 1915 la rivista settimanale *as-SufuŸr* «il tenere il viso scoperto», che cessò sette anni più tardi.

Lady Cromer aveva fondato nel 1909 un dispensario per bimbi malati e madri povere; la Principessa 'Ain al-ȞayaŸh, prima moglie del Principe Ȟusein KaŸmel (che pochi anni dopo divenne Sultano d'Egitto), fondò un dispensario analogo, assicurandosi la collaborazione e l'aiuto di molte principesse e dame dell'aristocrazia. Questa società, la cui attività cominciò pochi mesi più tardi, dopo la scomparsa dell'intelligente fondatrice e presidentessa, fu la prima società musulmana femminile di beneficenza. La sua presidentessa attuale è la Principessa 'AzīŸzah Ȟasan.

Frattanto si erano fondate alcune società copte di beneficenza, iniziando scuole femminili e maschili per i figli dei poveri e orfani, fondando laboratori per le ragazze ed aiutando le famiglie bisognose; ricordiamo «l'Università della Carità», la «Società at-TawfīŸq», e la «Grande Società Copta di Beneficenza», fra le cui opere sono scuole primarie e secondarie maschili e femminili, una scuola femminile d'economia domestica, un grande e bell'ospedale, e il laboratorio «al-BúťrusīŸ», dedicato alla memoria di Buťros GhaŸlīŸ Pascià (morto nel 1912), dove cinquecento ragazze apprendono i lavori di sartoria, ricamo ed altri lavori d'ago.

L'Università Egiziana, fondata alla fine del 1908 sotto gli auspicî del Principe Fu'aŸd oggi Re d'Egitto, aprì le sue porte anche alle donne, stabilendo per esse corsi speciali in arabo ed in francese.

Le donne cristiane di origine siriana e libanese lavoravano dal loro lato, fondando scuole ed opere di beneficenza, pubblicando riviste, scrivendo articoli nei giornali e periodici (come *al-Muqtaťaf, al-HilaŸl, ađ-ĎiyaŸ', al-AhraŸm, al-Muqaťťam*), i quali pubblicavano articoli su cose femminili e appoggiavano QaŸsim AmīŸn nella sua missione di liberatore della donna. Altri letterati d'origine siriana pubblicavano libri e lavori teatrali su questo soggetto.

Se potessi parlare di me stessa, direi che nel 1913 presi parte alla cerimonia fattasi sotto il patronato del deposto Khedive 'AbbaŸs II, in onore del poeta siro-egiziano cristiano KhalīŸl MuťraŸn. Questa fu la mia prima manifestazione pubblica, la prima volta che una donna ebbe

nome di *BaŸh˘ithat al-baŸdiyah* «studiosa [proveniente] dal deserto», scrisse un'elegia per la defunta, elegia che il poeta KhalīŸl MuṭraŸn pubblicò nella sua rivista *al-Maǵallah al-Mis˘riyyah* col profetico titolo «'AŸ'ishah non è morta!». Malak, che ebbe il suo diploma finale scolastico nel 1903, si diede all'insegnamento, andò sposa nel 1907 ad 'Abd es-SattaŸr Bey el-BaŸsil, capo della tribù beduina er-RimaŸh˘ (nel FayyuŸm) e cominciò la sua carriera di scrittrice e riformatrice.

Nel 1905 un altro fatto contribuì ad aprire alla donna egiziana la strada per fare la sua educazione in Europa. Moh˘ammed MaghrabīŸ Pascià, allora segretario generale del Ministero dell'Istruzione Pubblica, mandò la sua nipote ad una scuola di Londra; ciò sollevò l'indignazione dei conservatori: una musulmana da sola nelle scuole dei miscredenti all'estero! Quando la ragazza tornò al Cairo, fu nominata sotto-direttrice della scuola normale femminile di BuŸlaŸq; fu la prima egiziana che occupassse un tal posto, fino allora riservato alle europee.

La signorina Nabawiyyah MuŸsà conseguì come privatista, nel 1906, il baccalaureato delle scuole medie egiziane, sola fra tutte le donne egiziane; si diede all'insegnamento, divenne la prima direttrice egiziana di scuole municipali nel 1909, la prima direttrice egiziana di scuole governative nel 1916, la prima ispettrice egiziana nel Ministero dell'Istruzione Pubblica nel 1920. Fondò l'anno scorso una scuola privata, che intitolò curiosamente «la Scuola delle Figlie dei Nobili» *(madrasat banaŸt al-ashraŸf)*, dopo un malinteso col governo, che la collocò a riposo; e non cessa di pubblicare di tempo in tempo articoli sull'educazione e l'istruzione della donna.

Nel 1907 cominciò ad uscire al Cairo il giornale *al-ǴarīŸdah*, organo del partito «al-Ummah» («la Nazione»), avendo per direttore politico Ah˘med LuṭfīŸ Bey es-Sayyid, grande scrittore liberale, pensatore egiziano, amico di QaŸsim AmīŸn, ed ora Ministro della Pubblica Istruzione. La *al-ǴarīŸdah* divenne il campo aperto a tutte le idee nuove nella politica, nella letteratura, nelle riforme sociali e nell'arte. Tutti i giovani intellettuali, discepoli del verbo scritto e parlato di Ah˘med LuṭfīŸ Bey, divenuti oggi celebrità alla testa del movimento rinnovatore, ne furono collaboratori; BaŸh˘ithat al-BaŸdiyah vi pubblicò i suoi articoli, che avevano grande effetto sui lettori. Quando, pochi mesi dopo, QaŸsim AmīŸn morì, la *al-ǴarīŸdah* divenne la difenditrice e la propagatrice delle sue idee. La sala di riunione del partito «al-Ummah» aprì le porte ad oratori e conferenzieri egiziani e stranieri, e BaŸh˘ithat al-BaŸdiyah vi tenne due conferenze, che furono le prime fatte da un'egiziana ad un pubblico femminile egiziano; in esse la scrittrice condensò le sue misurate idee di miglioramento sociale.

Essa comincia nell'ultimo decennio del secolo XIX, per opera d'un uomo coraggioso e giusto, d'animo sensibile e dotato di chiaroveggenza sociale: il giudice QaŸsim AmïŸn, discepolo del già citato GemaŸl ad-DïŸn al-AfghaŸnïŸ, frequentatore del salotto della Principessa NaŸzlïŸ FaŸdïl e amico di Sa'd ZaghluŸl Pascià. In due libri *TahˇriŸr al-mar'ah* «L'emancipazione della donna» (della fine del 1899) e *al-Mar'ah al-ǵadïŸdah* «La donna nuova» (del 1902), egli, che dopo d'allora fu chiamato «il liberatore della donna» e «il capo del femminismo egiziano», chiese la riforma delle leggi sul matrimonio, sulla poligamia e sul divorzio, appoggiandosi alle proposte già fatte dal dotto musulmano e gran *MuftiŸ* d'Egitto, shaikh Mohˇammed 'Abduh, e invitò i suoi compatrioti ad istruire la donna, ad educarla ed emanciparla per il bene della nazione e della stirpe, e anche per la tranquillità e la felicità dell'uomo. Domandò pure la soppressione del velo, affermando che, senza di essa, l'emancipazione femminile non sarebbe che un mito.

Molti fattori spinsero QaŸsim AmïŸn a lanciare questo grido, che ebbe l'effetto d'un terremoto nel mondo islamico. QaŸsim AmïŸn era giudice alla Corte d'Appello e ogni giorno poteva raccogliere manifestazioni di disordine e d'infelicità nella vita delle famiglie, prodotte dall'ignoranza e schiavitù della donna. D'altra parte, egli era a contatto con gli elementi più intellettuali e coscienti del Cairo, e non era il solo che soffrisse nel vedere l'inferiorità della donna, la sua incapacità a capire l'augusta dignità di sposa, di madre, di educatrice dei figli. Il malcontento si era propagato fra tutti gli uomini della sua educazione, i quali, aspirando ad una vita nuova, vedevano nella moglie une meschina barriera limitante l'orizzonte. Uno dei più cari amici di QaŸsim AmïŸn mi ha detto aver questi condensato nei suoi scritti tutte le critiche, tutte le accuse, tutti i lamenti degli intellettuali del tempo; QaŸsim rese pubbliche queste doglianze e pubblicamente ne propose il rimedio.

Le teorie di QaŸsim AmïŸn divisero immediatamente il pubblico in due campi: il campo dei *sufuŸriyyuŸn* o partigiani del *sufuŸr* (tenere il viso scoperto) e il campo dei conservatori.

La prima moglie di Hˇusein Pascià[5], la quale era francese e scriveva collo pseudonimo di «Niya Salima»[6], pubblicò due libri sui hˇarem d'Egitto e sulla questione della poligamia e del ripudio[7], appoggiando le teorie di QaŸsim AmïŸn. Quando 'AŸ'ishah 'Isˇmet TaimuŸr morì nel 1902, Malak HˇifnïŸ NaŸsˇef, allora studentessa e poco dopo conosciuta col

con parole focose ed animo ardente, parlava del rinascimento, dell'indipendenza e della libertà. Ascoltandolo, i più liberali tra quegli uomini associavano nella loro mente la donna a queste grandi idee d'emancipazione nazionale.

Fra le donne intelligenti di quel tempo ricordate la medichessa ǴalīŸlah, che era stimata e rispettata da tutti per la sua intelligenza e la sua rettitudine, e la signora copta HīŸlaŸnah 'Abd al-Malik, la quale ancor oggi, pur occupandosi dell'amministrazione dei suoi terreni, delle sue case e delle sue manifatture di cotone, si moltiplica in doni di beneficenza ed in opere sociali.

Mi resta a parlare della parte che in questo risveglio ebbero le principesse della Casa Regnante, le quali furono ora benefattrici, ora promotrici d'opere benefiche, a cominciare dalla Principessa Zainab, figlia di Moh̆ammed 'AlīŸ, e venendo via via alla Principessa AngaŸ (انجا) HaŸnem, moglie del Khedive Sa'īŸd Pascià, alla Principessa Ceshmet Afet, moglie del Khedive IsmaŸ'īŸl Pascià, le quali hanno fatto grandi donazioni di denaro e terreni per la fondazione di scuole e moschee e per il sostegno di poveri e di schiavi liberati.

La Principessa NaŸzlīŸ FaŸdīl, ch'era moglie dell'ambasciatore della Turchia a Londra, dopo il suo ritorno al Cairo, fu la prima dama dell'aristocrazia che aprisse il suo salotto ai diplomati, letterati, giureconsulti e grandi celebrità d'Oriente e d'Occidente; ciò avvenne agl'inizi del marzo 1899.

La Principessa FaŸtīmah IsmaŸ'īŸl, sorella dell'attuale Re Fu'aŸd I, diede i suoi ricchi gioielli all'Università Egiziana, sorta nel 1909. La Sultana Malak (moglie del Sultano H̆usein KaŸmil) e l'attuale Regina NaŸzlīŸ aiutano numerose opere benefiche a sociali col loro alto patronato e con generosi doni. E quale è il cuore egiziano che non si senta commosso dal nome della grande e vecchia Principessa EmīŸneh, madre del deposto Khedive 'AbbaŸs II, la cui generosità proverbiale ed incalcolabile verso opere di beneficenza e fondazioni di pubblica educazione le hanno meritato il simbolico nome di *Umm al-muh̆siniŸn* «la Madre dei benefattori»?

Nelle due epoche seguenti vedremo che le auguste principesse continuano ad esser alla testa di questo movimento vivificatore, sia con le loro liberalità, sia con il loro lavoro zelante e intelligente.

con questi versi in dialetto egiziano e fu la prima musulmana che si togliesse il velo.

Zainab Fawwāz, di venti anni più giovane di 'Ā'ishah, nata a Ṣaidā (Sidone) nel Libano, sposata ad un Egiziano e stabilita in Egitto (ove morì nel 1908)[2], scrisse versi e numerosi articoli sulla donna e la vita sociale; pubblicò qualche libro, fra cui nel 1895 uno sulle donne eminenti dell'Oriente antico e moderno, col titolo *ad-Durr al-manthuŸr fiŸ t'abaqaŸt rabbaŸt al-khuduŸr* «Le perle sparse, [concernenti] le varie classi [cronologiche] di donne ragguardevoli». In esso è data anche una sommaria biografia di 'AŸ'ishah suddetta, la quale scrisse la prefazione al libro in forma epistolare e nello stile molto manierato del tempo.

Frattanto le donne musulmane continuavano a vivere velate, ignoranti e recluse nell'*h'arem*, senza immaginare che potesse esistere un'altra vita di luce e di libertà. Apprendevano i lavori d'ago da maestre copte o nella propria casa, e alcune studiavano qualche suŸrah del Corano col *fiqiŸ*[3] della casa, sempre vecchio e cieco!

Ma l'evoluzione seguiva il suo cammino. Missioni europee, soprattutto religiose, di ambedue i sessi, cominciarono ad affluire ed a fondare scuole maschili e femminili. Le prime scuole femminili europee furono quella delle suore cattoliche del Buon Pastore a ShubraŸ presso il Cairo (1844), l'americana protestante nella piazza dell'Ezbekieh (1856) e quella delle suore francescane italiane (1859). Aumentando sempre più le scuole europee in tutte le parti dell'Egitto, arriviamo all'anno 1873, in cui la prima scuola femminile egiziana (conosciuta oggi col nome «Scuola Saniyyah» e dipendente dal Ministero dell'Istruzione Pubblica) fu fondata dalla principessa Ceshmet Afet[4], terza moglie del Khedive (Vicerè) IsmaŸ'ïŸl Pascià. Ad essa seguirono la scuola «al-Qirabiyyah», conosciuta oggi col nome di «as-SiyuŸfiyyah», e numerose altre; sicchè durante la vita di 'AŸ'ishah, cioè dal 1840 al 1902, quasi mille scuole, fra governative, municipali, private ed europee furono fondate per ambedue i sessi. Dapprima le ragazze egiziane non frequentavano le scuole straniere; ma, man mano, si sono abituate ad accorrervi numerose, come nelle scuole egiziane.

Tra gli uomini il movimento intellettuale fu intenso sotto il Khedive IsmaŸ'ïŸl; numerose furono le persone colte uscite dalle scuole del paese o tornate dagli studi compiuti in Europa con borse scolastiche governative. Molti libri di scienze moderne furono scritti, molti tradotti da lingue straniere. I più intelligenti tra quegli uomini si riunivano attorno al riformatore musulmano *sayyid* GemaŸl ad-DïŸn al-AfghaŸnïŸ, il quale,

IL RISVEGLIO DELLA DONNA IN EGITTO NEGLI ULTIMI CENTO ANNI[1]

LA PRIMA EPOCA

Il risveglio della donna egiziana moderna si può dividere in tre epoche distinte: la prima, assai lunga, assorbe tutto il secolo XIX; la seconda, meno lunga, comincia col secolo xx e continua sino a poco dopo la fine della guerra; la terza ha inizio con il movimento nazionale in Egitto e continua tuttora.

Come la storia dell'Egitto moderno s'inizia con il regno di Moḥammed ʻAlī, così sotto questo regno si hanno i primi sintomi del risveglio femminile, benchè l'educazione delle fanciulle non fosse allora cosa grata. Nel 1831 il grande sovrano fu costretto ad ordinare al suo ministro Ḥabīb efendī di comprare dieci giovani schiave sudanesi, scelte coll'approvazione del medico francese Clot Bey, per far loro apprendere l'ostetricia; contemporaneamente fece studiare la medicina e la chirurgia a due eunuchi del suo *harem*. Questa fu la pietra angolare della scuola di infermiere e levatrici, rimasta fino ad oggi; sicchè si può dire che l'alba del risveglio si levò dalla bruna fronte di quelle sudanesi!

Nove anni dopo, nel 1840, nacque la signora, il cui padre, Ismāʻīl Taimūr Pascià, deve esser citato tra i precursori del risveglio femminile, per aver dato alla figlia, la poetessa egiziana ʻĀ'ishah ʻIṣmat Taimūr, un'educazione veramente superiore, in grande contrasto con gli usi del tempo. ʻĀ'ishah scrisse poesie in arabo, turco e persiano, pubblicò un romanzo sociale e morale, nonchè saggi ed articoli di giornali trattanti di questioni sociali, come l'educazione delle ragazze, la riforma del matrimonio, del divorzio e della famiglia, assai prima che QaŸsim AmīŸn affrontasse questi problemi. Ella affermò l'eguaglianza della donna con l'uomo, quando le scuole femminili erano scarsissime, e continuò a scrivere fino alla sua morte, avvenuta nel 1902.

Tra le amiche di ʻĀ'ishah si contano alcune donne colte, come le due figlie di Ḥabīb efendī, ministro di Moḥammed ʻAlī, che scrivevano versi, ma senza esercitare alcuna influenza. La cantatrice Zubaidah al-Maghrabiyyah, che prendeva parte alle riunioni degli uomini, scambiava

Oriente Moderno (1929)

Tu lui confias un drapeau qu'il promena dans les larges espaces, et le vert du drapeau a pu jeter les semences d'une nouvelle flore dans les champs du ciel.

Attends-tu toujours dans ton palais de sable, Sphinx qui guettes à l'horizon le messager du secret impénétrable? Les voilà tes messagers nouveaux! Et l'énigme de l'existence que l'Egypte antique s'efforçait de sonder dans le mystère des temples, peut aussi être approfondie, quoique d'autre façon, par l'Egypte d'aujourd'hui qui plane dans les airs.

Et momies millénaires, attendez-vous encore le retour des âmes qui vous habitèrent jadis? Elles sont revenues, les âmes, mais incarnées sous d'autres formes. Elles composent cette gracieuse phalange qui vole là-haut, bien haut au-dessus des temples effrayés. Cependant que le Nil frémit de joie à voir ses fils tracer dans l'air un sillon semblable à son cours.

Pharaons des siècles écoulés! Comme emblème vous placiez l'aigle sur vos diadèmes. Mais les aigles de l'Egypte moderne accourent en essaim pour entourer les assises du trône, espérant de leur roi un sourire de satisfaction et d'encouragement.

* * *

Ouvre ton sein, Egypte, et souffre que ton aigle s'y appuie un moment!

Pour toi il a dépensé ses efforts: échange-les en force.

Il t'a prodigué son courage: récompense-le par le bonheur.

Baigne-le de larmes de joie; couronne son front de lauriers; et qu'il reprenne son essor vers les régions où planent les géants de l'air!

MAY ZIADE

1 Dans les légendes orientales, le Tapis de Salomon est un char magnifique qui, invisible, traverse l'espace.

2 Feu que les Arabes du désert allument la nuit pour attirer le voyageur égaré et lui donner l'hospitalité.

(*) مجلّة *L'Egyptienne* ، س ٩، ع ٩٧، كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣، ص ١٤ - ١٧ . راجع النصّ العربي لهذا النشيد المنشور في الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٥٧٥، ٧ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٣٣، ص ١، والمضمّن في هذه المجموعة [١٠٠].

Une chaîne de hautes montagnes se dessine le long de laquelle je glisse comme en jouant. Oh, combien minuscules sont les élévations de la terre pour qui s'y penche de haut!

Et me tenant debout, j'ai promené les regards alentour pour deviner le point où mon pays se trouve. Alors la terre devint grande et précieuse à mes yeux parce que, Egypte, tu en es une partie. Et j'ai plié les bras sur ma poitrine comme pour y étreindre tout le globe terrestre, parce que, ô ma Patrie, toi tu en fais partie!

Les oracles du firmament m'appelèrent soudain, et je répondis: me voilà! Et je compris de suite le pourquoi de mon empressement. Car, Egypte, ta voix retentit à mon ouïe plus haut que toutes les voix du ciel pour enflammer mon courage et m'exalter à la vaillance.

O voix de la Patrie, combien vous êtes douces dans les espaces lointains!

O miracle d'amour, combien vaste est ton retentissement lorsque tu te concentres sur une signification unique! Les aigles planent-ils quand nul amant n'est là qui les repousse pour les rapprocher? Les horizons peuvent-ils s'étendre et se raffermir là où nul désir ne les entraîne ni ne les guide?

* * *

T'irrites-tu, Nature, de ce que la jeunesse d'Egypte te défie? Lois implacables du monde physique, est-ce votre courroux qui s'opposant à l'enthousiasme de mes frères, les transperça de sa funeste griffe?

Mais, légion sont les audacieux d'Egypte! En plus grand nombre et plus fréquemment derechef ils vous lanceront le défi!

Déchaînez-vous donc, tourbillons; tempêtes, mugissez! Et que les vents hurlent et que tombent les foudres! Au sein des éléments furieux ton nom, Egypte, est ma relique et ton triomphe mon soutien. Si ton aigle ne traverse que l'horizon serein au gré de vents propices, son mérite quel serait-il? Et s'il ne brave les ouragans pour les vaincre ou en être vaincu, de quel droit t'aborderait-il?

* * *

Je t'aborde, ô ma Patrie, bien que ma main soit vide des présents du voyageur. Mais ton enfant te revient riche des dons qu'il a reçus de Toi.

Tu lui donnas le coursier de l'air. Et il revient chargé des arômes de l'infini et sur ses habits chatoient les reflets des soleils en incandescence.

Tu l'animas d'un souffle de vaillance. Et il vient t'offrir sa jeunesse, plus mûre et digne de te servir; son âme pour ton nom a créé un temple et un culte.

et garde intacte sa pureté dans l'attente des pionniers humains, où les plus sublimes créations des poètes deviennent réalités sensibles, où l'être éphémère prouve que tout en lui n'est pas matière et pesanteur, mais que vraiment son esprit couve l'étincelle ardente dégagée de la torche de la Divinité.

La magie du ciel m'ensorcelle et m'entraîne dans les solitudes où semblent se délayer perles, saphirs et rubis, où la substance se transforme en éther, magnétisme, subtilité. Si bien que je saisis là le secret de la résistance dans l'élasticité.

L'azur du ciel m'enveloppe ainsi que tout ce qui m'entoure d'un fantasmagorique voile transparent et tendre et souple et mœlleux, et l'homme enchanté que je suis en devient l'homme enchanteur. Ma nacelle voguant au gré de son désir, je suis le saisissant prodige pour ces horizons dont je déchire le voile et usurpe le mystère. Sur mon visage voltige l'haleine des anges; et je m'abandonne à l'impression de communier dans la vie des anges blancs, vibrant de la vibration de l'éther, participant aux vues de la Création, fuyant avec les soleils à travers les mondes sans fin.

Et toute la douceur du ciel coule dans mon sang répandant en moi une joie bienfaisante et pure qui chante à ma jeunesse la chanson du triomphe. Alors je me figure être envoyé au seuil d'un cycle nouveau pour élever une tour entre la terre et les cieux.

* * *

Plus je m'élève et plane, plus j'aspire à planer et à m'élever, et plus j'éprouve la nostalgie des sphères inviolables, demeurées telles que la main du Créateur les fit.

Lorsque tombe la nuit, je suis l'obscurité mobile dans l'immense obscurité stable. Lorsque le jour se lève, je suis la lumière qui s'avance dans la vaste luminosité immuable.

Parfois absorbé dans mes méditations, guettant mes impressions les plus intimes, des harmonies augustes et suaves résonnent dans les sphères aussi bien qu'en moi-même. D'autrefois jouissant du silence et du calme, je suis réveillé par mon moteur qui seul mugit dans l'horizon. Et ce mugissement semble être une puissante voix qui dicte sa volonté aux mondes soumis.

* * *

Aujourd'hui dispersés les nuages, le soleil brille avec éclat. La terre blottie sous mes pieds, se déroule claire et précise. J'y discerne villes, champs, déserts et mers comme autant de cases sur un échiquier: que vous êtes donc petites, demeures des humains, aux yeux de l'oiseau qui vole!

Hymne de l'Aviateur Egyptien

Nos lecteurs seront bien heureux de lire ce beau poême de Mlle May Ziadé, la célèbre femme de lettres connue et appréciée de tout l'Orient.

Après un long silence causé par de douloureux deuils – partagés et ressentis par tous ses admirateurs et amies – Mlle May vient de nous montrer, dans ce poème d'une superbe envolée lyrique, que la douleur qui brise les êtres faibles, exalte les âmes fortes et les fait rayonner d'un plus pur éclat.

Salut d'admiration
aux ailes égyptiennes victorieuses

Tels les chevaux qui frémissent et hennissent lorsque le désert les appelle au départ, ainsi les avions tressaillent et s'agitent sitôt que l'horizon réclame leur essor.

Je suis le cavalier de l'air, je suis l'Egyptien nouveau!

Les oracles du firmament prononcent mon nom et m'assignent de parcourir les espaces, voguant et planant sur le dos de mon coursier: et mon coursier n'est autre que le Tapis de Salomon[1].

Dans leurs chevauchées éperdues, mes pères qui parfois s'égaraient au hasard des routes interrogeaient la trace des pas menant au camp de la tribu et faisaient halte autour du Feu de l'Hospitalité[2]. Cependant que montagnes et vallées, cités florissantes et amas de ruines sont pour moi tout un!

Anonymes sont les immensités que mon chemin traverse. Page incommensurable est mon champ où nulle trace ne se fixe, où nul propos ne demeure. Pour toute tente, j'ai la voûte du ciel et le Feu de l'Hospitalité n'est représenté pour moi que par les pupilles des astres.

Oublieux de l'eau et du limon qui, déterminant ma forme humaine, m'ont lié à la terre, je me fie à l'esprit de lumière qui nourrit dans mon sein l'ivresse de la victoire sur les lois tristes du volume.

Loin de moi brumes entassées au bas de l'atmosphère! Vous n'êtes que l'haleine de ce que la terre contient de chagrins, de trivialités, d'intrigues et de crimes!

Les oracles du firmament prononcent mon nom et me réclament à ma demeure mouvante dans les hautes régions où le ciel déploie toute sa beauté

(*) مجلّة *L'Egyptienne* ، س ٤، ع ٤٣، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٨، ص ٣٨ - ٤١ .

(**) سقراط سبيرو (Socrates Spiro) (١٨٦٠ - ؟)، يوناني الأصل وُلد في مصر. تخرّج من المدرسة التبشيرية الأمريكية في القاهرة ودخل عام ١٨٨٣ في خدمة الحكومة المصرية. شغل منصب السكرتير الخاصّ لوكيل وزارة المالية اللورد ملنر (Lord Milner) أثناء رحلته لتفتيش مديريات الصعيد عام ١٨٩٢ ثمّ لوكيل وزارة المالية Sir Clinton Dawkins ١٨٩٥ - ١٨٩٩، وعُيّن عام ١٨٩٩ مديراً لمصلحة الإدارة المصرية المركزية للموانئ والمنارات. وضع قاموس *An Arabic-English Vocabulary of the Colloquial Arabic in Egypt* (١٨٩٥) وآخر بعنوان *English-Arabic and Arabic-English Dictionary of the Modern Arabic of Egypt* (١٨٩٧) إضافة إلى كتاب في قواعد اللغة *A New Practical Grammar of the Modern Arabic in Egypt* (١٩١٢). كما نشر العديد من المقالات في اللغة والأدب والنقد في مجلّات إنجليزية وعربية.

son service une vaste culture, un esprit riche et pondéré, une plume vigoureuse et sage, il trouve – phénomène étrange! – un remède à chaque mal, à chaque problème une solution. C'est un flambeau qui éclaire mais ne brûle pas.

C'est dans la presse qu'a débuté un grand nombre de nos personnalités les plus distinguées et que bataille encore une phalange de nos célébrités les plus douées. Et c'est un aspect vraiment admirable que celui de cette génération qui prend conscience d'elle-même dans l'angoisse, les tâtonnements et les luttes les plus âpres. Elle est peut-être unique au monde cette génération qui, se trouvant face à face avec une civilisation toujours en marche, s'entête à maintenir la flamme antique avec des éléments nouveaux, qui, en s'élevant elle-même, élève les autres et prépare ainsi la vie de l'individu, de la société et de la nation de demain.

Frères et sœurs d'Occident, par les articles du brillant M. Gallad qui écrit en français et ceux de l'érudit Spiro Bey(**) qui écrit en anglais, vous avez peut-être une idée de notre mouvement intellectuel auquel vous contribuez sans le savoir. Mais vous qui vivez de notre vie, qui vous occupez de notre réveil politique et national et de notre chronique, vous qui échangez avec nous les doux sentiments de la sympathie et de l'amitié, vous ne connaissez pas notre angoisse spirituelle, nos défaites, nos triomphes et notre tenace volonté de vivre. Le jour qui se lève pour l'Orient sera éblouissant de lumière et de beauté. Ah! Qu'il soit aussi un jour de paix et d'amour!

Nous discernons dans votre civilisation le rayon lumineux de nos civilisations antiques et combien il vous est facile de reconnaître chez nous l'étincelle de vie que vous nous avez communiquée. Car la civilisation ne peut être monopolisée et limitée. Il n'y a pas plusieurs civilisations. La civilisation est Une et Universelle. Chaque siècle y joint sa contribution, chaque nation y apporte son tribut et la civilisation continue plus grande et plus étendue à travers les âges au profit de tous les citoyens de la terre.

Frères et sœurs d'Occident!

Il nous est à la fois agréable et profitable de vous voir représenter parmi nous le génie, l'effort, le progrès de vos nobles pays. Et je suis sûre qu'il ne peut être banal pour vous de constater dans cette Egypte millénaire l'œuvre grandiose de la résurrection!

MAY ZIADE

Teymour, morte en 1902 et que nous appelons «l'aïeule», qui dans quelques-uns de ses poèmes élégiaques et lyriques, montre l'exquis sentiment de sa féminité; et la jeune et très regrettée Malak Hefni Nassef, mieux connue par son pseudonyme Bahissat-Ul-Badiah, morte en 1918, qui dans ses écrits de critique sociale a fait entendre une voix et une expression nouvelles, a crié la douleur de la femme moderne et son besoin de réforme sociale, d'éducation, d'émancipation et de progrès.

Aujourd'hui, grâce au réveil de la femme, nos jeunes plumes féminines deviennent de jour en jour plus nombreuses. Toutes cherchent leur voix, leur nature et la libre et simple expression d'elles-mêmes.

Le destin de la langue n'est-il pas soumis au destin de la nation?

Après tant de siècles de conquête et de gloire, après une expansion encore plus étendue que celle de ses deux sœurs, la grecque et la latine, qui ont partagé avec elle l'honneur d'être devenues langues universelles, organes d'une pensée religieuse ou politique supérieure aux diversités des races – notre belle et noble langue arabe s'est trouvée arrêtée en pleine floraison. Comme nos nations, elle est restée trois longs siècles dans une profonde torpeur et n'avait rien produit d'important ou d'intéressant depuis la grande période des Abassides.

Il nous a fallu ce choc tumultueux avec l'Occident pour nous éveiller en sursaut; il nous a fallu être témoins des manifestations de la civilisation d'Occident, ses efforts gigantesques, ses prodigieux progrès, sa vie intense et multipliée; il nous a fallu recevoir de l'Occident les premiers dons de l'instruction et de la science pour nous réveiller tout plein et commencer à réagir.

C'est là qu'il faut rendre hommage à notre presse qui est un des facteurs les plus puissants, les plus efficaces de notre évolution. Depuis plus d'un demi-siècle qu'ont été fondés ses plus anciens organes, notre presse n'a cessé de grandir, de se multiplier et de rendre d'immenses services. C'est elle qui a alimenté le sentiment patriotique, réveillé la conscience et la dignité nationales, aidé à propager l'instruction et à vulgariser la science, manié la langue jusqu'à la rendre malléable et précise, exalté les génies et les héros et implanté dans nos cœurs l'amour indéfinissable du drapeau!

Qu'il me soit donc permis de saluer nos illustres journalistes en la personne de l'un des plus éminents d'entre eux, Kalil Tabet Bey, dont nous célébrons cette année le 25e anniversaire dans le journalisme. Fils de l'Orient et orgueilleux de sa gloire antique, ami de l'Occident et appréciateur de ses bienfaits, il comprend au même degré l'inquiétude de la génération nouvelle et la mentalité de la précédente génération. Ayant à

Discours de Mademoiselle May au Xème Banquet de la Presse

Messieurs, Mesdames.

Pour la seconde fois, en moins de 8 mois, la presse d'Egypte exalte la femme égyptienne en lui cédant la présidence de son banquet mensuel. Ce fut d'abord à notre gracieuse et vaillante féministe militante, Mlle Céza Nabaraoui, que vous avez manifesté votre sympathique considération. Ce fut là une éclatante revanche de notre siècle sur les siècles de réclusion, de subordination et de passivité. Et votre geste aussi noble qu'élégant a eu la plus heureuse répercussion parmi les courageuses filles d'Egypte qui travaillent pour le bien social et national, parmi les milliers d'étudiantes, cette jeune moisson qui se lève, pleine de sève et d'espoir.

Puis vint mon tour.

Encore une fois, vous adressez un pressant appel aux hommes restés jusqu'ici oublieux ou récalcitrants. Encore une fois, à travers une seule, vous prodiguez vos encouragements à toutes. Encore une fois, vous approuvez la femme dans son désir d'une vie plus large et mieux conçue et l'invitez à collaborer avec vous dans un domaine qui n'est ni masculin ni féminin, mais simplement et purement humain.

Messieurs, j'en suis toute reconnaissante et émue. Acceptez mon émotion et ma reconnaissance.

Jusqu'à une époque très rapprochée, lorsque la femme de langue arabe se hasardait à élever la voix, elle se contentait de suivre les chemins battus, de reproduire les idées et les sentiments en vogue et surtout d'imiter le souffle de l'homme, son législateur et son maître.

Je dirais même qu'à de rares exceptions près, nos femmes les plus célèbres de l'antiquité dont le nom et le verbe nous sont transmis par l'histoire, ne se sont essayées que dans l'élégie, la louange des grands, et quelquefois dans la poésie épique. Dans leurs écrits on sent une restriction, une contrainte, dues sans doute à leur situation sociale, et l'on discerne presque toujours, ce souci d'imiter l'homme, d'écrire comme l'homme, sans chercher à se reconnaître elles-mêmes et à trouver une expression adéquate à cette autre partie de la nature humaine, la nature féminine.

Cependant deux Egyptiennes (puisque je parle plus spécialement de l'Egypte) ont été plus sincères et plus spontanées: la poétesse Aischa Ismet

On frappa à la porte et le vieux prêtre, encore mal réveillé, vint ouvrir. Alors, sans lui laisser le temps de demander des explications, Fouad s'inclina devant lui en disant:

– «O Notre Révérend Père, sois témoin de mon mariage avec Lamia, la fille d'Ibrahim, car je la prends pour épouse.»

Et Lamia dit:

– «O Fouad, je t'accepte pour époux!»

Puis, laissant le bon vieux prêtre dans la perplexité ils s'en allèrent, heureux et convaincus de l'indissoubulité de leur union et leur bonheur encouragea d'autres à les imiter.

L'enlèvement des jeunes filles est une très vieille coutume. Quelques-unes en profitent pour échapper à la tyrannie de parents ignorants ou injustes. Au lieu d'épouser l'homme non aimé désigné par son père et sa mère, la jeune fille se laisse enlever par un autre, par celui qu'elle préfère, par l'«Idéal». Et malgré la marche de la civilisation devant laquelle disparaissent lentement les coutumes anciennes, il en est encore ainsi dans quelques parties du Liban.

MAY ZIADE

(*) مجلّة *L'Egyptienne* ، س ٤، ع ٣٦، آذار/مارس - نيسان/أبريل ١٩٢٨، ص ٢١ - ٢٤ .

(**) كذا في الأصل، والاسم لا يرد في القصّة والأرجح أنّه خطأ مطبعي وأنّ المقصود هو LAMIA اسم بطلة القصّة.

La petite cloche du village tintait, appelant à la prière, et les pieux maronites, leur rosaire à la main, passaient devant la jeune fille pour se rendre à la messe.

Très lasse, Lamia s'assit sur un rocher caché par des arbres touffus, au loin de la route. Elle se sentait heureuse, mais elle avait le cœur serré. Quelque chose de très lourd y pesait, et ce quelque chose de si lourd, ce fardeau, c'était un nom, un nom chéri; elle se le répéta encore tout bas: Fouad!

Une voix profonde et douce répondit: «Tu m'appelles?»

La jeune fille rougit en voyant Fouad à quelques pas d'elle. Mais le jeune homme s'approcha et s'étendant à ses pieds, dit:

– «O Lamia! Toutes les heures de la nuit je les ai passées sous ta fenêtre. J'aime ta maison parce qu'elle est tienne et parce que tu l'habites.»

– «Moi, j'ai passé la nuit à lire ton nom qui luisait dans l'obscurité. Il est si joli, ton nom!», dit simplement la jeune fille.

– «Très joli», reprit Fouad, «quand tu le prononces. Mais le tien est si doux! Il chante à ma mémoire ce que ton amour chante à mon cœur: la divine chanson de la Jeunesse et du Rêve!»

Lamia souriait. Une béatitude céleste emplissait son être. Fouad continua:

– «Ton sourire chante aussi la chanson des Fleurs qui ne peuvent pas mourir... Et tes yeux! Ah! Une seule fois dans ma vie j'ai vu des yeux... non, c'est indéfinissable! Et ces yeux-là sont tiens... Ils ne chantent pas, eux, ils murmurent ce que les vagues mystérieuses murmurent à la lumière du jour et à l'obscurité de la nuit. C'est magique et incompréhensible!»

– «Et les tiens», dit Lamia, «tes yeux si grands, si doux! Tes yeux bleu-vert à la fois terribles, comme la mer en fureur, et calmes, comme les flots en méditation. Ah! J'ai rêvé de tes yeux avant de les voir!»

– «A ce soir donc», dit-il, «veux-tu?»

– «Je veux bien», dit-elle presque sans hésitation.

Vers minuit, Lamia put voir un fumeur rôder autour de sa demeure. Elle comprit que la cigarette n'était qu'un signal, et s'empressa de rejoindre celui qui l'appelait. La nuit était profondément obscure et les deux amoureux sortirent du village sans faire de fâcheuses rencontres. Ils montèrent dans une voiture qui les attendait et la voiture se dirigea vers le village le plus proche, à l'entrée duquel ils furent salués par quelques amis venus à leur rencontre. Sans perdre une minute, le petit cortège s'en fut silencieusement vers la maison du Curé.

bien quand il veut, mais sait aussi se taire et pendant que les autres cherchent à briller et rivalisent en traits saillants et mots d'esprit, il lui plaît de dire des paroles insignifiantes et détachées ou de garder un silence orgueilleux et lointain...

Et son front donc! Et sa tête expressive! Et sa chevelure, d'un blond très sombre ou d'un châtain três clair qui retombe ondulée sur ses tempes...

Comme il est sérieux et comme il est gamin! Il est à la fois très dur et très tendre; il m'aime beaucoup plus qu'il ne le montre; il me gronde pour mes enfantillages et pour mes paradoxes; il voudrait faire de moi une gentille enfant bien sage, bien raisonnable, et pourtant il adore mes caprices et mes bouderies... Et parfois, après m'avoir grondée et m'avoir fait pleurer, il redevient très indulgent et très doux, et ses larges prunelles, méditatives comme les grandes eaux de l'Océan, semblent se recueillir encore plus pour implorer et demander pardon... oh! Qu'il est beau, mon Idéal! Je ne l'ai pas encore rencontré, mais il est l'âme de tout, de tout!...»

Ah! Vois-tu, jeune fille, le soir est trop beau et trop doux dans les montagnes du Liban, et l'immense héritage des siècles qui s'éparpille en toi te rend trop triste et trop rêveuse... O Lamia, veille sur ton cœur!

L'aurore blanchissait les contours de l'horizon et les nuages parsemés ça et là au firmament se coloraient délicatement de rose, de bleu, de mauve mélangés d'or. Lamia n'avait que très peu dormi car elle songeait au bel étranger déjà plusieurs fois rencontré chez sa tante de Beyrouth.

Etait-ce «l'Idéal»?

La jeune Libanaise rejeta au loin ses couvertures et d'un geste charmant releva les boucles récalcitrantes de ses cheveux noirs. Puis, sautant au bas de son lit, elle vint s'accouder à la fenêtre. Car Lamia, la petite enfant du village élevée chez les bonnes sœurs à Beyrouth, avait comme toutes les jeunes filles – soient-elles parisiennes ou paysannes – un petit coin aimé où elle s'isolait pour rêver, pleurer ou se souvenir...

Elle demeura longtemps songeuse, regardant sans les voir, les splendeurs du matin. Tout se confondait devant ses beaux yeux d'Orientale aimante et sur la longue ligne harmonieuse des montagnes environnantes, dans les vallées creusées par les hauteurs voisines, dans l'air bleu du matin, partout devant elle et autour d'elle, une main invisible traçait en lettres lumineuses un nom qu'elle avait mille fois lu et relu pendant ses rêves d'insomnie: Fouad!

Fouad... elle murmura ce nom en souriant, et ayant jeté un manteau sur ses épaules, elle sortit de sa chambre et de la maison et s'en fut rêver sur les terres de son père.

AMIA(**)

(Souvenirs du Liban)

– «C'est la volonté de ton père», disait la tante.

– «Ah, ma chère tante, ma chère amie! C'est la volonté de mon père mais non la mienne. Et moi, je refuse, je n'en veux pas de cet homme!»

– «Mais, enfin, quelles sont tes objections?»

– «Mes objections? Elles n'existent pas», répondit Lamia. «D'accord, que ce monsieur est «parfait», pour parler comme mon père. Mais cette perfection m'est insupportable et je n'en veux pas!»

– «Aurais-tu dans l'imagination le portrait de quelque prince charmant? Aurais-tu un «Idéal»? Dis!»

Lamia se tut un moment, puis murmura: «Je ne sais pas!»

– «Enfin», dit la tante en se levant pour partir, «réfléchis beaucoup, ô Lamia, tâche d'être raisonnable et d'obéir à ton père. N'oublie pas de venir demain, car j'aurai quelques-uns de mes parents de Beyrouth. Viens de bonne heure et on s'amusera.»

Son amie partie, la jeune fille se dirigea vers la fenêtre. Glorieusement, le soleil s'en allait et le soir, accablant de douceur, tombait sur les montagnes libanaises. Elle regarda le crépuscule où se baignait la colline, maintenant presque irréelle, faisant face à son cher village. Et à mesure que les choses se brouillaient et s'effaçaient dans l'obscurité, leur âme semblait grandir et devenir de plus en plus imposante, pendant que les rêves du jeune cœur indécis devant la vie cherchaient à prendre corps en se formulant.

– «Mon idéal?», se dit-elle. «Au fait, mon idéal, je n'y ai jamais songé. Comment est-il le «prince charmant» de mon imagination, comme dit ma tante de Beyrouth, cherchons un peu!

Mon idéal est plutôt grand, car j'ai toujours éprouvé un peu de pitié pour les personnes de toute petite taille. Il est donc grand et bien fait. Il a de la moustache et il fume... C'est même un grand fumeur... Un homme qui ne fume pas n'est qu'une sotte petite fille et ressemble singulièrement à l'insupportable «perfection» tant vantée par mon père.

Mon idéal a de beaux yeux bleu-vert, terribles ces yeux, comme la mer en colère et calmes comme les flots en méditation... Il a la physionomie intéressante et le sourire doux. Oui, son sourire est d'autant plus doux qu'il a la bouche fort belle, bien que les dents ne soient pas parfaites. Il parle fort

chalumeaux, les cœurs brûlants de tes enfants et l'inépuisable puissance de création inhérente à toi!

Vois-tu ce ciel qui est tien, déployé dans sa somptuosité d'azur voilé d'or, d'argent et de pourpre entremêlés?

Il est celui qui inspira les grands messages de l'humanité et abrita les initiations et les prophéties. Car tu fus désigné, ô Orient, pour être la mère patrie des premiers héros et des initiateurs.

Trois siècles de repos t'étaient légitimement dus après tant de siècles de labeur et de gloire. Il était juste que le flux magnifique et bienfaisant de tes civilisations, cédant à la loi inexorable des alternatives, se retirât pour un temps dans un reflux fatal. Mais voilà que la même loi, dominant la marée nouvelle et la guidant, sonne l'heure du réveil et de la marche en avant. Debout donc malgré les embûches, les calamités et les découragements!

Debout!

Autour de toi les forts luttent, triomphent et se glorifient dans le butin de la victoire. Ne les entends-tu pas néanmoins gémir dans la nuit: jusques à quand attendrons-nous l'aurore qui doit luire?

Pauvres puissants, faibles forts, savants admirables qui ignorez l'alphabet!

L'aurore peut-elle luire avant que l'Est ne soit inondé de rayons?

Tu es la Tour de Clarté, ô mon Orient! Tu es le dispensateur de la Lumière!

Lève-toi donc, et à l'œuvre en attendant qu'apparaisse dans tes horizons la torche de lueurs et de flammes!

ISIS COPIA (MAY)

(*) مجلّة *L'Egyptienne* ، س ٢، ع ١٣، شباط/فبراير ١٩٢٦، ص ١٢ - ١٣ . نُشرت ترجمة لهذا النشيد إلى العربية لجورج نيقولاوس في المقتطف، ج ٨٥، ع تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٤، ص ٣٥٩ - ٣٦٠، وهي مضمّنة في «المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة»، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢، ج ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

HYMNE A L'ORIENT

Orient!

Ô mon Orient immense et farouche et tendre!

Ô Orient de la fierté, de la bravoure, de l'enthousiasme et du délire aussi impétueux que le Simoun du Sahara!

Mon imagination te renferme encadré comme un tableau. Et voilà que se précisent devant moi tes imperfections, tes troubles, tes besoins et l'enchevêtrement de tes passions.

Point ou peu de richesses organisées dans ton sein, point de prodiges de la civilisation du siècle. Tu es pauvre de banques, de chantiers, d'associations, de toutes les institutions qui sont l'orgueil et la puissance des forts. Tu es pauvre d'écoles, d'asiles, de musées, de laboratoires, de collections d'art, d'histoire et de science apportées des contrées lointaines. Tu manques de savoir. Tes ressources sont dispersées et tu es désuni et sans ensemble.

Je sais tout cela. Et cependant ma confiance en ton destin est aussi absolue que mon assurance dans la vie même.

Quelle est donc cette force qui me rive à toi?

Pourquoi chérir ainsi de ta langue le parler élégiaque et nostalgique, l'accent guttural et rapide et l'hallali clamant l'orgueil de la race et propageant l'incandescence de tes zones torrides?

Quelles affinités multiples et insaisissables me rattachent à la langue antique des populations dans tes grandes cités, des nomades sous leurs tentes dans l'aridité des déserts, de tribus éparpillées le long de tes fleuves ou groupées autour de tes fontaines, de tous ces clans répandus sur les flancs de tes montagnes et dans les profondeurs de tes vallées?

Que m'a-t-elle donc confié cette langue arabe dans le passé des âges pour qu'en entendant ses dialectes je me sente parfois émue jusqu'aux larmes – des larmes d'attendrissement comme celle qu'on verse dans le revoir, après une longue séparation?

Ton instinct tenace et insondable, Orient, m'hypnotise et me subjugue, moi, atome minime parmi les millions de millions de tes atomes. Et malgré ma petitesse, tu as enchâssé en moi tes déserts et tes plaines, tes cimes inaccessibles et les antres de tes vallons, tes défauts et tes vertus, les terribles bourrasques de tes climats et les chants plaintifs de tes

L'Egyptienne (1926 - 1933)

فهرس المصادر والمراجع

المصادر

الأعمال المجهولة لميّ زيادة، تحقيق جوزيف توفيق زيدان، تقديم غادة السمّان، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي ١٩٩٦.

باحثة البادية [اسم مستعار لملك حفني ناصف]: النسائيات: مجموعة مقالات نُشرت في الجريدة في موضوع المرأة المصرية، الطبعة الثانية، الجزءان الأوّل والثاني، القاهرة: مطبعة التقدّم د.ت.

بركات، داود: «في الثيوصوفية (علم الحكمة): هل تعود حنة بيزانتي إلى الوجود بعد الممات لتشهد استقلال الهند؟؟»، الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٥٧، ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣١، ص ١.

بقطر، أمير: «رجعية غير منتظرة في التعليم الإجباري»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٤، ١٥ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١، وع ١٦١٨٧، ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١.

بقطر، أمير: «معنى التعليم الإجباري: حول مقال الآنسة ميّ»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٥٧، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ١.

بقطر، أمير: «مشكلة المشاكل: التعليم»، سلسلة مقالات من أربع حلقات، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٧٤، ٢٠ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ و١٣؛ ع ١٧٦٧٥، ٢١ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ و١٠؛ ع ١٧٦٧٧، ٢٣ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ و٣، وع ١٧٦٧٨، ٢٤ شباط/فبراير ١٩٣٤، ص ١ و٣.

الجمل، حسين: «من شاعر إلى الشاعرة الآنسة ميّ»، الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨٠٧، ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٣١، ص ١.

حسن، محمّد عبد الغني: «على وقع قصف المدفع لشاعر الأهرام إلى الآنسة النابعة ميّ»، الأهرام، س ٥٧، ع ١٦٨١٠، ٢٤ أيلول/سبتمبر ١٩٣١، ص ٢.

حمدان، محمّد محمود: من رسائل العقّاد، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧.

ديوان ابن الفارض، بيروت: المطبعة الأدبية ١٨٩١.

ديوان إسماعيل صبري، صحّحه وضبطه وشرحه ورتّبه الأستاذ أحمد الزين بدار الكتب المصرية وقام بجمعه صاحب العزّة حسن رفعت بك المستشار بمحكمة الاستئناف سابقاً، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨.

ديوان مهيار الديلمي، تحقيق أحمد نسيم، دار الكتب المصرية، القسم الأدبي، ج ١، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥.

شعفان، إسماعيل شلبي: «لا وطن إلاّ بالدين»، الفتح، ٥ آيار/مايو ١٩٢٧، ص ١٣-١٥.

شمس، رياض: «الإصلاح الاجتماعي أوّلاً ثمّ التعليم الإجباري»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٦١، ٢ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١.

شوقي، أحمد: الشوقيات، ج ١، القاهرة: مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية د.ت.

صرّوف، فؤاد: على الطريق، بيروت: مطبعة قلفاط ١٩٥٤.

العقّاد، عبّاس محمود: ديوان العقّاد، ٤ أجزاء في مجلّد، أسوان: مطبعة وحدة الصيانة والإنتاج ١٩٦٧.

غلوش، أحمد: «بين الآنسة النابغة ميّ وجمعية منع المسكرات العامّة»، الأهرام، س ٥٨، ع ١٦٩٥٨، ٢٢ شباط/فبراير ١٩٣٢، ص ٣.

فوزي، عزيزة: «مشكلة المشاكل: التعليم»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٨٩، ٧ آذار/مارس ١٩٣٤، ص ١ و١٣.

القوصي، إحسان: «مشكلة المشاكل: التعليم»، الأهرام، س ٦٠، ع ١٧٦٨٦، ٤ آذار/مارس ١٩٣٤، ص ١.

الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية ١٨٨٣-١٩٣٣، صدر عن وزارة الحقّانية المصرية، جزءان، بولاق: المطبعة الأميرية ١٩٣٧-١٩٣٨.

الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ١٨٧٦-١٩٢٦، القاهرة: مطبعة المقتطف والمقطّم ١٩٢٦.

«مراقب التعليم الأولي يتكلّم عن التعليم الإجباري: بيانات وافية تبدّد مخاوف الآنسة «ميّ» وتطمئن الأستاذ أمير بقطر. ضرورة التعجيل بإصدار قانون التعليم الإجباري»، مقابلة مع محمّد السيد بك، مراقب التعليم الأولي بوزارة المعارف العمومية، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٦٢، ٣ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١.

مطران، خليل: ديوان الخليل، ج ١، الطبعة الثانية، القاهرة: مطبعة دار الهلال ١٩٤٩.

منصور، أنيس: كانت لنا أيّام في صالون العقّاد، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الشروق ١٩٨٣. [سبق نشره على حلقات متتابعة بمجلّة «أكتوبر» في الفترة من ٢٨ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٨٠ إلى ٢٥ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٨١.]

المؤلّفات الكاملة: ميّ زيادة، جمع وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢.

ميّ زيادة وأعلام عصرها: رسائل مخطوطة لم تُنشر ١٩١٢-١٩٤٠، جمع، تقديم وتحقيق سلمى الحفّار الكزبري، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٢.

[الناصحة]: «ماذا تقرأ عروسك؟؟؟»، الأهرام، س ٥٩، ع ١٧٣٩٠، ٩ آيّار/مايو ١٩٣٣، ص ١.

نصّار، محمّد: «حول التعليم الإجباري»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٦١٧٩، ٢٠ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٩، ص ١.

نصوص خارج المجموعة: ميّ زيادة، إعداد أنطوان محسن القوّال، بيروت: دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٣.

هيكل، محمّد حسين: «حضارة الشرق، متى بعثت من جديد لتضيء ظلام المدنية الغربية»، السياسة الأسبوعية، ٢٩ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٨، ص ٣-٤.

هيكل، محمّد حسين: حياة محمّد، القاهرة: مطبعة مصر ١٩٣٥. (نُشرت فصول من الكتاب في السياسة الأسبوعية من ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٣٢ إلى ١٥ حزيران/يونيو ١٩٣٤.)

هيكل، محمّد حسين: «العقل والروح»، السياسة الأسبوعية، ١٨ آيار/مايو ١٩٢٩، ص ٣-٤.

هيكل، محمّد حسين: «نهاية الحضارة الغربية»، الهلال، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٩، ص ٥٧-٦٠.

هيكل، محمّد حسين: «النور الجديد»، الهلال، شباط/فبراير ١٩٢٨، ص ٣٩٩-٤٠٣.

وجدي، محمّد فريد: «إلى الآنسة الفاضلة ميّ»، الأهرام، س ٥٥، ع ١٥٩٨٣، ٢٣ آيار/مايو ١٩٢٩، ص ١.

المراجع

أ- العربية:

أعلام مصر في القرن العشرين، (موسوعة وكالة أنباء الشرق الأوسط)، رئيس التحرير مصطفى نجيب، القاهرة: وكالة أنباء الشرق الأوسط ١٩٩٦.

بدوي، عبد الرحمن: موسوعة المستشرقين، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤.

بدوي، عبد الرحمن محمّد: كامل كيلاني وسيرته الذاتية، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٩٩.

حسن، محمّد عبد الغني: حياة ميّ، القاهرة: مطبعة المقتطف ١٩٤٢.

حسن، محمّد عبد الغني: ميّ أديبة الشرق والعروبة، القاهرة: عالم الكتب ١٩٦٤.

حمادة، حسين عمر: أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها، دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٣.

داغر، يوسف أسعد: قاموس الصحافة اللبنانية ١٨٥٨-١٩٧٤ وهو معجم يعرّف ويؤرّخ للصحف والدوريات التي أصدرها اللبنانيون في لبنان والخارج، (منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأدبية)، بيروت: المكتبة الشرقية ١٩٧٨.

داغر، يوسف أسعد: مصادر الدراسات الأدبية، (منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأدبية، ٧)، ٤ أجزاء في ٥ مجلّدات، بيروت: المكتبة الشرقية ١٩٨٣.

الدسوقي، عاصم: كبار ملّاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤-١٩٥٢)، رسالة الدكتوراة، القاهرة، جامعة عين شمس ١٩٧٥، القاهرة: دار الثقافة الجديدة ١٩٧٥.

رضوان، فتحي: عصر ورجال، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧.

الزحلاوي، حبيب إلياس: أدباء معاصرون، القاهرة: مطبعة الإخاء بالرويعي ١٩٣٥.

الزركلي، خير الدين: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة التاسعة، ٨ أجزاء، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٩٠.

زيدان جوزيف: مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث (١٨٠٠-١٩٩٦)، الطبعة العربية الأولى، بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٩.

سالم، لطيفة محمّد: النظام القضائي المصري الحديث ١٩١٤-١٩٥٢، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٨٦.

سعد، فاروق: باقات من حدائق ميّ، الطبعة الأولى، بيروت: منشورات زهير بعلبكّي ١٩٧٣، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الآفاق الجديدة ١٩٨٣.

سعد، فاروق: السرّ الموزّع للآنسة ميّ، بيروت: دار الثقافة ٢٠٠٣.

سكاكيني، وداد: ميّ زيادة في حياتها وآثارها، القاهرة: دار المعارف ١٩٦٩.

ضاهر، مسعود: الهجرة اللبنانية إلى مصر: «هجرة الشوام»، (منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ٣٤)، بيروت: المطبعة الكاثوليكية ١٩٨٦.

الطماوي، أحمد حسين: ليلة باسمة في حياة ميّ: دراسة أدبية [ويضمّ مقالات ورسائل وقصصاً لميّ لم تُجمع في كتبها]، (سلسلة المجهول من تراث الأعلام)، القاهرة، طرابلس ولندن: دار الفرحاني ١٩٩٦.

عبده، إبراهيم: جريدة الأهرام: تاريخ وفنّ ١٨٧٥-١٩٦٤، القاهرة: مؤسّسة سجلّ العرب ١٩٦٤.

العقّاد، عبّاس محمود: رجال عرفتهم، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٦٣.

العقيقي، نجيب: المستشرقون: موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتّى اليوم، ٣ أجزاء، القاهرة: دار المعارف بمصر ١٩٦٤-١٩٦٥.

غريّب، روز: ميّ زيادة: التوهّج والأفول، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٧٨.

فلسطين، وديع: ميّ: حياتها وصالونها وأدبها، الفجّالة والإسكندرية: دار ومطابع المستقبل ١٩٦٨.

فهمي، منصور: خطرات نفس، القاهرة: مطبعة المعارف ١٩٣٠.

فيّاض، محمود: الصحافة العربية والاتّجاهات القومية ١٩١٤-١٩٤٠، الجزء الأوّل، القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٩٧٦.

قاموس التراجم القبطية، الإسكندرية: جمعية مارمينا العجائبي للدراسات القبطية ١٩٩٥.

قاموس المسرح، تحرير وإشراف د. فاطمة موسى محمود، خمسة أجزاء، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٩٦-١٩٩٩.

الكتب العربية التي نُشرت في مصر بين عامي ١٩٢٦-١٩٤٠، إعداد عايدة إبراهيم نصير، القاهرة: قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٨٠.

الكتب العربية التي نُشرت في مصر بين عامي ١٩٠٠-١٩٢٥، إعداد عايدة إبراهيم نصير، القاهرة: قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٨٣.

كحّالة، عمر رضا: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، الطبعة الثالثة، ٥ أجزاء، بيروت: مؤسّسة الرسالة ١٩٧٧.

كحّالة، عمر رضا: معجم المؤلّفين، تراجم مصنّفي الكتب العربية، ١٥ جزءاً، دمشق: المكتبة العربية ١٩٥٧-١٩٦١.

الكزبري، سلمى الحفّار: ميّ زيادة أو مأساة النبوغ، جزءان، بيروت: مؤسّسة نوفل ١٩٨٧.

كلّاس، جورج: الحركة الفكرية النسوية في عصر النهضة ١٨٤٩-١٩٢٨، بيروت: دار الجيل ١٩٩٦.

كمال الدين، محمّد: روّاد المسرح المصري، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر ١٩٧٠.

محمّد، محمّد سعيد: هيكل والسياسة الأسبوعية، (تاريخ المصريين، ٩٨)، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٩٦.

محمود، حافظ: عمالقة الصحافة، القاهرة: دار الهلال ١٩٧٤.

مصطفى، نوال: ميّ زيادة: أسطورة الحبّ والنبوغ، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ والطبعة الثالثة ٢٠٠٣.

المطيعي، لمعي: هؤلاء الرجال من مصر، (تاريخ المصريين ٦، ٣٢ و٦٢)، ٣ أجزاء، القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٨٧-١٩٩٣.

معجم المطبوعات العربية والمعرّبة وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلّفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ ميلادية، جمعه ورتبه يوسف اليان سركيس، جزءان، مصر: مطبعة سركيس ١٩٢٨-١٩٣٠، إعادة الطبع القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ١٩٦٨.

«ميّ زيادة تشعل الحرب بين دلال وليلى ويسرا»، جريدة «الرأي العامّ» الكويتية، ع ٢١ يوليو/تمّوز ٢٠٠٤، باب «مواضيع خاصّة».

ب- الأجنبية:

Adib, Aida: *Mayy Ziyadah and Her Contribution to Arabic Literature*, M.A. thesis, The American University of Cairo, Center for Arabic Studies, December 1966.

Arberry, Arthur J.: *British Orientalists*, London (William Collins Sons and Co. Ltd.) 1943.

Badran, Margot: *Feminists, Islam, and Nation. Gender and the Making of Modern Egypt*, Princeton, New Jersey (Princeton University Press) 1995.

Baron, Beth: *The Women's Awakening in Egypt. Culture, Society, and the Press*, New Haven / London (Yale University Press) 1994.

Blattner, Elwyn James (ed.): *Who's who in Egypt and the Near East? The Leading Biographical Work in the Near East, Egypt, Sudan, Cyprus, Lebanon, Syria, Jordan, Iraq, Pakistan, Saudi-Arabia, India, Pakistan, Ceylon, Indonesia, Ethiopia, Aden, and Bahrain*, 18th ed., Cairo (Barbey) 1952.

Bosworth, Clifford Edmund (ed.): *A Century of British Orientalists, 1902-2001*, (British Academy centenary monographs), Oxford (Oxford University Press) 2001.

Brugman, Jan: *An Introduction to the History of Modern Arabic Literature in Egypt*, (Studies in Arabic Literature, Supplements to the Journal of Arabic Literature, Vol. X), Leiden (E. J. Brill) 1984.

Davis, Eric: *Challenging Colonialism: Bank Misr and Egyptian Industrialization, 1920-1942*, Princeton, New Jersey (Princeton University Press) 1983.

Deeb, Marius: "Bank Misr and the Emergence of the Local Bourgeoisie in Egypt", in: *Middle Eastern Studies* 12 (Oct. 1976) 3, pp. 69-86.

Fargeon, Raoul: *Silhouettes D'Egypte (Lettrés et Mondains du Caire)*, Le Caire (Éditions De „Orient“) 1931.

Gershoni, Israel / Jankowski, James P.: *Redefining the Egyptian Nation 1930-1945*, (Cambridge Middle East Studies, 2), Cambridge (Cambridge University Press) 1995.

Goldschmidt, Arthur Jr.: *Biographical Dictionary of Modern Egypt*, Boulder / London (Lynne Rienner Publishers, Inc.) 2000.

Hinds, Martin / Badawi, El-Said: *A Dictionary of Egyptian Arabic: Arabic-English*, Beirut (Librairie du Liban) 1986.

Jankowski, James Paul: *The Young Egypt Party and Egyptian Nationalism, 1933-1945*, Michigan Univ., Phil. Diss. 1967, Ann Arbor, Mich. (Univ. Microfilms) 1982.

Johansen, Baber: *Muḥammad Ḥusain Haikal: Europa und der Orient im Weltbild eines ägyptischen Liberalen*, (Beiruter Texte und Studien, Bd. 5), Wiesbaden (Franz Steiner Verlag) 1967.

Khoury, Raif Georges: *Mayy Ziyāda (1886-1941) entre la Tradition et la Modernité ou le Renouvellement des Perspectives Culturelles et Sociales dans son Œuvre, à l'image de l'Europe*, (Tradition et modernité dans le monde arabe – hier et aujourd'hui, Études IV), Edingen-Neckarhausen (deux mondes) 2003.

Landman, Isaac (ed.): *The Universal Jewish Encyclopedia in Ten Volumes. An Authoritative and Popular Presentation of Jews and Judaism since the Earliest Times*, New York (Universal Jewish Encyclopedia Co. Inc.) 1948.

Meisami, Julie Scott / Starkey, Paul (eds.): *Encyclopedia of Arabic Literature*, 2 vols., London / New York (Routledge) 1998.

Philipp, Thomas: *The Syrians in Egypt 1725-1975*, (Berliner Islamstudien, Bd. 3), Wiesbaden / Stuttgart (Franz Steiner Verlag) 1985.

Politis, Athanase G.: *L'Hellénisme et l'Egypte Moderne*, 2 tomes, Paris (Librairie Félix Alcan) 1929-1930.

Reid, Donald M.: "The National Bar Association and Egyptian Politics, 1912-1954", in: *The International Journal of African Historical Studies* (African Studies Center, Boston/Mass.) VII (1974) 4, pp. 608-645.

Rizk, Yunan Labib: "A Diwan of Contemporary Life (330): Lively and Provocative", in: *Al-Ahram Weekly Online* (23-29 March 2000), Issue No. 474, "Chronicles". [http://weekly.ahram.org.eg/2000/474/chrncls.htm]

Rizk, Yunan Labib: "A Diwan of Contemporary Life (427): A Literary Genius", in: *Al-Ahram Weekly Online* (31 Jan. – 6 Feb. 2002), Issue No. 571, "Chronicles". [http://weekly.ahram.org.eg/2002/571/chrncls.htm]

Rizk, Yunan Labib: “A Diwan of Contemporary Life (445): Moral Cleansing”, in: *Al-Ahram Weekly Online* (6-12 June 2002), Issue No. 589, “Chronicles”. [http://weekly.ahram.org.eg/2002/589/chrncls.htm]

Rizk, Yunan Labib: “Women Police”, in: *Al-Ahram Weekly Online* (5-11 September 2002), Issue No. 602, “Chronicles”. [http://weekly.ahram.org.eg/2002/602/chrncls.htm]

Semah, David: *Four Egyptian Literary Critics*, (Studies in Arabic Literature, 3), Leiden (E. J. Brill) 1974.

Smith, Charles: *Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt: A Biography of Muḥammad Ḥusayn Haykal*, Albany (State University of New York Press) 1983.

Wininger, Salomon (Hrsg.): *Große jüdische National-Biographie mit mehr als 11.000 Lebensbeschreibungen namhafter jüdischer Männer und Frauen aller Zeiten und Länder. Ein Nachschlagewerk für das jüdische Volk und dessen Freunde*, 7 Bde., Czernowitz („Orient“ Druckerei u.a.) 1925-1936.

World Biographical Index CDROM-Online, Braunschweig / München (K.G. Saur Verlag) 1998-2004.

Zeidan, Joseph T.: *Arab Women Novelists: The Formative Years and Beyond*, Albany, N.Y. (State University of New York Press) 1995.

Ziegler, Antje: “Al-ḥaraka baraka! The Late Rediscovery of Mayy Ziyāda’s Works”, in: *Die Welt des Islams* 39 (1999) 1, pp. 104-115.

Ziegler, Antje: “Arab Literary Salons at the Turn of the 20th Century”, in: Klemm, Verena / Gruendler, Beatrice (eds.): *Understanding Near Eastern Literatures: A Spectrum of Interdisciplinary Approaches*, (Literaturen im Kontext: arabisch-persisch-türkisch, 1), Wiesbaden (Reichert Verlag) 2000, pp. 241-253.

فهرس الأعلام

أباظة، محمد فكري ٢٩٥، ٥٢٠، ٧٦٤، ٧٦٦هـ
إبراهيم آغا مستحفظان ١٥٨
إبراهيم باشا ٣٥٣
إبراهيم (البرنس) ١٥٦
إبراهيم (الخليل) ٢٦٣
إبراهيم، علي ٦٤٧، ٦٤٩هـ، ٦٥٧، ٦٦٦
إبراهيم، يحيى ٢٧٠، ٢٧٢هـ، ٣٢٣
إبكتتس ٤٤٢
أبلت بك ٣٩٦
ابن خلدون، عبد الرحمن ١٩٢، ٢٣١
ابن سينا، أبو علي ٤٤٢
ابن طولون، أحمد ١٢٥، ١٣١
ابن الفارض، عمر بن علي ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤هـ، ٣٨٤هـ
ابن مسكويه، أبو علي أحمد ٤٤٢
أبو بكر الصدّيق ١٥٢
أبو شبّاك، علي ١٥٧
أبو ضُربة ١٩٥
أبو الفتح، محمود ٣٩٢، ٣٩٤هـ
أبو الفداء، إسماعيل ١٩٢
أبو الهول ١١٨، ١٦٤، ٤٧٢، ٥١٨، ٥٨٠-٥٨١، ٦٠١، ٦٢٢، ٧٧١
أبولون ٥٤٦
آپولونيوس التياني ٧٧٤، ٧٨٠هـ
آبيس ٤٧١، ٤٧٣هـ
اتحاد المزارعين بمصر ٤٨١
الاتحاد النسوي (النسائي) المصري ١٠٨، ٥٩١، ٧١٣، ٧١٦
أتكنسن، وليم ووكر ٦٥٤، ٦٥٨هـ
الأتمن ٤٢٦، ٤٢٩هـ
الأتنا ١١٧
أثينا ١١٩، ٦٠٨، ٦٥٦، ٧٧١
الإجبشن غازيت (جريدة) ٥٩٢، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩
أحمد، إحسان ٣٣١
أحمد، عبّاس سيّد ٢٨٥
أحمد، عطيات ٧١٥
أحمد، محمد حمدي ٥٠٩، ٦٤٣، ٦٤٥هـ
أحمد، محمود ١٢٥، ١٣٧
أحمد، يوسف ١٢٤، ١٢٥، ١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٧
أحمد آباد ٤٢٦، ٤٢٨
إخوان الصفا ٤٤٢، ٤٤٣
أدريانوس ١٨٧
إدّه، إميل (مدام) ٨٢٦
إديسن، توماس ألفا ١٤٦، ١٤٨هـ، ٣٣٦-٣٣٩، ٤٤٣، ٤٥٢-٤٥٦، ٤٥٧هـ
أرْحونا ٤٧٥

الأرز ٦٤، ٨٢٧
أرسطو (أرسطاطاليس) ٨٥، ١٠٥، ٢٢٨، ٤٧٠، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٩٦، ٥٩٩هـ، ٨١٦
أرسينويه ١٩٠، ١٩١
أرفيوس ٧٧١، ٧٧٩هـ
أرواد ٣٠، ٣١هـ
أريترية ٦٦٠
الأزبكية ٢٠٣، ٢٠٥، ٧٣١
إسبارطا (إسبارطة) ٦٠٨، ٦٤٨، ٦٤٩
إسبانيا ٣١، ٤١٤، ٤٧٧، ٦٤٣
الأستانة ١٣١، ٢١٦
استرابون ١٩٠
أستراليا ٣٠، ٢٥٧
استرمبلي ٣٥٣، ٣٥٦هـ
أسخيلوس ٥٨٥، ٥٨٨هـ
إسترهازي، كارولينه ٢٠٥، ٢٠٧هـ
استوكهلم ٣٦١
إسرائيل ١٨٩
إسطنبول ٦١٠
إسكندر (ابن الإسكندر الكبير) ٤٧١
الإسكندر الكبير ١١٩، ١٤٢، ١٨٧، ٤٦٩-٤٧٣، ٥٧٣، ٥٩١، ٦١٠، ٧٧٣، ٨٠٢
الإسكندرية ١٠٦، ١١٨، ١١٩-١٢٠، ١٢١، ١٧١، ١٨٦، ٢١٦، ٢٣٧، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٥٣، ٣٩٥، ٤٤٢، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٥٣٠، ٥٥٠، ٥٩١، ٦١٢، ٧٧١
إسلام، علي ١٩٧، ٢٠٢هـ
إسماعيل باشا ١٣٧، ١٣٨، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٨٥، ٣١٤، ٣٧٠، ٣٨٢
إسماعيل بن محمد (الملك الصالح عماد الدين) ١٣٥
أسوج ٩٧
آسيا ١٨٩
آسيا الصغرى ١٥٨
الأسّينيون ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٧٧١، ٧٧٢
أسيوط ٦٤٨
آشور (أشور) ٣٠٢، ٧٧١، ٧٨٣
أطلس ٥٥٤
إغريقيا ٣٠٢، ٤١٤، ٧٧٣
أغسطس (أغسطوس) قيصر ٣٠٣، ٣٢٥، ٦٠٨
أغسطينوس ٤٤٢
إفريقيا ١٨٩، ٢٥٧، ٤١٤، ٤١٥، ٦٤٢
أَفَسُس ٧٧٢
الأفغاني، جمال الدين ٣٤١، ٣٧٠
أفقا ٦٥
أفلاطون ١٨٧، ٤٢٧، ٤٣٧، ٤٤٢، ٥٥١، ٥٦٨، ٦٦١، ٦٨٩، ٧٧١
أفلوطين ١١٩، ١٢٢هـ، ٤٣٧، ٤٤٢، ٧٧١، ٧٧٤
آق سنقر ١٥٨

الأقصر ٨٢، ٥٦١
أكسفورد ٥٣١، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٨، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٦٢٢
الألزاس ٤٢
ألف باء (جريدة) ١٠
ألفونسو الثالث عشر ٥، ٩هـ
أللني، إدموند هنري هاينمن ٧١٠، ٧١٢هـ
ألمانيا ٦، ٣١، ١٠١، ٢٧٠، ٣١٨، ٣٧٨، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٨٧، ٤٨٨، ٦٠٥، ٦١١، ٦٧٦
ألمبوس (انظر أولمبوس)
ألن، ماري صوفيا ٣٩٥، ٣٩٧هـ
الإلياذة ٤٧٤، ٤٧٩هـ، ٥٥١، ٧٨١، ٧٨٢
إلينويس ٢٥٦
إمبابه ٢٣٦، ٢٤٠هـ
الإمبرسيالي (جريدة) ٧١
إمحوتب ٢١٠، ٢١٢هـ
إمرسن، رالف والدو ٤٢٧، ٤٣٠هـ
أمريكا ٢٨، ٤١، ٦٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٠، ٣٣٧، ٣٧٦، ٣٧٨، ٤٤٦، ٤٥٢، ٥٤٠، ٥٥٢، ٥٦٩، ٦٢٥، ٦٢٩، ٧٧١، ٧٨٧
أمريكا الشمالية ٣٧٥
أموري (ملك أورشليم) ١٨٧
آمون — رع ٤٧١
أمير الصعيد (انظر فاروق (الأمير))
أميركا (انظر أمريكا)
أمين، قاسم ٣٣، ٣٤، ١١٢، ٣٠٧، ٣٠٩هـ، ٣٧٠، ٥٠٩، ٥٩٦، ٧٨٤
أمينة إسماعيل (الأميرة) ٤١٦، ٤١٨هـ
الأنال (مجلّة) ١٠٧، ١٠٩هـ
إنجلترا ٦، ٢٨، ٣٠، ٩٦، ١٠٤، ٢٢٥، ٣٠٧، ٣١٨، ٣٢٥، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٥، ٤٠٩، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٢٨، ٥٢٠، ٥٤٠، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٩٨، ٦٠٨، ٦١٨، ٦٢٥، ٦٣١، ٦٨٩، ٧٩١
إنجلس، فريدريش ٣٧٨، ٣٨٣هـ
الأندلس ١٣٦، ٢٨٣، ٢٨٤
الأنسكلوبيديون (الأنسيكلوبيديون) ٨٨، ٥٦٩
أنطون، فرح ٣٧٨، ٣٨٤هـ
أنطونيو (انظر مركوس أنطونيوس)
أنيس، حسن ٣٩٢، ٣٩٤هـ
الأهرام ١١٧، ١١٨، ١٢٣، ١٢٦، ١٦٤، ١٨٦، ٢٣٩، ٢٩٧، ٣١٢، ٣٥٣، ٣٧٢، ٣٨٠، ٤٧٢، ٥٨٠، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٢٢، ٦٩٠، ٧٧١
الأهرام (جريدة) ٥، ١٠، ٢٢، ٢٧، ٩٧، ١٣٧، ٢٨٦، ٢٩٢، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٨، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٧٠-٣٧٢، ٣٧٨، ٣٨٥، ٣٩٦، ٣٩٧هـ، ٤٣٧، ٤٥٤، ٤٦٦،

٤٦٧، ٤٧٤، ٥٠٢، ٥٢١، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٤٧هـ، ٥٩٠، ٦٥٧، ٦٦٥
أودُكسُس ١٨٧، ٢٠٠هـ
أوديب ٨٢
الأوذيسا ٤٧٤، ٤٧٩هـ، ٥٥١
أوربا (أوروبا) ٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٤١، ٥٤، ٦٥، ٦٨، ١٠٦، ١٤٧، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٨٠، ٣٤٦، ٣٧٦، ٤١٤، ٤١٥، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٦، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٣، ٥٩٨، ٦١١، ٦١٢، ٦٢٥، ٦٨٣، ٧٧١، ٧٧٧، ٧٨٧، ٧٩٧
أورشليم ١٢٤، ٢٦٣، ٣٠٢، ٦٤٢
أوزيريس ٦٠١
آوستر، جويدو ٦١١، ٦١٥هـ
أوستراليا (انظر أستراليا)
أوكسفورد (انظر أكسفورد)
أولمبوس ٥٥٥، ٥٩١
أومبرتو (البرنس) ١٥٧، ٦١٤، ٦١٥هـ
إيثاكا ٥٥١
إيران ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٧٧٢
إيرلندا ٨٧
إيزيس ٣٨٠، ٤٧٢، ٥٠٩، ٥٧٥، ٥٧٦، ٦٠٠-٦٠١، ٧٢٨، ٧٧١
إيطاليا ٦، ٣٠، ٦٤، ٦٨، ٩٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٧، ٢٠٩، ٢٢٤، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٧٩، ٤١٤، ٤٧٧، ٤٨٩، ٥٤٠، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٨٧، ٦٠٥، ٦١٣، ٦١٤، ٦٢٥، ٦٤٣، ٦٧٤
الإيلياذة (انظر الإلياذة)
أيوب بن محمد (الملك الصالح) ١٣٦
الأيوبي (آل) ٢٧
الأيوبي، نعيمة ٥٩١، ٥٩٤هـ
إيونيا ٤٧١

باب زويلة ١٤٠-١٤١، ١٤٢، ١٦٥، ١٦٦
باب الفتوح ١٤١، ١٤٢
باب النصر ١٤١، ١٤٤هـ
البابا ٢١٥، ٣٠٠، ٣٠١، ٥٦٣
بابل ١٢٣، ٣٠٢، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٨٣
بابيلون (انظر منفيس)
بابيني، جوفاني (جيوفاني) ٤٢٥، ٤٢٨-٤٢٩، ٤٥٤
باحثة البادية (انظر ناصف، ملك حفني)
البارودي، محمود سامي ٧٠٥، ٧٠٦هـ
باريس ٧، ٤٢، ١٠٧، ١٠٨، ١٣٠، ١٥٦، ٢٦٨، ٣٢٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٤١٤، ٤٣٦، ٤٦١، ٦٤٣، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٥
باريس، موريس ٤٢، ٤٥هـ
باستور، لويس ٧٧١، ٧٧٨هـ
الباسل، حمد ٧١٠

بافلوفا، آنا ٢٠٤، ٢٠٧هـ
بالاسيّ، إيرين ٤٢٤
باناجوتاتو، أنجليك ٢٣٧، ٢٤٠هـ
البانثيون ٦٨٢
بايكن (بايكون)، فرانسيس ٤٢٧، ٤٣٠هـ، ٧٠٠، ٧٠٢هـ
بتهوفن (انظر بيتهوفن، لودفيغ فان)
البحر الأبيض المتوسّط ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٤١٤، ٤٦٩
البحر الأحمر ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧
بحر العرب ١٩٠
بحيرة لوط ٣٠٢
بحيرة مريوط ٣٠٢
بدر الجمالي (أمير الجيوش) ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤هـ، ١٦٣
بدراوي عاشور، محمد ٧٤٣، ٧٤٤هـ
برّادة، نجيب ٦٦٣
البرازيل ٤٢٤
بران، مورنيك ٣٥٦
برج أيفل ٩٦
برجسن، هنري ٤٣٦، ٤٣٨هـ
بردى ٣٣٥
بركات، داود ١٢٥، ١٢٧هـ، ١٣٧، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ٣٢٠، ٣٧٢، ٣٧٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٤هـ، ٦٢٣-٦٢٤
برلين ٣٦١، ٤٦١
برنتون، جاسبر ييتس ٦٣٠، ٦٣٢هـ
البرهمن ٤٢٦، ٤٢٩هـ
بروتو (بروتوس، ماركوس يونيوس) ٦٥٦
بروكلوس (پروكلوس) ١١٩، ١٢٢هـ، ٧٧١
برونسويج ٦٧٦، ٦٨٠هـ
برونو، جوردانو (جيوردانو) ٤٣٧، ٤٣٨هـ، ٤٤١
بريطانيا العظمى ٣٩١، ٥٩٨، ٦١٠، ٦٢١، ٦٢٥
بريكليس ٥٦٨، ٥٧١هـ
بسامتيك ١٨٧
البستاني (آل) ٧٨٢
البستاني، سليمان ٧٨٢، ٧٨٦هـ
البستاني، نجيب ٧٨١، ٧٨٥هـ
البستاني، وديع ٥٠٩
بسكال، بليز ٧٩، ٨١هـ، ٤٦٥
بشرّي ٨٢٧
البصير (جريدة) ١٧١
بطرسبرج ٩٨
بطليموس بن لاجوس ٤٧٢
بطليموس فيلادِلفوس ١٩٠، ١٩١
بغداد ١٩١، ٧٨٢
البقاع ٣٦
بقطر، أمير ٣٥٢هـ، ٣٥٨، ٣٦٠هـ، ٣٦٦هـ، ٤٠٢، ٤٠٥هـ، ٥٣٠، ٥٣٢، ٥٣٣هـ،

٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٦١٢، ٦١٥هـ
البكري، محمد توفيق ٢٤٨، ٢٥١هـ
بكفيّا ٦٥
بلاتيا ٧٧٣، ٧٨٠هـ
بلاد الإغريق (انظر إغريقيا)
بلاد العجم ١٥٠، ١٩١
بلاد فارس (بلاد الفرس) ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٧١، ٧٧١
البلاغ (جريدة) ٢٩، ٣٨٨، ٤٤٥
بلافاتسكي، هيلينا بيتروفنا ٧٧٢، ٧٧٩هـ
بلاكمن، أيلوارد مانلي ٥٧٣-٥٧٦، ٥٧٧هـ
بلاكمن، وينيفرد ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٧هـ
بلجيكا ٦، ٣١، ٩٧
بلزاك، هونوريه دي ٤٤٩، ٤٥١هـ
بلقيس (ملكة سبا) ٦٤٢، ٦٤٣
بلوار، ماريو أوغستان (الأب) ٢٦٨-٢٦٩، ٢٧١هـ
بليريو، لويس ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩هـ
بليني (بلينيوس الأب) ٧٢٨، ٧٢٩هـ
البندقية ١٩٢، ٥٨٧
بنك مصر ٣٠٧، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣-٤٨٥، ٥٢٦-٥٢٧، ٦٧٥-٦٧٦، ٧٢٩، ٧٤٠، ٧٤١
بنوا، بيير ٦٥، ٦٧هـ
بني سويف ١٩٧
بنيلوبي ٥٥١-٥٥٢، ٦٢٥
البهجاوات جيتا ٤٢٧، ٤٣١هـ، ٤٧٤، ٤٧٦
بهجت، علي ٩٨، ١٠٢هـ
بوانكاره، ريمون ٢٦٩، ٢٧١هـ، ٢٩٥
بودابست ٤٢٤
بوذا ٥٦٨، ٦١١، ٦٦٨، ٧٧٢
بور إبراهيم ١٩٦
بور (بورت) سعيد ٣١٠، ٣١١-٣١٤، ٣١٥
بورجيه، بول ٣٧٥، ٣٨٣هـ، ٧٠٦
بوردو، هنري ٦٥، ٦٧هـ
بوردون، كلود ١٩٢، ٢٠٠هـ
البورص (لا بورص) إجبسيين (جريدة) ٣٧٨، ٣٨٣هـ، ٥٦٤، ٦٠٦
بوز، جاغادس شاندرا ٤٤٢، ٤٤٤هـ
بولاق ٧٨٧، ٧٩٠، ٧٩٢هـ
بولانجه، ليلي ١٠٧، ١٠٩هـ
بولس (الرسول) ٤٤٢، ٤٩٣، ٥٠٣
بولوف، برنهارد فون ٤٨٧، ٤٩٠هـ
بولونيا ٦٧٩
بومباي ٤٣٧
بوهمه، ياكوب ٤٢٧، ٤٣٠هـ
بيت ساحور ٦٣٣، ٦٣٦
بيت مري ٢٥
بيتهوفن، لودفيغ فان ٢٠٣، ٢٠٤، ٤٤٢، ٤٥٣، ٤٥٧هـ
بيثون ٥٤٦، ٥٤٧هـ

بيرانDللو، لويجي ٦٨٤، ٦٨٦هـ
بيروت ٣٠، ٢٨٦، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٦٧، ٨٢٦، ٨٢٨، ٨٣٠
بيريا (مرفأ) ٦٥٦
بيزانت، آني ٤٢٧، ٤٣١هـ، ٤٣٧-٤٣٨، ٤٤٠-٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٤هـ، ٤٧٤-٤٧٥، ٧٧٢
بيزمارك، أوتو فون ٥٨٥، ٥٨٨هـ
بيزنطية ١١٩، ٢١٦
بيكون، روجر ١٣٦، ١٣٩هـ
بيلسودسكي، يوزف كليمنس ٦٧٨، ٦٨١هـ
بينيلوبي (انظر بنيلوبي)
بيهم، محمد جميل ٢٨٦، ٢٨٧هـ
بيو، جوان غابرييل ٨٢٩، ٨٣١هـ
توحيدة هانم (ابنة الخديوي إسماعيل) ١٥٦
توسكانا ٦١٤
توفيق بن إسماعيل ١٥٦، ٣١٣
تولستوي، ليو ٤٠٧، ٤١٠هـ، ٤٢٧
توم (الإله) ١٩٠
تومينللي، كالوجيرو ٥٦٤، ٥٦٦هـ
التيبر ٣٢٦
تيرول ٢٠٤، ٢٠٧هـ
تيفون ٢٩٠، ٢٩١هـ، ٦٠١
التَّيْمس (جريدة) ٢٢، ٦٠٨
تيمور (التيمورية)، عائشة عصمت ١١٢، ٦٢١، ٦٢٤هـ
تينحو ١٩٠
تيندال، جون ٧٧١، ٧٧٨هـ

تاجور (تاغور)، رابندرناث ٦٨، ٧٣هـ، ٢٣٢، ٣٧٨، ٤٤٢، ٧٣١
تاوو تشِن ٦١١
تاين، هيبوليت ٧٠٦، ٧٠٦هـ
تحوتِمس الثالث ١٨٦
ترايانوس ١٩١
التربية الحديثة (مجلّة) ٢٤٨، ٣٥٢هـ
التربيث ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٧٧٢
تركيا ٨٧، ١١١
تسبلن، فرديناند فون ٣١٨، ٣١٩هـ
تقلا، بشارة وسليم وجبرائيل ٣٧٢هـ
توت (الإله) ٥٥٥
ثابت، خليل داود ٥٩١، ٥٩٤هـ
ثابت، سليم أيّوب ٢٢
ثابت، محجوب ١٩٤، ٢٠٠هـ
ثروت، عبد الخالق ٩٨، ١٠٢هـ، ١٧٤-١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ٣٠٥، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٦٣، ٣٩٢
ثمستوكليس (ثميستوكليس) ٦٥٦
ثورو، هنري ديفيد ٤٢٧، ٤٣١هـ

جاربو، جريتا ٥٥٦، ٥٥٩هـ
جامع إبراهيم آغا ١٥٨
جامع أحمد بن طولون ١٢٤، ١٢٨، ١٤١

الجامع الأزهر ١٢٤، ١٥٨، ١٦٧
جامع الحاكم ١٤١، ١٤٣
جامع الرفاعي ١٢٩، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠هـ
جامع السلطان حسن ١٢٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٥٨، ١٦٦
جامع عمرو ١٢٤
جامع محمد علي ١٣٠، ١٥٨
جامع المنصور قلاون (قلاوون) ١٣٤-١٣٧، ١٣٩هـ، ١٦٧
جامع المؤيّد ١٦٥
الجامعة الأمريكية ببيروت ١١٠، ٢٣٢، ٨٢٢هـ، ٨٢٧، ٨٤٤
الجامعة الأمريكية بالقاهرة ٢٤٨، ٢٥٦، ٣٩٨، ٤٠٥هـ، ٦٦٣
الجامعة المصرية ٣٣، ٥١، ١٨١، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٧٣، ٢٨٢، ٣٨٢، ٤٤٩، ٥٥٧، ٥٩٦، ٧٥٩
الجانابيسم (الجانيّة) ٤٢٧، ٤٣٠هـ، ٧٧٢
جاويش، عبد العزيز ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥هـ
جبال العرب ١٨٨
جبال القمر ٦٠١
جبال ليبيا ٣٢٦
جبال النوبة ٣٢٦، ٤٧٢
جبران، عازر (مدام) ٥٠٥، ٦٤٨، ٦٤٩هـ
جبل الدروز ٧، ٢٧
جبل الشيخ (جبل حرمون) ١٢، ١٥، ٧٦٩
جبل عَتاقة ١٩٦
جبل لبنان ٦٤
جبيل ٦٥
الجدّاوي، حسن صالح ١٩٤، ٢٠١هـ
جرمانكوس ١٨٧
جروبي ٩٧، ١٠٠، ١٠٢هـ
الجريدة (جريدة) ١٧٨، ١٧٩
جريدة التربية والتعليم (الأميريكية) ٢٤٧، ٢٥٠هـ
الجريديني، سامي يعقوب ٣٢٤، ٣٢٦هـ
جريفيني، إيوجينيو ٣٨٦، ٣٨٩هـ
الجزائري، سعيد (الأمير): ١٠، ١١، ١٥، ١٦هـ، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩
الجزائري، طاهر (الأمير) ٢٢
الجزائري، عبد القادر (الأمير) ١١، ١٢، ١٦هـ، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٦
الجزائري، مصطفى (الأمير) ٢٢
الجزيرة (منطقة بالقاهرة) ٦٤٠
جزيرة الطير ١٩٥
جشمة آفت هانم ١٥٦
الجغبوب ٣٠، ٣١هـ
جلاّد، إدجار فيليب ١٩٤، ٢٠١هـ
جلال الدين الرومي ١٥٠
جلنار هانم (أنظر دي لبيدف، أُولغا)
الجليل ٣٠٣، ٣٣٥، ٧٦٩
جماعات المستقبل ٣٧٦

جماعة أصدقاء الثقافة الفرنسية بمصر ٣٥٦
جماعة أصدقاء مختار ٥٦٤
جماعة إنعاش القرى ٨٢٧
جماعة الصداقة البلجيكية المصرية ١٠٠
جماعة العاملات الاجتماعيات ١٠٧
جماعة العيد الاقتصادي ٦٤٠
جماعة نشر الثقافة بالإسكندرية ٥٢٩
جماعة نهضة القرى (انظر جمعية نهضة القرى)
الجمالية (حيّ بالقاهرة) ١٣٧
جمعة، حنفي ٥٢٩
جمعة، محمد لطفي ٣٧٨، ٣٨٤هـ
جمعية الاتّحاد والإحسان ٧٦٦
جمعية الإخاء والتحصيل ٢٨١، ٢٨٢هـ
الجمعية الثيوصوفية ٩٨، ٤٣٧، ٤٤٠
الجمعية الجغرافية ١٨٥، ١٩٢، ١٩٩هـ، ٢٣١، ٣٢٧، ٣٨٢، ٤١٩، ٦٥٢، ٦٦٥، ٦٧٥
جمعية الخطابة والمناظرات (بالجامعة المصرية) ٣٧٣، ٣٨٢
جمعية الدروس الشرقية (في بطرسبرج) ٩٨
جمعية رعاية الأطفال المصرية ١٨٤
جمعية الشابّات المسيحية ٧٥٢، ٧٥٥
جمعية الشبّان المسيحية (الإنجليزية) ٢٣٧
جمعية العمل لمصر ٧١٣
جمعية الفانوس الأصمّ ١٠٠، ١٠٢هـ، ٢٠٦
جمعية فتاة مصر الفتاة ٧٥٤
جمعية محمد علي ٧١٦
جمعية المرأة الجديدة ٧١٦
جمعية مصر الفتاة ٥٢٨هـ
جمعية منع المسكرات العامّة ٤٩٤هـ، ٥٠٢، ٥٠٥، ٦٤٨
جمعية المهندسات المعماريات الألمانية ٤٨٨
جمعية نهضة القرى ٦٦٥، ٦٦٦، ٧٠١
جمعية يد الإحسان ١١٨، ١٢٢هـ
الجمل، حسين ٤١٨هـ
الجميّل، أنطون ٥٠٩، ٥٩٤هـ
جميل بن مَعمر العذري (جميل بثينة) ١٤٩، ١٥٤هـ
جميلة هانم (ابنة الخديوي إسماعيل) ١٦٣
جنتيلي، جيوفاني ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥هـ
جنيف ٦٨٣
جوارينو، ألساندرو ٣٠٣، ٣٠٤هـ
جوبتر (جوبتير) ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٩١، ٦٦٩
جوته (جوتي)، يوهان ولفجانج فون ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣١هـ، ٤٤٢
جورج الخامس ٥٤٩، ٦٧٦، ٦٧٧
الجورنالي دوريني (جريدة) ٦١٣، ٦١٥هـ
الجولان ١٠، ١١
جونون (الإلهة) ٥٥٥
جوهر الصقلّي ١٤٠، ١٤٤هـ
الجيزة ٢٣٦، ٤٧٦
الجيوشي (انظر بدر الجمالي)

حام ٤١٤، ٤١٥هـ

الحبشة ٦٤٢، ٦٦٠
حجّاج، فؤاد ٥١٤هـ
الحجاز ٧٨٢
الحَدَث ٢٣٤
حرمون (جبل، انظر جبل الشيخ)
الحزب الوطني ٩٢، ٩٣، ٩٤
حسن (السلطان) ١٣٠، ١٣٤، ١٥٩
حسن، محمد عبد الغني ٤١٨هـ
حسنين، محمد أحمد ٣٨٥-٣٨٧، ٣٨٩هـ، ٣٩٢، ٥٧٨
حسين، أحمد ٥٢٨هـ
حسين باشا (انظر فهمي، حسين)
حسين، طه ٥٢، ٣٨٢هـ
حسين كامل (السلطان) ١٥٦، ١٥٧
الحسيني، أمين ٢٦٢، ٢٦٥
حشمت، أحمد ١٧٣
حلب ٣٣١، ٨٣١
حلوان ٤٨٠
حماة ٣٣١
حمادة، ميّ ٣٣٥
حمادة، نور ٣٣٤، ٣٣٥هـ
حمدي، محمد (انظر أحمد، محمد حمدي)
الحمراء ١٣٦
حمص ٣٣١
حيفا ٢٤، ٣٣١

الخالدي، عنبرة سلام ٤٤، ٤٦هـ
الخُضَري، محمّد ٥٠-٥٥، ٢٣٣
خلدون (اسم مستعار) ٦٦٥
خليفة، حسن ٢٥٧
خُمارَوَيه بن أحمد بن طولون ١٢٥
خوري، ألفريد ٢١١
الخوري، فارس ٣٠، ٣١هـ
خوشيار هانم ١٥٥، ١٥٧
خيّاط، روجينا حبيب ٦٤٨، ٦٤٩هـ

دار التمثيل العربي ٢٨٣
داروين، تشارلس ٧٧١، ٧٧٨هـ
داريوس (الأول) ١٩١، ٥٧٣
دالمبير، جان لو رون ٨٨، ٩١هـ
دانتي أليحييري ٥٠٠، ٥٠١هـ، ٥٦٣، ٦١٤
دانونزيو، جبرائيل ٢٢٤، ٢٢٦هـ
دجلة ٣٣٥، ٤٧١
الدلتا ١٨٦، ٦٠٣
دلفوس، إنغلبرت ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨هـ
دل كروا، كارلو ٤٩٦-٤٩٧، ٤٩٩-٥٠١
دماسيوس ١١٩، ١٢٢هـ
الدمرداش، عبد الرحيم ٢١٧
دمشق ١١، ١٧، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٦هـ، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ١٣٦، ١٤٢، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٥، ٦٤٠، ٨٣٠، ٨٣١
الدمشقي، شمس الدين محمد ١٩٢
الدنمارك ٢٥٨
دوديه، ألفونس ٣٧٥

دوديه، ليون ٣٧٥، ٣٨٣هـ
دوزس، أن دي كروسل (الدوقة) ١٠٦-١٠٨، ١٠٩هـ
دوس، توفيق ٢١٧
دوس، حبيب ٦١٠، ٦١٥هـ
دوس، شهدي ٥١٤هـ
دويسن، بول ياكوب ٧٧١، ٧٧٩هـ
دي بورجوني (الدوق) ٥٦٣
دي بوزس، أدولفو ٤٥، ٤٦هـ
دي بينيدو، فرانشيسكو ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨هـ
ديتريش، مارلين ٥٥٦، ٥٥٩هـ
ديدرو، دنيس ٨٨، ٩١هـ
دي لبيدف، أولغا ٩٨-١٠٠، ١٠٢هـ
الديلمي، مهيار بن مرزويه ٤٠٤، ٤٠٥هـ
الديلي إكسبريس (جريدة) ٥
ديليدا، جراتزيا ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢
دي ماس (مسيو) ١٠٠
ديوجنيس الكلبي ٥٦٨، ٥٧١هـ

الذهبي، جمال الدين ١٦٩
ذهني، عبد السلام ٥٤٧هـ، ٦٢٦-٦٢٧
ذو القرنين (انظر الإسكندر الكبير)

الرابطة الشرقية ١٩٤، ٢٠١هـ، ٢٨٤، ٢٨٧هـ
رابطة الطلبة الشرقيين ٤٤٩
رأس الرجاء الصالح ١٨٩، ١٩٢
الرافعي (آل) ٢٨٦
الرافعي، أمين ٩٠، ٩١هـ، ٩٢، ٩٤، ٣٤١
الرافعي، مصطفى صادق ٢٨٦، ٢٨٧هـ
الرامايانا ٤٧٤
الرأي العامّ (جريدة) ٢٥
رخا، محمد أحمد ٥٠٩
رسكن، جون ٤٢٧، ٤٢٩هـ، ٧٠٦، ٨٢٥
رسل باشا، توماس ونتورث ٦٥٧، ٦٥٨هـ
رشدي، حسين ٣٠٥، ٣٠٩هـ، ٣٩٢
رشدي، محمد ٣٩٢، ٣٩٤هـ
رضا، عبد الرحمن ١٩٤
رعمسيس (رمسيس) الثاني ١٨٦، ١٩٠، ١٩١، ٣٢٥
الرفاعي، أحمد ١٥٧
رفعت، محمد توفيق ٦١٠، ٦١٥هـ
رمضان، محمد حافظ ٢٧٠، ٢٧٢هـ، ٣٢٣
الرمل (منطقة بالإسكندرية) ٣٠٥، ٣٠٩هـ
الروّاد (جماعة) ٥٤١، ٥٤٣هـ، ٦٥٢، ٦٥٧
الرواقيون ٤٤٢، ٥٦٨-٥٦٩، ٥٧١هـ
روتر (انظر رويتر)
رودان، أوغست ٤٤٢، ٥٦٤، ٥٦٦هـ
روزفلت، ثيودور ٧٣٢، ٧٣٤هـ
روزفلت (مسز) ٥٥٢-٥٥٣
روسو، جان جاك ٨٨، ٩١هـ، ٣٥٠، ٤٨٩، ٤٩٠هـ

روسيا ٦، ٤٤٦، ٥٤٠، ٥٨٦، ٥٨٧، ٦٧٦
الروضة (جزيرة) ١٣٥
روكسانا (زوجة إسكندر الكبير) ٤٧١
روما ٤٨، ٨٦، ١٠٧، ١١٩، ١٩١، ٢١٥، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٢٤، ٣٢٥، ٤٢٤، ٤٨٨، ٦٠٨، ٦١٤، ٦٤٢، ٦٤٣، ٧٧١
رومانيا ٥٠٦، ٥٥٧
رويتر ٥، ٦، ٩هـ، ٣٨، ٤٣٧
ريشليو (الكاردينال دي) ٦٧٤، ٦٨٠هـ، ٦٨٥، ٦٨٧هـ
الريف ٧، ٩هـ
ريو دي جانيرو ٤٢٤

الزحلاوي، حبيب إلياس ٤٠٥هـ
زرادشت ٧٧١
زغلول، سعد ٢٩، ٩٠، ٩١هـ، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ٣١٢، ٣٢٠، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٧٠، ٣٩٢، ٤٨٢، ٥٢٠، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢هـ
زغلول، صفية ٣٤٢، ٥٩٦، ٧١٠-٧١١
زغلول، فتحي ١٧٨، ١٨٠
زكي، أحمد ٩٨، ١٠٢هـ، ٢٨٤، ٢٨٧هـ، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٣هـ
الزمالك ٧٩٠، ٧٩٢هـ
زهدي، إسماعيل ٩٩
زولا، إميل ٤٥٩، ٤٦٤هـ
الزيّات، أحمد حسن ٢٤٨، ٢٥١هـ
زيادة، إلياس ٣٤٢، ٣٤٣هـ، ٣٨٢هـ
زيادة، فؤاد (المطران إغناطيوس زيادة) ٤٧٣هـ
زيادة، ميّ ١٢، ٢٢، ٢٥، ٣٢، ٤٧، ٣٢٣هـ، ٣٥٢هـ، ٣٦٠هـ، ٣٦٦هـ، ٣٧٢هـ، ٣٨٢هـ، ٣٨٣هـ، ٣٨٩هـ، ٤٠٥هـ، ٤١٠هـ، ٤١٨هـ، ٤٤٤هـ، ٤٧٣هـ، ٤٧٩هـ، ٤٩٤هـ، ٥٠٩، ٥١٠هـ، ٥١٤هـ، ٥٢٨هـ، ٥٣٢هـ، ٥٣٣هـ، ٥٣٨هـ، ٥٤٣هـ، ٥٤٧هـ، ٥٥٩هـ، ٥٦٦هـ، ٥٧٧هـ، ٥٨٩هـ، ٥٩٤هـ، ٥٩٩هـ، ٦٠٤هـ، ٦١٥هـ، ٦٢٠هـ، ٦٢٤هـ، ٦٢٧هـ، ٦٣٢هـ، ٦٧٣هـ، ٦٨٠هـ، ٦٨٦هـ، ٦٩٥، ٧٠٢هـ، ٧٠٦هـ، ٧١٢هـ، ٧٢٩هـ، ٧٣٤هـ، ٧٥١هـ، ٧٥٦هـ، ٧٦٠هـ، ٧٦٢هـ، ٧٦٦هـ، ٧٦٩هـ، ٧٨٧، ٧٩٢، ٨٠٣هـ، ٨٢٢هـ، ٨٣١هـ، ٨٣٨، ٨٥٥
زيدان، جرجي ٧٦٩، ٧٧٠هـ
زينب هانم (ابنة الخديوي إسماعيل) ١٥٦

الساترداي ريفيو (جريدة) ٦١٦
ساتياجراها أثرم ٤٢٦، ٤٢٩هـ
ساسون (الأب) ٧
سافويا (آل) ١٥٧، ٦١٤

ساكاس، أمونيوس ١١٩، ١٢٢هـ
ساكسوني كوبرج جوثا ٦٧٦، ٦٨٠هـ
سام ٤١٤، ٤١٥هـ
ساموس ٤٩٣
سان استفانو ٢٩٤، ٣٢٠، ٣٢٣هـ
سان بوان، فالنتين دي ١٠٠، ١٠٣هـ
ساند، جورج ٦٧٩، ٦٨١هـ
سان سانس، كاميل ٥٩، ٦١هـ
سان سيمون، كلود دي ٣٥٠، ٣٥١هـ
ساي، جان باتيست ٧٢٧، ٧٢٩هـ
ستراتفرد ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣هـ
ستيورت ملّ الأب (انظر ملّ، جيمس)
ستيورت ملّ الابن (انظر ملّ، جون ستيورت)
سدوم وعمورة ٦١٩
سَراي، موريس ٢٧، ٢٩، ٣١هـ
سردينيا ٦٩
سركيس (مجلّة) ٧٦٠
سركيس، سليم ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٧٥٩-٧٦٠، ٧٦٢هـ
سُرَّ من رأى ١٢٥، ١٢٧هـ
سعيد باشا ٣٧٠
سفينيه (مدام ده) ٣٦، ٣٩هـ
سقراط ٤٤٢، ٦٦٨
سكلاتفالا، شابورجي ٧٣٥، ٧٣٧هـ
سلام، عنبرة (انظر الخالدي، عنبرة سلام)
سلامينا ٦٥٦
سلطان، فؤاد ١٩٧، ٦٧٥، ٦٨٠هـ
سليم الأول (السلطان) ١١، ١٤١، ١٥٠
سليمان الحكيم ٥٠٣، ٦٤٢، ٦٦٧، ٦٦٩
سميث، رني ٤١٩-٤٢١
السِّند (نهر) ٧٧٣، ٧٧٩هـ
السودان ٦٠٣
السوربون ٤٤١
سوريا (سورية) ١٠، ١١، ١٦هـ، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١هـ، ٣٧، ٤٠، ٦٢، ٦٦، ١١٠، ١٦٨، ١٨٦، ٤٣٦، ٦٤٠، ٧٨٢، ٨٢٥، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣٧
سوق الغرب ٢٥
السويس ٣٠، ١٨٥، ١٨٩-١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٣١٣، ٦٧٥
سويسرا ٦٤، ٩٧، ٧٨٢
سياج، هيلانة ١١٨، ١٢٠-١٢١، ١٢٢هـ
السياسة (جريدة) ٢٨٤، ٢٨٥، ٥٤٠، ٥٤١
السياسة الأسبوعية (جريدة) ٧٠٩، ٧١٢هـ، ٧٣٤هـ، ٧٤٣
سيتي ٣٢٥
سيجفرد، جول ٤٨١، ٤٨٥هـ
السيِّد، أحمد لطفي ٩٨، ١٠٢هـ، ١٧٨-١٨١، ٢١١، ٢٥٠، ٢٨٥، ٥٩٦، ٥٩٩هـ
السيِّد، محمد ٣٥٢هـ، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠هـ

سيزوستريس ١٤٢، ١٤٤هـ
سيزوستريس الأول ١٨٦
سيلاكس ٧٧٣، ٧٧٩هـ
السين (مقاطعة) ١٠٧، ١٠٩هـ
سيناء ١٨٨
سينا ٦١٤

شارلكان (شارل الخامس) ٥٦٧، ٥٧١هـ
شارينو، ريتا ٦١٣
شاكر، محمود محمد ٢١٤
الشام ١٤، ٢٧
شاهين، محمد ١٨٣-١٨٤، ٢١١، ٣٢٧، ٣٣٠هـ، ٦٥٧، ٦٥٨هـ، ٦٦٤
شُبرا ٢٦٧، ٢٧١هـ
شتا، محمد ١٩٧
شجرة الدرّ ١٣٢، ١٣٣هـ، ١٣٦
الشدياق، أحمد فارس ٢٣٤، ٢٣٥هـ
شرق الأردن ٣٣٥، ٨٣١
شريف، خليل وعلي ١١٢
شعراوي، علي ٣٤٠، ٣٤٢هـ
شعراوي، هدى ٣٤١، ٥٦٤، ٥٩١
شفاينفورت، جورج ١٨٥، ١٩٩هـ
شفيق، أحمد ١٩٤، ٢٠٠هـ
شكري، محمود ١٩٧، ٢٠٢هـ
شكسبير، وليم ٤٤٢، ٤٤٤، ٥٨١-٥٨٣، ٦٧٨، ٦٨٤، ٦٨٥، ٧٧٦
شمس الدين (انظر الدمشقي، شمس الدين محمد)
شمس، رياض ٣٥٢هـ، ٣٥٨، ٣٦٠هـ، ٦١٢، ٦١٥هـ
الشمسي، علي ٣٢١
شميّل، إدوار ١٧١
الشميّل، أمين ١٧٢
شميّل، رشيد ١٧١
شميّل، شبلي ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٣هـ، ١٧٢-١٧٣، ٢٣٢-٢٣٣
شميّل، قيصر ١٧١
شميّل، ملحم ١٧٢
شنيدر، جاك ٣١٨، ٣١٩هـ، ٣٨٥
شهبندر، عبد الرحمن ٥٩، ٦١هـ
شو، جورج برنارد (برنرد) ٦٨، ٧٣هـ، ٣٥٠، ٣٧٨، ٤٤١
الشواربي، عبد الحميد ٣٩٢، ٣٩٤هـ
شوبان (شوبن)، فردريك ٤٤٢، ٦٧٩، ٦٨١هـ
شوبرت، فرانتس بيتر ٢٠٣، ٢٠٤-٢٠٦
شوبنهور، أرثور ٤٤٢
شوقي، أحمد ١٨١، ١٩٦، ١٩٩، ٦٧٢، ٦٧٣هـ
شويكار، فاطمة ١٦٩
شيخ بن عبد الله المحمودي (الملك المؤيّد أبو نصر) ١٤١، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨
شيشرون ٥٦٩

شينييه، أندريه ٦٨٥، ٦٨٧هـ
الصالحية (حيّ بدمشق) ١١
صبري، إسماعيل ٥٣، ٥٦هـ، ٥٨٣، ٥٨٤هـ، ٧٠٥
صبري، محمد ٧٠٥، ٧٠٦هـ
صدقة، حسن ١٥٣
صدقي، إسماعيل ٣٤٧هـ، ٥٢٢هـ، ٦١٦، ٦٢٠هـ، ٧١٠
صدقي، عطية محمود ٥٨
صدقي، محمد ٣٨١، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩هـ، ٣٩٠-٣٩٣
صرّوف، رحمة خوري ١١٢، ١١٥هـ
صرّوف، فؤاد ٨٤٤، ٨٤٥هـ
صرّوف، ياقوت ١١١-١١٢
صرّوف، يعقوب ٦٢، ٦٣هـ، ١١٠-١١٤، ١٨١، ٢٣٤، ٢٣٨، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣هـ، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥هـ
الصعيد ١٨٦، ٣٧٩، ٤٧٢، ٦٠٢، ٦٤٨، ٦٥٠
صفد ١٤
صلاح الدين الأيّوبي ١٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤هـ، ١٥٨، ١٦٣
صنّين (جبل) ٦٥
صور (في لبنان) ٤٧١، ٧٨٣
صوفر ١١، ٢٥
صولون ١٨٧
صيدا ٤٧١، ٧٨٣
الصين ٦، ٦٥، ٩٧، ٣٧٩، ٤٢٤، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٨٦، ٥٦٧، ٦٦٨
ضومط، جبر ٨٣٥، ٨٣٧، ٨٣٨هـ
طبريا ١٤
طرابلس (الشام) ٢٨٦، ٣٣١، ٨٣١
طرابلس (الغرب) ٣٠
طروادة ٥٥١
طساليا ٧٧٣، ٧٨٠هـ
طلعت حرب، محمد ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٠هـ، ٣٠٧، ٣٧٠، ٣٩١، ٤٨٠، ٤٨١-٤٨٥، ٦٧٤-٦٧٥، ٧٢٩هـ، ٧٣٨-٧٤٢
طنطا ٤٨٣، ٥٣٧، ٥٣٨هـ، ٧٦٣
طهراقة ١٨٧
الطور (جبل) ٧٦٩
الطور (مرفأ) ١٩٢
طوران ٤٧١
طوسون، هيجة (البرنسيس) ٥٠٥
طوسون، عمر (الأمير) ٢٦٢، ٢٦٦هـ، ٥٠٥، ٦٤٨
طومانباي الثاني (الملك الأشرف) ١٤١، ١٤٤هـ
طيبة (المصرية) ١٨٦، ٢١٣، ٢١٦، ٣٧٩، ٤٧٢، ٥٦١

طيبة (اليونانية) ٨٢، ٨٣

ظهور الشُوَير ٦٥

العاصي ٣٣٥
العاصي، أسعد ١٠
عبّاس الأول ١٨٧، ٢٠٠هـ
عبّاس الثاني ١٥٥، ٣١٣
عبد الرازق، علي ٥٧٨
عبد الملك، هيلانة ٢١٧
عبد الوهّاب، أحمد ٢١٤، ٦١٢، ٦١٥هـ، ٦٤٣، ٦٤٥هـ
عبد الوهّاب، محمد ٥٤٠، ٥٤٣هـ
عبده، محمد ٣٤١، ٣٧٠
عبيد، وليم مكرم ٥٢٠، ٥٢٢هـ، ٥٢٣هـ، ٥٧٨
العجلان (آل) ٢٧
العجم (انظر بلاد العجم)
العراق ١٠٤، ١٩١، ٤٣٦، ٦٤٠، ٨٣١
عرب الفضل (قبيلة) ١٠
العروة الوثقى (جمعية) ٨١٥، ٨١٦، ٨٢١، ٨٢٢هـ
العريش ٨٣٧
عزّام، عبد الوهّاب ٥٤٢، ٥٤٣هـ
عزمي، محمود ٢٨٦، ٢٨٧هـ، ٥٩٤هـ
عصبة الأمم ٤٤٦-٤٤٧، ٤٨٧، ٦٨٣
عطارد (الإله) ٥٥٤، ٥٥٥
عطية، محمد لبيب ٥٢١، ٥٢٣هـ
عفيفي باشا (مدام) ٥٤٩-٥٥٠
عفيفي، عبد الله ٥٢٢، ٥٢٣هـ
عفيفي، محمد حافظ ١٨٤، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٣هـ، ٥٧٣، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٨٠هـ
العقّاد، عبّاس محمود ٢٩، ٢٠٦، ٧١٢هـ
عكّا ١٣٧، ١٤٢
عكاشة، زكي ١٩٤، ٢٠١هـ
علاء الدين (السلطان) ١٥٩
علّوبة، محمد علي ٤٤٨، ٤٥١هـ
علي بن أبي طالب ٤٩٢
علي جمال الدين (ابن إسماعيل باشا) ١٥٦
علي، السيّد ٢١٤
علي، محمد زكي ٩٢
عماد الدين ٣٠٧، ٦٧٦
عمر، علي ٢٥٩، ٢٦١هـ، ٢٧٩
عمرو بن العاص ١٨٧، ١٩١
العمروسي، أحمد فهمي ٢٣١-٢٣٣، ٢٣٥هـ، ٢٤٩، ٢٥٠، ٣٢٧، ٣٣٠هـ
عوض، أحمد حافظ ٢٤٦، ٢٥٠هـ، ٥٠٩
عوليس ٥٥١، ٦٢٦
عيون موسى ١٩٦

غاب بولون (بولوني) ٣٥٣، ٣٥٦هـ، ٦٨٥
غاملان، موريس غوستاف ٢٧، ٣١هـ

غاندي (المهاتما) ٤٠٧-٤١٠، ٤٢٦-٤٢٨، ٤٤٢، ٤٥٤، ٤٦٧-٤٦٨، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٦١١، ٧٢٦، ٧٢٧
الغزالي، أبو حامد محمد ٤٤٣
غزير ٦٥
غلوش، أحمد ٤٩٤هـ، ٥٠٢-٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦هـ
غليوم الثاني ٣١٨، ٣١٩هـ، ٤٨٦، ٤٨٧، ٦٤٤
غورديان الثالث ٧٧٤، ٧٨٠هـ
غورو، هنري ١٥، ١٦هـ

الفاتيكان ٣٠٠
فاجنر، ريشارد ٤٤٢
فارس، فليكس ٥٢٩، ٥٣٢هـ
فاروق (الأمير) ٢١٧، ٣٥٤، ٥٤٨-٥٤٩، ٦٤٠، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩١هـ
فاريسكو، برناردينو ٥٦٣، ٥٦٥هـ
فاسكو دي جاما ١٨٩
فاضل، حيدر (الأمير) ٣٥٣-٣٥٥
الفاطميون ١٢٣، ١٣٦
الفاعور، شامان (الأمير) ١٣
الفاعور، فارعور (الأمير) ١٣
الفاعور، محمود (الأمير) ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٥، ١٦هـ
فاندربورجت (انظر فندربورجت، بول)
الفانوس الأصمّ (انظر جمعية الفانوس الأصمّ)
فتح الله، حمزة ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥١هـ
فتى العرب (جريدة) ٦٤٠
الفحّالة ٣٠٧
الفرات ١٢٥، ٣٣٥، ٤٧١
الفراعنة ٨٨، ١٣١، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١، ٣٢٦، ٤٧١، ٥١٨، ٦٠١
فرانس، أناتول ٦٨، ٧٣هـ
فرجيليو ٤١٤
الفرس (انظر بلاد الفرس)
فرسان صليب الوردة ٧٧١، ٧٧٩هـ
فرسوفيا ٦٧٩
فرن، جول ٧٩، ٨١هـ، ٣٧٨
فرنسا ٦، ٢٧، ٣٠، ٤٢، ٦٤، ٨٧، ١٠٦، ١٠٧، ٢١١، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٧٥، ٣٧٨، ٤١٤، ٤٧٦، ٤٨٩، ٥٤٠، ٥٦٣، ٥٦٩، ٥٧٠، ٦٢٥، ٦٨٢، ٦٨٣، ٨٢٩
فرنل، هاري دي لا روزا برارد ٢٣٦-٢٤٠
فريد، محمد ٩٠، ٩١هـ، ٣٤١
فريسيلس ٧٧٢، ٧٧٩هـ
الفرّيسيون ٣٠٢
الفسطاط ١٢٣، ١٢٥
فكري، علي ٥٠٩
فلاماريون، كميل ٨٠، ٨١هـ
فلسطين ٢٧، ١٣٧، ١٨٦، ٢٦٢، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٣٥، ٦٤٠، ٦٤٢، ٧٥٢، ٨٣١

فَلْميكي ٤٧٤
فلوري (مسيو) ٦٣١
فندربورجت، بول ٩٧، ١٠٠، ١٠٢هـ، ٢٠٦
فنيلون (انظر فينلون، فرانسوا دي)
فهمي، حسين ١٥٥
فهمي، عبد العزيز ٣٤٠، ٣٤٢هـ، ٥١٩، ٥٢١، ٥٢٣هـ، ٥٤٦
فهمي، مرقس ٥٢٠، ٥٢٣هـ
فهمي، منصور ١٩٤، ٢٠١هـ، ٢٨٣
فهيم، محمد ٢٥٧
فؤاد الأول، أحمد ٧٦، ١٥٦، ١٨٥، ٣٧٠، ٣٨٢، ٤٩٣، ٥١٨، ٦٤٠
فوزي، سليمان ١٩٤، ٢٠٠هـ
فوزي، عزيزة ٥٣٨هـ
فوزي، طه ٦٨
فوش، فردينان ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١هـ، ٣٥٤
فولتا، ألساندرو ٧٧-٨٠، ٨١هـ
فولتير، فرانسوا ماري أرويه ٨٨، ٩١هـ، ٥٩٣، ٦٥١
فولر، جوزف بمفيلد ٦٠٨-٦٠٩
فولر، لوي ٢٠٤، ٢٠٧هـ
فولكان (فولكانوس) ١١٧
فونتانا، دومينكو ٣٢٥
فون شتورر (البارونة) ٢٠٦، ٢٠٧هـ
فِياسا ٤٧٤
فيّاض، نقولا ١٢١، ١٢٢هـ
فيثاغورس ١٨٧، ٤٣٧، ٤٣٩هـ، ٤٤٢، ٧٧١، ٧٧٢
الفيدا ٣٧٩، ٤٤٣
فيرخو، رودولف ٧٧١، ٧٧٩هـ
فيرونوف، صموئيل سيرج ٩٨، ١٠٣هـ
الفيغارو (جريدة) ١٥٢
فيفانتي، آني ٦٨، ٧٢هـ
فيكتور عمانوئيل الثاني ٦٧٤، ٦٨٠هـ
فيكتوريا (الملكة) ٢٣٦، ٦٧٧
فيليب الثاني (ملك مقدونيا) ٨٠٢
فيليه دي ليل آدم، فيليب أوغست ٤٥٥، ٤٥٧هـ
فينّا ٢٠٤
فينلون، فرانسوا دي ٥٦٣، ٥٦٥هـ، ٨١٦
فينيقيا ٣٠٢، ٤٩٣
فييت، جاستون ١٢٥، ١٢٧هـ

قاسم (زوج أحمد بن طولون) ١٢٥، ١٢٦
القاهرة ٦٤، ٦٦، ٩٨، ١٠٦، ١١٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣١، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٥٧، ١٦١، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١٦، ٢٨٦، ٢٩٧، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٢٠، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٧٩، ٣٨٨،

٤٨٣، ٤٩١، ٥٦١، ٦١٣، ٦٣١، ٦٤٠، ٦٤٨، ٦٥١، ٦٨٨، ٦٩٩، ٧٤٩، ٧٥٢
قبرص ٤٩٣
القدس ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤
قَدْموس ٥٢٠، ٥٢٣هـ
القرافة ١٦١
قراقوش، بهاء الدين ١٤٠، ١٤٤هـ
قرطبة ١٣٦
قصر الدوبارة ٣٤٠، ٣٤٢هـ
قصر عابدين ٣٨٦
القُصَير ١٩٢
القطّان، عزمي ٦٦٣، ٦٦٤
قلاون (قلاوون)، السلطان المنصور ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩هـ
القُلزُم ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢
قَمبيز ١٨٧
القنيطرة ١٠، ١١
قوبطوس ٢١٣، ٢١٦
القوّتلي (آل) ٢٧
القوصي، إحسان ٥٢٩، ٥٣٢هـ، ٥٣٨هـ
قيصر، يوليوس ١٤٢، ١٨٧، ٣٠٣، ٦٠٨، ٦٥٦

الكابتول ٩٦
كاراكالا (الإمبراطور) ٨٦، ٩٠هـ
كاربنتر، إدوارد ٤٢٧، ٤٣٠هـ
كارلايل، توماس ٤٢٧، ٤٣٠هـ، ٧٤٤
كارمن سيلفا ٥٠٦، ٥٥٧
كافور الإخشيدي، أبو المسك ٦٧٤، ٦٧٩هـ
كافور، كميلو بنسو دي ٦٧٤، ٦٨٠هـ
كامبو شيزري ٣٠٥، ٣٠٩هـ
كامل، إسماعيل ٤٣٦
كامل، سيِّد ١٩٤، ١٩٧، ٢٠١هـ، ٢٥٧
كامل، علي فهمي ٣٤١، ٣٤٣هـ
كامل، مصطفى ٩٠، ٩١هـ، ٣٤١، ٣٧٠، ٣٩٢، ٥٨٦، ٥٩٦
كانت، إيمانويل ٣٠٠، ٣٠٤هـ
كانودو (مدام) ١٠٠
كانبري، جوزه ٢٢٥، ٢٢٦هـ
كبلنج، روديارد ٩٦، ١٠١هـ
كتشنر، هراشيو هربرت ٣١١، ٣١٥هـ
الكدميون ٨٤، ٩٠هـ
الكرمل (جبل) ٧٦٩
كروتشي، بنديتو ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥هـ
كرومر، إفلين بارينغ ١٢٩، ١٣٣هـ
كرومويل، أوليفر ٦٨٥، ٦٨٧هـ
كريلين، إميل ٤٢، ٤٥هـ
كريتيكا (مجلّة) ٥٦٤، ٥٦٥هـ
كريشنا (الإله) ٤٧٤
كريون ٨٢، ٨٣، ٨٦، ٨٧
كسّاب (آل) ١٩٥
الكشكول (مجلّة) ١٩٤، ٢٠٠هـ
الكفرة (واحة) ٣٨٦، ٣٨٩هـ

الكلدان ٧٧١
كلّ شيء (مجلّة) ٣٥٨
كليبر، جان باتيست ١٨٧، ٢٠٠هـ
كليسما ١٩٠
كليمانسو، جورج ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦هـ
كليوباترا (كليوبترة) ١١٩، ١٨٧، ٣٠٥، ٦٥٦
كليوباتريس ١٩٠
كمال الدين حسين (البرنس) ١٥٧
كمال، مصطفى ٥٨٦، ٦٢٥
كميد، أيّوب ٣٨٦
كندا ٣٠
الكندي، أبو عمر ١٩٢
كنعان ١٩٠
كنفوشيوس ٥٦٧، ٦٦٨
الكورسال ٢٠٤، ٢٠٧هـ
كورناي، بيير ٦٨٥، ٦٨٧هـ
كورِنُس ٦٥٦
كوري، ماري ٦٨، ٧٣هـ
كوك، إدورد متشنر ٦٧٤، ٦٨٠هـ
كولاسين ٤٢٤
كولمبوس، كريستوف ٥٦٩
كولوس (مسيو) ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨٣هـ
كولوكول (مجلّة) ٥٨٦، ٥٨٩هـ
كولي، فرانسوا ١٤٧، ١٤٨هـ
كومانوس، أ. د. ٩٨، ١٠٣هـ
كونت، أوغست ٤٤٣، ٧٠٦هـ
كونكرد ٤٢٧، ٤٣١هـ
كيشايرشا ٧٧٣، ٧٨٠هـ
كيوس ٤٩٣، ٤٩٤هـ

لاسال، فرديناند ٣٧٨، ٣٨٤هـ
لافاتير، يوهان كاسبر ٧٤٢، ٧٤٤هـ
لافونتين، جان دي ٥٦٠، ٥٦٥هـ
لا كونكورد (ميدان وجسر) ١٣٠، ٦٨٣
لامارتين (لامرتين)، ألفونس دي ١٦٥، ١٧٠هـ، ٦٨٥
لايبنتز، غوتفريد فيلهلم ٤٥٥، ٤٥٧هـ
لبنان ١٠، ١١، ٢٥، ٢٧، ٣٠، ٣٧، ٣٨، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ١١٠، ٢٣٤، ٢٨٦، ٣٣٤، ٣٣٥، ٥٦٠، ٦٤٠، ٨٢٣-٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٥
لسبس، فردينان دي ١٩٢، ٢٠٠هـ، ٣١٣-٣١٤
لطف الله، ميشيل (الأمير) ٧٦٦هـ
لندبرغ، تشارلس أوغست ٦٤٤، ٦٤٥هـ
لندن ٩٧، ١٠٤، ٣٢٥، ٣٩٥، ٤٠٨، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٦١، ٦١٠، ٦٢٢، ٧٣٥، ٧٩٢
اللواء (جريدة) ٧٤٩، ٧٥١هـ
لوبون، جوستاف ٤٥٨-٤٦٣، ٤٦٤هـ
لوتي، بيير ٨٧، ٩٠هـ
لوثر، مارتين ٦٨٥، ٦٨٧هـ
لود، نيد ٤٢٧، ٤٣١هـ

لودن، فرانك أورن ٢٥٦-٢٦٠، ٢٦١هـ
لودندرف، إريش ٤٤٦، ٤٥٠هـ
اللوديون ٤٢٧، ٤٣١هـ
اللورين ٤٢
اللوزي، عبد الفتّاح ١٩٧، ٢٠٢هـ
لولو، ريموندو ٤٥٥، ٤٥٧هـ
لوموا، أندريه دي ٣٧٨، ٣٨٣هـ، ٦٠٦
لونج، وليم ديكسون ٣٨٨، ٣٨٩هـ
لونيبرج ٦٧٦، ٦٨٠هـ
لويد، بلانش إيزابلا (لايدي) ٧٥، ٧٦، ٧٥٢، ٧٥٦هـ
لويد، جورج أمبروز (لورد) ٥٥٨-٥٥٩، ٧٥٦هـ
لويد جورج، ديفيد ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٥٠هـ
لويس الثالث عشر ٦٧٤
لويس الخامس عشر ٥٦٣
لويس الرابع عشر ١٩٢، ٥٦٣
لويس فيليب (الملك) ١٣٠
ليتريه، ماكسمليان بول إميل ٤٦١، ٤٦٤هـ
ليفربول ٥٧٣، ٦٢٢
ليلى (هانم) ١١٢
لينان دي بلفون، لويس موريس ١٩٠، ٢٠٠هـ
ليوباردي، جاكومو ٤٥٣، ٤٥٧هـ

ماتزيني، جوزيي ٤٢٧، ٤٣٠هـ
ماركس أوريليوس ٤٤٢
ماركس، كارل هاينريش ٣٧٨، ٣٨٣هـ
ماركوني، غوليلمو ٤٢٤، ٤٢٩هـ، ٤٤٣-٤٤٤
المارن ٢٦٩، ٢٧١هـ
ماريا بيا (الأميرة) ٦١٣
مارينتي، فيليبو توماسو ٣٧٤، ٣٧٦-٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٣هـ
ماريت، أوغست ٨٨، ٩٠هـ
المازني، إبراهيم عبد القادر ٢٠٦
مالطة ٦٢٥، ٧١٠
مالك، شارل حبيب ٨١٨، ٨٢٢هـ
ماماي السيفي (الأمير) ١٣٧، ١٣٩هـ، ١٦٧
المأمون (الخليفة) ٢٤٦
المانش ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩هـ
مانشستر ٦٢٢
الماوردي، أبو الحسن البصري ٢٣٥هـ
مايا (الإلهة) ٥٥٤، ٥٥٥
مايلتزل، يوهان نيبوموك ٤٥٥، ٤٥٧هـ
المتنبّي، أبو الطيّب ٦٧٤، ٦٧٩هـ
المتوكّل (الخليفة) ١٢٥
مجدل شمس ١٠
مجدل عنجر ١٠
المجدلية، مريم ٦٣٤
المجر ٢٠٤
مجلّة البوليس النسوي (الإنجليزية) ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧هـ
المجلس الإسلامي الأعلى ٢٦٢

المجلس الوطني للنساء الإيطاليات ١٤٦
مجمع خلكيدونيا ٢١٦-٢١٧
المجمع العلمي المصري ٢٣٧
المجمع النسائي العربي ببيروت ٣٣١-٣٣٥
محرّم، عبد اللطيف ١٩٧
محرّم، محمود ١٣٨
المحروسة (جريدة) ٣٨٢هـ
المحلّة الكبرى ٧٤١
محمد بن قلاوون (السلطان الناصر) ١٣٥
محمد علي ٨٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٨، ١٤٢، ١٥٨، ١٦٣، ١٨٧، ٢٩٢، ٣٥٣
محمد علي باشا (البرنس) ٧٥٩
محمود، محمد ٢٧٠، ٢٧١هـ، ٣٢٢-٣٢٣، ٥٧٨، ٧١٠
مختار، محمود ٥٦٤، ٥٦٦هـ
المدرسة السعدية ١٤٩
المدرسة السنيّة ١٥٦
مدرسة القضاء الشرعي ٢٣٣
مدرسة موندروجوني ٣٠١، ٣٠٤هـ
مدريد ٥، ٣٦١
مدينة الشمس (انظر هليوبوليس القديمة)
المرأة المصرية (مجلة) ٣٧٢هـ
مراكش ٥
مرج ابن عامر ٧٦٩
مرجليوث، جسي باين ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٣هـ
مرجليوث، ديفيد صمويل ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٣هـ
المرسليز ٥٧١، ٥٧٢هـ
مرسيليا ٣٥٣
مرقس الرسول ٢١٦
مركوس أنطونيوس ١١٩، ٦٥٦
مركوني (انظر ماركوني، غوليلمو)
المروج ٦٥
المستعين بالله (الخليفة) ١٦٨
المستنصر بالله (الخليفة) ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤هـ
المسجد الأقصى ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤
مسديه، عزيز ٢١٤
مسعود، محمد ٥٠٩
المسعودي، أبو الحسن علي ١٩٢
مشرّفة، علي مصطفى ٥٤١، ٥٤٣هـ
مشروع الغرش (القرش) ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١هـ، ٤٨٩-٤٩٠، ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٢٨هـ، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٧-٦٤١، ٨٠٣هـ
مصر ١٩، ٢٠، ٢١، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٤٠، ٤١، ٤٤، ٥٠، ٥٣، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٠، ٨٤، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠٤، ١١٠، ١١١، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦،

١٦١، ١٦٤، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٠٢، ٣٠٧، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦٢، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٤، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٤١، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١١، ٥١٢، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٤٥، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٨، ٥٨٠، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٩، ٦٠١، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦١٠، ٦١٢، ٦٢٥، ٦٢٩، ٦٣٧، ٦٤٢، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٣، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٦٣، ٦٧٥، ٦٨٤، ٦٨٩، ٦٩٠، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٥٤، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧٢، ٧٧٧، ٧٨٢، ٧٨٤، ٧٨٩، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٢٦، ٨٣١، ٨٣٧

مصر الحديثة (مجلّة) ٢٢٥، ٢٢٦هـ

المصري، إيفا حبيب ٥٨

المصري، حبيب ٥٨

مصطفى الثالث ١٩٢

مصطفى فخر الدين (الشيخ) ١٥٠

مطار ألماظة ٣٨٨، ٣٨٩هـ

مطار الدخيلة ٣٨٨، ٣٨٩هـ

مطران، خليل ٤٤، ١١٨، ١٢١، ١٢٢هـ، ١٩٤، ١٩٨، ٤٧٧–٤٧٩، ٧٥٩، ٧٦٠هـ، ٧٦٢هـ

المطيعي، نخلة ٢٥٩

مظلوم، أحمد ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٤هـ، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١

المعرّي، أبو العلاء ٤٤٢، ٦٦٢

المعزّ لدين الله (الخليفة) ١٤٠، ١٤١، ١٤٤هـ

المغربي، حنيفة ٥٩

المقتطف (مجلّة) ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥هـ، ١٨١، ٣٢٢، ٣٧٢هـ، ٨٤٤

المقريزي، تقي الدين ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٠هـ
المقطّم (جبل) ١٣٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٨٧، ٢٩٧، ٢٩٩هـ، ٧٤٩
المقطّم (جريدة) ٢٥٢، ٣٢٤، ٦٣١، ٦٩٥
مكاريوس، مريم نمر ١١٢، ١١٥هـ
مكدونلد، جيمس رامسي ٤٦٧، ٤٦٨هـ
مكلافن (الدكتور) ٣٩٨
مكيافيلي، نيكولو ٥٤٥، ٥٤٧هـ
مِلّ، جون ستيورت ٧٩١، ٧٩٢هـ
مِلّ، جيمس ٧٩١، ٧٩٢هـ
الملاخ، جميلة جندي ٥٩
الملك الصالح (انظر أيّوب بن محمد)
الملك المؤيّد أبو نصر (انظر شيخ بن عبد الله المحمودي)
المماليك ١٣٢، ١٣٨، ١٤١، ١٤٢، ١٥٩، ١٦٨، ١٩٢
مندلسهن بارتولدي، فليكس ٥٩، ٦١هـ، ٤٤٢
مِنيه ٨٢، ٨٣، ٩٠هـ
منشه، فليكس دي (البارون) ١٠٦، ١٠٩هـ
منشوريا ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٨٦
المنصور، أبو جعفر ١٩١
المنصورة ١٣٦، ٤٨٣
مِنفتاح ١٨٦
المنفلوطي، مصطفى لطفي ٥٤، ٥٥
منفيس ١٨٦، ١٨٧، ٣٧٩، ٤٧١، ٤٧٣هـ
منلو بارك ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٥٧هـ
منيسيوس ٥٦٨، ٥٧١هـ
المَهاباراتا ٤٧٤
المهدي، محمد ٢٣٣
موتسارت، ولفغانغ أماديوس ٥٩
مورتن (مستر) ٩٦
موسكوفسكي، موريتس ٥٨، ٦١هـ
موسوليني، بنيتو ٧١، ٧٢، ١٤٥-١٤٦، ٣٠٠، ٣٠١-٣٠٢، ٣٠٣، ٤٨٨، ٤٨٩، ٥٨٦، ٥٨٧، ٦١١، ٦٢٥
موسى، سلامة ٣٧٨
موسى (الكليم) ١٨٩، ٦٦٨
موسى، نبوية ٣٤، ٣٥هـ
موسيه، ألفريد دي ٦٣٧، ٦٤١هـ، ٦٧٩، ٦٨١هـ
المولوية ١٤٩، ١٥٠
موليير ٥٤٢، ٥٤٣هـ
مونتسكيو، شارل دي ٤٣٦، ٤٣٨هـ
مؤنسة القطبية ١٣٦، ١٣٩هـ
مونك، سلومون ٢٦٣، ٢٦٦هـ
ميّ (انظر زيادة، ميّ)
ميّاس (زوج خمارويه) ١٢٥، ١٢٦
ميكلانجلو ٧٩، ٤٤٢، ٦٨٤
ميلتن، جون ٦٨٥، ٦٨٧هـ

نابولي ٦١٤

نابوليون (نابليون) بونابرت ٧٩، ١٤٣، ١٨٧، ١٩٢، ٤٥٣، ٤٦٠، ٥٨٠-٥٨١، ٦٨٦
نادي الأوتمبيلات النسوي ١٠٧
نادي البيئة الفكرية الدولي ١٠٠
نادي التجارة العليا ٣٩١
نادي الطيران ٣٩١، ٣٩٤هـ
النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية ٤٧
نادي الليسيوم ٩٧، ١٠٤-١٠٨
نازلي (الملكة) ٧٦
النازيس (النازيون) ٤٨٧
ناصف، عصام الدين ٤٤٨-٤٤٩، ٤٥١هـ
ناصف، مجد الدين ٣٤، ٣٥هـ
ناصف، محمد حفني ٣٥هـ، ٤٤٨
ناصف، ملك حفني ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥هـ، ١١٢، ١٢٣، ٢٤٢، ٤٤٨، ٥٠٩، ٧١٦
نبراوي، سيزا ٥٦٤، ٥٦٦هـ
نبع الفوّار ٦٤
نجلا (ابنة سليم سركيس) ٧٦١-٧٦٢
النحّاس، مصطفى ١٧٦، ٢٧٠، ٢٧١هـ، ٣٢٢
ندیم، عبد الله ٣٤١، ٣٤٣هـ
نصّار، محمد ٣٦٠هـ، ٣٦٣، ٦١٢، ٦١٥هـ
نظمي، عبد العزيز ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤٣هـ
نقولا الثاني (القيصر) ٩٨
نمر، فارس ١١٠، ١١٤هـ
النمسا ٦، ٢٠٣
نواي، آنا إليزابت دي ٦٢١، ٦٢٤هـ
نوبيله، أومبرتو ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨هـ
نوتردام (كاتدرائية) ٧
نورداو، ماكس ٨٣٥، ٨٣٧، ٨٣٨هـ
نونجسر، شارل ١٤٧، ١٤٨هـ
نيتشه، فريدريش ٦٨، ٣٧٨، ٤٤٢، ٦١١، ٦٧٩
نيخوس ١٩١
النيل ١٢٦، ١٣١، ١٣٢، ١٤٢، ١٦٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١، ١٩٨، ٢١٣، ٢٣٦، ٢٥٩، ٢٨١، ٢٨٦، ٢٩٧، ٣٢٦، ٣٣٥، ٣٧٣، ٣٨٠، ٤٧٢، ٥١٨، ٥٣٤، ٥٣٨، ٦٠٠-٦٠٤، ٧٩٠
نيوتن، إسحق ٦٠، ٦١هـ، ٣٧٩، ٤٤٣
نيو جرزي ٤٥٤، ٤٥٧هـ
نيويورك ٧٥٣، ٧٧٢

هاثاواي، آنا ٥٨٢، ٥٨٤هـ
هافاس ٥، ٦، ٩هـ، ٣٨
هانوفر ٦٧٦، ٦٨٠هـ
هاوبتمن، برونو ٦٤٤، ٦٤٥هـ
هاوبتمن (هوبتمن)، جرهارت ٦٨، ٧٣هـ، ١٠١، ٦٤٤-٦٤٥
هاول، مورتن ٥٩
هايني، هينريخ ٢٠٥، ٢٠٧هـ

هتلر، أدولف ٤٨٧، ٥٨٦، ٥٨٧، ٦١١، ٦٢٥
هرتزن، ألكسندر إفانوفيتش ٥٨٦-٥٨٧، ٥٨٩هـ
هرتس، ماكس ١٥٥، ١٦٠هـ
هرقل ٥٩١
هرمس ٢١٠، ٢١٢هـ، ٥٥٤، ٥٥٥، ٧٧١
الهشنيون (انظر الأسّينيون)
هكسلي، توماس هنري ٧٧١، ٧٧٨هـ
الهكسوس ١٤٢، ١٤٤هـ، ١٨٦
هكل، إرنست ١٠١، ١٠٣هـ
الهلال (مجلّة) ٧٦٩، ٧٧٠
الهلباوي، إبراهيم ٥٧
هلباوي، فردوس ٥٧
هليوبوليس (القديمة) ١٨٦، ٣٢٥، ٦٨٩-٦٩٠
هَمْنت ٥٨٢
هنت (مستر) ٦١٦، ٦١٧، ٦٢٠هـ
الهند ٣٠، ٦٥، ١٥٣، ١٩١، ٢٣٢، ٣٧٩، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٦٧، ٤٧٤، ٥٦٧، ٥٩٨، ٧٢٦، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤
هندنبورج، بول فون ٥٨٥-٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨
هنغاريا ٤٢٤
هوايت، برسي ٢٣٧، ٢٤٠هـ
هوجنبرج، ألفريد ٤٨٧، ٤٩٠هـ
هوجو (هوغو)، فيكتور ١١٤، ٤١٤-٤١٥، ٤٤٢، ٥٣١، ٦٨٢-٦٨٦
هورييه (مسيو) ٥٤٧هـ، ٦٣٠
هولندا ٣١، ٩٧
هوميرس (هوميروس) ٤٧٤، ٤٧٩هـ، ٥٥١، ٧٧٦، ٧٨١، ٧٨٢
هيباتيا ١١٩، ١٢٢هـ
هيروبوليس ١٩٠
هيرودوتس ١٨٧، ٧٢٨
هيكل سليمان ١٨٧
هيكل، محمد حسين ٥٩٤هـ
الهيكليون ٧٧١، ٧٧٩هـ
هيليوبوليس (انظر هليوبوليس)
هيندنبورج (انظر هندنبورج، بول فون)
هيوم، وليم فريزر ١٨٥، ١٩٩هـ

وادي أدونيس ٦٥
وادي حمّانا ٦٤
وادي الطُميلات ١٩١
وادي قاديشا ٦٤، ٨٢٧
وادي النيل ١١٢، ١٣١، ١٥٧، ٣٢٤
والي، جعفر وحسن ١٥٠
وجدي، محمد فريد ٢٩٦، ٢٩٨-٢٩٩، ٣٨١
وجهورن، هنري ٣١٨، ٣١٩هـ
وردسورث، وليم ٥٨٢، ٥٨٤هـ

وِستمِنستِر ٩٦
وَطسُن، تشارلس ٢٥٦، ٢٦١هـ
الولايات المتحدة ٩٧، ٢٥٦
ومتر ليدر (مجلّة) ٣٩٥، ٣٩٧هـ
وِنشِب، ألبرت إدوارد ٢٤٧، ٢٥٠هـ
وهبه، أبادير وبطرس ١٥٥
ويصا، إستر فهمي ٥٢٩، ٥٣٣هـ، ٦٤٨
ويصا (الخواجا) ١٩٥
ويلز، هربرت جورج ٧٩، ٨١هـ، ٣١٦-٣١٨، ٣١٩هـ، ٣٧٨
ويلسن، توماس وودرو ٣٤٦، ٣٤٧هـ، ٧٦٥
ويندسور (بيت) ٦٧٧

اليابان ٦، ٦٥، ٤٢٤، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٨٦
اليازجي، ناصيف ٢٣٤، ٢٣٥هـ
اليازجي، وردة ١١٢
ياقوت الحموي الرومي ١٩٢
يحيى، عبد الفتّاح ٥٢٢هـ
يس، أحمد ١٥٧
يعقوب ١٩٠
اليعقوبيون ٤٦٢، ٤٦٤هـ
يكن، أحمد مدحت ١٩٧، ٢٠٢هـ، ٦٧٥، ٦٨٠هـ
يكن، عدلي ٢٧٠، ٢٧٢هـ
يكن، منصور ١٥٦
يمبليخوس (يمبليخوس) ١١٩، ١٢٢هـ، ٧٧١
يهوذا، أبراهام شالوم إزيكيال ٢٨٤، ٢٨٧هـ
يَهوَه ٦٦٩
يودوكسس (انظر أودُكسُس)
يوسف، إسكندر إبراهيم ٦١٢، ٦١٣، ٦٦٦
يوسف الصدّيق ١٩٠
اليونان (بلاد) ٩٧، ٤٧٤، ٥٢٠، ٥٥٢، ٥٦٨، ٨١٦
يؤنس التاسع عشر (الأنبا) ٢١٣، ٢١٥-٢١٦، ٢١٧

Abassides 10

'Abbās II (Khedive) 21, 24

'Abd al-Malik, Hīlānah 21

'Abd el-Masīḥ, Emily 27

'Abduh, Moḥammed 22

Al-Afghānī (al-Afghani), Gemāl ad-Dīn (Gemal ad-Din) 20, 22, 38

'Afīfī, Ḥāfiẓ 33n

Aḥmad, Iḥsān 27

Aḥmed, 'Abbās Sīd 28

Al-Ahrām 24

'Ain al-Ḥayāh (principessa) 24

Alessandria 26

American Protestant School 38

American University (del Cairo) (see Università Americana del Cairo)

Amīn (Amin), Qāsim (Qasim) 19, 22, 23, 24, 25, 37, 38, 39, 40

Amīnah Ḥalīm (principessa) 25

Angā Hānem (principessa) 21

Asyūṭ 26

'Azīzah Ḥasan (principessa) 24

Bāḥithat al-Bādiyah (Bahithat al-Badiyah /Bahissat-Ul-Badiah) (see Nāṣef, Malak Ḥifnī)

El-Bāsil, 'Abd es-Sattār 23

Beyrouth (Beirut) 5, 6, 28

Buchanan (dottoressa) 33n

Būlāq (Bulaq) 23, 39

Byng (Mrs.) 25

Cairo 20, 21, 22, 23, 24, 26, 29, 30, 38, 39, 42

Ceshmet Afet (principessa/Princess) 20, 21, 33n, 38

Clot Bey 19, 37

Club delle Dame *(nādī as-sayyidāt)* 26

Comitato Femminile Centrale del *Wafd* 26

Comitato Femminile Sa'dista 26

Congresso d'Economia Domestica 27

Congresso Internazionale per la Proibizione delle Bevande Alcooliche 27

Congresso Islamico 24, 39

Cromer (Lady) 24, 33n, 39

Aḍ-Ḍiyā' 24

La Donna Nuova (società) 26

Egypte (Egitto/Egypt) 9, 11, 15, 16, 19, 20, 22, 24, 25, 26, 28, 29, 30, 31, 32, 37, 39, 40, 41, 43

Egyptian University (see Università Egiziana)

L'Egyptienne 26, 28

Eliopoli 24, 39

Emīneh (principessa) 21

Europa (Europe) 20, 23, 28, 29, 30, 31, 39, 42, 43

Ezbekieh 20, 38

Fahmī, Fāṭmah 27

Fāṭimah Ismā'īl (principessa) 21

Fawwāz, Zainab 20

Fayyūm (Fayyum) 23, 39

Francia 29

Fu'ād (Fuad) I 21, 24, 40

Ġalīlah 21

Gallad (M.) 11

Al-Ġarīdah (al-Garidah) 23, 24, 25, 39

Germania 29
Ghālī, Buṭros 24
Grande Società Copta di Beneficenza 24

Ḥabīb efendī (Habib Effendi) 19, 37
Haikal, Iḥsān 28
Haikal, Moḥammed Ḥusein 28, 30
Ḥamdī, 'Abd el-Ḥamīd 24
Ḥannā, Flora 27
Heliopolis (see Eliopoli)
Al-Hilāl 24
Ḥusein Kāmil (Kāmel) (sultano) 21, 24

Inghilterra 29
Islamic Congress (see Congresso Islamico)
Ismā'īl Pascià (Ismail Pasha) (Khedive) 20, 21, 38, 40n

Lavoro per l'Egitto (see Travail pour l'Egypte)
Liban (Libano/Lebanon) 6, 8, 20, 40
Lloyd (Lady) 33n
Londra (London) 21, 23, 39

Maclenahan (signora) 33n
Al-Maǧallah al-Miṣriyyah 23
Maghrabī (Maghrabi), Moḥammed (Mohammed) 23, 39
Al-Maghrabiyyah, Zubaidah 19
Maḥmūd, 'Alī 26
Maḥmūd, Moḥammed 26
Malak (sultana) 21
Manchester 27
Moḥammed 'Alī (Mehemet Ali) 19, 21, 37, 40n
Moḥammed 'Alī (opera) 29
Al-Muqaṭṭam 24
Al-Muqtaṭaf 24
Mūsà, Nabawiyyah 23
Muṭrān, Khalīl 23, 24

Nabaraoui (Nabarāwī), Céza 9, 26, 27, 33n
Nāṣef (Nasef/Nassef), Malak Ḥifnī (Hifni/Hefni) 10, 22, 23, 25, 26, 32, 39, 41
Nāzlī (regina) 21
Nāzlī Fāḍil (principessa) 21, 22
Nil (Nilo) 16, 30
Nile Valley (see Valle del Nilo)
Niya Salima 22, 33n, 39

Parigi 26, 28
Pharaons 16

Riḍā, 'Abd er-Raḥmān 28
er-Rimāḥ (er Rimah) 23, 39
Roma 27, 28
Rossi, E. 33n
Rushdī (Rushdi), Ḥusein (Husein) 22, 33n, 39, 40n

Sa'īd Pascià (Khedive) 21
Ṣaidā (Sidone) 20
Sarkis, J.E. 33n
Es-Sayyid (as-Sayyid), Aḥmed Luṭfī (Ahmed Lutfi) 23, 25, 28, 39
School of Nursing and Midwifery 37
Scuola Femminile Americana 33n
Scuola delle Figlie dei Nobile *(madrasat banāt al-ashrāf)* 23
Scuola al-Qirabiyyah (as-Siyūfiyyah) 20

Scuola Saniyyah 20
Shāhīn Pascià 31, 33n
Sha'rāwī, Hudà 26, 27
Shawqī 27
Shubrā (Shubra) 20, 29, 38
As-Siyāsah 28
Società Egiziana 33n
Società Internazionale per la Protezione dell'Infanzia 33n
Società at-Tawfīq 24
Spiro, Socrates 11, 12n
As-Sufūr 24
Svizzera 29

Tabet, Kalil 10
Taimūr (Taimur), 'Ā'ishah (Aishah) 'Iṣmat (Ismat/'Iṣmet) 9-10, 19, 20, 22, 23, 37, 38, 39
Taimūr, Ismā'īl 19
Teymour, Aischa Ismet (see Taimūr, 'Ā'ishah 'Iṣmat
Travail pour l'Egypte *(ǵam'iyyat al-'amal li-Miṣr)* 26, 29
Turchia 21, 32

Al-Ummah (partito/party) 23, 39
Union féminine d'éducation 25
Unione Femminile Egiziana *(al-Ittiḥād an-nisā'ī al-miṣrī)* 26, 29
Unione Femminile Internazionale 26, 27
Università Americana (di Beirut) 28
Università Americana (del Cairo) 33n
Università della Carità 24
Università Egiziana 21, 24, 25, 26, 29, 41

Valle del Nilo 25, 41

Wīṣā, Esther Fahmī 26

Zaghlūl, Fatḥī 25
Zaghlūl (Zaghlul), Sa'd (Sa'd) 22, 25, 38
Zaghlūl, Ṣafiyyah 25, 26
Zainab (principessa) 21
Ziadé (Ziyādah), May (Mayy) 13, 33n, 40n

فهرس المحتويات

شكر وتقدير .... أ

مقدّمة .... ج

منهج التحقيق .... زز

نصوص من صحف ومجلاّت

▪ الأهرام (١٩٢٥ - ١٩٣٥) ٣

١ - ألفونسو الثالث عشر يتكلّم ٥

٢ - ذكرى وتحيّة لأمير عرب «الفضل» ١٠

٣ - أسطورة المؤذّنين والأجراس ١٧

٤ - رسائل إلى الأمير سعيد الجزائري ٢٢

٥ - رسالة من الأمير سعيد الجزائري والجواب عليها ٢٧

٦ - خطبة الآنسة ميّ في حفلة ذكرى باحثة البادية ٣٢

٧ - الكيل الذي طفح واندلق ٣٦

٨ - حفلة أسرة الصحافة المصرية لتأبين المرحوم سليم سركيس ٤٠

٩ - تبرّج الرجل والمرأة ٤٧

١٠ - على ذكر الشيخ الخضري بك ٥٠

١١ - كلمات عن يقظة المرأة ٥٧

١٢ - تأبين الدكتور يعقوب صرّوف ٦٢

١٣ - على هامش السياسة والحرّ والزلازل ٦٤

١٤ - جائزة نوبل لسنة ١٩٢٦ تنتزعها يد امرأة ٦٨

١٥ - على ذكر السوق الخيرية: نداء الطفل المصري ٧٤

١٦ - أحد أبناء الإنسانية: ألساندرو فولتا ٧٧

١٧ - ما هي الوطنية؟ ٨٢

١٨ - في سبيل المرأة: احتفال طلبة الحزب الوطني ٩٢

١٩ - أحاديث... غير سياسية: الشرق والغرب يتفاهمان ٩٦

٢٠ – على هامش السياسة: أندية «الليسيوم» الدولية ١٠٤
٢١ – الاحتفال الكبير بتأبين فقيد العلم والصحافة الدكتور يعقوب صرّوف ١١٠
٢٢ – نشيد إلى رجال المطافئ ١١٦
٢٣ – خطبة الآنسة ميّ في حفلة يد الإحسان لتدشين مدرسة مدام سياج ١١٨
٢٤ – جولة في القاهرة: في جامع أحمد بن طولون ١٢٣
٢٥ – جولة في القاهرة: في جامعي السلطان حسن ومحمّد علي ١٢٨
٢٦ – جولة في القاهرة: في جامع المنصور قلاون وما يحيط به ١٣٤
٢٧ – جولة في القاهرة: عند أبواب القاهرة القديمة ١٤٠
٢٨ – دروس في الشجاعة والإقدام: في انتظار البالون «إيطاليا» ١٤٥
٢٩ – جولة في القاهرة: في تكيّة المولويّة ١٤٩
٣٠ – جولة في القاهرة: في جامعي الرفاعي وإبراهيم آغا ١٥٥
٣١ – جولة في القاهرة: تحت ذيل العارض... .... ١٦١
٣٢ – جولة في القاهرة: في جامع الملك المؤيّد أبي النصر المحمودي ١٦٥
٣٣ – الشميّلون: ثلاثة في ثلاثة شهور ١٧١
٣٤ – عبد الخالق ثروت باشا يبكي ١٧٤
٣٥ – خطاب مفتوح: إلى وزير المعارف العمومية ١٧٨
٣٦ – عند مهد الوجع: عندما يكون الطفل مريضاً... .... ١٨٢
٣٧ – رحلة إلى السويس ١٨٥
٣٨ – حديث عن فتيان الفنّ: الاحتفاء بمرور قرن على وفاة شوبرت ٢٠٣
٣٩ – يوم المؤتمر الطبّي الدولي في القاهرة ٢٠٨
٤٠ – حفلة تاريخية: سيامة الأنبا يؤنس التاسع عشر بطريركاً ٢١٣
٤١ – خواطر منثورة بين العام والعام: «لوتريا أُوجي!» ٢١٨
٤٢ – تجميل الجمل وإدخال الحروف الكبرى في الكتابة ٢٢٢
٤٣ – لمناسبة حركة التطهير الأخلاقي في العاصمة ٢٢٧
٤٤ – كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (١) ٢٣١
٤٥ – لذكرى المستر فرنل: وجه إنساني نبيل يغيب من شوارعنا ٢٣٦

٤٦ - كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٢) ٢٤١
٤٧ - كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٣) ٢٤٦
٤٨ - كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٤) ٢٥٢
٤٩ - حاكم أمريكي يتكلّم عن الزراعة ٢٥٦
٥٠ - صوت رمضان: في سبيل المسجد الأقصى ٢٦٢
٥١ - لمناسبة الاحتفال في كنيسة الآباء الأفريكان ٢٦٧
٥٢ - شبّاننا والحياة الجديدة ٢٧٣
٥٣ - خواطر متناثرة ٢٨٣
٥٤ - طاقة ليوم شمّ النسيم: شرر وحبب ٢٨٨
٥٥ - لمناسبة الأمر الملكي الجديد: الرتب المدنية ونظام منحها ٢٩٢
٥٦ - خطاب مفتوح: إلى الأستاذ محمّد فريد وجدي ٢٩٦
٥٧ - اسم الشرق في مجلس النوّاب الإيطالي ٣٠٠
٥٨ - حول تغيير أسماء الشوارع وهدم الآثار ٣٠٥
٥٩ - جولة في بورت سعيد: فردينان دي لسبس ٣١٠
٦٠ - مباراة سرعة الطيران لكأس شنيدر ٣١٦
٦١ - ذكرى وفاة ثروت باشا ٣٢٠
٦٢ - آثار مصر في روما ٣٢٤
٦٣ - كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٥) ٣٢٧
٦٤ - سيّدات بيروت يشتغلن: المجمع النسائي العربي ببيروت ٣٣١
٦٥ - بمناسبة الاحتفاء بالعيد الخمسيني للمصباح الكهربائي ٣٣٦
٦٦ - ذكرى ١٣ نوفمبر: صوت القبور والنشور ٣٤٠
٦٧ - خواطر في الحكومات والشعوب: شرر وحبب ٣٤٤
٦٨ - كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٦) ٣٤٨
٦٩ - زهرة على ضريح الأمير الشاعر البرنس حيدر فاضل ٣٥٣
٧٠ - كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٧) ٣٥٧
٧١ - كبار يعلّمون وصغار يتعلّمون (٨) ٣٦١

٧٢ - رسالة آخر أيّام السنة ٣٦٧
٧٣ - في مدخل العام السادس والخمسين ٣٧٠
٧٤ - الماضي أم المستقبل؟ ٣٧٣
٧٥ - لمناسبة رحلة الطيّارين صدقي وحسنين ٣٨٥
٧٦ - كلمة في حفلة تكريم صدقي ٣٩٠
٧٧ - حول البوليس النسوي في مصر ٣٩٥
٧٨ - كيف نستأنف ثقافتنا بعد الخروج من المدرسة؟ ٣٩٨
٧٩ - نظرة في رسالة غاندي ٤٠٦
٨٠ - خواطر متناثرة ٤١١
٨١ - على وقع قصف المدفع ٤١٦
٨٢ - المستر رنّي سميث يحاضر في الجمعية الجغرافية ٤١٩
٨٣ - خواطر متناثرة ٤٢٣
٨٤ - موسم التمثيل وواجب الممثّل نحو اللغة العربية ٤٣٢
٨٥ - خواطر متناثرة ٤٣٥
٨٦ - عودة إلى آني بيزانت ٤٤٠
٨٧ - خواطر متناثرة ٤٤٥
٨٨ - أربعون يوماً بعد وفاة إديسن ٤٥٢
٨٩ - أهمّ آراء جوستاف لوبون الاجتماعية ٤٥٨
٩٠ - خواطر متناثرة ٤٦٥
٩١ - إسكندر المكدوني مشيّد الإسكندرية ٤٦٩
٩٢ - خواطر متناثرة ٤٧٤
٩٣ - صبغ يصبغ صبغاً فهو صابغ ٤٨٠
٩٤ - خواطر متناثرة ٤٨٦
٩٥ - حول مؤتمر محاربة المسكرات ٤٩١
٩٦ - مؤلّف كتاب «سبعة قدّيسين بدون شموع»: كارلو دل كروا ٤٩٦
٩٧ - جمعية منع المسكرات العامّة بالقطر المصري تتكلّم بلسان رئيسها ٥٠٢

٩٨ – جواب إلى سائل عن قائمة كتب لعروسه ٥٠٧
٩٩ – غلامان يعودان إلى الوادي ٥١١
١٠٠ – نشيد الطيّار المصري ٥١٥
١٠١ – في معزل عن نزعات السياسة والتحزّب ٥١٩
١٠٢ – «خناقة» مهلهلة للشبّان المصريين: حول مشروع القرش وغيره ٥٢٤
١٠٣ – أ.ب.ج.د = أبجد: مشكلة المشاكل في مصر: التعليم (١) ٥٢٩
١٠٤ – أ.ب.ج.د = أبجد: مشكلة المشاكل: التعليم (٢) ٥٣٤
١٠٥ – أ.ب.ج.د = أبجد: مشكلة المشاكل: التعليم (٣) ٥٣٩
١٠٦ – الآن تبتدئ أزمة المحاكم المختلطة ٥٤٤
١٠٧ – خواطر متناثرة ٥٤٨
١٠٨ – خواطر متناثرة ٥٥٤
١٠٩ – خواطر متناثرة ٥٦٠
١١٠ – الثورة الفرنسية ورسالتها إلى العالم: عيد حقوق الإنسان ٥٦٧
١١١ – رجل إنجليزي يعيش في جوّ مصري: الدكتور أ.م. بلاكمن ٥٧٣
١١٢ – خواطر متناثرة ٥٧٨
١١٣ – رحيل فون هندنبورج ٥٨٥
١١٤ – خواطر متناثرة ٥٩٠
١١٥ – ذكرى جبّار الوادي ٥٩٥
١١٦ – في ليلة عيد الوفاء: النيل يتكلّم متحدّثاً عن نفسه ٦٠٠
١١٧ – قانون تنظيم الصحافة المزعوم لا يمكن أن يصدر! ٦٠٥
١١٨ – خواطر متناثرة ٦١٠
١١٩ – حول قانون الصحافة الذي لن يصدر ٦١٦
١٢٠ – خواطر متناثرة ٦٢١
١٢١ – عنوان لمن يريد ٦٢٥
١٢٢ – خواطر متناثرة ٦٢٩
١٢٣ – أجراس عيد الميلاد ٦٣٣

١٢٤ - «كأسي صغيرة ولكنّي أشرب من كأسي» ٦٣٧
١٢٥ - خواطر متناثرة ٦٤٢
١٢٦ - حول مكافحة المسكرات: صباح الخير - سامحوني! ٦٤٦
١٢٧ - أنفس النفائس في حضارة مصر وفي صعيد مصر ٦٥٠
١٢٨ - خواطر متناثرة ٦٥٤
١٢٩ - خواطر متناثرة ٦٥٩
١٣٠ - خواطر متناثرة ٦٦٣
١٣١ - أجراس عيد الفصح ٦٦٧
١٣٢ - خواطر متناثرة ٦٧٤
١٣٣ - ذكرى فيكتور هوجو ٦٨٢
١٣٤ - خواطر متناثرة ٦٨٨

■ المحروسة (١٩٣٤ - ١٩٣٥) ٦٩٣
١ - ١ - هل الأدب العربي في غنى عن الأدب الغربي؟
٢ - وهل نحن في حاجة إلى كتب موضوعة أم إلى كتب مترجمة؟ ٦٩٥
٢ - من الربيع إلى الصيف ٦٩٨

■ السياسة (١٩٢٣) ٧٠٣
١ - رسالة إلى محمّد صبري ٧٠٥

■ السياسة الأسبوعية (١٩٢٦ - ١٩٢٧) ٧٠٧
١ - امرأة مصرية تتكلّم وكلمتها من أغلى وثائق الثورة ٧٠٩
٢ - جمعياتنا النسائية ٧١٣
٣ - حديث مع مدير بنك ٧١٧
٤ - جوّ المواسم وبهجة الأعياد ٧٢٢
٥ - مصر تنسج جلابيبها ٧٢٦
٦ - الفتاة المصرية وموقفها اليوم ٧٣٠
٧ - جواب إلى النائب سكلاتفالا ٧٣٥

٨ - طلعت حرب بك يتكلّم عن شركة الغزل والنسيج ٧٣٨
٩ - أخ يقتل أخته لسوء سلوكها ٧٤٥
١٠ - خطاب مفتوح إلى مظلوم باشا ٧٤٨
١١ - عود إلى موقف الفتاة المصرية ٧٥٢

■ مجلّة سركيس (١٩٢١ - ١٩٢٤) ٧٥٧
١ - إلى سليم سركيس ٧٥٩
٢ - تهنئة ٧٦١
٣ - لإنصاف الأنانية المظلومة ٧٦٣

■ الهلال (١٩١٧ - ١٩٣٤) ٧٦٧
١ - تحيّة إلى «الهلال» ٧٦٩
٢ - ما هي اليوجا؟ ٧٧١
٣ - فهل من مدّكر؟ ٧٨١
٤ - العمّ أبو حسن يستقبل ٧٨٧
٥ - في عالم الوحدة والمجد ٧٩٣

■ الرسالة (١٩٣٣) ٧٩٩
١ - ...بل مصر مصرية! ٨٠١

■ الخدر (١٩٢٢ - ١٩٢٤) ٨٠٥
١ - الثروة والعمل ٨٠٧
٢ - الفاتحة ٨٠٨

■ الحديث (١٩٣٤) ٨٠٩
١ - كلمات في المرأة ٨١١

■ المكشوف (١٩٣٩) ٨١٣
١ - «القوّة والضعف في روحياتنا» ٨١٥
٢ - «ميّ» تودّع لبنان من محطّة راديو الشرق ٨٢٣

مقالة من مجموعة

- أين وطني؟ ٨٣٥

مقدّمة لكتاب

- مقدّمة: أكتاب بقلم الدكتور صرّوف؟ ٨٤١

قصص للأطفال

١ - قصص هادفة للناشئين (٤) : حادثة في الطريق ٨٤٩
٢ - قصص هادفة للناشئين (١٠) : كان ترتيبه الأخير ٨٥٦

نصوص في لغات أجنبية

■ *L'Egyptienne* (1926 - 1933) 1
1 - Hymne à l'Orient 3
2 - Amia (Souvenirs du Liban) 5
3 - Discours de Mademoiselle May au Xème Banquet de la Presse 9
4 - Hymne de l'Aviateur Egyptien 13

■ *Oriente Moderno* (1929) 17
1 - Il Risveglio della Donna in Egitto negli Ultimi Cento Anni 19

■ *The Woman's Leader and the Common Cause* (1929) 35
1 - The Awakening of Egyptian Womanhood (1) 37
2 - The Awakening of Egyptian Womanhood (2) 41

فهارس

فهرس المصادر والمراجع ٩١١
فهرس الأعلام ٩٢١
فهرس المحتويات ٩٥١

كتابات منسيّة

جمع وتحقيق وتقديم أنْتيا زِيغْلِر

يحتوي هذا الكتاب على أكثر من ١٧٠ عمل للأديبة ميّ زيادة، ما بين مقالة ومحاضرة وقصّة وقصيدة منثورة وخاطرة، قامت الباحثة الألمانية أنتيا زيغلر المتخصّصة بالدراسات الشرقية المعاصرة بجمعها وتحقيقها، وهي من مختلف الدوريات والكتب، وباللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطاليّة.

تجيء هذه الكتابات المنسيّة تكملة للمؤلّفات الكاملة ولغيرها من المجموعات التي صدرت خلال الأعوام الأخيرة، وتلقي ضوءاً جديداً على حياة الأديبة، خصوصاً العقد المأساوي الأخير منها. وكما تقول المحقّقة في مقدّمتها استناداً إلى افتتاحيّات ميّ زيادة في جريدة «الأهرام» بين عامي ١٩٢٥ – ١٩٣٥، فإنّها تظهر بوضوح «قدر الموازنة بين الفرص والأخطار الذي كان مطلوباً منها بحكم كونها امرأة مسيحية مهاجرة في ظلّ الظروف السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك، وحتمية فشلها في تلك اللعبة غير المأمونة في نهاية المطاف».

ISBN 978-9953-26-001-3

9 789953 260013